

هنرى بيريس

الشعر الأندلسى فى عصر الطوائف

ملاححه العامة وموضوعاته الرئيسيه وقيمه الوثيقيه

ترجمة

دكتور الطاهر أحمد مكي

أستاذ الأدب فى كلية دار العلوم
جامعة القاهرة



دار المعارف

الطبعة الأولى
● ذو القعدة ١٤٠٨ هـ
يونية ١٩٨٨ م

١٩٩٠ / ٩٠٩١	رقم الإيداع
ISBN 977-02-3153-3	الترقيم الدولي

٣/٨٨/٢٩

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

○ كلمة المترجم:

بين يدي القارئ كتاب يراه الأوروبيون أفضل دراسة لموضوعات الشعر الأندلسي في عصر الطوائف، وأعتقد أن القارئ العربي عندما ينتهي من قراءته سوف ينتهي إلى قريب من هذا الرأي أيضاً، فهو يؤرخ لإسبانيا الإسلامية، في هذه الفترة من جوانبها المختلفة، مادية ومعنوية، من خلال الشعر، ويراه وثيقة بالغة الأهمية، جديرة بالثقة، حتى عندما يتجاوز الشاعر بإبداعه خط الصدق إلى الجانب الآخر، فيبالغ أو يغالي، لأنه يفعل ذلك مستجيباً لضواغط اجتماعية، شخصية أو عامة، مادية أو فكرية.

والفكرة نفسها ليست جديدة علينا، أو على جيلي في القليل، وأذكر أن أستاذنا الجليل المرحوم إبراهيم مصطفى كان يدرس لنا في قسم اللسانيات الممتازة مادة «نصوص من الأدب القديم»، ويرى أننا استخلصنا تاريخ مصر الفرعونية، على امتداد قرون طويلة، من نقوش على الأحجار ظنية القراءة والدلالة، وأنها نستطيع أن نعتمد على الشعر في التأريخ لحياة العرب قبل الإسلام، ولم يتركوا لنا غيره وثائق ذات أهمية، وفعلنا قرّر علينا دراسة ديوانين كانا حتى ذلك الوقت مجهولين لجمهرة الدارسين، هما ديوانا: عمرو بن قميئة و المتلمس، مكتوبين على الآلة الكاتبة، الأول نقلًا عن طبعة المستشرق الإنجليزي ليال، ونشره في كمبردج عام ١٩١٩، والثاني عن طبعة المستشرق الألماني فولر ونشره في ليبزج عام ١٩٠٣، درسنا موضوعاتها، ودلالاتها، بقدر ما تسمح به إمكانيات طالب، ومن بعد جاء أستاذنا المرحوم أحمد الحوفي، وطبق هذه النظرية، في كتابه: الحياة العربية من الشعر الجاهلي.



بدأت معرفتي بالكتاب وصاحبه حين رأت مصر أن تعين الجزائر في معركتها القاسية من أجل تأكيد هويتها العربية، بعد أن خاضت حرباً ضروساً من أجل استقلالها السياسي، وأمدتها بآلاف من مدرسي التعليم الابتدائي والإعدادي والثانوي، وعدد من أساتذة الجامعة، تدفع لهم مصر مرتباتهم كما لو كانوا يعملون فيها، وتدفع الجزائر شيئاً رمزياً ومكماً. ولم يكن العمل خارج مصر محبباً إلى نفسي، ولكن الحصار العنيف الذي ضربته الدولة يومها على المصريين، بعد الانفصال السوري، ثم هزيمة ١٩٦٧ نفسها، جعلت الذين ضاقوا بالأمر الواقع ولا يستطيعون تغييره، والذين كانوا على صلة مستمرة بسير الحضارة في العالم ويودون ألا تنقطع صلتهم به، يؤثرن الخروج إلى أي بلد يعملون فيه، وكانت الجزائر رغم تفاهة العائد المادي من الرحلة إليها ترضى في نفوس الراغبين فيها مشاعر عارمة بأنهم يؤدون واجباً قومياً، وبالنسبة لي شخصياً، فإن المغرب، في مفهومه العريض، والأندلس يمثلان مجال الدرس المحبب إلى نفسي، ومشاهدة الواقع عياناً، أرضاً وبشراً، خير من الاعتماد على الكتب وحدها، وأشهد أن الرحلة بهذا الفهم كانت بالنسبة لي أكثر من رائعة، ولم ينقطع ترددي على شتى أقطار المغرب وأوروبا، ولشهور طوال، خلال تلك السنوات.

الصدفة وحدها جعلت من مكتب هنرى بيريس مكتبى، وفى بقايا الأوراق الرسمة التى تركها بداخله كان خطه وتوقيعه، وبدأت أسمع من طلابه الجزائريين، كم كان قاسيا معهم فى اللغة العربية، يحاول فى كل خطوة أن يوهبهم أنها ليست لغتهم، وأنهم لن يجيدوها معها طال بهم الزمن، وفى المقابل كان يظهر لهم الفرنسية سهلة ميسرة، كما لو كانوا قد ولدوا لآباء فرنسيين ويعيشون فى مرنسا نفسها.

كان هنرى بيريس أستاذ الأدب العربى فى كلية الآداب فى جامعة الجزائر، وهى جامعة أقامها الفرنسيون لأبنائهم فى بلد يستعمرونه واعتقدوا أنهم لن يغادروه إلى الأبد، فجاءت تيناً رائعا فى نظامها وتقاليدها ومكتبتها، وتضم مكتبة القسم كل ما يحتاج إليه الباحث من ديوان أعظم شاعر عرفه الشعر العربى إلى أصغر ديوان لشاعر مجهول لا يعرفه أحد، ومن روايات أعظم الكتاب إلى من يتحركون فى خطواتهم الأولى مبدعين.

وبدأت أتردد على مكتبة الجامعة نفسها، وكانت شيئاً لا أعرف له شبيهاً فى بلادنا الصربية، بما فيها جامعة القاهرة العريقة، من حيث الثراء فى المصادر والمراجع والدوريات، فى مختلف اللغات، وفى التنظيم والتبويب والفهرسة، واحترام وقت القارئ وراحته، فهى مكيفة كلها، ومفروشة «بالموئيت» يستوى فى ذلك قسم الأساتذة وقسم الطلاب، وحين رجعت إلى نفح الطيب فى طبعته الأوربية وجدت آثار بيريس واضحة فيه، وكل صفحة منه تنطق بجهد ومثابرتة، وتشى بأنه قرأ الكتاب عشرات المرات، واستوعبه تماماً، فالهوامش مليئة بتصويباته وتعليقاته، إذا مرّ بجمللة مضطربة قومها، أو بيت شعر لمجهول نسب له لقائله، أو بقرية أو مدينة كتب اسمها بالإسبانية أيضاً، أو معلومة ناقصة أو متناقضة أحوالنا على المكان الذى يصوبها أو يكملها. وكانت هذه بداية التعرف على تراثه ومؤلفاته، وشدنى من بينها أكثر فأكثر كتاب الشعر الأندلسى، فقد كان الرجل دون أن ينسى أنه كاثوليكي أوربي صاحب منهج علمي سار عليه، وارتضى النتائج التى انتهت إليها المقدمات، ولو أن ذلك لا يعنى بالضرورة أن كل ما جاء فى الكتاب صحيح ونوافقه عليه، لأن المقدمات نفسها قد تكون خاطئة أحياناً، وتؤدي بالتالى إلى نتائج خاطئة أيضاً.

ومع الأسف الشديد فإن هذا العالم الموضوعى أعماه التعصب عن استكناه الغد واستشرافه، فأخذ جانب غلاة الاستعماريين حين قامت الثورة الجزائرية، وبعد انتصارها، وتجاوز دوره فيه يبدو المشاركة الوجدانية إلى الدعم العملى، وحين انتصرت الجزائر واستقلت رحلوا، ولم يستطع أن يبقى بعدهم، وحين رحل لم يستطع أن يواجه المثقفين فى وطنه، واعتزل الحياة فى دير من منطقة جبال البرانس، آوى إليه، وأسدل الستار على أمسه بخيره وشره، وانتهى عالماً وإنساناً!

وعيشاً حاولت أن أعثر له على خبر بين زملائه فى باريس، حتى أنهم لا يعرفون إن كان قد رحل عن الدنيا أو لمّا يزل باقياً على قيد الحياة.



حين قرأت الكتاب أخذت به، وقر رأيى على ترجمته، فهو نموذج يحتذى فى الجهد والصبر والمنهج والمجدية، وكان دون تحقيق أمنيته أهوال، فقد استوعب الرجل الشعر الأندلسى فى عصر الطوائف تماماً، وأحاط بكل مصادره مخطوطة ومطبوعة، فى مكتبات عديدة، وطبعات فى بلاد مختلفة ولأمانة المنهجية

نقتضى أن نرد النصوص إلى أصولها، شعرا كانت أم نثراً، والوصول إليها في القاهرة صعب وعسير إن لم يكن من المحال، لأن الكثير منها طبعات أوربية نفدت منذ زمن بعيد.

لقد اقتضى تيسير الإفادة من الهوامش أمام القارئ العربى أن أحيله إلى ما صدر منها حديثاً، أو كان ممكناً، كما هو الحال في نفع الطيب للمقرى، إذ رأيت من العيب أن أحيله على الطبعة الأوربية كما صنع المؤلف، ولا يوجد منها في القاهرة على امتدادها غير نسخة واحدة، وإلى ما طبع من المخطوطات كما هو الحال في الذخيرة لابن بسام، أو أن الطبعة الحديثة هي الميسرة، أو المحققة، كما حدث في بدائع البدائنه لابن ظافر، أو ديوان ابن زيدون، أو ديوان ابن خفاجة، فإذا تعذر الوصول إلى ما أتى به في هذه الطبعات تركت هوامشه على حالها وأشرت إلى ذلك، وكذلك تركت الهوامش على حالها في المخطوطات التي لم تطبع، والكتب التي لم تحقق وترجمت الهوامش إلى العربية تسهيلاً لأُمور الطباعة، إلا في حالات نادرة، وجئت بقائمة مصادر المؤلف في لغاتها الأصلية، كما هي في كتابه، لمن يرغبون في العودة إليها، ولما كانت في لغات عديدة، وتجيّ مختلطة، حتى العربية منها، وكتبها في حروف لاتينية، أبقيت عليها كلّها، وقراءتها سهلة فيما أتصور لمن يعرف الأبجدية اللاتينية مجرد معرفة.

لقد استغرق منى هذا العمل سنوات طوال، لأن المصادر العربية القديمة، ومعظم الحديثة لا تعرف الفهارس المتنوعة، والأولى منها لا تخضع لمنهج، وإنما تجيّ أخلاطاً من المعارف والآداب متداخلة ومتراكمة، وتضطرب فيها الأسماء اضطراباً شديداً، فالكتاب الواحد يجيى باسم الشاعر أو الأديب علماً مرة، أو كنية أو لقباً أو منسوباً إلى بلده، أو مهنته، أو مذهبه، مرات أخرى، وقد تكتفى بواحد منها فقط، على حين يشترك فيه أكثر من شخص، هذا إلى جانب الأخطاء في النسخ أو الطباعة.

لا يجيى المؤلف بالهوامش لمجرد التوثيق، أو مظهراً، أو شكلاً، ليضفى على كتابه سمة علمية وجامعية، وإنما يتجاوز ذلك بكثير، فيجعلها نافذة يطل منها على قضايا كثيرة تتصل بالموضوع وليست من صميمه، من موازنات ومقارنات، بين عصر وعصر، أو بين الأندلس والمشرق، أو بين الأدب الأندلسي والآداب الأوربية، يلقي بذلك عجلاً، في إيجاز، ويحيلنا على المصادر التي تروى غليل الظامئ إلى المعرفة الواسعة، ومن ثم فهو يدفع في أعماق قارئه بعشرات القضايا التي تصلح للبحث أو الدرس.

لا يختلف منهجي في الترجمة هنا عما سرت عليه في ترجمة كتب خلت، فأنا ألتزم بنص المؤلف ورأيه، مهما كان رأيي فيه، وبجمله وبنيتها إذا اتسعت لها العربية، وساغها الذوق العربى، ويمكن أن تفهم دون صعوبة، فلا حذف ولا تجاوز ولا تغيير، ولم أعلّق عليه إلا في حالات قليلة جداً، ولكنى صوبت الأخطاء التي وقع فيها وهي قليلة.

وفى إيراد الشعر التزمت بمنهجه، ولكن الضرورة كانت تتطلب أحياناً أن أزيد في البدء بيتاً تتجاوزه المؤلف، لأن فهم ما أورده يتوقف عليه، وكنت أشعر أحياناً أن المؤلف يسقط بيتاً أو بيتين وسط ما يأتي به، لصعوبة ترجمتها إلى الفرنسية، أو لأن الذوق الأوربى لا يسيغها، فأوردتها. وكذلك في الفصل الخاص بالزهور، فقد خرج المؤلف على مألوف عادته، وارتضى أن ينثر الشعر، وأن يقنع منها بما يصلح شاهداً، مكتفياً بالمضمون، دون أن يترجم الشعر كله، وأحسست أن وراء ذلك صعوبة تقل هذه الأبيات إلى الفرنسية، فجئت بأبيات الشعر نصاً، لتكون أمام القارئ العربى، يفهمها ويتذوقها أيضاً.

إجمالاً يستخدم الباحث دائماً لفظ إسبانيا، أو إسبانيا الإسلامية، ويتحدث عن الإسبان أو الإسبان المسلمين، ويعنى بها الأندلس في لغتنا العربية، ويصدر في ذلك عن فكرة آمن بها عبر الكتاب كله، وحاول أن يبرهن عليها، وفي إطارها درس شعر هذا العصر، وهو أن الذين أبدعوا هذه الحضارة كانوا إسباناً يتكلمون العربية ويدينون بالإسلام.

لا بأس ! أنا لا أختلف معه في هذا، وليته درس مأساة المسلمين الذين طردوا من إسبانيا بالملايين بعد سقوط غرناطة، فقد أخرجوا من ديارهم وأموالهم بوصفهم غزاة عرباً طارئين وليسوا من أهل الجزيرة !

وحين يأتي بكلمة الأندلس Andalusia، إلا في حالات نادرة جداً، فإنما يعنى بها جنوب إسبانيا فحسب، وفيها تأصلت الحضارة العربية بعمق، وتضم الآن محافظات: إشبيلية وقرطبة وغرناطة ومالقة والمرية وجيان وولبة وقادس، وكلها تتلاقى في عادات وأمزجة وخصائص مشتركة، وتتمتع الآن بالاستقلال الذاتي في نطاق الدولة الإسبانية.

وبعد.

فالكتاب بين يدي القارئ، ولن أتحدث عنه بأفضل مما يتحدث عن نفسه، جهداً في الترجمة والنقل، ومعاونة في تحديث المصادر والمراجع، وأمل أن تجد طبعته العربية ما وجده الأصل الفرنسي من الإقبال والرضى والرواج.

الطاهر أحمد مكي

٢٤ من ربيع الأول ١٤٠٧ هـ

٢٦ من نوفمبر ١٩٨٧ م

٣ شارع مصدق - الدقى

القاهرة الكبرى

ت: ٣٦١٣٣٠٦

٣٤٧٩٣٩٢

إلى ذكرى:

رينيه ياسيه

ومحمد بن شنب

فاتحة الطبعة الثانية

ظهرت هذه الدراسة عن الشعر الأندلسي في القرن الحادي عشر الميلادي عام ١٩٣٧ م، ونفدت طبعتها منذ عام ١٩٤٧ م.

وإزاء إصرار الناشر، وموافقة مدير معهد الدراسات الشرقية في الجزائر، اعتقدنا أن من الواجب إعداد طبعة جديدة تحتفظ في جملتها بالخطوط العامة لطبعة ١٩٣٧.

وبدا لنا من الضروري في الحقيقة أن نعيد تحرير النص، رغم أن الدراسات التي نشرت خلال خمسة عشر عاما مضت لم تحمل أى شيء جديد يتصل بالعصر الذي نعرض له، والجانب الأكبر منها يتمثل في نشر مخطوطات استخدمناها. ومع ذلك، كان من الضروري أن نصح نصوصا كانت موضع شك منا، أو أن نكمل بعض الفجوات.

فما نقدمه الآن ليس إلا طبعة «منقحة ومصححة»، استكملت مصادرها لتلائم ما جد في عالم النشر، وعُدلت إحالاتها أو أكملت، وزيدت فهارسها بشكل ملحوظ، وستظل - كما نؤمل - موضع اهتمام المستشرقين ومؤرخي الأدب العربي، وأيضا علماء الدراسات الرومانية، أولئك الذين يبحثون عن دراسة منهجية وموجزة، وشاملة ما أمكن في الوقت نفسه، للموضوعات التي عرض لها شعراء العرب الأندلسيون في القرن الذي سبق مولد شعراء التروبادور.

لإعطاء بعض التفاصيل مزيدا من الدقة، وبعض التأكيدات شيئا من الاحتمال، ندين بالكثير لرفاقنا وأصدقائنا الذين أبدوا لنا ملاحظاتهم، أو نشروها في المجلات الفرنسية والأجنبية. وهذه المناسبة نشكر من بينهم بخاصة: جورج مرسيه، ومرسيل بتيلون، وليشى بروفنسال، وريجي بلاشير، وإ.س. علوش، وإميليو غرسيه غومث، وإجناس كراتشكوفسكي، وإ. ر. نيكل، وبشر فارس.

الجزائر، يناير ١٩٥٣ م



مقدمة

لا تشغل الحركة الأدبية في إسبانيا الإسلامية على امتداد القرن الحادى عشر الميلادى، حتى يومنا هذا، إلا مكانا ضئيلا فى لوحة الأدب العربى، من بداية الفتح الإسلامى حتى سقوط غرناطة، إذا استثنينا بعض الدراسات المفردة، مفصلة أو ذات لمحات عامة. وعصر ملوك الطوائف، ويشغل كل القرن الحادى عشر الميلادى، ويقع بين انهيار الخلافة الأموية، وبعث المرابطين، لا يبدو من وجهة النظر الأدبية غالبا إلا حادثا لا يكاد يستحق أن يذكر. ومع ذلك لم يزدهر الشعر فى أى عصر آخر، ولم يتدفق بمثل هذا الفيض، كما حدث فى هذا العصر، ورغم أنه يلتقى فى ملامح كثيرة مع الشعر المشرقى، ومع شعر إسبانيا نفسها فى المراحل التى سبقت، إلا أنه تميّز أيضا بطابع أصيلة، أكثر من تلك التى تعود إلى الظروف التاريخية الخاصة التى سجلها القرن الحادى عشر. ذلك أن اختفاء الأسرة الأموية المالكة أدى إلى انهيار المركزية، وتضاعف عدد الإمارات الصغيرة، وفى كل إمارة بلاط، وأفسح كل واحد منها مكانا رحباً للفنون الجميلة، طلباً للشهرة، وأصبحت الحياة الإقليمية نافقة بالنشاط، ونزع الإبداع المحلى إلى أن يأخذ مكانا مرموقا.

وثمة عامل آخر أسهم فى تطوير أدب الإبداع تطورا كاملا، وهو التحرر من الضغط الدينى الذى أناخ على العقول فى القرن العاشر الميلادى، وبخاصة فى عصر المنصور بن أبى عامر.

وقد أدى إنصهار العناصر الأصلية المختلفة فى وهج الأحداث السياسية إلى تكوين جنس أندلسى تدريجيا، يحاول أن يحقق ذاته بإعطاء كل شىء يتناوله طابعاً قومياً واضحاً، وعكس الشعر، وهو أداته التعبيرية الأصدق تصويراً، هذه الأمانى، ولم يحدث فى أى عصر آخر أن قدّم الشعر هذا الجانب العنصرى واضحاً، ومتميزاً عن الأدب العربى فى المشرق أو فى المغرب على السوء، كما حدث فى هذا العصر.

لقد بدا لنا أن هذه «اللحظة» تستحق درسا متعمقا، ونعترف أن كل تحديد لموضوع العصر الذى نطلق عليه القرن الحادى عشر الميلادى يُعتبر نسبيا، لأن نهاية القرن العاشر إرهابا بالعصر الأدبى لملوك الطوائف، ولم تكن بداية القرن الثانى عشر إلا امتداداً له، رغم أن النظام السياسى تغير تماماً، ومن ثم لا يجب أن يندش من يلتقى فى بحثنا بشعراء من أمثال ابن شهيد، والرمادى، وابن خفاجة، وابن سارة، الذين عرفوا عصر ملوك الطوائف قليلا، ولكنهم بروح أعمالهم نفسها يعيشون دون أدنى ريب فى أعماق القرن الحادى عشر الميلادى.

وربما سألنا أحد: لماذا وقفنا عند الشعر العربى الكلاسى وحده، أى الذى جاء فى اللغة العربية الأدبية، وفى قوالب العروض التقليدية؟ إنها مجرد ملاحظة، وود أن نوضح أننا لم نعرض عن ذكر الموشحات عندما تحبب المناسبة، وجاءت فى لغتها وعروضها تقليدية، رغم أن الشكل، وجاء فى أدوار، كان تجديدا. ذلك أن القوائد التى من هذا النوع، أعنى الموشحات، وجدت لها مكانا فى كتب المختارات

الأندلسية والمشرقية، وعلى النقبض منها، فإن الزجل، وتحرّر من إعراب أواخر الكلمات ابتعد منهجيا عن تلك الألوان من الإبداع، ومن الصعب أن تجد أجزالا تنتمي إلى العصر الذي ندرسه، والقصائد الوحيدة التي نجدها مُدوَّنة منه هي أجزال ابن قزمان، وعاش في القرن الثاني عشر الميلادي خاصة. وحرصنا على ألا ندخل المنظومات التعليمية في الشعر الكلاسي، إذ ليس لها من الشعر إلّا ما للأبيات التقنية التي نظمها جان لي نينيفيت Jean Le Ninivite، أو ما لبور رويال Port-Royal من أصول إغريقية.

واستبعدنا كذلك دراسة الشكل عمدا.

ونادرا ما ناقشنا القيمة التاريخية الذاتية لنصوص الشعر التي أوردناها، لأننا نرى في الحقيقة أن هذه النصوص مادامت تعود إلى نفس العصر الذي ندرسه، فهي شواهد يجب أن نقبلها كما هي، لأنها تعبير مباشر عن الأفكار والمشاعر، إلى جانب أنها تتفق مع النصوص التاريخية الجديرة بالثقة، كتلك التي نجدها عند ابن حيان، والحميدي، وابن حزم، وابن بسّام.

بقي أن نضيف كلمات عن الطريقة التي فهمنا بها الشواهد الشعرية. أكان يجب علينا أن نترجم القصائد والمقطوعات المستقلة كاملة أم نختار منها ما تقتضيه المناسبة، فلا نذكر غير بيت واحد، أو حتى كلمة مفردة؟ لقد بدا لنا أن الاستشهاد المبتور خيانة في أغلب الأحوال، ومن ثم حرصنا بعامة على أن نجيء بالبيت المستشهد به في جملة الأبيات التي وردت معه كاملة، مع المجازفة بأن تبدو الأبيات أحيانا بالغة الطول.

وفيما يتصل بتقنية الترجمة نفسها لا أرى من الضروري أن نؤكد على صعوبة نقل لغة أجنبية شاعرية، وغنائية في جوهرها، إلى لغة أخرى، ومع ذلك حافظنا على الأصل، وعلى التركيب النحوي للغة العربية، حتى ولو كان ثمن ذلك جفاء التعبير في لغتنا، وأيقنا على التشبيهات حرفيا، دون أن نستبدل بعض المصطلحات التي يرفضها ذوقنا بأخرى قد لا تعبر عن وجهة نظر الشعر، وبدا لنا ضروريا أن نحفظ برونق اللغة الأصلية وألوانها.

ورغم حرصنا الشديد على الدقة، فهناك مقطوعات كانت صعبة الفهم إلى حد ما، ذلك أن الشعر العربي في الغرب، عندما ينسخ الصور المشرقية، يقدّم لنا دائما هذا الجانب الغامض الذي لا يمكن التغلب عليه إلا من خلال ممارسة لغته طويلا، ولكنه حين يحاول أن يعبر عن المشاعر والأفكار الخاصة بالإسبان المسلمين فإنه يصبح قريبا منّا تماما، ونقترب منه بلا صعوبة، ونشعر حقا بشيء في نفوسنا من روح هؤلاء الأندلسيين الذين ليسوا بعيدين عنّا أيضا كما يبدو للوهلة الأولى. وإذا أسهمت دراستنا في أن تكون نقطة انطلاق لنمير بين ما هو غربي أساسا وأصلا، وبين ما هو تقليدي لأنه مستورد، فسوف نشعر، ونجروء على أن نأمل، بأن لها ما يبررها بما فيه الكفاية.

ولا نودّ أن نختم هذه المقدمة دون أن نعبر عن عميق شكرنا للسادة: ف. مرسية، و. ماسينيون، وجو فروى - ديموبين، وج. مرسية، وإ. ليثي بروفنسال، ور. بلاشير، وج. س. كوليت وهـ. مسيه، الذين ساعدونا بنصائحهم وأعمالهم.

مدخل

عرفت إسبانيا الإسلامية منذ الفتح حتى نهاية القرن العاشر الميلادي نظاما سياسياً نزع إلى إخضاع كل عناصر السكان، سواء كانت من أصل مسيحي أم عربي أم بربري، وإلى تركيز كل السلطات في يد رجل واحد هو الخليفة، وعاصمته قرطبة، وكان المنصور بن أبي عامر آخر عملاق تركّز في يده السلطات الدينية والدنيوية، وعندما توفي هذا الحاكم العظيم انهار فجأة العمل الذي تحقّق طوال القرون الماضية.

وقد اتسمت بداية القرن الرابع الهجري، التي تتفق مع مطلع القرن الحادي عشر الميلادي، بأحداث كبيرة أدت إلى تغييرات عميقة في الوضع السياسي لشبه الجزيرة الإيبيرية. وكان الحدث الذي فجر سلسلة الاضطرابات، والذي أطلق عليه المؤرخون العرب اسم «فتنة» غير متوقع إلى حد بعيد. ذلك أن عبد الرحمن شنجول، ابن المنصور بن أبي عامر، عين نفسه وليّ عهد الخليفة الأموي هشام المؤيد^(١)، وكان المنصور بن أبي عامر قد وضعه تحت وصايته، وأصبح الحاكم الفعلي طوال فترة الحجابة، وهنا العمل اطمأن عبد الرحمن شنجول إلى نوايا الأشخاص الذين يحيطون بالخليفة، فتحرك في حملة ضد المسيحيين عام ٣٩٩ هـ = ١٠٠٩ م. ومثل هذه الحملات كانت تحدث كثيراً أيام المنصور وخليفته وابنه المظفر عبد الملك، وأحياناً كانت تخرج الحملة مرتين في العام الواحد. وكان هؤلاء الوزراء العظام يعودون دائماً فيجدون العاصمة خاضعة لإرادتهم، وتحتفل بهم مبهجة، بوصفهم أبطال الإسلام. ولكن مع الابن الثاني للمنصور، وخليفته أيضاً، تغير الوضع نهائياً، إذ ما كاد شنجول يتوجه بحملة إلى شمال غرب إسبانيا، ضد سكان غاليسيا، حتى أطاحت مؤامرة بالخليفة هشام المؤيد في قرطبة، وبايعت بالخلافة مكانه محمد بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر، من الأسرة الأموية، والذي اختار لنفسه لقب المهدي.

والحدث في حد ذاته تافه، فما أكثر ما شهدت قرطبة من مؤامرات في القصر، وظن الناس في البدء أن عودة شنجول كافية لتعيد الأشياء إلى نصابها، ولكن جنود المهدي اغتالوا الحاجب الجديد قريباً من قرطبة، وسجلت هذه الجريمة بداية عهد جديد حافل بالاضطرابات.

وتكونت أحزاب مختلفة، وفي البدء بدا أن المطامع السياسية هي التي أثارت الفتنة، حتى أن المؤرخين العرب ردّوها في بساطة شديدة إلى التنافس بين العرب المضربة والعرب اليمينية، فقد خضع الأولون لإرادة المنصور القوية، وكان يميناً، وحين تغيب شنجول عن العاصمة قرطبة تنفّسوا الصعداء بعض الشيء، واستغلوا الفرصة كي يعودوا إلى السلطة، ونادوا بخليفة جديد يكون مختلصاً لهم. وبدأت الأحداث للمؤرخين العرب، في الظاهر، ومن بعيد، على هذا النحو، ولكن الواقع أن كلمات مثل

(١) حرر وثيقة البيعة الوزير الكاتب ابن برد الأصغر. انظر: دوزي، تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٢ ص ٢٨٣.

«مضى» و «مضى» كانت قد فقدت كل قيمتها العنصرية والسياسية منذ زمن بعيد، وجرى فجأة على أقلام مؤرخي هذا العصر تعبير «أهل الأندلس»، ليشير إلى أنصار هذا التحول السياسي في المجال الإسباني، وهو تعبير مائع بما فيه الكفاية، ولكنه اكتسب كل الدقة بعد قليل من الزمن عندما ظهر على المسرح عنصر محدد تماما، ليلعب دورا بالغ الأهمية، نريد أن نقول: عندما ظهر العنصر البربري.

نحن نعرف الدور الذي لعبه البربر، وجرى بهم من أفريقيا إلى إسبانيا في اللحظة التي ألقى فيها نظام «الجندي»، ولعبوا في سياسة المنصور دورا واضحا كقوة مسلحة مخصصة لسيدها، ومن الطبيعي طبقا للتقاليد أن يظلوا على ولائهم لحلف هذا الوزير، ولم يكن لعظمته مثيل. ولكنهم لم يكونوا راضين عن شنجول فتحالفوا مع المهدي، وبفضل تأييدهم أمكن لهذا الشخص المناهض للخليفة أن ينتصر على غريمه. ولكن الأحداث أظهرت أن اصطناع سياسة أموية لم يعد يتمشى مع الواقع، وأن لعبة الموازنة لإضعاف حزب على حساب آخر لم يعد ممكنا أن تكون من صنع إرادة رجل واحد. وقد لحظ البربر في وقت مبكر أن المهدي يكرههم، شأنه في ذلك شأن بقية سكان قرطبة، وترك التنافر بين العناصر المختلفة تأثيرا عميقا في الحياة السياسية، وقد طلب البربر من الأموي هشام بن سليمان بن الناصر أن يبايع نفسه خليفة، ولكن شعب قرطبة ثار عليه، وقبض على هشام هذا المتواطئ مع لبربر، وحملوه إلى المهدي، الذي خاف منه، دون أدنى شك، فأمر بقتله.

وهذا الاغتيال، وهو الثاني على امتداد بضع سنوات، يميز عصر الاضطرابات أكثر مما يميزه اغتيال شنجول الذي أدى إلى سقوط الخلافة الأموية نهائيا، وقيام إمارات تقاسمت شبه الجزيرة فيما بينها.

وأحسن المؤرخون العرب كلهم بمسئولية المهدي عن النتائج التي أدت إليها هذا العمل الطائش، ويقول ابن حيان عنه إنه «مفرق الجماعة بقرطبة، ومبتعث تلك الفتنة المبيرة»^(٢). وبالطريقة نفسها يعبر ابن الأبار: إنه «باعث الفتنة بالأندلس، وموقد نارها الخامدة، وشاهر سيفها المغمد»^(٣)، «وأول من أرت نارها، وأورث شنارها»^(٤).

ليس من غایتنا في هذا الفصل التمهيدى عرض الأحداث المميزة في تاريخ إسبانيا الإسلامية خلال القرن الحادى عشر الميلادى، فقد اضطلع بذلك آخرون في كفاءة وذكاء يغنيننا عن العودة إليه^(٥). ومن ثم لن نتوقف عند هذه الأحداث لحظة واحدة، لأن تنابعها متصلة في بحث يجعل منها شيئا مملا للغاية، ويكفى أن نكشف عن الخيط الرئيسى، وأن نظهر الفكرة الأساسية التي تضافى عليها وحدة. وهذا نستطيع أن نفهم على نحو أفضل إحدى الخصائص الجوهرية للشعر في إسبانيا القرن الحادى عشر

(٢) ابن بسام، الذخيرة ٢٧/٢، ودورى، بنو عباد ٢٤٤/١.

(٣) الحلة السراء ٥/٢.

(٤) المصدر السابق ٣٠/٢.

(٥) يكفى أن نشير على القارئ بكتاب دوزى الشهير: تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٢ ص ٢٧٦ - ٣٤٦، وج ٣ ص ١ - ١٨٢. وليفي برونفسال، تنف ففى أخبار ملوك الطوائف، والنص في البيان المغرب ٢٨٩/٣، وترجمته في تاريخ مسلمي إسبانيا ط ٢ ج ٣ ص ٢١٥ - ٢٣٦. وبريتو بيبس، ملوك الطوائف. وانظر أيضا الصفحات المهمة التي كتبها ج. مرسيه في موجز الفن الإسلامى، ج ١ ص ٢٩٣ - ٣٠٥، عام ١٩٢٦. وش. دبيل وج. مرسيه، العالم الشرقي من عام ٣٩٥ إلى ١٠٨١ م، ص ٥٦٦ - ٥٦٧. وش. وه تراس، الفن الإسباني العربى منذ البدء حتى القرن الثالث عشر ص ١٨٧ - ١٩٤ و ٢٠٩ - ٢١٠. وش. بيتي - ديتلى، ازدهار دول الغرب، ص ٢٩٤ - ٣١٤.

الميلادى، والتي يمكن أن تعود إلى الأصول السلالية للشعب الذى فهمه وعبر عنه.

بعد أن أمر المهدي باغتيال هشام مرشح البربر للخلافة، تكوّن حزبان كبيران يتبادلان العداوة علناً: الحزب البربرى والحزب الأندلسى، واختار كل حزب منها شخصاً بايعه بالخلافة، على حين أن هشاماً المؤيد، الخليفة الحقيقى، كان يعيش حياة باهتة ومذعورة بين قاعات قصره فى قرطبة. فى البدء ساند الحزب البربرى خليفة أمويا ضعيف الشخصية: سليمان بن الحكم، الذى تلقّب المستعين، وهو ابن أخ هشام بن سليمان الذى قتله المهدي. ولكن هذا المستعين قُتل فى عام ٤٠٧ هـ = ١٠١٦ م، ومن الآن فصاعداً أثر البربر أن يختاروا الخليفة من بنى حمود، أى من أسرة تنتسب فى الرسول، ولو أنها تبررت إلى حد بعيد.

وفى مواجهة هذا الحزب الأفريقى الأصل، قام حزب آخر غير متجانس ظاهراً، ويؤلف بين أفراداه كراهية البربر وبغضهم، ويجمع بين آخر أعضاء الأسرة الأموية، وبقايا العامريين، ومماليكهم من الحصيان والعبيد والصقالبة، وجمهرة العامة، وبخاصة فى المدن الكبرى مثل: قرطبة، وإشبيلية، والمرية، وسيرشون بالإتفاق مع هشام المؤيد على التوالى: المهدي، ثم المرتضى، ثم المستظهر، ثم المستكفى والمعتد أخيراً، وتوفى هذا عام ٤٢٨ هـ = ١٠٣٧ م، فى مدينة لاردة، مسجلاً نهاية حكم الأسرة الأموية فى إسبانيا. وهذا الحزب هو الذى سنطلق عليه اسم: الحزب الإشباني، ولم أن المؤرخين العرب اكتفوا بأن يطلقوا عليه كلمة «الأندلسى» فحسب، رغم أن كلمة الأندلس التى أخذ منها الاسم تعنى إسبانيا الإسلامية، أكثر مما تعنى الأندلس.

بعد أن اختير شنجول ولياً للعهد، إثر وفاة أخيه المظفر عبد الملك، حاول أن يدنى إليه الفريقين، ونادم وجوه الجنسين، ويحدّد المؤرخ الذى قدم لنا الخبر هذين الجنسين بأنهما: «البرابر والأندلس»^(٦). وفى بداية الفتنة فإن زاوى بن زيرى بن مناد، رئيس البربر، لم يضع قواته إلا فى خدمة أهل الأندلس، أى شعب إسبانيا، أو الشعب الأندلسى^(٧). وعندما هزم زاوى جيش أنصار الخليفة المرتضى، وقُتل الخليفة نفسه، بلغ نبأ موته، وهزيمة الأندلسيين، فيما يقول المؤرخون العرب، أسمع القاسم بن حمود^(٨).

إذن كلمة الأندلس، أو الأندلسيين، تعنى بعامّة، كما ترى، كل الأحزاب التى تجمعت فى مواجهة البربر، وكل الجماعات التى التقت لتدافع عن أرض إسبانيا ضد الأجانب، مهما كان الجنس الذى تنتمى إليه.

ومع ذلك، عندما يريد المؤرخون مزيداً من الدقة يميزون بين العامريين والأندلسيين، فيقول صاحب «البيان المغرب»: «ووصل [إلى قرطبة] أبو العباس ابن ذكوان القاضى، ووجوه الصقالبة العامريين،

(٦) البيان المغرب ٤٧/٣، وأعمال الأعلام ٩٤.

(٧) الذخيرة ٤٥٣/١، وبنو عباد ١٢٨/٣.

(٨) أعمال الأعلام ١٣١، وكما نعرف فإن هزيمة المرتضى تعود فى الجانب الأكبر منها إلى خذلان العامريين له بقيادة خيران

ووجوه الأندلسيين، وبقي شنجول في نفر يسير من حرمه وحشمه، وابن غومس معه في نفر من النصارى»^(٩).

وبمجموع شعب إسبانيا الذي تكتل للدفاع عن وحدته القومية ضد البربر أطلق عليه اسم «الجماعة»، وكان يطلق على هشام بن الحكم خليفة إسبانيا الإسلامية وبطلها لقب «صاحب الجماعة»، في مواجهة سليمان بن الحكم، وحمل لقب «بطل البربر»^(١٠).

وظهر هذا التناقض بين الإسبان والبربر بالدقة، وعلى نحو شرس، خلال معارك «الفتنة»، ولا يعرف التاريخ أبدا كراهية اتسمت بهذا اللون من الوحشية مثل الذي كان بينهما: حرب شعواء لا تحترم النساء ولا الأطفال ولا الشيوخ، واتجه الغضب الجامح إلى المباني والمزارع، وإلى بداية هذا القرن الحادى عشر الميلادى يعود تاريخ التخریب في إسبانيا، وفي الأندلس على نحو خاص، وسنعود إلى هذه القضية بمناسبة وصف الشعراء للمدن الخربة، وكان الرعب الذى يبيته الناس لبعضهم البعض متساويا، وقد دُفِنَ عالم قرطبي عام ٤١٥ هـ = ١٠٢٤ م، في ميدان من قرطبة يدعى رحبة عزيزة، خشية ملاقة البربر إذا حملوا جثمانه إلى المقبرة^(١١). ودُفِنَ صنهاجى خلصة في فر عُمليت آخر، دون أن يغسل أو يكفن، أو يصلى عليه^(١٢). وعندما استقبل القاسم بن حمود وفد من البربر بالترحيب ثار عليه أهل قرطبة، وقتلوا هؤلاء الضيوف، وكان يجب طبقا لقوانين الضيافة أن تقدم لهم الحماية كاملة^(١٣).

نستطيع تقديم الكثير من الأمثلة على هذا.

أخذ أفراد القوات المسيحية، وهم من القطلان عادة، يحفظهم من هذه الكراهية، وكانوا يستجيبون لنداء هذا الحزب أو ذاك، ولكن نلاحظ أنهم كانوا ضد البربر بخاصة، ويطلقون لأنفسهم لعنان عندما يطلب الحزب الإسباني التحالف معهم. وبعد معركة وادى آره هزم المستعین الإسبان، رغم مساعدة المسيحيين لهم، وتراجعوا إلى قرطبة، وقد بلغ منهم الحقد والرعب مبلغه، حتى أن المسيحيين القطلان أخذوا يثأرون لهزيمتهم من عامة الناس، فقتلوا كل متشبه بالبربر، وكل عدوى، ومن لم ير العدو ولا سمع بها، إسرافا وتحاملا وجراة على الله سبحانه، وطغيانا^(١٤).

لا شيء يمكن أن يعبر بدقة عن هذا الحقد المتبادل مثل كلمة «عصبية» التى يستخدمها علماء الأنساب والمؤرخون العرب ليعبروا بها عن روح التضامن، والترابط القبلى الذى ترفع وإيته القبائل ذات الأصول المضرية أو اليمنية، ولقد عرف مطلع القرن الحادى عشر الميلادى عصبية بربرية، كما يمكن أن نلاحظ أن ثمة عصبية أندلسية أيضا.

(٩) البيان المغرب ٧١/٣.

(١٠) أعمال الأعلام ١٢٧، وانظر أيضا مدونة ملوك الطوائف لمؤلف مجهول، في البيان المغرب ٣١١/٣، وترجمة ليفى بروفنسال لها في تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ ج ٣ الملحق ٢ ص ٢٣١.

(١١) ابن بشكوال، الصلة ٢٥٧، وليفى بروفنسال، إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر ص ٢٠٩ حمش ١.

(١٢) الإحاطة ٢٨٨/١، طبعة القاهرة ١٣١٩ هـ، نقلا عن ابن حيان.

(١٣) أعمال الأعلام ١٣٥.

(١٤) تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ ج ٢ ص ٢٩٩، وأبحاث، ط ١ ص ٢٤٦، والبيان المغرب ٩٧/٣ و ١٠٣.

وقد استخدم المؤرخون العرب مصطلحا مميزا، وهو «النفرة الطبيعية»^(١٥) للتعبير عن الكره الذي كان يفصل بين الحزبين، ويعطينا ابن حيان، بمناسبة أحداث باجة في مقاطعة الغرب جنوبي البرتغال، مزيدا من الإيضاح عن معنى «العصبية الأندلسية»، فيقول: «العصبية بين العرب منهم والمولدين»^(١٦)، أى بين العرب وبين الذين انحدروا من أصول مسيحية كانت قد اعتنقت الإسلام^(١٧).

وعندما اختفى الأمويون من على المسرح عام ٤٢٨ هـ = ١٠٣٧ م بموت المعتد في لاردة، ركزت الكتلة الإسبانية كل جهودها على الأندلس، لكي تحتفظ بمدينتي قرطبة وإشبيلية، وواصلت الكفاح ضد الكتلة البربرية، ولكن مراكز المقاومة تضاعفت على امتداد كل إسبانيا الإسلامية، وبانتهاء عصر الفتنة تلاه ما اصطلاح المؤرخون العرب على تسميته عصر الطوائف، أى الأحزاب التى تقسمت إسبانيا فيها بينها، وحكمها الرؤساء، أو قدامى عمال المقاطعات، أو قواد الجيش.

ويقدم لنا صاحب «البيان المغرب»^(١٨) تحت أحداث عام ٤٣٥ هـ = ١٠٤٣ م، قيام الحزبين الكبيرين على هذا النحو:

١ - الحزب الإسباني أو الأندلسي، ومثله: محمد بن جهور في قرطبة، وابن عباد صاحب إشبيلية، وسليمان بن هود الجذامي في سرقسطة، ومقاتل الصقلبي صاحب طرطوشة، وعبد العزيز بن أبي عامر صاحب بلنسية، ومعين بن صمادح صاحب المرية، وسعيد بن رُقيل صاحب شقورة، وأبو نور ابن أبي قُوة صاحب رندة وتأكُرْنَا، وإسحاق بن محمد البرزالي صاحب قرمونة، وابن نوح صاحب مورون، وابن خزرر صاحب أركوش.

٢ - الحزب البربري ويتألف من: إدريس بن يحيى صاحب مالقة، وباديس بن جبوس الصنهاجي صاحب غرناطة.

وثمة أمراء آخرون التزموا جانب الحذر والفتنة، وهم: ابن الأفتس صاحب بطليوس، ومجاهد العامري صاحب دانية، ويحيى بن ذى النون صاحب طليطلة.

كان كلا الحزبين يناضل من أجل خليفة، ولكن الذى أرادته الأندلسيون لم يكن غير نسيج من حلفاء، ليس إلا صورة دقيقة من هشام المؤيد، ووضعه بنو عباد في المقدمة ليخفوا به حقيقة نواياهم. واختار البربر الإمام إدريس بن يحيى خليفة ولم تكن سلطته الروحية والزمنية تتجاوز كورق مالقة وغرناطة.

ليس ثمة شك في أن اللوحة لا تقدم لنا قائمة كاملة بملوك الطوائف، أو صغار الأمراء الذين تقاسموا إسبانيا فيما بينهم بعد سقوط الخلافة الأموية، ولكن أهميتها بالنسبة لنا تتمثل في تحديد سياسة أملت الظروف منذ بداية القرن الحادى عشر الميلادى. أريد أن أقول تستند إلى سياسة إسبانية، أو أندلسية إذا شئت، وسيكون أبطال هذه السياسة هم: بنو عباد أصحاب إشبيلية، واستطاعوا أن يدفخوا

(١٥) أعمال الأعلام ٢٢٧.

(١٦) الدخيرة ١٩/٢.

(١٧) عن المولدين انظر فيما بعد ص ٢٣١ وما بعدها من هذا الكتاب.

(١٨) البيان المغرب ٢١٩/٣، ٢٢٠.

يحدود دولتهم بعيدا، بالحروب يديرونها بمهارة، وبالحيانة عندما تبدو لهم الحرب قاصرة، أو لوصول عن طريقها يطول كثيرا، أو باستخدام لعبة التحالف مع أمراء آخرين، ويدعمونها بالهدايا والزيجات. وكانت دولتهم في البدء ضيقة، ثم اتسعت على حساب أمراء زناتة في الجنوب، والجنوب الغربي لشبه الجزيرة، وعلى حساب بني برزال أصحاب قرمونة، وبني إفرن أصحاب رندة، وبني دمر أصحاب مورون، وبني خَزْرُون أصحاب أركوش، وبني يحيى، وبني بكر، وبني مُزِين، وبني هارون في نبة، وأولبة، وشلطيش، وشلب، وشنتمرية الغرب، وبني حمود سادة مقاطعات غرناطة ومالطة، والجزيرة الخضراء بخاصة. وبني صمادح أر بني تحجيب أصحاب المرية، وبني جهور أصحاب قرطبة، ولو أن قرطبة سقطت فيها بعد كاملة في يدى بني عبّاد، وبني طيفور أصحاب مرتلة، وبني طاهر أصحاب مرسية.

وهذه السياسة مازالت إسبانية، بمعنى أنها تقبل قيام رابطة بين المسلمين والمسيحيين، وضمن بنو عبيد، في محاولتهم السيطرة على شبه الجزيرة، أنهم يعملون طبيّا حين يتابعون تقليدا يعود تاريخه إلى أيام «الفتنة»، ويساير الأمانى العميقة للشعب الإسباني المسلم، ولكنها أدت إلى نتائج بالغة الخطورة في نهاية القرن الحادى عشر الميلادى. وقد أخذ القشتاليون والقطلان بحظهم من هذا الصراع الدائر بين البربر والأندلسيين في مطلع القرن الحادى عشر^(١٩). ولم يكن تدخلهم، إذا كان ضروريا، يتم إلا تبرّ تنازلات تقدّم لهم: أراض وقلاع يتنازلون لهم عنها، وإتاوات سنوية يأخذونها، وهذه اتبعية لأمرأ الشمال المسيحيين ضايقت ملوك الطوائف على نحو خطير، وبخاصة عند ما تضطّهرهم لأحداث أن يختاروا بين سياسة إسبانية صريحة، وبين خط أخلاقى يستلهم المصالح العليا للإسلام فحسب. ولكن حتى عندما استدعوا المرابطين المسلمين، واصلوا إظهار كراهيتهم للبربر، وطبقا لتعبير مؤدخ عربى: «كروها أن يكونوا بين عدوين، الفرنج من شمالهم والمسلمين من جنوبهم»^(٢٠).

وينسبون إلى المعتمد أنه قال: «لأن أرعى الجمال في الصحراء خير من أن أرعى الخنازير في قشتالة». وهذه الجملة وليس لها من الحقيقة أكثر مما لكل التعبيرات التاريخية، يجب أن نضمّ في ضوء بعض الغايات البالغة الدقة حقّا. لأنها تصبح موضع ارتياب منا إذا أخذناها بالمعنى العام الذى تعصيه لنا الصيغة التى أوردتها المؤرخون. وكل ما فى الأمر أنها تعنى أن المعتمد، فى لحظة ذات خطورة استثنائية، كان يفكر فى نفسه فحسب، مضجيا بزوجه اعتماد وأبنائه، وبخاصة ابنه الراضى، وقد تعلّق به وأحبه أكثر من كل الآخرين، وبلده، وأحيرا بالتقاليد السياسية الأندلسية، أو الإسبانية، التى ورثها لها أيره

(١٩) تدخل سانتشو غرسية ((فى المصادر العربية القديمة شانجه) كونت قشتالة فى معركة قنتيش. انظر: دوزى، تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ ص ٢٩٤ - ٢٩٥. ورامون مينديث بيدال، إسبانيا فى عصر السيد ٩٤/١. وشارك القطلان رايوندا كونت برشلونة، والقطلان إرمناود كونت أو رجل، فى معركة عقبة البقر. انظر: تاريخ مسلمى إسبانيا ط ٢ ج ٢ ص ٢٩٧ وما بعدها. ويتحدث البيان المغرب ٨٦/٣ و ٩٠ عن قائد مسيحي يدعى ابن مامة النصراني، أو القومس (كونت) ابن مامة، وسائد الحليفة سليمان والبربر ضد الصقالبة والأمويين، ويقول عن القرطبيين إنهم قوم «لا دين لهم، ولا شجاعة فيهم، ولا عقول معهم» انظر فيها عد ص ٤٨ الهامش رقم ١٧ من هذا الكتاب.

المعتضد، وهذه الكلمات جرت سريعاً على فمه فعلاً، لأننا نثق بالمؤرخين الذين أوردوها^(٢١). والرواية الأكثر احتمالاً، فيما يبدو لنا، تلك التي ضَمَّنَهَا لسان الدين ابن الخطيب كتابه «أعمال الأعلام»، اعتماداً على مصدر قديم لم يذكره، ويمكن أن نستنتج من المحتوى أنه ابن حيان أو ابن بَسَام، يقول عن المعتمد: واستشار أوليائه في ذلك (أى في دعوة المرابطين إلى الأندلس) ضد عادية ألفونسو السادس، فقال له ولده الرشيد ما معناه: «حاول الأمر بجهدك مع النصراني، ولا تستعجل بإدخال من يسلبنا الملك، ويشتت الشمل، فالتناس من علمت!». فقال المعتمد: «يا ولدى لأن أموت راعياً بالمغرب خيرٌ عندي من أن أَرَدَ الأندلس دار كفر، فتكون اللعنة على من المسلمين أبدا الدهر!». فقال: «يا أبت أفتعل ما أراك الله»^(٢٢).

لحظة عصبية تواجه فيها مفهومان مختلفان: أحدهما يتمشى مع التطور البطيء لشعب يسير نحو قدره الطبيعي، والآخر مختار في شبكة من الهموم، عقلية أكثر منها عاطفية، ولا يشغل الإسلام بينها إلا قليلاً.

وخطوة احتضان الحزب المسيحي سوف يحققها المعتمد بعد ذلك بأعوام حين بذل جهده، في ردّ المرابطين البربر، إلى ما وراء المضيق، وكان قد دعاهم على مضض ليدافعوا عنه، غير أن المحاولة جاءت متأخرة كثيراً، والقوات المسيحية التي أسرعَت إلى تلبية ندائه^(٢٣) كانت غير كافية لكي ترد قوات المثلثين، أعني المرابطين.

والقرار الذي اتخذته قبل موقعة الزلاقة كان مناقضاً لكل ما نعرفه عنه فيما يتصل بالبربر، وعن النهج الذي اختطه له والده المعتضد، والذي ركّز كل جهوده للنضال ضدّ أمراء زناتة وصنهاجة، وكانوا يضايقونه في الجنوب، والجنوب الشرقي من مملكته^(٢٤).

(٢١) انظر مثلاً: ابن الموائقي، ت ٥٦٤ هـ = ١١٦٨ م في كتابه «ريحان الآداب» في «بنو عباد» ١/٢، ونصها: «أولى أن أكون راعى الجمال من أن أكون راعى الخنازير». وابن خلكان، وفیات الأعيان، القاهرة ٣٦٦/٢. وترجمة دى سلان له إلى الفرنسية ٤٥٣/٤، ونصها عنده: «لأن يرعى أولادنا جاهلهم أحب إلينا من أن يرعوا خنازير الإفرنج». والناصري، الاستقصا في أخبار المغرب الأقصى ١١٣/١، وترجمة كولين له إلى الفرنسية في «المحفوظات المغربية» المجلد ٣١ ص ١٦٤. والروض المبطر للحميري ص ٨٥ و ١٠٦، وعنه نقلها المقرئ في نفح ٣٥٩/٤، وبنو عباد ٢/٤٤٠. وانظر: تاريخ مسلمي إسبانيا، ج ٢ ص ٣ و ١٢٤. وعن أصل تعبير «رعى الخنازير»، انظر ص ٢١٩ من هذا الكتاب.

● ينكر المستشرق الإسباني أنخل جونثالث بالنيا أن المعتمد قال الجملة أصلاً. انظر مقاله في كتابنا: دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة، ط ٣ ص ١٧٧ و ١٧٨ دار المعارف، القاهرة ١٩٨٨.

(٢٢) أعمال الأعلام ٢٨١، والحلل الموشية طبعة تونس ص ٢٨، وطبعة علوش في الرباط ٣٢، ونقلها عنها توجد في «بنو عباد» ١٨٩/٢، والروض المبطر، مادة الزلاقة ص ٨٣ - ٩٥ و ١٠٣ - ١١٦.

(٢٣) انظر تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ١٤٥، وأعمال الأعلام ١٦٣. وحين حاصر القائد المرابطي سير بن أبي بكر أمير بطليوس المتوكل بن الألفونسو قام هذا بيا الحركة نفسها، وسلم لألفونسو مدينة شنترين، وحتى وعده بمدينة بطليوس نفسها. انظر: أعمال الأعلام ١٨٥.

(٢٤) انظر: ليفي بروفسال، دائرة المعارف الإسلامية، مادة المعتضد، ٨٣١/٣، حيث يقول: «لم يكن للمعتضد من أعداء أكثر من البربر، مسلمون مثله نعم، ولكنهم أبعد عن مثله الأعلى كآسباني من جيراه المسيحيين في الشمال، وفي أمكنة كانوا يسمونه

ألم يَشْكُ المعتمد، ولما يزل في شرح شبابه، من البربر الذين كانوا يَكُونون جانباً من الجيش الذي قاده في حملته ضد مالقة، وكانوا سبب إخفاقه؟^(٢٥)

ألم يكن بطل قصة رواها لند الحجارى، وتُظهر في جانب منها بطريقة مدهشة مشاعر البربر والأندلسيين كل منها في مواجهة الآخر في عصر إمارة المعتمد نفسها، حين ابتدأت عظامع الأمير المرابطى، وقد انبلج صبحه في سماء شبه الجزيرة؟

«قال الحجارى في «المسهب»: إنَّ أمير المؤمنين يوسف بن تاشفين أهدى إلى المعتمد جارية مغنية قد نشأت بالعدوة، وأهل العدوة باطع يكرهون أهل الأندلس، وجاء بها إلى إشبيلية وقد كثر الإرجاف بأن سلطان الملتزمين ينتزع بلاد ملوك الطوائف منهم، واشتغل خاطر ابن عباد بالفكر في ذلك، فخرج بها إلى قصر الزاهر على نهر إشبيلية، وقعد على أرواح، فخطر بفكرها أن غنت عندهم نشي هذه الأبيات:

حملوا قلوبَ الأسدِ بين ضلوعهم وَلَوُوا عمامتهم على الاتمارِ
وتقلدوا يومَ السوغي هنديةً أمضى إذا انتضيت من الاتدارِ
إن خوفوك لقيت كل كرية أو أمنوك خللت دارَ قرا^(٢٦)

فوقع في قلبه أنها عرّضت بساداتها، فلم يملك غضبه، ورمى بها في النهر، فهلكت^(٢٧). ليس ثمة شك أننا نحس بدهشة بالغة أمام هذه الحركة القاسية من أمير أندلسي، والشوة وحدها لا تكفي لتفسيرها، فقد احتفظ الأمير على أية حال بقدر كاف من صحوه الفكر أتاح له أن يفهم معنى الأبيات. وأن كلمة واحدة رتت في سمعه: «عمائم»، والبربر وحدهم يلبسونها، حرّكتها، وأيقظت في أعماقه كراهية أهل العدوة الاخرى، والودّ العميق لعشيرته.

كذلك أتاح المعتمد فرصة أخرى للمؤرخين كي يظهرُوا لنا الكراهية الشديدة التي كانت سائدة بين البربر والأندلسيين، فنقل لنا المراكشى حديثاً جرى بين المعتمد والمعتصم بن صدادح صاحب المرية، وموضوعه يوسف بن تاشفين، وفيه يقول المعتمد: أتى شيء هذا المسكين وأصحابه؟ إنما هم قوم كانوا في بلادهم في جهد من العيش، وغلاء من السعر، جئنا بهم إلى هذه البلاد نطعمهم حسبة، فإذا شعبوا أخرجناهم عنها إلى بلادهم!^(٢٨)

ألم يظهر المعتصم نفسه أنه أندلسي، لمجرد أنه استقبل في أمارته الشاعر السمسيس واحتفى به، حين لجأ إليه هرباً من ملاحقة جنود عبد الله بن بلقين أمير غرناطة، لأنه هجا البربر في أبيات له؟:

رأيتُ آدمَ في نومي فقلت له: أبا البرية إنَّ الناس قد حكموا
أن البرابر نسلُ منك قال: إذن حواءُ طالقةٌ إن كان مازعماً^(٢٩)

(٢٥) عن هذه الواقعة انظر: تاديع مسلمي إسبانيا ط ٢ ج ٣ ص ٦٨.

(٢٦) من بحر الكامل. (٢٧) الحجارى. نهج. في نفح ٢٧٥/٤.

(٢٨) المراكشى، المعجب ١٣٨، وبحاث ط ١ ص ١١٨، وتاريخ مسلمي إسبانيا ط ٢ ج ٣ ص ١٣٩.

(٢٩) نفح ٤١٢/٣.

● أشار المؤلف إلى البيتين ولم يرددهما، وأثبت بها ليكونا تحت عين القارئ (المترجم).

وثمة حادث آخر يظهر هذه العداوة لابن إسبان شبه الجزيرة وبربر المغرب فحسب، وإنما أيضاً بين أسرة عربية أندلسية من سرقسطة، وأسرة تنحدر من أصول بربرية وتقيم في طليطلة، فقد بدأ هؤلاء في نظر أولئك أنهم لم يتطوروا بقدر كاف. ويروى لنا صاحب البيان المغرب أن منذر بن يحيى صاحب سرقسطة كان قد تزوج من ابنة عبد الرحمن بن ذى النون، وهى في الوقت نفسه أخت المأمون أمير طليطلة، وأنجبت من هذا الزواج يحيى بن المنذر، فلما ورث هذا الإمارة، واعتلى العرش، احتقره بنو عمه بسبب أصله هذا، وتواطأوا على قتله^(٣٠).

وأخيراً، تحت حكم المرابطين، وفي أوج قوتهم في إسبانيا، أنضم الكتاب إلى غزاة شبه الجزيرة بعد سقوط ملوك الطوائف، ولكنهم رغم كل الأحداث ظلوا على إشبانيتهم، ولم يترددوا في التنديد بجنود البربر، وفي الرسائل التي توجهوا بها إلى سيدهم البربري يوسف بن تاشفين. ويثار منهم أدب أندلسي في رقة حين يحتقر من أعماق قلبه هؤلاء الأفريقيين الغلاظ، الذين دنسوا أرض إسبانيا^(٣١).

هكذا كانت أحداث القرن الحادى عشر الميلادى، أشبه بمبارزة بين الإشبان المسلمين والأفريقيين البرابرة. وكما ترى لم يكن الأمر في أية لحظة قضية عرب، ولم يكن استبعادنا لهذه الكلمة عملاً مقصوداً، ولم يستخدمها المؤرخون العرب، وفي المرات القليلة التي ظهرت في مؤلفاتهم لم يعلقوا عليها إلا أهمية ثانوية تماماً. وخلال «الفتنة» كان يوجد حزب أندلسي يجمع الأمويين والصقالبة والبربر الأندلسيين وحزب بربري، وتحت حكم الطوائف كان هناك، كما يجب أن نتميز بحق، «طائفة بربرية، وطائفة أندلسية، وطائفة صقلية، وليس ثمة طائفة عربية»^(٣٢). ويجب أن نلاحظ أن طائفة الصقالبة ترددت بدءاً في الانضمام إلى أى الحزبين، فهي تأخذ جانب الأندلسيين تارة، وجانب البربر تارة أخرى، حسب طموحها العابر، وعندما أصبحت قضية الخلافة غير ذات أهمية، بعد أن أصبح اختفاء آخر خليفة أمراً مؤكداً، تبنوا سياسة «إشبانية» مناهضة لتلك التي اتخذها أمراء الطوائف من البربر.



حاول أمزرخون العرب تفسير أسباب انهيار الخلافة الأموية في إسبانيا، في مطلع القرن الحادى عشر الميلادى، وقيام أسرات صغيرة حاكمة على أنقاضها. وقد اكتفى البعض بالموازنة بين وضع

(٣٠) البيان المغرب ٢٢١/٣.

(٣١) المعجب ١١٤، وترجمة قينان له إلى الفرنسية ص ١٥٢. وقد أخذت الكراهية بين البربر والأندلسيين فيها بعد طابعا أدبيا خالصا. وهى التي ألهمت ابن سميذ المغربي والشقندى في نهاية القرن الثانى عشر الميلادى، ومطلع الثالث عشر، أن يكتبوا رسالتين في فضائل أهل الأندلس. انظر: نفح ١٧٩/٣ - ٢٢٤، وقد ترجم غرسيه غومت رسالة الشقندى إلى الإسبانية عام ١٩٣٤. أما رسالتنا ابني حزم، أبو محمد الظاهري، وأبو المغيرة الوزير، فقد جاءتا كلتاهما في الحقيقة ردا على معايرة ابن الريبب التميمي القيرواني للأندلسيين «لتصريحهم في تخليد أخبار علمائهم ومآثر فضائلهم، وسير ملوكهم». وقد أورد المقرئ في نفح الطيب ١٥٦/٣ - ١٧٩ رسالة أبي محمد بن حزم كاملة، ولم يبق من رسالة الثاني إلا فقرات في الذخيرة ١٣٣/١ - ١٣٥. وكان ابن الريبب قد وجه رسالته إلى أبي المغيرة وليس إلى أبي محمد، انظر: نفح ١٥٦/٣.

في القرون لتالية، وحتى سقوط غرناطة عام ١٤٩٢ م، فإن كتاب الغرب الإسلامى يطلقون على مسلمى إسبانيا اسم الإشبانيين أو الأندلسيين، وأحدهما كان يطلق على جيش بنى نصر ملوك غرناطة، وكان يتألف من صنفين: أندلسيين (أو إشبانيين) وبربر، انظر: ابن الخطيب، اللوحة البديرة ٢٧.

(٣٢) ليفى برونفسال، إسبانيا الإسلامية في القرن لعاشر الميلادى، ص ١٩ - ٢٠.

الممالك الأسبانية الصغيرة ووضع ملوك الطوائف في فارس بعد موت دارابن دارا. يقول المراكشي: «ولم يزلوا كذلك، وأحوال الأندلس تضعف، وثغورها تختل، ومجاورها من الروم تشد أطعماهم، ويقوى تشوفهم»^(٣٣).

هذا التطابق الذي فرض نفسه على فكر المؤرخين الذين ذكرواهم حتى أنهم لم يجدوا تعبيراً آخر أكثر ملائمة من قولهم «ملوك الطوائف»، ليشيروا به إلى كل هؤلاء الملوك الصغار الذين تقاسموا الدولة الإسبانية بعد فترة من الاضطرابات استمرت ما يقرب من أربعين عاماً، ألا يستحق أن نتوقف عنده: أين نجد في هذه الإمبراطورية الفارسية التي تناثرت إلى إمارات صغيرة يقوم على كل منها «مرزبان»، ما يعادل هذا الجنس الإسباني في تكوينه، وهو يسلك وجهة مناهضة للأجانب بالنسبة لنا، نحن الأوروبيين، فإن تعبير الطوائف، أو ترجمته الإسبانية، ليس له من قيمة، إلا إذا أردنا أن نعطي معنى «ملوك الأحزاب».

لقد حاول ابن سعيد المغربي المتوفى عام ٦٨٥ هـ = ١٢٨٦ م، أن يبرئ وطنه من التهمة التي وجهها إليه الرحالة الجغرافي ابن حوقل في القرن العاشر الميلادي^(٣٤)، فقد عجب من بقاء هذه الجزيرة «على من هي في يده مع صغر أحلام أهلها، وضعة نفوسهم، ونقص عقولهم، وبعدهم من البأس والشجاعة والفروسية والبسالة، ولقاء الرجال، ومراس الانجاد والأبطال»^(٣٥).

وبصرح ابن الوطواط، محمد بن إبراهيم بن يحيى الكتبي، المتوفى عام ٧١٨ هـ = ١٣١٨ م، في كتابه «مناهج الفكر» بأن «شبه الجزيرة لم يتوقف عن الحياة في نظام، مقدما لعاهله طاعت يملئها الحب حتى يومنا هذا، رغم أن الإغراق في الرفاهية يفتح أمام سكانها سبل التمرد والتفاق»^(٣٦).

وعندما درس ابن خلدون، المتوفى عام ٨٠٨ هـ = ١٤٠٦ م، ترتيب القتل العربية والإمبراطوريات الإسلامية، حاول أن يوضح سبب ما دعا «سقوط الأسرة الأموية في الأندلس» يقول:

«لما فسدت عصبيتها من العرب استولى ملوك الطوائف على أمرها، واقتسموا خطتها، وتنافسوا بينهم، وتوزعوا ممالك الدولة، وانترى كل واحد منهم على ما كان في ولايته، وشمخ بأنفه وبلغهم شأن العجم مع الدولة العباسية، فتلقبوا بألقاب الملك، ولبسوا شارته، وأمنوا بمن ينقض ذلك عليهم أو غيره، لأن الأندلس ليس عصائب ولا قبائل... فاستظهروا على أمرهم بالموالي والمصطنعين، والطرء على الأندلس، من أهل الأندلس من قبائل البربر وزناتة وغيرهم، اقتداء بالدولة في أحر أمرها، في الاستظهار بهم حين ضعفت عصبية العرب، واستبد ابن أبي عامر على الدولة، فكان لهم دول عظيمة، استبدت كل واحدة منها بجانب من الأندلس، وحظ كبير من الملك على نسبة الدولة التي اقتسموها،

(٣٣) المعجب ٩٣، وترجمة فينان له ص ٧٨. وانظر أيضاً: أبو الفدا، المختصر في تاريخ البشر ٤٦/١، طبعة القاهرة ١٣٢٥ هـ.

(٣٤) انظر: نفح ٢١١/١ وتاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٢ ص ١٢٥ - ١٢٦، وص ٤٨ فيها سيأتى من هذا الكتاب.

(٣٥) نفح ٢١١/١.

(٣٦) انظر: فينان، مقتطفات غير مشورة تتصل بتاريخ المغرب ص ٦٦.

● وقد ترجمت النص عن ترجمته الفرنسية لأننى لم أعتد إلى مكان مخطوطة مناهج الفكر (المترجم).

ولم يزالوا في سلطانهم ذاك حتى جاز إليهم البحر الماربطون، أهل العصبية القوية من لمتونة، فاستبدلوا بهم، وأزالوهم عن مراكزهم، ومحو آثارهم، ولم يقدروا على مدافعتهم لفقدان العصبية لديهم»^(٣٧).

وفيما يبدو لنا لم يبعد ابن خلدون عن الحقيقة عندما تحدّث عن التغيير العميق الذي أصاب أسلوب حياة المسلمين الإسبان، وضعف روح العصبية عند القبائل العربية. ولكن القول بأن «روح العصبية قد انقطعت عن الوجود في إسبانيا» ينفي وجود حزب أندلسي، أو إسباني، وقد أظهرنا فيما سبق قوته التضالّية التي أظهرها في كفاحه ضد البربر.

وفي القرن الحادي عشر ظهرت في إسبانيا عصبية جديدة، أو تعبير أفضل روح جديد من التضامن القومي، يرجع إلى التحام العناصر الأصلية، وقد برزت في القرن العاشر، وأكّدت وجودها في عصر المنصور بخاصة، واتضحت نتائجها على نحو ملموس في مطلع القرن الحادي عشر^(٣٨).

عندما تحرّك المهدي للملاقة أعدائه في موقعة قنتيش لم يكن يعتمد في جيشه على الفقهاء والبرجوازيين فحسب، وإنما تضمن أيضا طوائف من العنازين والمجرّارين والفحامين والزبّالين، ومن سائر غوغاء الأسواق^(٣٩). وإذا كان قد هُزم فلأن جيشا وطنيا، مها كانت مشاعره الوطنية، لا يستطيع أن يقاتل المرتزقة، والجنود النظاميين، إلا إذا كان مدربا، في الأقل، على استخدام الأسلحة في أبسط حالاتها، وعلى فن الحرب، وبقيادة ضباط مجربين.

ونجد الاهتمام نفسه من الاعتماد على كل قوات المملكة عند أبي القاسم محمد بن عبّاد، وابنه المعتضد من بعده، ولو أنها لم يهمل الاستعانة بجنود من المرتزقة أيضا^(٤٠).

ومن الأهمية بكان أن نلاحظ أن أحد المؤرخين حاول وصف المجتمع في مطلع القرن الحادي عشر الميلادي فقسمه إلى طبقات، لا تلعب العناصر السلالية فيها أي دور مهم^(٤١). ومن الملاحظ أنه في

(٣٧) مقدمة ابن خلدون، ط كاترير ٢٨٠/١، ترجمة دي سلان ٣٢٠/١، طبعة الدكتور عبد الواحد وافي ٤٦٣/٢، القاهرة ١٣٧٨ - ١٩٥٨.

(٣٨) ابن حزم، في: ابن هذيل، تحفة الأنفس ص ١٩٩، طبعة جبريل فران، باريس ١٩٢٥، وفي ليفي يروغنسال، إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر الميلادي، ص ١٣٤ هامش رقم ٣.

(٣٩) ابن الرقيق في نفح الطيب ٤٢٦/١، والبيان المغرب ٥٦/٣ - ٧٤، وتاريخ مسلمي إسبانيا ٢٨٥/٢ - ٢٨٧، ٢٩٥. والذخيرة ٤٣/١، ويقول دوزي في تاريخ مسلمي إسبانيا: «كان كبار قواد هذا الجيش رجال من العامة أو الطبقة الوسطى، أطباء ونساجين وجزّارين وسراجين، وبدت إسبانيا الإسلامية بلدا ديمقراطيا لأول مرة في تاريخها. لقد أفلتت السلطة من يد العامين وسن طبقة الخاصة على السواء».

(٤٠) الذخيرة ٢٣/٢، وعنها في «بنو عبّاد» ٢٢١/١، ونص العبارة: «أقبل القاضي أبو القاسم أول وقته يذم الرجال الأحرار من كل صنف»، البيان المغرب ٢٠٥/٣، وأعمال الأعلام ١٥٣، والذخيرة ٤١/٢، وعنها في «بنو عبّاد» ٢٤٣/١، ونص العبارة فيها: «أقننى المعتضد الغلمان، واتخذ الرجال، وانتقاهم من كل فرقة».

(٤١) يقول لسان الدين بن الخطيب: «وكان الناس يؤمنون - بل وفي كل زمان - أربعة: «فصنف هم الدنيا التي بناها بسبب الولد، هبة بالغا أو مراهقا أو طفلا في المهد أو جنينا في المشيمة، وهم صنائع الحكم وخدامه، وعماله وفتيانته ورجاله».

«وصنف مرتق من الديوان، مشهور العناية والمكان، أو مجهول الشأن، راض يحظه من الزمان، لا ينشوق إلى المزيد، ولا يجذر من النقصان».

المجموعة التي يراها المؤلف «أشرف أوطانا، وأعظم سلطانا، وأوفر أعلاما، وأغض إسلاما»، يوجد «الأعاجم التي تخاطب بالترجمان»، أى المستعربين المسيحيين.

نستطيع دون تعسف إذن أن نتكلم عن شعب «أندلسي»، وأن نبحت بين مؤلفات من كتبوا بالعربية من الإسبان لكي نستخلص خصائصه العامة.

يرى ابن حزم أنه يستطيع أن يؤكد الواقع بطريقة أفضل حين يقوم بموازات بين الأندلس وبقية شعوب الأرض، يقول: «إن أهل الأندلس صينيون في إتقان الصنائع العملية، وإحكام المهن الصورية، تركيون في معاناة الحروب، ومعالجة آلاتها، والنظر في مهماتها»^(٤٢).

وابن غالب، وهو عالم أندلسي بالأنساب، ومن رجال القرن الخامس الهجري، الثاني عشر الميلادي^(٤٣)، استخدم المقارنات أيضا، واهتم بها أكثر، لوصف الفروق الدقيقة التي تميز على نحو أفضل خصائص تركيبة العناصر المتداخلة، التي يتكون منها الشعب الأندلسي فيما يرى: «أهل الأندلس عرب في الأنساب والعزة والأنفة، وعلو الهمة، وفصاحة الألسن، وطيب النفوس، وإباء الضيم، وقلة احتمال الذل، والسماحة بما في أيديهم، والنزاهة عن الخضوع وإتيان الدنية هندیون في إقراط عنايتهم بالعلوم، وحبهم فيها، وضبطهم لها وروايتهم، بغداديون في ظرفهم ونظافتهم، ورقة أخلاقهم، ونباهتهم وذكائهم، وحسن نظرهم، وجودة قرائحهم، ولطافة أذهانهم، وحدة أفتكارهم، ونفوذ خواطرمهم. ويونانيون في استنبطهم للمياه، ومعاناتهم لضروب الغراسات، واختيارهم لأجناس الفواكه، وتدبيرهم لتركيب الشجر، وتحسينهم البساتين بأنواع الخضر وصنوف الزهر فهم أحكم الناس لأسباب الفلاحة»^(٤٤).

= «وصنف يؤمل أمرا، ويسبب من القراية الراجحة زيدا وعمرًا، ومستحق يأسف لما خرج عن يده، أو يعتقد الظلم فيمن عدل عنه إلى محل ولده.. وهذا اصنف المنازع المناص بين أن يصمت فيموت بدائه، أو يجهر بالمنازعة فينهى إلى قدر الله وقضائه، وكان في ذلك الوقت أضعف الأصناف..

«وصنف من أهل الدنيا والآخرة، قلدوا أهل المل والقد، والقبول والرد اجتهدهم... واعتبروا بين رأس الأمة سلمة في أمهات البلدان، من الفتيان والغلمان، والطواشي والخصيان، والأعاجم التي تخاطب بالترجمان، والصبية والنسوان، وهم أشرف أوطانا، وأعظم سلطانا، وأوفر أعلاما، وأغض إسلاما... وهم جمهور الناس من الفقهاء والعلماء، والخاصة والدهماء..

«وصنف غارم، لا هم له إلا فيمن يخفف أصره، أو يبدل باليسر عسره، وأما هؤلاء فأوباش أسواق، وحى رهم من أخلاق..

«وصنف هم الآخرة، بعيد من تعريج عبي شيء من الدنيا، لا يتكلم في مثل هذا، ولا يتكلم معه، ولا يفتنه فيه بابا، إنما هو مشغول بربه خاصة، وهذا جيل قليل، وإنما ذكر مراعاة للتقسيم، ولا تغلو الأقطار منهم، فهم بركات الله بين عباد. وأولواؤه منهم» أعمال الأعلام ٤٤ - ٤٨. وكتبها بمناسبة حديثه عن هشام المؤيد بن الحكم الثاني.

(٤٢) ابن حزم، رسالة في فضل الأندلس، نفع ١٥١/٣، وأبو حامد الغرناطي، تحفة الأحباب، طبعة فران، في المجلة الآسيوية عام ١٩٢٥، المجلد ٢٠٧ ص ٢٠٠، والنويري، نهاية الأرب ٣٤٥/١، وليو تشوندي وسيمونيت، منتخبات ٥، وانظر فيها بعد ص ٢٩٤ من هذا الكتاب.

(٤٣) نفع ٣٨٦/٣.

(٤٤) ابن غالب، فرحة الأنفس، في نفع ١٥٠/٣، وهذه المقارنات منسوبة لابن حزم في: أبو حامد الغرناطي، تحفة الأحباب، في المجلة الآسيوية، المجلد ٢٠٧ ص ٢٠٠، والنويري نهاية الأرب ٣٤٥/١، وفي نفع الطيب ٢٤٤/١: «قيل إن الحكمه نزلت من السماء على ثلاثة أعضاء من أهل الأرض: أدمغة اليرقان، وأيدى أهل الصين، وألسنة العرب»، وهو منقول عن: ابن خلكان، وفیات الأعيان ١٣٦/٢، طبعة القاهرة، وفي ترجمة دى سالن ٤٧٧/٣. ويرد في الحاضر هؤلاء الشياطين رعاة الشعوب، وبينهم إذا حدقنا أفلاطون، زحل الذي ورع الشعوب عند بدء العالم في اتجاهات مختلفة، انظر: Le Timee et les Lois.

ولكن هذه المقارنات ليست كافية فيما يرى ابن غالب، لكي تتعمق بقدر وافٍ في وصف نفسية الأندلسي، فهو يغادر الأرض، ويخلق عاليا في السماء، ويذكر بعد أن أتى على الأندلس وأهلها «أن بطليموس جعل لهم - من أجل ولاية الزهرة لبلادهم - حُسن الهمة في الملابس والمطعم، والنظافة والطهارة، والحب للهو والغناء، وتوليد اللحون، ومن أجل ولاية عطارده حُسن التدبير، والحرص على طلب العلم، وحب الحكمة والفلسفة والعدل والإنصاف»^(٤٥).

وهذه صفوة المواهب التي تمنهاها الشعوب في حرص، وليس ثمة شك أن الإسبان المسلمين تمتعوا بصفات تعود إلى ديو نيسوس بمثل ما تعود إلى أبولو، فكانوا فنانين وأظهروا عبقرية فذة في مجال الفنون والآداب، وثقافة عريضة في مجال الفقه والعلوم.

غير أن استخدام النجوم، والمقارنة بالأُمم الأخرى، إذا كان قد أيقظ بعض الأفكار المحددة عن ملامح الأندلسي، فإنه لم يستطع أن يحددها على نحو دقيق. ونشعر بقوة أن اللعبة يمكن أن تمتد إلا ما لانهاية، لأنها ترتبط بعلم البلاغة أكثر مما ترتبط بعلم الاجتماع^(٤٦)، ومن ثم ليس صعبا أن نجد في الأدب العربي أمثلة ونماذج لهذا الفن الخطابي^(٤٧). ولا مفر من الاعتقاد بأن هذه المرافعات الجميلة الزائفة أمتعت كسرى ملك فارس عندما سمعها من أفواه سفراء دول الأرض المختلفة^(٤٨)، ودون شك ليس مستحيلا أن نبرهن على أن الجاحظ في رسائله أمد المؤلفين الإسبان بعدد من هذه الأفكار^(٤٩).

يقول المقرئ: «ولأهل الأندلس دُعابة وحلاوة في محاوراتهم، وأجوبة بديهة مسكتة، والظرف فيهم والأدب كالغريزة، حتى في صبيانهم ويهودهم، فضلا عن علمائهم وأكابرهم»^(٥٠).

عبثا نبحث، دون أدنى شك، عن تحديد خصائص المسلم الإسباني في القرن الحادي عشر الميلادي في عدد من الكلمات، ولكن ليس كل ما في الصور التي سبقت مستبعدا أو مردودا، لأنها تثبت في كل الأحوال أن الأندلسي لم يكن عربيا خالصا حتى في أعين الكتاب المسلمين، إنه عربي وشيء أكثر من هذا، يبحث عنه علماء النفس، والباحثون الاجتماعيون، في مكان آخر وبعيد جدا، بين الهنود واليونانيين والصينيين والأتراك، وعندما تطوله أيديهم يبرز أمام أعينهم: الإسباني المسلم، مزيجاً من العربي والإيبيري والقوطي والبربري والفارسي (من بغداد) والصقلبي، إنه مزيج محظوظ من الساميين والآريين.

(٤٥) ابن غالب، فرحة الأنفس، في نفح ١٥٠/٣، وانظر المقدمة التي كتبها ديما باللغة الفرنسية للطبعة الأوربية لنفح الطب ٧٢/١.

(٤٦) يمكن أن نجد الشيء نفسه عند المؤلفين الذين وصفوا إسبانيا، انظر فيما بعد ص ١٠٦ من هذا الكتاب.
(٤٧) يتحدث بول موران في كتابه «لا شيء غير الأرض» عن أمريكا فيقول، «أصفياء في قلوبهم، صقالبة في إدراكهم، يونان في عضلاتهم». طبعة مكتبة بلون ديليه ص ٢٣.

(٤٨) ابن حيد ربه، العقد الفريد ١٢٤/١ - ١٢٦.

(٤٩) انظر الجاحظ، مجموعة رسائل ٨١/٢ طبعة القاهرة، وطبعة فان فلوتن ٨٥/١.

(٥٠) نفح ٣٨١/٣، ونلاحظ هنا إشارته إلى اليهود، وبراهم المؤرخون جزءا من الشعب الأندلسي، على قدم المساواة مع بقية المسلمين من أي جنس.

وعندما ندرس الأدب الإبداعى للشعب الأندلسى سوف نلمس فى وضوح أن شعره أدق تعبيراً عن خصائصه، ويجب ألا نفكر دوماً فى الأصول التسمية لمن يعبر عنهم، وألا ننسى أبداً أن الشعب الإشباني المسلم فى القرن الحادى عشر الميلادى لم يكن غير امتداد للشعب الأصلى القديم. والناقد الذى لا يود أن يرى فى الشعر الإشباني إلا ظلال الأدب العربى فى المشرق يخاطر بأنه لن يواجه إلا للجانب الأقل أهمية فى هذا الشعر.

البَابُ الأولُ

○ الشاعر:

- تكوينه وظروفه الاجتماعية.
- الموضوعات الشعرية التي انبثقت في حياة البلاط.

مناهج نشر اللغة العربية بين الإسبان المسلمين

إذا كان الأندلسيون قد نزعوا شيئاً فشيئاً إلى تميزهم في صفاتهم العنصرية عن المسلمين الآخرين، بما فيهم المغاربة، فقد ظلوا مع ذلك شرقيين بعمق لا استخدامهم اللغة العربية بعامه. صحيح أنهم في حياتهم اليومية، وأحاديثهم الودود، كانوا يستطيعون أن يستخدموا العامية العربية، أو البربرية، أو اللغة الرومانشية، ولكن في العلاقات الرسمية، والمراسلات الإدارية، كان عليهم أن يستخدموا اللغة العربية الفصحى. فرجال الدولة من الأسرة الحاكمة، والولاة، والقواد، وغيرهم، يرونها مسألة نخوة أن يكتبوا بأسلوب مرض. على حين كان مطلوباً من القضاة والوزراء والكتاب أن يكونوا متمكنين منها بعمق، وأن يستخدموها في دقة متناهية. وكان أشباه الخلفاء في فترة «الفتنة»، مثلهم في ذلك صغار الملوك في عصر الطوائف، ثم المرابطون من بعد، يحيطون أنفسهم بكتاب قادرين على تحرير الرسائل الرسمية في لغة دقيقة مصقولة، كذلك التي شهروا بها ابن العميد والصاحب بن عباد في المشرق. ومن المنير أن نلاحظ أن التنافس بين الأسر الحاكمة لا يقتصر على المجال السياسي فحسب، وإنما تحاول كل أسرة أن تتفوق على جيرانها ومنافسها باختيار كتابها من بين الأدباء الأوسع شهرة، والأكثر تفوقاً على زملائهم في البلاطات الأخرى، والأقدر على استعمال الكلمات القديمة المهجورة، وقد حاول المعتمد بن عباد أن يعقد صداقة مع الكاتب أبي الأصبغ عبد العزيز بن الأرقم، وزير المعتصم بن صمادح صاحب المرية، وأن يستيقه عنده، وكان قد وفد على إشبيلية سفيراً للمعتصم، ولكن الوزير رفض في أدب وفاء لأميره، «فاستحسن ذلك ابن عباد منه، وقال له: فاكم على»، فلما رجع إلى المرية قص في صراحة رائعة المحاولة التي تعرض لها^(١).

وفي فصل أورده المقرئ في «نفح الطيب» نجد كيف كان الناس ينظرون باحتقار إلى الحكام الذين يرضون بأن يكون كتابهم يكادون يكونون مبتدئين^(٢). وكل الروايات التي تتحدث عن الوزراء الكتاب، وعن أمرائهم، تحاول أن تظهر أن تمكنهم من اللغة العربية الفصحى يعود إلى متطلبات الوظائف التي يتولونها، وأيضاً نتيجة تذوق حقيقي للثقافة الأدبية.

وازدهار الأدب الذي ميز القرن الحادى عشر الميلادى لا يعود كثيراً إلى الرعاية والحرية التي أضفها صغار الملوك هؤلاء على كل المظاهر الثقافية بما فيها الفلسفة فحسب، وإنما يرجع إلى طريقة تعليم اللغة العربية الفصحى التي جرى عليها العمل في إسبانيا، وسنرى فيما بعد مدى الصعوبات التي عانها الشعراء، رغم أنهم كانوا يبذلون الأطفال المدللين في هذه البلاطات الصغيرة.

ولدينا معلومات كافية، ودقيقة، عن المناهج التربوية التي كان يجري العمل عليها في إسبانيا الإسلامية في القرن الحادى عشر الميلادى. ويكفى أن نجمع الإشارات التي قدمها لنا المؤرخون

(١) نفح ٤٩٨/٣.

(٢) نفح ٥٦٠/٣.

العرب، ومدونو السِّرِّ والتراجم عن حياة هذا الشخص أو ذاك، فهم يؤكدون بخاصة على دراساته في مرحلة الصبا والمراهقة، وغالبًا حتى في سن النضج العقلي. ويجب أن نضم إلى هذه المعلومات المتفرقة الفصل الخاص الذى أوقفه ابن خلدون في مقدمته على التعليم الإسلامى بعامة، وعن طرقة المطبقة في المغرب وفى إسبانيا بخاصة، وإذا كانت أخباره لا تُحدّد عصرًا معيّنًا طُبِّقت فيه، فهى على الأقل تنقل لنا آراء أبى بكر بن العربى، (٤٦٨ - ٥٤٣ هـ = ١٠٧٦ - ١١٤٨ م)، فى التربية ورأيه عنها، وبخاصة فى عصرى ملوك الطوائف والمرابطين. يقول:

«ولقد ذهب القاضى أبو بكر بن العربى فى كتاب رحلته إلى طريقة غربية فى وجه التعميم، وأعاد فى ذلك وأبدأ، وقَدّم تعليم العربية والشعر على سائر العلوم، كما هو مذهب أهل الأندلس. قال: لأن الشعر ديوان العرب، ويدعو على تقديمه وتعليم العربية فى التعليم ضرورة فساد اللغة. ثم ينتقل منه إلى الحساب فيتمرن فيه حتى يرى القوانين، ثم ينتقل إلى دَرَس القرآن، فإنه يتيسر عليك بهذه المقدمة»^(٣).

وهكذا نجد أن نظام الإِسباني المسلمين فى التربية يختلف تمامًا عما كان عليه الحال فى المشرق والمغرب. أليس منطقيًا إذن أن نحاول ردّ هذا المفهوم العقلى للتربية والتعليم إلى تأثير الجنس الذى تكوّن فى إسبانيا من انصهار العناصر المختلفة، والتى يغلب بينها العنصر الأيبيرى الرومانى؟. فبينما تحتل الاهتمامات الدينية والأخلاقية المكان الأول فى أى مكان آخر من العالم الإسلامى كله، وتصبح العلوم العقلية مكملّة للعلوم التقليدية وفى خدمتها، نزعوا هنا فى إسبانيا القرن الحادى عشر الميلادى إلى إعطاء المكان الأول للعلوم الثانوية، أو التى تدعى عقلية، دون أن نستبعد منهجياً فروع المعرفة التى أساسها القرآن والسنة النبوية الصحيحة، فهم يفكرون فى الإنسان قبل الدين، وتهدف التربية إلى تنمية كل القدرات على نحو منسجم، نتيجة الاستبطان الداخلى الذى أشاعه المجتهدون فى مجال الدراسات الدينية، والذى أدّى إلى هذين الأمرين من التطرّف، ولا تنقصهما فى الحقيقة نقط التلاقى: التصوف من جانب، والنزعة الإنسانية من الجانب الآخر.

والحق أن القرن الحادى عشر فى إسبانيا بدأ والنزعة الإنسانية، أو المذهب الإنسانى إذا شئت الدقة، مزعزع فى غايته، ولكنه محكم فى مناهجه، وسجّل أهم حدث فى التاريخ الفكرى للغرب الإِسباني الإسلامى. أكان ذلك عودة للفكر القديم، وقد واصل سيره متخفياً فى روح الإِسبان، ولم يؤثر فيها العنصر العربى كثيراً، أم كان ظهوراً عفويًا جاء ليعبر عن الرغبات العميقة لهذا الجنس؟. لا أحد يعرف، ومن الجائز أن نجد فى ذلك تأثيراً واضحاً للروح اليهودى المسيحى، وللфكر اليونانى، ويدفعنا إلى هذا الفيلسوف الإِسباني ابن مَسْرّة، من القرن الحادى عشر الميلادى، ويقدم لنا أساباً معقولة^(٤).

(٣) ابن خلدون، المقدمة، طبعة كاتمرير ٢٦٣/٣، التجارية بالقاهرة ٥٣٩، وترجمة دى سلان ٨٩/٣. وفيما يبدو طبق الأندلسيون نصيحة عبد الحميد الكاتب، المتوفى ١٣٢ هـ = ٧٥٠ م إلى الكتاب فى رسالته الشهيرة: «... فتتافسوا يا معشر الكتاب فى صنوف الآداب، وتفقهوا فى الدين، وابدأوا بعلم كتب الله عز وجل، والفرائض، ثم العربية فإنها ثقاف أُنسنتكم، ثم أجيّدوا الخط فإنه حلية كتبكم، وارووا الأشعار واعرفوا غريبها ومعانيها، وأيام العرب والعجم وأحاديثها وسيرها، فإن ذلك معين على ما تسمو إليه همكم». ابن خلدون، المقدمة، كاتمرير ٢٦٦/٢، وترجمة دى سلان ٣٠/٢، وطبعة القاهرة ٢٤٨، وأحمد فريد رفاعى، عصر المأمون ٥٤/٢.

(٤) عن ابن مسرة انظر: أسين بلاثيوس، ابن مسرة ومذهبه: أصول الفلسفة الإِسبانية الإسلامية، ودائرة لمعارف الإسلام، الملحق ص ٩٩ - ١٠١، وكتب المادة بلاثيوس أيضاً، وتاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ ج ٢ ص ١٢٧ - ١٢٨ و ٢٧٧.

وعلى كل حال لا يبدو أن هذه النزعة الإنسانية الثقافية نتيجة الفكر الإسلامى، وبخاصة في الغرب، وعندما يقول علماء النفس الإسبان الذين كتبوا في اللغة العربية، إن الأندلس يملك العقل اليوناني إلى جانب اللغة العربية لم يكن يدور بخلداهم أن من الأوفق القول بأنه العقل الإغريقي الروماني، ليصبح أكثر إقناعاً. وعبثاً نبحت في أدب المشرق العربي عن فكرة إنسانية واحدة كتلك التي عبر عنها الرُّبَيْدِيُّ، أبو بكر محمد بن الحسن، المتوفى عام ٣٧٩ هـ = ٩٨٩ م، وهو شاعر ونحوى إسباني، وكان مؤدب الحكم الثاني:

والأرضُ شيءٌ كلُّها واحدٌ والناسُ إخوانٌ وجيرانٌ^(٥)

وهذه الفكرة نفسها نجدها عند تيرنس، وهو كاتب لاتيني من القرن الثاني قبل الميلاد، فهو يقول في بيت له:

«كل ما هو إنساني ليس غريباً عني»^(٦)

ونحن ندرك تماماً، في سهولة، أن التعليم في إسبانيا الإسلامية أفسح منذ البدء مكاناً لنوع من العلوم الإنسانية، تعين على تكوين روح إنساني في نفوس الشباب، وهم في أول سنى حياتهم، فهم يدرسون أولاً الشعر الجاهلي، وشعر صدر الإسلام من العصور القديمة، ثم يواصلون دراسة المحدثين، أى الشعراء والأدباء في العصر العباسي.

ولم تكن الدولة تنفق على التعليم، وليست لها أية صلة بمنهاجه^(٧)، وكان منتشراً في كل مكان، فالضياح والقرى بها مدارس ابتدائية، والمراكز الهامة بها مدارس ابتدائية وثانوية. أما المدن الكبرى مثل إشبيلية وقرطبة وطليلة وسرقسطة فكانت تضم كل أنواع التعليم: الابتدائي والثانوي والعالي، ولم تكن ثمة خطوط فاصلة وواضحة، غالباً، بين التعليمين الثانوي والعالي، وكل شيء فيه يتوقف على الأساتذة الذين يضطلعون به. وفي البدء لم يكن المدرسون يتقاضون أجراً، وإنما يتلقون، غالباً، إعانات مالية وعينية يدفعها لهم الحاكم أو الأمير، ولم تكن بذات أهمية عموماً^(٨).

وفيما يتصل بالجامعات لم تعرف إسبانيا شيئاً من نوع المدرسة النظامية التي أنشئت في بغداد عام

(٥) من السريع، نفع ٧٤/٣، والمقدمة التي كتبها ديكا للطبعة الأوربية من النفع ٦٧/١. و L. Ecker, Arabischer... Minnesang, 224 وسوف يعبر أبو الصلت الداني، المتوفى ٥٢٩ هـ = ١١٣٤ م عن الفكرة نفسها في بيت من بحر الطويل: إذا كان أصلى من تراب فكلها بِلادى وكل العالمين أقاربى انظر: نفع ١٠١/٢، وينسب هذا البيت أيضاً لأبي العرب الصقل في نفع ٥٧٠/٣.

(٦) Terence, Héautontimorouénos, acte I, vers 25

● تيرنس، ١٨٥ - ١٥٩ ق. م، كاتب لاتيني، ولد في قرطاجة، وبيع رقيقاً وهو صغير إلى عضو في مجلس الشيوخ الروماني، فأعطاه اسمه، وتربية مصقولة، والحريّة، وكان من عظماء كتاب المسرح، ومات غريقاً وهو عائد من بلاد اليونان (المترجم).

(٧) خوليان ريسر، نبذ ومقالات ٢٥٠/١.

● وقد ترجمت كل دراساته عن التربية في إسبانيا الإسلامية، وصدرت عن دار المعارف عام ١٩٨٠ تحمل عنوان: التربية الإسلامية في الأندلس. (المترجم).

(٨) فيها بعد، سوف نشير في ص ٣٨٣ من هذا الكتاب إلى المدرس الذي سأل حسام الدولة بن رزين أن يؤم الناس للصلاة في مسجدين مختلفين وأن يعلم الأطفال.

١٠٦٥ م^(٩). وكانت قرطبة مركزاً للدراسات العالية خلال العصر الأموي، على امتداد القرن العاشر الميلادي، ولكنها فقدت أهميتها في القرن. لتألى له، لأن انتشار الخلافة، وتوزعها إلى دويلات صغيرة أدّى إلى لون من لا مركزية الحياة الثقافية.

صحيح أن صغار الملوك في هذا القرن الحادى عشر اهتموا بتشجيع الدراسات الأدبية، ولكن ليس من المؤكد أنهم اضطلعوا بدفع رواتب للمدرسين ليقوموا بتعليم أبناء الفقراء مجاناً على نحو ما فعل الحكم الثانى^(١٠). وكان الوصول إلى أعلى المراتب يتم اعتماداً على القدرات الشخصية وحدها، فأدى هذا إلى إثارة روح المنافسة بين الريفيين وسكان المدن، ويستوى في ذلك أبناء الحرفيين وأبناء كبار رجال الدولة، كلهم يحاول أن يتمكن في دروسه، وأن يبلغ بدراسته أقصى ما يستطيع، ولم تكن ثمة عقبات تقف في طريقه، لأن الإجازة، أو الشهادة إن شئت، ليست في الحقيقة إلاّ اعترافاً بالمثابرة والاجتهاد، ويستطيع الدارسون، أو الرجال الناضجون، أن يحصلوا عليها بسهولة، في عالم يتمتع فيه الناس عادة بذواكر ممتازة. وكان لجزء الحقيقى ينتظر المرء في المجتمعات الأدبية: إمّا سخرية تأتى على ما يتمتع به من شهرة واسعة، أو إعجاباً يوائم ما يتمتع به من عبقرية وموهبة.

(٩) بعد ذلك بكثير، في القرن الثالث عشر الميلادي، شهدت مدينة مرسية أول جامعة أنشئت في العصر الوسيط، أنشأها ملك مسيحي، ألفونسو العاشر الملقب بالعالم، وامتتح الدروس فيها عالم مسلم هو: محمد بن أحمد بن أبي بكر الرقوطى المرسى، وكان جمهور المترددين على المحاضرات يتكون من مسلمين ومسيحيين ويهود. انظر: نفع ١٣٠/٤، ورييرا، نبذ ومقالات ٦٨/١، والهامش ١ و ٢. وأنخل جونتالت بالنثيا، تاريخ إسبانيا.

(١٠) تاريخ مسلمى إسبانيا، ط١، ج٣، ص ١٠٩، وط٢، ج٢، ص ١٨٤-١٨٥ (نقلا عن البياز المغرب، ج٢، ص ٢٩٦-٢٩٧).

○ الفصل الثاني:

المواد والمؤلفات التي كانت تدرس في القرن الحادى عشر

كانت دراسة الآداب القديمة في القرن الحادى عشر الميلادى تهدف إلى تكوين رجال أدب أكثر، وأفضل، مما هم رجال قانون، ولقد رأينا، طبقاً لابن العربى، أن دراسة الشعر الجاهلى، وفي صدر الإسلام، كانت تحظى بأهمية كبرى، يعرفه الصبيان قبل أن يقرأوا أو يحفظوا القرآن الكريم. ومنطقى إذن أن نعتقد أن الأندلسى حتى سن العشرين كان يهتم بالثقافة العامة، وعندما يبلغ سن النضج فحسب يتخصص في العلوم الإسلامية، من تفسير القرآن، والسنة النبوية، وغيرها. مع الاحتفاظ دأبها بشيء من تكوينه الأول، ويتمثل في تذوق الشعر والنثر الفنى.

وقد ترك لنا أبو بكر بن خير، وهو مؤلف من القرن الثانى عشر الميلادى، (٥٠٢ - ٥٧٥ هـ = ١١٠٨ - ١١٧٩ م)، وعاصر أبا بكر بن العربى في النصف الثانى من حياته، وثيقة عظيمة الأهمية عن نوع الدراسات التى كانت تتم على أيامه في إسبانيا، وهى: «فهرسة ابن خير فيما رواه عن شيوخه»^(١). وهى وإن كانت متأخرة بعض الشيء، نراها صالحة تماماً للدلالة على العصر الذى ندرسه. ألا ينتمى أساتذة ابن خير إلى الجيل الذى ازدهر في النصف الثانى من القرن الحادى عشر، حين كان ملوك الطوائف في قمة توهجهم؟ نعم، يمكن القول في أبعد الأحوال أن المرابطين أحدثوا رد فعل دينى أدّى إلى عودة مُتهمة إلى العلوم الدينية، ونلمح صداها واضحاً في كتاب ابن خير، حين أفسح بين صفحات كتابه مكاناً أكثر اتساعاً للمؤلفات التقليدية.

ولكن القائمة المخصصة للمؤلفات الأدبية تعبر بدقة كافية عن الدراسات الأعظم قيمة في القرن الحادى عشر. وفي البداية يجب أن نلاحظ أنه لا يوجد مؤلف يعود إلى ما قبل عام ١٠٥٠، وأقدم هذه الأعمال «زهر الآداب» للحصرى القيروانى المتوفى عام ٤٥٣ هـ = ١٠٦١ م، «وسقط الزند» وشرحه «ضوء سقط الزند» و«اللزوميات»، وكلها لأبى العلاء المعرى المتوفى عام ٤٤٩ هـ = ١٠٥٧ م.

وسنقف عند كتاب ابن خير فحسب، لأنه الوحيد الذى يمدنا بمعلومات عن التكوين الأدبى لشعر عصر ملوك الطوائف.

يمكن تقسيم هذه المؤلفات المختلفة إلى منتخبات ودواوين مستقلة، خالصة أو مع شرح لها، وطبقات الشعراء، وكتب الأدب الشاملة، والدراسات النحوية، والنوادر اللغوية.

(١) طبعة كوديرا وريبيرا، في المكتبة العربية، المجلدان ١٠٩، سرقسطة ١٨٩٤ - ١٨٩٥ م.

● أهم كتب المنتخبات القلبية ما يلي:

- ١ - القوائد التسع الجاهليات، وهي التي يُطلق عليها اسم المعلقات، بشرح ابن النحاس النحوي، المتوفى عام ٣٣٧ هـ = ١٩٤٨ م^(٢).
 - ٢ - المفضليات والأصمعيات، وهي مختارات من الشعر، الأولى من عمل المفضل لضبي المتوفى عام ١٧٠ هـ = ٧٨٦ م، والثانية من عمل الأصمعي المتوفى نحو عام ٢١٤ هـ = ٨٢٩ م^(٣).
 - ٣ - الحماسة، لأبي تمام المتوفى عام ٢٣١ هـ = ٨٤٦ م، ولها ثلاثة شروح: الأول لابن علي النمرى، والثاني لأبي الحجاج الأعلم الشنتمري، وهو من شتتمرية الغرب في جنوب غربي إسبانيا، والأخير لأبي بكر بن أيوب^(٤).
 - ٤ - أشعار الهذليين^(٥).
 - ٥ - كتاب الشعراء الستة^(٦).
 - ٦ - النقااض بين جرير والفرزدق^(٧).
- الدواوين المنفصلة الآتية:
- ١ - ديوان ذى الرمة^(٨).
 - ٢ - ديوان أعشى بكر^(٩).
 - ٣ - ديوان أبي تمام، المتوفى قريبا من عام ٢٣١ هـ = ٨٤٦ م^(١٠).

(٢) فهرسة ابن خير ٣٦٦، وقد تغير عدد المعلقات مع الزمن، كان سبعة عند أبي زيد القرشي المتوفى قريبا من عام ٢٥٠ هـ = ٨٦٤ م، في كتابه «جمهرة أشعار العرب»، ونلاحظ أنه قسّم القوائد الشهيرة إلى سبع طبقات، في كل طبقة تسع قوائد، وفيها بعد، كما حدث في إسبانيا في القرن الحادى عشر، أصبحت المعلقات تسعا، وتبلغ العشر في المنتخبات الحديثة.

(٣) ابن خير، ص ٣٩٠.

(٤) ابن خير، ص ٢٨٧ - ٢٨٨. وقد شرحها الأعلم الشنتمري شرحا مطولا، ورتب كل باب منها على حروف المعجم. انظر: الصفدى، نكت الهميان ٣٦٤، وألف الشرح للمعتضد بن عباد أمير إشبيلية، انظر: البيان المغرب ٢٨٤/٣، نقلا عن ابن القطان. وألف ابن سيدة الداني، وكان كفيفا، شرحا للحماسة أسماء «الأنبياء في شرح الحماسة»، انظر: الصفدى نكت الهميان ٢٠٥. وكان أبو الفتوح الغرناطى يشرح الحماسة في غرناطة، انظر: تاريخ مسلمي إسبانيا ط ٢ ج ٣ ص ٣١. وجعل منها عبد المؤمن بن علي خليفة الموحدين كتابه المفضل، انظر: المعجب ٢٢٧، وترجمته الفرنسية ١٩٤، ومفاخر البربر ٦٥. وفيها بعد قلد الحماسة كثيرون في الغرب الإسلامى.

(٥) ابن خير ٣٨٩.

(٦) ابن خير ٣٨٨، وقد قام الأعلم الشنتمري بشرحها للمعتضد أمير إشبيلية، انظر: البيان المغرب ٢٨٤/٣ نقلا عن ابن القطان.

(٧) ابن خير ٣٨٣.

(٨) ابن خير ٣٩١. وكان أبو المتوكل الهيثم بن أحمد يحفظ ديوان ذى الرمة، انظر: نفح ٣٧٨/٣. ويقول أبو بكر بن زهر إن ديوان هذا الشاعر يمثل ثلث اللغة، انظر: ابن دحية، المطرب ٢٠٦. وفيه تكثر الإشارة إلى ميم، وهي حبيبة ذى الرمة.

(٩) ابن خير ٣٩١. وديوان الأعشى الكبير وعشى قيس كانا يدرسان أيضا في القرن الحادى عشر، انظر: تلاند العقيان ١٩٨، في أخباره عن ابن السيد البطلوسى.

(١٠) ابن خير ٤٠٢. ونفح ١٣٥/٣ و ١١٢/٤.

- ٤ - ديوان أبي الطيب المتنبي، المتوفى عام ٣٥٤ هـ = ٩٦٥ م، مع شرحه أو بدونه^(١١).
 ٥ - ديوان الصَّوْبَرِي، المتوفى عام ٣٣٤ هـ = ٩٤٥ م^(١٢).
 ٦ - ديوان أبي العلاء المعري المتوفى عام ٤٤٩ هـ = ١٠٥٧ م، المسمى «سَقَطُ الزَّند»، وشرحه المسمى «ضوء الزند» واللزوميات^(١٣).
 ٧ - ديوان أبي العتاهية، المتوفى عام ٢١٣ هـ = ٨٢٨ م، شعره وحياته^(١٤).
 ● كتب طبقات الشعراء، وهي تتضمن مختارات من أشعارهم، مصحوبة بشرح موجزة، وهي ليست كثيرة:

- ١ - التعر والشعراء لابن قتيبة، المتوفى قريبا من عام ٢٧٦ هـ = ٨٨٩ م^(١٥).
 ٢ - طبقات ابن النحاس، المتوفى ٣٣٧ هـ = ٩٤٨ م^(١٦).
 ● أما الدراسات اللغوية فلم يكن يمثلها إلا كتاب «الميسر والقداح» لابن قتيبة^(١٧).
 ● وكانت كتب فقه اللغة نادرة، وتقتلها كتب النوادر^(١٨) لمؤلفين مختلفين، مثل: علي بن حازم اللحياني، وأبي زياد الكلابي، والحصري، وابن مقسم.
 ● وأخيرا كتب الأدب، وهي: زهر الآداب للحصري^(١٩)، وكتاب الآداب لابن المعتز^(٢٠).
 ومع ذلك، فقائمة ابن خير أبعد ما تكون عن الكمال، وهي لا تقدم إلا القليل من الكتب التي كانت تقرأ أو تُدرّس في القرن الحادي عشر. وإذا لم تكن كل الكتب التي تجمعت في مكتبة الحكم الثاني الشهيرة^(٢١) تتداول في نسخ كثيرة، فيمكن الظن على الأقل بأن بعض هذه النسخ كان معروفا

(١١) ابن خير ٤٠٣ و ٤٠٥ و ٤١٥.

(١٢) ابن خير ٤٠٨.

(١٣) ابن خير ٤١١ و ٤١٢. وقد شرح ابن السيد البطلوسي سقط الزند، انظر: نفع ٦٤٣/١. وكان المظفر بن الأفتس يضع المتنبي والمعري في مقدمة الشعراء، انظر: أعمال الأعلام ١٨٤. وص ٥٠. الهامش ٢٧ و ٢٨ من هذا الكتاب.
 (١٤) ابن خير ٤١٤. ومن الضروري أن نشير بخاصة إلى الدواوين التي حملها معه أبو علي القالي من المشرق إلى إسبانيا، وهي دواوين: ذى الرمة، وعمرو بن قميئة، والخنساء، والحطيئة، وجبل، وأبي النجم، ومعن بن أوس، والناطقة الذبياني، وعلقمة بنت عبدة، والشماع بن ضراء، والأعشى ميمون بن قيس، وعروة بن الورد، والمنقب العبدى، ومالك بن الربيب المازني، والناطقة الجعدى، وكثير عزة، وأوس بن حجر التميمي، والقطامي والأخطل، وعمرو بن شاس، وعدى بن زيد العبادى، وعبدة بن الطبيب، والأفوه الأردى، وزهير بن أبي سلمى، وعبيد بن الأبرص، والمرقس الأكبر، والمرقس الأصغر، وسلعة بن جندل، وقيس بن الحطيم الأنصاري، والطرماع، وامرئ القيس، ودريد بن الصمة، وأبي خلدة، ورؤبة، وعمر بن أبي ربيعة، وأبي نواس، وجبرير، وطرفة بن العبد، وطفيل الغنوي، وأبو تمام. انظر: ابن خير ٣٩٥ - ٣٩٨.

(١٥) ابن خير ٣٧٨.

(١٦) ابن خير ٣٧٩.

(١٧) ابن خير ٣٧٨.

(١٨) ابن خير ٣٧٩.

(١٩) ابن خير ٣٨٠.

(٢٠) ابن خير ٤٠٥، ولم يذكر ابن خير ديوان ابن المعتز، ولكن هذه المجموعة يجب أن تكون معروفة. انظر: نفع ٦١٤/٣.

(٢١) الحلة السيرة ٢٠٠/١، ونفع ٣٨٥/١ و ٧١/٣، وليفى بروقتسال، إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر الميلادي، ٢٣٣ - ٢٣٤.

للأدباء المقرئين من البلاط الأموي، وأن سقوط هذه الأسرة لم يذهب بكل التراث الذي تركّز في قرطبة، غير أن لا مركزية السياسة أدت إلى لون من اللامركزية الأدبية أيضا، فتوزعت المكتبات الشخصية لصغار الملوك، والمكتبات الخاصة لأولئك الذين يهتمون بالثقافة على نحو ما، مكتبة الحكم الثاني^(٢٢).

ويمكن أن نعتقد أيضا أن كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، وحصل الحكم^(٢٣) على إحدى نسخه الأولى، كان بعض الأساتذة يقرأونه في محاضراتهم، ويروى لنا المؤرخون أن ابن عبدون الشاعر، كان يحفظه ويستطيع أن يملئه من الذاكرة وهو في شيخوخته^(٢٤). والحق أن كتاب الأغاني استطاع بمحتواه، شعراء وموسيقا، أن يستحوذ على أذواق الأندلسيين، وترك على الرغم من قلة نسخه المتداولة تأثيرا قويا وعميقا في الأوساط الأدبية والراقية من سكان شبه الجزيرة^(٢٥).

وثمة مؤلفات أخرى باللغة الأهمية في دراسة اللغة العربية لا نجدها كذلك في فهرسة ابن خير، وهناك وثائق هامة تشهد بوجودها. ومن بين هذه الوثائق رسالة ابن حزم في «فضل أهل الأندلس»، وتذييل ابن سعيد عليها، وروايات عديدة أوردها المقرئ في كتابه «نفح الطيب»، وسنكتفي بذكر أهمها فحسب:

النوادر لأبي على القالي، وألفه في إسبانيا نفسها، وقّله أبو عبد الله بن أبي الخصال، من علماء القرن الحادي عشر، في كتابه «سراج الأدب»^(٢٦).

الأمالي، لمؤلف «النوادر» نفسه، وألفه في إسبانيا أيضا، وقّله أبو عبيد البكري، الجغرافي الأندلسي الشهير، في كتابه «الآلئ»^(٢٧).

وكان الكتاب لسببويه موضع دراسة بقطعة منذ زمن طويل، وفي عهد عبد الرحمن الناصر طالع الوزير عبد الوهاب بن محمد، وكان بصيرا بالعربية، «كتاب سبويه، ونظر فيه، وكان ذا كبر عظيم،

(٢٢) انظر: ساعد الأندلسي، طبقات الأمم، طبعة شيخو، ص ٦٧، وترجمته الفرنسية التي قام بها بلاشير ص ١٢٦، وكثيرمير، دراسة عن حب الكتب عند المشاركة، ص ٧٢ - ٧٣، نقلا عن المنهل الصافي، ونفح ٣٨٦/١، وتاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٢ ص ٣٠٣.

● درس خوليان ريبيرا قضية الكتاب في إسبانيا على نحو مستفيض، وترجمتها، فيها ترجمنا له، انظر: التربية الإسلامية في الأندلس، دار المعارف بالقاهرة ١٩٨١ (الترجم).

(٢٣) تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٢ ص ١٨٤، والإحالات المذكورة في الهامش رقم ١.

(٢٤) المصجب ٩٠، وترجمته ٧٥.

(٢٥) حاول يحيى الحدج المرسى أن يقد الأغاني في كتابه «الأغاني الأندلسية»، نفح ١٨٥/٣، وقامت مواظنته فنحونة بنت جعفر، من أهل مرسية، وتكنى أم الفتح بتأليف كتاب في قبان الأندلس عارضت به أبا الفرج الأصفهاني. انظر: برنس بويجيس، دراسة ص ٥١٣، وابن الأثير، تكملة الهلة، الترجمة رقم ٢٨٦٨، في الفصلة التي نشرت منه في مدريد عام ١٩٣٥. واختصر الأغاني أبو الربيع حاكم سجلماسة للأمير الموحيدي: نفح ١٠٨/٣.

● قلت أورده المؤلف الحدج، وصحته الحدج كما ضبطه الرعيي في برنامج شيخو، ص ١٦٤، طبعة دمشق ١٣٨١هـ = ١٩٦٢م. وقد أتينا على هذه الدراسات، وعرفنا بها، وبمنهج الأغاني تفصيلا، في كتابنا «دراسة في مصادر الأدب»، الفصل الخاص بكتاب الأغاني، ط ٦، دار المعارف بالقاهرة ١٩٨١ (الترجم).

(٢٦) نفح ١٨٤/٣.

(٢٧) نفح ١٨٤/٣.

وبأومفرط، ويظهر مع ذلك زهدا، وولى الوزارة، فكان لا يزال يورد على أصحابه من الوزراء مسائل من عويص النحو، حتى برموا به، واستعفوه من ذلك^(٢٨)، وكان ابن الأبرش، أبو القاسم بن خلف معجبا بكتاب سيبويه، حتى أنه يرفض أن يدرس غيره^(٢٩). وفي دانية وجد سيبويه شارحا مطنبا أحيانا في شخص ابن المناصف، حتى أنه أملى «على قول سيبويه: هذا باب ما الكلم من العربية» عشرين كراسا، بسط القول فيها في مائة وثلاثين وجها^(٣٠).

وكان لفصيح ثعلب، المتوفى عام ٢٩١ هـ = ٩٠٤ م، معجبون أيضا. فدرسه أبو عمران موسى بن سعادة، مولى سعيد بن نصر، المتوفى عام ٥١٤ هـ = ١١٢٠ م^(٣١). وكان «إصلاح المنطق» لابن السكيت أقل قراءة، ولكن ابن سيدة كان يحفظه عن ظهر قلب^(٣٢).

وقد تمتع كتاب «الغريب المصنف» لابن سلام الهروي، المتوفى عام ٢٢٣ هـ = ٨٣٧ م، بشعبية أكبر من أى عمل آخر، وبسببه تبادل منذر بن سعيد البلوطي أبياتا من الشعر مع أبي على القالى يستعير منه كتاب الغريب^(٣٣). وكان ابن سيدة أعمى دانية يحفظه ظهر قلب، وأبو عمر الطلمنكى يدرسه في مرسية^(٣٤). واعتبره ابن حزم من أكمل المؤلفات التي توصل إلى معرفة مفردات اللغة العربية^(٣٥) ولما سئل أبو بكر محمد بن أحمد الأنصارى، المعروف بالأبيض، عن لغة فعجز عنها بحضور من خجل منه، أقسم أن يقيد رجله بقد حديد، كما فعل الفرزدق، ولا ينزعه حتى يحفظ «الغريب المصنف»، واتفق أن دخلت عليه أمه في تلك الحال فارتاعت^(٣٦).

ولم يذكر ابن خير أيضا كتاب «أدب الكاتب» لابن قتيبة، ويعتبر موجزا ممتازا للغة العربية، وقد شرحه ابن السيد البطليوسى، من القرن الحادى عشر الميلادى، بعنوان «الاقتضاب من أدب الكتاب»^(٣٧)، وكان أبو عمران موسى بن سعادة يدرسه في مرسية إلى جانب كتاب فصيح ثعلب^(٣٨).

(٢٩) نفح ١١١/٤.

(٢٨) الحلة ٢٤١/١.

● قلت: راجعت النفح كله في طبعاته المشرقية فوجدته اقتصر في ذكره لابن الأبرش على أبيات من الشعر رواها عنه، وحوار حول إعراب بيت من الشعر. واقتصر البلفيقي في «المقتضب من تحفة القادم» ص ١٣ ط القاهرة ١٩٥٧ على ذكر: «تجول في الأندلس وغيره معلما بالعربية». ولم يزد ابن بشكوال في «الصلة»، ط القاهرة الترجمة ٤٠٣، على: «وكان عالما بالأدب واللغات مقدما في معرفتها وإتقانها». وفي «بغية الملتبس»، ط مدريد الترجمة ٧٢٢: «كان وحيد عصره في علم اللسان، ذا سبق فيه» (المترجم).

(٣٠) نفح ١٤١/٤.

(٣١) نفح ٢٢١/٢.

(٣٢) صاعد الأندلسى، طبقات الأمم ٧٧، وترجمة بلاشير ١٤٢.

(٣٣) نفح ٢٠/٢.

(٣٤) نفح ٣٧٩/٣، وصاعد الأندلسى، طبقات الأمم ص ٧٧، والترجمة ١٤٢.

(٣٥) مخطوطة القسطنطينية، وحللها أسبن بلاتينوس في مجلة الأندلس، المجلد الثانى عام ١٩٣٤، العدد ١ ص ١٣٠.

(٣٦) نفح ٤٨٩/٣، وانظر أيضا: دوزى، رسالة إلى فليشير ١١١ - ١١٦.

(٣٧) نفح ١٨٤/٣ و ٢٨٧.

● قلت: وقد قدم العالم الجليل الدكتور حامد عبد المجيد بتحقيقه، وصدر في ثلاث مجلدات عن الهيئة العامة للكتاب في مصر، القاهرة ١٩٨٢ - ١٩٨٧ (المترجم).

(٣٨) نفح ٢٢١/٢.

وثمة كتاب آخر يدرس النحو والتاريخ أكثر مما يعرض للغة والشعر، ولقى إعجاباً بالغاً، وأعنى به كتاب «الكامل» للمبرّد، وجاء به من المشرق محمد بن أبي علاقة البواب، على أيام الحكم المستنصر^(٣٩)، وكانت العروضية، مولاة أبي المطرف عبد الرحمن بن غلبون الكاتب البُلنسى، تحفظه عن ظهر قلب^(٤٠).

وقد نال كتابا الكامل والنوادر شهرة عريضة، حتى أن علماء اللغة الإسبان، أو المهاجرين إلى إسبانيا، قدّوها: فألف صاعد اللغوى كتاب «الفصوص»، وألف أبو على إسماعيل بن القاسم القالى كتاب «النوادر»، «وهو مبار لكتاب الكامل»^(٤٢).

ومن الواضح تماماً أن ابن خنير لا يدعى لنفسه أنه أورد في فهرسته كل المؤلفات الأدبية التي كانت تدرس على أيامه، أو في العصر الذي سبقه، وهو أبعد عن الشمول فيما يتصل بدواوين الشعراء، والكتب المتصلة باللغة، وعلمنا أن نكمل وثيقته بالإشارات التي أمّدتنا بها البلاغيون في القرن الحادى عشر الميلادى، وبخاصة ابن رشيق القيروانى، وألف كتاب «العمدة في صناعة الشعر ونقده» في هذا القرن، وهو كتاب موجز وأساسى في الدراسات الأدبية^(٤٣).

يقول ابن رشيق: «وليس في المولدين أشهر اسماً من الحسن أبي نؤاس، ثم حبيب والبحترى، ويقال أنها أخلا في زمانها خمسمائة شاعر كلهم مجيد. ثم يتبعها في الاشتهار ابن الرومى وابن المعتز، فطار اسم ابن المعتز حتى صار كالحسن في المولدين، وأمرئ القس في القدماء، فن هؤلاء الثلاثة لا يكاد أن يجهلهم أحد من الناس، ثم جاء المتنبى فملأ الدنيا وشغل الناس»^(٤٤).

يرسم لنا ابن رشيق، في سطور قليلة، الطريق الذى سلكه الشعر العربى منذ الجاهلية حتى أيامه، وأعلامه المميزين، أولئك الذين اعتبرهم شعراء من الطبقة الأولى. نعم، إن ابن رشيق ومعاصريه، وما جاء به ليس إلا صدق أفكارهم، يعتبرونهم عباقرة، لكن مع ذلك لا مفر من الظن بأن هذه القيم تغيرت بجنى المرابطين مع نهاية القرن الحادى عشر، ومطلع القرن الذى يليه، لأن هؤلاء لا يظهرون جميعاً في فهرسة ابن خنير.

ومع ذلك فإن أبا نؤاس الشاعر المحدث أكثر الشعراء قراءة، وأقربهم ذوقاً إلى الأندلسيين. وشاع الاعتقاد في القرن العاشر الميلادى بأن شعره يضعف النفوس، كما نفهم من رواية أوردها لنا ابن القوطية، ومؤداها: أن أُمّية بن عيسى بن شهيد، وزير الخليفة محمد بن عبد الرحمن، «خطر بدار الرهائن المجاورة لباب القنطرة، ورهائن بنى قسى ينشدون شعر عنتره، فقال لبعض الأعوان إيتنى بالمؤدب، فلما نزل في فراش المدينة وأتاه المؤدب فقال له: لولا أنى أعزرك بالجهل لأدبتك، تعمد إلى شياطين قد شجى الخلفاء بهم، فتروهم الشعر الذى يزيدهم بصيرة في الشجاعة، كف عن هذا، ولا تروهم إلا خريات الحسن بن هاتى، وشبهها من الأهزال»^(٤٥).

(٣٩) نفع ١٥٠/٢.

(٤٠) نفع ١٧٢/٣.

(٤١) نفع ١٧٢/٣.

(٤٢) نفع ١٧١/٤.

(٤٣) عن ابن رشيق، المتوفى ٤٥٦ هـ = ١٠٦٤ م. انظر: دائرة المعارف الإسلامية ٤٣٤/٢. وكتب المادة ابن شنب.

(٤٤) ابن رشيق، العمدة ٦٤/١.

(٤٥) ابن القوطية، ط مدريد، ص ٩٤، وانظر: ريبيرا، نيز ومقالات ٢٩٠/١.

وعن مشاهد مماثلة يروى لنا «المغرب» أن الأمراء كثيرا ما كانوا يدعون شعراءهم إلى معارضة هذا البيت أو ذاك من شعر أبي نواس، وأن صاعداً البغدادي كان يحسّ بعجزه عن ذلك حتى مع الروبة والتفكير الطويل^(٤٦). ويروى عبد الرحمن بن شيبان الحضرمي الإشبيلي أنه رأى في النوم أنه مرَّ على قبر، ويقوم يشربون حوله، وسط أزاره، فأمره أن يرثي صاحب القبر، ولم يكن غير أبي نواس، فرثاه^(٤٧). والدليل الأكثر إقناعاً على ذبوعه في القرن الحادي عشر الميلادي أن عدداً كبيراً من الشعراء كانوا يقلّدونه، فعارض ابن درّاج القسطلي رائيته الشهيرة في مدح ابن الخصيب حاكم مصر^(٤٨)، ونظم أبو عامر بن شهيد، وابن سارة، قصائد من نفس البحر، وفي نفس القافية، التي نظم فيها أبو نواس داليتة الشهيرة^(٤٩). وعارض أبو تمام غالب بن رباح الحجام سينية أبي نواس في الكئوس والحانة، ولكن في قافية مختلفة^(٥٠).

ورأى الإشباني في ابن الرومي المتوفى ٢٨٤ هـ - ٨٩٧ م شاعراً هجاءً^(٥١)، وعرفوا قصائده التي وصف فيها الطبيعة، ومن بينها تلك التي يَن فيها تفضيله زهرة الترجس واحتقاره الورد، مما جعل كثيرين من الشعراء الأندلسيين يردون عليه^(٥٢)، وأبياته الثلاثة التي يصف فيها خبازاً ذات شهرة عالمية^(٥٣).

أما البحرى المتوفى عام ٢٨٤ هـ = ٨٩٧ م، فكان مثل أبي نواس شاعراً عزيزاً على الأندلسيين، واعتقدوه نبياً حيث يقول:

إِنَّ شَعْرِي سَارَ فِي كُلِّ بَلَدٍ وَاشْتَهَى رَفَقَتَهُ كُلُّ أَحَدٍ
أَهْلُ فَرْغَانَةِ قَدْ غَنَوْا بِهِ وَقرى السوس^(٥٤) وَأَلْطَا وَسَدَّ
وَقَرَى طَنْجَةَ وَالسُّدَّ الَّذِي بِمَغِيبِ الشَّمْسِ شَعْرِي قَدْ وَرَدَ^(٥٥)

ولم تتوقف شهرة البحرى عند طنجة ولكنها عبرت المضيق، وكان الشعراء الإشباني يلتقون معه في كثير من النقاط، حتى أن ابن بسام لم يجد ما يعبر به عن عبقريته أفضل من قوله: «ذلك هو

(٤٦) نفع ٩٧/٣.

(٤٧) نفع ٤٨٤/٣.

(٤٨) ابن حكان، الوفيات ٤٢/١، ط. القاهرة، وزكى مبارك، الموازنة بين الشعراء ٢٢١ - ٢٥٢. وفون شاك، الشعر العربي في

إسبانيا وصقلية ٢٢٨/١.

● ترجمت كتاب شاك إلى اللغة العربية وصدر منه الجزء الخاص بالفن، بعنوان «الفن العربي في إسبانيا وصقلية» عن دار المعارف، طبعته لثانية، القاهرة ١٩٨٥، وسوف يصدر، وعن دار المعارف أيضاً، القسم الخاص بالشعر. (المترجم).

(٤٩) نفع ٥٤٩/٣ والقلائد ٢٦١ - ٢٦٣.

(٥٠) نفع ٤١٦/٣.

(٥١) نفع ٢٩٣/- وكان ذلك بمناسبة أبيات ماجنة لولادة.

(٥٢) انظر فيما بعد ص ١٦٧ وما بعدها من هذا الكتاب.

(٥٣) نفع ١١١/٢. وقد اقتبس ابن خاقان النضر الأول من البيت الثالث في جملة له: القلائد ٢٧، ونفع ٢١٨/٤.

(٥٤) السوس تقع في فارس. وانظر فيما يتصل بها دائرة المعارف الإسلامية ٥٩٢/٤. والمادة كتبها شتريك.

(٥٥) من لطويل، ياقوت، معجم البلدان ٣٥٠/١ و ٨٨٠/٣.

● توجد أيضاً في ديوان البحرى، المجلد الثانى، القصيدة رقم ٣١٣، ص ٧٩٢، طبعة دار المعارف، القاهرة. (المترجم)

البحترى، طريقته في الشعر نمودجية، لسلاسته وجزالته، ولطلاوته وقوته»^(٥٦). ولم يفلت البحترى من التقليد، ومن نسخ أبياته، وابن أخت غانم، العالم اللغوى أبو عبدالله محمد بن معمر، شاعر المرية، يهجو ابن شرف، أبا الفضل جعفر، من برجة فيقول:

قولوا لشاعر برجة هل جاء من أرض العراق فحاز طبع البحترى
وأنى بأشعار تضح بكفه وتقول هل أعزى لمن لم يشعر
يا جعفرًا ردّ القريض لأهله وأترك مباراة لتلك الأبحر
لا تزعمن ما لم تكن أهلاً له هذا الرضاب لغير فيك الأبحر^(٥٧)

وأخيرا يحبى المتنبي!

ويقول ابن رشيق بحق: إن هذا الشاعر «ملاً الدنيا وشغل الناس»، وعانى الغرب الإسلامى من سلطانه^(٥٨)، وإذا لم يستطع أن يحو ذكرى البحترى وابن المعتز من ذواكر الناس، فقد استطاع أن يحتكر العقول، لأنه جمع إلى طلاوة الشاعر فكر الفيلسوف. وقد شرح ديوانه الأعلام الشنتمرى^(٥٩)، والإقليلى المتوفى عام ٤٤١ هـ = ١٠٤٩ م^(٦٠)، وابن سيده المرسى المتوفى عام ٤٥٨ هـ = ١٠٦٦ م^(٦١)، ووجد ابن بسام نفسه مضطرا لأن يلعب بيسير من أخباره في الذخيرة، وكانت في الحقيقة تاريخية أكثر منها أدبية^(٦٢).

وفي مختاراته عبر كل كتابه، نرى المجلدات الثلاثة الضخمة، لم يتوقف أبدا عن ذكرى بيت للمتنبي وجد شبها بينه وبين أشعار الأندلسيين، وكان هذا التشابه في الحق كثيرا إلى حد بعيد. وبين كل صغار ملوك إسبانيا في القرن الحادى عشر الميلادى، كان المعتمد، فيما يبدو، أكثر من درس المتنبي وقدره، غير أن هذا الإعجاب لم يهر فيه روح النقد^(٦٣)، مما أغضب الشعراء الذين كانوا يحيطون به، ويقص علينا المقرئ أن المعتمد استحسن يوما قول المتنبي:

إذا ظفرت منك المطي بنظرة أتاب بها معبى المطي ورازمه
فارتجل ابن وهبون بديهة البيتين الآتين، وفيها يلتقى الغيظ والإعجاب:
لئن جاد شعر ابن الحسين فإنما تجيد العطايا واللها تفتح للها^(٦٤)

(٥٦) الذخيرة، القسم الثانى، مخطوطة اكسفورد، الورقة ٧١ ب، وعنها نقله دوزى في «بنو عباد» ٢٠٢/١، وترجمته ص ٧٠٦.. ولم أهتم إلى النص في النسخة المطبوعة، والتي نشرها الدكتور إحسان عباس (الترجم).

(٥٧) من الكامل، نفع ٣٩٧/٣، ودوزى في أبحاث ط ٣ ج ٢ ص ٢٥٠.

(٥٨) بلاشير، الشاعر العربى المتنبي والغرب الإسلامى، في مجلة الدراسات الإسلامية، عام ١٩٢٩. العدد الأول، ص ١٢٧ - ١٣٥. وأبو الطيب المتنبي ص ٢٩٣ - ٢٩٩.

(٥٩) نفع ١٨٤/٣، والصفدى، نكت الهميان ٣١٤، وبلاشير، أبو الطيب ٢٩٦.

(٦٠) الصفدى، نكت الهميان ٣١٤، وبلاشير، أبو الطيب ٢٩٥ - ٢٩٦.

(٦١) بلاشير، أبو الطيب ٢٩٦.

(٦٢) الذخيرة ٤٩٤/٣.

(٦٣) نفع ٢٦١/٤، وبلاشير، أبو الطيب ٢٩٥.

(٦٤) أى أن الذبوع والانتشار يطلق اللسان.

تنبأ عجباً بالقريض ولو درى بأنك تروى شعره لتألهأ! (٦٥)

ولم تقف إسبانيا الإسلامية في القرن الحادى عشر الميلادى عند المتنبي، وإنما استرعى انتباهها شعراء آخرون. وابن خفاجة، وأصبح أكبر مصوّر للطبيعة، ولم يكن في الحقيقة غير مقلد ذكى، اعترف بأنه يدين بجانب كبير من إلهامه لشعراء من المشرق مثل: الشريف الرضى الموسوى، المتوفى عام ٤٠٦ هـ = ١٠١٥ م^(٦٦)، وعبد المحسن الصورى، المتوفى عام ٤١٩ هـ = ١٠٢٨ م^(٦٧)، ومهيار الديلمى، المتوفى عام ٤٢٨ هـ = ١٠٣٦ م^(٦٨)، وليس صعباً أن نظهر ما يدين به للبحترى، وعرضنا له من قبل، وللصنوبرى المتوفى عام ٣٣٤ هـ = ٩٤٥ م^(٦٩). ألم يطلقوا عليه لقب صنوبرى إسبانيا؟^(٧٠) وأما مهيار الديلمى فكان موضع تقليد شعراء آخرين غير ابن خفاجة، فنحن نجد بين صفحات «نفع الطيب» للمقرى مقطوعة، ميمية القافية، ليحيى بن هذيل، استلهمها على نحو واضح من ميمية مهيار^(٧١).

وفيا يتصل بأبى العلاء المعرى، (٣٦٣ - ٤٤٩ هـ = ٩٧٣ - ١٠٥٧ م)، نفاجاً بعض الشيء حين نعرف أن من بين أعماله كلها لم يعرف الأندلسيون غير كتابين اثنين هما: سقط الزند واللزوميات، ومع ذلك نعرف أن ولد ابن عبد الغفور صنع رسالة سماها «الساجعة»، هذا بها حذو أبى العلاء المعرى في رسالته «الصاهل والشاحج»^(٧٢)، ولكن من غير المعقول أن رسالته الأخرى لم تقع في يد الإسبان، على الأقل في النصف الثانى من القرن الحادى عشر.

أما مسألة تأثير «رسالة الغفران» في «الكوميديا الإلهية» لدانتي، وفجرت منذ ثلاثين عاماً، على نحو ما نعرف، أبحاثاً مثيرة عن الصلة بين الآداب المشرقية والأعمال الأوربية الوسيطة، ذات الإلهام المسيحى، فقد ظهرت في إسبانيا الإسلامية في صورة مختلفة تماماً، وربما يتوقف على حلها أن تأخذ مشكلة دانتي وأدب الآخرة الإسلامى وجهة جديدة، ومن المنير حقاً أن نلاحظ أن إسبانيا الإسلامية عرفت منذ نهاية القرن العاشر، أو بداية الحادى عشر على أكثر تقدير، أى قبل رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى، عملاً كان موضوعه رحلة شاعر إلى الجنة، وهو «رسالة التوابع والزوابع» لأبى

(٦٥) نفع ١٩٤/٣ و ١٣٥، وغرسة غوث، ترجمته لرسالة فضائل الأندلس للشقندى ص ٥٥٩ - ٦٠، وبيت المتنبي يوجد في شرح المكبرى ٢٣٣/٢، وفي ديوان المتنبي شرح البرقوقى ٢٣٥/٢، القاهرة ١٣٤٨ هـ - ١٩٣٠ م.

(٦٦) أورد عنه ابن بسام خبراً في الذخيرة ٥٨٠/٤.

(٦٧) ديوانه مفقود فيما يبدو وعن الشاعر انظر: ابن خلكان، الوفيات ٣٠٨/١، وترجمة دى سلان ١٧٦/٢.

(٦٨) خصه ابن بسام بخبر في الذخيرة ٥٤٩/٤.

(٦٩) أخبار الصنوبرى المتناثرة جمعها محمد راغب طباط، بعنوان «الروضيات»، حلب ١٣٥١ هـ = ١٩٣٢ م.

(٧٠) نفع ٤٨٨/٣.

(٧١) نفع ٣٥٧/٣، وقصيدة مهيار في ديوانه ٣٢٧/٣.

(٧٢) ابن خاقان، مطمح الأنفس ٢١٨، وعنه نقلها المقرى في النفع ٥٥١/٣، ولا يوجد نص الساجعة إلا في الذخيرة، مخطوطة نلسان، الورقة ١٦٣ ب - ١٦٦ أ.

● قلت: هذا النص لا يوجد في الذخيرة التى نشرها الدكتور إحسان عباس كاملة، وابن عبد الغفور هذا هو: أبو القاسم محمد بن عبد الغفور. انظر: المغرب ٢٣٧/١، (الترجم).

عامر بن شهيد^(٧٣)، الشاعر والناقد الذي سنعرض له في مناسبات كثيرة. وفي هذه الرسالة يقدم لنا ابن شهيد قليلا من وصف الجنة، وكثيرا من النقد، من وجهة نظر أدبية خالصة، ولكن بطريقة ساخرة، عن شعراء العرب في الجاهلية والإسلام حتى المتنبي.

وبعد ذلك بقليل، في بلاط المعتصم أمير المرية، عالج مؤلف آخر يسمى ابن الشهيد أيضًا، ويكنى أبا حفص، الموضوع نفسه، ومن وجهة النظر ذاتها، في مقامة أدبية^(٧٤)، وتشبه كثيرا رسالة «التواضع والزواجع»، وغيل إلى الاعتقاد بأن أبا حفص عمر بن الشهيد، وإن كتب مقامته في فترة معاصرة لآخرة أيام أبي العلاء المعري، أو بعد موته، إلا أنه استلهم قريبه، وسلفه، أبا عامر ابن شهيد، وهذا الأخير لم يعرف رسالة الغفران، ولم يستلهم فكرته إلا من نفسه، أو من الوسط الذي عاش فيه. وهنا نخمن بأن أبا عامر بن شهيد، وكان كثير الاختلاط بالمستعربين، وبالقسس المسيحيين، ويهود قرطبة، استطاع بتداخله معهم أن يقرأ ترجمة، غير كاملة دون شك، لكتاب محاورات لوسيان dialogues de lucien، أو كتاب Cratyle أو فيدون Phédon لأفلاطون^(٧٥).

ونظن أن المصادر الأقل استبعادا لهذا العمل الأصيل، وهو الوحيد في الأدب العربي حتى مطلع القرن الحادي عشر، يمكن أن نبحث عنها في المناقشات التي كانت تجري بين ابن شهيد المراهق وبين والده أو جده، أليس منطقيا أن نقبل أن الراهب نقولا، والذي أرسله إمبراطور بيزنطة الرومانية إلى عبدالرحمن الناصر ليترجم ويشرح كتاب ديوسقوريدس Dioscorides في الطب استطاع خلال إقامته في قرطبة أن يوطد علاقاته مع أحمد بن عبد الملك بن شهيد، والذي بلغ مكانة عالية، وله أنشأ عبد الرحمن الناصر رتبة «ذى الوزارتين» في عام ٣٢٧ هـ - ٩٣٩ م^(٧٦)؛ وأحمد بن عبد الملك هذا هو جد صاحبنا مؤلف «رسالة اتواضع والزواجع»، وكان مغرما بالأدب، واستطاع أن يعرف جيدا شيئا عن بعض المؤلفات اليونانية القديمة الهامة، وعن لوسيان وأفلاطون، والحكايات التي جمعها لنفسه انتقلت مع هذا الطابع الساخر، وكان اتجاهها مميّزا لأسرة بني شهيد في الأدب، إلى ابنه أولا، ثم إلى حفيده من بعد، مع التغيير الذي لا مفر منه، أو بالأحرى تطویرها لتوائم عبقرية لشخص الذي يروها وهكذا خلال نيف وسبعين عامًا من الامتداد الزمني يظهر الفكر اليوناني أو اللاتيني ثانية، بعد إعداد بطيء، خلال أشكال ليس فيها من الطابع العربي شيء، في مثل رسالة أبي عامر بن شهيد هذه، والتي تجسّد المثل الأروع دقة في الأدب الأندلسي.

هذه الافتراضات التي عبّرنا عنها، مهما كانت هشة، تظهر في احتمالاتها، أن دراسات الأدباء

(٧٣) الذخيرة ٢٤٥/١، وأحمد ضيف، بلاغة العرب في الأندلس ٤٩، وابن شهيد الأندلسي، رسالة التواضع والزواجع، ط. ب. البستاني ص ١١٥ - ٢٠٩ (وزهير هو الذي قاد ابن شهيد). وفيما يتصل بسبق رسالة التواضع والزواجع لرسالة لغفران، انظر: زكي مبارك، الثر اللقي في القرن الرابع الهجري، العاشر الميلادي، باللغة الفرنسية ص ٢٣٩٤، وفي النص العربي ٢٥٨/١. (٧٤) الذخيرة ٦٧٠/١ وما بعدها.

(٧٥) ألف ابن جبيرول في عام ١٠٤٥ م في سرقسطة أول كتاب له عن الفلسفة الأخلاقية، وهو «إصلاح الأخلاق»، ويضم آيات من التوراة، وأمثالا من التلمود، وخيطة من الحكم لسقراط وأفلاطون وأرسطو، والفلاسفة العرب وغيرهم. انظر: جريتر، يود إسبانيا من ١٥٠.

(٧٦) ليفي بروفسنال، إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر الميلادي ص ٦٨ و ١٠١ - ١٠٢.

الإسبان و «الإنسانيين»، كما نفهمهم، لا تقف عند دراسة المؤلفين العرب وحدهم، وشعراء المشرق من بينهم بخاصة، وإنما تمتد أيضاً إلى المؤلفين اليونان، وإلى اللاتين احتمالاً، عن طريق الترجمة. والإشارة إلى الحكمة اليونانية والفارسية تتناثر بكثرة عبر أبيات الشعر العربي في المشرق والمغرب، ويُعتبر المتنبي، ولا يزال، أكثر الشعراء فلسفة، وقد كتب الحاقم رسالة ذكر فيها إلى جانب كل بيت من شعر المتنبي تَضَمَّنَ حكمة جملة لأرسطو تلتقى، أو تتشابه على نحو واضح، مع فكرة البيت ومعناه^(٧٧).

يقول الوزير أبو عامر بن يَنق، ويتق كلمة إسبانية أصله Inigo، في قصيدة يمدح بها المظفر بن جهور:

دُعْ عنك ما خلَّدت يونانُ من حكمٍ وسار في حكماء الفرس من مثل
وانظر إليها تجدها أحرزت سبقاً في الجهد منها وحاز سبق في مهل^(٧٨)

ويقص علينا ابن الأثير فيما يتصل بالدراسات التي أُكِّبَ عليها أمراء أسرة بني عباد أصحاب إشبيلية، أنَّ الرشيد بن المعتمد طالع شيئاً من العلوم الرياضية، وكشف له غيب الأغاني، حتى قيل إنه أجاد الضرب على العود، وكان له أدب وشعر، وفي الفقه كان يطبق في إشبيلية مذهب مالك وأصحابه^(٧٩). وهذا الاهتمام بالعلوم الخالصة لدى تلميذ مالك هذا يشير إلى لون من الفضول العلمي كان شائعاً بين الأندلسيين على نحو أكثر مما نظن.

وحالة الراضى، أخو الرشيد، نموذج أشد دلالة بكثير، لقد أظهر هذا الطفل المدلل لدى والده المعتمد ميلاً قوياً إلى القضايا الفكرية، وكان يؤثر دراسة النحو والفقه، ومجالسة الشعراء والفلاسفة، والرياضيين والفلكيين، على خوض معامع الحروب^(٨٠).

كان ذلك أكيداً انتجسيد الأشد وضوحاً «للأنسية humanisme» كما كانت تفهم في ذلك العصر، وثمة توازن منسجم بين العلوم والآداب، والفن يكمل الشعر، ويحيى البحث عن «الإنسان» في أوج قدرته في الخط الأول من اهتمامات العصر، ومن الآن فصاعداً أصبحت الاهتمامات الحربية غير ذات أهمية بالنسبة إلى القضايا الثقافية والتأملات الفكرية، ولكن الدراسة مع ذلك لم تأت على كل فضائل العمل.

لقد تميّزت إسبانيا القرن الحادى عشر الميلادى بمعرفة هذا الجانب الجديد من الفكر الإسلامى،

(٧٧) الحاقم، التوفى ٣٨٨ هـ = ٩٩٨ م، الرسالة الحاقية في التحفة البهية ص ١١٤ - ١٥٩، ط. بيروت ١٩٣١، وط. بلاشير في مجلة إسلاميكيا، المجلد الثانى ١٩٢٦، العدد ٣، من ٤٣٩ وما بعدها.

(٧٨) من السيط، لقلاند ١٨٧.

(٧٩) الحلة السيرة ٦٨/٢، وبنو عباد ٧١/٢ - ٧٢.

(٨٠) يقول ابن الأثير: «كان الراضى من أهل العلم والآداب، كلفا بالمطالعة والدراسة، قرأ كتب القاضى أبى بكر بن الطيب، وأشرف على مذهب أبى محمد بن حزم الظاهرى، فمهر في الأصول، وذهب إلى النظر والاختيار». الحلة ٧١/٢، وبنو عباد ٧٥/٢. وفيها بعد ص ٢٨٠ و ٣٨١ من هذا الكتاب.

وواصلت التقاليد الايبيرية الرومانية سيرها لاشعوريا، وتركت تأثيراً واضحاً في الثقافة العربية الإسلامية، وحقق الأدباء الإسبين نتيجة الحرية التي تمتعوا بها بعث الفكر القديم، وأعطوه هذا اللون الخاص، الذي يعود إلى التأثير اليهودى المسيحى، وفيما يلى ستتاح لنا أكثر من فرصة لنشير إلى مظاهره الواضحة.

○ الفصل الثالث:

المشرق والمغرب

استفدت «الإنسية» الإسبانية الجانب الأكبر من عناصر دراستها في الأدب العربي في المشرق، وكانت التقاليد التربوية في القرن العاشر قوية جدا فأصبح من الصعب بعد ذلك التخلص منها.

وقد ترك المثقفون العرب المشاركة الذين وفدوا إلى إسبانيا تأثيرا عميقا بثقافتهم الواسعة، وبلغت استعداداتهم الذهنية حدا يصعب معه أن تكون على صورة أخرى. وكان الأمويون في إسبانيا يتجهون بأبصارهم دائما إلى العباسيين في بغداد. ولم يكن الظرف والأدب اللذان سادا في قرطبة، وفي البلاطات الصغيرة التي تكوّنت حول عمال الولايات، إلا تقليدا لما يجري في العراق. وأخذ خلفاء قرطبة يغرون أدياء بغداد بالنزوح إلى عاصمتهم، على نحو ما حدث مع أبي على القالي، وكان لغويا أكثر منه شاعرا^(١)، وصاعد البغدادي، وكان شاعرا ماهرا، ولغويا جسورا، وعرفنا تاريخه مفصلا من قريب^(٢). وكان بجوار إبراهيم بن حجاج عامل إشبيلية لغوى من الحجاز يدعى أبا محمد العذري^(٣). وثمة تأثير آخر لا يقل أهمية مارسه الجوّاري المغنيات، ونشأن وتربى في المشرق، في المدينة وبغداد، واشتراهن لأمرء والولاة في إسبانيا، وأحيانا كانوا ينتزعوهن من بلاط بغداد بأسعار باهظة، واحتفظ لنا المقرئ بأخبار أشهرهن^(٤)، ومن بينهن: العجفاء من بغداد، وفتيات المدينة الثلاث: فضل وعلم وقلم، وهذه الأخيرة رغم أنها نشأت في المدينة ليست مشرقية الأصل، وإنما بشكنسية، أسرت صغيرة في حملة على نبرة، شمال شرقي الأندلس، ثم حُملت إلى المدينة، وفيها مرت بكل مراحل التعليم التي يجب أن تجتازها من تعدّد نفسها لتكون مغنية، حتى إذا مهّرت في الغناء والأدب والخط، وفي حفظ الشعر بخاصة، اشتراها عبد الرحمن الثاني، أمير قرطبة الأموي، وكان دون أدنى شك يقدرها كثيرا.

(١) كان عبد الرحمن الناصر، المتوفى ٣٥٠ هـ = ٩٦١ م، هو الذي دعا أبا على القالي إلى إسبانيا، فوصل إلى قرطبة في ٣٣٠ هـ = ٩٤٢ م، وقد قام كاتب مصري حديث هو عبد الرحمن البرقوقي بتصوير رحلة القالي من الإسكندرية إلى المرية في شكل رواية تاريخية بعنوان: «حاضرة العرب في الأندلس»، القاهرة ١٣٤١ هـ = ١٩٢٣ م، متأثرا فيها بكتاب حضارة الإسلام في دار السلام التي كتبها جميل مدوّر، وصدرت طبعها الأولى في بيروت عام ١٨٨٨، وطبعها الثانية ١٩٠٥، والثالثة ١٩٣٢، [ثم توالى طبعاتها بعد ذلك في القاهرة]. وكان جميل نخلة متأثرا بكتاب رحلة الشاب أنشرس في اليونان، للقس بربليمي. ولكن البرقوقي لم يكن يعرف أن القالي مر بأفريقية (تونس) انظر: نفح ٢٠/٣ وما بعدها، الذخيرة ١٤/١، وفي «بنو عباد» ٤١/٣، وابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس ٦٥/١، الترجمة رقم ٢٢١.

(٢) بلاشير، رائد الثقافة العربية المشرقية في إسبانيا في القرن العاشر لليلادي: صاعد البغدادي، في مجلة هيسبيريس، ١٩٣٠، ص ١٥ - ٣٦، صاعد وصل إسبانيا قريبا من عام ٣٨٠ هـ = ٩٩٠ م.

(٣) تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ج ٢ ص ٨٩، اعتمادا على البيان المغرب ١٣٢/٢، ٢١١.

(٤) نفح ١٤٠/٣.

لأنها حتى مع إقامتها الطويلة في المشرق احتفظت بلونها الأشقر صافيا جميلا، ونحن نعرف أن الأمويين بالأندلس كانوا مغرمين بالشقريات إلى حد بعيد^(٥).

وقد اشترى الشريف العربي إبراهيم بن الحجاج اللخمي، وإلى إشبيلية، المغنية قمر الجارية، وهي تستحق منا وقفة خاصة، فقد كانت دون ريب إحدى هؤلاء النسوة اللاتي حملن إلى بلاط إشبيلية اللطف والذوق، وتركت معاملتها الراقية تأثيرا طيبا في أخلاق سيدها، والرجال الذين حولها، وكان فيهم شيء من جفاف ومن خشونة^(٦). وأسهمت بفصاحتها الفطرية، واستعدادها الطبيعي لقول الشعر، في إشاعة تذوق الأدب العراقي، وكانت تحفظ كل روايته عن ظهر قلب.

ويجب ألا ننسى في هذه النظرة الحافظة، ونحن نعرض لتأثير المشرق في المغرب، في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين، الدور الذي اضطلع به زرياب، المغني الفارسي الشهير، وبتناؤه عليّة ومجدونة، وتلميذته متعة^(٧).

لكن الوافدين من المشرق إلى إسبانيا في القرن الحادي عشر الميلادي لم يكونوا من المستوى الذي عرضنا له، كما أن إسبانيا نفسها بدأت تقلل شيئا فشيئا من نظرتها إلى المشرق، واحتدائها ما يجري فيه، بعد أن أصبح عندها من الأدباء والشعراء والمفكرين والمغنين والموسيقيين من الجنسين من ليسوا في حاجة لأن يحسدوا ما عليه زملاءهم في بغداد أو المدينة على الإطلاق. وكانت الحياة في البلاطات الصغيرة للملك الطوائف تسبح في مظاهر من الترف دونها مدن المشرق الكبرى. وإذا صح أن شخصا كأي على القالي، أو قمر المغنية - مثلا - كانا أوسع ثقافة، وأرقى حضارة، من الوسط الأندلسي الذي أحاط بهما في القرن العاشر الميلادي، فقد رجحت الموازين لصالح الإسبان المسلمين في القرن الذي تلاه، وبدأ الناس يتساءلون: ماذا يستطيع أن يضيف واحد مثل هذا السفيه للوح، الهجاء بلا حياة، أبي الحسن البغدادي، الملقب بالفكيك، إلى بلاط المعتمد بن عباد في إشبيلية، أو المقتدر بن هود في سرقسطة؟ وأي مهرج في البلاط الملكي يمكن أن يكون أكثر إضحاكاً من هذا الشاعر الذي تنكر يوماً في شكل هدهد، فلبس «طاقاً أحمر على بياض، وفي رأسه طرطور أخضر، عَمَّ عليه عَمّة لا زورديّة» وكل ذلك ليقول إنه الهدهد، ويشبه المعتمد بأنه سليمان^(٨)!

ومثل أبي الفتوح الجرجاني، وعرفته بغداد عالماً واسع الثقافة، ثم جاء ونزل ضيفاً بعض الوقت في بلاط مجاهد صاحب دانية، وانتحل إلى بلاط المنذر صاحب سرقسطة، ثم استقر أخيراً في غرناطة، أدبياً

(٥) ابن حزم، طوق الحمامة ٤٨ طبعة دار المعارف بتحقيق د. الطاهر أحمد مكي، وترجمة نيكل ٣٩، وترجمة برشييه ٢٦.

(٦) نفح ١٤٠/٣، وتاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٢ ص ٨٩، والمصادر الواردة هناك.

(٧) عن زرياب وتأثيره في إسبانيا في عصر عبد الرحمن الثاني انظر: نفح ١٢٢/٣، وابن دحية، المطرب ١٤٧، وتاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ١ ص ٣٠٩، وديجا ص ١١٢، وهنري تيراس، الفن الإسباني العربي منذ بدايته حتى القرن الثالث عشر الميلادي ص ٧١، ولفي بروفنسال، الحضارة العربية في إسبانيا ص ٦٩ [وترجمة الدكتور الطاهر أحمد مكي له إلى العربية ص ٦٥، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٥]، وعنه في تاريخ إسبانيا الإسلامية، ط ٢ ج ١ ص ٢٦٩ - ٢٧٢.

(٨) نفح ١١٩/٣، وخصه ابن بسام في الذخيرة القسم الرابع بخبر.

● الحق أن ابن بسام أورد اسمه في الفهرس لمفصل الذي أوردته في مقدمة كتابه، وأنه سوف يتحدث عنه في القسم الرابع، ولكنه واقعاً لم يعرض له في هذا القسم ولا بكلمة واحدة، على الأقل في طبعة إحسان عباس التي بين أيدينا، ولم يعرض له في بقية الأقسام الأخرى، وكل ما هنالك أنه في القسم الثالث، ص ٦٧٤، أورد له بيتين من الشعر. (الترجم)

حيناً، ومحارباً عندما تضطره الظروف، واشتهر بأنه مغامر مفسد، وانتهى به الحال أن قتله بيده باديس بن حبوس، وكل ما يستطيع الأندلسيون أن يذكروه له بالخير، أنه درّس في غرناطة حماسة أبي تمام^(٩).

الشرقي الوحيد الذي استرعى اهتمامنا هو: أبو الفضل التميمي الدارمي البغدادي، وخرج من بغداد رسولا لأمير المؤمنين القائم بأمر الله العباسي، إلى صاحب أفريقية المعز بن باديس، وعبر إلى إسبانيا بعد فتنة العرب، وأقام في بلاط المأمون بن ذى النون صاحب طليطلة، وبقي هناك حتى توفي عام ٤٥٤ هـ = ١٠٦٢ م، أو في العام الذي بعده، وكان يجمع بين لطف التفكير، ولباقة الأسلوب، والتعذيب المصقول، وهي صفات أتاحت له أن يتعمق بسهولة في المجتمع الأندلسي، لأن الظرف البغدادي لم يجد منذ قمر رسولا أقوى كما لا وأشد جاذبية منه. وقد لقي من قبل في القيروان حفاوة بالغة، وفتن به المثقفون الذين كانوا يكتفون إلى جانب الأمير المعز بن باديس، الوسط المثقف الأكثر صقلا ورقة في بلاد البربر الشرقية، ثم اضطرت له الأحداث السياسية إلى أن يذهب إلى إسبانيا، وفي طليطلة منها وجد المناخ ملائماً له، إلى جوار المأمون بن ذى النون، فتفتحت مواهبه، وأمضى بقية حياته يتغنى بالحب، ولم يحدث أن ازدهر شعره العاطفي إلا في إسبانيا^(١٠).

قبل أن يبحر أبو الفضل الدارمي إلى أفريقية اجتمع مع أبي العلاء المعري في مرة النعمان^(١١)، ويمكن أن نخيل الحديث الذي دار بين الرجلين: تحدّثا بالضع عن بغداد، ثم التفتا دون شك نحو المغرب، وحولاً مفكرين تخيل ما يجب أن تكون عليه الحياة الفكرية هناك. وفي البدء تخوّف أبو الفضل شيئا من هذه الرحلة، رغم أن مهمته رسمية، ثم اطمأن سريعا عندما سمع حديث أبي العلاء، فقد كان شيخ المعرة على معرفة حقيقية بالإنتاج الأدبي في بلاد البربر الشرقية وفي إسبانيا، وربما كان هذا هو الذي أقنعه بأن يتوقف قليلا في القيروان. وأبو العلاء المعري هو صاحب الرأي القاسي في ابن هاني الأندلسي، فقد وجد في كلماته كثيرا من الخشونة، وقليل من الفكر، فشبه أشعاره بأنها «مثل رحي تطحن قرونا»^(١٢). ولكنه أحسّ بالشعر يغمره حين سمع أبيات الشاعرة الأندلسية حمدة بنت زياد المؤدب^(١٣)، من وادي آش، وحفظ المقطوعة عن ظهر قلب. آه!، باللفظ الجميل الذي اجتاحه عندما جاءه الشاعر المنازى، المتوفى عام ٤٣٧ هـ = ١٠٤٥ م^(١٤)، ليراه وينشده هذه الأبيات الجميلة، ترتجف راقصة، في غنائية يجهلها المشرق، وكان رأيها فيها كذلك^(١٥). ولم يكن المعري يجهل المغرب، وآخرون غيره دون شك كانوا على علم بما يحدث في الطرف الآخر من البحر الأبيض المتوسط. ولا بد أن التبادل الأدبي كان يتم في سرعة فائقة، فقد ظن المنازى أنه يستطيع أن يسرق أبيات حمدة دون عقاب، ولكنه وجد أبا العلاء المعري سبقه في معرفة هذه الأبيات.

(٩) تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ٣٠ - ٣٥، وقائمة المصادر التي في ص ٣١، الهامش رقم ١، وانظر فيها سبق ص ٣٤، الهامش رقم ٤ من هذا الكتاب.

(١٠) نفح ١١١/٢، وسوف نتاح لنا الفرصة لتحدث عن هذا الشاعر فيما بعد، انظر ص ٣٦٨ وما بعدها من هذا الكتاب.

(١١) نفح ١١٢/٣.

(١٢) ابن خلكان، الوفيات ٥/٢، وترجمة دى سنان ١٢٧/٣.

(١٣) حمدة، أو حمدونة، عاشت في أواخر القرن الرابع الهجري، العاشر الميلادي، وربما شهدت بداية القرن الذي يليه، وقد خصها المقرئ بجملته أخبار في نفح ٢٨٧/٤، وفيما بعد سوف نتحدث عن وصفها لوادي آش، ص ١٤٢ من هذا الكتاب.

(١٤) عن المنازى، انظر: وفيات الأعيان ٤٤/١، وترجمة دى سنان ١٢٦/١. (١٥) نفح ٢٨٩/٤.

ويمكن أن نفترض أن أبا الفضل الدارمي فكر بعد زيارته لأبي العلاء المعري أن يستغل مهمته في بلاد البربر ويزور الأندلس بعدها، وآخرون قبله، على نحو ما رأينا، قاموا بهذه الرحلة الطويلة. وإذا كان المغاربة المسلمون يترددون كثير على المشرق للحج أو الدراسة، فإن المشاركة على الرغم من تقدمهم كانوا يترددون بعض الشيء في الذهاب إلى بلد تصلهم عنه أخبار غير مرضية.



لقد أسماها الجاحظ «طينة حمقاء»^(١٦)، وزارها الرحالة ابن حوقل في نهاية القرن الثالث الهجري، التاسع الميلادي، وكتب عنها الفقرة التالية التي أثارت فيها بعد غضب ابن سعيد: «ومن أعجب ما في هذه الجزيرة بقاؤها على من هي في يده، مع صغر أحلام أهلها، وضعة نفوسهم، ونقص عقولهم، وبعدهم من البأس والشجاعة والفروسية والبسالة، ولقاء الرجال، ومراس الأجناد والأبطال، مع علم أمير المؤمنين بمحلها في نفسها، ومقدار جباياتها، ومواقع نعمها ولذاتها»^(١٧).

الصورة كما ترى غير جميلة فعلا، وقد وجدت الجارية المغنية قمر، وتعودت على ظُرف بغداد وأدبها حيث نشأت، كثيرا من الجفاء والخشونة في بلاط إبراهيم بن حجاج عامل إشبيلية^(١٨).

أما أبو علي القالي، ومرّ ببلاد البربر الشرقية قبل أن يلبي دعوة عبد الرحمن الناصر في أن يذهب إلى الأندلس^(١٩)، فلاحظ فزعا أنه كلما ابتعد عن المشرق وجد من يمر به من أهل الأمصار «درجات في الغباوة، وقلة الفهم، بحسب تفاوتهم في مواضعهم منها بالقرب والبعد، حتى كأن منازلهم من الطريق هي منازلهم من العلم محاسبة ومقايضة». فقال لنفسه: «إن نقص أهل الأندلس عن مقادر من رأيت في أفهامهم بقدر نقصان هؤلاء عن قبلهم، فسأحتاج إلى ترجمان بهذه الأوطان»^(٢٠).

ومع ذلك لم تكن معرفة المغرب مغلقة تماما في وجوه المشاركة، والفضل للرحلات، وقليلون جدا أولئك الذين يستطيعون أن يتكلموا بأشياء سمعوها فحسب. وقد التقى أبو تواس بالشاعر الإسباني عباس بن ناصح في بغداد، وقال له: أنشدني لأبي الأجر فأنشده، ثم قال له: أنشدني ليكر الكنانى فأنشده، وفعل ذلك كله عن طيبة خاطر^(٢١)، وكما ترى فإن شهرة هذين الشاعرين الأندلسيين

(١٦) السندوقي، أدب الجاحظ ٦٩.

(١٧) ابن حوقل، المسالك والممالك، المجلد الثاني في المكتبة الجغرافية العربية ص ٧٣، وعنه في نفح ٢٦١/١، وترجم النص دوزي في تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٢ ص ١٢٥، وليفي بروفنسال، إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر ١٣٥ يقول ابن مامة وهو قائد نصراني كان خلال «الفتنة» مع البربر والخليفة المستعين ضد الصقالبة والأمويين، عن القرطبيين: «تدّ نظن أن الدين والشجاعة والحق عند أهل قرطبة، فإذا القوم لا دين لهم، ولا شجاعة فيهم، ولا عقول معهم»، البيان المغرب ٩٠/٣، وانظر فيما سبق ص ١٨ من هذا الكتاب، الهامش رقم ١٩، وقد ردّ ابن سعيد على ابن حوقل في صفحة توجد في نفح ٢١٢/١. (١٨) البيان المغرب ١٣٢/٢ و ٢١١، وابن الأبار، تكملة الصلة، رقم ٢١١٤، وتاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٢ ص ٩٠.

(١٩) انظر فيما سبق ص ١٦ من هذا الكتاب.

(٢٠) الذخيرة ١٤/١، وبنو عباد ٤١/٣، وعنها في نفح ١٥٤/٣.

(٢١) نفح ٢٢٤/٣، وعباس بن ناصح تقي النسب وشغل منصب القاضي في الجزيرة الخضراء في مطلع القرن لتاسع الميلادي، نفح ٣٤٣/١، و ٢٦١/٢ و ٢٢٤/٣. وأبو الأجر بن عوانة بن الصمة الكلبي شاعر هجاء، عاصر جريرا والفرزدق، نفح ١٧٧/٣، أما أبو بكر الكنانى فلا نعرف عنه شيئا.

تجاوزت إسبانيا وبلغت العراق. ولكن شعراء العراق بعامة كانت فكرتهم سيئة عن الأندلسيين، ويروى أن العزّال «أقذع في هجاء على بن نافع المعروف بزياب، فذكر ذلك لعبد الرحمن فأمر بنفيه، فدخل العراق، وذلك بعد موت أبي نواس بمدة يسيرة، فوجدتهم يلهجون بذكره، ولا يساوون شعر أحد بشعره، فجلس يوماً مع جماعة منهم فأزروا بأهل الأندلس، واستهجنوا أشعارهم، فتركهم حتى وقعوا في ذكر أبي نواس، فقال لهم: من يحفظ منكم قوله:

ولما رأيت الشرب أكدتُ سماؤهم تأبطتُ زقًى واحتبستُ عنائى
فلما أنيت الحانَ ناديتُ ربّه فثابُ خفيفَ الروح نحو ندائى
قليلُ هجوع العين إلاّ تعلّة على وجل منى ومن نظرائى
فقلتُ: أدقنيها فلما أذاقها طرحت عليه ريطتى وردائى
وقلتُ: أعرنى بذلة أستتر بها بذلتُ له فيها طلاق نساى
فوالله ما برئتُ بىنى ولا وفّت له غير أنى ضامنٌ بوفائى
فأبتُ إلى صحبى ولم أكُ آيباً فكلُّ يُفدينى وحقُّ فداى

فأعجبوا بالشعر، وذهبوا في مدحهم له، فلما أفرطوا قال لهم: خفّضوا عليكم، فإنه لى، فأنكروا ذلك، فأنشدتهم قصيدته التى أولها:

تداركتُ في شرب النبيذ خطائى وفارقتُ فيه شيمتى وحيائى
فلما أتمّ القصيدة بالإنشاد خجلوا، وافترقوا عنه» (٢٢).

وكان المتنبي على شاكلة أبي نواس يعجب ببعض الشعراء الأندلسيين، وقد التقى في مسجد عمرو بن العاص بمصر مع أبي الوليد بن عيال^(٢٣)، منصرفاً من الحج، ففاوضه قليلاً ثم قال له: أنشدنى للمليح الأندلس، فأدرك ابن عيال أى شاعر أندلسى يريد المتنبي، فأنشده مقطوعة من أربعة أبيات لابن عديريه:

إيا لؤلؤا يسبى العقول أنيقاً ورشاً بتعذيب القلوب رفيقاً
ما إن زأيت ولا سمعتُ بمثله دراً يعود من الحياء عقيقاً
وإذا نظرت إلى محاسن وجهه أبصرت وجهك في سناه غريقاً
يامن تقطع خصره من رقة ما بال قلبك لا يكون رقيقاً

فلما كمل إشادها استعادها، ثم صفق بيديه وقال: يا ابن عبد ربه، لقد تأتيتك العراق حبوا» (٢٤).

(٢٢) نفع ٢٦٠/٣ - ٢٦١، وديجا في مقدمة الطبعة الأوربية ٥٤، والمطرب ١٤٨.

(٢٣) اعتمد المؤلف رواية المطمح ص ٢٧٣، فذكر أنه أبو الوليد بن عباد، ولكن الرواية في نفع الطيب ٥٦٤/٣ «ابن عيال»، وهى التى أخذنا بها، وفي طبعة الشيخ محمد محيى الدين «ابن عتال»، المترجم.

(٢٤) من الكامل، نفع ٥٦٤/٣.

وكلمة «حبوا» تكررت في الحديث النبوى سبع مرات. انظر: ابن خلدون، المقدمة ١٥٤/٢، وترجمتها ١٧٦/٢، وعن هذه القصة انظر المطمح ٢٧٣، وعنه نقلها نفع ٥٦٤/٣، وأحمد ضيف، بلاغة العرب ٩٠ الهامش، وياقوت، إرشاد الأريب ٧١/٢، والثعالبي، اليتيمة ٣٦٤/١، ولكن المتنبي كان أقل إعجاباً بأبيات قالها الرماذى متوجّهاً بها إلى أبى على القالى، نفع ٧١/٣.

إجمالاً كان المشاركة يحتفظون للمعاربة بكثير من الاحتقار والاستخفاف أكثر مما يحملون لهم من الإعجاب أو التقدير. ترى أكانوا يحسون بشيء ما، غريب وغير عربي، في شعر هؤلاء الدس القريين جدا من العجم، والمختلطين كثيرا بالمسيحيين؟ ألم يندهش شيشيرون كذلك في كتابه «دفاعا عن أرسيا Pro Archia» من رؤية موطنيه قساة جدا مع هذا اليوناني، وعلى النقيض شديدي الترحيب بشعراء قرطبة، رغم أن أشعارهم كانت تنوء بكل غريب؟^(٢٥).

وكانت تسيطر على المشاركة، دون أدنى شك، فكرة أن النور لا يمكن أن يصدر إلاّ عز المشرق، ومع ذلك أشاد المتنبي بفنائل شخصيات وُلدت بعيدا عنه، بقول:

كَبُرَتْ حَوْلَ دِيَارِهِمْ لَمَّا بَدَتْ مِنْهَا الشَّمْسُ وَلَيْسَ فِيهَا لِمَشْرِقٍ^(٢٦)

ولكن هناك أوهاما ومزاعم من الصعب اقتلاعها، وبخاصة في مجال الأدب، ويجب أن نعترف فيما يتصل بالغرب أن الإسبان مسئولون إلى حد كبير عن الاحتقار الذي كان يوجه إليهم. يقول ابن عبدون في رسالة توجه بها إلى ابن أبي الخصال^(٢٧):

«وما أنا وفلان، وهل هو إلاّ من الغرب، وإن كان بزعمه في الصميم من الغرب، وصل الغرب في الأقطار، إلاّ كاللحق بين الأسطار؟»^(٢٨) هل هذا تواضع من الكاتب أم إحساس حقيقي بقلّة قيمته؟ إن الذي تلقى هذه الرسالة يعرف جيدا أن ابن عبدون يتحدث على هذا النحو تواضعا جديلا منه. وعندما يقول عبد الواحد المراكشي إن الناس أعجبوا كثيرا بابن هاني حتى أنهم نسيهوه بالمتنبي، وهيئات^(٢٩)، فإنما يستجيب لفكرة مسبقة أكثر مما يقرر نتيجة لها مقدماتها. ونجد المظفر بن الأفتوس صاحب بطليوس «ينكر الشعر على قائله في زمانه، ويُفيل رأى من ارتسم في ديوانه، ويقول: من لم يكن شعره مثل شعر المتنبي أو المعري فليسكت، ولا يرضى بدون ذلك»^(٣٠).



بدأت الثقافة الأدبية في إسبانيا بالشعر المشرقي، على نحو مارأينا، وفرض نفسه نهرا على كل العقول، حتى أن الأندلسيين عندما يريدون وصف أديب أو شخص مثقف يبحثون فوراً في ذواكرهم عن المشرقي الذي يمكن أن يقرن إليه، فهم يشبهون المعتضد بأبي جعفر المنصور من ملوك بني العباس^(٣١)، والمعتمد بالوائق بالله، لذكائه الحاد، واتساع معارفه الأدبية^(٣٢)، ولشاعر مروان الطليق، وينحدر من سلالة عبد الرحمن الناصر «في بني أمية كابن المعتز في بني العباس، ملاحه شعر

(٢٥) شيشرون، دفاعاً عن أرسيا ص ٢٦.

(٢٦) من الكامل، ديوان المتنبي، طبعة البرقوقى ١/٤٨٠، ونفع ٣/٢٢٢.

(٢٧) سها المؤلف، وأحال الأمر جاء عقول فجعل الرسالة موجهة من ابن أبي الخصال إلى ابن عبدون، فأصلحناها. (الترجم)

(٢٨) المعجب ١٦٩، وترجمته ١٤٥.

(٢٩) المعجب ١١١، وترجمته ٩٤.

(٣٠) ابن الخطيب، أعمال الأعلام ١٨٣ - ١٨٤، وانظر فيما سبق ص ٣٥، الهامش رقم ١٣ من هذا الكتاب.

(٣١) المعجب ٩٧، وترجمته ٨٢.

(٣٢) المعجب ١٠١، وترجمته ٨٦.

وحسن تشبيهه»^(٣٣). ويزهو الرمادى بأنه يركب فى الصباح جوادا جمع كل الصفات الحسنة التى جمعها شعراء المشرق: زيد الخيل، والغنوى، والمربى، والملك الضليل، أى امرؤ القيس^(٣٤)، مما يوحى بأن كل القراء يعرفون دواوين هؤلاء الشعراء المشاركة، ويذكر عبد الواحد المراكشى عن ابن زيدون أنه «كان إذا نسب أنساك كثير عزة، وإذا مدح أزرى بزهر، وإذا فخر أناف على امرئ القيس»^(٣٥). وابن بسام، وطالما أطرى مواطنيه فى كتابه «الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة» يثنى عليه أبو بكر ابن عبادة القزاز الوشاح الشهير بهذه الأبيات من الشعر

يامنفاً على السماكين سام حُزْتُ خَصَلَ السِّبَاقِ عَرَسُ
إِنْ تُحْكُ مِدْحَةً فَأَنْتَ زُهَيْرُ أَوْ تُشَيِّبُ فَعُرْوَةُ بْنُ حِزَامِ
أَوْ تُبَاكِرُ صَيْدَ الْمَهَا فابن حُجْرٍ أَوْ تُبَكِّ الدِّيارِ فابن حِزَامِ
أَوْ تَذِمُّ الزَّمَانَ وَهُوَ حَقِيقُ فَأَبُو الطَّيِّبِ الْبَعِيدُ الْمَرَامِ^(٣٦)

كما شبهوا ابن السقاط بأبى تمام، وأبا عبد الله اللوشى بالبحترى^(٣٧)، وعندهم أن ابن قزمان بين الزجالين بمنزلة المتنبي بين الشعراء، على حين أن مدغليس أبى تمام، «بالنظر إلى الانطباع والصناعة، فابن قزمان ملتفت إلى المعنى، ومدغليس ملتفت إلى اللفظ»^(٣٨) وابن حزم فى رسالته عن «فضل أهل الأندلس» يرى أن ابن دراج القسطل لا يتأخر «عن شأو بشار بن برد، وحبيب، والمتنبي»^(٣٩) وابن طاهر المرسى، أبو عبد الرحمن، «يماثل صاحب إسماعيل بن عباد وأمثاله فى الكتب عن نفسه»^(٤٠). وكان الخليفة المهدي يشبه الشاعرة الأندلسية مريم بنت أبى يعقوب الأنصارى، بالخنساء، ويفضلها على الشاعرة المشرقية فيما يقال^(٤١). ويمكن أن تأتى بالكثير من الأمثلة ولكنى أرى الكفاية فيما ذكرنا.

ويتجلى إعجاب الأندلسيين بالمشاركة فى أنهم يحبون أن ينادوا مواطنيهم من الأدباء بأسماء لشعراء أو لغويين من المشرق، فالأصمعي يقصدون به فى إسبانيا محمد بن سعيد الزجالى، وهو من أصل بربرى^(٤٢)، وخنساء المغرب حمدة، أو حمدونة، بنت زياد المؤدب من وادى آش^(٤٣) وثمة شاعر من بطلينوس لم يكن يُعرف بغير الكميث،^(٤٤) وابن زيدون يحترى المغرب^(٤٥)، وابن خفاجة يدعى

(٣٣) الحلة السراء، نقلا عن ابن حزم، ٢٢١/١، ونفح ٥٨٦/٣.

(٣٤) المظمح ٣١٣.

(٣٥) المعجب ١٠٥، وترجمته ٩٠.

(٣٦) من الخفيف، نفح ٤٩٢/٣.

(٣٧) القلائد ٢٢٢.

(٣٨) نفح ٣٨٥/٣، وأنخل جوثالث بالنيثيا، تاريخ الأدب الأندلسى ١١٠.

(٣٩) نفح ١٧٨/٣، والتعالى، فى بيعة الدهر ٤٣٨/١، يقول: «ابن دراج بالصق الأندلسى كالتنبي بصق الشام» نفح

١٩٥/٣، وابن خلكان فى الوفيات يطلق اسم المتنبي على ابن هانى والرمادى وابن دراج.

(٤٠) الحلة السراء ١١٨/٢.

(٤١) نفح ٢٩١/٣.

(٤٢) نفح ٥٣٩/٣.

(٤٣) نفح ٢٨٧/٤.

(٤٤) نفح ٤٥٣/٣.

(٤٥) الصفسى، الواقى، فى نفح الطيب ٥٦٦/٣.

صنوبرى الأندلس^(٤٦)، وأبو عبد الله الرصافي ينادى بابن الرومي^(٤٧)، وكان ابن سعد المغربي يطلق على أبي بكر المخزومي لقب امرئ الثاني^(٤٨) وأما الذين أطلق عليهم لقب المتنبي فكانوا كثيرين على نحو ما رأينا.

وانتقلت المقارنات من دنيا الرجال إلى عالم المدن والأقاليم، يقول الحجاري في «المسهب»: «الأندلس عراق المغرب عزة أنساب، ورقة آداب، واشتغالا بفنون العلوم، وافتناناً في المنظوم والمنثور»^(٤٩)، كان العراق، مع بغداد، يمثل في نظر الأندلسيين، المكان المثالي حيث اعبقرية والموهبة معترفاً بها من الجميع، ولها قدسية لا يمكن إنكارها. وهو لون من «البرناسية» مارس جاذبية طاغية على عقول المغاربة، وبراها الشعراء وكبار الرجال «عدنا» أخرى على الأرض، فبغداد والعراق وسورية موطن كبار الشعراء امجددين أمثال: بشار بن برد، وأبي نواس، وأبي تمام، والبحتري، وابن الرومي، وابن المعتز، والعباس بن الأحنف، والمتنبي نفسه، والشريف الرضي، ومهيار الديلمي والمعرى أيضاً.

يقول الحاجب المظفر، ابن المنصور وخليفته من بعده، «ما أحسن الذكر الجميل في يطون الأوراق، والمحاسن تنشأ بالأندلس، ثم تطير إلى الشام والعراق!»^(٥٠)، فالقائد يدير عينيه نحو الحمدانيين في حلب، والشاعر يجب أن تبلغ شهرته العراق. وأنشد أبو عبيد الله البكري من قرطبة، مخاطب ابن السقاويزر أبي الوليد جهور، وقد خرج رسولا إلى باديس بن حبوس في غرناطة:

كذا في بروج السعد ينتقل البدرُ وتحسن حيث احتل أثره القطرُ
وتتقسم الأرض الحظوظ: فيقعة لها وافر منها، وأخرى لها نزرُ
لذلّ مكان غاب عنه مُملّكي وعزّ مكان حلّه ذلك البدر
فلو نقلت أرض خطاها لأقبلت تهنيه بغدادُ بقربك قيو مصر^(٥١)

ويقول ابن درّاج القسطلی في قصيدة يمدح بها خيران الصقلي صاحب المرية، عام ٤٠٧ هـ = ١٠١٦ م:

فإن غربت أرض المغارب موطنی وأنكرني فيها خليط وخلانُ
فكم رحبت أرض العراق بمقدمي وأجزلت البشري على خراسان^(٥٢)

(٤٦) نفح ٣ / ٤٤٨.

(٤٧) نفح ٣ / ٤٨٦.

(٤٨) نفح ١ / ١١٩١.

(٤٩) نفح ٣ / ١٥٥.

(٥٠) فيما يتصل بهذا الموضوع يمكن العودة إلى: غرسيه غوث، بغداد وملوك الطوائف، في مجلة «الغرب» العدد ١٢٧، يناير ١٩٣٤، ص ١ - ٢٢.

(٥١) أعمال الأعلام ٨٧.

(٥٢) الحلقة ١٨٦/٢، وأبحاث ط ١ ص ٢٨٨ - ٢٩٦.

● في الأصل الفرنسي ابن السقاط، وهو خطأ (الترجم).

(٥٣) من الطويل، أعمال الأعلام ٨٧.

وهذا الشعر واضح الدلالة. نعم كان الشعراء يطمحون في الذهاب إلى العراق لأنهم يعانون من خيبة الأمل في إسبانيا، فهل مردّ هذا أن الاضطرابات السياسية وحدها في مطلع القرن الحادى عشر، حالت بينهم وبين أن يظهروا مزاياهم، وأن يتمتعوا بحريتهم كاملة في إرضاء كبرياتهم؟ نحن نميل إلى الاعتقاد بأن خيانة الأصدقاء، وتشهير الزملاء، أخرى بأن يكون سبب ضيق الكتاب النهمين إلى المديح، فوجدوا أنفسهم مكروهين على أن يرددوا بأبصارهم نحو فردوس برئ من الحسد، وحيث الشعراء في قامة الملوك.

ويؤكد لنا ابن حزم نفسه قلق إسبانيا المثقفة، في النصف الأول من القرن الحادى عشر، فالعراق فيما يرى «دار هجرة الفهم وذويه، ومراد المعارف وأربابها»^(٥٤)، ولكن ابن حزم يعبر عن أفكاره بطريقة أروع، خلال أبيات له، توجه بها إلى عبد الرحمن بن بشير أبي المطرف، قاضى الجماعة في قرطبة، وفيها يكشف لنا عن روح استبدت به الأمانى القلقة لا ترضى حتى ولو أتيح لها أن تذهب إلى العراق، وهو ما يصبو إليه ويطمح فيه:

أنا الشمسُ في جوِّ العلوم منيرة
ولو أننى من جانب الشرق طالعُ
ولى نحو أكناف العراق صباية
فإن يُنزل الرحمنُ رَحْلى بينهم
فكم قائل أغفلته وهو حاضرُ
هنالك يدري أن للبعد قصة
فيا عجباً من غاب عنهم تشوّفوا
وإن مكاناً ضاق عنى لضيّق
وإن رجلاً ضيّعنى لضيّع

ولكن عيى أن مطلّعي الغربُ
لجدُّ على ما ضاع من ذكرى النهب
ولا غرو أن يستوحش الكلف الصب
فحينئذ يبدو التأسف والكرب
وأطلب ما عنه تجئ به الكتب
وأن كساد العلم آفته القرب^(٥٥)
له، ودنو المرء من دارهم ذنب
على أنه فيح مهامه سُهّب
وإن زماناً لم أنل خصبه جدب^(٥٦)

ولم يسبق أن وصف ابن حزم نفسه أبدا بهذه الدقة كما وصفها في هذه الأبيات، ونعتقد أنه لم يكن الوحيد الذى اجتاحت داخله هذا القلق الروحي العميق.

نعم بعد ابن حزم، في النصف الثانى من القرن الحادى عشر، قلّت الرغبة في الرحلة إلى المشرق، أو الإقامة في بغداد، ورغم ذلك ظل الناس يعتبرون العراق المكان المثالى الذى يشجع الشعراء على الإبداع.

(٥٤) ابن حزم، رسالة فضل أهل الأندلس، في نفح ١٣٧/٣.

(٥٥) يمكن أن نقارن هذا بالمثل الأندلسى: «العالم كالحمام، يأتيه البعيد، ويذهب فيه القريب»، البكرى، كتاب الأمثال، نقلا عن الرحلة التيجانية، طبعة مرسية ٩٧.

(٥٦) من أنطويل، نفح ٨١/٢، المعجب ٤٨، وترجمته ٤١، والذخيرة ١٧٣/١، وياقوت، إرشاد الأريب ٩٦/٥. وأسبن بلانيوس، ابن حزم ٢٣٧/١.

● قلت: هذه القصيدة طويلة، جاءت في أكثر من مئة بيت، كلها في الفخر، وكانت ضائعة، ليس بين أيدينا منها إلا أبيات شوارد، تتبادلها المصادر المختلفة، ثم عثرنا عليها في مخطوطة بدار الكتب المصرية، ونشرناها كاملة. انظر: الطاهر أحمد مكى، دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة، ط ٣، ص ٤٠٩، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٢. (المترجم).

وسوف نجد مثل شكوى ابن دراج وابن حزم بعد ذلك في عصر المرابطين، عندما تمان الشعراء يجوبون إسبانيا والمغرب طلباً للهدايا، وتأميناً للقيمة العيش حتى لا يموتوا من الجوع وقد كتب بن بقي إثر عودته من المغرب ولم يحسنوا استقباله هناك:

نا امرؤ إن نبتَ بي أرضٌ نندلسٍ جئتُ العراقَ فقامت لي عي قدم^(٥٧)
وإذا كان ابن حزم، وهو في النهاية عالم نفسى وذكى، استطاع أن يطل في أعماقه، وأن يفهم روحه جيداً، واعترف بأن العراق سوف يخيب أمله، مثل إسبانيا، إلا أن بقية الشعراء والأدباء ظلوا على سنتهم في التطلع إلى المشرق، لأن «كساد العلم آفته القرب» على ما يقول ابن حزم، رغم أن الذين ذهبوا منهم إلى هناك عادوا غير سعداء. فالحسد والوقية ينتشران في بغداد، كما هو الحال في قرطبة، وفي بقية المدن الإسبانية الأخرى، وقد مرّ الغزال بهذه التجربة، وعاناها ابن عيشون أبو خامر كذلك، قريباً من نهاية القرن الحادى عشر^(٥٨).



كان ابن حزم حكيماً عندما فكّر أنه ليست هناك فائدة في الذهاب بعيداً للبحث عن نىء موجود تحت يده. غير أن الشغف بالمشرق لم يكن عاما كما يُظن، لأن «الإنسيّة» الإسبانية أدركت أن دراسة «الشعر المشرقى وحده ليست كافية لإعطاء معرفة كاملة عن الإنسان، وأن المبالغة في عبادة المشرق تجعل الناس يجازفون بالآ يروا من الأشياء إلا جانباً واحداً، ربما الأقل جمالا، وربما كس الحاسم في تحديد الفكرة غيره، وعمّ الناس شعور قوى أنه إذا كان المغرب يدين للمشرق بالكثير فقد ظهرت هنا على أرضه قيم جديدة، لا نلقاها هناك إلا نادراً، ويجب على الأديب الذى يهتم بالموازنة بين لكفاءات ألا يتجاهلها.

ومن الملاحظ حقاً أن إسبانيا في القرن الحادى عشر تمتعت بمفهوم للثقافة واسع جد، وكان هناك من يرى بأن يلتحق المغرب بالمشرق، ومن ينادى بوقف احتقار الأدب المغربى في المشرق، والذى انساب، في جانب منه، عبر برامج التعليم نفسها حتى بلغ إسبانيا، وأن يقرأ الأندلسيون ابن هانى الأندلسى ويدرسوه، كما يقرأون المتنبى ويدرسونه. وكان حسام الدولة بن رزّين، صاحب السهله، يقرأ ديوان بن هانى، هذا الشاعر الذى خلق في سماء الشعر مبكراً واعتبط شاباً^(٥٩). ولا يأنف ابن البين البطلوسى من أن يستلهم ديوان ابن هانى في بعض قصائده^(٦٠). وكان ابن عمّر، طبقاً لعبد الواحد المراكشى «أحد الشعراء المجيدين على طريقة أبى القاسم محمد بن هانى الأندلسى»^(٦١). وقد أدى الكبرياء الأندلسى بأهله إلى منافسة المشاركة، ويقص علينا الحميدى: «شد بحضرة بعض ملوك الأندلس قطعة لبعض أهل المشرق، وهى:

(٥٧) انظر: دراستى عن «الشعر في فاس في عصر المرابطين والموحدين»، مجلة هيسبيريس ١٩٣٤، المجلد ١٨ ص ١٤.

(٥٨) نفع ٤٩٤/٢.

(٥٩) نفع ٤٠٧/٣.

(٦٠) نفع ٤٥٣/٣.

(٦١) العجب ١١١، وترجمته ٩٤.

وماذا عليهم لو أجابوا فسلموا وقد علموا أنى المشوق المتيم
سروا ونجوم الليل زهر طوالع على أنهم بالليل للناس أنجم
وأخفوا على تلك المطايا مسيرهم فتم عليها في الظلام التيسم

فأفرط بعض الحاضرين في استحسانها، وقال: هذا ما لا يقدر أندلسي على مثله، وبالحضرة أبو بكر يحيى بن هذيل، فقال بديها:

عرفت بعرف الريح أين تيمموا وأين استقل الظاعنون وخيموا
خليلى ردأنى إلى جانب الحمى فلست إلى غير الحمى أتيمم
أبيت سميرو الفرقدين كأنما وسادى قتاد أو ضجيعي أرقم
وأحور وسان الجنون كأنه قضيب من الريحان لذن منعم
نظرت إلى أجفائه وإلى الهوى فأيقنت أنى لست منهن أسلم
كما أن إبراهيم أول نظرة رأى في الدرارى أنه سوف يسقم^(٦٢)

ولم يعلق الحميدى، وروى لنا القصة، على ما حدث، ولو أنه تركنا نفهم في وضوح أن أبيات الأندلسي، في نظره، كانت في مستوى الشاعر المشرقي المجهول، إن لم تفقها.

حتى القرن الحادى عشر يمكن القول أن نمة أسبابا مادية، ربما، أدت إلى عدم تقدير الإسبان لشعرهم وثرهم، أهمها أن دواوين الشعراء لم تكن قد جمعت بعد، ولم تؤلف أية مختارات أدبية أندلسية، وقد حاول ابن فرج الجياني أن يعوض هذا النقص فألف كتاب «الحدايق»، متأثرا بابن داود الأصفهاني و كتابه «الزهرة»، ولكن «الحدايق» ضاع، ولم يصلنا منه إلا النصوص التي احتفظت بها كتب التراجم والمختارات المتأخرة، التي نقلت عنه، وهى تسمح لنا بأن نقرر أن كل القطع التي وردت فيه كانت لشعراء أندلسيين^(٦٣). وكان الغرض منه تعريف الإسبانين بأدبهم، وفيما يبدو لنا محاولة أولى، وجفلة في الوقت نفسه، جاءت كرد فعل ضد المشرق. وبعد ذلك بأقل من نصف قرن^(٦٤) أكمل أديب شاب من قرطبة، هو أبو الوليد الحميرى ابن حبيب، وزير القاضى أبى القاسم بن عباد صاحب إنشيلية، حداثى ابن فرج الجياني، بعنوان: «البديع في وصف الربيع»، ولحسن الحظ وصلتنا هذه لمختارات كملة^(٦٥)، وأغلبها قطع شعرية تصف الربيع والحدايق والأزهار، وكلها لشعراء أو كتاب من

(٦٢) من انطويل، نفع ١٥٣/٣.

(٦٣) عن الحداثى لابن فرج الجياني انظر: ابن بسام، الذخيرة ١٤٢/٢، والضئى، البغية ١٤٦، وابن دحية، المطرب ٤، ونفع ٦٠٤/١ و ٥٠١/٢ و ١٧٣/٣ و ١٨٢ و ٤٨/٤ و ٢٨٦، وابن الأبار، الحلة ٣٩/١ وأمكنة أخرى كثيرة و ٣٧٣/٢. وعن كتاب الزهرة انظر: ماسنيون. مجموعة نصوص غير منشورة ص ٣٢ - ٢٤٠. ونيكل، مقدمته لطبعة الجزء الأول من كتاب الزهرة. (٦٤) يشير نفع الطيب إلى اثنين من كتب المختارات ألفا في القرن الحادى عشر الميلادى، وهما: «أخبار شعراء الأندلس» لعبادة بن ماء السماء، وكتاب «التشبيهات من أشعار أهل الأندلس» لأبى الحسن على بن محمد بن أبى الحسن الكاتب، انظر: نفع ١٧٣/٣.

(٦٥) مخطوطة الإسكوريال رقم ٣٥٣، وقد استخدمنا هذه المخطوطة أساسا عند دراستنا لزهور الأندلس. ● قلت: وقد نشر المؤلف هذه المخطوطة فيما بعد، وصدرت في سلسلة مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية، الجزء السابع، في الرباط عام ١٣٥٩ هـ = ١٩٤٠ م، وإليها نحيل في الإشارات المتصلة بالكتاب. (المترجم).

شيبيلة، وأثار اتساع الكتاب يومها إعجاب الناس، فتساءلوا: كم مجلداً يحتاج إليها الكاتب ليسجل جميع القصائد التي من هذا النوع في إسبانيا كلها.

وكانت مقدمة أبي الوليد الحميري للكتاب إعلاناً حقيقياً بمولد الأدب القومي: «وأما أشعار أهل المشرق فقد كثر الوقوف عليها والنظر إليها حتى ما تميل نحوها النفوس، ولا يروقه منها العلق النفس، مع أنى أستغنى عنها، ولا حوج إليها، بما أذكره للأندلسيين من النثر المبتدع، والظم المخترع، وأكثر ذلك لأهل عصرى، إذا لم تغب وادهم عن ذكرى... ولأهل المشرق في تأليف أشعر شعرائهم، وتدوين أخبار علمائهم، الفضل علينا، والسبق لنا، حتى لقد يجمعون خشيتها مع حسنها، ويضيفون لحنها إلى لحنها لا قلة مئز بها، بل تخرجنا عن تركها، ولو جرى أهل الأندلس على تلك الطريقة، لأوردت على الحقيقة أمثال ما أوردت، وأضعاف ما اجتلبت، لكن أهل المشرق على تأليفهم لأشعارهم، وتنقيفهم لأخبارهم، مذ تكلمت العرب بكلامها. وشغلت بنثرها ونظامها، إلى هلم جرا، لا يجدون لأنفسهم من التشبيهات في هذه الموصوفات، ما وجدته لأهل بلدى»^(٦٦).

وفي نهاية القرن الحادى عشر، ومطلع القرن الذى تلاه، رأى كاتب آخر ضرورة تكرار المحاولة بالنسبة إلى القرن الحادى عشر كله، لكن القضية وإن أصبحت مفهومة لم يربحها الأنلسيون تماماً. ولكى ينتصر فيها ابن بسام نهائياً ألف كتابه «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة»، ويعتبر بلنسبة لعصر الفتنة وملوك الطوائف وثيقة أدبية وتاريخية قيمة جداً، وفيه لم يقنع ابن بسام بذكر الأخبار ورواية الأشعار لكل من عرض لهم من الكتاب والشعراء، وإنما قدّم لهم، وأضاف إليهم، صفحات مطوّلة عن أحداث عصرهم التاريخي نقلها، أو الجانب الأكبر منها، من كتاب «المبين» لابن حيان، وهو لم يصلنا^(٦٧).

وإذا كان ابن بسام لم يقدر أبا الوليد الحميرى، فإن هذا تجاهل أيضاً ابن فرج فيما يظهر، ولقد نقل ابن بسام أفكارها بعد أن أعطاها شكلاً أكثر بريقاً، لتتمشى مع ذوق العصر الذى يعيش فيه، فمن الأفضل أن يبلغ قلوب وعقول معاصريه بأسلحتهم نفسها: «نثر لو رآه البديع لتسى اسمه، أو اجتلاه ابن هلال لولاه حكمه، ونظم لو سمعه كثير ما نسب ولا مدح، أو تتبعه جرّول ما عوى ولا نبج، إلا أن أهل هذا الأفق أبو إلا متابعة أهل الشرق، يرجعون إلى أخبارهم امعتادة، رجوع الحديث إلى قتادة، حتى لو نعى بتلك الآفاق غراب، أو طن بأقصى الشام والعراق ذباب، لجثوا على هذا صنبا، وتلوا ذلك كتاباً محكماً، وأخبارهم الباهرة، وأشعارهم السائرة، مرمى القصيدة، ومناخ الرذيلة،

(٦٦) أبو الوليد الحميرى، البديع ص ٢.

(٦٧) عن أهمية كتاب الذخيرة من الوجهة لتاريخية انظر: بروفنسال، عن الجديد في مخطوطات الذخيرة لابن بسام، وهو بحث ألقاه في مؤتمر المستشرقين السابع عشر، الذى انعقد في أوكسفورد في ٢٨ أغسطس ١٩٢٨، ونشر في مجلة هيسبيريس عام ١٩٢٣، المجلد ١٦ ص ١٥٨ - ١٦١.

● قلت: نشر الدكتور إحسان عباس الذخيرة كاملة، في ثمانية مجلدات، وألحق بها فهراس كاملة، وإن شاب النشر كثير من النقص في الضبط، ومتابعة كل النسخ المخطوطة، إلا أن العمل في جملته سدّ فراغاً هائلاً في مجال الدراسات الأنسسية وقدم لجمهور الباحثين خدمة مقدرة ومشكورة. وصدر الكتب عام ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م.
وعن الذخيرة وصاحبها انظر الفصل الخاص بها في كتابنا دراسة في مصادر الأدب، الطبعة السادسة، دار المعارف القاهرة ١٩٨٥ (الترجم).

لا يعمر بها جنان ولا خلد، ولا يُصْرَفُ فيها لسان ولا يد. فغاضني منهم ذلك، وأنفَتُ بما هنالك، وأخذت نفسي بجمع ما وجدت من حسنات دهرى، وتتبع محاسن أهل بلدى وعصرى، غيرة لهذا الأفق الغريب أن تعود بدوره أهلة، وتصبح بحاره ثماداً مضمحلة، مع كثر أدبائه، ووفور علمائه، وقديما ضيعوا العلم وأهله، وياربِّ محسن مات إحسانه قبله، وليت شعري من قصر العلم على بعض الزمان، وخص أهل المشرق بالإحسان؟»^(٦٨).

ولم يغفل ابن بسام على امتداد كتابه المطول أية فرصة تواتيه ليسجل تفوق الأندلسيين على المشاركة، وفيما يتصل بالعباسيين لم يتردد في أن يعلن، وهو بصدد الحديث عن بني عباد، أن إقليم إشبيلية اجتمع فيه ما تباهى به الأقاليم العراقية، ويُنسَى بلغاء الدولة الديلية، «فقلما رأيت فيه نائرا غير ماهر، ولا شاعرا غير قاهر، دعوا حرَّ الكلام فلبى، وأرادوه فما تأبى، وطريقتهم في الشعر الطريقة المثلى، التي هي طريقة البحترى في السلاسة والمتانة، والعذوبة والرصانة»^(٦٩).

وكان الفتوح بن خاقان معاصرا لابن بسام، وألف في الوقت نفسه كتابه: «قلائد العقيان» و«مطمح الأنفس»، ووقفهما على القرن الحادى عشر والقرون التى سبقتها^(٧٠).

وفي هذا العصر جمع كبار الشعراء قصائدهم في دواوين، فصنع ذلك المعتضد والمعتمد، وابن عمار، وابن زيدون، وابن خفاجة، وابن حمديس، وآخرون. وكان واجبا على هذه الكثرة من الشعراء الممتازين في القرن الحادى عشر أن تكرر جهودها لتظهر مكانة الشعر الإشباني الإسلامى في نطاق الأدب العربى.

وبعد ذلك بقليل سوف يبالغ ابن دحية، المتوفى عام ٦٣٣ هـ = ١٢٣٥ م، دون شك، عندما يتحدث عن إحدى قصائد الغزال فيقول: «وهذا الشعر لو روى لعمر بن أبى ربيعة، أو لبشار بن برد، أو لعباس بن الأحنف، ومن سلك هذا المسلك من الشعراء المحسنين لاستغرب له. وإنما أوجب أن يكون ذكره منسيا أن كان أندلسيا، وإلا فماله أخمل، وما حقُّ مثله أن يهمل»^(٧١).

وماذا أيضا عن أبى جعفر أحمد بن طلحة، الوزير الكاتب، الذى أنب مواطنيه في عصر الموحدين قائلا: «تقيمون القيامة لحبيب والبحترى والمتنبى، وفي عصركم من يهتدى إلى ما لم يهتدوا إليه»^(٧٢).

ولكن الشاهد على أن الشعر الإشباني يمثل في نهاية المطاف جانبا من عالم الأدب العربى يتجلى لنا فيما يرويه الصفدى في كتابه «الوافى»: «قال بعض الأدباء: من لبس البياض، وتختَّم بالعقيق، وقرأ لأبى عمرو، وتفقه للشافعى، وروى شعر ابن زيدون، فقد استكمل الظرف»^(٧٣).

(٦٨) ابن بسام، الذخيرة ١٢/١، وبنو عباد ٣٩/٣، ونفع ٥٠٠/٢. تفسير بعض الألفاظ الواردة بالنص:

الرذية: الناقصة الهزيلة المتروكة التى لا تقدر أن تلتحق بالركاب، يعنى أن أشعارهم وأخبارهم منبوذة.

الأعلام: البديع المزداني وابن هلال من كتاب النثر في العصر العباسى. وجرول، وهو الخطيئة، وكثير عزة، شاعران من العصر الأموى. وقلادة بن دعامة المتوفى ١١٨ هـ = ٧٣٦ م، كان من حفاظ أهل زمانه، ومن العلماء بالقرآن والفقه في البصرة.

(٦٩) الذخيرة ١٢/٢، وبنو عباد ٢٠٢/١.

(٧٠) وألف الحجارى، المتوفى ٥٥٠ هـ = ١١٥٥ م كتابه «المسهب في فضائل المغرب»، نفع ١٨٣/٣.

(٧١) ابن دحية، المطرب ١٤٥، تحقيق إبراهيم الإيبارى وآخرين، القاهرة ١٩٥٤.

(٧٢) نفع ٣٠٧/٣.

(٧٣) نفع ٥٦٦/٣.

○ الفصل الرابع:

شِعْرُ البلاط وشعراؤه

أحبّ الأندلسيون الشعر مهما كانت طبقتهم ويمكن القول أنهم وُلدوا جميعا ينظمون الشعر، أو على الأقل يفتنون بالجمال الخفى الذى ينساب عبر أبياته المنقومة. ألم يقل ابن بسام فى مقدمة كتابه «الذخيرة» لا يكاد بلد منها يخلو من كاتب ماهر، وشاعر قاهر^(١)؟. ويدعى مؤرخون وجغرافيون آخرون أن الشعراء العظام كانوا يوجدون أيضا فى أبعد الضياع النائية، على نحو ما هم عليه فى أكبر المدن المتميزة، مثل: شلب ووداي آش^(٢).



وهذا الازدهار لا يعود فحسب إلى الأمراء والأعيان والقضاة، وبعمامة كل هؤلاء الذين أتاحت لهم طبقتهم الاجتماعية، ومركزهم المالى، أن يدرسوا الشعر فى سن الصبا والمراهقة، وإنما يعود أيضا إلى الفنانين الأشد بساطة فى الحياة، وعمامة الشعب الأكثر حرمانا من الثقافة الأدبية بجناها الدقيق. وملتقى فى كل مكان بالشعراء الأميين الذين يجهلون القراءة والكتابة، ولأن التعميم كان عاما وشائعا فإن التفسير الوحيد الذى نستطيع أن نقدمه لأمتهم، أنهم تذوقوا الشعر والعلم فى سن متأخرة، مستمعين إليه فى لحظات فراغهم، بعد أن تجاوزوا السن التى يمكن أن يذهبوا فيها إلى لكتاب. وكان الكتاب والأدباء يقبلون مغتربين أن يكون فى صحبتهم أى شخص، شريطة أن يظهر بعض الاستعداد لإلقاء بعض العبارات الأدبية، أو لرتجال بعض أبيات الشعر، كما هو حال ابن جاح البطليوسى الأُمى، «وهو من أعاجيب الدنيا، لا يقرأ ولا يكتب»، وستكلم عنه فيما بعد، وكان ذلك أيضا حال ابن لبال الأُمى، والذى أصبح أستاذ ابن عبدون^(٣).

ويجب أن نذكر المكفوفين إلى جانب هؤلاء العلماء والشعراء الذين لا يعرفون القراءة والكتابة، وما أكثر الأدباء الذين حملوا فى إسبانيا الإسلامية صفة كفيف، أو أعمى، أو ضريباء. ويتحدث الصفدى فى كتابه «نكت الهميان فى نكت العميان»^(٤) عن كثير من الأندلسيين الذين تميزوا فى الأدب أو العلوم الإسلامية، رغم أنهم حرموا نعمة البصر منذ ولادتهم، أو خلال حياتهم. ويكفي أن نذكر هنا، بالنسبة للقرن الحادى عشر، عام اللغة ابن سيده المرسى، والأعمى التطيلي الشاعر.

(١) الذخيرة ٣٣/١، ونفح ١٥٤/٣.

(٢) انظر فيما سأتى ص ١٣١ - ١٣٤ من هذا الكتاب.

(٣) ابن دحية، المطرب ١٨١.

(٤) الصفدى، نكت الهميان، طبعة القاهرة ١٣٢٩ هـ = ١٩١١م، وانظر ترجمة أحمد زكى باشا له إلى اللغة الفرنسية، القاهرة

أما الفنانون المثقفون فكانوا كثيرين أيضا، وكان ابن عمّار، وهو من أسرة متواضعة للغاية، يعرف مدى الفائدة الكبرى التي يمكن أن تعود على المرء من مخالطة عامة الشعب، وبخاصة أولئك الذين يكّدون من أجل لقمة العيش، وكثيرا ما كان يرحل، قبل أن يرتبط بالمعتمد، طلبا لما يصدر عن أرباب المهن من نتاج أدبي، ولم يكن هؤلاء يأنفون، وجهدهم موزع بين عملين، أن ينظموا الأبيات في موضوعات مألوفة لهم. ولقد أدرك ابن عمار واعيا ما يمكن أن يكسبه من صور جديدة، ومن تشبيهات دقيقة، يلتقطها من الواقع في ألفاظ عذبة صحيحة، حين يتردد على هذه المهابط، وإليه يعود الفضل في اكتشاف ابن جامع، وكان صبّاغا في بطليوس، ويحيى، وكان جزّارا في سرقسطة^(٥)، وأبى تمام غالب بن رباح، وكان حَجّاما في قلعة رباح، واشتهر بأبياته الواقعية المنفرة أحيانا، كأن يصف القروح المغطاة بالذباب، أو الأحشاء تلتهمها الطيور الجارحة^(٦). ويتحدث المراكشي عن أبي بكر الداني، الشهير بابن اللبّانة، فيقول: «ولابن اللبّانة هذا أخ اسمه عبد العزيز، وكانا شاعرين، إلّا أن عبد العزيز منهم لم يرض الشعر صناعة، ولا اتخذه مكسبا، وإنما كان من جملة التجار»^(٧).

ولكن إضافة الفلاحين إلى الحياة الأدبية هي الأكثر أهمية، دون شك، فالحياة في الحقول ليست دائما عملا متصلا، إنها أيضا تدع للأحلام مكانا، ويمكن القول إن أعمق الشعر ذاتية هو ما تفجر من رجال ونساء التصقوا بالأرض والطبيعة عن قرب، وهم يصوّرونها لنا في دقة وتنعكس المشاهد في أبياتهم، خشنة أو رقيقة، وهؤلاء الشعراء هم الذين انغمسوا فيما بعد في حياة المدن المرفهة، وعبروا عن أقوى الأفكار، في أحلى الصور نضارة وأزهاها لونا. وهم الذين أضفوا على الشعر الأندلسي هذه الظلال الريفية، أو لرعية إن شئت، ويضارع أروع ما كان يكتب في اليونان أو روما من أدب صادق، في نطاق هذا الجنس الأدبي من اللون الزراعي، سواء عكس رقة أشعار أنا كريونت^(٨) أم لا. ولقد أحس ابن عمار بعبقريته تتفتح فيما حول شلب من حقول، ومثله ابن شرف في قرية برجة أما ابن مّقانا، وهو من قرية القيداق، بالقرب من شنتر، فقد اجتاحه الحنين إلى قريته في أخريات حياته، فعاد إلى حقوله وزراعته^(٩).

وكانت لطبقات العليا تتذوق الشعر بقوة وفي عمق، ووجد مروان الطليق، ذلك الأموي الإسباني، مملكته الحقيقية في الشعر، شأن ابن المعتز بين بني العباس في المسرق، ولم يبعد عن الحقيقة حين يقول في قصيدة طويلة له، ذاعت شهرتها:

شَرَفِي نَفْسِي وَحَلْيِي أَدَبِي وَحُسَامِي مِقُولِي عِنْدَ اللَّقَا

(٥) ابن طرفة، بدائع اليدان ٧٤ - ٧٥، عنه نقله نفح ٦٠٨/٣، ولقد ترك يحيى الشعر وعاد جزارا فأرسل إليه ابن هود الحاجب أبا الفضل بن حسداى ليؤبّخه على ذلك، فرد عليه يحيى بيت من الشعر:

تركت الشعر من عدم الإصَابَة وملت إلى التجارة والقصابه
وسنعرض له فيما بعد عند حديثنا عن المهن التي وصفها الشعراء، وانظر: نفح ١٥٢/٤.

(٦) نفح ٤١٥/٣.

(٧) المعجب ١٤٩، وترجمته ١٢٦.

(٨) أنا كريونت، ٥٦٠ - ٤٧٨ ق.م، شاعر يوناني غنائي شهير، تفتى بالمباهج الحسية، وتميز باللفظ والركة، واشتقت منه صفة

تطلق على الشعر الذي يجتفى نهجه (المترجم).

(٩) انظر فيما بعد ص ١٨١ - ١٨٢ من هذا الكتاب.

أنا فخر العشميين وبى جَدَّ من فخرهم ما أحفقا
أنا أكسو ما عفا من مجدهم بحلى رونق شعري رونق^(١٠)

وكان المظفر ابن المنصور بن أبي عامر يعجب كثيرا بالأبيات التي تصف الزهور، ويقترح على شعرائه في بعض أوقات الربيع من دولته قطعاً نوّارية، عن الحدائق والبراري، ويحب أن تغنيها قِيانته^(١١).

ولم تشغل الحرب أو السياسة الأندلسيين عن اهتماماتهم المفضلة، فالخليفة الأموي المستظهر يتباحث، رغم أحداث الفتنة ومعارك البربر التي لا تنتهي، «في الآداب، ونظم الشعر، والتسلّك بتلك الأهداب» مع أبي عامر ابن شهيد، وأبي محمد ابن حزم، وابن عمه عبد الوهاب بن حزم^(١٢).

وكان المعتضد قاسيا وطموحا. وينظم الأبيات من الشعر يصف فيها نفسه، فكان أعقد من أي مؤلف أو مؤرخ أو كاتب آخر تحدث عنه، وتكشف لنا من حين لآخر عن نزوع إلى التعبير عن عواطفه بطريقة يغار منها أرق الشعراء العذريين، لأنه درس قبل أن يتولى الحكم بعد والده القاضي أبي القاسم دواوين الشعر المشرقي، على نحو ما يستطيع أن يفعله الأمراء الموهوبون. وكما لحظ ابن بسّام تأثر من الشعر بما فيه الكفاية، إلى جانب ما يتمتع به من مواهب عقلية، ليصبح قادرا على نظم أبيات راقية، دون أن يتعمق في الأشياء^(١٣). وكنت قصائده الشعرية كثيرة حتى أن ابن أخيه إسماعيل استطاع أن يجمع منها ديوانا^(١٤). وله ألف العالم النحوي واللفوي الشهير الأعلّم الشنتمري تروحه على المختارات الشعرية الكبرى، وهي: ديوان الشعراء الستة الجاهليين، وحماسة أبي تمام، وكلاهما قاعدة الدراسات الأدبية^(١٥).

أما ابنه المعتمد فكان يمثل شخصية الشاعر الأندلسي النموذجي، وحاول خلال حكمه الطويل أن يجعل من إشبيلية مهوى الأفئدة، وأشد البلاد، إن لم تكن وحدها، جذبا للأدباء في شبه الجزيرة، ونزعت عاصدة بني عباد إلى أن تضيف التفوق الثقافي إلى ما تتمتع به من نفوذ سياسي. ويقرر المؤرخون العرب - وبحق! - مستخدمين صورة مؤثرة لوصف عصر المعتمد: «وكان له في الأدب باع وساع، ينظم وينثر، وفي أيامه نفقت سوق الأدباء، فتسابقوا إليه، وتهافتوا عليه. وشعره مدونٌ موجودٌ بأيدي الناس، ولم يك في ملوك الأندلس قبله أشعر منه، ولا أوسع مادة»^(١٦).

(١٠) من الرمل، الحلة ٢٢٤/١.

● قلت: الدراسة الجيدة، وربما كانت الوحيدة، لهذا الشاعر الرقيق، قام بها المستشرق الإسباني إميليو غرسيه غومت، ويجدها القارئ في كتابه الذي ترجمناه إلى اللغة العربية بعنوان: «شعراء الأندلس والمنتبى» الطبعة الرابعة، دار المعارف، لقاها ١٩٨٥ (الترجم).

(١١) البيان المغرب ١٨/٣، ولم يترجمه دوزي في تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣.

(١٢) نفع ٤٨٩/١.

(١٣) الذخيرة ٢٨/٢، وعنها في «بنو عباد» ٢٤٥/١، وترجمته ص ٢٦٧.

(١٤) الذخيرة ٢٩/٢، وعنها في «بنو عباد» ٢٤٥/١، وترجمتها ص ٢٦٨، والحلة ٤٣/٢، والبيان المغرب ٢٨٤/٣. وقد جمع كامل كيلاني وعبد الرحمن خليفة قصائد المعتضد أخيرا، في آخر ديوان ابن زيدون، القاهرة ١٣٥١ هـ = ١٩٣٢ م، ص ٣٧٠ - ٣٧٦.

(١٥) البيان المغرب ٢٨٤/٣، نقلا عن ابن القطان، وانظر فيما سبق ص ٣٤ من هذا الكتاب.

(١٦) الحلة ٥٥/٢، وفي «بنو عباد» ٦٣/٢.

وكان بلاط المرية، عدا بعض الفترات النادرة، مكانا محبباً إلى شعراء شبه الجزيرة، يترددون عليه، ويحيى في مرتبة تالية لإشبيلية بنى عباد. ومع أن الشعراء الذين كانوا في رعاية المعتصم درجوا على أن يغار بعضهم من بعض، إلا أن الأمير أصم أذنيه دون الغيبة والنميمة والوشاية، وظل يستقبل الجميع بنفس طيبة، وعرف كيف يعفو عن الإهانات عندما يعتذر عنها أصحابها بأبيات جميلة من الشعر^(١٧). وكان أولاده وبناته من حوله يظهرون الحلم والوداعة نفسها، ويتذوقون القضايا الفكرية إقبالاً وإبداعاً^(١٨).

أما ملوك الطوائف الآخرون فكان شغفهم بالشعر أكثر من تذوقهم الحقيقي له، وقد أخذ قول المظفر صاحب بطليوس إنه لا يرضى بشعراء دون المتنبي والمعري مكانة^(١٩) همة أدباء بلاطه بخاصة وقلل من رغبة هؤلاء الذين يريدون التقرب والذهاب إليه بعامه، وقد استطاع بعضهم الوصول دون شك، ولكنهم دفعوا الثمن ملقاً خسيساً! ومن بين هؤلاء هذا الذي يدعى أبا الوليد بن ضابط النحوي، وترك مאלقة إلى بطليوس بحثاً عن الثراء. أليس هو القائل:

نظمتنا لك الشعرَ البديعَ لأننا علمنا بأن الشعر عندك ينفق
فإن كنت مني بامتداح مظفراً فإني في قصدي إليك موفق^(٢٠)

ولكن ابن جاح الصباغ، وهو أصلاً من بطليوس نفسها، أعطانا في قصيدته التي مدح بها المعتضد إيقاعاً آخر مختلف النغم:

إن القريض لكاسدٌ في أرضنا وله هنا سوقٌ بغير كساد
فجلبتُ من شعري إليك قوافياً يفنى الزمان وذكرُها متمادى^(٢١)

وعاش الشعراء في غرناطة في رعب أكيد متصل فيما يبدو، على الأقل تحت حكم باديس بن حيوس، وحين كان يستقبل بعض الأدباء في حفاوة، مثل غانم المخزومي^(٢٢) فلأنه يعتبرهم دون شك فقهاء أولاً، أكثر منهم لغويين أو شعراء، وكان يلاحق كل أولئك الذين يحاولون أن يحتفظوا بأى لون من الاستقلال الفكرى. ولقد شجع غانم المخزومي أحد أبناء إخوانه على أن يترك دولة باديس قائلاً له: «رئيس غرناطة غير مأمون على الدماء، فكن أنت بالمرية، فإن قتلني بقيت أنت، وأنت في أول فتوتك، فأعطاني من كتبه جملة، وأقمت بها»^(٢٣).

(١٧) انظر م. بروى عن ذلك في: نفح ٥٠٤/٣، وأبحاث ط ١ ص ٨٨، و ط ٣ ج ١ ص ٢٤٦.
(١٨) عفا رفيع الدولة بن المعتصم عن الشاعر الأخفش في شعر مدح به ابن النفرلة اليهودى وزير أمير غرناطة، نفح ٣٨٧/٣.
وعن ذكاء أبناء المعتصم في قول الشعر انظر: الذخيرة ٧٢٩/١ وما بعدها، والحلة السيرة ٧٨/٢، وصفحات ١١٠ - ١١٢ و ١٢٠ - ١٢١ و ١٢٤ - ١٣٧ من أبحاث الطبعة الأولى، وص ٢٦٣ - ٢٦٥ و ٢٧٠ - ٢٧١ و ٢٧٣ - ٢٧٤ من أبحاث ط ج ١، ونفح ٣٦٦/٢ - ٣٦٨، وص ٣٨١ من هذا الكتاب.
(١٩) انظر فيما سبق ص ٥٠، الهامش رقم ٣٠ من هذا الكتاب.
(٢٠) من الطويل، نفح ٣٩٨/٣.
(٢١) من الكامل، نفح ٢٤٥/٤، وعنه في «بنو عباد» ٢٣٠/٢، وص ٧٣ - ٧٤ من هذا الكتاب.
(٢٢) نفح ٢٦٥/٣.
(٢٣) السيوطى، بنية الوعاة ١١٧/١، ترجمة رقم ١٩٦، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م، ودوزى، أبحاث ط ١ ص ٩٣ - ٩٤، و ط ٣ ج ١ ص ٢٦٩، وملحق ص ٥٢ - ٥٣.

ولكن خلفاء باديس، وكانو أندلسيين حقاً، أحاطوا أنفسهم بالشعراء والمفكرين، وأظهروا بعض الشغف بالفنون المختلفة، وإذا لم يكن أمراء البربر الآخرين قادرين على أن ينظّموا الأبيات من الشعر، فعلى الأقل كانوا يظهرون سعادتهم الغامرة بالاستماع إليه. «وكان الناصر على بن حمود، على عجمته وبعده عن الفضائل يصغى إلى الأمداح ويشيب عليها» وحتى يشجع عليها من حوله^(٢٤). وثمة حكاية تظهر لنا قوة تأثير الشعر حتى على أشد القلوب قساوة، فقد كان الوزير الصهاجى سماجة، وعمل في شيخوخته مربياً لأمرء غرناطة، «حازماً شديد السطوة، مرهوب العقاب. جواداً شجاعاً فاضلاً، ذكر عنه الغرناطيون أنه اشتد في منع اتخاذ الخمر، وجعل بإزاء ذلك القتل غريمة، لم يحل عقدها، ولا نسخ حكمها، فبينما طائفة من أبناء الأعيان، وصدور الطلبة أولى الوجوه الحسان، على راحة لهم بجهة المصلى القديم خارج القصبه، إذ أظلمهم سماجة فجأة، فسقط في أيديهم، وأيقنوا لهلكة، فابتدره قبل الوصول إليهم فتى منهم، فأنشده:

بينما نحن بالمصلّى نُسَقِّى وجناح العشيّ فيه جنوحُ
إذ أتانا سمجة يتلّالا رُدُّ في الشرق من تجلّيد نوح
فطفقنا نقول بعض لبعضٍ أغبوقُ شرابُنا أم صَبوح

قال: فخجل سماجة، وأنس الصبى، ووعده بالإحسان، وانصرف من طريقه، إغضاء وتغافلاً^(٢٥).

ترى هل كانوا يتذوقون التعرّ كذلك، على هذا النحو الواضح، في بقية الممالك الإسلامية الأخرى في شبه جزيرة إيبيريا؟ ثمة شواهد تدعونا إلى تصديق ذلك. وإذا كان أمراء سرقسطة وطليطلة عرفوا باهتماماتهم الخاصة بالفلك والرياضيات، فقد شهروا أيضاً بحماية الأدباء والشعراء من بينهم بخاصة^(٢٦).

أليس مدهشاً أن ينتشر الشعر على هذا النحو في إسبانيا القرن الحادى عشر؟ من النادر أن نجد لهذا الواقع شبيهاً في المشرق منذ أن أشرقت شمس الإسلام، ولا شيء منه في الغرب الإسلامى في القرون التى سبقت عصر ملوك الطوائف. ففي المشرق ظهر الشعر نتاجاً أرسقراطياً، أما في إسبانيا القرن الحادى عشر فأخذ في الحقيقة خطأ قومياً كامل الوضوح، لأن الظروف السياسية والاجتماعية كانت مهية على نحو رائع، والعصور الوسطى المسيحية في القرنين الثانى عشر والثالث عشر يمكن أن تقدم أيضاً مثلاً متشابهاً ومنهلاً في شخص شعراء التروبادور.

كان الشعر بالنسبة للعامل وانفلاخ أنشودة الجمام التى تنسيه مشقة التعب، وللكاتب والوزير انفلاتة من عبودية المهام والهجوم، وبالنسبة للشعراء المحترفين وسيلة لكسب لقمة العيش، ورغم ذلك

(٢٤) نفح ٤٨٣/١.

(٢٥) أعمال الأعلام ٢٣٤، وهذه القصة تشبه حكاية قديمة جداً تقول إن عامل الحاجاج بن يوسف فاجاً ليلاً ثلاثة شبان وعناهم لارتجالهم أبياتاً من الشعر، انظر: التواجى، حلية الكميّة ٤٦، ومثيل، المؤلفون العرب ١٦٥ - ١٦٦. ونذكر أن المستعين بالله، الخليفة الأموى خلال أيام الفتنة عفا عن أحد عمّاله لأنه تقدم إليه باعتذاره شعراً، الحلة ١١/٢.

(٢٦) ألف المؤنن أمير سرقسطة كتابين في العلوم الرياضية، وهما: كتاب المناظر وكتاب الاستكمال. انظر: نفح ٤٤١/١، وابن خلدون، العبر ١٦٢/٤، والقلقشنديّ صبح الأعشى ٢٥٥/٥.

فإن ظاهرة البيع والشراء لم تأت على كل الاهتمامات الفنية، وكان بالنسبة للجميع موضع فخر ومباهاة، وبجلاً متسعاً لا يحيط من قدر أمير يقتحم عالمه، بل على النقيض، يعلى من شأنه ومقامه. والأندلسيون يحبون الشعر لذاته، ولأنه كلام موزون مقفى، ينساب من الشفاه الحاناً وأنغاماً، ولأنه كلام مُجَنِّح، وموسيقاً قبل أن يكون خطباً، والناس يتغنون به أكثر مما يلقونه كلاماً مرسلًا^(٢٧).



أحب الأندلسيون الشعر في صدق وحرارة بلغت ببعضهم حد العشق، ويقول عجزو: «شيئان يقهراني، ولا أملك نفسي عندهما: النظر إلى الوجه الحسن، وسماع الشعر المطبوع»^(٢٨). ومن حكاياتهم «أن القاضي أبا عبد الله محمد بن عيسى، من بني يحيى بن يحيى، خرج إلى حضور جنازة، وكان لرجل من إخوانه منزل بقرب مقبرة قريش، فعزم عليه في الميل إليه، فنزل وأحضر له طعاماً، وغنت جارية:

طابت بطيب لثاتك الأقداح وزهت بجمرة وجهك التفاح
وإذا الريح تنسمت أرواحه نمت بعرف نسيمك الأرواح
وإذا الحنادس ألبست ظلماءها فضياء وجهك في الدجى مصباح

فكتبها القاضي طرباً على باطن كفه، قال الراوي: فلقد رأيته يكبر على الجنازة والأبيات على ظهر يده»^(٢٩).

وترجمة الأبيات، على مافي الترجمة من خيانة، تعكس حقيقة الانفعال بالشعر، والتي نجدها عند كل الأندلسيين، وجاءت وليدة إحساس عميق بالطبيعة، يشوبه لون من عبادة مثالية للمرأة. لقد استعار شعراء الأندلس من الطبيعة بخاصة أجمل مافيها من خطوط، لكي ينسجوا منها صورهم الشعرية.

فلنصغ إلى المعتمد في بيتين يختم بهما قصيدته التي نظمها «يستعطف بها أباه المعتضد، لما فرط منه في أمر مالقة، وخذله أصحابه فأخرج منها»:

إليك روضة فكر جاد منبتها ندي يمينك لا طل ولا مطر
جعلت ذكرك في أرجائها زهراً فكل أوقاتها للمجتنى ثمر^(٣٠)

التكلف بين، ولكننا لا نستطيع غير الاعتراف بما في البيتين من نضارة ريفية.

(٢٧) كثيرون من الشعراء كانوا في الوقت نفسه ناثرين وموسيقين، أمثال: أبي عبد الله بن الحداد من المرية، وابن باجة من سرقطة، والرازي بن المعتمد بن عباد.
(٢٨) نفع ٤٠٣/٣. وعن معنى «الوجه الحسن» انظر، ماسينيون، الحلاج، ص ١٧٨ هامش ٣ و ٧٩٦ هامش ٧، وص ٣١٧ من هذا الكتاب.

(٢٩) من الكامل، نفع ٥٦٤/٣.

(٣٠) من البسيط، ديوان المعتمد ص ٤٠، جمعه وحققه أحمد أحمد بدوي، وحامد عبد المجيد، القاهرة ١٩٥١. وخريدة القصر وعننا في «بنو عاد» ٣٩٤/١. وأخذنا برواية الديوان. وهذه الأبيات قلّدها، دون أدنى شك، شاعراً مشرقياً. انظر: دوزي، معجم الملابس ١٢٣.

وأبو العلاء بن صهيب يمدح صديقه أبا أمية يقول:

وعندي حديثٌ من علاك علقتهُ يسيرُ كما سار النسيمُ على الزهرِ
فيلبغ أقصاهُ الأرضِ وهي عريضةٌ ويهدى جنى النور من روضة لشعر
ففى كلِّ أفقٍ من حديقك عاطرٌ يسير به لفظي ويطلعه فكري
ودونك منى قطعة الروض قطعة تحييك عن ودَى وتنفع عن شكرى^(٣١)

وهذه النماذج من الأمثلة كافية لتصوير مفهوم الشعر عند الأندلسيين في جانب منه، فهو بالنسبة لأرواحهم فنّانين لا يمكن أن يجيئ، إذا أردنا له تجسيها رائع المجاذبية، إلا في صورة حديقة أرجة، تجذب البصر، وتمتع الشم في الوقت نفسه.

ولكن الشعراء لم يتوقفوا عند هذا المفهوم، ويمكن أن نعتبره ملحّة بارعة أكثر منها شميقة، وإذا لم يصلوا إلى تصوّر مجازي للشعر كما صنع اليونان حين رمزوا له بـ «ميز Muse» ربّة الفنون، فعلى الأقل كان لديهم مفهوم يقترب كثيرا مما لدى اليونان. وثمة صورة شاعت في المشرق في القرون التي سبقت، ونجدها في تعبير قديم يصف لقصيدّة بأنها عذراء. ولكن الأندلسيين بما جيلوا عليه من ميل طبيعي إلى تجسيد الأفكار المجردة، صنعوا من هذا التعبير المعاد صورة حيّة متوهّجة، فلشعر، وهو فن رفيع في نظرهم، نجده مجسّما عندهم في صورة عذراء حقيقية، وتزف لزوجها ليلة عرسها. سكرى تجر ذيوها.

يقول أبو بكر، محمد بن أحمد بن رُحيم، من قصيدة طويلة يهني فيها أخاه أبا الحسن بمولود:

وإليّ كما مثل العروس زففتها سكرى تجرُ ذيوها يتبخّر
عذراء إلا أننى حملتها عذّر التأخّر ليت لم أتأخّر^(٣٢)

ويقول أبو محمد بن السّيد لبطلوسى من قصيدة يجيب بها شاعرا قرطيا مدحه:

لله عذراء زُقت منك رائحة تختال من حبرها المرقوم نى حبر
صداقها الصّدق من ودَى ومنزلها بصيرقى وسواد القلب والبصر^(٣٣)

وعند شعراء آخرين لن تكون العذراء، ولكن المرأة يتألق جسمها كله جمالا، وزينتها تجسّد الشعر، وعلى هذا النحو يصف ابن عمّار قصيدة تلقاها من أبي عيسى بن لبون:

لله درُّ عقيلةٍ برزتها من خدر فكرك فى حلى الإنشاد
فرعاء عاطرة النواذب واللمى غيداء حالية الطلى والهبدى^(٣٤)



غير أن هذا التصور الرفيع للشعر، والتحمس لكل ما يتصل بالكلام المنظوم، يقابله من جانب آخر

(٣١) من الطويل، القلاند ٢٨٣.

(٣٢) من الكامل، القلاند ١١٨.

(٣٣) من البيط، القلاند ١٩٦.

(٣٤) من الكامل، القلاند ٩٤.

تحفظ عدد كبير من الأندلسيين، لأن اللعنة التي وسمه بها القرآن لا تزال قائمة أبداً^(٣٥).
وأشد وأخطر ما وُجّه إلى الشعر من ملامة، اعتماده القوى، بعامه، على المشاعر والخيال، أي باختصار انصافه بالكذب. يقول القاضي أبو عبدالله بن زرقون:

أَسْأَلُ اللَّهَ عَفْوَهُ فَلَيْنَ سَاءَ مَقَالِي لَقَدْ تَعَفُّ الْقُلُوبُ
قَدْ بَنَالَ الْفَتَى الصَّغَائِرَ ظُرْفًا لَا سَوَاهَا، وَلِلذَنُوبِ ذُنُوبٌ
وَأَخُو الشَّعْرِ لَا جُنَاحَ عَلَيْهِ وَسَوَاءُ صَدُوقِهِ وَالْكَذُوبِ^(٣٦)

ولكن أشد الأحكام قسوة على الشعر أورده ابن بسام في مقدمة كتابه الذخيرة، ولو أن كل مختارته من الشعر تشهد بحب واضح له، وبخاصة ما نظمه مواطنوه الأندلسيون. أما مقدمته فعلى النقيض، لقد كتبها في لحظة كانت الأحداث السياسية في وطنه، بعد سقوط ملوك الطوائف، تجعل حياة الأدباء غير آمنة، وتركت خيبة الأمل تعم، وجعلت من ابن بسام أكثر نقاد الحياة الأدبية مرارة في نهاية القرن الحادى عشر، يقول:

«ومع أن أشعر لم أرضه مركبا، ولا اتخذته مكسبا، ولا ألفتته مثوى ولا منقلبا، إنما زرتة لماما، ولمحتة تهما لا اهتماما، رغبة بعزة نفسى عن ذله، وترفعيا لموطئ أخصى عن محله، فإذا شعشت راحه، ودأبت أقداحه، لم أذقه إلا شميما، ولا كنت إلا على الحديث نديا، وما لى وله، وإنما أكثره خدعة محتال، وخلعة محتال، جده تمويه وتخيل، وهزله تدليه وتضليل، وحقائق العلوم، أولى بنا من أباطيل المنثور والمنظوم»^(٣٧).

لقد أراد ابن بسام دون شك أن يلقى على مشاعره الحقيقية ستارا، لأن المرابطين أصبحوا سادة إسبانيا، في اللحظة التي حرر فيها كتابه، ورأى من واجبه أن يجامل أبطال العقيدة الجدة، و«حقائق المعلوم»، أى تدريس العلوم الدينية، تحيىء في المقام الأول من اهتمامهم، واضطر، دون شك أيضا، أن يحكم على الشعر بهذه القسوة من خلال مشاهد الحياة الأدبية في إشبيلية، على نحو ما عرضت له في نهاية القرن الحادى عشر الميلادى. لقد رأى الأدباء والشعراء والكتاب يهتمون في المقام الأول بكسب المال عن طريق نظم الشعر، أكثر من اهتمامهم بالإلهام الصادق والإبداع الحقيقى، يقول في المقدمة نفسها:

«الأدب بها [الضمير يعود على إشبيلية] أقل من الوفاء، حامله أضيع من قمر الشتاء، وقيمة كل أحد ماله، وأسوة كل بلد جهالة، حسب المرء أن يسلم وفره، وإن تلم قدره، وأن تكثر فضته وذهبه، وإن قل دينه وحسبه»^(٣٨).

(٣٥) سورة الشعراء، الآيات ٢٢٤ - ٢٢٦. وكان هذا هو الرأى الشائع بين أوساط المسلمين النفاة في العصور الأولى، وفي مقابله رأى آخر وضع في القرن الحادى عشر الميلادى، وعرضه ابن رشيق تفصيلا في كتابه العمدة ج ١ ص ٤ - ٩ و ١٢ و ٢٨ - ٣٠.

(٣٦) من الخفيف، نفح ٤٧٥/٣.

(٣٧) الذخيرة ١٨/١، وعنها في «بنو عباد» ٤٣/٣، والترجمة اللاتينية للنص ص ٦٣.

(٣٨) الذخيرة ٢٠/١، وعنها في «بنو عباد» ٤٥/٣.

ولكن، ليست هذه المرة الأولى التي يتهم فيها الناس أدباء الأندلس بأنهم يهتمون بالتفاهات، ويعيشون حياة منحلة، على حين يفرض عليهم الدين أن يلتفتوا إلى الحياة الآخرة. وقد تعرض ابن شهيد لحملة تشهير لدى أمراء الشيعة الأندلسيين، في بدء أيام الفتنة، وموجها الحديث لى أحد أقربائه الذى وضعه فى السجن يقول:

وما ضره إلا مزاج ورقة ثنته سفيه الذكر وهو رشيد
جنى ما جنى فى قبة الملك غير، وطوق منه بالعظيمة جيد^(٣٩)

وبعد هذين البيتين من الشعر يطالب الشاعر بحقه فى نظم قصائد رفيعة، حتى لو خلت غير مفهومة من الجمهور. وبين لنا ابن شهيد فى نبرة بالغة الحداثة تماماً، كيف يستطيع الشاعر من خلال تفاهة فى الظاهر أن يقدم نغماً صادقاً فى شعره، وكيف يخطئ الذين يرون فى هذا الجمع من الكلمات الموزونة، والقوافى البراقة مجرد تلاعب بالخيال:

وما فى إلا الشعر أنبته الهوى فسار به فى العالمين فريد
أفوه بمالم أنه متعرضاً لحسن المعاني تارة فأزيد
فإن طال ذكرى بالمجون فإنها عظام لم يصبر لها جليد
وهل كنت فى العشاق ول عاقل هوت بحجاء أعين يحدود
فراق وشجو، واشتياق وذلة وجبار حفاظ على عنيد^(٤٠)

فابن شهيد بروحه الحساس، وذكاؤه الحاد. لا يرى الشعر إذن ملحمة عابثة، ولكن ضرورة نفسية يلوذ بها، وتتيح له أن يهرب من البيئة حوله وقاسى فيها، كما حدث لابن بسام عدة الكثير من الصدام والإهانات.

وتشعر بقوة أن الذى يرفضه المتقفون ليس الشعر فى ذاته، ولكنه النظم الذى يتكسب به صاحبه، ويقصد من ورائه أن يريح لقمة العيش^(٤١). فهم يرون الشعر لعبة فكرية جلييلة القدر، وحيلة روحية بالغة السمو، ومن الإساءة إليه أن نجعله يخدم أغراضاً وضعية.

ويصف المعتمد الغربية، وهو يتحدث إلى رحل يعرف بابن الزنجارى، طلب منه إشعراً يتزود بها فى غربته:

يا سائل الشعر يجتاب الفلاة به تزويدك الشعر لا يغنى عن السغب
زاد من الريح لارى ولا شبع غدا له مؤثراً ذو اللب والأدب^(٤٢)

ويبدو فقدان الثقة فى الشاعر امتكسب واضحاً فى الحكاية التالية، ويروىها عبد المجيد ابن عبدون عن نفسه، وجرت بينه وبين مؤدبه إلى الوليد ابن ضابط النحوى المالىقى، وسن ابن عبدون إذ ذاك

(٣٩) من الطويل، المطمح ١٩٨، وعنه فى نفع ٣٦١/٣، وانظر فيما سأتى ص ٩٠ - ٩١ من هذا الكتاب.

(٤٠) من الطويل، المطمح ١٩٨، وعنه فى نفع ٣٦١/٣.

(٤١) يروى أن بكراً المروانى الزاهد، وهو أموى الأصل كما تهدى إليه نسبته قال ذات يوم: إن شاباً من قرابته جاء يزوره، وصرح له بأنه يرتزق بالشعر، فقال له: «إنه يشأ يرتزق به، ونعم ما يتحل به إذا كان لغير هذا الوجه». نفع ٣٣٤/٣.

(٤٢) من البسيط، الذخيرة ٦٨/٢، وعنها فى «بنو عباد» ٣١٤/١، وترجمته ص ٣٥٦.

ثلاث عشرة سنة، وجرى بين يديه ذكر الشعر، فعن المؤدب أن قال:
الشعرُ خُطَّةٌ خَسَفَ

وجعل يردّد هذا القول، فكتب ابن عبدون في لوحه مجيزاً، ومعرضاً به حين كان يستجدي بالنظم وهو شيخ:

لكلّ طالب عُرِفَ

ثم خطر له بيت ثان وهو:

للشيخ عَيْبَةُ عَيْبٍ ولفتي ظَرْفُ ظَرْفٍ

«قال: فنظر إلى المؤدب وقال: يا عبد المجيد، ما الذى تكتب؟، فأريته اللوح، فلما رآه لطمني وعرك أذني، وقال: لا تشتغل بهذا! وكتب البيتين عنده»^(٤٣).

ومن الحق أن نسأل عما إذا كان النقد الموجه للشعر يصدر عن فقهاء غلب عليهم الميل إلى الزهد، أو نحاة ساخطين لأن جراحاً مسّت كبرياءهم، أم أنه ارتبط بوضع الشاعر نفسه خلال الفترة التي ندرسها.

وعندما يقول ابن ضابط لتلميذه ابن عبدون: .. الشعر خطّة خسف»، فأشارته هنا لا تنصرف لغير الشعراء المتكسين، وهذه الطبقة الخاصة، وتتكون من عدد مدهش، تستحق منا قبل كل شيء وقفة مستأنية، واهتماماً أكبر^(٤٤).

يجب أن نعترف بدءاً بأن هذه الحركة لم تكن شائعة من قبل على النحو الذى حدث في القرن الحادى عشر الميلادى، ويرجع هذا في المقام الأول إلى الطريقة التى كان الناس يفهمون بها منهج الدراسة في إسبانيا. لقد رأينا من قبل أنهم كانوا يبدؤون بالشعر، وكان من الطبيعى، وساعدت البيئة في ذلك، أن يندفع الطلبة أثناء دراستهم لإعطاء مكان راجح للعبة القوافي، والتي يمكنهم أن يروا فيها أرق فنون الكتابة والفكر وأسماها، وبالتالي يمكنهم أن يجدوا في مهنة الشاعر الطريق الوحيد المحتمل الذى يمكن أن يرضى كبرياءهم.. وأن يجلب لهم المال!. وكان النجاح البسيط في محيط الأصدقاء حوله، والحكايات الكثيرة، مشرقية أو مغربية، تعرض لما يلقاه الشاعر من مكافأة أو تدليل، مقابل جواب رشيق حاضر، أو قصيدة جيدة، تؤكد هذه القيم في أعماقهم.



(٤٣) من المجلد، نفع ٣/٣٩٧، والقلائد ١٤٧، وابن زاكور الورقة ١٠١ب، والمعجب ٨٧، وترجمته ٧٤.

(٤٤) نحن مضطرون هنا إلى أن نترك جانباً الشعراء الذين لا يقولون الشعر إلا في لحظات مباهجهم، إما لطبقته الاجتماعية أو لظروفهم المادية، وعندما يجدون أنفسهم مدفوعين لقول الشعر فحسب، كالأمراء وكبار الوزراء. فأبناء المعتمد، وأبناء شهيد، لا يقولون الشعر في الحقيقة إلا استجابة لضواغط داخلية قوية، وقد رأينا كم هو سام ووقع مفهوم الشعر عند ابن شهيد. وهذه الطبقة من الشعراء لا يمكن أن نتحدث ونحن بصددها عن التنافس من أجل لقمة العيش، أو مطالب احترام الشعر، والنقد الوحيد الذى يمكن أن يوحى إليها أنها أفسحت مكاناً رحيماً للزق والعبث والمزاح، وسوف تكشف أن رجال الدين كانوا أكثرهم قابلية لقوله في هذا المجال. واتشى الذى يمكن أن نصنعهم معهم، أن نتناول شعرهم شكلاً ومضموناً، ونرده إلى دواقمه، وأن نحدّد طبقته شعراء مطبوعين، وهو نقد لا يمكن أن يصدر عن شعراء آخرين مهما كانت الطبقة الاجتماعية التى ينتمون إليها.

من الخير إذن أن نبحث في الطريقة التي يبدأ بها الشاعر، وكان عندما يصل أخيراً يحافظ على مكانته، مهما تكن الوسائل التي استخدمها.

سنحاول أن نرسم صورة لحياة الشاعر الإسباني، القادم من أصول متواضعة، ويمكن أن نوجزها في كلمات بسيطة: الدراسة في قرية صغيرة، ثم في مدينة كبيرة، تتلوها حياة متشرّدة، إلى اللحظة التي يجيئه فيها النجاح.

كثيرون من الشعراء كانوا ينحدرون من أصول ريفية، ويمكن الظن أن بعض رجال السحو من هواة الشعر، ومن وقفوا طموحهم على ممارسة مهنة «المؤدّب» في بعض الضياع المغمورة غرسوا فيهم صغاراً تذوق الشعر وحبّه، والقصص التي تحكى عن ابن عمار تؤكد هذا. إنها تقدمه لنا وقد «ورد في بعض سفراته شلب، لا يملك إلا دابة لا يجد علفها، فكتب بشعره إلى رجل من وجوه أهل السوق، فكان قدره عند ذلك الرجل أن ملأ له المخلاة شعيراً ووجه بها إليه»^(٤٥). وتقدمه لنا مرة أخرى، وقد قدم على أبي عبد الرحمن بن طاهر صاحب مرسية، «في فروة طويلة، وغفارة جبلية ضئيلة»، فكان منظره غريباً مضحكاً^(٤٦).

ووقد أبو الفضل ابن شرف من برجة على المرية، بحثاً عن الثروة، وقدم على المعتصم في زى تظهر عليه البداوة، ويتناقض بشدة مع ما فيه حاشية الأمير من ملابس جميلة، فنكر عليه أحد الحاضرين، وسأله في وقاحة: من أى البوادي أنت؟ فجاء ردّ الشاعر عليه جارحاً ومضحاً، وأظهر أن الموهبة في الحديث ليست وقفاً على أبناء المدن وحدهم^(٤٧).

(٤٥) المعجب ١١٤، وترجمته ٩٧، وقد عاد ابن عمار إلى شلب مرة أخرى، وإليها عليها في هذه المرة، ودّ إلى التاجر الذي أعطاه الشعر المخلاة ملوثة دراهم، وقال له: «لو كنت قد ملأها لي قمحا لأعديتها لك الآن ملوثة ذهباً». ونجد القصة في المصادر نفسها، وانظر: تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ٨٣ و ٩٢.

(٤٦) الحلقة ١٢/٢، وبنو عباد ٨٨/٢، ومعجم الملابس لدوزي ٣١٤ - ٣١٥، والذخيرة ٢٦/٣.

ذهب ابن عمار يجارح ابن طاهر لحساب المعتد بن عبد، ولكنه هزم أخيراً، واعتقله ابن طاهر، فأرسل إلى ابن طاهر في وقت القبض عليه يعرض عليه خلعة، فرد ابن طاهر: لا أختار من خلعه إلا «فروة طويلة وغفارة ضئيلة» يعرض بزيه يوم قصده للمرة الأولى شاعراً مداحاً. انظر: تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ١١٠ - ١١١.

وبعد ذلك بأعوام قدم من شلب الحجري صاحب المسهب، وهو يبرى من صنهاجة، ووقد على عبد الملك بن سعيد، جد مؤلف المغرب في حلى المغرب، في قلعة بنى سعيد، فلما وقف على يده وهو يزي بدواة ازدراء البوابون، فقال لهم: استخنوا لي على القائد، فضحكوا به، وقالوا له: ما كان وجد القائد من يدخل عليه في هذه الساعة إلا أنت، فمد يده إلى دواة في حزامه وسحاه، وكتب بها: يباب القائد الأعلى - لا زال أهلاً بالقضية - رجل وقد عليه من شلب بقصيدة مطلعها:

عليك أحوالى الذكر الجميل فصَحَّ العزم واقتضى الرحيل

ورغب إلى أحد غلمانه فأوصل الورقة، فلما وقف عليها القائد قال: من شلب، وهذا مطلع قصيدته، ما لهذا إلا شأن، ولعله الوزير ابن عمار، عجلوا له بالإذن. لا يمكن أن يكون هناك من هو أعرف بالتاريخ الأدبي لإسبانيا من قائد قلعة بنى سعيد: لقد رأى في الطلب شاعراً، قد يكون ابن عمار أو مثله، وزيه يجب ألا يقف حائلاً دون تقدير موهبته الشعرية. انظر: نفح ١٢٢/٤، والتيجاني، تحفة العروس، في «بنو عباد» ١٤١/٢.

وقد ظهر ابن عبدون شيخاً عند الوزير أبي مروان عبد الملك بن زهر، ويقص ولد أبي مروان أنه جاء إليه «يد الهية، عليه ثياب غليظة، أكثرها صوف، وعلى رأسه عمامة قد لانها من غير إتقان لها، فحسبته لما رأته من بعض أهل البادية». انظر: المعجب ٨٩، وترجمته ٧٥.

(٤٧) أبحاث، ط ١ ص ٩١ و ٩٥، وط ٣ ج ١ ص ٢٤٩، ونفح ٣٩٣/٣.

وكذلك وصل إلى المرية الشاعر أبو الوليد النحلي، أثناء تجواله، «في أسمال دنسة، والناس قد لبسوا البياض»^(٤٨).

عندما ينحدر الشخص من أصول متواضعة يحتاج، دون شك، إلى قدر كبير من الإرادة والثقة بالنفس، لكي يحقق مجداً، واحتمال أن يصبح المرء شاعراً مشهوراً، وفي الوقت نفسه وزيراً مقتدرًا، كان بلا شك يدفع الفلاحين والحرفيين الذين يتمتعون بشيء من الثقافة كي يجربوا حظهم، ومن جهة أخرى لم تكن الصعوبات التي تواجه أرباب هذه المهنة تخفى عليهم، فقد كان الشعراء كثيرين جداً، وكان النقاد غاية في الذكاء والدقة، ولكن الموهبة وحدها لا تكفي، وإنما يحتاج الأمر معها لكثير من العمل والصلابة لتحقيق النجاح.

ولا ينبغي أن ندهش عندما نقع على إشارات عبد الشعراء تلمح إلى السهرات الطويلة التي كانوا يوقفونها على دراسة الشعر، لأنهم يشغلون سحابة نهارهم بالعمل اليدوي غالباً، حتى يضمّنوا على الأقل ما يقيم أود حياتهم، والليل وحده يمكن أن يتيح للحرفي، إذا بقيت لديه فضلة من قوة، أن يكب على دراساته المفضلة، فيقرأ للشعراء وينظم الشعر.

وأحياناً كان الشاعر يفقد الأمل، يقول ابن الحنّاط الكفيف:

لم يَحُلْ مِنْ نُوبِ الزَّمانِ أَدِيبُ كَلَّا فَشَأْنُ النَّائِبَاتِ عَجِيبُ
وَعَضْرَةُ الْأَيَّامِ تَأْبَى أَنْ يُرَى فِيهَا لِأَبْنَاءِ الذِّكَاءِ نَصِيبُ
وَكذلكَ مِنْ صَجَبِ اللَّيَالِي طَالِبًا جِدًّا وَفَها فَاتَهُ الْمَطْلُوبُ^(٤٩)

وقد لعب ابن الحنّاط بلفظ «الليالي»، لأنه في صورته جمعاً يعني «الكوارث» أيضاً، وهو في البيت الثالث يشير على التأكيد إلى عادة الطلاب الفقراء الذين يسهرون على وميض قنديل خافت. وكان ابن الزقاق، وأصبح مشهوراً بين مواطنيه مثل ابن خفاجة وابن عائشة، «يسهر في الليل، ويشغل بالأدب، وكان أبوه فقيراً جداً فلامه، وقال له: نحن فقراء، ولا طاقة لنا بالزيت الذي تسهر عليه. فاتفق أن برع في الأدب والعلم ونظم الشعر»، فمدح أبا بكر ابن العزیز صاحب بلنسية، «فأطلق له ثلاث مئة دينار، فجاء بها إلى أبيه وهو جالس في حانوته، مكب على صناعته، ووضعها في حجره، وقال: خذها فاشتر بها زيتاً»^(٥٠).

وإليك هذه الحكاية التي تضع اثنين في موضع الخصام، فقيه وشاعر، وكلاهما من القرن الحادي عشر: أبا الوليد الباجي وابن حزم، وكانت ظروفهما متباينة جداً، على الأقل في شباههما، وهى أيضاً بالغة الدلالة.

(٤٨) المجلد ٢/ ٨٨، والذخيرة، طبعة القاهرة، قسم ١، مجلد ٢، ص ٢٤٢، وسنعود إلى هذا الموضوع عند الحديث عن ألوان الملابس والمزّن.

(٤٩) من الطويل. نفع ٢٨٨/٣.

(٥٠) نفع ٢٨٩/٣. لقد كان يوسع الأب، مغلوباً على أمره، أن يتف بالمثل اللاتيني: ما أروع راحة الدرس حين تتعق بأريج الزيت!

● قلت: شك المستشرق الإسباني إميليو غرسيه غوث - بحق ١ - في هذه القصة، وناقشها في دراسته لابن الزقاق. انظر ترجمتنا لكتابه «مع شعراء الأندلس والمنتخب» الطبعة الرابعة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٥، (المترجم).

«ناظر أبو الوليد الباجي ابن حزم فقال: أنا أعظم منك همة في طلب العلم، لأنك طُستَ وأنت معان عليه، تسهر بمشكاة الذهب، وطلبتَه وأنا أسهر بقنديل بائت السوق»

«فقال ابن حزم: هذا الكلام عليك لا لك، لأنك إنما طلبت العلم وأنت في تلك الحال رجاء تبديلها بمنزل حالي، وأنا طلبته في حين ما تعلمه وما ذكرته، فلم أرج به إلا علو القدر العلمي في دنيا والآخرة، فأفحمه»^(٥١).

وعندما يحس الشاعر الناشئ بالثقة في نفسه يرحل ليجرب حظه، ولم يعرف العالم لإسلامي أبدا مثل هذا العدد من الرحالة، يذرعون لأندلس طولا وعرضا، على نحو ما سيفعل شعراء التروبادور بعد ذلك بقليل، يذهبون من بلد إلى بلد، ويتنقلون من بلاط إلى بلاط، يعرضون أشعارهم، يمدحون بها تاجرا موسرا، أو موظفا كبيرا، أو أميرا سخيا، وغايتهم أن يحصلوا على الهدايا، عينا أو عرضا.

ومن الواضح تماما أن هذه الرحلات على الأرض الإسبانية كانت قاعدة وضرورة عند شعراء القرن الحادي عشر، ونجدهم خلال سنوات، وربما في عدة أشهر، في مدن مختلفة ومتباعدة، أحيانا في الشمال وأخرى في الجنوب، مرة في العرب وأخرى في أقصى الشرق؛ فأبو المطرف ابن الدبائغ مثلا، عاش على التوالي في سرقسطة وإشبيلية وبطليوس، ثم رجع أخيرا إلى المدينة الأولى^(٥٢). وابن عمار جاء من «الغرب» في الأندلس، وطالت به الرحلة حتى بلغ سرقسطة في الثغر الأعلى^(٥٣).

يمكن تفسير هذه الرحلات بأن مردّها في المقام الأول الحصول على المال، وقد يدلّ المحسن سماع الشاعر نفسه، عندما لا يعرف هذا كيف يجدد في موضوعاته وصوره. الحاجة إذن هي التي كانت تدفع الشاعر إلى التنقل والترحال.

يقول ابن سارة:

مقامٌ حُرٌّ بأرض هونٍ عجزَ لعمري من المقيم
سافرَ فلان لم يجد كريماً فمن لئيمٍ إلى لئيمٍ^(٥٤)

ولا يمكن أن تصور بلاطات الأمراء في إسبانيا إلا لونا من المجامع العلمية، الشعراء فيها أطفال مدللون، وإن لم تكن تحسن استقبال الأدباء على الدوام، والشكاوى الكثيرة التي سجّلها المؤرخون وكتاب التراجم والسير والمختارات تجعلنا نعتقد بأن هذه الثورات ضد مصير ظالم تنطوي على شيء من الصدق. ويغمر الشاعر، باستثناء بعض الحالات، إحساساً بالخيبة، لأنه غير مفهم أينما ذهب.

يقول أبو بحر يوسف بن عبد الصمد:

فوصلتُ أقطاراً لغير أجبةٍ ومدحتُ أقواما بغير صلوات
أموال أشعاري نمت فتكاثرت فجعلتُ مدحي للبخيل زدي^(٥٥)

(٥١) نفح ٧٧/٢، ودجيا، مقدمة طبعة نفح الطيب الأوربية، ٤٨/١، وأسبن بلاتيوس، ابن حزم لرتطى ٢٠٦/١.

(٥٢) الذخيرة ٢٥١/٣، وعنها في أبحاث ط ١ ص ١٦٣ - ١٦٨ و ١٧٠.

(٥٣) أشار ابن قزمان إلى رحلاته الكثيرة في الزجل رقم ٧٤.

(٥٤) من مخلف البسيط، نفح ٩١/٤.

(٥٥) من الطويل، نفح ٥٣٤/٣.

وكانت الشكاوى تحت حكم المرابطين أشد مرارة، ولم يحدث أبداً أن صيغ قرار اتهام ضد لا مبالاة مجتمع القرن الحادى عشر إزاء قضايا الفكر بعامة، والشعر منها بخاصة، فى قسوة الذى وجهه ابن بقى وعنفه. ومن الواضح أن الشاعر، وهو فنان، بالغ وتطأرف بعض الشئ ضرورة، وأحسن بأن إخفاقاته الصغيرة جراح قاتلة، وهو لا يرى فى أى مكان إلا جهلةً وأجلافاً، لأن قصائده لم تنل الإعجاب فوراً. ولم يلق معها ما كان يتوقع من سخاء. ومع ذلك يمكن القول إن حياة شعراء التروبادور هؤلاء لم تكن بهيجة دائماً، رغم أن شاغلهم الوحيد أن يغنوا للحياة.

يقول ابن بقى:

إلى الله أشكو من نوى أجنبيّة لها من أبيها الدهر شيمة ظالم
إذا جاش صدر الأرض بى كنت منجداً وإن لم يجش بى كنت بين البهائم
أكل بنى الآداب مثلى ضائع فأجعل ظلمى أسوة فى المظالم
ستبكي قوافى الشعر ملء جفونها على عربى ضاع بين الأعاجم^(٥٦)

كان حتماً أن يثبت ابن بقى على رأيه مع الزمن، لقد ذهب إلى المغرب فلم يجد غير اللامبالاة، ولأنه يدرك قيمة نفسه جيداً فكر أن يترك المغرب ويذهب إلى العراق، وتصور أنهم سيلقونه هناك بالأحضان، وكان مخطئاً دون شك^(٥٧). إنه العصر الذى أخذ فيه الحجارى حظاً من البؤس شاعراً جوالاً، وشبه فيه نفسه متنقلاً مثل الحمام^(٥٨).

وكان على الشاعر، حتى وهو متشرد أفاق، عندما يصل إلى مدينة يحكمها أمير، أن يخضع لبعض العادات التى وجدت فى القرن الماضى تحت حكم الأمويين، وأصبح لها فى القرن الحادى عشر قوة القانون.

فى البدء على الشاعر الذى يطمع فى أن يكون له شرف لقاء الأمير، أو الحاكم، أن يسأل عن القلعة أو القصر الذى يسكنه، ولم يكن يجد فى هذا أية صعوبة. وعلى باب القصر يكفى أن يقول إنه شاعر، فيقوده فى الحل إلى الداخل موظف مسئول، كان يطلق عليه اسم «صاحب الإنزال»، وهى وظيفة تشير إليها بعض الفقرات فى كتاب «نفح الطيب» للمقرى، وكتابتى «تحفة القادم» و«الحلة السيرة» لابن الأبار. ومهمة هذا الموظف أن يقوم على راحة الشعراء والمدعوين من ضيوف الأمير فى ملحقات القصر، وعندما يتعلق الأمر بإنزال الجنود فى بيوت الأهالى^(٥٩)، على صاحب الإنزال، دون شك أن يعرف الحجرات الشاغرة، والأمكنة الصالحة والمعدّة، ببيان شفوى يتلقاه من المالك، أو طبقاً لتحريرات الشرطة.

ولم يكن الشعراء راضين تماماً عن إقامتهم هذه، وتدرك هذا من التكاوى التى ترد فى أشعارهم

(٥٦) من الطويل، القلائد ٢٨٠.

(٥٧) انظر دراستنا عن: الشعر فى فاس تحت حكم المرابطين والموحدين، فى مجلة هيسبيريس، المجلد ١٨، عام ١٩٣٤، العدد الأول ص ١٤.

(٥٨) نفح ٣١٥/٤.

(٥٩) نفح ٣٧٨/٢. وقد احتج الأديب أبو المتوكل الميمى لدى صاحب الإنزال، لأنه أرسل إليه قوات تتألف من العبيد الأفارقة.

رضى أن يصبر، سعيد النفس ربما، وبخاصة إذا جاءه الأمر بعد فترة من التجوال قليلة الفائدة، وحرصه على أن يجد المأوى، ويصبح خلى البال من مشاكل الغد. و«صاحب الإنزال» مسئول دون شك عن توفير كل ضروب العيش لجميع الضيوف.

ونعرف مثلاً أن ابن حمديس الصقلى ترك صقلية وقدم إلى إشبيلية، وأقام بها، والمعتمد لا يلتفت إليه ولا يعبا به، حتى يش منه وفكر أن يرحل إلى ممالك أخرى أكثر تسامحاً وكرمًا^(٦٣). أهو إهمال عفوى أم اختبار مقصود؟ لا أحد يجزم بشيء. وأظهر المعتمد مع شاعر آخر تهاونا أشد خطراً، فقد نسيه تماماً، ولم يستطع الضحية، أبو الحسن جعفر بن الحاج اللورقي، أن يسك عنه سهامه البائرة، في اللحظة التي ابتعد فيها عن إشبيلية:

تعرُّ عن الدنيا ومعروف أهلها إذا عُدِمَ المعروفُ في آل عباد
حللت ضيفاً ثلاثة أشهرٍ بغير قري ثم لرتحت بلا زاد^(٦٤)

وعندما يسمح للشاعر بأن ينشد مألديه، عليه أن يتقدم في قاعة الأمير، في يوم محدد، يختلف من مدينة لمدينة، ومن أمير لأمر، ونعرف أن هذا اليوم كان «الاثنين» عادة في إشبيلية على عهد المعتضد، واحتفظ لنا المقرئ يخبر إحدى هذه المقالات، وفي أسلوب يتراوح بين الجِدِّ والهزل. وخير ما نفعله هنا أن ننقل النص كاملاً للمعلومات الدقيقة التي يقدمها لنا، بمناسبة حديثه عن بلاط كان القدوة المحتذاة في العادات لكل شبه الجزيرة.

عندما وصل ابن جاح الشاعر إلى إشبيلية قادماً من بطليوس، دخل «الدار المخصوصة بالشعراء، فسألوه، فقال: إني شاعر، فقالوا: أنشدنا من شعرك، فقال:

إني قصدتُ إليك يا عبادي قَصَدَ القَلْبُ بالجرى للوادي

فضحكوا منه وازدروه، فقال بعض عقلائهم: دعوه فإن هذا شاعر، وما يبعد أن يدخل مع الشعراء ويتدرج في سلكهم، فلم يبالوا بكلام الرجل، وتنادروا على المذركور، فبقى معهم، وكان لهم في تلك الدولة يوم مخصوص لا يدخل فيه على الملك غيره، وربما كان يوم الاثنين فقال بعض لبعض: هذا شئنا بنا أن يكون مثل هذا البادى يقدم علينا، ويجترئ على الدخول معنا، فاتفقوا على أن يكون هو أول متكلم في اليوم المخصوص بهم عند جلوس السلطان، وقد رأوا أن يقول مثل ذلك الشعر المضحك فيطرده عنهم، ويكون ذلك حسماً لعل إقدام مثله عليهم. فلما كان اليوم المذكور، وقعد السلطان في مجلسه، ونصب الكرسي لهم، رغبوا منه أن يكون هذا القادم أول متكلم في ذلك اليوم، فأمر بذلك، فصعد الكرسي، وانتظروا أن ينشد مثل الشعر المضحك المتقدم فقال:

قطعت يا يومَ النوى أكبادي وحرمت عن عيني لذيد رُقادي

(٦٣) نفع ٦٦٦/٣، ومنهد استقباله سيرد في هذا الكتاب فيما بعد، ص ١٩٢.

(٦٤) من الطويل، القلائد ١٤٣، ونفع ٢٢٦/٤، وابن دحية، المطرب ١٧٧. ومن حق المسلم أن يستضاف ثلاثة أيام لا ثلاثة شهر، ولهذا يبدو ابن الحاج مبالغاً جداً. واحتج كثير من المؤلفين على هذا الكلام واعتبروه افتراءً خالصاً. انظر: نفع ٢٢٦/٤، والمطرب في الصفحة السابقة نفسها.

وتركتني أرعى النجوم مُسهّداً والنار تُضرم في صميم قوادى

.....
 يب أيها الملك المؤمل والذي قُدماً سما شرفاً على الأنداد
 إن القريض لكاسدٌ في أرضنا وله هنا سوقٌ بغير كساد
 فجلبت من شعري إليك قوافياً يفنى الزمانُ وذكرها متمادى
 من شاعرٍ لم يضطلع أدباً ولا خطت يدهُ صحيفة بمداد

فقال له الملك: أنت ابن جاح؟ فقال: نعم، فقال: اجلس فقد وليتك رئاسة الشعراء، وأحسن إليه، ولم يأذن في الكلام في ذلك اليوم لأحد بعده» (٦٤).

ليس مبالغة إذن أن نقول إن المرشح يمر بتجربة حقيقية، ولكن فيما يتصل باللجنة المكلفة بتقدير موهبته، لم يكن لنظرائه دائماً حق إبداء الرأي، وكان يكفي أن يقتنع رب البيت، لكى يقبل على الفور. والحق يقال كان الأمير الذى يرأس هذه الاجتماعات الأدبية على قدر من الثقافة والذوق لا يقل عما عند هؤلاء الشعراء المحترفين، غير أنه لا يتأثر في قراره بالغيرة التى تفسد أحكام الشعراء الحاضرين، القلقين، ويمكن أن ندرك سر هذا في سر، فإن صعود منافس جديد يمكن حتى لو كان التراجع بلا جدوى، أن يصبح أنصف الآراء نقدياً لقيمة الواقد الجديد.



رأينا الطريقة التى كان الشعراء يقبلون بها رسمياً في حاشية أمير ما، أو حاتم قوى، وطبقاً للشقندى كان من أعظم مباهاتهم أن يقال: «الشاعر الفلانى مختص بالملك الفلانى» (٦٦) وهو اعتراف مخلص وصادق في تصوير حالة التبعية التى كان على الشعراء أن يحيوها في مواجهة العظماء. وكان الشعراء أبعد ما يكونون عن الصفوف الأولى، وبحيى ترتيبهم دائماً في المكلن الأخير، طبقاً لنظام المراسم (٦٧)، وفي حالات غير قليلة كانوا يقومون بدور الخدم في القلاع أو القصور، فكان على الشاعر النحلى مثلاً، وقد واثاه الحظ ونال إعجاب المعتمد، أن يقف ليل نهار بباب الجناح الخاص بالأمير ليستجيب لأول نداء (٦٨) وكان لدى ابن الحماة قَدْر كاف من الشجاعة لكى يقول للمعتمد صاحب لمرية، في أبيات من الشعر:

(٦٥) نفع ٢٤٣/٤، وعنه في «بنو عباد» ٢٢٩/٢، وترجمتها في: تيجنى، شاعر ملك، ص ١٢٨، والكونبر مرتينيت، نقابة الشعراء، ص ١٧٥ - ١٧٨.

(٦٦) نفع ١٩٠/٣، وغرسية غوث، ترجمة رسالة الشقندى ١٤٧.

(٦٧) البيان المغرب ٩/٣، وترجمة ليفى برونسفال للنص في تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ ج ١ ص ١٩١.
 خلال عصر الموحدين كان هناك «حسيب»، أى يتحدر من أسرة كانت تحكم مقاطعة، كتب اسمه في قائمة لشعراء الموصولين. وثمة حسيب آخر هو أبو [محمد] القاسم بن مسعدة الأوسى مدح أمير المؤمنين عبد المؤمن، فكتب الوزير اسمه في جملة الشعراء، فلما وقف الأمير على ذلك ضرب على اسمه وقال: إنما يكتب هذا في جملة الحسباء، لا تدنسوه بهذه النسبة، فلسنا ممن يتفاضى على غمط حسيبه، ثم أجزل صلته، وأمر له بضبعة، يعنى بذلك أنه من ذرية الملوك، لأن جده كان ملك وادى الحجارة. انظر: نفع ٤١٩/٣.
 وفيما بعد، في عصر ابن الخطيب، كان الشعراء يأتون أخيراً مع المغنين، وبعد لاعبى الشطرنج، ورؤساء الجنائين، والأطباء البيطريين، والأطباء، والمنجمين وغيرهم. انظر: المقرئ، نفع الطيب ٢٤١/٤، طبعة بحمى الدين، والإحاطة، في «بنو عباد» ١٦٦/٢.
 (٦٨) نفع ٢٣٤/٣.

رجلٌ إذا أعطاك حبةً خَرْدَلٍ أَلْفَاك في قيد الأسير الطائِح^(٦٩)

وكان الشعراء يعتبرون، دون شك، وضعهم هذا، حتى في حالة التبعية الوثيقة للأمير، مما يُحسدون عليه، ويتعرضون بسببه للهجوم الغادر من زملائهم، الذين لا ينكصون في أن يقوموا بأية وشاية، ولا يترددون في استخدام التشهير، وهو أشد الأسلحة خداعاً وتأثيراً في رجال الأدب، وذلك حتى يزيجهم عن مكانتهم، وكأن الكفاح ضد الفقهاء ليس كافياً، وكان هؤلاء يرون الشعر أحد أسباب هلاك الناس، ويلعبون دورهم التقليدي في الرقابة، وينذرون محبى الشعر بما ينتظرهم من هلاك في الآخرة، معتمدين على بعض الآيات القرآنية، والكثير من الأحاديث النبوية التي تتفاوت صحتها^(٧٠). وكان على الشعراء أن يواجهوا النقاد الماكرين بخاصة، وهؤلاء قد يدفع بهم المنافسون إلى الانتقاص من مواهب اساعار، وتسقط كل مواطن ضعفه.

ويوجه النقد عادة إلى الشاعر ليفقده مكانته في ذهن الجمهور المثقف، وقبل كل شيء ليزيجه عن المكانة المفضلة التي يحتلها عند أمير جواد، أو شخصية ذات نفوذ، ويستهدف الشاعر في إبداءه أكثر مما يتجه إلى سلوكه الخاص، فهو يتعقب أتفه الأخطاء في قصائده، ويدين فوراً، وبلا رحمة، التقليد أو الاقتباس حين يأتي دون اعتراف به أو إشارة إليه. وهو يحلل الألفاظ في أدق خصائصها، ويزن الصور البلاغية في دقة متناهية، وكل ذلك يقدم لنا صورة واضحة عن أهمية الشكل عند شعراء الأندلس. ولن تجد أحداً يمكن أن يقول مثل ما قال الفرزدق، عن سبب خروجه على بعض قواعد الإعراب: «على أن أقول، وعليكم أن تحتجوا»^(٧١).

ولم يحدث أبداً أن بلغت فكرة التشهير هذا القدر من الحدة بين الشعراء العرب مثل ما كانت عليه في الأندلس. فنصنع إلى ابن حزم، الرجل الذي شهد القرن الحادى عشر، وعاشه كأعمق ما يكون، يتحدث إلينا عن هذه القضية:

«وأما جهتنا فالحكم في ذلك ما جرى به المثل السائر: [أزهّد الناس في عالم أهله]، وقرأت في الإنجيل أن عيسى عليه السلام قال: لا يفقد النبي حرمة إلا في بلده»^(٧٢). وقد تيقنا ذلك بما لقي النبي ﷺ من فريس - وهم أوفر الناس أحلاماً، وأصحهم عقولاً، وأشدّهم ثبّتاً، مع ما خصّوا به من سكناتهم أفضل البقاع، وتغذيتهم بأكرم المياه - حتى خص الله تعالى الأوس والخزرج بالفضيلة التي أبانهم بها عن جميع الناس، والله يؤتى فضله من يشاء.

«ولا سيما أندلسنا فإنها خُصّت من حسد أهلها للعالم الظاهر فيهم، الماهر منهم، واستقلالهم كثير

(٦٩) من الكامل، نفع ٥٠٥/٣، وأبحاث، ط ١ ص ١٠٢، وط ٣ ج ١ ص ٢٥٤.

(٧٠) في المسهد الذي نقلناه فيما سبق، قال عدو الرمادى للمنصور بن أبى عامر: «إن هذا الصنف (يعنى الشعراء) صنف زور وهذيان، لا يسكرون نعمة، ولا يرعون إلا ولا ذمة، كلاب من غلب، وأصحاب من أخصب، وأعداء من أجذب، وحسبك منهم أن اقه حل جلاله يقول فيهم: «والشعراء يتبعهم الفأرون» (الشعراء، الآية ٢٢٤)، والابتعاد عنهم أولى من الاقتراب، وقد قيل فيهم: ما ظنك يقوم الصق يستحسن إلا منهم؟»، انظر: نفع ٣٦٤/٣.

(٧١) ابن قتيبة، الشعر والشعراء ٨٩/١، تحقيق أحمد محمد شاكر، القاهرة ١٣٨٦ - ١٩٦٦. ومقدمة جود فروى - ديوميين لطبعته وترجمته ص ٢٥.

(٧٢) نصه في إنجيل لوقا، الإصحاح ٤، الآية ٢٤: «إنه ليس نبياً مقبولاً في وطنه».

ما يأتي به. واستهجنهم حسناته، وتبّعهم سقطاته وعثراته، وأكثر ذلك مدة حياته، بأضعاف ما في سائر البلاد، إن أجاد قالوا: سارق مغير، ومنحل مدع، وإن توسّط قالوا: غث بارد، وضعيف ساقط، وإن باكر الحيازة لقصب السبق قالوا: متى كان هذا؟ ومتى تعلم؟ وفي أى زمان قرأ؟ ولأمة الهبل! «وإن ولجت به الأقدار أحد طريقين إمّا شقوفاً بائناً يعليه على نظرائه، أو سلوكاً غير السبيل التي عهدوها، فهناك حمى الوطيس على البائس، وصار عرضاً للأقوال، وهدفاً للمطالب، ونصباً للتسبب إليه، ونهباً للألسنة، وعرضة للتطرق إلى عرضه، وربما نجل ما لم يقل، وطوّق ما لم يتقلّد، والحق به ما لم يفقه به، ولا اعتقده قلبه، وبالحرى وهو السابق المبرّز إن لم يتعلق من السلطان بحط أن يسلم من المتالف، وينجو من المخالف، فإن تعرّض لتأليف غيمز ولز، وتعرّض وهيز، واشتط عليه، وعظم يسير خطبه، واستشنع حين سقطه، وذهبت محاسنه، وسُترت فضائله، وهُتِف ونودى بما أغفل، فتتكس لذلك همته، وتكل نفسه، وتبرد حميته.

«وهكذا عندنا نصيب من ابتداء يحوك شعراً، أو يعمل رسالة، فإنه لا يفلت من هذه الحياتل، ولا يتخلص من هذه النُصْب، إلا الناهض الضّامن، والمطقف المستولى على الأمد»^(٧٣)

هذه الفقرة الحادة من كلام ابن حزم تثير فينا الإعجاب والدهشة، ومع أن ابن حزم كان يفكر في نفسه خاصة وهو يكتبها، لأن آراءه تعرضت لهجوم شديد فيما نعرف، ودار حولها نقاش عنيف، إلا أن أفكاره فيها أخذت بُعداً عاماً لا يمكن تجاهله^(٧٤).

ولم يكن الشعراء المحترفون وحدهم الذين يقومون بهذا النقد الدقيق، فأبو العرب الصقلي، وهو أصلاً من صقلية، مثل ابن حمديس، حضر مجلس المعتمد يوماً، ودفع له بورقة خط فيها قصيدة، ويقص الشاعر أن المعتمد «أخذ البطاقة وجعل يطيل النظر والفكر في القصيدة، وأنا مترقب لتقده، لكنّه في هذا الشأن من أنمته، وكثيراً ما كان الشعراء يتحامونه لذلك، إلا من عرف من نفسه لتبريزه ووثق بها»^(٧٥).

(٧٣) نفع ١٦٦/٣. ولم يكن ابن حزم الوحيد الذي لحظ ميل الأندلسيين إلى الذم والتشهير، فابن سعيّد أيضاً لحظ أن أهل الأندلس كثير الانقياد على كاتب لرسائل. نفع ٢١٧/١.

(٧٤) هذه الأفكار تجعلنا نفكر بالضرورة في مونتسكيو الذي يقول في كتابه «دفاع عن روح القوانين»: لناس الذين يريدون أن يتعلموا كل شيء يصعب عليهم كثير أن يتعلموا أى شيء، وليست هناك عبقريّة لا تضيق إذا أحاط بها مليون ربة باطة، وحتى لو حملت أفضل النوايا في العالم سوف يضطرونك إلى الشك فيها، ولن يمكنكم أن تهتموا بالكلم الطيب في الوقت الذي تخافون فيه أن تقولوا السيئ، وبدل أن تتخذوا أفكاركم لا يشغلكم غير الكلمات التي يمكن أن تفلت من فطنة النقاد. إنهم يضعون في رؤوسنا جوقاً يقول لنا مع كل كلمة: حاذروا السقوط! نتم نريدون الحديث على طريقتكم، وأنا أود أن تخاطبوني على طريقتي، وإذا حاولنا أن نحلق شدون من أذرعنا، وإذا كانت لدينا قوة الحياة انتزعوها منا بقوة الوز، وإذا رفعتكم قليلاً حينئذ يظهر لاس الذين يسكون قدمك وقامتك، يرفعون الرأس ويصيحون فيكم أن انزلوا ليتخذوا منكم وسيلة... ليس هناك علم ولا أدب يمكن أن يقاوم هذه الخدلة! انظر: دفاع عن روح القوانين، القسم الثالث.

● قلت: ترجم الكتاب إلى اللغة العربية عادل زعيتر، ونشره بعنوان روح القوانين. (المترجم).

(٧٥) نفع ٣٨٧/٢ طبعة أوربا، وإيتيجاني، تحفة العروس، في «بنو عباد» ١٤٨/٢، وانظر أيضاً: تاريخ سلمي إسبانيا ط ٢، جـ ٣ ص ٩٢.

● قلت: وهم المؤلف في نسبة هذه القصة لأبي العرب الصقلي، ومن ثم فهي تحتاج إلى فضل بيان. الذي أورد القصة الحجازي في «المسهب»، وعنه نقلها نفع الطيب ٥٧١/٣، عن عمه أبي محمد عبد الله بن إبراهيم ولهذا =

ويقول ابن زيدون في قصيدة توجه بها إلى المعتمد أيضاً:

قد كان هُجْرِي الشعرَ - قَبْلُ - صَرِيحاً حَذَرِي لَذَاكَ النَقْدِ فِيهَا عَاذِرٌ^(٧٦)

كان الشعراء إذن يستطيعون أن يلجأوا إلى فكر المعتمد المستنير، على حين أنهم لا يستطيعون أن يقتربوا من أبي الجيوش مجاهد العامري، صاحب دانية، دون أن يتغشاهم الرعب، لأنه «أزهد الأمراء في الشعر، وأنكرهم على منشدته»، وبخاصة في فترات تشاؤمه، وكانت تضيف على أخلاقه أسلوباً متناقضاً وقاسياً في تعامله مع رجال حاشيته. وهو يتعقب قصائد الذين يتملقونه بالنقد الدقيق، ويكشف في بهجة غامرة عن كل لفظة غير مناسبة، وكل تشبيه خاطئ، وكل سرقة أو إحالة^(٧٧). وفضلاً عن هذا النقد الكثير، ومعظمه لا يقوم على أساس فيها نعتقد، كانت هداياه قليلة، ومحدودة القيمة^(٧٨)، فكف الشعراء عن إنشاد الشعر لزوتيل Zoil المتوج هذا، إلا إذا تعرضوا لضائقة شديدة^(٧٩).



وإذا أخذنا في الاعتبار كل شيء فإن الشاعر في عصر الطوائف كان يتمتع بظروف أفضل شيئاً مما كان عليه أيام الفتنة، في مطلع القرن الحادي عشر، ويقول أحد المؤرخين: إن «شعراء العامرية والدولة الأموية، نسجت على أفواههم ومحاريبهم العناكب أيام الحرب والفتنة، واشتدت فاقتهم، وحث طباعهم، وكانوا كاللذاة الفذة الجياح، انقضت لفرط الضرورة على الجردة، فلم يبال صداهم، ولا شد خلتهم، لاستغاله بشأنه، واشتداد حاجة سلطانه»^(٨٠).

وكانوا يعتبرون أنفسهم سعداء حتى وهم في وضع الخدم، وأقصى أمانهم أن يلتحقوا بخدمة أحد الأمراء، وأن يُدرجوا في قوائم المراتبات، أو الديوان إن شئت، وقوائم الديوان هذه كانت موجودة خلال الحكم الأموي في إسبانيا^(٨١)، ولم تكن إلا استمراراً لتقليد كان قائماً في المشرق، وبقي تكريماً

= أشعار في المعتمد وكان ممن زاروه في منفاه في أغصان، وأورد له المقرئ أخباراً كثيرة، نقلاً عن المسهب، وليس للقصة صلة بأي العرب، ولم يشر دوزي إلى اسم معين عند حديثه عن المعتمد الناقد، وإنما قال بالحرف: «بما أن المعتمد ووزيره (الضمير يعود على ابن عمار) كانا مفرمين بالشعر خاصة، فقد تحول بلاط إشبيلية إلى مهبط لخير الشعراء، ولم يكن أمام الصغار منهم أي احتمال لكي يصلوا وبحقوقاً حظاً وثروة، لأن المعتمد كان ناقدًا قاسيًا، يدرس بعناية تامة كل القصائد التي تقدم إليه، ويقف عند كل كلمة، ويتأمل كل بيت، وعندما يلتقي بشاعر موهوب فإن سخاءه يصيح بلا حدود».

(٧٦) من الكامل، ديوان ابن زيدون ص ٥٠٨، تحقيق علي عبد العظيم، الطبعة الأولى، القاهرة ١٣٧٦ - ١٩٥٧.

(٧٧) أعمال لأعلام ٢١٩، وفي الاحتفال الثوي بأماري ١٣٠/٢.

(٧٨) لم يكن على التأكيد مستجيباً للدوافع نفسها التي خضع لها شارل التاسع عندما كان يقول عن رونسار: «أخاف أن أفقد صديقي رونسار، فإن الكثير من الخير يجعله كسلان في وظيفة ربان الشعر، والشاعر الجيد يجب ألا يسمن كثيراً، كالجواد الأصيل، وعلياً أن نطمعهم دون أن نشبعهم». انظر: ف. فونك - برنتانو، النهضة ١٤٦.

(٧٩) وقد اشتهر أيضاً أبو مروان حسام الدولة بن رزين أمير السهلة بأنه قاس جداً مع الشعراء. انظر الحلقة ١١٠/٢.

● قلت: زوتيل ناقد إغريقي من القرن الرابع قبل الميلاد، اشتهر بنقده القاسي والمريو والمتحامل على هوميرو، وأصبح اسمه مرادفاً لمعنى الناقد الحسود والمتحامل. (المترجم).

(٨٠) أعمال لأعلام ١٢٢.

(٨١) الإحاطة ٧١/٢ طبعة القاهرة وقد صلب المنصور في إحدى حملاته «الشعراء المرتزقين بديوانه». ولما وقف الحكم الأزل

على شعر حسنة التيمية استحسنته وأمر بإجراؤه مرتب لها. نفح ١٦٧/٤.

لدمشق^(٨٢). وتحت حكم ملوك الطوائف حرص كل واحد من هؤلاء الملوك الصغار أن يكون له ديوانه الخاص بالشعراء. وعندما قَدِمَ ابن عمَّار، ولما يزل مغموراً، على المعتضد وأنشده رائيته الشهيرة، استحسناها «وأمر له ببال وثياب ومركب، وأمر أن يكتب في ديوان الشعراء»^(٨٣). وتحت حكم المعتمد نعرف من شكوى لابن الحاج اللورقي أن القائم على دفع هذه المرتبات يدعى بن ماض^(٨٤). وأحياناً كانت المرتبات النقدية تستبدل بمحصول أرض، أو بضعة يمنحها الأمير للشعر الذي يعطى بإعجابه، وكان ذلك شأن الشاعر أبي الفضل ابن شرف، حين قدم إلى بلاط المعتصم صاحب المرية^(٨٥).

ولم تكن المرتبات التي يتلقاها الشعراء من رعاتهم الدخل الوحيد، ففي أوقات معينة من السنة: كالأعياد الدينية الكبرى، أو بمناسبة حدث هام، كعودة الجيش منتصراً، أو استقبال سفارة أجنبية، أو حفل إعدار، أو زواج أو غيرها، ينظم الشعراء قصائدهم، وينشدونها في الحفل، ويناون عليها المنح والهدايا.

وهم يعترفون بلا حياء بأن مَنْ قُدِّدَ بالإحسان طلق لسانه بالشكر^(٨٦)، ويمكنهم أن يفخروا بأن فقيها معروف في هذا العصر، وهو ابن عبد البر، أباح قبول الهدايا، فقد بلغه وهو بناطبة أن أقواما عابوه بأكل طعام السلطان وقبول جوائزه، فقال:

قل لمن يُنكر أكل طعام الأمراء
أنت من جهلك هذا في محل السفهاء

«لأن الاقتداء بالصالحين، من الصحابة والتابعين. وأئمة الفتوى من المسلمين، من السلف الماضين، هو ملاك الدين، فقد كان زيد بن ثابت - وكان من الراسخين في العلم - يقبل جوائز معاوية وابنه يزيد، وكان ابن عمر رضى الله تعالى عنها - مع ورعه وقضله - يقبل هدايا صهره المختار بن أبي عبيد، ويأكل طعامه، ويقبل جوائزه»^(٨٧).

ولكن، هل كان ابن عبد البر يستطيع أن يتنبأ بأن بين الشعراء من سيبلغ حد السقه، فيلج في طلب الهدايا حتى على التفاهات؟ فإذا أريد بقاؤهم يجب إذن أن تنهال عليهم الهدايا، بمناسبة أو بدونها، إلى جانب مرتباتهم الجارية، وكل ذلك من أجل كلمة طيبة، أو قصيدة، أو بيتين من الشعر، أو محاكاة بارعة.

يقول أبو مروان ابن سراج للمظفر بن جهور:
أتعود دلوى من بحور سماحكم صَفَرا وليست رثّة الأُسْطَاطانِ

(٨٢) انظر مقال: استقبال الخليفة عمر بن عبد العزيز للشعراء، في المجلة التونسية، عام ١٩٣٤، ص ٢٢٤ وما بعدها.

(٨٣) المعجب ١١٧، وترجمته ٩٩.

(٨٤) القلائد ٦٤٣.

(٨٥) نفح ٣٩٦/٣، وأبحاث ط ١ ص ٩٥ و ط ٣ ج ١ ص ٢٥٠.

(٨٦) نفح ١٩٩/٣، وانظر فيها سبق ص ٤٠ الهامش رقم ٦٤ من هذا الكتاب.

(٨٧) نفح ٢٣٥/٣.

ويكون ربي مستبيناً جديده
فَسْنَى بِنَى بَرْفَع مَكَانِهِ
أَمِنَ السَّوِيَّةُ أَنْ يَحْلُوا بِالرَّبِّ
إِنْ تَرَحَّصُوا خَطَرِي فَكَمْ مُغْلٍ بِهِ
حَتَّى أَهِيْمَ بِنَجْعَةِ السِّدْرِ
بِنَدِيكِ الْعَالِي وَخَفَصَ مَكِي
مِنْ أَرْضِهِ وَأَحْلَ بِالْعِيْطَانِ
يَسْتَامُ فِيهِ بِأَرْفَعِ الْأَثْمَانِ^(٨٨)

وإذا لم ينالوا ما ينتظرون غضبوا ورحلوا. ويحدث أحياناً أن يعاملوا في مدينة أخرى بقسوة متناهية، فيصبح منتهى سعادتهم أن يستطيعوا العودة إلى راعيهم الأول. كتب أبو العلاء إدريس بن أزرقي إلى ابن رشيق ملك مرسية، وقد طالبت إقامته عند ابن عبد العزيز صاحب بلنسية:

ألا ليت شعري هل أعود إلى الذي
فَوَاللَّهِ مَذْ فَارَقْتَكُمْ مَا تَخَلَّصْتُ
فَمَنُوا بِإِذْنِ كِي أَطِيرَ إِلَيْكُمْ
عَهْدْتُ مِنَ النِّعْمَى لِدَيْكُمْ بِلَا جَهْدٍ
مِنَ الدَّهْرِ عِنْدِي سَاعَةً دُونَ مَا كَدَّ
فَلَا عَارَ فِي شَوْقِي إِلَى الْمَالِ وَالْمَجْدِ^(٨٩)

بعد هذا المثال، ويمكن أن ندعمه بشواهد أخرى، نستطيع القول بأن الشعراء الذين كانت تجري عليهم المرتبات ظلوا وحدهم أوفياء لراعيهم، أما الذين يعيشون على الهبات المتقطعة فيرحلون بلا انقطاع بحثاً عن حظ أفضل.

وبعض الشعراء رغم أنهم يعيشون من سخاء رعاتهم، لم يكونوا ينظمون الشعر بقصد الفائدة. هل هم مخلصون حقاً؟ يمكن أن نشك في هذا، ويقول أبو محمد بن السيد البطلبوسي:

جَفَنَّا بِلَا جَرَمٍ كَأَنَّ مَوَدَّةً
وَلَوْ لَمْ تَفِدْ مِنَّا سِوَى الشَّعْرِ وَحْدَهُ
فَكَيْفَ وَلَمْ نَجْعَلْ بِهَا الشَّعْرَ مَكْسَبًا
وَلَا نَحْنُ مِمَّنْ يَرْضَى الشَّعْرَ خِطَّةً
وَمَنْ أَوْهَمْتَهُ غَيْرَ ذَاكَ ظَنُونُهُ
ثَنَى نَحُونَا مِنْهَا الْأَعْنَةَ شَنَانٌ
لِحَقِّ لَنَا بَرٌّ عَلَيْهِ وَإِحْسَانٌ
فِي وَجَبٍ لِلْمَكْدِيِّ جَفَاءً وَحِرْمَانٌ
وَإِنْ قَصُرَتْ عَنْ شَاوِنَا فِيهِ أَعْيَانٌ
فَتَمَّ مَجَالٌ لِلْمَقَالِ وَمِيدَانٌ^(٩٠)

وهذا الاهتمام الراسخ في البحث عن المال، حتى لو صاحبه احتجاج نزيه، يصدمنا بقوة، دون أدنى شك، في مدائح شعراء العرب في الغرب الإسلامي، وكنا نحب عفة أكثر، ولكن يبدو أن هذا الأمر كان يجري وفقاً لسلوك المجتمع وآدابه إذ ذاك، ولم يكن هذا الوضع يصدم أحداً في هذا العصر، باستثناء رجال الدين.

وليس أقل أهمية أن نلاحظ أن بعض الشعراء كانوا، بعيداً عن تسوّل أية مكافأة، يحدّدون مقدماً ثمن قصيدة المديح من نظمهم، وكان الانحناء أمام إرادتهم لونا من التفضيل لمواهبهم. ألم يحك أبو علي إدريس بن اليماني أنه حلف ألا ينظم قصيدة مدح بأقل من مئة دينار؟ ألم يراجع المعتضد، واشتهر بالنزوات الطاغية، أمام هذا الطلب؟^(٩١)

٨٨. من دخل. خلافة ١٩٠.

٨٩. من الطويل نفع ٥٧٣/٣.

٩٠. من الطويل، نفع ٦٤٨/١.

٩١. الذخيرة ٣٣٦/٣، ونفع ٧٥/٤، والشقندي، رسالة فضل الأندلس، في نفع الطيب ١٩٠/٣، وترجمتها لغربية غوث ٤٨.

وإذا بلغ القدر ببعض الشعراء أن يحدّثوا ثمن قصائدهم، فمن الضروري أن نشير إلى أن الهدايا التي كان يمنحها الأمراء لمناقضهم أدت إلى الاضطراب والتشويش في خيال الشعراء وإبداعهم، فقد كانت أحيانا مفرطة باهرة، مبالغاً فيها، ومعها يجد الشاعر نفسه وقد اغتنى بقية حياته. ومن هذا أن أبا بكر بن عبد العزيز نظم داليته في مدح المعتمد، إبان معركة الزلاقة، وتلقى عليها هدية قدرا كبيرا من المال، سمح له أن يعيش هادئا في مدينة المرية، وكان يعجبه سكنهاا والتجارة بها^(٩٢).

وكانت الظروف، فيما نعتقد، تلعب دورا هاما في الوصول إلى هذا السخاء، وليس من الصعب أن نشير إلى قصص أخرى، نرى فيها شعراء عباقرة في مستوى مادم المعتمد، يكافأون بعد فوات الأوان، أو يطردون دون أن يتلقوا شيئا، لسبب واحد فحسب، وهو أن الشخصية التي توجهوا إليها بشعرهم قد نسيت، أو كانت مشغولة بما تراه أهم، ويرد في الخاطر سوء حظ ابن الحاج للورقي، لأنه ترك إشبيلية. وحضر أبو جعفر بن الخراز البطرني، نسبة إلى بطرنة Paterna قريبا من لمنسية، جمعا للشعراء في مدينة المرية، وأحدهم أبو حفص عمر بن الشهيد الذي أنشد المعتمد قصيدته التي يقول فيها:

سُبُّ ابْنانِ كأنَّ كُلَّ غمامَةٍ قد رُكِبَتْ في راحتيه أاملا
لا عيشَ إلَّا حيث كنتَ وإنما تقضى ليالى العمر بعدك باطلا

فالتفت المعتمد إلى من حضر من الشعراء وقال: هل فيكم من يحسن أن يجلب القلب بمثل هذا؟ فقال ابن الخراز: نعم، ولكن للسعادة هبات، وقد أنشدت مولانا قبل هذا أبياتا أقول فيها:

ومازلتُ أجنى منك والدهرُ مُحمِلُ ولا ثمرُ يُجنى ولا الزرع يُحصَدُ
نمارُ أبادٍ دانياتٍ قطوفُها لأغصانها ظلٌّ على ممدد -
يُرى جاريا ماء المكارم تحتها وأطيار شكري فوقهن تغرد

«فارتاح المعتمد، وقال: أنت أنشدتني هذا؟ قال: نعم، قال: والله كأنها ما مرّت بسمعي إلى الآن، صدقت، للسعد هبات، ونحن نجيزك عليها بجائزتين: الأولى لها، والثانية لمطل رجبها، وغمط إحسانها»^(٩٣).

وقد جرى العرف على أن تُكافأ أية قصيدة بوجه ما، وقد تلقى ابن عمار في بدء حياته كيسا من الشعر مكافأة على قصيدة له. ودخل بعض شعراء الأندلس على الفقيه سعيد بن أضحى، وكان من أعيان غرناطة، فمدحه بقصيدة، ثم بموشحة، ثم بزلج، فلم يعطه شيئا، بل شكا إليه فقرا، حتى أنه بكى، فأخذ لشاعر الدواة والقرطاس وكتب ووضع بين يديه:

شكا مثالي الذي أشكوه من عديم وساء مثل ماقد ساء في فكي
إن المقل الذي أعطاك دمعته نعم الجواد فتى أعطاك مملكا^(٩٤)

(٩٢) نفح ٥٧٠/٣.

(٩٣) نفح ٤١٣/٣، وأبحاث ط ١ ص ١٠٥ و ط ٣ ج ١ ص ٢٥٧. وانظر فيما سياتي من هذا الكتاب ص ٢٠٣، والأبيات

الواردة في النص من الطويل.

(٩٤) نفح ٣٤٤/٣.

وكان بين السمسير الشاعر وبين بعض رؤساء المرية واقعٌ لمدحٍ مدحه فلم يجزه عليه، فقرر أن ينتقم منه، وحدث أن صنع ذلك الرجل دعوة للمعتصم بن صمادح صاحب المرية، واحتفل فيها بما يحتفل مثله في دعوة سلطان مثل المعتصم، فصر السمسير إلى أن ركب السلطان متوجهاً إلى الدعوة، فوقف له في الطريق، فلما حاذاه رفع صوته بقوله:

يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الْمَيُونُ طَائِرُهُ وَمَنْ لَذَى مَاتَمٍ فِي وَجْهِهِ عُرْسُ
لَا تَقْرِبَنَّ طَعَامًا عِنْدَ غَيْرِكُمْ إِنْ الْأَسْوَدَ عَلَى الْمَأْكُولِ تَفْتَرَسُ

فقال المعتصم: صدق والله، ورجع من الطريق، وفسد على الرجل ما كان عمله^(٩٥).

وكان الشاعر يقتصر غالباً على التذكير في ذكاء بأنه في انتظار هدية، ويعاتب ابن سارة القاضي أبا بكر ابن العربي على هذا النحو:

يَا كِتَابِي بِاللَّهِ قِيلَ يَدِيهِ بَدَلًا مِنْ فَعَمِي فَفِيهِ احْتِشَامُ
ثُمَّ بَيْنَ لَهُ بِأَنْ ثَوَانِي كَانَ عَامًا وَالْآنَ قَدْ جَاءَ عَامُ
وَلَبِيدَ لَمْ يَشْتَرِطَ لِبْكَاءٍ غَيْرَ حَوْلٍ مَضَى وَقَالَ سَلَامُ^(٩٦)

وقد مر ابن عمار بقصر المعتصم بن صمادح، وحوله جماعة من الشعراء كانوا قد مدحوه، وأبطأ عنهم عطاؤه، وتعدّر عليهم القول في استنجاهه، فارتجل على ألسنتهم:

يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الَّذِي شَادَ الْعَلَا مَعْنُ أَبَوْه وَخَالَهُ الْمَنْصُورُ
بِفَنَاءِ قَصْرِكَ عَصْبَةُ أَدْبِيَّةٍ لَا زَالٍ وَهُوَ بِجَمْعِهِمْ مَعْمُورُ
زَفَوْا إِلَيْكَ بَنَاتَ أَفْكَارٍ لَهُمْ وَاسْتَبْطَأُوكَ فَهَلْ لَهْنُ مَهُورٍ؟^(٩٧)

ولم تكن الهدايا التي يتلقاها الشعراء تدفع لهم عيناً أو عرضاً فحسب، وإنما كانوا يتلقونها في شكل وظائف هامة يعهد بها إليهم، حيث تربطهم عادة بالبلاد، ويتلقون معاملة طيبة.

يقول عبد الواحد المراكشي: كان المعتمد «لا يستوزر وزيراً إلا أن يكون أديباً شاعراً، حسن الأدوات، فاجتمع له من الوزراء والشعراء ما لم يجتمع لأحد قبله»^(٩٨).

ويظهر أن كلمة وزير، وكانت في الاستخدام الشائع تعني «كاتباً»^(٩٩)، أصبحت ترادف في القرن الحادي عشر كلمة «شاعراً» عرفاً وتقليداً، لأن الشعراء وحدهم بثقافتهم الأدبية نثراً وشعراً، يستطيعون أن يملأوا هذه الوظائف العالية، التي تتطلب أيضاً من شاغليها، إلى جانب الذكاء السياسي، القدرة على أن يكتبوا بأنفسهم النصوص الأساسية لوزاراتهم، ونادر بين الكتاب من نال شهرة واسعة في كتابة الرسائل خدمة لأمير ما.^(١٠٠) ويذكرون كمثال فضيحة حفيد عيسى بن

(٩٥) نفح ٣٢٠/٣، والبدائع ٣٧٩، وأبحاث ط ٣ ج ١ ص ٢٦١.

(٩٦) من الخفيف، القلائد ٢٦٤.

(٩٧) من أنكامل، الحلة ١٦٥/٢.

(٩٨) المعجب ١٠٥، وترجمته ٩٠.

(٩٩) نفح ٣٣٣/٤، ولفي بروفنسال، إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر الميلادي ٦٥ - ٦٩.

(١٠٠) مثل أبي عمر بن القلاس، وأبي عبد الله بن مسلم، حيث تورد لها الذخيرة عدداً من الرسائل. انظر ٤١٨/٣ - ٤٢٦.

سعيد أبو الأصبع، «هذا الرجل الضخم المراس في آخر هذه «الفتنة»، المرتقى بغير أسباب متينة سماء العزة، حتى نال سامى ذروة خطة الوزارة من غير أدب ولا صنعة كتابة»^(١٠١).

وكان رئيس الوزراء يحمل لقب «ذى الوزارتين» تمييزاً له عن بقية الوزراء، ويستطيع أن يخلف الأمير في غيبته، وطبقاً للملاحظة ابن سعيد المغربي: «صار الوزير الذى ينوب عن الملك يعرف بذى الوزارتين، وأكثر ما يكون فاضلاً في علم الأدب، وقد لا يكون كذلك، بل عالماً بأمور الملك خاصة»^(١٠٢). وطبقاً للملاحظة هذا المؤرخ نفسه «صار اسم الوزارة عامّاً لكل من يجالس الملوك ويختص بهم»^(١٠٣)، ويمكن الظن بأنه مادام الأمير يتذوق الأدب فلا بد أن يتألف بلاطه من الشعراء بخاصة.

وثمة وظيفة أخرى يمكن أن تسند إلى الشاعر، وهى: «كاتب الزمام»، أى الشخص الذى يقوم على شئون الضرائب، وهى وظيفة دقيقة، تتطلب قدرًا عاليًا من حسن التصرف، وأمانة فوق كل الشبهات ولا يكون صاحبها «بالأندلس وبر العدو لا نصرانيا ولا يهوديًا البتة، إذ هذا الشغل نبه يحتاج إلى مصاحبة عظماء الناس ووجوههم»^(١٠٤). ولا يمكن أن يعهد بها إلى أدباء دول الوقوع في خطر، لاشتهارهم بالعريضة والانغماس في اللذات^(١٠٥).

ولهذا السبب نفسه نفهم لماذا لم يكن يتم اختيار القائم على وظيفة صاحب الشرطة من بين الشعراء، وكان يطلق على هذه الوظيفة في إسبانيا اسم «صاحب المدينة» و «صاحب الليل» أيضًا. لقد تغير الزمن، ولم يسجل القرن الحادى عشر، فيما يبدو، حالة تشبه تلك التى حدثت للشاعر أبى مروان عبد الملك بن إدريس الجيزرى، فقد عيّنه المنصور على الشرطة، لأنه ارتحل ثلاثة أبيات من الشعر أعجبهته. ذلك أن صاعدا البغدادي دخل على المنصور في يوم عيد، وعليه ثياب جدد، فازدحم على حافة الصهريج فسقط في الماء، فضحك المنصور وأمر بإخراجه، وخلع عليه، وقال له: هل حضرك سىء، فقال:

(١٠١) البيان للغرب ٣/٣٤، وترجمة برومسل في تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ٢١١. وهذا الورى الذى «من غير أدب ولا صنعة كتابة» أمر المظفر ابن الحاجب المنصور بقتله. وقد انتقد أبو محمد بن جبّير (أو جبّير أو حبير) فـ بعد الكتاب في عصر المرابطين. يقول:

رأيت الكتابة والمجاهلو	ن قد ليسوا عزّها لام
فلت لكل فتى كاتب	بديع الفصاحة علّام
إذا عزّ غيركم بالداد	فلا أنبت الله أعلام

وهى من المتقارب، القلائد ١٥٦.

(١٠٢) ابن سبيد في نفح ٢١٧/١.

(١٠٣) ابن سبيد، في نفح ٢١٦/١.

(١٠٤) ابن سبيد، في نفح ٢١٧/١.

(١٠٥) ابن سبيد في نفح ٢١٧/١.

● قلت: هذه اختفرت على أهميتها أنى بها المؤلف في الهامش دون مبرر، مع أنها تكمل ما قبلها، وأوردها صاحب النفح في فقرة واحدة، فرددناها إلى مكانها في الأصل للتوضيح. (المترجم).

(١٠٦) ابن ليون، لمح الشعر، الورقة ٦٣ ب.

شيئان كانا في الزمان عجيبة ضَرَط ابن وهب ثم وَقَعُ صاعِد
فاستردوا ما أتى به، فقال الجزيري، هَلَّا قلت:

سرورى مِغَرَّتْكَ المَشْرِقة ودِيعَة راحتك المَغْدقة
ثنائي نشوان حتى غرق ست في لجة البركة المطبقة
لئن ظلَّ عبدك فيها الغريق فجوْدك من قبلها أغرقه

فقال المنصور: لله درك يا أبا مروان! قسناك بأهل بغداد فضلتهم، فبمن تُقاس بعد؟، وأنهض
يومئذ للشرطة»^(١٠٧).

ويمكن أن تؤدي الصداقة أيضًا إلى تعيين شاعر البلاط حاكمًا على مدينة، وذلك ما وقع لأبي الحسن
ابن الربيع، فقد صاحب المعتمد في حملة له جنوب شرقى شبه الجزيرة، وذات ليلة استدعاه المعتمد
ليعترف له بأشواق اجتاحتها، وحينًا نازعه إلى محظيته أم عبيدة، وأسمعه أبياتًا من الشعر أوجتها
المناسبة، فكرر أبو الحسن استجاداتها، «فأمر له بخمس مئة دينار، وولاه لورقة من حينه»^(١٠٨).

وخارج نبلات كان يعهد إلى الشعراء في حالات غير قليلة، بالسفارة للأمير، فأرسل زهير
الصقلبي صاحب المرية وزيره أبا جعفر بن عباس، وفي رفقته عدد من الكتاب والشعراء بينهم ابن برد
وأبو بكر المرواني، وابن الخياط، والطبني، لمهمة سياسية في قرطبة^(١٠٩). وبعد ذلك بقليل عهد المعتمد
بن صمادح صاحب المرية لأبي الأصبع ابن أرقم، يصحبه أبو عبيد البكري، وأبو بكر ابن صاحب
الأحباس، بمهمة سياسية شبيهة بهذه التي سبقت لدى المعتمد بن عباد^(١١٠). وطبيعي أن أولئك وهؤلاء
أعلنوا عن وصولهم بأبيات من الشعر، وشعرًا ردَّ عليهم الأمير، وحين وقع خلاف بين ابن ذى النون
والمعتمد بن عباد، حاول أمراء بلنسية وسرقسطة والمرية أن يوفقوا بينهما، وأرسلوا إلى إشبيلية
سفيرين ندرت من واقع اسميهما أنهما من المولدين: أبا عثمان بن شنتفير Santa ver، وأبا عامر بن
غند شالب Gundisalvo، ولن ندهش إذا عرفنا أن أوضح حليف لهم داخل القصر كان القائد ابن
مرتین Martin. وهؤلاء أيضًا إذا كان لديهم التماس يتقدمون به، فسوف يصنعون ذلك شعرًا^(١١١).

وهؤلاء الشعراء المسلمون لم يكونوا يوجهون إلى الملوك المسلمين فحسب، ولكن أيضًا إلى بلاطات
ملوك النصارى في شمال إسبانيا، وهذا ما يسمح لنا أن نعتقد أنه كان عليهم أن يعرفوا الرومانسية، وأن
يتكلموا بها على نحو ما، قل أو كثر. ونعرف أن الكاتب أبا أمية ابن هاشم القرطبي، واتخذ من تطيلة
مقاما أثناء «الفتنة»، أرسل في مهمة إلى دون سانتشو (شانجه) ملك نبرة،^(١١٢) وأن ابن عمار كان
عمل المعتمد عند ألفونسو السادس، لحل بعض المشاكل الخاصة بالجزيرة والحدود.^(١١٣)

(١٠٧) القلائد ٩ - ١٠، وعنه في نفح ٢٧٨/٤، وبنو عباد ٤٤/١، وترجمته ١٠١، ونضيف أن ابن اليسع كان يحمل لقب ذى
الوزارين.

(١٠٨) الذخيرة ٣٠٥/١.

(١٠٩) القلائد ٨، وعنها في «بنو عباد» ٤٢، والترجمة ٩٥.

(١١٠) نفح ٤٠٥/٣. وأسفوا في بيت من الشعر لأنهم حرّموا من شرب النبيذ.

(١١٢) الذخيرة ١٨٣/١، ونعرف منه أنه وجد الأمير المسيحي يرتدى ثيابًا على الطريقة الإسلامية، ولكنه حاسر الرأس.

(١١٣) الحلة السراء ١٣٣/٢، وخريدة القصر في «بنو عباد» ٣٨٦/١.

○ الفصل الخامس :

حياة البلاط في نتاج الشعراء

عندما أضفى ملوك الطوائف حمايتهم، وقدموا مساعدتهم، لكل ذوى النباهة والذكاء، ولشعراء من بينهم بخاصة، لم يفعلوا أكثر من بعث، أو مواصلة، تقليد قديم، يقدر دور الشعراء في المجتمع الإسلامي من كل جوانبه. ولقد ساعد الشعراء خلال الحكم الأموي في المشرق الخلفاء السفينيين. ومن بعدهم المروانيين، في جعل فكرة الخلافة الوراثية مقبولة، وقاتل ضدها الخوارج والشيعة من جانبهم بكل ما أوتوا من قوة^(١).

وتحت الحكم الأموي في إسبانيا أسهم الشعراء في تثبيت الحكم الجديد وتقويته؛ وعندما أراد المنصور العظيم بدوره أن يثبت سلطته، عرف كيف يكسب الشعراء الإسبان إلى جانبه، ولم يتردد في أن يعلن رداً على تنقادات خسيسة وجهها إليه ناظمون غيرون: إن الشعر والأدب شوهة بليغة على عظمة أية حكومة^(٢).

وحين سقطت الدولة الأموية حاول الشعراء أن يبرروا إدعاءات المطالبين بالخلافة من أوائل ملوك الطوائف، ممن هم من أصل بربري أو أندلسي^(٣). وعندما استبعد موضوع الخلافة نهائياً اكتفوا بالإشادة بفضائل رعائهم، والاحتفاء شعراً بأبجادهم في السلم والحرب، ولكن تناثر شبه الجزيرة مزقاً جعل من هذه الأسر ممالك ذات سلطان مزعزع دائماً، ولم تكن بلاطاتهم في الحقيقة، وهي براءة في الظاهر، غير ندوات تعيش في رعب من الملك المسيحي، وله يدفعون الجزية سنوياً.

ومع ذلك، رسم الشعراء لهذه البلاطات لوحة زاهية من الثناء والإطراء، سواء في مدائحهم أم في مراثيهم، وكان دورهم يضطرهم، رغم كل شيء، إلى المجاملة دائماً، ويمكن بهذه المناسبة أن نردّد هذه العبارة: «إن اغلو آفة المديح»^(٤). وكان هناك تباين واضح بين الأشخاص والمديح الموجه إليهم، حتى أننا نسأل أى خداع بصرى هذا الذي استطاع أن يجد علاقة بينها.

وهكذا أصبح شعر البلاط وسيلة لقتل الوقت بلا فائدة، وتفرغ له كبار الشعراء في اجتهد عظيم وجدية تامة، ولم يلهم أحد على ما فعلوا، لأنهم لم يصنعوا أكثر من الالتصاق ببذعة العصر الشائعة.

(١) انظر: هـ. لامنس، دراسات عن معاوية، في «مجموعة مقالات الكلية الشرقية»، بيروت، المجلد ٢، عام ١٩٠٣، ص ١٥٨، وجودفروي - ديموسين، العالم الإسلامي حتى الحروب الصليبية، ص ٢٥٣ - ٢٥٤ وديبل وجورج مرسيد، العالم الشرقي من ٣٩٥ إلى ١٠٨١، ص ٣٤٤، ور. بلاشير، أبو الطيب المتنبي ٦ - ١٢.

(٢) نفح ٣/٣٦٤ - ٣٦٦.

(٣) بعد قليل سوف نقول كلمات بمناسبة دور الكتاب الذي لعبه الشعراء.

(٤) نفح ٣/٤٣٢.

ماذا يمكن أن نقول مثلاً في ابن زيدون، وهو يتغنى بانتصارات بني جَهْهور على بني ذكوان وبني خِدام، ولم يكونوا غير جماعات تافهة تقيم حول قرطبة:

هُمُ الملوْكُ، ملوْكُ الأرضِ دونَهُمُ كمثلِ بِيضِ اللَّيالي دونها الدَّرْعُ

مُهذَّبُ أَخْلَصْنُهُ أَوْلَيْتُهُ كالسيفِ بالغِ في إخلاصه الصَّنْعُ^(٥)

ويُصدِّمُ المرءَ من المدح بالشجاعة والكرم يُورِّعُ عان بلا تمييز ولا حساب، وهم يصفون صفار الملوك جميعاً هؤلاء، بأنهم صواعق حرب، أو ينابيع سخة لا تحف، وأصبحت الصور المشرقية قوالب يرددونها كثيراً، حتى أنها فقدت تدريجاً مابقى لها من معنى. ومع ذلك، بذل الشعراء الإِسبانيّ جهدهم، وهم يرددونها، في تجديد التعبير، ولم يهروا من التقليد حين يستطيعونه، اكتفاء بتعديلها قليلاً، أو المبالغة فيها شيئاً، عندما يسمح لهم بذلك معجمهم اللغوي، ولهذا يقول ابن عمّار عن المعتضد:

عَبَادُ المَخْضَرِّ نَائِلُ كَفِّهِ والجوُّ قد لبس الرداء الأغبرِ
يَخْتَارُ أن يهب الخريدة كاعباً والطرفَ أجردَ والحسامَ مجوهرِ
قَبَاحُ زَنْدِ المجد لا ينفك عن نارِ الوغى إلّا إلى نارِ القرا^(٦)

ونجد الصورة نفسها تقريباً في مدح ابن زيدون لابن جَهْهور:

وفي الرثاء ينادون السحب، كما هو الحال عند المشاركة، لتروى قبراً ضم أكرم الرجال، وخلفه الأمير الأكثر شجاعة على وجه الأرض، يقول ابن زيدون في رثاء المعتضد:

وعاهدَ ذاك اللّحد عهدُ سحائب إذا استعبرت - في ترّبه - ابتسم الزهرُ
ففيه علاء لا يُسامى بِفَاعِهِ وقدرُ شياپ ليس يعدلهُ قدرُ
وكيف نسيان وقد ملأت يديّ جسامُ أيادٍ منك أسرها الوفرُ
وبعد ذلك يتوجه إلى خليفته قائلاً:

هُمامُ إذا لاقى المناجرَ رَدَّ وإقباله خَطُو، وإدباره حُضْرُ
عطاءً ولا من، وحكمٌ ولا هوى وجلّمٌ ولا عجزٌ، وعزٌّ ولا كِبَرُ^(٨)

وأضاف شعراء البلاط إلى وصف ممدوحهم بالشجاعة والكرم صفة الأصل العريق أيضاً، وفي هذه الحالة قد تصبح المبالغة غشاً، لأننا نعرف كم هو قليل الدم العربي الذي يجري في عروق الإِسبانيّ المسلمين، ولو أن الأمراء أنفسهم كانوا يحبون أن يبحثوا عن أجداد أسلافهم من العرب الخُص، ولم يجد الشعراء بداً أن يُشبعوا فيهم هذه الرغبات. لقد مدح ابن اللبّانة بني عباد بأنهم ينحدرون من نسل المنذر بن ماء السماء:

(٥) من السيط، الديوان ٢٩٨، وكور، ابن زيدون ٩٣، والهامش ص ١٤١ - ١٤٣.

(٦) من الكامل، انقلاند ٩٦، والمعجب ١١٥، وترجمته ٩٨.

(٧) من السريع، لديوان، وكور، ابن زيدون ٨١.

(٨) من الطويل، العيون ٥٦٥ و ٥٦٨ و ٥٧٥ و ٥٧٦، وكور ص ١٤٦ - ١٤٨.

مِنْ بَنِي الْمُنْذِرِ بْنِ مَاءِ السَّمَاءِ زَادَ فِي فَخْرِهِ بَنُو عَبَادٍ
فَتِيَّةٌ مِ تَلْدَ سَوَاهَا الْمَعَالَى وَالْمَعَالَى قَلِيلَةٌ الْأَوْلَادُ^(٩)

ولكن شاعرا قدم من تحت، من التعب، لم ير نفسه ملزماً في لحظة فاض فيها غضباً وإحباطاً أن يخفي أفكاره، فقال في هجاء بني عباد:

أَلَا حَيٌّ بِالْغَرْبِ حَيًّا جَلَالًا أَنَاخُوا جَمَالًا وَحَازُوا جَمَالًا
وَعَرَّجَ بِيَوْمَيْنِ^(١٠) أُمَ لَقَرَى عَسَى أَنْ تَرَاهَا هُنَاكَ خِيَالًا^(١١)

إن أي شاعر آخر لا يستطيع أن يظهر سخافة اللعبة، التي سيقو إليها، وأرغموا على القيام بها، بأوضح مما يظهرها هذا الشاعر!

إن مطالب أمراء إشبيلية وقرطبة والمرية يمكن الدفاع عنها تماماً من وجهة نظر مفهوم الأنساب العربية، ولكن ماذا نقول عن صغار الملوك الآخرين في شبه الجزيرة، ممن ينحدرون من أصول بربرية خالصة لا شبهة فيها، مثل بني الأفطس في بطليوس، وبني ذى النون في طليطلة، عندما يصفونهم بالعروبة؟

لقد مدح ابنُ شرف القيرواني المظفرَ والد المتركل، وهو من بني الأفطس بهذين البيتين:

يَا مَكَّا أُمْسَتْ تُجِيبُ بِهِ تَحْسُدُ قَحْطَانَ عَلَيْهَا نِزَارُ
لَوْلَاكَ لَمْ تَشْرِقْ مَعْدُهَا جَلَّ أَبُو ذُرٍّ فَجَلَّتْ غَفَارُ^(١٢)

ولم يستطيع ابن حيان وأورد هذه الأبيات إلا أن يُعَقِّبَ عليها ملاحظاً: «ومن النادر العريب انتماؤه في تجيب»^(١٣).

وسنرى فيما بعد، في أحد الأبيات الثلاثة التي خص بها ابن الحاج اللورقي عزل ملوك الطوائف أن باديس أمير غرناطة، وذو النون أمير طليطلة اعتبرا من حمير^(١٤). وبعد ذلك بقليل، افتخر السقندي في رسالته الشهيرة التي أشاد فيها بإسبانيا والأندلسيين، وحقر البربر، بأن من الملوك العربية الذين عرفتم إسبانيا في القرن الحادي عشر: بنو ذى النون وبنو هود!^(١٥)

(٩) من الخفيف، الحلة ٣٥/٢، وعب في سو عباد، ٤٧/٢، والمطرب ١٤.

● قلت: ورد البيت الأول في الأصل على هذا النحو، وهو واضح الانكسار، وقد صوّبه دوزي على النحو التالي:

مِنْ بَنِي الْمُنْذِرِينَ وَهُوَ نَسَابُ زَادَ فِي فَخْرِهِ بَنُو عَبَادٍ
انظر: بنو عباد ٤٧/٢ (المترجم).

(١٠) يومين رية في مركز Tocina، على ضفاف الوادي الكبير. انظر: تاريخ مسلمي إسبانيا.

(١١) هذا الشاعر هو ابن عمار. انظر: الحلة ٦٣/١، والأبيات من المتقارب، ويفسرها دوزي في تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ١١٣، بأن ابن عمار يهجو بني عباد بأنهم رغم كل شيء ليسوا إلا فلاحين من أصل مغمور، من قرية يومين، «م القرى» تلك، كما يقول عنها ساخرا وانظر أيضا المصدر نفسه، ط ٢ ج ٣ ص ٧.

(١٢) من السريع، أعمال الأعلام ١٨٣، والحلة ٩٧/٢، وعنها في أبحاث، ط ١ ص ١٧٢.

(١٣) المصادر نفسها التي وردت في الرقم السابق.

(١٤) انظر فيما سياتي ص ٩٧ من هذا الكتاب، وقد احتفى الشعراء بالمرايطين على أنهم حميريون، والموحدين على النقيض، اتنوا إلى قيس عيلان، وهم معديون، أي مصريون.

(١٥) السقندي، رسالة في فضائل الأندلس، نفع ١٩٠/٣.

○ الفصل السادس:

الشاعر مؤرخاً

كان الشعراء شيئاً أكثر من مجرد منافقين يبذلون جهدهم في إبراز فضائل ومزايا ليست موجودة إلا في خيالهم، فقد وجدت الأحداث التاريخية التي شاركوا فيها، أو شاهدها، صدى في قصائدهم، ومن هنا يصبح الشعر مساعداً قيماً للتاريخ، وإذا لم يعرف، أو يهدف، إلى عرض كل شيء، أو شرح كل شيء، فهو يوضح، على الأقل، أحداثاً كثيرة تبدو بدون غامضة، وفي حالات أخرى يكشف لنا ردود فعل ذات طابع نفسي، تتركها المدونات التاريخية في الظلام الدامس كلية.

هل يمكن أن نجد لوحة تصور لنا في روعة لا يُعلَى عليها، لا مبالاة أواخر خلفاء بني أمية، خلال عصر «الفتنة»، أفضل من بيتي ابن أبي عبّدة، وتولى الوزارة مع المستظهر:

إذا غبتُ لم أحضر وإن جئتُ لم أَسْلُ فسيان مني مشهدٌ ومَغِيبُ
فأصبحتُ تيمياً، وماكنتُ قبلها لتيم، ولكنَّ الشبهة نسيب^(١)

ألا يظهر الشاعر قدراً من الشجاعة حين يدين العادات الواهية لمن بين أيديهم قَدَرُ الخلافة؟:

إذا كان مثلي لا يُجَازَى بصبره فمن ذا الذي بَعْدَى يُجَازَى على الصبر
وكم مشهدٍ حاربتُ فيه عدوكم وأملتُ في حربي له راحة الدهرِ
أخوضُ إلى أعدائكم لُجج الوغى وأسرى إليهم حيث لأحد يسرى
وقد نام عنهم كل مُستبطن الحشا أكل إلى الممسي نوزم إلى الظهر
فمابال هذا الأمرِ أصبح ضائعاً وأنت أمينُ الله تحكم في الأمر^(٢)

ولكن أعنف ردود الفعل عند الشعراء نجدها ضد البربر، حتى لو كانوا أندلسيين، إرضاءً لطموحات سياسية قد تبرّرها الفوضى السياسية إلى حد ما، وقاموا بدور عدو الإسبان المسلمين. والشعراء في هذه الظروف، حتى لو اضطروا إلى الاعتراف بأنهم كانوا مأجورين لهذا السيد أو ذاك من الرؤساء السياسيين، يعبرون بصدق عن رأى الشعب تقريباً. وأحدهم^(٣) رمى بهذه الأبيات في وجه الخليفة سليمان المستعين، وكان يعتمد على البربر:

لا رحمَ الله سليمانكم فإنه ضدَّ سليمان

(١) من الطويل، المظيح ٢١٤، وعنه في نفع ٤٣٦/١ و ٥٤٩/٣.

● قلت: يشير في البيت الثاني إلى قول الشاعر:

ويقتضى الأمر حين تغيب تيم ولا يستأثرون وهم شهود

(المترجم)

(٢) من الطويل، نفع ٤٣٧١، والأبيات لابن أبي عبّدة أيضاً.

(٣) يُدعى ابن خلدون طبقاً لنفع الطيب ٤٢٩/١، وترجمها دوزي في تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ٣٠٩، وهي من

الطويل.

ذَاكَ بِهِ غُلَّتْ شَيْطَانِيهَا وَحَلَّ هَذَا كُلَّ شَيْطَن
فَبَاسْمِهِ سَاحَتْ عَلَى أَرْضِنَا لِهَلْكَ سَكَّانٍ وَأَوْطَن

ولم يكن لدى سليمان المستعين ثَمَامِينَ مُقَاتِلِينَ فحسب، وإنما عنده شاعره الرسمي أيضا: أبو عمرو بن درَّاج القسطلِّي، وخص راعيه بقصيدة مدح تضم أكثر من خمسين بيتا من شعر، ودافع عن حقه المشروع فيما يدعيه، وما هو أصعب من هذا، برَّر تحالفه مع البربر، زناثية أو صنهاجيين^(٤). وقد عانى الحليفة المدَّعي، متألما دون شك، من قيود البربر، مما أثار ضده الكراهية وأحقدا جديدة، بما فيها من البربر أنفسهم، وبعد لحظة ضياع أحس على التأكيد أن مزاجه الإسباني لا يمكن أن يسعد من خلال تحالفه مع أولئك الذين بسبب جنسهم كانوا ألدَّ أعدائه وأكثرهم شراسة. ولم يشرح لنا المؤرخون سبب كراهية البربر فجأة للمستعين، ولكن الشعر قدَّم لنا مفتاح هذا التغير المفاجئ: لم يصنع أكثر من تأكيد العداوة العنصرية التي أثارت عنصرا ضد آخر، أو إن شئت أثارت لأفارقة ضد الإسبان.

لقد نظم المستعين الأبيات التالية، مستريحا بها إلى جماعة من خواصه، جلَّهم من البربر^(٥):

حَلَفْتُ بَيْنَ صَلَّى وَصَامٍ وَكَبَّرَا لَأَغْمِدَهَا فَيَمُنْ طَغَى وَتَجَبَّرَا
وَأَبْصَرَ دِينَ اللَّهِ تَحِيَّا رَسُولُهُ فَيَدَلَّ مَا قَدْ لَاحَ مِنْهَا يَغْيَرَا
فَوَاعِجِبَا مِنْ عَبْشَمِيٍّ مُمْلِكٍ بَرِغْمِ الْعَوَالِي وَالْمَعَالِي تَبَرِّبَرَا
فَلَوْ أَنَّ أَمْرِي بِالْخِيَارِ نَبَذْتُهُمْ وَحَاكَمْتُهُمْ لِلسَّيْفِ حَكْمًا مُحَرَّرَا
فَأَمَّا حَيَاةٌ تُسْتَلَذُّ بِقَقْدِهِمْ وَإِنَّمَا جِئْتُ لَأَنْرِيَ فِيهِ مَا تَرَى^(٦)

ونظم المرتضى المرواني، الذي خلف على بن حمود خليفة على الأندلس الأبيات الهجائية المحرقة التالية ضد البربر:

قَدْ بَلَغَ الْبَرِبَرُ فِينَا بِنَا مَا أَفْسَدَ الْأَحْوَالَ وَانْظَمَا
كَالسَّهْمِ لِلطَّائِرِ لَوْلَا الَّذِي فِيهِ مِنَ الرِّيشِ لِمَا أَضْمَى
قَوْمُوا بِنَا فِي شَأْنِهِمْ قَوْمَةٌ تَزِيلُ عَنَّا الْعَارَ وَالرُّغْمَا
إِنَّمَا بِهَا نَمْلِكُ، أَوْ لَا نَرَى مَا يَرْجِعُ الطَّرْفُ بِهِ أَعْمَى^(٧)

الشعراء إذن يلقون المزيد من الضوء على بعض أحداث «الفتنة» السياسية، وكثيرون منهم يوضحون الأسباب الخفية التي دفعت البربر والإسبان إلى اتخاذ موقف الخصومة المميتة، ولولاهم لبدت لنا الأحداث غامضة غير مفهومة.

● ● ●

أيضا يقدم لنا الشعراء معلومات عن هذا الجانب من الصراع الذي تواجه فيه البربر والأمويون،

(٤) أعمال الأعلام ١٢٣ - ١٢٥.

(٥) نفح ٤٢٩/١، وترجمها دوزي في تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢، ج ٣ ص ٣٠٩، ونسبها إلى الشاعر المذكور، الذي أشرنا إليه فيما سبق، وهي من الطويل.

(٦) من الطويل، عن موت سليمان المستعين انظر: تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢، ج ٢ ص ٣١١ - ٣١٤.

(٧) من السريع، نفح ٤٢٩/١ - ٤٣٠.

والذى أهمله المؤرخون عربا وأوربيين، أو بالكاد رسموا له صورة مجملّة، ونعنى به الجانب الدينى الذى التزمته القوات البربرية قريبا من نهاية خلافة المستعين.



وقد أدت الاضطرابات السياسية التى ميزت مطلع القرن الحادى عشر، فيما يبدو، إلى قيام البربر المنشقين عن الجماعة، بمحاولة بعث مذهب الخوارج، وكان قبلها، فى القرن الماضى، قد أغرق إفريقية فى بحر من الدماء، واستقر فيها حتى اليوم فى صورة الإباضية. واحتفظ لنا ابن بسّام بفقرات من رسائل كتبها فى العصر الذى نعرض له ابن بُردّ الأصغر على لسان سليمان المستعين، داعيا الشعب إلى الابتعاد عن اثنين من الخوارج الدّسّاسين، يُسمّيان: المعِيطى والتاليسى^(٨)، وأخرى باسم الخليفة نفسه إلى ابن صمّاح السرقسطى يعرض عليه النتائج المترتبة على سوء سلوك الخوارج^(٩).

أما سادة قرمونة: محمد بن عبد الله وابنه إسحاق، من بنى برزال، وهم من أصل زناقي، فقد اشتهروا بأنهم الوحيدون وقومها من بين كل بنى برزال الذين اعتنقوا «مذهب الناكرين من فرق الإباضية الخوارج»^(١٠). ويضيف ابن الخطيب، وهو الذى ذكر هذه الوقائع نقلا عن ابن حيّان، وطبقا للمصدر نفسه، إن أعمال هؤلاء البربر وأقوالهم فيما يتصل بهذا الموضوع معروفة^(١١)، ويؤكد ابن عمّار فى إحدى مدائحه للمعتضد هذه المعلومات:

تعاطى الخوارج حتى برزت تقوم من خدّها ماصعرا^(١٢)

ويعبر ابن الحدّاد بالطريقة نفسها، فى قصيدة يمدح بها المعتصم أمير المرية:

وكم قد رأْتُ رأى الخوارجِ فرقةً فكنتُ عليّا فى حروبِ شرايتها
بعزمٍ أبى لا يردّ مضاهُوه وهل تمسك الأفلاكُ عن حركاتها
هو الحائلُ الهيجا حشا وسنانه هوئى فهو لا يعدو قلوب كمتاتها^(١٣)

والتزم المؤرخون العرب الصمت باتفاق عن كل ما يتصل بأخبار الشيعة تحيزا ضدهم، ولقد خلف القاسم بن حمود أخاه عليّا، المتوفى عام ٤٠٨ هـ = ١٠١٧ م، ويقول عبد الواحد المراكشى: «وكان أسنّ منه بعشرة أعوام، وكان وادعا، أمن الناس معه، وكان يذكر عنه أنه تشيع، ولكنه لم يظهر ذلك،

(٨) الذخيرة ١١٤/١، وفى طبعة القاهرة، وطبعة إحسان عباس «الطالبي» بدل التاليسى.

(٩) الذخيرة ١١٦/١.

(١٠) عن هذه الفرقة انظر: درزى، ملحق المعاجم العربية ٧٢٢/٢، والمصادر المذكورة هناك، ورحلة التيجانى، النص العربى، طبعة وليم موحى ٨٧، وترجمة روسو فى المجلة الآسيوية السلسلة الرابعة، المجلد ٢٠، عام ١٨٥٢، ص ١٦٦ - ١٦٧. (١١) أعمال الأعلام ٢٣٧، ومن المحتمل أيضا أن بنى دمر سادة مؤرور كانوا من الخوارج الإباضية، لأن أصلهم من قابس. انظر: مدونة مجهولة عن ملوك الطوائف، ونصها فى البيان المغرب ٢٩٥/٣، وترجمة ليثى بروفنسال لها فى تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ ج ٢ ص ٣١٩.

(١٢) من الشقارب، القلائد ٨٩، و«تقوم من خدّها ما صعر» اقتباس من القرآن الكريم، سورة لقمان، الآية ١٨، ووردت أيضا فى بيت للمتلّمس، انظر ديوانه، طبعة فوليرز، ليبزيج ١٩٠٣، ص ٢٠، القطعة رقم ١، البيت ٧.

(١٣) من لطويل، الذخيرة ٧١٤/١.

● قلت: فى الأصل، فى البيت الثانى «وهل تمسك الأفلاك»، ولا معنى له، وقد صوبته على النحو الذى هنا. (المترجم)..

ولا غير على الناس عادة ولا مذهباً، وكذلك سائر من ولى منهم (الضمير يعود على بنى حمود) بالأندلس»^(١٤).

ولكن الشعراء على النقيض من المؤرخين، ونفهم منهم أن حركة شيعية قوية إلى حد كبير، ظهرت أثناء الفتنة، وأن محرّكيها هم الأمراء العلويون، أي بنى حمود، ويدعون أنهم ينحدرون من نسل على بن أبي طالب، ابن عم الرسول وزوج ابنته، ويروى لنا ابن خاقان في «المطمح» المضائقات التي عاناها أبو عامر بن شهيد من جانب العلويين، بسبب خلاعة شعره، وسخريته في قصائده^(١٥). ويبدو الشعر الذى نظمته الشاعر بهذه المناسبة متناقضا مع ما أورده المراكشى، فقد ضغط بنو حمود على الناس الذين يحيطون بهم لكي يغيروا عاداتهم وأفكارهم التي لم تكن شيعية تماما. ولكن ليس من الضروري، دون أدنى شك، أن نرى في الاجراءات الجبرية التي اتخذوها ضد ابن شهيد أكثر من الرغبة في إصلاح العادات، وأنها مجرد فصل في الحملة الروحية التي يطلق عليها رجال 'ندين': «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»، والتي تقع على عاتق الإمام بخاصة، بوصفه أمير للمؤمنين. كان مؤسس الحنفى للمذهب الشيعى في سببها، كما نفهم من الشعراء، وعلى النقيض من تأكيدات عبد الواحد المراكشى، هو على بن حمود، وقد بايعه البربر بالخلافة بعد موت المرتضى، ولم تنقطع المدائح حارة وصادقة، ونعتقد أنهم كانوا مخلصين ونزهاء مثل خصومهم من دعاة الأمويين المروانيين، عن إظهار شرعية مطالبة الحموديين بحقهم في الخلافة بوصفهم علويين.

ولقد عاد ابن درّاج القسطلی. وأسرنا إليه من قبل ساعرا بأجر عند سليمان المستعين، في اللحظة التي رآها مناسبة له، يدافع عن الناصر على بن حمود، وعن الحموديين^(١٧). ويجب أن نعترف، ونحن أكثر اقتناعا، بأن شاعرا آخر تميز بفضيلة الإخلاص، وظلّ يافيا للحموديين وللأفكار الشيعية طيلة حياته، ونعني به: أبا بكر عبادة بن ماء السماء^(١٨)، إذ ارتبط بالمذهب الشيعى كلية، وكل مؤلفاته وقفها على الإشادة بالناصر على بن حمود، وما اتصل به من وقائع وأحداث، وتوفي قبل نهاية الفتنة، مما جنبه أن يشهد فشل أفكاره، وكانت جدّ هامة بالنسبة له، وقد أهدى الأبيات التالية إلى على بن حمود:

أبوكم علىّ كان بالشرقيّ يدّ ما ورثتم، وذا بالغرب أيضا سميّه
فصلوا عليه أجمعون وسلّموا له الأمر، إذ ولّاه فيكم وليّه^(١٩)

ويقول في قصيدة أخرى:

أبي لك أن تهاض غلاك عهد هشامى وجد هنامى

(١٤) المعجب ٥٠، وترجمته ٤٣، ويرى دورى أن إسبانيا لم تعرف المذهب الشيعى حتى نهاية القرن التاسع وبداية العاشر الميلادى، انظر: تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ١٢٤ - ١٢٨.

(١٥) المطمح ١٩٨، وانظر فيها سياق ص ١٠٠، الهامش رقم ٥٨.

(١٦) من الطويل، المطمح ١٩٨، وعنه في نفح ٣٦١/٣، وانظر فيما سبق ص ٦٦ من هذا الكتاب.

(١٧) من المتقارب، انظر: ر. بلاشير، حياة ابن دراج وشعره، في هيسيريس، المجلد ١٦، عام ١٩٢٣، ص ١٢ - ١٣.

(١٨) توفي في شوال ٤١٩ هـ = ١٠٢٨ م، طبقا لآبى عامر بن شهيد، أو بعد شتاء عام ٤٢١ هـ = ١٠٣٠ م، لمعرب، طبقا لابن حزم. ويجب ألا نخلط بينه وبين آخر يسمى أيضا ابن ماء السماء، وعاش بعد ذلك بقليل، وارتبط بالمعتصم أمير الرية بخاصة. انظر عنه: الذخيرة ٤٦٨/١ وما بعدها.

(١٩) من الطويل، نفح ٨٤٤/١، ولم يذكر غير هذين البيتين وهما من قصيدة طويلة.

وما سُمِّيَتْ باسم أبيك إلا ليحيا بالسمي له السمي
فإن قال الفخور أبي فلان فحسبك أن تقول أبي النبي^(٢٠)

تبدو لنا الأفكار التي أثارها عبادة بن ماء السماء للدفاع عن بني حمود واهية، وعبثا نفتش عند شاعرين شيعيين آخرين هما: ابن الحنّاط الكفيف القرطبي، وابن مقانا الإشبوني، عن حجب أكثر إقناعا.

لقد استخدم الأول^(٢١) كلمة «فاطمي» في إحدى قصائده، يصف بها الخليفة الحمودي^(٢٢)، ونسأل: ألا يريد الشاعر بها أن يشير إلى أن الأمير يستلهم مبادئ الشيعة في سلوكه السياسي والديني، كما نمت وتطورت في إفريقية^(٢٣).

أما زيد بن مقانا الإشبوني فيستحق منا وقفة أطول، وتركيزاً أشد، للمدائح التي خص بها الأمير الحمودي إدريس بن يحيى المعتلى، لا لأنه جاء بأفكار جديدة تدعم جانب العلويين، فهؤلاء الشعراء يكررون أنفسهم كما رأينا دون أن يملوا، وإنما لأنها تؤكد على تقليد هؤلاء الأمراء لمراسم البلاط الشرقية:

وكانَ الشمسَ لما أشرقَتْ فانتثت عنها عيونُ الناظرين
وجهُ إدريسَ بن يحيى بن علي بن حمودٍ أمير المؤمنين

يا بني أحمد يا خيرَ الورى لأبيكم كان وفدُ المسلمين
نزل الوحي عليه فاحتبى في الدجى فوقهم الروحُ الأمين^(٢٤)
خَلَقُوا مِنْ مَاءٍ عَذْلٍ وَتَقَى وَجِيعُ النَّاسِ مِنْ مَاءٍ وَطِين
انظروا نقتبس من نوركم إنه من نور رب العالمين^(٢٥)

(٢٠) من الوافر، الذخيرة ٤٧٨/١.

(٢١) أصابه العمى في باك حياته، ومع ذلك نال شهرة واسعة، أديبا وطيبا معالجا، وعاش في الجزيرة الخضراء ومالقة بخاصة، وجاءه الموت عام ٤٣٧ = ١٠٤٥ في اللحظة التي وضع فيها ملوك الطوائف الصغار حدا لقضية الخلافة، واقتسموا مقاطعات إسبانيا فيما بينهم.

(٢٢) ويصف الأديب غانم بن الوليد في رسالة له إدريس العلى بالله: «الإمام الهاشمي، والمملك الفاطمي، والفرع العلوي»، الذخيرة ٨٦١/١.

(٢٣) استرعى اهتمامنا في بيت من الشعر لابن شهيد، سوف نذكره فيما بعد، غموض كلمة «تَصَرَّ» التي استخدمها الشاعر بمناسبة حديثه عن سكان قرطبة، وهذا الاستخدام الحديث للكلمة [في تلك الأيام] يمكن أن يعني: «أنهم أصبحوا يشبهون أهل مصر، ويمكن أيضا أن تعني أنهم أصبحوا أنصار الأمراء الفاطميين الذين كانوا يحكمون مصر». انظر فيما بعد ص ١١٢ هامش رقم ٣١ من هذا الكتاب، فهناك بيت الشعر الذي نشير إليه.

(٢٤) قارنه بما ورد عند ابن عيود، البيت ٤١، في للمعجب ص ٨٤، وترجمته ٧١، والهامش رقم ١:

وأسبلت دمعاً الروح الأمين على دمٍ يفسخ لآل المصطفى هدر

وانظر: دوزي، تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ٣٨، وقد ترجم «الروح الأمين» بالملك جبريل. وعن «الروح الأمين» انظر: القزويني، عجائب المخلوقات ص ٥٤، والقرآن الكريم، سورة الشعراء، الآية ١٩٣.

(٢٥) من الرمل، نفع ٤٣٣/١، ويذكر النفع البيت ٢٠ أو ٢١ و ٣٠ مرة أخرى في ٢١٤/١، وانظر: تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ٣٨ - ٣٩.

وهذه الآيات الأخيرة أحدثت، فيها يزعم المقرئ، تأثيراً قويا في الحمودي، الذي استمع لها من وراء ستار تقليدا للخلفاء العباسيين، حتى أنه أمر حاجبه برفع الستارة، ثم نهض واقترب من الشاعر، وواجهه دون أى فاصل، وأمر بأن يوصل بهدية عظيمة.

اختفت الاهتمامات الدينية تماما، مع ملوك الطوائف ومع أمراء غرناطة ومالقة من ليربر، وورثوا الخلفاء الحموديين، ولو أنهم صنهاجيين، وليسوا موالين للشيعة كما كان سابقوهم هنا، وأسلافهم في إفريقية^(٢٦)، وإنما هم يرير فحسب، وقبل أى شيء، ولو أنهم - من جانب آخر - تأندسوا في سرعة كبيرة جدا، وهكذا تبيخّر آخر عامل فكري كان يمكن يُنهض المسلمين ضد المسيحيين، وفيما تلا ذلك، واصلت الصراعات سيرها دائما بين صغار الملوك في جنوب إسبانيا وأمراء الممالك الإسلامية في شبه الجزيرة على أرض عنصرية، ولم تظهر بينهم أبدا أية اهتمامات دينية، وكان عدم الاكتراث بالنواحي الدينية أكبر ما صدم المرابطين بعد تدخلهم الأول، وكان وراء قرارهم، بعد أن دفعه الفقهاء إليه: الإطاحة بكل هؤلاء الأمراء الصغار في إسبانيا.



فيما يتصل بعصر الطوائف سوف يكون مملاً، وإذا أهمية قليلة ومحدودة أن تأتي على الأحداث السياسية الصغيرة التي أشار إليها الشعراء في مدائحهم، ولم تدع الحروب، وهي كثيرة أثرا أكثر من أنها معارك بلا امتداد، حيث تتراجع الشجاعة في كثير من الأحيان أمام الخبت والحيلة. ولكن الحوادث لم تلبث أن أخذت طابعا خطيرا وجادا، وجاء إنذاران ليخرجا الأندلسيين من هدوئهم الحلو: هزيمة بطرنة وسقوط بربشتر.

في عام ٤٥٥ هـ = ١٠٦٣ م حاصر القشتاليون مدينة بلنسية، لكنهم أدرکوا أنهم لا يستطيعون الاستيلاء عليها بالقوة، فتظاهروا بالابتعاد عنها، حينئذ خرج أهالي المدينة في لُبيى ملابسهم ليلاحقهم، فاندلعت المعركة قريبا من بطرنة، وانتهت كارثة بالنسبة للبلنسيين، ويقول أبو إسحاق بن معلّى الطرسوني بهذه المناسبة:

لبسوا الحديد إلى الوغى ولبستمُ حُلَّ الحرير عليكم نوانا
ما كان أقبحهم وأحسنكم بها لو لم يكن يبطرنة ما كانا^(٢٧)

وفي العام التالي، ٤٥٦ هـ = ١٠٦٤ م، سقطت بربشتر في يد جيش النورمانديين، وأسلموا المدينة للنهب والسلب، وقص علينا ابن العبال شعرا ما تعرّض له المسلمون من تعذيب وأهوال بهذه المناسبة:

ولقد رمانا المشركون بأسهم لم تُحْطِ لكن شأنها الصماء

(٢٦) نعرف أن انتشار المبادئ الشيعة يعود في الجانب الأكبر منه إلى صنهاجة التي تقطن بلاد البربر الشرقية، وساعدهم الزناتيون في إسبانيا، انظر: أعمال الأعلام ٢٣٦، والبيان المغرب ٢٦٧/٣ - ٢٧٠.

(٢٧) من الكامل، نفع ١٨١/١ و ٤٤٨/٤. وعن المعركة انظر: تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ٨، والمصادر المذكورة هناك، والذخيرة ٢٦٤/٣، وأعمال الأعلام ١٩٥، وأبحاث ط ١ ص ٣١٥ - ٣١٦، وسيبولد في مجلة ZDMG المجلد ٦٣، عام ١٩٠٩، ص ٣٥٥.

هتكوا بخيلهم قصور حريمها
جاسوا خلال ديارهم فلهم بها
باتت قلوب المسلمين برعيتهم
كم موضع غنموه لم يرحم به
ولكم رضيع فرقوا من أمه
ولرب مولود أبوه مجدل
ومصونة في خنرها محجوبة
وعزير قوم صار في أيديهم
لولا ذنوب المسلمين وأنهم
ما كان ينصر للنصارى فارس
فشرارهم لا يخفون بشرهم

لم يبق لاجبل ولا بطحاء
في كل يوم غارة شعواء
فحماتنا في حريم جبناء
طفل ولا شيخ ولا عذراء
فله إليها ضجة وبغاء
فوق التراب وفرشه البيداء
قد أبرزوها مالها استخفاء
فعليه بعد العزة استخذاء
ركبوا الكبائر ما هن خفاء
أبدا عليهم فالذنوب الداء
وصلاح متحلى الصلاح رياء^(٢٨)

ولكن بربشر^(٢٩) بعيدة جدًا عن الأندلس في الجنوب، ولم تحدث أي قلق بين جبهة المسلمين، ولم يشعر بهذه الضربة إلا مجموعة متميزة، وكان من الضروري أن تسقط طليطلة في يد ألفونسو السادس، في ٤٧٨ هـ = ١٠٨٥ م^(٣٠)، حتى يجيء الإنذار بالخطر رادعًا، يقول ابن العسالى:

يا أهل أندلس حثوا مطيكم
الثوب ينسل من أطرافه وأرى
ونحن بين عدو لا يفارقنا
فما المقام بها إلا من الغلط
ثوب الجزيرة منسولاً من الوسط
كيف الحياة مع الحيات في سفيط^(٣١)

واتهم شاعر مجهول في قصيدة طويلة، مثل ابن العسالى، العادات الخبيثة السائدة بأنها سبب كل المصائب:

فإن قلنا العقوبة أدركتهم
فإننا مثلهم وأشد منهم
أنامن أن يحل بنا انتقام
وأكل للحرام ولا اضطرار

وجاءهم من الله النكير
نجور وكيف يسلم من يجور
وفينا الفسق أجمع والفجور
إليه فيسهل الأمر العسير^(٣٢)

(٢٨) من الكامل، الروض المظار، رقم ٣٨ ص ٤٠ - ٤١ و ٥١ - ٥٢.

(٢٩) حول ستيلاء النورمانديين على المدينة انظر: تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ٧٨ - ٧٩، والمصادر المذكورة هناك.

والذخيرة ١٧٣/٣ وما بعدها، وأعمال الأعلام ١٧١.

(٣٠) عن سقوط هذه المدينة انظر: ليفي بروفنسال، ألفونسو السادس والاستيلاء على طليطلة (١٠٨٥ م)، في مجلة هيسبيريس،

المجلد ١٢ عام ١٩٣١، ص ٣٣ - ٣٩، والمصادر المذكورة هناك.

● قلت: ضم بروفنسال هذا المقال إلى مقالات أخرى، ونشرها في كتاب بعنوان: «الإسلام في الغرب»، وفيها بعدها ترجمها الدكتور السيد عبد العزيز ومحمد صلاح الدين حلمي، باسم «الإسلام في المغرب والأندلس»، وصدرت في سلسلة الألف كتاب عام ١٩٥٦، بإشراف إدارة الثقافة في وزارة التربية في القاهرة - مصر، والمقال في هذا الكتاب ص ١١٩ - ١٥٠. (المترجم)

(٣١) من البسيط، نفع ٣٥٢/٤، والبيت الأول ترجمه ديزى في: تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ١٢٣.

(٣٢) إشارة إلى ما ورد في القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية ١٦٨، وسورة الأنعام، الآية ١١٩، وسورة النحل، الآية ١١٦.

ولكن جُرأةً في عُقَر دار كذلك يفعلُ الكلبُ العفُور
يزول السُّرُّ عن قومٍ إذا ما على العصيانِ أُرْخِيتِ السُّتُور^(٣٣)

وقد قرر اعتمد، بعد أن اتفق مع المتوكل، أن يطلب مساعدة أمير المرابطين يوسف بن تاشفين، ويؤكد المؤرخون^(٣٤) أن ملك إشبيلية جاز في ٤٧٨ هـ = ١٠٨٥ م «بأسطول الأندلس جوازا فخا، واختار لمصاحبه في سفره الخواص والأعيان، واستخلف ولده الرشيد بأشبيلية، وشيعة لدس إلى محل ركوبه البحر»، على ضفة الوادي الكبير، ولكنهم لا يشيرون، دون شك، إلى الجزيرة الخضراء، رغم أنها في هذه الفترة كانت جزءاً من مملكة إشبيلية، وقد احتفى بهذا الحادث شاعران: عبد الجليل بن وهبون، وأبو عبيد البكري، وقد هنا الأول المعتمد، ووصفه بأنه،

عزُّمٌ تجدد فيه النصرُ والظفرُ وفكرةٌ خمدت من دونها للفكر^(٣٥)

والثاني، واشتهر بأنه عالم جغرافي، يبدو لنا رجل بلاط حقيقي حين يقول

يهونُ علينا - مركبُ الفلك - أن يرى يحیی العلّا لما نبا مرتبُ الجدِّ
فجزت أجاج البحر تبغى زلاله وذقت جنى الأهوال تبغى جنى لشهد^(٣٦)

ونعرف نتيجة المساعي التي قام بها المعتمد لدى يوسف بن تاشفين: لقد هبَّ المرابطون لنجدة الأندلسيين، وتقابل الجيش الإسلامي المتحد، وضم المرابطين وبعض ملوك الطوائف فحسب، مع الجيش المسيحي بقيادة ألفونسو السادس، في مكان يطلق عليه المؤرخون اللاتينيون اسم «سجراخس Sagrajas» أو «سكرالياس Sacralias»، ويسميه المؤرخون العرب «الزلاقة»، أما الشعراء فلم يعرفوه أبداً إلا باسم «وقعة الجمعة» أو «يوم العروبة»^(٣٧).

كان عبد الجليل بن وهبون هو الذي أشاد ببطولة المعتمد في هذه الوقعة التي لا تنسى، وأطرى مزايا يوسف بن تاشفين الحربية أيضاً:

أظنُّ خطوبها قالت سلاماً فلم يعبس لها منك ابتساماً
فثار إلى الطعان حليف صدق تشور به الحفيظة ولذماماً
نمى في حمير وغمك لحماً وتلك وشائج فيها النحام
نهجت لسيله نهجاً فوافي وفي آذيه الظامى عرام
فهيل به كئيب الكفر هيلاً وكل رقيفة منه ركام

(٣٣) من الوافر، نفع ٤/٤٨٣ - ٤٨٦، وتحتوي القصيدة كلها على اثنين وسبعين بيتاً.

● قلت: حلت هذه القصيدة، وانتهيت إلى هوية قائلها في كتابي «دراسات أندلسية: في الأدب والتاريخ والفلسفة»، ط ٤ ص ٢٢٩ وما بعدها، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٩ (المترجم).

(٣٤) أعمال الأعمال ٢٤٦، والحلة ٥٤/٢ و ٥٥، وأبحاث ط ١ ص ٢٨٨ - ٢٨٩، وترجمتها ص ٢٩٧، وانظر أيضاً تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ١٣٣ و ١٢٤ هامش رقم ٣.

(٣٥) أعمال الأعلام ٢٤٦، وتضم المقطوعة ستة أبيات، وهي من البسيط.

(٣٦) من الطويل، الحلة ١٨٦/٢، وعنها في أبحاث ٢٨٨، وترجمته ص ٢٩٧.

(٣٧) عن هذه المعركة انظر: ليفي يروفسال وغرسية غوث وأوليفر أسين: الجديد حول المعركة المسماة الزلاقة، (١٠٨٦ م)، في مجلة الأندلس، المجلد ١٥، عام ١٩٥٠، العدد ٧ ص ١١١ - ١٥٥.

وصاروا فوق ظهر الأرض أرضاً
عبيدٌ لا يشارفه حسابٌ
تألفتِ الوحوشُ عليه شتي
فإن بنجُ اللعين فلا كُحِرُ
فيا أدفنش يا مغرورُ هلاً
ستسألكِ النساءُ ولا الرجالُ
وراقبها بأرضك طالعاتُ
كأن وهادها منهم إكام
ولا يحوى جماعته زحام
فما نقص الشرابُ ولا الطعام
ولكن مثلما ينجو اللثام
تجنبَت المشيخة يا غلام
فحدتْ ماوراءك يا عصام^(٣٨)
كما تهدي صواعقها الغمام^(٣٩)

ونلاحظ أن الشاعر يشير في البيت إلى تلال جثث المسيحيين، ويقول المؤرخون إن المسلمين ابتدروا «بقطع رؤوس المشركين، وبنوها كالمصوامع، في صحن الجوامع، وقام المؤذنون في أعلاها بالأذان ثلاثة أيام»^(٤٠)، ولكنهم لم يصنعوا شيئاً في الواقع أكثر من المبالغة في الأخبار التي جاء بها الشعراء.

ومع ذلك، ورغم الشائع عن الشعراء أنهم كذابون يقولون ما لا يفعلون، وأنهم يهولون في رواياتهم، فقد أظهرنا بخاصة في الحالات المأسوية الجادة، دقة معلوماتهم، كالمؤرخين تماماً، وتميزوا إلى جانب ذلك بأنهم عصروا لأحداث، واتخذوا منها موضوعاً لقصائدهم. ولا يمكن أن نتجاهل رواية عبد الجليل بن وهبون عندما يقول عن موت ابن عمار، وفكره في المعتمد:

عجباً لمن أبكيه ملء مدامعي وأقول: لأشلت بين القاتل^(٤١)

هذا البيت الذين ندين به لقلم ابن وهبون يحمل دليلاً لا يمكن دفعه، أو الشك فيه، على أن المعتمد قتل بيديه نفسها وزيره القديم.

وعندما أزاح المرابطون ملوك الطوائف عن عروشهم أثاروا بين شعراء شبه الجزيرة حزناً عميقاً، سجّله المؤرخون ومصنفو المختارات بابتهاج واضح، ولكن هذا المديح المتبادل لا يجب أن نغيره اهتماماً كبيراً. ومع ذلك أمدنا ابن اللبانة بمعلومات وفيرة عن رحيل المعتمد من إشبيلية، عاصمة ملكه، بعد

(٣٨) مثل عربي، انظر: فريتايج، الأمثال العربية ٥٨٩/٢ وما بعدها.

(٣٩) من الوافر، القلائد ١٤، وعنها في «بنو عباد» ٥٠/١ و ١١٦ - ١١٧، والذخيرة ٢٤٥/٢، والمطرب ١٢٠.

(٤٠) انظر: خريدة القصر، مخطوطة باريس ٤١، وعنها في «بنو عباد» ٣٨٤/١، وترجمته ٣٩٩، وكتاب الاكتفاء، في «بنو عباد» ٢٣/٢، وريحان لأدب، في «بنو عباد» ٨/٢، ويقول ابن زاكور، في شرحه لقلائد العقيان، بمناسبة البيت السابع من قصيدة عبد الجليل، وهو في «بنو عباد» ١١٧/١، الهامش رقم ٢٤٥: إنهم فقط وَزَعُوا رموس الكفار بين مدن الأندلس وبلاد العدو، والقرطاس، طبعة تورنبرج ص ٩٦، وذكره فون شاك، وترجمة باليرا له، في شعر العرب وفهم في إسبانيا وصقلية ٦٤/١. وروى ابن قزمان أيضاً، معتمداً على من شاهدها، ولم يكن قد مضى على هذه المعركة أكثر من ست سنوات أو ثمان، شدة التحام الفريقين، والمجد الذي حققه المرابطون بهذه المناسبة، انظر: ديوان ابن قزمان، الزجل رقم ٣٨.

● قلت: من المخطوطات السابقة طبعت الحريدة ونشر المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد ما بقي من كتاب الاكتفاء لابن الكردوبوس، عام ١٩٧١، مع نص آخر لابن الشباط. وترجمت كتاب فون شاك إلى العربية بعنوان «الشعر العربي في إسبانيا وصقلية»، وسيصدر عن دار المعارف عام ١٩٨٩، والمجزء الخاص منه بالفن صدر فعلاً بعنوان «الفن العربي في إسبانيا وصقلية»، وظهرت طبعته الثانية عن دار المعارف، القاهرة ١٩٨٥. (المترجم).

(٤١) من الكامل، الحلة ١٦٠/٢، وبنو عباد ١١٩/٢.

أن استولى عليها المرابطون في رجب ٤٨٤ هـ. أغسطس ١٠٩١ م، وصور المشهد في روعة مؤثرة حتى أن وصفه شعرا، وكتب بعد الحدث بأعوام، يقدم اللوحة الأكثر رعباً وفزعاً:

نسيْتُ إِلَّا غَدَاةَ النهرِ كونهُمْ
والناسُ قد ملأوا العبرين واعتبروا
حُطَّ القنَاعُ فلم تُسَيَّرْ مَخْدَرَةٌ
حان الوداعُ فضجَّتْ كل صارخةٍ
سارت سفائنهم والنوحُ يصحبها
كم سال في الماء من دمعٍ وكم حملتْ

في المنشآت كأمواتٍ بالأحدِ
من لؤلؤٍ طافيات فوق أزياد
ومُزَقَّتْ أوجُهُ تمزيرَ أبراد
وصارخٍ من مُفدَّةٍ ومن فاد
كأنها إبل يحدو بها الحادي
تلك القطائع من قطعات أكباد^(٤٢)

قد يدهشنا أن نجد اسم المعتمد وذكره في كل الكتابات تقريباً التي تشير إلى أحداث تاريخية وقعت في عصر الطوائف، فقد كان يجسّم بحق نموذج الأمير الأندلسي أو الإسباني، بثقافته وقوته، وكان الرمز الكامل للوطن الإسباني الإسلامي في اختلافه جوهرياً عن العنصر الأفريقي ذى الأصول البربرية، وقد اتجهت إليه كل الأنظار ربما لأنه الوحيد الذي كان قادراً على تحقيق الوحدة الأندلسية، والعثور في هذه اللحظة الحرجة على وسيلة للتعايش مع المسيحيين.

لقد أنجز شاعر دينه إعجاباً بالمعتمد، ومعرضاً بناصر الدولة مُبَشِّرُ حاكم ميورقة، وكان زهواً بعزلته في الجزيرة، التي ساعدته على أن يقلت من المرابطين، يقول:

أَلَا قُلْ لِلَّذِي يَرْجُو مِنَامَا
أبو يعقوبَ مَنْ حُدَّتْ عَنْهُ
إِذَا نَفَسَ الْقَضَاءُ جِبَالَ رَضَى
بعيدٌ بين جنبك والفراش
فَرَشَ سَهْمَ الْعَدَاةِ أَوْ فَرَّاشِ
فكيف تراه يصنع بالفراش^(٤٣)

وأمام سخط الشعب، واحتمال وقوع تمرد أو أحداث خطيرة تأتي على ملوك الطوائف، أنشد السمييسر شاعر غرناطة الأبيات التالية المنتبهة:

نَادِ الْمُلُوكَ وَقُلْ لَهُمْ
أَسْلَمْتُمْ الْإِسْلَامَ فِي
وَجِبَ الْقِيَامُ عَلَيْكُمْ
لا تنكروا شق العصا
ماذا الذي أحدثتم
أَسْرَ الْعِدَا وَقَعْتُمْ
إِذْ بِالنَّصَارَى قُمْتُمْ
فعصا النبی شققتهم^(٤٤)

وله هذه الأبيات أيضاً:

رجوناكم فما أنصفتُمونا وأملناكم فخذلتُمونا

(٤٢) من البسيط، القلائد ٢٣، وعنها في «بنو عباد» ٥٩/١ - ٦٩، ونفع ٢١٤/٤، والذخيرة ٨٠/٢، وعنها في «بنو عباد» ٣٢٢/١، والمعجب ١٤٨، وترجمته ١٢٥، وتاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ١٦٨.
(٤٣) الذخيرة ٩٤/٣، وأبحاث ط ١ ص ٣٣٦، والترجمة ٣٤٩، وهذا الشاعر هو أبو الحسين بن الجدي، والأبيات من الوافر.
● قلت: في الأصل أبو الحسين حدواره، اعتماداً على مخطوطة الذخيرة في جوته، وصحاحه اعتماداً على النسخة المطبوعة.
(الترجم).

(٤٤) من الكامل، الذخيرة ٨٨٥/١، وتاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ١٣٦.

سنصبر والزمان له انقلابٌ وأنتم بالإشارة تفهمونا^(٤٥)

ويمكن أن يشير إلى بعض الأشعار المتميزة عن سقوط ملوك الطوائف. يقول أبو تمام غالب بن رباح، المعروف بالحجّام، ملتقطاً صورته من عادة تعدد الزوجات عند المسلمين:

كانَ بلادهم كانت نساءً تطلبها الضرائرُ بالطلاق^(٤٦)

ويشبههم ابن الحاج اللورقي بأبنية صلبة انهارت:

كم بالمغرب من أشلاء مُحترَمٍ وعائر الجَدِّ مصبورٌ على الهون
أبناءً مَعْنٍ وَعَبَادٍ وَمَسْلَمَةٍ وَالْحَمِيرِيِّينَ: باديسٍ وذى النون^(٤٧)
راحوا لهم فى هضابِ العزِّ أبنيةً وأصبحوا بين مقبور ومسجون^(٤٨)

وابن الحاج الذى اشتكى من طريقة استقبال المعتمد له فى إشبيلية، وأشرنا إلى ذلك فيما سبق، ينسب هنا أحقادهم، ويعرف مثل بقية الشعراء كم خسروا بانتهيار هذه المملكة الصغيرة.

إنها ليست ساعة الأحقاد الشخصية!

إنها لحظة جد خطيرة، بلا شك، بالنسبة للمثقفين، أولئك الذين بينهم من أحنى رأسه للظروف، وهم الأغلبية، ييكون الأمراء الذين أزيحوا عن عروشهم، ولكنهم فى نهاية قصائدهم يمدحون المرابطين. وهى حالة عبر عنها ابن عبد الصمد، وأما الآخرون فبسبب الألم الذى يشعرون به، عبروا عن أحزانهم دون أن يفكروا فى الغد، وقد رأينا أى إيقاع مؤثر حزين عزف عليه ابن اللبانة وهو يصف رحيل المعتمد، وبلغ به الأمر أن أراق دمعه خلال إقامته فى أغصان حين ذهب ليزور المعتمد، رغم الشكوك التى يمكن أن تحوم حوله عندما يعبر علانية عن إخلاصه للأمير المعزول.



على أن هذا الروح الشاعرى لم يكن عند الشعراء جميعاً، لأنهم لم يكونوا يصدرون كافة عن اقتناع عميق، ولكن البلاغة لم تتوار عندهم نهائياً، وحين يشيدون بفضائل رعاتهم، وبخاصة الكرم والشجاعة فإنما يفكرون قبل أى شىء فى أسلوب مصقول، وذكريات تاريخية حاشدة، يلمعون خلالها، وتضفى عليهم شهرة وبريقاً.

لقد تأثروا بفداحة الأحداث، ولم يكونوا من صناعها، وكانوا ضحاياها فى الوقت نفسه، فلم يتردّدوا فى أن يشبهوا دول الطوائف الذاخرة بأعظم الأمباطوريات، وهى تشبيهات تأتى عند بعضهم موجزة، واكتفى ابن اللبانة، وأشرنا إليه من قبل أن يقول:

(٤٥) من الوافر، المصدر السابق نفسه.

(٤٦) من الوفر، الذخيرة ٩٤/٣، وأبحاث ط ١ ص ٣٣٥، وترجمتها ٣٤٨، وقد ترجم دوزى كلمة ضرائر destin inexorable وهو خطأ ويبدو أن لسان الدين بن الخطيب، فى أعمال الأعلام ص ٢٤٤، يعلق على هذا البيت حين يقول: «وجعل الله بين أولئك الأمراء ملوك الطوائف من التحاسد والتنافس والغيرة ما لم يجعله بين الضرائر المترقات، والعشائر المتغايرات».

(٤٧) يبدو أن الشاعر يعتبر البربريين باديس وذو النون كيمنيين. انظر فيما سبق ص ٨٦ من هذا الكتاب.

(٤٨) من البسيط، الحلة ١٠٢/٢، وأبحاث ط ١ ص ١٧٥، وتصويبات ١٠١، والقلائد ١٤٣.

إِنْ يُخْلَعُوا فَبَنُو الْعَبَّاسِ قَدْ خُلِعُوا وَقَدْ خَلَتْ قَبْلَ حِمَصٍ أَرْضُ بَغْدَادٍ^(٤٩)
وَتَوَسَّعَ ابْنُ عَبْدِ الصَّمَدِ قَلِيلًا، سَائِرًا عَلَى نَهْجِ تَارِيخِي صَاعِدٍ:

وَإِذَا انْقَضَتْ أَيَّامُ مُلْكٍ فَالْعَنَا فِي غَايَةِ الْإِكْثَارِ وَإِيعَادٍ
حَازَتْ بَنُو الْعَبَّاسِ مُلْكُ أُمِّيَّةٍ وَهُمْ ذَوُو الْأَعْدَادِ وَالْأَمْدَادِ
وَرَأَى مَعَاوِيَةَ عَلِيًّا هَالِكًا وَعَلَى اللَّيْثِ الْهَزْبُ الرُّعَادِ
وَالدَّهْرُ أَذْهَبَ تَبَعًا وَجَنُودَهُ وَأَزَالَ مُلْكُ الْأَرْضِ عَنْ عُنْدَادٍ^(٥٠)

ونظم أبو طالب عبد الجبار المتنبي أرجوزته لغاية مختلفة: أن يؤرخ للعالم شعرا منذ بدء الخليقة إلى معركة الزلاقة، دون أن يبلغ في هذا العرض السريع إظهار كوارث متتابعة جديرة بأن تجعل الأجيال القادمة تفكر فيها^(٥١). ومع أبي محمد عبد المجيد بن عبدون الياقوبى يبلغ هذا النوع المأسوى أقصى غموه وتطوره، ومرثيته لنهاية بني الأفطس، المتوكل وأبنائه: الفضل والعباس، وقتلهم أرباطون، تضم أبياتا قليلة عن ملوك الطوائف^(٥٢). وكانت الأبيات الثمانية الأولى فيها تأملات عامة عن «الدهر» و«الليالي»، وتليها الأبيات، من التاسع حتى الواحد والعشرين، تعدد سقوط عظماء الملوك، وكبار القبائل قبل الإسلام: دارا والإسكندر وساسان وبطليموس، وطسم وجديس وعاد وجرم و تبع اليمنى، ومصر وسبأ وكليب ومهلل، وأسد وذبيان وعيس والنعمان ملك الحيرة، وإبرويز ويزدجرد وورستم. وابتداءً من البيت الثانى والعشرين وحتى البيت الرابع والأربعين يقدم عرضا سريعا للاحداث الأليمة التى وقعت للمسلمين، مثل: جعفر وحمزة وخبيث، وغيرها. ولا يبدأ تاريخ ملوك الطوائف حتى البيت الخامس والأربعين، وهو أيضا تاريخ العباسيين، فقد تقاسم أولئك وهؤلاء ألقاب الشرف نفسها:

وَرَوَعْتُ كُلَّ مَأْمُونٍ وَمُؤْمِنٍ وَأَسْلَمْتُ كُلَّ مَنْصُورٍ وَمُنْتَصِرٍ
وَأَعَشَرْتُ آلَ عِبَادٍ لَعَالِهِمْ بِذَيْلِ زَبَاءٍ لَمْ تَنْفِرْ مِنَ الدُّعْرِ
بَنِي الْمَظْفَرِ وَالْأَيَّامِ - لَا نَزَلْتُ - مَرَا حِلِّ وَالْوَرَى مِنْهَا عَلَى سَفَرٍ

وهذه الأبيات الثلاثة فقط هى التى تشير إلى ملوك الطوائف، فقد حث ابن عبدون الخطى ليصل إلى بنى الأفطس، ولكن الأبيات الثمانية والعشرين التى خصهم بها لا يمكن أن نعرض لها هنا، فليس فيها شيء من التاريخ، وأسلوبها البليغ يحول دون تذوقنا العميق للتأملات الفلسفية المتناثرة فيها.

(٤٩) القلائد ٢٦، وانظر فيما سبق ص ٩٦.

(٥٠) من الكامل، أعمال الأعلام ١٦٦، الأبيات ٢٢ - ٣٥.

(٥١) الذخيرة ٩١٨/١ - ٩٤٤، والجزء الذى يتناول إسبانيا فى القرن الحادى عشر من صفحة ٩٤١ إلى ٩٤٥. وهذه القصيدة

لا تكون ملحمة، كما يتبادر إلى الذهن دون معرفة محتواها انظر: خوليان ريبيرا، نبذ ومقالات ١٥٠/٢.

● قلت: أوردت رأى ريبيرا، وآراء أخرى، حول دور هذه المنظومات فى نشأة الملاحم الإسبانية، وتناولت لقضية هناك من كل جوانبها. انظر: الطاهر أحمد مكى، ملحمة السيد، ط ٣ ص ١٧١ وما بعدها، دار المعارف القاهرة ١٩٨٣، وسوف تصدر الطبعة الرابعة فى بغداد فى أواخر عام ١٩٨٨ عن وزارة الثقافة العراقية. (المترجم).

(٥٢) من البسيط، النص الكامل للقصيدة قدمه لنا المراكشى فى كتاب المعجب ص ٧٦ - ٨٧، وترجمته ص ٦٥ - ٧٤، وبعض الأبيات لم تأت بها القلائد ٣٧ - ٤٠، وأعمال الأعلام ١٨٦ - ١٨٨، وكامل كيلانى وأ. خليفة، ديوان ابن زيدون ٣٤٦ - ٣٤٨ (فى تعليق).

لقد شعرت بعض الأرواح المتميزة فعلا بعمق تعاسة شبه الجزيرة، ولكن هذا الإحساس لم يلهمها أية قصيدة ملحمية حقاً.



بوصول المرابطين ابتعد خطر حركة الاسترداد مؤقتاً، وما أسرع ما التف الشعراء بأبطال الإسلام، وتوقفوا مع نهاية القرن الحادى عشر هذه عند تسجيل الأحداث التى أشرنا إليها فيما سبق، وبالطريقة نفسها، من الإشادة بالمزايا التى حققها المرابطون على المسيحيين، ولكن بلنسية التى يتصارع حولها فى ضراوة السيد وقواد يوسف بن تاشفين أثارت خيال الشعراء بقوة أكثر من غيرها، بسبب ما عانته من تخريب واسع.

لقد هاجمها السيد عام ٤٨٨ هـ = ١٠٩٥ م، فنظم ابن خفاجة الأبيات التالية بهذه المناسبة، يبكى فيها مدينته التى أنت عليها النيران:

عانتُ بساحتك الطُّبا يادارُ ومحا محاسنك البلى والنارُ
فإذا تردّد فى جنانك ناظرُ طال اعتبارُ فيك واستعيارُ
أرضٌ تقاذفت الخطوبُ بأهلها وتمخّضتْ بخرابها الأقدارُ
كُتبتْ يدُ الحداثِ فى عرّصاتها لا أنتِ أنتِ ولا الديارُ ديارُ^(٥٣)

لقد استرد المسلمون مدينة بلنسية نهائياً عام ٤٩٥ هـ = ١١٠١ - ١١٠٢ م^(٥٤)، وهكذا نجد القرن الحادى عشر يبدأ باضطرابات قرطبة، وأحداث تومئ إلى تفكك الخلافة، وانتهى بحملة حربية استرد فيها الإسلام صلابته مؤقتاً، وأظهر حيويته فى مواجهة المسيحية.



(٥٣) من الكامل، الذخيرة ٣/٨٠٠، ونفع ٤/٤٥٥، وأبحاث ط ١ ص ٣٤٠ و ٣٥٧ و ٣٨٠، وط ٣ ص ٢ و ٢٣، والملاحق ص ١٥، والروض المطار رقم ٥١ ص ٤٨-٦٠، وإسبانيا فى عصر السيد ٥٥٥، والشرط الأخير فى آخر هذه الأبيات أخذ ابن خفاجة من أبي تمام، المتوفى ٢٣١ = ٨٤٦، فى مطلع إحدى قصائده التى من نفس البحر والقافية، انظر الديوان ص ١٤٤ (الطبعة القديمة - وصدرت للديوان أكثر من طبعة جديدة).

وقبل ذلك بعاء، فى يناير ١٠٩٤، بكى الوقشى مدينة بلنسية فى قصيدة لم يصلنا أصلها العربى، ولكننا نملك لها ترجمة إسبانية قديمة بفضل المدونة الأولى العامة، وعن هذه المراتبة انظر: المدونة الأولى العامة فى «مكتبة المؤلفين الإسبان الجديدة»، مجلد ٥ ص ٥٧٦ - ٥٧٧، ودوزى، أبحاث ط ١ ص ٥٤٩ - ٥٥٣، ومالو دى مولينا، رودريجو الكميادور، الملاحق ص ١٥٠ - ١٥٨، وشاك ترجمة بالراء شعر لعرب ١٩٢/١ - ٢٠٠، وريبيرا، نبذ ومقالات ٢/٢٧٥ - ٢٩١، وقد كتب البحث عام ١٨٨٧، ورامون مينينديث بيدال، عن الوقشى، فى تكريم كوديرة ٣٩٣ - ٤٠٩، وإسبانيا فى عصر السيد ٤٩٣ - ٤٩٥.

● قلت: درست تاريخ السيد، وهى أول دراسة مفصلة له فى اللغة العربية، وحصاره لمدينة بلنسية، وما عانته بسببه، وأبيات ابن خفاجة وتعليق عليها فى كتابي: ملحمة السيد، وصدرت طبعته الثالثة عن دار المعارف بالقاهرة، وسوف تصدر طبعته الرابعة فى بغداد عن وزارة الثقافة العراقية.

وكذلك درست مرثية الوقشى وأنتيت على ترجمتها الإسبانية القديمة، وترجمة النص الإسبانى إلى العامية الأندلسية، ثم ترجمتها إلى العربية الفصحى، فى كتابي: دراسات أندلسية فى الأدب والتاريخ والفلسفة، الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٩. (الترجم).

(٥٤) أشاد ابن خفاجة بهذا النصر فى قصيدة له من ٢٧ بيتاً، نظر: ديوانه ص ١٠٣، وترجمة تقريبية لها، قام بها مينينديث بيدال فى «إسبانيا فى عصر السيد» ٢/٦٢١، وانظر فيها سياتى ص ٣١٤ - ٣١٥ من هذا الكتاب.

لم يسجل الشاعر في دوره مؤرخا الأحداث لسياسية فحسب، وإنما سجل أيضا الألقاب التي اتخذها الملوك رمزا لسلطنتهم. ويجب أن نلاحظ في المقام الأول أن كلمة «ملك» أو «سيك» لا تعني مفهومها الأوربي Roi، وإنما تعني أميراً أو رئيساً يرتدى سلطة ملكية تقريبا، ويدعو ابن زجاج القسطلی أفكاره أن تعود إلى «الملكين الأكرمين»^(٥٥)، وليس إلا الصقليين: «مبارك ومظفر». وقد وصف أبو عمر بن سعدون أمير السهلة ابن رزين بأنه «ملك الأرض»^(٥٦)، وحاول أبو إسحاق الإلبيري أن يثير بربر صهناجة في غرناطة ضد اليهود، فوصف باديس بن حيوس:

على إنك الملك المرتضى سليلُ الملوك من الماجدين^(٥٧)

أما لقب أمير المؤمنين فاتخذ الخلفاء أيام الفتنة. وفي بداية عصر الطوائف ظن كل الملقاء، بحق أو بدونه، أن هشاما المؤيد قد توفي، فادعوا أنهم ورثته بوصية شرعية منه، وبما أن المدعين تآنوا كثيرين، سواء من الحزب الأندلسي أم من الحزب البربري، فلن يدهشنا أن نرى أبا عامر بن شديد، وقد وجد نفسه في السجن بسبب موقفه المناهض لمبادئ الشيعة، يدعو الخليفة الحمودي: أمير المؤمنين^(٥٨)، وأن ابن عباد، وحمل فيما بعد لقب المعتضد ينادى والده القاضي أبا القاسم في قصيدة له يرسل بها إليه: ملك وأمير المؤمنين^(٥٩)، وهو نفسه أخذ هذا اللقب عام ٤٥١ هـ = ١٠٥٩ م، عندما أعلن موت الخليفة هشام، وفي الحقيقة هشام المزيف بائع الحصر^(٦٠). وفي الوقت نفسه كانت تسمية «سلطان» تستخدم في القرن الحادي عشر مثل لفظ «ملك» وينصح ابن حزم الشعراء «أن يتعلقوا من السلطان بحظ ليسلموا من المتالف»^(٦١). وكان ابن رزين أمير السهلة يفخر بسبب وفائه بأنه «هو السموأل في هذي السلاطين»^(٦٢). وأطلق المؤرخون لقب السلطان على أمراء غرناطة من بني زيري^(٦٣)، ولكنه لم يتطور مثل لقب «حاجب» ليطلق على الأسر المالكة في القرن الحادي عشر^(٦٤).

وفيا يتصل بألقاب التفضيم والتعظيم نعرف أن عبد الملك بن المنصور بن أبي عامر، وخلف والده في الحجابة، كان أول من اتخذ لنفسه لقبى المظفر وسيف الدولة، إلى جانب أنه حاجب الخطبة هشام^(٦٥)، وجريا على سنته قلده ملوك الطوائف، وهكذا فإن بني جهور في قرطبة: الوليد بن جهور، وابنه عبد الملك الذي خلفه من بعده، اتخذوا اللقبين: المنصور بالله والظافر بفضل الله^(٦٦). اتخذ عباد بن

(٥٥) أعمال الأعلام ٢٤٤.

(٥٦) القلائد ٥٢، وعنها في نفح ٦٦٨/١.

(٥٧) من المتقارب، الديوان، القطة رقم ٢٥، البيت ٢٤، وأبحاث ط ٣ ج ١، ص ٢٣، والملحق ٦٥.

(٥٨) انظر فيما سبق ص ٩٠ من هذا الكتاب، والمطمع ١٩٩، وعنه في نفح ٣٦١/٣، البيت ٦١.

(٥٩) الحلة ٤٦، وبنو عباد ٥٣/٢، والخيرة ٣٢/٢، وعنها في «بنو عباد» ٢٤٦/١، وانظر حول هذا موضوع: أ. كور في

«نخب» في تكريم زنيه بأسبه، المجلد ٢، عام ١٩٢٥، ص ٢٨ - ٣٠.

(٦٠) المعجب ٩٦، وترجمته ٨١.

(٦١) نفح ١٦٧/٣، وانظر فيما سبق ص ٧٧ وفيها إلى ص ٣٩٢، الهامش ٨٢ من هذا الكتاب.

(٦٢) القلائد ٥٤، وأبحاث ط ١ ص ٦٢٠ - ٦٢١.

(٦٣) انظر: ليفي برونسفال، مذكرات الأمير عبد الله، المدخل ص ٢٥٢، رقم ٣٨ وفصلة مستند ص ٢٠.

(٦٤) انظر: ليفي برونسفال في المصدر السابق، ونفع ٢١٦/١.

(٦٥) البيان المغرب ١٧/٣، وترجمة ليفي برونسفال في تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ١٩٨.

(٦٦) البيان المغرب ٢٥٩/٣.

محمد لقبى المعتضد بالله والمنصور بفضل الله، وتلقب محمد بن صمادح قبل أن يحكم بسراج الدولة ومعر الدولة، فلما ارتقى العرش اتخذ لقبى: المعتصم بالله والواثق بفضل الله^(٦٧).

هذه الأسماء والألقاب التي اتخذوها تقليدا خلفاء بنى العباس، وأمرأ بجاية في إفريقية، أو بنى حمدان في حلب في المشرق، أثارت إلهام شاعر لا يتفق المؤرخون وأصحاب المنتخبات العربية على اسمه: هل هو ابن رشيق القيرواني، أو ابن شرف القيرواني، أو ابن عمار؟ نحن نعتقد أن هذه المقطوعة الشهيرة، والتي جرت من فم لقم كانت عمل مجهول مستنير بما فيه الكفاية لكي يرصف في بيتين من الشعر اسمين علمين ومثلا، وللنحاة شيء من المهارة في مثل هذا اللون من التديريبات، ولكنه عميق في إسبانيته، وقريب إلى الشعب حتى يشعر بسخريته من هذه المسميات المضحكة^(٦٨):

مما يزهدنى في أرض أندلس أسماء معتصم فيها ومعتضد
ألقاب مملكة في غير موضعها كاهراً يحكى انتفاخاً سورة الأسد^(٦٩)

هذا الحكم القاسى على ملوك الطوائف، من رجل مها كان مجهولاً فهو إسباني في أقوى الاحتمالات، وعبر بأسلوب عميق وحاد عن الشعور بأن الأمور في إسبانيا لا يمكن أن تقاس بما عليه الحال في المشرق.

خلال الحكم الأموى لم تكن سلطة الخليفة معترفا بها من الجميع، في كل الأنحاء، فهناك دأبا مناطق منفصلة، نواة اضطرابات يصعب إخمادها، ولم تكن الحملات الحربية توجه فقط ضد المسيحيين في الشمال، وإنما أيضا ضد المتمردين المتناثرين في مختلف المناطق، سواء كانوا مستعربين مثل عمر بن حفصون، أو مسلمين من أصل عربي مثل بنى حجاج في إشبيلية، أو بنى تحجيب في أرغون، ومع ذلك لم ينبثق في أية لحظة شاعر يسخر من ألقاب مؤيد ومستنصر وناصر التي كان يحملها خلفاء قرطبة، وليس لها أية صلة بالأمويين، وما كان يبدو طبيعيا في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين لم يعد كذلك في القرن الحادى عشر، إذ وقع في هذا القرن حدث بالغ الأهمية: خليط من العناصر المختلفة حققت حيويتها وتماسكها أمام العنصر البربرى، ومعها أصبح التمييز يزداد كل يوم وضوحا بين الأندلسيين وبين شعوب المشرق الإسلامية.



لقد برهن شعراء القرن الحادى عشر بما حملوه لنا من معلومات عن الأحداث التاريخية، ومن ردود

(٦٧) الحلة ٨١/٢، وأبحاث ط ١ ص ٨١، والهامش رقم ٢.

(٦٨) نجداه منشوبة لابن رشيق في نفح ٢١٣/١ - ٢١٤، وفي ابن ليون، لمح السحر، الورقة ٣٥، وابن سعيد، في: فريتا، منتخبات عربية نحوية وتاريخية ص ١٤٠، والمراكشى، المعجب ٧٠، وترجمته ٦١، وابن دينار، كتاب المؤنس، طبعة تونس ١٣٥٠ هـ، ص ٩٢، وترجمة بلسيه ورميسا ص ١٦٨ - ١٦٩، وإلى ابن شرف في: ابن خلدون، المقدمة ٢٢٩، وطبعة كاترمير ٢٨١/١، وترجمة دى سلان لها ص ١٣١/٣، وإلى مجهول في أعمال الأعلام ١٤٤، ونفح ٢٥٥/٤، وابن الواعينى، المتوفى ٥٦٤ = ١١٦٨، ربحان الأدب، في «بنو عباد» ٥/٢، والرأى الأكثر قبولا بعامه، أن الأسماء التي ضرب بها الشاعر المثل هي التي حملها أمرأ بنى عباد الأوسع شهرة، مما يسمح لنا أن نستنتج أن ناظم الأبيات كان عدوا لهذه الأسرة، ومع ذلك من المحتمل أن نجد في المشرق يوما النموذج الذي صيغت على منواله هذا الأبيات. قارن هذين البيتين بما قبل ضد البربر في ص ٢٣٦ - ٢٣٧ من هذا الكتاب. (٦٩) من البسيط.

الفعل التي عبّروا عنها بمناسبة أحداث معينة، على أنهم ليسوا جميعاً ناظمي بلاط عاجرين عن التعبير عن مشاعرهم الحقيقية. وإذا كان الجانب الأكبر من أشعارهم، على الأقل من وجهة نظرنا نحن الغربيين، ذا أهمية أدبية موضع خلاف كبير، وأحياناً ليست لها أهمية على الإطلاق، فإن ذلك ليس مبرراً لكى ندير ظهرنا لشعرهم كله، ونستطيع أن نجد في شعر المناسبات، وحتى في قصائد المديح، عناصر متناثرة، وذات أهمية كبرى فيما يتصل بالوسط الذى عاشوا فيه، والمجتمع الذى اندمجوا في معامعه، وعندما نجمع هذه المعلومات ونرتبها فسوف نلاحظ أن الشعر وثيقة له قيمة حقيقية، ومن ثم يمكن أن يقدم لنا مساعدة قيمة في المجالين التاريخي والاجتماعي.

البَابُ الثَّانِي

الموضوعات العامة المستوحاة من الطبيعة

○ الموضوعات المفضلة:

كانت ظروف الشاعر الأندلسي تضطره إلى الرحلة والتجوال كثيراً، فأتاحت له الفرصة لرؤية مشاهد عديدة حوله، وكما أن رؤيته للعالم الخارجى لم تتأثر دائماً بانشغاله بالرائى والمدىح، على نحو ما رأينا، كذلك فإن قدرته على المشاهدة، إن لم تكن قد انطفأت، لم تدع شيئاً من مفهومه عن البيئة التى يعيش فيها ينعكس فى أبيات شعره. وما أوردناه قبلاً عن تكوينه الأدبى يؤكد أن كل شىء فى إبداعه ليس أصيلاً، وأن دراسة الشعر المشرقى على نحو ما كانت عليه فى إسبانيا تركت بصمات واضحة على نفس الأسلوب الذى يصب فيه الشاعر أفكاره.

وبدا كما لو أن كل شىء قالته العرب فى عصورها الأولى، ولكن من الأوفق أن نميز بالنسبة إلى الموضوعات التى يتناولها البحث بين العالم الخارجى والحياة الداخلية. ولقد عرف القرن الحادى عشر الميلادى ألواناً من الإحساس والفهم اختص بها الأندلسيون عن غيرهم من المشاركة. وفيما يتعلق بالطبيعة، جامدة أو متحركة، ألهمت شعراء الغرب الإسلامى موضوعات سبق أن تعرض لها الأدب المشرقى على نحو ما، وبعضها، وبدأ فى المشرق، فما هنا وتطور واكتسح كل الإبداع الشعري، كالموضوعات الخاصة بالمدن والقصور والمنتزهات والوديان والجبال والحدائق والبساتين والمياه جارية وراكدة والبحار والسفن، ويمكن أن نعتبر هذه الموضوعات، نظراً لأهميتها، أساسية فى إسبانيا، وعلى النقيض من ذلك، توجد موضوعات أساسية فى الأدب العربى كسبها كماله، كتلك التى تتصل بالتغيرات الجوية، من الغروب والليل والشروق والرياح والسحب والأمطار والبرد والثلوج وغيرها. أو تدخل فى دائرة الأجرام السماوية من الشمس والقمر والنجوم والكواكب، والحيوانات فى مختلف أنواعها، مفترسة ومستأنسة، موجودة على الأرض أو تسبح فى الهواء.

وجدير بالذكر أن هذه الموضوعات الأخيرة التى يتناولها الشعراء فى المشرق، وتعتبر تقليدية نظراً لقدمها وكثرة دورانها فى الشعر، وجود التعبير عنها، لم يأخذها الشاعر الأندلسى كما هى، وإنما عرف كيف ينفخ فيها من روحه، بتعبيره الأكثر تشخيصاً للطبيعة، وتجسيده الدائم لها، وعودته إلى الواقع الذى يلمسه، واقع أندلسى وليس أسبانياً، ومنه استمد صورته الشعرية، وهذا اللون هو الذى أضفى على الأدب الإبداعى فى إسبانيا الإسلامية ملامح خاصة تميزه عن الأدب المشرقى حتى فى الموضوعات التى تعتبر تقليدية.

○ الفصل الأول :

إسبانيا والمدن والمنتزهات

إن ما يميز الشاعر الأندلسي، في الواقع، عن الشاعر المشرقي، نظرتة إلى العالم المادي، والمكان البارز الذي تحتله الطبيعة المحيطة به من فكره^(١).

ويرد الأدباء والنقاد غلبة الموضوعات المستوحاة من الطبيعة على غيرها في الشعر الأندلسي إلى خصوبة التربة الأندلسية النادرة، وهذا التعميم المبكر يدفعنا إلى ما يجب أن نفكر فيه، فلا يمكن عند ذكر لفظ الأندلس تحديد إقليم بعينه، كمقاطعات لأندلس المعاصرة مثلاً، أو ما كانوا يسمونه قديماً «بأطيقا Bétique»، لأن اسم الأندلس يشكل كل إسبانيا الإسلامية، على حين أن المؤرخين والأدباء عندما يتكلمون عن المياه الجارية، والحقول الخضراء، والبساتين النضرة، لا يفكرون إلا في المقاطعات التي تسمى الآن الأندلس L'Andalousie، وأقاليم الشرق أو الغرب التي تجاور المدن الكبرى مباشرة، حيث ينهض نظام الري المنتظم^(٢).

وقد حاول أبو عبيد البكري، وهو من القرن الحادي عشر الميلادي، أن يحدد تنوع أقاليم إسبانيا، وتعدد مناخها، فاستخدم الأسلوب الأدبي الذي عرضنا له، حين ألحنا إلى طباع الأندلسيين وأمزجتهم وملاحظهم^(٣)، يقول:

«الأندلس شامية في طيب هوائها، يمانية في اعتدالها واستوائها، هندية في عطرها وذكائها، أهوازية في عظم جبايتها، صينية في جواهر معادنها، عدنية في منافع سواحلها»^(٤).

وسنرى أن نظرة الشعراء إلى إسبانيا لم تكن تختلف عن هذا، يقول شاعر مجهول:

في أرض أندلسٍ تلتدُّ نعاءً ولا يُفارق فيها القلبُ سرّاً

(١) انظر قائمة بالموضوعات التي عالجه الأندلسيون في: الحجاري، المسهب، في نفع الطيب ١٥٥/٣.

(٢) يقول المراكشي، هي - أي الأندلس - : «أعدل الأقاليم هواء، وأصفها جوا، وأعذبها ماء، وأعطرها نبتاً، وأندأها ظلالاً، وأطيبها بُكراً مستعذبة وأصلاً». انظر: المعجب ١٦٣، وترجمته ١٠٤. وحاول لسان الدين بن الخطيب أن يكون أكثر دقة قائلاً: «وقد اختلفت طباع هذه الأرض لسعة خطتها، وأخذها من الأقاليم بحظر، فمن أماكنها المعتدل وغير المعتدل مانلاً إلى البرد». وبقية وصفه تنطبق فيما يبدو على الأندلس Andalusia وحده. انظر: أعمد الأعلام ٤، وعنه في نفع ١٢٥/١ - ١٢٦، ويقول ابن سعيد إنه بعد رحلاته الواسعة لم ير «ما يشبه رونق الأندلس في مياهها وأشجارها إلا مدينة فاس بالغرب الأقصى ومدينة دمشق بالشام». نفع ٢٠٩/١.

(٣) انظر فيما سبق ص ٢٢ - ٢٤ من هذا الكتاب.

(٤) البكري، في نفع ١٢٦/١، وترجمة ديجا في مقدمته لنفع الطيب في طبعته الأوربية ٢٨/١ - ٢٩، وليفى برونسال، إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر ١٥٨، وينسب القزويني في آثار البلاد، في Kosmographie ٣٣٨/١ هذه العبارة إلى العذري (أحمد بن عمر) مؤلف الممالك والمسالك الأندلسية، وانظر: أبو حامد الأندلسي الغرناطي، تحفة الألياب، طبعة فران، في المجلة الآسيوية، عام ١٩٢٥، المجلد ٢٠٧، ص ٢٠٠. وينسب التويري، في نهاية الأرب ٣٤٥/١، هذه الفقرة إلى ابن حزم في رسالته عن فضل أهل الأندلس.

وليس في غيرها بالعيش مُتَنَفِّعٌ
وأين يُعَدِّلُ عن أرضٍ تُحْضِي بها
وأين يُعَدِّلُ عن أرضٍ تحت بها
وكيف لا يُبْهِجُ الأبصارَ رؤيتها
أنهارها فضة، والمسك تزيئها
وللهواء بها لُطْفٌ يرق به
ولا تقوم بحق الماء صهبا
على الشهادة أزواج وأبناء
على المدامة أفياء وأنداء
وكل أرض بها في الوشي صنعاء
والخز رؤيتها، والدر حصاء
من لا يرق، وتبدو منه أهواء^(٥)

وكان ابن خفاجة شاعر جزيرة شقر أشدهم إعجابا بطبيعة بلاده، وعبر عن مشاعره في مقطوعتين لا يمكن أن نمر بها صامتين، الأولى:

يا أهل أندلسٍ الله درُكُم
ما جنة الخلد إلا في دياركُم
لا تحسبوا في غدٍ أن تدخلوا سقرًا
مَاءٌ وَظِلٌّ وَأَنْهَارٌ وَأَشْجَارٌ
ولو تَحَيَّرْتُ هذا كنت أختار
فليس تُدْخِلُ بعد الجنة النار^(٦)

وفي الأخرى يقول:

إنَّ للجنة بالأندلسِ
فَسْنَا صُبْحَتِهَا مِنْ شَنْبٍ
وَإِذَا مَا هَبَّ الرِّيحُ صَبًا
مُجْتَلَى حُسْنٍ وَرِيًّا نَفْسِ
وَدَجَى لَيْلَتِهَا مِنْ لَعَسِ
صَحَتْ وَاشْوَقَى إِلَى الْأَنْدَلُسِ^(٧)

ولم يكن ابن خفاجة الشاعر الإسباني المسلم الوحيد الذي أطلق على إسبانيا «جنة الأرض»، والمرجح أن هذه التسمية تعود إلى ماثور شعبي اختفى أصله في ليل الزمان، ولعله يعود إلى أيام ما قبل الفتح الإسلامي. وتقول أسطورة إسبانية إن إسبانيا طلبت من الخالق عند بدء الخليقة أن يهبها ساء صافية ونالتها، وبحرا جميلا، وفواكه عذبة، ونساء حلوات، فكان لها ما أرادت، وأخيرا رجته حكومة صالحة، فرد الخالق: لا، هذا كثير، إذن ستكونين جنة الأرض^(٨).

(٥) من الحفيف، نفح ٢٢٧/١. ويذكر الملح فقرتين أخريين طويلتين يصفان إسبانيا. الأولى تنسب إلى شاعر لاحق للقرن الحادي عشر، هو: ابن سفر المريني، نفح ٢٠٩/١، والأبيات من البسيط، والثاني شاعر مجهول، ونستنتج من شكواه وتحسره أنه لابد أن ينتمي في عصر متأخر، نفح ٢٢٨/١، والأبيات من الكامل.

(٦) من البسيط، ابن خفاجة، الديوان، وفيما بعد حين أنشدت هذه الأبيات في حضرة السلطان المريني أبي عنان فارس قال: كذب هذا الشاعر - يشير إلى كونه جعلها جنة الخلد وأنه لو خير لاختارها على ما في الآخرة - وهذا خروج من ربة الدين. ولكن الأندلسي الذي أنشدها له عرف كيف يرد عليه في مهارة، قائلا: بل صدق الشاعر، لأنها موطن جهاد، ومقارعة للعدو وجلاء، والنبي يقول: «الجنة تحت ظلال السيوف»، انظر: نفح ٦٨١/١.

(٧) من الرمل، ديوان ابن خفاجة.

(٨) أ. فوييه، يجعل تاريخ نفسية الشعوب الأوروبية ١٦٧ - ١٦٨. ويقول ألفونسو العالم في المدونة العامة، معتمدا دون شك على نص عربي: «إسبانيا هذه جنة الله». انظر: مدونة إسبانيا الأولى العامة، طبعة ر. مينينديث بيدال، في مكتبة المؤلفين الإسبان الجديدة، المجلد ٥ ص ٣١١. ويعتبر الجغرافيون إسبانيا إحدى الجنان الخمس على الأرض، والأربعة الباقية: غوط دمشق، ونهر الأبله، وجنة صجد وشعب يوان. انظر: المقدسي، وصف العالم الإسلامي، ٢٣٤ - ٢٣٥، وياقوت معجم البلدان ٧٥١/١، والنويري نهاية الأرب ٢٥٧/١١ - ٢٦٢. ولكن من المحتمل أنهم يستخدمون هذا التعبير: «جنة الدنيا» صيغة لا تعني عندهم أكثر من فكرة أرض فقيرة المياه والخضرة. وقد التقط الثعالبي في القرن الحادي عشر كل التعبيرات التي أصبحت عملة جارية على أفلام الأدباء، وتتضمن كلمة جنة، وعد منها اثني عشر، انظر: ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ٥٥٧ - ٥٥٩.

ولم يخطئ شعراء الأندلس حين شبهوا في قصائدهم البلد الذي أحسن استقبالهم يوماً، ثم أجبروا على تركه أخيراً لخطيئتهم، بالجنة التي طرد منها آدم. يقول النحلي البطليوسي حين خاف من المعتصم بن صمادح أمير المرية، ففر منها:

رَضَى ابْنُ صَمَادِحَ فَارَقْتُهُ فلم يُرِضْنِي بَعْدَهُ الْعَالَمُ
وَكَانَتْ مَرِيَّتُهُ جَنَّةً فَجَنَّتْ بِنَا جَاءَهُ آدَمُ^(٩)

ويناجي ابن عمار مدينة بلنسية، وأرادها أن تنضم إلى جانبه في كفاحه، فيقول:

بَشَّرْ بِلَنْسِيَّةٍ وَكَانَتْ جَنَّةً أَنْ قَدْ تَدَلَّتْ فِي سِوَاءِ النَّارِ^(١٠)

وقد أطلق الشعراء اسم الجنة على بعض المدن التي وجدوا فيها سعادة غامرة، يقول أبو جعفر بن مسعدة الغرناطي في أبيات عن بلنسية:

هِيَ الْفَرْدُوسُ فِي الدُّنْيَا جَمَالاً لَسَاكِنُهَا وَكَارِهَا الْبَعُوضُ
وَلَكِنْ هَذَا الْإِعْجَابُ عِنْدَ شَاعِرٍ آخِرٍ إِلَى شَيْءٍ مِنَ الْمَرَاةِ:
ضَاقَتْ بِلَنْسِيَّةٍ فِي وَذَاذَ عَنِّي غَمُوضِي
رَقَصُ الْبِرَاغِيثُ فِيهَا عَلَى بَغْنَاءِ الْبَعُوضِ^(١١)

وبعض الضياع التي تقع بين المزارع الخضراء، ويتناقض جمالها مع وحشة ما حولها، تنير في خيال الشعراء الجوالين ذكريات فردوسية، يقول أبو الفضل بن شرف القيرواني في مدينة برجة:

إِذَا جِئْتَ بِرَجَةٍ مُسْتَوْفِزَاً فَخُذْ فِي الْمَقَامِ وَخُلْ السَّفَرُ
رِيَاضَ تَعَشَّقُهَا سُندُسُ تَرُشْتُ مِعَاطِفَهَا بِالزَّهَرِ
مَدَامُعَهَا فَوْقَ خَدِّي رُبِّي لَهَا نَضْرَةٌ فَتَنْتَ مَنْ نَظَرُ
وَكُلُّ مَكَانٍ بِهَا جَنَّةٌ وَكُلُّ طَرِيقٍ إِلَيْهَا سَفَرُ^(١٢)

والأرض التي وطنها الشاعر، وكانت معه سخية بلا حدود، لا يمكن أن تكون حنة، وإنا كما يصفها ابن اللبانة:

نَزَلْتُ بِكَافُورٍ وَتَبَرٍ وَجَوْهَرٍ يُقَالُ لَهَا الْحَصْبَاءُ وَالرَّمْلُ وَالتَّرْبُ^(١٣)

(٩) من المقارب، نفع ٩/٤، وأبحاث ط ١ ص ٨٩. وفي قلائد الأعيان ص ٢٥٢ تنسب هذه الأبيات إلى ابن اللبانة، وتوجه بها إلى المتوكل أمير بطليوس. انظر فيها سياق ص ١٣٥، رقم ١٥١ من هذا الكتاب.
(١٠) من الكامل، القلائد ٦١.

(١١) من الوافر، نفع ١٨٠/١. وقد اشتهرت بلنسية بأنها غامرة بالبعوض.

(١٢) من المقارب، مع ١٥١/١، الأبيات الثلاثة التي تلى البيت الأول تنسب لابن شرف، كما سنرى فيما بعد. وذكر نفع ١٨٦ ١ جيس لاون وثرع مسبقين يقال بعضهم. ويطلق ابن سعيد على قرية نازحة في مداعمة مالقة اسم «جنة الفردوس، نفع ١٧٨/١، ويعود بو بحر صفوان بن إدريس عن مرسية، وقد ولد فيها. إنها «جنة الأرض»، نفع ١٧٣/١.

(١٣) من الطويل، القلائد ٢٤٩. ونفع ١٣/٣.

ويقول ابن درّاج القسطلّى، وقد قدم على المنذر ملك سرقسطة عام ٤٢٨ هـ = ١٠٣٦ م:
وَحَلَلْتُ أَرْضًا بُدِّلَتْ حَصَبًا وَهَا ذَهَبًا يَرُوقُ لَنَاظِرِي وَجَوْهَرًا^(١٤)

ويقول ابن الحداد للمعتصم بن صمادح:

لَعَلَّكَ بِالْوَادِي الْمَقْدُسِ شَاطِئِي فَكَالْعَبْرِ الْهِنْدِيَّ مَا أَنَا وَاطِئِي^(١٥)

وهذه الأمثلة تكفى لإظهار مغالاة شعراء الأندلس في قيمة أرضهم، وليس من العسير أن نجد نماذج لهذه الأمثلة في الأدب الإسباني العربي كما نجد لها شبيها في الأدب المشرقي^(١٦)، ولكن ليس ثمة شك في أنه لا توجد طريقة أفضل من هذه للتعبير عن حبه لوطنهم وإظهار مشاعرهم نحوه. وأخيراً، يمكن القول أن شعراء الأندلس ظلوا مولعين بالأرض التي وُلدوا عليها، رغم كل المعاناة التي تعرضوا لها في شبه الجزيرة، ولعل ابن الحداد من بينهم خير من عبّر عن حبه لوطنه:

وَكَمْ خَطَبْتَنِي مِصْرُ فِي نَيْلِ نَيْلِهَا وَرَامَتْ بِنَا بَغْدَادُ وَرَدَ فُرَاتُهَا
وَلَمْ أَضِ أَرْضًا غَيْرَ مَبْدَأِ نَشَاتِي وَلَوْ لَحَتْ شَمْسًا فِي سَمَاءِ وَلَاتِهَا
وَلِي أَمَلٌ إِنْ يُسْعِدَ السَّعْدُ نَلَّتُهُ وَيَفْهِمُ سِرَّ النَّفْسِ فِي رَمَزَاتِهَا
وَأَسْنَى الْمَنَى مَا نَيْلٌ فِي مَيْعَةِ الصَّبَا وَهَلْ تَحْسُنُ الْأَشْيَاءُ بَعْدَ فَوَاتِهَا^(١٧)



إن شعراء إسبانيا المسلمين في القرن الحادى عشر لم يقفوا عند حد إظهار تعلقهم بإسبانيا بلدا متميزا عن بقية الإمبراطورية الإسلامية فحسب، ولكنهم أيضا وصفوا الأماكن التي أمضوا فيها زهرة شبابههم، أو عاشوا فيها أثناء تجوالهم رجالا ناضجين، وتتيح لنا أشعارهم أن نتصور كل مدن إسبانيا الإسلامية، وتعيد الحياة إلى بيوت الأمراء من القصور والمنيات^(١٨) والمناظر الجميلة، والنزهات الريفية.

وكان الشعراء يشبهون المدن الكبرى في إسبانيا، وبخاصة تلك التي تحترقها الأنهار، أو تقع على شاطئ البحر، بالعروس ليلة زفافها. يقول ابن جِصْن وكان يوما على شاطئ الوادى الكبير في قرطبة، في مجلس انس، فتذكر إشبيلية، أو حمص كما يدعونها أحيانا:

ذَكَرْتُكَ يَا حَمَصُ ذَكَرَى هَوًى أَمَاتَ الْحَسَوَدَ وَتَعْنِيَتَهُ
كَأَنَّكَ وَالشَّمْسُ عِنْدَ الْغُرُوبِ عُرُوسٌ مِنَ الْحَسَنِ مَنَحَوَتَهُ

(١٤) من الكامل، أعمال الأعلام ١٩٩، ونفع ١٤/٣.

(١٥) من الطويل، نفع ١٥/٣. وانظر أيضا: المطمح ٣٤٠، وابن خلكان، الوفيات، طبعة القاهرة، ٣٥/٢، وترجمة دى سنان ٢٠٠/٣.

(١٦) انظر: ابن هاني، الديوان، طبعة بيروت ٢٦، طبعة زاهد على ١١٣، وفي نفع ١٤٨/٢ طبعة أوروبا، وابن سارة في نفع ٦٣٩/٢ طبعة أوروبا.

(١٧) من الطويل، الذخيرة ٧١٤/١.

(١٨) عن معنى هذه الكلمة، وهي جمع منية، وتوجد في مصر من قديم، انظر: رينو، جغرافية أبى الفداء، الترجمة الفرنسية، المجلد ٢، القسم الأول، ص ١٥٨، رقم ١ (في مصر) وص ٢٥٨، رقم ٢ (في بلنسية)، وج. مسبيرو وفييت، مواد لخدمة جغرافية مصر، ص ٢٠٤ - ٢٠٥، وج. الزيات في مجلة المشرق، المجلد ٤٥، يناير - مارس ١٩٥١، ص ٧ - ٩ (في مصر قبل الإسلام وأثناءه، وفي إسبانيا).

غدا النهرُ عِقدُكِ والطودُ تاجُكِ والشمسُ في أعلاه ياقوته^(١٩)
وركب بعض أهل المرية في وادي إشبيلية فمر على طاقة من طاقات شنتبوس، وهو يغني:
خَلَّين من وادٍ ومن قواربٍ ومن نزاها في شنتبوس
غرسُ الحبِّ الذي في داري أحبُّ عندي من العروس
فأخرجت جارية رأسها وقالت له: من أي اللاد أنت يا من غني؟ فقال: من المرية، فقالت:
وما أعجبك في بلدك حتى تفضله على وادي إشبيلية؟ وهو بوجه مالح وقفًا أحرش، وهذا من أحسن
تعيب، وذلك أنها أنهت بالنقيض من إشبيلية، فإن وجهها النهر العذب، وقفها بجبال الرحمة أشجار
التين والعنب، لا تقع العين إلا على خضرة في أيام الفرج^(٢٠).

وقد وقف الشعراء بصورهم وتشبيهاتهم عند هذا الحد، وعيننا نبحث في قصائدهم عن لوحة متكاملة
تصور المدينة بضواحيها وحدائقها وجبالها، غير أنهم استطاعوا، كما سنرى، أن يرسموا ما رأوا أعينهم
أنه يمثل القيم الوحيدة التي تستحق التسجيل، وجديرة بالإعجاب: القصور والمنيات والمتنزهات العامة
على شواطئ الأنهار أو في الوديان الغاصة بالأشجار.
ويُنسب إلى عبد الرحمن الناصر هذين البيتين:

هيمُ الملوك إذا أرادوا ذكْرَها من بعدهم فبالسنِ البنيان
إن البناء إذا تعالَمَ قَدْرُهُ أضحى يدل على عظيم الشأن^(٢١)

والحق أن بناء مدينة الزهراء، وتكملة المسجد الجامع في قرطبة وتوسعته، جعلته يدعى لنفسه هذه
الصفة، ويردد هذين البيتين ويتمثل بهما، وهو على حق فيما ادعى.

كان الخلفاء والحكام يسرفون في إقامة الأبنية الفاخرة لتخليد ذكراهم، وقد احتج الفقيه منذر بن
سعيد البلوطي باسم الشريعة على جنون الخليفة عبد الرحمن الناصر بالبناء وإسرافه في زخرفة مدينة

(١٩) من المتقارب، الذخيرة ١٦٦/٢، ونفع ١٧/٢، وبدائع البدائع ٣٦٧، ويذكر ابن الخطيب في أعمال الأعلام عن قرطبة، على
لسان مؤرخ مجهول أنها «حيث الطود كالتاج، يزدان باللجين العذب لمجاء». ويقول زجلال من إشبيلية في زجل يدح به المعتضد:

إشبيلية عروسنا وبعلاها عباد
وتاجها الشرف وسلكتها الواد

انظر: الشقندي، رسالة فضل الأندلس، في نفع ٢١٣/٣، وترجمتها بالإسبانية لغريسيه غوث ص ٩٦، وديجا، مدخل للطبعة
الأوربية من النفع ٨٠/١.

(٢٠) نفع ١٨/١ و ٣٨٩/٣. ونقلها وترجمها دوزي في أبحاث، ط ١ ص ٨٣، وانظر ص ١٢٢ فيما سيأتى من هذا الكتاب.
ويقول ابن مفلح عن إشبيلية: «إن إشبيلية عروس بلاد الأندلس، لأن تاجها الشرف، وفي عنقها سبط النهر الأعظم، وليس في
الأرض أتم حسنا من هذا النهر، يضاهي دجلة والفرات والتيل» (نفع ٢٠٨/١). والكتاب الذين جاءوا فيما بعد ألحوا على استخدام
اصطلاحات الكتاب التقنية، يقول ابن سعيد: «إن حضرة قرطبة إحدى عرائس مملكتهما، وفي اصطلاح الكتاب أن للعروس الكاملة
الزينة منصة، وهي مختصة بما يتعلق بذكر المدينة نفسها، وتاجا، وهو مختص بالإيالة السلطانية، وسلكا، وهو مختص بأصحاب درر الكلام
من الثنار والنظام، وحلة، وهي مختصة بأعلام العلماء المصنفين الذين ليس لهم نظم ولا نثر، ولا يجب إهمال تراجمهم، وأهدابا، وهي
مختصة بأصحاب فنون الهزل وما ينحو منحاه (٤٥٧/١). وانظر أيضا وصف شاعر مدينة سمرقند بالأسلوب نفسه في: ابن خرداذبه،
المسالك والممالك، في مكتبة الجغرافيين العرب، المجلد ٦، ص ١٧٢، والترجمة الفرنسية ص ١٣٣.

(٢١) من الكامل، نفع ٥٢٠/١، وسميونيت، القرن الذهبي ١٨.

الزهراء^(٢٢)، ولكن معارضة لم تلق منه استجابة، ولم تثنه عن حبه للأعمال العظيمة^(٢٣).

وكان أهل الأندلس بعامة يحبون الأبنية الجميلة، وكل المؤلفين العرب الذين تحدثوا عن أهل إشبيلية ذكروا أن من بين الصفات التي تميز مزاجهم حبهم العيش في مساكن فخيمة، ويصف الشقندى من أدباء القرن الثاني عشر الميلادي شرف إشبيلية قائلاً: «وتزيد قراه على غيرها من القرى بانتخاب مبانيها، وتهتم سكانها فيها، داخلا وخارجا، إذ هي من تبيضهم لها نجوم في سماء الزيتون»^(٢٤).

وقد عبر الوزير ابن الحمارة، محمد الغرناطي أبو عامر، عن هذا المعنى في بيت من الشعر، يقول:

لأحت قراها بين خُصرة أيكها كالدَّر بين زَبْرَجِدٍ مكنون^(٢٥)



قدم لنا الشعر معلومات كافية عن القصور والمنيات، والمتنزهات المتناثرة، ويمكن في ضوءها أن نقوم بدراسة أية مدينة في إسبانيا الإسلامية تختلف حجماً وأهمية تبعاً لواقع هذه المدن في القرن الحادي عشر الميلادي. وحين نتأمل ما أوجت به كل مدينة إلى الشعراء تستحق قرطبة، العاصمة على أيام الأمراء والخلفاء، المكانة الأولى، رغم أنها في القرن الحادي عشر الميلادي أصبحت العاصمة الثانية، وسبقها إشبيلية.

وحيث كانت هذه لا تعرف إلا قليلاً في إسبانيا، فإن شهرة قرطبة تجاوزت الحدود، ووصلت حتى ألمانيا، وقالت عنها الراهبة الشاعرة السكسونية روزفيتا من القرن العاشر الميلادي، في قصيدة لها: «جوهرة العالم الساطعة، مدينة جديدة رائعة، فخورة بقوتها، شهيرة ببهاجها، مزهوة بما تملك من خير وفير»^(٢٦).

وقد احتفل بها شاعر مجهول على النحو التالي:

بأربع فاقَتِ الأمصارَ قرطبةً منهن قنطرةُ الوادي وجامعُها

(٢٢) وبمناسبة السقف المذهبة التي كانت تغطي قاعات القصر فقد قرع الفقيه منذر بن سعيد البلوطي الخليفة عبد الرحمن الناصر، وذكره بالآية القرآنية: ﴿ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون﴾، سورة الزخرف، الآية ٣٣.

انظر: نفح ٥٧٤/١، والمطمح ٢٤٦، وليفى بروفنسال، إسبانيا في القرن العاشر الميلادي ٢٢٩.

(٢٣) وقد انتقل هذا الحب إلى أمراء المغرب، وعندما عرض المهندس على أبي عنان نفقات المدرسة البوعنانية قال هذا له: ماهو جميل ليس غالياً مهما كلف من ثمن، وليس كثيراً ما تدفعه لكى تبهج الإنسان انظر: نفح ٣٠/٤ طبعة القاهرة، وليون الأفريقي، وصف أفريقيا، طبعة شيفر ٧٥/٢، أ. ب.، النقوش العربية في فاس، فصلة مستقلة، ص ٢٦١.

(٢٤) الشقندى، رسالة فضائل الأندلس، في نفح ٢١٣/٣، وترجمة غرسية غوث لها ٩٧.

(٢٥) من الكامل، نفح ٢٠٥/١.

(٢٦) انظر: شعر العرب وفنهم في إسبانيا وصقلية لفون شاك، ترجمة خوان بالسيررا إلى الإسبانية ط ٣ ج ١ ص ٥٧، وهو يعتمد على كتاب روزفيتا نفسها، طبعة شوذ فليش ص ١٢٠. ورامون مينديث بيدال، إسبانيا في عصر السيد ٨٩/١، وليفى بروفنسال، إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر ٢٣٥، وتاريخ إسبانيا الإسلامية، ط ٢ ج ٢ ص ٣، هامش ٢، وتاريخ مسلمي إسبانيا ط ٢ ج ٢ ص ١٧٤، وشارل منيين، روزفيتا، في مجلة العالمين، ١٥ نوفمبر ١٨٣٩، وأ. زكي، مدن الفن في بلاد الأندلس، مجلة الهلال، المجلد ٤٣، ديسمبر ١٩٣٤، العدد الأول، ص ١٣٢.

هاتان ثنتان، والزهراءُ ثالثةٌ والعلمُ أعظمُ شيءٍ وهو رابعها^(٢٧)

ومما يثير الدهشة أن شعراء القرن الحادى عشر الميلادى لم يصفوا المسجد الجامع، ولا قنطرة قرطبة الشهيرة، وفيما يبدو لم تلهمهم القنطرة في حد ذاتها إلا القليل من الموضوعات، ويمكن الظن بأنها لو كانت مكانا للتنزه لشدت انتباههم، وأما المسجد الجامع فكان مكانا للصلاة والتعليم الدينى، وهما عمليا لم يكونا مناط اهتمام الشعراء. ويمكن أن نتساءل، إذا تركنا جانبا، مؤقتا، مدينة الزهراء، ماذا قال شعراء القرن الحادى عشر في قرطبة أو عنها؟

لقد أخذت عاصمة إسبانيا الإسلامية تسترد قواها بعد الهزات العنيفة التى تعرضت لها في بداية القرن الحادى عشر، أثناء الفتنة البربرية^(٢٨)، وأشد مشاعر الألم حزنا عليها نجدها فيما خطه ابن حزم وابن شهيد.

يقول ابن حزم:

«ولقد أخبرنى بعض الوراد من قرطبة، وقد استخبرته عنها، أنه رأى دورنا ببلاط مغيث^(٢٩)، في الجانب الغربى منها، وقد انحمت رسومها، وطمست أعلامها، وخفيت معاهدها، وغيرها البلى، وصارت صحارى مجدبة بعد العمران، وفيافى موحشة بعد الأنس، وخرائب منقطعة بعد الحسن، وشعابا مفرقة بعد الأمن...»^(٣٠).

ونجد المشاعر نفسها عند ابن شهيد:

مافي الطلول من الأحبة مخبر	فمن الذى عن حالها نستخير
لا تسألن سوى الفراق فإنه	يُنبيك عنهم أنجدوا أم أغوروا
جار الزمان عليهم فتفرقوا	في كل ناحية وباد الأكثر
جرت الخطوب على محل ديارهم	وعليهم فتغيرت وتغيروا
فدع الزمان يصوغ في عرصاتهم	نورا تكاد له القلوب تنور
فلمثل قرطبة يقل بكاء من	يبكى بعين دمعها متفجر
دار - أقال الله عشرة أهلها -	فتبرروا وتغربوا وتقصروا ^(٣١)
في كل ناحية فريق منهم	متفرق لفراقها متحير

(٢٧) من البسيط، نفع ١/٨٥٣، والأهمية التى يضيفها هذا الشاعر المجهول على العلم في هذين البيتين تجعلنا نرجح أنه من عصر المنصور بن أبى عامر، ومع ذلك فإن القرن فى مكان آخر من التفح، ٦٦٦/١، نسبها إلى محمد بن عطية المحاربي، من القرن الحادى عشر.

(٢٨) انظر فيما يتصل بالفتنة: تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ ج ٢ ص ٣٠١ - ٣٠٧.

● قلت: ودرست أنا هذه الفتنة في كتابي دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة، الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٣.

(٢٩) عن هذا الحمى من قرطبة انظر: ليفى برونسال، إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر ص ٢٠٧ والمهامش رقم ٣.

(٣٠) ابن حزم، طوق الحمامة ١٢٦، والترجمة الإنجليزية لنيكل ١٣٥، وطبعة برشية وترجمته ص ٢٤٠.

(٣١) يمكن أن نفهم البيت على النحو التالى: تبرروا، أى عادوا بربرا شرقيين، أى من صنهاجه، وتغربوا أى من بربر الغرب، أى من زناته، وقصروا، أى اعتنقوا مذهب الفاطميين خلفاء مصر. وفيما يتصل بمعنى هذه الكلمة الأخيرة انظر فيما سبق ص ٩١ من هذا الكتاب.

من أهلها والعيش فيها أخضر
بروائح يفتّر منها العنبر
فيها وباع النقص فيها يقصر
فتعمّموا بجمالها وتأزّروا
وبدّورها بقصورها تتخدّر
من كل أمر والخلافة أوفر
والعامرية بالموكب تُعمر
يتلو ويسمع ما يشاء وينظر
لا يستقل بساكنها المحشر
ريح النوى فتدمرت وتدمروا
إذ لم نزل بك في حياتك نفخر
ياوي إليها الخائفون فينصروا
طير النوى فتغيّروا وتتكروا
والنيل جاد بها وجاد الكوثر
تحيا بها منك الرياض وتزهر
وظباؤها بفنائها تبختر
من كل ناحية إليها تنظر
لأميرها وأمير من يتأمر
تسمو إليها بالسلام وتبدر
وثقاتها ومحاتها يتكرّر
وبائنها وسنائها تتحسّر
أدبائها ظرفائها تتفطر^(٣٢)

عَهْدِي بِهَا وَالشَّمْلُ فِيهَا جَامِعٌ
وَرِيَا حُ زَهْرَتِهَا تَلَوُّحٌ عَلَيْهِمُ
وَالدَّارُ قَدْ ضَرَبَ الْكِمَالُ رَوَاقَهُ
وَالْقَوْمُ قَدْ أَمِنُوا تَغْيِيرَ حُسْنِهَا
يَاطِبِيهِمْ بِقُصُورِهَا وَخُدُورِهَا
وَالْقَصْرُ قَصْرُ بَنِي أُمَيَّةَ وَافِرُ
وَالزَّاهِرِيَّةُ بِالْمِرَاكِبِ تَزْهَرُ
وَالْجَامِعُ الْأَعْلَى يَغْصُ بِكُلِّ مَنْ
وَمَسَالِكُ الْأَسْوَاقِ تَشْهَدُ أَنَّهَا
يَاجَنَّةٌ عَصَفَتْ بِهَا وَبِأَهْلِهَا
أَسَى عَلَيْكَ مِنَ الْمَمَاتِ وَحَقٌّ لِي
كَانَتْ عِرَاضُكَ لِلْمَيْمِمْ مَكَّةُ
يَا مَنْزِلًا نَزَلَتْ بِهِ وَبِأَهْلِهِ
جَادَ الْفِرَاتُ بِسَاحَتَيْكَ وَدِجْلَةُ
وَسُقِيَتْ مِنْ مَاءِ الْحَيَاةِ غَمَامَةٌ
أَسْفَى عَلَى دَارِ عَهْدَتِ رَبُّوعَهَا
أَيَّامُ كَانَتْ عَيْنُ كُلِّ كَرَامَةٍ
أَيَّامُ كَانِ الْأَمْرُ فِيهَا وَاحِدًا
أَيَّامُ كَانَتْ كَفَّ كُلِّ سَلَامَةٍ
حَزَنِي عَلَى سَرَوَاتِهَا وَرَوَاتِهَا
نَفْسِي عَلَى آلَانِهَا وَصَفَائِهَا
كَبْدِي عَلَى عِلْمَانِهَا حُلْمَانِهَا

وعندما وضعت الفتنة أوزارها ضمدت قرطبة جراحها خلال حكم بني جهور وبني عبّاد، ويمكن أن نستنتج مما كتب المؤرخون ومن قصائد الشعراء أن الكثير من أنقاضها لم يرفع، وإذا كان القصر، واسمه عَلم يدل عليه، لا يزال قائماً، فما هو مصير الأبنية الواسعة، وقاعات الاستقبال الفخيمة التي تتوسطه، وقدم لنا ابن بشكوال المؤرخ تفصيلات وافية عنها^(٣٣). لقد اختفت نهائياً، ولا نجد لها أثراً

(٣٢) من الكامل، أعمال الأعلام ١٠٥، وتوجد أبيات أخرى عن تعاسة حظ قرطبة خلال الفتنة في البيان المغرب ١١٠/٣ - ١١١.

● قلت حذف المؤلف الأبيات ١٠ و ١١ و ١٢ و ١٣، ولم أرمرها لذلك، ولعلها صعبت عليه في الترجمة، أو أن الذوق الغربي لا يسيغها.

(٣٣) هذه القصور، أو القاعات، أو المجالس هي: الكامل، المجدد، قصر الحائر، الروضة، الزاهر، العشوق، المبارك، الرشيق، قصر السرور، التاج، البديع. انظر: ابن بشكوال في نفح ١/٤٦٤، وليفي بروقتسال، إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر ٢٢٢ - ٢٢٤، ويقدم لنا ابن خلدون قائمة أخرى، بقاعات بناها عبد الرحمن الناصر، وهي: المجلس الأزهر، البهو، الكامل، المنيف، دار الروضة. انظر: كتاب العبر ٤/١٤٤، وعنه نقلها نفح ١/٥٧٧ - ٥٧٨، وليفي بروقتسال، إسبانيا الإسلامية ٢٢٤، والهامش =

فيا خط المؤرخون أو أنشد الشعراء، والشئ نفسه يمكن أن يقال عن قصور الزاهرة^(٣٤) والحاجبية^(٣٥).

أما مدينة الزهراء فمن الواضح أن مبانيها المختلفة، وأجنحتها العديدة، لم تعد صالحة للإقامة، بعد أن أتت عليها الحرائق والنهب والتدمير الذي قام به البربر في مطلع القرن الحادى عشر الميلادى^(٣٦). وبعض الجدران والأسقف التى ظلت قائمة فى الأدوار السفلى ولم يمسسها سوء أتاحت للسكان العابرين والزوار القادمين من قرطبة أن يتخذوا منها ملاذاً ومأوى. وفى عام ٤٥٥هـ = ١٠٦٣م أنهض المعتضد نحوها ابنه اسماعيل، الملقب بالمنصور ليحتل قرطبة، فنزل بزهراتها فوجد كل أسفلها معطل خالياً، ذهب كل بهائه^(٣٧). وقد اختفى من حديقة الحيوان ما فيها من «محلات للوحش فسيحة الفناء، متباعدة السياج، ومسارح للطيور مظلمة بالشباك»^(٣٨).

ولكن بفيه أركان الحديقة ظلت تحتفظ بأشجارها وخضرتها، ونجد ابن زيدون فى قصيدة له سنعرض لها عند الحديث عن قرطبة يذكر حبيبته ولأدة باللحظات الجميلة التى قضياها معاً فى مدينة الزهراء:

أَلَا هَلْ إِلَى الزَّهْرَاءِ أَوْيَةُ نَازِحٍ تَقْصَى تَنَائِيهَا مَدَامُهُ نَزْحًا
مَقَاصِرُ مُلْكٍ أَشْرَقَتْ جَنَائِبُهَا فَخَلْنَا الْعِشَاءَ الْجَوْنَ أَثْنَاءَهَا صُبْحًا
يُمِثِّلُ قَرْطُبِيهَا لِي الْوَهْمُ جَهْرَةً فَقَبَّيْتُهَا فَالْكُوكَبَ الرَّحْبَ فَالْسَطْحَا^(٣٩)
مَحَلَّ ارْتِيَاحٍ يُذَكِّرُ الْخَلْدَ طَبِيبُهُ إِذَا عَزَّ أَنْ يَصْدَى الْفَتَى أَوْ يَضْحَى^(٤٠)
هَنَّاكَ الْجَمَامُ الزَّرْقُ تَنْدَى جِفَاقَهَا ظِلَالٌ عَهْدَتْ الدَّهْرَ فِيهَا فَتَى سَمَحَا^(٤١)

= رقم ٢. وبعض هذه الأسماء كانت تطلق أيضاً على بعض القاعات والقصور فى إشبيلية، (انظر ما سأتى)، ولكن النفع لابد أن يكون أخطأ حين جعل مكان «المكرم» قرطبة (١٠٣/١ طبعة أوربا)، (انظر ما سأتى)، والمكرم، بتشديد الراء أو بدونها، يطلق على قاعة فى قصر المأمون أمير طليطلة. (انظر ما سأتى ص ١٣٦ الهامش ١٥٣).

(٣٤) عن تدميرها انظر: تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ ج ٢ ص ٣٨٦، والبيان المغرب ٦٤/٣. وعن القصور ذاتها انظر: ليفى بروفنسال، إسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر ص ٢٢١ - ٢٢٤، وتاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ ج ١ ص ٤٠٦ وج ٢ ص ٢٨١ - ٢٨٣ و ٣٨٢ و ٣٨٧ - ٣٨٨.

(٣٥) انظر: البيان المغرب ٦٢/٣، وكان قصر الحاجب عبد الملك المظفر ابن المنصور بن أبى عامر.

(٣٦) عن تخريب الزهراء انظر: ليفى بروفنسال، إسبانيا الإسلامية ص ٢٨٨، ودائرة المعارف الإسلامية ٩٥/٣ وما بعدها، مادة مدينة الزهراء، وكتبها ليفى بروفنسال.

(٣٧) انظر: تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ٦٤ وما بعدها. والذخيرة ١٤٣/٣، وعنفا فى «بنو عباد» ٢٥٦/١، والترجمة ص ٢٩١.

(٣٨) أقام عبد الرحمن الناصر فى الحديقة منازل للوحوش والطيور، انظر: نفع ٥٧٨/١، نقلاً عن ابن خلدون فى العبر ١٤٤/٤.

(٣٩) لا نعرف عن القرطين شيئاً، أما القبة والكوكب فهما قاعتا استقبال فخيمتان، والسطح ويوصف عادة بالمشرف، فكان بهوا كبيراً مغطى، انظر ليفى بروفنسال، المصدر السابق ٢٢٩، ونفع ٥٢٦/١، ٥٦٦، وينبغى ألا تخلط بينه وبين الصرح المراد، انظر: أعمال الأعلام ٣٨، ونفع ٥٧٤/١، والمطمح ٢٥٧، وأقيم تقليداً للقصر الذى أقامه سليمان ليستقبل فيه الملكة سبأ، وكان مرمداً من قوارير، انظر: سورة النمل، الآية ٤٤، وما سأتى فى هذا الكتاب ص ١١٩.

(٤٠) إشارة إلى الآيتين القرآنتين رقم ١١٨ و ١١٩ من سورة طه.

(٤١) من الطويل، ابن زيدون، الديوان ١٦٠، والقلائد ٧٢، ونفع ٦٢٨/١، ويجيرس، Specimen de ibn Zeiduno ص ٢٢

و٧٤، وكور، ابن زيدون النص رقم ٢٧، والترجمة رقم ٧٥. ونختلف كثيراً فى ترجمتنا للبيتين الأخيرين إلى الفرنسية مع كور.

لقد احتفظت مدينة الزهراء، كما يصورها لنا ابن زيدون بجمال بحيراتها، تظلمها الأشجار السامقة، أما القصور نفسها، في أجمل مشاهدتها على أيام الأمويين، فلم يستطع أن يتصورها إلا خيالا، ويُظن أن أطلال مقر الخلافة القديم أصبحت، فيها يبدو، ملتقى مجتمع قرطبة الراقى، حيث يجدون الطعام والشراب في سهولة، وينظمون الملتقيات، يروى الوزير الفقيه أبو الحسن ابن سراج للفتح ابن خاقان، يوم البهجة الذي قضاه في الزهراء مرة، رفقة جمع من الوزراء والكتاب أيام المعتمد بن عباد، يوما «غفل عنه الدهر فلم يرمقه بطرف، ولم يطرقة بصرف، آرخت به المسرات عهدا، وأبرزت له الأمانى خدّها، وأرشفّت فيه لماها، وأباحّت للزائرين حماها، ومازالوا ينتقلون من قصر إلى قصر، ويتنقلون الغصن بجنى وهضر، ويتوَقّلون في تلك الغرفات، ويتعاطون الكؤوس بين تلك الشرفات، حتى استقروا بالروض من بعد ما قضوا من تلك الآثار أوطارا، وأوقروا بالاعتبار قطارا، فحلّوا منها في درانك ربيع مفوّة بالأزهار، مطرّزة بالمداول والأنهار، والغصون تختال في أدواحها، وتتثنّى في أكف أرواحها، وآثار الديار قد أشرفت عليهم كئكالي يتحنّ على خرابها، وانقراض أطرابها، والوهى بمشيدها لالعاب، وعلى كل جدار غراب ناعب، وقد محت الحوادث ضياءها، وقلّست ظلالها وأفياها، وطالما أشرقت بالخلائف وابتهجت، وفاحت من شذاهم وأرجّت، أيام نزلوا خلاها، وتفتّأوا ظلّالها، وعمروا حدائقها وجنّاتها، ونهبوا الآمال من سناتها، وراعوا اللبث في آجامها، وأخجلوا الغيوث عند انسجامها، فأضحت ولها بالتداعى تلفع واعتجار، ولم يبق من آثارها إلا نؤى وأحجار، قد وهت قبابها، وهرم شبابها، وقد يلين الحديد، ويبلّ على طيه الحديد، فبينما هم يتعاطونها صغارا وكبارا، ويدبرونها أنسا واعتبارا، إذ برسول المعتمد قد وافاهم برقعة مكتوب فيها:

حسَدَ القصرُ فيكم الزهراءَ ولعمري وعمركم ما أساء
قد طلّعت بها شموسا صابحا فاطلّعوا عندنا بدورا مساء^(٤٢)

وبصورها لنا السمسيسر شاعر المرية، ويجب أن يكون قد رأى هذه الانقراض في نهاية القرن الحادى عشر الميلادى، كما لو كانت شيئا قد تلاشى تقريبا:

وقفتُ بالزهراء مُستعبرا مُعتبرا أندبُ أشتاتا
فقلت: يا زهرا ألا فارجعى قالت: وهل يرجع من ماتا؟
فلم أزل أبكى وأبكى بها هيهاتُ بغنى الدمع هيهاتا
كأنما آثار من قد مضى نوادبُ يندبن أمواتا^(٤٣)

هذه الأشعار والرواية التى أوردها ابن خاقان في كتابه القلائد تبين لنا بوضوح مدى ما كانت تثيره مشاهدة الأطلال التى خلّفتها حروب «الفتنة»، والصراعات الداخلية المستمرة، من شجن في أعماق أهل الأندلس في القرن الحادى عشر الميلادى^(٤٤)، وكانوا يقيمون فيها الحفلات حيث تمتاز الأفراح

(٤٢) من الحفيف، القلائد ١٠، وعنها في نفع ٦٢٣/١ - ٦٢٤، وفي «بنو عباد» ٤٥/١، وترجمتها ص ١٠٣، وفي مناهج الفكر، انظر: نفع ٥٠٠/١، وترجمتها هنرى ماسيه، في الكتاب التذكارى لرنيه باسيه ٢٥١/١.

(٤٣) من السريع، نفع ٥٢٧/١.

(٤٤) من المحتمل أن هجر الزهراء كان سببا من بين الأسباب الأخرى في خرابها، إذ يكفى في الحقيقة أن تترك قصرا مهجورا، بدون رعاية أو عناية، لكى يسرع إليه الخراب.

بالأحزان، مما أضفى على وصفهم الأطلال إيقاعاً خاصاً بهم تماماً، ظل مجهولاً حتى أيامهم تلك. لقد كانوا يحاولون كما يقول ابن سراج، إثارة نفوسهم في جو من الود والمرح، مطلقين العنان لتأملاتهم. لقد وصف شعراء المشرق أطلال المخيمات المهجورة، غير أنهم كانوا يهدفون من وراء ذلك إلى الحديث عن الحبيبة واقفاً أو تخيلاً، أي عن ماضيهم أنفسهم. والحق أن البحترى وحده نجح في التعبير بصدق عن مشاعر الحزن التي اجتاحته أمام قصر القاطول لفقدان المتوكل^(٤٥)، ولكن حتى هذا لم يكن سوى إحياء للماضي. أما الشاعر الأندلسي في القرن الحادي عشر الميلادي فقد ذهب إلى ما هو أبعد من هذا: لم يقف عند بعث الماضي فحسب، ولكنه حاول أيضاً أن يستشف المستقبل، وكان بالنسبة لهم مليئاً بالوعيد والنذير.

لقد اختفى ملوك الطوائف الصغار واحداً تلو الآخر، وكانوا يشجعون الأدب وانفن ويرعون الشعراء والأدباء، وأشاع عبور المرابطين إلى الأندلس موجة من القلق على الغد، وغرس العذاب في قلوب الشعراء، وصاح السمسير في صرخته وهو على أطلال الزهراء: «ألا فارجمي!»، ونحن ندرك كم كان مخلصاً في دعائه!

ولم تكن الأطلال أبداً أكثر عدداً ولا أطول حديثاً عما كانت عليه في القرن الحادي عشر. ويقول ابن خفاجة واصفاً دون أن يحدد المكان، ولعله في بلنسية أو الأمانة المحيطة بها:

وَمُرْتَبِعٌ حَطَطْتُ الرَّحْلَ فِيهِ بَحِثِ الظِّلَّ وَالْمَاءَ الْقِرَاجُ
تَحْرِمُ حَسَنَ مَنْظَرِهِ مَلِيكَ نَحْرَمُ مُلْكَهُ الْقَدْرُ الْمَتَاجُ
فَجَرِيَّةٌ مَاءٍ جَدُولِهِ بَكَاءُ عَلَيْهِ، وَشَدُو طَائِرِهِ نَوَاحُ^(٤٦)

وقد أذرف السمسير، أحمد بن فرج الإلبيري، الدمع على أطلال يجب أن تكون في غرناطة أو ما حولها، وبكى ابن الحناط الأعمى أطلالاً أخرى ربنا كانت في اشبيلية^(٤٧)، وتذكر أبو الحزم ابن جهور أمير قرطبة المخلوع بهاء قصور الخلافة، وأصبحت على أيامه أطلالاً فصاح:

قُلْتُ يَوْمًا لِدَارِ قَوْمٍ تَفَانُوا أَيْنَ سُكَّانِكَ الْعِزَّازِ عَلَيْنَا
فَأَجَابَتْ: هُنَا أَقَامُوا قَلِيلاً ثُمَّ سَارُوا، وَلَسْتُ أَعْلَمُ أَيْنَا^(٤٨)

وقد زار ابن عربي مدينة الزهراء بعد القرن الحادي عشر بوقت قصير، بعد أن أصبحت خراباً، وصارت مأوى الطير والوحش، فخطب منها طائراً شجناً يغرد على غصن:

دِيَارُ بَأْتِنَافِ الْمَلَاعِبِ تَلْمَعُ وَمَا إِنَّ بِهَا مِنْ سَاكِنٍ وَهِيَ بَلْقَعُ
يَنُوحُ عَلَيْهَا الطَّيْرُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ فَيَصْتُمُ أَحْيَانًا وَحِينًا يُرْجِعُ
فَخَاطَبْتُ مِنْهَا طَائِرًا مَتَفَرِّدًا لَهُ شَجْنٌ فِي الْقَلْبِ وَهُوَ مَرُوعُ
فَقُلْتُ: عَلَى مَاذَا تَنُوحُ وَتَشِيكِي فَقَالَ: عَلَى دَهْرٍ مَضَى لَيْسَ يَرْجِعُ^(٤٩)

(٤٥) البحترى، الديوان طبعة بيروت ص ٤٤، ونفع ٥٠٣/١ و ٥٠٤. وترجمة هنري ماسيه، في الكتاب التذكاري لرنيه باسيه ٢٥٦، ١.

(٤٦) من الوافر، ابن خفاجة، الديوان، ونفع ٥٠٤/١. وترجمة هنري ماسيه في الكتاب التذكاري لرنيه باسيه ٢٥٧/١.

(٤٧) نفع ٤٨٣/١، وترجمة هنري باسيه في المصدر المذكور سابقاً ٢٥٥/١.

(٤٨) الخفيف، المطمع ١٨٦، وعنه في نفع ٥٢٥/١. (٤٩) من الطويل، نفع ٥٢٣/١.

وما كان بوسع شعراء الأندلس أن يعبروا بأفضل مما قالوا عن مشاعر الندم العميقة التي أحسوا بها، لا حزنًا على عهد الأمويين الذي ولّى من زمن بعيد فحسب، ولكن أيضًا على القرن الحادى عشر وأدركوا سحره واعين بعد أن فقدوه.

ونعتقد أن هذه الأطلال ليست بعيدة عن مشاعر الزهد التي تميزت بها حياة بعض شخصيات القرن الحادى عشر من اتخذوا الصوفية مذهبًا، وكانت هذه قد وفدت على الأندلس من قريب^(٥٠).

ثمة قصر واحد من بين القصور العديدة التي أقامها الأمويون نجا من كوارث القرن الحادى عشر، وكان يحمل اسمًا يومئى إلى خصائصه: «دمشق»، ويقول الفتح ابن خاقان إنهم شيدوه «بالصفاح والعمد، وجروا في إنقائه إلى غاية أمد، وأبدع بناؤه، وثقت ساحته وفناؤه، واتخذوه ميدان مراحهم، ومضمار انشراحهم، وحكوا به قصرهم بالمشرق، وأطلعوه كالكوكب الثاقب المشرق».

ولكننا نجهل موقعه، كما أن المؤرخين صمتوا عنه ولم يشيرُوا إليه، ولكن ابن عمّار واثته الفرصة، فتوقف به لحظة، ووضع بين حنياته حداً لحياته شريداً، وأمضى بين جنباته ليلة مع جماعة من أتباعه، وكانت فرحته غامرة حتى أنه لم يستطع أن يخفى تحمّسه:

كلُّ قصر بعد الدمشق يُذمُّ فيه طاب الجنى ولذُّ المشمِّ
منظرٌ رائقٌ وماءٌ نَمِرٌ وثرىٌّ عاطرٌ وقصرٌ أشمُّ
بَتْ فيه والليل والفجرُ عندى غنبرٌ أشهبٌ ومسكٌ أحمُّ^(٥١)

وثمة قصر آخر أشار إليه ابن خاقان في كتابه القلائد أيضاً، وهو الذى أقام فيه المعتمد عندما احتل قرطبة، وكان يحمل اسم قصر البستان، ويقع بجوار باب العطارين، وهو كما قال عنه الأمير: «حسد القصرُ فيكم الزهراء»^(٥٢) ولكننا لا نجد له ذكراً في أى مكان آخر^(٥٣).

وكانت عائلة الزجّالى، وتنحدر من أصولٍ بربرية، تملك من قديم أراضى شاسعة في ضواحي قرطبة، فحوّلتها إلى حديقة عامة حملت اسم «حَيْر الزجّالى»، وهذه أول مرة فيها نعتقد تفتّح فيها حديقة خاصة للجمهور، ويجدر بنا أن نشير إليها. إن تجميل المدن والاهتمام بها ليس وليد الماضى فحسب، ولا وقفاً على الشعوب الأوربية وحدها، كما نرى، غير أن هذه الحديقة التي تطوّقها الأسوار العالية من كل جانب لم تكن دون شك مفتوحة للناس جميعاً وإنما كانت وقفاً على المجتمع المثقف الراقى، وهو وحده الذى يستطيع أن يتردد عليها، كما هو الحال في مدينة الزهراء. وكلمة «حَيْر»^(٥٤) التي أطلقت

(٥٠) انظر ص ٣٩٦ و ٣٩٧ فيها سيأتى من هذا الكتاب.

(٥١) من الخفيف، القلائد ٨٤، وعنه في نفح ٤٧٠/١. وقد أوضح المقرئ أن هذه المقطوعة تنسب أيضاً إلى الحاجب أبى عثمان

جعفر بن عثمان المصحفى، انظر: نفح ٤٧١/١.

(٥٢) انظر ص ١١٥ فيها سبق من هذا الكتاب.

(٥٣) القلائد ١١، وعنها في نفح ٦٢٥/١، وبنو عباد ٤٦/١ - ١٠٧، وعن باب العطارين انظر: ليفى بروفنسال، إسبانيا

الإسلامية في القرن العاشر ص ٧٦ و ٢٠٥ و ٢٠٧.

(٥٤) رأينا أن كلمة «حَيْر» في صورتها العملية الخاصة، تطلق في العصر الأموى على قاعة داخل سور القصر (انظر في ما سبق

من هذا الكتاب ص ١١٣ الهامش رقم ٣٣) وهذه الكلمة نفسها، في صورتها الإيملائية ذاتها، وبالمعنى نفسه، أو بمعنى كشك، نجدها =

على حديقة، تعنى في الوصف الذى قدمه لنا ابن خاقان قاعة، وهو وصف يستحق أن نورد: «الحير الذى ذكره هنا هو حير الزجالى خارج باب اليهود»^(٥٥) بقرطبة.. وهذا الحير من أبدع المواضع وأجملها، وأتمها حسنا وأكملها، صحنه مرمر صافى البياض، يخترقه جدول كالحية النضناض، به جابية، كل لجة بها كابية، قد قربصت^(٥٦) بالذهب واللازورد سماؤه، وتأزرت بها جوانبه وأرجاؤه، والروض قد اعتدلت أسطاره، وابتسمت من كمالها أزهاره، ومنع الشمس أن ترمق ثراه، وتعتطر النسيم بهبوه عليه وسراه، شهدت له ليالى وأياما كأنما تصوّرت من لمحات الأحباب، أوقدت من صفحات أيام الشباب»^(٥٧).

ولا ترجع شهرة الحير إلى أجنحته وقاعاته وبساتينه فحسب، وإنما أيضا إلى وجود الضريحين اللذين دفن فيهما الصديقان اللذان لم يفترقا مدى حياتهما: أبو عامر بن شهيد،^(٥٨) وعرضا له من قبل، وأبو مراون الزجالى^(٥٩) صاحب هذا المكان الفاتن، وكانا «ألفى صبوة، وحليفى نشوة، عكفا فيه على جريالهما، وتصرفا بين زهوها واختيالهما، حتى رداها الردى، وعداها الحمام عن ذاك المدى، فتجاورا فى الممات تجاورهما فى الحياة». وقد أمضى ابن خاقان هناك لحظات سعيدة، وكان الوزير أبو بكر ابن القبطرنة البطليوسى يجب أن يتذكر بعد أن عاد إلى بطليوس، حفلات البهجة التى نظمها مع أصدقائه الخالص فى قرطبة:

واذكر لهم زمنا يهب نسيمه أصلا كنفت الراقيات عليلا
مولى ومولى نعمة وكرامة وأخا إخاء مخلصا وخليلا
بالخير ما عشت هناك غمامة إلا تضحك إذ خيرا وجليلا
يوما وليلا كان ذلك كله سحرا وهذا بكرة وأصيلا
لا أدركت تلك الأهلة دهرها نقصا ولا تلك النجوم أفولا^(٦٠)



وكانت توجد خارج قرطبة بعض المتنزعات التى ورد ذكرها فى عدد من قصائد ابن زيدون. نول فى إحداها:

= عد أبى الوليد الحميرى، المتوفى نحو ٤٤٠ هـ = ١٠٤٨ م، فى كتابه البديع فى وصف الربيع، ص ١٩، ولكنها تعنى قعة خاصة فى بستان. ويبدو أن لفظى «حائر» و «حير» مترادفان، وأن الأول منها الأقدم فى الاستعمال. (انظر فيما سأتى من هذا الكتاب ص ٢٢٠ و ٢٢٢).

(٥٥) عن هذا الباب، ويطلق عليه كثيرا اسم باب الهدى، لتجنب استخدام كلمة اليهود، انظر: ليفى بروفنسال، إسبانيا الإسلامية ص ٢٠٧، الهامش رقم ٣.

(٥٦) هذا الفعل مبنى للمجهول، ولكنه إملايا موضع شك، فنحن نجد على النحو التالى: فى القلائد، طبعة باريس ومرسيليا، قربص، وكذلك فى نفح ٦٣٥/١. وقرنس فى القلائد، طبعة بولاق، ص ١٥٣، وانظر أيضا: دى خويه، معجم رحلة ابن جبير ٤٤، والذخيرة السنية ٥٥.

● قلت: لا أعرف فى اللغة «قربص» بهذا المعنى، وإنما هناك «قرنس» السقف والبيت، أى زينه بخارج منه ذات تدريج متناسب. (المترجم).

(٥٧) القلائد ١٥٣، وعنها فى نفح ٦٣٥/١، وانظر أيضا: ياقوت، معجم البلدان ٣٧٤/٢، مادة حير الزجالى.

(٥٨) أورد لنا القلائد ص ١٥٢، ونفح ٦٣٦/١. الأبيات التى أوصى ابن شهيد بأن تكتب على قبره.

(٥٩) طبقا لابن بسام فإن صديق ابن شهيد وصاحب البستان، كان يكنى أبا الوليد، الذخيرة ٢٣٣/١.

(٦٠) من الكامل، القلائد ١٥٢ - ١٥٣، ونفح ٦٣٤/١.

فما حال من أسمى مشوقاً كما أضحي
أخصُ بمحوضِ الهوى ذلك السفحا
دواعي ذكرى تعقبُ الأسفَ البرحا
لقلبي لا تالو زناد الأسي قدحا
فأقبل في فرطِ الولوعِ به نُصحا
نزال عتابٍ كان آخره الفتحا
سفيرُ خضوعِ بيننا أكَّد الصلحا
فبالا يكن ميعاده العيد فالنصحا^(٦٢)
معاطاة ندمانٍ إذا شئت أو سبحا
قواريرُ حُضرِ خلتها مُردت صرعا^(٦٣)
أجلت المعالي في الأمانى بها قدحا

لأقصرُ من ليلي بآتة فالبطحا^(٦٤)

زكتُ وعلى وادى العقيق سلام
بأرجائها يبكي عليه غمام^(٦٥)

وفى موشحة أطول من أن نأتى عليها هنا، يتحدث فى الدور السادس منها عن «البنى» على شاطئ الوادى الكبير، وفى السابع عن «جوفى الرصافة» و«روض الأقحوان»، وفى الثامن عن أيام «العقاب»، وفى التاسع، وهو الدور قبل الأخير، عن «العقيق» وجسره^(٦٦). وفى موشحة أخرى أطول من التى سبقت يذكر فى الدور السابع «العقيق» و«الرصافة» و«الجعفرية»، وفى الثامن يأتى على ذكر «العقيق» ثانية، وفى التاسع يشير إلى «عين شهدة»، وفى العاشر إلى «الجسر» و«الجوسق النصرى» و«الوعساء»، وفى الحادى عشر إلى «مضيعة الدولاب» و«قصر ناصح»، وأخيراً فى الدور الثانى عشر يشير إلى مدينة الزهراء^(٦٨).

(٦١) يذكر الإدريسي فى رحلته بالمركب من إشبيلية إلى قرطبة أن آخر مكان توقف به قبل أن يصل إلى المدينة «طواحين ناصح» انظر: وصف أفريقيا وإسبانيا، ص ٢٠٧ - ٢٠٨، والترجمة ص ٢٥٦، وكتاب فون شاك، ترجمة خوان باليرا، شعر العرب وفنهم ٨٣/٣، اعتماداً على ويمبيرس Specimen de ibn Zeidumo، ص ٥٤٢.

(٦٢) عن الأعياد المسيحية التى كان يحتفل بها المستعربون والمسلمون، انظر ما سبأنى فى هذا الكتاب ص ٢٧١.

(٦٣) اقتباس واضح من الآية القرآنية رقم ٤٤ من سورة النمل، وانظر فيها سبق ص ١١٤ الهامش رقم ٣٩ من هذا الكتاب.

(٦٤) انظر فيها سبق من هذا الكتاب ص ١١٤ الهامش رقم ٣٩.

(٦٥) رواية ياقوت فى معجم البلدان، ٧٨٧/٢، «المنت السعدى»، بدل «الثغب الشرقى».

● قلت: فى الذخيرة ٤٢٢/١ «دائرة الشرقى» وفى الديوان ص ١٥٢ «الثغب الشهدى» (الترجم).

(٦٦) من الطويل، الديوان ١٥٢.

(٦٧) الديوان ١٢٨ وما بعدها، وكور، ابن زيدون ص ١٥٢، وقرأ «العفاف» بدل «العقيق»، واعتبرها صفة.

(٦٨) الديوان ١٣٢ وما بعدها، وكور، المصدر السابق ١٥٣.

خليلى لا فطرُ يسرُ ولا أضحي
لئن شاقنى شرق العقاب فلم أزل
وما انفك جوفى الرصافة مُشعري
ويحتاج قصر الفارسى صابة
وليس ذميما عهد مجلسِ ناصح^(٦١)
كاننى لم أشهد لدى عينِ شهدة
وقائع جانبها التجنى فإن مشى
وأيام وصل بالعقيق اقتضيته
وأصال لهو فى مُسناة مالك
لدى راكض تصيبك من صفحاته
معاهد لذات وأمطار صبوة

أجل إن ليلي فوق شاطئ نيطة

ويقول فى مطلع قصيدة أخرى:

على الثغب الشرقى^(٦٥) منى تحية
ولا زال نور فى الرصافة ضاحك

ويمكن أن نجمع أسماء كل هذه الأماكن على النحو التالي:

الرصافة والعقيق والعقاب، أو شرق العقاب، وقصر الفارسي، ومحبس ناصح، أو قنطرة ناصح، وعين الشهيد، ومُسْنَد مالك، ووادي نيطه والبطحاء، والجعفرية، والجسر، والجوسق النصري^(٦٩)، والوعساء، ومضيعة الدوالب. وباستثناء الأول والثاني منها فإن البقية لا نجد لها ذكراً عند غير ابن زيدون. أتراها كانت من اختراعه؟ الأقرب إلى المنطق فيما يبدو لي أن نفترض أن هذه الأماكن كلها كانت توجد في الفترة التي كان يتردد فيها عليها مع ولّادته، ولكنها منذ نهاية القرن الحادي عشر لم تعد تشد انتباه الفُرَّاغ من شباب قرطبة.

أما الرصافة فاسمها خالد حتى يومنا هذا، وبقي في اللغة الإسبانية في صورة Arruzafa، وكان عبد الرحمن الداخل هو الذي أعد هذا المنتزه في شمال غربي قرطبة لراحته الشخصية، وأطلق عليه هذا الاسم تيمناً بالرصافة في سوريا، ولم يبق من هذه المنية، بعد فترة الاضطرابات التي أتت على خلافة الأمويين في القرن الحادي عشر، إلا بعض هياكل المباني المنهارة، وقد قام أتباع واضح الصقلي عام ٤٠١ هـ = ١٠١٠ م^(٧٠) بتدمير الحديقة التي غرس فيها أول أمير إسباني بعض الأشجار السورية، ومن بينها أشجار الرمان، وتميزت بكبر ثمارها، ولذّة مذاقها^(٧١)، ولاقت طبعاً نفس مصير حديقة الزهراء.

ونعرف أن الزوّار كانوا يترددون على وادي العقيق الذي ذكره ابن زيدون، ولكننا لا نعرف أين كان موقعه بالدقة^(٧٢).

أما منية الناعورة التي أقامها عبد الرحمن الناصر بجوار الوادي الكبير، وترونها ناعورة، فقد دمرتها أيضاً قوات واضح الصقلي عام ٤٠١ هـ = ١٠١٠ م في نفس الوقت الذي أتت فيه على الرصافة^(٧٣)، ولم يبق شيء من الزاهرة والعامرية، وقد بكاهما ابن شهيد^(٧٤)، والمصير نفسه لاقته منية السرور^(٧٥) ومنية نصر^(٧٦).

(٦٩) تستخدم كلمة جوسق في المشرق أيضاً، وتطلق على القلاع، فهناك مثلاً: الجوسق الجعفري، وهو اسم لإحدى فلاع المتوكل في سمراء (المسعودي، مروج الذهب ٢٧٦/٧ و ٢٩٠ و ٣٥٠)، والجوسق الحدث في بغداد (آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ٣٦٢، والترجمة الإسبانية لسلفادور فيلا ٤٥٩)، وانظر أيضاً مصادر أخرى ذكرها ح. الزيات، في مجلة المشرق، المجلد ٤٥، العدد ١، يناير - مارس ١٩٥١، ص ٥ - ٦.

(٧٠) حول تدمير منية الرصافة انظر: البيان المغرب ٩٩/٣ و ١٠٢.

(٧١) فيما يتصل بمادة هذا الموضوع انظر: نفح ٤٦٧/١، وأيضاً ليفي روفنسال، إسبانيا الإسلامية ٢٢٤.

(٧٢) يذكرون في القرن الثاني عشر أنه كان بجوار قصر الرصافة، وذلك في زجل لأبي القاسم بن عبيد الرياحي (انظر: نفح ٤٧٩/١)، وفي كنز الآداب، في قصيدة لأبي القاسم عامر بن هشام القرطبي أورد فيها متنزهات قرطبة (نفح ٥٤٢/١).

(٧٣) انظر: البيان المغرب ٩٩/٢، ١٠٢، وانظر فيما سبق الهامش رقم ٧٠، وانظر أيضاً: ليفي روفنسال، إسبانيا الإسلامية ص ٢٢٤، ونفح ٥٤٤/١، وأعمال الأعلام ٧٨، وتاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٢ ص ١٨٦. ومع ذلك يذكر القاسم بن عبيد الرياحي في زجل له مكاناً يسمى النواعير، وهو مكان آخر مختلف عن الناعورة فيما يبدو.

(٧٤) انظر فيما سبق ص ١١٢ من هذا الكتاب، البيت رقم ١٥، وانظر أيضاً: ليفي روفنسال، إسبانيا الإسلامية ٢٢٩ - ٢٣٠.

(٧٥) كان داخل نطاق الزاهرة حيث توجد منية السرور، انظر: نفح ٥٨٤/١.

(٧٦) أقامها الخليفة عبد الله بن محمد على شاطئ الوادي الكبير، شرقي قرطبة، انظر: الروض المطار رقم ١٨٠ ص ١٨٧.

٢٢٦ - ٢٢٧.

غير أن المنية المصحفية، وبناها الحاجب جعفر المصحفي في القرن العاشر الميلادي، ونُسبت إليه، ثم انتزعها منه المنصور بن أبي عامر نجت من الخراب، وبقيت قائمة إلى القرن الذي تدرسه، لأن حفيد جعفر المصحفي أبو بكر محمد بن أحمد بكأها في أبيات له:

قف قليلاً بالمصحفية واندب مقلّة أصبحت بلا إنسان
واسألّها عن جعفر وسطاه ونداه في سالف الأزمان
جعفرٌ مثل جعفر حكم الدهر رُ عليه بعُصرة وهوان
ولكُم حذر الردى فصمنا لا أمان لصاحب السلطان
بينما يعتلى غدا خافضاً من هُ اكتساب لكفة الميزان^(٧٧)

اختفت منتزهات كانت معروفة في العصر الأموي، وظهر غيرها مما أنشأه المرابطون في نهاية القرن الحادى عشر، مثل منية الزير، التي بناها الزبير بن عمر بن المثلث وإلى قرطبة، واشتهرت بأن أشجار اللوز فيها تقوم أسطرا، وقد وصفها ابن بقی الشاعر لحظة تفتح نوارها، في أبيات من الشعر حفظها لنا المقرئ في نفح الطيب، وسوف نوردها عند حديثنا عن الأشجار^(٧٨).

ولم تنتشر طريقة إعطاء مواعيد التلاقي عند الجسور إلا ابتداء من القرن الحادى عشر، ويشير ابن زيدون في بيتين من شعره، بمناسبة الحديث عن مُسنّة مالك، إلى ما كانوا يبتغون ويفعلون بجوار البحيرات الصناعية: يشربون تحت المظلات المقامة على الشاطئ، ويأخذون بحظهم من متعة السباحة أو التجديف، وكان يطلق على هذه الجسور في معظم الأحيان اسم «سُدّ» أو «أرحاء»، أى الطواحين، لأن المياه المحتجزة كانت تستخدم في تشغيل طواحين القمح، ويجب أن يكون عدد هذه قد تضاعف في القرن الثانى عشر الميلادى^(٧٩).

وكانت قرطبة أكثر إقبالا على العلم ودراسة له من إشبيلية، وجذبت أشخاصا كثيرين للإقامة بها رغم أن مرورهم بها كان عابرا في البدء، ولكنها استطاعت أن تغريهم بالكثير من المتع في إطار من الطبيعة النضرة، وكان العلم أحد الأشياء الأربعة التي فاقت بها الأمصار قاطبة، ولكن ذلك لم يكن في الحقيقة إلا في القرن العاشر الميلادى. أما تحت حكم الطوائف فأصبحت الحياة في العاصمة القديمة بعد سقوط الخلافة أشد صرامة، وأكثر تقشفا، مما كانت عليه في بقية العواصم الأخرى، كإشبيلية مثلا، والتي كانت قد انفتحت على المرح والبهجة، والقرطبيون الذين اضطرتهم ظروفهم الصعبة إلى ترك مسقط رأسهم، ووطنهم المختار، عبروا عن حسراتهم في أشعار ذات مذاق خاص. ويروى أن أبا بكر المخزومي، وكان لاجئا في طليطلة، استقبل الشيخ أبى بكر بن سعادة مع أخيه، فسألها: من أين؟

(٧٧) من الخفيف، نفح ٤٧١/١. «ومقلّة بلا إنسان» أى «حديقة بلا صاحب».

(٧٨) انظر: نفح ٤٧١/١ و ٥٨٤. وسوف نذكرها بمناسبة الحديث عن الأشجار.

(٧٩) اشتهرت السدود والأرحاء في قرطبة في القرن الثانى عشر. انظر: نفح ٤٧٥/١ وما بعدها. ونشك في أن لها المعنى نفسه عند ابن زيدون. وسوف نعود للحديث عن السدود عند دراسة مدن أخرى في إسبانيا الإسلامية. وبعض المنتزهات حول قرطبة لم تكن معروفة فيها يبدو حتى القرن الثانى عشر، مثل: فحص السراذق والمرج النضير (ويُدعى أيضا مرج الخبز)، ومرج الحصب، والتواعر، والروض الشرق، ووادى اللير، ويطحاء عبدون (انظر: نفح ٤٧٢/١ - ٤٨١ و ٥٤١ - ٥٤٣). وقد اشتهر المرج النضير بالإوز الذى يسيح فيه، يرح وينثر ما عليه من الماء فوق المرج، والمرج قد أحرق به الوادى. انظر: نفح ٤٧٣/١ - ٤٧٤.

فقالا: من قرطبة، فقال: متى عهدكما بها؟ فقالا: الآن وصلنا منها. فقال: اقربا إلى أسم نسيم قرطبة، فقرينا منه، فشَمَّ رأسى وقبله، وقال لى: أكتب:

أقرطبةُ الغراء هل لى أوبةٌ إليك، وهل يدنو لنا ذلك العهدُ
سقى الجانبَ الغربى منك غمامةٌ وَقَعَقَ في ساحات دُوحاتك الرعد
لياليك أسحارُ وأرضك روضةٌ وَتُرَبِّك في استنشاقها عَنبرٌ وَرَدٌ^(٨٠)

وقد غمرت ابن درّاج القسطلى مشاعر حية متوهجة، كما لو كان يصدد امرأة معبودة:
قلّ للربيع اسحب مُلاء سحابٍ فاجرر ذبولك في بحر ذوائبى
وامزج بطيب تحتي غدق الحيا فاجعله سقى أحبتى وحبايى
عهدا لعهدك من عهد طالما كسبت البرود معاهدى وملاعى
واجنح لقرطبة فعانق ترابها عنى بمثل جوانحى وترائى^(٨١)



وقد احتلت إشبيلية في القرن الحادى عشر المكان الذى كانت تحتله قرطبة في القرن الذى قبله، وعرضنا في المقدمة للدور السياسى الذى كان بنو عباد يؤملون أن تلعبه إمارتهم، وأصبحت عاصمتها إشبيلية أهم مركز للنشاط السياسى والثقافى في جنوب إسبانيا كله، وجذبت إليها عددا كبيرا من السكان، وشجعهم على ذلك خصوبة تربتها، وسهولة المواصلات إليها بحرية وبرية^(٨٢)، وكان يروها الوادى الكبير، شأنها في ذلك شأن قرطبة، ولكن النهر هنا يمتد إلى أعالي المدينة، ويب أهلها جزرا صغيرة، وشواطئ أكثر ملائمة للبهجة والمرح.

نعم إن الجبل بعيد، ولكن سلسلة جبال الشارات اقرية جدا من قرطبة تبعد كلما اقترب الوادى الكبير من المحيط، وتتكون في الأطراف بعض الوديان التى تؤدى إلى الشرف تحت ظلال نضيرة. وعندما أخذ ابن الحصن بجمال أشعة الشمس تتناثر وراء الشرف صاح:

ذكرتك يا حصّ ذكرى هوى أمانت الحسود وتغيبته
كأنك والشمس عند الغروب عروس من الحسن منحوتة
غدا النهر عقدك والطود تاجك والشمس في أعلاه يا قوته^(٨٣)

(٨٠) من الطويل، نفح ١٥٥/١ و ١٧٦. وقد أشرنا فيما سبق ص ١١٨ من هذا الكتاب، كيف أن أبا بكر بن القبطرنة كان يتذكر اللحظات الحالية في قرطبة ويحن إليها، وبخاصة ما كان منها في حير الرجال. وفي مطلع القرن الثانى عشر عبر القاضى عياض، بعد إقامة طويلة في قرطبة عاد بعدها إلى المغرب، في بيت من الشعر، عما أحس به من حزن عميق، لافتراقه عن أصدقائه القرطبيين، واعتبرهم أهل وأقاربه، والقطعة في سبعة أبيات من بحر الطويل. القلائد ٢٢٤.

(٨١) ديوان ابن دراج، القطعة ٤٥، ص ١٢٨، وبلاشير، ابن دراج القسطلى، في مجلة هيسبيريس، المجلد ١٦، عام ١٩٣٣، من ١١٤. وهى الأبيات: ١ و ٤ و ٥ و ٦.

(٨٢) انظر وصف إشبيلية عند وصول يوسف بن تاشفين إليها في: نفح ٣٦٢/٤، وعنه في «بنو عباد» ٢٥٠/٢.

(٨٣) انظر فيما سبق ص ١٠٩ من هذا الكتاب.

ومثل هذا التشبيه نجده في موشحة أنشدها أحد الوشاحين يمدح بها المعتضد بن عباد:

إشبيليا عروُسا وبَعْلُها عَباد
وتأجُها الشَّرَف وسلُكُها الواد^(٨٤)

وحتى القرن الحادى عشر لا يذكر لنا الشعراء شيئا عن قصور إشبيلية، رغم أن عددا من العائلات العريقة كان يسكنها، أمثال: بنى خلدون، وبنى حجاج، وكانوا في نهاية القرن التاسع الميلادى ومطلع العاشر يعيشون حياة حافلة بالترف والبذخ. وبعد أن حقق الخليفة عبد الرحمن الناصر وحدة الدولة، وثبت دعائمها المنصور بن أبى عامر، اندثر أمراء الأقاليم ومعهم كل القصور تقريبا، وتحول عدد منها يكثر أو يقل إلى قلاع.

ويجب أن نبلغ عصر المعتضد إذا أردنا أن نجد عند المؤرخين، وجامعى المختارات الأدبية، ذكرا أو وصفا للقصور الملكية في إسبانيا.



في تاريخ المعتضد، وبخاصة عند الحديث على خلافه مع ابنه إسماعيل، نجد إشارة إلى قصر الزاهر أو حصن الزاهر، ولم يكن يقع داخل المدينة، وإنما خارجها، في الجانب الآخر من النهر، على الشاطئ الأيمن، في مواجهة القلعة والمراكب التى تنقل العابرين بين ضفتى الوادى الكبير^(٨٥).

وعندما خلف المعتمد أباه المعتضد فكّر في بناء قصر جديد لإقامته يختلف عن قصر أبيه، وكان البذخ الملكى يجعل من مثل هذه الأبنية ضرورة حتمية، ومن المحتمل أن يكون وراء ذلك صعوبة أن تقيم نساؤه في نفس المكان الذى توجد فيه أصلا نساء الأمير المتوفى، مما يجعل انتقال الوارث إلى قصر آخر أمرا ضروريا.

وقد ذكر المعتمد نفسه عدد هذه القصور كاملا، وقاعات الاستقبال، في أبيات تمتاز بالخواطر التنجيمية، نظمها أثناء أسره في أغمات:

بكى المبارك في إثر ابن عباد بكى على إثر غزلان وآساد
بكت ثريّاه لاغمت كواكبها بمثل نوء الثريا الراح الغادى^(٨٦)
بكى الوحيد، بكى الزاهى وقبته والنهر والتاج، كل ذلّه بادى
ماء الساء على أقيائه درر يالجة البحر دوى ذات إزباد^(٨٧)

ونستطيع أن نكمل القائمة من أشعار المعتمد نفسه:

فياليت شعرى هل أبيتن ليلة أمامى وخلفى روضة وغدير

(٨٤) انظر فيما سبق ص ١١٠ والملمش رقم ١٩ من هذا الكتاب.

(٨٥) الذخيرة ١٦٦/٢، وعنها في «بنو عباد» ٢٥٧/١، والترجمة ٢٩٢، وتاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ٦٥.

(٨٦) يتلاعب الشاعر هنا بكلمة «الثريا»، فهي اسم القصر، وهى في الوقت نفسه اسم نجم في السماء. والنوء غروب النجم في المغرب مع الفجر مع طلوع آخر يقابله في المشرق. انظر: موتيلينسكى، المطالع القمرية ٤ رقم ١. ويؤثر هذا النجم في الفترة بين شروقه وغروبه في الظواهر المناخية: المطر، والعواصف، والبرد، والحر، وغيرها. نفس المصدر ص ٨.

(٨٧) من البسيط، القلائد ٢٤، وعنها في نفح ٢٧٤/٤، وبنو عباد ٦١/١، والترجمة ١٤١ - ١٤٣.

بُنيّة الزيتون مورثة العلا يُغنى حمام أو تدن طيور
بزاهرها السامي الذي جاده الحيا تشير الثريا نحونا ونشير
ويلحظنا الزاهي وسعد سعوده غيورين والصبّ المحب غيور
تراه عسيرا أو يسيرا مناله ألا كل ما شاء الإله يسير^(٨٨)

ونفهم من هذه الأبيات أن المعتمد كان يتردد على الزاهر قصر والده، ولكنه أقام قصرا صغيرا لاستعماله الشخصي على الضفة الأخرى من الوادي الكبير، أسماء الزاهي، ويقول الفتح بن خاقان إن المعتمد كان يفضل هذا القصر لأنه يطل على الهر^(٨٩) والقصر الكبير، ويستطيع فيه أن ينطلق بلا حدود مع مباهجه المتنوعة. وحاول المؤرخ نفسه أن يعطينا فكرة عن ارتفاع قصر الزاهي، فوازن بينه وبين قلعة حلب التي عاش فيها بنو حمدان، وبينه وبين قصر غمدان، وتاريخ هذا غامض إلى حد ما، وإنما اشتهر لارتباطه بأسطورة سيف بن ذي يزن، ولا نستطيع الشك في أن الزاهي كان يطل على الوادي الكبير، لأننا نتذكر في الحقيقة قصة المعتمد حين ألقى من فوقه بالمطربة البربرية التي جرّوت على السخرية منه وهي تمدح المرابطين^(٩٠).

كان قصر الزاهي يضم قبة مشهورة يُطلق عليها اسم «سعد السعود»، وذات يوم أنشد المعتمد شطر هذا البيت:

سعد السعود يتيه فوق الزاهي

ثم استجاز الحاضرين فعجزوا، فصنع ولده عبيد الله الرشيد:

وكلاهما في حسنه مُتناهي

ومن اغتدى سكنا لمثل محمد قد جلّ في العُليا عن الأشباه
لازال يبلغ فيهما ما شاءه ودهت عداؤه من الخطوبِ دواهي^(٩١)

ويمكن القول إن المعتمد كان سعيدا بأن يسمع ابنه يشرك أمه اعتمادا الرميكية في بهجة هذا الاجتماع، ولكن ذلك لا يسمح لنا أبدا بأن نظن أن الملكة كانت تقيم داخل هذا القصر الصغير. ولم يكن المعتمد يتردد على قصر الزاهي إلا في الحفلات الخاصة به، التي يقيمها فيه، أما القصر

(٨٨) من الطويل، القلاند ٢٤ - ٢٥، وعنها في نفع ٢٧٥/٤ - ٢٧٦، وبنو عباد ٦٣/١، والترجمة ١٤٥ - ١٤٦، والذخيرة ٧٥/٢، وعنها في «بنو عباد» ٣١٨/١، والترجمة ٣٦٤، وتاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ١٧٤. وبعد أن ذكر ابن بسام الأبيات في المصدر المشار إليه آنفا، علّق عليها قائلا: «والثريا وسعد السعود والزاهي الذي ذكر في هذا الشعر أسماء قباب ومصانع سلطانية كان تأنق في بنياتها من قصور إشبيلية».

(٨٩) ربما كان موضعه مكان برج الذهب الحالي، ونحن نعرف أن برج الذهب لم يكن قد بنى حتى مستهل القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي، حيث شرع في بنائه حاكم إشبيلية أو العلّاء. انظر: روض القرطاس، نص تورنبرج ١٦١، وترجمة بومييه له ٣٤٥.

(٩٠) انظر فيما سبق ص ٢٠ من هذا الكتاب.

(٩١) نحن مرة أخرى بإزاء تنجيّات فلكية، فبعد السعود منزل القمر الرابع والعشرين، ويعتبره العرب مواليا ومسعدا للفاية انظر: موتيلينسكي، المطالع القمرية ٥٠، وأيضا في أمكنة مختلفة في: تالجرين، النجوم، ٣٠ رقم ٦ و ٣١ رقم ٨، و ٦٥.

(٩٢) من الكامل، البدائع ٨٦، وعنها في نفع ٦١٢/٣، والحلة ٦٩/٢، وعنها في «بنو عباد» ٧٣/٢.

الذى اتخذها مقرا له مع نسائه وكل جهازه الإدارى فيقع فى نطاق الدائرة الحصينة التى كان الزاهى يشغل طرفا منها، وتحمل هذه القصور أسماء المكرم والمبارك^(٩٣).

ولا نعرف عن المكرم إلا شيئا قليلا، يحكى ابن خاقان عن ذى الوزارتين أبى بكر ابن القصيرة، «أنه كان بغرفة القصر المكرم مقيما لرسوم المعتمد وحدوده، ومنشأ لمخاطباته وعهوده، فى اليوم الذى خرج فيه ابن عمار إلى شلب معه، مفتقدا لأعمالها، مسددا أغراض عمالها»^(٩٤). ونعرف أيضا من الذخيرة لابن بسام أن المعتمد فى عام ما ترك قصر المبارك لبعض الوقت، وأقام فى قصر المكرم، فأثار ذلك فى نفس الكاتب الوزير أبى جعفر بن أحمد أن ينشئ رسالة على لسان القصر الأول يناجى فيها القصر الثانى، وأخرى على لسان الثانى يرد فيها على الأول، ولكننا لا نخرج من هذا السجع إلا بمعلومة ضئيلة، وهى أن المكرم أحدث عهدا فى بنائه، وأن الحديقة التى تحيط به تنص بالأزهار من كل لون وصنف^(٩٥).

أما المبارك فهو دون أدنى شك القصر الذى بقى حتى يومنا هذا بعد إصلاحه وترميمه، وحمل اسم القصر ALCÁZAR علما حتى فى اللغة الإسبانية ويرجع بناؤه إلى أيام المعتضد، ولو أن هذا كان يفضل عليه الزاهر، وقد خص المعتمد قصر المبارك بكل عنايته ليجعل منه قصرا رائع الجمال، جديرا بإقامته، ولكن المؤرخين الذين تحدثوا كثيرا عن قصور الأمويين فى قرطبة صمتوا عن القصر فى إشبيلية، ولم يقولوا عنه شيئا. ولا نجد عند مؤلفى القرنين الثانى عشر والثالث عشر إلا فقرات قصيرة، نفهم منها أن ابن عمار سجن بعد خيانتة فى إحدى الغرف، فوق باب قصر المبارك، وأن جنته دفنت بجانبه^(٩٦)، ويؤكد عبد الواحد المراكشى أن هذا القصر كان قائما على أيامه^(٩٧). ويروى ابن الأبار أنه عندما كان يطلب العلم فى إشبيلية عام ٦١٥هـ = ١٢١٨م كان أحد أحياء المدينة يسمى حومة قصر المبارك^(٩٨).

ولكن الشعر لم يلزم الصمت لحسن الحظ، يقول ابن زيدون عندما كان وزيرا للمعتمد فى قصيدة توجه بها إلى الأمير:

أما «الثرى» فالتريا نسبة	وإفادة وإنافة وجمالا
قد شاقها الإغيا حتى إنها	لو تستطيع سرت إليك خيالا
رفه ورودكها لتغنم راحة	وأطل مزاركها لتنعم بالا
وتمثل القصر المبارك وجنة	قد وسطت فيها الثريا خلا
وأدر هناك من المدام أنما	أرجا زكا، وأشفها جر يالا
قصر يقر العين منه مصنع	بهج الجوانب لومشى لاختالا

(٩٣) انظر: ملتشور م. أنتونيا: إشبيلية وأثارها العربية، الفصل الثامن ص ٦١ - ٨٣.

(٩٤) القلائد ٥، وعنها فى «بنو عباد» ٣٨/١، والترجمة ٨١.

(٩٥) الذخيرة ٧٥٩/٣، وبنو عباد ١٤١/١، الهامش رقم ٤٠٦.

(٩٦) المراكشى، المعجب ١٢٥، وترجمة فنيان له ١٠٩، والقلائد ٨٣، فى بدء تعليقه على ابن عمار.

(٩٧) المعجب ١٢٩، وترجمته ١٠٧.

(٩٨) نفح ٦٥/٣.

لازَلْتُ تَفْتَرِشُ السَّرُورَ حَدَائِقًا فِيهِ، وَتَلْتَجِفُ النِّعِيمَ ظِلَالًا^(٩٩)
ونفهم بوضوح من البيت الرابع من الأبيات التي أوردناها، أن الثريا كانت قاعة فخيمة تقع في
وسط المبارك مثل برج وإذا قارنا البيت السادس من هذه القصيدة بالبيت الثاني من قصيدة المعتمد
التي ذكرناها فيما سبق (ص ١٢٣) نفهم أن الثريا كانت تحيط به كذلك قاعات صغيرة كما تلتف
النجوم حول الثريا في السماء.
وسرى الآن كيف أن القصيدة التي وصف فيها ابن حمديس القاعة الرئيسية وقبتها تمثل وثيقة ذات
أهمية بالغة:

وباحبذا دار قصى الله أنها
مقدسة لو أن موسى كلمه
وماهى إلا خطة الملك الذى
إذا فتحت أبوابها خلت أنها
وقد نقلت صناعاتها من صفاته
فمن صدره رجا ومن نوره سنا
فأعلت به في رتبة الملك ناديا
نسيت به إيوان كسرى لأننى
كان سليمان بن داود لم ينبغ
ترى الشمس فيه ليقة تستمد لها
لها حركات أودعت في سكونها
ولما عشنا من توقد نورها

يُجَدِّدُ فِيهَا كُلَّ عَزٍّ وَلَا يَبْلَى
مَشَى قَدَمًا فِي أَرْضِهَا خَلَعَ النُّعْلَا^(١٠٠)
يَخْطُ إِلَيْهِ كُلُّ ذِي أَمَلٍ رَجُلًا
تَقُولُ بِتَرْحِيبٍ لِدَاخِلِهَا أَهْلًا
إِلَيْهَا أَفَانِينًا فَأَحْسَنْتِ النُّقْلَا
وَمِنْ صِيْتِهِ فَرَعًا وَمِنْ حِلْمِهِ أَصْلًا
وَقُلَّ لَهُ فَوْقَ السَّمَاءِ أَنْ يُعْلَى
أَرَاهُ لَهُ مَوْلًى مِنَ الْحُسْنِ لَامِثًا
مَخَافَتُهُ لِلْجَنِّ فِي صُنْعِهِ مَهْلًا
أَكْفُ أَقَامَتْ مِنْ تَصَاوِيرِهَا شَكْلًا
بِمَا تَبِعَتْ فِي نَقْلِهَا يَدُ رَجُلًا
تَخْذُنَا سَنَاهُ فِي نَوَاطِرِنَا كَحَلَا^(١٠١)



(٩٩) من الكامل، انظر: ابن زيدون، الديوان ٥٢٠ - ٥٢١. لم نلاحظ أن الأبيات الثلاثة الأولى من هذه القطعة، وتفسير كور
وترجمته لها مما يمكن الدفع عنه فيها نرى.

(١٠٠) إشارة إلى الأسطورة الإسلامية التي تجعل موسى يصل إلى منطقة طنجة، وحيث يوجد جبل يجعل اسمه. جبل موسى.
(١٠١) من الطويل، انظر: ابن حمديس، الديوان، طبعة شيمير للقطعة ٢٤٨، الأبيات ٣٥ - ٤٣ و ٤٨ - ٤٩ و ٥٦، ونفح
٤٩١/١، وترجمة هنري باسيه في تكريم ريتيه باسيه ٢٣٨/١، والنص وترجمته لإمير في «مختارات عربية» ٩٤ - ٩٧، والتويري،
نهاية الأرب، ط ٢ ج ١ ص ٣٩٢.

يشير المؤرخون وجامعو المختارات إلى قصور ومنايا أخرى في إشبيلية: دار المزينية، وكانت قصرا يلود به المعتمد للشراب. وكان
ذخر الدولة أخوه من أمه يتردد عليه أيضا، ولا نجد لهذا القصر ذكرا في غير القلائد (انظر: نفح ٢٧٨/٤ نقلا عن القلائد، وبو عباد
٤٣/١ و الترجمة ٩٨). وبعض طبعات القلائد تورد الاسم في صورة مزية. وهناك منية الوزير أبي مروان بن الدب، صهر الفقيه أبي
أيوب بن أبي أمية، وتطل على الوادي الكبير، وفيها استقبل حماء عندما أعرس بينته، ومثل بقية المنايا بها حديقة تشتمل على بدائع
الزهر، وطرق تعبق بأريج العطر. (انظر: المطمح ٢١٧، وعنه في نفح ٥٥٠/٣). وأنشأ المعتمد فوق مكان البحيرة الكبرى، بعد أن
جففوها تماما، بساتين وحدائق مخضرة، وفي وسطها قاعة للراحة. وذات ليلة فاجأ ذخر الدولة أخاه فيها وهو «وجم، ودمعه منسجم،
وزفراته تترجم عن غرام، وتجمجم عن تملز مرام»، (انظر فيما سيأتي ص ٤٠٣ الهامش رقم ١٥٦ من هذا الكتاب) وفي عهد الخليفة
الموحدي أبي يعقوب يوسف أقيم في المكان نفسه قصر منيف، ونعتقد أن ترجمة دوزي لهذا التعبير بحمام عظيم غير مقبولة، (انظر: بنو
عباد ٩٧/١ والهامش ١٢٦). وانظر: القلائد ٩ - ١٠، وعنها في نفح ٢٨٠/٤، وملتشور م. أنتونيا، إشبيلية وأثارها
العربية ٤٥ - ٤٦ و ٧٣ و ٧٥ - ٧٨ و ٨١، وغيرها. وهو يعتمد على المؤرخ ابن صاحب الصلاة.

وكان في ضواحي إشبيلية مثل ما كان في ضواحي قرطبة أماكن للتنزه، يذهب إليها السكان طلبا للمرح والراحة، وفوق صفحة الوادي الكبير يتناثر عدد من الجزر الصغيرة تجذب إليها عشاق الحياة، وفوق أرضها أقيمت بعض المنشآت المؤقتة دون شك، ولكنها ثبتت مع الزمن، حيث يجد المترددون عليها الطعام والشراب.

وإحدى هذه الجزر كانت تدعى شَنْتَبُوس، وفوقها أقيم برج تنعكس أضواؤه ليلا على صفحة النهر، وحدث أن اقترب قارب من هذه الجزيرة، وفيه شخص من المرية كان لاجئا في إشبيلية، وحين اجتاحه الحنين لبلده أخذ يتغنى بهذين البيتين من زجل:

خَلَيْنَ مِنْ وَاذٍ وَمِنْ قَوَارِبٍ وَمِنْ نَزَاهَا^(١٠٢) فِي شَنْتَبُوسٍ
غَرَسَ الْحَبِيقُ الَّذِي فِي دَارِي أَحَبُّ عِنْدِي مِنَ الْعُرُسِ^(١٠٣)

وسمعت إحدى الفتيات فأطلت برأسها من النافذة وسألته مبدية دهشتها من أنه يفضل المرية على إشبيلية^(١٠٤).

وكتب أبو علي عمر بن أبي خالد إلى أبي الحسن علي بن الفضل بهذه الأبيات:

أَبَا حَسَنِ وَمَا قَدِمْتُ عَهْدُ لَنَا بَيْنَ الْمَنَارَةِ وَالْجَزِيرَةِ
أَتَذَكَّرُ أَنْسَنَا وَاللَّيْلُ دَاجٍ بِخَمَرٍ فِي زَجَاجَتِهَا مِنْ نِيرِهِ
إِذَا الْمَلَأَ ضَلُّ رَنَا إِلَيْهَا فَأَبْصُرَ فِي مَنَاحِيهِ مَسِيرَهُ^(١٠٥)

وكان مرج الفضة يقع خارج المدينة، بعيدا عنها، على شاطئ الوادي الكبير، ويجذب إليه كبار الشخصيات المعروفة، وتعود المعتمد أن يذهب إليه كثيرا متخفيا رفقة ابن عمار الشاعر، وهناك التقى للمرة الأولى بالفتاة التي سوف تصبح الملكة فيما بعد، بعد أن خدمت جارية رقيقة عند بَغَال، وكانت تُلقب الرميكية، ثم أصبح اسمها اعتماد أو أم الربيع، على حين تدعوها حاشية الملك السيدة الكبرى فحسب^(١٠٦). واستمر هذا المرج قائما يشد إليه صفوة المجتمع الراقي حتى القرن الثالث عشر الميلادي، وظل مورفا تغطيه الأنسام حتى أيام ابن سهل الإسرائيلي وابن سعيد الأندلسي^(١٠٧). ولم يعرف القرن الحادي عشر فيها يبدو المتنزه المسمى «السلطانية»، وكان قائما على ضفاف الوادي

(١٠٢) عن معنى هذه الكلمة وتعني نزهة بقارب، أو حفلة بهجة فوق الماء، انظر فيها سيأتى ص ١٨٨ الهامش رقم ٣٥ من هذا الكتاب.

(١٠٣) انظر: ابن قزمان، الديوان، القطعة ٧٣، الدور الخامس، حيث تجد تعبير «غرس الحب».

(١٠٤) نفع ٣٨٩/٣، وعنه في أبيات، ط ١ ص ٨٣، وانظر أيضا فيما سبق ص ١١٢ من هذا الكتاب. وعن شنتبوس انظر نفع ١٧١/١ و ٢٨١/٢ و ٣٨٩/٣ و ١٩٨/٤، وأبو الفدا، جغرافية، ترجمة ريتو المجلد الثاني، القسم الأول، ص ٢٣٧، ودوزي، رسالة إلى فليشير ٩٩.

(١٠٥) من الوافر، نفع ٤٣١/٣.

(١٠٦) انظر: التيجاني، تحفة العروس في «بنو عباد» ١٥١/٢، وترجمته في تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ٨٦، وليفى بروفنسال، النقوش العربية في إسبانيا، ١ (النص) ص ١٩ و ٤٠ - ٤١ (رقم ٣٢)، وعن تاريخ هذا اللقاء الأول انظر: نفع ٢١١/٤، وعنه في «بنو عباد» ٢٢٥/٢. وسوف نعود إلى هذا الهامش بمناسبة الأبيات التي تصف المياه والبرك والأنهار. (١٠٧) نفع ٣٠٧/٢.

الكبير، ووصفه لنا ابن سعيد^(١٠٨)، ويمكن الظن بأن وادى العروس كان من هذا الطراز، مطابقا لذوق العصر، جاريا على العادة المتبعة^(١٠٩). وكان ابن سعيد الوحيد الذى حدثنا عن طريانة Triana وجزيرة القبطال دون أن يعطينا أية تفاصيل أو يأتي معها أبيات من الشعر تصفها، كما هي عادته وهو يعرض للمنتزهات الأخرى المنتثرة هنا وهناك^(١١٠).

وثمة واد آخر يوجد في الشرف نفسه، في الشمال الشرقي من إشبيلية، ونال إعجاب المعتمد وزوجته الرميكية مثل مرج الفضة، ويدعى وادى الطلح، وأكد ذلك ابن سعيد على الأقل، وعاش في آخر القرن الثاني عشر وأوائل القرن الذى يليه^(١١١). ومن المثير أن الإشارة الوحيدة عن هذا الوادى نلتقي بها عرضا في بيت من الشعر لابن بقل، وهو شاعر أمضى حياته بين القرنين الحادى عشر والثانى عشر، وذلك عندما اجتاحه اليأس وفكر أن يرحل إلى المشرق^(١١٢).

ونذكر أخيرا «منظرة الفنت» في موقع ريفى من ضواحي إشبيلية، تطوقه المروج من كل جانب، وتكسوه الزهور خلال فصل الربيع^(١١٣).

بعامة يمكن القول إن إشبيلية لم تثر إلا قليلا من الحسرة والألم في نفس الذين رحلوا إليها، أو الذين تركوها مؤقتا أو بلا رجعة.

يقول ابن عمار:

فوحشني لقد انتدبت لوصفه بالنجل لولا أن جمصا داره
بلد متى أذكره هيج لوعتي وإذا قدحت الزند طار شراره^(١١٥)



أما المربة فلم تكن في القرن العاشر الميلادى غير ضيعة صغيرة، تقع على مصب النهر الذى يمضى

(١٠٨) نفح ٣٠٦/٢، وهى أربعة أبيات.

(١٠٩) نفح ٣١٥/٢.

(١١٠) نفح ١٨٢/١.

(١١١) نفح ٦٩١/١ و ٢٨٥/٢. وقد وصف نور الدين بن سعيد هذا الوادى في قصيدة من ثلاثة وثلاثين بيتا، بائية القافية، من بحر السريع، واتخذ الشاعر الحديث أحمد شوقى من هذا الوادى موضوعا لتوبيته الشهيرة انظر كتابنا: إسبانيا كما يراها الرحالة المسلمون، من ١٦٦٠ إلى ١٩٣٠، ص ١٠٤ - ١٠٥.

(١١٢) من الوافر، القلائد ٢٨.

(١١٣) ابن ظافر، البدائع ٢٢٥، وعنه في نفح ٢٤٢/٣ وترجمها إلى الفرنسية كور، في ابن زيدون ص ١١٢ - ١١٣. وهو المكان الذى شهد جنديا فارسا يصدم خادما يحمل الشراب ووطئ عليه، وهشم أعظمه وأجرى دمه، وكسر قمصل (في التفح أو قعمل في البدائع) التبيذ الذى كان يحمله وجرى.

(١١٤) في مستهل القرن الثانى عشر، خلال فترة الصراع التى كانت نذيرا بنهاية عصر المرابطين، قال النحوى المؤرخ أبو إسحاق إبراهيم بن قاسم الأعمى البليوسى عن إشبيلية:

يا حمص لا زلت دارا لكل بؤس وساحة
ما فبك موضع راحة إلا ومافيه راحة

وهى من المجتث، نفح ٤٥٢/٣.

(١١٥) من الكامل، القلائد ٨٧.

إلى بجانة، ولم تصبح مدينة غنية وهامة إلا في القرن الحادى عشر على أيام أميرها الصقليين: زهير و خيران، ومن جاء بعدهما، ثم أميرها المعتصم بن صُمادح المنافس للدود للمعتصم بن عباد، وهى ميناء لا يقوم فى أرض خصبة وفيرة الثمار أو غنية بمعادنها النفيسة، وإنما تعتمد فى مواردها على ما يأتىها من الخارج، ويوم أغلق البحر فى وجهها انهارت ولم تقو على النهوض^(١١٦).

وإذا صدّقنا قول ابن الخطيب المؤرخ فإن المدينة اتسعت كثيرا فى عهد خيران الصقلي، وأصبحت تفص بالمباني الجميلة الواسعة، وهو الذى أجرى إليها المياه، وأقام الحمامات الرائعة^(١١٧)، وإلى عصره يرجع، دون شك، حفر العيون الشهيرة، ولا تزال أطلالها موجودة حتى الآن وقد وصفها ابن دراج القسطلى حين مر بها بحرا:

متى تلاحظوا قصر المرية تنزلوا ببحر ندَى يُعناه دُرٌّ ومرجانٌ
وتستبدلوا. من موج بحرٍ سجاكُم بموجٍ لكم منه لُجَيْنٌ وعقيان^(١١٨)

ونحن نعرف الكثير عن قصور المرية ومنتزهاتها فى عهد المعتصم، ويقول ابن خاقان عن هذا الأمير، بعد أن وصف شح الأراضي الزراعية فى أمارته: «فاقتصر على صمادحيته البديعة وقصبته المنيعة»^(١١٩).

وقصة تشييد قصر الصمادحية وهم اسم مشتق من أحد أسلافه المسمى صُمادح، تذكرنا بالوساوس التى انتابت عبد الرحمن الناصر عند توسعته المسجد الجامع فى قرطبة.

ذلك أن المعتصم لما بنى قصوره المعروفة بالصمادحية غضبوا أحد الصالحين فى جنة وأحقوها بها، وزعم ذلك الصالح أنها لأيتام من أقاربه، فبينما المعتصم يوما يشرب على الساقية الداخلة إلى الصمادحية إذ وقعت عينه على أنبوب قصبة مشمع، فأمر من يأتى به، فلما أزال عنه الشمع وجد فيه ورقة فيها: «إذا وقفت أبها الغاصب على هذه الورقة فاذكر قول الله تعالى: ﴿إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزني فى الخطاب﴾. لا إله إلا الله، أنت ملك قد وسّع الله تعالى عليك، ومكن لك فى الأرض، ويحملك الحرص على ما يقضى أن تضم إلى جنتك الواسعة لعظيمة قطعة أرض لأيتام حرمت بها حلالها، وخبثت طبيها، ولئن تحجبت عني بسلطانك، واقتدرت علىّ بعظيم شانك، فنجتمع غدا بين يدي من لا يحجب عن حق، ولا تضع عنده شكوى».

فلما استوعب قراءتها دمعت عيناه، وأخذته خشية خيف عليه منها، وكانت عادته رحمه الله تعالى، وقال: «علىّ بالمشتغلين ببناء الصمادحية، فأحضروا فاستفسرهم عما زعم الرجل فلم يسعهم إلا صدقه، واعتذروا بأن نقصها من الصمادحية يعيبها فى عين الناظر، فاستشاط غضباً وقال: والله إن عيبها فى عين الخالق أقبح من عيبها فى عين المخلوق، ثم أمر بأن تصرف عليه، واحتمل تعويرها لصمادحيته.

(١١٦) عن المرية فى القرن الحادى عشر طبقاً للكتاب النادرين، انظر: أبحاث، ط ٣ ج ١ ص ٢٤٢ - ٢٤٤.

(١١٧) ابن الخطيب، أعمال الأعلام ٢١٢.

(١١٨) من الطويل، انظر: ياقوت ٥١٧/٤، وابن الخطيب، أعمال الأعلام ٢١٤، ويذكر ابن خلدون أيضاً فى «خطرة الطيف» هو خيران، انظر: مولر، Beitrage ص ٣٤. وتحت حكم زهير الذى خلف خيران فى عام ٤١٩ = ١٠٢٨، تم تشييد منشآت أخرى، فرم المسجد الجامع، وزاد فيه من كل جوانبه باستثناء الجانب الذى فيه القبلة. انظر أعمال الأعلام ٢١٦.

(١١٩) القلائد ٤٧.

ولقد مرّ بعض أعيان المرية وأخيارها معاجمعة على هذا المكان الذي أُخرجت منه جثة الأيتام، فقال أحدهم: والله لقد عوّرت هذه القطعة هذا المنظر العجيب، فقال له: اسكت، فوالله ن هذه القطعة طراز هذا المنظر وفخره.

«وكن المعتصم إذا نظر إليها قال: أشعرتم أن هذا المكان المعوج في عيني أحسن من سائر ما استقام من الصمادية؟ ثم إن وزيره ابن أرقم لم يزل يلاطف الشيخ والأيتام حتى باعوها عن رضى بما اشتهاوا من الثمن، وذلك بعد مدة طويلة، فاستقام بها بناء الصمادية، وحصل للمعتصم حسن السمعة في الناس»^(١٢٠).

ليست لدينا أية تفاصيل عن هذا القصر، وكل ما نعرف عنه أنه كان يضم ماعتى استقبال، أو مجلسين بالتعبير القديم: مجلس الحافة ومجلس البهو^(١٢١)، وذو مظهر نبيل من حُنييه، وشيد من المرمر الحمري^(١٢٢)، وتجري الجدول ثعبانية في حديقته حول الاستراحات الموجودة بها، كما في حير الزجالي في قرطبة، وقد وصف المعتصم هذه الجداول، حين جلس يوماً، ومعه أعيان الوزراء، ونبيهاء الشعراء، على موضع يتداخل الماء فيه، ويتلوى في مناحيه، وهو منشرح النفس، فقال:

انظرْ إلى حُسْنِ هذا الماء في صَبِيهِ كأنه أرقمٌ قد جدَّ في هَرَبِهِ^(١٢٣)

ويصف ابن الحداد شاعر بلاط المعتصم قصر الصمادية في قصيدة يمدح بها الأمير، ولكن التفاصيل التي وردت فيها غامضة مع الأسف، ولا تستطيع أن تخرج منها بشيء^(١٢٤).

وكانت الشخصيات الكبيرة تملك بيوتاً ريفية في ضواحي المرية، يطلق عليها اسم «برج»، يذهبون إليها بعد يوم حافل بالمشاغل في المدينة، وكان ابن عباس وزير زهير الصقلبي قد رأى على برج زهير بيتاً من الشعر كتبه بعض الأدباء إشارة إلى أن صاحبه متهم بداء أبي جهل، فيما يل، ويقول فيه:

خلوت بالبرج فما الذى تصنع فيه ياسخيفَ لزمانٍ
فأمر بأن يكتب:

أصنعُ فيه كلَّ ما أشتهى وحاسدى خارجه في هَوَانٍ^(١٢٥)

ولم يبالغ ابن الحداد كثيراً في قصيدته التي مدح بها المعتصم حين قال:

وما كَيْمِينِ الفِراتِ ودجلةُ وإنَّ حَكَمُوا أنَّ المَريَّةَ بَغْدَانُ
به اعتدلتْ أزمانها وهواؤها فكانونَ أيلولَ وتموزَ تيسانَ^(١٢٦)

(١٢٠) نفع ٣٦٦/٣ - ٣٦٧، وأبحاث ط ٣ ج ١ ص ٢٤٥.

(١٢١) هذا المجلس الأخير يعود تاريخ بنائه إلى خيران، انظر فيما سبق من هذا الكتاب ص ١٢٩ الهامش ١١٨.

(١٢٢) القلائد ٤٧، وعن معنى كلمة «خمرى» انظر: دوزى، تكملة المعاجم العربية ٤٠٤/١.

(١٢٣) من البسيط، القلائد ٤٩، بالحالة ٨٥/٢، ونفع ٦٦٦/١ و ٣٢٩/٣.

(١٢٤) من الكامل، خريدة القصر في نفع ١٠١/٤.

(١٢٥) من السريع، نفع ٥٣٥/٣.

(١٢٦) من الطويل الذخيرة ٧٢٤/١، وانظر فيما سبأى من هذا الكتاب ص ١٨٠ الهامش ١١٥. وعتمد طرد ابن الحداد من

المرية قال فيها:

وكما رأينا من قبل شبه الشاعر النحلي المريّة بالجنة،^(١٢٧) ولكن بعض الشعراء الآخرين يقضون على التقيض من هذا الاتجاه، ولم يتردد السمسيس مثلاً في أن يصيح:

يسرُّ نأرُ المريّة اليوم داراً ليس فيها لساكن ما يجبُ
بلدة لا تمارُ إلا بريحٍ ربّما قد تهبُّ أو لا تهبُّ^(١٢٨)
وفيهما أيضاً يقول شاعر مجهول:

قالوا المريّة صفّها فقلت: نطّ وشيخُ
وقيل فيها معاشُ فقلت: إن هبّ ريحُ^(١٢٩)

وكلا الشاعرين يشير إلى صعوبة تمييز المدينة، إذ لا تجد بغيتها، كما قلنا، في الحقول المجاورة، وهي قليلة الخصب، ويقول المقرئ في نفح الطيب معلقاً على أبيات السمسيس التي سبقت: «يشير إلى أن مرافقها مجلوبة، وأن الميرة تأتيها في البحر من بر العدو»^(١٣٠). وأما شح الأرض وقلة مواردها الزراعية فيؤكدّه ابن خاقان، يقول: إنها ولاية قليلة الجباية، شحيحة المطر، عزيزة المنابت، فسيحة المهامه لا تثبت فاكهة ولا تنتج قمحاً، والشيخ وحده الذي يتمو في أطرافها^(١٣١).



وتقع برجة، وهي ضيعة في إقليم المرية، في الجنوب الغربي منه، على واد مبهج يُعرف بوادي عذراء، تحديق به الأزهر والأشجار، وتتناقض خصوصيته مع قحط أطراف العاصمة، وقد تغنى بجماها في قصائده الشاعر أبو الفضل بن شرف، وإليها يرجع أصله، يقول في أبيات له:

رياضُ تعشّقها سندسُ توشّت معاطفها بالزهرُ
مدامعها فوق خدّي ربّي لها نظرة فتنت من نظر
وكل مكانٍ بها جنة وكل طريقٍ إليها سقر^(١٣٢)

وفي أبيات أخرى يقول:

حطّ الرحال ببرجة وارتنّ لنفسك بهجة
في قلعة كسلاح ودوحة مثل جنة

تركت قلبي وأشواقى تفتّره ودمع عيني وأحداقى تحدره
لو كنت تبصر في تدمير حالتها إذن لأشفقت مما كنت تبصره
وهي من البسيط، انظر: ياقوت، معجم البلدان ٨٣١/١ و ٥١٧/٤، وجود فروى - ديوميين في: العمرى، المسالك، الترجمة الفرنسية ٢٣٨، هامش ١، ونفح ٤/٨، ودوزى، أبحاث ط ٣ ج ١ ص ٢٥٥.

(١٢٧) انظر فيما سبق ص ١٠٨ من هذا الكتاب.

(١٢٨) من خفيف، نفح ٣/٣٩٠، وأبحاث ط ١ ص ٨٤.

(١٢٩) من الجثث، الروض المعطار، رقم ١٧٥ ص ١٨٣ و ٢٢١، ومن المثير أن نلاحظ أن هذه الأبيات مع تغيير في البداية توجد في ألف ليلة وليلة في الليلة ٨٧٠ من طبعة بولاي أو القاهرة و ٨٦١ من طبعة بيروت، ولكنها تقال عن الإسكندرية. (١٣٠) نفح ٣/٣٩٠.

(١٣١) القلائد ٤٧، وأبحاث ط ١ ص ٢٤٢.

(١٣٢) من لختارب، نفح ١/١٥١، وانظر فيما سبق ص ١٠٨ من هذا الكتاب.

فَحَضُّهَا لَكَ أَمِنْ وَرَوْضُهَا لَكَ فَرَجُهُ
كُلُّ الْبِلَادِ سِوَاهَا كَعُمْرَةٍ وَهِيَ حَاجَّةٌ (١٣٢)



وتغنى الشعراء أيضاً، وبخاصة أشاعرات (١٣٤)، بجمال وادي آش، وأسهم مظهره النضير على التأكيد في إيقاظ إحساس سكان المنطقة بالطبيعة وتعميقه، وكانت المدينة نفسها من المدائن الغنية بالشعراء الذين أغرموا بالطبيعة (١٣).



ولم تثر غرناطة التي احتلت في القرن الحادى عشر مكانة البيرة الانتباه إلا في عهد ملوك الطوائف (١٣٦)، واستخدم أحد الشعراء في وصفها المعجم الخاص بالمدن في إسبانيا، والذي ذكرناه في بداية هذا الباب:

غَرْنَاطَةُ مَا لَهَا نَظِيرُ مَامَصْرُ مَا الشَّامُ مَا الْعِرَاقُ؟
مَا هِيَ إِلَّا الْعُرُوسُ تُجَلَّى وتلك من جُمْلَةِ الصَّدَاقِ (١٣٧)

ولم يكن قصر الحمراء قد وجد جيد، ولم تكن الحمراء نفسها غير برج قرمزي داخل القلعة (١٣٨)، وبنو زيري الذين سوف يحكمون غرناطة حتى قدوم المرابطين لابد أنهم أقاموا في قصر أقرب إلى القلعة منه إلى قصر ملكي، في داخل الدائرة التي تعلق التل الذي يشرف على مجموع المدينة، ونعلم أن مؤملاً مولى باديس بن حبوس مد زين المدينة وضواحيها، وأنفق جهداً كبيراً في صيانة الشوارع والأبنية العامة، وأطلق اسمه على سمر أشجار الحور على الضفة اليمنى لنهر شنيل، فأصبح يعرف باسم «حور مؤمل» (١٣٩)، ونال شهرة واسعة منذ القرن الثاني عشر الميلادي لكثرة المواعيد الغرامية التي اتخذته مسرحاً، وصفها لنا الشعراء.

(١٣٣) من المجتث، نفع ١٥١/١.

(١٣٤) انظر فيما سياتى ص ١٤٢ - ١٤٣ من هذا الكتاب.

(١٣٥) ابن فضل الله العمري في كتابه سالك لأبصار، في صبح الأعشى للقلقشندي ٢٢١/٥، ترجمة جود فروي - ديوميين ص ٢٤٥ يقول: سكانها مشهورون بواجبههم شعرية. ويقول المقرئ في نفع الطيب ١٤٩/١: «وقد حبا الله أهلها بالأدب وحب الشعر».

(١٣٦) عن أصل غرناطة انظر: ل. إيجيشت ويتجواس، أصل مدن غرناطة والبيرة والحمراء، في تكريم كوديرة، ص ٣٣٣ - ٣٣٨.

(١٣٧) من مخلم البسيط، نفع ٦٤٨/١.

(١٣٨) يقول الأمير عبد الله آخر ملوك بني زيري بقرناطة، في مذكراته، التي تحمل اسم التبيان، أن اليهودي، أي يوسف بن النغرة، هو الذي بنى حصن الحمراء، نظراً: ترجمته إلى الفرنسية لليفي برونسفال ص ٦٨.

● قلت نشر ليفي برونسفال هذا الكتاب بعنوان مذكرات الأمير عبد الله، في القاهرة، وصدر عن دار احافز عام ١٩٥٥، وتوجد الإشارة السابقة فيه ص ٥٤ (الترجم).

(١٣٩) هذا الاسم كثيراً ما يصيبه التحريف فيصبح حوز مؤمل، وعن هذا المتن انظر: نفع ٤٧٥/١ و ٢٨٢/٣ و ٢١٨/٣ و ٥١٣ و ٥٠٧ و ١٧٧/٤، والإحاطة ٤٤٩/١ - ٤٩٩ و ٣٣٣/٣. وعن المولى مؤمل انظر: ليفي برونسفال مذكرات الأمير عبد الله في مجلة الأندلس، المجلد ٣، سنة ١٩٣٥، العدد - ص ٢٥٨ (وفي فصله مستقلة ص ٢٦)، وانظر فيما سياتى من هذا الكتاب ص ١٧١.

وثمة متنزه آخر فوق تل في ضواحي غرناطة، نال الشهرة نفسها في القرن الثاني عشر، وهو متنزه «نجد»^(١٤٥)، غير أن شعراء القرن الحادى عشر لم يكونوا قد عرفوه فيما يبدو.

وكان فحوص غرناطة يتمتع بكل خصوبته منذ نهاية القرن الحادى عشر، ووصف لنا بعض الكتاب حدائقه فإذا هي لا تقل في جمالها شيئاً عن حدائق قرطبة وإشبيلية، ويسهب ابن خاقان في سجع الفنى الرقيق الذى عُرف به، وليس إلا شعرا حرا في الحقيقة، في وصف ضيعة الوزير القاضى أبى الحسن بن أضحى في خرج غرناطة^(١٤٦) ويقدم لنا ابن سارة أول وصف للفحص وهو يمدح الأمير المرابطى أبى بكر بن إبراهيم:

اليوم أخذت الضلالة نارها	واسترجعت دار الهدى عمارها
واستقبلت حدق الورى غرناطة	وهى الحديقة فوّت أزارها
فكان تشرينا بها نيسانه	يكسو رباها وردها وهارها
في غب ساقية ترقق أذمعا	يحكي الجمان صغارها وكبارها
ما شنت من نهر كصدر عقيلة	شقت أناملها عليه صدارها
أو جدول كالنصل في يد ثائر	أمهى صحيفته وهز غرارها
ما بين أشجار تמיד كأنها	شراب جريال يدير عقارها
مترنحون إذا لحاها عاذل	تركت سكون حلومها ووقارها ^(١٤٧)



وإذا كانت غرناطة تستقبل زوارها مرحبة منذ القرن الحادى عشر فإن رندة على النقيض من ذلك، فهى مدينة كريمة إذا صدقنا فيها ما قاله شاعر مجهول:

قُبْحاً لِرندة مثلاً	قُبْحَتْ مُطالعة الذنوب
بلد عليه وحشة	ما إن يفارقه القطوب
ما حلها أحد فين	جوى بعد بين أن يؤوب
لم آتيا عند الضحي	إلا وخيل لى غروب
أفق أغم وساحة	تملا القلوب من الكروب ^(١٤٨)



وتغنى المعتمد بمدينة شلب الغنية بالمواهب الشعرية^(١٤٩)، فقد أقام فيها حاكماً على أيام والده

(١٤٠) عن هذا التل الذى أصبح متنزهاً انظر: نفح ٦٧٧/٢ و ٦٧٨ و ٥١٣/٣ و ١٧١/٧ و ٢٤٢، والإحاطة ٣١٧/٢ و ٣١٨، ورحلة 'ين بطوطة ٣٧٣/٤، ولوتينا، مصور غرناطة العربية (في الشرق من المصور) وجود فروى - ديموبين، مسالك الأمصار للعمري، ص ٢٣٣ رقم ٢ وص ٢٣٤ رقم ٢.

(١٤١) القلائد ١٧٤ - ١٧٥، وعنفا في نفح ٦٧٦/١.

(١٤٢) من الكامل، القلائد ٢٦٤، وعن سيرا تبيادا (جبل شلير) انظر ما يأتى، ص ٢١١ من هذا الكتاب.

(١٤٣) من الكامل، نفح ١٣٢/٤ - ١٣٣.

(١٤٤) كان اقزوينى، المتوفى ٦٨٢ = ١٢٨٣، سميد وهو يشير في مؤلفه الجغرافى إلى أن من النادر أن نجد بين أهل شلب من لا ينظم الشعر أو لا يتم بالأدب، وأى فلاح وراء محراثه يستطيع أن يرتجل الأبيات من الشعر فيما تشاء من الموضوعات. انظر: =

المعتضد، وعندما أصبح أمير إشبيلية وأوفد وزيره ابن عمار في مهمة تفتيشية حمله رسالة سلام وتحية إلى كل الأماكن التي أحب فيها، وتنضح بكل مشاعر الشباب وحماسته:

ألا حَيَّ أوطاني بشلب أبابكر وسلهن هل عهد الوصال كما أدري
وسلم على قصر الشراحيب عن فتى له أبدا شوق إلى ذلك القصر
منازل أساد وبيض نواعم فناهيك من غيل وناهيك من خدر
وكم ليلة قد بت أنعم جُنحها بمخضبة الأرداف مجدبة الخضر
وبيض وسمر فاعلاب بمهجتي فعل الصفاح البيض والأسل السمر
وليل بسد النهر هو قطعه بذات سوار مثل منعطف البدر
نضت بردها عن غصن يان منعم نضير كما انتشق الكمأ عن ازهر^(١٤٥)

وتوضح لنا قصيدة المعتضد هذه مهابط الجمال والمجد في شلب في القرن الحادي عشر، فهي: قصر الشراحيب^(١٤٦) وسد النهر، ونحن نعرف أي شيء عن قصر الشراحيب هذا، إلا أنه كان يضارع في الفتنة أروع قصور بغداد وأجملهم وظل قائما على امتداد القرنين الثاني عشر والثالث عشر^(١٤٧).

أما سد النهر فوصفه شعراء آخرون، وهو يذكرنا بجسر قرطبة الذي كان قائما على الوادي الكبير، كما وصفوا النهر نفسه، ويقول ابن عمار وهو أصلا من قرية صغيرة تدعى شنتبوس على مقربة من شلب، في قصيدة يمدح بها المعتضد:

كساها الحيا برّد الشيب فإنها بلاد بها عقى الشباب تمانى
ذكرت بها عهد الصب فكأنما قدحت بنار الشوق بين الحيازم
ليالي لا أوى على رشيد ناصح عناني ولا أتيه عن غي لاثم
أنال سهادي من عيون نواعس وأجنى مرادي من غصون نواعم
وليل لنا بالسد بين معاطف من النهر ينساب انسياب الأراقم^(١٤٨)



= آثار البلاد، طبعة وستفلد ص ٣٦٤، وتاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ٨٤، ونيكلسون، تاريخ الأدب العربي ٤١٦، وانظر أيضًا الدمشقي، المتوفى ٧٢٧ = ١٣٢٧، نخبة لدهر، طبعة ميرين، الترجمة ٣٤٤، وميرين، موجز كوزموجرافيا العصر الوسيط ٣٤٨، وأبو الفدا، ترجمة رينو وجويار ٢٣٧، يقول: لقد اشتهر أهل شلب بحب الأدب مما جعلهم مضرب المثل.

(١٤٥) من الطويل، القلائد ص ٥ - ٦ وعنها في «بنو عباد» ٣٩/١، والترجمة ٨٣، وص ٣٢ البيتان الأولان فقط، وصيح الأعشى ٢٢٦/٥ (البيت الثاني)، وأبو الفدا، سغرافية، النص ١٦٧، والترجمة الفرنسية ٢٣٧ (مع ترجمة البيت الثاني المشار إليه فيما سبق)، وتاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ٩١، والشقندي رسالة فضل الأندلس، في نفع ١٩٣/٣، الأبيات ٦ و ٩، وترجمة غرسيه غوث لها ص ٥٧، وانظر فيما سأتى من هذا الكتاب ص ٢٩ وما بعدها.

(١٤٦) عن كلمة «شراحيب» وجمعها «شراحيب» انظر: دوزي، تكملة المعاجم العربية ٧٤٢/١ و ٥٥٥/٢ والقلائد ٣٠، وابن حزم، طرق الحماة ١٤٥، وترجمة نيكل ١٥٨ وطبعة برشيه ٢٨٤ و ٢٨٥، وتاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٢ ص ٣٢٨، والمجلة ٢٠٠/٢.

(١٤٧) المجلد ٢/٢٠٠.

(١٤٨) من الطويل، نفع ١٩/١، وابن خكان، وفيات، طبعة القاهرة ٦/٢، وقد أنشد ابن عمار بيتا من الشعر لحظة احتضاره، وقد ذكر كل أهله:

وحاول بنو الأفطس في عاصمتهم بطليوس، وتقع في الجنوب الغربي من إسبانيا، وسط منطقة حرمتها الطبيعة من غايتها، أن ينافسوا أمراء قرطبة وإشبيلية والمريّة، ولأنهم كانوا يجاورون الإمارات المسيحية جاءت بيوتهم في جملتها قلاعاً أكثر منها قصوراً. كانت قصبة بطليوس تشرف على وادي آنه، ويقول ابن خاقان، إنّ بيت عدى بن زيد في صنعاء ينطبق تماماً على وصفها:

في قبابٍ حول دَسْكَرَةٍ حولها الزيتون قد ينعا^(١٤٩)
وأقام المتوكل في ضواحي المدينة منية أسماها البديع، ودرج على أن يذهب إليها مع أصحابه، وخصوصاً بني القبطورثة للاستجمام والاستمتاع هناك، وسط أشجار الأزهار^(١٥٠). وقد أثارت بطليوس وضواحيها الحسرة والشجن في نفوس كثير من الشعراء، عرفانا بجمائل الأمير المتوكل أكثر منها إعجاباً بالمدينة والمناظر التي تحيط بها.

يقول الوزير أبو عمرو بن الفلاس يمدح مدينة بطليوس، وهو من أعيانها:
بطليوسُ لا أنساكَ ما اتصل البعدُ. فَلَلهُ غورٌ في جنابِكَ أو نَجْدُ
وللهِ دُوحاتٌ تحفُّكَ بينها تفجّر واديا كما شقّق البرد^(١٥١)



وكانت طليطلة مدينة رومانية قديمة، ثم قوطية، وانتهى بها الحال إسلامية، وأصبحت في نهاية القرن الحادى عشر عاصمة مملكة، وحاول بنو ذى النون أمراؤها أن ينافسوا بشدة عظمة قرطبة وإشبيلية، وقد وصف شاعر مجهول موقعها الفريد فوق رابية عالية، يطوقها نهر تأجّه من ثلاث جهات:

زادَتْ طُلَيْطَلَةٌ على ما حدّثوا بِلَدٍّ عليه نَضْرَةٌ ونعيمُ
اللَّهُ زَيْنُهُ فوشحَ خَصْرَهُ نَهْرُ المَجْرَةِ والغصونُ نجوم^(١٥٢)

وقد أصبح قصر المأمون فيها مناط إعجاب السكان والزوّار على السواء، لأن بني ذى النون قاموا

= تبكى عليهم شنبوس بعبرة كَأَتَيْهَا المندافع التيار

البيت من الكامل، في «بنو عباد» ١٥٥/٢، قلا عن الحلة.

● قلت: في الحلة ١٥٧/٢، طبعة القاهرة. البيت نيس لابن عمار، وإنما هو لعمد بن عباد، في قصيدة له جاءت تذيلاً على قصيدة لابن عمار من البحر نفسه، والفاقية نفسها، مطلعها:

خيرٌ بِلَنْسِيّةٍ، وكانت جنة أن قد تدلّت في سواء النار

(المترجم)

وثمة رواية للمقرئ عن شخصين من شلب تسمح لنا بأن نعتقد أن نهر شلب كان عامراً بالضفادع. انظر: نفح ٥٢٠/٣، وفون شاك، ترجمة باليرا، شعر العرب ٧٦/١.

(١٤٩) من المديد، القلائد ٤٣، وعنها في نفح ٦٦٤/١.

● قلت: في النفح ٦٦٤/١ طبعة إحسان عباس «قال عدى بن زيد يصف مصنعا» وخطوه واضح (المترجم).

(١٥٠) القلائد ١٥١، وعنها في نفح ٦٣٧/١.

(١٥١) من الطويل، نفح ١٨٦/١، وصبح الأعشى ٢٣٣/٥ و ٢٢٤، وقد رأينا أن مقطوعة للنحلي تنسب لابن اللبانة وفيها يشبه

بطليوس بالجنتة انظر أيضاً: أبو الفدا، جغرافية، النص ١٧٢، والترجمة ٢٤٧.

(١٥٢) من الكامل، نفح ١٧٠/١.

بتوسيع المقر القديم لحكام المدينة مذ أن نتصروا، واهتموا بتجميله ليجعلوا منه تحفة فنية بالغة الروعة^(١٥٣)

وأنصب إعجاب الشعراء كله على البحيرة المبتكرة التي أقامها الأمير وسط القصر، دمنع في وسط البحيرة قبة من زجاج ملون منقوش بالذهب، وجلب الماء على رأس القبة بتدبير أحكم المهندسون، فكان الماء ينزل من أعلاها على جواتها، محيطها، ويتصل بعضه ببعض، فكانت قبة الزجاج في غلالة مما سكب خلف الزجاج من ماء لا يفتر من الجرى، والمأمون قاعد فيها لا يسه من الماء شيء ولا يصله، وفي الليل توقد فيها الشموع، وتنعكس أضواؤها، فتكون مشهدا بالغ الروعة وجمال^(١٥٤).

وقد نظم أبو محمد إبراهيم المصري، وهو شاعر مصري كان لائذا في بلاط المأمون، مقطوعة شعرية عن البركة والقبة عليها:

شمسية الأنساب درية يحار في تشبيهها الخطر
كأنما المأمون بدر الدجى وهى عليه الفلك الدائى^(١٥٥)

وثمة حكاية تقول إن المأمون كن جالسا في القبة مع جواريه ذات ليلة إذ سمع نشدا ينشد:

أتبنى بناء الخالدين وإنما بقاءك فيها لو علمت قليل
لقد كان في ظل الأراك كفاية لمن كل يوم يقتضيه رحل^(١٥٦)

فغص عليه حاله، وتشام من قوله كما تشام الخليفة عبد الرحمن الناصر من قتي من خطبة منذر بن سعيد البلوطي^(١٥٧)، وهو قرعه على الإسراف في بناء الزهراء، وأقسم ألا يحل وراءه في مسجدها، وأخذ المأمون يردد: إنا لله إنا إليه راجعون، أظن أن الأجل قرب، ولم يجلس في تلك القبة بعدها، فقد وافاه الأجل بعد شهر فحسب.

كان المأمون مثل أمراء قرطبة وإشبيلية يملك قصرا للراحة والتنزه، وسط الحدائق من شاطئ نهر تاجه، غير أننا لا نستطيع أن نحدد موقعه بالدقة، ويعتقد دوزي أن هذه المنية كانت تقو على الشاطئ الأيمن لنهر تاجه، أى على الجانب الذى توجد عليه طليطلة نفسها، بين جسرى القنطرة وسان مرتين^(١٥٨). على حين يرى المستشرق الإسباني جيا نجوس أنها نفسها التي تسمى اليوم بعمور غليانة أو بيوت الملكة^(١٥٩)، بالقرب من أسالى النهر، وبعبدا عن المدينة نفسها، على الضفة اليسرى لنهر

(١٥٣) الوصف الوحيد له وجدناه نثرا في ل ذخيرة ١٣٢/٤ ويشير ابن بسام إلى أن المجلس الرئيسى كان يحمل اسم المكرم (بتشديد الراء أو بدونها)، كأحد مجالس المعتد في إشبيلية.

(١٥٤) انظر: ابن بدرون، شرح الرسا - العبدونية ٢٧٧، وعنها في نفح ٥٢٨/١ و ٣٥٣/٤.

(١٥٥) من السريع، نفح ٥٢٩/١.

(١٥٦) من الطويل، نفح ٥٢٨/١، وابن بدرون، المصدر المذكور فيها سبق ٢٧٨.

(١٥٧) انظر فيها سبق ص ١١٠ من هـ الكتاب.

(١٥٨) أبحاث ط ١ ص ٥٩٨ رقم ١، وقد عمد دوزي على فقرة في كتاب الاكتفاء، والذي روى لنا خبر استيلاء المرابطين على طليطلة عام ٥٠٣ = ١١١٠، وانظر المصدر نفسه ص ٥٣٢ رقم ١.

● قلت: حقق الدكتور أحمد مختار العبادى نص ابن الكردبوس، ومعه نص ابن الشباط في وصف الأندلس ونشرها المعهد المصرى في مدريد عام ١٩٧١، والخبر في هذا الكتاب ص ١١٦ (الترجم).

(١٥٩) الدول الإسلامية في إسبانيا ٤٥/٢ وانظر أيضا: رامون مينديث بيدال، الأعمال الكاملة، المجلد ٣، تاريخ وملاحم

تاجه. وكان بهذه المنية قاعة استقبال تحمل اسما يومئى إلى طابعها المتميز: مجلس الناعورة. وقد وصف لنا العالم اللغوى أبو محمد بن السيد البطلوسى المنية، وقاعة استقبالها، فى قصيدة أوردها لنا ابن خاقان، فقد قص الشاعر على مؤلف «قلائد العقيان» أنه حضر مع المأمون فى مجلس الناعورة بالمنية، ولكن ابن خاقان لم يستطع فى روايته لما سمع، وقد سجن نفسه فى سبعة الذى تميز به، إلا أن يقدم بعض جمل جاء بها مقدمة لأبيات الشاعر، فهى «التي تطمح إليها المنى، ومرآها هو المقترح والمتنى، والمأمون قد احتبى، وأفاض فى الحب، والمجلس يروق كأن الشمس فى أفقه، والبدر كالتاج فى مفرقه، والنور عبق، وعلى ماء النهر مصطبغ ومُغتَبَق، والدولاب يشن كناقاة إثر الحوار، أو كئلكى من حرّ الأوار، والجو قد عنبرته أنواره، والروض قد رشته أنداءه، والأسد قد فغرت أفواهها، وسجت أمواهها، فقال:

أذكرنى حُسنَ جنة الخلدِ	يا منظرًا إن نظرتُ بهجتهُ
وغيمَ نَدٍ وطشٍ ما وُردِ	تربةً مسكٍ وجوَّ عنبرِ
فيه اللآلى فواغرَ الأسدِ	والماء كاللازوردِ قد نظمت
يلعبُ فى جانبيه بالنردِ	كأنما جائل الحباب به
مأمون زهو الفتاة بالعقدِ	تراه يزهو إذا يحلّ به الـ
نما بدا فى مطالع السعدِ	تخاله إن بدا به قمرًا
ما حاز من شيمةٍ ومن نجدِ	كأنما البست حدائقه
بوابل من يمينه رعدِ	كأنما جادها فروضها
منعم الرقيد وارى الزند ^(١٦٠)	لا زال فى رفعةٍ مضاعفةٍ

ولا يفوتنا أن نلاحظ أن الشعراء لم يتناولوا الآثار الأخرى ولا المباني العظيمة التى كانت تحفل بها طليطلة، مثل القنطرة المقامة على نهر تاجه، والناعورة التى بجانب انحدار النهر على الضفة اليمنى^(١٦١)، ولا البليتين اللتين «خارج طليطلة فى بيت مجوف فى جوف النهر الأعظم، فى الموضع المعروف بباب الدباغين»^(١٦٢).



وكان فى سرقسطة عاصمة الثغر الأعلى قصر شهير فى القرن الحادى عشر الميلادى يسميه الشعراء دائمًا قصر السرور، ولنا أن نتساءل عما إذا كان هو نفسه القصر الذى عرفناه طوال بداية القرن الثانى عشر باسم «الجعفرية»^(١٦٣)، أم هما قصران مختلفان. ولكن إذا وضعنا فى اعتبارنا أن المقتدر بن هود، وتولى الإمارة من ٤٤١ إلى ٤٧٤ هـ = ١٠٤٦ - ١٠٨١ م، كان موضع التمجيد فيما يتعلق بقصر

(١٦٠) من النسر، القلائد ١٩٤، وعنفا فى نفح ٦٤٤/١، وابن ظافر، البدائع ٣٠٩، وعنفا فى نفح ٦٤٥/١.

(١٦١) نفح ٣٥٣/٤.

(١٦٢) نفح ٢٠٦/١.

(١٦٣) يذكر ابن عذارى لأول مرة قصر الجعفرية، فى أحداث عام ٥٠٣ = ١١٠٩ الخاصة باستيلاء المرابطين على مدينة سرقسطة، البيان المغرب ٥٤/٤. وعن هذا القصر انظر: تراس، الفن الإسباني العربى منذ نشأته حتى القرن الثالث عشر، ص ٢٠٠ - ٢٠٩.

السورور، وأن هذا الأمير كان يكنى أبا جعفر^(١٦٤) فلا يجازي في المنطق في شيء أن ينسب له بناء القصر، وأن نرى أن الاسمين كانا يطلقاء على البناء نفسه وهو واحد^(١٦٥).

وتردد كل كتب الأندلس، بلا توقف، أن المقتدر نظم الأبيات التالية في مبانيه:
 قصر السورور ومجلس الذهب بكما بلغت نهاية الأدب
 لو لم يحز ملكي خلافاً كانت لدى كفاية الطلب^(١٦٦)
 وثمة نواذر عديدة تحكى عن حياة المقتدر، وكان مجلس الذهب مسرحاً لها^(١٦٧).



أما متنزعات بلنسية فكانت الوحيدة التي توجد خارج المدينة: الرصافة ومنية ابن عبد العزيز^(١٦٨).

وعن الرصافة لم يقل الشعراء شيئاً^(١٦٩)، أما منية ابن عبد العزيز فقد داعبت خيالهم على نحو ما فعلت منية المأمون في طليطلة. وقد شيد منية بلنسية المنصور بن أبي عامر، وينحدر من نسل المنصور العامري الكبير، وحكم بلنسية من ١٠٢١ إلى ١٠٦١ م، وأقام يوم افتتاحها حفلاً جمع كل زهور المملكة الرقيقة، ومئة خادم تتراوح أعمارهم بين عشرة وأربعة عشر عاماً، يقومون على خدمة المدعوين، يقدمون لهم الطعام والشرب، وقدم الأمير نفسه في ذلك اليوم عشرين ألف هدية، وهب أملاًكاً واسعة في شكل إقطاعات^(١٧٠).

وكل الأمراء الذين حكموا بلنسية كانوا يقيمون في هذه المنية، وطلبها السيد القنبيطور لنفسه من القاضي ابن جحاف لإقامته الشخصية، ثم عدل عن طلبه مخافة أن يقع في كمين^(١٧١). وفي عهد المرابطين سنحت الفرصة لمؤلف كتاب «قلائد العقيان» أن يزور هذه المنية عدة مرات، وكان الطريق إليها من بلنسية يمر بباب الخنش، وبه حديقة شاسعة، تغطيها أشجار الزينة والفاكهة والرهور، ويحترقها مجرى مائي، ويقع القصر في وسطها حيث توجد قاعة رائعة الزخرفة والفخامة، وكل أبوابها تؤدي إلى

(١٦٤) ثمة أمير آخر من بني هود يحمل هذه الكنية أيضاً: عماد الدولة، ولكنه حكم عاماً واحد بالكاد ثم عزله المرابطون. انظر: بريثوييس، ملوك الطوائف ١٤٧، وليفي بروفنسال، مذكرات الأمير عبد الله، قصة مستقلة، ص ١٩٧ رقم ١٦.
 (١٦٥) نحن نعرف أن الجعفرية في ضوء زخرفتها تعود إلى القرن الحادي عشر دون شك. انظر: ج. مرسي، موجز ٢٩٨/١ و ٣٦٣ - ٣٦٦، وهنري ترانس، الفن الإسلامي في العربى ص ١٦٧ و ٢٠٠ - ٢٠٦.

(١٦٦) من الكامل، نفع ٤٤١/١ و ٤٢، وصيح الأعشى ٢٣٢/٥.
 (١٦٧) نفع ٥٣٤/١، والذخيرة القسم الثالث في: أبحاث ط ١ ص ١٦٦ في الماش. وتحت حكم بني تميم الذين خلفوا بني هود نهبت العامة قصر سرقسطة - هل هو قص السورور نفسه؟ بعد أن قتل منذر بن يحيى معز الدولة رجل من بني عمه يدعى عبد الله بن حكم (أو حكيم) في محرم ٤٣١ = سبتمبر أو أكتوبر ١٠٣٩. انظر: البيان المغرب ١٨٠/٣، وأعمال الأعلام ١٩٦، والحلة ٢٤٦/٢، وأبحاث ط ١ ص ٥٣.

(١٦٨) ابن سعيد في نفع ١٧٩/١، وصيح الأعشى ٢٣١/٥.
 (١٦٩) فيما بعد سوف يتغنى بها الرصافي الشاعر، وكانت مسقط رأسه انظر نفع ١٨١/١ و ٩/٤ و ١٠.
 (١٧٠) القلائد ٦٩، وعنها في نفع ٦٥٠/١ وما بعدها.
 (١٧١) أبحاث ط ١ ج ١ ص ٥٤٣.

الحديقة، وقد أصبحت النية مكاناً عاماً للتنزه، ويصف لنا أحد الشعراء المغمورين، واسمه على بن أحمد، هذا المجلس وحلّه مع طائفة من الوزراء، في أربعة أبيات:

قُم فاسْقِنِي وَالرِّيَاضَ لَابِسَةً وَشَيْئاً مِنَ النُّورِ حَاكِهِ الْقَطْرُ
وَالشَّمْسُ قَدْ عَضَفَتْ غَلَانُهَا وَالْأَرْضُ تَنْدِي ثِيَابَهَا الْخَضِرُ
فِي مَجْسِرٍ كَالسَّاءِ لَاحٍ بِهِ مِنْ وَجْهِ مَنْ قَدْ هَوَيْتُهُ بَدْرُ
وَالنَّهْرُ مِثْلَ الْمَجَرِّ حَفَّ بِهِ مِنَ النَّدَامَى كَوَاكِبُ زُهْرُ (١٧٢)

وتغني ابن الزقاق أيضاً في بلنسية، وعاش في آخر القرن الحادى عشر وأول القرن الذى يليه، يقول:

بَلَنْسِيَّةٌ إِذَا فَكَّرْتَ فِيهَا وَفِي آيَاتِهَا أَسْنَى الْبِلَادِ
وَأَعْظَمُ شَاهِدِي مِنْهَا عَلَيْهَا وَأَنْ جَالَهَا لِلْعَيْنِ بَادِي
كَسَاهَا رُبُّهَا دِيْبَاجٌ حُسْنٍ لَهُ عِلْمَانٍ مِنْ بَحْرِ وَوَادِي (١٧٣)

وإذا كانت بلنسية قد اشتهرت بخصوبة أرضها، وفرة منتوجها، وتنوع ثمارها، مثل الزعفران والكمثرى، وصفاء سماءها لا تعكرها سحب، وبهاء أضوائها (١٧٤)، فقد كانت أيضاً مدينة يغزوها الناموس، ويهاجمها الغلاء، مما جعل أهلها في حالة حرب مستمرة، يقول المحصرى:

ضَاقَتْ بِلَنْسِيَّةٍ بِى وَذَاذَ عَنِ غَمُوزَى
رَقَصَ الْبِرَاغِيثُ فِيهَا عَلَى غَنَاءِ الْبِعُوضِ (١٧٥)

ويقول ابن عيَّاش:

بِلَنْسِيَّةٍ بَيْنِي عَنِ الْقَلْبِ سَلَوَةٌ فَلَيْتَكَ رَوْضٌ لَا أَحْنُ لَزَهْرِكَ
وَكَيْفَ يَحِبُّ الْمَرْءُ دَارًا تَقَسَّمتْ عَلَى صَارِيٍّ جُوعَ وَفَتْنَةٍ مُشْرِكِ (١٧٦)

ويردّ عليه ابن حريق:

بِلَنْسِيَّةٍ قَرَارَةٌ كُلِّ حُسْنٍ حَدِيثٌ صَحٌّ فِي شَرْقٍ وَغَرْبٍ
فَبِأَنْ تَالُوا بِحُلِّ غِلَاءٍ يَسْعُرُ وَمَسْقُطُ دِمْتِي طُعْنٍ وَضَرْبٍ
فَقُلْ هِيَ جَنَّةٌ حَفَّتْ رُبَاهَا بِمَكْرُوهِينَ مِنْ جُوعٍ وَحَرْبٍ (١٧٧)

(١٧٢) من المنسرح، القلائد ٦٩، وعنها في نفح ٦٥٨/١.

وتحت حكم المرابطين ذهب أبو نعيمة بن عائشة مع لمة من الأديباء والأصدقاء إلى هذه النية ليقتضوا وقتاً تحت أدواجها. انظر: المطمح ٣٤٧.

(١٧٣) من الوافر، الديوان، رقم ٣١ ص ١٣٩، وابن دحية، المطرب ١٠٨.

(١٧٤) ابن سعيد في نفح ١٧٩/١، وصبح الأعشى ٢٣١/٥.

(١٧٥) من المنسرح، نفح ١٧٩/١ و ١٨٠ و ٣٣٠/٣، وقد رأينا فيها سبق أن ابن مسعدة يعتبرها جنة لولا البعوض.

(١٧٦) من الكامل، نفح ١٧٥/١ و ١٧٩، وياقوت، معجم البلدان ٧٣١/١.

(١٧٧) من الوافر، نفح ١٨٠/١ - ١٨١. وفي القرن الثانى عشر ألف أبو بحر صفوان بن إدريس رسالة تتفاخر فيها مدن

الأندلس بأهلها، وفيها عيّرت تدمير بلنسية بصعوبة تموينها، واستمرار حروبها وقتنها. انظر: نفح ١٧٤/١، وزاد المسافر ٩٤.

ويقول السمسيس الشاعر من جانبه، مندهشاً خالة القذارة المؤسفة التي عليها:
 بلنسية بلدة جنة، فيها عيوب متى تختبر
 فخرجها زهر كُله، بداخلها برك من قذر^(١٧٨)

● ● ●

كان الأمير مبشر العامري، والذي تلقب بناصر الدولة، يحكم دانية والجزائر الشرقية ويسخو على ابن اللبانة الشاعر، فرسم لنا هذا لوحة لجزيرة ميورقة:

بلد أعارته الحمامة طوقها كساه حلة ريشه الطاووس
 فكأنما الأنهار فيه عمدة كأن ساحات الديار كؤوس^(١٧٩)

وفي مسح الأمير يقول:

وعمرت بالإحسان أرض ميورقة بنيت مالم يبنه الإسكندر^(١٨٠)

كان يسعدنا أن نعرف الكثير عن الأعمال المعمارية فيها، والتي تعود إلى عظمة أميرها مبشر، غير أننا لا نعرف أى شيء آخر غير ما قالته لنا هذه الأبيات.

● ● ●

وقد رأيت جزيرة شقر، أو الجزيرة دون إضافة، مولد شعراء كثيرين تأثروا بخضرة الإقليم الفخيمة، وجمال الجزيرة الفريد، وست مياه النهر، فأصبحوا رسامين ممتازين للطبيعة، ويكتفينا أن نذكر من بينهم: ابن خفاجة وابن عائسة وابن الزقاق يقول ابن خفاجة:

بين شقة وملتقى نهريها حيث ألقى بنا الأمانى عصاها
 ويغنى المكاء فى شاطئها يستخفر النهى فحلت خباها
 عيشة أقبلت يشهى جناها وارف ظلها لذيد كراها^(١٨١)

● ● ●

وكان يوجد فى شاطئية ثلاثة متدهات شهيرة: الطحاء والقدير والعين الكبيرة^(١٨٢)، وقد مدح شاعر مجهول هذه المدينة وضواحيها:

نعم ملقى الرجل شاطئية لفتى طالت به الرحل
 بلدة أوقاتها سحر موصبا فى ذيله بلل

(١٧٨) من المتقارب، ياقوت، معجم البلدان ٧٣٢/١.

(١٧٩) من الكامل، نفع ١/١٦٩، وأبو القاء، جغرافية، النص، ١٩٠/٦، والترجمة ٢/٢٧١، وترجمة ديحا له فى مقدمة طبعة نفع الطب الأوربية ١/٣٠، وكامبير، مجمل ٣١١ - ٣١٢، وفنيان، فصول غير منشورة حول المغرب ١١٠. وهذان البيتان ينسبان أيضا لابن حمديس. انظر: الديوان، طبعة شيريدى، الملحق ٤٨٨.

(١٨٠) من الكامل، نفع ١/١٦٩.

(١٨١) من الخفيف، عبد النعم الحميرى، لروض المطار، رقم ٢، مادة شقر، ص ١٠٣ - ١٢٦، وعن نهر لجزيرة، انظر فيها سياتى من هذا الكتاب ص ١٩٠ - ١٩١.

(١٨٢) الفلقتندى، صبح الأعشى ٢٣٦/٥.

ونسيمٌ عَرَفَهُ أَرِجٌ ورياضٌ غصنها ثمل
ووجوهٌ كُلُّهَا غُرِرٌ وكلامٌ كُلُّهُ مَثَلٌ (١٨٣)



هذا الاستعراض السريع للمدن في إسبانيا الإسلامية غير كامل حتما، لأن القائمة التي يمكن أن نلتقطها من قصائد الشعراء لا تتضمن سوى المدن الهامة أو التي لها بعض الأهمية، حيث أدت الظروف السياسية إلى أن يحكمها أمراء أو حكام فترة من الوقت سمحت لهم بتشييد المباني الهامة في عهدهم، سواء عاشت بعد عصرهم أم لا، وتناثرت هذه القصور والمتنزهات على امتداد كل الدولة، على نحو يظهر بطريقة مقنعة وواضحة لا مركزية الحكم الذي كان سائدا في شبه الجزيرة نتيجة سقوط الحكم الأموي، ولم يعد الفن الأندلسي محصورا في قرطبة العاصمة، وبدأ المهندسون والمزخرفون يجوبون كل إسبانيا، شأن انشعراء والأدباء، وتشهد لهم أعمالهم، ولم يبق منها غير القليل، ربما لأن تنفيذها تم في عجلة خاطفة وبخامات ضعيفة، بذوق سليم رأى أن يستعاض عن البساطة الشديدة في الفن القرطبي بالأناقة الرفيعة، وهو انعكاس صادق، لا يمكن إنكاره، للحياة الفنية في مجتمع القرن الحادي عشر (١٨٤).

إن قصر المبارك في إشبيلية، والجعفرية في سرقسطة يعيشان في الأطلال المتبقية منها، أما بقية القصور الملكية فأصبحت مجرد ذكرى يخلدها الشعراء في قصائدهم، وضاعت تفاصيلها المعمارية تقريبا، باستثناء ما ورد منها في شعر ابن همديس، وبخاصة أن مناط التأثير كان يرتبط بالمناخ الذي يحاول الشعراء إضفاءه على أوصافهم.

ونلاحظ، واقعا، أن إلهام الشعراء يكتسى عادة ثوب الأسى: فسحر الوطن يزيده البعد فتنة، والمدينة التي تبدو لهم أكثر إثارة للعواطف، وأجدر بالتغنى، هي التي فقدت زينتها من المباني الجميلة وغيرها، وليست تلك التي تفيض بالحركة وتبوح بالحياة، ومن ثم أصبحت قرطبة عاصمة الخلافة ومركز الحضارة الإسلامية منهلا ثرا للشعراء في القرن الحادي عشر، لأنها سقطت وفقدت امتيازاتها الملكية، وتحولت في الجانب الأكبر منها إلى أطلال.

أما عن المدن نفسها فلا يقول لنا الشعراء شيئا عنها، وعبثا نبحث عن تفاصيل تحدد شارع (١٨٥) أو سوق أو باب، ولقد أثارهم القصور لأنهم أحسوا في جنباتها بالجمال المعماري، تمازجه العظمة، وبخالطه الجلال، وربما أيضا لأن في مدح القصر تكريما لسيدته وإطراء. والحق أن المنيات كانت ملهمهم الأول، وضواحي المدن، وبخاصة حيث يجري نهر في حقل نضير.

إن الشاعر الأندلسي لا يستطيع أبدا أن يعيش مدينة مجردة من الحضرة والأشجار!

(١٨٣) من المديد، نفع ١/١٨٦.

(١٨٤) انظر: هنري تيراس، الفن الإسباني العربي من البدء حتى القرن الثالث عشر ٢٠١.

(١٨٥) ما عدا بيتا من الشعر يعطى فكرة قائمة عن الطرق العامة في بلنسية، انظر فيما سبق ص ١٤٠.

○ الفصل الثانى

الوديان والجبال

فى إسبانيا، والجنوب منها بخاصة، وديان تظلّل طرقها الأشجار وتصلح للتجوال، وأنهار وقنوات ترخّب ضفافها بالمتنزهين. وقد ذكرنا عندما عرضنا للمتنزّهات وادى الطلح فى إشبيلية، ووادى العقيق فى قرطبة^(١)، ولم يكن أىّ منها موضوع وصف خاص. وهناك واد نال شهرة عريضة عند أدباء الغرب الإسلامى على نحو ما كان عليه شعب بؤان^(٢) عند المشارقة، وهو وادى آش وحملت اسمه بالإسبانية قرية Guadix.

كم ألهم هذا الوادى من شعراء وشاعرات! وحفظت لنا كتب الأدب أجمل وصف قيل فيه، يراد بعضهم للشاعرة حمدة بنت زياد المؤدّب، ويراه آخرون للشاعرة الغرناطية مهجة بنت عبد الرّاقى:

أباح الدمعُ أسرارى بَوادى	له للحسنِ آثارٌ بَوادى
فمن نهرٍ يطوف بكلِّ رَوْضٍ	ومن رَوْضٍ يرفُّ بكلِّ وادى
ومن بين الظِّباء مهةٌ إنسٍ	لها لَبى وقد ملكت فَوادى
لها لحظٌ ترقّده لأمرٍ	وذاك الأمرُ يمنعنى رقادى
إذا سدلت ذوائبها عليها	رأيت البدر فى جُنح السّادى
كانَ الصّبح مات له شقيقٌ	فمن حُزنٍ تسرّبِل بالسّواد ^(٣)

وتقول فيه أيضا حمدة:

وقبانا لفحةَ الرمضاءِ وادٍ	سقاءهُ مُضاعفُ الغيثِ العميمِ
حلّلنا دوحه فحنا علينا	حنوّ المرضعاتِ على الفطيمِ
وأرتفنا على ظمأ زلالاً	ألذّ من المدامة لنديمِ
يصدُّ الشمسُ أنى وجهتنا	فيحببها ويأذن للنسيمِ

(١) من المناسب أن نضيف إليها وادى الزيتون فى ضواحي سرقسطة، ونجد له وصفا ثوريا فى الذخيرة ٢٨٢/٣، وعنها فى نفح ٥٣٤/١.

(٢) عن هذا الوادى، ويقع فى غرب فارس، انظر: ياقوت، معجم البلدان ٧٥١-٧٥٤، والمتنبى، الديوان. طبعة البرقوقى ٤٨١-٤٩١، والأبيات من الوافر. ويرى بييه عى مينار، المعجم الجغرافى والتاريخى والأدبى لفارس وما يتاخها ١١٤، وكارادى فو، مفكرو الإسلام ١٨/٢، وبلاشير، المتنبى، مختارات بمناسبة عيد الألفى ٦٢.

(٣) من الوافر، نفح ٢٨٨/٤.

● قلت: الدادى، فى البيت قبل الأخير، ثلاث ليال من آخر الشهر (المترجم).

يَرُوعُ حِصَاهُ حَالِيَةَ الْعِذَارَى فِتْلَمُسُ جَانِبِ الْعَقْدِ النَّظِيمِ^(٤)
 إنها أبيات تعبق بحنان حزين يلفه حب عارم للطبيعة، وكافية وحدها لتبرير الشهرة الطيبة التي
 يتمتع بها وادي آش مهبطاً للشعراء الممتازين.



كما رأينا، كانت المناظر الريفية الجميلة، ومشاهد الأعياد في القرى، والأماكن المنعشة من أنهار
 ووديان ظليمة، أشد ما يجذب انتباه شعراء الأندلس، ولم تكن الجبال تتمتع بأية جاذبية فيها يرون، وتبدو
 لهم لا أهمية لها، ولا تثير فيهم غير مشاعر الرعب، فإذا تحدثوا عنها لم يروها إلا من بعيد، وعندما
 يلتقطون من حجمه المستقر على الأرض في قوة واقتدار بعض الصور البلاغية من تشبيه واستعارة،
 يكونون قد أوقوا على الغاية، واستنفدوا كل ما يمكن أن يوحيه إليهم من شعر. وهناك من يظن أن
 البلاد الإسلامية لم يكن بها سوى السهول والوديان، ومع ذلك تقدم إسبانيا الإسلامية للمشاهد في الثغر
 الأعلى قمماً تلجية تعلو جبال البرانس، ومثلها كان يعلو رؤوس جبل شلير قريباً من غرناطة في
 الأندلس، ورسم لنا أحد الشعراء صورة دقيقة للرعب الذي تثيره سلاسل الجبال العالية في نفوس
 المسافرين الذين يسلكون الطرق تحت أقدامها، وكان هذا الشاعر هو ابن خفاجة الذي ترك لنا
 الأبيات الجميلة التالية:

وَأَرَعَنَ طِمَاحَ النَّوَابِيةِ بِاذْخِ يَسْدُ مَهَبُ الرِّيحِ عَنْ كُلِّ وَجْهَةٍ وَقَوْرٌ عَلَى ظَهْرِ الْفَلَاةِ كَأَنَّهُ يَلُوثُ عَلَيْهِ الْغَيْمُ سَوْدَ عَمَامٍ أَصْخَتْ إِلَيْهِ وَهَوَّ أَخْرَسُ صَامَتْ وَقَالَ لَا كَمْ كُنْتُ مُلْجَأُ فَاثِكِ وَكَمْ مَرَّ بِي مِنْ مُدْلِجٍ وَمَوْوَبٍ وَلَا طَمَ مِنْ نَكْبِ الرِّيحِ مَعَاطِي وَكَمْ سَفَرْتُ لِي مِنْ شَمُوسٍ وَأَقْمَرٍ فَمَا كَانَ إِلَّا أَنْ طَوْتَهُمْ يَدُ الرَّدَى فَمَا خَفَقَ أَبْكَى غَيْرُ رَجْفَةٍ أَضْعَفِ	يُطَاوِلُ أَعْنَانَ السَّمَاءِ بِغَارِبِ وَيَزْجُمُ لَيْلًا شَهْبَهُ بِالْمُنَاكِبِ طَوَالَ اللَّيَالِي مُطَرِّقٌ فِي الْعَوَاقِبِ لَهَا مِنْ وَمِضِ الْبَرَقِ حُمْرُ ذَوَائِبِ فَحَدَّثَنِي لَيْلُ السَّرَى بِالْعَجَائِبِ وَمَوْطِنٌ أَوَّاهُ تَبْتَلُ تَائِبِ وَقَالَ بَظِلِّي مِنْ مَطْيٍ وَرَاكِبِ وَزَا حَمٍّ مِنْ خَضِرِ الْبَحَارِ جَوَانِبِ وَبَاتَتْ تَرَاوِي مِنْ عَيُونِ كَوَاكِبِ وَطَارَتْ بِهِمْ رِيحُ النُّوَى وَالنَّوَابِ وَلَا نَوْحُ وَرَقَى غَيْرُ صَرْخَةٍ نَادِبِ

فَرَحَاكَ يَا مَوْلَايَ دَعْوَةَ ضَارِعِ فَأَسْمَعْنِي مِنْ وَعْظِهِ كُلِّ غَبْرَةٍ فَسَلِّ بِمَا أَبْكِي وَسَرِّ بِمَا شَجَا	يَمْدُ إِلَى نِعْمَاكَ رَاحَةً رَاغِبِ يُتَرْجَمُ عَنْهُ لِسَانُ التَّجَارِبِ وَكَانَ عَلَى لَيْلِ السَّرَى خَيْرٌ صَاحِبِ ^(٥)

(٤) من الوافر، نفح ٢٨٨/٤. وهذه الأبيات هي التي نسبها الشاعر المشرقي المنازى لنفسه، ليرفع من قدر مواهبه عند المعري،
 انظر فيما سبق ص ٤٧ من هذا الكتاب.

(٥) من الطويل، الديوان، والذخيرة ٥٨٧/٣، ولنويزي، نهاية الأرب ٢١٧/١.

إن تشخيص الجبل متعظماً خالدٌ يأسى لبؤس البشر الذين يرون بسفحه تعبير مؤثر وجديد في الوقت نفسه، والبيت السادس الذى يذكر فيه أن الجبل مأوى الخارجين على القانون، وموطن المهموم الذى زهد فى الحياة، ورجع إلى الله، يوضح لنا بطريقة أفضل من أكثر الأبحاث طولا الدور الاجتماعى الذى يلعبه الجبل. ولم يتن نادراً أن يحتجى قاطع طريق بأحراش جبل شلير هرباً من العدالة فى نهاية القرن الحادى عشر ولقد سنحت القرصة لابن خفاجة نفسه كى يتحقق من خطر الطرق، فقد كان يوماً راحلاً رُفَقَةً عب الجليل بن وهب، فهاجمها قطاع الطرق، وقضوا على صاحبه، ونجا هو بمعجزة^(٦).

ويؤكد لنا هذا البيت أيضاً أن السكّ والزاهدين فى القرن الحادى عشر وبداية القرن الذى يليه تأثروا بالأفكار الصوفية التى كانت بد وفدت منذ مدة قليلة، فزهّدوا فى الحياة الدنيا، وأحبوا عيش التأمل^(٧).

(٦) الذخيرة ٦٤٨/٣، ونفع ٣١٨/٣، ابن دحية، المطرب ١٢٢.

● قلت: فى الأصل الذخيرة القسم السخ، وأراه خطأ مطبعياً. (المترجم).

(٧) فى القرن الثامن الهجرى = الرابع ستر الميلادى تحدث تدعى إسباني مسلم آخر عن الجبل، وهو ابن الحاج البلقى، ولكن لينتقد المبالغين فى الزهد، وقد لاذوا به. انظر: ابن الخطيب، الإحاطة ١١٧/٢، طبعة القاهرة.

○ الفصل الثالث:

الحداائق والبساتين

إذا كان أهل الأندلس يرون الجبل معدّياً وغير إنسانى فإن أحب ألوان الجمال إليهم ما صنعت يد الإنسان، وتصوير الحداائق من أكثر الموضوعات الشعرية دورانا، فى الغالب، بين كل ما كتب الأدباء المسلمون فى إسبانيا.

وكان الفن الأدبى الذى حمل اسم الرّوضيات، نسبة إلى الروضة، يمثل وحده مادة مستقلة فى أكثر من كتاب، ويظنون أن الأندلس، وإسبانيا كلها، حديقة بديعة، واسعة الأرجاء، تتوزعها الزهور وتتناثر فيها الأشجار، وتتقاسمها الألوان الزاهية، والأوراق النضرة، وسوف نلاحظ أن موضوع الحداائق مرتبط بالربيع، والأمطار فى أول موسمها، تدفع بالخصب، وتعلن نهاية الشتاء، وتبشر بمقدم الصيف، ويتضح لنا من بعض الأمثلة المحددة التى سنأتى بها أن شعراء الأندلس كانوا يكررون أنفسهم، ولا يستحقون أن يذكروا فى هذا الجانب فى عداد الأصلاء أو المجدّدين، فقد سبقهم الشرق فى تناول هذا النوع، ونجده عند معظم شعراء العصر العباسى، من القرن الثامن حتى العاشر، وبخاصة البحترى وابن المعتز والصنوبرى، والذين سبقوا ملوك الطوائف بقليل أو عاصروهم، مثل الشريف الرضى ومهيار الديلمى^(١).

كان شعراء الأندلس فى حاجة إلى كثير من البراعة لكى ينشدوا أشعاراً جديدة فى هذا الجانب، ولم تكن الأفكار غايتهم فى هذا ولا طريقتهم إليه، وإنما اختاروا الألفاظ الأكثر تعبيراً، والكنائيات الأشد حيوية، ولقبوا بعضهم كابن خفاجة بالجنّين، ولا يعنى أن هؤلاء وحدهم يستحقون هذا اللقب، وكل ما هنا لك أنهم أكثر فنا من غيرهم، وهم يحثون عن المستحدث من الكنائيات. والحق أن شعراء نهاية القرن العاشر وبداية تاليه لم يكونوا أدنى منهم فى شىء، وإن كان حظهم من الحديث عنهم قليلاً، ربما لأن أشعارهم كانت أقل ذبوعاً وانتشاراً، فقد ضاعت دواوين شعرهم أثناء الفتن والاضطرابات التى حدثت فى مطلع القرن الحادى عشر ونهايته، والحروب المتصلة التى ميزت هذين العصرين.



يقول فضل بن الأعلم وتنزّه يوماً بحديقة من الحداائق الخضرة قد أطرد نهرها، وتوقد زهرها، والريح يسقطه فينظم بلبّة الماء، ويبتسم به فتخاله كصفحة خضرة السماء:

انظر إلى الأزهار كيف تطلعتُ بسماوة الروضِ المَجُودِ نِجوماً
وتساقطتُ فكأنَّ مسترقاً دنا للسمع فانقضت عليه رُجوماً

(١) يكفى أن نقول أنه بطريقة غير مباشرة صاحب إلهام فارسى.

وإلى سيل الماء قد رقت به
ترمي الرياح لها نثيراً زهره
صنع الرياح من الحباب رقوماً
فتمده في شاطئيه رقيماً^(٢)

ويصف أبو عامر بن مسلمة خيئة «والربيع قد نشر ردها، ونثر على معاطف التصون نداء»
فيقول:

وخيلة رَقَمَ الزمان أديمها
رشت قبيل الصبح ريق غمامة
رشف المحب مراشف المحبوب
وطردت في أكنافها ملك الصبا
مع كل وضاح الجبين حسيب^(٣)
وأدرت فيها اللهو حق مداره

ويثير تنوع ألوان الزهور وأريجها الشاعر أبا القاسم البلّمي:

انظر ونزه ناظريك روضة
لنريك من صنعاء صنعة وشيها
غناء مازالت تراح وتمطر
بطارف من تستر لا تستر
ألوانها شتى وطيب نسيمها
يقضى العبير به ويئسى العنبر^(٤)

وإليك أشعاراً أخرى تصف الحائق دون أن تشير إلى دور الأمطار المفيد، يقول أبو محمد
عبد الله بن السماك:

الروض مخضر الربى متجمل
فكأنما بسطت هناك شوارها^(٥)
وكأنما فتقت هناك نوافج
والطير تسجع في الغصون كأنما
والماء مطرد يسيل غبابه
بهجات حُسن أكملت فكأنها

وقد شَخَصَ أبو أيوب سليمان بن بطل

تبدت لنا الأرض مزهوة
كان أزاهرها أكفوس
كان الغصون له أذرع
وقد أعجب النور فيها الذباب
كان تعانقها في الجنوب
علينا بهجة ثوابها
حدتها أنامل نراها
تناولها بعض أصحابها
فيهزج من فرط إعجابها
تعانق خود وتراها

(٢) من الكامل، المطمح ٣٠٥، وعنه في نفع ٣٣/٤.

(٣) من الكامل، المطمح ٢٠٦، وقد اتمدنا رواية نفع ٥٤٥/٣/٣.

(٤) من الكامل، أبو الوليد الحميري، البديع في وصف الربيع ٢٩، وصنعاء في اليمن، وتستر في فارس مدينتان شهرتا بأقمشتهما
المتأزة. انظر فيما سيأتي ص ٢٨٢ من هذا الكتاب. والعبير عطر مركب، ويدخل في تركيبه الزعفران بخاصة.

(٥) ابن قزمان، الديوان، القطعة رقم ٨٨، الدور ٢٢.

(٦) من الكامل، القلائد ٢٠٥.

كَأَنَّ تَرَقُّقَ أَجْفَانِهَا بُكَاهَا لِفَرْقَةِ أَحِبَّاءِهَا^(٧)
 واتخذ أبو الحسن على بن حفص الجزيري مادة صوره البلاغية من بعض أعضاء الجسم فشيء
 الزهور بأجل مافيه وأغلاه:

كم قد بكرتُ إلى الرياض وقُضِبَها قد ذكّرني موقفَ العشاق
 يا حسنها والريحُ يلحفُ بعضُها بعضًا كأعناقٍ إلى أعناق
 والوردُ خدٌ والأقاحى مبسمٌ وغدا البهارُ ينوبُ عن أحداق^(٨)

واستخدم أبو مروان بن رزين الاستعارات بكثرة في صوره:

وروض كساهُ الظلُّ وشياً مجدداً فأضحى مقيماً للنفوس ومُقعداً
 إذا صافحتهُ الريحُ خلتَ غصونه رواقصٌ في خضرٍ من العصبِ مُيداً
 إذا ما انسكابُ الماءِ عاينتَ خِلتهُ وقد كسرتُه راحةَ الريحِ مُبرداً
 وإن سكتتُ عنه حسبتُ صفاءه حساماً صقيلاً صافيَ المتنِ جُرداً
 وغنتُ به وُزُقُ الحمامِ حولنا غناءً يُنسيكُ الغريضُ ومعبداً^(٩)

ونجد عند ابن خفاجة صورا مشابهة، ولكنها أطرف وأكثر، وأقرب إلى المخاطرة:

سُقياً ليومٍ قد أنختُ بسرحةٍ رياً تلاعبها الرياحُ فتلعّبُ
 سكرى يُغنيها الحمامُ فتتني طرباً ويسقيها الغمامُ فتشربُ
 نلهو فترفعُ للشبيبةِ رايةً فيه ويسطلعُ للبهارةِ كوكبُ
 والروضُ وجهُ أزهرٍ والظلُّ فرٌ عٌ أسودٌ والماءُ ثغرٌ أشنبُ
 في حيثُ أطربنا الحمامُ عتيّةً فشدّا يُغنينَا الحمامُ المطربُ
 واهترَّ عطفُ الغصنِ من طربِ بنا وافترَّ عن ثغرِ الهلالِ المغربُ
 فكأنه والحسنُ مقترنٌ به طوقٌ على بُردِ الغمامةِ مُذهبُ^(١٠)

ويقول اشاعر نفسه:

وكمامةٍ حَدرُ الصباحِ قناعها عن صفحةٍ تندى من الأزهارِ
 في أبطحٍ رضعتُ ثغورَ أقاحِ أخلافَ كلِّ غمامةٍ مدرارِ
 نثرتُ بحجرِ الرّوضِ فيه يدُ الصبا دُررَ الندى ودراهمَ النّوّارِ
 وقد ارتدى غصنُ النّقا وتقلدتُ حلّيَ الحبابِ سِوالفَ الأنهارِ
 فحللتُ حيثُ الماءُ صفحةً ضحكُ جَدَلٌ وحيثُ الشطُّ بدءُ عذارِ
 والريحُ تنفضُ بكرةً لِمَ الرّبي والظلُّ ينضحُ أوجهَ الأشجارِ

(٧) من التفارب، أبو الوليد، البديع ١٤.

(٨) من الكامل، نفع ٦٨/٤.

(٩) من الطويل، القلائد ٥٣، وعنها في نفع ٦٦٩/١، والحلة ١١١/٢، وعن هؤلاء القيان المشهورات انظر فيها بعد ص ٣٣٥

و ٣٣٦ من هـ الكتاب.

(١٠) من الكامل، الديوان، القطعة ٢٩٩، ص ٢٨٩، والذخيرة ٥٦٩/٣.

مُتَقَسِّمَ الأَلْحَاطِ بَيْنَ حَسَّاسِنَ
وَأَرَاكِهٍ^(١١) سَجَّعَ الْهَدِيلُ بِفِرْعَاهَا
هَزَّتْ لَهُ أَعْطَافَهَا وَلَرَّبَّمَا

مِنْ رِدْفٍ رَابِيَةٍ وَخَصَّرَ قَرَارَ
وَالصَّبِيحُ يَسْفِرُ عَنْ جَبِينِ نَهَارٍ
خَلَعَتْ عَلَيْهِ مُلَاعَةَ النُّوَارِ^(١٢)

ونراه في أبيات أخرى له، يمزج بين العَدِّ المباشر والذكريات التقليدية:

وَأَرَاكِهٍ ضَرَبَتْ سِبَاءً فَوْقَنَا
حَفَّتْ بِدَوْحَتِهَا مَجْرَّةً جَدُولٍ
فَكَأَنَّمَا وَكَأَنَّ جَدُولَ مَائِنَهَا
زَفَّ الزَّجَاجُ بِهَا عُرُوسَ مُدَامَةٍ
فِي رَوْضَةٍ جَنَّحَ الدُّجَى ظِلًّا بِهَا
غَنَاءٌ يَنْشُرُ وَشِيَهُ الْبِرَّازِ لِي
نَامَ الْغَبَارُ بِهَا وَقَدْ نَضَجَ النَّدَى
وَالْمَاءُ فِي جَلَى الْحَبَابِ مُقْلَدٌ

تَنَدَّى وَأَفْلَاكُ الْكُؤُوسِ تُدَارُ
نَثَرَتْ عَلَيْهِ نَجُومُهَا الْأَزْهَارُ
حَسَنَاءُ شُدَّ بِخَصَرِهَا زُنَارُ
تُجَلَّى وَنُورُ الْغُصُونِ نَثَارُ
وَتَجَسَّمَتْ نُورًا بِهَا لِأَنْوَارٍ
فِيهَا وَيَفْتَقُ مَسْكُهُ الْعِطَارُ
وَجَهَ الثَّرَى وَاسْتَيْقِظَ لِنُورٍ
زَرَّتْ عَلَيْهِ جَيُوبُهَا الْأَشْجَارُ^(١٣)

وأخيراً نورد له هذه الأبيات:

حُثَّ الْمُدَامَةَ فَالنَّسِيمُ عَلِيلُ
وَالنُّورُ طَرْفٌ قَدْ تَنَبَّهَ دَامِعُ
وَقَدْ انْتَشَى عَطْفُ الْأَرَاكِهِ فَانْتَشَى
وَتَطَلَّعَتْ مِنْ بَرْقِيَّةٍ وَعِمَامَةٍ
حَتَّى تَهَادَى كُلُّ خُوطِيَةِ أَتِكَةٍ
فَالرَّيْضُ مَهْتَرٌ الْمَعَاطِفِ نَعْمَةٌ
رِيَانٌ فَضْضُهُ النَّدَى ثُمَّ انْجَلَى

وَالظِّلُّ خَفَاقُ الرِّوَاقِ ظَلِيلُ
وَالْمَاءُ مَبْتَسِمٌ يَرُوقُ صَقِيلُ
سُكْرًا وَرَجَّعَ فِي الْغُصُونِ هَدِيلُ
فِي كُلِّ أَفْقٍ رَابِيَةٌ وَرَعِيلُ
رِيًّا وَغَضَّتْ تَلْعَةً وَمَسِيلُ
نَشْوَانٌ تَعَطَفَهُ الصَّبَا فِيمِيلُ
عَنْهُ فَذَهَبَ صَفْحَتَيْهِ أَصِيلُ^(١٤)

كما رأينا، كان ابن خفاجة يُلقَّبُ بِالْجَنَانِ^(١٥)، فقد وقف حياته على وصف أشجار الحدائق، وكان أشد ما يشيره من بينها منظر الأوراق الخضراء تتطاير في الهواء، وتتناثر ظلّالها على الأرض، على حين يعتبر الزهور عنصراً مساعداً لتكملة اللوحة، فهو شاعر ريفي يرى الشجرة قبل أى شىء آخر، ودون أن يفرق بين هذه وتلك بصورة واضحة.

ولا تختلف نظرة بقية شعراء الأندلس عنه، فهم لا يقدمون لنا وصفاً محدداً، ولا نستشف منهم بوضوح أحواض الزهور أو أروقة الحدائق، وأبياتهم تذكرنا بجنة العريف حيث تأخذ الحديقة شكل

(١١) هذا الاسم ليس من الضروري أن يحى الشجرة التي تحمل الاسم نفسه في الجزيرة العربية، وعينا حاولنا أن نصل إلى حقيقتها.

(١٢) من الكامل، الديوان، القطعة ٢٣٠ م ص ٣٣٦، والذخيرة ٥٦٨/٣، ونفح ٦٨٢/١ و ٢٠١/٣ (وفي هذا الأخير البيت السابع فقط).

(١٣) من الكامل، الديوان، القطعة ٢٢١ م، ص ٣٥١، والذخيرة ٥٩٦/٣.

(١٤) من الكامل، الديوان، القطعة ٢٩٦ ص ٢٥٤، والذخيرة ٦١٠/٣، ونفح ٢٠١/٣.

(١٥) الديوان ٩، طبعة القاهرة ١٢٨٦ ف، وص ١٤٢ فيها سبق من هذا الكتاب.

روضة حقاً، فقد احتفظوا فيها بالمساحات الواسعة، تغطيها الأشجار الضخمة عالية الظليلة، وتجري تحت أقدامها المياه موشوشة حلوة، وتغمر أحاسيسنا النظارة المنبعثة من تلك الحدائق، تبرز فيها زقزقة العصافير بأريج الزهور.



وكانت انزهور، إلى جانب الحدائق من الموضوعات المفضلة لدى شعراء الأندلس، وانتشرت «التوريات» مثل «الروضيات» غاماً، وإذا لم يكن الغرب الإسلامي قد أبدع شيئاً في هذا المجال فقد تميز على الأقل بتعبيرات أكثر جدية، وأقرب إلى ماهو طبيعي، فيما يتعلق بزخرفة الحدائق. ومن الحق أننا نجد في إسبانيا في القرن التاسع الميلادي شعراء وصفوا الزهور مثل ابن عبد ربّه وصاعد البغدادي^(١٦) وأبي بكر بن القوطية، غير أن أبياتهم، فيما نشعر، تغلب فيها البلاغة على المشاهد الحقيقية، والتظاهر على الإعجاب الصادق.

كان تذوق جمال الطبيعة صفة عامة في القرن الحادي عشر عند كل طبقات المجتمع، وأدى انعدام مركزية السلطة، وما ترتب عليه من قيام إمارات عديدة في كل واحدة منها أمير مستقل، أو شبه مستقل، وله بلاطة الخاص، إلى إسراع كل من يملك ثروة إلى بناء القصور الفاخرة، وسط الحدائق الزاهرة، ولم يحدث أن كان في إسبانيا أبداً مثل هذا العدد من المنيات والحدائق والمتنزهات كما كان في القرن الحادي عشر، وأصبح من العادي أن تلتقى بالورود والأشجار في كل مكان، وأصبح من أماني كل فرد أن يملك قطعة أرض، وأن يغرسها زهوراً ورياحين! وقد عبر رجل من المريّة عن حب الأندلسي بالفطرة لكل ماهو أخضر ومزهر، فقد تحسّر وهو في إشبيلية على زهور الريحان التي خلفها وراءه في داره، وأنها أحب إليه من الجنة، فهو يقول:

غرس الحبس في داري أحبّ عندي من الفردوس^(١٧)

أحب الأندلسي الزهور، ولكن حين تلقى نظرة على ما وصف منها في شعره نجد أنها قليلة، وبعضها يتكرر بطريقة لا فته، مثل زهرة الآس والأقحوان والبنفسج والبهار والترجس وخرم والخيري الأصفر والخيري النعمان والسوسن والثيلوفر والورد والياسمين وأنواع أخرى تحيي عرضاً مثل الجلنار ونور الرمان وشقائق النعمان والزيان ونور الكتان ونور اللوز والترجس القادوسي ونور الباقلاء، أو نور الجرجير، والغالبية^(١٨).

وسنعرض كيف رأى شعراء الأندلس كل زهرة من هذه الزهور، غير أننا لن نترجم هنا أبياتاً كاملة من القصائد، وإنما سنكتفي بذكر الخطوط الرئيسية، ونحتفظ لنهاية الفصل بإيراد بعض

(١٦) عن هذا الشاعر الذي قدم الأندلس من المشرق انظر: ر. بلاشير، طليعة الثقافة العربية المشرقية في إسبانيا في القرن العاشر: صاعد البغدادي، في مجلة هيسبيريس، المجلد ١٠، عام ١٩٣٠، ص ١٥ - ٣٦.

(١٧) نفع ٣٨٩/٢، وانظر فيما سبق ص ١٢٧ من هذا الكتاب.

● قلت: أخذ المؤلف هنا برواية دوزي لهذا البيت، والصيغة الأوربية من نفع الطيب، والبيت ينكسر معها، والرواية الثانية، وهي الأصح لأن الوزن يستقيم معها «العروس» بدل «الفردوس»، والعروس من متنزهات إشبيلية.

(١٨) من المثير أن أندلسي القرن الحادي عشر لم يصفوا من الزهور القرنفل ولا الحبق، ولا الزهر ولا الياصمين ولا المردقوش ولا الدفلى، وكلها من زهور حوض البحر الأبيض المتوسط الشائعة.

المقطوعات الممتازة والمعيرة كاملة، وترى أنه ليس من الضروري أن نذكر مع كل وصف اسم شاعره، ويكفى أن نذكر هنا أننا اعتمدنا على كتاب «البدیع فی وصف الربیع» لأبي الوليد احمیری، المتوفى عام ٤٤٠ هـ = ١٠٤٨ م، وسبق أن أشرنا إليه.

● زهرة الآس:

اسم الآس هو المتداول، وتسمى أحياناً «الريحان»^(١٩)، وهذا الاسم الأخير هو الذى دخل اللغة الإسبانية في صورة Arrayan، وما جذب الشعراء إليها ألوانها المختلفة الأنواع، وأريجها العبق الرائحة، وتشبه ساقها الزهرة التى تزهى في كل الفصول، وخلفها الصغيرة تشبه لمة الشعر أو غدائره المتداخلة المتربة الشعثاء، وخضرة اليات الداكنة أوحى إلى الشعراء بصفات وتشبيهات تسيطر عليها فكرة السواد، وبخاصة أن الأوراق بها تجاعيد كثيرة، مثل زنجى مجمد الشعر أو موج.

والنمرة بيضاء أولاً ثم سوداء عندما تنضج، تخالطها نفاط سوداء بين المرحلتين، يراها الشاعر سبجاً أو سندساً زاهى اللون، وتذكرنا الشمار بالأزرار بيضاء أو سوداء تبعاً لدرجة نضجها، والمزن تغطى زهرة الآس بحلة خضراء لها أزرار من المسك الأسود والكافور الأبيض.

ولكنهم لم يحدوا العطر بوضوح. والشذا المنبعث منه يوحى بالهدوء وراحة النفس، مما يجعلنا نظن بأنه قطعة من الجنة، ويستخدم الشعر الأندلسى عادة لتسمية الأزهار التى تتلألأ أوراقها كالأنوار تلمع في ظلمة الليل الداكنة، أو مثل النجوم تسطع في سماء شهباء الأديم، كلمة «نور» لتي تلتقى في صوتياتها مع كلمة «نور» تلاعباً بالألفاظ، ونلتقى أحياناً بكلمة دامشنة الفارسية مختصرة إلى رامشة^(٢٠).

● زهرة الأقحوان:

تعنى كلمة أقحوان في الغرب الإسلامى الأقحوان الأبيض، ويجذب الشعراء إليها تقابل ألوانها بين أصفر وأبيض أحدهما يتوسط الآخر، وهذا ما حاولوا أن يصوره في تشبياتهم.

فالأقحوان كأس من الفضة يعطى قاعها الذهب النضار، أو كوكب من الذهب سقط في مها أبيض، أوجام من المها تخلف فيها تبيذ مذهب، ويراه شعراء آخرون نقر من التبر في مداخن من الفضة، أو مداخن من الفضة في مه صُنعت بفن ومُلئت بالزعفران، أو هى در أبيض امتلأ عسجداً، أو لؤلؤ مرصوص حول فصوص من الياقوت الأصفر.

وأحياناً يوحى الشكل المدور لتكتلة صفراء تتكون من جمع من الزهور الصفراء الصغيرة، وسط أوراق بيضاء، بصورة بلاغية، تُشبه فيها بالعيون المشدودة، أو بعيون تذرف دموعاً بيضاء، ولو أنها توحى عدة بالأفواه المبتسمة، أو كما قال أحد الشعراء بقم أسنانه الأوراق ولتته الكتلة الصفراء، وهى تشبيهات تتضمن دائماً فكرة الضحك والمرح. وقطرات الطل وراء هذه السمة الضاحكة، فهى تروى

(١٩) انظر مثلاً ص ٥٥ فيما سبق، رص ١٧٠ فيما ساق من هذا الكتاب.

(٢٠) عن هذه الكلمة انظر: دوزى، تصريبات ٨٦ - ٦٧ وإحالات الأغاني المذكورة هناك، والحفاجى. شفاء الغليل، طبعة القاهرة، ص ٩٤ حيث يذكر بيتاً من الشعر لأبي نواس، معتمداً على الصولى، والفيروز ابادى، القاموس ٢/٣٥٠، مادة رمش، وابن زيدون، الديوان ص ١١٩، طبعة القاهرة. وتعليق الناشرين، والحلة.

تويجها بدموع الفرع، لأن مياه السماء تهب دائها الحياة وتجلب السعادة: «تفرها يبتسم عند ما تبكى السماء، وتزرف الدمع غزيراً».

ومن النادر أن نقع على تشبيه بالأقمشة أو الملابس: «إنها برود بيضاء، وشتها عيون الندى الغزير بالتبر». وفيها يبدو لم يجذب عطر الأفحواں الشعراء، وهو أمر طبيعي، لأن شذاه ضعيف أو غير مستحب.

باختصار، لم ير أهل الأندلس في هذه الزهور إلا الأفواه الضاحكة والجواهر الثمينة.

● البنفسج:

كانت زهرة البنفسج من بين ما عشق العامريون منذ المنصور بن أبي عامر حتى آخر ممثّل لهذه العائلة الكبيرة في القرن الحادى عشر، وازينت حدائق العامريين القريبة جداً من قرطبة بالبنفسج والترجس والسوسن والورد، وعرفنا هذه الزهور في عهد أكبر وزراء بني أمية من خلال قصائد صاعد البغدادى، وأبي مروان عبد الملك بن إدريس الجزيرى.

وفي القرن الحادى عشر انتشرت هذه الزهور في كل مكان، ويصفها الشعراء مستقلة أو في حدائق، ولم يحاولوا أن يكتبوا موضوعات متنوعة عن الكبريت يشتعل، فيضفى على الأوراق لونا أحمر مائلا إلى الزرقة، لأن هذا الباب أغلق نهائيا فيما يبدو منذ أن تناوله أبو العتاهية المتوفى عام ٢١٠ هـ = ٨٢٥ م، أو ابن المعتز، المتوفى ٢٩٦ هـ = ٩٠٨ م^(٢١)، فبحثوا عن شيء آخر، ووجدوا العوض في تشبيهها بأثار عضة على خد المحبوب، أو في صدره، وتحيروا في وصف اللون الذى يميز هذه الزهرة، وكلماتهم في وصفها تذكرنا باللون الأزرق والفيروداج كقطعة من السماء، والأحمر والأصفر مثل الياقوت، والأسود كالمسك، والأحمر الداكن مثل الفرساد، أى التوت، واللّمس الأحوى، مما يسمح لنا أن نعتقد أن هذا الوصف ينطبق على زهرة الثالوث وليس على البنفسج.

وأجمل الصور تشبيهاً أجنحة الفراشة مصبوغة بلون توت البستان، ويقل عنها في الجمال وصفها بخضر الحمام المطوّق. والأوراق الخضراء تمتد كبساط تقودنا إلى كلمة زمرد أو اللّجة، وتصبح الزهرة بتجميع هذه الأفكار جوهرة تصلح لتزيين قرط أو سوار كبير، ويسمونه الدُمْلَج، أما العطر فنادرا ما يتعرضون له.

● البهار:

يتحدث الشعراء عن البهار، وهو تحريف للكلمة القديمة عيهر، ويقصدون بذلك الترجس الأصفر، أو جانباً منه وهو المصفر، تمييزاً له عن الأصفر العادى^(٢٢)، أو الترجس القادوسى، والذى لا يوجد إلا في إسبانيا، ويتضح التباين جلياً بين البهار، وهو نرجس الشعراء، وبين الترجس الأصفر، في مقطوعات الشعر التى جمعها أبو الوليد الحميرى في كتابه «البديع في وصف الربيع».

(٢١) ابن المعتز، الديوان ٣٠٤، ومجموعة النظم واثر ٥٧، والشريشى، شرح مقامات الحريرى ٥٤٨/٢، وحمة فتح الله، المواهب الفتحية ٢٤٠/١، والغزولى، مطالع الورد ١٠٧/١ (وفيه منسوبة إلى مجهول).

(٢٢) الشريشى، شرح مقامات الحريرى ٣٢/١ أوضح ضارباً الأمثلة أن الترجس عند الشرقيين هو البهار عند الأندلسيين، والعكس صحيح.

وقد حاول شعراء الأندلس فيه يتعلق بنرجس الشعراء وصف ثلاثة ألوان منه: لون الساق والأوراق وهو أخضر، والجزء الأوسط من الزهرة نفسها وهو أصفر، وأوراق الزهرة وهي بيضاء. ويقول الشاعر: «النرجس غصن من الزمرد، به أوراق من الفضة، زهرتها من الذهب النضر». أو «البهار ياقوتة صفراء، تتزين بها أيد رقيقة بيضاء، أو ياقوتة صفراء أخفت معصمها خوفاً من الحسود في مطارف خضراء، وأبدت الفضة»، أو من شدة حيائها أخفت معصمها عن الحسود في أنعام خضراء.

وهي «مداهن من التبر، في أصاح من الفضة، لأذرع من زبرجد». وهذا الشاعر، كما ترى، يفرط في تشبيه أوراق الزهرة بالدر الأبيض، وقلبها بالياقوت، وساقها بالزبرجد، ويقول آخر: «إنها سبانك من الفضة وضعت فيها كؤوس من الذهب الإبريز»، وقد يراها إنساناً حياً، و«كأن الأرض خمار تظهر منه أيدى الكواعب الحسن القوية تمسك بكؤوس بيضاء تمتلئ بالنبيذ الذهبي». أو «أيد من الكافور الأبيض تشير إلى الربيع بكأس من الذهب» أو «جذوة نار وسط ماء متجمد في ردائه الأبيض الناصع»، أو «درة بيضاء وضع في وسطها ياقوت أصفر فاقع»، أو «زمرد أغصانه كزهور اللؤلؤ، تتزين بياقوتة لونها أصفر فاقع كالذهب يسيل على اللجين». ويحدد أحد الشعراء أوراق الزهرة فيقول: «إنها غصن من الياقوت الأصفر، رصدت حوله ست درر»، ويصف النرجس القادوسى بأنه «مثل جيد من التبر يتحلى بطوق من الفضة».

وإلى جانب هذه التشبيهات المستمدة من الأحجار الكريمة والجواهر، والصناعات الفنية^(٢٣)، فهناك من يشبهها بالعيون.

فهى «مقلة تبت الندى شكواط من السهاد» و«عيون تسلل النوم إلى أجفاتها، تغوص في محجريها، ولا تعرف للراحة في الليل طعماً»، و«عيون نظراتها متعبة، ورموشها درر، ومقلتها ياقوت أصفر» وعندما ننظر إلى النرجس سول: عيون خليعة، تتمايل ثملة وناعسة. وهذه الإشارة إلى وضع النرجس المائل نادرة.

و«سحر جفون النرجس مثل مقلة العين التي يداعبها النوم»، وكما أشرنا من قبل، نادراً ما نجد إشارة إلى وضع النرجس المائل، وهذه إحداها، ولكنها تبدو مريبة، «يدلى من النرجس حجاجم رقيقة.. كأنسان يدير وجهه عن متحدث لا يروقه».

وعلى النقيض، فإن تشبيه الأصفر والأبيض بالأحبة كثير، فالأبيض هو المحبوب جامد الشعور، والأصفر هو الحبيب الذى يغافى من قسوة المحبوب»، و«كأن النرجس بلونه الأصفر حبيب ارتدى ملايس الحداد البيضاء بسبب الراق»^(٢٤)، و«اجتمع الحبيب والمحبوب فى لونه الأبيض والأصفر، وتأخذ الشفقة بالحبيين فيسرع بالإزهار فى وسط الزهور».

(٢٣) وتوجد هذه الإشارة عند شاعر من القرن العاشر، هو ابن القوطية:

قد بعثنا إليك يا خيرَ ناشٍ
بالدنائر فوق محضِ الدرهم
لم يسسْ طبع هذه جعفرٌ قسطٌ ولا ضربٌ تلك راحة قاسم

وهى من الخفيف، انظر: أبو الوليد المسيرى، البديع ١٠٢.

(٢٤) عن الحداد والحزن في إسبانيا المرح ٢٦٦ فيما سأتى من هذا الكتاب.

وتغنى الشعراء أيضا بالترجس لأنه من انزهو التي تظهر قبل أن يخلى الشتاء مكانه للربيع. ويوصف عطر الترجس عادة، وهو نفاذ، بالمسك والزعفران.

● الترجس الأصفر:

بالإضافة إلى البهار أعطى أهل الأندلس أهمية كبرى للترجس الأصفر، وهو بالدقة أصفر فعلا، إلا في حالات نادرة، ولا نعتقد أن من الخطأ تسميته بالترجس الأصفر. وطبيعي أن يسود اللون الأصفر هنا، وسيرد أيضا ذكر الساق الأخضر، وهو تبر على أغصان من الزمرد، وقاعدته خضراء وأعلاها أصفر، ويراه الشاعر زمردا انتصب يحمل فوقه ذهباً، أو يقف على سيقان خضراء ترتدى معطفا من الحرير السندسى، أو زبرجدا فوقه ذهب نضار.

وتناول الشعراء اللون الأصفر لأنه سائد، ومن المتوقع أن نجدهم يتخذون من الحب مادة لصورهم، كما حدث في ترجس الشعراء، فالترجس الأصفر عين ذابلة، أو يدنو مرهقا، وهو ساهم النظرة كأنه يعاني من عذاب الحزن، ويغض الحاظا مرأى تحفها الرموش، وتترقق فيها دموع المحب» واستيقظ ليفتح عيوننا متعبة لا ترمش، وعطره أشد نفاذاً من المسك، وتتبعث منه أجمل الروائح، وأريج نفاذ، وحين نشمه نشعر أنه مفعم بالمسك، ويستقبلك شذاه حتى قبل أن تراه.

● الترجس القادوسى:

هكذا تسميه العامة في الأندلس، تشبيها له بالقادوس على لغتهم، وصوابه القدس، ولم يصفه إلا شاعر واحد هو أبو الحسن بن علي: (٢٥)

فِي التَّرْجِسِ الْقَدْسَى النُّورَ وَالْقَصَبَ	خُسْنٌ يَفُوقُ بِهِ تَرْبِيَهُ فِي النِّسَبِ
لَهُ مِنَ التَّبَرِ كَأْسٌ قَاعُهُ لَحْجٌ	مُوسِعٌ الْعُلُوِّ قَدْ أَبْدَاهُ لِلْعُجْبِ
مَسْمُومٌ طَيِّبٌ إِذَا اسْتَنْشَيْتَ زَهْرَتَهُ	وَطَرَفٌ أَنْسٍ إِذَا مَاشَتْ لِلنَّخْبِ
وَمِثَالُ الْجِيدِ مِنْ سَكْرِ النِّعَمِ بِهِ	حَكِي ثَنَى الثَّمَلِ الْمَشْغُوفِ بِاللَّعِبِ
كَفَادَةٍ ثَوْبَهَا مِنْ سِنْدَسٍ طَلَعَتْ	لِلشَّرْبِ فِي كَفِّهَا كَأْسٌ مِنَ الذَّهَبِ
فَكَيْفَ يَعْقِلُ حَظَّ النَّفْسِ مِنْ طَرَفٍ	مَنْ كَانَ يَلْحَظُ هَذَا الْحَسْنَ مِنْ كَتَبِ (٢٦)

● الحُرْم:

وهو السوسن الأزرق فيها يبدو، ولكن بعض الأوصاف التي تشير إلى أخاديد توجد فيه تثير الشك (٢٧)، وهو في لون الكحل على ما يقول أبو بكر بن نصر:

وما الحُرْمُ الكَحْلِيُّ إِلَّا كَأَنَّهُ مِنْ الْحَسَنِ طَرَفِ جَالٍ فِي الْجَفْنِ إِثْمَدُهُ
ولونه كالفيروز الأزرق، جرى وسطه ذهب مشرق، في قول الوزير أبي عامر بن مسلمة:

(٢٥) يشير أبو الوليد الحميري، في البديع ص ١٧٠، إلى أن هذا النوع من الترجس لا يوجد في إشبيلية.

(٢٦) من البسيط، المصدر السابق ١١٧.

(٢٧) دوزى في تكملة المعاجم ٣٦٧/١ لم يترجم هذه الكلمة، ورينو وكولين، في تحفة الأحياء، باريس ١٩٣٤، المجلد ٢٤ من P.

I. H. E. M. ١٦، رقم ٢٨، يذكران: «irisá : iris azul أى السوسن الأزرق»، مما يؤكد ترجمتنا.

أَلَا حَبَّذا السَّوسَى الْأَزْرَقُ وَبَا حَبَّذا حُسْنُهُ مُوَيْقُ
حكى لونه لَوْنٌ سِرُّوْجٍ جَرى وَسَطُهُ ذَهَبٌ نُشْرَقُ

وتلمع في هذه الصورة الأخيرة المدقة والسداة عضوا التأنيث والتذكير في الزهرة، وتقابل الأبيات التالية بين السوسن الأزرق والزنبق الأبيض، فقد رمى بازدياء حلة أخيه البيضاء ليرتدى حلة زرقاء، يريقها مستعار من الساء، ولو ارتدها الطاووس هنأته باقي الطيور كما لو كان ملكها، وهي لأبي عامر أيضا:

بِزٍّ ثَوْبَ الْبَهَاءِ وَاللَّأَلَاءِ زَهْرُ الرُّوضِ خَيْرُ النَّصْحَاءِ
عَافَ ثَوْبَ الْبَيَاضِ لَيْنَ أَخِيهِ وَتَرْدَى بِحِلَّةٍ زَرْقَاءِ
لَتَرَاهُ الْعَيُونُ فِي حِلَّةٍ يَخُ حَكَّى سَنَا نَوْرَهَا أَدِيمَ لِسْمَاءِ
لَوْحَاهَا الطَّاوُوسُ أَصْبَحَ لَا شَكَّ لَكُ مَهْنًا بِمَلِكِ طَيْرِ الْهَوَاءِ

● الخيري الأصفر:

يمايز الشعراء بين الخيري الأصفر^(٢٨) والنَّمَامِ دون أن يستطيعوا تحديد الفرق بينهما تماما وبدقة، وحتى فيها يتصل بعطرها، وهو لا يعقب إلا ليلاً. فلنحاول أولاً أن نرى كيف رأوا الخيري الأصفر:

لقد صَوَّرَهُ يَوْسُفُ الرَّمَادَى لَصَا يَسْتَقِظُ اللَّيْلَ وَيَنَامُ آثَاءَ النَّهَارِ:

وَتَرَى الْخَيْرِيَّ مُكْتَتِيًّا مِثْلَ لَصٍ كَادَ أَنْ يَنبَا
فَإِذَا مَا اللَّيْلُ سَتَرَهُ أَظْهَرَ الْفِتْكَةَ وَاسْتَلْبَا

ولونه أصفر كالذهب النضار، ولا ما يعقب به من أريج، ويرى الوزير أبو عامر بن مسلمة أن الأصفر منه أرفع أنواع الخيري:

أَصْفَرُ الْخَيْرِيِّ عِنْدِي أَرْفَعُ الْخَيْرِيِّ قَدْرًا
فَهُوَ لَا يَمْنَعُ عَرْفًا وَهُوَ لَا يَحْمِيكَ عَطْرًا
مِثْلَ لَوْنِ الذَّهَبِ الْخَالِ لَصٍ لَكِنْ فَاقَ نَثْرًا

ويره أبو عمرو القسطلي أعفر قد استعار لونه من الترجس:

أَعَارَهُ النَّرْجِسُ مِنْ لَوْنِهِ تَفَضُّلاً وَازْدَادَ مِنْ عَيْبِهِ

وفيه يتعلق بأريجيه يبدو أن هناك لبساً بينه وبين النمام، فهو يخفى شذاه أثناء النثر ويرسله خلال الليل، يقول أبو عامر بن مسمة:

وَالْخَيْرُ فِي الْخَيْرِيِّ إِلَّا أَنَّهُ يُخْفِي النَّسِيمَ نَهَارَهُ بِالْمَجْلِسِ
وَيَذِيعُهُ بِاللَّيْلِ فَهُوَ بِفَعْلِهِ وَبِصْنَعِهِ هَذَا صَدِيقُ الْجِنْدِسِ

وإنما يبت أريجيه ليلاً لينعم به الساهرون فيما يرى أبو بكر بن نصر:

وَاعْجَبَ الْخَيْرِيُّ الرَّيْثِيَّ فَإِنَّمَا هُوَ بَيْنَ أَنْوَارِ الرِّيَاضِ خَيْرُ

(٢٨) لفظ المنثور ويطلق أيضاً على الحلى الأصفر قليلاً ما يستخدمه شعراء القرن الحادي عشر.

بالليل للسمار ينشر نشره
قباذا أضاء الصبح أخفى نشره
لينال ردغ نسيمه السمار
وتمزقت من دونه الأوطار

ويرى ابن القوطية أنه يخفى شذاه مع إشراقة الصباح:

من أين للخيرى اللثيم طلاقه الـ
مُستتر طول النهار بعرفه
سَمَحَ الكريم ولن يزال بخيلا
كى لا يرى لنسيمه مسؤولا
حتى إذا طرق الظلام سخا به
إذ لا يرى إلا القليل سؤولا

ويتمتع برائحة المسك النفيس فيها يقول الفقيه أبو الحسن بن علي:

أرى أصفرَ الخيرى يبدى من الضى
ويكذبُه سحرُ بأعين نوره
تباريحُ مكومِ الفؤادِ سقيمِه
وقضبُ له تندى بماء نعيمه
وعرفَ ذكى يقصر المسك دونه
ولا يبلغ الكافور طيب شميمه

ويراه أبو علمر بن شهيد كالحبيب المهذب، يهرب من حبيبته في الصباح ليتقرب إليها في المساء:

وكأنما خيرها تحت الدجى
يرجو زيارة من يحب لوعده
بين الأزهير قام كالمتطلع
كلّفا فبات مراقبا لم يهجع

ويصفه أبو الوليد الحميرى بأنه كالسكير لحذر، يترك الكأس صباحا ويشربها على عمد مساء:

هو أشهر الخيرى حسنا فاحبه
متزّه عن أن يرى مُستهترا
من بينه بتحية وسلام
إلا إذا اكتحل الورى بنام

أما ابن القوطية فيرد تفوقه إلى عطره ينتشر آناء الليل وأطراف النهار، وفي المساء وفي الصباح:

وأصفرَ نرجسى اللون نمام
زها اعتلاء على النمام يجمعه
مُبرّا من صنوف النقص والذام
به اسمه فعل ذى لب وإلهام
فقال: لى الفضل إنى فى النهار وفى
ليلي أتم وفى صبحى وإظلامى

وبعض التفاصيل النباتية أو الصيدلية المتصلة بتكوينه تستحق أن نقف عندها، فهو «كرنبى الخليقة»، ورائحته كريهة إذا قُطِف قبل تفتحها أو عندما يذبل، أو هكذا يراه ابن القوطية:

ما للكرنبى الخليقة يبتغى
زهمُ المشم إذا تقادم قطفه
ففضل الرئيس المعتلى تخيلا
شيئا قليلا أو أحس ذبولا

وعندما نقرأ كتب الأطباء، أو الحكماء إذا شئت، بحثا عن منافع النوار نجدها غير معروفة.

● الخيرى النمام:

ويفوق الخيرى الأصفر فى جماله وأريجِه، ويقول أبو الوليد الحميرى، معللا صفرة الخيرى: إنها غيرة من النمام وحسد له وكآبة:

أصفر من حسد له وكآبة
لما شأه بحسنه البسام

والشاعرُ نفسه يرى أن الخيرى الأصفرَ عشق الخيرى النمام حقا، حتى أصبح الذبول داءه، وكست
الصفرة لون زهره:

كأنما الخيرى مستهترٌ بالحُبِّ قد أنحلَّه العشقُ
صفرتُه تنطقُ عن حالِهِ وربُّ حالٍ دونها النطقُ

ما الصفات المميزة للنمام إذرة؟ له لون النحاس عند ابن القوطية:
وإنَّ لَوْنَكَ من لونِ النحاسِ وَلَوْ في في ملاحته ضَرْبٌ من السامى
ويراه أبو القاسم بن شبراق بنفسجى اللون:

وبنفسجى اللونِ يَكْتُمُ طيبُهُ عند الشروقِ وفي الظلامِ يَنُفُّ يَهْ

وعرض له ابن القوطية في أبيات أخرى، فيرى ملابسه مصبوغة باللون الأحمر ورائحته تعبق
مسكا، وأخذ حلاه من ظلمة آخر الليل، ويشبه البنفسج في لونه، وكأنه سرته منه:

ومضجُ الأثوابِ يسكنُ النفسَ فكأنما اشتقتُ حُلاه من الغلسِ
شركُ البنفسجِ في الأديمِ فلونُهُ من لَوْنِهِ فكأنه منه اختلس

ولون شفاهه أحمر داكم كأنَّ الشمسَ قَبْلَتْهُ، أو هكذا يراه أبو على إدريس بن اليماني:
مراشفُ الخيرى حوَّ لُغْسُ كأنه قد قَبْلَتْهُ الشمسُ

وفيا يتصل بأريجيه ليس ثمة فرق بينه وبين الخيرى الأصفر، فرائحته ليست طيبة أثناء النهار، يقول
أبو مروان المرادى:

يَنُفُّ الإِظْلامَ طيبٌ سيمِهِ ويخفى لدى الإِصباحِ كالمستَرِّ

وخلال النهار كله لا تقربه أنفه من يحب الروائح العطرة، أو الشمام كما يدعوه ابن القوطية:
وأنه يأمُدعى اسمى طول يومك لا تُدنى أطراحًا إلى خيشومِ شَمَامِ
وهذا العيب لا نجده في الخيرى الأصفر، لأن هذا يعبق أريجيه في الليل والنهار على السواء،
كما يقول أبو الحسن بن على:

وسَيَّان طيبًا ليلُهُ ونهارُهُ وليس خصوصُ الخيرِ مثلَ عمومِهِ

وهو يبعث عطره في الليل بسخه، شأنه في ذلك شأن الأديب، ليلُهُ نهارُهُ، فهو يعشق السهر، وينام
الضحى، ويخاف الصبح كأنه رقيب عليه، وهو يخشى طلوع الرقيب، يقول أبو اليزيد الحميرى:

نهارٌ خيرِيَّكَ في ليلِهِ كذاك الليلُ نهارُ الأديبِ

يَنُفُّ فيه وينام الضحى تصاوتًا عن كل أمرٍ مغيبِ

كأنما الليلُ حبيبٌ له فهو إذا حل اكتسى كل طيبِ

كأنما الصبحُ رقيبٌ له فيرعوى عند طلوعِ الرقيبِ

وفي أبيات تنسب لعبادة بن ماء السماء يشبهه بفتية من القرن الحادى عشر يرتدى ثوب النفاق،
فيزهد نهارًا، ويفتك ليلا، وهى تحمل نقدا اجتماعيا واضحًا:

وَكأنُ الخَيْرِيُّ فِي كَتْمِهِ الطَّيِّبَ بَ فَقِيهٌ مُغْرَى بِطُولِ رِياءِ
يُظْهَرُ الزَّهْدُ بِالنَّهَارِ وَمُتَسَيِّراً فَاتَكَا لَيْلَهُ مَعَ الظَّرْفَاءِ^(٢٩)

وليس من السهل تحديد طبيعة الخيرى النمام، وهو ليس الزعتر وفقا لكل الاحتمالات وسنحاول أن ندعوه «الخيرى الأزرق»^(٣٠)، وربما لا نبتعد عن الحقيقة إذا ما رأينا فيه زهرة الثالوث Le Pensée.

● السوسن الأبيض^(٣١):

ويقال له أيضا السوسان، وتكررت في الشعر الصورتان، وتردد الاسمان، بالألف وبدونه، والأبيات التي تصف السوسن الأبيض كثيرة جدا، فقد حاول الشعراء رسم لون هذه الزهرة بخاصة، وشكل التويج الأبيض، والمبسم الأصفر، وهو عضو التأنيث فيها، ونادرا ما يجئ ذكر الساق التي تحمل الزهرة في وصفهم. وهم يصفونه بأنه «عيون من الذهب، وأجفانها من اللؤلؤ، فوق غصن من الزمرد الأخضر»، يقول أبو مروان عبد الملك بن سعيد المرادى:

كَأَنَّ جَنَى الْوَرْدِ أَحْدَقَ حَوْلَهُ جَنَى سَوْسَنِ مُسْتَطَرَفِ اللَّوْنِ إِزْهَرَ
خَدُودُ الْعِذَارَى الْمَخْجَلَاتِ تَحْفَهَا عَوَارِضُهَا مُبِضَّةٌ لَمْ تُخْفَرْ
وَأَعْيُنُ عَقِيَانٍ بِأَجْفَانِ لَوْلُؤٍ عَلَى كُلِّ فَرْعٍ كَالزَّمَرْدِ أَخْضَرَ
وهو ذهبٌ يَنمو عَلَى كَافُورٍ عِنْدَ ابْنِ عَبْدِ رَبِّهِ:

وَتَرَى السَّوْسَنَ الْمُنْعَمَ يَحْكِي ذَهَبًا نَابِتًا عَلَى كَافُورٍ

وشكل التريج المقطوع يوحى بمنظر ياقة قميص ممزقة في يوم وداع، يقول أبو الحسن جعفر بن عثمان المصحفى:

وَكأنَّمَا السَّوْسَانُ صَبٌّ مُدْنَفٌ لَعِبَتْ يَدَاهُ بِجَنِيهِ الْمَشْقُوقِ
يَوْمَ الْوَدَاعِ وَمَزَّتْ أَثْوَابُهُ جَزَعًا عَلَيْهِ أَيْمًا تَمْزِيقِ

ويراه أبو بكر بن هُدَيْلٍ كُتُوسًا مِنْ أَيْلُورٍ امْتَلَأَتْ تَبْرًا:

كَأَنَّ جَنَى سَوْسَانِهَا فِي سَنَى الضَّحَى كُؤُوسٌ مِنَ الْبَلُورِ قَدْ حُشِيَتْ تَبْرًا

ويراه أبو الحسن بن علي بن أبي غالب كُؤُوسًا مِنْ قِصَّةٍ غَيْرِ مُحَلَّاةٍ بِالْحَفْرِ:

وَمِنْ سَوْسَنِ غَضُّ النَّيَاتِ كَأَنَّهُ كُؤُوسٌ لُجَيْنٍ لَمْ تُشْنِ بِنِيَالِ
إِذَا مَابَدَا فِيهَا الْحَبَابُ حَسْبُهَا سَوَالِفُ غَيْدٍ قَلَدَتْ بِلَالِ

(٢٩) من اخفيف، أبو الوليد الحميري، البديع ص ١١١.

(٣٠) يؤكد هذا الفهم عالم مغربي في النبات، أبو محمد القاسم بن محمد الفسافي، في كتابه حقائق الأزهار، مخطوطة الرباط رقم ٧٦٠، وأيضاً سراج القطر يتحدث عن الحللى الأزرق والأصفر (الخيرى)، ويقول إن الأول يسمى «البنفسج الليلي لأن رائحته تنتشر خلال الليل». انظر: رينو وكولين، تحفة الأحباب، ص ١٦٣ رقم ٣٧٤. ويضيف هذان المؤلفان أن الحللى الأزرق نوع من Malthiola annua وأن الأصفر هو Cheiranthus Cheiri. ويرى مجود فروى - ديومين في كتابه سوريا، ص ٢٦ رقم ٥ أنه Thymus serpyllum.

(٣١) عن هذه الكلمة انظر: دائرة المعارف الإسلامية ٥٩٨/٤، وكتب المادة روسكا.

بينما يراه أحمد بن فرج الجبائي كؤوساً من الفضة بها آثار لون خمر ذهبية:

بعثتُ بشوسنٍ نُضِرَ يَنْمُ كَجُونَةِ العَطْرِ
كأكُوسٍ فضةٍ فيها بقايا شَهْلَةِ الخمرِ
أو الوجناتِ منك دنتُ إلى وجناتِ الصفرِ

وقدّم لنا أبو عامر بن مسلمة صورة أكثر طرافة، فقد رآها كؤوساً من البلور، سداسية الشكل، في داخلها ألسنة منك، وهو عضو التذكير في الزهرة، وفي الوسط ميسم اختير ملكاً، وأخذ تكل «ميم» في تقوسه، وحبره من الذهب الذائب الذي يكسبه اللون الأصفر:

كانه أكُوسُ البلورِ قد صُنعتْ سدّساتُ تعالى الله مُظهرُهُ
وبينها ألسنٌ قد طُرِفَتْ ذهباً من بينها قائمٌ بالملكِ تُوثرُهُ
كانها خَلَقَ ميمٌ في تعقُفِهِ مدادُهُ ذُوبِ عَقِيانٍ يُصفرُهُ
وهو عند ابن القوطية مدهان من فضة مزينة بالذهب:

مُدَهْنَةٌ من فِضَّةٍ يَتَبَرَّها مُلَبَّسَةٌ

ولها بياض اللؤلؤ، ومكوّنة من ألسنة تمجد الخالق الذي أجرى الذهب في كؤوس من الفضة، فيها يرى ذو الوزارتين أبو عمرو عباد:

كأنما السوسنُ الدرُّ ألسنةٌ تُجَدُّ الله مُجرى التبرِ في غرْبِهِ

ويراه أبو جعفر بن الأبار يمدق في هاوون من اللؤلؤ:

فَهَرُّ هَاوونِ دَرٌّ مُشَطِّبٌ قد تَعَضَّطُ

وصوره أبو علي إدريس بن اليماني برادة من الذهب في أوراق من الفضة:

بين اصفرارٍ فاقعٍ على ابيضاضٍ يَفَقُّ

كأنما كلاهما في راحةٍ أو طبقٍ

برادةً من ذهبٍ في ورقٍ من ورقٍ

وشبهه أبو الوليد الحميري بنافورة من الفضة، في وسطها حارس لا يغفل لحظة:

وسوسنٌ ينهادي لِلأنسِ بالراحنين

كأنما خَلَقَهُ الفدُ خَسَةً من الجُحَنِ

أو أتملُ بضّةً ما نَرَكِبَتْ في يَدَيْنِ

وبينها حارسٌ لا ينامُ طرفَةً عَيْنِ

ويذكرنا بياض السوسن بوجنة المعشوق وجيده في بياضها، فهي جيد قد استقامت لعابر، وألسنة من الدر، ورقبة بيضاء، وجيد امرأة ممشوقة القدرقيقة البشرية، دقيقة الخصر، تزدان بعقود من اللآلئ، وتظهر لمحب مولع بعشق حبيبته.

وتشبيه السوسن بالملابس يساعد الشاعر على تشخيص فكره، وقد رأينا قبل أن التويج المقطوع

يشبه جيب قميص تَمَزَّق في لحظة فراق، يقول أبو الحسن جعفر بن عثمان المصحفي:
 وكأَنَّمَا السَّوسَانُ صَبَّ مُذْنَفٌ لَعَبَتْ يَدَاهُ بِجِيهِهِ الْمَشْقُوقِ
 يَوْمَ الْوَدَاعِ وَمُزَّقَتْ أَثْوَابُهُ جَزَعًا عَلَيْهِ أَيْمًا تَمَزِيقُ
 وقد يكتسى غلائل صُنعت في بلاد السوس^(٣٢)، هكذا يصفه ابن القوطية:

ورد كمثل دم الوريدِ وسوسٍ غَضَّ بسوسٍ الغلائل مُكْتَسِرِ
 ويراها أبو بكر بن نصر يرتدى أقباء ذات أكام واسعة:

غلائلٌ خيرى وأقباء سوسٍ وقمصانٌ نسرٍ يروق توقده
 وأن بروده صُنعت من لجين صرف والتصقت به كأنها ملابس داخلية:

وكأَنَّمَا صِرْفُ اللَّجِينِ بِرُودِهِ مِنْهُ شَعَارٌ لَاصِقٌ وَدِثَارٌ

وهو رفيع الجمال، مشقوق الجيوب، برىء الوجه من الذنوب، ينفرج القميص عن منكبيه مثلما تنفرج لوعة العاشق الكئيب، وطُيِّغَتِ عمامته باللون الأصفر، ويقف ميسمه مستقيماً مثل واعظ، ولكن بلا كلام:

مُهمي الحسن مشقوق الجيوب له وجه البرىء من الذنوب
 تفرج عن مناكبهِ قميص تفرج لوعة الدنف الكئيب
 وقد علَّتِ عمامته بورسٍ فقام بلا خطاب كالخطيب

والمقابلة بين الأبيض والأصفر تجعلنا نفكر في المحبوب وحبيبه.

ووصف الشعراء أيضاً السوسن قبل أن تفتح، له مظهر السبيكة النقية البيضاء، يقف مستقيماً فوق غصن من الزمرد، يلمع على خيط مثل اللؤلؤ، إنها يد تطوى أصابعها في انتظار هدية من الذهب، وهي، أيضاً حق من العاج فوق غصن، في أبهى الملابس، وأكثر المعاطف أناقة، وعندما تقترب لحظة النثار تنشق أوراق الزهرة لتفرج عن حلى جميلة، وهكذا تحتفظ علب الحلى جيداً بما فيها، لتخفيها من أعين الخائن الذي يباغتها، يقول أبو الحسن بن علي:

أرى صفرة السوسان فوق بياضه كصفو مُدامٍ في إناء مفضض
 بدا مثل حقِّ العاج في فرع غصنه بأكرم ملبوسٍ وأجمل معرض
 ولما دنا وقت النثار تشققت نواويره عن حلى حُسنٍ له نضى

وأخيراً يذكرون أريج السوسن عنصراً من عناصر الوصف، ويشيرون عادة إلى حبوب اللقاح الصفراء التي تلتصق بأنف الشمم الجسور.

وإليك مقطوعة مثيرة، نظمها ابن دراج القسطلي يمدح بها عبد الملك المظفر، ابن المنصور بن أبي عامر، ويشيد به بعد استيلائه على قلعة مسيحية في أوائل القرن الحادى عشر، ولكن وصفه لها، والصور

(٣٢) انظر ص ٢٨٢ الهامش رقم ١١٩ فيما سأتى من هذا الكتاب.

التي تضمنتها، جاءت غامضة. ولعله يريد من الشرفات أوراق السوسن، ومن السيوف النواوير المصفرة في أسفلها، والأمير القائم وسط السوسنة:

جَهَّزْ لَنَا فِي الرُّوضِ غَزْوَةً مُحْتَسِبٌ^(٣٣) وَانْدَبْ إِلَيْهَا مِنْ يَسَاعِدْ وَانْتَدَبْ
وَاهْزِزْ رِمَاحًا مِنْ تَبَاشِيرِ الْمَنَى وَاسْلُ سَيْوْفًا مِنْ مَعْتَقَةِ الْعَنْبِ
وَانْصَبْ مَجَانِيقًا مِنَ النَّيْمِ الَّتِي أَحْجَارُهُنَّ مِنَ الرُّوَاطِمِ^(٣٤) وَالنُّخَبِ
لِمَعَاقِلٍ مِنْ سَوْسَنِ قَدْ شَيَّدَتْ أَبْدَى الرَّيِّعِ بِنَاءَهَا فَوْقَ الْقَضْبِ
شُرَفَاتِهَا مِنْ فَضِيَّةٍ وَهَمَاتِهَا حَوْلَ الْأَمِيرِ لَهُمْ سَيْوُفٌ مِنْ ذَهَبِ
مُتَرَقِّبِينَ لِأَمْرِهِ وَقَدْ ارْتَقَى خَلَّلَ الْبِنَاءِ وَمَدَّ صَفْحَةً مُرْتَقِبِ
كَأَمِيرٍ لَوْنَةٍ^(٣٥) قَدْ تَطَلَّعَ إِذْ دَنَا عِمْدُ الْمَلِكِ إِلَيْهِ فِي جَيْشٍ لَجِبِ
فَلْتَنِ غَنَمَتْ هُنَاكَ أَمْثَالَ الدُّمَى فَهِنَا بِيُوتِ الْمَسْكِ فَاعْنَمْ وَانْتَهَبِ
تُحْفًا لَشُعْبَانٍ جَلَالِكَ وَجْهَهُ عَوْضًا مِنَ الْوَرْدِ الَّذِي أَهْدَى رَجَبِ
فَاسْتَوْفِ بِهَجَّتِهَا وَطَيَّبِ نَسِيمَهَا فَلِذَا دَنَا رَمَضَانَ فَاسْجُدْ وَاقْتَرِبِ^(٣٦)

● النِيلُوفَرُ:

كان النيلوفر يزين البحيرات وأحواض النوافير الموجودة في بيوت الأمراء و المنيات في الريف^(٣٧)، ولم تكن أوراقه الخضراء الطافية على الماء مناط اهتمام الشعراء، وإنما كان يجذبهم إليه زهوره البيضاء، تتوسطها نقاط سوداء، تتفتح نهارًا، وتتطوى على نفسها في المساء. وقد وصفه أبو عامر بن مسلمة بأنه مضارب من المها:

تَخَالُهُ مُضَارِبًا مِنْ الْمَهَا تَرْوِقُنَا
وَيَرَاهُ ذُو الْوَزَارَتَيْنِ أَبُو عَمْرِو عِبَادٍ مِثْلَ كَأْسٍ مِنَ اللَّؤْلُؤِ، أَحْكَمُوا فِي وَسْطِهِ فَصًّا مِنْ اخْرَزِ الْأَسْوَدِ:
كَأَنَّهُ جَأْمٌ دَرٌّ فِي تَأْلُفِهِ قَدْ أَحْكَمُوا وَسْطَهُ فَصًّا مِنَ السَّبْجِ
وَفِي بَيْتٍ آخَرَ رَأَاهُ خَائِمًا مِنْ فَضَّةٍ وَفَصَّهُ مِنْ لَسْبِجٍ:
أَوْخَاتِمٌ مِنْ فَضِيَّةٍ وَفَصُّهُ مِنَ السَّبْجِ

(٣٣) المحتسب هنا لا يراد به الموظف الذي يضطلع في المدن الإسلامية الكبرى بمراقبة حركة الحياة في المدنية والحفاظ على العادات ونظام العمل في الهبات والمنشآت، واقتضاء على غش الحرفيين، ومنع الجرائم في الشئون التجارية (انظر كولين وليفى بروفنسال، موجز إسباني في الحسبة، رسالة السقطي، المدخل ص ١ وما بعدها)، وإنما يراد بها قائد الجيش والمستول عن كل ما يتصل بالحرب. انظر: دوزي، تكملة المعاجم العربية، ج ١ مادة حسب، وكاترمير، تاريخ السلاطين المالكيين ١١٤/١.

(٣٤) روطم جمع روطمة، نحن بصدد كلمة إسبانية قديمة rotoma، وفي الإسبانية الحديثة redoma: «قارورة أو قنينة من الزجاج»، ولم يستطع دوزي وإنجلمان الوصول إليها وتحديد معناها في كتابهما: معجم الألفاظ الإسبانية والبرتغالية المشتقة من العربية ٣٢٩ - ٣٣٠، مادة Redoma، ودوزي، تكملة المعاجم العربية ١٥٨/٢. وسجلها شتيجر مرتين في صورة رضومة، انظر: إضافة إلى الصوتيات ص ١٦٣ و ٣٥٤.

(٣٥) عن تحديد هذا المكان انظر: ليفى بروفنسال، تاريخ إسبانيا الإسلامية، ط ٢ ج ٢ ص ٢٨٧ هامش رقم ١.

(٣٦) من الكامل، البديع ١٣٣.

(٣٧) وأحيانًا كانوا يستخدمون نيلوفرًا صناعيًا من الفضة، وقد وضع المنصور واحدًا منها ضخم الحجم جدًا في ليرة الكبرى في مدينة الزاهرة. انظر نفح ٨٥/٣.

ويصفه يوسف الرمادى بأنه كأس من فضة فرش قاعة بالزمرد الأخضر:
 كأنها كؤوس فضة فرشت قيعانها بالزمرد الأخضر

وهو علبة من البلور فى وسطها زمرد راق، وحول هذا الزمرد أسنة ستة من الفضة صنعها فنان بدقة، يقول أبو عامر بن مسلمة:

كأنه مخزنة من مهيى فى وسطها زمرد ساطع
 وحوله السنة سنة من فضة أتقنها صانع
 كل لسان أبيض ناصع والطرف منه أصفر فاقع

وعند أبي عمرو عباد أوراقه مثل كعبة من لجن يتوسطها الحجر الأسود:
 وأوراقه كعبة من لجن توسطها الحجر الأسود
 وقد أدى وجود النقطة السوداء داخل النيلوفر إلى اعتباره يمثل العين الساحرة بأفضل مما يمثلها
 النرجس والنرجس الأصفر.

أثار الشعراء إنطواء أوراق زهرة النيلوفر فى المساء، فهم يرونها تسمح لزوارها بأن يروا محياها فى
 النهار، وتحول بينهم وبينه فى الليل، كبائع العطر يقف فى دكانه طالما كان النهار وبقي الضوء، فإذا جاء
 المساء أغلق حانوته، ووضع على بابه أقفالاً، هكذا يراه أبو الأصمغ بن عبد العزيز:

يُبِيعُ نهاراً لزواره مُحياً يُرْغَبُ فى وَصْلِهِ
 ويمنع بالليل من وجهه ليأخذ بالحزم فى فعله
 كبائع عطر بحانوته ضياء النهار إلى ليله
 فإذا جاءه الليل أفضى به إلى سده وإلى قفله

وعندما يقبل الليل يبدأ النيلوفر فى الإظلام، ويراه أبو جعفر بن الأبار حينئذ رومية تضم طفلاً لها
 من الزنج:

كان نيلوفرَ الرياض إذا ما الليل أدجى أوهم أن يُدجى
 رومية بضة منعمة تضم طفلاً لها من الزنج

بينما يصفه أبو القاسم البلعمى بأنه أحد ملوك الحبش، يقيم فى خيمة بيضاء، ويفلق عليه الباب
 عندما يرى الظلام:

ونيلوفر غدا يُجْجِلُ الرا فى إليه نفاسةً وغرابه
 كملك الأحبوش فى قبة بيضاء يرنو الدجى فيفلق بابه

وعندما ينطوى النيلوفر على نفسه يسجن النحل داخله عادة، فلا يستطيع الفرار، ويموت فى سجنه
 الضيق، ومن هنا جاءت تسميته بقاتل النحل، يقول أبو الحسن بن على:

أشبه الإنس فى تصرف حاله به ووقتي سُهادِه ومنامِه
 وتوقيه فى الدياجى بإغلا قى نوايره وضم كمامِه

لَقَبُوهُ بِقَاتِلِ النَحْلِ لَمَّا أَبْصَرُوا النَحْلَ مُقْصِدًا لِسَهَامِهِ
لَمْ يَجِرْ فِي الْقِصَاصِ إِذْ ذَاكَ لَصَّ سَارِقٌ بِالنَّهَارِ شَهْدَ خِتَامِهِ

● الورد:

من أكثر الزهور انتشاراً^(٣٨)، وكان يزرع في قرطبة بكثرة، وحملت منطقة في ضواحيها اسم «جبال الورد»^(٣٩)، ويشير الشعراء كثيراً إلى الورد المتفتح قل أوانه في بجانة ورِيه، وكان يجرى قطافه في يناير، أما المتأخر في تفتح وقطافه فكان يظهر في مهرجان ٢٤ يونية، وفيها يتصل بهذه لزهرة نحن في حاجة إلى الاعتراف بأنهم لم يظهروا كثيراً من الفن أو الخصوبة، لأنهم لم يكونوا يعرفون منها سوى نوع واحد، وهو الورد الأحمر، وانحصر وصفهم لها في لون الزهرة الأحمر، ولون «الملك» و«المياسم» الأصفر، وهي أعضاء التذكير والتأنيث فيها، وشبهوا حمرتها بالأحجار الكريمة من العقيق والياقوت الأصفر المائل إلى الحمرة، أو بالدم نفسه أو بالجمرة، ولكن التشبيه الذي يتوارد بكثرة هو تشبيهها بخند الحبيبة، الذي يحمر ارتباكاً، وليس هذا جديداً في شيء.

وأدت فكرة الارتباك والأحمرار إلى اتخاذ الملابس مائة للتصوير، فالوردة تظهر في غلائل حمري حيث يبدو الإزار والغلائل مرصعة بالمجاهر، وتظهر الأزوار من الجيوب، يقول أبو بكر بن نصر:

وَإِذَا ذَكَرْتَ الْوَرْدَ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لِنُورٍ أَجْمَعٍ فِي الرِّيَاضِ مَنْارُ
مُتَدَتَّرٌ بِغَلَائِلِ حُمْرِ الْحُلِيِّ تَنْجَابُ دُونَ جِيُوبِهِ الْأَزْوَارُ

وعند أبي مروان بن الجزيري جاءت للوداع مسرعة، ترتدى خماراً أخضر وغلالة حمراء:
وَقَدْ أَتَاكَ لِنُودِيعٍ عَلَى عَجَلٍ خُضْرًا مِقَانِعُهُ حُمْرًا غَلَائِلُهُ
وعند أبي القاسم بن شيراز سترت وجهها بالبرقع، وتقدمت مثل حسناء حية، تحجبت لتخفي وجهها الصبوح:

سَتَرْتُ وَجْهَهَا . يُرْقِعُهَا وَاسِدٌ تَقَبَّلْتَنَا مِنَ الْفَتُونِ فَنُونُ
كَالْفَتَاةِ الْحَيَّةِ انْتَقَبَتْ كَيْ لَا يُرَى وَجْهَهَا الْجَمِيلُ الْمَصُونُ

ولا يشير عطر الوردة أئى إحساس خاص عند لشاعر، ولا يعرض له إلا من خلال الألفاظ الغامضة لتي يستخدمها في أبياته لوصف الزهور الأخرى، ولكن تكرار كلمة «مسك» يسمح لنا بأن نعتقد أن الوردة الأندلسية كانت تعكس رائحة هذا الطيب.

● الياسمين البستاني:

كان الياسمين، كما في أيامنا هذه، يظلل الخمائيل والتكعيبات وكانت القبة الخضراء تنتثر فوقها الزهور البيضاء مناط إعجاب الشعراء فأكثرها من وصفها.

(٣٨) انظر: ش. جوريه، الوردة قديماً في العصر الوسيط، ونقد رنيه باسيه لهذا الكتاب في فصول أفريقية وشرقية

٣٥٣ - ٣٦١.

(٣٩) انظر: جيانجوس، الممالك الإسلامية في إسبانيا ٣٤٤/٢، رقم ٦٠، وغرسية غومث، ترجمة رسالة فضل الأندلس

ص ١٠٦، الماش ١٥٠، ونفع ٢١٧/٣.

فهو عند القاضي أبي عمرو عباد يأتي في صورة دراهم في مطرف أخضر:
 كأنه من فوق أغصانه دراهم في مطرف أخضر
 أو مداهن من فضة صافية:

وياسمين حسن المجتلى كأنه في قُضْبِه الضافية
 زُمرْد رَصع ما بينه مداهن من فضة صافية
 أو زمرْد نُضد فوق الربى بالدر:

كأنما الأغصان من تحته والورق المخضوضر المستبين
 زمرْد نُضد فوق الربى وهو على أعلاه در مصون
 ويراه أبو الأصبع بن عبد العزيز سرير ملك عليه مشملة خضراء:

سرير ملك عليه مشملة خضراء والقطن فوقها يندف

وتصوره أبو الحسن بن علي عريشه ساء، وفوقه دروع صغيرة بيضاء مفضضة ورماح صغيرة:

عريش الياسمين لهم ساء وخضرة أرضه لهم قرار
 به حَجَف من النوار بيض مفضضة وأرماع صفار

وعند إدريس بن اليماني نجوم من الفضة تظهر في ساء من الزبرجد:

نجوم من لُجَيْن تَحْتَلِيها ساء زَبَرْجِد خَضِلٍ نَضِير

والإشارة إلى عطره نادرة، ويصوره أبو عامر بن مسلمة عطرا رقيقا يلقاها على كرسى ملكه:

وذكرى العرف لاقا نأ على كرسى ملكه
 أرضه الخضراء بحر نوره فيه كفلكه

وهو فوق عرشه يشي أريج بخره قبل أن يُعرف، يقول أبو الأصبع بن عبد العزيز:

وياسمين بعرشه أشرف عرفه العرف قبل أن يُعرف

● الشقائق :

وتسمى شقائق النعمان، ويقصد بها ما نسميه في أيامنا هذه الخشخاش البري^(٤٠)، وهي زهرة حمراء، لها متك أسود. ويراه أبو بكر بن نصر قميصا مشربا بحمرة، أو قضباناً من الآس تعلقها النيران:

وشقائق النعمان قمص أشبعت في حمرة فلها يذا إثثار
 وكأنها وسط البقاع وقد علت قضبان آس في ذراها نار

ويراه أيضا تزهو بلونها العصفري:

ويزهى الشقيق العصفري بلونه إذا فاقع الحوذان جاد تولده

(٤٠) كما هو الحال في المغرب الآن، انظر رينو وكولين، تحفة الأحباب رقم ٤٤١.

والأسود في شقائق النعمان مثل الغوالى بُسِطت في مداهن من عقيق، هكذا رآها أبو الحسن بن علي:

وكانَ السَّوَادَ فِيهَا غَوَالٍ بُسِطَتْ فِي مَدَاهِنَ مِنْ عَقِيقٍ
أَوْ نَشِيرٌ مِنْ طَيِّبِ الْمَسْكِ مَحْضٌ صُبَّ بِالْعَمْدِ فِي كُؤُسِ الرَّحِيقِ
ويراه أبو عامر بن مسلمة كأشأ من العقيق نلمح في قاعها فتيت المسك:
مِثْلَ كَأْسِ الْعَقِيقِ فِي قَاعِهِ الْمَسْكُ يُلْتَمَحُ
ويصوره أبو الوليد الحميري، وقد أزهَر في الرياض، شعر حسناء يلوح خلا خمار أحمر:
إِذَا نَوَّرَتْ فِيهَا الشَّقَائِ خِلَتَهَا شَعُورَ الْعَذَارَى لَحْنٌ فِي الْخُمْرِ الْحَمْرِ
● نَوْرُ الْكَتَّانِ:

أو بَزُرَ الْكَتَّانِ، وكان الإسبان المسلمون يزرعونه ليحصلوا منه على ألياف النسيج، وليس على زهور الزينة^(٤١)، ولكن زهرته الزقاء أثارت خيال الشعراء. وقد وصفه أبو جعفر بن الأثير بأنه يخصب في كل الحقول، نجادها ويوهدها، فإذا تفتحت زهوره بدت كأنها مداهن من اللازورد:
وَبَزُرُ كَتَّانٍ أَوْفَى بِكُلِّ وَهْدٍ وَنَجْدٍ
كَأَنَّهُ حِينَ يَبْدُو مَدَاهِنُ اللَّازُورِدِ

وأما أبو الوليد الحميري فراه أيديا فيروزية، تختفي معاصمها في رداء أخضر، وياقوتا أزرق استلقى على بساط سندسي:

كَأَنَّ نَوْرَ الْكَتَّانِ حِينَ بَدَا وَقَدْ جَلَا حُسْنُهُ صَدَا الْأَنْفُسِ
أَكْفَ فَيُفَرِّجُ مَعْصَمَهَا قَدْ سَتَرْتَهُنَّ خُضْرَةُ الْمَلْبَسِ
أَوْ لَا فَرَّقَ الْيَاقُوتِ دَ وَضَعَتْ عَلَى بَسَاطِ تَرَوْقٍ مِنْ سِنْدَسِ
ورثمة شاعر يرحب بزهور اللازورد التي تنحنى في حقول الكتان للرياح الغربية، وعديم المعرفة يظنها غمر من الماء فيرفع ملايسه عن سيقانه عند خوضها، كما فعلت ملكة سبأ.

● نَوْرُ اللَّوْزِ:

وهي شجرة الحقول الجافة، وكانت توجد، كما هو الحال اليوم، متفرقة في شتى أنحاء إسبانيا، وتوجد حكاية لطيفة توجد في كتاب «الكوندى لوكانور» لمؤلفه خوان منويل الإسباني (١٢٨٤ - ١٣٤٨)، وكتاب تحفة العروس للتيجاني، تقول إن المعتمد بن عباد هو الذي بدأ زراعة اللوز في ضواحي إشبيلية، لأن الزهور البيضاء لهذه لأشجار الجميلة تزهَر مع انتهاء موسم الثلج، فحلَّت عند اعتماد الرميكية معبودة الأمير محل كُدر الثلج التي طالما أعجبت بها في شتاء إشبيلية^(٤٢).

(٤١) ليفي بروفنسال، إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر ص ١٧٠.

(٤٢) انظر: دوزي، تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ٨٧.

يصف أبو بكر بن القوطية لون أوراق هذه الزهرة بأنها بيضاء، ترتدى غلالة في لون الدفلى نسجتها شهرا ديسمبر ويناير، كأنه قائد أو رائد أو طليعة، يتسلق أعالي الحقول، أو قائد أمام قواته، وهى هنا ليست إلا أنواع الزهور المختلفة:

وأبيض اللون دُفلى غلاله عليه من نسج كانونين أبرأ
يقول مبصره سيجان فاطره كيف استقلت بهذا الحسن أفراد
يزور والنور لم تفتح كئامه ولا تقدمه للزور ميعاد
كأنه رائد أو طالع نجداً أو قائد وصنوف النور أجناد

● نور الرمان:

لم يعرض له الشعراء إلا قليلا، ومن بين هؤلاء القلة أجاد ابن هاني تصويره، فقد عجب لشجرة الرمان عندما تزهر، ورأها مثل يدى امرأة جميلة، صُغت بالحناء، أو أصابع الحمام، أو حقائق فتحت فبدت وسطها غلائل من البرق:

وبنت أليك كالشباب النضر كأنها بين الغصون الخضر
جنان باز أو جنان صر قد خلفته لقوة يوكر
كأما بحت دما من نحر أو سقيت بجذول من خر
لو نبتت في تربة من جمر لو لف عنها الدهر صرف الدهر
جاءت بمثل النهدي فوق الصدر تفر عن مثل اللثا الحمر

● نور الجنار:

واشتهرت به طليطلة، وفيها يكبر حتى يصبح في حجم الرمان^(٤٣)، وللوزير أبي عامر بن مسلمة أبيات بديعة في وصفه، وشبهه بالورد تضاعفت أوراقه، ولونه يقرب من الحلة المصبوغة بالعصفر:

قد شبّه الورد في تضاعفه وقارب اللون حلة العصفر
مثل ثمار الرمان زاهرة لكنه منظر بلا مخبر

أما أبو الوليد الحميري فرآه يتباهى في غطاء من نار، ويحكي خدود العذارى عندما تحدها الغمزات والنظرات:

وجنار تبدى يختال في جل نار^(٤٤)
أحلى حلّى من جمع الأنوار والأزهار
حكى خدود العناري قد سربت باحمرار
وخست بأكف الأحاظ والأبصار

● نور الباقلاء:

وتسمى زهرة المرجير أيضا، ولم تكن تزرع قطعا كنبات الزينة، ولكن زهرته البيضاء ذات النقط

(٤٣) القلقشندى، صبح الأعشى (طبقا لتقوية البلدان) ٢٢٨/٥.

(٤٤) استخدم الشاعر هنا أصلا ما يختلف عن الأصل الفارسي، معتبرا أصلها عربي، مكونا من كلمتين: «جل» و «نار».

السوداء، أوجت إلى الشعراء بصور تدكرنا بما أوردناه عند حديثنا عن التيلوفر^(٤٥). فرآه أبو الوليد الحميري خلاً على خد بيضاء بضة:

وبإقلاء قد أبدى بنوره الحسن مخضه
كأنما هو خال بخد بيضاء بضه

ويصفه أبو الحسن بن علي بن أبي غالب بأنه مثل أقرط من فضة طليت بذرت المسك:
ونور نبات الإقلاء كأنه شئوف لجين ضمخت بغوان

ورآه في بيت آخر خرزا في كأس من الدر، أو كسوفاً وسط بدر:

سبج في كس در أو كسوف وسط بدر

وزاد على وصفه هذا أبو الوليد الحميري بيتاً أعطانا فيه صورة أزيد، فهو ذرات من المسك في
الآلئ بيضاء، أو ظلمات وسط فجر:

أو غوال في لال أو غشاء بين فخر

● نور الغالية:

وتنتهى دراستنا لهذه القائمة من الزهور بالحديث عن زهرة سمّاها أبو الوليد الحميري في كتابه
«البديع في وصف الربيع»: الغالية، وليست هذه الشجرة التي وصفها أبو القاسم بن الخرنزبلا شجرة
الليلاب^(٤٦):

ورختج^(٤٧) سحاي^(٤٨) قوائمه
تمس قضبانها والريح يعطفها
كان أوراقه في حسن خضرتها
... سط في الأنهار منبته
وغالب النور حتى قيل غالبة
خضر حكي يا سميناً في تفتحه
مشى النزيف تهدي في ترنجه
من الزمرد أسناه وأملجه
فهاز بالعرف في ... جه
فحبسه غالباً كافي مرشجه^(٤٩)

بقي أن نشير إلى أن الأوصاف التي عرضنا لها إنما تصوّر الانطباع العام عن الزهور ولما تزل على
غصانها في الحدائق والبساتين، غير أن هناك من الشعراء من وصف الزهور بعد قطفها، وجمعها في باقة

(٤٥) نعرف عن طريق الرواية أن ابن طاهر وحكم مرسية من ١٠٦٣ م إلى ١٠٧٨ م كان مولعاً بحب الفول. انظر: الحلة ١٢٠/٢، ومثله كان القاضي ابن ذكوان. وعاش حتى نهاية القرن الحادي عشر، مما جعل الوزير ابن شهيد يسخر منه. انظر: المقرئ، فح ٢٤٤/٣. وكان الشبان في ضواحي إشبيلية لا يحرقونه أيضاً. انظر: الذخيرة، ق ١ مجلد ٢ ص ٣٧١ طبعة القاهرة. (٤٦) انظر: تحفة الأحباب، طبعة رينو وكولن، رقم ٢٠٩، «جدة: اللباب، وفي العامية الغالية وهي معروفة جيداً، وإضفاء اسم لجدة على الغالية يؤكد المعجم طبعة تشيرلي ٣٦٠، ولكن يمكن أنه يتحدث عن La peruinca.

(٤٧) الرختج قماش مصنوع من نيسابور، انظر: دوزي، رسالة إلى فليتنر ٢٩.

(٤٨) سحاي: سحاي اللون، توجد في رحلة ابن جبير، طبعة رايت، لندن ١٩٠٧، ص ١٤٨، ويفسرهما الناشر بأنها: «حرير رقيق، كتان شفاف».

(٤٩) من البسيط أبو الوليد الحميري، البديع ١٥٨، والبيت الرابع طمس منه أول الكلمة الأولى في البدء وأول الكلمة الأخيرة في نهاية البيت.

أو مُطَيَّب^(٥٠)، وترك لنا ابن درّاج القسطليّ بعض الأمثلة في أبيات له عن الاستخدامات الغريبة لأوراق زهرة النرجس بعد قطفها، ولما يزل ذلك قائماً -ربما- عند التونسيين حتى يومنا:

بَهَارُ يَرُوقُ بِمِسْكِ ذَكِيٍّ وَصُنْعُ بَدِيعٍ وَخَلْقِي عَجَبٌ
غُصُونُ الزَّمَرْدِ قَدْ أَوَيْتْ لَنَا فُضَّةً نَوَّرَتْ بِالذَّهَبِ
إِذَا جُمِعَتْ فِي حِمَالِ الْحَدِيدِ وَقَامَتْ أَمَامَكَ مِثْلَ اللَّعْبِ
فَمَنْ حَقَّهَا أَنْ تَرَى الشَّارِبِينَ وَقَدْ نَفَقَتْ سَوْقُهُمْ بِالنُّخَبِ^(٥١)



وبالإضافة إلى النُوريات والروضيات في معناها الدقيق يوجد أدب وفير من النثر والشعر، يقوم على عرض حوار بين زهرتين، يحییء المؤلف بالكلام على لسانها، أو جدال بين كاتين عن المفاضلة بين زهرتين يجب أن تتفوق إحداها على الأخرى^(٥٢)، ويبدو أن هذا اللون من الحوار بدأ في إسبانيا إثر أبيات للشاعر المشرقي ابن الرومي، المتوفى نحو عام ٢٨٣ هـ = ٨٩٦ م، أعلن فيها تفضيله البهار على الورد^(٥٣).

وعلى النقيض يُجمع كل شعراء الأندلس، ما عدا قلة مستثناة، على تفضيل الورد، وليس ثمة شك في أن ما نراه هو تعبير عن الذوق العميق الذي يترد إلى أصلهم الهندي أوربي أكثر منه استعراضاً للبلاغة أو تعلقاً بها.

وأول ردّ على ابن الرومي يعود إلى بداية القرن الحادي عشر، وقام به أبو حفص بن بُرد الأصغر، وهو عبارة عن رسالة نثرية خاصة تتناثر فيها أبيات الشعر، وتوجد فصول منها في كتاب «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» لابن بسام، وكاملة في كتاب «البديع في وصف الربيع» لأبي الوليد الحميري^(٥٤)، وقد رأى أبو الوليد هذا أن واجبه أن يرّد على ابن برد ليدافع عن البهار، أو نرجس الشعراء كما يُسمّى أيضاً، ويعلن تفوّقه على الورد، وكان الأندلسي الوحيد الذي شارك ابن الرومي رأيه في رسالة ضمّنها كتابه «البديع»، وجاءت فيه تالية لرسالة ابن برد^(٥٥)، ونكتفي هنا بالإشارة إلى هاتين

(٥٠) عن المطيب انظر: المعجب ص ٣٧٠، وترجمته ٣١٤، بمناسبة الحديث عن وصف مدينة بلنسية بأنها مطيّب الأندلس، وتوجد كلمة «باقة» في بيت من الشعر لابن حمديس، يشبه فيه نجوم السماء بباقة من البهار، انظر: الديوان القطعة ٩٣ البيت ٢٢ ص ١٢٥. وانظر أيضاً ابن رشيّق، العمدة ٢/٢٢٧، حيث يذكر «باقات الزهر»، ولمعرفة المصادر الأخرى انظر: حبيب الزيات، مجلة المشرق، يولية - ديسمبر ١٩٤٩، ص ٥٢٠ - ٥٢٣.

(٥١) الحميري، البديع ١٠٠.

(٥٢) حول الموضوعات التي دار حولها الحوار في الأدب العربي انظر: الإسلام، المجلد ١٤، عام ١٩٢٥، ص ٣٩٧ - ٤٠١، ومتر، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ص ٢٤٩ رقم ٣، وترجمة بيلا إلى الإسبانية ص ٣٢٠ رقم ٣. (٥٣) من الكامل، ابن الرومي، الديوان، قطع مختارة لكامل كيلاني ٣/٣٨٩، وقد نظم ابن الرومي مقطوعات أخرى ضد الورد، من بينها مقطوعة طائية الغافية لم يجرؤ أحد من أصحاب المختارات على ذكرها لأنها تتضمن تشبيها جاسيا. انظر: ابن أبي حجلة، كتاب سكردان السلطان، على هامش العامل: أسرار البلاغة، تكلمة كتاب المختلات، ص ١٩، وأبو القاسم الغرناطي، رفع الحجب المقصورة، وهو شرح لمقصورة حازم القرطاجي، القاهرة ١٣٤٤ هـ ١٥٥/١، والتويري، نهاية الأرب ١١/٢١٠.

(٥٤) أبو الوليد الحميري، البديع ٥٦ - ٥٨، والذخيرة ٢/١٢٧، ونقلها أحمد ضيف في بلاغة العرب في الأندلس ١٥٣ - ١٥٦، والتويري في نهاية الأرب ١١/١٩٦ - ٢٠٠.

(٥٥) أبو الوليد، البديع ٥٨، وابن بسام، الذخيرة ٢/١٢٧، وأحمد ضيف بلاغة العرب ١٥٢، رقم ١.

الرسالتين لأنها جاءتاً نثرًا، ولكن احجج التي ساقها طرفا المناقشة، أو على الأصح الأول منها وهو الذى احتقر النرجس، أى البهار، وبدح الورد، نجدها عند شعراء نهاية القرن العاشر وبداية الحادى عشر، ويبدو أن الجدل الذى أثار الأوساط الأدبية والثقافية فى عهد ملوك الطوائف خلال ما يقرب من قرن بأكمله، حُسم فى عام ٤٤٠ هـ = ١٠٤٨ م، وليس عبثاً أن نشير هنا إلى بعض الحجج التى أوردها أهل الأندلس ردًا على آراء ابن ارموى وبعضها يرجع للتجارب المباشرة أو التقاليد الأندلسية والبعض الآخر ليس إلا تلاعباً بالألفاظ وغير جدير منا بأى انتباه.

البهار. أو نرجس الشعراء، جاحد، له مظهر عجوز شمطاء، أما الورد فمخلوق يُبنى على من أحسن إليه، ويبدو كعذراء ممتلئة العنق فى قميص أحمر، وليس للبهار فوائد، أما الورد فمرغوب فيه دائماً، نضراً أو مجففاً، وعندما يختفى يتقى شكلاً ومذاقاً فى ماء الورد، والورد يبشر بالحياة، والبهار يعلن عن الموت.

يقول البهار: اسمى يمكن قرءته «برُّ حبيب».

ويقول الورد: أنت مخطئ، وإنما يمكن قراءته «بيت خرب» وأنا أشبه الوجنات الحمر، أما أنت فكعين مذهولة دائماً، مثل عين حيوان المسعور.

ويرد البهار معترفاً بتفوق الورد: يجب أن يُقرأ اسمى «برّحت بى»، أو «برح بين»^(٥٦).

وثمة موضوعات أخرى كان يدور حولها النقاش بين شعراء الأندلس، مثل موضوع البنفسج وتفضيله على النرجس والنرجس الأصفر، والخيرى الأصفر على البنفسج والعكس، والنرجس على النرجس الأصفر، والخيرى الأصفر على الخيرى النعّام والعكس^(٥٧)، ولكنهم لا يفسحون المجال إلا للمشاهد العامة، كالتى أوردهاها بالنسبة للورد والبهار، ولذا ليس من الضروري أن نقف عندها أو ندرسها.



أعتقد أن دراسة موضوعات الزهور تبقى ناقصة إذا أغفلنا الأبيات الشعرية التى تدور حول الربيع أو الزهور وتحبى مقدمة لمده أمير أو وصف محبوب، وهذا الشعر كثير جداً، أكثر مما تتوقع، إذ أن كثيراً من وصف الزهور أو الحدائق التى تبدو وحدة متكاملة مستقلة، كما نقلها لنا جامعو المختارات الشعرية، ليست فى الواقع إلا مقدمات لموضوعات اعتبرها البلاغيون أكثر أصالة، وإذا كان الأندلسى يميل إلى وصف الزهور لذاتها، وتعميم جنس أدبى تحمس له بعض المشاركة كالصنوبرى المتوفى ٣٣٤ هـ = ٩٤٥ م، فليس بمستبعد أن أن يعتبر بدء المديح أو الرثاء بمقدمة طلليلة تدور حول الوقوف بالديار المهجورة كما كان يفعل القدامى طريقة بالية وذوقاً رديئاً، ولذلك اعتبر الدخول إلى الموضوع بوصف الحدائق الجميلة التى تزينها الزهور وتنتشر عبر الأندلس ومقاطعات إسبانيا الأخرى، قانوناً تلمية الطبيعة نفسها. وهنا أيضاً نجد من سبقهم فى هذا من المشاركة، مثل: الياحترى، وآخرون أكثر قرباً

(٥٦) أبو الوليد، البديع ٧٠ - ٧٧، وبن الأبار، الحلة ٢٧١/٦، والمطمح ٢٠٧.

(٥٧) أبو الوليد، البديع ٧٧ - ٨٥.

منهم مثل: مهيار الديلمي والشريف الرضى، ولكن هذا الاتجاه يمثل عندهم أكثر من مجازفة أو نموذج: إنه ضرورة يتطلبها مفهومهم للشعر.

واليك فيما يلى أمثلة على ما قلنا:

يقول أبو جعفر بن الأبار يمدح الحاجب أبا القاسم بن عباد:

لبس الربيعُ الطلُقُ بُرْدَ شبابه	وافترَّ عن عُتْبَاهُ بعد عِتَابِهِ
مَلَكَ الفصولِ حبا الثرى بثرائه	متبرِّجًا لوهايدِهِ وهضابِهِ
فأراكِ فى الأنوارِ وشئى بُروده	وأراكِ بالأشجارِ خُضَرَ قِبابِهِ
أَمسى يذهبها بشمسٍ أصيله	وغدا يُقَضِّضُها بدمعِ جنابه
عَقَلَ لعقولٍ فما تَكَيَّفَ حسنه	وثنى العيونَ جنائبًا بجنابه
بالحاجبِ المأمولِ أضحكُ ثغره	فرحًا وأنطقُ جهرنًا بصوابهِ (٥٨)

ويبدأ ابن عمار قصيدته فى مدح المعتضد على النحو التالى:

أدر المدامة فالنسيم قد انبرى	والنجمُ قد صرف العنان عن السرى
والصبحُ قد أهدى لنا كافوره	لما استردَّ الليلُ منا العنبرًا
والروض كالحناء كساه زهره	وشيا وقلده نداءه جوهرا
أو كالغلام زها بورده خدوده	خجلًا وتباه بأسه من معذرا
روض كأن النهر فيه معصم	صافٍ أطلَّ على رداء أخضرا
وتهزّه ربيع الصبا فتخاله	سيف ابن عباد يبدد عسكرا (٥٩)

وإذا كانت هذه الأبيات التى ذكرناها يمكن أنه تتضمن بعض الصور التشابيه، فليس من المألوف تجسيد الربيع ملكا. ويمكن أن نعتبر من الأصالة الطازجة تصوير المحبوبة لا تنفصل عن الربيع والزهور، وتقتل فى نظر الأندلسيين تجدد ذكريات الأيام الجميلة، والوردة من بينها بخاصة.

يقول ابن اللبانة يمدح مبشرا ناصر الدولة أمير الجزائر الشرقية:

راق الربيع ورق طبع هوائه	فانظر نضارة أرضه وسمائه
واجعل قرين الورد فيه سلافة	يحكى مشعشعها مصعد مائه
لولا ذبول الورد قلت بأنه	خذ الحبيب عليه صبغ حياته
هيات أين الورد من خذ الذى	لا يستحيل عليك عهد وفائه
الورد ليس صفاته كصفاته	والطير ليس غناؤها كغنائه
يتنفس الإصباح والريحان من	حركات معطفه وحسن روائه (٦٠)

لقد أظهر شعراء الأندلس فى نورياتهم حبهم الصادق للزهور، وبحثوا مخلصين عن أدق الأوصاف

(٥٨) من لكامل أبو الوليد، البديع ٢٤.

(٥٩) من الكامل، القلائد ٥٦، ونفع ٦٥٥/١، والبيتان الأولان فى المعجب ١١٥ وترجمته ٩٨، وانظر أمثلة أخرى فى ابن قزمان،

الأزجال رقم ٦٨ و ٧٩ و ١٤٨.

(٦٠) من الكامل، المعجب ١٥٤، وترجمته ١٢٩.

المتناهية لها، دون أن يقعوا في التحذلق الملموس، والزهور التي وصفوها تختلف تماما عن ذكرياتهم المدرسية، والتحديد الدقيق الذي أضوه على صورهم يدل على أنهم قاموا بمشاهدتها على الطبيعة، ولم يستمدوها من ورق مرسوم، وإذا كانوا في صورهم البلاغية اتخذوا من المعادن النفيسة مادة لتشبيهاهم، وتناثرت هذه عبر صورهم بكثرة، فإنهم أيضا لم يقصروا في تشبيهاهم بالكائنات الإنسانية. ومهما اختلف الأسلوب المستخدم في التعبير عن نطباعاتهم فهم يبحثون دائما عن إحياء الطبيعة وفيها يتصل بالألوان ولروائح والأشكال حاولوا أن يبحثوا فيها عن انعكاس حضارتهم المادية، التي تتمثل في كثير من مظاهر الحياة حولهم^(٦١)، ومع إسهابهم في وصف الزهور أصبحوا يملكون، في جانب منها، نوعاً من المعرفة عرفه المشارقة، ولكنهم لم يتناولوه إلا بوصفه مكملاً.

لقد كانت الزهور حقا، بكل ما تثيره من لون وعطر موضع افتتان الأدب الأندلسي على امتداد القرن الحادى عشر.



لم يعشق الأندلسيون الحدائق والزهور التي تشبع نهمهم إلى تذوق الجمال فحسب وإنما أحبوا أيضا البساتين والأشجار بعامة، وأدركوا أهمية هذه النباتات، ويبدو ذلك جلياً من الإنذار الذي وجهه الأمير حريز بن عكاشة إلى قلعة رباح إلى ألفونسو السادس الذي جاء الإقليم غازيا، ودمر كل الإنشاءات، وقطع كل الأشجار، فكتب إليه حريز: «... ليس من أخلاق القدير الفساد والتدمير، فإن قدرت على البلاد أفسدت ملكك...»^(٦٢).

ويُظهر احترام الأشجار هذا الفرق واضحا بين الإسبان المسلمين والعرب البدو فهو يسجل تعلقهم بالأرض، ويمكن أن نذكر الأبعاد الحقيقية للموقف إذا ما فكرنا أنه في اللحظة نفسها كانت قبائل الهلاليين تكتسح شمال أفريقيا، وتحرق معظم الغابات العتيقة المتوارثة من قديم^(٦٣).

ولكن أهل الأندلس لم يعبروا عن ولعهم القوى بالأشجار بنفس التفاصيل الفخيمة التي وجدناها في حديثهم عن الزهور، ونلاحظ أن المديقة عند معظمهم مكتظة دائما بأشجار الفاكهة أو الزينة، خاصة عند ابن خفاجة، عاشق الحدائق والمقلب بالشاعر الجنان، وصوّروا أيضا المياه الجارية من ترع وأنهار وقنوات إلى جانب الأدغال الظليلة ولوديان، وسنلمس هنا مدى افتتان الذين يتنزهون بالقوارب على صفحة الوادى الكبير بالأشجار اسامقة والدوح تحيط بشواطئه على الجانبين^(٦٤).

(٦١) قارن هذا بتعليقات برناردين دى سنت - بيير. «لقاحات الزهور الصفراء المعلقة على خيط المثير الأبيض تقدم دعائين مزدوجتين ذهبيتين في تعادل، فوق عمد أجمل من العاج، والنور، وعقود الزبوجد في روعة لا يعل عليها، ورحيق الرهر، وأثمار السكر، وبقية أجزاء الزهرة، والكؤوس والقواوير، والأهب، والقباب، مما لا يستطيع فن المعمار أو الصياغة مما يصنع الإنسان أن يأتي بشبيه له بعد... لا أقول هذا ظنا، وإنما عرض لى مرة أن غحصت زهرة الزعر بالمجهر، فاكشفت في دهشة بالغة قارورة حروتن، ذات عنق طويل، من مادة تشبه الجمر (من الأحجار الكريمة) ويخرج من عنقها فيا يبدو سبيكة ذهب مذاب». دراسات في الطبيعة ٥/٢.

(٦٢) نفح ٥٥٨/٣

(٦٣) تفسير الأمر على هذا النحو تبسيط للأمور بأكثر مما يجب، فقد كان السيد أمام بلنسية، وألفونسو السادس حول طليطلة، وبدر والقاسى في كل غزواته، من أعنى القساء، يحرقون ويدمرون، ولا يفرقون بين الشجرة والزهرة والمسكن أو الكنيسة والمسجد، ومرء الأمر فيها يتصل بالإسلام أو المسيحية تمكنها من القلب أو عدم تمكنها. (الترجم).

(٦٤) انظر فيها سياتى ص ١٨٥ - من هذا الكتاب، وص ١٢٧ فيما سبق.

وقد شهد القرن الحادى عشر مؤملاً مولى باديس بن حبوس يزرع أشجار الحور فى أحد متنزهات غرناطة، وحمل اسمه، وصار يعرف باسم «حور مؤمل»^(٦٥). وعندما انتهى المطاف بالمعتمد أسيراً وسجيناً فى أغمات بالمغرب لم تبارح مخيلته ذكريات هذه القصور، وكان أحدها يقع فى حقل يسخو فيه الزيتون، وعرف باسم منية الزيتون^(٦٦).

ونلتقى عند الشعراء ببعض الصور الجميلة يقول أحمد بن مغيث:

وانظرْ إلى الأيكة فى بُردهِ ولاحظِ البدرَ بأطواقه
وقد بدا السروُ على نهره كخائضٍ شمرَ عن ساقه^(٦٧)

وقد وصف لنا عبد الجليل بن وهبون شجرة زيتون تنهار من ثقل عريش كرم تسلقها^(٦٨)، كما وصفوا لنا أشجار اللوز المزهرة فى منية الزبير أيام المرابطين فى نهاية القرن الحادى عشر^(٦٩).

ولكننا مضطرون للاعتراف بأنهم رغم عشقهم الزهور وزراعتها إلا أن غرس الأشجار لم يكن يجذبهم إلا قليلاً جداً، تاركين لعلماء الزراعة أن يصفوا كل أنواع أشجار الفاكهة فى مؤلفاتهم الزراعية، وقد كرس الطنجناوى، وهو من ضيعة فى ضواحي غرناطة، وتوفى وفقاً لكل الاحتمالات فى نهاية القرن الحادى عشر، أبواباً مفصلة فى كتابه «زهر البستان»^(٧٠) لدراسة أشجار التين والزيتون والرمان والخوخ والبرقوق والمشمش والتفاح والكمثرى والكرز والتوت والأرز والبرتقال والليمون واللوز والنخيل والموز والجوز والكروم، ولكننا لن نتوقف عنده لأنه لم يستخدم الشعر فى حديثه عنها.



لقد ظل الشعراء غامضين فيما يتعلق بأشجار الزينة وأشجار الفاكهة، ولكنهم على التقيض تناولوا بإسهاب ووضوح الزهور نفسها، والفواكه ذاتها، مما استطاعوا أن يتأملوه فوق أغصانه أو على موائد الطعام ساعة الأكل أو فى الوجبات الخفيفة التى تتخلل الأكلات الرئيسية، ويتكرر الحديث عن التفاح والرمان، أو الإجاص، كثيراً فى أشعارهم، ويمكن أن نتخذ مثالا لذلك

(٦٥) هذا الاسم كثيراً مايرد فى صورة حوز مؤمل، انظر: نفح ٣١٠/١ و ٦٤٩ و ١٤٧/٢ (رسالة الشقندى) و ٣٤٥ و ٣٤٨ و ٥٤٣.

● قلت: هذا فى الطبعة الأوربية والصفحات السابقة إشارة إليها. وقد صحح إحسان عباس الاسم فى طبعته، وأورده دائماً فى صورة حور، انظر: نفح ٤٧٥/١ و ٢٨٢/٢ و ٢١٨/٣ و ٥١٣ و ٥١٧ و ١٧٧/٤. (المترجم).

وانظر: الإحاطة، ويرد فيها فى صورة رجة مؤمل فى ٤٤٩/١ و ٤٩٩ وفى صورة حوزة مؤمل فى ٣٣٣/٣. والمعرى، المسالك، ترجمة جوفروى - ديمومين ص ٢٢٧ رقم ٥ وفيه «قنطرة العود» يجب أن تقرأ «قنطرة الحور» وقد ترجمها سيكو دى لوتينا بدقة Puente del Alamo وسميوتيت، وصف غرناطة ص ٦٧، وليفى بروفنسال، مذكرات الأمير عبد الله، فى مجلة الأندلس، المجلد ٣، عام ١٩٣٥، العدد ٢ ص ٢٥٠ رقم ٥٥. وانظر فيها سبق ص ١٣٢ رقم ١٣٩ من هذا الكتاب.

(٦٦) انظر فيها سبق ص ١٢٣ من هذا الكتاب.

(٦٧) من السريع، نفح ٢٤٢/٣.

(٦٨) ابن ليون، لمح السحر، مخطوطة الرباط رقم ١٠٣٣، الورقة ٨٦ وجه.

(٦٩) نفح ٤٧١/١ و ٤٧٢ و ٥٨٤.

(٧٠) تلك عدة مخطوطات من هذه الرسالة، وقد رجعنا إلى النسخة التى يملكها القسم الاجتماعى فى إدارة شئون المواطنين

الأصليين فى المغرب.

الآبيات التي قالها ابن عمار حين أهدى خمرًا وطبقا فيه تفاحتان وورمانتان، وكتب معها:

خـنوها مثلما استهديتوها عـروسا لا تُزفُ إلى اللثام
ودونكم بها نديى فتاة أضفت إليها خدئ غلام^(٧١)

وأهدى أيضا تفاحا وإجاصا إلى بعض أصحابه وكتب معها:

خُذها كما سـفرتُ إليك خـدودُ أو أوجستُ في راحتك نهودُ
دُررًا من التفاح تنثر بيننا ولها بأجساد الغصون عقود
خُذها وناولها النداءَ فإنها راحَ دهاها في الشتاء جود
وشفتُ بالإجاصِ قصا إنه شكلُ الجمال وحده المحدود
عذرا إليك فإنما هي أوجهُ بيضُ تقارنها عيون سود^(٧٢)

وأهدى ابن زيدون هدية من لتفاح للمعتضد أمير إشبيلية وكتب معها:

يـامن تـزينا لـريا سـة حـين. الـبس ثـريا
ولـه يدُ يـس اغـما مـن أن يُعـارض صـريا
جاءـك جامـدة المـدا مـر فـخذ عليها ذـوب^(٧٣)

وكان تفاح شنترة، بلدة بالقرب من لشبونة، أعظم التفاح في شبه جزيرة الأندلس حجبا، وقدم فلاح من هذه البلدة بعضا منه للمعتد أربعا ما يقل الحامل على رأسه غيرها، ومحيط كل واحدة خمسة أشبار^(٧٤). وفرض تشبيه التفاح بالخد، أو العكس، نفسه على الشعراء، لأن لون التفاح أحمر أو وردي، ولكن هناك نوعا منه أصفر اللون فاتحا، فشبّهه أبو الحسن بن الحاج في أبيات له كتبها مع تفاح هداية بالوجنات تعاني آلام الفراق:

بعثتُ بها ولا ألوك حمدا هـديّة ذى اصطناع واعتلاق
خدودُ أحبّة وافين صبا وعُدين على ارتماض واحتراق
فحمر بعضها خجل التلاقى وصفر بعضها وجل الفراق^(٧٥)

ونفهم من أبيات لأبي مروان عبد الملك بن رزين أمير السهلة (سهلة بن رزين) أنه يشبه التفاح الأصفر باليهود:

وتعضُّ تفاحَ اليهود تنفأها ونرى مني الأحداق بالأحداق^(٧٦)

وأثارت ابن جبير اليحصبي رائحة تفاح أهدها إليه صديق فوصفه، وغلبته طبيعته نحويا، فجرت في

(٧١) من الوافر، القلائد ٨٧، ونفع ٣١٤/٤.

(٧٢) من الكامل، الحلة ١٦٣/٢.

(٧٣) من الكامل، ابن زيدون، الديوان ٢٢١، ونفع ٩٤/٤.

(٧٤) نفع ١٦٤/١، وليفي بروفسال، إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر ١٦٧، ومصادر الهامش رقم ٣، ويكن أن نضيف إليها:

القلقشندى، صبح الأعشى ٢٢٣/٥.

(٧٥) من الوافر، القلائد ١٤٣.

(٧٦) من الكامل، القلائد ٥٦.

صوره كتابات لطيفة، فذكر ألقاظ سيبويه وتعنى رائحة التفاح، والخليل ويومئ بها إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي، العالم اللغوى الشهير:

خليلٌ لم يزلْ قلبي قديماً يميلُ بفرطِ صاغيةٍ إليه
أتاني مُقبلاً والبشرُ يبدى وسائلُ برّةٍ كُرمْتُ لديه
وجاء بعرفٍ تفاحٍ ذكيٍّ فقلتُ أتي الخليلُ بسيبويه
فأهدى من جناه بكلِّ شكلٍ يلوح جمالُ مُهديها عليه^(٧٧)

ونلاحظ أن ابن عمار صوّر الإحّاص في أحد أبياته التي سبقت بأنها «أوجه بيض تقارنها عيون سود». ويقون سليمان بن بطلال الأندلسي:

بعثتُ ما يندرُ لكنّه في وصفه الناعَتُ لم يبرِدْ
جيشاً من الزّنجِ ولكنّه جيشٌ متى يلقى العِدا يُقهرُ
ينفي لك الصفراء مهزومةً والزنج أعداءُ بني الأصفر^(٧٨)

وأضيف إلى الصور التي نجد فيها الرّمان مشبها بالهود الصورة التالية، وهى لرمانة مفتوحة، فقد شبهها ابن سعد الخير الشاعر بأسد يكشف عن أسنانه المضغخة بالدم:

وساكنتُ في ظلالِ الفصونِ بروضٍ يروّضُ أفنانهُ
تضاحكُ أترابها فيه إذ غدا الجوّ تدمعُ أجفانهُ
كما فتحَ الليثُ فاه. وقد تضرّجَ بالدم أسنانه^(٧٩)

وكان النوع الذى يحمل اسم الصّفرى، أكثرها شهرة، وأحبّها ذوقا، كما قال مبعوث عبد الرحمن الداخل إلى أخته أم الأصبع، التي مكثت في سوريا، ليحضر من الشرق بذور النباتات المجهولة في إسبانيا^(٨٠).

وقد وصف شاعر مجهول ثمرة القراسيا. وهذا هو اسمها في العربية القديمة، ويقال لها «حب الملوك» في الغرب الإسلامى، طبقا لرواية المقرئ^(٨١)، في مرحلتين مختلفتين من نضجها:

(٧٧) من الوافر، نفع ٣٠٤/٤.

(٧٨) من لسريع، التويرى، نهاية الأرب ١١/١٣٦. وعن تعبير «بني الأصفر»، انظر ص ٢٥٧ فيما سأتقى من هذا الكتاب.

(٧٩) من المتقارب، نفع ٦٠٤/٣.

(٨٠) في ارسافة من قرطبة أقلم الأمير الأموى هذه النباتات عن تاريخ الرمان السرى انظر: نفع ٥٤٦/١ و ٢٨/٣، ودوزى، تكملة المعاجم العربية ١/٥٥٩، مادة رمان، والإشارات المذكورة هناك. والطنجارى في زهر البستان ص ١٤٢ - ١٤٣، ودوزى وإنجله، معجم الكلمات الإسبانية والبرتغالية ص ٣٥٨. وقد وصف الشاعر أحمد بن فرج الجباني، مؤلف كتاب الحدائق، والتوفى نحو ٣٦٦ هـ = ٩٧٦. هذه الرمانة بالأبيات التالية:

ولا بسة صدقا أحمرًا أنتك وقد ملئت جوهرا
كانك فاتح حق لطيف تضمّن مرجانه الأعمر
حبوبًا كمثّل لبّات الحبيب رضا إذا شئت أو منظر
وللسفر تعمزى وما سافرت فتشكو النوى أو تقاسى السرى
بل فارقت أيكها ناعما رطيبا وأغصانها نضرا

وهى من المتقارب، نفع ٤٦٨/١. ويشير ابن قزمان إلى الرمان السرى في أحد أزجاله، انظر الزجل ١٩، الدور ٥.

(٨١) نفع ٦٠٤/٣.

ودُوحٌ تهْدَلْ أَشْطَانُهُ رعى الدهرُ من حسنه ما انتهى
فما أحرَّ منه فصوصُ العقيقِ وما اسودَّ منه عيونُ المها^(٨٢)
وشبهَ عبد الله المُهَيَّرِسَ الليمونة بجلجل من الفضة مكسو بالذهب الأصفر:
أهدى إليَّ برُوضِ ليمونةٍ وشار بالتشبيه فعلَ لسيّد
فصمتُ حيناً ثم قلت: كَجَلْجَلٍ من فضةٍ تعلوهُ صفرةٌ عسجد^(٨٣)
ويصف شاعر أندلسي السفرجل على النحو التالي:

سفرجلةٌ جمعتُ أربعاً ظمنَ لها كلَّ معنى عجيب
صفاءُ النضارِ وطعمُ العُقارِ ولونُ الحبِّ وريحُ الحبيب^(٨٤)

ونكتفي بهذه الأمثلة التي أوردناها لأن الأفكار نفسها تتكرر عند بقية الشعراء^(٨٥)، وسنذكر مقطوعة من ثلاثة أبيات متقعة غامضة، نظمها ابن صارة عن السفرجل، وتعيد إلى أذهاننا النقاش الذي دار حول اللفظ، وقدنا بمعلومات عن التصحيف الذي يمكن أن يصيبها، والمعنى الذي يعطيه، والمعتقدات الخاطئة السائدة عن هذه الفاكهة:

ما في السفرجلِ شيءٌ يُستَطار به ولا تكني منه مطوياً على وجَلٍ
إني نظرتُ إلى تصحيفٍ أحرُفهِ فانفكْ مِنْهُنَّ تَبْ تفرِّجْ لي
ولم أقُلْ سفرٌ حلَّ البلاء به أو حلَّ مِنْهُ وقوعُ الحادثِ الجللِ^(٨٦)
وكان النارنج، وهو مرَّ الثمرة، خشن القشرة، أحر اللون قانيه، يتمتع بسمعة سيئة في إسبانيا على امتداد القرن الحادى عشر، ويعتقد الطنجارى في كتابه «زهرة البستان» أن كل المآسى التي أصابت أمراء الطوائف في شبه الجزيرة، مثل: المقتدر بالله أمير سرقسطة، والمعتمد بن عباد أمير إشبيلية، والقادر بن ذى النون أمير طليطلة، تعود إلى زراعة النارنج^(٨٧)، وسهر باديس بن حبوس أمير غرناطة سرا على منع غرسه في إمارته، وحتى الطنجارى نفسه تشاءم منها، وخاف قليلاً من هذه الشجرة المهلكة، ولذلك وجد نفسه مضطراً أن يستعين بالله عليها، وهو يكتب لنا الفقرة السابقة. وقد جرؤ على أن يكتب عنها، أو يتعرض لها، لأنه كان في نهاية القرن الحادى عشر خلال حكم المرابطين، حيث خفت حدّة المعتقدات والخرافات المتعلقة بأشجار النارنج، والشاهد القوى على هذا أن شعراء ما بعد القرن الحادى عشر وصفوا هذه الشجرة بزهورها وثمارها كأى نبات عادى، وتميّز اثنان منهم في ذلك، وهما: ابن خفاجة وابن سارة:

(٨٢) من المقارب، نفح ٦٠٤/٣.

(٨٣) من الكامل، نفح ٤٣١/٣، وهو تشبيه التقطه بعد ذلك بقليل الكتندى، في عصر ابن مردنيش، انظر نفح ٤٩٨/٣.

(٨٤) من المقارب، التويرى، نهاية الأرب ١٧٠/١١.

(٨٥) في القرن العاشر نظم المصحفى الحاجب خصم المنصور بن أبى عامر مقطوعة من تسعة أبيات نجد فيها الملامح نفسها.

انظر: المطمح ١٥٨، وعنه في نفح ٥٩٤/١، والحلة ٢٦١/١.

(٨٦) من البسيط، القلائد ٢٧٠، ولمعرفة تفسير التصحيفات المختفة لكلمة سفرجل انظر: مجلة المستشرقين الألمان، المجلد ٦١

ص ٤٢٧، والمجلد ٦٥ ص ٧٣ و ٦٨١ وما بعدها، والمجلد ٦٨ ص ٢٧٥.

(٨٧) الطنجارى، مخطوطة القسم الاجتماعى للمغرب ص ٢٠٢ - ٢٠٣. وانظر أيضاً تفسير ابن خلدون في المقدمة، طبعة

كاترمير ٢٥٩٦/٢، وطبعة القاهرة ٣٧٣، وترجمة دى سلان ٣٠٤/٢ حيث يذكر خطأ النارنج على أنه شجرة الليمون.

يقول ابن خفاجة:

وَمَيَّاسَةٌ تَزْهَوُ وَقَدْ خَلَعَ الْحَيَا عَلَيْهَا حُلًى حُمْرًا وَأَرْدِيَةً خَضِرًا
يَذُوبُ بِهَا رَيْقُ الْغَمَامَةِ فَضَةً وَيَجْمَدُ فِي أَعْطَافِهَا ذَهَبًا نَضْرًا^(٨٨)

وساق لنا ابن سارة مجموعة من الصور أقل تكلفاً:

أَجْمَرُ عَلَى الْأَغْصَانِ أَبْدَى نَضَارَةً بِهِ أَمْ خَدُودُ أَبْرَزْتَهَا الْهُوَاجِجُ
وَقَضْبٌ تَشَنَّتْ أَمْ قَدُودُ نَوَاعِمٍ أَعَالِجُ مِنْ وَجَدٍ بِهَا مَا أَعَالِجُ
أَرَى شَجَرَ النَّارَنْجِ أَبْدَى لَنَا جَنِيَّ كَقَطْرِ دَمُوعٍ ضَرَجَتْهَا اللَّوَاعِجُ
جَوَامِدُ لَوْ ذَابَتْ لَكَانَتْ مُدَامَةً تَصَوِّغُ الْبَرَى فِيهَا الْأَكْفُ النَّوَارِجُ
كُرَاتٌ عَقِيقٌ فِي غُصُونِ زَبَرْجَدٍ بِكَفِّ نَسِيمِ الرِّيحِ مِنْهَا صَوَالِجُ
نُقْبَلُهَا طَوْرًا وَطَوْرًا نَشْمُهَا فَهَنْ خَدُودُ بَيْنَنَا وَنَوَافِجُ
نَهَى صَبُوتِي إِلَّا تَصِيخٌ إِلَى النِّهَى عَرُوسٌ مِنَ الدُّنْيَا عَلَيْهَا دِمَالِجُ^(٨٩)

ونظم الأبيات التالية فيه أيضاً:

يَارَبِّ نَارَنْجَةٍ يَلْهُو النَّدِيمُ بِهَا كَأَنَّهَا كَرَّةٌ مِنْ أَحْمَرِ الذَّهَبِ
أَوْ جَذْوَةٍ حَمَلَتْهَا كَفِّ قَابِسِهَا لَكِنَّا جَذْوَةٌ مَعْدُومَةُ اللَّهَبِ^(٩٠)

وانتشرت أشجار التين في كل مكان، وأفضل أنواعها ما كان ينبت في مالقة، وكان يضرب المثل بحللاته، ويصّر حتى للهند والصين، ويقال: إنه ليس في الدنيا مثله، وفيه يقول أبو الحجاج يوسف ابن الشيخ البلوى المالقي:

مَالَقَةٌ حُيِّيتْ يَا تَيْنَهَا الْفُلُكُ مِنْ أَجْلِكَ يَا تَيْنَهَا
نَهَى طَبِيبِي عَنْهُ فِي عَلْتِي مَا لَطِيبِي عَنْ حَيَاتِي نَهَى^(٩١)

وتتبع تين إشبيلية بسمعة طيبة أيضاً^(٩٢)، ومثلها في ذلك شرق الأندلس، وعن هذا يقول ابن خفاجة:

(٨٨) من الطويل، ابن خفاجة، الديوان، القطعة، ص ٦٩، ونفخ ٦٠٢/٣ - ٦٠٣.

(٨٩) من الطويل، القلائد ٢٦٧، ونفخ ٤١٤/٣ (البيتان ٥ و ٦ فقط).

(٩٠) من السيسط، القلائد ٢٦٧ - ٢٦٨، ونفخ ٦٠٢/٣.

(٩١) من السريع، نفخ ١٥١/١، وابن فضل الله العمري، المسالك، ترجمة جودفروي - ديومين ص ٢٤١، وترجمة أحمد زكي، في تكريم كوديرة ص ٤٧٠، ورحلة ابن بطوطة، طبعة دفريري وسنجيني ٣٦٦/٤، وابن عبد المنعم الحميري، الروض المعطار، النص العربي ١٧٩ والترجمة ٢١٥ - ٢١٦.

(٩٢) وذيل لإمام الخطيب أبو محمد عبد الوهاب المنشئ مقطوعة أبي الحجاج البلوى على النحو التالي:

وَحْصَى لَا تَنْسَى لَهَا تَيْنَهَا وَادَّكَّرَ مَعَ التَّيْنِ زَيَاتَيْنَهَا
والبيت من السريع، انظر: نفخ ١٥١/١.

ويذكر ابن خافز في كتابه البدائع ص ١٣ (وعنه في نفخ ٦٠٧/٣) أن المعتمد ركب لنزهة بظاهر إشبيلية في جماعة من ندمائه، وخواص شعرائه فلما أبعد أخذ في المسابقة بالخيول، فجاء فرسه بين البساتين سابقاً، فرأى شجرة تين قد أينعت وزهت، وبرزت منها ثمرة قد بلغت رتنتها، فسدد إليها عصا كانت في يده فأصابها، وثبتت على أعلاها، فأطربه ما رأى، والتفت ليخبر به من لحقه من أصحابه، فرأى بن جاح الصباغ أول من لحق به، فقال أجز: كأنها فوق العصا. فقال: هامة زنجي عصا.

أَمَا وَاهْتِصَارُ غُصُونِ الْبَلَسِ وَقَدْ قَلَصَ الصَّبْحُ ذَيْلَ الْغَلَسِ
وَمَالٌ يَسِيلُ جَنَى سَهْدِهِ كَمَا سَالَ رَيْقُ حَبِيبِ نَعْسِ
لَقَدْ شَاقَّ مِنْ رَاتِقٍ لِنَجْتَلِي شَهْيُ الْجَنَى مُسْتَطَابُ النَّفْسِ
فَهَمْتُ لَهُ بِيَاضِ اشْغُورٍ وَأَحْبَبْتُ فِيهِ سَوَادَ اللَّعْسِ^(٩٣)

ووصف شعراء الأندلس في القرن اأخاى عشر فواكه أخرى أيضا، مثل: العنب والبوخ والتوت ولكنهم اأكتفوا في وصفها بالتشبيهاأ التي كانت متداولة في القرن العاشر.^(٩٤)

ولم يرد أى وصف للنخيل أو البلح^(٩٥)، وأبيات محمد بن شرف القيروانى، والء أبى الفضل جعفر بن شرف، عن البلح رطباً وقمرًا قيلت قبل هذا العصر وفقاً لكل الاحتمالات، نظمها الشاعر قبل أن يصل إسبانيا، ولا تنطبق إلا على فواكه أفريقية^(٩٦)



ونعرف أن الأدب نادراً ما يتوقف أمام الخضراوات أو يصفها، ومع ذلك نجد لى من الشعر الأندلسى نصيباً، ووصف الشعراء منها ما دأب خيالهم مثل: الفول والخرشوف والباذنجان والكرنب.

وقء أرحى طعم الفول أو البلاء إلى ابن شهيد بالأفجيات التالية:

إِنَّ لَالِيكَ أَحْدَثَتْ صَلَفًا فَاتَّخَذَتْهُ مِنْ زُمُرْدٍ صَدْفًا
تَسْكُنُ ضُرَاتَهَا الْبَحُورُ وَذِي تَسْكُنُ لِلْحَسَنِ رَوْضَةً أَنْفًا
هَامَتْ يَلْحَفُ الْجِبَالِ فَاتَّخَذَتْ مِنْ سُنْدُسٍ فِي جَنَانِهَا لَحْفًا
نَثَقُهَا بِالْثُغُورِ مِنْ لُطْفٍ حَبُّكَ مِنَّا بَرٌّ مِنْ لُطْفًا

أَكْلُ ظَرِيفٍ وَطَعْمُ ذِي أَدَبٍ وَالْفُولُ يَهْوَاهُ كُلُّ مَنْ ظُرُفًا^(٩٧)

(٩٣) من المتقارب، ابن خفاجة، الديوان، القطعة ١٤٤، ص ١٩١.

(٩٤) يقول إسماعيل بن بدر، شاعر أندلسى من القرن العاشر، يصف التوت:

تَفَاعَلَتْ بِالتُّوتِ التُّارُ لَزُورٍ وَذَاكَ قَالَ - مَا عَلِمْتُ - صَدُوقُ
فَأَهْدَيْتُهُ غُضًا حَكِي حَقِيقَ الْمَاهِي لَهُ مِنْظَرٌ بِالْحَسَنِ مِنْهُ يَرُوقُ
وَبَعْضُ حَكِي الْيَاقُوتِ مِنْهُ أَحْمَرَارِهِ وَمَا جَعَلُهُ لِلذَّائِقِينَ رَحِيقُ
فَذَا سَبَّحٌ - فِيمَا يَرَى - لَاسُودَادِهِ وَذَا - لَأَحْمَرَارِ الطُّونِ مِنْهُ - عَقِيقُ

انظر: الحلة ٢٥٦/١. وأُنشئت مهجة القرصبة صديقة ولادة بنت المستكفى بيتين بمناسبة خوخ أهدها إليها أحد معجبيها تضمنتا تشبيهاً فاضحاً. انظر: نفح ٢٩٣/٢. ووصف ابن زيدون العنب، انظر ديوانه ص ١٥٢ و ٢٦٠.

(٩٥) انظر دراستنا: النخلة في إسبانيا الإسلامية، في تكريم جوء فروى - ديوميين، ص ٢٢٥ - ٢٣٩، وفيها سياق من هذا الكتاب ص ١٨١ الهامش رقم ١٢٢.

(٩٦) يشبهون الرطب بالتوابيت وبالعقيق تشبوا بالذهب المذاب، ويبدو النوى من خلال لحم البلح الشفاف كألسنة العصافير، ويشبهون التمر بمخازن (أى حقوق) العقيق محسرة بالذهب النضار، وبالزعفران يحتوى على العسل السائل وبأكواب العقار. انظر: النويرى، نهاية الأرب ١٢٨/١١، وتعبير «مخزن البللور» يوجد في بيت من الشعر لابن الرومى، يصف «العنب الرازقى»، انظر: المسعودى، جواهر الذهب ٢٣٣/٨.

(٩٧) من المنسرح، أبو الوليد، البديع ١٥٦، وابن طافز، بدائع البهائم ١٥٦، ونفح ٢٤٤/٣، وديوان ابن شهيد، القطعة ٤١، ص ١٢٧.

وعن حبة فول سوداء قشرتها شديدة يقول أبو الحسن بن علي:

فَصَّ من العَاجِ حُقُّهُ سَبَجٌ مُتَزَجٌ بِالْجَمَالِ مُزْدَوِجٌ (٩٨)

ووصف ابن عمار الخرشوف على النحو التالي:

وَبَيَّتْ مَاءٍ وَتُرِبٍ جَوْدُهَا أَبَدًا لَمِنْ يُرَجِّيه فِي ثَوْبٍ مِنَ الْبَحْلِ
كَأَنَّهُا فِي جَمَالٍ وَامْتِنَاعٍ ذُرِّي خَوْدٍ مِنَ الرُّومِ فِي دِرْعٍ مِنَ الْأَسْلِ (٩٩)

ويصفها عبد الجليل بن وهبون فيقول:

وَحَرَشَفِيَّةٌ إِنْ كُنْتُ ذَا قُدْرَةٍ عَلَى نَفْوَذٍ إِلَى ذَاكَ الْجَنَى الْخَلْوِ فَانْفِذْ
كَأَنِّي قَدْ تَوَجَّتْ مِنْهَا بَيْضِيَّةٌ وَقَدْ وَضَعْتَ لِلصَّوْنِ فِي جِلْدٍ قُنْفُذَ (١٠٠)

ومر ابن شهيد يوما بجوار سوق الخضراوات الطازجة، والتقى بأحد معارفه من الطوافين، وبين يديه زنبيل ملآن خرشفا، فجعل يده في لجام بخته، وقال لا أتركك أو تصف الخرشف، فقد وصفه صاعد البغدادي فلم يقل شيئا، فقال له ابن شهيد: ويحك! أعلى مثل هذه الحال؟ قال: نعم، فارتجل:

هَلْ أَبْصَرْتُ عَيْنَاكَ يَا خَلِيلِي مِنْ خَرَشَفٍ مُعْتَمِدٍ جَلِيلِ
كَأَنَّهُا أَنْيَابُ بَنَاتِ الْغُولِ لَقَفَزَتْهُ نَحْوَ أَرْضِ النِّيلِ
نَقْلُ (١٠١) السَّخِيفِ الْمَائِنِ الْجَهُولِ أَقْسَمْتُ لَا أَطْعَمْتُهَا أَكِيلِي
قَنَافِذًا تُبَاعُ فِي زَنْبِيلِ ذِي إِبْرٍ تَنْفِذَ جِلْدَ الْفِيلِ
لَوْ نَخَسْتُ فِي اسْتِ امْرَأَتِي ثَقِيلِ لَيْسَتْ تُرَى طَيِّ حَشَا مِنْدِيلِ
وَأَكَلُ قَوْمٍ نَازِحِي الْعُقُولِ وَلَا طَعْمَتُهَا عَلَى شَمُولِ (١٠٢)

وقال شاعر مجهول يصف الباذنجان:

وَمُسْتَحْسَنٌ عِنْدَ الطَّعَامِ مُدْخَرَجٌ تَطْلُعُ فِي أَعْمَاقِهِ فَكَأَنَّهُ
غِذَاهُ غَيْرُ الْمَاءِ فِي كُلِّ بُسْتَانِ قَلُوبُ نَعَاجٍ فِي مَخَالِبِ عُقْبَانِ (١٠٣)



لا يمكن أن ندعي أننا في المقتطفات السابقة أتينا على كل الموضوعات الوصفية التي تناوَلها الشعراء الأسيبان المسلمون، ولكننا نعتقد أننا أعطينا فكرة واضحة عن تنوعها، وعن فهم أهل الأندلس لها.

(٩٨) من المنسرح، أبو الوليد، البديع ١٥٦.

(٩٩) من السبط، الحلة ١٦٣/٢، وانظر فيها سيأتى ص ٢٥٤ من هذا الكتاب.

(١٠٠) من لطويل، القلائد ٢٤٥.

(١٠١) عن معنى هذه الكلمة انظر ص ٣٣٠ فيها سيأتى من هذا الكتاب.

(١٠٢) من لرجز، ابن ظافر، بدائع ٣٠٤، ونفح ٢٤٦/٣، والديوان، القطعة ٥٢ ص ١٤٠.

(١٠٣) من الطويل، نفح ٨٨/٤، الاسم والثمرة من أصل هندي، (انظر: ألفونس دي كاندول، أصول النباتات المزروعة ص ٢٢٩)، ولكن ثمرة الباذنجان التي عرفتها إسبانيا في العصور الوسطى، وأصلها من المشرق دون أدنى شك، تختلف عن الباذنجان الذي أدخل في أوروبا بعد اكتشاف أمريكا، انظر: رينو و كولين، تحفة الأحباب، رقم ٢٣٥، ص ١٠٥ ورقم ٤٠٦ ص ١٧٥.

وتكشف هذه الأبيات عن لغة خاصة بالطبيعة، والبيت المثالي في نظرهم هو الذى يستطيع أن يُصور في كلمات قليلة حديقة نضرة، كل ما فيها متعة للشم والنظر. وإذا تبارى اثنان من الشعراء وحكم بينهما ناقد فسوف يمنح الجائزة لمن يرى منها في دموع الندى ابتسامة الزهور العطرة^(١٠٤)، لأن الشعر عند هذه النفوس الرقيقة تصوير قبل أى شيء، ولكنه تصوير يستطيع أن يضيف الحياة على كل ما يلمسه. وإذا كان الشعر المشرقى يمس إلى تحجير كل هذه الأفكار، على نحو ما، حين يشبه الإنسان بالزهرة أو العصفور، والزهرة والعصفور بالأحجار والمعادن النفيسة^(١٠٥)، فإن الشعر الاندلسى سلك فيها يبدو لنا طريقا معاكسا، وكان لنا معه ما يسمى بالتشبيه المقلوب، فهو يصعد من الحجارة إلى الزهرة، ومن الزهرة إلى الإنسان.

ورغم أن الزهرة تثير في خيال الأندلسى فكرة اللآلئ البيضاء والياقوت والذهب والبضة، لكنها في الوقت نفسه كثيرا ما توغز إليه أيضا بصور عناصرها الشعرية مستمدة من الإنسان، رجلا أو امرأة: فاللون الأصفر يذكره بالحبيب البائس والأبيض بالمحبوبة الجامدة، والأحمر بوجنة العنراء، أو خجل المرأة الحبيبة والعطور التي تضعف في قلب النهار وتقوى بعد أن تغرب الشمس تذكره بالفتناء المنافقين، يتظاهرون بالصلاح نهارا، ويفسقون آناء الليل.

لقد أحب الأندلسيون حدائقهم بصدق، وتذوقوا جمالها بعمق، وكان معظمهم ريفى الأصل، كما أشرنا، فتعلموا منذ نعومة أظفارهم أن يتأملوا الطبيعة، وأن يقضوا يومهم بين أحضانها، وفيما بعد عندما رحلوا إلى المدن الكبيرة بحثا عن المجد، ظلوا يحتفظون في ذواكرهم بالمعالم الأساسية للريف ثابتة فيها، قريبة إلى نفوسهم، كما لم يحتفظوا بأى شيء آخر مثلها، وإن تذكرها أعظم شيء يثير أحاسيسهم. وأمام جمال الحدائق وروعة القصور الملكية، وفنتة باقات الزهور في بيوت اسرعة، إنثالت أشعارهم، تتدفق بالصور البلاغية القوية الحية، وتساندها المشاهدات اللاواعية للواقع الذين يعيشون فيه.

ويدل شغفهم بقراءة كل الكتب اليراعية المتصلة بالحدائق على احتفاظهم بخصائصهم الريفية، وقد كانوا يقرأون بعناية كتاب النبات لأبي حنيفة الدينورى، المتوفى ٢٨٢ هـ = ٨٩٥ م^(١٠٦)، وشرحه ابن أخت غانم، وهو شاعر عاش في غرناطة والمرية، في ستين مجلدا^(١٠٧)، ويدرسون في حماسة كل كتب فقه اللغة التي تكرر بين صفحاتها بال أو أكثر للنبات^(١٠٨).

(١٠٤) انظر رأى ناقد في حالة شبيهة ج نفع ٤٢٧/٣.

(١٠٥) يسب الأدياء العرب هذه التشبيهات إلى الفرس، ويردّدون دون أن يملوا، وصف الترجس والورد، وينسبون الأولى إلى أنوشروان والثانية إلى أردشير. انظر: الشريشى شرح مقامات الحريري ٣٢/١ و ١٥١، والحصرى، زهر الآداب ٥٢٢/١، وأحمد أمين، ضحى الإسلام ٣٨٣/١، وانظر بخاصة: لوس ماسنيون، مناهج الإنجاز الفني عن شعوب الإسلام، في سور، عام ١٩٢١، ص ١٩، وهنرى ماسيه، الملاحم الفارسية: الفرديسى والملحمة الوطنية ٢٠٧ - ٢٠٨.

(١٠٦) انظر: دائرة المعارف الإسلامية ١٠٠٤/١، وكتب المادة بروكلمان.

(١٠٧) ضح ٣٩٧/٣، نقلا عن ابن اليسع في كتابه المغرب. ودوزى أبحاث، ط ١ ص ٩٩، والسيوطى، البغية ٩٧ و ١٠٦، وابن

خير، فهرسة، المكتبة العربية الإسبانية، المجلد ٩، ٣٧٦/١.

(١٠٨) انظر فيما سبق من هذا الكتاب ص ٣٦ - ٣٨.

وفي القرن الحادى عشر ظهرت لأول مرة فى إسبانيا أبحاث ومؤلفات تدرس الزراعة^(١٠٩)، مثل كتب أبى خير الإشبيللى، وابن فاضل الأندلسى، وابن حجاج الإشبيللى، وتميّز من بينهم بخاصة ابن وافد اللخمي، وابن بصال و الطنجارى.

وقد عمل ابن وافد^(١١٠) وابن بصال^(١١١) مديرين لحديقة نباتات المأمون بن ذى النون أمير طليطلة، وهما اللذان رسما حدائق القصور والمنيات التى تكلمنا عنها فى فصل سابق ونفذاهما. أما الطنجارى، وأشرنا من قبل إلى كتابه «زهر البستان ونزهة الأذهان» فقد أقام فى غرناطة على عهد بنى زيرى، وبعدهم تحت حكم المرابطين، وسنحت له الفرصة ليلقى العالم الزراعى ابن بصال فى إشبيلية^(١١٢).

واشتهر العالم الجغرافى المعروف أبو عبيد البكرى^(١١٣) كزراعى أيضا، وكتابه «أعيان النبات والشجيرات الأندلسية»^(١١٤) الذى ضاع ولم يصلنا، لقى رواجاً وشهرة فى الأندلس تضارع شهرة كتابه «المسالك والممالك» ورواجه.

وقد واصل أهل الأندلس حبهم للزراعة والنبات، واستمر ذلك طويلا حتى بعد القرن الحادى عشر، ولا يزال قائما حتى اليوم فى الجانب الآخر من العُدوة عند أهل المغرب.

وهذه الدراسات بالإضافة إلى ما شاهده الشعراء شخصا أتاحت لهم استخدام تعبيرات فنية رقيقة فى وصفهم، وخلت قصائدهم من الألفاظ الخشنة، وأثروا المعجم الشعرى بكلمات جميلة مثل: تفتح وخلف وخلوف وعود وغصن وقصيب وكمامة وكماثم وكَم وأكامم وورق وأوراق وطاقة ونوار ونواوير وقائم ووشيعه وحبة وزهر ونور وتنوير.

وعندما يحدّد الشعراء الأوقات التى تتفتح فيها الأزهار يستخدمون أسماء الأشهر القمرية، والأشهر الشمسية فى صورتها العربية، فيقولون: كانون الأول والثانى بدل ديسمبر ويناير، وشباط بدل فبراير، وآذار بدل مارس، ونيسان بدل أبريل، وهو تقليد سورى جاء به الأمويون إلى الأندلس، ومنها انتقل إلى بقية الغرب الإسلامى وظل فيه.

(١٠٩) ربما كان مناسباً أن نعتبر تقويم قرطبة لعام ٩٦١ أول محاولة لتقنين قواعد الزراعة، ولكن هذا التقويم يتحدث كثيرا عن أشياء كثيرة علاقتها بالزراعة بمعناها الدقيق بعيدة جدا، وعن محتوى التقويم فى نصه العربى وترجمته اللاتينية انظر طبعة دوزى له فى ليدن عام ١٨٧٣، وديرودى مال، المناخ المقارن لإيطاليا والأندلس قديما وحديثا ٣٢ - ٣٤ و٦٥ - ٨٤، وليفى بروفنسال، إسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر ١٧١ - ١٧٤.

(١١٠) انظر: ليكليرك، تاريخ الطب العربى ٥٤٥/١، وابن القفطى، تاريخ الحكماء، طبعة ليبير، ص ٢٢٥، ابن خلدون، فى مكتبة الإسكوريال العربية الإسبانية لميخائيل غزيرى ١٣١/٢، وميلاس فيا كروسا، ترجمة لابن وافد، مجلة الأندلس عام ١٩٤٣، العدد ٢ ص ٢٨١ - ٣٣٢.

(١١١) انظر: نفح ١٥١/٣، نقلا عن ابن غالب فى فرحة الأنفس، وسميونيت، المعجم ص ١٤٩ رقم ٥، وليرتشندى وسميونيت، منتخبات عربية ص ٩٦ رقم ٨١، وميلاس نياكروسا، ترجمة.. لابن بصال، مجلة الأندلس عام ١٩٤٨، العدد ٢ ص ٣٤٧ - ٤٣٠.

(١١٢) ابن الخطيب، الإحاطة ٢٠٧/٢، طبعة القاهرة، وسميونيت المعجم ص ١٥٣ ورقم ٣، ومخطوطة مكتبة القسم الاجتماعى للمغرب فى ارتباط رقم ٤٥٩ و٤٦٠.

(١١٣) فيها يتصل بحياته انظر: دائرة المعارف لإسلامية ٦١٩/١، وكتب المادة كور.

(١١٤) ابن خير، فهرسة ٣٧٧/١، ودوزى، أبحاث ط ١ ص ٢٩٢ - ٣٠٦.

يقول ابن الحداد في مدح المعتصم:

وما كَيْمِينِهِ الْفِرَاتُ وَدَجَلَةٌ
به اعتدلتْ أزمانُها وهواؤها
وإنْ حَكَمُوا أَنْ يَكْمُوا أَنْ الْمَرْيَةَ بَغْدَانُ
فَتَانُونَ أَيْلُولُ وَتَمَوَزَ نِيسَانُ^(١١٥)

وقد تغلعلت حياة الحقول في أعماق الشعراء حتى أن الصور الريفية كانت تبرز دائما في قصائدهم، لتعطي الأفكار شكلا تجسيدا، دقيقا ومحددا.

يقول أبو محمد بن السيد البطيوسي في مدح المستعين أمير سرقسطة:

وإنْ قُصِرَتْ عَمَّا لَيْسَتْ قَرِيبًا
مَعَانٍ حَكَتْ غَنَجَ الْحَسَنِ كَأَنِّي
تَحَاوَرَ دُرٌّ فِي النِّظَامِ وَمَرْجَانُ
بَيْنَ حَبِيبٍ أَوْ بَطْلَانٍ^(١١٦)

ويقدم لنا ابن الخراز في قصيدته التي يمدح بها المعتصم أمير المرية جدولا كاملا بالدورة الزراعية تقريبا يقول:

وما زِلْتُ أَجْنُو مِنْكَ وَالِدَهُ مُجَلُّ
ثَمَارَ أَيْدٍ دَانِيَاتٍ قَتَوُفُهَا
وَلَا تَمُرُّ يُجْنَى وَلَا الزَّرْعُ يُخْصَدُ
يُرى جَارِيًا مَاءُ الْمَكَارِمِ تَحْتَهَا
لَا غَصَانَهَا ظِلٌّ عَلَى مُمَدَّدُ
وَأَطْيَارُ شُكْرِ فَوْقَهُنَّ تَحَرَّدُ^(١١٧)

واستمدَّ أبو عامر بن المرابط صوره، وهو يشعُّ مواجهه الغرامية، من الظل والرى:

هِنَالِكَ الرَّيُّ مِنْ صَمُوعِي
فَرْدٌ مَعِينًا وَرَدُّ ظَلِيلًا
يَاطْبِي وَالظِّلُّ مِنْ ضُلُوعِي
سِرٌّ مَذُودٌ وَلَا مَرُوعُ^(١١٨)

ويحيل ابن عمار أكثر من أي شاعر آخر إلى القاط صوره من زراعة الحقول يقول مادحا المعتضد المنتصر:

فَإِنْ يَجِيئَكَ الْفَتْحُ ذَاكَ الْأَصِيلُ
مِنْ غَرْسِ تَدْبِيرِكَ ذَاكَ الشَّجَرُ^(١١٩)

وكتب ابن عمار إلى المعتضد بن تباد، وكان قد غضب عليه أشد الغضب، قصيدة يسترضيه فيها، منها هذه الأبيات:

تَأَمَّلْتُ مِنْكَ الْبَدْرَ فِي لَيْلَةِ الْخَطْبِ
وَمَا زِلْتُ مِنْ نِعْمَاكَ فِي ظِلِّ لَذَّةٍ
نَلْتُ لَدَيْكَ الْخَصْبَ فِي زَمَنِ الْجَدْبِ
إِذْ أُنْعِشُ فِي أَفْيَاءِ ظِلِّ بَارِدٍ
ذَكَرْنِي أَيَّامُهَا زَمَنَ الْحَبِّ
عَمَّنْ مَرْتَعٍ خَصْبٍ إِلَى مَوْرِدٍ عَذْبٍ^(١٢٠)

وكتب أبو عيسى بن لبون أمير مريبطر، إلى ابن عمار يعاتبه، فرد هذا عليه:

(١١٥) من الطويل، الذخيرة ٧٢٤/١، وانظر فيما سبق ص ١٣٠ من هذا الكتاب.

(١١٦) من الطويل، نفع ٦٤٩/١.

(١١٧) من الطويل، نفع ٤١٣/٣، ودوزي، أبحاث ط ٣ ج ١ ص ٢٥٧، وانظر فيما سبق ص ٨٠ من هذا الكتاب.

(١١٨) من البسيط، القلائد ٢٩٥.

(١١٩) من المتقارب، القلائد ٨٩.

(١٢٠) من الطويل، الحلة ١٣٩/٢، وابن عباد ٩٥/٢.

وأرد بذركك من ثنائي روضة غناء حالية بنور ودادي
حتى تبين أن غرسك قد دنا لجنئي وزرعك قد أتى لحصاد^(١٢١)

ويشير ابن زيدون إلى تلقيح النخل فيقول:

لَقَحَّتْ نَهْنَى فَاجْنِ غَضْ ثَمَارِهِ فَالنَّخْلُ يُحَرِّزُ بُحْتَاهُ الْآبِرِ^(١٢٢)

ويرى ابن روش، محمد بن مروان بن عبد العزيز، أن الصداقة الخادعة ليست إلا شجرة تثمر حنظلاً مرا:

وَكَيْانَ مِنْ أَمَلِي أَنْ أَقْتَنِيكَ أَخَا فَأَخْفَقَ الْأَمَلُ الْمَأْمُولُ إِخْفَاقاً
وَقُلْتُ: غَرَسَ مِنَ الْإِخْوَانِ أَكْلُوهُ حَتَّى أَرَى مِنْهُ إِثْمَاراً وَإِيرَاقاً
فَكَانَ لِمَا زَهَتْ إِزْهَارُهُ وَدَنْتْ أَثْمَارُهُ حَنْظَلاً مُراً لِمَنْ ذَاقَا^(١٢٣)

ويقول ابن عبدون في رائيته الشهيرة عن القدر:

تَسْرُ بِالشَّيْءِ لَكِنْ كَيْ تَقْرُبَهُ كَالْإِيمِ ثَارَ إِلَى الْجَانِي مِنَ الزَّهْرِ^(١٢٤)

ويقول أبو الفضل بن شرف بطريقة بلغت الغاية التي لا روعة بعدها: «التعليم فلاحه الأذهان، وليس كل أرض مُنبئة»^(١٢٥).

وقد بقي حب الأرض شديداً عند شعراء الأندلس، ومعظمهم من أصول ريفية، وأحياناً كان يبلغ بهم الأمر حد التعب والإرهاق من حياة المدينة، والسأم والملل من العبودية المذهبة في القصور الملكية، فيطلبون من أمرائهم أن يسمحوا لهم بالعودة إلى مسقط رؤوسهم. وكان ذلك هو واقع ابن مقانا الأشبوني، فبعد أن أقام في بلاط العبادة في إشبيلية، ثم عند بني زيري في غرناطة، شعر بتفاهة حياة الملق في المدينة، وسئم يريق القاعات الملكية لكاذب، وعاد إلى قريته القُبْدَاقِ^(١٢٦)، على مقربة من شنترة، ليقضي بقية حياته في زراعة حقله. ويقص علينا ابن بسام في كتابه «الذخيرة» حكاية رواها له مواطن للشاعر، التقى معه شيخاً، وقد خف سمعه، ويده مزبرة (أى منجل صغير)، «فلما رأيته ملت إليه ومال إلى، وأخذ بيدي، وجلسنا ننظر في حرّاث يحرق بين يديه، فاستنشدته فأنشدني ارتجالاً لوقته:

أَيَا عَامِرِ الْقُبْدَاقِ لَا تَخْلُ مِنْ زَرْعٍ وَمَنْ بَصَلَ تَزَرَ وَشَيْءٍ مِنَ الْقَرْعِ
وَإِنْ كُنْتَ ذَا عَزْمٍ فَلَا بَدَّ مِنْ رَحَى سَحَابِيَّةٍ لَا تَسْتَمِدُّ مِنَ النَّبْعِ
فَمَا أَرْضُ قُبْدَاقٍ وَإِنْ جَادَ عَامُهَا بِمَوْفِيَةِ عَشْرِينَ مِنْ حَزْمِ الزَّرْعِ
وَإِنْ أَتَجَمَّتْ شَيْئاً وَزَادَتْ تَوَاتَرَتْ إِلَيْهَا خَنَازِيرُ^(١٢٧) الْمَقَاوِزِ فِي جَمْعِ

(١٢١) من الطويل، القلائد ٩٤.

(١٢٢) من الكامل، الديوان ٥٠٨، البيت ١٣.

(١٢٣) من البسيط، الحلة ٨٣٠/٢، والمطمح ١٧٦، ونفع ٥٤١/٣.

(١٢٤) المعجب ٧٦، وترجمته ص ٦٦، البيت ٨.

(١٢٥) القلائد ٢٥٣، ودوزي، أبحاث ط ٣ ج ١ ص ٢٥٢.

(١٢٦) هي التي تحمل اليوم اسم Alca bidache وليست بعيدة عن البحر، حول شنترة.

(١٢٧) سوف نعود إلى الحديث عن الخنازير الجبلية في الفصل الخاص بالحيوانات.

بها قِلَّةٌ من كل خيرٍ ونَفْعَةٍ عَقْلُهُ ما تدرى لدى من السَّمْعِ
 تركتُ الملوكَ الخالعينَ بِرودِهِمْ علىَّ وسيرى في المواقِبِ والنَّقَعِ
 وأصبحتُ في قِبداقٍ أحصُ شوْكُها عزيرةٌ رَعِشاءٌ نايبةُ القطعِ
 فإن قيلَ تَهجوها وأنتَ تُحِبُّها عقل إن حُبَّ الخَلِّ من شرفِ الطبعِ
 وحُبُّ إني بكرِ المظفَّرِ^(١٢٨) قاذي إحسانُهُ حتى انصرفت إلى رَبِّعِي^(١٢٩)

ما أبعدنا عن ابن مُقانا متملئ بنى حمود الذى تكلمنا عنه من قبل!.

إن الشاعر الريفى الأصيل لا يستطيع أن يعبرَ بأفضل من هذه الأشعار البالغة البساطة، وإن تضمَّنت شيئاً من مكرِّ الريف، عن ارتباطه بسقط رأسه، وحبّه لما تنتجه أرضه من أشياء. وكان هذا تقليداً راسخاً عند كل الإسيان انسلين، مهما كان أصحهم البعيد الذى يرتدون إليه، عرياً أو بربراً أو من المستعربين، لأن أرض إسبانيا تكتلهم بطريقة بالة الأصالة، وصنعت منهم بعامّة ملاحين قبل أن يكونوا كتاباً أو وزراء أو جنود^(١٣٠).

(١٢٨) أبو بكر المظفر: هو محمد بن عبد الله بن محمد بن مسلمة بن الأفطس، أمير بطلبوس، ووالد المتوكل، توفى عام ٤٦٠ = ١٠٦٨. انظر: دائرة المعارف الإسلامية ١/١٨٢، وكتب المادة سيليجسوهن، وابن بسام، الذخيرة ٢/٦٤٠، ودوزى، أبحاث ط ١ ص ١٦٠.

(١٢٩) من الطويل، الذخيرة ٢/٧٨٧.

(١٣٠) تلقى المنصور كتاباً من أحد عماله يذكر فيه القلب والتزل، وهما عندهم اسم الأرض قبل زراعتها، فاهتم به، انظر: نفح ٩٨/٣، والمعجب ٣٤، وترجمته ٢٧١. وعتت حاصر النصارى في شمال إسبانيا المنصور بن أبى عامر أثناء حدى حملاته اختار منزلاً من بلادهم أناخ به فيمن معه من العسكر. وتقدم ببناء الدور ولتأزل، وبجمع آلات الحرث ونحوها، ليشعر العدو بأن إقامته دائمة: نفح ٥٩٥/١. وابنه عبد الملك المظفر أتم حملته الشهيرة التى استولى فيها على حصن محاصر من ثغر برشلونة عنوة، بعد أن دَوَّخ المقاطعة كلها، نادى فى المسلمين بعد التصر من أراد الإثبات فى هديوان بدينارين فى الشهر على أن يستوطن هذا الحصن فعل، وله مع ذلك المنزل والمحرث، فرغب فى ذلك حتى عظيم واستقروا به. انظر ابن عذارى، البيان المغرب ٣/٧، وترجم النص ليفى بروفنسال فى تاريخ مسلمى إسبانيا ط ٢ ج ٣ ص ١٨٩، وانظر أيضاً: ليفى بروفنسال، إسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر ١٥١. وأخيراً فإن وزيراً يدعى البكرى فى عصر الفتنة ذاع بين البربر فى قرحة أن الخليفة المهدي قد عفا عنهم على أن يرجعوا إلى بلادهم فصيروا حرائن كما كانوا. ابن عذارى، البيان ٨٢/٣.

○ الفصل الرابع:

المياه جاريةً وراكدة

رأينا أن الأنهار كان لها السحر الأقوى بين الحقول التي كانت تطوق المدن، واحتلت الجداول والغدران مكاناً ملحوظاً في الشعر الأندلسي. وقد شبه ابن زيدون الماء الواقف تحت قنطرة مالك في قرطبة، أو مُسناة مالك كما تُسمى أحياناً، بالزجاج المصقول. ونلاحظ أن الشعراء أجادوا بخاصة تصوير شفافية الماء حين يهب النسيم، ويلطّف الجو، ويموج سطح الماء، وقد شبهه أبو محمد بن سفيان بغزارة الحياكة عند أسفل الثوب:

ومُضاضة زَعْفٍ كأن قميصها ماء الغدير جرت عليه الشمال^(١)

ويقول أبو القاسم بن العطار:

وقد نسجت كُف النسيم مفاضةً عليه وما غيرُ الحُبَابِ لها حلق^(٢)

ويقول في بيت آخر:

هَبَّتْ الريح بالعشي فحاكت زرداً للغدير ناهيك جنة^(٣)

وهذا التشبيه شائع في الشعر العربي في إسبانيا، ومن الطبيعي جداً أن يحمل الشاعر على استخدام كلمة غدير، وقديماً كانت تعني بحيرة، في معنى جانب الدرع أو الدلاص، ويمكن القول بعامة أن البحيرات لا تبدو إلا مرتبطة مع صورة هذا السلاح الدفاعي، مثيرة باختصار ذكريات حربية، يقول ابن بّقي:

وفتية لبسوا الأدرع تحسبها سَلَخَ الأراقِمِ إلا أنها رَسَبُ
إذا الغديرُ كسا أعطافهم حَلَقًا طفا من البيض في هاماتهم حَبَبُ^(٤)

ونستطيع أن نقدّم لهذا أمثلة كثيرة، ولكن نكتفي بأن نذكر هنا البيت الشهير الذي أنشد المعتمد سطره الأول، وأجازت إعتقاد الرميكية شطره الثاني، فقد ارتجل المعتمد:

نشرَ الرِيحُ على الماء زَرَدَ

(١) من الكامل، القلائد ١٣٨.

(٢) من الطويل، القلائد ٢٨٥، النفع ٦٥١/١.

(٣) من الخفيف، القلائد ٢٨٥، النفع ٦٥١/١ و ٣٠٢/٤.

(٤) من البسيط، القلائد ٢٨١. وانظر فيها بعد ص ٣١٢ هامش رقم ١٦.

فأكلت اعتماد:

أَتُوْ دِرْعٍ لِقِتَالٍ لَوْ جَمَدٌ^(٥)

وكانت هناك البرك والحدائق الخاصة تزينا الحمامات وأحواض المياه، تتوسطها النوافير أو بدونها. وترك لنا ابن سارة وصفا لبرجة مستطيلة الشكل، وُضعت فيها السلاحف:

لله مسجورةٌ في شَكْلِ ناظرةٍ من الأزاهر أهدابٌ لها وُطْفُ
فيها سلاحفٌ ألهانٍ تتامصها من مائها ولها من عَرْمَضٍ لُحْفٌ
تُنافِرُ الشَّطَّ إلا حين يحضرها سِرْدُ الشتاء فتستدلي وتنصرف
كأنها حين يبيدُها تُصرفها جيشُ النصارى على أكتافها الحُجُفِ^(٦)

وفي وصف المياه الفوّارة نجد التعراء استغلوا فكرة التجمّد وهم يشيرون إلى التبيد والكؤوس والفاكهة، يقول المعتمد:

ولربّما سلّت لنا من مائها سيفاً وكان عن الناظر مُغَمِّداً
طَبْعُهُ لِحْياً فذابت صفحةً منه ولو جهدت لكان مهتداً^(٧)

وثمة أشكال مثيرة، بالغة الغرابة، قام المهندسون الأندلسيون بتنفيذها في عرض المياه. ووصف لنا أندلسي مجهول شكلاً يدفع الماء بحوفاً في شكل خباء، وتمزقه الريح أحياناً:

ومُطَنَّبٌ للماء ما أوتأده لا نتائج فُكِرَ طَبٌّ حاذق
لعبت به أيدي الصّب فكأنها عيى الصباية بالفؤاد العاشق^(٨)

واندفاع المياه في البرك والنوافير يجعلنا نعتقد بوجود مستودعات لها في مستوى أعلى من مستوى الحدائق والبرك، أو بوجود شبكة من القنوات تحمل المياه من الجبال المجاورة إلى مسافة قريبة جداً من النوافير التي تقذف بالمياه، كما أن النواعير التي تقوم برفع المياه يمكن أن تسمح بتحقيق النتائج نفسها، وإليك ما يمكن أن يثيره غدير يغذى الماء المندفعة من النافورة في خيال شاعر، يقول أبو الوليد القسطلي:

فوق الدوحة القنّا غديرٌ سلالاً صفحةً وسجا قرارا
إذا ما انصبَّ أزرقٌ مستقيماً تدورّ في البحيرة فاستدارا
يُجرّده فمُ الأنبوب صلتا حساماً ثم يُفلته سواراً^(٩)

(٥) من الرمل، والشرط الأول للمعتمد والثاني للرميكية، ونسبها أبحاري في المسهب إلى المعتمد وابن حمديس، وعنه نقلها نفع الطيب ٢٠١/٤، وفي «بنو عباد» ٢٢٥/٢ - ٢٠٦، والتيجاني، تحفة الروس، في «بنو عباد» ١٥١/٢ - ١٥٢، وقد ترجم دوزي القصة وناقشها في بنو عباد ٢٤٠/٣ - ٢٤٢، وتاريخ مسلمي إسبانيا، ج ٢ - ٣ ص ٨٦ - ٨٧، والبدعي في لصح النبي (عل) حاشية العكري، ٨٤/٢ - ٨٥ ينسب الشرط الأول إلى المتنبي والثاني إلى ابن هاني.

(٦) من البسيط، القلائد ٢٧٣.

وفي حوض رشيق في أحد مجالس المنصور تمت توجّد سلاحف أيضاً، انظر أبيات أبي مروان عبد الملك بن ديس الخولاني في نفع الطيب ٥٣٠/١، وأخرى لصاعد البعلدي في النفع أيضاً ٨٠/٢.

(٧) من الكامل، نفع ٦٠٧/٣، وابن خضر، بدائع البدائنه، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ص ٧٠.

(٨) من الكامل، نفع ٦٠١/٣. (٩) من الوافر، نفع ٦٩/٤.

وقد أدخل الأمويون النواعير التي ترفع المياه حين أسسوا دولتهم في الأندلس^(١٠)، لأنها لم تكن موجودة في العصور التي سبقتهم رومانية أو قوطية، وقد أشرنا فيما سبق بمناسبة الحديث عن قرطبة إلى قصر الناعورة الذي أقامه أو أعده عبد الرحمن الناصر^(١١)، وظل فيها يبدو قائماً حتى القرن الثالث عشر تحت اسم «النواعير»^(١٢)، وكانت الناعورة هي التي تنزح الماء من بئر وتدفع بها إلى الميضة في صحن المسجد الجامع في قرطبة حتى عصر الحكم الثاني^(١٣). وقد روى لنا لسان الدين بن الخطيب اعتماداً على «كتاب الفتوحات»، بمناسبة حديثه عن الوادي الكبير في قرطبة، أن «نهر المجرة من نهرها الفياض، المسلول حسامه من غمود الغياض، قد لسق بها جاراً، وفلك الدولاب، المعتدل الانقلاب، قد استقام مداراً، ورجع الحنين اشتياقاً إلى الحبيب الأول وأدكاراً»^(١٤).

وإلى جانب ما تحمله الدواليب والنواعير من مياه نافعة، فإن دوران قواديسها وأنيها، كما نسمعه الآن من مثلها في سورية والمغرب على ضفاف Orontes أو نهر فاس، كان يثير خيال الشعراء الأندلسيين، وقد وصف لنا محبوب النحوي، وعاش في آخر القرن الحادي عشر وأول القرن الذي يليه، ناعورة على النحو التالي:

وَذَاتِ حَنِينٍ مَا تَغِيضُ جَفُونُهَا مِنْ اللَّجَجِ الْخَضِرِ الصَّوافي عَلَى شَطْ
وَتَبْكِي فَتَحِي مِنْ دَمُوعِ عَيُونِهَا لَأَلَى رِياضٍ بِالْأَزَاهِيرِ فِي بُسْط
فَعِنَ حَمَرٍ قَانٍ وَأَصْفَرٍ فَاقِعٍ وَأَزْهَرَ مَبِضٍّ وَأُذَكْنَ مُشْمَطٍ
كَأَنَّ ضُرُوفَ الْمَاءِ مِنْ فَوْقِ مَتْنِهَا لَأَلَى جَانِبٍ قَدْ تَنَظَّمْنَ عَلَى قُرْطِ^(١٥)

ويقول أبو تمام غالب بن تمام الحجام عن دولاب:

يَا حُسْنَ مَا نَظَرُوا مِنَ الدُّوَلَابِ وَالغَيْمِ بِحَسَدُهُ لَدَى التَّسْكَابِ
تَشْدُوا فَيَطْرَبْنَا تَرْدُّ شَدْوِهَا فَكُنَّا أَخَذْتَهُ عَنْ زُرِيَابِ^(١٦)
وَإِذَا الظَّلَامُ أَنَّى تَشَوَّقُ صَوْتَهَا فَكُنَّا دَاوِدَ فِي الْمَحْرَابِ^(١٧)

لقد أتاحت لنا الفرصة من قبل لتحدث عن الدُّوَلَابِ الذي كان يروى منية المأمون في طليطلة،

(١٠) انظر حول هذا الموضوع: ج. س. كولان، الناعورة المغربية وآلات الري في العالم العربي، في مجلة هيسبيريس، المجلد ١٦، العدد ١ عام ١٩٣٢، الصفحات ٣٦ و ٤١ و ٤٤ و ٤٥، ومقال أصل النواعير في فاس، في هيسبيريس، المجلد ١٦، العددان ١ و ٢ عام ١٩٣٣، ص ١٥٦ - ١٥٧.

(١١) انظر فيما سبق ص ١١٩ القناة التي كانت تحمل الماء إلى هذا القصر احتفل بافتتاحها في عام ٣٢٩ أو ٣٣٠ هـ = ٩٤١ أو ٩٤٢ م، انظر نفح ٥٦٤/١.

(١٢) انظر في النفح ٤٧٨/١ زجل قاسم بن عبود الرياحي.

(١٣) ليفي روفنسال، إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر، ص ٢١٨.

(١٤) أعمال الأعلام ١٤٦.

(١٥) من الطويل، نفح ٣٣١/٣ البدائع ٣٥٩.

(١٦) عن هذا المعنى الشهير انظر فيما سبق ص ٤٦.

(١٧) من الكامل، الذخيرة ٨٣٣/٣، وعن المحراب أو قاعة داود راجع: القرآن الكريم، سورة ص، الآيات ٢٠ - ٢١، وابن

زيدون، الديوان ص ٤٩٦ القصيدة الغائية الشهيرة، وأيضاً كانت هناك دواليب ونواعير في ميورقة في القرن الحادي عشر، انظر: العذري في كتاب القزويني، آثار البلاد ص ٣٨١.

وأطلق اسمه على القاعة العظمى في مقر الإمارة فكانت تسمى «مجلس الناعورة»، وكان في قصر المعتمد فيل من الفضة على شاطئ بركة يقذف الماء، ويتغذى بدولاب^(١٨). وفي القرن الثاني عشر والثالث عشر وصف شعراء الأندلس أيضًا الدواليب الرافعة، ولكنهم لم يصنعوا شيئًا أزيد من تكرار أفكار زملائهم وصورهم في القرن الذي سبق، وباختصار لم ير الشعراء العرب في الدولاب المائي غير متعة الغناء المطرب، ولكنهم عندما تغنوا به أظهرُوا بوضوح قدرة الماء المخصبة، والتي بدورها يصبح الماء مادة بلا فائدة سواء كان في غولر العيون أم في مجرى الأنهار.



المياه الجارية من أنهار وجداول وروع وقنوات، وما تبعته من حياة ألهمت شعراء الأندلس صورًا معينة، فقد شبهوها بالزواحف كبيرة أو صغيرة. فلمعتصم بن صامح أمير المرية يقعد على موضع يتداخل فيه الماء، في مجلسه بالصماتحية، ويتلوى في مناجيه، والمعتصم منشراح النفس فيقول: انظر إلى حسن هذا الماء في صبيته كأنه أرقم قد جد في هرية^(١٩) وحسام الدولة ابن رزين يشبه مياه تجرى بين الحماثل وأشجار الحدائق بالمبرد حين تهزها الريح فتتموج، وبالسيف الصقيل حين تسكن صافية:

إذا ما انسكاب الماء غابت خلتُهُ وقد كسرت راحة الريح مبرداً
وإن سكنت عنه حسبت صفاءه حساماً صقيلاً صافي الثني جرداً^(٢٠)

ووشوشة المياه في غدير^(٢١) الحديقة، تندفع من أفواه الأسود، تذكر أبا الحسن بن هارون بزئيرها:

وحديقة شرفت بعد غديرها يحكى صفاء الجو صفو غديرها
تجري المياه بها أسود أحكمت من خالص العقيان في تصويرها
فكأنها أسد الشرى في شكلها وكأن وقع الماء صوت زئيرها^(٢٢)

وعندما يكون أكثر ضعفاً يشبه أنين العاشق يعانى قسوة الهجر:

شربنا على ماء كأن خريره بكاءً محبٍ بان عنه حبيب^(٢٣)

وبمناسبة الأنهار والجداول نعرض من جديد لبعض الصور والتشبيهات التي تتخذ مادتها من البرك والجداول يقول ابن الحداد:

(١٨) انظر أبيات ابن الملح في نفع الطيب ٢٦٣/٤، وص ٢١٧ من هذا الكتاب.

(١٩) الحلة السراء ٨٥/٢، والقلاند ٤٦، ونفع ٦٦٦/١ وص ١٣٠، الهامش رقم ١٢٣ من هذا الكتاب.

(٢٠) من الطويل، القلاند ٥٣، والذخيرة ١١٩/٣، والحلة السراء ١١١/٢.

(٢١) جدير بالإشارة هنا أن استخدام كلمة غدير ليس بمعنى بحيرة أو بركة، وإنما بمعنى قناة. انظر: دوزي، محق المعاجم العربية

٢٠٢/٢، والقلمة: قناة أو جدول، وفي نفع الطيب ٣١٠/١، السطور ١ - ٣ توجد كلمة «غدران»، وفي ص ٣٣٢ (غدير)، وفي ص

٣٢٥ «غدران» وفي ١٤٦/٢، ص ٢٦١ (طبعة أوربا)، وفي الذخيرة ق ١ مجلد ٢ ص ٣٦٩، طبعة القاهرة.

(٢٢) الحلة السراء ٢٠/٢.

(٢٣) نخ ٦٦٠/٣، والبدائع ٨١.

إذا صافحته الريح تصقلُ متته وتضع منه صنع داود في السرد^(٢٤)
ويقول أبو القاسم بن العطار:

مررنا بشاطئِ النهرِ بين حدائقِها حدقُ الأزهارِ تستوقفُ الحدقِ
وقد نسجت كف النسيم مفاضةً عليه، وما غيرُ الحبابِ لها حدق^(٢٥)
وأحياناً يعطى وقع حبات المطر الكبيرة نفس الفكرة التي أعطتها الريح في هبوبها، يقول سهل بن مالك:

يُدّد القطرُ في أثنايه حلّقاً فتتظم الريحُ منها فوقه زرداً^(٢٦)
وإلى جانب الإحساس بالشكل اهتم بعض الشعراء بالصور البصرية كالألوان، وبخاصة لون أشعة الشمس عند الغروب، يقول ابن سارة:

انظر النهرَ في رداء عروسٍ صبغته بزعفرانِ العشيِّ
ثم لما هبّ النسيمُ عليه هزّ عطفيه في دلاصِ الكمي^(٢٧)
وبقليل من التأمل والبحث نجد أن ابن سارة يشبه موجات المياه في النهر براقصة تستر وراء فستانها، وتظهر بعضاً من أطرافها تارة:

والنهرُ قد رقت غلالةً صبغه وعليه من ذهب الأصيل طرازُ
تترقرق الأمواج فيه كأنها عكنُ الخصورِ تضمها الأعجاز^(٢٨)

وجعل ابن حمديس الجدول يشعر بالآلم حين ينساب فوق الحصى:

ومطرِد الأمواجِ يصقلُ متته صباً أعلنت للعين ما في ضميره
جريحٌ بأطراف الحصى كلما جرى عليها شكا أوجاعه بخيريه^(٢٩)

كل هذه الأتعار يمكن أن تقال بلا تمييز عن كل المياه الجارية في إسبانيا، ويمكن أيضاً أن تقال عن كل أنهار العالم، ولكن ثمة أنهار محدّدة يتجدد وصفها عند شعراء الأندلس، وتغنوا بها أكثر من غيرها، ويمكن القول بأن الوادي الكبير أشهرها بينهم، وهو النهر الذي يروى عاصمتين كبيرتين: إشبيلية وقرطبة، وفي الجزء الأسفل من مجراه يتسع كما لو كان شعبة من بحر، وحيث يقوى الجزر والمد، فيتاح للسفن أن تصعد إلى عاصمة بني عباد على الأقل.

وكان يوجد بين إشبيلية وقرطبة خط ملاحى يسمح، فيما يبدو، بقطع المسافة بين البلدين بأكثر

(٢٤) من الطويل، الذخيرة ١/٢٢٠.

(٢٥) من الطويل، القلائد ٢٨٥، نفح ١/٦٥١.

(٢٦) من البسيط، نفح ٣/٦٠٠.

(٢٧) من الخفيف، نفح ٣/٦٠١.

(٢٨) من الكامل، نفح ٣/٦٠٠، وهـ. ماسيه في تكميم ر. باسيه، ١/٢٤٩.

(٢٩) من الطويل، الديوان طبعة شيربر يلى، رقم ١١٤، ص ١٥٨، ونفح ١/٤٩٩، وهـ. ماسيه في تكميم ر. باسيه، ١/٢٤٩ -

الوسائل لطفاً، وثمة أبيات من اشعر أرسلها ابن عمر إلى المعتمد بن عباد حين كان هذا في قرطبة تجعلنا نرجح، في الحقيقة، أن هذه الخدمات، وقدم لنا الإدريسي قائمة كاملة بها ومصلة في القرن التالي^(٣٠)، كانت توجد على أيام بني عباد أيضاً

إِنْ شَتَّ فِي الْبَحْرِ فَارْكَبْ ظَهْرَ سَابِجَةٍ أَوْ شَتَّ فِي الْبَرِّ فَارْكَبْ ظَهْرَ طَيَّارٍ
حَتَّى تَحُلَّ وَحَفَظَ اللَّهُ يَكْلُونَا سَاحَاتٍ قَصْرِكَ وَاتَرَكْنِي لِي دَارِي^(٣١)

وهناك شاعران تميّزا بخاصة في وصف الوادي الكبير عند إشبيلية، بشواطئه تلفها الأنسام، وهما: أبو القاسم بن العطار وابن اللبانة. يقول أولهما في شيء من التحذلق:

رَكَبْنَا عَلَى اسْمِ اللَّهِ نَهْرًا^(٣٢) حُبَابٌ عَلَى عِطْفِيهِ وَشَبُّ حَبَابٍ
وِلَا حَسَامٌ جَالٌ فِيهِ فَرْنَدُهُ لَهُ مِنْ مَدِيدِ الظِّلِّ أُنَى قَرَابِ^(٣٣)

والثاني يبكي المعتمد، وانتهى به المطاف أسير في أغمات، وفيها مات، ويشير إلى فتنة الوادي الكبير:

أَرْضُ كَانَ عَلَى أَقْطَارِهِ سُرُجًا قَدْ أَوْقَدْتَهُنَّ فِي الْأَذْهَانِ أَنْبَاتُ
وَفَوْقَ شَاطِئِي وَادِيهَا رِيَاضُ رُبَا قَدْ ظَلَّلْتُهَا مِنَ الْأَنْسَامِ دُوحَاتُ
كَأَنَّ وَادِيهَا سَلَكَ بَلْبَتُهَا وَغَايَةُ الْحُسْنِ أَسْلَاكُ وَلَبَاتُ
وَرَبَّمَا كُنْتُ أَسْمُو لِلْخَلِيجِ بِهِ وَفِي الْخَلِيجِ لِأَهْلِ الرَّاحِ رَاحَاتُ
وَبِالْعُرُوسَاتِ لَا جَفَّتْ مَنَابِتُهَا مِنْ النِّعَمِ غُرُوسَاتُ حَيَاتِ^(٣٤)

وهذه الأبيات الأخيرة تبين لنا مدى اقتتان أهل إشبيلية بالوادي الكبير، ولم يكونوا يكتفون بالتنزه على شواطئه الظليلة، وإنما على صفحة الماء أيضاً، في قوارب جميلة، ويبدو أن هذا اللون من التسلية كان ذوقاً أندلسياً خالصاً، وإسبانياً مسلماً بعامه^(٣٥)، ويمكّر القول أن الأندلسيين وهم يبحثون في الانزلاق

(٣٠) انظر: الإدريسي، وصف أفريقيا وإسبانيا، النص العربي ص ٢٠٧ - ٢٠٨، والترجمة الفرنسية ص ٢٥٦، وانظر فيما سبق ص ١١٩ هامش رقم ٦١ من هذا الكتاب.

(٣١) من البسيط، الحلة ١٣٢/١ وفي «بنو عباد» ٨٨/٢، وتاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢، ٤٠/٣.

(٣٢) اسم النهر الوادي الكبير، وقد فصل بينها الشاعر، الكبير وهو من أساء الله الحسنى، والوادي ومعناها في لغة الأندلس: النهر، واستخدم هذا اللفظ الأخير.

(٣٣) من الطويل، القلائد ص ٢٨٤.

(٣٤) من البسيط، القلائد ص ٣٠ الأبيات ٢٣ و ٢٤ و ٢٥ و ٢٩ و ٣٠، وفي بنو عباد ٧٠/١، والترجمة ص ١٦٣ - ١٦٤، ونجد هذه الأبيات صدى في أزجال ابن قزمان، الديوان القطعة رقم ٢ - ص ٦٧ - ٦٨ و ٣٧٩ - ٣٨٠. ونجد في مقدمة ابن خلدون وصفا لمجلس ضم خمسة من الوشاحين فوق الماء في إشبيلية: نص كاترمير ٤٠٥/٣ - ٤٠٧، طبعة القاهرة: ٥٤٨، وترجمة سنان ٤٣٧ - ٤٣٨.

(٣٥) وقد احتفظ المغاربة في الرياض وسلا، وهم في مجملتهم يتحدرون من أصول أندلسية، بهذا الذوق. انظر ل. برينو، البحر في التقاليد والصناعة عند سكان الرباط وسلا الأصليين، ص ٩٨ - ٩٩، وهذه الجولات في المراكب كان يطلق عليها اسم نزاهة. انظر ابن عبدون، رسالة في الحسبة، هامش صفحة ٢٩٦، وابن قزمان، الفتيان، القطعة ٢٨ ص ٦٧ و ٢٧٩، وابن خلدون، المقدمة، نص كاترمير ٤٠٥/٣، والقاهرة ٥٤٨، وترجمة سنان ٤٣٧/٣، وص ٣٦. هامش ١٠٠ من هذا الكتاب. وعن معنى مختلف لهذه الكلمات انظر: ف. مرسية، اللهجة العربية نكتة في تلمسان، ص ٢٠٠ رقم ٣، ودوزي، ملحق المعاجز ٦٦٣/٢.

الخفيف واهتزاز القوارب الهادىء عن تهذئة انفعالاتهم أو غذاء أحلامهم، لم يكونوا مقلدين للمشاركة، وعندما أطلق المنصور العظيم على زورقه اسم الزور^(٣٦) لم يكن قد استورد من المشرق غير اللفظ، أما العادة فكانت توجد في إسبانيا من أزمنة بعيدة خلت، ويكن القول إنها ربما تعود إلى العصر الرومانى، وتضم المختارات الشعرية صفحات لا تحصى تبث هذه المشاهد نهائية أو ليلية، ولو أنها كانت تتم في الليل غالباً، ويقوم بها عادة الأمراء رفقة أصدقائهم الحميمين، وهم دأباً من الرجال الذين يتميزون بالذكاء العالى، وأحياناً كان الشعراء هم الذين يدفعونهم إلى المغامرة ليلاً، ويحملون معهم فانوساً، فقد يقع الأصطدام بين القوارب المختلفة، وشموعاً مضاءة، تنعكس أشعتها على اللجة، فتأخذ شكل قزح مع توج الماء، ويشير إلى ذلك عبد الجليل بن وهبون حين يقول:

كَأَنَّ الشَّمْعَتَانِ إِذْ سَمَتَا خَدَا غَلَامٌ مُحَسِّنُ الْغَيْدِ
وَفِي حِشَا النَّهْرِ مِنْ شَعَاعِهَا طَرِيقُ نَارِ الْهُوَى إِلَى كَبْدَى^(٣٧)

ونزهة في قارب شراعى مع مغرب الشمس أفضل من غيرها، وأكثر بهجة، عند آخرين، يقول ابن سارة وقد ركب «مع أصحاب له في نهر إشبيلية في عشية سال أصيلها على لجين الماء عقياناً، وطارَت زواريقها في سماء النهر عقياناً، وأبدى نسيهما من الأمواج والدارات سرورا وأعكانا، في زورق يجول جولان الطرف، ويسود أسوداد الطرف»:

تَأْمَلْ حَالَنَا وَالْجَوُّ طَلَقَ مَحْيَاهُ وَقَدْ طَفَلَ الْمَسَاءُ
وَقَدْ جَاءَتْ بِنَا عِذْرَاءُ حَبَلِي تَجَاذِبُ مِرْطَهَا رِيحُ رِخَاءُ^(٣٨)
بِنَهْرِ كَالسَّجْنَجَلِ كَوَثَرِي تَعْبُسُ وَجْهَهَا فِيهِ السَّمَاءُ^(٣٩)

ولم يكن الوادى الكبير النهر الوحيد في إسبانيا الذى يمكن أن يقدم مثل تلك المشاهد نهارة وليلاً، فقد كان نهر الإبر كذلك في عصر المستعنين بالله، ويأخذ في بعض فصول العام شكلاً ألقاً غير مألوف، وبخاصة في اللحظة التى تتكاثر فيها الأسماك، وقد وصف لنا الوزير الكاتب أبو الفضل بن حسداى شعرا حفلة صيد شارك فيها الأمير ورجال البلاط المقربون، وقدم لنا ابن خاقان الذى أورد الأبيات الوصف التالى مدخلاً لها:

«ركب المستعنين بالله يوماً نهر سر قسطة يريد طراداً لذته، وارتياذ نزهته، واقتقاد أحد حصونه المنتظمة بلبته، واجتمع له من أصحابه، من اختصه لاستصحابه، وفيهم أبو الفضل مشاهداً لانفراجهم، سالكا لمناهجهم، والمستعنين قد أحضر من آلات إيناسه، وأظهر من أنواع ذلك وأجناسه، مارقاً من

(٣٦) هذا الاسم أطلقه من الخلفاء العباسيين المعتصم، المتوفى ٢٢٧ هـ = ٨٤٢ م، والتوكل، المتوفى ٢٤٧ هـ = ٨٦١ م، على مركب لها للنزهة فوق مياه الفرات، انظر: دوزى، ملحق المعاجم ٦١٠/١، ومترّ النهضة ٤٥٧، وترجمة فيلا ٥٧٦، وعن المنصور ومركبه الزور انظر: ابن الخطيب، أعمال الأعلام ص ٨٠.

(٣٧) من المنسرح، القلاندي ٢٤٣، وعنه في النفع ٦٥٧/١.

(٣٨) شبه المركب بسبب شراعها بفتاة حبلى، لأنها تحمل في جوفها مخلوقات إنسانية، ومع ذلك فهي عذراء، لأنها لم تستطع الزواج.

(٣٩) من الوافر، نفع ٣١٨/٣.

حَضَرَ، وفاق حُسْنَهُ الرَوْضَ الْأَنْضَرَ، وَالزَّوَارِقُ قَدْ حَفَّتْ بِهِ، وَالتَفَّتْ بِجَوَانِبِهِ، وَنَفَمَاتٍ لِأَوْتَارِ تَحْبَسُ السَّائِرَ عَنْ عُدُوهِ، وَتُخْرِسُ الطَّائِرَ الْمَفْصَحَ بِشَدْوِهِ، وَالسَّمَلُ تُثِيرُهَا الْمَكَائِدُ، وَتَغْوِصُ إِلَيْهَا الْمَصَائِدُ، فَتَبْرُزُ مِنْهَا لِلْعَيْنِ، قُضْبَانٌ دَرٌّ أَوْ سَبَائِكُ لَجِينِهِ وَالرَّاحُ لَا يَطْمَسُ لَهَا لَمَعٌ، وَلَا يَبْخَسُ مِنْهَا بَصَرٌ وَلَا سَمْعٌ، وَالْدَّهْرُ قَدْ غَضَّتْ صُرُوفَهُ، وَاقْتَصَّ مِنْ نَكْرِهِ مَعْرُوفَهُ، فَقَالَ أَبُو الْفَضْلِ:

لَهُ يَوْمٌ أَنْيَقُ وَاضِحُ الْغَرَرِ مَنْضَضُ مُذْهَبِ الْأَصَالِ وَلِبَكْرِ
كَأَنَّمَا الدَّهْرُ لَمَّا سَاءَ أُعْتِنَا فِيهِ بَعْتَبِي وَأَبْدَى صَفَحَ مُعْتَذِرِ
نَسِيرٌ فِي زَوْرَقٍ حَفَّ السَّفِينِ بِهِ مِنْ جَانِبِيهِ بِمَنْظُومٍ وَمُنْتَثِرِ
مَدَّ الشَّرَاعُ بِهِ نَشْرًا عَلَى مَلِكٍ بِذِ الْأَوَائِلِ فِي أَيَّامِهِ الْأَخْرِ
هُوَ الْإِمَامُ الْهَمَامُ الْمُسْتَعِينُ حَوَى عُلَيَّاءَ مُؤْتَمِنٍ فِي هُدًى مُقْتَدِرِ^(٤٠)
تَحْوَى السَّفِينَةَ مِنْهُ آيَةٌ عَجَبًا بَحْرٌ تَجَمَّعَ حَتَّى صَارَ فِي نَهْرِ
تُشَارُ مِنْ قَعْرِهِ النَّيْنَانُ مَصْعَدَةً صَيْدًا كَمَا ظَفَرَ الْغَوَاصُ بِالْذَّرْرِ
وَاللِنْدَامَى بِهِ عَبٌّ وَتُرْتَشَفُ كَالرِّيقِ يُعَذِّبُ فِي وَرْدٍ وَفِي صَدْرِ
وَالشَّرْبُ فِي وَدٍّ مَوْلَى خَمَقَهُ زَهْرٌ يَكُو وَيَهْجَتُهُ أَهْبَى مِنَ الْقَصْرِ^(٤١)

وَمُنَاسِبَةُ الْمُتَنَزِّهَاتِ وَالتَّزَهَّاتِ وَلِمُنْيَاتِ الَّتِي كَانَتْ تَحِيضُ بِالْمَدْنِ الْكُبْرَى، مِنْ الْمُنَاسِبِ أَنْ تَتَحَدَّثَ عَنِ الْأَنْهَارِ وَالْجُدَاوِلِ الَّتِي يَتَوَاعَدُ رَفَقَهُ الْمَرْحُ وَالْبَهْجَةُ عَلَى قَضَاءِ لِحَظَاتٍ لَطِيفَةٍ عِنْدَهَا، وَيَكْنِيهَا أَنْ نَذَكُرَ الْوَادِي الْكَبِيرَ، وَالْقَنْطَرَةَ الْمَقَامَةَ عَلَيْهِ عِنْدَ قَرْطَبَةَ، وَنَهْرٍ سَلَبَ الَّذِي يَرُوي شَنْتَبُوسَ أَيْضًا، مَسْقُطَ رَأْسِ الشَّاعِرِ ابْنِ عِمَارٍ، وَثَمَّةٌ مَجْرَى مَاءٍ يَدْمَشْنَا إِلَّا نَجِدَ لَهُ ذِكْرًا هُنَا، وَهُوَ نَهْرُ شَقْرِ، وَقَدْ تَبَارَى كُلُّ شِعْرَاءِ جَزِيرَةِ شَقْرِ، أَوْ الْجَزِيرَةِ فَحَسِبَ، فِي اخْتِفَى بِهِ، وَنَكْتَفَى مِنَّا بِوصفِ ابْنِ خَفَاجَةَ لَهُ، وَهُوَ أَشْعَرُهُمْ جَمِيعًا:

لَهُ نَهْرٌ سَالٌ فِي بَطْحَاءٍ أَشْهَى وَرُودًا مِنْ كَمَى الْحَسَنَاءِ
مَتَعَطِفٌ مِثْلَ السَّوَارِ كَأَنَّهُ وَالزَّهْرُ يَكْنُفُهُ مَجَرٌّ سَاءِ
قَدْ رَقَّ حَتَّى ظَنَّ قَرَصًا مُفْرَغًا مِنْ فُضَّةٍ فِي بُرْدَةٍ خَضْرَاءِ^(٤٢)
وَعَدَتْ تَحْضُ بِهِ الْغُصُونُ كَأَنَّهَا قَدْ تَحْضُ بِمَقْلَةٍ زَرْقَاءِ
وَلَطَانًا عَاطِيَتْ فِيهِ مُدَامَةً حَفْرَاءَ تَحْضُبُ أَيْدَى النَّدْمَاءِ
وَالرَّيْحُ تَعْبَثُ بِالْغُصُونِ وَقَدْ جَرَى ضَهَبُ الْأَصِيلِ عَلَى لَجِينِ الْمَاءِ^(٤٣)

وَمَعَ ذَلِكَ، فَهَذِهِ الْأَنْهَارُ الْإِسْبَانِيَّةُ الَّتِي فَتَنْتُ سَكَازَ أَمْدَنَ، يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ لَهَا يَقْطَاطُ مَرْعَبَةٍ، وَلِهَذَا لَمْ يَصِفْ شِعْرَاءُ الْقَرْنِ الْحَادِي عَشَرَ مِيَاهَ الْأَنْهَارِ الْمَادَّةِ، يَرْغَبُونَهَا لِلْمَتْعَةِ فَحَسِبَ، وَإِنَّمَا نَجِدُهُمْ

(٤٠) يَقُمُ الشَّاعِرُ فِي هَذَا الْبَيْتِ نَسْبَ أَمِيرِ سَرْقِيسْطَةَ الَّذِي يَنْتَسِبُ إِلَى أُسْرَةِ بَنِي هُودَ.

(٤١) مِنَ الْبَسِيطِ، الْقَلَانْدُ ١٨٥ - ١٨٦. وَعَنْهُ فِي نَفْحِ ١٤٢/١، بَابِنِ ظَافِرِ، الْبَدَائِعُ ص ٣٦٧، وَنَقَلَ النَّفْحُ رَوَايَةَ الْبَدَائِعِ أَيْضًا ج ٣ ص ٢٦٦ - ٢٦٧.

(٤٢) لَا يَبْدُو أَنَّ نَصَ الْبَيْتِ قَدْ أَصَابَهُ تَحْرِيفٌ، وَمَعَ ذَلِكَ لَا نَعْرِفُ الْكَلِمَةَ الَّتِي يُمْكِنُ أَنْ تَحْمِلَ مَكَانَ كَلِمَةِ «نَرَص»، وَفِي دَرَسَةِ النَّفْحِ بَدَلًا مِنْهَا كَلِمَةُ «فَرَد»، وَلَا أَرَاهُ مَرْضِيَّةً.

(٤٣) مِنَ الْكَامِلِ، ابْنُ خَفَاجَةَ، الْدِّيُونِ، اَلْمَقْلَةُ ٢٩٠، ص ٣٥٦. وَالشَّقْنَدِيُّ فِي «رِسَالَةٍ فِي فُضَائِلِ الْأَنْدَلُسِ»، فِي نَفْحِ الطَّبِيبِ ٢٠١/٣، وَفِي تَرْجُمَةِ غَرْسِيهِ غُوثِ لِلرَّسَالَةِ ص ٧٢ - ٧٣، وَالتَّوِيرِيُّ نِهَاجَةَ الْأَرْبِ، ج ١ ص ٢٧٢، ط ٢، الْآيَاتُ ١ و ٤ و ٦.

أحياناً يذكرون الأنهار الهائجة تفيض مندفة عقب الأمطار الغزيرة، وتكتسح في طريقها كل ما تلقى، وقد عانت بلنسية من فيضان في ٤٨١ هـ = أكتوبر ١٠٨٨ م، وأغرق برج القنطرة نفسه،^(٤٤) وعانت مرسية أيضاً أضراراً كبيرة من الفيضانات في عصر أبي عبد الرحمن بن طاهر^(٤٥)، ونظن أن نهر شقر نفسه لا بد أن يكون أثار مخاوف جادة فيمن يقيمون حوله، في موسم الأمطار الغزيرة، وبخاصة في منطقة الجزيرة، وقد صور لنا ابن خفاجة بعض هذه الفيضانات:

أَلَا طَمَّ بَحْرٌ أَقْبَطًا وَجَدُ انْكَفَاءٍ سَاءٍ تَجَوَّدُ
فَأَهْوَتْ تَحْرُ هُنَاكَ الْبَنَى كَمَا تَتَلَقَّى الْمُلُوكُ الْوَفُودُ
وَمَالَتْ كَأَنَّ عَلَيْهَا صَلَاةً فَبَعْضُ رُكُوعٍ وَبَعْضُ سَجُودٍ^(٤٦)

(٤٤) انظر كتاب الاكتفاء، طبعة المعهد المصري في مدريد ص ٩٨ - ٩٩ وفي «بنو عباد» ٢/٢٤.

(٤٥) انظر القلائد، ص ٦٢ - ٦٣.

(٤٦) بحر المتقارب، الديوان، القطعة ٢٤١، ص ٣٠٨، وانظر أيضاً القطعة رقم ٢٤٠ ص ٣٠٧.

○ الفصل الخامس :

البحر والسفن

ليست إسبانيا بلد المدن الكبيرة والوديان والجبال والحدائق والبساتين فحسب، وإنما أيضا بلد ساحلى لا يتصل ببقية دار الإسلام إلا عن طريق البحر. وحين يقول المقرئ:

ثلاثة ليس لها أمانُ البحرُ والسلطانُ والزمانُ^(١)

فإنما يعبرُ في قوله هذا عن مشاعر الأغلبية من المسلمين على الأقل فيما يتصل بالبحر. بعامة لم يصف الشعراء البحر إلا ليبينوا أخطاره كلها، وابن حمديس الذى قطع مسافات كبيرة من صقلية إلى إسبانيا، ومن إسبانيا إلى أفريقيا، لم يذكر لنا من رحلاته سوى الغثيان الذى أصابه، والمخاطر التى تعرض لها المسافرون:

لا أركبُ البحرَ أخشى علىَّ منه المعاطبُ
طينُ أنا وهو ماءٌ والطينُ في الماءِ نائبُ^(٢)

وفي أبيات أخرى نجده يحذر أصدقاءه من ركوب البحر:

أراك ركبْتَ في الأهوالِ بحرًا عظيمًا ليس يؤمن من خطوبِهِ
تُسِيرُ فلُكُهُ شرقًا وغربًا وتُدفع من صباهُ إلى جنوبِهِ
وأصعبُ من ركوبِ الحرِ عندي أمورُ أُلجأتكَ إلى رتوبِهِ^(٣)

وتلقى أبو الحسن الحصرى وهو في سبته دعوة من إشبيلية، ولم ير واجبا عليه أن يستجيب لها رغم إلحاح المعتمد، وما كان عليه إلا أن يعبر مضيق جبل طارق، وكتب إليه:

أمرتني بركوبِ البحرِ أقطعهُ غيرى لك الخيرُ فاخصصه بذاءِ الداءِ
ما أنت نوحٌ فتنجيني سفينته ولا المسيحُ أنا أمشى على الماءِ^(٤)

ويقول أبو الوليد هشام الرقشى، وعزم على ركوب البحر إلى الحجاز فباله ذلك:

لا أركبُ البحرَ ولو أننى ضربتُ فيه بالعصِ فانفلقَ

(١) من السريع، نفع ٣٤/١، وديجا، مقدمة الطبعة الأوربية ٢٧١/١.

(٢) من المجتث، نفع ٢٧١/٤، وقد أخذ ابن حمديس هذه الفكرة من شاعر آخر مجهول:

إن ابن آدم طينٌ والبحر ماءٌ يذِبة
لولا الذى فيهُ يتلُ ماجاز عندي ركوبه

من المجتث، نفع ٢٧١/٤.

(٣) من الوافر، نفع ٢٧١/٤.

(٤) من البسيط، الصفدى، نكت الهميان في نكت العميان ٢١٤، والترجمة الفرنسية له لأحمد زتى ص ٥٧.

ما إن رأت عَيْنِي أَمَاجَهُ فِي فِرَقِي إِلَّا تَنَاهَى الْفَرَقُ^(٥)

وعندما أثار المرابطون موجة من «التطهير» كرد فعل ضد تسبب ملوك المطوائف، اتخذ الشعراء من ذوى الميول الأخلاقية من أخطار البحر صورا وتشبيهات ليعطوا أفكارهم مزيدا من القوة، يقول أبو القاسم بن العطار:

الْحُبُّ نَسَبُ فِي أَمَاجِهِ الْمَهْجُ لَوْ مَدَّ كَفًّا إِلَى الْغُرْقَى بِهِ الْفَرْجُ
بَحْرُ الْهَوَى غَرَقَتْ فِيهِ سَوَاحِلُهُ فَهَلْ سَمِعْتُمْ بِبَحْرِ كُلِّهِ الْجَبْجُ^(٦)

وأوحى طوفان الحياة إلى أبي الفضل بن حسان الغساني بهذه الأبيات:

أَلَا إِنَّمَا الدُّنْيَا بَحَارٌ تَلَاطَمَتْ فَمَا أَكْثَرَ الْفِرْقَى عَلَى الْجَنَبَاتِ
وَأَكْثَرَ مَنْ صَاحَبَتْ يُغْرَقُ إِلْفُهُ وَقُلْ فَتَى يُنْجَى مِنَ الْغَمَرَاتِ^(٧)

بعد ذلك لزمنا الذى ما كاد العرب يخرجون فيه من شبه جزيرتهم، ويندفعون لفتح العالم حتى توقفوا مدهوشين أمام أمواج بحر الروم، غير أن هذه الدهشة وهذا التردد لم يدم طويلا، فقد أعانهم المسلمون الجسد من مصريين وبيزنطيين ويونانيين وبربر، وكلهم ألفوا البحر واعتادوا السفر فيه لمسافات قريبة أو بعيدة، والتردد على سواحله المختلفة، ومن ثم لم يتأخروا فى الانقضاض على البحر الأبيض المتوسط، والقرآن والحديث يدعوانهم إلى مواجهة هيجان الأمواج^(٨).

وكان الأمويون فى الأندلس، وبخاصة فى عصر عبد الرحمن الناصر، يملكون أسطولا قويا يضم عددا كبيرا من السفن، ومصانع لبنائها فى المرية وقصر أبى دانس^(٩)، ويقوده أمير البحر الشهير ابن رُماحس^(١٠)، وكانت سفنه تحكم البحر الأبيض كله وتسيطر عليه، وتؤمن النقل البحرى بين المرية

(٥) من السبع، نفع ٣٧٧/٣. وقد عبر ابن العربى أيضا نثرا عن الرعب الذى أناره فيه عبور البحر، انظر نفع ٣١٢/٢، وهو نص منقول من «قانون التأويل» لابن العربى.

(٦) من البسيط، القلائد ٢٨٧.

(٧) من البسيط، نفع ٣٢٩/٤. لا نستطيع أن نترك الموازنة بين هذه الأبيات والأمثلة الموجزة، وجاءت نثرا لشاعر من القرن الحادى عشر، وأشرنا إليه أكثر من مرة وهو أبو الفضل بن شرف «المتلبس بآل السلطان كالسفينة فى البحر إن أدخلت بعضه فى جوفها، أدخل جميعها فى جوفه»، «والناقص الدنى لا يبلغ لتفعه، إلا بوضعه، كهوجل السفينة لا يُنتفع بضبطه، إلا بعد الغاية فى حظه» القلائد ٣٥٢ - ٢٥٣، ونقلها وترجمها إلى الفرنسية دوزى فى كتابه أبحاث، ط ١ ص ٩٧ - ٩٨، والطبعة الثانية ٢٥٢/١، والملاحق ص ٥٤.

(٨) انظر القرآن الكريم: سورة هود الآية ٤٣، وسورة إبراهيم الآية ٣٧، وسورة الإسراء الآية ٦٩، وسورة الشورى الآية ٣٢، وصحيح البخارى ٩٩/٢، وابن ماجه ٩٢/٢: «المسافرون فى البحر كالمملوك على الأسرة»، وانظر أيضا: ل. بريوت، البحر فى التقاليد والصناعة عند مواطنى الرباط وسلا الأصليين، باريس ١٩٢١، ص ١ - ٣ و ٢٣٩ - ٢٤٢.

(٩) فى البرتغال، وتسمى اليوم قصر الملح Alcacer do Sal، انظر: تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ ج ٢ ص ٢٥٨، والإدريسى فى الترجمة الفرنسية ٢١١ - ٢١٩، والبيان المغرب ج ٢ ص ٣٩٤ / ٣١٧ - ٤٩٢.

(١٠) انظر: ابن خلدون، المقدمة، طبعة كاترمر ٣٥/٢، وترجمة دى سلان ٤٠/٢، وطبعة بيروت ٢٥٣، بعة القاهرة ٢٢٠. ولبنى بروفنسال، تاريخ إسبانيا الإسلامية، ط ٢ ج ٢ ص ١٧٠، ١٧١، ١٩١، ١٩٣، ٢٣٢ المامش رقم ١، وبخاصة صفحة ٢٦٢ والمامش رقم ١.

والإسكندرية، وهو العصر الذى يقول عنه ابن خلدون: «لم تظهر للنصرانية فيه ألواح»^(١١). وكان للفاطميين أيضاً أسطولهم الخاص بهم، وقد وصفه ابن هانى الأندلسى فى قصيدة شاعت وذاعت وطوّقت الآفاق^(١٢). ومع الرخاء الذى عمّ إسبانيا فى القرن العاشر، والأمن الذى ساد البحر الأبيض المتوسط فى ذلك الوقت، بدأت قوافل المسلمين الذين يتجهون إلى مكة لأداء فريضة الحج عن طريق البحر يتزايدون كل يوم، وإذا لم يصبح البحر مألوفاً تماماً لهم جميعاً، لم يعد على الأقل يثير فيهم الخوف كما كان الحال قديماً^(١٣). ومع استقرار الخلافة الأموية فى قرطبة، وقيام إمارات بطليوس وإشبيلية والمرية ودانية وبلنسية فإن هؤلاء تقاسموا فيما بينهم أسطول الأسرة الهاوية.

وفى الإمارات التى تقع على سواحل البحر، حيث توجد المدن الكبيرة، لعبت السفن دوراً هاماً فى نقل التموين فى حالات الحصار البرى، وتهرب إذا عرضت لها نكبة. وحين تفتقد الطرق الأمان بسبب الحروب التى لا تنتهى بين ملوك الطوائف أخذوا يستخدمون سفناً صغيرة للانتقال من ميناء إلى آخر. وكان ابن دراج القسطلى الشاعر، فى بحثه عن نصير للأدب والعلوم إثر تفرق الدعريين فى كل مكان، قد لحق بحراً بخيران الصلبي أمير المرية، وأول قصيدة طويلة توجه بها إلى راعيه الجديد بمدحه، صمّنها سبعة عشر بيتاً، يصف فيها محنته فى ركوب البحر إليه مع بنيه عام ٤٠٧هـ = ١٠١٦م^(١٤).

وعندما اجتمع المعتمد بن عباد مع يوسف بن تاشفين أمير المرابطين لحثه على مساعدة الأندلسيين الذين يضغط عليهم النصارى، عبر المضيق على سفينة خاصة به، ووصف لنا أبو عبيد البكرى وعبد الجليل بن وهبون، رحلة الأمير البحرية فى قصائدهم الشعرية^(١٥). حينما استولى المرابطون على إشبيلية قاموا بحرق شوانى المعتمد الراسية فى مياه الوادى الكبير^(١٦)، ورحل الأمير عن إشبيلية بعد سقوط الأسرة العبادية مع جانب من أسرته على بعض السفن. ومازلنا نتذكر المشاهد المحزنة، والمواقف العصية، التى صاحبت هذه الرحلة، وأتاحت لابن اللبابة الشاعر أن يصورها فى قصيدة من أروع قصائد الشعر، وتحفظ بجملالها المأسوى حتى يومنا هذا، وأشرنا إليها وذكرناها فيما سبق^(١٧).

(١١) ابن خلدون، المقدمة، طبعة كازمير ٣٦/٢، وطبعة بيروت ٢٥٤، وترجمة دى سنان ٤٢/٢، وج ميسيه، ملاحظة عن الرباط فى بلاد البربر، فى تكريم رينيه باسيه ٤٠٤/٢، وفى الفصل المستقلة ص ١٠.

(١٢) القصيدة من الطويل، نفع ٤٠/٢، والدويان، تحقيق زاهد على ص ٨١٨.

(١٣) وعف لنا الحاجب المصحف من القرن العاشر عاصفة فى البحر، فى قصيدة من الطويل أوردها ابن الأثير فى الحلة السراء ٢٦١/١، ومسح ابن دراج القسطلى المنصور بن أبى عامر عندما خص أسطول الوزير القوى بمقطوعة من أبيات ثمانية أطراه فيها. من الطويل، نفع ٨٧/٤، وانظر: بلاشير، حياة ابن دراج القسطلى وشعره، فى مجلة هيسيريس، المجلد ١٦، عام ١٩٣٣، ص ١٠٤. (١٤) من الطويل، أعمال الأعلام ٢١٢ - ٢١٥، ونفع ٤٤١/٣، والتمجروق، النفحة المسكية، ترجمة كاسترين ص ١٧، وهذه القصيدة تضمنت البيت الشهير، وما أثير ما نشر إليه:

ألا هل إلى الدنيا معاد يهل لنا سوى البحر قبر أو سوى الماء أكفان

(١٥) انظر فيما سبق ص ٩٤ من هذا الكتاب.

(١٦) المعجب طبعة القاهرة، تحقيق محمد سعيد العرين ط ١ ص ١٤٨، وترجمته إلى الفرنسية ص ١٢٠ وفى خسير كلمة شوانى انظر: دوزى، ملحق المعاجم العربية ٧٣٩/١، جودفروى - ديتومين فى: تكريم ر. باسيه ٢٩٤/٢ هامش رقم ٣. ر. برينشفيج، روايتان ... ص ٩١ رقم ١، وحبيب أزوت، مجلة المشرق، يولية - ديسمبر ١٩٤٩، ص ٣٤٦ - ٣٤٧. (١٧) انظر ص ٩٥ و ٩٦ فيما سبق من هذا الكتاب.

وكان المعتصم أمير المرية يحتفظ بأسطول له أيضا، ويقول عنه الفتح بن خاقان إنه «اشتغل بترميم أساطيله... ولم يزد على مراعاة أمر جواريه وفلكه»^(١٨). ووصف لنا ابن الحداد هذه السفن في قصيدة وصلتنا في جانب منها بفضل المقرئ:

هَامَ صَرَفُ الرَّدَى بِهَامِ الْأَعَادَى أَنْ سَمْتُ نَحْوَهُمْ لَهَا أَجْيَادُ
وَتَرَاءَتْ بِشَرْعِهَا كَعْيُونَ دَائِبُهَا مِثْلُ خَائِفِهَا سُهَادُ
ذَاتُ هُدْبٍ مِنَ الْمَجَازِفِ حَاكٍ هُدْبُ بَاكِ لِدَمْعِهِ إِسْعَادُ
مُحَمَّ فَوْقَهَا مِنَ الْبَيْضِ نَارُ كِلْ مِنْ أُرْسَلَتْ عَلَيْهِ رِمَادُ
وَمِنَ الْخَطِّ فِي يَدَيْ كُلِّ دُرٍّ أَلْفُ خَطِّهَا عَلَى الْبَحْرِ صَادُ^(١٩)

وقد وصف لنا أبو الحسن بن الحاج اللورقي رحيل عز الدولة بحرا هاربا عند دخول المرابطين المرية، في قصيدة مخمسة يرثي فيها ابن صمادح، ويندب الأندلس في زمن الفتنة^(٢٠).

ومع ذلك، علينا ألا نبالغ كثيرا في القوة الحقيقية لهذه الأساطيل، لأن دائرة عملها كانت محدودة إلى حد كبير، وظل عبور غربي البحر الأبيض المتوسط يشكل خطرا جسيما للغاية، وبقيت سيادة البحر في يد النصارى، وأبلغ النصوص تعبيراً عن هذا الواقع تركه لنا شاعر من صقلية يدعى أبو العرب مصعب الصقلي، ورفض أن يركب البحر إلى إشبيلية ليلحق بالمعتمد، رغم أن هذا عرض عليه خمس مئة دينار ذهباً، وكتب إليه:

لَا تَعَجِّبْ لِرَأْسِي كَيْفَ شَابُ أَسَى وَاعْجِبْ لِأَسْوَدَ عَيْنِي كَيْفَ لَمْ يَشَبْ
الْبَحْرُ لِلرُّومِ لَا تَجْرِي السَّفِينُ بِهِ إِلَّا عَلَى غَرَرٍ وَالْبَرْءُ لِلْعَرَبِ^(٢١)

ولكن أسطول أمراء دانية والجزائر الشرقية يحتل مكانة لا بأس بها، فالأساطيل التي خلفها الأمويون وتقاسمها الآخرون ازدادت عددا، وحين استولى مجاهد على جزيرة سردينية كان أسطولها يتكون من مئة وعشرين سفينة^(٢٢)، لأن امتلاك قوة بحرية في مملكة هذه الجزر ضرورة حيوية وهامة، فهي لا تحرس مداخل الجزر بعناية وبقطة فحسب، وإنما تقوم أيضا بحملات من حين لآخر على شواطئ إيطاليا وفرنسا وقطلونية. وعندما لا يكون الأسطول في حملة ما فإنه يُبحر بين شواطئ شبه الجزيرة والجزائر الشرقية، أو يرسو للراحة في الموانئ والخلجان العديدة المنتشرة بين شواطئ الجزر الحالية، وكان الأمير يقيم له مهرجانا كبيرا في ٢٤ يونية^(٢٣) من كل عام. ترى هل نحن بإزاء عادة تتكرر كل عام في العصر نفسه؟ هذا ما لا نستطيع الإجابة عليه، والمعلومات الوحيدة التي لدينا عن الموضوع ندين بها لشاعر وهو: ابن اللبانة، وينتمي أصلا في دانية، وارتبط طويلا بالأمير مُبَشَّر الصقلي، وإليك ما يقول:

(١٨) القلائد ٤٧.

(١٩) من الخفيف، نفع ٥٦/٤، ويبدو أن البيت الرابع يشير إلى النار الإغريقية.

(٢٠) انظر: نفع ١٠٤/٤، والقلائد ص ٥٤، وجاءت فيه نثرا.

(٢١) من البسيط، ابن خلكان في: الصفدى، نكت الهميان ٢١٤، ولابد أن أبا العرب تغلب على مخاوفه، لأننا سوف نلتقي به

بعد قليل في بطل المعتمد، انظر فيها بعد، ص ٢٩٨ من هذا الكتاب

(٢٢) أعمال الأعلام ٢١٩.

(٢٣) عن لفظ «المهرجان» انظر فيها يلى ص ٢٧٢ من هذا الكتاب.

بُشْرِى يَوْمَ الْمَهْرَجَانِ فَبِأَنَّهُ
طَارَتْ بَنَاتُ الْمَاءِ فِيهِ وَرِيشُهَا
وَعَلَى الْخَلِيجِ كَتِيبَةٌ جَرَّارَةٌ
وَبَنُو الْحُرُوبِ عَلَى الْجَوَرِيِّ الَّتِي
مَلَأَ الْكَمَاءَ ظَهْرُهَا وَيَطُونَهَا
خَاضَتْ غَدِيرَ الْمَاءِ سَابِحَةً بِهِ
عَجْبًا لَهَا مَا خَلَتْ قَبْلَ عَيْنَانِهَا
هَزَّتْ تَجَادِفًا إِلَيْكَ كَأَنَّهَا
وَكَأَنَّهَا أَقْلَامُ كَاتِبٍ دَوْلَةٍ

يَرِيْ عَلَيْهِ مِنْ احْتِفَائِكَ رَوْنَقُ
رِيشِ الْغَرَابِ وَغَيْرُ ذَلِكَ شَوْدَقُ
مَثَلِ الْخَلِيجِ كَلَاهَا تَسْدَقُ
تَجْرِى كَمَا تَجْرِى الْجِبَادُ السَّبْقُ
فَأَنْتَ كَمَا يَأْتِي السَّحَابُ الْمَغْدِقُ
فَكَأَنَّهَا هِيَ فِي سَرَابٍ أَيْنَقِ
أَزَّ يَحْمِلُ الْأَسَدَ الضَّوَارِيَّ زُورِقُ
أَحْدَابُ عَيْنٍ لِلرَّقِيبِ تُحْدَقُ^(٢٤)
فِي عَرْضِ قَرْطَاسٍ تَخْطُ وَتَقْشَقُ^(٢٥)

تظهر الأبيات التي ذكرناها أن الشعراء حين كانوا يبحثون عن صورهم لوصف السفن استمدوا معجمهم اللغوي الأكثر أهمية من اللغة التقنية البحرية. بالأسطول يتكون من وحدات كل واحدة منها تحمل بعامة اسم سفينة، وتجمع على سفن وسفائن وفلك، وثمة تعبير آخر أكثر شاعرية وهو: بنات الماء، ولا نلتقي بلفظ مركب^(٢٦) أو قِصْعَة^(٢٧) إلا قليلا. وتسمى السفن حين تكون سريعة وتستخدم في المبارزة «المجارية» أو «السابحة»^(٢٨)، ويتم الإبحار اقصر المدى عادة في زورق، ويطلق اسم «الشراع» على السفن التي تسير بالقلع، و«المجداف» على التي تستخدمه، ويشبهون سرعة السفينة في سيرها بالحصان الأصيل أو الطائر، والحصان الأصيل غر، أى أنه مُعَلَّم بنجمة بيضاء في جبهته، أى غرة، ولكن التشبيه الأكثر ورودا هو استخدام صورة الطيور المعروفة بشدة بسط جناحيها وقوتها في الطيران، ونهما في الملاحقة والانقضض على الفريسة، وفي مقدمتها الغراب، وهو الطائر الأسود الذي لم يرجع إلى سفينة نوح. ولكن هنا أيضا الحراقة والفرقاطة، أو السفن ذات الصاريين ويرجع ذلك دون شك إلى أن أشرعتها ضارية إلى اللون الرمادي فتختلط بالضباب والأمواج. عندما يكون الشراع كله من قماش أبيض لا تشبه بالنورس (أبو قردان) وإنما بالحمام، فإذا كان لونه رماديا فاتحا اتخذت الصورة البلاغية مادتها من صيور الصيد السريعة، وأمدت المعجم الشعري بالتقاط: شَوْدَق، أو شودق، وشاهين، وهو الصقر الأبيض، وأحيانا ورقاء وأخيرا فإن السفينة الكبيرة ذات الأشرعة تشبه بالشواني.

وكان المخزن الذي يستمد منه الشعراء صورهم واحد لكل الشعراء تقريبا، فالقلع تشبه الأجنحة

(٢٤) انظر فيما بعد ص ٣٦٥ من هذا الكتاب.

(٢٥) من الكامل العجب في أخبار المغروب ص ١٠٧، وترجمة قتيان له إلى الفرنسية ص ١٢٩.

(٢٦) يشبه أبو عامر بن شهيد المركب بالأخفاف الموضوعة حول سجادة من البلد:

يَنْظُرُ مِنْ لَبْدِهِ لِدِينَا بَحْرَ دَمٍ تَحْتَهُ يَسِيرُ
كَأَنَّ أَخْفَافَنَا عَلَيْهِ مَرَكَبٌ مَالَهَا دَلِيلُ

من مغلخ البسيط، نفح ٢٤٥/٣، وانظر أيضًا فيما سبق ص ٩٤ من هذا الكتاب أبيات الكبرى حيث يستحده كلمة مركب.

(٢٧) انظر فيما سبق من هذا الكتاب ص ٩٦ وعن معنى هذه الكلمة انظر: دوزي ملحق المعاجم ٣/٣٧٢.

(٢٨) وتسمى أحيانا «منشآت» وفي القرآن لكريم وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام» سورة ص الآية ٢٤ وانظر فيما سبق

ص ٩٦ من هذا الكتاب.

التي ترفرف، وأحياناً أخرى بالقلوب التي تتحقق، والمقذاف بالرموش، وثمة مفاجأة جميلة، فبعد كل التشبيهات التي جاءت متقاربة، وتستقى من نبع واحد تقريبا، نلاحظ أن البيت التالى من الشعر يكون لوحة جميلة:

ورأيتُ فوق البحرِ دُرَّ عَا فاقعًا من زعفرانٍ^(٢٩)

لقد شاهد يوسف الرمادى حقا، بطريقة تختلف عن الشعراء الذين سبقوه أكيدا، أشعة الشمس تغوص في أعماق البحر عند الأصيل، فوصفها لنا في دقة، وروعة وجمال.

(٢٩) من الكامل، المطمع ٣١٦، وعنه في النسخ ٣٧/٤.

الموضوعات الثانوية

○ الفصل الأول :

السماء والظواهر الطبيعية

ونحن نتابع الموضوعات التي التقطها شعراء الأندلس من الطبيعة المحيطة بهم، يجدر بنا أن نفسح مكانا للسماء، صافية أو تغطيها السحب، وانعكاس ذلك على الطبيعة تحتها، وأن نعطي اهتماما خاصا للكواكب والظواهر المناخية ذات الصلة الوطيدة بالمصير الإنساني.

ويبدو أن صفاء منتصف النهار، والساعات الساطعة، لم تلهم شعراء الأندلس شيئا، ولا تصبح السماء موضوعا شعريا إلا بعد مغيب الشمس.

وقد شبه أبو الحسين بن سراج أشعة الشمس لحظة الغروب بالزعفران الأحمر يتفتت مسكا على الغيطان:

والشمسُ تنفضُ زعفراناً بالرُّبَى وتفتُّ مسكها على الغيطان^(١)
وشبهها أبو القاسم بن السقاط بالتبر المذاب:
ويوم لنا بالخيْفِ راقٍ أصيله كما راق تيرٌ للعيون مُذاب^(٢)



ولكن، إذا كان الليل بخاصة مارس سحرا عظيما على الشعراء العرب، فلأن هناك ذوقا لا نستطيع تفسير مصدره بدقة. وثمة مختارات من «الليالي العربية» تتضمن الشعراء الأروع إبداعا والأشد تواضعا منذ بدء الشعر حتى يومنا هذا.

يمكن القول أن الليل شاعرى بطبيعته، فسرّ الظلام العميق، والضوء الكاشف ترسله النجوم، يثيران أحاسيس الشاعر وخياله، وفضلا عن ذلك، يجيء الليل دائما شريكا في الذكريات الغرامية.

ويشبه الليل غالبا بملك زنجي، يقول أبو عامر بن شهيد:

وبتّنا نراعى الليلَ لم يطوِ بُردُه ولم يجلُ شيبُ الصبحِ في قَوْدِهِ وَخَطَا
تراه كملك الزُّنَجِ من فرطِ كبرِهِ إذا رَامَ مشيا في تَبِخْتِهِ أَبْطَا
مُطْلا على الآفاقِ والبدْرِ تاجُهُ وقد جعل الجوزاءَ في أذنه قُرْطَا^(٣)

(١) من الكامل، القلائد ١٦٩، الحلة السيرة ١٧٣/٢، دوزي: رسالة فليشر ٢٠٨.

● قلت: في الأصل الفرنسي أبو الحسن، وأظنها وهما أو خطأ مطبعيا لأنها في المرجعين اللذين أحال عليها أبو الحسين

(المرجم).

(٢) من الطويل، القلائد ١٧٣.

(٣) من الطويل، نفح ٤٤٠/٣.

ونسخ أبو محمد عبد الحق بن عطية الصورة نفسها:

وليلة جبت فيها الجزع مرتدياً بالسيف أسحب أذيالاً من الظلم
والنجم حيران في بحر الدجى غرق والبرق فوق رداء الليل كالعلم
كأنما الليل زنجي بكاهله جرح فيثعب أحياناً له بدم^(٤)

ونادرا ما يصف الشعراء الليل دين أن يعرضوا للقمر بدرا، ونادرا ما يتحدثون عن البدر دون أن يشبهوه بالحبيبة أو يشبهوها به^(٥). والقمر بدرا يمثل في خيال الشاعر الأمير سخيا يتألق في جلسة ليلية. وعند شعراء الأندلس لا ينفصل القمر بدرا، في أغلب الأحوال، عن الطبيعة التي تحيط به، ويرعوا في إبداعهم لكي يجعلوه يهبط من السماء، وبخاصة عندما ينعكس ضوءه على صفحة بركة، في ليلة صيف جميلة. يقول ابن سارة:

انظر إلى البدر وإشراقه على غدير موجه بزهر
كمشخ من حجر أخضر خط عليه ذهب أحمر^(٦)

أما القمر هلالا فقد أظم الشعراء موضوعات أخرى، وبخاصة حين يعنى ظهوره نهاية شهر رمضان والاحتفال بعيد الفطر الذي يعقب، سهر الصوم، هكذا رآه أبو الحسن بن هارون من إمارة شتمرية الغرب، يقول:

باليلة العيد عُدت ثانية وعاد إحسانك الذي أذكر
إذ أقبل الناس يضررون إلى هلاك النضو ناحلاً أصفر^(٧)

وأحسن منه قول أبي الحسن بن الزقاق:

وشهر أدركنا لارتقاب هلاله عيوناً إلى نحو السماء موائلاً
إلى أن بدا أخوى المدايع أحور يجر لأذيال الشباب ذلاً
فقلت له: أهلاً وسهلاً ومرحباً بيد حوى طبيب الشمول شماتلاً
أطلبك الأبصار في الجوى ناقصاً وأنت هنا تمشي على الأرض كاملاً^(٨)

(٤) من البسيط، القلائد ٢٠٩، وعنه نفع ٥٢٨/٢.

(٥) وقد نظم عبد الملك بن إدريس لجزيرة الخولاني من عصر للنصور بن أبي عامر، (القرن العاشر الميلادي) ثلاثة أبيات نالت شهرة واسعة:

أرى بدر السماء يلوح حيناً وأبصر وجهك استحيافاً
وذاك لأنه لما تبدى وأبصر وجهك استحيافاً
مقال لو غنى عنى إليه لراجعني بتصديق جواس

من الوار، نفع ٥٨٨/١ و ٢٦٠/٣ و ٦٧٠/٤، والمطمح ١٧٩، وفون شاك، الترجمة الإسبانية، شعر العرب في إسبانيا وصقلية ١٣٢/١.

(٦) من السريع، نفع ٦٠٠/٣، والبيت الثاني يشير فيما يبدو إلى حجر محك أقرب منه إلى حجر مشحذ.

(٧) من المنسرح، الحلة السيرة ١٩/٢.

(٨) من الطويل، الحلة السيرة ٢٠٢.

● وانظر ديوان الشاعر، القطعة ٩١، ص ٢٣٨، تحقيق عفيفة محمود ديراتي، بيروت، بلا تاريخ، الترجمة.

وكما نرى، فإن وصف الهلال نحىلا ضامرا لا يمكن أن يوحى بالحبيبة الجميلة الواصلة، ولهذا تفتن الشعراء في تشبيه رهاقة شكل القمر بموضوع مادي، ولم ينس الأندلسيون الصورة التي وقعت عليها عبقرية الشاعر العباسي ابن المعتز، المتوفى عام ٢٩٦ هـ = ٩٠٨ م، حين يقول:

انْظُرْ إِلَى حُسْنِ هلالٍ بدا يَهْتِكُ من أنوارِهِ الحُنْدَسَا
كَمَنْجَلٍ قد صيغَ من فضةٍ يحصد من زهرِ الدُّجَى نَرْجَسًا^(٩)

وبحثوا هذه الصورة عن نَدَّ عندهم، فوجدوه عند أبي المغيرة بن حزم، حيث يقول:

لَمَّا رَأَيْتُ الهلالَ مُنْطَوِيَا في غُرَّةِ الفجرِ قارَنَ الزُّهْرَةَ
شَبَّهْتُهُ وَالْعِيَانُ يشهدُ لي بصولجانٍ أوفى بضربِ كُرَّةِ^(١٠)

ويصف ابن سارة نجما جرى في السماء وترك وراءه مستطيلا منيرا:

وكوكبٍ أبصرَ العفريت مُستَرَقًا فمانقَصُ يُذَكِّي إثرَهُ هَلْبَةً
كفارسٍ حل إحضارِ عمامته فجَرَّها كُلُّها من خلفِهِ عَذَبُهُ^(١١)

وقد استطاع شعراء الأندلس في وصفهم للمجموعة الفلكية أن يظهروا أبدع صور خيالهم الخلاق، فشَبَّهوا القمر بين النجوم بملكة تنتزه في مملكتها، يقول المعتمد بن عباد:

ولقد شربتُ الراحَ يسطعُ نورُها والليلُ قد مدَّ الظلامَ رداءً
حتى تَبَدَّى البدرُ في جِوْزَانِهِ ملَكًا تناهى بهجةً وبهاءً
وتناهضتُ زهرُ النجومِ يحفُّه لَأَلَاؤُهَا فاستكملَ الألاءُ
لَمَّا أَرَادَ تنزُّها في غُربِهِ جعلَ المظلةَ فوقه الجِوْزَاءُ
وترى الكواكبَ كالواكبِ حوله رَفَعَتْ ثُرَيَّاها عليه لواءً
وحكيته في الأرضِ بين كواكبٍ وكواعبِ جمعتُ سنا وسناءً
إنْ نَشَرْتُ تلكَ الدروعَ حنادسًا ملأتُ لنا هذى الكؤوسَ ضياءً
وإذا تغنتُ هذه في مِرْزَهْرِ لَمْ تَأَلُ تلكَ على التريكِ غناءً^(١٢)

وهم أيضا أول من تصوّر نزهة ليلية للكواكب بين الكواكب، وذكريات لا عن المعراج النبوي، وإنما عن رحلة إلى السماء وإلى جهنم قام بها الوزير والشاعر المدهش، وأتيحت لنا أكثر من فرصة للحديث

(٩) من السريع، الديوان ج ٢ ص ٦٠٥، قطعة ١٠٦٦، تحقيق الدكتور يونس حبيب السامرائي، بغداد ١٩٧٨.

وهذه الصورة في إيجازها بالغة الجمال والروعة، وشبيه بها قول فيكتور هيجو:

أتى إله، أتى حصاد صيف خالد.

يمضي مطرزا، مبتعدا، بلا مبالاة.

هذا المنجل الذهبي في حقل النجوم

(١٠) من المنسرح، المطمح ٢٠٣، وعنه في نفح ٦٢١/١، والسيوطي، رصف اللال في وصف الهلال، في المجموعة الأدبية، ص ٧٥.

(١١) من البسيط، القلائد ٢٦٩.

(١٢) من الكامل، القلائد ٦، وعنه في نفح ٢٨٠/٤، وفي «بنو عباد» ١٤٠/١، والترجمة اللاتينية ص ٨٥ - ٨٦، وفي تاريخ

مسلمى إسبانيا، ط ٢، ج ٣ ص ١٧٦.

عنه، وهو أبو عامر بن شهيد، وأيضاً «رسالة الغفران»، أو الكوميديا الإلهية إن شئت لأبي العلاء المعرى^(١٣).

يقول أبو محمد بن سفيان في رسالة وجهها إلى أبي عيسى بن ليون أمير مريبطر:

أبا عيسى أتذكرُ حينَ كُنَّا على هام الكواكبُ ناز لنا
نبدوسُ بخیلنا زهرَ لثريَّا ونوردها المجرةَ إن ظمينا
وتنزلُ جهةَ الأسدِ اعتسافًا إذا ما البدرُ مرَّ بها تمينا
ونسطرقُ هودجَ العذراءِ وهنَّا فندخلُ عليها آمنینا
إذا عنت لنا الجوزُ مددنا لحل نطاقها عنها يمينا
وإن عرضت لنا كف الثريا سلبناها الخلاخل والبرينا
إذا ما غار من ددنا سهيل على الشعرى فخلت به جنونا
تجاوزنا العبور إلى الغميصا ولم نرهب شجاعهم المينا^(١٤)

ونجد في شعر القرن الحادى عشر قصائد ومقطوعات أخرى تصف المجموعة الفلكية ولكن بما أن معظم قصائدها يعمد للتشبيه بادئاً بكلمة «كأن»، فنحن على ثقة بأنهم يتلذذون قصيدة ابن هاني الشهيرة، ذات القافية الفائية، في مدح أمير المسيلة جعفر بن على بن حمدون^(١٥)، وغير ضرورى، فيما يبدو، أن نوردها هنا.

أما الأشعار التى تشير إلى تأثير الكواكب على الإنسان فقد اقتبسوا معلوماتهم فيها من كتب الفلك، وكلها متأثرة على نحو ما بكتاب بطليموس، ولقد رأينا فيما سبق، إجمالاً أن ابن غالب ردّ مزاج الأنسليين، الخاص إلى تأثير فينوس وعطارد^(١٦). فقران الكواكب يمكن أن يترل أثره سعادة أو شقاء على سكان الأرض، ويسبب لهم توجسات مشثومة أو متفائلة^(١٧)، وفى إسبانيا هذه حيث تدرس العلوم البالغة التنوع فى حرية واسعة للغاية، لم ير أبداً فى أى بلد من البلدان سكان فيها من آلات الأبطالاب. وحين فرّ القدرين ذى النون من طليطلة، لم يتردد فى أن يحمل معه واحدا منها، لأنها فيها يرى أئمن من الذهب والمجوهرات.

ومع ذلك أشار الشعراء إلى عدم أخرى مثل الكيمياء، وهم يعرضون لها حين يصفون النجوم أو الكواكب، يقول المعتمد مثلاً:

(١٣) انظر فيما سبق ص ٤١ من هذا الكتاب.

(١٤) من الوافر، القلائد ١٣٦ - ١٣٧. لميد من المعلومات عن أسماء الكواكب التى تبدو متراكمة، كما لو كانت استعراضاً، فى هذه القطعة، يكفى أن نذكر كتاب موتيلينسكى: مسارح العرب القفرية، وكتاب تالجرين، النجوم.

(١٥) انظر: ابن هاني، طبعة بيروت ١٢١ - ١٢٢، وطبعة زاهد على القاهرة، ص ٤٤٢ - ٤٤٥، الأبيات ١٦ - ٢٨، وحول تقليد شعراء القرن الحادى عشر هذه القطعة انظر: الذخيرة لابن بسام، ٥٠٨/٣ ومابعدها، حيث نلتقى بأسماً أبى ربيع بن أحمد القضاعى وبى الفضل البغدادى الدارمى.

(١٦) انظر فيما سبق ص ٢٤ من هذا الكتاب.

(١٧) ابن حزم، طوق الحمامة، ص ٣١ الصبغة الرابعة، تحقيق د. الطاهر أحمد مكى، دار المعارف، القاهرة ١٩٨، ورجعة بيكل للطوق ص ٢٠ - ٢١ وهامش ص ٢٢٥.

جاءتْكَ لَيْلاً فِي ثِيَابِ نَهَارٍ مِنْ نَوْرِهَا وَغِلَالَةِ الْبَلَارِ
كَالْمَشْتَرَى قَدْ لَفَّ مِنْ مَرِيحِهِ إِذْ لَفَّهَ فِي الْمَاءِ جَذْوَةُ نَارٍ
لَطْفُ الْجَمُودِ لَذَا وَذَا فَتَأَلَّفَا لَمْ يَلْقَ ضِدُّ ضَدِّهِ بِنَفَارٍ
يَتَحَيَّرُ الرَّاوَنُ فِي نَعْتِهَا أَصْفَاءُ مَاءٍ أَمْ صَفَاءُ دَرَارٍ^(١٨)

والمعنى الدقيق لهذه الأبيات يمكن أن يفلت منا في جانب منه، ومع ذلك يمكن أن نفهم أن المعتمد مع كوكب المشتري يشير إلى القصد، ومع كوكب المريخ إلى الحديد، ويمكن أن يريد بالماء هنا مادة كحولية من أحماض العصور الوسطى تستخدم في إذابة الحديد والقصدير إذا وُضعا على التنور^(١٩).

ويتيح الليل للشاعر أن يمضي أطول وقت مع حبيبته، يقول أبو تمام الحجام:

زُرْتُ الْحَبِيبَ وَلَا شَيْءَ أَحَاذِرُهُ فِي لَيْلَةٍ قَدْ لَوْتُ بِالْغَمَضِ أَشْفَارًا
فِي لَيْلَةٍ خَلْتُ مِنْ حُسْنِ كَوَاكِبِهَا دَرَاهِمًا وَحَسِبْتُ الْبَدْرَ دِينَارًا^(٢٠)
ويقول أبو عامر بن الجَدِّ:

لَهُ لَيْلَةٌ مَشْتَاكِ ظَفَرْتُ بِهَا قَطَعْتُهَا بِوَصَالِ اللَّثْمِ وَالْقَبْلِ
نَعِمْتُ فِيهَا بِأَوْتَارِ تَعَلَّنِي أَحْلَى مِنَ الْمُنِّ أَوْ أَمْنِيَةِ الْفَرَلِ
أَحْبَبْتُ إِلَيْهَا إِذْ كُلُّهَا سَحَرُ أَرَاكِ الصَّبَّ مِنْ عُدْرِ وَمِنْ عَدَلِ^(٢١)

ولم يكن العشاق جميعاً سعداء، وليلهم - في انتظار الوفاء بالميعاد - يمضي في سهاد قلق ومؤلم. ياله من ليل طويل في نظر هؤلاء العشاق التمساء. ولكن الموضوع ليس خاصاً بالأندلسيين وحدهم، ومن ثم لن نضرب له غير مثل واحد، يقول ابن سارة:

وَلَيْلٌ كَأَنَّ الدَّهْرَ أَفْضَى بِعَمْرِهِ جَمِيعًا إِلَيْهِ فَانْتَهَى فِي ابْتِدَائِهِ
يُحَدِّثُ بَعْضُ الْقَوْمِ بَعْضًا بِطَوِيلِهِ وَلَمْ يَمُضِ مِنْهُ غَيْرُ وَقْتِ عَشَائِهِ
تَكَانَّفَ ظِلُّ الْغَيْمِ فِيهِ فَلَمْ يَكُنْ بِهِ الْعَيْنُ تَدْرِي أَرْضُهُ مِنْ سَمَائِهِ
إِذَا افْتَرَّ فِي اسْتَبْعَادِهِ بَرَقَ دَجْنَةٌ حَكَأَ حَبَشِيًّا ضَاكِكًا مِنْ بَكَائِهِ
ضَرَبْتُ بِسَيْفِ الْعَزَمِ عُنُقَ ظِلَامِهِ وَضَرَجْتُ يَرْدَى فَجَرِهِ مِنْ دَمَائِهِ^(٢٢)

والليل يعقبه الفجر موضوع آخر تناوله الشعراء الأندلسيون، وأظهروا فيه نبوغاً فذاً، ولم يحدث أبداً أن تجلّى ذوقهم رائعاً في التجسيد وفي الأسطورة كما في تصوير هذه الظاهرة الغامضة للنهار يخلف الليل، والضوء يطرد الظلام، والمقطوعات التي عرضت لهذا كثيرة، وآثرنا أن نختار بعضاً منها فحسب.

(١٨) من الكامل، القلائد ٦، وفي «بنو عباد» ٤٦/١، ونفع ٢٧٩/٤.

(١٩) اعتمدنا في هذا التفسير على دوزي في «بنو عباد» ٨٨/١، وانظر فيها بعد ص ٢١٢ من هذا الكتاب إشارة إلى الكيمياء في مقطوعة لابن سارة.

(٢٠) من البسيط، نفع ٤١٦/٣.

(٢١) من البسيط، نفع ٧٠/٤، وفي الفصل الخاص بالمرأة سوف نتاح لنا الفرصة للحديث عن «ليالي الحب».

(٢٢) من الطويل، القلائد ٢٧٠.

يقول أبو الحسن علي بن السيد البطلوسي:

والليل مُنْحَفَرٌ يَطِيرُ غَرَابُهُ والصُّبْحُ يَطْرُدُهُ بَيَازُ أَشْهَبِ (٢٣)

ويقول أبو حفص بن برد الأصغر:

وَكأنَّ اللَّيْلَ حينَ لَوَى هَارِبًا والصُّبْحُ قد لَاحَا
كِلَّةٌ سَوْدَاءُ احْرَنَهَا عَامِدُ أُسْرَجِ مَصْبَاحِ (٢٤)

ويقول أبو القاسم الأسعد بن بليطة في قصيدة يمدح بها المعتصم أمير المرية:
وقد داب كُحْلُ اللَّيْلِ في دمع فَجَرَةٍ إلى أن تَبَدَّى اللَّيْلُ في اللَّمَّةِ لَشْمَطَا
كَأنَّ الدَّجَى جيشٌ من الزَّيْنِجِ نَافِرٌ وقد أَرسلَ الإصْبَاحُ في إثرِهِ الفِطَا (٢٥)

وأَمْضَى أبو الحسن بن زُبَاع (وابن بَيَّاع) اللَّيْلَ يحْلُمُ مع حَبِيبَتِهِ:
إذا بَلَغْتَ مِنْكَ الْخِيَالَاتُ مَا أَرَى فَأَنْتَ لِمَاذَا بِالشُّخُوصِ مَعْرَضُ
إلى أن تَبَدَّتْ عَنْ سَنَا الصُّبْحِ سَدْفَةٌ كَمَا انشَقَّ عَنْ صَفْحٍ مِنَ الْمَاءِ عَرْمَضُ
وَنَدَّتْ إلى الْغَرْبِ النُّجُومُ سُرُوعَةً كَمَا نَفَرَتْ عَيْنٌ مِنَ السَّيْلِ رُكْضُ (٢٦)
وَأَدْرَكَهَا مِنْ فَجْأَةٍ الصُّبْحُ بِهَتَّةٍ فَتَحَسَّبَهَا فِيهِ عَيُونًا تَمْرَضُ
كَأنَّ الثَّرِيَّا وَالْغُرُوبُ يَحْنُهَا لَجَأٌ عَلَى رَأْسِ الدَّجَى وَهُوَ يَرْكُضُ
وَمَا تَمْتَرِي فِي الْهَقْعَةِ الْعَيْنُ إِنَّهَا عَلَى عَاتِقِ الْجُوزَاءِ (٢٧) قَرَطُ مَفْضُضِ (٢٨)

وإذا تَأَمَّلْنَا مِشَاعِرَ ابْنِ زُبَاعِ الْعَارِضَةِ فَضَلْنَا عَلَيْهَا بِسَاطَةَ أَبِي الْفَضْلِ بْنِ شَرْفٍ فِي شَعْرِهِ، وَطَرَاةِ الْأَلْوَانِ عِنْدَهُ، حينَمَا يَقُولُ:

مَطَّلَ اللَّيْلُ يَوْعَدُ لِفَلَقِ وَتَشْكَى النُّجُومُ طَوْلَ الْأَرْقِ
ضَرَبَتْ رِيحُ الصَّبَا مِسْكَ الدَّجَى فَاسْتَفَادَ الرُّوضُ طَيْبَ الْعَبَقِ
وَأَلَّحَ الْفَجْرُ خَدًّا خَجَلًا جَالٌ مِنْ رَشَحِ النَّدَى فِي عَرَقِ
جَاوَزَ اللَّيْلَ إِلَى أَنْجَمِهِ فَتَسَاقَطْنَ سَقُوطَ أَنْوَرَقِ
وَاسْتَفَاضَ الصُّبْحُ فِيهِ قَيْضَةٌ أَيْقَنَ النُّجُومُ لَهَا بِالْفَرْقِ
فَانْجَلَى ذَاكَ السَّنَا عَنْ حَلِكِ وَأَنْحَى ذَاكَ الدَّجَى عَنْ شَقَقِ (٢٩)

(٢٣) من الكامل، نفع ٧٢/٤.

(٢٤) من المديد، ابن سعيد، عنوان المرقصات ٥٩، الحيرة ٥٩٩/١، والشقندي، رسالة في فضائل الأندلس، نفع ١٩٧/٣.

وترجمة غرسية غوث إلى الإسبانية ص ٦٥.

(٢٥) من الطويل، المطمح ٣٤٢، نفع ١٠٠/٤، وابن خلكان، وفیات ٣٦/٢، وترجمة دى سلا ٢٠٠/٣.

(٢٦) ربما كان يجب أن نقرأها «الشبيل» بدل السيل، والشبيل هو الأسد في صباه.

(٢٧) عن هذه الأفلاك انظر: مولينسكي مسارج العرب القمرية، في الفهرس، تالجرين، النجوم، في الفهرس.

(٢٨) من الطويل، الفلائد ٢٢٨ - ٢٢٩.

(٢٩) من الرمل، نفع ٣٩٣/٣، دوزي، 'بحات ط'، ص ٩١ - ٩٢، والطبعة الثالثة ٢٤٨/١.

ويراه ابن اللبانة:

والليلُ قد سدَّى وألحمَ ثوبَهُ والفجرُ يرسلُ فيه خطاً أبيضاً^(٣٠)

وإذا كان الأدب اليوناني قد عرف صورة الفجر الوردى الأصابع، فإن الشعراء الأندلسيين استخدموا صورة أخرى، وهي مثيرة أيضاً، فشبَّهوا جيد الحبيب بعمود الفجر، يقول أبو الصلت أمية بن عبد العزيز:

كأنما جیده وغُرَّتْهُ من دونها إذ بدَّونَ في نسقِ
عمودٍ فجرٍ من فوقِهِ قمرٌ دارتْ به قطعة من الشفقِ^(٣١)

أما أبو القاسم بن عبد الغفور فصور الفجر على نحو مختلف:

رويدكْ يابدرُ التمامِ فإتني أرى العيسَ حسرى والكواكبَ ظلَّعاً
كأنَّ أديمَ الصبحِ قد قدَّ أنجباً وغودرَ درعِ الليلِ فيها مرقعاً^(٣٢)

ولا نستطيع أن نكتم إعجابنا بهذه الصورة العبقريّة التي نلتقي بها في قصيدة ابن الرقاء: ولما رأيتُ الغربَ قد غصَّ بالدجى وفي الشرقِ من ضوء الصباحِ دلائلُ
توهَّمتُ أن الغربَ بحرٌ أخوضه وأن الذي يبدو من الشرقِ ساحلُ^(٣٣)
وجسدُ أبو محمد بن عبدون الليل والفجر على السواء:

وما أنسَ ليلَتنا والعيْنَا قُ قد مزجَ الكلَّ منا بكلِ
إلى أن تقوَّسَ ظهرُ الظلامِ واشمطَ عارضه واكتهلَ
ومن رقيقِ رداءِ النسيمِ على عاتقِ الليلِ بعضُ اللَّيلِ^(٣٤)

فالفجر والصباح لا ينفصلان في فكر الشارع المرح، المنغمس في لذات العيش، وعن التبيذ الذي يشربونه تخلصاً من النوم المفرط في الثقل، ولكي يدفعوا بالحياة من قلوبهم إلى بطونهم، وسنرى فيما بعد، حين نعرض للشراب، كيف عالج شعراء الأندلس هذا الموضوع.



الليالي الأندلسية فاتنة، ويضفي عليها التسيم العليل سحراً، وينتشي كل من يعيشها بأريج زهورها، يقول ابن عبدون:

يانفحةَ الزهر من مسراكِ وإفاني خلوصُ ربِّك في أنفاسِ آذارِ
والأرضُ في حُلِّ قد كاد يحرقها توقدُ النور لولا ماؤها الجاري

(٣٠) من الكامل، القلائد ٢٤٧.

(٣١) نفح ١٠٧/٢، وتعبير «عمود الصبح» قديم، ويرد في أشعار النابغة، والحطيئة، ونزى الرمة، وعمر بن أبي ربيعة، وأبي تمام.

● ترد صورة «الفجر الوردى الأصابع» في الإلياذة، الفصل ٦، ص ١٧٥ (مترجم).

(٣٢) من الطويل، مطمح ٢٢٠، وعنه في نفح ٥٥٣/٣.

(٣٣) من الطويل، نفح ١٠٧/٤.

(٣٤) من المتقارب، القلائد ١٤٧.

والطبرُ في وَرَقِ الأشجار شاديةً كأنهنَّ قِيَانُ خَلْفَ أَسْتَارِ^(٣٥)
وأرقُّ هذه النسائمِ ما يهب مع الفجر أو عند الأصيل، يقول ابن رُحَيْمٍ:
سلامٌ كما حَيْثُكَ عاطرةُ النَّشْرِ وإلاَّ كما هبَّ النَّسيمُ مع الفجرِ^(٣٦)
وابن بَلَيْطَةَ يقول:

تتنفَّسُ الصَّهَاءُ في فَوَاتِيهِ كتنفَّسَ الرِّيحَانِ في نِالِ الْأَصَالِ
وكأنما الخيلان في لَبَاتِهِ ساعات هجر في زمانٍ وصارِ^(٣٧)

وتسمح لنا فقرات أخرى بأن نلاحظ أن أسماء الريح لا تُستخدم كيفما اتفق، فالصبا تعني النسائم الآتية من الشرق أو الشمال الشرقي ويرى المعتمد أنه يستقبل في الصبا أريج حداثو المرية حيث يوجد المعتصم^(٣٨)، ويكتب المعتض إلى صهره مجاهد العامري أمير دانية فيقول:

عرفتُ عَرَفَ الصِّبَا إذ هبَّ عاطرُهُ مِنْ أَفْقٍ مَنْ أَنَا في قَلْبِي أَشَاطِرُهُ^(٣٩)
ويكتب ابن اللبَّانة إلى مبشر حاصر الدولة، أمير الجزائر الشرقية، فيقول:

واشتمُّ في رِيحِ الصِّبَا لَرِيحِ الصِّبَا فَقَضَى حَقُوقَ الشَّوْقِ فِيهِ بَأْنَ قَضَى^(٤٠)
ويستخدم ابن زيدون كلمة «قول» مرادفاً لكلمة «صبا» وهو يتحدث عن بلنسية:

راحت فراح بها السقيم رِيحَ معطرة النسيم
مقبولة هبت قبو لَأ، فهي تعبق في الشميم
أفضيض مسك أم بلد سية لرباها نعيم^(٤١)



لقد استرعت الظواهر الطبيعية المختلفة من سحب و برق ومطر اهتمام شعراء الأندلس كما أثارت شعراء المشرق من قبل، وكانت لبعضهم هنا وهناك رموزاً تعبر عن سخاء الأمير، أو أية شخصية مرموقة، على حين أنها لدى شعراء الجاهلية والعصر الإسلامي رموز لرؤى صحراوية مخشقة، فهناك لا يسوق السحاب المطر إلا حين يشتد البرق، والمطر وحده هو الذي يهب الأرض الحياة بما يكفي لنمو

(٣٥) من السبسط، الذخيرة ٣٠/٢، بنو عباد ٢٤٦/١.

(٣٦) من الطويل، القلائد ١١٩.

(٣٧) من الكامل، الذخيرة ٤٤/٢، بنو عباد ٢٩٨/١.

(٣٨) الحلة ٤٧/٢، بنو عباد ٨٥/٢، ويعترون ريح الشرق خيرة، وفي الحديث ما معناه: لقد ساعدتني ريح الشرق، البخاري، ترجمة أوداس ووليم مرسية ٣٤٠/١.

(٣٩) من السبسط، الحلة ٤٧/٢، بنو عباد ٥٥/٢، والذخيرة ٣١/٣، بنو عباد ٢٤٦/١، وواضح أنه في النصف الثاني يلمح لزوجته، وهي ابنة مجاهد.

(٤٠) من الكامل، القلائد ٢٤٦.

(٤١) من مجزوء الكامل، الديوان ٢٠١، كور: ابن زيدون ٩٤ - ٩٥، والقلائد ٧٤، ونفع ٢٧١/٣.

● لمعرفة المزيد عن «الأقوال المطروقة»،ظر الفقرة الخاصة بها ص ٣٥٥ من كتابنا الأدب المقارن، دار للعارف، القاهرة ١٩٨٨. (الترجم).

العشب الضروري الذي تقوم عليه حياة القطعان. ولكن أغلب الشعراء الأندلسيين تخلوا عن هذه الموضوعات لأنها ليست دقيقة في شبه جزيرة إيبيريا وقد لاحظوا أن الرعد يجلب البرد غالباً وليس المطر، وأن البرد أبعد ما يكون عن إفادة الأرض أو الزرع. ولكنهم وجدوا في السحب والأمطار فرصة موالية لوصف مشاهد الطبيعة حيث تلتقي السماء بالأرض، وهم لا يعزلونها عن الجو، ويرون تأثيرها، فيما يشاهدون بأعينهم، يمثل الحالة المثالية للبلد الذي يعيشون فيه، حين تقع على الحدائق المزهرة، والآكام المغطاة بالحشائش والأشجار المثمرة، وهم يلتقطون من هذه الصور أرقها وأعذبها، ويعتمدون دائماً في إلهامهم على ملاحظة هذه الظواهر الطبيعية مباشرة، وعلى تأثير البحث الذي يقودهم إلى الرغبة في استحرار من الأقوال المطروقة التي حفظوها خلال سنوات الدرس.

إن السماء مغطاة بالسحب، وتدوى فيها البروق، ويهطل المطر، ألهمت ابن عمار الأبيات الثلاثة التالية:

يَوْمٌ تَكَافَفَ غَيْمُهُ فَكَانَتْهُ دُونَ السَّمَاءِ دُخَانٌ عَوْدٌ أَخْضَرُ
وَالْكُلُّ مِثْلُ بُرَادَةٍ مِنْ فُضَّةٍ مَنشُورَةٌ فِي تُرْبَةٍ مِنْ عَنَبٍ
وَالشَّمْسُ أَحْيَانًا تَلُوحُ كَأَنَّهَا أُمَةٌ تَعْرِضُ نَفْسَهَا لِلْمَشْتَرَى (٤٢)

ويكرر الأسعد بن بليطة الفكرة نفسها، ولكنه يحاول أن يقدم لنا، كفنان يرسم لوحة، انطباعاً معبراً عن غروب الشمس:

لَوْ كُنْتُ شَاهِدُنَا عَشِيَّةَ أَمْسِنَا وَالْمِزْنُ يَكِينُنَا بَعِينُنِي مَذْنِبُ
وَالشَّمْسُ قَدْ مَدَّتْ أَدِيمَ شِعَاعِهَا فِي الْأَرْضِ تَجْنَحُ غَيْرَ أَنْ لَمْ تَعْزِبُ
خِلْتُ الرِّذَاذَ بُرَادَةً مِنْ فُضَّةٍ قَدْ غُرِبَتْ مِنْ فَوْقِ نَطْعٍ مُذْهَبٍ (٤٣)

وتثير السحب تدفعها الرياح فتلمع بالبروق أبا حفص بن برد الأصغر، فينشد هذه الأبيات:

عَارِضٌ أَقْبَلَ فِي جُنْحِ الدُّجَى يَتَهَادَى كَتَهَادَى ذَى الْوَجَى
بَدَدَتْ رِيحَ الصَّبَا لَوْلُوهُ فَانْبَرَى يَوْقَدُ عَنْهَا سُرْجاً (٤٤)

ويرسم لنا أبو إسحاق إبراهيم بن خيرة الصباغ لوحة أشد تنوعاً في الأبيات التالية.

يَوْمٌ كَانَ سَحَابُهُ لَبَسَتْ عِمَامِي الْمَصَامِتُ (٤٥)
حُجِبَتْ بِهِ شَمْسُ الضُّحَى بِمِثَالِ أَجْنَحَةِ الْفَوَاحِشِ

(٤٢) من الكامل، نفع ٦٠٢/٣، وانظر أيضاً بيتين للرمادي، من بحر الرجز في نفع ٧٤/٤:

وَالْأَفَقُ مِنْ سَحَابِهِ طُلَّ ضَعِيفٌ يَنْزِلُ
كَأَنَّهُ مِنْ فُضَّةٍ بَرَادَةٍ تَغْرِيلُ

(٤٣) من الكامل، الحلة ١٦٩/٢ - ١٧٠، المطمح ٣٤٣، وفي نفع ٥٢/٤ البيتان الأول والثاني.

(٤٤) من الرمل، الذخيرة ٥١٧/١، ونفع ١٩٧/٣، وابن سعيد: عنوان المرقصات ٥٩، والتفح، في رسالة الشقندي، فضائل

الأندلس، ينسبها إلى أبي جعفر اللعاني.

(٤٥) فيها يتصل بكلمة عمامي انظر: دوزي، ملحقات المعاجم العربية، وكلمة المصامت، جمع مصمت، لا توجد في المعاجم، ولكننا

نلتقي بها في مخطوطة الزهرى، وانظر أيضاً المرية، في تفسير كلمة «خلدي» الحرير، وعن كلمة خلدي هذه انظر: المعجم، ٩٥ و ٢٨٨.

وفي الذخيرة «غمامي».

فَالغَيْثُ يَبْكِي فَقَدَهَا وَالرَّعْدُ يَخْطُبُ مُفْصَحًا
وَالرَّوْضُ يَسْقِيهِ الْحَيَا فَاشْرَبْ وَلَدُّ بَجْنَةٍ
وَالْبَرْقُ يَضْحَكُ مِثْلَ تَامَتِ يَاطْرِبْ فَإِنَّ الْعَمَرَ فَاثَمَتِ^(٤٦)

ويقول لنا يحيى بن هُذَيْل في شيء من التكلف:

نَامَ طِفْلُ النَّبْتِ فِي جِجْرِ التُّعَامَى لَا هَتَازَ الْطَلِّ فِي مَهْدِ الْحَزَامَى
وَسَقَى الْوَسْمَى أَغْصَانِ النَّقَا فَهَوَتْ تَلْثُمُ أَقْوَاهِ التَّدَامَى
كَحَلِّ الْفَجْرِ لَهْمَ جَفَنِ الدَّجَى وَغَدَا فِي وَجْنَةِ الصَّبْحِ لَتَامَا
تَحْسَبُ الْبَدْرَ حَيًّا تَيْلُّ قَدْ سَقَتْهُ رَاحَةُ الصَّبْحِ مُدَامَا
حَوْلَهُ الزَّهْرُ كَوْوَسٌ قَدْ غَدَتْ مَسَكَةُ اللَّيْلِ عَلَيْهِنَّ خَتَامَا^(٤٧)

وقد أثار قوس قزح، ويدعوه العرب قوس ملاك السحب قزح» بعض الشعراء، ويُدْهَمُ بجماله فوصفوه، ومن هؤلاء أبو الفضل بن حسداى الإسلامى، فنظم هذه الأبيات:

وَأَطْرَبْنَا غَيْمَ يَمَازِجِ شَمْسَةٍ قَيْسَرُ طُورًا بِالسَّحَابِ وَيُكْشَفُ
تَرَى قَزَحًا فِي الْجَوِّ يَفْتَحُ قَوْسَهُ مُكَبًّا عَلَى قُطْنٍ مِنَ الثَّلَجِ يَتَدَفُّ^(٤٨)

ويقول عز الدولة بن صمادح

صَاغَتْ الْجُوزَاءُ قُرْطَيْنِ عَلَيَّ مَسْمَعِيهَا وَالثَّرِيَّا دُمْلَجَا
وَاسْتَجَادَتْ مِنْ سَمَاهَا حُلَلًا فَكَسَاهَا قَزَحٌ مَا نَسَجَا^(٤٩)

ويقول الأسعد بن بليطة يصف جارية غلامية. تورد شفيتها فاقع:

غُلَامِيَّةٌ جَاءَتْ وَقَدْ جَعَلَ الدَّجَى خَاتَمَ فِيهَا فَصَّ غَالِيَةً خَطًّا
فَقُلْتُ أَحَاجِبُهَا بِمَا فِي جُفُونِهَا وَمَا فِي الشِّفَا اللَّعْسِ مِنْ حَسَنِ الْمَعْطَى
مُحَيَّرَةُ الْعَيْنَيْنِ مِنْ غَيْرِ سَكْرَةٍ مَتَى شَرِبْتَ أَلْهَاطَ عَيْنَيْكَ اسْفَنْطَا
أَرَى نَكْهَةَ الْمَسَاكِينِ فِي حُمْرِ أُنْمَى وَشَارِبِكَ الْمَخْضَرِ بِالمَسْكِ قَدْ خُطَّا
عَسَى قَزَحُ قَبْلَتِهِ فَيَخْلُهُ عَنِ الشِّفَةِ اللَّمِيَاءِ قَدْ جَاءَ مَخْطَا^(٥٠)

وشبهه بن حزم قوس قزح بذب لطاووس:

أَتَيْتَنِي وَهَلَالُ الْجَوِّ مَطْلَعٌ قُبَيْلَ قَرَعِ النَّصَارَى لِلتَّرَاقِيسِ
كَحَاجِبِ الشَّيْخِ عَمَّ الشَّيْبُ أَكْثَرَهُ وَأَخْصُ الرِّجْلِ فِي لُطْفِ وَتَقْوِيسِ

(٤٦) من الكامل، نفع ٤٨٥/٣، والمطمح ٢٠٦، والذخيرة ٢١٠/٢.

(٤٧) من الرمل، نفع ٣٥٧/٣، وليت الأخير ينير إلى لجرار حين يكون غطاؤها محكم السد ياشمع.

(٤٨) من الطويل، نفع ٤٠١/٣، والدحيرة ٤٩٠/٣.

(٤٩) من الخفيف، الذخيرة ٤٩١/٣.

(٥٠) من الطويل، الذخيرة ٤٩١/٣، والمطمح ٣٤٣، وعن المطمح نقلها نفع ٥١/٤.

ولاحَ في الأفقِ قوسُ اللهِ مُكتفياً من كلِّ لونٍ كأذنانِ الطواويس^(٥١)
ولا نجد إلا شعرا قليلا يصف البردَ. ولكن هذا القليل يجيء في صور أصيلة وأنيقة وذكية، يقول
أبو بكر عبد المعطى بن المعين:

كَأَنَّ الهَوَاءَ غَدِيرٌ جَمَدٌ بَحِثُ البروقُ تُذِيبُ البردَ
خِيوطٌ وَقَدْ عَقِدَتْ في الهَوَاءِ وَرَاحَةٌ رِيحٌ تَحُلُّ الْعُقَدَ^(٥٢)

وتبدو ملاحظة الطبيعة واستلهاها مباشرة في هذه المقطوعة لابن خفاجة:

يَا رَبِّ قَطَرٌ عَاطِلٌ حَلَّى بِهِ نَجَرَ الثرى بَرْدٌ تَحْدَرُ صَائِبٌ
حَصَبُ الْأَبَاطِجِ مِنْهُ مَاءٌ جَامِدٌ غَشَى الْبِلَادَ بِهِ عَذَابٌ ذَائِبٌ
فَالْأَرْضُ تَضْحَكُ عَنْ قَلَانِدٍ أَنْجَمٍ ثَرَتْ بِهَا وَالْجَوُّ جَهْمٌ قَاطِبٌ
وَكَأَنَّمَا زَنْتِ الْبَسِيطَةَ تَحْتَهُ فَأَكْبَّ يَرْجُهَا الْغَمَامُ الْحَاصِبُ^(٥٣)

ونادر جدا أن يعرض الشعر لوصف الثلج في إسبانيا، على الرغم من وجوده بكثرة في بعض المدن
مثل: سرقسطة، وبطليوس، وطليلة، ومعاناة هذه المدن منه عادة في فصل الشتاء بخاصة، ومثلها الجبال
العالية، كجبل شلير، حيث تغطيها الثلوج حتى خلال فصل الصيف.

ولكن، إذا لم يجد الثلج مكانا له في ديوان الشعر الأندلسي، فإن قصائد كثيرة تتحدث عن البرد
القارس في شبه الجزيرة، ويسجل ابن سارة الفارق الذي يوجد في هذا الجانب بين الجزيرة العربية
وإسبانيا فيقول:

دَعُوا لَامِرِي الْقَيْسِ بْنِ حُجْرٍ طُلُوْلَهُ يَظَلُّ عَلَيْهَا سَافِحَ الْعِبَرَاتِ
وَعُوجُوا بِيَا قُوتِيَّةٍ ذَهَبِيَّةٍ يَهِيْمُ بِهَا الْمَقْرُورُ فِي السِّبْرَاتِ^(٥٤)

وأصبح برد مدينة سالم مثلا يتردد^(٥٥)، ومحدثنا أبو بكر عبادة بن ماء السماء في دقة بالغة عن شتاء
عام ٤٢١ هـ = ١٠٣٠ م المرعب، وكان في شهر صفر (فبراير - مارس) من هذا العام قاسيا:

يَا عِبْرَةَ أَهْدَيْتِ لِمُعْتَبِرٍ عَشِيَّةَ الْأَرْبَعَاءِ مِنْ صَفَرٍ
أَرْسَلْ مِلءَ الْأَكْفِ مِنْ بَرْدٍ جَلَامِدًا تَهْمِي عَلَى الْبَشَرِ
فِيهَا لَهَا آيَةٌ وَمَوْعِظَةٌ فِيهَا نَذِيرٌ لِكُلِّ مُزْدَجَرٍ^(٥٦)

وأثار برد غرناطة الشديد في الشتاء، بسبب قربها من جبل شلير، ابن سارة فأنشد هذه الأبيات:
أَحَلُّ لَنَا تَرْكُ الصَّلَاةِ بِأَرْضِكُمْ وَشَرْبُ الْحُمَيَّا وَهُوَ شَيْءٌ مُحَرَّمٌ

(٥١) من البسيط، طوق الحمامة ١٧٣، ترجمة نيكل ١٩١.

(٥٢) من التناوب، المطمح ٣٨٣، وعنه نقلها نفح ٢٣٦/٤.

(٥٣) من الكامل، الديوان، القطعة ٣١، ص ٧٦، والذخيرة ٦١٦/٣.

(٥٤) من الطويل، القلائد ٢٦٧.

● في الأصل المغرور بدل المقرور، وأظن الأولى تصحيف عن الثانية. (الترجم).

(٥٥) ابن حزم، طوق الحمامة من ٨٩.

(٥٦) من المنسرح، الذخيرة ٤٧٠/١.

فراراً إلى نار الجحيم لأنها
 لن كان ربي مُدْخِلِي فِي جَهَنَّمَ
 أرقُ علينا من شُلَيْرٍ وأرحم
 ففي مثل هذا اليوم طابت جهنم^(٥٧)
 والنار في الحقيقة عامل رفاهية وراحة، وموضع التقدير الكبير من الجميع، ولكن الشاعر الأندلسي
 لا يفرق بين النار تلهب والموقد حيث تشعل^(٥٨)، وفيما يتصل بهذا كان ابن سرّة الشنتريني
 متخصصاً، على نحو ما، في هذا اللون من القصائد، ونظم عدة مقطوعات من الشعر عن الموقد والنار
 بخاصة، ونقدم بعضاً منها:

لابنة الزند في الكوانين جمرُ
 خبروني عنها ولا تكذبوني
 كالدراري في دجى الظلماء
 أديها صناعة الكيمياء
 سيكت فحمها صفائح تبر
 كلما رفرق النسيم عليها
 سمرت في عشائها فأرتد
 لو ترانا من حولها قلت سرُّب
 ويتعاطون أكؤس الصها^(٥٩)
 ويقول في أخرى:

باتت لنا النار دراقاً وقد جعلت
 زهراء قدت لنا من نفثها لحف
 عقارب البرد تحت الليل تلسعنا
 لم يعلم البرد فيها أين موضعنا
 ولها حريق بكانون نطيف به
 كمثل جام رحيق فيه مكرمنا
 تبيحنا قريها حيناً وتبعدنا
 كالأم ترضعنا حيناً وتقطعنا^(٦٠)



هذه النصوص التي ضربناها مثلاً كافية لكي تظهر لنا بوضوح أن الأندلسيين عرفوا البرد
 القارس، وعبروا عنه في شعرهم، لأنهم أحسوا به حقاً، وجاءت صورهم انعكاساً صادقاً لانفعالهم، ولم
 تكن مجرد تدريبات فكرية خاصة يلتقطون مادتها من الجواهر والأحجار الثمينة السائل منها
 والمتجمد، كما هو عليه الحال في الشعر المشرقي.

(٥٧) من بحر الطويل، ياقوت، معجم الادباء ٣/٣١٧، وصبح الأعشى ٥/٢١٥ (الآبيات ١ و ٢ و ٥)، والعمرى، مسالك
 الأبصار، ترجمة جودفروي - ديومين ٢٢٥، وأحمد زكي باشا، في تكريم كوديرة، ص ٤٦٦ (ترجمة الآبيات ١ و ٢ و ٥).
 ● قلت: في صبح الأعشى ابن صادى بدل ابن سارة، وشكير بدل شليز وواضح أن ذلك تحريف (المترجم).
 (٥٨) لا تزال الحمراء تحتفظ ببعض هذه التوافد. انظر: توريس بلباس، في مجلة الأندلس ١٩٣٤، المجلد ٢، العدد الثاني، ص
 ٣٨٩ - ٣٩٠، واللوحات ٢٤ و ٢٥ و ٢٦ حيث ترى أن الأندلسيين كانوا يستخدمون لتدفئة الحجرات الكبيرة، فضلاً عن الموقد
 الضخمة، مد في حقيقته، وذلك ما نجده عند أحمد بن سعيد بن كوثر الطليطلي، المتوفى ٤٠٣ هـ = ١٠١٣ م، حيث يلقي دروسه على
 أربعين من طلابه، في حجرة في بيته، ويتم تدفئتها بواسطة كنون في قامة الرجل طولا، خلال شهر نوفمبر وديسمبر ويناير، انظر:
 ابن بشكوال، الصلة رقم ٧١ ج ١ ص ٣٣٠. إيرتشوندى وسيمونيت: منتخبات، القطعة رقم ١٠٠ ص ١١٢ - ١١٣، ودوزي:
 ملحق المعاجم ٤٩١/٢.

(٥٩) من الحفيف، القلائد ٢٦٦، ونفح ٣/٤٢٢.

(٦٠) من البسيط، القلائد ٢٦٧.

ومن بين الموضوعات التي تتردد كثيرا في الشعر الأندلسي وصف كأس البللور الجميلة الشفافة، تبدو كالماء اصافى متجمدا، أو مليئة بالنيبذ الأحمر المذهب فتبدو كما لو كانت التبر مذايا. يقول المعتمد:

لَلَّه سَاقِي مُهْفَهْفٍ غَنِجٌ قَدْ قَامَ يَسْقِي فَجَاءَ بِالْعَجَبِ
أَهْدَى لَنَا مِنْ لَطِيفِ حِكْمَتِهِ فِي جَامِدِ الْمَاءِ ذَائِبِ الذَّهَبِ^(٦١)

وحين كان المتوكل في رحلة في كورة شنترين تلقى من أبي محمد بن عبدون قطيع راح وطبق ورد، ومعه ثلاثة أبيات من الشعر يقول آخرها:

فبَعْضُهَا مِنَ الْمَخَافِ جَامِدٌ وَبَعْضُهَا مِنَ الْحَيَاءِ ذَائِبٌ^(٦٢)

وفي هذا اجمال أبدع الشعراء الأندلسيون عددا من الصور البديعة المتنوعة، فالنيبذ ليس دائما ذهابا، ولا أنه الزجاج الذي يُشرب فيه ماء متجمدا، وعلى هذا النحو يتحدث المعتمد عن:

وَكَمْ سَقَانِي، وَاللَّيْلُ مَعْتَكِرٌ فِي جَامِدِ ذَائِبِ الْوَرْدِ^(٦٣)

ويقول أبو محمد المصري في مقطوعة يمدح بها المأمون:

وَكَأَنَّمَا الْأَقْدَاحُ فِي رَاحَتِهِ دُرٌّ جَمَادٌ ذَابَ فِيهِ الْعَسْجَدُ^(٦٤)

ونقل أبو الفضل بن شرف فكرة التجمد والذوبان من مجال المادة إلى مجال الكائنات المبهجة، وهذا أحيانا ذكر اجتماعات اللهو البريء:

يَأْمَنُ جَفَا فَجَفَانِي الطِّيفِ، هَجَرَكَ لِي بِأَيِّ عَذْرِ فَعَذَّرَ الضَّيْفِ فِي السَّهْرِ
ذَكَرْتُ بِالسَّفْحِ شَمَلًا غَيْرَ مُتَصَدِّعٍ بِالنَّائِبَاتِ وَنَظْمًا غَيْرَ مُنْتَشِرٍ
بِكُلِّ بِيضَاءٍ خَوْدٍ خَلَّتْهَا جَمَدٌ مِنْ السَّكِينَةِ أَوْ ذَابَتْ مِنَ الْحَفْرِ^(٦٥)

ويستخدمون الصور نفسها في وصف الزهور والثمار، يقول أبو محمد المصري واصفا الترجس بأنه در جامد والحمر بأنها تبر ذائب:

رَعَى اللَّهُ دَهْرًا قَدْ نَعَمْنَا بِطَبِيبِهِ لِيَالِيهِ مِنْ شَمْسِ الْكَوْوسِ أَصَائِلُ
وَنَرَجِسُ دُرٌّ عَلَى التَّبَرِّ جَامِدٌ وَخَمْرَتْنَا تَبَرٌّ عَلَى الدَّرِّ سَائِلُ^(٦٦)

ويصف ابن زيدون التفاح والنيبذ، فيقول:

جَاءَتْكَ جَامِدَةُ الْمَدَا مَ فَخَذَ عَلَيْهَا ذَوْبَهَا^(٦٧)

(٦١) من المنسرح، القلائد ٩، ونفع ٢٧٨/٤، وبنو عباد ٤٤/١.

(٦٢) من ارجز، القلائد ٤٤، نفع ٦٦٥/١، والمجلة ١٠٧/٢.

(٦٣) من المنسرح، خريدة القصر ١١/٤٩، وبنو عباد ٣٩٣/١.

(٦٤) من الكامل، نفع ٥٢٩/١.

(٦٥) من البسيط، القلائد ٢٥٤.

(٦٦) من الطويل، نفع ١١٨/٣.

(٦٧) من المنسرح، الديوان ٢٢٢، وكور ص ١٠٩.

ويقول ابن عمار:

خُذْهَا كَمَا سَفَرْتُ إِلَيْكَ خَدُودُ أَوْ أَوْجَسْتُ فِي رَاحَتَيْكَ نَهْدُ
دُرًّا مِنَ التَّفَاحِ تُنْثِرُ بَيْنَنَا وَلَهَا بِأَجْيَادِ الْغُصُونِ عَقُودُ
خُذْهَا وَنَاقِلَهَا النَّدَامَ فَإِنَّا رَاحَ دَهَاهَا فِي الشِّتَاءِ جَمُودُ
وَشَفَعْتُ بِالْإِجَاصِ قَصْدَ إِنَّهُ شَكِلُ الْجَمَالِ وَحُدُّهُ لِحُدُودُ
عُنْدًا إِلَيْكَ فَإِنَّمَا هِيَ أَوْجُهُ بَعْضُ تَقَارِنِهَا عَيُونُ سَوْدُ^(٦٨)

ويصف ابن سارة النارج أيضًا بأنه ذوائب تجمت:

أَرَى سَجَرَ النَّارِجِ أَبْدِي لَنَا جَنِيًّا كَقَطْرِ دُمُوعٍ ضَرَجَتْهَا اللَّوَاعِجُ
جَوَامِدُ لَوَذَابَتِ لَكَانَتْ مَدَامَةً تَصُوغُ الْبَرَى فِيهَا الْأُكْفُ النَّوَارِجُ
كَرَاتُ عَقِيْقٍ فِي غُصُونِ زَبْرَجِدٍ بِكَ نَسِيمُ الرِّيحِ مِنْهَا صَوَالِجُ^(٦٩)

(٦٨) من الكامل، الحلة ١٦٣/٢.

(٦٩) من الطويل، القلائد ٢٦٧ وسبق أن وقفنا على فكرة الجمد مستخدمة في وصف البرك والنوافير، انظر فيما سبق ص ١٨٣ - ١٨٤ من هذا الكتاب.

○ الفصل الثاني:

الحيوانات

في إطار الطبيعة التي يبعثها خيال الشاعر الخلاق تعيش الحيوانات، أليفة أو متوحشة. وثلثي في أشعار الأندلسيين بمعظم الحيوانات التي وصفها الشعراء المشاركة، ولكنهم يستلهمون الواقع دائماً، ولم يستطع الشعراء الأندلسيون حتى وهم يتحدثون عن الصحراء أو عن النساء في الهواجج أن يفسحوا مجالاً في قصائدهم لوصف الجمال رغم أنهم يعرفونها^(١). وعلى النقيض، يذكرون حيوانات لا ترد في الشعر المشرقي إلا نادراً، مثل القرد، والنعام، والخنزير البري، والزرافة. وأظهر الأندلسيون فيما يتصل بالحصان ذوقاً متهاً للمشاركة، وأشعارهم لا تقدم لنا شيئاً جديداً عن هذا الحيوان، وقد درسه اللغويون العرب تفصيلاً على نحو لم نسمع بمثله حتى الآن، وتذكرنا مقطوعة شعرية للرمادي يمدح فيها أبا على القالي بما في ديوان امرئ القيس، يقول:

فقد اغتدى والصبحُ في توريسه تقضي العيونُ له بوجه عليلٍ
بأقْبَ لونِ الأبنوسِ مفضُضٍ في غِرَّةٍ منه وفي تحجيلٍ
مُسْتغْرِقٍ لصفاتِ زَيْدِ الخيلِ والـ غنوى والمرقِ والضليلِ^(٢)

وغالباً ما تكون غرة الحصان وتحجيلة إشارة عراقية وكرم ويسترعيان الاهتمام، ولكن موطن التقدير الحق يرتبط بسرعته وكان للمتوكل بن الألفطس أمير بطلبوس فرس أدهم أغر محجل على كفله ست نقط بيض، فندب الشعراء لوصفه، فصنع النحلي أبو الوليد فيه بديهاً:

ركب البدرُ جواداً سابحاً تقفُ الريحُ لأدنى مَهْلَةٍ
لبسَ الليلُ قميصاً سابغاً والثريا نقطُ في كَفْلَةٍ
وغديرُ الصبحِ قد خيضَ بهِ فبدا تحجيلةً من بللَّةٍ^(٣)

وواصل ابن اللبانة القول:

لِلَّ طِرْفُ جالِ يا ابنَ مُحَمَّدٍ فحبتُ به حوباؤه التأميلاً
لما رأى أن الظلامَ أديمه أهدي لأربعه الهدى تحجيلاً^(٤)

(١) سئري فيما بعد أن بعض الأشياء الغالية تأخذ أحياناً صورة جمل. وكان المنصور ينقل الأخراج والإمدادات الحربية على ظهور الخيل والبقال والجمال (انظر أعمال الأعلام ٩٩). ويقول ابن عمار في قصيدة يهجوها المعتمد أن بني عباد خصوا بالجمال:

ألا حىً بالغرب حياً حلالاً أناسخوا جبالاً وحازوا جبالاً
وذلك في قرية يؤمن. انظر ص ٨٦ من هذا الكتاب.

(٢) من الكامل، الملمح ٣١٣. وانظر فيما سبق ص ٥٠ من هذا الكتاب.

(٣) من الرمل، نفح ٣/٣٣٣.

(٤) من الكامل، نفح ٣/٣٣٣.

وأنى أبو عبد الله بن عبد البر الشنتريني القول بقطعة منها هذا البيت:

وكأنما عمرٌ على صَهَوَاتِهِ قَصْرٌ تَسِيرُ به الرِّيحُ الأَرْبَعُ^(٥)

ومن بين المؤلفين الآخرين الذين اهتموا بالدراسات اللغوية المشرقية أبو محمد بن السيد البطليوسى الذى شرح كتاب أدب الكاتب لابن قتيبة، وقد وصف لنا حصانا أسود للأمير عبد الرحمن، وهو الظافر بن ذى النون:

وأدهم من آل الوجيه ولا حيي له الليل لَوْنُ والصباح حُجُولُ
تَحِيرُ ماءَ الحسنِ فوق أديمِه قَطُولَا التَّهَابُ الحُضْرُ ظِلٌ يَسِيلُ
كَأَنَّ هَلَالَ الفَطْرِ لَاحَ بوجهه قَاعَيْنَا شَوْقًا إِلَيْهِ تَمِيلُ
كَأَنَّ الرِّيحَ العاصِفَاتِ تَقْلَهُ إِذَا ابْتَلَّ مِنْهُ مَحْزَمٌ وتَلِيلُ^(٦)

ونلتقى في سهولة بإشارات كثيرة تصف ألوان الحصان العديدة، فهو أشقر وأشهب وأدهم وأصداً وورد وكيت^(٧)، أو وصف الحصان وهو يشارك في القتال^(٨).

وإذا كانت كلاب الصيد، كما سنرى، تميزت في الشعر وأصبح لها مكان مرموق فإن كلاب الحراسة اعتبرت حيواناً نجساً فيما يبدو، والحديث النبوى يقول: [إذا لعق الكلب إناء أحدكم فمسه سبع مرات]^(٩).

وكان المتمردون في إسبانيا يصلون بين كلب وخنزير^(١٠). وعندما رفضت عائشة القرطبية شاعرا تقدم لخطبتها ورأته غير جدير بما كتبت إليه إنها لا تنبل كلباً زوجاً لها في الوقت الذى رفضت فيه الأسود يطلبونها:

أنا لَبِوةٌ لَكِنِّى لَا أَرْتَضِى غَسِى مُنَاخًا طَوَّلَ دَهْرِي مِنْ أَحَدٍ
وَلَوْ أَنِّى أَخْتَارَ ذَلِكَ لَمْ أَجِبْ تَكَلُّبًا وَكَمْ غَلَقْتُ سَمْعِي عَنْ أَسَدٍ^(١١)

ويقول أبو عيسى بن ليون حين فقد إمارته، يأسى لعظمته الخالية، ولكن دون أن يحنى رأسه:

ذَرُونِى أَجِبْ شَرْقَ الْبِلَادِ وَغَرْبَهَا لَا تُشْفِى نَفْسِي أَوْ أَمُوتْ بِدَائِي

(٥) من الكامل، نفع ٣/٢٣٢.

(٦) من الطويل، القلائد ٢٠٠، وهج ١/٦٥٠.

(٧) عن الحصان الأشقر انظر: ابن خفاجة، الديوان، القطعة ٦-١ ص ١٩١، ورقم ٤٩ ص ٨٧، و ١٦٤ ص ٢٥١. وعن الحصان الأشهب انظر أيضاً ابن خفاجة، الديوان رقم ١٥٧ ص ٢١١، نفع ٣/٤٨٣. وعن الفرس الأدهم انظر أبيات ابن السيد في هذه الصفحة. وعن الأسود انظر: المعتز في «بنو عباد» ١/٣٨٦، عن الفرس الورد انظر: نفع ٢/٤٠٦، طبعة أوروبا. وعن المعلومات الخاصة بالملابس المختلفة، انظر ابن هذيل الأندلسى، حلية لفرسان وشعار الشجعان، ص ٨٣ - ٩١، والترجمة الفرنسية له عن ٢٩ - ١٠٠.

(٨) ابن خفاجة، الديوان رقم ١٩٥ ص ٢٥٣، ورقم ١٩٤ ص ٢٥١ الأبيات ١٤ - ١٨.

● قلت: حصر الدكتور سيد غازي، الأبيات التي وردت في الحصان في ديوان ابن خفاجة في تحليله لمادة «لديوان»، ص ٤٠٧، عندما حققه. (المترجم).

(٩) صحيح البخارى، كتاب ٤ فصل ٣٣، وترجمة أودا ومرسيه ١/٧٧.

(١٠) نفع ١١/٢ طبع أوروبا وتاريخ مسلمي إسبانيا ج ١ ص ١٥٩ و ١٦٤ و ١٦٧.

(١١) نفع ٤/٢٩٠.

فَلَسْتُ كَكَلْبِ السَّوِّ يُرْضِيهِ مَرِيضٌ وَعَظُمَ وَلَكِنِّي عُقَابُ سَاءٍ^(١٢)
ولا يرى ابن سارة وسيلة لتوبيخ معاصريه خير من أن يقول لهم:

بَنَى الدُّنْيَا بِجَهْلٍ عَظُمَوهَا فَجَلَّتْ عَنْهُمْ وَهِيَ الْحَقِيرَةُ
تَهَارَشَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا عَلَيْهَا مَهَارَشَةُ الْكَلَابِ عَلَى عَقِيرِهِ^(١٣)
ويستخدم ابن حزم المثل الإغريقي، فيقول عن محبين متنافسين وغيرين:

صَبَّانٌ هَيْمَانَانٌ فِي وَاحِدٍ كَلَاهَا عَنْ خِدْنِهِ مَنْحَرَفٌ
كَالْكَلْبِ فِي الْآرَى لَا يَعْتَلِفُ وَلَا يَخْلِي الْغَيْرَ أَنْ يَعْتَلِفَ^(١٤)

وهذا الرعب من الكلب اختفى تماما فيما بعد بتأثير الأفكار الصوفية، إذ كان الصوفية يستخدمون الكلاب الوفية النشطة^(١٥)، وأوصاف «الفقير» الرئيسية العشرة مأخوذة من أوصاف الكلب.

[وهي: «في الكلب عشر خصال محمودة ينبغي أن تكون في كل فقير: لا يزال جائعا، وهو من دأب الصالحين، ولا يكون له موضع يعرف به، وذلك من علامة المتوكلين، ولا ينام من الليل إلا القليل، وذلك من صفات المحبين، وإذا مات لا يكون له ميراث، وذلك من أخلاق الزاهدين، ولا يهجر صاحبه وإن جفاه وطرده، وذلك من شيم المريدين، ويرضى من الدنيا بأدنى سير، وذلك من إشارة القانعين، وإذا غلب من مكانه تركه وانصرف إلى غيره، وذلك من علامة المتواضعين، وإذا ضرب وطرد ثم دعى أجاب، وذلك من أخلاق الخاشعين، وإذا حضر شيء من الأكل وقف ينظر من بعيد، وذلك من أخلاق المساكين، وإذا رحل لا يرحل معه بشيء، وذلك من علامة المتجردين»]^(١٦).

ويبدو أن الزرافة لم تعيش في إسبانيا، لأن الطقوس دون ما شك لا يسمح لها بالحياة، ومثلها الجمل، ولو أن المؤرخين يشيرون من حين لآخر إلى زرافات قدمها سلاطين أفريقيا أو حكامها هدية إلى الأمراء الأندلسيين، ومنهم نعرف أن زيري بن عطية أرسل في عام ٣٨٤ هـ = ٩٩٤ م جملة هدايا إلى المنصور بن أبي عامر، بينها زرافة، ولكن هذا الحيوان المسكين لم يستطع العيش فنفق وهم يقدمونه للحاجب القوي^(١٧).

وفي القرن الحادي عشر الميلادي وصف لنا بعض شعراء الغرب الإسلامي الزرافة، مثل: أبي علي

(١٢) من الصويل، الحلة ١٦٨/٢، والقلائد ١٠٢، وأبحاث، ط ١ ص ٥٢٥ و ٥٢٧.

(١٣) من الوافر، القلائد ٢٦١، ويقول شاعر مجهول في نفح ١١٨/٤:

أشد يد يدك بكلب إن ظفرت به فأكثر الناس قد صاروا خنازيرا

(١٤) من السريع، ابن حزم، طوق الحمامة ص ٨٢ وترجمة نيكول ٧٦. ونحن هنا بصدد مثل إغريقي يتردد كثيرا عند لوسيان، انظر: Erasmo, Adagia, X, 13، ونجده أيضا عند الجاحظ في كتابه البخل طبعة القاهرة ١٠٢/٢، وفي ترجمته الفرنسية التي قام بها شارل بيلا ص ٢٣٣، ومع ذلك يرى ابن حزم أن الكلب حيوان طاهر، انظر مخطوطة القسطنطينية التي حللها أسين بلا ثيوس في مجلة الأندلس، المجلد ٢ عام ١٩٣٤، العدد ١ ص ١٥١.

(١٥) الكتاني، سلوة الأنفس ١٤/١ - ١٥.

(١٦) نفح ٦٩٨/٢، وتنسب هذه الفقرة التي تتضمن صفات الكلب العشر إلى الحسن البصري المتوفى ١١٠ هـ = ٧٢٨ م.

(١٧) كتاب مناخر البربر، طبعة ليفي يروفسال ص ٢٧. وبعد ذلك بزمان قدم سلطان السودان إلى أبي سالم سلطان المغرب زرافة وصفها ابن زمرك في قصيدة طويلة، انظر: ابن الخطيب، الإحاطة ٣٠٦/٢.

بن رشيق، ومحمد بن شرف القيرواني ولكن فيه يبدو، وطبقا لكل الروايات، كانوا قد رأوها في أفريقيا^(١٨). وفيما يتصل بابن حمديس، وتضمن تيرنة قطعة من سبعة عشر بيتا في وصف الزرافة^(١٩)، لا نعرف ما إذا كان قد رأى هذا الحيوان في إسبانيا أو في شمال أفريقيا، في بجاية مثلا، ومع هذا الشك ندع جانبنا المعلومات التي يمكن أن يكون قد حملها لنا فيما يتصل بهذا الموضوع.

ولا نجد شيئا أصيلا على الإطلاق فيما يتصل تلك الحيوانات، والذي كان تجسيدا للشجاعة والنبل في الأندلس والمشرق على السواء.

وفيما يتصل بالذئب فنحن نقرأ في كتاب «البيان المغرب» لابن عذارى فقرة مثيرة، مؤداه أن البربر الذين استدعاهم المنصور بن أبي عامر اجتاحتهم إسبانيا «وظلوا ينتصرون، وبعد الهجوم الشهير بقى جزء كبير من إسبانيا خاليا من النرج، وتحول إلى صحراء، وملأته الذئاب والحيوانات المفترسة، التي حرمت البلاد من لأمان بعض الوقت»^(٢٠).

ونعتقد أن الذئاب خلال فترات المجاعة كانت تنتشر، وحتى تهدد الأهالي، وتهجم على قطعان الغنم^(٢١)، وأحيانا على الأشخاص أنفسهم. وأذن بن خفاجة يصف هذا الواقع عندما يحدثنا عن ذئب طراق يملأ الليل بعوائه المخيف:

وَمَفَازَةٌ لَا نَجْمَ فِي ظِلْمَانِهَا	يَسْرِي وَلَا فَلَكَ بِهَا دَوَّارٌ
تَلْهَبُ الشَّعْرَى بِهَا فِكَاثُهَا	فِي كَفِّ زَنْجَى الدُّجَى دِينَارٌ
تَرْمِي فِي الْفَيْطَانِ فِيهَا وَالرُّبَى	دَوَّلًا كَمَا يَتَمَوَّجُ اسْتِيَارٌ
وَالْقَطْبُ مَلْتَزِمٌ لِمَرْكَزِهِ بِهَا	فَكَأَنَّهُ فِي سَاحَةِ مَسَارٍ
قَدْ لَفَنِي فِيهَا الظَّلَامُ وَظَافٍ بِي	ذَيْبٌ يَلْمُ مَعَ الدُّجَى زَوَّارٌ
طَرَّاقٌ سَاحَاتِ الدِّيَارِ مَغَاوِرُ	خَتَّالُ أُنْبَاءِ السَّرَى غَدَّارٌ
يَسْرِي وَقَدْ تَضَحَّ النَّدى وَحَهَّ الصَّبُّ	فِي فَرَوَةٍ قَدْ مَسَّهَا اقْشَعَرَارٌ
فَعَسَوْتُ فِي ظِلْمَاءٍ لَمْ يُقَدِّحْ بِهِ	إِلَّا لِمُقْلَتِهِ وَبَأْسَى نَارٍ ^(٢٢)

ويعود ابن خفاجة فيصف الذئب ثانية في هذه الأبيات:

وَأُطْلِسَ زَوَّارٌ مَعَ اللَّيْلِ أَغْبَشُ	سَرَى خَلْفَ أُسْتَارِ الدُّجَى يَتَنَكَّرُ
تَثَابَبَ مِنْ مَسِّ الطَّوَى فَهَوَّ يَشْتَكِي	فَيَعْوَى وَقَدْ لَفَّتْهُ نَكْبَاءُ صَرْصَرٍ
وَدُونَ أَمَانِيهِ شَرَارَةٌ لَهْمٌ	يَقْلَبُ فِيهَا مِثْلَهَا حِينَ يَنْظُرُ
فَمِنْ جَوْعَةٍ تَغْرِيه بِي فَهَوَّ يَدْنِي	وَمِنْ رَوْعَةٍ تَنْبِيهِ عَنِّي قَيْصَرٍ ^(٢٣)

(١٨) الأبيات في نهاية الأرب لسورتي، ج ٩ ص ٣١٩ - ٣٢١.

(١٩) ديوان ابن حمديس، ط. شيايريللي، قطعة ٢٤٩، ص ٣٣٤ - ٣٣٥.

(٢٠) البيان المغرب، ج ٢ ص ٣٩٣، الترجمة ص ٢٥٥.

(٢١) ٣٥٨/٢ طبع أوروبا.

(٢٢) من الكامل، الديوان، القطعة رقم ٤٧ ص ٨٥، والذخيرة ٥٦٤/٣.

(٢٣) من الطويل، الديوان القطعة ١٣٤ ص ١٨٠.

ونعرف من شعر أبي إسحاق الألبيري أن الذئب لم يكن غائبا عما حول البيرة، في مكان يسمى «حصن العقاب»، يقول:

وكم ذئب يجاوره ولكن رأيت الذئب أسلم من فقيه^(٢٤)

وفي زمن المجاعات لم تكن الذئاب وحدها هي التي تضطلع بالتخريب، وإنما كانت تشاركها الخنازير الجبلية في هذا. فهي تقوم بحملات على الأراضي المزروعة، وفي بعض المناطق حيث يكثر عددها تصنع ذلك حتى في زمن الرخاء، فهي تغزو الحدائق والبساتين، ويحضرننا في هذا المقام ما يقوله ابن مقانا عن أرضه في القبازق:

فما أرض قبذاق وإن جاد عامها بموفية عشرين من حزم الزرع
وإن أنجبت شيئا وزادت تواترت إليها خنازير المفاوز في جمع^(٢٥)

وأحيانا نجدها حتى في المزارع حول قرطبة، ففي عام ٣٩٨ هـ = ١٠٠٧ م قام جند المظفر خليفة المنصور باستتارة خنزير في فحوص بدر، وطاردته خيلهم أثناء انتشارهم، ويقص علينا ابن عذارى أن الحيوان «اقتحم شوارع قرطبة وأكثر أهلها يومئذ لا يعرفون ما هو، لسعة عمارتهم وعدم الوحش بباديتهم فضلا عن حاضرتهم، فلم يزل ذلك الخنزير راكبا وجهه يخترق الناس، وقد تسابقت الخيل في طلبه إلى أن لحقته بالشط، قبالة قصر الخلافة، فأطال الناس وقتا في حديثه، وأكثروا الخوض في شأنه والتطير منه»^(٢٦).

ولم يكن الخنزير البري موضع تقدير إطلاقا في إسبانيا الإسلامية، وبحق، ولهذا السبب فإن أشد شتيمة أو إهانة يمكن أن توجه لمسيحي، أو مستعرب، أو غيرهما، أن يوصف بأنه من «أكلة لحم الخنزير»^(٢٧)، ونذكر جيدا صدى المقولة التي تنسب إلى المعتمد حين عزم على دعوة المرابطين وخوفوه منهم فقال: «أفضل أن أرعى الجمال في الصحراء على أن أرعى الخنازير في قشتالة». وبنى فكرته هذه على واقع معروف جيدا، وهو أن المسيحيين كانوا يستخدمون أرقاءهم من المسلمين في الأعمال اليدوية، كالطبخ والحج، وما يشابهها مما لا يتطلب جهدا بدنيا عنيفا، كالعمل في الحماطات ورعى قطعان الخنازير^(٢٨).

(٢٤) من الوافر، أبحاث ط ٣ ج ١ ص ٢٨٦، والملحق فيها ص ٦٢، وانظر الديوان أيضا، القطعة رقم ١٩ البيت رقم ٣.

(٢٥) انظر فيها سبق ص ١٨ و ١٩ من هذا الكتاب.

(٢٦) البيان المغرب ٢٣/٣، ترجمة ليفي بروفنسال في تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ٢٠١.

(٢٧) عندما عاد حسداى بن شبروط من سفارة أمام الملوك المسيحيين، مدحه أحد أبناء ملته على النحو التالي: «دون أن يرسل سها أو يشهر سيفا، وبيلاغته فحسب، أخذ من «أكلة الخنازير» الملاعين المدائن والحصون. انظر تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٢ ص ١٧٠ - ١٧١. ويذكر عبد المنعم بن من الله القروي في رده على رسالة ابن غرسية وأفكاره الشيعية، أن المسيحيين كانوا «رعاة الخنازير، وأكلة السنابير». الذخيرة ٧٢٤/٣.

(٢٨) انظر غوث مورينو، كنائس المستعربين ص ٢٤٢ - ٢٤٣، ورقم ٧ بمناسبة دير ثيلانوبا، وكان يشرف عليه رودسندو المتوفى ٩٧٧. وفيه يتصل بالشرق من المثير أن نجد مسلما هو الأعمش، المتوفى ١٤٨ هـ = ٧٦٥ م، يقول لواحد من أصدقائه، وهو شعبة المتوفى ١٥٩ هـ = ٧٧٥ م، وكان يتحدث إلى جمع من الناس: «يا لنعاستك يا شعبة! تعلق اللؤلؤ في رقاب الخنازير». وقد أورد ابن عبد البر هذه الجملة في كتابه مختصر جامع بيان العلم، ولكنه لم يذكر لنا هل هؤلاء الأشخاص مسيحيين أم ينتسبون إلى أديان أخرى (قارن هذا بأمثال سليمان، الإصحاح ١١، الآية ٢٢، وإنجيل متى الإصحاح ٧ الآية ٢).

وإذا كانت كلمة خنزير أوجيلي^(٢٩) احتفظ بها لتطلق على المسيحيين فإن كلمة قرد كانت بعامية من نصيب اليهود، تأثرا بالآيات القرآنية، حيث عاقب الله الإسرائيليين المخطئين لأنهم نسوا ما ذكروا به، وعتوا عما نهوا عنه، واعتدوا في يوم السبت، فقال لهم: كونوا قردة خاسئين^(٣٠).

ويقول أبو إسحاق الإلييري في قصيدته ضد يهود غرناطة:

فكم مسلم فاضلٍ قانتٍ لارذلٍ قردٍ من المشركين

ورغم قردهم داره وجرى إليها غير العيون^(٣١)

ونادرا ما يستخدم الأندلسيون غفظ قرد للسخرية من أندلسي كالمصور، ولكن إبراهيم بن إدريس الحسني استخدمها في هجائه له، يقول:

أَيكونُ حَيًّا من أَمِيَّةٍ واحدٍ ويسوس هذا الملك هذا الأحدب^(٣٢)

ونلاحظ أيضا أن ألفونسو السادس، لكي يشكر حسام الدولة ابن رزين على الهدايا التي تلقاها منه، أرسل له من جانبه قردا، ولم ير أمير السهلة، في عمده، أن في هذا إشارة احتقار، وإنما على النقيض سر بها^(٣٣).

وذكرون حيوانات أخرى من زوات الأربع مثل القنفذ (ويسبھونها بالخرشوف كما رأينا في ما سبق)^(٣٤)، والسلحفاة، والتي تعيش في البرك^(٣٥)، والخرباء، وبها يشبه الدهر والحظ المتقلب، يقول ابن اللبانة:

والدهرُ في صِبغةِ الخرباءِ منغمسٌ ألوانُ حالته فيها استحالات^(٣٦)

أما عن الزواحف فهناك أشعار هامة لا بد من الإشارة إليها.

(٢٩) انظر فيما سبق ص ٢١٦ رقم ١٠ من هذا الكتاب.

(٣٠) القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية ٦٥، وسورة المائدة الآية ٦٠، وسورة الأعراف الآية ١٦٦. ونلاحظ أن القاضي أبا العباس عبد الله بن أحمد بن طالع، في بلاد البربر الشرقية تحت حكم الأغالية، ألزم اليهود والنصارى أن يضعوا على أكتافهم «رقعا بيضاء، في كل رقعة منها قرد وخنزير، وجعل على أبواب دورهم لوحا مسمرة في الأبواب مصور فيها قردة». انظر المالكي، رياض النفوس، ٣٨١/١، وروجر هـ إدريس، إضافة إلى تاريخ إفريقية، في مجلة الدراسات الإسلامية، ١٩٣٥ المجلد الثاني ص ١٤٢.

(٣١) الديوان، القطعة رقم ٢٥. وانظر ص ٢٤٥ - ٢٤٦ من هذا الكتاب. ويصف أبو عامر بن شهيد في رسالة توجه بها إلى أبي جعفر بن عباس اليهود بأنهم قردة. انظر الذخيرة ٢١٥/١. ويصف الأمير الزيري عبد الله الوزير اليهودي يوسف بكلمة «خنزير». انظر: التبان، ص ٣٧ و ٤٠ و ٤١ و ٤٤ و ٦٥ و ٦٧.

(٣٢) من الكامل، ابن عذارى، البيان المغرب ٣٠٢/٢، الترجمة منه ٤٦٨/٢، وتاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٢ ص ٢٤٢.

وابن الأبار، الحلة ٢٢٧/١، ومفاخر الزيري ص ٢١.

(٣٣) كتاب الكافية، في «بنو عباد» ١٩/٢، وتاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ١٢١ و ٢٣١.

(٣٤) انظر فيما سبق ص ١٧٦ - ١٧٧ من هذا الكتاب.

(٣٥) انظر فيما سبق ص ١٨٤ من هذا الكتاب.

(٣٦) من البيط، المراكشي، المعجب، ص ١٤٧، وترجمته إلى الفرنسية ص ١٢٤.

لقد لاحظنا من قبل أن الجداول والأنهار تُشَبَّه بالحيات، ولكن لا يمكن أن تُشَبَّه بالأفعى أو الحنش، أو بزواحف أخرى دقيقة. وقد أشار ابن حزم إلى الأفاعى، ولدعتها طبقاً لعقيدة العامة لا يمكن الشفاء منها إلا بالجسم المنهوك بلدغة الأفعى نفسها، أى بالترياق^(٣٧). والناس الذين من أصول متواضعة وبلغوا مراكز عالية، ومن ثم أصبحوا قوة مرموقة، يشبهون بالأفاعى أو الثعابين أو الأحناس، وبخاصة إذا كانوا أندلسيين ينحدرون من أصول بربرية^(٣٨).



وكان حب الأندلسيين للعصافير ملحوظاً وواضحاً، ولا يقل عن حبهم للزهور، ولم يجد عبد الرحمن الناصر ليكس زينة مدينة الزهراء شيئاً أفضل من إقامة حديقة حيوان حقيقية، فيها محلات للوحش ومسارح للطيور^(٣٩)، وكما كان بودنا أن نعرف أسماء الطيور التي كانت فيها. ويتيح لنا ابن زيدون في إحدى قصائده، وجاءت في شكل ألغاز وأحاجٍ، أن نكون على نحو ما فكرة عن عصافير الزينة التي كانت معروفة في الأندلس، فقد أورد لنا كثيراً من أسمائها، مثل: القمري أو الشفنين، والعصفور، والبلبل، والنسر، والغراب، والدراج، والزُرزور، والغرينق، والمُكَّاء، والشرشور، والباشق، والشاهين^(٤٠).

ومن أجل الغناء كانوا يبحثون عن بعض هذه العصافير. هل كان البلبل يعيش في قفص؟ أظن هذا، ولكنهم يتذوقون تغريده عندما يكون طليقاً، وحينئذ لا يسمونه بلبلاً، وإنما يدعونه «أم الحسن»، وهو اسم كتب له الخلود، ولا يزال متداولاً حتى يومنا هذا في شمال أفريقيا، ويصف المعتضد تغريده في هذه الأبيات:

أَتَتِكَ	أُمُّ	الحَسَنِ	تَشْدُو بِصَوْتِ حَسَنِ
قَدْ	فِي	أَلْحَانِهَا	مَدُّ الْغِنَاءِ الْمَدَنِي
تَقُودُ	مَنْ	سَلْسَلًا	كَأَنِّي فِي رَسَنِ
أُورَاقُهَا	أُسْتَارُهَا	إِذَا شَدَتْ فِي فَنَنِ ^(٤١)	

ويصور ابن زيدون غناء البلبل بأنه يهيج الورشان للغناء:

إِنْ تَغَنَّيَ الْبَلْبُلُ اهْتَاجَ الْغِنَاءِ الْوَرْشَانِ

(٣٧) ابن حزم، طوق الحمامة ص ١٣٧، ترجمة نيكل ١٣٥، وطبعة برشييه ص ٢٤٠ - ٢٤١.

(٣٨) أعمال الأعلام ١٥٠، طبعة الرباط ١٩٣٤، والشقندي، رسالة في فضل الأندلس، في نفع ٢١٠/٣.

(٣٩) ابن خلدون، كتاب العبر ١٤٤/٤، وعنه نقلها نفع ٥٧٨/١. وابن زاكور، شرح قلائد العقيان الورقة ٩٩ وجه. وكان يطلق على حديقة الحيوان في مدينة الزهراء اسم «حير». انظر: ابن زاكور المصدر السابق الورقة ٩٩ وجه، وطبقاً لأبي بكر بن مفرج في تعليق له على أبي الزيد المتوفى ٣٧٩ هـ = ٩٨٩ م، وانظر أيضاً فيما سبق ص ١١٧ هامش رقم ٥٤ من هذا الكتاب، وفيما سبقت ص ٢٢٢ هامش رقم ٤٣ وعن المشرق انظر: آدم متز، النهضة ص ٣٨٦، وترجمة بيلا الإسبانية ص ٤٨٧، والترجمة العربية بعنوان «الحضارة العربية في القرن الرابع الهجري»، وقام بها محمد عبد الهادي أبو ريدة، القاهرة ٢٥٨/٢.

(٤٠) ابن زيدون، الديوان ٦٢٤ - ٦٢٧، ونفع ٢٦٨/٤.

(٤١) من الجزء، الذخيرة ٣٠/٢. ويتحدث الشاعر ابن السراج الملقب عن البلبل أيضاً بهذا الاسم نفسه، في أبيات له يصف فيها جلسة منادمة، انظر الذخيرة ٨٧١/١، وابن قزمان في ديوانه، القطعة ٧١، الدور ١ ص ١٠٥٢. وفي الفصل المخصص للغناء والموسيقى سوف نحدد ماذا يعنى الغناء المدينى. وأستار المغنيات.

فتأدى منه بيتاً غزلٍ منفردان
لحبٍّ في حبيبٍ عنه ناءٍ منه دليق:
«يا بعيد الدر موصو لأ بقلبي ولساني
ربما باعدك الدهر فأذنتك الأمان»^(٤١)

وكان من العادات الجارية في الأندلس أن يتعلم المرء كيف يتحدث إلى طائر يحس نفس الاسم الذي يحمله «الزرزور» ولكن في ضوء كل الروايات ليس شيئاً آخر غير الزرزور نفسه، ويصفه أبو الحسن بن الحاج على النحو التالي:

يَرُبُّ أعجم صامتٍ لَقنته طرف الحديث فصار أفصحَ ناطق
جون الإهاب أعير فوه صفرة كالليل طرزه وميض لبارق
جَحَم من التدبير أعجزتِ الورى ورأى بها المخلوق لطف الخالق^(٤٢)

وكثيراً ما نلتقي بوصف القطا وحجل الصحراء في شعر المشرق العربي، ويذكرنا المعتمد في الغرب الإسلامي، ولكن فقط عندما كان سجيناً في أغمات^(٤٤). وحدث الشيء نفسه مع الغراب، ولم يكن نعيقه محلقاً يفعل شيئاً أكثر من زيادة آلام الأمير المنفى^(٤٥).

أما الورقاء التي تختفي بين الأغصان فقد اتخذ منها الشعراء رمزاً للعاشق الحزين يعاني من قسوة المحبوب. وهناك أسطورة تقول إن طيراً جارحاً اعتدى على هديل في عصر نوح، ومنذ ذلك اليوم فإن كل الورق باكية حزينة^(٤٦). يقول ابن زيدون:

وَأَرِقَ العينَ والظلماءَ عاكفةً ورقاء قد شَفَّها، أو شَفَّني حَزَنُ
فبت أشكو وتشكو فوق أيكها ويات يهفو ارتياحاً بيننا الغصن^(٤٧)

(٤٢) من الرمل، الديوان ٥٩٦.

(٤٣) من الكامل، القلائد ١٤٣. ولدنا من لقرن العاشر حكايان تظهرا أن بني أمية كانوا مولعين بالزرزور المروضة الأولى منها تقدم لنا ولي العهد هشام المؤيد ومؤدبه أبا بكر الزبيدي. وكلاهما في إحدى قاعات مدينة الزهراء التي تطل على حديقة حيوان الحائر. فرأى الأمير الشاب أحد زرازيره المحببة إليه تهاجم سلحفاة ساق، فخرج مندفعاً لإنقاذه، أمام دهشة مؤديه الذي لم يكن قد لحظ شيئاً. انظر: ابن زاكور، في المصدر السابق، الورقة ٩٩ وجه وظهر.

والحكاية الثانية حدثت لعبد الرحمن الناصر، وفي مدينة الزهراء أيضاً، إذا بينا أراد القصد، وقعد بالبهو في المجلس الكبير المشرف بأعلى مدينته الزهراء، واستدعى الطبيب لذلك، وأخذ هذه لالة ليحس يد الناصر، أطل زرزور، وصعد على إطاء ذهب بالمجلس، وأنشد:

أيها الفاسد رفقا بأمر المؤمنين
إنما تفصد عرقاً فيه محيا العالمينا

وجعل يكرر ذلك المرة بعد المرة، فاستظرف لناصر هذا وسر به، وسأل عن اهتدى إلى ذلك وعلم الزرزور، ذكر له أن السيدة الكبرى مرجانة أم ولده ولي عهده الحكم صنعت ذلك. نفح ٣٦١/١.

(٤٤) القلائد ٢٨، وعنه في «بنو عباد» ٦٨/١، ونفح ٢٢٠/٤، والذخيرة ٧١/٢، وبنو عباد ٥٧٢/٢.

(٤٥) الذخيرة ٧٦/٢، وعنها في «بنو عباد» ٣١٨/١.

(٤٦) ثمة إشارات كثيرة عن هذه الأسطورة عند الشعراء، انظر مثلاً: أبو العلاء المعري، سقط الزند، مقطوعة دالية من بحر الخفيف، البيت ٨٧، وابن قزمان، الديوان، القطعة ١٤٧، الدور ١، ٧٢٦/٢.

(٤٧) من البسيط، المعجب ١١٠، والترجمة ٩٤، والديوان ١٦٢.

وكتب ابن عمار:

على، وإلا ما بكاء الغمام وفي، وإلا ما نياح الحمام^(٤٨)

ويمكن أن نذكر الكثير من الأمثلة^(٤٩)، ولكنها لا تضيف إلى ما نعرفه جديداً، ويبدو لي أن من الأفضل أن نتحدث هنا عن دور الحمامة في نقل البريد، والشعر شاهدنا الوحيد على وجودها ابتداء من القرن الحادي عشر فحسب^(٥٠)، وإرسال خبر بواسطة الحمام يعبر عنه بالفعل طير^(٥١).

وقد طير المعتمد عقب وقعة الزلاقة رسالة إلى ابنه الرشيد^(٥٢) وأعلم الراضى والده المعتمد برسالة حملتها إليه حمامة، بأن المرابطين يحاصرونه في الجزيرة الخضراء فأذنه بتركها^(٥٣)، وثمة أبيات عديدة في ديوان المعتمد تبين أن هذه الوسيلة في نقل الرسائل لم تكن مستخدمة في شئون الدولة فحسب، وإنما كان أمير إشبيلية يكتب أصدقائه أو نساءه المحظيات شعراً، ويحمل أبياته للحمام الزاجل، يرد على أبي الوليد بن المعلم فيقول:

حمت بخفاقة الجناح وقد أمكن ورد فلا يطل حوم^(٥٤)

وكتب إلى إحدى نساته، وحمل ما كتب حمامة، يقول:

وجاءت الطير مودعات سرك، ياسر كل ملك^(٥٥)

وكتب إلى ابنه المأمون أبي الفتح:

ودونك منا طيوراً غدت تطير إليك بريح الوداد^(٥٦)

وكان المعتمد أمير المرية إذا ابتعد عنها يستخدم الوسيلة نفسها ليراسل محظياته:

وحملت ذات الطوق مني تحية تكون على أفق المرية مجمرًا
تبليغ من ودى إليكم رسائلًا بأعقب من نشر العبير وأعطر^(٥٧)

وحق العشاق الأدنى طبقة بلغ بهم الحال إلى التراسل بالطريقة نفسها، إذا صدقنا رواية ابن حزم، يقول: «وإني لأعرف من كانت الرسول بينها حمامة مؤدية، ويعقد الكتاب في جناحها، وفي ذلك أقول قطعة منها:

(٤٨) من الطويل، المعجب ١١١، وترجمة دى سلان ١٢٨/٣، وبنو عباد ١٠٤/٢.

(٤٩) انظر مثلاً: القلائد ٢١، بنو عباد ٥٦/١، مطمح ١١٩، وعنه في نفح ٣٦١/٣. وثمة وصف مفصل للحمامة للشاعر ابن حصن في رفع الحجب المستورة للشرى الغرناطي، ٥٣/١، وترجمها غرسية غوث في كتابه قصائد أندلسية، القطعة رقم ٤ ص ٤٢ - ٤٣.

(٥٠) فيما يتصل بالشرق انظر: جو دفرى - ديومين، سوريا في عصر المماليك ص ٢٥٠ - ٢٥٤، وكارا دى فو، مفكر الإسلام ٣٤٦/٢، وقائمة المراجع المذكورة هناك.

(٥١) بنو عباد ١٢٢/١ و ٤٢٨.

(٥٢) ابن الخطيب، الإحاطة ١١٤/٢، وبنو عباد ١٧٦/٢.

(٥٣) الحلة لسيرام ١٠٠/٢، وأبحاث ط ٢ ص ١٧٤، وتاريخ مسلمي إسبانيا ط ٢، ١٢٥/٣.

(٥٤) من المنسرح، الديوان ص ٦١.

(٥٥) من السيط، الديوان ص ٥٩.

(٥٦) من المتقارب، الديوان ص ٤٦.

(٥٧) القلائد ٢٥١ الحلة ٨٤/٢، بنو عباد ١٢٢/١.

تَحْيَرُهَا نُوحٌ فَمَا خَابَ ظَنُّهُ لَدَيْهَا وَجَاءَتْ نَحْوَهُ بِأَبْشَائِرِ
سَأَوْدَعَهَا كَتَبِي إِلَيْكَ فَهَاكُهَا رَسَائِلُ تُهْدِي فِي قَوَادِمِ طَائِرِ^(٥٨)
وَاسْتَحَقَّ الذِّيكَ مِنْ بَيْنِ الطَّيْرِ الدَّاجِنَةِ اهْتِمَامًا أَكْبَرَ مِنَ الشُّعْرَاءِ، وَنَظَمَ فِيهِ الْأَسْعَدُ بْنُ بَلِيطَةَ
أَبْيَاتًا حَظَّيْتُ بِشَهْرَةٍ وَاسِعَةٍ عَلَى يَامِهِ:

وَقَامَ لَهَا يَنْعَى الدَّجِي ذِرَ شَقِيقَةٍ يَدِيرُ لَنَا مِنْ عَيْنِ أَجْفَانِهِ سِقْطًا
إِذَا صَاحَ أَصْغَى سَمْعُهُ لِأَذَانِهِ وَيَادِرُ ضَرْبًا مِنْ قَوَادِمِهِ الْإِبْطَا
كَأَنَّ أُنُورَ شُرُورَانَ أَعْلَاهُ تَاجَهُ وَنَاطَتْ عَلَيْهِ كَفَ مَارِيَةِ الْقَرْطَا
سَبَى حَلَّةَ الطَّوَاوُسِ حَسَنَ لِبَاسِهَا وَلَمْ يَكْفِهِ حَتَّى سَبَى الْمُشَيَّةَ الْبِطَا^(٥٩)

أَمَّا الْإِوَزُ، وَرَبَّمَا الْبَجَعُ أَيْضًا، فَلَا جَدَّ عَلَيْهَا شَاهِدٌ مِنَ الشُّعْرِ إِلَّا بَدَأَ مِنَ الْقَرْنِ الثَّانِي عَشَرَ، وَفِي
مَرْجِ الْخَزْ، وَهُوَ مَكَانٌ لِلتَّنَزُّهِ قَرِيبٌ مِنْ قَرْطَبَةِ، عَلَى شَاطِئِ الْوَادِي الْكَبِيرِ، وَكَانَ الْإِوَزُ يَسْبَحُ فِي جَلَالِ
وَجَمَالِ، وَتَتَنَازَّلُ عَلَى قَطَرَاتِ الْمَاءِ كَأَنَّهَا مَاسُ^(٦٠).

وَكَانَ ابْنُ خُفَاجَةَ الْوَحِيدَ الَّذِي وَصَفَ لَنَا النِّعَامَةَ، وَمِنْ الْمَحْتَمَلِ أَنَّهُ رَأَاهَا فِي إِسْبَانِيَا نَفْسَهَا، وَأَبْيَاتُهُ
فِيهَا مَعْرُوفَةٌ جَيِّدًا مِثْلَ تِلْكَ الَّتِي كَتَبَهَا عَنْ كَلَابِ الصَّيْدِ:

وَلِرَبِّ طَيَّارٍ خَفِيفٌ نَدَّ جَرَى فَشَلًّا بِجَارٍ خَلَفَهُ طَيَّارِ
مِنْ كُلِّ قَاصِرَةٍ الْخَطَى مُخْتَالِيَةٍ مَشَى الْفَتَاةَ تَجَرُّ فُضْلَ إِزَارِ
مُخَضَّوْبَةِ الْمَنْقَارِ تَحْسَبُ أَنَّهَا كَرَعَتْ عَلَى ظَمَأٍ بِكَأْسِ عُقَارِ
لَا تَسْتَقِرُّ بِهَا الْأَدَاخِرُ خَشِيَةً مِنْ لَيْلٍ وَنَلٍّ أَوْ نَهَارٍ يَوَارِ^(٦١)



وَاهْتَمَّ شُعْرَاءُ الْأَنْدَلُسِ بِالْحَمَشَاتِ قَلِيلًا، وَلَا حَظَّ أَبُو قَتَامٍ الْحُجَّامُ، فِي بَيْتٍ مِنَ الشُّعْرِ، أَنَّ النِّحْلَةَ
تَمُوتُ مَبَاشَرَةً بَعْدَ أَنْ تَلْسَعَ غَيْرَهَا:

تَصَبَّرْ وَإِنْ أَبَدَى الْعَدُوَّ مَذْمُومًا فَمَهْمَا رَمَى تَرْجَعُ إِلَيْهِ مَهْمُهُ
كَمَا يَفْعَلُ النَّحْلُ الْمَلُومُ بِلِسْعِهِ يَرِيدُ بِهِ ضَرْأً وَفِيهِ حِمَامُهُ^(٦٢)

وَقَدْ شَهِدَ السَّمِيسِرُ فِي بَيْتٍ مِنَ التَّعَرُّ أَمِيرَ غَرْنَاطَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بَلْقَيْنَ، لَمَّا رَأَاهُ شَغُوفًا بِتَشْيِيدِ قَلْعَتِهِ
الَّتِي يَتَحَصَّنُ فِيهَا، بِأَنَّهُ مِثْلُ دَوْدَةَ الْقَرْ:

(٥٨) ابن حزم، طرق الحمامة ص ٥٩، وترجمة نيكول ص ٥٠.

(٥٩) من الطويل المصنوع ص ٣٤٢، وعنه في نفح ٥١/٤، والذخيرة ٢/١ (البيت الثالث فقط)، وابن خلكان الوفيات ٣٦/٢، وترجمة دى سنان ٢٠٠/٣.

(٦٠) نفح ٤٧٤/١، والأبيات لأبي الحسين الرُّقَشِي وابن سعيد الجدي الأعلى للمؤرخ. وقد عُرف الْإِوَزُ قَبْلَهُ عَلَى التَّأَكِيدِ، كَمَا نَجَدْنَا ذَلِكَ فِي الْمَعْجَمِ، حَيْثُ يَبْرُدُ كَلِمَةُ «قَاقُصٌ» لِتَحْدِيدِهِ. وَانْظُرْ: دَوْزِي، مَلْحَقُ الْمَعْجَمِ الْعَرَبِيِّ ٢٩٦/٢.

(٦١) من الكامل، الديوان (القطعة ٢ ص ٣٣، الأبيات ٤٠ - ٤٣، والنويزي، نهاية الأرب ٣٤٠/٩، والغزالي، مطالع البدر ٢٤٩/٢.

(٦٢) نفح ٤١٨/٣.

يَبْنِي عَلَى نَفْسِهِ سَفَاهًا كَأَنَّهُ دَوْدَةُ الْحَرِيرِ (٦٣)

وهذه الصرر مهما كانت دقيقة لا تكفى وحدها مع ذلك لتثبت أن الأندلسيين عكفوا على تربية النحل، أو دودة القز لنسج الحرير، وإنما المدونات النثرية الأخرى وحدها هي التي تسمح لنا بأن نؤكد أن هذا كان موجوداً.

وإذا كان تكاثر الحيوان يقاس بعدد الأبيات التي ألهمها الشعراء فيمكن القول بأن البراغيث والبعوض لم تكن تخلو منها مقاطعة في أسبانيا الإسلامية، كما في مقاطعة بلنسية، وقد ذكرنا بعض هذه الأبيات بمناسبة الحديث عن المدن الكبرى في شبه الجزيرة (٦٤).

يقول السمسير في كثير من البراعة:

بِعَوْضٍ جَعَلَن دَمِي قَهْوَةً وَعَنَيْتَنِي بِضُرُوبِ الْأَغَانِ
كَأَنَّ عَرَوْقِي أَوْ تَارَهُنَّ وَجَسَمِي الرَّبَابُ وَهَنَ الْقِيَانُ (٦٥)

ولم يكونوا يجهلون في الأندلس الأسطورة التي تقول بأن النمرود قتلته بعوضة، يقول الحصري:

فَاحْذَرْ عَدُوَّكَ وَهُوَ أَهْوَنُ هَيْنٍ إِنَّ الْبِعُوضَةَ أَرْدَتِ النَّمْرُودَا (٦٦)

وقد رأى الأندلسيون في الفراشة كائناً يثيره الضوء وفي انفعالها هذا يبلغ بها الحال حتى أن ترك نفسها تحترق بما تبحث عنه، وكانت تكون جانباً من بهجتهم الليلية يسرون، لأنها فيما يقول أبو عيسى بن ليون:

يَارَبُّ لَيْلٍ شَرِبْنَا فِيهِ صَافِيَةً حَمَاءَ فِي لَوْنِهَا تَنْفَى التَّبَارِيحَا
تَرَى الْفَرَّاشَ عَلَى الْأَكْوَاسِ سَاقِطَةً كَأَنَّمَا أَبْصَرْتَ مِنْهَا مَصَابِيحَا (٦٧)

ويقدم لنا ابن إدريس البعاني أرق الصور شاعرية:

وَفَتَيَانِ صِدْقٍ عَرَسُوا تَحْتَ دَوْحَةٍ وَمَاهُمُ غَيْرُ النَّبَاتِ فِرَاشُ
كَأَنَّهُمُ وَالزَّهَرَ يَسْقُطُ فَوْقَهُمْ مَصَابِيحُ يَهُوَى نَحْوَهُنَّ فَرَّاشُ (٦٨)

ويرى ابن حزم في الفراشة تحترق العاشق شفه الوجد:

كَمْ دُرَّتْ حَوْلَ الْحُبِّ حَتَّى لَقِدَ حَصَلَتْ فِيهِ كَحُصُولِ الْفَرَّاشِ

(٦٣) نفع ٤١٢/٣، دوزي، أبحاث ط ١ ص ١٠٧، وطبعة ٢٦١/١ ٣، وليفى بروفنسال، مذكرات الأمير عبد الله، الترجمة الفرنسية، فصلة، ص ٢٧ - ٢٨ (رقم ٦٠) و ٢٠٩.

(٦٤) انظر فيما سبق ص ١٠٨ و ١٣٩ من هذا الكتاب.

(٦٥) من المتقارب، نفع ٣٢٩/٣، ابن دحية، المطرب ٩٣.

(٦٦) من الكامل، نفع ١٥٤/٢، وفيها يتصل بالنمرود وأسطورة البعوضة انظر: دائرة المعارف الإسلامية ٩٠١/٣، وكتب المادة ب. هيلير.

● قلت: وهم المؤلف فتنسب الأبيات لأبي عبد الله محمد بن طلحة الداني، والحق أن هذا يروى عن الحصري، ونص النفع صريح في هذا، يقول أبو عبد الله: وأنشدني الحصري لنفسه. (الترجم).

(٦٧) من البسيط، القلائد ١٠١، الحلة ١٧٠/٢.

(٦٨) من البسيط، النواجي، حلبة الكميث ٢٧٧.

تَعْشُو إِلَى الْوَصْلِ دَوَاعِي الْهَوَى كَمَا سَرَى نَحْو سَنَا النَّارِ عِلَشٍ^(٦٩)
تَظْهَرُ لَنَا الْمُقْتَضَاتُ السَّابِقَةُ، مَعَ بَعْضِ الْإِسْتِثْنَاءَاتِ، أَنَّ الْأَنْدَلُسِيِّينَ لَمْ يَكُونُوا شِعْرَاءَ كُونِيِّينَ،
مَصُورِي حَيَوَانَاتٍ، وَكَانَتِ الطَّبِيعَةُ بِالنِّسْبَةِ لَهُمْ، قَبْلَ أَى شَيْءٍ، إِطَارًا وَاسِعًا يُفَضَّلُونَ أَنْ يَضَعُوا فِيهِ
كُلَّ شَيْءٍ يَحَاوِلُونَ بِحَقِّ أَنْ يَشَخِّصُوهُ. وَمُ يَضِيفُوا، بَعْدَ الْمَشَارَقَةِ الَّتِي اسْتَنْفَدُوا هَذَا الْمَجَالَ تَمَامًا فِيمَا
يَبْدُو جَدِيدًا إِلَى هَذِهِ الْمَوْضُوعَاتِ الشَّدْعَةِ، إِلَّا تَنَوَّعًا وَعَمَقًا وَذِكَاءً فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْيَانِ، مِمَّا يَجْلُو أَكْثَرُ
مَلْمَحِهِمُ الْمُتَعَارَفِ عَلَيْهِ. وَعَوَضًا عَنْ ذَلِكَ تَرَاهُمْ رَكَزُوا إِهْتِمَامَهُمْ فِي جَوَانِبِ الْوَسْطِ الْإِنْسَانِيِّ. وَإِذَا كَانَ
شَعْرُهُمْ يَعْكُسُ دَائِمًا تَأَثُّرًا مَشْرِقِيًّا لَا أَنْدَلُسِيًّا، مَعَ ذَلِكَ، يَتَضَمَّنُ بَعْضُ الْإِضَافَاتِ الدَّقِيقَةِ الَّتِي تَنْيرُ بِضَوْءِ
خَاصِ حَيَاةِ الْمُسْلِمِ الْإِسْبَانِيِّ وَنَفْسِيَّتِهِ.

(٦٩) من السريع، ابن حزم، الوقي ٩٧، وترجمة نيكل ٩٥، وطبعة برشييه ١٧٠.

الباب الثالث

وثائق عن الحياة الاجتماعية
يمدنا بها الشعر الإسباني

○ الفصل الأول :

الوسط العرقي

قال دوزي قريبا من منتصف القرن التاسع عشر الميلادي: «ليس ثمة شيء أصعب من دراسة عادات المسلمين وتصرفاتهم في العصور الوسطى، وغالبا ما تلعب المغامرة دورا كبيرا في معرفتنا ببعض الأحداث الهامة والمثيرة، ذلك لأن المؤلفين العرب قليلا ما يتحملون عناء تسجيل ما كان معروفا في أيامهم بعامة»^(١).

وهي مشكلة تعرض لنا لا بالنسبة إلى المسلمين فحسب، وإنما أيضًا بالنسبة لكل مجتمعات العصور الوسطى^(٢). ولكن، هل يعنى هذا أننا يجب أن نتخلى عن رسم لوحة للحياة خلال هذا القرون الموعلة في القدم؟ لا نعتقد هذا. وإذا كنا بالنسبة لإسبانيا الإسلامية لامتلك قصصا تعكس صورة المجتمع بكل جوانبه^(٣)، فنحن نملك على الأقل، وتحت أيدينا، المؤلفات التاريخية، والمنتخبات الأدبية، التي تشكل أحداثا صغيرة عن النشاط اليومي للإسبان المسلمين، وليبان ملامح حياة الأندلسيين في عصر بعينه لا بد من إعطاء مكانة خاصة للأعمال الإبداعية، والإنتاج الشعري من بينها بخاصة.

فالشعر رغم ما فيه من خيال، ورغم ضرورات الأسلوب التي تضغط عليه، ومن ميله إلى خلق حياة مثالية على هامش الحياة اليومية أو فوق مستواها، لا يمكن - دون شك - أن يتجاوز الواقع الذي ينقله لنا، ولكنه الواقع الذي لا يستطيع أن ينفصل عنه تماما، وتوضح لنا دراسة النصوص الشعرية في أناة كثيرا من الأحداث أو الملاحظات المباشرة، وتسمح لنا بأن نلمح بعض جوانب الحياة فيها مضى.

وفي الصفحات التي سلفت، بمناسبة الحديث عن الموضوعات الشعرية الشائعة تناول، استطعنا أن نبرز الإشارات الكثيرة إلى نشاط الأندلسيين الاجتماعى والأخلاقى والثقافى وسنحاول أن نجتمع في الفصول التالية الإشارات التي تميل إلى إظهار حياة الفرد في المجتمع بطريقة أكثر مباشرة، وإذا كانت الحياة بهذا الأسلوب نفسه تبدو لنا ناقصة أو مجتزأة، فإنها توضح لنا على الأقل الجوانب الأوضح أصالة، وهذه الطريقة نستطيع على نحو أفضل أن نقيّم مزاج الشعب كلاً، والذي رغم الظلال المتفاوتة وغير المتناسقة فيه، كأي مجتمع آخر، يقدم لنا ملامح عامة مشتركة تميزه عن المجتمعات الوسيطة الأخرى.

(١) دوزي، أبحاث، نشرت عام ١٨٤٩، ص ١٥٠.

(٢) م. ماريو روك، وقاله في مقدمته لكتاب جوان إيفان: حضارة فرنسا في العصر الوسيط، باريس ١٩٣٠.

(٣) ومع ذلك قايّن الكنائى (وعنه سوف نتحدث في ص ٢٣٧ - ٢٣٨ من هذا الكتاب) ألف كتاباً مشيراً أسماء «محمد وسعدى»

وهو فيها يبدو حياة جاءت في شكل رواية. ولكننا لا نملك عنه أية معلومات أخرى، القضى: البقية، ص ٥٧ رقم ٨١.

يحاول الشعر أن يخبرنا، في المقام الأول، بالعناصر العرقية التي كان يتكون منها الشعب الإسباني: العرب والمولودون والصقالبة والبربر والأرقاء الأفارقة والسود واليهود والمستعربون.

وكان العرب حتى منتصف القرن العاشر الميلادي ينقسمون إلى فرعين يتخاصمون غالباً: المضربون واليمنيون، أو القيسيون والكليبيون، وفي مصطلح ثالث العدنانيون والقحطانيون، ثم بدأوا يفقدون إحساسهم بأصولهم الشريفة القائمة على مفهوم الانتماء إلى قبيلة معينة، وتخلّوا تدريجاً عن أنسابهم العرقية^(٤) التي ارتبطت بوجودهم بدواً أو نصف حضريين وقد هجروها منذ زمن طويل، وما لبثوا أن اتخذوا لهم بعامّة أنساباً تذكرهم بالمكان الذي ولدوا فيه: مدينة أو قرية أو ضيعة أو كورة. وفيما يبدو هنا يكمن الدافع الأساسي الذي يظهر بوضوح تطوّر العرب في إسبانيا من مرحلة البداوة إلى مرحلة الاستقرار. ويوصف الشخص بأنه فقيه أو قاض أو قائد أو وزير أو شاعر أو أديب قبل أن يكون مخزومياً أو قيسياً أو قرطيبياً أو إشبيلية^(٥). وقد تعلّق العربي بالأرض، وهذا ما جعله يفقد الصفات التي يعتبرها ابن خلدون أساسية في قيام الممالك وبقائها، وهذا التغير في شعوره نحو الأرض وهو ليس بعيداً عن الإحساس بالوضعية، ودعمه قليل من الكفاح والمعاونة المشتركة، تعاونت كلها على تقوية الوجود الحقيقي، وأشاعت الإخاء بين أفراد المجتمع.

وكان هذا التغير العميق في بناء الجماعات العربية من عمل المنصور بن أبي عامر، طبقاً لفكرة أوردها ابن غالب في كتابه «فرحة الأنفس»، ونقلها لنا المقرئ في «نفع الطيب»^(٦). ولكن يبدو أن المنصور بدل أن يسبق الحوادث ويدعو إلى الإصلاح بأمر منه نفسه، آثر في سياسة فطنة أن يبقى الأمر في الجيش على ما كان عليه الحال واقعا في المجتمع^(٧).

وأدرك المهتمون بدراسة الأنساب أن الأسر التي تنتمي إلى القبيلة الواحدة، أو البطن الواحد،

(٤) نسب المسلم الإسباني انتماءه أحرّقى إلى إحدى القبائل.

(٥) أشد الأمثلة دلالة تنتهي به في أصول الأمرين الإسبان الذين استقروا في ريمية في مقاطعة قرطبة، فقد تخلّوا عن نسبتهم الرومانية، كما كان يفعل أسلافهم، وانتسبوا بدلاً منها إلى ريمية، فكان الواحد منهم يقال عنه ريمي، انظر نفع ٥٣٤/٣.

(٦) نفع ٢٩٣/١ وإسبانيا الإسلامية في القرن العاشر ص ٢٠.

(٧) تاريخ الجند السورين يقدم لنا أقوى دليل، فقبل المنصور بقرن من الزمان أظهر الجغرافي المؤرخ ليعقوبي، المتوفى ٢٧٨ هـ = ٨٩١ م، امتزاج تلك العناصر. انظر مؤلفه: كتاب البلدان في سلسلة المكتبة الجغرافية العربية، المجلد ٨، ط ٢، ١٨٩٢، ص ٣٥٤ - ٣٥٥، وترجمة فييت له، القاهرة ١٩٣٧، ص ٢١٨ - ٢٢٠. وكان جند دمشق الذين استقروا في البيرة (غرناطة) يتكون من المضربين، والقيسيون منهم بخاصة، واستترجد الأردن في رية (مالقة) ويتكون من قبائل يمنية، وجند حمص في سنوثة (إشبيلية)، وهم من اليمنيين في جملتهم ومن بعض التزاريين (العديين)، وجند قسرين في جيان، وهم خليط من معديين ويمنيين. والمعلومات التي يقدمها لنا علماء الأنساب في القرن العاشر والنصف الأول من القرن الحادي عشر، وهي تالية لملوك الطوائف قليلاً، تنتهي بإقناعنا. والوثيقة الأعظم أهمية هي كتاب جبهة أنساب العرب لابن حزم، ط. القاهرة ١٩٤٨ بتحقيق ليفي بروفنسال [والطباعات التالية بتحقيق عبد السلام هارون وهي أدق وأكمل]. وقد أخذ ابن حزم جانباً من معلوماته من «كتاب في أنساب مشاهير أهل الأندلس» في خمسة أجزاء، لأحمد بن محمد بن موسى، وكتاب في أنساب لقاسم بن أصبغ، وكتاب الطوائف في أنساب أهل الأندلس لمؤلف مجهول وانظر رسالة ابن حزم في الرد على ابن الريبب القيرواني، في نفع ١٥٦/٣، وعندما درس المقرئ هذا العصر احتشد على اثنين من علماء الأنساب: الحازمي المتوفى ٥٨٤ هـ = ١١٨٨ م، مؤلف «كتاب الفصل»، انظر ياقوت، معجم البلدان ١/١٧٠ و ٧٥ و ١٧٠ و ٢٥٦. وابن غالب من القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي، وأتيحت لنا الفرصة فتحدثنا عنها فيها سبق، ص ٢٤ من هذا الكتاب انظر نفع ٢٩٥/١ - ٢٩٨.

تفرقت على امتداد كل الأراضى الإسبانية^(٨)، وذلك يمثل أيضا إحدى الخصائص الأكثر وضوحا، لأن بعض العناصر نسبت أصولها الأولى، وأصبحت لا تولى هذا الموضوع أى اهتمام^(٩).

السبب المبدئى والجوهري لإهمال سلسلة الأنساب، وكانت تمثل فى الماضى الرابطة الاجتماعية الأقوى، يجب أن نبحث عنه بين العدد المحدود من العرب الذين اتخذوا من أرض إسبانيا مقاما. لقد جاءوا إليها دون زوجاتهم، واضطرتهم الحاجة إلى تكوين أسرة للزواج، أو اتخاذ عشيقات، من نساء إسبانيات. وبعد عدة أجيال امتزجت دماء العرب بالدماء التى كان أصحابها يسكنون إسبانيا قبل الفتح، وجعل منهم الدين، واللغة إلى حد ما، عربا فى الظاهر^(١٠)، ولكنهم واقعا كانوا إسبانيين. وإذا كان الجانب الأكبر من الشعب نسي أصوله العرقية، ولم يكن يهتم كثيرا بمعرفة الأنساب، فقد كان الأمراء على النقيض، يحاولون أن يرتفعوا بأنسابهم إلى جدودهم الأولين، ليبرهنوا على نقاء دمهم العربى، ولم يتردد الشعراء الذين درسوا الأنساب العربية أيام طلبهم العلم فى استخدام معارفهم والعزف على هذا الوتر الحساس، وضرينا بعض الأمثلة التى توضح هذا فيما سبق^(١١)، وأبيات ابن عمار التى أوردناها فيما سبق عن أصول بنى عبّاد تظهر أن الشعراء لم يكونوا دائما غافلين عن الدور الذى عليهم أن يلعبوه^(١٢).



كانت غالبية الشعب فى إسبانيا من الإشبانيّ الذين اعتنقوا الدين الإسلامى، ورغم اعتناقهم دين المنتصرين فقد غيروا فى الحقيقة أشياء قليلة من نماذج حياتهم.

وهؤلاء الذين اعتنقوا الدين الإسلامى قد يكونون من اليهود أو من الجنس الإيرو رومانى، وهذا فى غالبيتهم يدين بالكاثوليكية، وكان المؤرخون العرب يطلقون على الواحد منهم اسم مُسْلِمَانِي، وعليهم جميعا صيغته فى الجمع مُسَالِمَة، ويميزون بينهم فيطلقون على الأوائل اسم إسلامى أو إسرائيلى وعلى الآخرين اسم أسلمى، وجمعه أسلاميون أو أسالمية^(١٣). أما أطفالهم الذين انحدروا من أصلهم

(٨) مثلا استقر الحضرميون فى مرسية وغرناطة وإشبيلية وبطليوس وقرطبة، نفع ٢٩٨/١ طبقا لابن غالب.

(٩) وكان هذا منذ عصر الحكم المستنصر بالله. يقول ابن الأبار، نقلا عن ابن حبان: وكان الحكم «باحثا عن الأنساب، حريضا على تأليف قبائل لعرب، وإلحاق من درس نسيه أو جهله بقبيلته التى هو منها» الحلة ٢٠١/١. وانظر أيضا فقرة أخرى واضحة الدلالة فى الكتاب نفسه ٢٠٢/١ - ٢٠٣.

ويقول المتمد فى رسالته التى وجهها إلى يوسف بن تاشفين فى جمادى الأولى ٤٧٩ هـ = أغسطس ١٠٨٦ م «لقد اختلطت أنسابنا وأصبحنا شعوبا وقبائل»، أنظر: الحلل المشية، طبعة تونس، ص ٢٩، ط علوش، ص ٣٣، وعنه فى «بنو عباد» ١٨٩/٢. وهو على التأكيد يشير إلى الآية القرآنية، وهى قاعدة أى مبدأ شعوبى: «يألمنا الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا»، سورة الحجرات، الآية ١٣، وانظر تفسير البضاوى، طبعة فليشر ٢٧٦/٢.

(١٠) انظر: ربييرا، نبذ ومقالات، ٢٦/١ يقول: لقد أعطى الدين الإسلامى لونا للجموع الإسبانية «مثل قليل جدا من الحبر الأحمر كاف ليضفى لونا أحمر على بركة ماء، دون أن يتغير تركيب الماء الكيمائى جوهريا».

(١١) انظر فيما سبق ص ٨٥ من هذا الكتاب.

(١٢) انظر ص ٨٦ فيما سبق من هذا الكتاب.

(١٣) سيمونيت، تاريخ المستعربين، ص ١٦ هامش ٢، وليفى برفنسال، إسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر الميلادى، ص ١٨ رقم ١، ودوزى، ملحق المعاجم، مادة مسالمة، ٦٧٩/١، وصاعد الأندلسى، طبقات الأمم، ط. شيخو ص ٨١، وترجمة بلاشير ص ١٤٨.

فيطلق عليهم المؤرخون اسم «المولودون»، وبعد عدة أجيال لم يكونوا يختلفون أو يتميزون عن المسلمين القدماء، وبلغ التزاوج بين طبقة أخرى مستوى عالياً حيث غلب الدم الإسباني.

بعمامة كان المولودون يتخذون أسماء عربية، وهى شيء طبيعي إذا أخذنا في الحسبان أن المسيحيين الذين احتفظوا بدينهم وظلوا يعيشون بين المسلمين، واطلق عليهم اسم المستعربين، كانوا في حالات كثيرة يتخذون أسماء عربية^(١٤). ولكن، كما حدث في بلاد إسلامية أخرى^(١٥)، كان من الممكن أن يحتفظ المسلمة والمولودون بأسمائهم غير العربية دون أن يحدث هذا أى قلق للمسلمين الرفدين، حتى في السنوات الأولى من الفتح^(١٦). ومن الواضح أن المسلمين الذين كانوا يحملون أسماء إسبانية هم أصلاً من طبقة الرقيق قبل الفتح، فما اعتنقوا الإسلام بعده اعتقوا، وأصبحوا أحراراً، أو موالى كما كانوا يُسمون^(١٧).

إن وجود هذه الأسماء واستمرارها دليل لا على الإضافات القوية التي حملتها العناصر لإبيرية إلى الجنس الإسباني المسلم فحسب، وبما أيضاً على تأثيرها الفعال في المفاهيم العربية لسلاسل الأنساب. لقد علم الجنس الإسباني الشعب الفاتح استخدام الألقاب العائلية، وليس أصعب، إلا على العلماء المتخصصين في الإنساب ولم يكن عددهم كبيراً، من أن تتعرف الجماهير على أصل فرد في سلسلة طويلة من الأسماء، مرتبطة واحداً وراء آخر بلفظ «ابن». أما السلالة العرقية المنسوبة إلى أسكن الأصل وأسماء العائلة فتشير إلى أن الانتقال من حال البداوة والنجعة بلغ أقصى غاياته من الثبات

(١٤) الأمثلة الأندلالية نجدها في قاضي لنصاري في قرطبة، وكان يحمل اسم وليد بن خيزران، وأسقف طليطلة وكان يعرف باسم عبيد الله بن قاسم، انظر: نفح ٣٩٠/١، وتاريخ مسلمي إسبانيا ص ٢ ج ١ ص ١٧٧ و ١٨١. ونستطيع أيضاً أن نذكر أسماء نصاري ليون، وهم مستعربون دون شك، وعاشوا في الأراضي الإسلامية قبل أن يهاجروا إلى الأراضي النصرانية، وقد خصهم غوث موريثو بفصل في كتابه «كتائب المستعربين» ص ١٠٧ - ١١٨، وأبرز هذا العالم الموسوعي الإسباني، ص ١١٠ رقم ٦، الأسماء التالية: سيربانيدو الغالب، ثخيلا أبو حبس، وغوث عبد الله، ويوانس العطار، وبرمودو أبو الليث.

(١٥) يتجه تفكيرنا إلى إيران بخاصة حيث بقيت أسماء كثيرة في صورتها الفارسية، مثل: رستم، وسبيويه، وخاويه، وخرداذ به، وغيرها.

(١٦) في إشبيلية خلال حكم عبد الرحمن الذي بلغ بنو أنجلين ويتو شبريق شهرة واسعة. انظر: تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٢ ص ٤٠، وليفي بروفنسال في: إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر الميلادي ص ١٩.

ثمة تقى قرطبي يدعى ينير، بالإسبانية Jannarus O Gener، تلتقى به عام ٨٣٦ م في قضية لا يتحدث بالعربية، وإنما بالرومانية. انظر: المختص، قضاة قرطبة، ط. كوديرا، ص ١١٨، وبينديث بيدال، أصول الإسبانية ٤٣٧ - ٤٣٨.

(١٧) سيكون مفيداً أن نحصر كل الأسماء لأسبانية التي تظهر في أنساب الشخصيات الإسلامية، وقد قدم لنا سيمونيت قائمة تحتوي خمسة وعشرين اسماً. انظر: تاريخ المستعربين، ص ٩٦، هامش ٦. ومن السهل زيادة العدد على نحو ملحوظ بقراءة المؤلفات المتصلة بالغرب الإسلامي، وبخاصة كتاب مع الطبيب للمقرئ، والمكتبة العربية الإسبانية، ولكن رد هذه الكمات إلى أصولها الصحيحة، أو على الأقل بعضها، سوف يكون عملاً جافاً، لأن المؤلفين العرب، بما فيهم الذين ينتمون إلى الغرب الإسلامي، حوِّروا هذا الأسماء، أو حرفوها، لأنهم لا يعرفونها، أو لا يفهمونها. وثمة صعوبة أخرى ليست بأقل أهمية، هي العثور على اشتقاق الكلمة الصحيح، فنحن نعرف أن الاشتقاق القديم للكلمة ابن بشكوال هو Hijo de pascual، وأن هذه حلت مكان كلمة Hijo de Vasquito. انظر: بينديث بيدال، أصول الإسبانية مدريد ط ٢، ١٩٢٩، ١٤٩/١. وفيما يتصل بآين قزمان سوف يكون مقامرة أن نؤكد أصل الكلمة الرومانشي، إذا أخذنا في الحسبان أن هناك عرباً قدماء كانوا يحملون هذا الاسم. انظر: تاج، العروس، ج ٩ ص ٢٥، ويتحدث ابن هشام، المتوفى ١٨ - ٨٣٣ م، في «سيرة الرسول»، ج ٢ ص ٣٧٢، وفي طبعة وستنلند ٥٧٨/٢، عن محارب كان يدعى قزمان، وأنه بلغ نهايته بسبب جروحه.

والاستقرار^(١٨). ولم يحدث في أى بلد آخر أن استطاع العنصر العربى أن يذوب في الشعب المهزوم، ويمثل هذا التجانس القوى، كما حدث في إسبانيا.



كان الجانب الأندلسي، أو الإسباني إذا شئت، يعتمد منذ بداية «الفتنة» على عنصر ذى أهمية سياسية تساوى أهمية العرب الأندلسيين إن لم تفقههم، وأعنى بهم الصقالبة^(١٩). وهى كلمة تُطلق على كل الرقيق الذين أسرههم القطلان أو المسلمين على شواطئ البحر الأبيض الأوربية، أو اشتروهم من فرنسا أو إيطاليا أو ألمانيا وجاءوا بهم إلى إسبانيا، ويظن أن الخليفة الأموى الحكم الثانى أول من استخدمهم^(٢٠)، ومن المحتمل جدا أن هذا تم بعد أن تلقى هدية قدمها إليه كونت برشلونة وكونت طركونة فقد أرسل إليه هذان، في الحقيقة، عشرين عبدا خصيا ليعملوا في الحريم^(٢١)، ومنذ تلك اللحظة عم استخدامهم: في الجيش، وكانوا جنودا ممتازين، وفي الحريم بعد خصائهم، واضطلعوا بالأعمال التى كان يقوم بها اليهود عادة^(٢٢)، وأصبحوا خدما كتومين^(٢٣) ومخلصين. ومن صقالبة أصبحوا موالى في نفس الظروف التى عرضت للأسرى المسيحيين في شمال إسبانيا، وعلى النقيض من الموالى المسيحيين الذين ظلوا في المجتمع الإسباني الإسلامى واصل الصقالبة حياتهم متضامنين فيما بينهم، ولم يتخلوا عن هذا الروح أبدا، وقد ازداد عددهم كثيرا، وتعاظم دورهم عند الخلفاء الأمويين، وكان في بداية الأمر متواضعا ثم أخذ يقوى تدريجيا حتى تساوى مع مسئولية الأسر الأرسنقراطية الكبرى، عربية أو بربرية أو مسيحية، التى تحيط بأمر المؤمنين. وبفضل نفوذهم الذى استمدوه من قربهم من الخليفة، وأيضا بسبب الثروات الهائلة التى عرفوا كيف يجمعونها، وسمحت لهم بشراء مساعدة الرجال، حاولوا أن يحكموا إسبانيا الإسلامية في مطلع القرن الحادى عشر، وهم الذين حرّضوا على ثورة القصر التى أزاحت عبد الرحمن شنجول ابن المنصور بن أبى عامر عن الحجابة، ونادت بالمهدى خليفة، ورأينا فيما سبق كيف أن هذه المؤامرة أشعلت نيران «الفتنة»، وهى مرحلة الاضطرابات التى انتهت بزوال الحكم الأموى نهائيا، وقيام دول الطوائف الصغيرة على أنقاضهم، والتى ظلت قائمة حتى مجيء المرابطين.

(١٨) لا تزال بعض الأسر الأندلسية القديمة التى هاجرت إلى الرباط وتطوان تعرف بأسمائها الإسبانية، مسبوقة بلفظ «ابن» أو «بنو» انظر: ل. برونو، نصوص عربية من الرباط، ١٠/٨، ودائرة المعارف الإسلامية ١١٦٣/٣ وما بعدها، مادة رباط، وكتبها ليفى برونسفال.

(١٩) في العربية صقلبي وجمعها صقالبة نسبة إلى صقلاب أو صقلاب، وأحيانا بفتح الصاد، أو بالسین: سقلاب. وفيها يتصل بأصل هذه الكلمة أنظر: ليفى برونسفال، إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر الميلادى، ص ٢٨ - ٣١، وتاريخ إسبانيا الإسلامية ط ٢ ج ٢ ص ١٢٢ - ١٣٠، ودائرة المعارف الإسلامية ٧٩/٤ مادة صقالبة وكتبها ليفى برونسفال.

(٢٠) نفح ٣٤١/١، طبقا لابن خلدون.

(٢١) نفح ٣٨٤/١.

(٢٢) كان بردون قد مر بمصنع خصيان، انظر دوزى، تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ ج ٢ ص ١٥٤، ومزيلا من التفصيلات في: المقدسى، في المكتبة الجغرافية العربية، مجلد ٣ ط ٢، ص ٢٤٢، وترجمة بيلا له ص ٥٦ - ٥٩.

(٢٣) كان الحكم الثانى يلقبهم بالحرس انظر نفح ٣٤٢/١ نقلا عن ابن خلدون.

وليفى برونسفال، إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر ص ١٣٠، هامش ٢.

في بداية الفتنة حاول الصقالبة. مكرين ومتآمرين. وعلى ثقة من دعم الجيش لهم، حيث الكثيرين منهم يتولون المناصب الهامة، أن ينتهجوا سياسة مليئة بالمبادرة، تضمن لهم تحقيق طموحاتهم، فتظاهروا بالعمل إلى جانب الحزب الإسباني تارة، وإلى جانب الحزب البربري أخرى، ولكنهم سرعان ما أخذوا جانب الحزب الأول، واعتقدوا أن مصيرهم متعلق به. وأثناء ذلك بدأت ثرواتهم تضر، ونفوذهم ينكمش، وفقدوا تدريجاً دعم الذين كانوا يعتمدون عليهم، وبما أن جذورهم في البلد لم تكن بعيدة العمق فإن الحزب الإسباني حقا انتزع منهم أولاً قرطبة، ثم المرية، وبعدها طرطوشة، وأخيراً بلنسية، وفي اللحظة التي استقرت فيها دول الطوائف قريبا من منتصف القرن الحادى عشر، لم يكن مع الصقالبة غير كورة واحدة، ظل نعردهم فيها قائما وأكيد، وهى دانية، وتتبعها الجزائر الشرقية، وجزيرة سردينية لبعض الوقت. وفيها يتص بسياستهم كانت ذات طابع إسباني، أى قومية إذا شئت، وأخذوا جانباً في الكفاح ضد البربر ثم مالوا إلى العزلة تدريجاً، إلى أن أصبحوا سكان جزر، وتخصصوا في القرصنة في الشواطئ الأوربية.

وباتحسار دور الصقالبة السياسى على هذا النحو لم يعودوا يتولون الوظائف الكبيرة في البلاطات الصغيرة في شبه الجزيرة، إسبانية أو بربرية، والتي كانوا يشغلونها بجوار الخلفاء الأمويين خلال القرن العاشر الميلادى، ونجد بعضهم حول الخليفة على بن حمود، وثلاثة منهم اغتالوا هذا الحمودى في الحمام^(٢٤)، واستخدمهم أيضا أدريس الثانى في مالقة^(٢٥). وعندما استسلم آخر بنى زيرى في غرناطة عبد الله بن باديس للمرابطين في عام ١٠٩٠ م، كان بلاطه يتكوّن في معظمه من الصقالبة^(٢٦). وقد قدّم لنا الشعراء معلومات عن الصقالبة، ضئيلة دون شك، ولكنها دقيقة، وأعطانا ابن درّاج القسطلّى تفصيلات مميزة عن عادات أميرى بلنسية مبارك والمظفر في تزنيهم بالحلقة كالسيدات، يقول:

فللصبح فيها بين قرطبك مطلع وقد سكن الليل البهيم جماركا

وإذا كان هذا البيت قد أكمل معارفنا عن الطريقة النسائية لهذين الخصيين، فإن البيت التالى وورده في القصيدة نفسها:

هو الملك لا بلقيس أدرك شأوها مذاك ولا الزباء سقت عياركا^(٢٧)

نجد فيه تشبيه الأمير بالنساء، وهذه صورة وحيدة في الأدب العربى فيها أرى!، ولكن من الحق أن نعرف بأن الملكتين القديمتين أضررتا من الرجولة في موقفها ما يجب أن يجعل الخصيين يشعرا بالبهجة لمثل هذا التشبيه.



إذا كان العنصر العربى، على نحو ما رأينا، لم يكن يمثل إلا جانباً يسيراً في الشعب الإسباني فإن

(٢٤) أعمال الأعلام ص ١٢٩

(٢٥) تاريخ سلمى إسبانيا، ط ٢، ٣٦/٣.

(٢٦) المصدر السابق ١٤٤/٣

(٢٧) من الطويل، أعمال الأعلام ٢٢٣.

البربر كانوا على النقيض، جاءوا منذ الفتح إلى آخر القرن الحادى عشر، وحتى مطلع القرن الذى يليه، فى هجرات متواصلة وكثيفة نسبيا. وكانت المجموعات الوافدة من قبيلة زناتة فى البدء، ثم تقوّت بآخرين من قبيلة صنهاجة، وفى النهاية أصبحت الأغلبية من هذه القبيلة الأخيرة.

وفى بداية القرن الحادى عشر، خلال أيام الفتنة، كان البربر كلهم، دون تمييز بين طوائفهم، من أنصار عبد الرحمن شنجول، وضد المهدي، وبعد ذلك انحاز محمد بن يعلى رئيس زناتة مع أتباعه إلى المهدي^(٢٨)، وأدّى هذا التحوّل إلى نتائج مدمّرة بالنسبة له، وبخاصة بعد معركة قنتيش حيث فقد الكثيرين من أتباعه. وبعد أن قتل المهديّ شنجول تجمع البربر من زناتة وصنهاجة حول الخليفة المرتقب سليمان، لعمل جبهة تناهض الحزب الإشباني، وفى هذه اللحظة أقطعت لهم الأراضي فى الجنوب، والجنوب الشرقى، من شبه الجزيرة^(٢٩).

وقد تلقى الصنهاجيون بقيادة حبوس بن ماكسنّ إلىبيرة (غرناطة) وكورتها، وتلقى بنو دمر وأزداجة شذونة ومورور، وبنو خزرون شريش وأرقش، وتبع ذلك بنو إرنيان فأخذوا شذونة وأرقش، ومن الزناتيين تلقى بنو برزال جيان وذواتها، على حين أقام بنو إفران فى رندة.

وفىما يبدو لم يكن الاتفاق قويا بين صنهاجة وزناتة منذ البداية، لأن زواى بن زيرى وخاف الضغائن والأحقاد القديمة قرر أن يعود إلى أفريقيا^(٣٠)، ولكن الجانب الأكبر من الصنهاجيين لم يتبعه. ومع ذلك، يمكن القول أن عنصرى البربر ظلّا بعامّة طوال القرن الحادى عشر فى حالة وفاق: يكوّنان جانبا من جيش الخليفة سليمان، وناضلا ضد الحزب الإشباني مع الخلفاء من بنى حمود.

وكان جيش على بن حمود يتألف، كما يقول الشاعر الشيعى ابن الخنّاط الضريع، من كتاب من صنهاجة وزناتة^(٣١). وقد استيقظت روح الجنود أمام هجوم الحزب الإشباني، وبخاصة منذ اللحظة التى طمح فيها المعتضد أمير إشبيلية إلى حكم كل نصف الجنوب على الأقل، إن لم يكن إشبانيا الإسلامية كلها. وثمة حدث جدير بالملاحظة: لم يكن أمراء صنهاجة، وإنما أمراء زناتة هم الذين انهزموا، ولقد قلنا فى الفصل الأول كيف امتصت مملكة إشبيلية فى سرعة كل الإمارات الزناتية الصغيرة^(٣٢).

(٢٨) البيان المغرب ٦٥/٣ - ٦٨. وابن خلدون فى نفح ٤٢٧/١، وأعمال الأعلام ٩٧.

(٢٩) البيان المغرب ج ٣ ص ١١٣ و ٢٣٠ و ٢٦٨ و ٢٧٠ و ٢٧١ و ٢٩٤، وفى تاريخ مسلمى إشبانيا ٢١٩/٣، وأعمال الأعلام ص ١١٩، طبقا لابن حمادة، ٢٣٨ - ٢٤١. ونفح ٤٢٩/١ طبقا لرواية ابن خلدون، وليفى بروفنسال، المعتضد فى دائرة المعارف الإسلامية ٨٣١/٣، وفى أفريقيا أعطيت سبتة لعلى بن حمود، وطنجة وأصيلة للقاسم بن حمود، أما سرقسطة فقد عين سليمان لها المنذر بن يحيى.

(٣٠) انظر: البيان المغرب ١٢٩/٣، وليفى بروفنسال، مذكرات الأمير عبد الله، آخر ملوك بنى زيرى فى غرناطة، ص ١٠ فصلة مستقلة.

(٣١) ولا بد أن كتابة أيضا اختلطت بالصنهاجيين، وأحدهم كان مكانا بأن يقدم لمحمد بن إدريس فى مالقة عام ٤٤٤ هـ = ١٠٥٣ م كاسا مسموما. انظر: البيان المغرب ٢١٨/٣ ويمكن أن يكون السطيفى، وهو بربرى ووزير إدريس الثانى من كتابة، ويعود أصله إلى سطيفه البيان ٢٩١/٣.

(٣٢) حاول بنو برزال أن يفتلوا من المعتضد، واقترحوا على ابن ذو النون أن يقيم فى الدور بدل قرمونة. انظر: البيان ٢٦٩/٣ و ٢٨٣، وأعمال الأعلام ٢٣٧ - ٢٤٠. وأراد بنو إرنيان وبنو خزرون أن يدخلوا مملكة غرناطة وأن يتنازلوا لباديس بن حبوس عن قلعة أركش وجميع ما بأيديهم من بلاد شذونة، ولكن المعتضد حقق بإزاحتهم القضاء على القبيلتين الزناتيتين، انظر: البيان المغرب ٢٧٢/٣، وأعمال الأعلام ٢٣٩ - ٢٤٠.

ومن الآن فصاعدا لم يعد الرزتيون يقيمون في غير كورتى مالقة وغرناطة^(٣٣)، وكالصنهاجيين تأندلسوا سريعا، وعندما قرر يوصف بن تاشفين إزاحة ملوك الطوائف عن عروشهم هجم غرناطة أولا حيث يحكم الأمير عبد الله، ركان قد فقد كل خصائصه البربرية. أما الأسر الحاكمة ذات الأصول البربرية والتي حكمت في بطليوس وطليلة والسهلة فكانوا يطبقون منذ «الفتنة» سياسة أندلسية.

كان بنو رزين، ويعرفون أيضا بـ «الأصلع» من بربر هواره^(٣٤)، يتبعون سياسة حكيمة، ومن خلال سياسة فطنة عرفوا كيف يحتفظون بحيادهم في أرضي السهلة، أو شتمرية ابن رزين كما كانت تُسمى أيضا، وتأندلسوا بعمق، ولم يحاولوا أبدا، فيما يبدو، أن يقتربوا من العرب، وشاغلهم الأوحـد أن يستمتعوا بمباهج الحياة، وكانت مطربات حسام الدولة ابن رزين من أجمل فنانات إسبانيا وأعظمن^(٣٥).

وكان بنو ذى النون يحكمون طليطة، وهم من البربر أيضا، ولم يصب اسمهم القديم «زنون» إلا تحريف يسير، وكان المنصور هو الذى عهد إليهم في القرن الماضى بحكم مقاطعة شنت مرية، وخلال «الفتنة» قام سكان طليطة المتمردون بطرد حكامهم واستدعوا بنو ذى النون^(٣٦). وحاول هؤلاء البربريون أن يصطنعوا لهم نسب حميريا، أى عربيا قديما، ولم يكونوا يتساهلون أبدا فيما يتصل بقضية لنسب والعرق، وكان الأبناء غير لشرعيين يهاجمون بقسوة على نحو يضطرهم إلى الفرار من طليطة كى يهربوا من الموت^(٣٧).

أما بنو الأفطس أمراء بطليوس فينحدرون من أبى عمد عبد الله بن محمد بن مسلمة، ويُعرف بابن لأفطس^(٣٨). ومن اتحاد بربر مكناسة^(٣٩) الذين استقروا لحظة الفتح في فحص البوط، شمالي قرطبة، وفي القرن الحادى عشر ادَّعوا أنهم ينحدرون من قبيلة تيجب، أى اعتبروا أنفسهم يمينيين. أبرز الشعر، كما لاحظنا ونحن نعرض الأحداث التاريخية كما رآها الشعراء، وجود تناقض حاد وضع الأندلسيين في مواجهة البربر لقاديين من قريبه وسوف نوضح هنا مظاهر لهذا التناقض من نوع آخر، وهى أن الشعب الإسباني كان يحتقر بشدة هؤلاء الأفارقة الجهال، وظل يجرى على الشفاه بيتان سامان لشاعر مجهول، ومهما كان استهلاكها فإن هذا لا يقلل من حدائتها:

رأيتُ آدمَ فى نومي فقلتُ له: أيا البريرة إن الناس قد حكموا

(٣٣) الأعمال ٢٣٠. وكان باديس بن حوس سلطان الصنهاجيين «ويستخدم الكثير من قبائل زنانه».

(٣٤) الحلة ١٠٨/٢، والبيان ١١١/٣ - ١٨٤.

(٣٥) سوف نعود إلى هذا الموضوع في الفصل الخاص بالموسيقا.

(٣٦) البيان المغرب ٢٧٦/٣، وأعمال الأعلام ١٧٧.

(٣٧) انظر فيما يلى ص ٢٣٨ من هذا الكتاب.

(٣٨) ابن الأفطس، أى ابن القرد، وربما أطلق عليه هذا اللقب، سببا يقول دوزى، لأن تقاسيمه البربرية تذخر بشكل القرد.

انظر: أبحاث ط ١ ص ١٩٨. ومثل هذا التفسير موضع شك كبير فيما نرى.

(٣٩) كلمة مكناسة توجد في إسبانيا بوصفها اسم بلد في صورة Mequinezza انظر: ليفي بروفنسال، إسبانيا الإسلامية في

القرن العاشر، ص ٢٦ رقم ١٣ وص ١٦٥ و ١٨٠، ودوزى، بحث، ط ١ ص ١٩٦ - ١٩٨.

أَنَّ الْبَرَابِرَ نَسْلُ مِنْكَ قَالَ: إِذِنْ حَوَاءُ طَالِقَةٌ إِنْ كَانَ مَا زَعَمُوا^(٤٠)

وبعض الأشعار توضح لنا الصفات الغالبة في المزاج البربري، وتقدم لنا الأسباب النفسية للعداوة الخفية التي كانت تفصل الأندلسيين عن البربر، لقد كتب المعتمد إلى والده المرعب، بعد النكسة الحربية التي منى بها أمام مالقة^(٤١)، يعتذر إليه، فيقول:

قَوْمٌ نَصِيحَتُهُمْ غَشٌّ، وَحُبُّهُمْ بَغْضٌ، وَنَفْعُهُمْ - إِنْ صُرِّقُوا - ضَرَرٌ
تَمَيَّزَ الْغَيْظُ فِي الْأَلْفَاظِ إِنْ نَطَقُوا وَتَعَرَّفَ الْحَقْدُ فِي الْأَلْحَاطِ إِنْ نَظَرُوا
إِنْ يَحْرِقُ الْقَلْبَ نَبَزٌ مِنْ مَقَالِهِمْ فَإِنَّمَا ذَاكَ مِنْ نَارِ الْقَلْبِ شَرٌّ^(٤٢)

ربما كان بعيداً أن نتصور أنه قبل المعتمد بزمان طويل، عبر موسى بن نصير فاتح إسبانيا بهذا الرأي القاسي نفسه في وصف البربر، في مقابلة له مع الخليفة الأموي سليمان شقيق الوليد، يقول: «إنهم منافقون لا يعرف لهم شبيهه، ولا يفون بوعده أو عهد»^(٤٣).

بقيت مجموعة اجتماعية أخرى من الواجب أن نقول عنها شيئاً، وهؤلاء هم الرقيق الأفريقي أو العبيد كما يُسمَّون، والذين هم طبقاً لكل الروايات يجب أن يكونوا من الزوج^(٤٤). وقد جرى بهم على نحو خاص ابتداء من عهد عبد الرحمن الناصر ليكونوا حرسه الخاص الشديد الوفاء لسيده، ونراهم يحضرون وفاة الناصر، وحفل تنصيب الخليفة الجديد الحكم المستنصر، ولكن في مرتبة أدنى من الصقالبة^(٤٥). وقد زاد المنصور من عددهم^(٤٦)، على نحو ما صنع مع الصقالبة والبربر أيضاً، ويبدو أنهم كانوا مرسومين للصقالبة، ودون أن يصلوا أبداً إلى تولى المناصب العسكرية أو الإدارية العالية.

وعندما اندلعت «الفتنة» في مطلع القرن الحادي عشر الميلادي أخذوا جانب البربر، مثل الصقالبة فيما يتصل بالأمويين، ولكن يفهمون سياسى محدود للغاية، وقد حاولوا أن يقوموا ببعض الانقلابات الثورية في القصر، ولكن أمراء البربر استطاعوا أن يعيدهم إلى الصواب سريعاً، وفي حمية بالغة

(٤٠) من الطويل، نفع ٤١٢/٣، وأبحاث ط ١ ص ١٠٦ - ١٠٧، والطبعة الثالثة ٢٥٩/١. وانظر أيضاً: نفع ٦٣٠/١ أوربا. وعن حظ هذين البيتين من الشهرة تحت حكم المرابطين، انظر مقالنا: الشعر في فاس تحت حكم المرابطين» في مجلة هيسبيريس، المجلد ١٨، عام ١٩٣٤، العدد ١ ص ٣٦ ورقم ١.

● الأبيات ليست لشاعر مجهول، وإنما للسميسر.

(٤١) عن هذا الحادث انظر: تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ٦٨ - ٦٩.

(٤٢) من النيسيط، المعتمد، الديوان ص ٣٨، القلائد ١٩، وعنها في «بنو عباد» ٥٣/١، والبيان المغرب ٢٧٥/٣، والحلة ٥٦/٢، وتاريخ مسلمي إسبانيا ط ٢ ج ٣ ص ٦٩، والتيجاني، شاعر ملك ص ١٦٣.

(٤٣) انظر البيان ٢٠/٢، والترجمة ص ٢٢.

(٤٤) ابن عبدون في رسالته عن الحسبة، حول الحياة في المدينة وهيئات العاملين في إشبيلية في مطلع القرن الثاني عشر، يستخدم تعبير «السودان البربري» ص ٨، وعبيد البربر ص ٢٧، انظر طبعة ليفي برونفسال في المجلة الأسبوية، أبريل - يونية ١٩٣٤.

● ونشر الرسالة نفسها مع رسالتين أخريين بعنوان: ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحاسب، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، ١٩٥٥. (الترجم).

(٤٥) نفع ٣٨٨/١، وترجمة ليفي برونفسال في إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر ص ٥٨. ويميزون بين «العبيد الفحول» وهم المسلحون من أخص أعدائهم إلى قمة رؤوسهم» وبين «رجال العبيد»، ويرتدون الجواشن والأقنية البيض، وعلى رؤوسهم البيضات الصقيلة، ويأيدهم التراس الملوثة والأسلحة المزينة، ثم «فرسان العبيد».

(٤٦) نفع ٣٩٨/١.

استخدموا ضدهم السوط والسيف، والمشتقة بلا شفقة ولا رحمة^(٤٧).

وفرقتهم التي اشتركت مع جيش يوسف بن تاشفين في معركة الزلاقة يجب أن نكون هامة، ويتحدث المؤرخون عن بطولات احرس الأسود خلال المعركة، واستطاع جندي أسود أن يقترب من الملك ألفونسو السادس وأن يجرحه في فخذه بخنجر^(٤٨)، وفي قصيدة لعبد الجليل بن وهبون، وأتينا من قبل على أبيات منها بمناسبة معركة الزلاقة، يشير أحدها إلى وجود السود في جيش المرابطين، ويتوجه الشاعر إلى ألفونسو السادس قائلا:

أَقَمْتَ هَذَا الْوَعْيَ سَوْقًا فَخَذَهَا مَنَاجِرَةً وَهَوْنَ مَا نَسَامُ
فَإِنْ شَتَّ اللَّجَيْنُ فَنَمَّ سَامٌ وَإِنْ شَتَّ النَّضَارُ فَنَمَّ حَامٌ^(٤٩)

كان عدد الرقيق الأسود في أفريقيا كثيرا، أما في إسبانيا فيمثلون أقلية، ومن ثم كان تأثيرهم على الحياة الإسبانية عمليا معدوما تماما نيبا يبدو، ومع ذلك كانت الجوارى السوداءات يشكلن جانبا من الحريم الأندلسي كزوجات شرعيات^(٥٠)، وكعشيقات بخاصة، ولم يكن ذلك نادرا، وجارية من بلنسية ملك أبي المطرف بن غلبون وتحمل اسما مميزا وهو: إشرق السويداء، اشتهرت بسعة معارفها اللغوية، وبخاصة في النثر الفنى^(٥١)، ولكى الأبناء الذين كانوا يجيئون من مثل هذه العلاقة بين رجل أبيض وجارية سوداء كان يُنظر إليهم بهتار في مجتمع الخاصة. وهناك حكاية عن ابن غير شرعى حدثت في أسرة بنى ذى النون أمراء طليطلة تلقى ضوءا على فكر بربر الأندلس فيما يتصل بالأنساب، فقد كان للمأمون أخ غير شرعى يدعى أرقم كان ابن أمة مهينة، واقعها أبوه الظافر في حال سكره، ولم يكن فيهم من ينظم ويتولع بالأدب غيره. وقد تسامح المأمون معه ولكن ابنه يحبى القادر جاء على النقيض من أبيه، فمال على أرقم بالأذية. فعز من المملكة، وارتجى هذه المناسبة أبياتا جديدة بأن تأتى هنا على ذكرها، لأنها تظهر رد فعل إنسان يشعر بأنه أيضا مولود صالح مها جاء من علاقة غير شرعية، وأنه أفضل من أى أمير آخر بربريا كان أم مسيحيا، معروفا نسبه للجميع:

لَنْ طَبِئْتُ نَفْسًا بِتَرْكِي دِيَارَكُمْ فَتَفَسَّى عَنْكُمْ بِالتَّفَرَّقِ أَطِيبُ
إِذَا لَمْ يَكُنْ لِي جَانِبٌ فِي دِيَارِكُمْ فَالْعَذْرُ لِي أَنْ لَا يَكُونَ تَجَنُّبُ
زَعَمْتُ بِأَنِّي لَسْتُ فَرَعًا لِأَصْلَكُمْ فَهَلَّا عَلِمْتُمْ أَنَّنِي عَنْهُ أَرْغَبُ
وَجَسِبِي إِذَا مَا الْبَيْضُ لَمْ تَرَعْ نَسِيبَ بَأَنِّي إِلَى سَيْفِي وَرُحْمِي أَنْسَبُ
وَإِنْ مَدَّتْ الْأَيَّامُ فِي عُمَرِي لِلْعَلَا يُشْرِقُ ذَكَرِي فِي الْوَرَى وَيُغْرِبُ^(٥٢)

(٤٧) انظر: تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ٢٦ و ٢٢ و ٣٣ و ٣٤ و ٦٨. والمعجب ص ٦٣ و ٦٦، يترجمه الفرنسية ٥٤ - ٥٥، ويستخدم المراكشي في الإشارة إليهم كلمة «السودان».

(٤٨) تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ١٢٩.

(٤٩) من الوافر، القلائد ١٤، وفي دبنو عباد ٥٠/١، وعن المقليلة بين سام وحام انظر فيما بعد ص ٢٠١ رقم ٨ من هذا الكتاب.

(٥٠) لم يجد أمير أموى حرجا في أن يتزوج من جارية سوداء، كانت تلميذة الأمام مالك، وتأديت على يديه في المدينة، وتروى عنه، رغم أصلها المتواضع، واختلاف اعتنق واللون. انظر: نفح ١٣٩/٣، وريبيرا، نبذ ومقالات ٣٤٥/١.

(٥١) ابن الأبار، تكملة الصلة رقم ٢١١٥، ص ٧٤٠، وعنه في نفح ١٧١/٤.

(٥٢) من الطويل، نفح ١٣٣/٤.

ولأسباب مماثلة اضطر أحد بنى هود، أبو محمد بن هود الجذامى، أن يرحل عن سرقسطة، متجولا ضائعا من بلاط إلى خر في شمال إسبانيا، ذهب إلى طليطلة ثم يابرة، وانتهى به المطاف أخيرا في بطليوس، حيث أشاد المتوكل أميرها بذكائه وحكمته، وعينه حاكما على لشبونة، وهو أيضا بصدق احتقاره لآبائه الذين أكيدا لا يجرى في عروقهم كثيرا من الدم العربى:

ضللتُم جميعاً آل هود عن الهدى وضيعتُم الرأى الموفق أجمعا
وشنتُم عيّن الملك بى فقطعتُم بأيديكم منها - وبالغدير - إصبعاً
وما أنا إلا الشمس غير غياهب دجت، فأبت لى أن أنير وأسطعا
وإن طلعت تلك البدور أهلة فلم يبق إلا أن أغيب وأطلعا
ولا تقطعوا الأسباب بينى وبينكم فأنفكم منكم وإن كان أجدعا^(٥٣)

ويظهر لنا الشعر أيضا مفهوم النساء الأندلسيات عن الحب الذى يمارسه أزواجهن مع السوداوات، ولقد مال ابن زيدون إلى جارية ولادة السوداء، فكنتت تعتب عليه هذا الهوى:

لو كنت تُنصفُ فى الهوى ما بيننا لم تهو جارىتى ولم تتخير
وتركت غصنا مثمراً بجماله وجنحت للفصن الذى لم يُثمر
ولقد علمت بأننى بدر السامى لكن ولعت، لشقوتى، بالمشتري^(٥٤)



ولم يكن أمام اليهود تحت الحكم العربى غير أن يغتبطوا بالنظام الذى فرض عليهم بوصفهم من أهل الكتاب، وكانوا يقدرون أكثر من المسيحيين الفوائد التى تعود عليهم من الخضوع للفاطميين الجدد، فبعد السياسة الشديدة التى كان يطبقها عليهم ملوك القوط، خلف هؤلاء نظام شديد التسامح، وجعل من اليهود منذ اليوم الأول للفتح مساعدين مهمين للعرب والبربر^(٥٥)، ويلاشك فإن كثيرين منهم اعتنقوا الإسلام وبخاصة مع بدء الخلافة الأموية^(٥٦)، ولكن المكانة التى تتمتع بها الذين لم يعتنقوا الإسلام فى بلاط الأمراء الحاكمين، والحماية التى كانوا يبسطونها على أخوانهم فى الدين، لا بد أنها هددت من اعتناقهم الإسلام، ونحن نعرف أن الجماعات اليهودية فى إسبانيا بعامة، وفى قرطبة بخاصة، تدين بمكانتها إلى حسداى بن شبروط، وكان طبيبا ودبلوماسيا، وجعل منه عبد الرحمن

(٥٣) من الطويل، الحلة ١٦٥/٢. والشرط الثانى من البيت الأخير مثل عربى شائع.

(٥٤) من الكامل، نفع ٢٠٥/٤ وكور، ابن زيدون ص ٢٨ هامش ٢. وفى القرن الثانى عشر قالت حفصة الركونية عن حبيبها أبى جعفر بن سعيد بأنه هجرها من أجل جارية سوداء:

من الذى هام فى جنان لا نور فيه ولا زهر

وهو بيت من أبيات خمسة، من البسيط، ابن الخطيب، الإحاطة ٥٠٠/٨.

● وانظر دراسة عنها واقية، وديواتها كاملا، فى كتابنا: دراسات أندلسية فى الأدب والتاريخ والفلسفة، ط ٣ ص ٧٧، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٨ (المترجم).

(٥٥) حول هذا الموضوع انظر: ليفى بروفنسال، إسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر ص ٣٧ - ٣٨، والمصادر المذكورة هناك.

ص ٣٢ رقم ٢ وص ٣٨ رقم ١ وص ١١٢ رقم ١ و ٢. ويمكن أن تضيف إليها: جريتر، يهود إسبانيا (٩٤٥ م - ١٢٠٥ م)،

Ehrempreis، البلد بين الشرق والغرب، وأفيدجور شاينكن، أمثال اليهود.

(٥٦) ليفى بروفنسال، L.C. ٣٨ و ١١١ - ١١٢.

الناصر وزيره، وسفيره، ومب عليه بيت المال^(٥٧).

كانت توجد جالية يهودية كبيرة في كل المدن الكبرى، والمكانة العالية التي تمتع بها الوزير اليهودي أبو الفضل بن حسداى. في سرنسطة لدى أمراء بني هود الثلاثة: المقتدر (١٠٤٦ - ١٠٨١ م) والمؤمن (١٠٨١ - ١٠٨٥ م) والمعتصم (١٠٨٥ - ١١١٠ م)، تعطى فكرة عن ازدهار الجالية اليهودية في عاصمة النغر الأعلى^(٥٨). وفي بطيوس التف اليهود حول المتوكل^(٥٩)، ويمكن أن نقول الشيء نفسه عن بلنسية^(٦٠).

وكان في بلاط حسام الدولة ابن رزين أمير السهة وزير كاتب يمكن أن نعتبره يهوديا من اسمه، ولو أن المؤرخين لا يذكرون شيئا عن أصله، ولعب لدور نفسه الذي لعبه ابن حسداى في بلاط بني هود، وكان يدعى أبو بكر بن تدرى^(٦١).

ولابد أن الجالية اليهودية في إنسية كانت هامة جدا، حيث تفجر الصراع بين المسلمين واليهود، ويقص علينا ابن حيان أنه في عام ٤٦٣ هـ = ١٠٧٠ م، بمحدا اليوم، والشهر، وأنه في يوم الاثنين ١٣ من ذي الحجة، حدث هيجان كبير في إشبيلية لأن يهوديا سب الشريعة فأثار ذلك غضب أحد المسلمين فبطش به في وسط السوق، وجرحه وأثار العامة ضده، فتدخل صاحب المدينة عبد الله بن سلام، وقبض على المسلم واعتقله، «نكان لعامة الناس في إنكار حبسه كلام، وإكثار خشى وباله»، ولم يبدأ الأمر ويستقر النظام إلا بعد أن تدخل سراج انديلة بن المعتضد، وابن زيدون الشاعر^(٦٢).

وبلاشك كانت مملكة غرناطة المقاضعة المفضلة لدى ليهود في القرن الحادى عشر خلال عصر ملوك الطوائف، وظل اثنان من الوزراء اليهود هما: صمويل بن النغرة، وابنه يوسف من بعده، يوجهان سياسة بني زيرى، وهم من أصل صنهاجى^(٦٣). وكانت غرناطة في البدء موقوفة على سكنى اليهود وحدهم، مما جعلها تستحق أن يطلق عليها اسم «غرناطة اليهود»، وكان عددهم كبيرا في القرن الثانى عشر الميلادى، حتى أنهم أنشأوا مدينة اليسانة الكبرى^(٦٤)، ويقول الإدريسي، وطاف بإسبانيا في

(٥٧) عن الأسماء التي حملها الذين استنفوا الإسلام انظر فيما سبق ص ٢٢١ من هذا الكتاب.

(٥٨) بعد قليل سوف نعرض مرة أخرى لهذا الوزير اليهودى. ص ٢٤١ - ٢٤٢ وتشهد ملحمة رولان والتي ألفت فيها يحتمل في القرن الحادى عشر أو مطلع القرن الذى يليه على وجود بيع ييساجد في سرقسطة. انظر: بواسوناد، من حديد حول ملحمة رولان. طبقا للملحة رولاند، تحقيق ليون جوتيه، الفقرة ٩٦ - بيت ٣٦٦٢.

(٥٩) نفخ ٤٤٧/٣، والحلة ١٠٦/٢، وأبحاث ط ٢ ص ١٣٦، والتصويبات ١٠٣.

(٦٠) نفخ ١٩/٤، والحلة ١٠٦/٢، وأبحاث ط ٢ ص ١٧٧، والتصويبات ١٠٤.

(٦١) الحجارى، المسهب، في نفخ ٤٠٤/٣.

(٦٢) الذخيرة ٤١٨/١، وكور لين - دون ١٣١.

(٦٣) ليفى بروفنسال، إسبانيا الإسلامية، القرن العاشر ص ٣٦، والزيرون في إسبانيا، دائرة المعارف الإسلامية، مجلد ٤ ص ١٣٠٠، والمصادر المذكورة هناك C.B. وفي المغرب، في القرن الخامس عشر الميلادى عين السلطان المربى عبد حق الثانى يهوديا يدعى هارون وزيرا له، فأحدث ذلك اضطرابا، واستطاع أن يعيد الأسرة الإدريسية في فاس لمدة قصيرة. انظر ليفى بروفنسال، مستند ابن مرزوق، في مجلة هيسبيريس، المجلد ٩ عام ١٩٢٥، ص ٦٠، غامش ١، وكور، حكم بني وطاس، قسنطينة ١٩٢٠، ص ٦٠ و ٦٣ و ٦٥، ويبر دى سينغال، أسطورة اليهودى ابن مشعل ومهرحان سلطان الطالبين في فاس، مجلة هيسبيريس المجلد ٥ عام ١٩٢٥، ص ١٧٣، ودوتيه، مراكش عن ١٩٩٠.

(٦٤) ليفى بروفنسال، نفس المصدر، ص ٣٨ والمامش ٢ - ٣.

القرن الثاني عشر الميلادي، عن هذه المدينة^(٦٥): يسكن اليهود داخل المدينة ولا يدعون المسلمين يدخلونها، وهم أغنى اليهود في البلاد الإسلامية كلها، ومتحفظين للدفاع عن أنفسهم في مواجهة منافسيهم.

وكان اليهود مندمجين في الحياة اليومية مع كل طبقات المجتمع، فانكبوا على التجارة، وما رسوا مختلف المهن الحرفية^(٦٦)، وكانوا أيضا، كما سنرى فيما بعد في فصول أخرى تجيء من هذا الكتاب، موسيقيين ومطربين، وموضع التقدير من المجتمع المصقول في مراكز المدن الكبرى.

وكانت معرفتهم باللغات واسعة، وأكثرهم يتحدث العبرية والعربية العامية والرومانشية في نفس الوقت، مما جعلهم مهمين جدا للقيام بالمهام الدبلوماسية بين أوروبا المسيحية وإسبانيا الإسلامية^(٦٧). ومن جانب آخر كان أمراء الشمال المسيحيين في إسبانيا يستخدمونهم للقيام بالوظائف نفسها^(٦٨).

وقد بلغ بعضهم درجة عالية من التمكن من اللغة العربية المكتوبة، وتلتقى في المدونات العربية بأخبار قليلة جدا بعامة عن اليهود واليهوديات الذين تفوقوا في معرفة اللغة العربية، وهكذا وقف المقرئ في كتابه نفخ الطيب بعض السطور أو الصفحات، دون ترتيب تاريخي، على الشاعرات اليهوديات^(٦٩)، ولكن القائمة أبعد من أن تكون كاملة. وتوجد في الكتاب نفسه، وسط أخبار أخرى، أو في مؤلفات أخرى لما تزل مخطوطة، مثل الذخيرة لابن بسام الذي يجب أن يكون قد أوقف صفحات من كتابه على الشخصيات الأكثر تميزا بين كتاب اليهود باللغة العربية.

(٦٥) ليفي بروفنسال، إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر، ص ٣٨، الهامش ٣، الإدريسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، وعنوانه بالفرنسية وصف أفريقيا وإسبانيا، ص ٢٠٥، والترجمة ٢٥٢.

(٦٦) تروى الذخيرة ٤٩٩/٣ الحادثة التي جرت بين أبي الربيع سليمان بن أحمد القاضي وبين اليهودي يوسف الإسلامي، لأن الأول صلب من الثاني آلة نجار خدم عنده، فوجه بها حاشا المنشار.

(٦٧) استقبال حسداي بن شيروط سفارات من قسطنطين الثامن إمبراطور بيزنطة عام ٩٤٤ م. ومن هوتو Otón I ملك جرمانيا في ٩٥٦ م، وذهب إلى ليون بوصفه سفيرا ليقابل ملكها أرنو الثالث في ٩٥٥، وأرسله الناصر سفيرا وطيبيا إلى طوطة ملكة نيرة. انظر: ليفي بروفنسال، إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر، ص ١١٢.

(٦٨) في معركة وادي آره عام ٤٠٠ هـ = ١٠١٠ م قتل يهودي، وكان وزير الملك المسيحي، البيان المغرب ٩٨/٣، وابن شاليب اليهودي وزير ألفونسو السادس معروف جدا في المدونات العربية، وكان مكلفا بقبض الجزية التي فرضها الملك المسيحي على المعتمد أمير إشبيلية، عمال الأعلام ١٥٩، ونفخ ٤٣٩/١ و ٢٤٦/٤ و ٣٥٨/٤، وتقول الرواية في هذا المصدر الأخير أن المعتمد غضب ولم يحتمل فأخذ بحيرة كانت بين يديه وضرب بها رأس اليهودي فأنزل دماغه في حلقة. ونحن نعرف ما حدث في هذه السفارة. وهي أن أمير إشبيلية اغتاض من لهجة ابن شاليب المتعجرفة، والذي لم يكن في نهاية الأمر غير ناقل لأوامر ألفونسو السادس، والذي كان مزهوا باستيلائه على طليطلة، فأمر المعتمد بقتل اليهودي، وقد أدى هذا السلوك المتسرع إلى تدافع الأحداث، وعجل بتدخل المرابطين.

وكان لحلف ألفونسو السادس، وتسميه المدونات العربية ألفونسو ملك نصارى طليطلة، وزيان يهوديان، يسمى أولهم إبراهيم بن الفخار اليهودي، وكان شاعرا مجيدا في العربية ومدح أميره بأبيات لم يقلل من شأنها كبار شعراء المرابطين، كما أن سيده أرسله سفيرا إلى المرابطين، أو إلى ملوك المغرب بحسب تعبير المقرئ، نفخ ٥٢٧/٣، وابن ليون، لمح السحر، مخطوطة الرباط الورقة ٦٤ وجد. والثاني يدعى حنين اليهودي، وهو الذي دفع ألفونسو عام ٥٢٨ هـ = ١١٣٤ إلى اقتلاع البليتين اللتين في طليطلة لمعرفة سرهما. نفخ ٢٠٦/١.

(٦٩) نفخ ٥٣٠/٣.

وكان أبو الفضل بن حسداى في سرقسطة نديم المقتدر وصديقا له، وأوقف عليه عددا من قصائد المديح أوردتها لنا الفتاح بن خاقان في كتابه قلاند العقير^(٧٠)، وظل كاتباً ووزيراً للمؤمن الذى خلف المقتدر، وعندما زوّج المؤمن ابنه لمستعين من ابنة وزير بلنسية أبى بكر بن العزيز كان أبو الفضل هو الذى تولى تحرير الدعوة التى دجّجت إلى أكبر شخصيات إسبانيا^(٧١). ولكن بالرغم من مكانته الفكرية لم يستطع إبداء أن يحتل الوظائف التى يشغلها أمثاله من المسلمين، لأن صفته ذمياً كانت تمنعه من ذلك^(٧٢). وكان هذا بلاشك هو الذى دفعه إلى اعتناق الإسلام، وليس عشقه جارية مسلمة كما تشير إليه بعض المدونات العربية^(٧٣)، ومع ذلك، ظل أصدقاؤه من العرب، رغم اعتناقه الإسلام، يحبون أن يداعبوه بهذه القصة، فيروى أنه «كان في مجلس المقتدر بن هود ينظر في مجلد، فدخل الوزير الكاتب أبو الفضل بن الدباغ، وأراد أن ينسّر به، فقال له، وكان ذلك بعد إسلامه: يا أبا الفضل، ما الذى تنظر فيه من الكتب، لعله التوراة؟ فقال: نعم، وتجليدها من جلد -بغ- من تعلم، فمات خجلاً وضحك المقتدر»^(٧٤).

أما الآن وقد أصبح مسلماً فإن طوحه بلغ به أعلى المتأصب، مما أثار عليه كراهية زملائه القدامى الذين تخلى عنهم، فبعث إليه ابن الدباغ نفسه رسالة قاسية ينصحه فيها بأن يظامن من غلوائه^(٧٥). ومن المؤكد أن ابن حسداى وعي نصيحة صديقه، لأن علاقاته، رغم المداعبات البريئة التى كانت تتخللها، استمرت كما كانت عليه في الماضى، في جو من الصراحة والمحبة إلى جانب الثمراء الذين كانوا يحتفظون بالمحبة لكلا الطرفين.

وإلى جانب اليهود الذين اشتهروا في مجال الأدب والشعر يجب أن نفسح مكاناً لأوثك الذين لم يقولوا الشعر في العربية أبداً، ولكنهم دفعوا الذين حولهم إلى قوله، سواء كان مدحاً أم نقداً، وهكذا فإن يهودياً لطيفاً ألهم ابن الزقاق من جزيرة شقر أن يقول هذه الأبيات:

وحبّ يوم السبت عندي أننى ينادمنى فيه الذى أنا أحببت

● كان ذلك زمن تأليف الكتاب، أما الآن فقد طبعت النسخة كاملة (المترجم).

(٧٠) القلاند ص ١٨٤ و ١٨٦، وانظر فيما سبق ص ١٨٩ - ١٩٠ من هذا الكتاب.

(٧١) ابن خاقان، المصدر السابق ص ٦٧ و ١٨٤ - ١٨٥ وعنه نقلها نفع ٦٤١/١.

(٧٢) القلاند ١٨٤، وقد خصص الطرصوصى كل الفصل الثانى من كتابه سراج الملوك ليظهر أن المسئولية يجب ألا يعهد بها لغير المسلمين. وأوضح المؤرخ ابن سعيد أن وظيفة كاتب الزمام، وهو المختص بتسجيل الضرائب لا يمكن أن يتولاها في إسبانيا وأفريقيا الشمالية نصراني ولا يهودى البتة. النفع ٢١٧/١، وانظر فيما سبق ص ٨٢ الهامش ١٠٥ من هذا الكتاب.

(٧٣) الذخيرة ٤٥٨/٣، وتوجد في نفع ٤٠١/٣.

(٧٤) نفع ٤٠١/٣.

(٧٥) يقول ابن الدباغ في رسالته: «كنت عهدتك لا تمتنع من ملاحمة من يداعبك، ولا تنقبض عن مراجعة من يخاطبك، فمن أين حدث هذا تعالى، وما سبب هذا التعالى سرفتي جعلت فداك، ما الذى عراك، ولعلك رأيت الحضرة قد خلت من قاض قطمعت في القضاء، وجعلت تأخذ نفسك بأهيت، وترشح لرتبت، وأنت الآن لاشك ستفقه في الأحكام، وتتطلع شريعة الإسلام، وهيك تحليت بهذا السم، وتهايت لذلك الدست، ما تصنع في قصة السبت، دع التخلق ورجع إلى أخلاقك، وعدّ في إطراقك، وتجاهل ما قبلك جاهل، وتحامق مع الحمقاء وأنت عاقل، فلا تمتنع لذة الاسترسال، ولا تتبع الدنيا بجذ منك في سائر الأحوال، فإ أشبه إدبارها بالإقبال وكثرتها بالإقلال»، القلاند ١٠٨. وعن الأسطورة التى يتحول فيها يهود قرودا انظر فيما سبق ص ٢٢٠ من هذا الكتاب.

ومن أعجب الأشياء أنى مسلمٌ حنيفٌ، ولكنَّ خير أيامي السبت^(٧٦)

وقد أثار وزيراً بنى زيرى أمراء غرناطة اليهوديان بخاصة أكبر ردِّ فعل قوى في الأوساط الأدبية في جنوب شبه الجزيرة للأهمية التي بلغها في إدارة شئون الدولة، ويدهشنا كثيراً أن نرى يهودياً مثل صمويل بن النغرة يتمتع بمنزلة عالية في بلاط أمير مسلم مثل حبّوس بن ماكسن، ولم يصل حسداى ابن شبروط، رغم المكانة التي تمتع بها إلى جوار عيد الرحمن الناصر إلى مثل هذه الدرجة من النفوذ والقوة أبداً، معترف بها رسمياً ويقرُّ بها الجميع، والمثل الذي نجده في أبي الفضل بن حسداى، وعرضنا له من قريب، يظهر أن غير اليهود، وتحركها طموحاتهم، كانت موضع استنكار المسلمين. ويجب أن نوضح هنا أن أمراء غرناطة الصنهاجيين كانوا، دون شك، لا يثقون كثيراً في العرب لكي يسمحوا لهم بالعمل في وظائفهم^(٧٧).

وفياً يبدو من الضروري أن نبحث في جانب آخر عن هذه الثقة التي تمتع بها أعضاء أسرة النغرة لدى بنى زيرى، ولعلها توجد في الخدمات التي كانوا يقدمونها بوصفهم ماهرين في تدبير المال إلى الأسرة المالكة، وكانت تتخطى، شأن آخرين كثيرين في العصر نفسه، في مشكلات مالية صعبة، وهو ما يبرر، في جانب، سياستهم اليهودية^(٧٨) ولكن لا تفسرها تماماً، وربما ألح الشعراء إلى السبب الحقيقي، فابن عمار يمدح المعتضد عدو البربر اللدود في أبيات ذات طابع متميز:

شقيتُ بسيفك أمةً لم تعتقدْ . إلا اليهود وإن تسمتْ بربراً^(٧٩)
ويقول في قصيدة أخرى في مدح المعتضد أيضاً:

لك الله إن كانتْ عدائُك بعضها لبعضٍ فكلُّ منهم جميعاً إلى فردٍ
يهوداً وكانتْ بربراً فانتضِرِ الظبي وأنبتهم منها بالسنةِ لد^(٨٠)
وربما كانت هناك صلات أسرية، وأن بعض النساء اليهوديات: أخوات صمويل، أو بنات عمه، أو بناته، كنَّ يكنَّ جانباً من حريم زاوى وباديس، لا عشيقات وإنما زوجات شرعيات.
وهو ما يفسر لنا خير من أى سبب آخر القوة التي وصل إليها صمويل بن النغرة، فعن طريق هذه الصلة الأسرية سيطر على عائلة الأمير الحاكم، وبالتالي يمكن اعتباره سيداً من بربر المملكة. وقد استطاع بسياسته الحكيمة أن يكسب الشعراء العرب إلى جانبه، وأن يصبح نصير الأدب، وأن يسخو على أهله، ولم يتردد هؤلاء في أن يرتفعوا به إلى مرتبة عاهل غرناطة الحقيقي.
ونعرف أن أبا أحمد عبد العزيز بن خيرة القرطبي المعروف باسم المنفقل، واعتنق اليهودية سرّاً،

(٧٦) من الطويل، نفع ١٩/٤، ٣٠٠، والمجلة ١٠٦/٢، أبحاث ط ١ ص ١٧٧، وتصويبات ١٠٤، وترجمة غرسة غوث، ابن الزقاق ص ٨٩.

(٧٧) هذه الأسباب أوردها دوزى في تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ١٩ - ٢٠.

(٧٨) انظر مذكرات الأمير عبد الله، النص العربي ص ٣٨، الترجمة ص ٥٢، وفي مجلة الأندلس المجلد ٣، ١٩٣٥، العدد ٢، ص

٢٦٥ - ٢٨٤.

(٧٩) من الكامل، القلائد ٩٧، المعجب ص ١١٦، ترجمة فنيان ٩٨، وتاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ٦٣ هامش ١.

(٨٠) من الطويل، انظر: القلائد ٨٨ و س. مونك في A. (السلسلة ٤، المجلد ١٦، ١٨٥٠، ص ٢١٤.

يَجِدُ فضائلهم وسخاءهم في رسالة مسجوعة أولاً^(٨١)، ثم في شعره أخيراً، وإليك أكثر قصائده تمثيلاً لهذا الاتجاه:

وَمَنْ يَكُ مُوسَى مِنْهُمْ ثُمَّ صُنُوهُ
فَكَمْ لَمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ آيَةٍ تَرَى
أَجَامِعَ شَمَلَ الْمَجِيدِ وَهُوَ مُسْتَت
فَضَلْتَ كِرَامَ النَّاسِ شَرْقًا وَمَغْرِبًا
وَلَوْ فَرَّقُوا بَيْنَ الضَّلَالَةِ وَالْهُدَى
وَلَا سَتَلَمُّوا كَفِّكَ كَالرَّكْنِ زُلْفَةً
وَقَدْ فَزَتْ بِالْدُنْيَا وَنَلَتْ بِكَ الْمُنَى
أَدِينُ بَدِينِ السَّبْتِ جَهْرًا لَدَيْكُمْ
وَقَدْ كَانَ مُوسَى خَائِفًا مَتَرَقِّبًا

فَقُلْ فِيهِمْ مَا شِئْتَ لَنْ تَبْلُغَ الْعُشْرَا
وَكَمْ لَمْ فِي النَّاسِ مِنْ نِعْمَةٍ تَتَرَى
وَمُطْلَقَ شَخْصِ الْجُودِ وَهُوَ مِنَ الْأَسْرَى
كَمَا فَضَّلَ الْعَقِيَانِ بِالْخَطَرِ الْقِطْرَا
لِمَا قَبِلُوا إِلَّا أَنَا مَلِكٌ لِعُشْرَا
فِيمُنَاكَ لِلْمُنَى وَبُسْرَاكَ لِلْيَسْرَى
وَأُطْمِعُ أَنْ أَلْقَى بِكَ الْفَوْزَ فِي الْأُخْرَى
وَإِنْ كُنْتُ فِي قَوْمِي أَدِينُ بِهِ سِرًا
فَقِيرَا وَأَمَنْتُ الْمَخَافَةَ وَالْفَقْرَا^(٨٢)

وعندما أورد ابن بسام هذه لأبيات قدّم لها بالكلمات التالية: «وله في هذه القصيدة من الغلو في القول مانبراً منه إلى ذى القوة والحول». ورأى ناسخ مخطوطة باريس أنه من الضروري أن يكتب في الهامش أمام البيت السابع: «أعوذ بالله من غمزات الشياطين».

وبعد وفاة حبّوس تولى ابنه باديس الإمارة خلفه له، واستمرت ثقته في صمويل، وعندما توفي هذا خلفه ابنه يوسف، وتولى المنصب بوصفه رئيساً للوزراء.

وعلى حين كان صمويل هادئاً ومتواضعاً وطيباً جاء ابنه يوسف على النقيض منه: متكبراً ومتعجرفاً، وقد دفعته الثروة الطائلة التي جمعها والده، وزادها نفسه، إلى أن يضر طموحاً أكبر، يتجاوز الرغبة في السيطرة على الأمير: نَ يَصْبِحُ أميراً بدوره! ويلمح المؤرخون العرب، وربّما مدفوعين بتعصبهم الديني، إلى أنه فكّر في إزاحة باديس عن الإمارة، ومبايعة المعتصم أمير المرية أو أحد أبنائه ملكاً على غرناطة، وتعيينه ملكاً على المرية التي سوف تصبح عاصمة دولة يهودية.

من الصعوبة بمكان أن نتصور تحقيق مثل هذه الخطة إذا كانت قد دارت بخاطر يوسف يوماً، إذ كيف يصبح ملكاً على المرية في حين أن الجالية اليهودية تتركز في غرناطة وماحولها؟ ذلك شيء لا يمكن تصديقه. ومع ذلك فإن سلسلة الأحداث التي توالى تبجلنا نعتقد أن الاتهامات التي وجهت إلى يوسف بأنه حاول أولاً أن يعيد باديس عن أية طموح في الحكم الفعلي، ولهذا فعل كل ما في طاقته لكي يدفعه إلى حياة الفسق والفجور، لم تكن كلها كاذبة. وكان أنصاره يشغلون كل المناصب في القصر، وهي دون شك اللحظة التي هرب فيها كل الشعراء والأدباء العرب من غرناطة، لا خوفاً من باديس وإنما لأن

(٨١) الذخيرة ٧٦١/١.

● ليس في حياة المنفلت مايشي بأنه اعتنق اليهودية، وكل ما هنالك أنه أشار في بيت شعر، كمادة الشعراء يقولون ما لا يفعلون، أنه يدين بدين السبت جهراً لدى اليهود، وسراً بين المسلمين، وجاء هذا في قصيدة يمدح بها صمويل بن النفرلة، وأورد المؤلف تسعة أبيات منها، ولم يتكرر له هذا المعنى في أية قصيدة أخرى (المترجم).

(٨٢) الذخيرة ٧٦٥/١، ولم نترجم منها غير تسعة أبيات الأخيرة. وأنظر أيضاً: تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ٢٠ حيث توجد ترجمة ستة أبيات التي قبل الأخيرة.

يوسف ، وقد خشى أن يفضحوه ، أصدر حكمه بنفيهم ، ووقع بادييس الأحكام وعيناه مغمضتان ! .
 وكان حاجب الأمير يهودى إعتنق الإسلام ، هو ابن القروى الأسلمى ، واتخذ هذا كاتباً له من
 الأندلسيين يدعى أبا الحسن ، أو أبا الحسين ، بن الجدد ، ومن المهم أن نلاحظ أفكار هذا الأخير وسمح
 لنفسه بأن يتوجه بها إلى سيده ، وفيها يلومه على طول غيابه بسبب إهماله في الملذات :
 أمسك عنيّ إن ركبت قليلاً واسمع وإن كان الحديث طويلاً
 عزّل وولّ ففى حديثك آية^(٨٣) لو أن قومك أحسنوا التأويلاً
 هلاً عذرت علي البطالة أهلها ورأيت رأياً في المدام أصيلاً
 هي ما علمت فإن عرتك جهالة فاستفسرن عن سرّها الإنجيلاً^(٨٤)

وأورد ابن بسام أبياتاً أخرى تصور اليهود بعامة وصمويل بخاصة ، وكان هذا ، طبقاً لابن بسام ،
 أعور :

تحكمت اليهود على الفروج وتاهت بالبغال وبالسروج
 وقامت دولة الأنذال فينا وصار الحكم فينا للعلاج^(٨٥)
 فقل للأعور الدجال هذا زمانك إن عزمت على الخروج^(٨٦)

ولكن يوسف كان واثقاً من نفسه ، وطبقاً للمؤرخين العرب سمّ الشاب بلقين الذى اعترف به
 بادييس ولياً لعهد ، ولكنه بفضل توطئه مع الآخرين استطاع أن يبرئ نفسه أمام عيني سيده .

وبعض الشعراء كانوا يتملقونه مثل ابن القراء ، واسمه الحقيقي الأخفش بن ميمون :
 صايح محياه تلقى النجى فى الأمل وانظره بناديه حُسن الشمس فى الحمل^(٨٧)
 ما إن يلاقى خليل فيه من خلل وكلما حال صرف الدهر لم يحل^(٨٨)
 هذا التملق الوضع لم يكن يبعث الثقة في نفوس عرب المملكة ، ولا في بربرها أيضاً ، وتلقى بادييس
 بعض التحذيرات مما يحدث ، على الرغم من رقابة رئيس الوزراء . ويبدو أن أبا إسحاق الإلبيري
 التنجيسى ، وهو عربى الأصل ، وأبعده عن البلاط لأنه أدرك طموحات يوسف ، وبذل كل جهده لكي
 يحدث ردّ فعل ضد تأثير اليهودى على أسرة بنى زيرى .

(٨٣) يتلاعب الشاعر هنا تورية بكلمتي «حديث» و «آية» .

(٨٤) من الكامل ، الذخيرة ٥٦٢/٢ ، وفيها إشارة واضحة إلى سر استحالة الخمر والخبز إلى دم المسيح ولحمه . انظر فيما يأتي
 ص ٤٠٦ من هذا الكاتب والهامش رقم ١٦٦ .

(٨٥) يقول ابن شهيد في رسالة له إلى الوزير ابن عباس : «فيبحث عن طراً عليك من الأنذال (= اليهود) وحل بساحتك من
 الأعلاج (= النصارى)» . الذخيرة ٢١٤/١ .

(٨٦) من الوامر الذخيرة ٥٦٢/٢ .

(٨٧) عندما تدخل الشمس في برج الحمل ، أى في اعتدال الربيع ، يبلغ لمانها غايته . انظر : موتيلينسكى ، مساح العرب القمرية ،
 رقم ٦ و ٨ ، ص ٧٢ و ٨٢ ، والطفراني ، لامية المعجم ، البيت ٣٦ ، طبعة دى رو ، ص ٢٣ من النص العربى ، وص ٥ من الترجمة .
 (٨٨) من البسيط . نفع ٣٨٧/٣ ، وس . مونك في المجلة الآسيوية . السلسلة الرابعة ، مجلد ١٦ ، ١٨٥٠ ، ص ٢٢٢ .

ولم يتأخر رد الفعل هذا في أن يؤتى ثماره، ومع الزمن كان يوسف يبدو كل يوم شيئاً أكثر لا يحتمل لترفه وغطرسته، وحتى إلحاده. وثمة حدث لم يقع منذ زمن طويل احتل مكانه الآن: تَهَرَّب الشعر عزائم الخائفين، وأيقظ خلود الغافلين، وأثار حركة شعبية تحت خلال ساعات قلائل سلطة كانت باللغة الخوار، ولأن أبا إسحاق لم يستطع أن يصل إلى باديس اتجه إلى صنهاجة. هل يستطيع هؤلاء البربر أن يفهموا الشعر العربي؟ ربما كان محتملاً أنهم لا يستطيعون التقاط معاني كل الكلمات تفصيلاً، لكنهم على الأقل يفهمون الفكرة العامة التي يريد الشاعر أن يعبر عنها. ومن الحق أن نقرر أنه عبر في براعة مدهشة عما أراد أن يقوله، بأبيات قصيرة، ذات إيقاع سهل، ومن خلال كلمات يفهمها أنى مسلم حفظ القرآن أو درسه، وحتى الأفكار التي عبر عنها من تلك التي يمكن أن يتقبلها الشعب بسهولة:

فَعَزَّ الْيَهُودُ بِهِ وَاتَّخَوْا	وَتَاهُوا وَكَانُوا مِنَ الْأَذَلِّينَ
وَنَالُوا مِنْهُمْ وَجَازَوْا الْمَدَى	فَحَانَ أَهْلَاكَ وَمَا يَشْعُرُونَ
.....	
وَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ فِي وَحْيِهِ	يُحَذِّرُ مِنْ صَحْبَةِ الْفَاسِقِينَ

واليك بعض الأفكار البسيطة جد التي استمدتها الشاعر الهجاء من الدين في المقام لأول، ونلاحظ أنها تقنع سامعيه على نحو أفضل، مستخدماً وقائع محدّدة تمس الحياة المادية، الأكثر التصاقاً بفكر الشعب البربري، في كفاحه اليومي من أجل لفظة العيش:

وَقَدْ قَسَمُوهَا وَأَعْمَلُهَا	فَمِنْهُمْ بِكُلِّ مَكَانٍ لَعِينٌ
وَهُمْ يَقْبِضُونَ جَبَايَاتِهَا	وَهُمْ يَحْضُمُونَ وَهُمْ يَقْضُمُونَ
وَهُمْ يَلْبِسُونَ رَفِيعَ لَكْسَا	وَأَنْتُمْ لِأَوْضَعِهَا لَا يَسُونَ
وَهُمْ أَمْنَاكُمْ عَلَى سِرْكُمُ	وَكَيْفَ يَكُونُ خُزُونُ أَمِينٍ
وَيَأْكُلُ غَيْرَهُمْ دَرَهْمًا	فَيَقْصَى وَيُدْنُونَ إِذْ يَأْكُلُونَ
.....	

وَرَحِمَ قَرْدُهُمْ دَارَهُ	وَأَجْرَى إِلَيْهَا غَيْرَ أَعْيُونِ
فَصَارَتْ حَوَائِجُنَا عِنْدَهُ	وَنَحْنُ عَلَى بَابِهِ وَلَقْفُونَ
وَيَضْحَكُ مِنَّا وَمِنْ دِينِنَا	فَأِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاجِعُونَ
وَلَوْ قُلْتُ فِي مَالِهِ إِنَّهُ	كَمَالِكَ كُنْتُ مِنَ الصَّادِقِينَ
فَبَادِرْ إِلَى ذُبْحِهِ قُرْبَةً	وَضَحِّ بِهِ فَهُوَ كَبِشٍ سَمِينٍ
وَلَا تَرْفَعْ الضَّغْطَ عَنْ رَهْطِهِ	فَقَدْ كَنْزُوا كُلَّ عَلَقٍ ثَمِينٍ

وينتهي الشاعر من هذه الأبيات بتبرير قتل يوسف ونهب أمواله:

وَلَا تَحْسَبَنَّ قَتْلَهُمْ غَدْرَةً	بَلِ الْغَدْرُ فِي تَرْكِهِمْ يَعْبَثُونَ

وثمة فكرة عليا توجه بها إلى باديس بخاصة:

فَلَا تَرْضَ فِينَا بِأَفْعَالِهِمْ	فَأَنْتَ رَهِينٌ بِمَا يَفْعَلُونَ

وراقب إلهك في حربه فحزب الإلاه هم الغالبون^(٨٩)
لا يبدو أن باديس تأثر بهذا التحذير^(٩٠)، ولكن ردّ الفعل عند بربر صنهاجة كان عنيفا، وبعد أيام من هدوء ظاهري، كانت أبيات الشعر خلالها تنتقل من بيت إلى بيت، ومن قم إلى قم، وموضع التعليق من وجوه مختلفة، ولكن دائما بطريقة ليست في صالح يوسف ولا اليهود، وأصبح يقال عنهم الآن علانية أنهم كانوا ينتون إقامة مملكة يهودية، وانطلقت حركة ذبح اليهود من عقالها.
تجمع البربر ثائرين أمام أبواب قصر يوسف، واقتحموه مسرعين وبحوثا عن يوسف، وكان قد تخفى في قبو متكررا في ثياب قدرة، ثم وجدوه وقتلوه. وكان هذا بمثابة دعوة إلى السلب والقتل في المدينة، ويقال أن ثلاثة آلاف يهودي قتلوا في هذا اليوم، وانفجر تعصب العامة هذا في يوم ٩ صفر ٤٥٩ هـ = ٣٠ ديسمبر ١٠٦٦ م^(٩١). ولكنها انتهت بانتهاهه ولم تمتد إلى اليوم التالي، لأن البربر كانوا باختصار يكرهون يوسف وحده، أما اليهود فواصلوا حياتهم كما كانوا يعيشون قبلا في مقاطعة غرناطة، دون أن يبحثوا فيها تلا ذلك عن مناصب ذات مكانة عالية.



كان المستعربون مع اليهود يكونون جانبا من الشعب في إسبانيا الإسلامية، ويطلق عليهم المسلمون سم «أهل الكتاب» أو «أهل الذمة».

ولم يقطع المولدون، وتحدثنا عنهم فيما سبق، كل صلاتهم مع رفاقهم القدامى في الدين، والذين ظلوا على مسيحياتهم، ونعني بهم المستعربين، وعلى التقيض كل الدلائل، فيما يبدو، تشير إلى الجانبين واصلوا التعامل والعيش كما كانوا يفعلون في الماضي، في صلات يومية مستمرة، وبخاصة في المدن الكبرى. وهذه الحياة المشتركة تسمح لنا أن نفهم على نحو أفضل تسامح المسلمين الإسبان إزاء الجماعات المسيحية الإسبانية. وفي الحق لا يوجد في أي مكان آخر شعب منهزم عومل بمثل هذه الإكرام في تنفيذ الاتفاقيات الخاصة بالتسليم، وفي تطبيق الشريعة الإسلامية المتصلة بالذميين. وكان هناك إسبانيون في كل مكان: حول الأمير، حيث الإسبانيات زوجات شرعيات أو عشيقات، وكرقيق أو موال، وفي الجيش. جنودا مرتزقة، وفي بعض الحالات كانوا قوادا^(٩٢).

(٨٩) من لتقارب، الديوان، القطعة ٢٥، ص ١٥١ - ١٥٣، وأبحاث ط ٣، النص في ج ١ ملحق ص ٦٣ - ٦٨، والترجمة ص ٢٨٦ - ٢٨٩، وأعمال الأعلام ص ٢٣١، ونفع ٣٢٢/٤، وتاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ٧١ - ٧٢ والمصادر المذكورة هناك.

● وانظر أيضا كتابنا: دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة، ط ٣ ص ٥٠ - ٧٣، دار المعارف القاهرة ١٩٨٧، وغرسيه غومت، مع شعراء الأندلس والمنتنى، ترجمة الطاهر أحمد مكي، ط ٥ ص دار المعارف، القاهرة ١٩٨٨. (لترجم).
(٩٠) من لالت للنظر أن الأمير عبد الله لم يشر ولا مرة واحدة إلى قصيدة أبي إسحاق في كتابه التبيان (= مذكرات الأمير عبد الله).

(٩١) انظر: تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ٧٣ - ٧٥، والمصادر المذكورة هناك، ودائرة المعارف الإسلامية، المجلد ٤ ص ١٣٠٠ - ١٣٠١، مادة بنو زيري في إسبانيا، وكتب المادة ليفي يروفسال.

(٩٢) يمكن البرهنة أيضا على أنه في عصر ملوك الطوائف، كما في عصر الفتنة، كان هناك قواد مسيحيون في جيوش الأمراء المسلمين الإسبان. ويتحدث المؤرخون العرب عن شخص يدعى راندو عهد إليه المظفر من بني الأفطس بقيادة قلعة قلعية، ولكن خيائنه سمحت لفرناندو الأول أن يحتل هذه القلعة الحصينة. انظر: البيان ٢٣٨/٣، وأعمال الأعلام ١٧٨، ويبقى سؤال: هل

وكان يقوم على تطبيق القانون بين المدعين قضاة هم أقارب لهم أحيانا، قرابة دانية أو بعيدة، ومن ثمَّ يمكن أن نستنتج أنه في ظل نظم يتمتع بحرية واسعة استطاع المسيحيون حتى في المراكز الحضرية الكبرى أن يقاوموا التلاشي مهما كان ارتباطهم بتقاليدهم الدينية والاجتماعية واهيا ولدنيا وثائق لا تينية وعربية تؤكد وجود هذه الجاليات، وحريتها في ممارسة شعائرها الدينية^(٩٣).

ونلاحظ أن أبا الوليد بن جهور عيَّن خلال حكمه ابن زيدون في قرطبة «لنظر على أهل الذمة في بعض الأمور المعترضة»، ولم يوضح لنا المؤرخون طبيعة هذه المهمة^(٩٤).

ونعرف الامتياز الشهير الذي منحه على بن مجاهد أمير دانية لجميع كنائس إمرته، وتتضمن أسقفيات الجزائر الشرقية (ميورقة ومنورقة) ودانية وأوريولة، بأن يجتمعوا عند أسقف برشلونة عام ١٠٥٨ م، وأن كل رجال الدين في إمارته يجب أن يخضعوا في المستقبل لأوامر أسقف برشلونة، وأن يتلقوا منه وحده «الزيت المقدس» والأوامر الدينية، وأيضا قرارات تعيينهم في وظائفهم الرهبانية^(٩٥). ومثل هذا القرار لا يجب أن يدهشنا، لأن على بن مجاهد ربته أمه على المسيحية خلال مدة أسرها الطويلة، ولم تعتنق الإسلام إلا بعد أن نضجت وعادت إلى والده مجاهد، ولكنها ظلت طوال حياتها مسيحية أكثر منها مسلمة^(٩٦).

وقد أخذ المستعربون خلال «الفتنة» جانب الحزب الأندلسي، ضد البربر صراحة، وجعلوا غايتهم واحدة مع مواطنيهم المسلمين، وهم إسبان مثلهم، رغم الخطر الذي كان يتهددهم لأنهم لم يظلوا على الحياد، وسعدوا أيضا برؤية اقشمتالين والقطلان يتدخلون في الصراع لصالح الخنفة، ولو أنهم تلقوا في شيء من الخوف شركاءهم في الدين هؤلاء، فقد كانوا ذوى فضائل حربية، ولكهم فوضيون إلى حد ما. ومع ذلك، فعندما انسحبت القوات المسيحية بعد معركة قنتيش ووادي آره، لم يكن المسلمون وحدهم في قرطبة، فبما نعتقد، هم الذين أسفوا على عزلتهم المؤقتة^(٩٧).

رأبده المشار إليه هو سيساندو والذي يعد ن ترك خدمة المعتضد صبح حاكما لقلعرية مع فرناندو الأول؟، انظر: تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ص ٩ هامش ٢، وسيمونيت، تاريخ المستعربين ٦٥٥ - ٦٥٧، ومينديث بيدال، إسبانيا في عصر السيد، ص ١٠٠ و ١٦١ و ٧٢٣. وحالة السيد القنيطور، وكان يقاقل إلى جانب الأمراء المسلمين حيناً وإلى جانب الأمراء المسيحيين حيناً آخر، حية في ذاكرتنا ليكون من الضروري الحديث عنها هنا. انظر بخاصة: مينديث بيدال، إسبانيا في عصر السيد. ● قلت: في مقدمتي لترجمة ملحمة السيد درست حياته ونشاطاته المختلفة دراسة وافية، وفي ظني أنها الترجمة الأولى والوحيدة حتى الآن، كما أن الدراسة أوفى بحث كتب عنها في العربية، انظر: ملحمة السيد، الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٣. (المترجم).

وكان في جيش المعتمد الذي هاجم قرصة ٤٦١ هـ = ١٠٦٨ م، فرقة من الجنود المسيحيين يقودها عدد من لقواد الكبار، وربما كانوا من الموالي، وأحدهم اسمه أخذ شكلا عربيا كاملا: خلف بن نجر، والثاني احتفظ باسمه الإسباني محمد بن مرتين، وكلاهما اشترك في المعارك كجنود محترفين، نظر: أعمال الأعلام ص ١٤٩ و ١٥٠ و ١٥٨.

(٩٣) سوف نكتفي بالرجوع إلى المصدر التالية: سيمونيت، تاريخ المستعربين، ومينديث بيدال، أصول إسبانيا. وجونثال بالثنيا، مستعربو طليطلة، وليفى بروفنسل، إسبانيا في القرن العاشر وغيث مورينو، كنائس المستعربين. وسانتشيث البرنس، صور الحياة في ليون منذ ألف عام.

(٩٤) ابن الأبار، إعتاب الكتاب ص ٢١٢ - ٢١٣، وسيمونيت، تاريخ المستعربين ص ٦٤٩ والهاش ٢.

(٩٥) سيمونيت، المصدر السابق ٦٥١ - ٦٥٢.

(٩٦) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص ٢١٩، والذكرى الثوية لميشيل أمارى ١٣٢/٢.

(٩٧) تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٢ ص ٢٩٩.

ومنذ هذه اللحظة بدأت العلاقات السياسية بين مسيحيي الشمال والمستعربين والإسبان المسلمين تأخذ شكلاً متواصلاً. وقد سَلَّم عبد الرحمن شنجول، ابن المنصور وخليفته الثاني، قيادة جيشه إلى مسيحي، وبيث إليه بصلة القرابة من ناحية أمه، ومنه تلقى النصح بأن يسير نحو قرطبة ضد ابن عبد الجبار^(٩٨)، أى المهدي.

فيم يختلف شنجول المسلم عن خاله المسيحي؟ في أشياء قليلة جداً. وهؤلاء الأمراء الذين يرتبطون بالمسيحيين عائلياً، ولكنهم يختلفون ديناً، لم يكونوا يتعاونون إلا في تطبيق سياسة الأخوة الأعداء: الأقوى ينهب الأضعف، ويجعل هذا يدفع ثمن الخدمات التي أدت إليه. ونعرف الاتفاقات التي تمت في تلك الأيام بين هشام المؤيد ويقوده واضح الصقلي من جانب، وبين شنجول ويساعده ابنه من جانب آخر، ومعهم المسيحيون، وقد استولى هؤلاء على أكثر من مئتي قلعة على الحدود^(٩٩). ويقول دوزي: ومن هذه اللحظة تغير كل شيء، ومتى؟ في شهور قليلة!، ولم يعد المسلمون هم الذين يفرضون القوانين على الأمراء النصاري، وإنما على العكس، كان كونت برشلونة المسيحي هو الذي يقرر مصير إسبانيا العربية^(١٠٠).

إن المعلومات الاجتماعية عن المسيحيين، المستقلين منهم في الشمال أم الذين يخضعون للحكم الإسلامي لا نستمدّها من الشعر بخاصة. ويمكن القول بعامّة أن شعراء القرن الحادي عشر الميلادي تجنبوا استخدام كلمة عِلج، في تسمية المسيحيين الأسرى^(١٠١). ويجهلون تماماً كلمة مستعرب، والتي أخذت في الإسبانية صورة Mozárabe^(١٠٢)، ويطلقون على المسيحيين الذين توجه إليهم الحملات اسم النصاري، أو الكفار، أو أهل الكفر، أو المشركين، عندما يكون الحديث بصدد الجهاد. أما الكلمة الأكثر شيوعاً لتسمية المسيحيين المستعربين أو مسيحيي البلاد الأجنبية فهي عجم، ويحیی معناها في مواجهة كلمة عرب، وهي تطلق على العرب لأنهم يتكلمون العربية بوضوح، وأما أولئك، أى العجم، وكل الأجانب، فهم الذين لا يفصحون في كلامهم، وهو نفس ما فعله الإغريق، فقد كانوا يطلقون على هؤلاء اسم بربروس Barbaros. وفي إسبانيا كانت كلمة عجم تطلق بمعناها الواسع على غير عرب الجزيرة، وبمعناها الضيق على غير المسلمين، أى على الإسبان المسيحيين. ولقد كان المعتضد أمير إشبيلية يطمح أن يحكم العرب والعجم:

فَبِأَن أَرَدْتُ إِلَهِي بِالوَرَى حَسَنًا فَمَلَكْنِي زَمَامَ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ^(١٠٣)

(٩٨) نحن بصدد الكونت سانتشو غرسية، انظر الأعمال ص ٦٦.

(٩٩) أعمال لأعلام ١٧٧، وتاريخ مسلمي إسبانيا ط ٢ ج ٢ ص ٢٩٤ - ٢٩٧ و ٣٠٢.

(١٠٠) تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٢ ص ٢٩٥.

(١٠١) المُرْخُون على التقیض، يستخدمونه بكثرة. انظر: نفح ٥٤٦/١، ٣٢٨/٢، و ٣٣٥ طبع أوربا. والنصاري الذين سُرهم المنصور واستخدمهم بنائين في توسعة مسجد قرطبة كان يطلق عليهم «علاج النصاري»، انظر: نفح ٥٤٦/١، و ص ٢٤٥ الماش ٨٥ فيما سبق من هذا الكتاب. وعن معنى كلمة عِلج انظر: دوزي، ملحق المعاجم العربية، وتاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ١ ص ٢٢٤ هامش ١.

(١٠٢) ليفي بروفنسال، إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر الميلادي ص ٣٥.

(١٠٣) من السيط، الحلة السراة ٤٥/٢، و «بنو عباد» ٥٢/٢، وتاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ٤٩. وقد ترجمها دوزي «على كل العرب والبربر».

وقد أرسل المعتصم وزيره أبا لأصبع بن أرقم سفيرا إلى المعتمد، فأعلن عن وصوره إليه بهذه الأبيات:

يَا مَلِكًا عَظَمَتُهُ الْعُرْبُ وَالْعَجَمُ وَوَاحِدًا وَهُوَ فِي أَثَوَابِهِ أُمُّ^(١٠٤)

وما نعرفه من تاريخ المعتمد وسببها الإسلامية بعامة في القرن الحادى عشر الميلادى يسمح لنا بأن نعتقد أن كلمة «عجم» تعنى نصارى شبه الجزيرة الإيبيرية، وليس الأجانب عامة. ويقدم لنا بيت من الشعر لأبي عمرو الداني شاهداً أزيد، ونحن نعرف كيف استقبل بالترحاب في عاصمة الثغر الأعلى، وأراد أن يعلن عرفاه على كل سكان إسبانيا، يقول:

أرُوحُ وَأَعْدُو بِهَا خَاطِبًا لَدَى سَامِعَى عَرَبٍ أَوْ عَجٍّ^(١٠٥)

فالداني، وهو مسلم إسباني لم يستطع أن يوجه الكلمة بطريقة واضحة إلا إلى سكان شبه الجزيرة^(١٠٦).

ويقدم لنا الشعراء من خلال قصص تدعم معلومات عن النصارى المستعربين أكثر أهمية من التوقيعات اللغوية التى أشرنا إليها من قريب، فهم الذين يقدمون لنا، في غيبة المؤرخين، الشواهد على حرية المستعربين في ممارسة طقوسهم الدينية وحتى التعرق في فهم العلاقات المتبادلة بين الإشباني المسلمين والنصارى.

ولا نملك شاهداً أكثر قيمة على مطلع القرن الحادى عشر من شهادة أبي عامر بن شهيد، في النص الذى أورده لنا «المطمح»، ويستحق أن نترجمه كاملاً:

«أن أبا عامر بن شهيد بات ليلة إحدى كنانس قرطبة وقد فرشت بأضغاث آس، وعُرِشت بسرور واستئناس، وقرعُ النواقيس يبهج سمعه، وبرق الحمى يسرج لَمَعه، والقس قد برز في عبدة المسيح، متوشحاً بالزنانير أبدع توشيح، قد هجروا الأفراح وأطرحوا النعم كل أطراح لا يعمدون إلى ماءٍ بآنيةٍ إلا اغترافاً من الغدران بلراح وأقام بينهم يعملها حمياً، كأنه يرشف من كأسها شفةً لَمِياً، وهى تنفخ له بأطيب عَرَف، كلما رشفها أعذب رشف»^(١٠٧)، ثم ارتحل بعد ما ارتحل، فقال:

(١٠٤) من البسيط، القلائد ٨، رينو عاد ٤٢/١، والترجمة ٩٦.

(١٠٥) من المتقارب، القلائد ١٠٣.

(١٠٦) «عجم» بمعنى المستعربين، أو إسبانيين عامة في إسبانيا، ويوجد من القرن العاشر شهادة لسان مَيَن دى لاكوجونا، تحمل تاريخ عام ٩٥٠، أصدرها قرتان جونالت، تنصل بن يدعى أورويو ويحمل صفة Zahaggeni، ومن السهل أن نردها إلى أصلها العربى وهو «صاحب العجم»، أى رئيس المستعربين. انظر: غوث مورينو، كنانس المستعربين ص ٢٦٣ - تم ١. ويقول ابن الأبار في الحلة السراء ١٥٩/١ عن عمرو بن حفصون: إنه كان قبل أن يصبح سعيد بن جودى رئيس العرب في القرن الحادى عشر: «ركن العصية للعجم والمولدين». ونظر: ليفي بروفنسال، إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر ص ٢٧ وكان يفصل في الدعاوى والخصومات بين المسيحيين قاضى النصارى أو قاضى العجم، وأخيراً فإن اللغة الإسبانية كانت تسمى لعجمية، وأخذت شكل ALJAMIA بالحروف اللاتينية.

(١٠٧) أتابيع رواية نفح الطيب ٥٢٥/١.

وَلَرُبَّ حَانٍ قَدْ شَمَمْتُ بِدِيرِهِ خَرَّ الصَّبَا مُزَجَّتْ بِصَرْفِ عَصِيرِهِ
فِي فِتْيَةٍ جَعَلُوا السُّرُورَ شِعَارَهُمْ مُتَصَاغِرِينَ تَحْشَعًا لِكَبِيرِهِ
وَالْقَسُّ مِمَّا شَاءَ طَوْلُ مُقَامِنَا يَدْعُو بَعُودَ حَوْلِنَا بِزُبُورِهِ
يُهْدِي لَنَا بِالرَّاحِ كُلَّ مُصْفَرٍ كَالْخَشْفِ خَضْرَهُ التَّمَاخِ خَفِيرِهِ
يَتَنَاوَلُ الظَّرْفَاءُ فِيهِ وَشَرِبَهُم لِسَلَافِهِ وَالْأَكُلُ مِنْ خَنْزِيرِهِ^(١٠٨)

هذه الأبيات من الشعر ذات صراحة خشنة، وربما فضيحة مقصودة، وتذهب إلى أبعد مما يظن المستشرقون بكثير، وقد أشاروا إليها دون أن يترجموها كاملة، وما أوضحه ابن عبدون في نص رسالته الذي نشر أخيرا يبرهن على أن ابن شهيد لم يبالغ، ولم يُحْمَلْ ألوان لوحته فوق ما تحتمل^(١٠٩).

وقدّم لنا الشعراء مشاهد من حب المسلمين للغلمان النصارى من أبناء المستعربين، ويؤكد لنا هذا في جانب متميز العلاقات الحميمة التي يمكن أن توجد بين الطبقتين الدنيا والوسطى في المجتمع، وهنا يجب أن نعرّج إلى مطلع القرن الحادى عشر، ونذكر حالة شاعر أعطى لنا من جانب آخر الأمثلة على هذا الحب الأشد حنانا، وهو أبو عمرو يوسف بن هارون الرمادى^(١١٠). ومرة أخرى كان ابن خاقان هو الذى احتفظ لنا بهذه الرواية:

«كان (أى الرمادى) كلفاً بفتى نصرانى استسهل لباس زُنَّارِهِ، والخلود معه فى ناره، وخلع بروده لمسوحه، وتسوّغ الأخذ عن مسيحه، وراح فى بيعته، وغدا من شيعته، ولم يشرب نصيبه، حتى حطّ عليه صليبه، فقال:

أَذْرَهَا مَثْلَ رَيْقِكَ ثُمَّ صَلَّبْتُ كَعَادَتِكُمْ عَلَى وَهْمِي وَكَاسِي
فَيَقْضَى مَا أَمَرْتُ بِهِ اجْتِلَابًا لِمُسْرُورِي وَزَادَ خُضُوعَ رَاسِي^(١١١)

ويقول الرمادى نفسه:

قَبْلَتُهُ قَدَامَ قَسَّيسِهِ شَرِبْتُ كَاسَاتِ بَتَقْدِيسِهِ
يَقْرَعُ قَلْبِي عِنْدَ ذِكْرِي لَهُ مِنْ قَرَطِ شَوْقِي قَرَعُ نَاقُوسِهِ^(١١٢)

دون شك لسنا بصدد مثل وحيد لمسلم تخلى عن عقيدته لكى يرضى فى حرية كاملة مشاعره الآثمة، وقدّم لنا أبو القاسم بن العطار مثلاً آخر:

وَسَنَانُ مَا إِنَّ يَزَالَ عَارِضُهُ يَعْطِفُ قَلْبِي بِعَطْفَةِ اللَّامِ

(١٠٨) من الكامل، المطمح ١٩٥، وعنه نقلها نفع الطيب، وانظر ايضا: سيمونيت، تاريخ المستعربين ٦٤٨ - ٦٤٩ و ٨٢١، وليفى بروفنسال، إسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر ٣٥ - ٣٦، ولم يضع ابن خاقان غير أنه أخذ الفقرة من رسالة التوابع والزوايع لابن شهيد، بعد أن أدخل عليها تعديلا خفيفا، انظر: الذخيرة ٢٦٠/١، ونقلها أحمد ضيف فى: بلاغة العرب فى الأندلس ٥٢ - ٥٣، وفى طبعة بطرس البستاني ص ١٤٢ - ١٤٣.

(١٠٩) انظر: وثيقة عن الحياة والهيات فى مدينة إشبيلية فى مطلع القرن الثانى عشر؛ رسالة ابن عبدون، نشرها ليفى بروفنسال مع مدخل ومصحح فى المجلة الآسيوية، إبريل - مايو ١٩٣٤، ص ٢٣٩ - ١٩١.

(١١٠) عن الرمادى انظر مقالنا فى دائرة المعارف الإسلامية ١١٩٠/٣ - ١١٩١.

(١١١) من الوافر، المطمح ص ٣٦٦، وعنه نقلها نفع ٣٧/٤.

(١١٢) من السريع، المطمح ٣٢١، وعنه نقلها نفع ٤٠/٤.

أَسْلَمْنِي لِلْهَوَى فَوَحَزْنَا إِنَّ بَرْزِي عِفْتَى وَإِسْلَامِي
الْحَاضِلُ أَسْهَمٌ وَحَاجِبُهُ قَوْسٌ وَإِنْسَانٌ عَيْنُهُ رَاسِي^(١١٣)

ولكن المثل الأكثر جاذبيةً يقدمه لنا أبو عبد الله بن الحداد، شاعر من بلاط المرة، وأصلاً من وادي آش، وفي حالته نحس معه بأننا في حضرة الحب لأكثر إخلاصاً، والأشد نقاءً، على نحو ما كان عليه بعض شعراء التروبادور فيما بعد ذلك. وحدث ليس بأقل أهمية أن هذه الأبيات تمدنا بمعلومات دقيقة، نبحت عنها عبثاً عند ابن شهيد، عن الطقوس المسيحية كما كان يمارسها المستعربون في وادي آش، وتعود هذه الأبيات، وسوف نذكرها فيما بعد، إلى مرحلة المراهقة في حياة الشاعر: لقد هام قلبه حباً بفتاة مسيحية من وادي آش، وكانت تحمل اسم جميلة فيما يبدو، ولكن العاشق الذي خلدها ظل يدعوها دائماً نُورَة^(١١٤):

وَبَيْنَ الْمَسِيحِيَّاتِ لِي سَامِرِيَّةٌ^(١١٥) بَعِيدٌ عَلَى الصَّبِّ الْخَنيفِيُّ أَنْ تَدْنُو
مُثَلَّثَةٌ قَدْ وَحَدَ اللَّهُ حَسَنَهَا فَتَنِي فِي قَلْبِي بِهَا الْوَجْدُ وَالْحَزَنُ
وَطَيَّ الْخَمَارِ الْجَوْنَ حَسْرُ كَأَنَّا تَجَمَّعَ فِيهِ الْبَدْرُ وَاللَّيْلُ وَالذَّجَنُ
وَفِي مَعْقَدِ الزُّنَّارِ عَقْدُ صَبَابَتِي فَمَنْ تَحْتَهُ دَعَصُ وَمَنْ فَوْقَهُ غَصَنُ
وَفِي ذَلِكَ الْوَادِي رُبَا أَنْضَلْعِي لَهُ كَنَاسٌ، وَقَمَرِيٌّ فَوَادِي لَهُ وَكُنُ^(١١٦)
وَيَدْحُهَا أَيْضاً فِي هَذِهِ الْأَبْيَاتِ:

عَسَاكِ بِحَقِّ عَيْسَاكِ	مَرِيحَةٌ قَلْبِي الشَّائِي
فَإِنَّ الْحَسَنَ تَدَ وَلَا	فِي إِحْيَائِي وَإِهْلَائِي
وَأُولَعْنِي بِصَلْبَانِ	وَرَهْبَانِ وَنَسَاكِ
وَلَمْ آتِ الْكَنَائِسَ عَنْ	هَوًى فِيهِنَّ لَوْلَاكِ
وَهَا أَنَا مَكِّ فِي بِلَوِي	وَلَا فَرَجُ لِبَوَاكِ
وَلَا أَسْطِيعُ سَلْوَانَا	فَقَدْ أَوْثَقْتِ أَشْرَائِي
فَكَمْ أَبْكِي عَلَيْكَ دُمَا	وَلَا تَرْتِينَ لِبَلَائِي
فَهَلْ تَدْرِينَ مَا تَقْضِي	عَلَى عَيْنِي عَيْنَاكِ
وَمَا يُذَكِّيهِ مِنْ نَارٍ	بِقَلْبِي نَوْرُكِ الذَّائِي؟

(١١٣) من المنرح، القلاند ٢٢٨، وعنه نقلها نفع ٢٠٢/٤.

(١١٤) الذخيرة ٧٠٤/١ وما بعدها، ونورية تصغير نوار، وهي عفة تعني خفرة وثافرة، وكانت زوجة الفرزدق، وهو شاعر مشرق من القرن الأول الهجري = السابع الميلادي، تحمل الاسم نفسه.

(١١٥) يشير الشاعر إلى قصة السامري التي وردت في القرآن الكريم، في سورة طه، الآيات ٨٥ و٨٧ و٩٥، والذي لا يستطيع أحد أن ينسى، دون أن يعاني المأس والمأسوس من الحمى، فكان يسير في الناس ويصيح فيهم إذا رأهم: لا مأس، وإلى ذلك تشير الآية: «فأذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مأس» انظر فيما بعد ص ٣٩٠ الهامش رقم ٦٩ من هذا الكتاب، وثمة إشارة إلى السامري الذي نحن بصده في شعر ابن زيدون، انظر: الديون، ص ٢٧٥، والأبيات من الرمل:

ورأوني سامرياً يُشَقِي مِنْهُ الْمَاس

● السامري أحد زعماء بني إسرائيل لما ذنب موسى لمناجاة ربه نزل السامري بني إسرائيل، ودعاهم إلى الشرك بآله، فعاقبه الله بالوحشة والافتراء، فلا يمس إنساناً إلا أدركها الحمى معاً، فكأن يتحاشى الناس ويتأدبهم إذا رأهم: لا مأس. (المترجم). (١١٦) من الطويل، الذخيرة ٧٠٨/١، وفي كتاب أحمد ضيب بلاغة العرب في الأندلس الأبيات الأربعة الأولى.

وفوق الشمس سيماك
نقنا المرتج عطفاك
ومن رياه رياءك
خبي أهواك أهواك
ك أنى بعض قتلاك^(١١٧)

حجبت سنالك عن بصرى
وفى الغصن الرطيب وفى الد
وعند الروض خذاك
نؤيرة إن قلبت فإند
وعيناك المنبتا

وفى هذه الأبيات:

رهين لوعات وروعات
وإن بقوا قبلة بغياتى
بالهضبات الزهريات
بالتفتيات العيسويات
تكس ما بين الكيسات
بين صواميع وبيعات
بالظبيات الحضريات
بين الأريطى^(١١٨) والدويحات
واجتمعوا فيه لميقات
ممسك مصباح ومنساء
بأى إنصات وإخبات
كالذنب يبغي فرس نعجات
وقد رأى تلك الظبيات
على قدود غصنيات
بحسن ألحان وأصوات
عنى وفى ضغط صبابات
تحت غمامات اللثامات^(١١٩)
ولحها يضرم لوعاتى
علقتها منذ سنيات
بل تلتطى فى كل أوقاتى
وإن أبى رجع تحياتى^(١٢٠)

قلبي فى ذات الأثيلات
فوجه نحوهم إتهم
وعرسا من عقداى اللوى
وعرجا يافتى عامر
فإن بى للروم روميّة
أهيم فيها والهوى ضلة
وفى ظباء البدو من يزدرى
أفصح وحدى يوم فصح لهم
وقد أتوا منه إلى موعدي
بوقف بين يدي أسقف
وكل قس مظهر للتقى
وعينه تسرح فى عينهم
وأى امرئ سالم من هوى
فمن خدود قمر يات
وقد تلوا صحف أناجيلهم
يزيد فى نقر يعافيرهم
والشمس شمس الحسن من بينهم
وناظرى مختلس لحها
وفى الحشا نار نؤيرة
لا تنطفى وقتا وكم زمتها
فحى عنى رشا المنحنى

لا يمكن أن ننكر أن الشاعر اتكأ، وهو يؤلف هذه الأبيات، على ذكريات من الدواوين

(١١٧) من الوافر، الذخيرة ٧٠٧/١، وفى أحمد ضيف، بلاغة العرب ص ١٨٦ - ١٨٧.

(١١٨) الترجمة تقريبية، لأن النص ليس واضحا.

(١١٩) الترجمة تقريبية، لأن المصاحبات لم يكن يضعن اللثام، أى النقاب، ويمكن موازنته بالبيت الثالث فى القطعة الأولى

ص ٢٥٢ من هذا الكتاب.

(١٢٠) من السريع، الذخيرة ٧٠٥/١، وفى أحمد ضيف، المصدر السابق له، ص ١٨٥ - ١٨٦.

لقديمة^(١٢١)، ومع ذلك يعطينا الانطباع بأنه لاحظ الواقع مباشرة: فالفتاة التي أحبها ورسوم صورتها، ريفية من قريته، وقد سجل الشاعر لفرق الذين يمكن أن يوجد بين ضيعة وادي آش حيث تمضي الحياة ريفية، وبين المدن الكبرى مثل المرية، والقريبة التبه جدا من قرطبة وإشبيلية، حيث الحياة أكثر تحضرا وصقلا، كما يحدث في المدن الكبرى بعمامة. وأضفى عليها الثوب الذي تلبسه طابعا محليا، ولا يقلل من تمييزه لها أن وصفه ليس كاملا، فهي تلبس خمارا، والذي لا يزال يستخدم حتى اليوم في ريف الأندلس في الجنوب وفي الشرق من أسبانيا^(١٢٢) وفي مقاطعة روسيلون Foussillon في جنوب فرنسا على الحدود مع أسبانيا، وتحمل في وسطها زنارا^(١٢٣)، وهو ما فرضه المسلمون على مسيحيي البلاد التي فتحوها، أو إن شئت على نصارى أهل الكتاب، ولم يتواصل العمل به إلا في المشرق، وبلاد البربر الشرقية^(١٢٤)، وأشعار ابن شهيد، والرمادي، وابن الحداد، تسمح لنا بأن نعتقد أن المستعربين، قسسا وراهبا وعلمانيين، رجالا ونساء، كان عليهم أن يحملوه علامة مميزة.

ولقد شبه ابن الحداد صاحبه نيرة بأنها سامرية طبقا للأسطورة الإسلامية، بسبب صعوبة الوصول إليها، ويعبر ابن عمار عن الفكرة نفسها بمناسبة وصفه للخرشوف:

كأنها في جمالٍ وامتلاءٍ ذُرِيَّ خَوْذٍ من الروم في دِرْعٍ من الأَسَلِ^(١٢٥)

ليس هناك مكان فيها يبدو يمكن أن تتوقف عنده الإشارات التي نجدها في التعر الإسباني الإسلامي فيما يتصل بالقسس أو الرهبان النصاري، وعندما يقول ابن الخياط الأعمى مثلا بمناسبة حبيته:

يادارَ علوةً قد هيَّجَت لي شجنا وُزِدَتني حُرْقًا ، حُيِّيت من دارٍ
كم يَت فيك على اللذاتِ مُعْتَكِفًا والليل مُدْرَعٌ ثوبًا من القار
كأنه راهبٌ في المسح مُلتَحِفٌ شدَّ المجدُّ له وَسْطًا بِرَّارٍ^(١٢٦)

فأنه لم يصنع شيئاً أكثر من استخدام «صيغة» جارية في الشعر المشرقي، ولكني أرى من المهم أن أوضح أن الشعراء الأندلسيين كانوا يشيرون كثيراً إلى قرع النواقيس دون أن يصرحوا مطلقاً بنفورهم من سماعها. يقول ابن حزم:



(١٢١) مثلاً، ديوان حسان بن ثابت، طبعة القاهرة، تحقيق ابرقوقي ٤١٥ الأبيات ١ - ٣.

(١٢٢) انظر: خوسيه برجوا، نفسية الشعب الإسباني، مدريد ١٩٣٤، الصور ص ٥١٥ (أرغون)، و ٥٣٤ (عطولونية)، و ٥٥١ (الجزائر الشرقية)، و ٥٥٦ (ليون)، و ٥٧٥ (سلمنقة).

(١٢٣) كلمة زنار من الكلمة الإغريقية Zoáron، ولها المعنى نفسه. انظر طوبيا الأنيسى الحلبي اللبناني، كتب تفسير الألفاظ في اللغة العربية، ط ٢، تنقيح يوسف توما البستاني، ص ٣٣. أما في لغزب الإسلامي فتطلق أيضاً على نوع من اللرس، أو العبادة الخشنة يستخدمها الرفيون. انظر: دوزي، للعجم الفصل بأساء الملايس عند العرب، ص ١٩٦ - ١٩٨.

● وفي الترجمة العربية للدكتور أكرم فاضل ص ١٦٢ - ١٦٣، بغداد ١٩٧١ (الترجم).

ولهأوست، الكلمات والأشياء البربرية ص ١٢٩ - ١٣٠.

(١٢٤) انظر: فينان، الإشارة المميزة لليهود في المغرب، في مجلة، الدراسات اليهودية، المجلد ٢٨ ص ١٨٩٤، ص ٢٩٤ - ٢٩٨.

(١٢٥) من البسيط، الحلة السراء ١٦٣/٢، وانظر فيما سبق ص ١٧٧ من هذا الكتاب.

(١٢٦) من البسيط، نفع ٥٠٣/١، والويري، نهاية الأرب ٣٩٨/١ ط ٢.

أَتْنَى وَهَلَالُ الْجَوِّ مُطْلَعٌ قُبِيلَ قَرَعِ النَّصَارَى لِلنَّوَاقِيسِ (١٢٧)

إن دراسة مختلف العناصر العرقية التي كان يتكون منها الشعب في إسبانيا الإسلامية تجعلنا نشعر، في بساطة، أننا بإزاء فسيفاء شديدة التناقض في تكوينها، وبالكاد نلمح فيها بعض الإيقاعات المتنافرة، وهذه العناصر أخذت تمتزج تدريجاً، وتصبح كل يوم أقوى التحاماً.

ويرجع العامل المهم في تعادل الأجناس جيداً إلى التزوّج من سيدات إسبانيات أو أورييات، ولا نود أن نقول إن النساء البربريات (١٢٨) واليهوديات لم يتدخلن أيضاً في هذه «الخلطة» العرقية، ولكن أعدادهن في الحريم الإسباني الإسلامي لم تكن أبداً هي السائدة فيما يظهر (١٢٩).

ولقد أسهمت المرأة المسيحية بأعدادها الكثيرة في تكوين جنس لا يمكن أن ندعوه عربياً، ولا بربرياً، ولا صقلياً، ولا يهودياً، أما الصفة الأكثر ملاءمة له فهي أن ندعوه أندلسياً أو إسبانياً. وقد سمح لنا المؤرخون كما رأينا باستخدام هذا المصطلح، فوجود حزب أندلسي في بداية الفتنة، وخلال عصر الطوائف، عليه شواهد عديدة، وتظهر حيويته في عداوة الحزب البربري بخاصة.

وتسمح لنا العلاقات بين المواطنين الإسبان الأصليين ونصارى الشمال بأن نفهم على نحو أفضل تكوين هذا الحزب من ذوبان عدة أعراق مختلفة في انبوتقة نفسها.

ويمكن القول بأن المسيحيات بالكاد غيّرن شيئاً من طريقة حياتهن، وكذلك أبناؤهن، وقد تلقوا تربية مسيحية على الأقل في الأعوام الأولى من طفولتهم (١٣٠).

وجدير بالذكر أن نلاحظ أنه رغم أهمية ما أضافه الدم الإسباني الذي كان يجري في عروق الأسر الإسلامية الإسبانية، وهو ليس بالقليل، إلا أن الشعراء العرب أو الأدباء النافرين لم يقولوا أبداً أن هذا العنصر الذي تكون أخيراً كان عجمياً، أى غير عربى. ذلك لأن الإسلام أقام مفهومًا خاصاً عن دور المرأة في الأسرة، ومن المهم أن نعرض لهذه الأفكار الأساسية، وأن نظهر النتائج التي أدت إليها في إسبانيا نفسها.

وكان يسعد مؤرخو الأدب أن يرددوا هذه الجملة التي ينسبونها إلى الخليفة الأموي المشرقي

(١٢٧) من البسيط، طوق الحمامة ص ١٧٣ وترجمة نيكول ١٩١، وطبعة برشييه ص ٣٤٦.

(١٢٨) لا بد أن نشير إلى حادثة أمير مسيحي مثيرة، وهو ألفونسو بن أوردونيو، أذ كان يدعى ابن البربرية، فقد ذهب عام ٣٩٣ هـ = ١٠٠٣ م إلى مدينة سالم، على رأس كتيبة من النصارى ليكون إلى جانب المظفر بن المنصور. انظر: البيان المغرب ٥/٣، ترجمة ليفي بروفنسال في تاريخ مسلمي إسبانيا ط ٢ ج ٣ ص ١٨٧.

(١٢٩) فيمّ يتصل بدم اليهود فإن الأمور تغيرت تماماً بعد ذلك بقرون، ذلك أن الكاردينال فرانسيسكو دى مندوتا إى بوياديا أراد أن ينتم من حكومة فيليب الثاني فأرغم حفيده على أن يطلب البرهان على نقاء الدم، وأظهر في كتابه «جذوة النبلاء» على أنه لا توجد أية أسرة إسبانية متميزة لا تجرى في عروقتها نقطة دم عربية أو يهودية، انظر: جذوة النبلاء الإسبان أو بقع وعار أسرهم، برشلونة ١٨٨٠ م.

(١٣٠) الحالة الأشد تمثيلاً نلتقى بها في مجاهد ملك دانية والجزائر الشرقية، فأمه مسيحية اسمها جُد، أسروها في سردينية مع ابنتها على، ونقل كلاهما إلى أرض مسيحية، واستطاع مجاهد أن يقتدى ابنه على بفدية ضخمة، ولكن أمه فضّلت أن تبقى بين النصارى، وهذه الإقامة الطويلة في أرض نصرانية جعلت من على مسيحياً، وكان معروفاً تماماً أنه احتفظ طوال حياته بإيثار أولئك الذين ربوه في طفولته ومراهقته، وفكرهم وعاداتهم. انظر: أعمال الأعلام، ص ٢٢١ - ٢٢٢.

عبدالصلك بن مروان: «من أراد أن يتخذ جارية للمتعة ليتخذها بربرية، ومن أراد أن يتخذها للولد فليتخذها فارسية، ومن أراد أن يتخذها للخدمة فليتخذها رومية»^(١٣١).

وفي المثال السابق تظهر وجهة نظر الرجل وأنانيته بطريقة لم يعبر عنها أحد بأفضل مما عبر عنها هذا الأمير، وهي أن المرأة حيوان خدمة أو لحم متعة^(١٣٢). وهي دون شك وجهة نظر مسمين آخرين كثيرين، ولكن شخصيات كثيرة اهتمت في مطلع الإسلام بهذه العلاقات المختلطة لما لها من تكوين نفسى على التأثير العرقى، وكان رئيس الدولة يرى، كملاحظ دقيق، إلى جانب تعدد الزوجات الذى يلا حريمه كى يشبع نهمه الجنىسى أن العلاقة بين كائنين إنسانيين لا توجد بينهما أية صلة عائلية، قريبة أو بعيدة، تؤدي إلى نتائج طبية في تحسين مستوى الجنس من وجهة نظر ثقافية، قال عمر بن الخطاب: «ليس قوم أكيس من أولاد السرارى، لأنهم يجمعون عز العرب ودهاء العجم»^(١٣٣).

ولم يغب عن المفكرين المسلمين الذين تأملوا ظروف تطوّر الأعراق الإنسانية حقيقة أن الزوجة الأجنبية حين لا تربطها بالزوج صلة قرابة تعطى ذرية أفضل شكلا وعددا.

وهذا اللون من الملاحظات أصبح كذلك بالغ الأهمية، وليس قليلا بين المسلمين. ولرأى الشائع وبقيله الإسلام الرشدى أن اشتراك المرأة فى تكوين الأعراق محدود للغاية، ويعرض لنا شاعر مجهول هذه الفكرة بوضوح فى الأبيات التالية:

لا تشتمنّ امرأً ممن يكون له أم من الروم أو سوداء عجباء
فإنما أمهات القوم أوعية مستودعات وللأنساب آباء^(١٣٤)

وفى إسبانيا كان ذلك على التأكيد رأى أبى بكر بن العربى، المتوفى ٥٤٣ هـ = ١١٤٨ م، لأنه يروى أنه سمع فى بغداد فقيها حبليليا يرسل رأيا بدا له من البدائع: «سمعتُ أمام الحنابلة بمدينة السلام أبا الوفاء على بن عقيل يقول: إنما تبع الولد الأم فى المأيلة وصار بحكمها فى الرق والحرية لأنه انفصل عن الأب نطفة لا قيمة لها، ولا مالية فيه، ولا منفعة مبنوثة عليه، وإنما اكتسب م اكتسب بها ومنها، فلذلك تبعها، كما لو كان أكل رجل تمرا فى أرض رجل وسقطت منه نواة فى الأرض من يد الأكل فصارت نخلة فإنها ملك عاحب الأرض دون الأكل بإجماع الأمة، لأنها انفصلت عن الأكل ولا قيمة لها، وهذا من البدائع»^(١٣٥).

ولم يقتنع ابن العربى، وهو إسباني، بهذه النظرية لأن إعطاء الأم مكان الصدارة يتيح للعنصر

(١٣١) أبو الفرج، كتاب النساء، فى التيجاني، تحفة العروس، مخطوطة الجزائر، الورقة ٤٩ ظهر، والأبشيهي، مستطرف فى كل فن مستطرف، القاهرة ١٣٣٠ هـ ٢٠٦/٢، وترجمة (٦٠٨/٢)، رانظر أيضا: السقطي، رسالة فى الحسية ٤٩ - ٥٠.
(١٣٢) وقد عبر ابنه مسلمة، وهو ابن سوداء، عن الفكرة نفسها، بروح فاجر وفاسد «إني لأعجب من ثلاثة: من رجل قصر شعره ثم عاد فأطالاه، أو شعر ثوبه ثم عاد فأسبله، أو تمتع بالسرارى ثم عاد إلى المهورات» وهذه جمع مهيرة، وهى المرأة المهورة. انظر: المبرد، الكامل ١٢٩/٢، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، وعنه نقلها التيجاني فى تحفة العروس، مخطوطة الجزائر، الورقة ٤٩، وطبعة القاهرة ص ٤٨.

(١٣٣) المبرد، الكامل، ١٢٤/٢، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، والتيجاني، تحفة العروس، مخطوطة الجزائر، الورقة ٤٩.

(١٣٤) من البسيط الإشبهي، المستطرف، ٢٠٦/٢، وترجمة را ٦٠٨/٢.

(١٣٥) نفح ٤٦/٢.

الأجنبي مكانا مفضلا في المجتمع الإسلامي، والتسليم به يفترض أن صاحبه قد أخذ جانب الشعوبية^(١٣٦). وفي منتصف القرن الثالث الهجري، التاسع الميلادي، أحس ابن قتيبة بخطر ما يحتوي عليه هذا المفهوم فعكف على شجبه^(١٣٧). وفي الغرب الإسلامي، في القرن الحادي عشر بالدقة، في عصر الطوائف، أثار القضية أحد المؤلدين ويدعى ابن غرسية (أبو عامر)، معاتباً أحد الشعراء لأنه رفض أن يمدح مجاهداً أمير دانية، لأن هذا الأمير غير عربي^(١٣٨). وفي رسالته التي كتبها بهذه المناسبة^(١٣٩) حاول أن يظهر في أسلوب ثري، بالغ الفصاحة والنقاء، ويثقل أجمل تكريم للغة العربية في عصره وللحضارة الإسلامية، وفيها حاول أن يثبت أن الأمراء غير العرب في العصر الجاهلي سيطروا على تاريخ الشرق الأوسط بأعمالهم العظيمة في المجالات السياسية والاجتماعية والثقافية، ومن المنطقي أن نستنتج أن جنس الروم، أي أبناء عيساو، أو بني الأصفر كما يسميهم المؤلفون العرب^(١٤٠)، يتفوقون على نحو ملحوظ على جنس السواد، أي العرب، لأن جدتهم الأولى هاجر لم تكن غير جارية متواضعة الأصل. وقد أثارت رسالة ابن غرسية ردوداً وصلتنا^(١٤١)، واهتم مؤلفوها قبل أي شيء أن يردوا اتهامهم بالدونية العرقية لأنهم ينتمون في أصلهم البعيد، من ناحية الأم، إلى هاجر، وهي النقطة التي شدد عليها ابن قتيبة. ولا بد أن الصدمة التي وجهها ابن غرسية كانت عنيفة، ذلك لأن أحد الذين تحمسوا لشجبهها ردّ بحزن على أن هذا المولد الذي يدين بكل شيء لثقافته العربية كان مثل تلميذ الشاعر معز بن أوس المزني، حيث يقول:

أَعْلَمُهُ الرِّمَايَةَ كُلَّ يَوْمٍ فَلَمَّا اشْتَدَّ سَاعِدُهُ رَمَانِي
وَكَمْ عَْلِمْتُهُ نَظْمَ الْقَوَافِي فَلَمَّا قَالَ قَافِيَةَ هَجَانِي

(١٣٦) تاريخ الشعوبية ينادى بمساواة إن لم يكن يتفوق العناصر غير العربية في المجتمع الإسلامي، ودرسها جولدسيهر «سبق» فيها يتصل بالشرق في كتابه، دراسات إسلامية ١٤٧/١، وبطريقة أكثر سطحية فيما يتصل بإسبانيا الإسلامية في مجلة المستشرقين الألمان، المجلد ٥٣، عام ١٨٩٩، ص ١٧١ - ١٨١، وأيضاً كرد على القديم والحديث ص ٦١٩، وطه حسين، في الأدب الجاهلي، ص ١٧١ - ١٨١، وأحمد أمين، ضحى الإسلام، ٤٩/١ - ٧٩، ودائرة المعارف الإسلامية ٤/٤١٠، وكتب مادتها مكدونالد. (١٣٧) انظر: كتاب العرب أو الرد على الشعوبية في رسائل البلغاء ص ٢٧٥، ١، ٢١ - ٢٣، وابن عبد ربه، العقد الفريد، ط. بولاق ١٢٩٣ هـ - ٨٨/١١، ١ - ٥٢، وانظر أيضاً: الجاحظ، البيان والتبيين، طبعة السندوي ١٨/٢ وما بعدها. (١٣٨) طبقاً لمؤلف الذخيرة، ق ٣ الورقة ١٩٥ ظهر، هو أبو جعفر بن الجزار، وطبقاً لمخطوطة الأسكوريال الورقة ٢٦ ظهر أبو عبد الله بن الحداد.

(١٣٩) نص الرسالة في الذخيرة ٧٠٥/٣ - ٧١٤، وفي مجلة المستشرقين الألمان المجلد ٥٣ عام ١٨٩٩ ص ٦١٠ - ٦١٧. (١٤٠) عن هذا التعبير انظر دائرة المعارف الإسلامية ٨٣/١، مادة أصفر، وكتب المادة جولدسيهر، ودوزي، ملحق المعاجم العربية، ٨٣/١.

(١٤١) ردّ عليه من معاصريه ابن الدودين، وابن اسحاق، ومجهول، وأبو الطيب بن مَن الله القروي، انظر الذخيرة ٧١٥/٣ وما بعدها. ورد متأخر من عصر الموحدين لأبي يحيى بن مسعدة، يوجد في مخطوطة الإسكوريال رقم ٥٣٨، الأوراق من ٢٩ ظهر إلى ٤١ ظهر، وثمة ردود أخرى أشار إليها المؤلفون العرب، انظر جولدسيهر في مجلة المستشرقين الألمان المجلد ٥٣ عام ١٨٩٩ ص ٦١٨ وما بعدها ١٤٢ - من الوافر انظر: الذخيرة ٧٢٤/٣، وديوان معن بن أوس، طبعة شوارتز ص ٢٤، وطبعة كمال مصطفى، ص ٣٧.

● تعليق من المترجم:

وهم هنرى بيريس المؤلف لى فهم كلمة «البدائع» التى وردت فى نص ابن العربى، وترجمها «طافحا بالغرابة»، وبنى عليها أن ابن العربى غير موافق على رأى الفقيه الحنبلى، والعكس صحيح، وكلمة «البدائع» جمع «بديع»، تعنى أن البرهان الذى قدمه الفقيه الحنبلى فى مثله جيد ومقنع ونادرا ما يتأتى لفقيه، واستشهاده بابن قتيبة فى غير موضعه، لأن ابن قتيبة من أصل فارسى وليس عربيا، وإن لم يأخذ جانب الشعوبية. ومن هنا فإن هذه الفقرة من تحليل بيريس لا تقوم على أساس علمى.

(المترجم)

○ الفصل الثانی:

الحياة الاقتصادية

أتاح لنا الشعر أن نتصور المجموعات الرئيسية للعناصر العرقية في شبه جزيرة إيبيريا، كما أنه سوف يمدنا أيضا ببعض المعلومات الدقيقة إلى حد بعيد، والأكثر وضوحا في الغالب، عن الحرفيين والعمال الذين يحتلون مكانا في زحام المدن.

كان يضطلع بمهنة الصياغة رجال من العامة أو الطبقة المتوسطة، ولكن شخصيات الطبقة العالية التي انقضت عليها المحن في الظلام لم تنفر من ممارستها، وشاهدنا على ذلك ابن المعتمد الملقب فخر الدولة، فقد عمل بعد أن أزيح والده عن العرش صائغا لكي يربح لقمة العيش. وقد أسف ابن اللبانة حين رآه في هذا الوضع، ولم يستطع أن يكتم أحزانه على ظروفه الحزينة، وقدم لنا بعض المعلومات عن مهنة هذا الصانع المبتدئ:

شَكَاتْنَا فِيكَ يَا فَخْرَ الْهَدَى عَظُمْتُ طُوقَتْ مِنْ نَائِبَاتِ الدَّهْرِ مَحْنَقَةٌ وَعَادَ كَوْنُكَ فِي دُكَانٍ قَارِعَةٍ صَرَفْتُ فِي آلَةِ الصَّوَاغِ أَثْلَةً يَدٌ، عَهْدَتِكَ لِلتَّقْبِيلِ تَبْسُطُهَا يَا صَائِغًا كَانَتْ الْعَلِيَا تُصَاغُ لَهُ لِلنَّفْعِ فِي الصُّورِ هَوْلٌ مَا حَكَاهُ سَوَى وَدَدْتُ إِذْ نَظَرْتُ عَيْنِي إِلَيْكَ بِهِ	وَالرَّزْءُ يَعْظُمُ فِيمَنْ قَدَرُهُ عَظْمًا ضَاقَتْ عَلَيْكَ وَكَمْ طَوَّقْنَا نِعْمًا مِنْ بَعْدِ مَا كُنْتُ فِي قَصْرِ حَكِي إِرْمَا لَمْ تَدِرْ إِلَّا النَّدَى وَالسَّيْفَ وَالْقَلَمَ فَتَسْتَقِلُّ الثَّرِيًّا أَنْ تَكُونَ فَمَا حَلِيًّا وَكَانَ عَلَيْهِ الْحَلِيُّ مُنْتَظَمًا هَوْلٌ رَأَيْتُكَ فِيهِ تَنْفَخُ الْفَحْمَ لَوْ أَنَّ عَيْنِي تَشْكُو قَبْلَ ذَلِكَ عَمِي ^(١)

ونجد بسهولة لدى شعراء آخرين إشارات هامة عن الطريقة المتبعة في صوغ المعادن الثمينة، فأحددهم يحدثنا عن «الورق» و«الوديلة» وآخر عن «قراضة النضار أو براءة الذهب» و«نقر التبر». كما أن هناك عددا كبيرا منهم يتحدث عن صهر المعادن في سبائك، وآخر يستخدم تعبير «إناء مفضض»^(٢). مما يجعلنا نميل إلى الاعتقاد بأن الحرفيين كانوا يعرفون كيف يفضضون المعادن كالححاس. وهناك شواهد أخرى تبرهن على أنهم كانوا يمارسون فن تذهيب الفضة، وقد وصف ابن

(١) من البسيط، الذخيرة ٧٩/٢، وبنو عباد ٣٢١/١، والترجمة اللاتينية له ٣٧٢/١، والمراكشي، المعجب ١٦٠، وترجمته ١٣٥

- ١٣٦، ونفخ ٩٧/٤.

(٢) أبو الوليد، البديع، الورقة ٦٦ ظهر.

عمار طبقاً من فضة مذهب الباص^(٣)، ووصف أبو بكر بن الملح سواراً من الفضة مذهبا^(٤)، أما المقرئ فيحدثنا عن حجر الشاذنة وكان يستخدم في ذلك التذهيب^(٥).

وراجت صناعة الزجاج في إسبانيا، وبخاصة منذ القرن العاشر، وهي الفترة التي اكتشف فيها عباس بن فرناس خلال حكم الأمير الأموي محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨ - ٢٧٣ هـ = ٨٥٢ - ٨٨٦) طريقة صناعة الزجاج^(٦).

وفي القرن الحادي عشر انتشرت مصانع الزجاج الرئيسية حول إشبيلية، وكان المعتمد أميرها يشاهد من نوافذ قصره أفران الزجاج تلمع في الظلام، ووصف لنا المقرئ مشهداً يظهر فيه أمير إشبيلية وقد أرسل في طلب الشاعر ابن حمديس في ساعة متأخرة من الليل: «... دخلت عليه فأجلسني على مرتبة فنك، وقال لي: افتح الطأت التي تليك، ففتحتها فإذا بكور زجاج على بعد، والنار تلوح من بابه، وواقدة تفتحها تارة وتسدها أخرى، ثم دام سد أحدها وفتح الآخر، فحين تأملتها قل لي: أجز:

انظرها في الظلام قد نجما
فقلت: كما رنا في الدُّجْنَةِ الأسدُ
يُفتح عينيه ثم يُطبقها
فقال: ففعل امرئ في جفونه رمد
فقلت: فابتزّه الهر نور واحدة
فقال: وهل نجا من صروفه أحد^(٧)

وصور لنا شاعر أندلسي شخصية القائم على فرن الزجاج، في مصنع قريب من إشبيلية، في أبيات من الشعر، وكانت هذه الأفران مهبط الراغبين في النزهة من السكان، وتتمتع بشهرة واسعة، وتثير أحياناً حماسه الأمراء والأدباء، يقول عبد الجليل بن وهبون:

ربّ فرن رأيتُه يتلظى
وقبيلُ مخالطى وعقيدي
قال شبه فقلت صدر حسود
خالطته مكارم المحسود^(٨)

(٣) ابن الأثير، الحلة ١٦٤/٢.

(٤) من البسيط، نفح ٧٠/٤، ويقول اربيدى من القرن العشر الميلادي عن الرجال:

أشعرن قلبك ياسا ليس هذا الناس ناسا
ذهب الإبريز منهم فبقوا بعد نحاسا

نفح ٤٧٥/٣.

(٥) نفح ١٤٢/١.

(٦) نفح ٣٧٤/١، وعن ابن فرناس انظر نفح ١٦٢/١ و ١٣٣/٣، والضبي، البقية رقم ١٢٤٧ ص ٤١٨ وليفي بروفنسال، إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر، ص ١٨٤، وكان في قرطبة مسجد يحمل اسم مسجد الزجاجيين، انظر ابن بشكوال، الصلة، ١٧٣ و ٦٠٠.

(٧) من المنسرح، نفح ٦١٦/٣، ومقدمة ديحا للطبعة الأوربية ٨٥/١.

(٨) من الخفيف، القلائد ٢٤٥. وفي قرطبة حيّ يحمل اسم ريش فرن برآل: نفح ٤٦٦/١، وليفي بروفنسال، إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر ص ٢٠٧ هامش ٣. للتعتمد وين عمار وهما يتزهران في ضواحي إشبيلية مرّاً قريباً من بعض الجبارين والجبّاسين، انظر: نفح ٢٦٠/٤، وثمة مسجد في قرطبة كان يحمل اسم «مسجد القلاسين»، أي صناع أو باعة القلائس، جمع غلنسة، انظر: ابن بشكوال، الصلة ٢٤٥، وليفي بروفنسال، المصدر السابق ص ١٠٩.

وكان حتى عمال الرق في قرطبة يقع قريبا من باب العطارين^(٩)، ويطلق عليه اسم ربض الرقاقين، وفي القرن العاشر الميلادي راجت صناعة الورق مع تزايد استعماله، وبخاصة في شاطبة، ثم أخذت في الاضمحلال تدريجيا، ويصف ابن سارة في نهاية القرن الحادي عشر صناعة الورق بأنها شاقة وغير مربحة^(١٠).

أما الوراقة فهي أنكذ حرفة أغصانها وثمارها الحرمان
شبهت صاحبها كإبرة خانط تكسو المرأة وجسمها عريان^(١١)

ويروى أن يحيى السرقسطي بعد أن اختبر مهنته شاعرا عاد إلى دكانه جزّارا من جديد، فأمر ابن هود أمير سرقسطة وزيره اليهودي أبا الفضل بن حسداى أن يوبّخه على ذلك، فكتب إليه: تركت الشعر من عدم الإصابة وملّت إلى التجارة والقصابة فردّ عليه يحيى بقطعة من الشعر الجدى الساخر، يعتذر فيها، ولم يغير رأيه، وأبياته تستحق أن نأق عليها كاملة، لأنه عرف كيف يرسم مهنته في صورة جذابة:

تعيب على مألوف القصابة ومن لم يذر قدر الشيء عابه
ولو أحكمت منها بعض فن لما استبدلت منها بالحجابه
ولو تدرى بها كلفى ووجدى علمت علام أحتمل الصابه
وإنك لو طلعت على يوما وحولى من بنى كلب عصابه
هالك ما رأيت وقلت هذا هزبر صير الأوضام^(١٢) غابه
وكم شهدت لنا كلب وهرب بأن المجد قد حُزنا لبابه
فتكنا في بنى العنزى فتكا أقر الذعر فيهم والمهابه
لم نُقلع عن الثورى حتى مزجنا بالدم القافى لعابه
ومن يفتّر منهم بامتناع فلان إلى صوارمنا إيسابه
ويبرز واحد منّا لألف فيغلبهم وذاك من الغرابه^(١٣)

ووصف الرصافي نساج حرير، ومع أنه من شعراء مطلع القرن الثاني عشر إلا أن أشعاره يمكن أن تعبّر أيضا عن القرن الذى سبقه:

وبنفسى من لا أسميه إلا بعض إلمامة وبعض إشارة

(٩) ليفي برونسفال، المصدر السابق ص ٢٠٧ رقم ٣.

(١٠) لايته الرقاق فقط، إذا تحدثنا عن المهنة، يبيع الورق، وإنما يقوم أيضا بنسخ المخطوطات، أو يعهد إلى من ينسخها لحسابه، ثم يبيعها، انظر: ابن عبدون، رسالة في الحسبة، في المجلة الآسيوية، أبريل - يونيو ١٩٣٤، ص ٢٩٨ وما بعدها.

(١١) من الكامل، القلائد ٢٦٠.

(١٢) عن هذه الكلمة القديمة انظر: ابن عبدون، رسالة في الحسبة، في المجلة الآسيوية، أبريل - يونيو ١٩٣٤، ص ٢٩٨ وما بعدها.

وما بعدها، ج س. كولن. وثيقة من عربية الغرب العامية ص ٣١ ورقم ٢.

(١٣) من الوافر، نفع ١٥٢/٤، والأبيات الثلاثة الأخيرة، وبخاصة البيت الأخير الذى يتضمن الفعل برز، تجعلنا نميل إلى الاعتقاد بأن الشاعر يشير إلى مصارعة الثيران، ولو أن المعنى العام للأبيات لا يسمح لنا بأن نستخلص هذه النتيجة، وتوجد القطعة نفسها في زاد المسافر لصفوان بن إدريس، ص ٩٨ - ٩٩.

هو والظبي في المجال سواء ما استفاد الغزال منه استعاره
أغيدُ يمسك الحريزَ فيه مثل ما يمسك الغزالُ العراره^(١٤)
وله أيضا يصف حائكا في أبيات يتغزل فيها:

غَزِيلٌ لم تزل في الغزل جائلةً بنانه جولان الفكر في الغزل
جَذْلانَ تلعب بالمحواك أنمله علي السدى لعب الأيام بالأمل
ضما بكفيه أو فحسا بأخمصه تخبط الظبي في أشراك محتبل^(١٥)



وفيما بعد سوف نتحدث بمناسبة موسيقا والغناء والرقص، عن طبقة خاصة من الحرفيين الذين يكونون مهنة خاصة تجمع بين المشعوذ والمهرج والبهلوان^(١٦).

(١٤) من الخفيف، نفع ٤٨٦/٣.

(١٥) من البسيط، نفع ٢٠٣/٣.

(١٦) عن المهن الأخرى انظر المعلومات المتصلة بها من وجهة نظر خاصة في رسالة في الحسبة لابن عسرون، طبعة ليفي بروفنسال في المجلة الآسيوية أبريل - يولية ١٩٣٤، وبخاصة ص ٢٢٩ - ٢٥٢، ورسالة في الحسبة للسقطي طبعة ليفي بروفنسال، وقد ذكرنا فيها سبق ص ٢٢ - ٢٣ من هذا الكتاب قائمة بالحرفيين من الطبقة المتواضعة الذين كانوا يوجدون في جيش المهدي المرتجل قبل معركة قنطيش، وأشرنا إلى الجيرين والفحامين والزبالين.

○ الفصل الثالث:

الحياة الخاصة

إذا كان الشعر الأندلسي لا يعكس إلا نادرا شخصية الإسباني المسلم في وجوده عاملا يبذل جهده، فهو على النقيض يظهره لنا في جوانب مثيرة ومتنوعة بمناسبة أحداث الحياة الرئيسية.



لقد وقفت النصوص الشعرية عند حد تسجيل الميلاد، وبخاصة مولد الذكور كحدث سعيد، في عبارات تنضح بالمديح، وخالية من المواد التوثيقية، ولكنها على النقيض تجربنا بمعلومات مفصلة عن الاحتياطات التي تتخذ لحماية الطفل الرضيع، والصبي الصغير، والغلام اليافع، من التأثيرات الضارة.

ونعلم من ابن رزین في بيت عن ابن لبون أنهم كانوا يضعون التمام للأطفال بعد فطامهم: ذاك الوفي الذي نيطت ثمائمُه عند الفطام على حلم ابن سيرين^(١)

ويؤكد ابن زيدون مثل هذا العمل:

طالما نافر الهوى منه غر لم يظل عهد جوده بالتعميم^(٢)

وقد استخدم الأندلسيون تائم من السَّبَج^(٣) لتمنع عنهم الحسد، وكان استخدام التائم والتعاويد يستمر حتى بعد مرحلة الطفولة، كما تشهد بذلك قصائد الشعراء، فقد كتب المعتمد عند وفاة إحدى حَفَياتِه:

لما غدا القلب مفجوعا بأسوده وفَضَّ كل ختام من عزائمهِ
ركبت ظهر جوادى كئ أسليهِ وقلت للسيف كن لي من ثمائمهِ^(٤)
وبمناسبة الختان، وهو أول حدث يستهدف الحفاظ على حياة المسلم بطريقة ملموسة، وربما تأثر

(١) من البسيط، الحلة السراء، في أبحاث ط ١ ص ٥٢٠، وابن سيرين مشهور بتقواه وزهده ومهارته في تفسير الأحلام، انظر: دائرة المعارف الإسلامية ٤٤٦/٢.

● ونقلنا عن النخبة ١٢٣/٣، وانظر أيضا القلائد ٥٤ (الترجم).

(٢) من الخفيف، الديوان ص ٢٧٩.

(٣) انظر: أوسا، قائمة السبع ص ٥، طبقا لـ «بنو عباد» ٣٢/١، وفرنانديس، العاج والسبع الإسباني، ص ٢٣١، وانظر فيها سبق ص ١٦٠ من هذا الكتاب. وفي مرسى شنت بول قريبا من الش حجر يعرف بحجر الذنب إذا وضع على ذنب أوسم لم يكن له عدوان، وفارق طبعه من الفساد، الروض المعطار رقم ٢٦ وما بعدها، ص ٣٦ - ٣٩.

(٤) من البسيط، القلائد ٤٩، والحلة ٨٤/٢.

● في القلائد إحدى حظياته، وفي الحلة إحدى كرائمه (الترجم).

الأندلسيون في مظاهر الاحتفال به بطقوس التعميد المسيحية، وذلك بإقامة احتفال كبير فخيم تشترك فيه كل طبقات المجتمع. وكانت هذه الحفلات تحمل اسم «إعذار» أو «صنيع»^(٥) أو «طهور» وهي احتفالات كانت معروفة في الشرق أيضا، ولكنها في إسبانيا كانت تنسم بالفخامة والروعة. وحفلات الإعذار التي أقامها المأمون بن ذى النون أمير طليطلة بمناسبة ختان حفيده يحيى^(٦) نالت شهرة واسعة توازي شهرة حفل «عرس بوران»^(٧)، واعتاد الناس في الغرب الإسلامي أن يُشبهوا الحفلات الكبيرة تصحبها ولئم فخيمة بإعذار ذى النون^(٨)، أو أن يقال: كطهور ابن ذى النون^(٩).

أما الإعذار الذي أقامه المعتضد، ومات أثناءه أمراء البربر غدرا مخنوقين في حمام، فقد نال شهرة من نوع آخر^(١٠).

وفي الأبيات التالية يهني أبي بكر الجزار السرقسطي والد طفل تم طهوره:
 طَهَّرْتَهُ وَهُوَ الْمُطَهَّرُ إِذْ نَشَأَ لَّهُ فَعْلٌ مِنْكَ رَاقٍ كَمَالُهُ
 فَازْدَادَ بِالتَّطْهِيرِ حُسْنًا مِثْلَ مَا يَزْدَادُ ضَوْءُ الشَّمْعِ عِنْدَ ذِبَالِهِ^(١١)
 وكان الزواج الحدث الثاني انتهى يخفى به الإسبان المسلمون احتفاءً شديداً، وإذا كان الشعر لا يحدثننا عن الاحتفالات بعندها الدقيق^(١٢)، فهو على النقيض كثيراً ما يشير إلى «زياف العروس» وخروجها من بيت أهلها إلى بيت زوجها^(١٣)، وإلى ثوبها الذي ترتديه^(١٤)، ومشهد الحقل حيث تكون مهبط إعجاب المدعوين^(١٥).

ويروى لنا ابن زيدون بمناسبة زواج المعتضد من ابنة مجاهد أمير دانية، أن الحفلات استمرت أسبوعاً كاملاً، وأن الزوج لم يظهر أمام المدعوين طوال هذه الأيام:

(٥) نفح ٥٣٠/١.

(٦) الذخيرة ١٢٦/٤ وما بعدها، وترجمته في هيسبريس ١٩٣١ المجلد ١٢ ص ٣٩.

(٧) عن بوران انظر الهامش رقم ٢٢ فيما يلي.

(٨) نفح ٤٤٠/١.

(٩) أزهار الرياض، طبعة تونس ١٠٧٢.

(١٠) البيان ٢٧١/٣، وابن الخطيب 'عمال الأعلام' ١٥٦، وتاريخ مسلمي إسبانيا ط ٢ ج ٣ ص ٥٧.

(١١) من الكامل، ابن ليون، سج لسحر، لورقة ٥٥ ظهر.

(١٢) لدينا نص نثرى يصف حفلة عرس، لمستن بالله أمير سرقسطة، حين تزوج من ابنة أبي بكر بن عبد العزيز وزير بلنسية، فاحتفل أبوه المؤمن احتفالاً بلغ من الهناء حداً لا يقارن، وقد تولى الوزير الإسرائيلي أبو الفضل بن حسداى تحرير رقاع الدعوة إلى جميع أعيان الأندلس من الأبطال 'الشجعان'، والكتاب الفضلاء، والحجاب والأمراء، والذين لبوا مسرعين في جماعات إلى بلاط سرقسطة، وتوالى وفودهم بلا انقطاع. لم تكن هناك عرسة للاستسلام للنوم في أية لحظة. وفاقحت حفلة المؤمن، والد العريس، في بهائها حفلة الخليفة العباسي المأمون في زواجه من بوران أخته الحسن بن سهل، فقد التقت فيها كل الباهج والمسرات العميقة، وكل شيء يشع نراة، وكانت مطرا من المنع، والمباريات مفتوحة أمام كل أولئك الذين يريدون أن يستنفدوا كل متعهم. انقلد ١٦٧ (ونقلها دوزي في أبحاث ط ١ ص ٤٦٢؛ و ص ٢٨٤ - ١٨٥، وعه نقلها نفح ٦٤١/١).

(١٣) انظر فيما سبق ص ٦٤ من هذه الكتاب.

(١٤) انظر فيما سبق ص ١٨٦ من هذا الكتاب، و ص ٢٨٦ مما سوف يأتي.

(١٥) انظر فيما سبق ص ١٠٩ و ص ١٤٨ من هذا الكتاب، البيت الرابع من القطعة الأولى.

أَسْبُوعُ أَتَسِرُ مُحَدِّثٌ لِي وَخَشَّةٌ عَلِمًا بِأَنِّي فِيهِ لَسْتُ أَرَاكَ^(١٦)
وأخيرا فإن الشعر لم يصمت حتى عن الشجار الذي يقع بين الزوجين^(١٧).

ورغم أن الحياة محروسة بالتعائم والتعاويز أن تنجو من الأمراض، ولكن الشعر خوفا من تأثير
السحر الذي ينسب إلى «الكتابة» أو سرد الجمل المسجوعة، لم يهتم بالحديث عن كل ما يظن حول
انحطاط الرجل أو ما يشينه جسمانيا^(١٨)، ومع ذلك فنحن نرى الشاعر يهني صديقا، أو راعيا له،
بالشفاء من مرضه، وتحيي التهنة للمريض عادة عند تناول العلاج من فُصْد أو شراب. وقد هنا ابن
زيدون الأمير المعتضد بالفصد، ودعاه إلى معاقرة الشراب ومباشرة اللذات:

لِيَهْنِكَ أَنْ أَهْدِيَّ عَاقِبَةَ الْفَصْدِ فَلَلَّهُ مِنَّا أَجْمَلُ الشُّكْرِ وَالْحَمْدِ
وَيَا عَجَبًا مِنْ أَنْ مَبْضَعُ فَاكِدٍ تَلْقَيْتَهُ لَمْ يَنْصَرَفْ نَابِي الْحَدِّ
وَمِنْ مُتَوَلَّى فَصْدٍ يَنَّاكَ كَيْفَ لَمْ يَهْلُ عِبَابُ الْبَحْرِ فِي مُعْظَرِ الْمَدِّ
وَلَمْ تَغْشُهُ الشَّمْسُ الْمَنِيرُ شِعَاعُهَا فَيَخْطِئُ فِيهَا رَامُهُ سَنَنُ الْقَصْدِ^(١٩)

وسوف نتاح لنا الفرصة لتشير عند الحديث عن التبيذ أن أمراض الكبد كانت تعالج بواسطة
المعتق منه^(٢٠).



أما آخر حدث في الحياة بكل ما يمكن أن يؤدي إليه من نتائج في المجتمع، فقد قدّم لنا عنه
الشعر الكثير من المعلومات، دون شك، وثمة قصيدة جميلة لأبي عامر بن شهيد عن وفاة القاضي
ابن ذكوان تشير إلى عادة حمل النعش على الأكتاف:

وَلَمَّا أَبَى إِلَّا التَّحَسُّلَ رَائِحًا مِنْحَنَاهُ أَعْنَاقُ الْكِرَامِ رَكَائِيَا
يَسِيرُ بِهِ النُّعْشُ الْأَعَزُّ وَحَوْلِهِ أَبَاعِدُ كَانُوا لِلْمَصَابِ أَقَارِيَا
عَلَيْهِ حَفِيفٌ لِلْمَلَايِكَةِ أَقْبَلَتْ تَصَافِحُ شَيْخًا ذَاكَرَ اللَّهِ تَائِيَا
تَخَالُ لَفِيفَ النَّاسِ حَوْلَ ضَرْبِهِ خَلِيطٌ قَطًّا وَاقِيَ الشَّرِيعَةَ هَارِيَا^(٢١)

(١٦) من الكامل، ابن زيدون الديوان ص ٤٤٣.

(١٧) انظر فيما سبق ص ٩٧ من هذا الكتاب. يجب أن يقدم العريس للزوجة صداقا، ولكن مؤرخا ذكر لنا أنه إزاء وفرة
المجواري المسيحيات ورخصهن، كان على المسلمين لكي يزوجوا بناتهم أن يتنافسوا في الترف عند إعداد الجهاز، وكانت متطلبات
العروس تتكون من الثياب والحلي والدور، انظر: المراكشي، المعجب ٣٨، والترجمة ص ٣١.

(١٨) فيما بعد سنرى كيف يصف لنا ابن شهيد مريض الفالج وقد ألزمه فراش مرضه.

(١٩) من الطويل، ابن زيدون، الديوان ٤٩٩، ولمعرفة الفرق بين الفصد والمجامة انظر: ليفي برونسسال، رسالة في الحسية لابن

عيدون، في المصدر السابق ص ٢٦٢ - ٢٨٦.

(٢٠) انظر فيما بعد ص ٢٢٢ الهامش ٣٤ من هذا الكتاب.

(٢١) من الطويل، المطمح ١٩٦، ونفع ٣/٣٦٠، وقد وصف ابن قزمان دفنه، كأي وثني:

وَإِذَا مَتَ مَذْهَبِي فِي السَّدَقِ أَنْ نَرَقْدَ بَيْنَ الْجِفَنِ
وَتَضَمُّوا الْوَرَقَ عَلَى كَفِّ وَفِي رَأْسِي عِمَامَةٌ مِنْ زَرْجُونِ

الديوان، القطعة ٩٠، ص ٤٦٦.

وإذا كان ابن شهيد قد ذكر نموع المجموع الحزينة فهو لم يشر إلى عادة الحزاني يطمون وجوههم، وهي عادة يحرمها الإسلام، ومع ذلك فهي شائعة على نحو واسع بين شتى طبقات المجتمع الإسلامي^(٢٢)، وأشار إليها المعتمد في قصيدته التي يبتكى فيها ولديه العزيزين: المأمون والراضى، حين ذهبا ضحية هجوم المرابطين:

يقولون صبراً لا سبيلَ إلى الصبر سأبكي وأبكي ما تطاول بي عمري
هوى الكوكبانِ الفتحُ ثم شقيقه يزيدُ فهل عند الكواكبِ من خبر
تري زُهرها في مائتمِ نلَّ ليلةً تحمَّشُ لها وسطه صفحة البدر
ينحنَ على نجمين، أكلت ذا وذا وصبرُ ما للقلب في الصبرِ من عذر^(٢٣)

ويشير ابن عبد الصمد في قصيدة له يرثي فيها المعتمد إلى عادة أخرى شرنية وجاهلية: شقوا الثياب وجددوا حزانكم وصلوا التلُفَّ يا بني عبَّاد^(٢٤) وهناك أبيات توجه بها ابن شهيد قبل موته إلى صديقه ابن حزم يمكن أن نستنتج منها أن أصدقاء المتوفي كانوا يجتمعون حول قبره بعد دفنه ويقومون بتأبينه:

فلا تنسَ تأبيني إذا ما فقدتني وذكَّارَ أيامي وفضلَ خلانقي^(٢٥)

وفيما يتصل بالعادات المتعلقة بسوت ثمة موضوع استرعى انتباه دوزي، ولكن المستشرق الهولندي الكبير لم ينته إلى نتائج حاسمة^(٢٦). ويستحق أن يعود إليه نائية، وأن نجد له جواباً في ضوء الوثائق الجديدة التي ظهرت، وهو يتصل باللون الذي كان يتحدثونه شعاعاً للحزن في إسبانيا الإسلامية.

يمكن القول بعامة إن اللون الأسود ارتبط بفكرة الحزن والحداد، على حين كان اللون الأبيض يعبر عن الفرح والسعادة، وحين اضطر ابن زيدون أن ينفي نفسه عن قرطبة كتب إلى ولادة: بُنْتُمْ وبنّا، فما ابتلتْ جرائننا شوقاً إليكم، ولا جفّتْ مآقينا ينفضي علينا الأسى لولا تأسينا نكاد - حين تناجيكم ضمائرنا - حالت لفقدكم أيامنا، فصدت سودا، وكانت بكم بيضا لالينا^(٢٧)

وقد قال أبو محمد الثقفي قبل ابن ديمان بزمان:

إذا مت فادفني إلى حنبِ كرمه روى عظامي بعد موتي عروقها
ولا تدفنتني باللة فلئني خاف إذا ماتت ألا أذوقها

وهي من الطويل، الديوان ط. أبيل، ق ٥ ص ١٤، ونولدكي، Delectus، ص ٢٦، والمسعودي، مروج الذهب ٢١٨/٤ (٢٢) السقطي، رسالة في الحسبة، ص ٦٨، الهامش ٦٨.

(٢٣) من الطويل، القلائد ١٢، الذخيرة ٦٩/٢، وعنها في «خو عبَّاد» ٣١٥/١.

(٢٤) من الكامل، أعمال الأعلام ١٠٩، وانظر فيها يأتي ص ٣١٥ من هذا الكتاب، البيت الأخير من رقم ٢٦.

(٢٥) انظر فيها بعد ص ٤٠٨ - ٤٠٩ من هذا الكتاب. ومن المؤسف أن النصوص لا تذكر لنا كم من الوقت يمضي بين الوفاة والتأبين ومع ذلك لا تظن أن هذا الوقت يتجاوز أربعين يوماً. كما هو في أيامنا هذه في المشرق في حفلة التأبين.

(٢٦) انظر: دوزي، أبحاث ط ١ ص ٤٥ - ١٥٠ و ٦٣٠ - ٣٣٤، والمعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب ١٩ - ٢٠ و ٤٣٥ - ٤٣٦.

(٢٧) من السبيط، الديوان ١٤٢، وكوره، ابن زيدون ص ٧١، والثقندي، رسالة في فضل الأندلس في نفع ١٩١/٣، وترجمة غرسيه غومت لها ص ٥١، وتاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٢ ص ١٣٥.

ولكن يدهشنا أن نلتقى بالعديد من الشواهد التي تبرهن على أن اللون الأبيض كان شعار الحزن في إسبانيا الإسلامية، في عصور ومناطق سوف نحددها فيما بعد، وإذا تركنا جانباً أبياتا لابن هانيء لا نستطيع أن نحدّد لها مكاناً، وهل يقصد بها إسبانيا أم بلاد البربر الشرقية^(٢٨)، فإن أقدم الشواهد التي حصلنا عليها من ابن حيّان المؤرخ، وفيها يتحدث عن حفل تولية الحكم الثاني بعد وفاة أبيه عبد الرحمن الناصر في ٣ من رمضان ٣٥٠ هـ = ١٥ من أكتوبر ٩٦١ م، في مدينة الزهراء، حيث اصطف الفتيان على جانبي المجلس حيث يجلس الحكم، «عليهم الظهائر البيض شعار الحزن»^(٢٩).

وعادة ارتداء الملابس البيضاء بمناسبة الحزن والحداد يشهد على وجودها في القرن العاشر الميلادي بيت من الشعر لأبي عمر أحمد بن فرج، [وقيل لأخيه عبدالله]:

ونرجسٍ تطرّف أجفائه كمْقَلَةٍ قد دبّ فيها الوسنُ
كانه من صُفْرَةٍ عاشقٌ يلبسُ للبين ثيابَ الحزنِ^(٣٠)

ويكرر أبو عثمان سعيد بن فرج الجيّاني الفكرة نفسها:

لبسَ البياضَ لصفرة في وجهه صفةً كما وُصفَ الحزينُ الفاقدُ^(٣١)

وتكثر الشواهد في القرن الحادي عشر، ويروى ابن بسام أن الشاعر ابن بُرد الأصغر رأى غلاماً يلبس أبيض «على عادة أهل أفقنا في لباس البياض عند الحزن» فقال:

أجل جفونك في ذا المنظر الحسن ولّم على النأى منه حادث الزمن
وأعجب لضدين في مرأه قد جُمعا: شخصُ السرور عليه لبسة الحزنِ^(٣٢)

ويقول أبو بكر بن القيطورته في الموضوع نفسه بمناسبة وفاة زوجته:

وخالف القلبُ فيك العينَ من كمدٍ فاسودَّ بالغمّ وابتيضت من الحزنِ^(٣٣)

ويقول أبو الحسن الحصري (وفي رواية ابن بسام أنه الحلواني، تلميذ أبي علي بن رشيّق) والذي لم يكن قد وطئ أرض إسبانيا فيما يبدو بمناسبة الشيب:

لئن كان البياض لباسَ حزنٍ بأندلسٍ فذاك من الصواب
ألم ترفى لبست بياض شيبى لأنى قد حزنّت على الشبابِ^(٣٤)

(٢٨) من الكامل، الديوان، طبعة زاهد على ص ١٠٧، الأبيات ٦ - ١١، وطبعة بيروت ص ٢٤، ونفع ٤٤٣/٣، وعن معنى هذه الأبيات انظر: نفع الطيب، طبعة أوروبا، المقدمة، ج ٢ ص ١٨ - ١٩.

(٢٩) نفع ٣٨٧/٣، ودوزي، المعجم الفصل بأسماء الملابس العربية، ص ٢٠، وليفى بروفنسال، إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر، ص ٥٨.

(٣٠) من لسريع، أبو الوليد الحميري، البديع في وصف لربيع، ص ٩٧، والذخيرة ٥٠٦/١. ويعلق أبو الوليد (توفي نحو ٤٤٠ هـ = ١٠٤٨ م) على هذه الأبيات بالكلمات التالية: «جرى في ثياب الحزن على مذهب الأندلس إذ ثياب حزنهم بياض».

(٣١) من الكامل، البديع ص ٧١.

(٣٢) من البسيط، الذخيرة ٥٠٦/١.

(٣٣) القلاند ١٥٤.

(٣٤) من الوافر، نفع ١٠٩/٤، وابن دحية، المطرب ٨٠، والذخيرة ٥٠٧/١، وغرسة غوث في قصائد أندلسية ص ١٦٩ القطعة ١٢٣.

وشاعر مجهول لا نعرف لسوء لحظ تاريخه، ولكن يبدو أنه مغربي، وكان معاصرا لأبي الحسن
الحصري، عبر عن الفكرة نفسها، وهي عادة أهل الأندلس في لباس البياض حزنا على موتاهم، مع أن
أهل المشرق يلبسون فيه السواد:

أَلَا يَا أَهْلَ أَنْدَلِ فِطْنَتُمْ بِطُفْكُمُ إِلَى أَمْرٍ عَجِيبٍ
لَيْسْتُمْ فِي مَأْتِكُمْ بِيَاضًا فَحْتُمْ مِنْهُ فِي زَيٍّْ غَرِيبٍ
صَدَقْتُمْ فَاَلْبِيَاضُ لِبَاسُ حُزْنٍ وَهُوَ حُزْنٌ أَشَدُّ مِنَ الْمَشِيبِ (٣٥)

جميع الأشعار التي ذكرناها تشير بعامة إلى الأندلس، أي جنوب شبه الجزيرة، فيد يبدو، وإلى
قرطبة بخاصة، ومع ذلك فعادة ارتداء الملابس البيضاء حزنا كانت تجري في أرغون أيضا، وفي
سرقسطة، يروي ابن بسام: «وكان سرقسطة شيخ يكتي بأبي عبد الصمد، من شعراء ذلك العصر،
وأراه من سلف أبي بحر، أخبرني ذو الوزارتين أبو عمر بن عيادوس أنه اجتمع به في ذلك الثغر،
ورآه قد لبس بياضا في جنازة الكاتب أبي عمر بن أمّالاس وقد حضرها المقتدر بن هود» (٣٦).
ولكن ذكر هذا الحدث في بعض انجازات فحسب يحى أنا بصدد شيء غير عادي، ومع ذلك فإن
أديبا من سرقسطة، هو ابن شاطر السرقسطي يقول:

قَدْ كُنْتُ لَا أَدْرِي لِأَيِّ عِلَّةٍ صَارَ الْبِيَاضُ لِبَاسَ كُلِّ مُصَابٍ
حَتَّى كَسَانِي الدَّهْرُ سَحَقَ مَلَاءَةٍ يَخْتَأَى مِنْ شَيْبَى لَفَقْدُ نَبَاهٍ
فَبِذَا تَبَيَّنَ لِي إِصَابَةٌ مِنْ رَأْيٍ نَسَّ الْبِيَاضَ عَلَى نَوَى الْأَحْيَابِ (٣٧)

لكن لا شيء على الإطلاق يجمعنا يؤكد أن الشاعر لاحظ هذه العادة في سرقسطة، والأبيات التي
سوف نذكرها فيما بعد تبرهن أن اتخذ السواد حزنا كان أيضا أمرا شائعا جدا، وربما كان أكثر من
استخدام البياض.

وفي المرية كان البياض لبس احتفالات والمهرجانات وبالتالي كان السواد هو شعار الحزن والحداد.
يقول أبو الوليد النحلي:

وَيْشَى النَّاسُ كُلَّهُمْ حَمَامًا وَأَمْشَى بَيْنَهُمْ وَحْدَى غُرَابًا (٣٨)

ويقول أبو الحسن بن الحاج من أعالي لورقة، وأقاد أغلب أيامه في المرية بعد أن حاول الإقامة إلى
جانب المعتمد في إشبيلية، عن علام جميل يدعى أبو جعفر لحظة وفاته:

أَبَا جَعْفَرٍ مَاتَ فِيكَ الْجَمَالُ نَسَاطَهَرَ خَدُّكَ لِبَسَ الْحَدَادِ
وَقَدْ كَانَ يُنْبِتُ زَهَرَ الرِّيَاضِ نَاصَبِحَ يُنْبِتُ شَوْكَ الْقَتَادِ
أَبْنُ لِي مَتَى كَانَ بَدَأَ السَّهْمُ بِدُرِّكَ بِالْكُونِ أَوْ بِالْفَسَادِ

(٣٥) من الوافر، نفع ٤٤٠/٣، ودوي، أبحاث ط ١ ص ١٤٨.

(٣٦) ابن بسام، الذخيرة ١١٨/٣، ودوي، معجم الملابس ٤٢٥.

(٣٧) من الكامل، نفع ١٠٩/٤، ودوي، معجم الملابس ٦٤٨.

(٣٨) من الوافر، القلائد ٤٨، الذخيرة ٧٣٦/١، والحلة ٨٨/٢.

وهل كنت في الملك من عيد شمس فأخني عليك ظهورُ السواد^(٣٩)
ولم يرَ المُنْقِل، وعاش كل حياته تقريبا في غرناطة، في حاشية وزيرى بنى زيرى اليهوديين،
غير السواد شعارا للحداد أبدا:

بِتْنَا كَأَنَّ مَدَادَ اللَّيْلِ شَمَلْتُنَا حتى بدا الصُّبْحُ فِي ثَوْبٍ سَحُولِي^(٤٠)
وبمناسبة الحريق الذى شبَّ في قرمونة، وكان الظافر بن المعتضد قد انتهى من الاستيلاء
عليها، فأنشأ ابن عمار قصيدة يمدح بها الأمير:

أَطْلُ عَلَى قَرْمُونَةٍ مَتَبَلِّجًا مع انصبح حتى قيل كانا على وَعَدٍ
فَأَرْمَلَهَا بِالسِّيفِ ثُمَّ أَعَارَهَا من النَّارِ أَثْوَابَ الْحَدَادِ عَلَى الْفَقْدِ^(٤١)
وقد توجه ابن جاح إلى الأمير نفسه بقصيدة أفسحت أمامه لجودتها الطريق إلى دخول البلاط،
وفيها أيضا رأى في سواد الليل لون الحزن:

وَلَرَبُّ خَرْقٍ قَدْ قَطَعْتُ نِيَاطَهُ وَاللَّيْلُ يَرْفُلُ فِي ثِيَابِ حَدَادٍ^(٤٢)
ويعد أن نفى المعتمد إلى أغمات بدت السماء وكأنها تشارك الناس أحزانهم، هكذا يراها ابن
اللبانة:

وَمُرَّقَ ثَوْبُ الْبَرْقِ وَاكْتَسَبَ الدَّجَى حَدَادًا وَقَامَتْ أَنْجُمُ اللَّيْلِ مَاتِمًا^(٤٣)
ويقول ابن خفاجة ، وهو أصلاً من جزيرة شقر، في رسالة عزاء:

«كتاب قد أظلم بياضه في عيني وسواده، حتى تساوى طرسه ومداذه. فياله كتاباً ملىء اكتئاباً،
وقرطاساً لبس بدل الحداد أنفاساً! فلو أن الجهاد أمكنه البكاء لبكى، وأعلن بالعويل وشكا»^(٤٤).

ويقول عن غلام جميل قد خط عذاره:

وَأَفَى بِنَا وَلَهُ صَحِيفَةٌ صَفْحَةٌ جَعَلَ الْعِذَارُ بِهَا يَسِيلُ مِدَادًا
مُتَجَهِّمًا تِكَلَّ الشَّبَابَ وَإِنَّمَا لَبَسَ الْعِذَارُ عَلَى الشَّبَابِ حَدَادًا^(٤٥)

وطبقاً لأبن حزم كان السواد شعار الحزن في قرطبة، ويصرح بذلك في أبيات له يعلل فيها لماذا
كان يفضل الشقراوات من النساء:

وَأَبْعَدُ خَلْقٍ لِلَّهِ مِنْ كُلِّ حَكِيمَةٍ مُفْضَلُ جَرْمٍ فَاحِمٍ اللَّوْنِ مَسْوَدٌ
بِهِ وَصِفَتْ أُلُوَانُ أَهْلِ جَهَنَّمَ وَلِبْسُهُ بِأَكْثَرِ مِثْكَلِ الْأَهْلِ مُحْتَدٌ

(٣٩) من المتقارب، القلائد ١٤٤، ونفح ١٠٣/٤.

(٤٠) من البسيط، الذخيرة ٧٥٦/١، وسحول مدينة في اليمن.

(٤١) من الطويل، القلائد ٨٨.

(٤٢) من الكامل، نفح ٢٤٤/٤، ونقلها عنه بنو عباد ٢٣٠/٢.

(٤٣) من الطويل، الذخيرة ٧٨/٢، ونقلها دوزى في «بنو عباد» ٣٢٠/١ و ٣٧١.

(٤٤) ابن خفاجة، الديوان، القطعة ٢٦١، ص ٣٣١.

(٤٥) من الكامل، الديوان، القطعة ٩٨، ص ١٤٢، والنويرى، نهاية الأرب ٨٥/٢.

ومذْ لاحتْ الراياتُ سوداً تيقنَتْ نوسُ الورى الا سبيل الى الرشد^(٤٦)
وفى القرن الثانى عشر نلتقى بحمده، أو حمدونه. بنت زياد المؤدب، تقول فى وصفها لوادى
آش:

إذا سدلّت ذوائبها عليها رأيتَ البدرَ فى جُنْحِ اندادى
كأنَّ الصبحَ ماتَ له شقيقٌ فمن حُزنٍ تسرّبَ بالحداد^(٤٧)

ماذا يمكن أن نستنتج من كل الإشارات التى سبقت؟ إن عادة لبس البياض حزناً، وفى الحداد، لم يكن تقليداً عاماً بين الأندلسيين كما يمكن أن نفهم من بعض النصوص، ونخطئ على أية حال حتى. عندما نفهم من لفظ أندلسيين مدلولاً محدداً يعنى سكان الجنوب من شبه الجزيرة Amdalucia، لأننا وجدنا فى قرطبة بخاصة، حيث تبدو هذه العادة متأصلة، شوهده ونصوصاً متناقضة، وموضع خلاف فيما يتصل بهذا المعنى أو ذاك، حتى فى عصر الأمويين الذين اتخذوا من اللون الأبيض شعاراً قومياً معارضةً للعباسيين الذين كانوا يستخدمون الرايات السوداء^(٤٨)، ونعود فنؤكد أنه لا يوجد ما يسمح لنا أن نصدّق هذه الفكرة كيف استطاع زرياب وقد وصل إلى إسبانيا مع موت الحكم الأول وتولية عبد الرحمن الثانى، أى فى عام ٢٠٧ هـ = ٨٢٢ م، أن يجعل من ارتداء الملابس البيضاء فى الصيف «مودة» إذا كان هذا اللون شعار الحداد ومخصصاً للحزن؟. وفيما يتصل بالقرن العاشر فإن التناقض نفسه واضح أيضاً عندما نوازن بين المعلومة التى ذكرناها فيما سبق فى عام ٣٥٠ هـ = ٩٦١ م بمناسبة الفتيان الذين كانوا يرتدون «الظواهر أبيضاء شعار الحزن»، والعادة التى سجلها كتاب الأنواء، Calendario de Córdoba، فى العام نفسه ٩٦١ م أوصى بتغيير الملابس البيضاء فى شهر أكتوبر بملابس أخرى من الصوف بسبب البرد الذى أخذ يشتد تدريجاً فى هذا الفصل من العام.

هل يمكن أن نقبل أن اتخذ البياض شعاراً للحزن والحداد كانت تقوم به طبقات اجتماعية معينة فحسب فى المجتمع الأندلسى، على حين أن طبقات أخرى كانت ترتدى السواد؟ يبدو قريباً من المستحيل تحديد أى الطبقات كان يستخدم هذا وأيه كان يستخدم ذلك. ربما كان استخدام البياض يجرى فقط فى نطاق الأسرة المالكة، وحينئذ يمكن أن نقرر أن هذه العادة اختفت فى لقرن الحادى عشر تحت حكم ملوك الطوائف^(٤٩).

(٤٦) من الطويل ابن حزم، طرق الخمسة ص ٥٠، وترجمة نيكول ٤١، وطبعة برشيه ٧٦.

(٤٧) من الوافر، نفع ٢٨٨/٤، وبمناسبة الصريين أمراء غرناطة يقول د. كونتريراس: «لا يغيرون لون ملابسهم الأحمر إلاّ فى حالة الحزن، فيصبح أسود مثل المسيحيين»، دراسات وصفية ص ٢٦٤.

(٤٨) اتخذ العباسيون خلال حكم بنى أمية فى المشرق اللون الأسود شعاراً إشارة إلى الحزن بسبب موت شهدائهم الذين ينتمون إلى أسرة الرسول. انظر: دوزى، أبحاث ص ١ ص ١٥٠، وعدّ الفقرة فى معجم الملابس ص ١٩.

وكان عبد الرحمن الداخل فى إسبانيا أول من اتخذ البياض فجاءة شعاراً له، حين علق عمامة على سهم فى أحد المعارك. انظر تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ ج ١ ص ٢١٩ ورقم ٥.

(٤٩) جدير بالذكر أن تشير أن فكر، نسود بأنى عند الشعراء غالباً مرتبطة بكلمة «سج» ونعرف أن هذه امادة كانت متوفرة فى إسبانيا، ولا بد أن الأشياء التى فى لون السج كانت شائعة جداً. انظر ج. فراندس، العلاج والسج فى إسبانيا، ص ٢٢٧ - ٢٦٤، ومن المحتمل أنها لم تكن تلبس إلا فى الأحزان، وانظر: بنو عاد ٣٢/١ رقم ١٠٧.

لم يكن الشعر يكتفى بملاحظة الأحداث البارزة في الحياة فحسب، وإنما كان يحدّثنا أيضًا عن الحفلات والبهجة التي كانت تتميز بها كل مرحلة من مراحل العام المختلفة، ويشارك فيها كل سكان إسبانيا تقريبًا، بلا تمييز في العنصر أو الدين. وبعض هذه الحفلات ذو أصول إسلامية، وبعضها مسيحي أو فارسي أخذ بالكاد طابعًا إسلاميًا، وأورد لنا أبو بكر بن القوطية في أبيات توجه بها إلى الوزير أبي عامر بن مسلمة ذكر لنا فيها الأعياد الثلاثة الكبرى في إسبانيا الإسلامية منها:

دمت للمهرجان والعيد والنيـ رورز إلّفا من الحوادث سالم^(٥٠)

ويفهم ابن القوطية من العيد عيد الفطر حيث ينتهي صوم رمضان، وفي هذه المناسبة يتوجه الشعراء بالتهنئة إلى رعاتهم وحماة الأدب والشعر والفن، وهو تقليد نراه في جميع البلاد الإسلامية، ويبدو لنا من العبث أن نتوقف عنده^(٥١).



أما مهرجان النيروز، وهو فارسي الأصل^(٥٢) فلا يقع في أول شهر مارس كما هو الحال في المشرق، وإنما في الأيام الأولى من شهر يناير^(٥٣)، ويمكن أن يمتزج في إسبانيا الإسلامية مع احتفال رأس السنة، أو حتى مع عيد الغطاس، ويعتبر الأندلسيون الليلة التي تسبق عيد النيروز أنسب وقت للدخلة بالعروس^(٥٤)، ويقدم عادة في يوم الاحتفال، كما كان عليه الحال في المشرق في أيام الإسلام الأولى^(٥٥) الحلوى التي تشبه، دون أدنى شك ممكن، الحلوى التي تقدّم للملوك، ولكنها خالية من حبّات الفول مخبّأة في العجين لاختيار ملك. وكانت هذه الحلوى تصنع في شكل مدائن، ويقال عنها إنها مدائن من العجين، ووصفها لنا أبو عمران موسى الطرياني حين رأى صورة مدينة فأعجبته، فقال ملغزًا:

مدينة مسورة تجار فيها السحرة
لم تبّنها إلّا يدا عذراء أو مخدّره
بدت عروسًا تجتلى من دَرَمِك^(٥٦) مزعفره

(٥٠) من الخفيف، أبو الوليد الحميري، البديع ص ١٠٣.

(٥١) انظر فيما سبق ص ٢٠٣ من هذا الكتاب بمناسبة الهلال.

(٥٢) عن النيروز أو النوروز انظر: دائرة المعارف الإسلامية ٩٤٩/٣ والمصادر التي هناك، وكتب المادة ليفي برونفسال والنويري، نهاية الأرب ١/١٧٨، ودوزي، معجم الملابس ٢٧٠ ولكن الدكتور هـ. ب. ج رينو يرفض هذا التاريخ في B. E. A. العدد ١٥، نوفمبر - ديسمبر ١٩٤٣، ص ١٤٣.

(٥٣) أول يناير، طبقًا لتقويم قرطبة عام ١٩٦١ ص ١٨، ولكن هذا التاريخ رفضه هـ. ب. ج. رينو في B.E.A. العدد ١٥ (نوفمبر - ديسمبر ١٩٤٣) ص ١٤٣ - ١٤٤.

(٥٤) نفع ٦٢/٢ أوربا.

(٥٥) قدمت الحلوى إلى عليّ رابع الخلفاء الراشدين في يوم النيروز، انظر: الحصري، زهر الآداب ١٤٠/٤، وفتح الله، المواهب ١٥٣/٢.

(٥٦) الدررمة دقيق من أفرح الأنواع. انظر: دوزي، ملحق المعاجم ٤٣٧/١، والسقطي، رسالة في الحسية، ص ٢٨ من المعجم. وفي المشرق استخدم الأخطل الشاعر الكلمة بنفس المعنى في حوار مع الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان. انظر: الأغاني، طبعة ساسي ١٦٦/٧، وطبعة القاهرة الوطنية ٢٩٠/٨ ورقم ٣.

وما لها فاتيح إلى البنان العشرة^(٥٧)

واهتم الشعراء بالمادة التي تصنع منها الحلوى في هذه المهرجانات^(٥٨) فوصفوها لنا وقدموا لنا معلومات لا بأس بها عن الذين يقومون بإعدادها، وهن فتيات المنزل، وحدهن يصنعن العجينة من أرق أنواع الدقيق وأنظفها، وبعد أن تتضج الحلوى يقطعنها بالأيدي والأصابع دون استخدام السكاكين.

وفي عيد النيروز كانوا يقدمون الهدايا القيمة، وقد أهدى الشاعر ابن عمار ملابس من الحرير البحري، أو من صوف البحر كما كان يُسمى، وكان يُعتبر من أندر الأقمشة في تلك الأيام^(٦٠). وكان الشعراء ينتهزون الفرصة فيهنئون كبار الشخصيات شعراً^(٦١).

أما عيد المهرجان، وهو كعيد النيروز من أصل فارسي^(٦٢) فلم يكونوا يحتفلون به في شهر سبتمبر من كل عام كما عليه الحال في المشرق، وإنما كان يجري الاحتفال به في ٢٤ من شهر يونية. أي أنه يجرى في إسبانيا مختلطاً مع عيد سان خوان أو العنصرة^(٦٣). وقد تغنى الشاعر حسان بن مالك بن أبي عبدة تفتح الزهور في عيد المهرجان:

أرى المهرجان قد ستبشرا شدة بكى المزن واستعبراً
وسرّبت الأرض أمواهها وجلّت السندس الأخضرأ
وهزّ الرياح صنابيرها فضوّعت المسك والعنبرأ
تهادى به الناس الطافه وسامى المقل به المكراً^(٦٤)

وقد رأينا فيما سبق بمناسبة المهرجان أو عيد تحوّل لشمس في الصيف، أن مبشراً أمير الجزائر الشرقية أقام سباقاً للزوارق^(٦٥).

(٥٧) من الرجز، نفع ٦٣/٤، وسميونيت، تاريخ المستعربين ٨٢٠. وتوجد بقايا لهذه العادة ربما في «الفانيل»، وهو نوع من الحلوى في شكل شمعة أو شمعدان أو خبز صغير. يعدونه في تلمسان حتى اليوم ويقدمونه بمناسبة المولد النبوي. نظر: ر. مرسيد، اللهجة العربية المتحدثة في تلمسان ٢٧٧، وانظر أيضاً نصوص من عربية طنجة ١٣٠.

(٥٨) يتحدث ابن قزمان عن حفلة في شهر يناير، ولابد أنها كانت بمناسبة عيد النيروز، وفيه كانوا يعدون نرع من العجائن يسمى «حلون»، انظر: ديوان ابن قزمان لقطعة ٧٢ ص ٣٥٦ والتحليل في طبعة بيكل ص ٤٠٩.

(٥٩) سوف نعود فيما بعد إلى الحديث عن الحرير البحري و«أبو قلمون».

(٦٠) الحلة ١٦٢/٢، والقلائد ٨٥.

(٦١) مثلاً: ابن سارة يثنى الأمير المرابطي أبابكر بن إبراهيم في عام ٤٩٩ هـ = ١١٠٦ م. انظر: القلائد ١١٠. وأبو بكر بن المعين يثنى شخصية مجهولة، المطمح ٣٨٤.

(٦٢) عن هذا الموضوع انظر: دائرة المعارف الإسلامية ٥٥١/٣، كتب مادتها بليسنر، وليفي وروفسنال، إيسايا الإسلامية في القرن العاشر ١٧٢. وكانت الكلمة في إسبانيا تنطق بفتح الميم، معجم ائمة ص ١٩٨ و ٣١٨، وديوان ابن قزمان لقطعة ٣٤، ص ١٧٦.

(٦٣) نفع ٣٢٦/٣، ودوزي، أبحاث ط ١ ص ٥٧١ رقم ١، وملحق المعاجم ٦٢١/٢، وتاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ١ ص ٣١٢. وابن البيطار، رسالة Simples ترجمة ليكليرك في: ملاحظات وقصل، المجلد ٢٦، القسم الاول ٢٤٨.

(٦٤) من التقارب، المطمح ٢١٤، نفع ٥٤٧/٢، وليرشوندي وسميونيت، منتخبات أدبية، النص العربي ص ١٣٥ رقم ١٥٩، وسميونيت، تاريخ المستعربين ٢٨٠.

(٦٥) انظر فيما سبق ص ١٩٥ - ١٩٦ من هذا الكتاب.

تأقلم الأندلسيين هذا مع العادات المحلية والذي بدا فيها تنطوى عليه الحفلات التي انتهينا من دراستها لتلتقى به أكثر وضوحاً في الاحتفاء بالحفلات الأخرى وهي مسيحية أساساً، أو يهودية مسيحية في جوهرها، ونعني بذلك عيد الفصح أو القيامة، ولم يكونوا يحتفون به بأن يذهبوا إلى الكنائس، وإنما بالراحة التامة في هذا اليوم، واستغلال الفراغ بالذهاب إلى الريف للنزهة، ووجدنا بيتاً من الشعر لابن زيدون يصف المتنزعات في ضواحي قرطبة، وهو متميز في هذا الجانب:

وأيام وصل بالعقيق اقتضيتُهُ فالأ يَكُنْ ميعادُهُ العيدُ فالِفَصْحَا^(٦٦)

وكانت صلاة الاستسقاء^(٦٧) تتيح مكاناً رحيباً لمظاهر عظيمة، فتقام الصلوات في الهواء الطلق، ويتهاونون في قرطبة بهذه المناسبة^(٦٨)، ولكن لم يصف لنا أى شاعر من القرن العاشر أو الحادى عشر هذا المشهد، ومع ذلك فعندما عبر المعتمد إلى المغرب إلى منفاه في طريقه نحو أغمات، رأى في مكان لم يحده جماعة من المسلمين تجمعوا في الهواء الطلق ليؤدوا صلاة الاستسقاء، وأنشد في هذا الموضوع الأبيات التالية:

خرجوا لِيَسْتَسْقُوا، فقلتُ لهم: دمعى ينوب لكم عن الأنواء
قالوا: حقيق، في دموعك مَقْنَعٌ لكنها ممزوجة بدماء^(٦٩)



إذا كنا في الصفحات السابقة استطعنا أن نرى كيف أن الإسبان المسلمين اكتسبوا شيئاً من العادات الاجتماعية لمعاشرتهم المسيحيين، فهناك ممارسات أخرى في حياتهم اليومية تعود بالضرورة إلى رواسب وتينة قديمة، وتلعب فيها الكهانة والسحر دوراً هاماً، رغم أن الدين الإسلامى، وهو توحيدى في جوهره، عمل كل ما في وسعه لاقتلاعها والقضاء عليها.

وهناك فقرة بالغة الأهمية أوردتها المقرئ في كتابه نفح الطيب، جديرة بأن نوردتها كاملة، ومع أنه يقصد بها المعاصرين لجده بخاصة، لكنها تنطبق على الإسبان المسلمين بدقة كاملة، يقول:

«ولما ذكر مولاي الجدل الإمام قاضى القضاة بفاس سيدى أبو عبد الله المقرئ التلمسانى في كتابه «القواعد» شرط أهل قرطبة المذكور [وهو أن عملهم حجة في الفقه المالكي]، قال بعده ما نصه:

وعلى هذا الشرط ترتيب إيجاب عمل القضاة بالأندلس [وهو اشتراط الإمام على القاضى الحكم بذهب معين]، ثم انتقل إلى المغرب، فبينما نحن ننازع الناس في عمل المدينة ونصيح بأهل الكوفة مع كثرة من نزل بها من علماء الأمة كعلج وابن مسعود ومن كان معها:

(٦٦) من الطويل، الديوان ١٥٩، وانظر فيما سبق ص ١١٩ من هذا الكتاب.

(٦٧) عن صلاة الاستسقاء في الغرب الإسلامى انظر: أ. بيل، بعض الشعائر للحصول على المطر في زمن الجفاف عند المسلمين المغاربة، في مجموعة دراسات ونصوص نشرت تكريماً للمؤتمر الرابع عشر للمستشرقين... الجزائر ١٩٠٥ - ٤٩ - ٩٨، و. مرسية، نصوص عربية من تكررة ص ١٢ - ٢٧ و ١٩٧ - ٢٠٤ و ٢٠٥ - ٢٢٥، ومونشيكور، سلوك السكان الأصليين: الرى بالمطر (Thlob en No) في المجلة التونسية عام ١٩١٥.

(٦٨) ليفى يروفسنال، إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر، ص ٢٢٣ رقم ٣.

(٦٩) من الكامل، الديوان ٨٩، خريدة القصر ١١/١٤٤، وفي بنو عباد نقلاً عنها ١/٣٨٣. وفي نفح ١/٥٧٢ وفي المطمح ٢٤٩. توجد روايات ثرية عن صلاة الاستسقاء، وأم الناس فيها القاضى منذر بن سعيد البلوطى، في خلافة عبد الرحمن الناصر.

ليس التكُّلُ في العينين كالكَحَلِ

سنح لنا بعض الجمود ومعدن تقليد:

اللَّهُ أَخْرَ مَدَقَ فَتَأَخَّرْتُ حَتَّى رَأَيْتُ مِنَ الزَّمَانِ عَجَائِبًا

يا لله وللمسلمين، ذهبت قرطبة وأهلها، ولم يبرح من الناس جهلها، ما ذاك إلا لأن الشيطان يسعى في محو الحق فينسيه، والباطل لازال يلقيه ويلقيه، ألا ترى خصال الجاهلية كالنجاح والتفاخر والتكاثُر والطعن والتفضيل والكهانة والنجوم والحظ والتشاؤم وما أشبه ذلك، وأساءها كالعتمة ويثرب^(٧٠)، وكذا التنايز بالألقاب وغيره مما نهى عنه وحذّر منه، كيف لم تزل من أهلها، وانتقلت إلى غيرهم مع تيسر أمرها، حتى كأنهم لا يرفعون بالدين رأسا، بل يجعون العادات القديمة أسا، وكذلك محبة الشعر والتلحين والنسب وما انخرط في هذا السلك ثابتة الموقع من القلوب، والشرع فينا منذ سعمانة سنة وسبع وستين سنة لا نحفظه إلا قولا، ولا نحمله إلا كلاً^(٧١).

لقد اندهش هذا القاضي المدقق من بقاء الممارسات القديمة، وبسبب دراساته، وهي إسلامية في جوهرها، شوّه طبيعة تلك الممارسات ودرّها إلى عرب لجعلية، ومع أن استمرار هذه العادات والتقاليد القديمة التي يشير إليها جد المقرئ، وحتى تعود إلى أصول بربرية في شمال أفريقيا، نلاحظها أيضا في إسبانيا الإسلامية، ويمكن أن نعزوها هنا إلى ظهور التراث الإيرو روماني القديم فجاءة، مطعماً بالإضافات اليهودية المسيحية، والعربية البربرية، دون تسييرات عميقة. ولا يوجد شيء قوى تعبيراً عن روح الأندلس ونفسيته من هذه صفحة التي كتبها مؤرخ عن أحد أواخر خلفاء الأسرة الأموية في الأندلس:

«ولما كان هشام [المؤيد ابن الحكم الثاني] مندرجا في طي كافله الحاجب المنصور - رحمه الله - بحيث لا يُنسب إليه تدبير، ولا يُرجع إليه من الأمور قليل ولا كثير، إذ كان في نفسه وأصل تركيبه مُضعفا مهينا مشغولا بالنزهات، ولعب الصبيان والبنات وفي الكبر بمجالسة النساء، ومحادثة الإماء، يحرص بزعمه على اكتساب البركات والآلات المنسوبات: فكم ألقى بخزانته من ألواح منسوبة إلى سفينة نوح، ومن قرون منسوبة إلى كبش إسحاق، ومن حوافر منسوبة إلى حمار عُزير، ومن خفاف منسوبة إلى ناقة صالح، لم يسترب في تعددها، ولا فكّر فيما مقدار ما يحتاجه الحيوان منها، إلى مُصلّيات منسوبة لعباد، وأواني وضوء متوارثة عن زهاد: بهذا في ذلك من الأموال ما يزن أضعاف وزانها، وهي مجتلية من المجازر والمعاطي، ملتقطه من أيدي المخيث^(٧٢)».

(٧٠) العتمة تسمى بها الصلاة الأخيرة، أي صلاة العشاء، انظر: لسان العرب ٢٧٥/١٥. ويثرب هي مدينة النبي.

(٧١) نفع ٥٥٧/١.

(٧٢) الذخيرة ٨٣/٤، وأعمال الأعلام ٥٨.

● نص الذخيرة أطول وأكثر تفصيلا (انترجم).

وهذا الميل إلى الأشياء القديمة، سواء أخذت معنى سحريا أم لا، يعود جانب كبير منه إلى التربية المخنثة التي كان يتلقاها هؤلاء الأمراء خلال مراعاتهم، ويظل تأثيرها قنّا حتى في مرحلة النضج. وقد كان عبد الملك المظفر يجب في ساعات قراءته أن يرتدى البرنس، مختلطا بنسائه، أعمال الأعلام ص ٨٣. وقد هرب الخليفة استغنى بالله من قرطبة مرتديا زى امرأة وبين مرأتين، أعمال الأعلام ١٣٦. ويقول مؤرخ إن يحيى القادر أمير طليطلة تربى بين النساء ونشأ بين الحصيان والمغنيات، كتاب الاكتفاء، في «بنو عباد» ١٦/٣.

وبعد أن نقرأ الفقرة السابقة لا أحد يندهش من إعتقاد الأندلسيين في الحسد والسحر والكهانة وتأثير النجوم والتشاؤم من بعض الأعمال، وبالتالي لكي يقاوموا التأثيرات الضارة اعتقدوا في فعالية التمانم والأعمال السحرية، وأن لها قدرة على حمايتهم.

ولم يكن بوسع الأندلسيين إزاء الفوضى السياسية التي ضربت بأطنائها في مطلع القرن الحادى عشر، إلى جانب انعدام الثقة في المستقبل، وكانت هذه نتيجة حتمية لتلك، أن يصنعوا شيئا آخر غير الميل إلى الإيمان بالقوى الخفية، مرعية وفي الوقت نفسه لا تدركها الحواس. فراجت سراً كتب التنبؤ بالغيب، أو كتب الملاحم والحدثان كما كانت تسمى^(٧٣)، تبشّر بكوارج واضطرابات مشيرة، وأحدثت خللا عميقا وتشويشا حادا في أفكار أواخر ممثلى الدولة الأموية، وربما كانوا أكثر ميلا من بقية الأسر الأندلسية إلى تقبل هذه الأخبار المرعبة بسبب تربيتهم نفسها، والمحيط النسائى والمخت الذى نشأوا فيه. وقد لاحظ أهل التنجيم أنه في عام ٣٩٧ هـ = ١٠٠٦م سوف يلتقى كوكبان في برج السنبلة، وتنبأوا بقيام أسرتين تتقاسمان الخلافة^(٧٤). وكان أهل العلم بالآثر والتأثير يؤكدون أن دولة بنى عباد في إشبيلية سوف تبلغ نهايتها عندما تصل حدودها إلى مرسية^(٧٥).

وهكذا أصبح المنجم أو الفلكى في القرن الحادى عشر شخصية أساسية في كل البلاطات التي قامت في شبه الجزيرة، ورغم خطورته إذا أخطأ يتعاملون معه بمنتهى الاحترار له. وهم يعتقدون في علمه، ولكنه اعتقاد مصحوب بشيء من الشك، وإليك هذه الأبيات التي كتبها المعتمد إلى منجمه أبي بكر الخولاني بعد أن احتل المرابطون إشبيلية، ونحن معها بصدد هجاء مسل، في إيقاع خفيف الظل، ينضح قلحا سوف تبرره الأحداث تماما:

أرمدت أم بنجوميك الرمد	قد عاد ضدا كل ماتعد
هل في حسابك مانؤمله	أم قد تصرم عندك الأمد
قد كنت همس إذ تخاطبني	وتخط كرها إن عصتك يد
فالآن لا عين ولا أثر	أتراك غيب شخصك البلد
وتراك بالعذراء في عرس	أم إذ كذبت سطا بك الأسد
الملك لا يبقى على أحد	والموت لا يبقى له أحد ^(٧٦)

يظهر لنا الكثير من هذه الروايات أن الملوك الصغار في شبه الجزيرة كانوا يستنبئون أقل أحداث

(٧٣) ابن الخطيب، أعمال الأعلام ١٢٩، ونفع ٤٨٢/١، وتاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٢ ص ٣٦٠، وملحق المعاجم العربية ٥٢٢/٢. وكان هشام الثالث يعرف من خلال هذه الكتب أن أسرته سوف تهزم على يد شخصية نجية من سبتة، ويبدأ اسمها بحرف العين.

(٧٤) أعمال الأعلام ١٢٧.

(٧٥) مذكرات الأمير عبد الله (كتاب التبيان) فصلة مستقلة، النص ص ٩٢، والترجمة ١٢٩.

(٧٦) من الكامل، الذخيرة ٥٦/٢، وعنها في «بنو عباد» ٣٠٦/١. في معركة الزلاقة استطاع المعتمد رأى المنجم عشية المعركة. في المكان الذى كان يعسكر فيه جيشه فأنبأه بالطالع السعيد، وأن النصر سوف يكون حليفه في اليوم التالى. انظر: كتاب الاكتفاء، وعنه نقلها دوزى في «بنو عباد» ٢٢/٢. وكان أبو الفروح الجرجاني، الذى تحدثنا عنه فيما سبق منجما محدودا، وكانت تنبؤاته نجية على النقيض، وكان قد أعلن قرب نهاية باديس بن حبوس، ولكن هذا قتله بيديه. الإحاطة ٤٦٥/١، وتاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ٣٤.

الحياة. وقد شعر المعتضد في مرضه نه سيموت قريبا، لأن مطربه الصقلي غنّاه بخمسة أبيات عن أحزان الحياة، ويذكر المؤرخون أن الأمير لم يعيش بعد ساعه هذا الغناء غير خمسة أيام، وهى مصادفة غريبة^(٧٧).

وأما عن التشاؤم بالغراب فلن نتكلم عنه هنا لأنه معروف جيدا في الشرق والغرب على السواء. ومع ذلك نلاحظ أن النصارى أنفسهم كالمسلمين، لم يكونوا يتخذون أى قرار قبل أن يزجروا الطير، ويرضوا بما يأتى به تفاؤلاً أو تشاؤم، وإليك كيف تنبأ شاعر مجهول بأن السيد القنيزور متوجه للهجوم على بلنسية^(٧٨):

قولوا للذريق إن الحق قد ظهرا أو نقّده إذا ما طيره زجرا
سيوف صهاجة في كل معتريك تأتي لأطياريه أن تصدّق الخيرا^(٧٩)

وحضر عز الدولة أبو مروان عبيد الله، أحد أبناء المعتصم أمير المرية قبل أن تنهار دولتهم، مع الأمير يحيى بن أبى بكر قائد المراهطين غزوته إلى طسطة، فلما شافها، وضرب أخيبته بساحتها، سقط أحد ألوته من يد حامله، وانكسر الرمح، فطير قـم وتفاءل آخرون^(٨٠)، ولكن عز لدولة رأى فيه بشارة نصر، فقال:

لم ينكسر عود اللواء لطيرة يُششى عليك بها وأن تتأولا
لكن تحقق أنه يدق في نحر العدو لدى الوغى فتعجلا^(٨١)

كما لاحظنا فيما سبق هناك شعذات وخرافات ارتبطت ببعض الأشجار مثل السفرجل والتارنج^(٨٢)، وأشياء حيّة تمثل كائنات منعشة، ولها قيمة علاجية، ففى لورقة مثلا كانوا يتكون جراحة ذهبية تحمى المدينة من غزو هذه الحشرات، وذات يوم سرقّت هذه الجراد، ومنذ ذلك الوقت أصبح هجوم الجراد كارثة سنوية^(٨٣).

وكان المسلمون الإسبان يعتقدون في الحسد أيضا، ودأبنا قبل أنه لحماية أطفالهم من تأثيره الخطير كان يصنعون لهم التمانم^(٨٤). والسحر والشعوذة يمكن الممارسة أن تؤثر إلى حد، وهو ما أشار إليه الشعراء، ولكن ليس لدينا معلومات دقيقة عن وسائلها مثلا: ما المرأة التى يتكلم عنها ابن سارة فى

(٧٧) انظر: تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٣ ج ٣ ص ٨١ - ٨٢، والمصادر المذكورة هناك.

(٧٨) يبدو أن الاعتماد فى أغمات لم يتشامخ تخيرا من رؤية عدد من اعرابان يحوم فوق البيت الذى كان سجيناً فيه، والحق أنه فى هذه اللحظة عرف أنهم سمحوا لبعض نسائه بزيارته. الذخيرة ٧٦/٣، وعنها فى «بنو عباد» ٣١٨/١.

(٧٩) من البسيط، البيان المرب ٣٥/٤.

● لمعرفة تاريخ السيد ودوره فى الأدب والتاريخ، انظر كتابنا: ملحة السيد، ط ٣، دار المعارف بالقاهرة ١٩٦ (المترجم).
(٨٠) الحلة السراء ٩٠/٢.

(٨١) من الكامل، الملة ٩١/٢.

(٨٢) انظر فيما سبق ص ١٧٤ من هذا الكتاب.

(٨٣) القزوينى، آثار البلاد، ٣٧٣/١، والروض المبطر، رقم ١٦٢. ويوجدوا فى الورقة أيضا ثورين متقابلين من الحجر، مدفونين على بعد عميق، وعندما كشفوا عنها اجتاح قطمان الحيوان فى المنطقة وبه مهلك. وأسد من البازلت كانت له نفس الوظيفة السحرية فى حلب. انظر: ج. سوفاجيه، الجواهر المختارة من ابن شحنة، بيروت ١٩٢٣، ص ١٣٦.

(٨٤) انظر ما سبق ص ٢٦٣ - ٢٦٤ من هذا الكتاب.

الأبيات التالية، والتي لا نستطيع أن نرى فيها شيئا آخر غير الخيال؟

ومَهْفَهفٌ يَحْتَالُ في أَبرَادِهِ مَرَحُ الغصنِ اللَّذْنِ تحت المَارِحِ
أَبْصَرْتُ في مَرَاةٍ فِكْرِي خَدَهُ فَحَكَيْتُ فِعْلَ جَفُونِهِ بجوارِحِي
لا غَرَوُ أَنْ جَرَحَ التَّوَسُّمُ خَدَهُ فَالسَّحَرُ يَفْعَلُ في البَعِيدِ النَّازِحِ^(٨٥)

ويجب أن نضيف إلى ممارسة الاعتقادات الخرافية بعض العادات التي أخذت شكل طقوس ولكنها خالية من أى معنى لأن أصلها ضاع في ليل الزمن، وتمثل ما ندعوه الآن العناية والصحة والنظافة. لقد كان مسموحاً للنساء فقط أن يخبضن أكفهن، ويمكن أن نستنتج هذا بوضوح من الاهتمام الموجه إلى أبي المطرّف بن الدباغ، فقد قال فيه أحدهم:

خَصَابٌ لِعَمْرُكَ لا لِلنِّسَاءِ وَلَكِنَّهُ لِفُحُولِ الرِّجَالِ
فَرَدَّ عَلَيْهِ أَبُو الْمَطَرِفِ قَائِلًا:

يُهَانُ بِحَمَصٍ عَزِيزُ الرِّجَالِ وَيُعْزَى إِلَيْهِمْ قَبِيحُ الْفِعَالِ
وَيُغَرَّى ذَوُو النِّقَصِ مِنْ أَهْلِهَا بِتَلَطُّيخِ أَعْرَاضِ أَهْلِ الْكَمَالِ^(٨٦)

أما النساء فكنّ يخبضن أيديهن بالخناء، ويستخدمن في بعض الأحيان صبغة نجعل أصلها، وهكذا يتحدث أبو بكر محمد بن عياض القرطبي عن امرأة يحبها:

وَعَلَّقَتْهَا فَتَانَةٌ أَعْطَافُهَا تُزْرَى بِغَصَنِ الْبَانَةِ الْمِيَادِ
مَنْ لِلْفَزَالَةِ وَالْفَزَالِ بِحَسَنِهَا فِي الْخَدِّ أَوْ فِي الْعَيْنِ أَوْ فِي الْهَادِي
خَضِبَتْ أَنْامِلُهَا السَّوَادَ وَقَلْبًا أَبْصَرْتُ أَقْلَامًا بَغِيرَ مِدَادِ^(٨٧)

وكانت النساء تستخدم الكحل والإثمد في تجميل عيونهن، وتعرف المرأة الجميلة الغزلة كيف تزين وجهها بخال أو أكثر من عملها، وهو ما أوضحه ابن حزم في قوله:

فَقَدْ يُتَعَبُ الْإِنْسَانُ فِي الْفِكْرِ نَفْسُهُ وَقَدْ يَحْسُنُ الْخِيْلَانُ فِي الْوَجْهِ وَالنَّقِطُ^(٨٨)
تَزِينٌ إِذَا قُلْتُ، وَيَفْحَشُ أَمْرُهَا إِذَا أَفْرَطْتُ يَوْمًا، وَهَلْ يُحْمَدُ الْفَرْطُ^(٨٩)

وكان السواك المصنوع من خشب عطري يستخدم للعناية بالفم والأسنان، وهو أمر لا نعرفه مجتمعاتنا الغربية الأوروبية. يقول الأسعد بن بليطة:

أَرَى نَكْهَةَ الْمَسَاكِينِ فِي حُمْرَةِ اللَّمَى وَشَارِبَكَ الْمَخْضَرِ بِالْمَسْكِ قَدْ خُطَا
عَنِّي قَرْحٌ قَبْلَتِهِ فَبَاخَالَهُ عَلَى الشَّقَةِ اللَّمْيَاءِ قَدْ جَاءَ مَخْطَأًا^(٩٠)

(٨٥) من الكامل، القلائد ٢٦٠.

(٨٦) من النقيض الذخيرة ٢٥٢/٣.

(٨٧) من الكامل، نفح ٩١/٤.

(٨٨) عن المعنى الخاص لهذه الكلمة انظر: و. مرسية: ملاحظات حول نص طوق الحمامة، ص ٦٩، وإحاطته على الجرجاني، الكنايات، ص ١١٧ حيث يقول، بين أشياء أخرى: خيلان المتزوجة إذا غسلتها اختفت. وانظر أيضا: الجاحظ، البخلاء ١/٢٩، والهامش رقم ١٤، وترجمة بيلا ١٠٣، والهامش ٦٠.

(٨٩) من الطويل، طوق الحمامة ص ٦٩، وترجمة نيكول ٦١.

(٩٠) من الطويل، نفح ٥٢/٤.

وكان أبو تمام الحجام، وهو يعرف الأنفاه والأسنن جيداً بحكم مهنته، يقول في أسى مفاخرًا:
 فما للملك ليس يرى مكافئ وقد كحلت لواحظه بـورى
 كذا المسواك مطرَحاً مهاناً وقد أبقي جلاءً في الثغور^(٩١)

وأخيرًا يمكن القول إن العطور والمراهم كانت تستخدم على نحو شائع في كل طبقات المجتمع، ويستخدمها بكثرة الرجال والنساء على السواء.

وكثيرًا ما نرى في قصائد الشعراء الأندلسيين، وبخاصة حين يصفون الزهور، إشارات إلى العطور الأكثر انتشارًا في إسبانيا الإسلامية، ومن بينها: السوس الذى يحتوى على الخلق، وهو ضرب من العطر المزعفر، والعبير، وهو العنبر الرمادى، وزهرة السرين، وتشبه العنبر في رائحتها النفاذة، والورد وله رائحة العنبر أيضًا. ونجد الزعفران في ورد البنفسج والأقحوان رائحة ولونا، وأحيانًا يشار إليه بكلمة «ردع». والخشخاش وفيه نقاط سوداء يشبه اسك، وهو نوع من العطر الأسود، وإلى جانب العبير الرمادى نلتقى بالعنبر الطبيعى، فتيثا أو مفروك. والعنبر الأسود أى الند، ونجد الغالية، والمسك ويذكر بمناسبة الفاصوليا، والسوسن وتقائق النعمان وكان المسك هو العطر الذى يسيصر في إلحاح طاغ على حاسة الشم عند الأندلسيين، ويجدون في الريحان والبنفسج والأقحوان والنمّام والخشخاش والتيلوفر والورد والياسمين.

وكان أهل الأندلس يقولون: «يُستدل على الملوكة بالطيب في المواطن التى يكون الناس فيها غير معروفين، كالحمّام ومعارك الحرب، ومواسم الحج»^(٩٢).

وكان المعتمد، ملكًا وعاشقًا، يخاف أن تفصح حبيبته عن نفسها بأريج عطرها:

ثلاثة منعته عن زيارتنا خوف الرقيب وخوف الحاسد الخفي
 ضوء الجبين ووشواس الحلى وما تحوى معاطفها من عنبر عبق
 هب الجبين بفضل الكم نستره والحلى تنزعه، ما حيلة العرق؟^(٩٣)

وكان التشبيه بالعطور شائعًا بدرجة كبيرة في كل الشعر الأندلسى، وابن عائشة يرى في وطنه:

تربة مسك، وجو عنبرية وغيم ند، وطش ما ورد
 كأنما جائل الحباب به يلعب في جانيبه بالبرد^(٩٤)

ويقول ابن اللبّانة للأمير المعتمد، وكان هذا سجينًا في أغمات حين فُكَّت عنه القيود:

تنشق رياحين السلام فأنما أفض بها مسكًا عليك محتج^(٩٥)

(٩١) من الوافر، نفع ٤١٧/٣.

(٩٢) نفع ٤٣٠/٣.

(٩٣) من البسيط نفع ٤٢٩/٣، ودجيا، قصائد عربية ص ٣٣٣، «نظر فيما بعد ص ٢٦٥ من هذا الكتاب. وقارن يابن زيدون.

ديوان ص ٢٥، البيت ١٦، طبعة كاس كيلاني، وألف ليلة ويلة، اللبلة الثمانين بعد المئة، طبعة بولاق ٣٥١/١.

(٩٤) من المنسرح، نفع ١٥٨/٤.

(٩٥) من الطويل، الذخيرة ٧٧/٢، وفي «بنو عباد» ٣٦٩/١.

ويتساءل أبو أيوب بن أبي أمية:

أَمْسِكْ دَارِينَ حَيَّاكَ النَّسِيمُ بِهِ أَمْ عَنِ الشَّحْرِ أَمْ هَذِي الْبَسَاتِينُ
بِشَاطِئِ النَّهْرِ حَيْثُ النَّوُورُ مُوْتَلَقٌ وَالرَّاحُ تَعْبَقُ أَمْ تَلِكِ الرِّيَّاحِينَ^(٩٦)

ويفكر ابن عمار في دارين أيضاً على النحو التالي:

مَاضِرٌ لَوْ نَبَّهْتُهُ بِتَحِيَّةٍ يَسْرَى النَّسِيمُ بِهَا عَلَى دَارِينَ^(٩٧)
وَإِنْ عَيْشُونَ يَشْكُرُ أَبَا نَصْرِ الْفَتْحِ بْنِ خَاقَانَ لِأَنَّهُ أَهْدَى إِلَيْهِ خَاتِماً وَغَفَارَةً أَى بِرِنَسَا:
نَشَقُّنَا مِنَ الْمَجْدِ الْمُؤْتَلِّ نَفْحَةً تَزِيدُ عَلَى النَّدِّ الْمَثْلَثِ وَالْمَسْكِ
وَمَا ذَاكَ إِلَّا أَنْ سَأَلْتُ فِجَادَ لِي أَبُو نَصْرِ الْأَعْلَى بِبِرِنَسِهِ الْمَسْكِ^(٩٨)
وَلَكِنْ الْعَطُورُ لَا تَوْثِرُ بِقُوَّةٍ إِلَّا إِذَا أُلْقِيَ بِهَا عَلَى الْفَحْمِ الْمَشْتَعِلِ فِي مَوْقِدٍ أَوْ مَجْمَرَةٍ، يَقُولُ ابْنُ زَيْدُونَ:

بَنَى جَهَّورٌ أَحْرَقْتُمُو بِجَفَائِكُمْ فَوَادَى، فَمَا بِالِ الْمَدَائِحِ تَعَبَقُ
تَعْدُونَنِي كَالْعَنْبَرِ الْوَرْدِ، إِنَّمَا تَفُوحُ لَكُمْ أَنْفَاسُهُ حِينَ يُحْرِقُ^(٩٩)

ويقول أبو بكر بن رُحَيْمٍ في قصيدة مدح:
وَنَشَرْتُ بَعْضَ خَلَالِهِ فَكَأَنِّي
وَكُتِبَ ابْنُ عَمَّارٍ إِلَى الْمُعْتَمِدِ:

وَمَا هَذِهِ الْأَشْعَارُ إِلَّا بِمَجَامِرُ تَضَوَّعَ فِيهَا لِلْنَدَى قَطْعُ النَّدِّ^(١٠٠)
وَيَقُولُ أَيْضًا:

نَغْتَنُّهَا وَشَيْئًا بِذِكْرِكَ مَذْهَبًا وَفَتَقْتُنَهَا مَسْكًَا بِحَمْدِكَ أَزْفَرَا
مَنْ ذَا يَنَافَحُنِي وَذِكْرَكَ صَنْدَلُ أَوْرَدْتُهُ مِنْ نَارِ فِكْرِي بِمَجْمَرَا^(١٠١)

ويعبر المعتصم أمير المرية عن الفكرة نفسها بطريقة أكثر بلاغة حين يرسل إلى بعض حُرَمِهِ في رقعة طيِّرها إليها في جناح حمامة يقول فيها:

وَحَمَلْتُ ذَاتَ الطُّوقِ مَنَى تَحِيَّةً تَكُونُ عَلَى أَفْقِ الْمَرِيَّةِ مَجْمَرَا

(٩٦) من البسيط، نفع ٥٥٠/٣. الشجر منطقة في جنوب شرقي الجزيرة العربية.

(٩٧) من الكامل، الحلة ١٥١/٢، وبنو عباد ١١٠/٢. ودارين ميناء في البحرين، حيث يستقبلون العطور الواردة من الهند.

(٩٨) من الطويل، القلائد ٢٩٠. والند المثلث عطر مكون من ثلاثة عناصر، انظر: دوزي، ملحق المعاجم ١٦٣/١.

(٩٩) من الطويل، الديوان ٥٩٠، وكور، ابن زيدون ٩٧ ورقم ٢، والمعجب ص ١٠٦، وترجمة جافنان ٩١. ويقول أبو تمام:

لَوْلَا اشْتِعَالُ النَّارِ فِيهَا جَاوَرَتْ مَا كَانَ يَعْرِفُ طَيْبُ عَرَفِ الْعُودِ

من الكامل، الديوان ص ٣٩٥.

(١٠٠) من الكامل، القلائد ١١٨.

(١٠١) من الطويل، القلائد ٨٩.

(١٠٢) من الكامل، القلائد ٩٧.

تَبْلُغُ من وُدِّي إِلَيْكُمْ رَسَالًا بِأَتَقِ من نَشْرِ العَيْرِ وَأَعْطَا (١٠٣)
 وذكر الشعراء أيضًا أواني العطور، وهي: النفيجة، وتحتوى على المسك عادة، يقول لَبِو بكر بن
 رَحِيم في رسالة إلى أخيه أبي الحسن يهنئه بمولود:

خَلَصْتُ إِلَيْكَ مع الْأَصِيلِ الْأَنْوَرِ أَمْنِيَّةٌ مِثْلُ الصَّبَاحِ الْمَسْفَرِ
 غَرَاءَ إِلَّا أَنَّهُا من خَطَرِي بِمَكَانِ أَسْوَدِ نَاطِرِي من مَحْجَرِي
 أَرَجْتُ شَدَا أَرْجَاؤَهَا فَكَأَنَّهُا قَدْ ضُمَخَتْ بِخَالِخٍ من عَنَبِ
 أَهْدَتْ إِلَى مع النسيم تَحِيَّةً فَتَقَتْ نَوَافِجُهَا بِمَسْكِ أَذْفَرِ (١٠٤)

ويمكن أن نلاحظ في الأبيات التي سبقت بعض الإشارات إلى الأواني المخصصة لحفظ العطور
 والحنوط والمواد ذات الرائحة. فقد كانت العطور تحفظ في سلال صغيرة من الجلد تسمى «جونة»،
 وتحفظ المراهم في علب تسمى «مُدهن»، أو «مُدهنة»، وأما «الشَّامَة» فكانت مخصصة لحفظ أغلى
 أنواع العطور (١٠٥).

إن كثرة الأسماء المشرقية الأصل مثل: «دارين» و«الشحر» تجعلنا نعتقد أن معظم العطور
 والأخشاب المعطرة كانت تستورد من المشرق، ومع ذلك، هناك شعراء يتحدثون عن «الهاوون» ويده،
 أي «الفهر»، وفيه كانت تسحق المراهم والعطور. وتدلنا فكاهة رواها المقرئ على أن حشب عود
 الأَلَنْجُوج (١٠٦) كان يوجد في إسبانيا، وله كل صفات أنواع الهندى عطرًا ورائحة، وأصل متبته كان بين
 أحجار الجبال في ناحية دلالية، من إقليم البشترات، وحملوا شجرته يوما إلى خيران الصقلي أمير المرية،
 فأمر بأن تغرس في ضواحي هذه المدينة.

ويقول المقرئ أيضا إنه كان يوجد في سواطيء منطقة الغرب، وأن شجر عود الأَلَنْجُوج كان ينمو
 أيضا في أكشونية على جبل هناك، ويتصوَّع ريح عوده ذكيا إذا أرسلت فيه النار (١٠٧)، [ويحذر شدونة
 يوجد العنبر الطيب الغربى، وفي جبل مُنت ليون المحلب]، وأن إسبانيا كانت تنتج القَسَط الطيب
 والسنبُل الطيب، وكلاهما من نوع جيد (١٠٨).



هذه العطور على قَلْتِهَا، كما رأينا، تشهد بعامية على أن هناك ذوقا قويا يميل إليها، ويُتَذَوَّر روائعها،

(١٠٣) من الطويل، الحلة ٨٤/٢، وانظر فيها سبق ص ٢٢٣ من هذا الكتاب.

(١٠٤) من الكامل، القلائد ١١٦.

(١٠٥) وجود «بطيخ من الند» الذي وصفه المتنبي في ديوانه، ٢٥٤/١ طبعة البرقوقى و ٢٠١ - ٢٠٢ طبعة صادر، لم يرق شاهد

على وجوده في إسبانيا في القرن الحادى عشر.

كانت الجواهر تحفظ في علب تحمل أسما مختلفة مثل: حق، وانظر فيها إلى ص ٢٨٩ من هذا الكتاب، ومخزنة، واخر، وصفها فيها

سبق ص ١٦٠ - ١٦١ من هذا الكتاب.

(١٠٦) نفح ١٤١/١، وعن عود الأَلَنْجُوج انظر: رينو وكولين التحفة رقم ٢٩٧ و ٣٠٨.

(١٠٧) تحت حكم الحكم الثانى، في عام ٣٦٣ هـ = ٩٧٣ م، وجد حسن بن جنون قطعة كبيرة من العنبر، جعل منها مسورة.

انظر: ليفي برونفسال، قطع تاريخية عن البربر في العصر الوسيط ص ١١.

(١٠٨) نفح ١٤١/١، والدمشقى، نبهة الدهر، الترجمة الفرنسية ص ٢٤٥ عن «العنبر في شننرين وأشيرة وأكشونية».

والتي لا يكاد مجتمعنا يتحملها لنفاذ أريجها. ويظهر لنا ميل الأندلسيين إلى استخدام التوابل اللازمة في الطهي على أنهم كانوا يحبون الإثارات القوية.

والشعر. وهو في حالتنا هذه ذو قيمة عالية، يقدم لنا معلومات عن أشهر المأكولات في القرن الحادى عشر، وإذا لم نجد قصائد في الطهي من النوع الذى كتبه فيما بعد أبو عبيد الله بن الأزرقي، المتوفى ٨٩٥ هـ = ١٤٨٩ م^(١٠٩) فنستطيع على الأقل أن نستخلص معلومات هامة من بعض المقطوعات المتناثرة في المصادر المختلفة.

لا يبدو أن الأطباق الأكثر شهرة في أيام زرياب، وعلى طريقته، وشاعت في القرن التاسع الميلادى، كانت معروفة في القرن الحادى عشر^(١١٠). وإذا كان الفول أخضر ومطهيا، إلى جانب الخرشوف^(١١١) والعصيدة^(١١٢)، يمثل الغذاء الأساسى للطبقات الفقيرة والمعوزة، فقد كانت هناك أطعمة وأطباق أخرى تتطلب فنا أكثر، وتجعل مأكولات الطبقة المتوسطة والعليا أشهى وألذ. يقول ابن عمّار: سَنَنْتُ الْمَثْلَثَ لِلزَّعْفَرَانِ وَمَلْتُ إِلَى خُضْرَةٍ فِي التَّفَايَا^(١١٣)

وقد أحسَّ الْمُتَفَتِّلُ بخيبة أمل كبيرة ذات يوم لأنَّ أحد أصدقائه جهَّز مِرْقَاسًا ونسى أن يدعوه رغم أنه كان قد وعده بذلك:

يَا أَجْوَدَ النَّاسِ بِمَا عِنْدَهُ إِلَّا إِذَا اسْتَعْمَلَ مِرْقَاسًا
فَإِنْ يُنْهِنَهَا عُدْرُهُ بَيْنَ إِذَا لَمْ يَجِدْ فِيهِمْ أَنْفَاسًا^(١١٤)

وقال أيضا:

لَا آكُلُ الْمِرْقَاسَ دَهْرِي لَتِيَا وَيَلِ الْوَرَى فِيهِ قَبِيحُ الْعِيَانِ
كَأَنَّمَا صَوْرَتُهُ إِذَا بَدَتْ أَنَامِلُ الْمَصْلُوبِ بَعْدَ الثَّمَانِ^(١١٥)

وكان الأندلسيون يتذوقون طعم المجنّات ويجذونه جملا، وهو لون من الفطائر المحشوة جبنا، وتؤكل ساخنة، يقول أبو الحسن بن جابر الدباج:

أَحْلَى مَوَاقِعِهَا إِذَا قَرَّبْتَهَا وَبُخَارُهَا فَوْقَ الْمَوَائِدِ سَامِ
إِنْ أَحْرَقْتَ لَمَسًا فَإِنْ أَوَارَهَا فِي دَاخِلِ الْأَحْشَاءِ بَرْدُ سَلَامِ^(١١٦)

(١٠٩) نفح ٢٩٨/١ - ٣٠٣، وهى قصيدة من ٩٤ بيتا.

(١١٠) ج. س. كولين: وثيقة جديدة عن لهجة الغرب العربية في القرن الثانى عشر، ص ١٣ ورقم ٣ وما بعدها: زرياب.

(١١١) انظر فيما سبق ص ١٧٦ - ١٧٧ من هذا الكتاب.

(١١٢) كثيرا ما يشير ابن قزمان إلى هذا الطبق الشعبى، انظر: الديوان، القطعة ٦٧، والمعجم ص ١٤٣ و ٥٤٥.

(١١٣) من المتقارب، نفح ٣٢٦/٣، ودوزى ملحق المعاجم ١/١٦٣. وطبقا لتعليق المقرئ فإن «التفايا» لون من الطعام يعمل بالكزبرة، انظر: نفح ٣٢٦/٣، وملاحظة دوزى في رسالة إلى فليشر ص ١٥٥.

(١١٤) من السريع، الذخيرة ٧٥٨/١، وعن المرقاس أو المركاس انظر: السقطى، رسالة في الحسبة، طبعة ليفى بروفنسال، ص

٤٣ والمعجم اللغوى ٢٧٢، والمعجم ص ١٨٤ و ٤٦١.

(١١٥) من السريع، الذخيرة ٧٥٩/١.

(١١٦) من الكامل، نفح ٤٦١/٣، والتعبير الأخير يشير إلى الآية القرآنية المتصلة بإبراهيم: «قلنا يا نار كونى بردا وسلاما على

إبراهيم»، سورة إبراهيم ، الآية ٦٩.

وهناك مثل أندلسي يقول: «من دخل شريش ولم يأكل بها المجنّات فهو محروم»^(١١٧).



كان الجبن معروفا كما نرى، ومشتهر من بينه جبن شريش، وتساءل بعض الكتاب عما إذا كان جبن الروم، أي المسيحيين، غير محرم، وألف الطرطوشي في هذا كتابا أسماه: «في تحريم جبن الروم»^(١١٨).

كان الأندلسيون يختلفون عن المشارقة لا في طريقة إعداد طعامهم فحسب، وإنما أيضا في عادة لباسهم. وإذا كانت هناك أسماء أقمشة غير أندلسية، وهو ما حدث لغويا مع العطور نفسها والتي أشرنا إليها من قبل، إلا أن هذا لا يدل بالضرورة على أنها كانت كلها مستوردة. وتبرّد أسماء مثل: رختاجي، وهو قماش مصنوع في نيسابور، وتستري، وهو مصنوع في تستر، والوشى، وهي أقمشة مرسومة، واللاضى، وهو قماش من حرير اللاض، والعصائب، وهي أقمشة حمراء، والسوسى، وهي أقمشة إما صنعت في سوس تونس، أو في سوس خوزستان^(١١٩). وعندما وصف أبو محمد بن السيد البطليوسي الملابس التي يرتديها الأمير عبد الرحمن الظاهر بن ذى النون في حفلاته، بدا سعيدا وهو يجمع أسماء كل الملابس الشرقية التي توحى بالثراء، وجمال الأقمشة وفخامتها

ومجلس جمّ الملاهى أزهر
لم تر عيني مثله ولا ترى
أفسّ في نفسى وأبهى نظرا
إذا تردّى وشيه المصورا
ونسج قرقوب ونسج تئرا
خلت الربيع الطلق فيه نورا^(١٢٠)

ومع أنهم ظلوا يستوردون بعض الأقمشة، لكن كثيرا منها كان يصنع في إسبانيا، فكانت مصانع المرية تنتج الإصبهاني، نسبة إلى إصبهان، والجرجاني، نسبة إلى جرجان، والعنابي والسقطنون، وكانا مما اقتصت به بغداد وأنطاكية^(١٢١).

ثمّ الأقمشة ذات البريق الذهبي، وتسمى أبو قلمون^(١٢٢) فكانت تصنع من صوف البحر، أو بالدقة من نبات بحري يلتقط من على شواطئ الإطلنطى قبالة شنترين^(١٢٣)، وتنتجه مصانع أندلسية،

(١١٧) نفح ١/٨٨٤، وليعى بروفيسال. إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر ص ١٨٩. وقد دخلت الكلمة اللغة الإسبانية بمعناها في صورة almojabana. انظر: جوثالث بالنتيا، الإسلام والغرب، ص ٣٨.

(١١٨) نفح ٢/٨٨.

(١١٩) يوجد هذا الاسم في الطبرى، المئوي ٣١٠ هـ = ٩٢٣ م. انظر: نفح ٥/١١٥، وفيها يتصل بالقرن الحادى عشر في إسبانيا نجده مرتين في كتاب البديع في وصف لربيع لأبي الوليد الحميرى، ص ٣٦ و ١٤٠. وانظر أيضا: الإدريسي، الاستبصار، النص العربي ٩ الترجمة ١٧، وجورج مرسية، العرب في بلاد البربر، ص ٢٧ و ١٥٦ و ٢٣٠.

(١٢٠) من الرجز، نفح ١/٤٣٠، وصنعاء يعقرب في اليمن، وقرقوب ونستر في إيران، وانظر فيها سبق ص ١٤٦ الهامش رقم ٤ من هذا الكتاب.

● البيت الأول لا يوجد في نفح الطيب، وإنما هو في أزهار الرياض، وارتضيته لتوضيح المعنى (المترجم).

(١٢١) الإدريسي ٢٤٠، ونفح ١/١٦٣، والتويرى، نهاية الأرب، ط ٢ ج ١ ص ٣٥٦، وتوجد كلمة عتاني وعنابي.

(١٢٢) عن هذه الكلمة انظر: دائرة المعارف الإسلامية ودوزى، ملحق المعاجم ١/٨٥٣، مادة صوف، وميتز، الحضارة الإسلامية

٤٣٣ ورقم ١٢، وترجمة فيلا ٥٤٧ ورقم ٤.

(١٢٣) القزوينى، آثار البلاد ٣٦٤، وكثفوا بمصدونه أيضا في تونس وساحل مصر، انظر: ياقوت، للعجم ١/٨٨٢

ورأينا فيها سبق كيف أن ابن عمّار أهدى ثوبا من هذا الحرير إلى المعتمد بمناسبة عيد النيروز^(١٢٤).

وإذا كانت إسبانيا في القرن الحادى عشر تنتج بنفسها معظم الأقمشة التى تحتاج إليها إلا أنها استعارت أكيدا من المشرق شكل بعض الملابس التى يلبسها أهلها، مع تغيير بسيط، ولو أننا لا نعرف دائما طبيعة هذا التغيير بدقة. وهناك أنواع أخرى من الملابس أندلسية الأصل، وبما أنها تحمل أسماء شائعة في الأدب المشرقى فمن الصعب تحديد مصدرها تماما^(١٢٥). ويمكن أن نقوم بتصنيف مختصر للتمييز بين ملابس الرجال وملابس النساء.

كانت النساء ترتدى الدرع أو القميص، والمطرف، والحلّة، والغلالة، والمئزر أو الإزار، وهى قطعة من القماش تستخدم كمعطف لتغطية الجزء الأسفل من الجسم، والبرّد، وهو معطف يغطى الجزء الأعلى منه، والمُستَمَلّة، وهو معطف يغطى الجسم كله، والقباء، وهو رداء صغير، والجلباب، والصدار، وهو قميص صغير، والسروال، والتكّة، وهى رباط يشدّ به السروال إلى الوسط، والخمار، والمقنع أو البرقع، وهى طرحة تغطى الرأس، واللثام، وهو لستر الفم.

أما الرجال فيرتدون الظهارة، وهى عباءة خفيفة، والشعار أو الدثار، وهما ملابس داخلية، والصدرة أو القميص، والسروال، والمعرض، وهو لباس المقابلات والحفلات، والغفارة أو البرنس، وهو عباءة بغطاء للرأس. وكان الخصيان يرتدون الخمار، وهو غطاء الرأس^(١٢٦).

ويمكن القول أنه أمكننا بفضل الشعر أن نحدّد الفرق بين المئزر والبرّد، يقول الشاعر أبو بكر بن حجاج فى بيت من قصيدة له:

وما الفصْنُ إلّا ما انثنى تحت بُردِهِ وما الدّعْصُ إلّا ما طوّته مآزِرُهُ^(١٢٧)

ويعبر ابن زيدون عن الفكرة نفسها فى بيت له، مستخدما كلمة درع بدل مئزر، ومرط مكان مئزر^(١٢٨)، وفى بيت آخر يستخدم مثل ابن حجاج، كلمة مئزر ولكن فى مقابل كلمة مطرف^(١٢٩). والبرد والمطرف لا يغطيان إلّا النصف الأعلى من الجسم، والمئزر والمرط النصف الأسفل، أى من

(١٢٤) انظر فيما سبق ص ٢٧٢ من هذا الكتاب.

(١٢٥) انظر مثلا حالة «غفارة»، فهى قلنسوة فى المشرق، وعباءة فى الأندلس. انظر فيما سبق من هذا الكتاب ص ٢٨٠.

ولمعرفة المزيد عن الملابس انظر: دوزى، معجم الملابس، و ج. مرسية، الملابس الإسلامية فى الجزائر، فى الفهرس.

(١٢٦) انظر فيما سبق ص ٢٣٤ من هذا الكتاب. فقد رأينا أن المستعربين، أى النصارى، كانوا يضعون لباسا أسود على رؤوسهم، ويسيه الشعراء أيضا خمارا، انظر فيما سبق ص ٢٥٤.

(١٢٧) من الطويل، نفع ٤٨٦/٣، وقد وضع ابن الرومى الغلالة فى مقابل الإزار، انظر: ابن رشيق، العمدة ٢٢٦/٢، والبيت

من الطويل، قافية الرءا مضمومة.

ويؤكد ابن بَنق المعنى الخاص لكلمة إزار، يقول متغزّلا:

وهيفاء يحكيها القضيْب تآردا إذا ما انثت فى الرِيط أو حبراتها

يضيق الإزار الرحب عن ردفها كما تضيق بها الأحشاء عن زفرتها

وهى من الطويل، القلائد ١٨٧. وعن الإزار انظر: ابن قتيبة: عبون الأخبار ٤٦/٤، وعن التقابل بين إزار ورداء انظر:

جودفروى - ديمومين، الحج إلى مكة ص ١٧٢.

(١٢٨) من الطويل، الديوان ٢٨٧، وكور، ابن زيدون ٧٨.

(١٢٩) من الطويل، الديوان ٤٨٢.

الوسط حتى القدم، وإذا استخدمنا لها مصطلحا فرنسيا قلنا إن الأول هو Cape والثاني Juce^(١٣٠). ويبدو لنا أن الأندلسيين لم يكونوا يلبسون العمامة، ولا البرنس قبل مجيء المرابطين ويؤكد هذا ما رواه ابن الأبار في الحلة لسيراء، يقول:

«ثم تحرك ابن تاشفين من العدو بعد وقعة الزلاقة، وأجاز البحر إلى الأندلس، وتقدمه سفير بن أبي بكر، فلم يخرج إليه المعتمد لبطالة كان منغمسا فيها، وكانت أول وحشة وقعت بينهما. ثم توجهوا جميعا إلى حصن أليبط من أعمال لورقة - وقد تغلب عليه النصارى - فخرج المعتمد ليلقاهم وينزلهم مؤديا حق ابن تاشفين ومن معه، فأخجله المعتمد بتياسره عن طريق لقائه فكتب إليه:

يا بعيدا وإن دنا كم تمنيت قريبا
أنت حسبي من أمتي ليتني كنت حسبا

وتلاقيا بعد ذلك عند ابن تاشفين في تلك الغزوة، والمعتمد قد تزىي بحمل العمامة ولس البرنس، يتقرب بذلك على عزمه، فنظر إليه المعتمد، وفهم المعتمد أنه يهزأ به وانصرف، فضاحك اعتمد في ذلك من جالسه من الوزراء. وأهدى ذو الوزارتين أبو الحسن بن اليسع منهم عشي ذلك اليوم من نرجس، فكتب إليه المعتمد، معرضا بابن عمادح بأبيات منها:

ولقد ذكرت فزاد عيني قرة هون السبال وخزى رب البرنس^(١٣١)

ومع ذلك لا يمكن القول إن العمامة والبرنس كانا مجهولين لدى الأندلسيين، ولو أن العمامة ظل رتداؤها في الحقيقة وفقا على القضاة والعلماء فحسب، دون غيرها، وكانوا يعتبرون ارتداء الجند لها مخالفا للشرع. ونرى ذلك واضح يوم أن فكر عبد الرحمن شنجول قبل أن يتحرك في غزونه ضد ليون عام ١٠٠٩م، في أن يحل العمامة محل الطيلسان، وفكر في أن يرتديها هو نفسه، وشد من أنكى ما ارتكب حمله «رجال المملكة وذوى الهيئات من طبقات الخدمة» [بطرح قلائسهم، والانتقال عنها إلى العمامات، ومن فرط في ذلك عوقب، فلبسوها على كره، وكانوا بها أقبح منظر، وأهجن زى وملبس، لمخالفة العادة]^(١٣٢). وفيما يتصل باجرنس نعرف أن الأمويين كانوا يستخدمونه، وقد قدَّه الحكم الثاني واحدا منه إلى أردون الرابع عند رحلته إلى قرطبة عام ٣٥٢ هـ = ٩٦٣ م^(١٣٣)، وكان عبد الرحمن شنجول نفسه يرتدى البرنس عندما يكون وسط نسانه^(١٣٤).

(١٣٠) السقطي يستخدم جمع الكلمة مآزر بمعنى اللباس الذي يرتديه الذين يعملون في الحمامات، رسالة في الحسية ٦٧، ومعجمها ١١، مما يتفق مع المعنى الذي يرد في النصوص الشعرية، ولكن ابن عبدون يستخدمه بمعنى لباس يوضع على الرأس يختلف عن التمام واللام. انظر: رسالة ابن عبدون في الحسية، ص ٢٥٥ من المعجم.

(١٣١) من الكامل، الحلة ٨٥/٢ وما بعدها، وفي أبحاث ط ١ ص ١٤٥، والترجمة ص ١١٨، وتاريخ مسلمي أسبانيا، ص ٢ ج ٢ ص ٢٨٣.

(١٣٢) انظر: التويري، القسم الخاص بالأندلس في نهاية الأرب، نشره جبار رميرو بالعربية وترجمه إلى إسبانية بعنوان: «تاريخ مسلمي إسبانيا وأفريقيا»، ودوزي، معجم الملابس ٣٠٨، والبيان المغرب ٤٨/٣، وتاريخ مسلمي إسبانيا ٢٨٣/٢. (١٣٣) ابن حيان في نفع الطب ٣٩٠/١ وروزي في معجم الملابس ٧٩. وهذا البرنس كان منسوجا بالذهب، له موزة مفرغة من خالص التبر، مرصعة بالجوهر والياقوت وعن تاريخ البرنس انظر: ج. مرسية، عادات الجزائر الإسلامية، ص ١٧ - ٢٣. (١٣٤) أعمال الأعلام ٩٠.

ومع مجيء المرابطين انتشر استخدام البرنس سريعا، وثمة فقرة في كتاب القلائد تجعلنا نميل إلى الاعتقاد بأن البرنس كان هو الغفارة نفسها^(١٣٥). وشاع أيضا لبس العمامة، وحتى الفرسان والجنود كانوا يلبسونها^(١٣٦).

ويبدو أن استخدام الجلود، والملابس المبطنّة بها، كان عادة واسعة الانتشار^(١٣٧)، وكثيرا ما يتردد ذكر فرو الأرانب، وفرو حيوان آخر يدعى الفنك في أبيات الشعراء. يقول أبو القاسم بن السقاط: تُطاعننا فيه تُدئى نواهدُ نَهْدَنَ الحربي والسنورُ أفناكُ^(١٣٨) ويصف ابن سارة فروا له:

أودتْ بِذاتِ يَدَي فُرْيَةٍ أرنبٍ كفؤاد عُرْوَةٍ في الضنى والرقية
إن قلتَ باسمِ الله عند لباسها قرأتُ عليّ إذا الساءُ انشقتُ
يتجشّمُ الفراءُ في ترقيعها بعد المشقة في قريب الشقة
لو أن ما أنفقتُ في إصلاحها يحصى لزيد على رسال الدجلة

وبما أن هذه الفراء كانت تأتي من الشمال، فإن الحيوان الذي تطلق عليه كلمة فنك لا يمكن أن يكون ثعلب الصحراء Fennec، والذي يعيش في شمال أفريقيا فحسب، وإنما يعنى ابن عرس، وكان المسيحيون يعرفونه باسم الفنك^(١٣٩).

وعندما عاد المنصور من حملته على مدينة شانت ياقب حمل معه قدرا من هذا الفراء^(١٤٠). وعندما استقبل المعتمد الشاعر ابن حمديس، بعد أن جعله ينتظر طويلا، أجلسه على مقعد مغطى بفراء الفنك^(١٤١). وقدم ابن عمار نفسه على ابن طاهر في مرسية، وهو يرتدى فروة نهجل طبيعتها^(١٤٢). وكان الأندلسيون، كبقية شعوب الأرض، لا يقفون عندلون واحد هو المفضل عندهم دون غيره، ولكنهم أظهروا ذوقا يجعلهم يختلفون في وضوح عن بقية أخوتهم في الدين من المشاركة، وإنما على

(١٣٥) انظر ما سبق ص ٢٧٩ من هذا الكتاب، حيث ترجمنا أبيات ابن عيشون التي توجه بها إلى الفتح بن خاقان لأنه تلقى منه غفارة، القلائد ص ٢٩٠. وابن قزمان يطلب داتها من ممدوحه غفارة. ووصفها يتفق تماما مع البرنس، انظر الديوان القطعة ٢٤، و٨٧ و٨٠٣، وقد ترجمها ناشر الديوان بلفظ Cape، وهو ما يؤكد المعجم ص ١٥٠ و ٢٧٩ - ٢٨٠. وانظر أيضا: الونشريشى La pierre de touche، طبعة إ. أمار، ٣٨٥/١، والهامش رقم ٢، وجودفروى - ديومين، ألف ليلة وليلة، ص ٣٢٠، هامش رقم ٢: غفارة.

(١٣٦) القلائد ٢٦٩، والبيت لابن سارة.

(١٣٧) عن صناعة الجلود والفضة انظر: ليفي بروقتسال، إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر، ص ١٨٤، والمصادر المذكورة هناك، والهامش ٢ و ٣ و ٤، وابن عبدون رسالة في الحسية، طبعة ليفي بروقتسال، النص العربي ص ٤٨، والمعجم اللغوي ٢٨٥. (١٣٨) من الطويل، القلائد ١٧٢، وابن سارة أيضا له أبيات عن فريات الأرنب، القلائد ٢٦١، وأوردناها بعد هذا البيت.

(١٣٩) البيان المغرب ٣١٩/٢، وترجمته ص ٤٩٥.

(١٤٠) انظر: سانتشيث البرنس، صور ٦٩، وملحق ١٨٦/٣، وغوث مورينو، كنائس المستعربين ١٢٦. وهذان المؤلفان يترجمانها «جلد ابن عرس». وعن المساحة اللغوية لابن عرس انظر: مينديت بيدال، أصول الإسبانية، ط ٢ ج ١ ص ٤٢٠، والصور ص ٤١٦.

(١٤١) نفع ٦١٦/٣.

(١٤٢) الذخيرة ٢٦/٣، ونقله عنها دوزي في معجم الملابس ٣١٤، وتاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ١١١.

النقيض، تقترب بهم من الشعوب المسيحية في شمال شبه الجزيرة.

والنماذج التي أدخلها زرياب، المتوفى عام ٢٤٣ هـ = ٨٥٧ م، وتمثل في ارتداء الملابس البيضاء صيفا، والملونة في بقية فصول العام، لا يبدو أنها تأصلت بمعق في إسبانيا^(١٤٣). وقد أشرنا فيما سبق إلى السبب الذي جعل الأندلسيين، أو بعض الطبقات الاجتماعية على الأقل، يرفضون اللون الأبيض، وأشرنا أيضا عندما تحدثنا عن ازدهور أن الشعراء الإسبان المسلمين كانوا يفضلون اللون الأحمر، على حين أنهم في المشرق كانوا يفضلون الأرجس الأصفر، ونلمس الشيء نفسه فيما يتصل بالملابس، فبينما نجد المشرق لا يعرف المرأة الجميلة إلا في ملابس صفراء، نراها في الغرب الإسلامي تظهر وهي في أبهى زينتها ترتدى ملابس حمراء فحسب.

يقول ابن عمّار في قصيدة يمدح بها المعتضد:

وَصَبَغَتْ دِرْعَكَ مِنْ دِمَاءِ مُلُوكِهِمْ لَمَّا عَلِمَتْ الْحَسَنَ يَلْبَسُ أَحْمَرَ^(١٤٤)

ويؤكد ابن حزم وجهة النظر هذه ويقول:

إِذَا مَا رَأَتْ عَيْنَايَ لَابِنِ حُمُرٍ تَقْطَعُ قَلْبِي حَسْرَةً يَمْرُقَا
غدا لدماء الناس باللحظ سافكا وضرج منها ثوبه فتعفرا^(١٤٥)

وإذا كان المشاركة يحترمون اللون الأصفر، فقلة فحسب من ملوك الطوائف في إسبانيا كانت تعجب به في بداية القرن الحادى عشر. وكان مؤسس الدولة العبادية في إشبيلية أبو عمرو بن القاسم عباد يحب الملابس الفاخرة، وليس ثوبا رفيع القدر، نرجسى اللون، وصفه أحد شعرائه، أبو الأصبع بن عبد العزيز، في يوم احتفال، يقول:

كَأَنَّمَا صَفْرَةٌ أَثْوَابِهِ وَطَيْبُهَا نَرْجُسُهُ إِذْ تَشْمُ^(١٤٦)

(١٤٣) انظر فيما سبق ص ٢٦٩ - ٢٧٠ من هذا الكتاب، وابن دحية، المطرب ١٤٧ ونفع ٣/٣٢٦. ومع ذلك يجب أن نشير إلى أن تقويم قرطبة لعام ٩٦١، ص ١٠٠، يسجل أنه في شهر أكتوبر، مع وصول اليرد، ترك الناس لبس الملابس البيضاء، وارتدوا ملابس الصفو.

(١٤٤) من الكامل، القلائد ٩٧. وانظر فيما سبق ص ٢٤٣ من هذا الكتاب، ويشير ابن سعيد وهو من القرن الثاني عشر، إلى استعمال الغفارة، حمراء أو خضراء، لأن اللون الأصفر مخصص لليهود، نفع ١/٢٢٣.

(١٤٥) من الطويل، طوق الحمامة، ص ٢٣٨ ترجمة نيكل ص ١٦.

(١٤٦) من السريع، أبو الوليد الحميري، البديع في وصف الربيع، ص ١١٧ - ومع ذلك توصف العروس بأنها تلبس الأصفر، انظر: نفع ٢/٤٠٧ طبعة أوروبا، وص ٣٠٣ فيما سوف يأتي.

○ الفصل الرابع:

إطار الحياة المترفة

الصفحات التي سبقت عن المنسوجات والعطور تظهر ميل الأندلسيين إلى الترف والحياة المصقولة^(١)، وكانت الأشياء الثمينة وكماليات الزخرفة التي تحيط بالإسباني المسلم تنم عن ذوق رفيع وميل إلى الأشياء الجميلة، وتقدم لنا في الوقت نفسه صورة عن مستوى الحضارة الذي بلغه شبه الجزيرة في القرن الحادي عشر الميلادي، في المجالين المادي والفني.



نحن ندهش عند قراءة وصف الطبيعة، وبخاصة الحقائق، والتشبيهات الكثيرة التي تشير إلى الأحجار الثمينة، والمعادن النفيسة، والجواهر، وصياغة الحلى والأحجار الثمينة الأكثر تردداً في الشعر هي: العقيق، ولونه أحمر، والياقوت، وقد يكون أزرق أو أصفر أو أحمر^(٢)، والزمرد، وهو أخضر، والزبرجد، وهو أصفر مائل إلى الخضرة، واللازورد، وهو أزرق غامق، والفيروزج، وهو أزرق. ونعرف عن طريق المقرئ أنه كانت في إسبانيا أحجار ثمينة باللغة التنوع، كالياقوت الأحمر في حصن منت مايور من كورة مالقة، إلا أنه دقيق جداً لا يصلح للاستعمال لصغره، وحجر آخر يشبه الياقوت الأحمر يكثر بناحية بجانة، في خندق بغربي قرية ناشرة، حسن اللون، صبور على النار، ويكثر حجر الشاذنة^(٣) بجبال قرطبة ويستعمل في التذهيب، وحجر اليهودي في ناحية حصن البونت، وحجر المرقشيتا الذهبية في جبال أبدة، وحجر اللؤلؤ في برشلونة، إلا أنه جامد اللون، والمرجان بساحل بيرة من عمل المرية، وكان اللازورد الجيد في لورقة من عمل تدمير، ويذكر المقرئ حجراً آخر مثل البلور على مقربة من حصن لورقة، وقد يوجد بجبل شحيران وهو شرقي يبره، والحجر البجاري في جبل قريب من لشبونة، يتلأأ فيه ليلاً كالسراج^(٤). ومن جانب آخر لم يذكر العقيق الأحمر ولا الزمرد ولا الزبرجد ولا الفيروزج الأزرق، مما يحملنا على الظن بأنهم كانوا يستوردون هذه الأحجار.

(١) يقول ابن شرف:

من الملوك الألى اعتادت أوائلهم سحب البرود ومسح المسك باللم

من البسيط، القلائد ٢٥٥.

(٢) التيفاشي، المتوفى ٦٥١ هـ = ١٢٥٣ م، في مؤلفه «كتاب أزهار الأفكار في الجواهر والأحجار» يذكر عشرين نوعاً من العقيق. انظر. كلمنت مييه، دراسة عن المعادن العربية، في المجلة الآسيوية الحلقة ٦، المجلد ١١، عام ١٩٦٨، ص ٢٠ - ٣٧.

(٣) يشك كلمنت مييه في ترجمة هذه الكلمة Especie de Lente juega انظر المصدر السابق ص ١٨٦، ولكن التيفاشي يرى أنها ترجمة الكلمة الإغريقية aimatitos.

(٤) نفح ١٤٢/١، وليفي بروفنسال، اسبانيا الإسلامية في القرن العاشر ص ١٧٧.

وبالطريقة نفسها، تكشف لنا دراسة الأزهار عن كثرة استعمال أسماء المعادن الثمينة مثل الذهب والفضة، فالذهب ويحيى تحت أسماء مختلفة مثل: الإبريز والتبر والذهب والعسجد والعقيد والنضار، والفضة وتذكر بهذا الاسم أو بكلمة اللجين، كانا يوجدان في إسبانيا أيضا، الأول في رمل نهر لاردة، وشقر، وتاجه، والثاني في مناطق مرسية ولحامة وقرطبة، قريبا من Hornachueios، وفي صوطاق، من كورة باجة^(٥).

وتتردد بكثرة في قصائد الشعراء كلمات جوهر، وتطلق على اللؤلؤ بعامه، واللؤلؤ وهو الأبيض منه، والرد وهو لؤلؤة كبيرة الحجم. ويعبر المرجان عادة في الشعر عن فكرة الصفرة الفاقعة أو الحمرة، وكان يستخرج من على ساحل البحر قرب المرية، وأقل ما نلحق منه في أقل من شهر نحو ثمانين ربعا^(٦). وكان الشعراء يستخدمون في التعبير عن البياض الشفاف كلمات البلور والمها، ومعناها واحد، ولكنهم يستخدمون الأخيرة أكثر من الأولى، وقد أشرنا من قبل إلى أن البلور كان يستخرج على مقربة من حصن لورقة.

كل هذه المواد التي عرضناها كانت تستخدم في صنع الأشياء الثمينة التي أعطانا الشعراء أسماءها، فكانوا يطلقون على الجواهر وما يُتزين به كلمة حلية أو حلي، وقد طابق أحمد بن هشام في وصف الترجس بين الجزء الأوسط منه فوصفه بأنه مثل الإبريز على حين أن نوره مثل الجمان المصفى:

كلما فاح نَشْرُهُ قَلَّتْ إلفُ في دُجى الليلِ عاطِرُ زارِ إلفا
وإذا مالَظَتْهُ قَلَّتْ ألحا ط خَلِيعٌ قد مالَ سُكْرًا فأغفى
منه مثل الإبريزِ في صُفرة اللو ن ومنه مثل الجمانِ المصفى
فكأنى بما أَلْبَبَ منه صَيْرْفِي أضْحى بِحاولٍ صرفا^(٧)

ومن الحلى الخواتم، بنفس أو بدونها والعقود، والتنوف أو القرط لتحلى بها الجبهة، والدملج، والسوار، والوقف، والقلب. وكانت محلات الصياغة لكبرى تتركز في قرطبة وإشبيلية^(٨)، ويشير ابن حزم إلى مهارة الصياغ الذين يميزون بدقة بين الذهب المحض والذهب المشرب بفضة:

كَالتَّبْرِ إِنْ تَمَزَجَ بِهِ فِضَّةٌ حازت على كل فتى جاهل
وإن تصادف صائغا ماهرا مَيَّرَ بين المحض والحائل^(٩)



وتشى أوصاف الشعراء أيضا بوجرد أشياء من العاج والأبنوس. فمن العاج كانوا يصنعون بخاصة

(٥) ليفي بروفنسال، المصدر السابق ص ١٧٦، اعتمادا على القرى والإدرسى وياقوت، وانظر: ابن حزم، مخطوطة القسطنطينية، تحليل أسين بلانيوس في مجلة الأندلس، المجلد ٢، عام ١٩٣٤، العدد الأول، ص ٣٥ و ٣٠.

● وهي رسالة التلخيص لوجه التلخيص، ونحن بصدد إعدادها للنشر.
(٦) نفع ١٤٢/١ - ١٤٣. والربع أداة وزن تساوي ٢٥ رطلا، أى ربع قنطار، انظر: السقطي، رسالة في الحسة ص ٣٠، وابن عيود، رسالة في الحسة، ص ٢٧١.

(٧) من الخفيف، أبو الوليد، البديع ص ٩٦

(٨) ليفي بروفنسال، أسبانيا الإسلامية في القرن العاشر ص ١٨٤.

(٩) من السريع، ابن حزم، طوق الحمامة ص ٩٤، وترجمة نيكل ٩٢، وفي طبعة برشييه ص ١٦٤.

عَلَمًا لحفظ الحلى والعطور^(١٠)، وأدوية الجبر، وأعمدة السيوف، وقطع الشطرنج وغيرها^(١١). ومن الأبنوس كانوا يصنعون المحابر^(١٢). ومع ذلك فمن الصعب أن نقدم قائمة كاملة اعتمادا على الشعراء بالأشياء التي كان يستخدمها الأندلسيون في حياتهم اليومية من أية طبقة كانوا، والتي تنم عن حضارة مصقولة.

ولم تكن هذه الأشياء توجد في أيدي الناس فحسب، وإنما نلتقي بها في الأبنية الدينية أيضا، ومن المعروف أن المنبر في جامع قرطبة كان من خشب الأبنوس المطعم بالعاج^(١٣). والنسخة القديمة من القرآن الكريم، وتضم، فيما يقال، أربع صفحات كتبها الخليفة عثمان بخط يده، [وفيه نقطة من دمه]، كانت طبقا للإدرسي محفوظة في «غشاء بدیع الصنعة، منقوش بأغرب ما يكون من النقش وأدقة وأعجبه»، «وهذا المصحف يخرج في صبيحة كل يوم جمعة، وله بموضع المصلى كرسى يوضع عليه، ويتولى الإمام قراءة نصف حزب منه، ثم يرد إلى موضعه»^(١٤). ويقول الإدرسي أيضا: «وفي أعلى الصومعة، على القبة التي على البيت، ثلاث تفاحات ذهب، واثنان من فضة، وأوراق سوسنية»^(١٥). وكانت أبوابه «مصفحة بصفائح النحاس، وكواكب النحاس، وفي كل باب منها حلقتان في نهاية الإيتقان، وعلى وجه كل باب منها في الحائط ضروب من الفص اتخذ من الآجر الأحمر المحكوك، أنواع شتى، وأجناس مختلفة من الصناعات والتريش وصدور البراة»^(١٦).

وقد تُتخذ ثريات المساجد أحيانا من المعادن النفيسة، وكانت ثريا مسجد مالقة الجامع من الفضة، أهداها إليه تميم بن بُلُقَيْن عامل المدينة، قبل أن يزيع المرابطون عبدالله بن زيري أمير غرناطة عن الإمارة بوقت قليل^(١٧). ويصف أبو تمام غالب بن رباح الحجاج قلعة رباح على النحو التالي:

انظُرْ إلى سُرُجٍ في الليل مُشرِّقٍ من الزجاج تراها وهي تلتهبُ
كأنها ألسُنُ الحياتِ قد برزت عند الهجيرِ فما تنفكُ تضطربُ^(١٨)



(١٠) سنعود إلى هذا الموضوع فيما بعد بمناسبة التماثيل. ونلاحظ هنا أن الشعر العربي في المشرق يستخدم حق العاج في تشبيه بطن الحبيبة أو هدها، انظر معلقة عمرو بن كلثوم البيت ١٥، وديوان الأعشى، طبعة جبير، القطعة ٣٩ البيت ٣٢، ص ١٧٧. وانظر أيضا فيما سبق ص ٣٠ رقم ١٠٥.

(١١) انظر فيما سأتى ص ٣٠٥ رقم ٢.

(١٢) الأبيات لأبي الطاهر الجياني المشهور بابن أبي ركب في نفح ٣٢٣/٤.

(١٣) ليفي برونفسال، إسبانيا الإسلامية، ص ٢١٨ ورقم ١.

(١٤) الإدرسي ص ٢١٠ والترجمة ٢٦٠، وقد أصبح هذا المصحف تحت حكم الموحدين أثرا حقيقيا مزينا بالذهب والدر الأبيض، والياقوت، وحتى العلبة التي كان فيها عليها أغشية اللبياج، وهو على كرسى العود الرطب بمسامير الذهب، انظر: نفح ٥٤٨/١، و٥٦٣ و ٦٠٥ إلى ٦١٥. والمراكشي، المعجب ص ٢٥٣، والترجمة ٢١٨.

● درست تزيين مصحف عثمان في الأندلس تفصيلا، وما أحاط به من قصص وحكايات، في فصل الحقته بترجمتي لكتاب المستشرق الألماني فون شالك، وصدرت طبعته الثانية عن دار المعارف ١٩٨٥ بعنوان: الفن العربي في إسبانيا وصقلية. (الترجم) (١٥) الإدرسي، المصدر نفسه، النص العربي ٢١٢، والترجمة ٢٦٢، ونفح ٥٤٨/١ و ٥٦٣، وأعمال الأعلام ٣٨.

(١٦) الإدرسي المصدر نفسه، النص العربي ٢١١، الترجمة ٢٦١.

(١٧) ابن الخطيب، أعمال الأعلام ٢٣٦.

(١٨) من البسيط، نفح ٤١٦/٣.

وإذا كان مستوى الحضارة يقاس بالقدر الذى بلغتته فى كثرة استخدام الأشياء الثمينة فيجب أن نعترف بأن القرن الحادى عشر فىما يتصل بإسبانيا الإسلامية كان أزهى عصورها، وفيه بلغت أوج بهائها.

وفى هذا العصر تأصل الترف وشاع، ولنذكر جنون المعتمد حين أراد أن يرضى أهواء اعتماد الرميكية «حين رأت ذات يوم بإشبيلية نساء البادية يبعن اللين فى القرب، وهن رافعات عن سوقهن فى الطين، فقالت له: أشتهى أن أفعل أنا وجوارى مش هؤلاء النساء. فأمر المعتمد باعتر المسك والكافور، وماء الورد، والقرقة والزنجيل، وعطور مختلفة الأنواع، وصير الجميع طينا فى اقصر، وجعل لها قريبا وجبالاً من إبريسم، وحرجت هى وجوارىها تخوض فى ذلك الطين»^(١٩).

وقد وجّه على بن مجاهد ملك دانية إلى مصر عام ٤٧٧ هـ = ١٠٥٥ م مركبا ضخما نملؤا بالطعام عام المجاعة المضروب بها التل فى البلاد، فأعادوه إليه مملؤا مالا وذخيرة^(٢٠).

ولكى يؤثّر عبد الله بن زيرى فى الفونسو السادس أعد له سجّادا وأقمشة وأوانى جمعت كلها فى خيمة كبيرة، ولكن الملك المسيحي وجد الأقمشة غير جميلة بقدر كاف^(٢١). وكذلك فعل المستعين ملك سرقسطة حين علم أن يوسف بن تاشفين عاد إلى إسبانيا، فأرسل إليه ابنه عبد الملك بهدايا قيمة، من بينها أربعة عشر رُبعا من آنية لفضة مطرزة باسم المقتدر بن هود، فأمر يوسف بن تاشفين بضربها قراريط مرابطية، وفرّقها فى طباق المرابطين على من يحيطون به، ليلة الاحتفال بعيد لأضحى عام ٤٩٦ هـ = ١١٠٣ م^(٢٢).

ومن السهل علينا أن نضيف وقائع تاريخية أخرى. وبخاصة فيما يتصل بالمعارك بين الأندلسيين والبربر، أو بين المسلمين والنصارى، لثبّت وجود ثروات هائلة كان الأمراء أو قادة الجيوش يحملونها معهم، كضرورة من ضرورات الحياة اليومية، أو وسيلة للرشوة والإفساد^(٢٣).



إن الأشياء التى انتهينا من الحديث عنها، وهى ذات قيمة فى ذاتها من حيث المادة التى صنعت منها،

(١٩) التيجاني، تحفة العروس، فى «خو عباد» ١٥٢/٢، ونفع ٤٤٠/١، وتاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ٨٨، والكوند لو كانور ص ١٦٨، وبنو عباد ١٥٣/٢ رقم ٤٠.

(٢٠) البيان المغرب ٢٢٨/٣، وأعمال الأعلام ٢٢١، ويذكر أنها كانت فى عام ٤٤٦ = ١٠٥٦، وانظر: فييت، موجز تاريخ مصر ص ١٨٦، ويذكر أن قحطا عظيما عم البلاد، واستمر عدة أعوام، وبلغ أقصى شدته عام ٤٦١ = ١٠٦٩.

(٢١) عبد الله بن زيرى، مذكرات، طبعة ليفى بروفنسال، فصلة مستقلة، ص ١٢٢/٨٩.

(٢٢) أعمال الأعلام ١٧٤.

(٢٣) انظر مثلاً: أعمال الأعلام ص ١٣٧ و ١٨٢ و ٢٢٤ و ٢٤٩، وتشير هنا إلى رؤوس بعض الوثائق المتصلة بالموضوع فمثلا: الأشياء الثمينة التى قدمها فى القرن العاشر رود سيندو والذته إلدارا إلى دير ثيلانوفام عام ٩٢٨، انظر: غومت مورينو، كنائس المستعربين ٢٤٢، والتى قدمها ابن شهيد إلى حيد الرحمن الناصر عام ٣٢٧ = ٩٣٩، انظر: نفع ٣٥٦/١ - ٣٦٠، وابن خلدون، العبر ١٣٨/٤، وليفى بروفنسال، أسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر ١٠٢، والتى قدمها جعفر المصحفى إلى الحكم المستنصر عام ٣٥٠ = ٩٦١، انظر: ابن خلدون، العبر ١٤٤/٤، طبقا لابن حيان فى المقتبس، والتى قدمها المنصور بن أبى عامر إلى الأمراء المسيحيين والمسلمين فى عودته من غزوة شانت ياقب عام ٣٨٧ = ٩٩٧، انظر: ابن عذارى، البيان ٣١٩/٢، والترجمة ٤٩٥.

وأضفت على حياة الأندلسي طابعا جماليا خاصا، وشاغلاً فنياً، ولكنها تستمد قيمتها الجمالية من الأشكال التي تصوّرها.

وقد أدت العلاقات المستمرة بين المسلمين والمسيحيين بالطبيعة إلى أن يستخدم كلا الجانبين الأشياء نفسها: الأقمشة والأثاث، وأدوات الزينة والحلى، وفيما يبدو قام المستعربون واليهود بدور الوسيط بين شمال إسبانيا والأندلس والمناطق الواقعة على شاطئ البحر الأبيض، وكان اليهود يجلبون الأعمال الفنية والملابس الغالية من بيزنطة وبغداد والقاهرة، وكانت الأكواب العراقية^(٢٤)، والأقمشة السقلاطونية^(٢٥) أهمها فيما يبدو.

ونعرف أن الأشياء المخصصة للاستخدام في قصور الأمراء أو في بيوت عامة الناس، ما عدا المنشآت الدينية، كانت مقبولة كما هي، حتى لو كانت تصور كائنات حية، ولم يعد الناس يهتمون بمحو النقوش الموجودة على الكؤوس، وفيها صور شخصيات، ولا بإزالة رسوم الحيوانات المطرزة على الأقمشة فحسب، وإنما كانوا يصنعون كثيراً من هذه الأنواع، والتحرير الديني الذي يلزم كل المسلمين بتحطيم كل الصور^(٢٦) لم يكن ملتزماً من قبل الإسبان المسلمين، ولا من جانب المسلمين المشاركة أيضاً^(٢٧).

ويؤكد الشعراء حين يستخدمون كثيراً كلمات تعبر عن تصوير الكائنات الحية، وحين يصفون التماثيل والأشياء المزينة بالرسوم، تأكيداً واضحاً ما سبق أن قلناه هنا. يقول أبو بكر بن رُحيم عن أخيه:

لو كانتِ العلياءُ شخصاً مائلاً لرأيتُ منها مكانَ المُفْقِرِ^(٢٨)
ويشبه ابن بقي النساء بأنهنّ دمي من العاج أو الرخام^(٢٩).

(٢٤) حول هذه الآيات انظر فيها بعد ص ٣٢٦ من هذا الكتاب.

(٢٥) عن السقلاطون، وهو نسج حريري موشى، غنى بالزخارف الذهبية، يستورد من أنطاكية وبغداد. انظر: ج. س. كولين، *Latin Sijillatus romance Siglaton escarlat* في مجلة رومانيا، مجلد ٤٦ عدد ٢٢٢، أبريل ١٩٣٠، ص ١٧٨ - ١٩٠، وعدد ٢٢٣، يولية ١٩٣٠، ص ٤١٨، وغوث مورينو، كنائس المستعربين، ص ١٢٦ رقم ٦ وص ٣٣٤ رقم ٤، وص ٣٣٦ و ٣٤٥، والبيان المغرب ٣١٩/٢ - ٤٩٥.

(٢٦) عن هذا الموضوع انظر المقال الممتاز الذى كتبه فينسينك في دائرة المعارف الإسلامية ٥٥٨/٤ - ٥٩٠، مادة صورة. ● وانظر أيضاً الدراسة القيمة التي قام بها المستشرق الألماني فون شاك في كتابه: شعر العرب وفهم في إسبانيا وصقلية، وقد ترجمنا الجزء الخاص بالفن، وصدر عن دار المعارف بعنوان: الفن العربى في إسبانيا وصقلية، القاهرة ١٩٨٥. (المترجم). (٢٧) انظر: ج. فيت، مساجد القاهرة ١٦٧ - ١٨٣، وج. مرسية، مسألة الصور في الفن الإسلامي، في مجلة بيزنطة، المجلد ٨، العدد ١، عام ١٩٣٢، ص ١٦١ - ١٨٣، وصور الأشخاص والحيوانات المنحوتة في الأخشاب من العصر الفاطمى، والمحفوظة في متحف القاهرة، في تكريم سيبير، المجلد ٣ (بحوث المعهد الفرنسى في القاهرة، المجلد ٦٨، ص ٢٤١ - ٢٥٧. وه لا مانس، موقف الإسلام الأسمى في مواجهة الفنون المصوّرة، في المجلة الآسيوية، السلسلة الثانية، المجلد ٦، عام ١٩١٥، ص ٢٣٩ وما بعدها وك. أ. كبريزويل، شرعية الرسم في صدر الإسلام، في مجلة الفنون الإسلامية، ميتشيجان، الأجزاء ١١ - ١٢، عام ١٩٤٦، ص ١٥٩ - ١٦٦.

(٢٨) من الكامل، القلائد ١١٧، المنفر ودخل اللغة الإسبانية في صورة almofar، طاقة أو طرطور من القماش لحماية الرأس. انظر فيها سبأى ص ٣١٢ من هذا الكتاب.

(٢٩) من الطويل، القلائد ٢٧٩.

وقالوا ألا تيكى فتك مطيهم على الشهب تحمل خرائد كالنمى^(٣٠)
ويعمل شاعر آخر خياله ليضفى على الوهم شكلاً ما^(٣١)، يقول أبو محمد بن السيد البطليوسى
مجيباً شاعراً قرطيباً مدحه:

ما كنت أحسب أن النيرات غدت يصيدها شرك الأوهام ولفكر
ولا توهمت أيام الربيع ترى فى ناجر غضة الأنوار والزهرة^(٣٢)
ويضفى ابن الحداد على فكرته مزيداً من الدقة فيكمل التوهم بالتصور:

حجبوك إلا من توهم خاطرى وحموك إلا من تصور بالى^(٣٣)
ولكن الكلمة الأكثر شيوعاً فى الاستخدام هى صور، وتعنى تصوير الشيء المعنوى وانجسد بشيء
محسوس وواضح، ومن قبل قال أبو تمام:

مالنور الربيع من غير حسن ما لهم من تغير اللون
أنكرتهم نفسى وما ذلك إلا من شدة العرمان^(٣٤)
ويقول الأندلسى عبادة بن ماء اسماء متوجهاً إلى حبيبته:

ما مر يوم عى لم أرك إلا وجدت الضمير صورك
ولا مبيتى وأنت لست معى إلا مبيت القطاة فى الشرك
أما أنا فالبعد غيرنى وأنت خوف الرقيب غيرك
يا لعبة صورت لسفك دمي غطى بفضل النقاب فحجرك^(٣٥)

ويقول ابن دراج القسطلى، فى عام ٤٢٨ = ١٠٣٦، حين كان فى سرقسطة، متوجهاً إلى المنذر:
ما صور الإيمان فى قلب امرئ حتى يراك الله فيه مصوراً^(٣٦)
ويقول ابن عمار متوجهاً إلى المعتضد:
أقسمت باسم الفضل حتى شمته فرأيت فى بردتيه مصوراً^(٣٧)

(٣٠) عن معنى الدمية أنظر: الشريشى، شرح مقامات الحريرى ٢٢٤/٣ و ٢٥١، المقامة البدوية رقم ٤٣، والمقامة الرملية رقم ٤٥. وبنو عباد ١٦٤/١ رقم ٥٣٨.

(٣١) المعجم يعطى الشكل الخامس نفس معنى لشكل الأول «in prestigiis mi-ari». انظر: دوزى، ملحقات المعاجم العربية مادة وهم، ٨٤٦/٢.

(٣٢) من البسيط، القلائد ١٩٦.

(٣٣) من الكامل، نفح ٥٠٣/٣، وتدرى، بحاث ط ١ ص ١٠١، وانظر فقرات أخرى تضيف مزيداً من اتحديد على معنى تصور، فى القلائد ص ٢٦٣ أبيات ابن سارة، وى ص ١٠٩ يقول الفتح بن خاقان بمناسبة أبى القاسم بن الجند: «له أدب لو تصور شخصاً، لكان بالقلوب مختصاً».

(٣٤) من الرجز، الديوان ٤٢٦ طبعة بيروت.

(٣٥) من المنسرح، الذخيرة ٤٧١/١. وتنسب هذه الأبيات لابن الكنانى أيضاً.

(٣٦) من الكامل، أعمال الأعلام ٣٠٠.

(٣٧) من الكامل، القلائد ٩٧.

وهذا الشيء المحسوس يمكن أن يكون دمية أو صورة أو رسماً يمثل كائناً محدداً، يقول ابن عبدون في مطلع رائيته الشهيرة:

الدهرُ يفجعُ بعد العينِ بالآثرِ فما البكاءُ على الأشباحِ والصُّورِ^(٣٨) ؟
ويقول أبو الفضل الدارمي في بلاط المأمون بن ذي النون أمير طليطلة، وقد أرق ليلة:
يا ليلُ ألا انجليتِ عن فلقِ طُلْتَ ولا صَبَرَ لى على الأرقِ
جفا لحاظي التغميضِ فيك فمًا تُطبق أجفانها على الحَدَقِ
كأننى صورةً ممثلةً ناظرها الدهرُ غيرُ منطبقِ^(٣٩)

ويستخدم ابن حزم التعبيرين: صورة، وصورة مُثَلَّتْ، في الأبيات التالية، متحدثاً عن حبيبته الغائبة:

يا لَيْتَ شعري مَنْ كانت وكيف سرتُ أطلعتَ الشمسِ كانت أم هي القمرُ
أظنها العقلُ أبداه تدبَّره أو صورة الروح أبدتها لي الفكرُ
أو صورة مُثَلَّتْ في النفس من أُملي فقد تحيرَ في إدراكها البصرُ
أو لم يكن كل هذا فهي حادثة أتى بها سبباً في حتفِ القمرِ^(٤٠)

وفي النهاية أصبحت كلمة صورة تعني امرأة جميلة، كما هو الحال في أبيات ابن اللبانة، التي يسترجع فيها لحظات السعادة على ضفاف الوادي الكبير:

نهرُ شربت بعبرتي على صُورِ كانت لها في قبل الراحِ سوراتُ^(٤١)

وما ذكرناه سابقاً يساعدنا على أن نفهم الفقرة التي يقول فيها ابن حزم: «إن أهل الأندلس صينيون في إتقان الصنائع العملية، وإحكام المهن الصورية»^(٤٢).

ولدينا شواهد على أنه كانت توجد في الأندلس، وفي قرطبة بخاصة، حرفيون يتركز شاغلهم الأساسي في نسخ صور كائنات معينة، وعندما يصف ابن حصن إشبيلية عند غروب الشمس بأنها «عروس من الحسن منحوتة»^(٤٣)، فإنما نجد، فضلاً عن التصوير الجميل، تعبيراً دقيقاً عن واقع الحياة اليومية.

وثمة نصوص تاريخية تبرهن على أنه كان يعيش في مدينة الزهراء عمال نحّاتون، وهم الذين قاموا

(٣٨) من البسيط، عيد الواحد المراكشي، المعجب ٧٦، والترجمة ٦٥.

(٣٩) من النسخ، نفح ١١٢/٣.

(٤٠) من البسيط، ابن حزم، طوق الحمامة ص ٣٧، و١٩ طبعة بتروف، وترجمة نيكل ٢٧، وطبعة بيرشيه ٢٤. وعندما يعرض ابن حزم نظرية أفلاطون «التمازج والتواصل» فإنما يستخدم تعبير «صورة حسنة» و«تصاویر متقنة».

(٤١) من البسيط، القلائد ٣٠، وعنه نقلها «بنو عباد» ٧٠/١، ونفح ٢٢٢/٤.

(٤٢) ابن حزم، رسالة في فضل الأندلس، نفح ١٥١/٣، وأبو حامد العرناطي، تحفة الأحباب، ط فران، في المجلة الأسبوعية ١٩٢٥، ص ٢٠٠، ولير شوندي وسيمونيت، مختارات عربية ص ٢٥، وانظر فيها سبق ص ٢٣ من هذا الكتاب.

(٤٣) انظر فيها سبق ص ١٠٩ من هذا الكتاب.

بكل تأكيد بنحت تمثال الزهراء، محطية عبد الرحمن الناصر، وكان يزِين الباب الرئيسى فى قصر الخلافة^(٤٤).



لم يجد المسلمون إذن أى شيء غريب أو مثير فى التمثيل التى كانت تزين قصور كبار لشخصيات، وكانت من صنع الأندلسيين أنفسهم، ولم تتعرض التماثيل الرومانية، وكانت لما تزل موجيدة فى القرن الحادى عشر، إلى أى تدمير من سكان شبه الجزيرة فيما يبدو. ويشير المقرئ فى فقرة نقلها عن البكرى، المتوفى ٤٨٧ = ١٠٩٤، فى فقرات اعتمد فيها على الرازى، أحمد بن محمد، المتوفى ٣٤٤ = ٩٥٥، إلى أنه كانت توجد فى سبانيا فى القرن الحادى عشر ثلاثة تماثيل يونانية: واحد فى جليقية، والثانى فى طركونة، والثالث فى قادس^(٤٥).

وتتال قادس الوحيد الذى أثار خيال الإسبان المسلمين^(٤٦)، فقد كان حجمه ضخماً، وفى يده اليمنى مفتاح من حديد، وبمعه نحو المغرب. وفى اليسرى صحيفة منقوشة، ويزعم البحارة أنهم لا يستطيعون أن يتجاوزوه. وفى عام ٤٥٠ = ١١٤٥ اعتقد على بن عيسى بن ميمون قائد الأسطول الماربطى أنه من معدن نفيس، ويحتوى على كنوز ضخمة، وأن داخله محشو تبراً، فقام بهدمه وتقطيعه^(٤٧). وفيه يقول ابن شخصيص شاعر من نهايات القرن العاشر الميلادى:

وَرَجْرَاجَةُ الْأُرْدَافِ مَوَارِدُ الْخُطَا تُهَادِي وَلَيْسَتْ مِنْ حَسَانِ الْأَوَانِسِ
إِلَى أَنْ تَرَى الشَّخْصَ الْمَلْعُوعَ مُوفِيًا عَلَى الصَّنَمِ الْمَوْفَى عَلَى بَحْرِ قَادِسِ
وَلَمَّا نَزَلْنَا تَحْتَهُ قَالَ صَاحِبِي أَعْجَابِي رُومٍ أَمْ أَعْجَابِي فَارِسِ
فَقُلْنَا لَهُ خَفْضُ سَوَالِكَ وَالْتِمَسْ تَجَاتِكَ مِنْ مَرَسَى الْبَحَارِ الْكَوَاثِسِ^(٤٨)



وكشف لنا الشعراء عن وجود تماثيل رومانية أخرى منحوتة من الحجر العادى دون شك، وصمت عنها المؤلفون والناترون تماماً، فكان فوق باب حصن مر بيطر، ويسمى بالمردى، ولسمها القديم Sagunto، تتال، أو مصور بلغة العصر الوسيط، وصفه أبو القاسم بن البراق بأنه قديم جداً:

بِبَابٍ مُرٍّ يَبْطِرُ عَايِنْتُ ذَا عِظَّةٍ هُوَ الْجَمَادُ وَلَا كُنْ صَنْعُهُ يَعْظُ
يَقُولُ هَذَى بِلَادِي قَدْ فَتَحَتْ بِهَا كَفَى فَهَلْ أَنْتِ يَامَغْرِيرُ مُعْظُ

(٤٤) نفح ٥٢٣/١، طبقاً لابن عربى فى محاضرات الأبرار ١٠٦/٢، ونصها: «نقش صورتها على لباب». ونشير هنا إلى أنه كان هناك تمثال للعنواء موضوع فى قرطبة على الباب الذى إلى القنطرة، وعمل الاسم منه: باب القنطرة، وآخر فوق باب بجانة الرئيسى. انظر: ابن عذرى، البيان ١٤/٣. وأخبار مجموعة ١٥١. وتاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ ج ٢ ص ٦٤. وليفى بروفنسال، إسبانيا لإسلامية، القرن العاشر ٢٠٥.

(٤٥) نفح ١٢٦/١.

(٤٦) أبو حامد الأندلسى، تحفة الأحباب، طيبة فران، فى المجلة الآسيوية، المجلد ٢٠٧، عام ١٩٢٥، ص ٦٩. والمصادر المذكورة ص ٥. باسيه، هرقل ومحمد فى مجلة العلماء، ١٩٠٣.

(٤٧) نفح ١٦٧/١، ٢٠٣/١، والناصرى السلاوى، كتاب الاستخسا ١٨٥/٣، والترجمة التى قام بها إ. حامد ص ١٧٨. ودوزى، أبحاث، ط ٢ ج ٣ ص ٣١٢ - ٣١٣. وياقوت، معجم ٦/٤.

(٤٨) من الطويل، عبد المنعم الحميرى، لروض المعطار، رنم ١٣٢، ص ١٤٧ - ١٧٥.

هذا مَقَامِي والأعصارُ ما ضِيَّةُ والغَيُّ للناسِ محبوبٌ إذا وُعِظُوا
فكم زَجَرْتُ ولاكن أين مُزْدَجِرُ عَمَّا أَحْذَرُهُ وأَيْنَ مُتَعَطٌ^(٤٩)
وصف لنا الشعراءُ أيضًا تَمَثُّلاً آخرَ كان في شاطِبة، ونعتوه بأنه صنم، يقول أبو عامر بن عثمان
البرياني عنه:

بَقِيَّةٌ من بقايا الرومِ مُعْجِبَةٌ أبْدَى الثِّبَاتِ^(٥٠) بها من علمهم حَكَمًا
لم أَدِرْ ما أَضْمَرُوا فيه سوى أُمِّ كَالْمِرْدِ الفَرْدِ ما أَخْطَا مِثْبَهُه
تَتَابَعَتْ بَعْدُ سَمُوهُ لَنَا صِنًا حَقًّا لَقَدْ بَرَدَ الأَيَّامُ والأَيَّامُ^(٥١)
كَأَنَّهُ وَاغْظَ طَالَ الوقوفُ به مما يُحَدِّثُ عن عادٍ وعن إرمَا
فَانْظُرْ إلى حَجَرٍ صُلِدَ يَكْلَمُنَا أَسْمَى وَأَوْعَظَ مِن قُسٍّ لِمَن فِهَا^(٥٢)

وتخيّل إلينا أن الشعور الذي ألهته هذه التماثيل القديمة للشعراء الأندلسيين، في القرن الحادي عشر بخاصة، إنما كان الإحساس بأسرار الزمن الماضي المحملة بها، وبالديومة التي منحتها سلطة الهتاف الإلهي بالغيب فيما يتصل بالفنانين.



باختصار فضّل الأندلسيون كثيرًا تماثيل الرخام والصور الحسية الوثنية، وكانوا أقلّ إحساساً فيما يتصل بالتماثيل المصنوعة من البرنز أو الحجر العادي، ووجدوا في أطلال طالقة^(٥٣) تمثالاً أرسلوه إلى إشبيلية، ووضعوه في حمام الشطارة، «وكان منحوتاً من مرمر، لم يسمع في الأخبار، ولا روى في الآثار، صورة أبدع منها، في قالب جارية، كاملة القد، حسنة الجسم، جميلة الوجه، صُورَ كل عضو من أعضائها، وكل جارحة من جوارحها، على أتم ما يكون، وأفضل ما يستحسن في جوارح المرأة، وفي حضنها صورة صبي على مثل من الحكمة والإتقان، وقد صُورت حية تصعد من قدمها كأنها تريد نهش

(٤٩) من البسيط، أبو بحر صفوان بن إدريس المرسى، زاد المسافر، ص ١٥٢.

(٥٠) رواية النفع «البناء» بدل «الثبات».

(٥١) لم أجد لهذه الأبيات معنى.

(٥٢) من البسيط نفع ١١٦/٤. وزاد المسافر ١٣٣ والبتوني، رحلة إلى الأندلس ص ١١٠. وقس بن ساعدة الإباضي شخصية أسطورية مشهورة بالبلاغة والحكمة، انظر: دائرة المعارف الإسلامية ١٢٢٨/٢، وكتب المادة الأب هنري لامنس. وثمة تماثيل، أو أصدان، أخرى كانت توجد في إسبانيا الإسلامية. قريباً من لماية، في كورة رية، كان يوجد في سند الجبل تمثال صورة إنسان بموضع لا يصل إليه إلا من تدلّى بالحبال، ويسقط من منخره الأيمن نقط ماء. الروض المعطار، رقم ١٦٠ ص ١٧٠. وفي أسوار ليلة، طبقاً لأسطورة قديمة كانت شائعة في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، ويجب أن تكون ضاربة في القدم، كانت توجد أربعة تماثيل، أو تصاوير: صنم تسميه العامة دروب، وعليه صنم آخر، وصنم تسميه مكبح، وعليه صنم آخر. انظر: العذري، أبو العباس أحمد بن عمر، انتوفى ٤٧٨ = ١٠٨٥، كتاب المسالك والممالك الأندلسية في: القزويني، آثار البلاد، الجغرافيون المجلد ١، ص ٣٧٢. والروض المعطار رقم ١٥٨، ص ١٦٨ و١٦٩ و٢٠٣.

وأحد أبواب قصر قرطبة كان من حديد، وفيه حلق لاطون، قد أثبتت في قواعدها، وصورت صورة إنسان فتح فمه، ويقال أن الأمير محمد أخذها من حلق باب مدينة أربونة عندما افتتحها، وجلبها معه. نفخ ١/٤٦٤. وج مرسية، موجز الفن الإسلامي ٢٤٣/١. (٥٣) عن طالقة انظر: ياقوت، معجم ٤٩٤/٣. والروض المعطار رقم ١١٢ ص ١٢٢ - ١٢٣، ١٤٩ - ١٥٠. ومريتنيش، غاية إسبانيا ص ٢٢ - ٢٨.

الصبي^(٥٤)، فنظرها بين مصعد الحية ومكان الطفل، كاشفقة الحذرة، يتبين ذلك في التقائهما»، ويقول المؤرخون: «وقد تعشقها جماعة من العوام، وشغف بها أناس من الطعام، فتعطلت أشدهم، وانقطعت متاجرهم بالنظر إليها». ولكن أشده بجمال يون الجدد لم يكونوا قادرين على أن يهبوا للحياة لأسرتهم «جالتيًا»^(٥٥). وقد وصفها أبرقام غالب بن رباح الحجام بالأبيات الثلاثة التالية:

ودمية مرمر تُرى بخدّ تهاى في التورد والبياض
لها ولد ولم تعرف حليلاً ولا ألت بأوجاع المحاض
ونعلم أنها حجر ولكن تئمنا بالحاظ مراض^(٥٦)

وفي حمامات المياه الساخنة لطبيعية، ولا نستطيع تحديد مكانها بدقة، حيث كان المعتضد يتردد عليها كثيراً للعلاج من الروماتيزم، كان يوجد تمثال من المرمر فيها يدو، وقد وصفه ابن زيدون فيما يلي:

مرمر أوقد الفيند عليه سلسل بحر الزلال يفيض
وسطها دمية يروق اجتلاء الـ كل منها ويفتن التبعض
بشر ناصع، وخد أسيل وبحيا طلق، وطرف غضيض
وقوام كما استقام قضيب الـ بان إذ علّه ثراه الأريض
وايتسام لو أنها استغربت فيه ه أراك أتساقبه الإعرىض
والنفات كأنما هو بالاي حاء - من فرط لطفه - تعريض^(٥٧)

أما الرسوم، أو الفسيفساء الذي يصور نساء عاريات أو أزواجاً مختلفين، فقد أشار إليها بعض المؤلفين بتعبير صور الحمام^(٥٨)، وكان المسلمون المتشدّدون يعتبرونها دائمة فضيحة، ولكن النصوص الشعرية التي أوردناها تظهر أن تماثيل المرمر في إسبانيا الإسلامية في القرن الحادى عشر، كما كانت عليه الحال في الحمامات الرومانية، إنما هي لتزيين الغرف المخصصة للمتريدين، أو على الأقل من البارد إلى الساحن .. en Prigidarium los Tepidarium



وكثيراً ما كانت مياه البرك ونوافير تندفع مياههم من خلال أفواه الحيوانات المنحوتة من مواد

(٥٤) إن وجود الحية لا يسمح - ب - مكر اما بصد قتال فينوس وكوبيد.

(٥٥) انظر: نفح ١٥٨/١ و ٥٣٣. وارضى العطار رقم ١١٢، مدة طالقة، ص ١٥٠/١٢٣، وفون شاك، شعر العرب وفنهم، ترجمة باليرا إلى الاسبانية ١٠٨/١ و ٢٧١.

● وقد ترجمت هذا الكتاب الجيد لمستشرق الألمانى، ونشر القسم الخاص بالفن تحت عنوان: «الفن العربى في إسبانيا وصقلية»، وصدرت طبعته الثانية عن در المطاوع ١٩٨٥، أما القسم الخاص بالشعر فسوف يصدر قريباً وعن دار المعارف أيضاً بعنوان: الشعر في إسبانيا وصقلية» (الترجم).

(٥٦) من الوافر، الذخيرة ١٢٦/٣، ونضح ٥٣٣/١، واليتنوف - رحلة الأندلس ٧١.

(٥٧) من الخفيف، ابن زيدون، الديوان ٢٤، وفي البيت استخدم غير مباشر لثلاثة مصطلحات بلاغية: انثفات وتعريض، وإيحاء.

(٥٨) و. مرسية، ملاحظات على نضر طروق الحمامة، في ذكرى هنرى باسيه ٦٤/٢ (ملاحظة على ص ١٥ من الطوق طبعة بتروف)، والمصادر المذكورة هناك. وانظر أيضاً: الغزولى، مطالع البدر ٨/٢، وعنه نقلها نفح ٤٩٦/٣ - ٤٩٧. وسنعود إلى هذا الموضوع فيما بعد، ص ٣٠١ وما بعده من هذا الكتاب.

متنوعة، مثل: الحجر والمرمر والفضة، والنحاس^(٥٩)، وتقتل من الحيوانات الأسد^(٦٠)، والفيل^(٦١)، والسلاحف^(٦٢). وهكذا يصف عبد الجليل بن وهبون فيلا من فضة على شاطئ بركة يقذف الماء في قصر المعتمد:

ويفرغُ فيه مثل النّصل بدعُ من الأفيال لا يشكو ملّالاً
رعى رطب اللّجين فجاء صلداً تراه قلماً يخشى هزالاً^(٦٣)

وفي الليل توقد الشموع على جانبي الماء، ويُدعى الشعراء إلى وصف ما يرون، وقد أعجب أبو بكر بن الملح المعتمد بن عباد بانطباعاته عن هذا الموضوع، ونأق على مقطوعة واحدة فحسب من مقطوعاته:

ومشعلين من الأضواء قد قرنا بالماء والماء بالدولاب منزوف
لاحاً لعين كالنجمين، بينهما خط المجرة ممدود ومعطوف^(٦٤)

ويمكن أن نقارن بينها وبين أبيات الأعمى التطيلي في وصف أسد رخام يرمى بالماء على بحيرة:

أسدٌ ولو أني أنا قشهُ الحساب لقلت صخرة
وكانه أسدُ السما ء يمجُّ من فيه المجرة^(٦٥)

وكثير من الأشياء الدقيقة من المواد النفيسة تأخذ شكل حيوانات، وقد قدّم المعتمد إلى الأميرة ابنة مجاهد أمير بلنسية غزالاً من ذهب، وأهدى ابنه الرشيد هلالاً من المعدن نفسه، فألهمه هذا البيت من الشعر:

بعثنا بالغزال إلى الغزان وللشمس المنيرة بالهلال^(٦٦)

(٥٩) ابن يشكوال، في نفح ٤٦٤/١.

(٦٠) نفح ٥٦٥/١، وكان في قصر الناعورة، ٥٣٠/١. في مجلس المنصور بن أبي عامر، ٦٤٥/١، وفي بدائع البدائع لابن ظافر ٣٠٩، وكان في منية المأمون بن ذي النون أمير طليطبة. وقد وصف ابن حمديس أسود البرك والتوافير في بجاية، نفح ٤٩٤-٤٩٥. وهـ، ماسيه، في ذكرى ر. باسيه ٢٤١/١. وأومبير، مختارات عربية ص ١٠٢-١٠٧. ول. برشيه، قصر المنصور في بجاية، في المجلة التونسية، المجلد ٢٩، ١٩٢٢، ص ٥٠-٥٦.

(٦١) نفح ٢٦٣/٤، وقد وجدوا في مجرى قناة مياه قرطبة الكبرى فيلا يعود إلى عصر عبد الرحمن الناصر. انظر: ر. كاستيخون، قرطبة في عصر الخلافة، في «مجلة الأكاديمية الملكية للعلوم والآداب والفنون الجميلة في قرطبة»، العام ٨، العدد ٢٥، يناير - ديسمبر ١٩٢٩، ص ٣١٥، ويحتوى صوراً فتوغرافية. وفي صندوق عاج في متحف فيكتوريا - ألبرت في لندن، ويحمل تاريخ ٩٧٠ = ٣٥٩ نشاهد فيلا يحمل هودجا. انظر: ج. فرانديس، عاجيات، ص ٧٢-٧٣ واللوحة ١٢.

(٦٢) نفح ٥٣٠/١.

(٦٣) من الوافر، ابن ظافر، بدائع البدائع ٣٧٣، وعنه في نفح ٢٦٣/٤.

(٦٤) من البسيط، ابن ظافر، بدائع البدائع ٣٧٣، وعنه في نفح ٢٦٣/٤.

(٦٥) من الكامل، نفح ٤٠٤/٣ و ٥٠٠/٣. ولير تشوندي وسيمونيت، منتخبات عربية، ص ١٣٤ رقم ١٥٧.

وفي البيرة كان يوجد فرس من حجر، ضاع أصله في ليل الزمان، كان الغلمان يركبونه ويتلاعبون حوله إلى أن انكسر منه عضو، ويزعم أهل البيرة أن في تلك السنة التي حدث فيها كسره تغلب البربر على المدينة فكان أول خرابها. انظر: الروض المبطر، رقم ٢٥ ص ٣٧/٢٩.

وكان على باب العقاب في المرية صورة عقاب من حجر قديم بديع المنظر. نفح ١٦٢/١.

(٦٦) من الوافر. بدائع البدائع ١١٤، وعنه نقله نفح ٦١٤/٣. والذخيرة ٥٢١/٢.

وكان المعتمد يملك دمية من البلّور، أو من العنبر طبقاً لروايات أخرى، في شكل جبل مرصع بالذهب واللآلئ، وعيناه من ياقوتتين، ويُقدّر ثمنه إجمالاً بما يقرب من خمس مئة مثقال، وهذا في يوم رُق فيه مزاجه إلى شاعر صقلّي نفى من وطنه ولجأ إلى إسبانيا، وهو أبو العرب الصقلّي، فسارت بالخبر الركايب، وتهادته المشارق والمغارب^(٦٧).



وكانت حلل مالقة الموشية مرّبة بصور عجيبية^(٦٨)، وأخرى مثلها يمكن أن تثير إعجابنا في الأقمشة المعلقة على الجدران التي تزين قاعات قصر المأمون في طليطلة^(٦٩).

وكان المعتضد أمير إشبيلية يملك سكيناً، أحد جانبيها مزين بغزال، والآخر بأسد، مما لهم ابن جاح الصباغ بالآيات التالية:

أنا إن كنتُ غزلاً وغراً بي الليثُ جلاً
فبعينيَّ احورارُ يتركُ الناسَ حياراً^(٧٠)

إن معظم الصناديق، أو العلب، التي وصلتنا تحمل رسوماً منقوشة في شكل مشاهد، تضم شخصيات جالسة أو واقفة، تشرب أو تغني، في صحبة آلات موسيقية، في رحلة صيد، مع حيوانات متواجه، أو في رفقة الصائدين، مستوردة من اشرق أو تقليداً لما هناك، وتشهد بالهام بيزنطي أو ساساني واضح، ولكن الشعراء لم يصفوها لنا^(٧١).

(٦٧) نفح ٥٦٥/٣ و ٢٦١/٤ ودوري. تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٣ - ج ٣ ص ٩٣. ونذكر هنا بمناسبة الحديث عن التماثيل الحيوانية ثورين من الحجر، وجردة من الذهب، اكتشفوها في لورقة، وقد عرضنا لها فيما سبق ص ٢٧٥ - ٢٧٦ من هذا الكتاب. عند الحديث عن الحرفات.

ونذكر أخيراً أن دوائر هواء في شكل ديك كانت تخرج قصر باديس بن حبوس في غرناطة، غربي نهر الدارو، ولقد كان يحمل اسم دار ديك الريح. انظر: دائرة المعارف الإسلامية ١/٤، مادة بنى زيري، وكتب المادة ليفي بروفنسال. وعن الأساطير المتصلة بها انظر: نفح ٧٩٦/٢ طبعة أوربا. والعمرى، مسلك الأبحار، ترجمة جودفروي - ديومين، ص ٢٢٨، هامش ١ ص ٢٢٩. وترجمة أحمد زكي في تكريم كوديرا ص ٤٦٧. ود. كونتريراس، دراسة وصفية للحمراء ص ٣٥٦ و ٤٣٢ و ٤٣٣. ومرمول كريخال، تاريخ ثورة الموريثيين وعقابهم، الكتاب ٥. وجسار ديمرو، هواجس المسلمين الإسبان وأهمهم في سقوط غرناطة الوثيك وملكها في يد المسيحيين، في مجلة مركز الدراسات التاريخية لغرناطة وملكها، عام ١٩١١، مجلد ١، عدد ٣ ص ١٤٩ - ١٥١.

(٦٨) نفح ٢١٩/١. وقرسية غوث، ترجمة رسالة فضل الأندلس للتقندي ص ١١٢ رقم ١٦١. وفي عام ٥٢٦ = ١١٣١ خاض جيش مرابطي بقيادة تاشفين بن علي ضد لمسيحيين قريبا من الزلاقة، فكان قلب الجيش يحمل «حمر الرايات بالصور المائلة». انظر ابن الخطيب، الإحاطة ط ١ ج ١ ص ٤٦٠. وأعمال الأعلام، مخطوطة الجزائر رقم ١٦١٧، الورقة ٢١٢ وجه. (٦٩) الذخيرة ١٣٠/٤.

(٧٠) من الرمل، ابن ليون، لمح السحر، مخطوطة الرباط، ٥٢ أ.

(٧١) كانت هذه العلب أو الصناديق تضع في ورش قرطبة، (في مدينة الزهراء) في القرن العاشر، وفي كونكة ن القرن الحادي عشر، كما أوضح ذلك من قريب ج. فراتيسر، في قائمة مسيحية، مع دراسة مفصلة، وإلى المؤلف نفسه يعود الفصل وإلى ليفي بروفنسال في إظهار النقوش وقراءتها وترجمتها نظر: ج. فراتيسر، العاجيات والكهرمان الإسبانية، في سلسلة لا بور، برشلونة ١٩٢٨، ٩ - ١١٣. وليفى بروفنسال، نقوش إسبانيا العربية، ١٨٦/١ - ١٩٢، رقم ١٩٣ - ٢١٠. وانظر أيضاً: تراس، الفن الإسباني الإسلامي، منذ نشأته حتى القرن الثالث عشر، ١٧٣ - ١٧٦ واللوحه ص ١٨٢ - ١٨٣. ونذكر جانباً ما يتصل بالقرن العاشر، ونكتفي بذكر أهم ما يتصل بالقرن الحادي عشر، والتي تمثل سخوصاً، وهي

وأخيراً فإن مشاهد عديدة نقشت على حجر على امتداد القرن الحادى عشر^(٧٢).
 إذن عاش المسلمون تحيط بهم أشكال مصوّرة وكانت توجد بكثرة على المباني العامة والخاصة، باستثناء المباني الدينية، وظل هذا التقليد متواصلاً على امتداد القرنين الثانى عشر والثالث عشر، إلى أن نصل الحمراء بأسودها المنحوتة، وشخصها المنقوشة فوق الجلد^(٧٣).

١ - صندوق من العاج أهدى إلى عبد الملك بن المنصور فى عام ٣٩٥ = ١٠٠٥، ومصدره دير ليبر، ويوجد الآن فى متحف نبرة، ورصيفة كبيرة تمثل مشهداً فى البلاط، وأخرى رحلة صيد، ونقلها فراندس فى المصدر السابق ص ١٤، ومينديث بيدال، إسبانيا فى عصر السيد ١٦٢/١، وليفى بروفنسال، إسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر، ص ٢٢، وتوماس أرنولد و أ. جيبوم، تراث الإسلام، أوكسفورد، ١٩٣١، ص ١٤٢، صورة ٦٣.

٢ - صندوق صغير بلا غطاء فى متحف اللوفر، فى مجموعة دافيليه، ويعود تاريخها احتمالاً إلى مطلع القرن الحادى عشر. ورصيفة تمثل مشهد شراب مع موسيقا، ونقله فراندس، فى المصدر السابق ص ١٦ رقم ٢. ومينديث بيدال، إسبانيا فى عصر السيد ١٦٠/١، و ج. سال و ج. بايو، مجموعة الشرق الإسلامى، باريس ١٩٢٨، ص ٣١، و اللوحة ٥.
 (٧٢) نكتفى بالإشارة إلى حوض شاطية، ويعود تاريخه فى ضوء زخرفته إلى القرن الحادى عشر، ويعرض فوق أحد جوانبه بعض المشاهد التى تتخللها شخصيات، ونقش متحف ستيفن جسيل فى الجزائر، ونرى فيه مشهد رحلة صيد: «فارس مسلح بقوس، يتبعه صقار يحرس أيضاً قوساً فى يده اليمنى، ويسك بها أيضاً أرنباً برياً ميتاً. ويرفع بيده اليمنى صقراً فوق كفل الحصان، ونخلة ترتفع خلف الصقار، وقد ذهب الإطار بجزء منها، تظله بجريدها». انظر: ج. مرسية، حول حوض إسلامى فى متحف ستيفن جسيل، فى حوليات معهد الدراسات الشرقية، كلية الآداب فى جامعة الجزائر، المجلد ١، عام ١٩٣٤ - ١٩٣٥، باريس، ص ١٦٢ - ١٧٥.
 والحوض مؤرخ فى ٤٤ أو ٤٧.

(٧٣) يقول ابن خلدون عن الأندلسيين فى أيامه: «إذا كانت أمة تجاور أخرى، ولها القلب عليها، فيسرى إليهم من هذا التشبه والافتداء حظ كبير، كما هو الحال فى الأندلس لهذا العهد مع أمم الجلالقة، فإنك تجدهم يتشبهون بهم فى ملابسهم وشاراتهم، والكثير من عواندهم وأحوالهم، حتى فى رسم الثمايل فى الجدران والمصانع والبيوت». انظر: المقدمة، طبعة كاتر مير ٢٦٧/١، وطبعة القاهرة ١٤٧، وترجمة نى سلان ٣٠٧/١.

○ الفصل الخامس :

الحمامات

بين كل الأمكنة العامة التي يمكن أن نجد فيها التماثيل فإن الحمامات أكثرها زخرفة، وهي تجمع بين ما هو مفيد ولطيف، وفيها نلتقي بمشاهد من الأشكال الجميلة منحوتة أو مرسومة هدية للفكر والروح، إلى جانب الراحة البدنية التي يبعثها بخار الماء.



كانت الحمامات الطبيعية معروفة وقد وصف لنا ابن زيدون تماثلاً مصقولاً من الرخا، لغادة هيفاء، يزين القاعة الرئيسية في الحمام الذي كان يتردد عليه المعتضد مع حريمه للعلاج، وهذه المنشأة طبقاً للشاعر هي:

جاورتُ حَمَّةً مشيَّدةً المَبْـ سَحَى، لبرقي الرخام فيه عَمِيضٌ^(١)

وكانت الحمامات التركية منتشرة على نطاق واسع، ولم يدخلها العرب إلى إسبانيا فيما أظن، إذ كان الرومان قبلهم قد أنشأوا عدداً من الحمامات العامة في المدن الكبرى. وفي العصر الإسلامي لم يكن هناك أي تجمع بشري لا يملك حماماً أو أكثر، وكان في قرطبة في القرن العاشر الميلادي، في عصر عبد الرحمن الثاني، ثلاث مئة حمام^(٢)، وبلغت ست مئة في عصر المنصور بن أبي عامر^(٣).

ولابد أن حمامات المدن كانت في نفس النظام الذي هي عليه اليوم، فتحة قاعة لخلع الملابس والراحة، وقاعة ثانية للموقد دون كبائن خاصة، وربما كانت هناك ثالثة ذات حرارة متوسطة^(٤). وقد اهتم الشعراء بالقاعة الأولى فوصفوها لنا بكثرة، فالأرض عادة من الرخام، والجدران مكسوة به أيضاً، والسطح في شكل قبة، بها عدد من المضاي المغلقة بالزجاج الملون، ووصف لنا أبو عامر بن شهيد قاعة على هذا النحو، قبتها مزخرفة بأحمر وأبيض، وزجاج المضاي أحمر اللون:

تَحَيَّرْتُ مِنْ طَيْبِ حَمَانَا يَخْيَلُ لِي أَنْ فِيهِ الْفَلَقُ
فَمِنْ حَمْرَةٍ فَوْقَ وَإِبْيَاضٍ كَخَدِّ الْحَبِيبِ إِذَا مَا عَرِقَ

(١) من الخفيف، ابن زيدون، الديوان ٢٤٠، البيت السابع، وانظر فيما سبق ص ٢٩٦ من هذا الكتاب، وفيما يتصل بالحمامات انظر المثل الأندلسي المذكور فيما سبق ص ٢٩٦ الهامش رقم ٥٦.

(٢) البيان المغرب ٢٤٧/٢، وترجمته ٣٨٣.

(٣) نفح ٥٤٠/١.

● قلت: هذا الرقم في طبعة أوروبا، أما في طبعات القاهرة وإحسان عباس فهو تسع مئة (الترجم

(٤) عن هذا الموضوع انظر: وليم وجورج ماسيه، 'الأدب العربي في تلمسان ١٦٢ - ١٦٦.

رأى الدهرُ ماشدً من حسنه فسَدَ كوى سقفيه بالشفق^(٥)
وحاول شعراء آخرون أن يبرزوا الفرق الواضح بين الحرارة خائفة والماء طريا. يقول ابن بقى:

حَمَامًا كَزَمَانِ الْقَيْظِ مُحْتَدُمٌ وفيه للبرد صِرٌّ غير ذى ضرر
ضِدَانٍ يَنَعِمُ جِسْمُ الْمَرْءِ بَيْنَهُمَا كالغصن ينعم بين الشمس والمطر^(٦)

ويعبر الأعمى التطليل عن الفكرة نفسها، يقول:

يَا حَسَنَ. حَمَامًا وَهَجَتَهُ مَرَأَى مِنَ السَّحَرِ كُلُّهُ حَسَنُ
مَاءٌ وَنَارٌ حَوَاهَا كَنَفُ كالقلب فيه السرور والحزن

ويقول في مقطوعة أخرى:

لَيْسَ عَلَى لَهَوْنَا مَزِيدُ وَلَا لِحَمَامِنَا ضَرِيبُ
مَاءٌ وَفِيهِ لَهِيْبُ نَارِ كالشمس في ديمة تصوب
وَابْيَضُ مِنْ تَحْتِهِ رَخَامُ كالثلج حين ابتداء. يذوب^(٧)

ولم تكن الحمامات كلها على درجة عالية من النظافة إذا صدقنا أبو جعفر بن سعيد حبيب حفصة الركونية:

يَا رَبَّ حَمَامٍ لَعَنَّا بِمَا أَبْدَى إِلَيْنَا كُلَّ حَمَامٍ
أَفْقٌ لَهُ قَطْرٌ حَمِيمٌ كَمَا أَصَمَّتْ سَهَامٌ مِنْ يَدَيَّ رَامِي
يَحْرِقُ سُحْبًا لِلدَّخَانِ الَّذِي لَاحَ لَغِيمِ الْعَارِضِ الْهَامِي
وَقِيمٌ يَجْذِبُنِي جَذْبَةً وَتَارَةً يَكْسِرُ إِيهَامِي
وَيَجْمَعُ الْأَوْسَاحَ مِنْ لُؤْمِهِ فِي عَضْدِي قَصْدًا لِإِعْلَامِي
وَأَزْدَحِمُ الْأَنْذَالَ فِيهِ وَقَدْ ضَجُّوا ضَجِيحًا دُونَ إِنْهَامِ
وَجَمَلَةُ الْأَمْرِ دَخَلْنَا بَنَى سَامٍ وَعَدْنَا كِبْنِي حَامِ^(٨)

ويرى شاعر مجهول أن الحمام ملجأ يبكى فيه العاشق بكامل حريته رجيل محبوبه:

وَلَمْ أَدْخُلِ الْحَمَامَ يَوْمَ رَحِيلِهِمْ فِيهِ الْعَاشِقُ بِكَامِلِ حَرِيَّتِهِ رَجِيلُ
وَلَكِنْ لَتَجْرَى دَمْعِي بِطُمْنَنَةٍ طَلَابُ نَعِيمٍ قَدْ رَضِيَتْ بِيُوسِي
فَأُبْكِي وَلَا يَدْرِي بِذَاكَ جَلِيسِي^(٩)

(٥) من المتقارب، الذخيرة ٣٠٢/١، وعن معنى كلمة «مضواء» انظر: دوزي، ملحق المعاجم العربية ١٥/٢.

● قلت: وردت هذه الأبيات في الذخيرة ضمن مقطوعات لعدد من الشعراء قالوها في الحمام، وأوردها ابن بسام بمناسبة مقطوعة لابن شهيد عن حمام له، طلب منه المنصور بن أبي عامر أن يتخلل عنه لتوسعة الحمام الخاص به. ووهم المؤلف فظن الأبيات التي هنا لابن شهيد، وهي في الحق للمنفصل. (المترجم).

(٦) من البسيط، الذخيرة ٣٠٣/١، ونفع ٣٤٧/٣.

● قلت: في النفع البيت الثاني منسوب للأعمى التطليل إجازة (المترجم).

(٧) المقطوعة الأولى من المنسرح، والثانية من البسيط، الذخيرة ٣٠٢/١ و ٣٠٣، ونفع ٣٤٨/٣.

(٨) من السريع، نفع ١٨٢/٤.

● وقد اكتفى المؤلف بالبيت الأخير، وجئت بالمقطوعة كاملة (المترجم).

(٩) من الطويل، الذخيرة ٣٠٢/١.

وإذا كان الحمام يد الجسم بلذة حسية لاشك فيها، فهو يحدث أيضا، بسبب الاختلاط لسائد فيه، احتكاكات يرتضيها بعضهم مبتهجا، ويتحملها آخرون ضائقين، وطالما أبرز الشعراء في قصائدهم هذه التسوية في الظروف الإنسانية التي يحدثها العرى، يقول ابن المغلس:

ومنزّل أقوام إذا ما تقابلوا تشابه فيه وغدّه ورئيسه
يُنَفِّسُ كَرْبِي إِذْ يَنْفَسُ كَرْبَهُ ويعظم أنسى إذ يقلّ جليسه^(١٠)

وقد انزعج أبو الحسن مختار الرعيّ قاضي زهير أمير المرية الصقلي حين دخل حماما فجلس بإزائه عامى أساء إليه:

ألا لعن الحمام دارا فإنّه سواء به ذو العلم والجهل في القدر
تضيع به الآداب حتى كأنها مصايح لم تنفق على طلعة الفجر^(١١)



ويبقى وصف الحمام ناقصا إذا لم نذكر هنا ما قيل بمناسبة الصور والتماثيل^(١٢)، ذلك أن صور الحمامات سواء كانت تماثيل أم رسوما أم فسيفساء تكثر في هذه المنشآت العامة، ومن المحتمل أن وجودها لم يكن لغايات جمالية فحسب، لأن تماثيل طالقة الذي نقل إلى حمام الشطارة في إشبيلية أحدث كثيرا من المشكلات الفكرية في عقول الشباب، لأن صورته الفاضحة لم تكن تثير غير الأفكار الشهوانية، وهو تقليد إغريقي وفارسي في الوقت نفسه واصل سيره عبر التاريخ، وأقدم شاهد عليه في العالم الإسلامي ما تثيره حمامات قصر عَمْرَة. ويمكن أن نضيف إلى كل هذه الانفعالات التي تؤثر أن نعتقد أنها فنية خالصة انفعالات أخرى يثيرها منظر الأجسام الجميلة العارية، دون أدنى خجل مزيف، ومثلها لا يمكن إلا أن يزيد المشاعر إثارة. ومن السهل علينا بعد كل الذي قلناه عن الحمامات أن نلتقط أصل هذا الحب وامتداده، والذي لا نجرؤ على تسميته في مجتمعتنا المنتشى بالمشاعر المسيحية، ولكنهم قديما، في المجتمعات الإغريقية والرومانية، كانوا يظهرونه بحرية تامة، وأحد هذه الأسباب الجوهرية يجب أن يكون ما أشرنا إليه من قريب في المجتمع الإسباني الإسلامي^(١٣)، فالقرآن والحديث النبوي يدينان في صراحة وبتوة اللواط وباء اجتماعيا^(١٤)، ولو أنه واصل سيره في الحياة

(١٠) من الطويل، نفع ٣٥٢/٣.

(١١) من الطويل، نفع ٣٨١/٣، ويرى بن خفاجة في الحمام:

أهلاً بيت النار من منزل شيد لأبرار وفجار
نقصه ملتمس لذو فندخل الجنة في النار

من السريع، الديوان، القطعة ٣٢٠، ص ٣٦٣، نهاية الأرب ٣٩٩/٢.

(١٢) انظر فيما سبق ص ٢٩٦ الهامش رقم ٥٨ من هذا الكتاب.

(١٣) أوضح ماسينيون في روعة الأسباب العميقة لهذا البلاء، يقول: «يجب أن نوضح فيما يتصل بهذا الموضوع المخجل، وخطورته لا يمكن إخفاؤها من وجهة النظر الاجتماعية، أن رذيلة اللواط رغم ما قاله بورتون ونبيهاني ليست وليدة منطقة مناخية محدّدة، ولا جنسا بعينه، فرسا أو إغريقيا، وإن زينو بتعلات فلسفية، وليسوا مخترعيه فهو موجود في صورة بدائية عند كل الشعوب، حيث يلجأ السادة، كالحيوانات، إلى القهر أو الحيلة لإخضاع أرقائهم جنسيا، دون تفرقة بين الذكور والإناث منهم، وعاقبونهم على إخطائهم بإخضاعهم بمنف لإرضاء شبقهم». انظر: الحلاج، ٧٩٧ رقم ٣.

(١٤) النصوص الدينية المتصلة بهذا الموضوع، من القرآن والحديث، جمعها التويري في كتابه نهاية الأرب ١٨٩/٢ - ١٩٦.

مثل كل الحرّمات^(١٥). وإذا حصرنا أنفسنا في إسبانيا الإسلامية فلن يكون صعبا علينا أن نقدم عددا كبيرا من الشواهد المأخوذة من المؤرخين^(١٦)، ومن مؤلفي رسائل الحسبة^(١٧)، ومن الشعراء بخاصة، ومن الشائع أن تشير القصائد إلى أصحاب الوجوه الجميلة من الصبيان، مسلمين ومسيحيين ويهودا، وتذكرهم عادة بأسماء: غلام وسيم، وفقى جميل، وغلام أمرد، وعندما تبدأ لحاهم في النمو يسموهم مُعَذَّر، من العذار، أى غلام غطى الشعر خديه^(١٨)، ويصفون هؤلاء الغلمان أيضا بأنهم مخنثون^(١٩) وجوى^(٢٠).

يمكن القول إن اللواط كان ملحوظا في كل بلاطات ملوك الطوائف، ويكفى أن نشير هنا إلى غرام المعتمد بابن عمار وبملوكه سيف^(٢١)، وغرام المتوكل بغلام، وسخر منه مضحك يدعى الخطّارة تحت تأثير الشراب^(٢٢)، ورفع الدولة ابن المعتصم بغلام لا نعرف اسمه^(٢٣)، والمؤتمن أمير سرقسطة بواحد من خدمه المسيحيين^(٢٤)، وتغنى الشعراء أنفسهم في قصائدهم بالعلاقات الغرامية غير المشروعة بالغلمان^(٢٥)، وبعضهم لم يكن يبالي بالنساء على نحو واضح وبصورة قبيحة^(٢٦)، وآخرون كانوا لوطيين عرضا^(٢٧).

والقصائد التي تغنى فيها الشعراء بجمال هؤلاء الغلمان اكتفت بأن تردد ما قاله الشعراء المشاركة،

(١٥) انظر ماسينيون، المصدر السابق ص ٧٩٧ رقم ٢. وفيها يتصل بمدينة فاس انظر: ليون الأفريقي، طبعة شيفر ٨٧/٢ و ١٢٧، ومقالنا: الشعر في فاس تحت حكم المرابطين والموحدين، في مجلة هيسبيريس المجلد ١٨، عام ١٩٣٤، ص ٣٧ - ٣٩. (١٦) البيان المغرب ٤٩/٣ و ٢٦٧، ونفع ٤٤٧/٣ و ٤٥٠ و ٤٥٣، وأبحاث ط ١ ص ١٨٢، ونفع ٣٦٠/٢ و ٤٦١ و ٤٦٢ و ٤٧٠ طبعة أوروبا، ودوزي، ملحق المعاجم ٥٤٧/٢، مادة «استلقاء»، وابن حزم، طوق الحمامة ١٨١، وترجمة نيكل ٢٠٧ - ٢٠٨، والمدخل له ٢٨ - ٢٩، والمعجب ١٠٣، وترجمته ٩٩.

(١٧) السقطي، رسالة في الحسبة ص ٦٨، ومعجمها ٢٦، وابن عبدون، رسالة في الحسبة ص ٢٤١، ومعجمها ٢٦٥. (١٨) ومن هنا نشأ كل الأدب الذي يقف إلى جانب العذار أو ضده، الذخيرة ١٣٩/١ - ١٥٢، ونهاية الأرب ٧٥/٢ - ٨٦. (١٩) ربا أصل الكلمة أخو الإناث. (٢٠) ابن عبدون، رسالة في الحسبة ص ٢٤١، والمعجم الخاص بها ٢٦٥، والمعجم ٨٤ و ٣٦٠، ودوزي، ملحق المعاجم العربية ٣٤٣/١.

(٢١) المعجب ١١٧ وترجمته ٩٩، ونفع ٧٣/٤، ودوزي، ملحق المعاجم ٥٤٧/٢، والقلائد ٨، وعنها في «بنو عباد» ٤٢/١، ونفع ٢٨٢/٤، والمعجب ١٠٣ - ١٠٤، وترجمته ٨٨، والذخيرة ٤٦/٢، وعنها في «بنو عباد» ٢٩٩/١.

(٢٢) نفع ٥٤٣/٣، وأبحاث ط ١ ص ١٨٢.

(٢٣) المطمح ٢٢٣.

(٢٤) القلائد ٨٤ و ٨٥، ونفع ٦٥٤/١.

(٢٥) مثل أبي بكر بن قزمان، الديوان في أكثر من مكان، وعبد الجليل بن وهبون في القلائد ٢٤٤ - ٢٤٥.

(٢٦) مثل ابن قزمان، الديوان، القطعة ١٣، الدور ٨ والقطعة ٣٠ و ٥١ و ٦٢ و ١٢٣، وأبو القاسم بن العطار، في القلائد ٢٨٤ و ٢٨٥ و ٢٨٦ و ٢٨٧، ٢٨٨.

(٢٧) مثل ابن اللبابة، في القلائد ٢٤٩ و ٢٥٢، وأبو الحسن البرقيّ البلسنى في المطمح ٣٥٧، وابن الحاج اللورقي، في القلائد ١٤٤، وانظر فيها سبق ص ٢٦٨ من هذا الكتاب، وابن سارة، في القلائد ٢٦٠ و ٢٦٩ و ٢٧٣، وابن المرابط، في القلائد ٢٩٥. وأشد هذه الحالات إثارة حالة ابن عمار سليبا وإيجابيا، في القلائد ٨٦ - ٨٧.

وبخاصة أبو نواس وبشار وابن الرومي^(٢٨) عن الخال، وأحيانا الشامة والعدار^(٢٩). ولا يبدو لنا ضروريا أن نلج على هذا الموضوع^(٣٠)، ومع ذلك سوف نذكر بعض الشواهد الشعرية لنظهر أن الشعراء عبروا عن اهتمامهم بالغلمان بالطريقة نفسها التي تعاملوا بها مع المرأة.

يقول أبو القاسم بن العطار:

وسنان ما إن يزال عرْضُه يعطف قلبي بعطفة الـلام
أسلمني للهوى فواحرنا إن بزني عفتي وإسلامي
لحظه أسهم وحاجبه وإنسان عينه رام^(٣١)

ويقول ابن الزقاق:

وأغيد طاف بالكؤوس ضحي فحثها والصبح قد وضحا
والروض أهدى لنا شقائقه وآسه العنبري قد نفحا
قلنا: وأين الأقاح قال لنا: أودعته ثغر من سقى القححا
فظل ساقى المدام يجحد ما قال فلما تبسم افتضح^(٣٢)

لقد عبر الشعراء عن الشغف الذي يثيره الغلمان بألفاظ حرى، ولكن دون أن يتركوا أنفسهم تظل في الفحش طويلا مما يدل بوضوح على أن «الغلمنة»، سواء في إسبانيا الإسلامية أم في المشرق، كانت تحط من قدر الرجل.

إن زهرة الحب العذرى السامية لا تنمو ولا تزدهر إلا في حديقة المرأة، وهذا ما سوف تظهره في فصل تالٍ.

(٢٨) يقول ما سينيون، الحلاج ٧٩٧ رقم ٢: «لقد تغنى عدد من كبار الشعراء أمثال بشار بن برد، وأبو نواس، وابن الرومي، وراضين بهذا الأمر المخجل، حتى دون أن يستمتعوا به واقعا (ملاحظة المبرد على نفسية أبي نواس، والشفافية التي لا يكن تقليدها، وتلتقى مع فولتير تماما، وتصطبغ بأسلوبه كثيرا، في وصفه النزبه للحب الشاذ، تجعله شريرا أكثر منه أديبا).

(٢٩) عن هذا الموضوع انظر: النويري، نهاية الأرب ٧٣/٢ - ٨٦، وشرف الدين الرامي، أنيس العشاق رسالة في المصطلحات المجازية المتصلة بوصف الجمال، ترجمه من الفارسية وعلق عليه كليمت أوار، مكتبة المدرسة العليا للدراسات، للجلد ٢٥، باريس ١٨٧٥، ص ٤٢ - ٥٤، ودى سلان، ملاحظت عن المعنى المجازي لبعض الكلمات التي توجد كثيرا في الشعر العربي، في المجلة الآسيوية، السلسلة الثالثة، المجلد ٧ عام ١٨٣٩، ص ١٦٩ - ١٧٥.

(٣٠) ترجمنا بعض الأبيات عن العذار بمناسبة الحزن، انظر فيما سبق ص ٢٦٨ و ٢٦٩ من هذا الكتاب.

(٣١) من المنسرح، القلائد ٢٨٨، ونفع ٣٠٢/٤.

(٣٢) من المنسرح، الديوان ص ١٢٤ القطعة رقم ١٩، والشقندي، رسالة فضل الأندلس، في نفع ٢٠٠/٣، وترجمة غربية غوث لما ٧١/٧٠، وتوجد أمثلة أخرى في ديوان لين قرمان، وبخاصة القطعة ١١٥ و ١١٦. (ص ٢٧٠ - ٢٧٣ في طعة نيكل، وترجمتها أو تحليلها ص ٤٢٦ - ٤٢٨).

● قلت: في كتاب غربية غوث الذي ترجمته عنوان «مع شعراء الأندلس والمنتبى»، وصدر عن دار المعارف بالقاهرة، الطبعة الرابعة عام ١٩٨٦، ص ١٢٦ دراسة جيدة عن تصوير الجديد في هذه الأبيات، فقد أضفى عليها الشاعر طابعا مسجيا مأسويا ليخرج بها عن الاستعارة في صورتها التقليدية. (المترجم).

○ الفصل السادس :

الألعاب الرياضية

لكى ينسى الأندلسيون مشاغلهم اليومية أضافوا إلى سلوة الحمام متعة الاستمتاع بالألعاب والتمرينات البدنية. ونعرف من بينها لعبتين شغف بهما الأندلسيون إلى حد كبير، وهما: لعبتا الكُراج والشطرنج.

كانوا يلعبون الأولى بقطع مصنوعة من الخشب في شكل حصان تُسمى كُراج، من الكلمة الفارسية القديمة كُراج، والتي تطلق على المهر أو خيل السباق، وكانت الراقات يعلقن هذه القطع في أقبيتهم، ولم يكن غرام الرجال بهذه اللعبة بأقل من شغف الصبيان، وقد بوغت ابن مرتين قائد المعتمد في بيته في قرطبة، من قبل فصيلة من جنود أعدائه في لحظة كان يلعب فيها الكراج^(١).

أما الشطرنج فكان اللعبة المفضلة لدى المسيحيين والأندلسيين على السواء، وكان المعتمد يملك شطرنجا ذا قاعدة بديعة الصنع، وأحجاره من العاج وخشب الصندل المطعم بالذهب^(٢).

وإليك بعض الأشعار التي تتصل بهذه اللعبة. يقول ابن مَقان:

لَعَبْتُ أَسِيفَهُ عَارِيَةً كَمْخَارِقَ بِأَيْدِي اللَّاعِبِينَ^(٣)

ويشبهه شاعر مجهول مناورات ألفونسو السادس التي مكنته من احتلال طليطلة بمباراة شطرنج:

يَا أَهْلَ أُنْدَلُسٍ رُدُّوا الْمَعَارِفَا فِي الْعُرْفِ عَارِيَةً إِلَّا مَرَدَاتُ
أَلَمْ تَرَوْا بِيَدِ الْكُفَّارِ فَرْزَنُهُ وَشَاهِنَا آخِرَ الْأَيَّامِ شَهْمَاتُ^(٤)

(١) انظر: الذخيرة ٢٧١/٢، وعنها في «بنو عباد» ٣٢٤/١، ودوزي، ملحق المعاجم العربية ٤٥٤/٢، وانظر أيضاً: ابن خلدون، المقدمة، طبعة كاتمرير ٣٦١/٢، وترجمة دى سلان لها ٤٢١/٢، والجواليقي، المغرب ١٣٠، وجود فروى ديومين، Sur le cheval jupon et al-kurraj، في تكريم وليم مرسيه ص ١٤٥ - ١٦٠.

(٢) لقد أشرنا فيما سبق كيف أن ابن عمار وزير المعتمد بن عباد استطاع بفضل مباراة شطرنج انتصر فيها على ألفونسو السادس أن يجعل الملك المسيحي يجلو عن الأراضي التي احتلها في مملكة إشبيلية، فيما يتصل بهذه القصة انظر: المعجب ١١٩ - ١٢٠، وترجمته ١٠١، وتاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ١٠٢، ومجموعة مدام !. شتيك، قراءة س. فليري. انظر: ميجون، موجز الفن الإسلامي: الفنون التشكيلية والصناعية، ج ١ ص ٣٥٨.

وقد وصلنا بيدقا شطرنج من العاج، أحدها يعود إلى عام ٤٦٠ = ١٠٦٧، ويعود الآخر إلى العصر نفسه فيما يبدو، ويثلاث في وجهيهما امرأة ملفوفة في دثار، وتجلس فوق عرش، وحوها طاووس، وغزالتان، ومحارب مسلح بقوس وسهم، انظر: ج. فرانديس، العاجيات والكهرمان الأسود الإسبانية، ص ٩٢ - ٩٣، ورقم ٢١.

(٣) من الرمل، نفخ ٤٣٣/١.

(٤) من البسيط، نفخ ٣٥٢/٤.

ويقول ابن اللبانة في رثاء المعتمد حين توفي هذا في منفاه:

والدهرُ في صِيفةِ الحرباءِ منغمسُ أَلِانَ حَالَاتِهِ فِيهَا سَتَحَالَاتُ
ونحن من لُعِبِ الشطرنج في يده وَرَبَّمَا قُيِّرَتْ بِالْبِيدِ الشَّاهُ^(٥)

وفضلاً عن لعبي الكراج والشطرنج، ولا تتطلب الأوب غير مهارة يدوية نسبية، على حين تحتاج الثانية إلى كثير من التأمل والحسد، كان المسلمون يمارسون ألعاباً أخرى تدخل في نطاق الرياضة البدنية الحقة، مثل «البولو» أو لصيد بمساعدة الكلاب أو الصقور.

وفيما يتصل بالبولو لا نجد إلا إشارات لا جديد فيها لأنها توجد في الشعر المشرقي. كما في هذا البيت الذي يصف فيه أبوالمغيرة بن حزم البدر، وهو ذاهب إلى لقاء فينوس فيما يبدو:

لَمَّا رَأَيْتُ الْهَلَالَ مَنْطُويًا فِي غَرَّةِ الْفَجْرِ قَارَنَ الزُّهْرَهُ
شَبَّهْتَهُ وَالْعِيَانُ يَشْهَدُ لِي بِصُوبِجَانٍ انْتَهَى لِضَرْبِ نَحْمِهِ^(٦)

إن النصوص الشعرية قليلة جداً فيما يتصل بالبولو، وعلى النقيض من ذلك نجد مائة وفيرة عن القنص بالكلاب أو الصيد بالصقور ويسترعى انتباه الشاعر في هذين اللونين من الصيد الكلب والصقر اللذين يصيبان الفريسة أكثر من الفارس وجواده وكلب الصيد السلوقي^(٧) أكثر الحيوانات وصفاً في الأدبين العربي والغربي^(٨)، وقد اشتهرت الأبيات التي قالها ابن المرغري، وهو نصراني من المستعربين كان في خدمة المعتمد^(٩)، ولكن أبيات ابن خفاجة في وصف الكلب، ووردت في ديوانه، أكثر جلالاً:

وبكلِّ نائِي الشَّأْوِ أَشَدَّقْ أَخْزِرْ	طَاوَى الْحِشَا حَالِي الْمَقْلَدِ ضَارِ
يَفْتَرُ عَنْ مِثْلِ النَّصَالِ وَإِنَّمَا	يَمِشِي عَلَيَّ مِثْلَ الْقَنَا لِحَطَّارِ
مُسْتَقَرِّيَا أَثَرِ الْقَنْيَصِ عَلَى الصِّفَا	وَاللَّيْلُ مُشْتَمِلٌ بِشَمْلَةِ قَارِ
مِنْ كُلِّ مَسْوَدٍ تَلْهَبُ طَرْفُهُ	تَرْمِيكَ فَحَمَّتْهُ بِشَعِيَةِ نَارِ
وَمَوْرَسُ السَّرْبَالِ يُخْلَعُ قِدْهُ	عَنْ نَجْمٍ رَجَمَ فِي سَمَاءِ غُبَارِ
يَسْتَنْ فِي سَطْرِ الطَّرِيقِ وَقَدْ عَفَا	قِمًّا فَيَقْرَأُ أَحْرَفَ الْآثَارِ

(٥) من البسيط، المعجب ١٤٧، وترجمته ١٣٤، ويشبه أبو الفضل بن شرف رجلاً صغير الرأس، ضخم الجسم أنه يشبه البيدق:

يَا مَنْ حَكَى الْبِيدَنْزَ فِي شَكْلِهِ أَصْبَحَ بِحَكِيكَ وَتَحَكِيهِ
أَسْفَلُهُ أَوْسَعُ أَجْزَائِهِ وَرَأْسُهُ أَصْفَرُ مَا نَبِهَ

الأبيات من السريع، نفع ٣/٣٧١.

(٦) من المنسرح، المطمح ٢٠٣، وعنه في نفع ١/٦٢١، والسيوطي، وصف العال في وصف الهلال، في المجموعة الأدبية ٧٥.

(٧) عن معنى هذه الكلمة انظر: دوزي ملحق المعاجم العربية ١/٦٦٦، ودائرة المعارف الإسلامية ٤/١٣٢، وكتب المادة أ. جروهمان.

(٨) ترد الإشارة إلى كلاب الصيد في اسعر المشرقي، وبخاصة في وصف رحلات الصيد، أو الطرديات كما تسمى، وتتضمن دواوين: أبي نواس وابن المعتز وأبي تمام واختبى قصائد مطولة موقوفة على هذا الغرض.

(٩) انظر: نفع ٣/٥٢١، ولويس شيخو، شعراء العرب النصاري، ج ٣ ص ٢٨١.

● قلت: في نفع الطيب المرعزي، وفي المغرب في حلي المغرب لابن سعيد (١/٢٦٤) المرعز، وكلاهما تصحيح، وصحة الاسم المرعزي، لأن أصله إسياني Margari (المترجم).

عطفَ الضمورُ سرّاته فكأنّه والنقمُ يحجبُه هلالُ سرار^(١٠)

ويجيء الصيد بالصقور في المرتبة التالية للصيد بالكلاب المدربة، وتقى تقديرا كبيرا من الأندلسيين، وكان الخلفاء الأمويون، ومن بعدهم ملوك الطوائف، شغوفين حقا بهذا اللون من الصيد، «وكان صاحب البيزة في العهد الأموي يهتم بصيد العاهل الأموي في الفترة التي تكثر فيها الغرائق في سهل الوادي الكبير، وكان الإقبال عليها حينئذ شديدا ومتابعتها أشد صعوبة^(١١)»

وتشهد الصور التي تتضمنها النقوش والرسوم التي على علب العاج، وتعود إلى القرن الحادي عشر الميلادي، بأن شغف الأندلسيين بالصيد في تلك الأيام كان شيئا لما يزل بالغ القوة، وهو ما تؤكدُه الوثائق المكتوبة، سواء كانت كتباً حرّرها المؤرخون أم قصائد أنشدتها الشعراء.

وبالدقة، خلال رحلة صيد، في يوم مطير، سقط أبو مروان بن رزين من على جواده، وجرح أثناء سقوطه جرحا خطيرا، وكان عليه أن يلزم الفراش ردحا من الزمن فعيره أعداؤه بهذا^(١٢). وطلب المعتمد إذنا من والده في أن يقوم برحلة صيد يصطاد فيها أرانب برية مرة، وفي أخرى أرانب برية وحجلا^(١٤):

وساعةٍ للزمان مُسَعِفَةٍ قنصتُ فيها أرانبًا وحجلًا
فلا أراَنِي إلاَّ مُنكَ رَضًا إن لم أضدْ من عداكَ كلَّ بطل^(١٥)

كانوا يصطادون الطيور ذات الريش بخاصة، باستخدام الصيور الجارحة أو بدونها، وهناك مقطوعتان لابن زيدون كتبهما في صورة ألغاز، كذلك التي استخدمناها في دراسة طيور الزينة، تقدم لنا قائمة يمكن أن نعتبرها أقل استيعابا للطيور التي كان يلاحقها الصيادون، ونجد من بينها: الرهو، أو الفرنيق، والعقوق والحبري والديك والقبيج، أو الحجل، والسمانة والحمامة والشقراق والقمرى، والطيور الجارحة مثل: النسر والعقاب والصقر والبازي والشاهين^(١٦).

أما طيور القنص المفضلة فهي الصقور، وكانت تربي في إسبانيا، ويقدرّون منها بخاصة ما كان من حول لشبونة^(١٧)، وفي جبال الشرق والجزائر الشرقية، ويقدم تقويم قرطبة لعام ٩٦١ م معلومات جيدة

(١٠) من الكامل، ابن خفاجة، الديوان، القطعة ٢، ص ٣٣، الأبيات ٢٩ - ٣٤، ونفع ٦٨٤/١، والنويرى، نهاية الأرب ٢٦٤/٩ (أربعة أبيات)، والذخيرة ٥٩٤/٣، والغزولي، مطالع البدور ٢١٢/٢ (أربعة أبيات).

(١١) انظر: ليفي بروفنسال، إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر ص ٥٥ ورقم ٨.

(١٢) انظر: جورج مارسيس، حول أسفل نقش إسلامي في متحف ستيفن جيسيل، في حوليات معهد الدراسات الشرقية في الجزائر، المجلد ١، عام ١٩٣٤ - ١٩٣٥، ص ١٦٢ - ١٧٥، وانظر فيها سبق ص ٢٩٩ من هذا الكتاب.

(١٣) القلائد ٥٣، وابن الخطيب أعمال الأعلام ٢٠٧.

(١٤) المعتمد، الديوان ٣٢ و ٤٢.

(١٥) من الوافر، المعتمد، الديوان ٤٤.

(١٦) ابن زيدون، الديوان ٥٩٥ - ٢٢٦.

(١٧) القرويني، آثار البلاد، طبعة وستيفنيل، ص ٣٧٢، والقلقشندي، صبح الأعشى ٢٢٢/٥، اعتمادا على أبي الفدا في

تقويم البلدان.

عن تربية الصقور^(١٨)، ويتحدث بخاصة عن الصقور التي أصلها من الجزر القريبة من بلنسية.

وصندوق العاج الصغير المعروف صندوق الأمير المغيرة، ويعود إلى عام ٣٥٧ = ٩٦٨، والمحفوظ في متحف اللوفر في باريس، مزخرف ببعض الرسوم البارزة، وأحدها يمثل شخصين يرتدي كل واحد منها عباءة علّق أسفلها في الحزام الذي في وسطه، لتسهيل حركتهم، ويتوجهون إلى عس ليلتقطوا صغار صقر في حماية أمهم^(١٩). أما الوثيقة الأكثر إثارة من القرن الحادي عشر فتتمثل في رسالة كتبها أبو عبد الرحمن بن طاهر أمير مرسية المخلوع إلى المنصور بن أبي عامر أمير بنسية وحفيد المنصور العظيم يعلمه فيها بوصول الشوذانقات^(٢٠).

وقد طلب الوزير الكاتب أبو بكر بن القبطورنة من المنصور بن الأفطس أمير بطليس أن يهديه بازياً:

يأتيها الملك الذي آباؤه	شُم الأنوف من الطراز الأول
حلت بالنعيم الجسار جسيمة	عنقي، فعل يدي كذاك بأجل
وامنن به ضافي الجناح كأنما	حذيت قوائمه بريح شمال
مُتلفاً والكل ينثر بُردَه	منه على مثل اليماني لمحمل
أغدو به عجباً أصرّ في يدي	ريحاً وأخذ مُطلقاً بمكبّل ^(٢١)

وتوجه الوزير نفسه بأبيات إلى أبي محمد بن عيّدون يطلب الشيء نفسه، ونلاحظ وجود كلمتين فارسيتين: شاهين ودستبان، مما نظن معه أن الصيد بالصقور فارسي الأصل:

مضى الأنس إلّالوعة تستفزني	إلى الصيد إلّا أنني دون شاهين
فمن به ضافي الجناح كأنه	على دستان ^(٢٢) الكف بعض اسلاطين ^(٢٣)

وبالطريقة نفسها توجه عبد الجليل بن وهبون المرسى إلى المعتمد في إحدى رحلات صيده:

وصارم في يديك مصلت	لو كان لل سيف في الوشي روح
يجتاب مما لبست صافية	ها على معطفه توشيح
متقدّ اللحظ من شهامته	فالجو من ناظره مجروح
والريح تهفو كأنما طلبت	سيلها في يمينك الريح ^(٢٤)

وجلس المعتمد ذات يوم والزاة تعرض عليه، فاستحث الشعراء في وصفها، فصنع ابن وهبون بديها:

(١٨) تقويم قرطبة ٢٥ (في شهر ناير، و ٤١ (في شهر مارس) و ٥٨ (في شهر مايو) و ٩٢ (في شهر سبتمبر).

(١٩) جورج مرسية، حول أسفل قش إسلامي ص ١٦٩ الهامش ٤، وج. فراندس، العاجيات ص ٧١ - ٧٢.

(٢٠) القلائد ٦٣. ومن الجدير بالذكر أن النصوص الثرية حين تتحدث عن الصيد بالصقور تفضل استخدام كلمة «الشدانقات»، انظر: تقويم قرطبة، والروض لمطار ٦، وملحق المعاجم العربية ١/٧٣٨ - ٧٣٩، مادة شوذانق، يعطى دوزي لهذه الكلمة أكثر من صورة.

(٢١) (٢٣) من الطويل، القلائد ١٥٤.

(٢١) من الكامل، نفع ٣١٣/٤.

(٢٤) (٢٤) من المنسرح، القلائد ٢٤٥.

(٢٢) دستان كلمة فارسية معناها:

للمصيد قبلك سنة مأثورة
تمضى البزاة وكلها أمضيتها
لكنها بك أبدع الأشياء
عاطيتها بخواطر الشعراء
فاستحسنها الأمير وأسنى جائزته (٢٥).

ويقدم لنا ابن خفاجة أبياتا أخرى عن الصيد بالصقور:

طرد القنيص بكل قيد طريدة
زجل الجناح مُورِد الأظفار
ملتفتة أعطافه بحبيرة
مكحولة أجفانه ينضار
يرمى به الأمل القصي فينتى
مخضوب راء الظفر والمنقار (٢٦)

وبعض الصور مادتها مأخوذة من الصيد بالصقور، يقول أبو الحسن بن السيد البطليوسي:

والليل منحفض يطير غرابه
والصبح يطرد بياز أشهب (٢٧)

ويقول ابن اللبانة يصف لعب الأسطول يوم المهرجان (أعياد سان خوان):

طارت بنات الماء فيه وريشها
ريش الغراب وغير ذلك شوق (٢٨)

(٢٥) من الكامل، نفع ٢٦٠/٤.

(٢٦) من الكامل، الديوان ص ٣٥، ونفع ٦٨٤/١، وهي الأبيات ٢٦ - ٢٨ من القصيدة.

(٢٧) الكامل، نفع ٧٢/٤، وانظر فيما سبق ص ٢٠٦ من هذا الكتاب.

(٢٨) انظر فيما سبق ص ١٩٥ و ١٩٦ من هذا الكتاب.

○ الفصل السابع:

الحياة الحربية

كانت لعبة البولو والصيد بالكلاب والفنص بالصقور مقدمة للنشاط الحربي، فلا يدهشنا إذن أن نجد في هذا القرن الحادى عشر الميلادى، وتُميّز بكثرة الصراعات السياسية، والعداوات الحادة، حصادا واسعا من القصائد المتصلة بالقتال. يلم يتوقف شعر البلاط مادحا أو راثيا عن إطراء الطعنات الصائبة، والرماح النافذة، وحتى لو تأكد أننا بصدد موضوعات مطروقة فقدت بالنسبة لنا أية أهمية هاء، يمكن أن نجد في القليل، ولو صدفة، بعض معالم ذات قيمة توثيقية حقيقية.

ومع أن الشعر لا يقدم لنا أية معلومات كاملة عن الرايات والأسلحة والآلات المختلفة لكنه يتيح لنا أن نصل إلى مزيد من الدقة في بعض النقاط، وإذا كان معجم الشعر الذى نستشهد به لا يختلف في استخدامه عما هو مستخدم في المشرق^(١)، إلا أن التفصيلات التى يقدمها لنا لا يستهان بها في مجال لا نعرف عنه إلا القليل وتدين به كتاب النثر، وهم في الجانب الأكبر منهم ينتمون إلى ما بعد القرن الحادى عشر^(٢).



كانت الكلمات الأكثر شيوعا في تسمية الأعلام هى: الراية، وأحيانا اللواء أو البند، وتختلف ألوانها من مملكة إلى أخرى.

في المرة، يصف أبو الأصبغ عبد العزيز بن أرقم الراية بأنها خضراء مع صنيف أبيض، يحملها. علق في خدمة المعتصم:

نشرت عليك من النعيم جناحا خضراء صيرت الصباح وتاحا
تحكى بخفق قلب من عادته مهما يضافح صفحها الأرواحا
ضمنت لك النعمى برأى ظافر فترقب الفأل المشير نجاحا^(٣)

ويصف المعتمد تحرّكه على رأس كتيبة من الفرسان، موجها الحديث إلى زوجه، على النحو التالى:

ولمّا التقينا للوداع غديّة وقد خفقت في ساحة القصر رايات
وقربت الجرد العتاق^(٤)، وطول، ولاحت للفراق علامات

(١) القائمة الخاصة بالشرق، وبخاصة من حلال الشعر قام بها ف. ر. تشوارزلوز في: Die Waffen der alten Araber.

ليبريج ١٨٨٦.

(٢) استخدم ليفي برونسفال هذه النصوص الثرية في كتابه إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر ١٤١ - ١٤٨. وانظر أيضا: ابن

هذيل الأندلسى، حلية الفرسان وشعار إسحان. ترجمة وتعليق لويس مرسية ص ٢٢٣ - ٢٧١.

(٣) من الكامل، نفع ٤٩٨/٣. (٤) واحد السيد. وآخر لتابعه.

بكينا دماً، حتى كأن عيوتنا لجرى الدموع الحمر منها جراحات^(٥)
والطبول التي يتحدث عنها المعتمد في البيت الثاني ذكرها شعراء آخرون أيضاً، وتثقل مع الرايات
العلامة المادية للسلطة الملكية^(٦)، هكذا يمدح ابن زيدون المعتضد بهذه الأبيات:
غداً بخميس يُقسم الغيم إنّه لأحفل منه مكفهرًا وأكثف
هو الغيم من زُرقي الأسنة برقه وللطبل رعد في نواحيه يقصف^(٧)
ويورد ابن حزم الفكرة نفسها عن الطبول، يقول:
فالطبل جلد فارغ وطنينه يرتاع منه ويفرق الإنسان^(٨)
وعندما علم المعتصم أن ابنه الذي أرسله سفيراً إلى غرناطة ألقوا به في السجن أشرك كل الجيش
معه في أحزانه:

لقطعت البيض أغمادها وشقت بنود وناحت طبول^(٩)



وقد جمع ابن اللبانة الأسلحة الدفاعية والهجومية كلها، على ما يبدو، في بيت واحد من الشعر:
رميت لي فضفاضتي ومهندي وخطيقي والنبيل والقوس والترسا^(١٠)
ولا يختلف السيف، وما أكثر ما وصفه الأندلسيون، في شيء على الإطلاق عما ذكره الشعراء
المشاركة، وأفضل السيوف، حتى ما كان مصنوعاً منها في إسبانيا، يوصف بأنه من الهند، فيقال مهند أو
هندواني، وبعضها محفور صدر الرئاس على صورة قشور الصنوبر مثلاً، إلا أن تلك ناتئة وهذه
محفورة^(١١).
ويقدم لنا ابن درّاج القسطلی معلومات عن أسلحة بربر زناتة وصنهاجة الذين كانوا يقاتلون في
جيش سليمان بن الحكم في عصر الفتنة:

(٥) من الطويل، الديوان ٤، والقلائد ٩ - ١٠، وعنها في «بنو عباد» ٤٤/١، ونفع ٢٧٩/٤، وتنسب هذه الأبيات خطأ إلى ابن زيدون، الديوان ص ٦١.

● قلت هذا في طبعة ديوان ابن زيدون التي قام بها كامل كيلاني وعبد الرحمن خليفة، وصدرت في القاهرة ١٣٥١ - ١٩٣٢
أما طبعة عمى عبد العظيم المحققة فقد خلت منها (المترجم).

(٦) انظر: جودفروى - ديومين، مسالك الأبطار للعمرى، ص ٥٦ - ٥٨.

(٧) من الطويل، الديوان ٤٩٥، البيتان ٦٨ - ٦٩، وكور، ابن زيدون ١٠٤، البيتان ٦٩ - ٧٠. وتوجد أيضاً عند المؤرخين كلمة
طبل، وفي الإسبانية Tambor، انظر: ابن الأبار، الحلة في «بنو عباد» ٩٧/٢، وابن عذارى، البيان المغرب ٦/٣، وترجمة ليفي
بروفنسال في تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ١٨٨، في حملة المظفر بن المنصور عام ٣٩٣ = ١٠٠٣ ضد حصن ممقصر.

(٨) من الكامل، ابن حزم، طوق الحمامة ٣٨، وترجمة نيكل ٢٩.

(٩) من التتار، الحلة ٨١/٢، وفي أبحاث ط ١ ص ١٢٠. ونجد في سرقسطة قائداً مسيحياً اسمه خيار، في خدمة المنذر بن
يحيى، فجعل يتفخ في القرن، بينها المنذر يعرض بعض الجند. انظر: نفع ٢٦٥/٣.

(١٠) من الطويل، القلائد ٢٥١.

(١١) نفع ٥٨٥/٣.

بكل زناي كأن حسامه وهامة من لاقاه نار وقربان
وأبيض ضناه كأن سنانه شهاب إذا أهوى لقرن وشيطان^(١٢)

وهذه المعلومات تؤكد ما أورده ابن سعيد، وهو مؤلف لاحق، عندما يقول: «ولا يكون مدرعا من فرسان البربر إلا أولو الهمة والقدرة ولا يقاتلون بترس ولا رمح طويل غليظ، بل بالسيوف والأرماح الخفيفة، يزرعون بها درعا عجيبا لا يكاد يخطئ»^(١٣).

وفيما يتصل بسلاح الرماة لا بد من أن يذكر ما إذا كان المحاربون الأندلسيون يعرفون «قوس البندق»، الذي وصفه ابن رشيق القيرواني، من شعراء القرن الحادي عشر، في أبيات معروفة تماما^(١٤).

لقد وصف أبو بكر بن قزمان سلحة الفرسان الأندلسيين بإيجاز في المقطوعة التالية:

ركبوا السيول من الخيول ركبوا فوق العوالي السمر زرق نطاف
وتجللوا الغدران من مذهبهم مرتجة إلا على الأكتاف^(١٥)



وذكر الشعراء بكثرة الأسلحة الدفاعية: الدرع والترس والزرد والدرقة والخوذة، ولكن هذا المعجم الخاص لا يضيف إلى معلوماتنا أي شيء يختلف عما نعرفه في المشرق، وسبق أن لاحظنا عند الحديث عن البحيرات بعضا من التشبيهات أحد طرفيها الدرع، أو الدلاص، أو المفاضة، أو الزرد، أو الخلق، أو الغدير^(١٦)، ولن نتجاوز هذا القدر، ونحفي بذكر بعض الأبيات التي تكمل المعلومات التي نعرفها، وعلى هذا النحو يصف المعتمد غلاما رآه في العراق يوم معركة الزلاقة يقول:

ولما اقتحمت الوغى دارعا وقنعت وجهك بالمغفر
حسبنا محياك شمس الضحا عليها سحب من العنبر^(١٧)

ويطلق على الخوذة أسماء مختلفة طبيا للمادة التي صنعت منها، والشكل الذي صيغت فيه، وبعمامة

(١٢) من الطويل، أعمال الأعلام ص ٣٤.

(١٣) ذكر ذلك ليفي بروفنسال في إسبانية الإسلام في القرن العاشر، ص ١٤٥، اعتمادا على فقرة في مسالك الأبحار للعمري.

ذكرها أوليفر آسين في كتابه الأصل العرب لدباط ص ٤٥ رقم ١.

(١٤) انظر: ابن رشيق، العمدة ٢/٢٢١، والميل، التنف ٥٨، والشريف انغرناطي، رفع الحجب المقصورة ١/١٠٩. وانظر أيضا:

ابن هذيل، في المصدر المذكور سابقا ص ٢٤٩ - ٢٦٢.

(١٥) من الكامل، القلائد ١٨٧، ونفع ٢٥٤. ويعلق النفع على البيتين فيقول: الماذي: العمل، وهو خطأ، لأن ابن زكوري في شرح القلائد (الورقة ٢٢ أ) يقول نصا: الماذي: مخرج. وعن غدير يعني الزرد انظر: دوزي، تكملة المعاجم ٢/٢٠٢، وعن ماذي انظر: تشوارزلوز، Die Waffen ص ٣٧ رقم ٢، وتوجد أيضا كلمة ماذي في بيت لابن شرف في قتلائد ٢٥٤.

(١٦) انظر فيها سبق ص ١٨٣ و ٨٤. من هذا الكتاب، وابن هذيل، المصدر السابق ذكره ص ٢٦٣ - ٢٦٨.

(١٧) من المتقارب، الديوان ١٧، والقلائد ٨، وعنها في «بنو عباد» ٤٢/١، وقد انتقلت كلمة المغفر إلى اللغة الإسبانية في صورة

al mofar، انظر: دوزي وإنجليمان، معجم كلمات العربية التي في اللغة الإسبانية ص ١٧٠، وج. ميجون، موجز الفن الإسلامي،

ط ٢ ج ١ ص ٤١٨، وكاترمير، النفولوز ٣٩، الماليك ١/١٣٣، وابن هذيل، المصدر السابق ذكره ٢٦٨، ص ٢٩١ الهامش

رقم ٢٨ فيها سبق من هذا الكتاب، وبيرون، النسب العربيات ٢٧٤ رقم ١، وترجمها: couver - ruque, garde - nuque, nuquière"

فإن لفظ الترس أكثرها استعمالاً^(١٨). ولكنهم أيضاً يستخدمون ألفاظ المجنّ والحجف، وعندما تكون ترساً كبيرة أو مستديرة يطلقون عليها عادة اسم درقة، وبعض الأبيات كافية لتبرير استخدام هذه الأسماء.

يصف المعتمد مجناً لا زورديّ اللون، مطوقاً بالذهب، في وسطه مسامير مذهبة، وفيه كواكب فضة، يقول:

مَجْنٌ حَكى صَانَعُوهُ السَّمَاءَ لِنَقْصُرَ عَنْهُ طَوَالَ الرَّمَاخِ
وَصَاغُوا مِثَالَ الثَّرِيَّا عَلَيْهِ كَوَاكِبَ تَقْضِي لَهُ بِالنَّجَاحِ
وَقَدْ طَوَّقُوهُ بَذُوبِ النَّضَارِ كَمَا جَلَّلَ الْأَفَقُ ضَوْءَ الصَّبَاحِ^(١٩)

وكانت التروس الجلدية التي يستخدمها المسيحيون تسمى «حجف»، ونذكر أن ابن سارة شبه السلحفاة تسبح على سطح الماء «بجندي مسيحي يحمل على كتفيه حجلة»^(٢٠).

وفيما يتصل بالدقة كان استعمالها شائعاً في نهاية القرن العاشر، واشتهر الشاعر إدريس بن اليمان بأبياته التي وصف فيها الدقة، ولم يبق لنا منها إلا مطلعها:

إِلَى مَوْشِجَةِ الْأُبْشَارِ مِنْ دَرَقٍ يَكَادُ مِنْهَا صَفَا الْفُؤَادِ يَنْفَطِرُ
مَوْئِشَاتٍ وَلَكِنْ كُلَّمَا قُرِعَتْ تَأْتَتْ الرَّمْعُ وَالصَّمَامَةُ الذِّكْرُ^(٢١)

وكان يطلق على الخوذة اسم البيضاء عادة، وفي أحيان نادرة اسم الزاهقة^(٢٢) والتريقة، يقول المعتمد:

وَإِذَا تَغَنَّتْ هَذِهِ فِي مِزْهَرٍ لَمْ تَأُلْ تَكَ عَلَى التَّرِيكِ غَنَاءَ^(٢٣)



(١٨) الجندي من المشاة الذي يحمل الترس يسمى «ترأس» وهذه الكلمة، وهي مستعملة حتى اليوم، لا تعني أكثر من «راجل» وشبه ابن الشالية، وهو شاعر من القرن العاشر الترس بقرص الغزالة، مما يحدّد لنا شكله بالدقة. انظر: ابن الأبار، الحلة ٢٣١/١. وعن الرايات والأسلحة الشبيهة به انظر: ابن هذيل، المصدر المذكور فيها سبق، ص ٢٦٩ - ٢٧١.

(١٩) من المتقارب، الديوان ٢٩، وابن الأبار، الحلة ٥٦/٢، وبنو عباد ٦٣/٢، ونفع ٩٤/٤، وقد أخذنا بقراءة ابن الأبار. وابن هذيل، في المصدر المشار إليه فيها سبق، ص ٢٧١، ينسب هذه الأبيات إلى الأسعد بن بليطة، وفي قطعة يصف المعتمد المجن بالصفراء، الديوان ٢٩.

(٢٠) انظر فيما سبق من هذا الكتاب ص ١٨٣ وأيضاً ص ١٦٢ بمناسبة الحديث عن الياسمين. (٢١) من البسيط، الحميدى، جذوة المقتبس، الترجمة ٣١٣، ص ١٧٠، لدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة ١٩٦٦، وعنها في الضبي، البغية ٢٢٢، وابن دحية، المطرب ١٣٠.

(٢٢) ابن الأبار، الحلة، في تعليقات لدوزي ١٢٣، وعن البيضا انظر ص ١٨٤ فيما سبق من هذا الكتاب. (٢٣) من الكامل، انظر فيما سبق ص ٢٠٣ من هذا الكتاب. ويقول أبو بكر السيرفي، في القرن الثاني عشر، في قصيدة عن سياسة الحرب:

وَاللَّيْلُ مِنْ وَضَحِ التَّرَانِكِ إِنَّهُ صَبَحَ عَلَى هَامِ الْجِيُوشِ يَلْمَعُ

انظر: مقدمة ابن خلدون، طبعة كاتمرير ٧٤/٢، وطبعة القاهرة ١٧٢٦، وترجمة دي سلا ٨٥/٢، وانظر أيضاً: ابن هذيل، في كتابه المشار إليه سابقاً ٢٦٨، وفيما يتصل بالقرن العاشر نملك وثيقة هامة تقدم لنا معلومات جيدة عن الأسلحة الهجومية، وعن الدفاعية بخاصة، عند الأندلسيين، ونعني بها قائمة الهدايا التي قدّمها الحاجب جعفر المصحفي إلى الحكم المستنصر بمناسبة =

لم يقف الشعراء عند هذه المعلومات الخاصة بالسلاح، وإنما قدموا لنا أيضا معلومات عن التقنية العسكرية، وقد سمح أبو بكر الصيرفي نفسه، وهو من شعراء القرن الثاني عشر الميلادي، أن ينصح المرابطين بعد هزيمة تلقوها على يد المسيحيين، باستخدام التقنيات الخاصة بالأندلسيين:

أهديك من أدب السياسة ما به
لا إننى أدري بها لكنها
والبس من الحلق المضاعفة لتي
والهندوائى الرقيق فأنه
وإركب من الخيل السوابق عدة
خندق عليك إذا ضربت محله
والوادي لا تعبده وانزل عنده
واجعل مناجزة الجيوش عشية
وإذا تضايقت الجيوش بمعرك
واصدمه أول وهلة لا تكثر
واجعل من الطلاع أهل شهامة
لا تسمع الكذاب جاءك مرجفا

كانت ملوكُ الفرس قبلك تولع
ذكرى تحض المؤمنين وتنفع
وصى بها صنع الصنائع تبع^(٢٤)
أمضى على حد الدلاص وأقطع
حصنا حصينا ليس فيه مدفع
سيان تتبع ظافرا أو تتبع
بين العدو وبين جيشك ينطع
وراءك الصدق الذى هو منع
ضك فاطراف الرماح توسع
شيئا فإظهار النكول يضعع
للصدق فيهم شيمة لا تحدع
لا رأى للكذاب فيما يصنع^(٢٥)

وثمة نصوص أخرى تحكى لنا تفاصيل المعارك، ومشاهد المذابح، وبخاصة في الحروب ضد المسيحيين، يقول ابن خفاجة:

من عسكر رجفت أرض العدو به
وأشهب ناصع القرطاس مؤتلق
ترى به ماء نضل السيف منسكباً
فغادر الطعن أجفان الجراح به
وأسرق الدم في خد الثرى خجلاً
كأننى بعروج الروم سادرة

حتى كأن بها من وطنه وهلا
كأنما خاض ماء الصبح فاختسلا
يجرى وجاحم نار الباس مشتملا
رُمداً وصير أطراف القنى مقلا
وأظلم النقع في جفن الوغى كحلا
وقد تضعع ركن الكفر فاستقلا

= توليه الخلافة بعد وفاة أبيه الناصر عام ٣٥٠ = ٩٦١، وهى: مائة مملوك من الإفرنج ناشئة، على خيول صافنة، كاملو الشبكة والأسلحة من السيوف والرماح والدرق والترس والقلانس الهندية، وثلاثمائة وثيف وعشرون درعا مختلفة الأجناس، وثمانائة خوذة كذلك، ومائة بيضة هندية، وخمسون خوذة خشبية من بيضات الفرنجة من خير الخشب يسمونها الطشطانة، وثلاثمائة حربة إفرنجية، ومائة ترس سلطانية، وعشرة جواشن فضة مذهبة وخمسة وعشرون قرنا مذهبة من قرون الجاموس، انظر: ابن حيان المقتبس، في نفع ٣٨٢/١، وابن خلدون، كتاب العبر ١٤٤/٤. وانظر أيضا: ابن الخطيب، أعمال الأعلام ٤٢ - ٤٣، وفيما يتصل بعصر بنى نصر، انظر: نفع ٣٨٤/٤ وما بعدها.

(٢٤) تبع الغامض هذا أصبح قاسماً مشتركاً في الشعر العربي المشرقى فيما يبدو. انظر: الزمخشري، المفصل طبعة القاهرة، ص ١١٧، وابن يعيش، شرح المفصل، طبعة جان، ص ٣٨١.

(٢٥) من الكامل، ابن خلدون، المقدمة، طبعة كلترميير ٧٣/٢، وطبعة القاهرة ٢٧٦، وترجمة دى سلان ٨٦/٢، وأعدل الأعلام، مخطوطة الجزائر، الورقة ٢١٢ ب. وانظر أيضا: الحلال الموشية لمؤلف مجهول، طبعة علوش ١٠٣ - ١٠٦، وفي هذا المصدر الأخير الشاعر يسمى أبا زكريا بن العربي. وعن تقنية الأندلسيين في الحرب انظر أيضاً نصاً نثرانياً للطرطوشى، في ليفى بروفنسال، إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر ١٤٦.

قد كُفِّرَ. في لُأْمَةٍ خُضراءَ تحسبها
وللْفَيْقَى أَعْيُنٌ قَدْ حَدَقَتْ حَقَقًا
فَزاحَمَ النِّقْعَ حَتَّى شَقَّ بَرْدَتَهُ
مَوْسِدًا فَوْقَ نَضْلِ السِّيفِ تحسبهُ
فَكَمْ مُزْقِيَةٍ مِنْ جِيهَاطِ طَرِبًا
قد مَزَقَتْ بَعْدَهُ مِنْ جِيهَاطِ ثُكَلًا^(٢٦)

ونقل لنا أبو الحسن بن زنباع انطباعه عن بِلَادَةِ الحَرَكَةِ في الجَيْشِ المَسِيحِيِّ، يقول:
هُدَّتْ لَهُ الرُّومُ هَذَّةً مَلَأَتْ
فَمَا أَطَاقُوا الِوَلُوجَ فِي نَفَقِ
تَغَامَسُوا فِي الدَّرُوعِ زَاخِرَةً
فَمَا أَفَادَتِهِمُ الدَّرُوعُ سِوَى النَّدِ
كَأَنَّهُمُ وَالرَّمَاحُ فِي تَحْفِزِهِمْ
جَرَى فِصَالٍ سَلَكَ فِي وَحَلٍ^(٢٧)

وقد بيّان الشاعر في تصوير المشهد فينقله لنا من الأَرْضِ إِلَى السَّمَاءِ، يقول أَبُو الْوَلِيدِ بْنُ حَزَمٍ:
إِنَّمَا إِذَا رُفِعَتْ سَمَاءٌ عَجَاجِيَةٍ
وَتَمَرَّدَ الْأَبْطَالُ فِي جَنَابَاتِهَا
بَرَقَتْ لَهُمْ مَنَاءُ الْمُتَوَفِّ كَأَنَّمَا
وَصَفَ شِعْرَاءُ آخَرُونَ الْمَشَاهِدَ الْمَرَعِبَةَ، يقول ابن خَفَاجَةَ:

قَدْ أَتَرَبَّتْ مِنْهُمْ صَحَائِفُ أَوْجِيهِ
فَلَوْ أَطْلَعْتَ لَمَا أَطْلَعْتَ عَلَى سِوَى
جَعَلَتْ تَمَزَّقُهَا السِّیُوفُ جِرَاحًا
سِیْفٌ تَتَلَمَّ فِي قَتِيلٍ طَاحًا^(٢٨)

ولكن الأمر لم يصل بعد إلى درجة تعفن جثث القتلى، يقول أَبُو الْحَسَنِ بْنُ زَنْبَاعٍ:
وَقَدْ سَهَكَتْ تَحْتَ الْحَدِيدِ مِنَ الصِّدَا
وَمَدَّتْ إِلَى وَرْدِ الصُّدُورِ عَيُونُهَا
وَأَشْرَفَتِ الْبَيْضُ الرِّقَاقُ إِلَى الطَّلِي
فَلَسْتُ تَرَى إِلَّا دِمَاءً مِرَاقَةً
جِسْمٌ بَمَا عَلَتْ مِنَ الْمُسْلِكِ تُرْحَضُ
صُدُورُ الْعَوَالِي وَالْعَيُونُ تَغْمُضُ
لَتَكْرِغَ فِيهَا وَالرَّءُوسُ تَخْفَضُ
تَخَاضُ إِلَى أَكْبَادِ قَوْمٍ تَخْضَضُ^(٢٩)

(٢٦) الديوان، القطعة ١٥٤، ص ٢٠٨ - ٢٠٩، الآيات: ٤ و ٨ و ٩ و ١٠ و ١١ و ١٤ و ٢٠ - ٢٤. وانظر فيما سبق ص ٩٩

رقه ٥٤ من هذا الكتاب •

(٢٧) م. نسر. ن. غلاد ٢٢٧ وهي الآيات: ٦ و ٧ و ١١ و ١٢ و ١٣.

• قلت: نسب المؤلف هذه الآيات إلى ابن البياض، وهو سهو منه، لأنها في المصدر الذي أحيانا عليه للفيقي القاضي أبي الحسن بن رباح، وقد صوبنا سهوه. (المترجم).

(٢٨) من الكامل، المطمح ٢٢٩.

(٢٩) من الكامل، الديوان، القطعة ١٩٤، ص ٢٥٢، البيتان ٨ و ٩.

(٣٠) من الطويل، القلائد ٢٢٩. ووطن غزيري، في فهرس مكتبة الإسكوريال ١٠٥/١، أن الشاعر يشير في هذه الآيات إلى البارود، ونحن معه، دون شك، بإزاء تفسير جرى للبيت التالي:

وبالأفق للنعق المشار سحابٌ مواخضٌ لكن بالصواعق تُخض =

ولمّا نزل الجوارح تحوّم في السماء تتطلع إلى الجثث ويقول شاعر مجهول يبكي طليطلة:
 خذوا ثأر الديانة وانصروها فقد حامت على القتلى النصور^(٣١)
 وفي خبايا الأرض ومنعرجاتها تختفي الحيوانات المفترسة، يقول عبد الجليل بن وهبون يصف هزيمة
 النصارى في موقعة الزلاقة، وأن جيشهم أصبحت تملأ الأرض:

وأصبح فوق ظهر الأرض رُضًا كأن وهادها منهم إكام
 تألفت الوحوش عليه شتى فما قص الشراب ولا الطعام^(٣٢)

ولكن واقعية الشعراء الأندلسيين لا تتضح أبدا على نحو أفضل مما هي عليه في كلمات أبي تمام
 الحجام عندما يصف الطيور الجارحة تمارس دورها القبيح:

ترى النسر والقتلى على عدد الحصى وقد مرّقت أحشاءها والترائب
 مضرجة ما أكلن كأنها عجزت بالحنا خضبن ذوابها^(٣٣)

هذه المقتطفات التي ذكرناها، وقد التقطناها من هنا وهناك لا تقدم لنا فكرة متكاملة عن حياة
 المحارب أو جوانب المعركة، إلا إذا جمعناها بطريقة مصطنعة على نحو ما فعلنا، ذلك لأن الشعر العربي
 إجمالاً يصف بطريقة ليست منطقية دائماً، يستوى في ذلك لمشرقي منه والغربي، مكتفياً بوصف غبار
 المعارك المتصاعد كالسحاب، ولعان السيوف، وبريق السهام، وكر الفرسان، وهزيمة الأعداء بهجوم
 متواصل طبقاً لخطة محكمة أو خطفاً. ونذكر أن ما هو جيهري بالنسبة للشاعر أن يبرّر بطولات
 حاميه، وما بعد ذلك قليل الأهمية، ونادراً ما تنتزع الرياح ملحمة الشاعر من الأرض، وأبطاله رغم
 روعة استعاراته لا يتجاوزون بطولات محارب شجاع، ودون شك فإن الظروف لم تساعده، رغم أن
 المواجهة بين المسلمين والمسيحيين في معركة الزلاقة، وجرت في ظروف قاسية، كان ممكناً أن تعدّ خيال
 الشعراء بموضوع ملحمي جميل. والروح الحربي، مدعوماً بالنافع الديني، لا تكاد تقع له على أثر، حتى
 مع وصول المرابطين، مما يعطى الانطباع بأننا أمام استسلام عام سبق حرب الاسترداد، وعشنا نبهت
 بين ملوك الطوائف وأمراء لتوتنة عن شخصية أسطورية تشبه رستم الفارسي أو رولاند المسيحي.
 ومع ذلك يعكس الشعر البطولي بصدق مجتمع القرن الحادى عشر، ويعبر عن روح حربية خالية
 من الطموح، وربما كان شعر الخمريات والغزل يعبر أفضل من غيره عن خصائص الأندلسي، فهو
 يحب حياة المتعة، ومشاعره مرهقة ومتحضرة.

● قلت: أيضاً نسب المؤلف هذه الأبيات في الأصل لابن البياع وأحالتها على مصدره كتاب «القلاند»، وهي فيه لابن زنباع
 واضحة، فصوّبنا سهوه (المترجم).

(٣١) من الوافر، نفع ٤/٤٨٤، وانظر فيما سبق من هذا الكتاب ص ٩٣.

(٣٢) من الوافر، وانظر فيما سبق ص ٩٤ من هذا الكتاب.

(٣٣) من الطويل، نفع ٣/٤١٦. وعن الشعراء الذين عرضوا للموضوع نفسه، انظر الأبيات التي أوردها ابن دحية في
 المطرب ص ١٥٩ - ١٦٢، وهي للشعراء: أي تمام وأبي نواس والناطقة الذبياني والمتنبى وبكر بن النطاه. ويمكن أن نضيف إليهم
 الفرزدق، الديوان طبعة بوشيه، القطعة ٩١، ص ٢٨١ - ١٨٢ من النسخ العربي.

○ الفصل الثامن:

حياة المتع واللذائذ

يقال «إن الرصانة ليست إلّا نقصا في المزاج غالبا»!

والجانب الأكبر من أشعار الأندلسيين وقفوه على وصف مغامراتهم الغرامية البهجة، صحة كأس لا تفرغ، وموسيقا لا تتوقف، وكلها شواهد كافية على ميلهم إلى ارتشاف الحياة حتى آخر قطرة. ومن المثير أن نلاحظ أن المثلبة الأساسية التي وجهها المرابطون ضد الأندلسيين لإزاحة ملوك الطوائف عن عروشهم، كانت بالضبط حبهى البالغ للذائذ والاستمتاع. يقول يوسف بن تاشفين: «إنما كان غرضنا في ملك هذه الجزيرة أن نستتقذها من أيدي الروم، لما رأينا استيلاءهم على أكثرها، وغفلة ملوكهم وإهمالهم الغزو، وتواكلهم وتقاذمهم وإيثارهم الراحة، وإنما همّة أحدهم كأس يشربها، وقينة تسمعه، وهو يقطع به أيامه، ولئن عشت لأعيدن جميع البلاد التي ملكها الروم في طول هذه الفتنة إلى المسلمين، ولأملأها عليهم - يعنى الروم - خيلا ورجالا لا عهد لهم بالدعة، ولا علم عندهم برخاء العيش، إنما هم أحدهم فرس يروضه ويستفرهه، أو سلاح يستجيده. أو صريخ يلبي دعوته...»^(١). وكانت هذه المثلبة نفس ما وجهه إليهم السيد القنبيطور بشخصه، يقول في خطابه إلى أعيان بلنسية: «... من كانت له قضية عادلة فليأت إلى متى شاء وسأستمع إليه، فإني لا أحتجب عنكم، ولا أخلو مع النساء للشراب والغناء كما كان يفعل أو لو أمركم ممن لم يمكنكم قط رؤيتهم»^(٢) وقد اتهمهم ألفونسو السادس أيضا بأنهم «أظهروا الفسوق والعصيان، واعتكفوا على المغاني والعيدان»^(٣).

وأصدر الفقهاء فتوى لتحريض يوسف بن تاشفين: «يحضونه على العدل، والتمسك بالخير، ويفتونه في شأن ملوك الطوائف بحكم الله» و «أفتاه الفقهاء وأهل الشورى من المغرب والأندلس بحلهم وانتزاع الأمر من أيديهم»^(٤).

عمق هذا التحرر في العادات، بلاشك، تناثر إشبانيا في إمارات صغيرة، وتراخى السلطة، ولم ينبثق ذلك فجأة نحو منتصف القرن الحادى عشر، وليس من الصعب أن نبرهن على أن الفساد والفجور بلغا

(١) المعجب ص ١٦٢ - ١٦٣، وترجمته ١٣٧.

(٢) المدونة العامة الأولى، طبعة رامون ميننديث بيدال، ص ٥٨٩، ودوزى، أبحاث ص ١ ص ٥٧٥، وميننديث بيدال، إشبانيا في

عصر السيد ٩١/١ و ٥٢٢/٢ و ٦١١.

● قلت: يوجد نص الخطبة كاملا في كتابي ملحمة السيد، وصدرت طبعته الثالثة عن دار المعارف، القاهرة ١٩٨٥. (المترجم).

(٣) ابن الكردبوس، كتاب الاكتفاء، طبعة المعهد المصرى ص ٨٩، وعنه في «بنو عياد» ٢٠/٢، وكان ذلك في رسالة ردّها على

المتعمد بواسطة مبعوث يهودى يدعى ابن مشعل.

(٤) ابن خلدون، كتاب العبر، ترجمة دى سلان ٨٠/٢ - ٨٢، وسو عباد ٢٧/٢، وتاريخ مسلمى إشبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ١٤٦.

القمة حدة منذ اختفاء المنصور بن أبي عامر، وأعطى أواخر الأمراء من بني أمية المثل^(٥)، يقول أحدهم، وهو المطرف بن عبد الرحمن الأوسط:

أَنْتِ عَمْرِي فِي الشَّرِّ بِِ وَالْوَجْوهِ الْمَلَحِ
وَلَمْ أَضِيعْ أَصْبَلًا وَلَا أَطْلَاحَ صَبَاحِ
أَحْيَى اللَّيَالِي سُهْدًا فِي نَشْوَةِ وَمَرَاكِ
وَلَسْتُ أَسْمَعُ مَاذَا يَقُولُ دَاعِي الْفَلَاحِ^(٦)

وكان أبناء المنصور كما لاحظ أحد المؤرخين قد غلب عليهم النبيذ واستغرقتهم ملذاتهم^(٧)، ولاحظ المؤرخ نفسه فوضى العادات في قرطبة في بدء الفتنة بعد الفيضان والجوع، «واشتد حال أهل قرطبة حتى أكل الناس الدم من مذابح البقر والغنم، وأكلوا الميتة»، «وكان قوم في السجن فعات منهم رجل فأكلوه، ومع هذا المَحَق فشرَّب الخمر ظاهر، والزنا مباح، واللواط غير مستور، ولا ترى إلا مجاهرا بعبسية»^(٨).

وإذا لم تكن السلطة تحت حكم ملوك الطوائف تملك صرامة عصور التعادل والازدهار، فقد كان لديها على الأقل قوة كافية للحد من الضلال الأكثر لفتا للأنظار، وإذا لم يكن كل شيء في نظام فإن التجاوزات لم تكن تعلن عن نفسها على الأقل في وضع النهار.

لقد كان المعتمد شابا يحكم في شلب، ويعيش لحظات سعيدة في قصره الثاني عن المدينة قليلا، وفيما بعد أخذ يسترجع ذكرياته تلك متفعلا^(٩). وعندما أرسله أبوه ليحتل مالقة أبطأ في الطريق لينعم بقضاء بعض الوقت في اللهو والسرور والطعم والشراب، صحبة مغنيات كان يلتقطهن أثناء عبوره^(١٠)، ولهذا لا يدهشنا أنه هُزم، وأصبح عليه أن يعود من حيث أتى، ولكي يهدد من غضب والده المعتضد أرسل إليه قصيدة نبرز من بينها هذه الأبيات المتميزة:

لَمْ أَوْتَ مِنْ زَمَنِ شَيْئًا أَلْذُّ بِهِ فَلَسْتُ أَعْهَدُ مَا كَأَسُّ وَلَا وَتَرُ
وَلَا تَمْلِكُنِي دَلٌّ وَلَا خَفَرُ وَلَا سَبِيَّ خَلْدِي غَنَجٌ وَلَا حُورُ
هُوَ الْمَدَامُ الَّتِي أَسْلُو بِهَا فَإِذَا عَدَمْتُهَا عَيْثُ فِي قَلْبِي الْفِكْرُ^(١١)

(٥) نرى في أغلب علب العاج التي من القرن العاشر أو مطلع القرن الحادي عشر مشاهد بلاطية، الشخصية الرئيسية فيها، وهو الأمير دون شك، يبدو ممسكا بيده كأسا. انظر: ج. فراندس، العاجيات لإسبانية ٦٣ - ٩٣، ورقم ١١ - ١٩، وانظر فيما سبق ص ٢٩٨ وفيما سياتي ص ٣٣١ - ٣٣٢ من هذا الكتاب.

(٦) من النسر، نفع ٥٧٨/٣، ومن يدعو إلى الفلاح هو المؤذن في قوله: «حي على الفلاح».

(٧) البيان المغرب ٣/٣ و ٢٤ و ٢٨ - ٢٩ و ٦٦ و ٦٨، وتاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ١٨٥ و ٢٠٢ و ٢٠٥ - ٢٠٦.

(٨) البيان المغرب ١٠٦/٣.

(٩) القلائد ٥ - ٦، وبنو عباد ٣٩/١ و ٨٩/٢، وتاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ٩١، وانظر فيما سبق ص ١٣٣ من هذا الكتاب، وفيما بعد ص ٣٣٧.

(١٠) القلائد ١٩، وبنو عباد ٥٢/١، وخوليان ريبيرا، موسيقا Las Cantigas ص ٢٣ و ٥٢، ومينديث بيدال، إسبانيا في عصر السيد ٩١/١، وتاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ٦٨ - ٦٩.

(١١) من البسيط، المعتمد، الديوان ص ٣٩، الأبيات ٢٧ و ٢٨ و ٣٠، وتاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ٦٩.

ونفس والده صرّح في شيء من الخشونة، قاسية إلى حد ما، وتشهد بقوة مزاجه:
فَأَمْسِي عَلَى اللَّذَاتِ وَاللَّهُوَ عَاكِفًا وَأُضْحِي بِسَاحَاتِ الرِّئَاسَةِ أَتْخَالُ
وَلَسْتُ عَلَى الْإِدْمَانِ أَغْفَلُ بُغْيَتِي مِنْ الْمَجْدِ، يَفِي فِي الْمَعَالِي لِمَحْتَالِ^(١٢)

وعندما خلف المعتمد والده لم يترك نفسه تنغمس في اللذائذ، ولو أنه أصبح من الآن فصاعدا حرا فيما يفعله، فقد عظم لديه الإحساس بمسئوليته رئيس دولة، وبخاصة أنه لم يكن يملك روح من يهوى أن يعيش الحياة حقا. ومباهجه كانت، حتى في أبلغ درجاتها حيوية، ملونة دائما بحزن يدهشنا للوهلة الأولى، وهو ملمح ملحوظ في هذا المجتمع الذي درجنا على اعتباره حتى وقتنا هذا غارقا في اللذة بأجمعه، ولكن إذا أخذنا في الاعتبار أصول الأندلسيين العرقية، إلى أي طبقة انتموا، يبدو لنا هذا الملمح منطقيا في الشخصية الإسبانية، ولا شيء يمكن أن يعبر عن هذا الواقع بأفضل مما تعبر عنه أبيات المعتمد التي يقول فيها:

عَلَّلْ فَوَادَكَ قَدْ أَبْلَّ عَيْلٌ وَاعْنَمْ حَيَاتِكَ فَالْبِقَاءُ قَلِيلٌ
لَوْ أَنَّ عَمْرَكَ أَلْفُ عَامٍ كَامِلٌ مَا كَانَ حَقًّا أَنْ يُقَالَ طَوِيلٌ
أَكْذَا يَقُودُ بِكَ الْأَسَى نَحْوَ الْبُرْدِي وَالْعَوْدُ عَوْدٌ وَالشُّمُولُ شُمُولٌ
لَا يَسْتَبِيكَ اَلْهَمُّ نَفْسَكَ عَنُوءٌ وَالْكَأْسُ سَيْفٌ فِي يَدَيْكَ صَقِيلٌ
بِالْعَقْلِ تَزْدَحُمُ اَلْهَمُومُ عَلَى الْحِشَا فَالْعَقْلُ عِنْدِي أَنْ تَزُولَ عَقُولُ^(١٣)

أيمكن حقا أن يدع أمير المعتمد، أندلسي في شخصيته وطموحاته، اللذائذ تعتقله حتى يفقد معها كل وسيلة، فيثير بذلك رد فعل في الرأي العام، سوف يبرّر تدخل المرابطين فيها بعد^(١٤)؟ لا يمكن أن نعتقد هذا. ومن المهم أن نلاحظ أن كل اتهامات الانفلات التي وجهت إلى ملوك الطوائف تجئ من مؤرخين لا حقين، كان الجانب الأكبر منهم يتلقى رواتب من المرابطين أو الموحدين، وهؤلاء عرف عنهم النقاء الديني الشديد، على الأقل في الأيام الأولى من حكمهم. لقد كان شأن ملوك الطوائف في استسلامهم للمتعة واللذائذ شأن الأمويين ولعامريين الذين سبقوهم، لا أكثر ولا أقل، أو المرابطين والموحدين الذين جاءوا بعدهم^(١٥). وأما أن الجانب الأكبر من حملاتهم الحربية كان وجهة مظهرية، وأنهم حتى في المواقف الخطرة راوحوا بين حفلات السمر وضربات الحسام، فذلك أمر لا شك فيه، ولا نفهم أية متعة يمكن أن يكون ابن عكاشة قائد المأمون قد أحس بها عندما سجن محمد بن مرتين قائد المعتمد، وجعله يستعرض أمامه كل المغنيين والموسيقيين والراقصات الذين وجدهم في داره، وجعل

(١٢) انظر فيما بعد ص ٣٧٧ - ٣٧٨ من هذا الكتاب.

(١٣) من الكامل، المعجب ١٠٣، وترجمته ٨٨، بتاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ٩٦.

(١٤) عن هذا الموضوع انظر: الحلة في «بنو عباد» ٦٢/٢، والقلائد ٢٦ - ٢٢، وفي «بنو عباد» ٥٦/١ و ٢٣٤/٢، ونفح ٢١٥/٤ و ٢٥٩/٤ و ٢٧٤/٤. ويقول ابن غالب في فرحة الأنفس، في النفح ٤٠٥/٣: «كان لا يظهر شرب الراح منذ ولى الملك».

(١٥) انظر مثلا المشهد المخجل الذي اتخذ من نهر إشبيلية مسرحا في اللحظة التي خلف فيها الموحدون المرابطين. في نفح ٩٢٢/٤، وكل السفالات التي يذكرها ابن قزمان في ديوانه. انظر فيما سبق ص ٣٠٣ رقم ٢٦ من هذا الكتاب.

يسأله عن أسمائهم^(١٦)، وما صنعه المعتمد وأبناؤه^(١٧) في شبيلية، أو ابن مرتين في قرطبة. أو بنو ذى النون في طليطلة، أو بنو الأفطس في بطليوس، وبقية ملوك الطوائف في قصورهم الخاصة. ومن المؤكد أن بنى عباد أمراء إشبيلية، وبنى صامح أمراء المرية، كانوا يفعلونه على نحو أقل علانية^(١٨).

وحملة المباخر من متعلقى المرابطين، شعراء أو مؤرخين، لا يملون القول من أن أمراء الأندلس «مشتغلون بشرب الخمر، واقتناء القين، وركوب المعاصي، وسماع العيdan». ونحن نقب ذلك بقدر، ونرفضه على إطلاقه، لأنه يناقض ما قولونه أنفسهم، حين يصفون مبتهجين عصر أواخر العامريين وملوك الطوائف بأنه العصر الأكثر ازدهارا وسعادة في إسبانيا. يقول المراكشي: إن أيده المظفر بن المنصور بن أبي عامر كانت «أعيادا في الخصب والأمان»^(١٩).

ويقول المؤرخ نفسه عن أيام بنى المظفر من بنى الأفطس أمراء بطليوس أنها كانت «أعيادا ومواسم، وكانوا ملجأ لأهل الآداب»^(٢٠). ويصرح مجهول عن البكرين أصحاب أونية وشلطيش بأن أيامهم كانت أعيادا من رخاء السعرة ومن السبيل^(٢١)، وفيها يرى الفتح بن خاقان فإن أيام المعتمد «مواسم، وثغور بره بواسم»^(٢٢).

أليس الشعراء أيضا مسئولين إلى حد ما عن شهرة الأنفاس في الملاذ التي أضفيت عليهم؟ وما أقل الأشعار التي لا تصور نزهة إلى ريف ورف، أو على ضفاف نهر عليل التسمائم، ليلا أو نهارا، وفي ضوء متقدم يبدو أنهم لا يريدون أن يمكثوا من الحياة إلا بكل ما هو طيب فيها، ولو أن اللذائذ تأتي فيها أحيانا ممزوجة بشيء من المرارة. كتب ابن عمارة إلى عضد الدولة بن المعتمد:

يا عضد الدولة المصطفى من جوهر النبل والذكاء
ماذا ترى في اصطباح يوم منعب الصبح والمساء
نسرقه من يدى زمان لم يقسم الرزق بالسواء^(٢٣)

ولم يعبر أحد عن معنى «ولك السلعة التي أنت فيها» بأفضل مما عبر عنها البكرى في الأبيات التالية:

خليلى إنى قد طربت إلى لكأس وتقت إلى شم البنفسج والآس
فقوموا بنا نلهو ونستمع الغنا ونسرق هذا اليوم سرا من الناس

(١٦) أعمال الأعلام ١٥٨.

(١٧) انظر مثلا مشهد أنس للرشيده قصه عليه ابن بسام في المخيرة ٣٨٥/٢، وعنها في نفح ٣١/٤ - ٢٧٢.

(١٨) انظر: أبو طالب عبد الجبار الملقب بالمتى، الأروزة، في الذخير ٩١٨/١ وما بعدها، وأبو الحسن بن الجند، في الذخير

٥٦٢/٢، وأعمال الأعلام ٢٤٦ - ٢٤٢، وكتلى الاكتفاء لابن الكردوس ص ٧٧، وعنه في «بنو عباد» ١٥/٢.

(١٩) المعجب ٤٠، وترجمته ٣٣.

(٢٠) المصدر السابق ص ٧٥، وترجمته ٦٤، ووجد التعبير نفسه في بيت زجل لابن قزمان قاله شيخا. الديوان، القطعة ١٤٧.

الدور رقم ٥.

(٢١) البيان المغرب ٢٩٩/٣، ترجمة ليفى يروفسال في تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ٢٣.

(٢٢) القلائد ٤ (وانظر ص ٧ أيضا). وتعبير «مواسم وأعياد» شائع وبت الشعر الآق، وهو لمجهول، يوضح عناء بكل دقة:

وقد ذكره ابن الأثير في كتابه «الكامل في التاريخ» طبعة تود نبرج ج ١١ ص ٣٠٣.

(٢٣) من البسيط، القلائد ٨٥.

فليس علينا في التعلل ساعة
وفي هذا البيت لابن خيرة الصباغ:

فاشربْ ولدٌ بجَنَّةٍ واطربْ فإن العمر فائت^(٢٥)
ويقول أبو عامر بن مسلمة:

يا نديمي قُمْ اصطبِخْ وعلى العود فاقترح
إنما العيش بالسبا ع وبالنَّاي والقِدَح^(٢٦)

وإلى جانب هذه الأبيات التي تتغنى بالحاضر، هناك مقطوعات وأبيات أخرى، كثيرة العدد أيضاً، يجب أن نشير إليها، وفيها يعود الشاعر إلى الماضي مصوراً لحظات حلوة، من الخلوات الخاصة، يقول ابن السراج في أبيات كتب بها إلى أبي الحسن بن اليسع يذكره:

غَنِيّاً بذكرِكَ عن رحيقِ سُلْسُلٍ وحِدائِقِ خُضْرِ وعِزْفِ قِيَانِ^(٢٧)
وتأخذ الصورة شكلاً أدق عند أبي عيسى بن لبون:

خَلِيلِي عُوجاً بِي عَلَى مَسْقِطِ اللَّوَى لعل رسومَ الدارِ لم تتغيَّرا
فأسألُ عن ليلِ تولَّى بأنسنا وأنْدَبَ ياماً خلت ثم أُعْصِرا
ليالِي إذ كان الزَّمانُ مسالماً وإذ كان غصنُ العيشِ فيناناً أخضرا
وإذ كنتُ أسقى الرَّاحَ من كَفِّ أغيدٍ يُنْاولُنيها رانحاً أو مبكراً
أعانقُ منه الغصنَ يهتَزُّ ناعماً وألثمُ منه البدرَ يطلُعُ مقمرا
وقد ضربتُ أيدى الأمانِ قبَـيْها علينا وكفَّ الدهرُ عنا وأقصرا
فما شئتُ من لُهوٍ وما شئتُ من دِدٍ وس ميسمٍ يُجْنِيكَ عَذْباً مؤشرا
وما شئتُ من عودٍ يغنيكَ مفصَّحاً «سمالك شوقٌ بعد ما كان أقصرا»^(٢٨)

وكانت الموسيقى مثيرة، والخمر معتقة، تقدمها فتاة هيفاء، أو غلام لطيف، الرفقة الضرورية، فيما يبدو، لحياة بهجة في الأندلس، ولا ينقصها غير العطور تعبق في الجو، لتقدم للأندلسي الإحساس بأن الاستمتاع بالحياة بلغ غايته. كتب أبو محمد عبد الله، إلى بعض أصحابه من الأسر في طليطلة:

هذا وكم بِئسنا وفي أيماننا كأس الشُّمولِ
والعودُ يخفق والدخا ن العنبريُّ به يجول^(٢٩)



(٢٤) من الطويل، الحلة ١٨٧/٢، وأبحاث ط ١ ص ٢٨٩ - ٢٩٨، وط ٣ ج ١ ص ٢٦٣.

(٢٥) انظر ص ٢٠١ رقم ٤٦ فيما سبق من هذا الكتاب.

(٢٦) من الخفيف، أبو الوليد الحميري، البديع في وصف الربيع ص ١٥٢.

(٢٧) من الكامل، القلائد ١٦٩، والحلة ١٧٤/٢.

(٢٨) من الطويل، القلائد ١٠١، الذخيرة ١٠٧/٣، وأبحاث ط ١ ص ٥٢٨.

(٢٩) من الكامل، نفح ٥٠٦/٣ - ٥٠٧.

في الأشعار السابقة استطعنا أن نلاحظ كثرة تصوير الخمر بمناسبة الاجتماعات السارة، رغم كل التحريمات، والملاحظة تنطبق على المشرق والغرب الإسلامي على السواء، فقد كان المسلمون يشربون النبيذ، والقصائد التي تتغنى بالخمرة، وحنّت اسم الخمرات، كثيرة جداً، ونعتقد أن الشعراء لم يكونوا يتحدثون عن النبيذ الأحمر خيالاً فحسب، وقد اشتهر المشقة بهذا اللون من القصائد، وعلى رأسهم أبو نواس، وأما في الغرب الإسلامي فإن المطبق الصقلي يافس أبا نواس في خمرياته^(٣٠)، وإذا كان ابن زرقون قد ألف عن المرابطين كتابه «وهج الجمر في تحريم الخمر»^(٣١) فإن أبا عامر بن مسلمة في نطاق موجة القرن الحادي عشر طرأت في كتابه «حديقة لارتياح في وصف حقيقة الراح»^(٣٢)، ومنه أخذ ابن بسام قدراً لا بأس به من المعلومات لكتابه الذخيرة^(٣٣).

والروايات التي أوردناها لنا أصحاب المختارات الشعرية والمؤرخون تميل إلى إظهار أن شرب الخمر، ولو أنه لم يكن مسموحاً به صراحة حتى لا يتناقض ذلك مع القرآن والسنة، كان متسامحاً فيه شريطة ألا يبلغ حد السكر. ومن جانب آخر، لا تستخدم في بعض الحالات علاجاً^(٣٤)؟ لقد كان هناك نوع من النبيذ موضع تقدير الأندلسيين، على نحو ما هو عليه اليوم، وليس في إسبانيا وحدها وإنما في العالم أجمع، وهو نبيذ مالقة^(٣٥). وعبثاً حاول بعض خلفاء بني أمية التفكير في اقتلاع كل الكرم في شبه الجزيرة للقضاء على عادة شرب النبيذ وتظهر لنا بوضوح النصيحة التي تلقاها الحكم الثاني كي يتراجع في قراره كيف تواءمت العادات مع ما كان يعتبره بعض المتشددین وباء اجتماعياً إذ قالوا له حين شاور في استئصال شجرة الغنم من جميع أعماله «إنهم يعملونها من التين وغيره»^(٣٦). وكان المحتسب وصاحب الشرطة^(٣٧) يضطلعان بعقاب الشاربين السكارى، وفي غرناطة سن البربري العجوز سماجة الصنهاجي، مؤدب الأمير الزيري عبد الله عقوبة أصبحت مثلاً في القسوة، فقد «اشتد في منع اتخاذ الخمر، وجعل إزاء ذلك القتل غرامة لم يحل عقدها ولا نسخ حكمها»^(٣٨). وكان القرطبيون يتميزون، فيما قول والدا بن سعيد، «بحرف اللباس، والتظاهر بالدين والمحافظة على الصلاة، وتعظيم أهلها لجامع الأعظم، وكسر أواني الخمر حيثما وقع عين أحد من أهلها

(٣٠) ابن ليون، لمح السحر، الورقة ٥٧

(٣١) ابن دحية، المطرب ٢١٩.

(٣٢) المطمع ٢٠٤، ونفع ٤٨٥/٣ و ٥٤٤

(٣٣) الذخيرة ١٠٦/٢ - ٢٠٦. وقد ألقه الرقي القيرواني أيضاً مختاراً خمرياً أعطاها عنواناً «قطب السور في وصف النبيذ والخمور»، الجزء الأول منه مخطوط في المكتبة الوطنية في باريس تحت رقم ٣٣٠٢، والثاني مخطوط في مكتبة الإسكندرية تحت رقم ٥٥٨. وألف أيضاً كتاب «معاقرة الشراب»، تلخ: نفع ١٣٢/٣.

(٣٤) أبو عامر بن الفرج عالج ابنه مصاباً بكبد بخر معتقة. انظر: المطمع ١٨٨، ونفع ٤٠٨/٣ و ٥٤٢. والحلة ١٧٢/٢.

(٣٥) نفع ٢١٩/٣. ويقول ابن حمدى إن إحدى قصائده إن أحد رفاقه في الشرب كان قادراً على أن يميز بواسطة التذوق بين أنواع الشراب التي تقدم له، وحتى تحديد سنوات تعتيقها، انظر ديوانه ١٥٥، الأبيات ٢٠ - ٢٣.

(٣٦) انظر: نفع ٣٩٦/١ و ٢١٤/٣، وضبط البغية ص ١٨، والحلة ٢٠٣/١، وليفى بروفنسال، إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر ١٦٨ - ١٦٩.

(٣٧) انظر نفع ٢١٧/١ - ٢١٨. ويسنيع القاضي إذا لقي سكراناً في الشارع أن يأمر الشرطة بالقبض عليه، وأن يقيم عليه الحد. انظر: نفع ٤٥٣/٣.

(٣٨) أعمال الأعلام ٢٣٤، وانظر فيه ست ص ٦١ من هذا الكتاب.

عليها»^(٣٩). وهو ما يؤكد ابن زيدون في القرن الحادي عشر في قصيدة يمدح بها ابن جهور لأنه كسر كل أواني الخمر في قرطبة:

لقد أوسع الإسلام بالأمس حِسْبَهُ نَحَتْ غَرَضَ الْأَجْرِ الْجَزِيلَ فَلَمْ تَعُدْ
أَبَاحَ حَمَى الْخَمْرِ الْخَبِيثَةِ حَائِطًا حَمَى الدِّينِ مِنْ أَنْ يُسْتَبَاحَ لَهُ حَبْ
فَطَوَّقَ بِاسْتِصَالِهَا الْمَصْرَ مِنْهُ يَكَادُ يُؤْدِي شَكْرَهَا الْحَجَرُ الصَّلْدُ
حَمَى الرَّجْسِ إِنْ يَذْهَبَ عَنْهُ فَمَحْسَنُ شَهِيرُ الْأَيْدَى مَا لَأَلَانِهِ جَعْدُ
مِظْنَةُ آثَامٍ وَأَمَّ كِبَائِرُ يَقْصُرُ عَنْ أَدْنَى مَعَايِبِهَا الْعَدُ
رَأَى نَقْصَ مَا يَجْبِيهِ مِنْهَا زِيَادَةُ إِذِ الْعَوْضُ الْمَرْضِيُّ إِلَّا يَرُحُ يَغْدُو^(٤٠)

ويدل البيت الأخير في هذه الأبيات، دون أدنى شك، على أن الفرامات التي كانت تفرض على المذنبين تحولت تدريجاً إلى ضريبة حقيقية، وأصبحت تمثل دخلاً للدولة بالغ الأهمية، وكان ابن حزم بوصفه فقيهاً مستقياً وأميناً يعارض ضريبة القبالة هذه التي يدفعها مسلمون ليكون لهم حق الاتجار في الخمر في بعض المقاطعات^(٤١).

وإذا كانت الغرامة مشروعة فالضريبة ليست كذلك، لأنها تُفرض على المسلمين بنفس طريقة الضرائب القانونية، وربما كان لابن جهور بعض الفضل من وجهة النظر الدينية عندما ألغى مصدر الدخل هذا لبيت المال، ولكن الوسيلة التي اتخذها لم تستطع أن تغير من العادات شيئاً فيما يبدو، وكان عليه أخيراً كبقية أمراء شبه الجزيرة أن يتسامح مع الخمر وبدائلها.

وإلى جانب الخمر بمعناه الدقيق كان الإسبان يشربون النبيذ أيضاً^(٤٢)، وفي المشرق يصنعونه من التمر بخاصة، ولأنهم في إسبانيا الإسلامية لا يغرسون النخيل المثمرة بالوفرة نفسها، كما في المشرق، باستثناء شرقي الأندلس، كانوا يصنعونه من العنب طارحاً أو زبيباً، ولا يتميز عن الخمر الحقيقي إلا في طريقة الإعداد، ومن ثم لا يعطى قوة السكر نفسها. ومن جانب آخر فإن كثيراً من الأندلسيين لا يعتبرون النبيذ محرماً، معتمدين في ذلك على مذهب ما يدعوه الشعراء «العراقي»، يعنون أباً حنيفة، المتوفى ١٥٠ = ٧٦٧^(٤٣). وفي حفلة الإعذار الشهيرة التي أقيمت في طليطلة على شرف

(٣٩) نفح ٤٦٣/١.

(٤٠) ابن زيدون، الديوان ٣٦٢، الأبيات ٥٠ - ٥٥.

(٤١) ابن حزم، مخطوطة القسطنطينية التي حللها أسين بلانيوس في مجلة الأندلس، المجلد الثاني، عام ١٩٣٤، العدد الأول ص ٣٧ و ٤٢. وقد درس ابن سهل في كتاب الأحكام، الورقة ١٩٦ أ. حالة مسلم يدعى أبا عبد الله بن حمدون «يصنع النبيذ ويخزنه ويشربه ويبيعه، ويدعو إلى بيته أناساً ليس لهم بيوت ولا إقامة».

(٤٢) عن النبيذ بجامعة انظر: دائرة المعارف الإسلامية ٨٥٨/٣، وكتب المادة فينسينك، و ٩٤٨/٢، مادة الخمر، وكتيبا فينسينك أيضاً، وابن عبد ربه، العقد المفرد ٤٠٠/٣ - ٤٣٠.

(٤٣) كان المجاح قديماً قبل الإسلام يشربون أثناء أداء طقوس الحج اللين والنبيذ، انظر: جوفروي - ديومين، الحج إلى مكة ص ٧١ وما بعدها، وفي المشرق، في منتصف القرن الثالث = القرن التاسع، ظهر أدب يستند إلى الجدل الذي كان قائماً بين علماء الشريعة، وينتج على النبيذ انظر: رسائل الماحظ، طبعة السندوب ٢٨٥ - ٢٩١: رسالة في مدح النبيذ. وحتى الشعراء تأثروا بهذا الجدل، انظر: ابن الرومي، قصائد مخفارة، طبعة كامل كيلاني ص ٧٨، ومحتارات البياودي ٦٨/٤، وقافية القصيدة رائية، وهي من بحر الطويل.

الصبي يحیی، عندما علم المأمون أن بين المدعويين أشخاص يعتبرون النبيذ حلالا أمر أن يقدم لهم بكميات وفيرة ليظهر رغبته في إضاءة مدعويه^(٤٤).

وإذا بدا لنا في القرن العاشر أن قاضيا مثل صهيبي بن عاني يشرب النبيذ^(٤٥) حالة فريدة، فإن الشراب في القرن الحادي عشر سوء في أيام الفتنة أم في عصر ملوك الطوائف، أصبح عادة شائعة، وأصبحت كلمة «نبيذ» مرادفة لكلم «حمر»^(٤٦). وفي المدن الكبرى حيث يلعب عنصر للمستعربين دورا بالغ الأهمية كانت توجد حانات لا يتردد عليها المسيحيون وحدهم فقط، وبعض هذه الحانات، إذا صدقنا ابن اللبانة، كانت تدرها النساء:

ولرب ربّة حانةٍ نهّتها والجو لؤلؤ طلّه قد رضرها^(٤٧)
وهو ما يؤكدّه يحيى السرقسطنى حين يقول:

ربّ خمارٍ سريتُ ليها والدحى في ثيابه الزنجية
كم عقار بدلته بعقار وثياب صبغتها خمره
إن خير البيوع ما كن نقداً لبس ما كان أجلا بنسيه^(٤٨)

ويشير ابن شهيد في رسالته «التوابع والزوابع» إلى الحانات التي كانت تجاور الأديرة المسيحية في ضواحي قرطبة^(٤٩)، وقرينه أبو حفص بن شهيد يتحدث أيضا عن الحانات في إحدى مقدماته^(٥٠).

ونعرف من أشعار كثيرة أن الإسبان المسلمين كانوا يشربون الخمر حتى السكر الفاضح، لأن مالدبيهم من نبيذ كان شرسا، ألم يبلع بأحدهم في صحبة رفاق يسرون أن يشهر سيفه ضد أحد

(٤٤) الذخيرة ١٣٥/٤، ويشير ابن خلدون في مقدمته أكثر من مرة إلى مذهب أبي حنيفة فيما يتصل بالنبيذ، صبعة كاترمير ٢٥/١ و ٢٦ و ٣٩١، وترجمة دى سنان ٣٥٠ و ٣٦ و ٤٤١.

(٤٥) الحميدى يشير إلى قصة تتصل بهذا الموضوع، ويعلق عليها: دلعله كان يذهب مذهب أهل العراق» انظر: الملة ٢٣٧/١ وابن ظافر، بدائع البداة ٩٧ - ٩٨.

(٤٦) الذخيرة، القسم الأول، المجلد الأول، ص ٤ طبعة القاهرة وعنها في أعمال الأعلام ١٥٨ طبعة الرباط ١٩٣٤ والذخيرة ٢٨٠/٣ - ٢٨٩ (رسالة ابن الدباغ ورد بن سداى عليها)، ونفح ٢٤٦/٣، وابن ظافر، بدائع البداة ٣١٠.

(٤٧) من الطويل، القلائد ٢٤٧.

(٤٨) من الخفيف، نفح ١٥٨/٤، ودوزى في تكملة المعجم العربية (٤٠٤/١) يعطى خمار هنا معنى حانة، ويبدو مؤثرا أننا بإزاء خطأ، لأن السرقسطنى عندما نظم أبياته تذكر عراقة أبياتا لابن المعز، الشاعر المشرقى، يقول فيها:

وخمار من بنات لجوس ترى الزق في بيتها شائبة
مددنا لها ذهباً جامداً فكالت لنا ذهباً سائبة

والأبيات من المتقارب، نفح ٦١٥/٣، واتخير ١١٥/٣.

(٤٩) الذخيرة ٢٦٠/١، والمطمح ١٩٤ - ١٩٥، عنه في نفح ٥٢٥/١، وأحد ضيف، بلاغة العرب في الأندلس ١٢ - ٥٣ وفي القرن الثاني عشر كان أشهر أنواع الخمر في قرطبة يسمى «خمر الدير»، انظر: نفح ٥٤٤/١، والبيت الأربيعون في «كنز الأدب» لابن هشام القرطبي.

(٥٠) الذخيرة ٦٨١/١، وأحد ضيف، بلاتة العرب ٣١ في المامش. وفي القرن الثاني عشر قال أبو جعفر بن سعيد حبيب حفصة الركونية عن قوادة (من السريع):

جاهلة حيث ثوى مسجد عارفة حانة خمار

نفح ١٨٤/٤، وغرسة غوث، الشعر الأندلسى ٩٠.

أصدقائه، بعد حوار من السهل أن نتخيل أنه لم يكن بالضرورة مهذباً؟^(٥١).
 وكان بعض الشعراء يرون في الخمر عزاء وسلوى، ويؤكد هذا جيداً ما قيل من مثلٍ يتصل بحالتها
 العارضة، يقول أبو محمد بن السيد البطلوسى:
 سَلِّ الهمومَ إذا نَبَا زمنٌ بدمامة صفراء كالذهب^(٥٢).
 . وكان القَلَنْدَر، وهو اللقب الذى كان ينادى به أبو الأصبع عبد العزيز البطلوسى، يسكر كثيراً،
 رغم أنه طبيب، ويقول:

جرتْ مِنِّي الخمرُ مجرى دمي فجلُّ حَيَاتِي من سكرها
 ومهما دجتْ ظَلَمٌ للهمومِ فتمزيقها بسنا بدرها^(٥٣)

وحين أقام ابن عَمَّار في سرقسطة لاجئاً، «ورأى غباوة أهلها، وتكاثف جهلها، وشاهد منهم من
 لا يعلم معنى ولا فضلاً، وواصل من لا يعرف قطعاً ولا وصلاً، فأقبل على راحة يتعاطاها، وعكف
 عليها ماتعداها ولا تخطاها، حتى بلغه أنهم تقوموا معاقرة العقار، وجالت ألسنتهم في توبيخه مجال ذى
 الفقار، فقال:

نَقَمْتُمُ عَلَى الرَّاحِ أُو من شربها وقلتم فتى راحٍ وليس فتى تجد
 ومن ذا الذى قاد الجيادَ إلى الوغى سوايَ ومن أعطى كثيراً ولم يُكَدَّ^(٥٤)

وإذا كان من الحق أن المسلمين يشربون الخمر، فمن الحق أيضاً أنهم يمتنعون عن شربها في يوم
 الجمعة، ولو أن هناك من لا يحترمون حتى هذا اليوم، ففي صباح موقعة الزلاقة، وبدأت في يوم الجمعة
 كما هو معروف، طلب أبو الحسن بن اليسع خيراً من أبي بكر بن القبطونية:

عَطِشْتُ أبا بكرٍ وكَفَّفَكَ دِيمَةً وذُبْتُ اشتياقاً والمزار قريبُ
 فخَفَّفْتُ ولو بعضُ الذي أنا واجدٌ فليس بحقٍ أن يُضَاعَ غريبُ
 ووَفَّرْتُ لنا من تلك حظاً نرى به نشاوى وبعد الغزو سوف نتوب^(٥٥)

ونتساءل عما إذا كان ابن اليسع يطلب الشراب استجابة لعادة درج عليها، أو أنه كما نقول «من
 القلب للمعدة»، إذ من الحق الثابت أن الأندلسيين في معركة الزلاقة، باستثناء المعتمد، كانوا جنوداً
 أقل من شجعان!



(٥١) المطمح ٣٨٣، ونفع ٢٣٦/٤. وخلال سهرة عند أبي مروان بن رزين، في قصره «متية العيون» سكر أحد المدعوين وتصور
 أنه مقاتل في ساحة حرب. انظر: القلائد ٥٥ - ٥٦، ونفع ٦٦٩/١ - ٦٧٠.

(٥٢) من الكامل، نفع ٦٤٥/١.

(٥٣) من المتقارب، نفع ٤٥٢/٣، وهناك طبيب آخر هو أبو العرب يوسف بن محمد، غلب عليه حب الخمر في أواخر حياته،
 فلم يكن يرى أبداً صاحباً، ومع ذلك توفي عام ٤٣٠ = ١٠٣٩ بعد أن عاش تسعين عاماً تقريباً. انظر: صاعد الأندلسي، طبقات
 الأئمة، طبعة الأب شيخو، ص ٨٢ - ٨٣، وترجمة بلاشير له ص ١٤٩.

(٥٤) من الطويل، القلائد ٨٤، ونفع ٦٤٦/١.

(٥٥) من الطويل، القلائد ١٦٩، والحلة ١٧٤/٢، وانظر أيضاً أبياتاً أخرى عن موضوع الخمر في يوم الجمعة في نفع ٤٥٣/٣،
 وابن ليون، لمح السحر، الورقة ٦٥ أ.

يسمح لنا الشعر الأندلسي في القرن الحادي عشر بإعداد قائمة تقريبية بالأشيب. التي كانت تستخدم في مجالس الأنس لشرب الخمر والنبذ، فالأناء المملوء بالشراب يسمى كأساً، ود كان صغيراً منه، ومن معدن، هو الفضة غالباً يطبق عليه اسم قدح، وصا من زجاج عُرف بأسماء كثيرة: جام^(٥٦) ونخبة^(٥٧) وغرب^(٥٨). وما كان منها منقوشاً أو ملوناً يجي من المشرق، من العراق على التأكيد، وتسمى «الكأس العراقي»^(٥٩)، وحة شواهد على وجوده لافي الجانب الإسلامي وإنما أيتاً في الجانب المسيحي، وبخاصة في ليون^(٦٠). يقص علينا مؤلف البيد المغرب أن باديس بن حبوس ملك غرناطة أراد في عام ٤٤٤ = ١٠٥٣ أن يخلص من خصمه محمد بن إدريس فوجه له بكأس عاقى مسموم مع رجل من الكتامين، فلما وصل إليه قل له: هذا كأس جلب للحاجب المظفر باديس ثم يره يصلح إلا للخلافة فاخصك به، فأعجب به محمد بن إدريس ومده خمرًا وضعه إلى فمه فأحس في نفسه رية منه، فأمر الكتامي فشر به فتهرأ حلد من عظمه من حينه. وبقي هو ثلاثة أيام ومات من تحت^(٦١). وكان للأوعية والزجاجات أسماء خاصة بها، كما يشهد بذلك بيت لابن دراج انقسطلي^(٦٢):
ونصب مجانيقاً من اليم^(٦٣) التي أحجارهن من الرواطم^(٦٤) والنخب

(٥٦) اسم فارسي الأصل.

(٥٧) انظر فيما سبق ص ١٦١ من هذا الكتاب. ويرى دوزي أن معنى كأس Coupe يختلف عن «نخب»، وأن يوجد هذا في بيت شعر لمسلم بن الوليد (الديوان، طبعة دة خويه، القطعة ٢٨، البيت ١٦). ويقدم الشعراء الأندلسيون شواهد كثيرة على هذا فابن الحزيري يتحدث عن «نخب الكنوس» (البيدع في وصف الربيع ص ١٠٠) وكذلك ابن دراج القسطل في المصدر السابق ص ١٠٠، وقارته بما في القاموس للفيروز أبلدى، مادة نخب، حيث يذكر: النخب: الشربة العظيمة، ولسان العرب، في الهامش، ٢٤٩/٢. وابن عذارى، البيان المعزب ٣٠٠/٢، وترجمته ٤٦٦/٢، ومعنى اتخيه بالكأس، تنارعاً للكنوس. انظر: دوزي، أبحاث ط ١ ص ٦٠-٦١.

(٥٨) ابن على في البيدع للحميري ص ١٣٧. وانظر فيما سبق ص ١٥٨ من هذا الكتاب.

(٥٩) الذخيرة ١٠١/٤ طبعة القاهرة.

(٦٠) سانتشيت البرنس، طوابع الحيا في ليون منذ ألف عام، ص ٢١١ «Vasa Irakes»، وغوث مورينو، كائنات المستعربين ١٢٦ - ١٢٧ و ٣٤١ - ٣٤٢: «الأكواب، حفظ جنس يشمل مجموعة من الأواني مختلفة الطرز، وبخاصة الكنوس، والكنوس الفضية، والجميلة الغالية من البلور والزجاج الأبيض، أو المتخذة من وى جوز الهند، وغيرها. ويذكر أيضاً بعض الأكواب التي عليها رسوم والمذهبة.

(٦١) ابن عذارى، البيان المغرب ٢١٦/٣. وابن الخطيب، أعمال الأعلام ١٤١ (كلمة عراقى لا توجد في نص ابن الخطيب). وحول كلمة عراقى صفة للكأس من زجاج انظر دوزي وإنجليمار، معجم الكلمات الإسبانية ص ٢٨٧ - ٢٨٨ مادة عراقى، وتعبير أكواب عراقية يوجد في ابن عاصم جة الرضا، في نفح ٥١٠/٤، وأيضاً يستخدم ابن جبير، في نهاية القرن الثامن الهجرى، الرابع عشر الميلادى تعبیر «الزجاج العراقى» انظر: رحلة ابن جبير، طبعه دى خويه، ليدن ١٩٠٧، ص ٨٣ و ٢٣٣، والمعجم ٣٥. ويقول الغزال، السفير المغربي الذي جاء من إسبانيا عام ١٧٦٦، بمناسبة إجاج كنيسة طليطلة الجامعة: الزجاج المزن المسمى عندنا بالزجاج العراقي (مخطوطة الجزائر رقم ١٧٣، الورقة ١٩٣ ب)، ويوجد تعبیر الزجاج العراقي أيضاً عند ابن بطوطة، رحلة ٢٦٣/٢.

(٦٢) انظر فيما سبق ص ١٦١ من هذا الكتاب.

(٦٣) انظر: دوزي، تكلمة المعاجم ٧٤٣/٢، ونفح ١٧٩، وابن الحداد في الذخيرة ٧٢٢/١: «في يم الراح».

(٦٤) انظر فيما سبق ص ١٦١ رقم ٣٥ من هذا الكتاب. ومفرد لكلمة رومة، وهى مأخوذة من الكلمة الإسبانية القديمة rotoma، وأصبحت في الإسبانية الحديثة redome، وعلق عليها شتيجي وكتبها radoma. انظر: إضافة إلى علم الأصوات ١٦٣ و ٣٥٤.

وكان يطلق على الزجاجات اسم مضربة^(٦٥) أيضا، والكنوس الكبيرة اسم «الكبير»^(٦٦) والدوارق اسم «قاطي»^(٦٧).



كان الأندلسيون يراعون سلسلة من الطقوس عندما يقدمون الخمر، وفي رواية أوردتها لنا المقرئ نرى ابن صاحب البيت يخدم المدعوين بعد انتهاء الطعام^(٦٨). وعادة، في الاجتماعات الليلية بخاصة، كان هناك الساقى، وهو - كما في المشرق - يملأ الكنوس ويقدمها للضيوف، ويمكن أن نقرر ونحن على يقين أن لكل مدعو كأسه، ولكن في بعض الأحيان كانت هناك كأس كبيرة تنتقل من يد إلى يد، وتُملأ كلها فرغت^(٦٩). وبما أن الشراب يمتد حتى ساعة متأخرة من الليل، وأحيانا حتى صباح اليوم التالي، فمن الضروري أن يكون الساقى شخصية قوية البناء جسم ليتحمل هذا الإرهاق، وحالة الوصيفة الساقية، الصغيرة الطريفة، التي وصفها لنا أبو عامر بن شهيد، بعد حفلة استمرت طوال الليل، خلال حكم المظفر بن المنصور، لا بد أن تكون نادرة^(٧٠).

وكما في التقاليد القديمة كانوا يفضلون غالباً الغلمان على الصبيات، فيختارون الساقى من بين الغلمان أصحاب الوجوه الجميلة، وأبيات الشعر التي تحتفى ببريق الخمر في الكأس، وبجمال وجه الساقى، أو رشاقة حركته في الوقت نفسه، كثيرة جداً، يقول المعتمد متغنيا بذلك الجمال:

لله ساقٍ مهفهفٌ غَنِجٌ قد قم يسقى فجاء بالعجب^(٧١)

ونخبرنا ابن شهيد أن الساقيات من الفتيات كن يقلدن الغلمان، فيلبسن ملابس الرجال، ويقصن شعورهن على طريقة الشباب، وهذه الجاذبية الخاصة عن طريق التنكر مشرقية خالصة:

طَبِيبَةٌ دُونَ الصَّبَايَا قُصِّصَتْ فَاتَتْ غِيْدَاءً فِي شَكْلِ الصَّبِيِّ
فَتَحَ الْوَرْدُ عَلَى صَفْحَتِهَا وَحَمَاءُ صَدُغُهَا بِالْعَقْرِبِ^(٧٢)

ويشرب الأندلسي الخمر مع رفقة نسائية لطيفة، وكثير مع ندامى مبتهجين، أخلاقهم متميزة، ويطلق عليهم الشعراء «الفتيان الكرام»، وربما كان هذا مجرد تقليد للشعراء المشاركة^(٧٣). يقول ابن مقان الإشبوني:

(٦٥) انظر فيما سبق من هذا الكتاب ص ١٦٠ (وصف النيلوفر)، ودوزي، تكملة المعاجم ٧/٢.

(٦٦) الفلاند ٧، وبنو عباد ٩٠/١ رقم ٩٥، ودوزي، تكملة ٤٣٨/٢.

(٦٧) الفلاند ٦، وبنو عباد ٨٧/١ رقم ٧٨، ودوزي تكملة ٣٧٢/٢.

(٦٨) نفع ٢٢٣/٢ - ٢٢٤ طبعه أوربا.

(٦٩) ابن بشكوال يتحدث بمناسبة البكرى عن «سباق الشرب»، وسباق جمع سبئية، وهى مندبل أبيض، من قماش رقيق،

نجهل استخدامه. انظر: الحلة ١٨٥/٢، وأبحاث ط ١ ص ٢٨٧ و ٢٩٧، ومصمم الملابس ص ٢٠٠ [الترجمة العربية ص ١٦٥]، وتكملة المعاجم ٦٣٠/١.

(٧٠) اللخيرة ٣٠٤/١، وابن طانر، البدائع ٣٠٢، ونفع ٢٤٤/٣.

(٧١) من المنسرح، الفلاند ٩، وعنها في «بنو عباد» ٤٤/١، ونفع ٢٧٨/٣.

(٧٢) من امديد، اللخيرة ٢١١/١، أحمد صيف، بلاغة لعرب في الأندلس ٤٦، وديوان ابن شهيد، القطعة رقم ١٠، ص ٩٢.

(٧٣) انظر مثلا الأغشى في معلقته: «ودع هريرة»، الأبيات ٢٦ - ٢٧. وعن معنى كلمة فتى انظر: بشر فارس، الشرف عند

العرب قبل الإسلام ٢٠ - ٣٠، ودائرة المعارف الإسلامية، الملحق، الكتاب الثاني ص ٨٥ - ٨٦، وكتب المادة بشر فارس.

مع فتيانٍ كرامٍ نجبٍ يتادون رياحين المجون^(٧٤)
ويذكر أحمد بن مغيث في قطوعة الأمانة التي كان الأندلسيون يفضلون الاجتماع فيها،
ويتبادلون الأنخاب:

اشربْ على البستانِ مِن كَفِّ مَنْ يسقيكَ مِن فيهِ وأحداقهِ
وانظر إلى الأيكَةِ في بُردِهِ ولاحظِ البدرَ بأطواقهِ
وقد بدا السرُّ على نهرِهِ تخاضضٍ شمرَ عن سائِهِ^(٧٥)

كان الأندلسي يختار عادةً الحداثق ولأشجار والمياه الجارية إطاراً لمتعته، وهنا نلتقي من جديد مع
حبه المتميز للطبيعة. يقول الأمير رفيع الدولة ابن المعتصم إلى صديقه أبي الأعلى:

أبا العلاء كؤوس الراحِ مُترعة وللهندامى سرورٌ في تعاطيها
وللغصونِ تننٌ فوهها طرباً وللحمائمِ سجعٌ في أعاليها
فاشرب على النهرِ من صهباءِ صافيةٍ تأمنا عُصرت من خدِّ ساقِها^(٧٦)

وأحيانا يكون المكان قارب يتهادى على صفحة الرادى الكبير أو إبره حيث ينظم الرفاق في
اجتماعاتهم البهجة، ونعتقد أنه يكفى فيما يتصل بهذا الموضوع أن نعود إلى القصائد التي استلهمت
الحداثق، وأشرنا إليها بمناسبة الحديث عن الودياز والمياه الجارية.

وكان الشراب يكثر ليلاً، علانية أو سرا في بيت، وكل شيء مهياً لكي يستطيع المدحرون أن يطلقوا
العنان لأهوائهم، والصورة الأثر تردداً في أوصاف الشعراء هي ما تصنعه الخمر في للكأس الشفافة،
والسراج الذي يضيء ليل الشاربين، حتى عندما تكون المصابيح منطفئة، يقول أبو عيسى بن لبون:

ياربُّ ليلٍ شربنا فيه صافيةً حراء في لونها تنفى انتباريحاً
ترى الفراش على الأعواس ساقطةً كأنما أبصرت منها مصريحاً^(٧٧)

وهنا نجازف مرة أخرى بذثر أبيات سبق أن أوردناها بمناسبة وصف الليل، إذ يذثر لنا أبو محمد
بن السيد البطليوسي مقطوعاً يبدو فيها أصيلاً إلى حد ما، عن سهرة خمرة طالمت وامتدت حتى
مطلع الفجر:

ياربَّ ليلٍ قد هتت حجابهُ بمُدامٍ وقادةٍ كالكوكبِ
يسعى بها أحوى يَفونٍ كأنها من خدِّه ورُضابٍ فيه الأشنبِ
بدران: بدرٌ قد أمت عروبه يسعى بيدٍ جالسٍ للمغربِ
فإذا نعمت برشفٍ يدر غاربِ فانم برشفةٍ طالعٍ لم يغربِ
حتى ترى زهرَ النجوم كأنها حول المجرة رُبرُ في مشربِ

(٧٤) من الرمل، نفع ٤٣٣/١.

(٧٥) من السريع، نفع ٢٤٢/٣، وانظر فيه سبق ص ١٧١ من هذا الكتاب.

(٧٦) من البسيط، الحلة ٩٤/٢، وأبحاث ص ١ ص ١١١.

(٧٧) من البسيط، القلائد ١٠١، والحلة ١٧٠/٢.

والليل مُنَحْفِزٌ بطير غرابه والصبح يطرده يبارِ أشهب^(٧٨)
ويرى أبو إسحاق بن خيرة الصباغ أن الاستيقاظ بعد سهرة شراب امتدت، كمن بُعث وفي فمه
طعم الرماد:

ربَّ ليلٍ طال لا صُبْحَ له ذى نجومٍ أقسمتُ أن لا تغورَ
قد هتَكُنّا جُنحه من فَلَقي من خورٍ ووجوهٍ كالبدورِ
إذ بدتْ تُشبهها في كأسها نارُ إبراهيمَ في برْدٍ ونورِ
صرعتنا إذ علّونا ظَهرها في ميادينِ التصابي والسرورِ
وكأنّا حين قُمنا معشرُ نُشِروا بعد مماتٍ من قبورِ^(٧٩)

وهذه المقطوعة التي ذكرناها تعرض لموضوع يتردد كثيرا في الأدب العربي، في المشرق والمغرب
على السواء، ولكن «كأس الصباح» التي احتفى بها المشاركة، لها - طبقا لما يقوله الشعراء - مذاق
يفضل البقية كلها، وجعلت المعتضد يقول:

اشربْ. على وَجْهِ الصباغِ وانظر إلى نَورِ الأقاحِ
واعلم بأنك جاهل ما لم تقبل بالإصطباحِ
فالدهر شيء بارد إن لم تسخّنه بِراحِ^(٨٠)

ويبدأ ابن عمار قصيدته في مدح المعتضد قائلا:

أدرِ الزجاجةَ فالنسيم قد انبرى والنجمُ قد صرف العنان عن السرى
والصبحُ قد أهدى لنا كافوره لَمّا استردّ الليلُ منا العنبرا^(٨١)

ويجعل ابن الزقاق، وهو شاعر الطبيعة، زهور الحدائق تشارك الشارين في الاصطباح:

رقّ النسيمُ وراقَ الروضُ بالزهرِ زهور الحدائق تشارك الشارين في الاصطباح:
ما العيش إلا اصطباحُ الراحِ أوشنِبْ فنبّه الكأسَ والإبريقَ بالوترِ
قل للكواعبِ غُضي للكرى مُقلا يُغني عن الراح من سلسالِ ذى أشرِ
وللصبحِ ألا فانشُرْ رداء سنا فأعين الزهرِ أولى منك بالسهرِ
وقام بالقهوة الصهباء ذو هيفٍ هذا الدجى قد طوته راحة السحرِ
يطفو عليها إذا ما شجّها دُرٌّ يكاد يعطّنه ينقذُ بالنظرِ
والكأسُ من كُفّه بالراحِ محدقةٌ تخالف اختلست من ثغره الخصرِ
كهالة أحدقت في الأفقِ بالقمرِ^(٨٢)

(٧٨) من الكامل، نفع ٦٤٦/١ و ٧٢/٤.

(٧٩) من الرمل، نفع ٤٨٥/٣.

(٨٠) من الكامل، الذخيرة ٣٠/٢، وعنّها في «بنو عباد» ٢٤٥/١ و ٢٦٨ وترجم الأبيات بتصرف فون شاك، ترجمة باليرا، في شعر العرب وفهم ٢٠٢/١، وتاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ٧٧ رقم ١.

(٨١) من الكامل، القلائد ٩٦، والمعجب ١١٥، وترجمته ٩٨، وقد ترجم فنيان «النجم» بكلمة Les Pléiades. وانظر فيما سبق ص ١٦٩ - ١٧٠ من هذا الكتاب.

(٨٢) من البسيط، نفع ٢٩٠/٣.

ويحمد ابن مقاناً في قصيدته لتي يمدح بها إدريس بن يحيى الحمودى أن الخمر يجب أن تُشرب صباحاً قبل أن ينادى المؤذن للصلاة، يؤكد في الوقت نفسه على الصفات الثلاث التي يجب أن تقدر في الخمر الجيدة:

قد بدالى وضُحُ الصبح المبينُ فأسقنيها قبل تكبير الأذنين
أسقنيها مُرَّةً شَمُولَةً لَبَّتْ في دِنْهَا بِضْعَ سَنِينَ^(٨٣)

وتذكرنا هذه الأبيات بتعليق عبد الرحمن شَنْجُول عندما سمع المؤذن ينادى ذات يوم من فوق المنذنة: «حَيَّ على الصلاة» قال: «لو قلت حَيَّ على الكأس لكان خيراً لك». ويقول أيضاً أبو مروان عبد الملك بن غصن في نغمة ساخرة:

وقام داعى السرور يدعو حَيَّ على الدنِّ وانتهايه
وتاه فيه النديمُ ممَّا يَزِدُّهُمُ الناسُ عند بابه^(٨٥)

وكثيراً ما يشير الشعر الأندلسي، ومثله المشرقي إلى الأطعمة اللذيذة التي تقدّم للشربين، وهناك كلمة عامة تطلق عليها وهى النَقْلُ^(٨٦)، ولا تعنى الحلوى، الفطائر فحسب، وإنما تتضمن الفاكهة أيضاً، مجففة أو طازجة^(٨٧)، وحتى الخضر مثل: الخرشوف والفول. يقول ابن شهيد عن الخرشوف ولم يكن يقدّرها كثيراً:

نَقْلُ السخيفِ الماتِّ للجهولِ وَأَتْلُ قومٍ نازحي العقولِ
أقسمتُ لا أَطْعِمُهَا أَكْبَلِي ولا طِعْمُهَا على شمولي^(٨٨)

ويقول الشعراء العشاق أن نقولهم هى القبلات اتى يأخذونها من حبيباتهم، يقول محمد بن الحسن بن الكتاني:

ألا قد هجرنا الهجرَ واتصل لوصلُ وياتُ ليالى البين واجتمع الشُّمْلُ
فُسْعِدَى نديمي، والمداة ريقها ووحنتها روضي، وتقبيلها انقل^(٨٩)

ويصور ابن خفاجة الهواية نفسها، ما زجا بها ذكرياته عن الزهور:

ونقلُ أقاحِ النغرِ أو سوسنِ الطلّى . ونرجسةُ الأصفانِ أو وردةُ الخدّ^(٩٠)

(٨٣) من الرمل، نفع ٤٣٣/١، البتان ٦ و ٧.

(٨٤) ابن عذارى، البيان ٦٨/٣، واليرير، القسم الذى طبعه رامير و من نهاية الأرب بعنوان: تاريخ إسبانيا، ٢٢٩، وتاريخ

سلمى إسبانيا، ط ٢ ج ٣ س ٢٨١ - ٢٨٢.

(٨٥) من البسيط، نفع ٤٢٣/٣.

(٨٦) ونذكر في هذا المقام «المزة» اتركى و Las tapas الإسبانية، عن ضبط «نقل» بضم النون أو فتحها، والأولى عامية، انظر: لسان العرب ٢٠٠/١٤، فهو يقول = والدعة تضمها، والمحاظ، البهلاء ١٨٦/١، والآب أنستاس الكرمل في المقتطف، يولية ١٩٤٤، ص ١٧٨، وهو يرى أنها جاءت من الكلمة اللاتينية nuclus، وإذن يكون ضمها في العربية هو الأرب إلى أصلها.

(٨٧) ابن المعتز في كتابه فصول لسائل في تبصير السرور يفرق بين النقل الرطب والنقل اليابس، ص ٨٤ - ٩٠.

(٨٨) من الرجز، ابن ظافر، بدائع النعمة ٣٠٥، ونفع ٢٤٦/٣، والضبط، البغية ٥٧، وانظر فيما سبق ص ١٧٧ من هذا الكتاب.

(٨٩) من الطويل، نفع ٣٠٨/٤.

(٩٠) من الطويل، ابن خفاجة، لعيوانه القطعة ٢٧٨، ص ٢٤٨.

ولكن هذه الفكرة سبق بها المشارقة الأندلسيين، وبخاصة أبو نواس، ومن ثم يبدو لنا من غير المفيد أن نلج عليها، ومع ذلك فالمتموكل أمير بطليوس يستخدم فكرة «النقل» في المغامرات الحربية: وكيف وراحي دَرُسُ كُلِّ غَرِيبةٍ وورَدُ التقي شَمِيٌّ وحربُ العدَا نَقْلِي^(٩١)

لقد وصف شعراء الأندلس الخمر في صور ذكية أحيانا ولكن من لديه معرفة بالشعر المشرقي يلحظ أن الأصالة تنحسر في أشياء قليلة جدا، وشكلية خاصة، فهم يكتفون بأن يقولوا في كلمات أخرى ما عبر عنه شعراء العصر العباسي بطريقة ممتازة. وعندما يصف حسام الدولة بن رزين الخمر بأنها شيء روحى فإنما يذكرنا بأبي نواس:

أدْرِهَا مُدَامًا كَالْفَزَالَةِ مُزَّةً تبينُ لرائيها وتأبى على اللمس
وتبدو إلى الأبصار دون تجسُّمٍ على أنها تخفي على الذهن والحس
إذا شعشت في الكأس خلت حباها لآلٍ قد رُفِعن في لُبِّ الشمس
موكَّلةً بالهم تهزم جيشه بجيش الأمانى والمسرَّة والأنس
فإن شئت قل فيها أرق من هوا وإن شئت قل فيها أرق من النفس^(٩٢)

ونقد أكثر أبيات أبي محمد بن السيد البطلوسى التى يشه فيها الإبريق بكائن حتى: كأنما الإبريق حين قرَّقا قد أمَّ لثم الكائن حين فقرا
وحشية ظلت تناغى جودرا تُرْجعه الدرُّ ويرنو حذرا^(٩٣)

ورغم كل البراعة التى أظهرها شعراء الأندلس فإن القصيدة الخمرية، فى خطوطها العامة، تبدو تقليدا للقصيدة المشرقية، ولقد شرب الأندلسيون الخمر، لا شك فى هذا، ولكن عندما تغنوا بعصير بنت الكرم عالجوا موضوعا أدبيا فيه عناصر تقليدية كثيرة. وذلك على النقيض من الموسيقى والغناء والرقص، فقد أظهر فيها الشعر الأندلسى، وهو مدين للشعر المشرقى دائما، على الأقل ميلا إلى التحرر فى الأشكال الخارجية.



وتقدم لنا عليه العاج القادمة من دير لير Leyer، والمحافظة حاليا فى كنيسة بنبلونة^(٩٤)، فى أحد أوجهها أكثر المشاهد أصالة، حيث نرى فرقة موسيقية من ثلاثة أشخاص جالسين: الموسيقى الذى على الشمال عازف أو عازفة، على شباة من قصبتين منفصلتين، والذى فى الوسط، وذهب القفل برأسه،

(٩١) من الطويل، القلائد ٤١، والحلة ١٠٥/٢.

(٩٢) من الطويل، الذخيرة ١١٤/٣، والحلة ١١٢/٢ ووازنه بأبي نواس فى أبيات همزية القافية، من البسيط، الديوان طبعة آصف، ص ٢٣٤.

(٩٣) من الرجز، نفع ٦٥٠/١.

(٩٤) هذه العلية مهداة إلى المظفر عبد الملك بن المنصور بن أبي عامر، خليفة والده فى الحجابة، وتحمل تاريخ ٣٩٥ = ١٠٠٥، انظر: خ. فراندس، العاجيات والكهرمانيات الإسبانية ص ٥٧ - ٧٧، وليقى بروفنسال، إسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر، ص ٢٢، والنقوش العربية فى إسبانيا ج ١ رقم ٢٠٤، الشكل ١٨٩، ومينديث بيدال، إسبانيا فى عصر السيد ٨٩/١، وعن حياة السيد، فى مجلة أوكسيدنت، رقم ٣٢، فبراير ١٩٢٦، ص ١٦٢، وتوماس أرنولد وجيوم، ثراث الإسلام ص ١٤٢، صورة رقم ٦٣. ● قلت: كان ذلك عندما حرر المؤلف كتابه، أما الآن فقد نقلت هذه العلية إلى متحف نبرة، ومقره فى بنبلونة أيضا (الترجم).

يعزف على العود فيها يبدو، واثالت وهو أشد تلقاً من الآخرين، رافع ذراعيه مثل الأول، ولكن لا يمكن القطع ما إذا كان يحمل في يديه شبابة أو طبلية. وأشياء أخرى من العاج، أقدم من علبة بنبلونة أو أحدث، تقدم لنا صوراً لموسيقين ولكن أيّاً منها لا يقدم الفنان بصفته هذه، وإنما يوحد في جمع من الشخصيات من طبقة النبلاء أو الأمراء أو الفرسان يستمعون إلى الموسيقى ويواصلون الشرب^(٩٥). فهي إذن موضوعات تقليدية ساسية، وربما كانت ذات أصل أسبوي، وعرضها حضور ما كان ليسترعى اهتمامنا لولا أنها شهد عشق على ما يؤكد الشعر لنا من حب الأندلسيين للموسيقى.

وفي هذا المجال، كما هو الحال في الخمر أيضاً، نلاحظ أن التحريم، والمدافعين عن الدين الإسلامي لم يكن لهم تأثير كبير^(٩٦)، فالموسيقى، كالخمر، قاسم مشترك في كل الحفلات والأفراح. وكانت تربية الفتيات تتضمن تعليمهن الموسيقى، وتدريبهن عملياً لعزف على العود والرباب وأصوات موسيقية أخرى^(٩٧). وكان من عادة بعض لأسر القرطبية أن يجعلن الفتيات يغنين بالتناوب في حفلاتهم الخاصة، ويعبر أبو محمد بن عالة، دون أدنى شك عن روح الفنان الأندلسي حين يقول:

لا تُلْمِني بأن طربتُ لشَجْوِ جِثِّ الأُنْسِ فالكَرِيمُ طَرُوبُ
ليس شقُّ الجيوبِ حَقٌّ علينا نَحْنُ الشَّانُ أَنْ تُشَقِّ القُلُوبُ^(٩٨)

ولم يكن حب الموسيقى وقفاً على الرجال النبلاء، كما يقول ابن مالك، وإنما كان الاسم المشترك بين الناس جميعاً، فالحكام، شأن القود والحرفيين والشراء، كانوا مفتونين بها صابة، وبعضهم لم يقف عند حد الاستمتاع بها، وإنما كانوا موسيقيين فعلاً، ليس عملياً فحسب، وإنما في المجال النظري أيضاً. وكان أبو عبد الله بن الخداد تاجر المرية يرى في الشعر شيئاً آخر غير الوزن يقتصر على أنغام متوالية طويلة أو قصيرة، وإنما اكتشف فيه الموسيقى، وعالج هذه الفكرة في بعض كتبه، ونالت شهرة عريضة فيما يقول ابن بسام^(٩٩). وحالة ابن باجة معروفة أيضاً، فلم يكن فيلسوفاً وندعرا فحسب، وإنما مؤلف موسيقى أيضاً^(١٠٠). ألم تطوّر الموشحات ويدهر الزجل في القرن الحادي عشر، وكلاهما

(٩٥) حول علبتين آخرين أسطوانييين في متحف اللوفر انظر: ج. فراندس، المصدر السابق، ص ٧١ - ٧٢ والشكل ١١، وص ٧٩ - ٨٠، والشكل ١٦ رقم ٢.

(٩٦) تقدم الفقرة التالية وثيقة، وهي ما يقره سيدي خليل بمناسبة استخدام الآلات الموسيقية في حفلات تزواج: «لا يحرم استخدام الغرابل، حتى لو قام به رجل، هكياً يتصل بالطبل والمزهر، بعضهم يراه جائزاً والآخرين يرونه مكروهاً. ورأى ثالث يميز الطبل فقط. وابن كنانة يميز استخدام الزبارة ويوق»، انظر: سيدي خليل، الزواج والطلاق، ترجمة فينان ٨٧. يرى ابن حزم أن الغناء والموسيقى مباحين، انظر: مخطوطة اعسططينية وتحليل أسين بلاثريس لها في مجلة الأندلس، المجلد الثاني ع ١٩٣٤، العدد ١ ص ٢٥ - ١٢٦.

(٩٧) وهذا ما تشير إليه رواية قرطبة، فلم يترجمتها من العربية إلى العجمية أحد الموريسكيين في القرن الثاني عشر، انظر: نصوص عجمية، نشرها خيل وويبراً وساستيث، ص ٩٩ - ١٠٥.

(٩٨) ابن حزم، طوق الحمامة ٣٥، وترجمة نيكل ٤٣، وطبعة برشييه ٧٨ - ٨١.

(٩٩) من الخفيف، القلاند ١٧٠، ع ٦٧٥٨.

(١٠٠) الذخيرة، ق ١، المجلد الثاني، ص ٢٠١ طبعة القاهر.

(١٠١) القلاند ٣٠١ و ٣٠٥، وابن خلدون، المقدمة، طبعة كاترمير ٣٩٣، وترجمة دي سلان ٤٢٦/٣. وقد آف أيضاً عالم من سرقسطة يدعى الحمار كتاباً عن الموسيقى. انظر: صاعد الأندلسي لمحات الأمم، طبعة شيخو ٦٨، وترجمة بلاشير ١٢٩.

قصائد أبدعت قصدا لتغني^(١٠٢)؟ وكان كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني مناط التقليد في إسبانيا^(١٠٣). ولكن هذه المؤلفات ضاعت، وإذا أردنا الحصول على بعض المعلومات الحية عن الموسيقى في القرن الحادي عشر فعلينا أن نلجأ إلى الشعر.

يعدنا الشعر ببعض المعلومات عن الآلات الموسيقية المستخدمة، وبكل وضوح كان العود أكثرها استخداما، وكان الرشيد بن المعتمد يفضل العزف عليه دون غيره^(١٠٤)، وأرسل المعتمد أبياتا من الشعر إلى صديق له يطلب منه عودا، إذ كان يعتقد أن أحسقا وحدها هي القدرة على إيقاظ الندامى وقد أنامهم الشراب^(١٠٥)، وأبو عامر بن يتق يرجو هنذا جارية أبي محمد عبد الله بن مسلمة الشاطبي أن تحيى ومعها عودها:

يا هنْدُ هلْ لكِ في زيارَةِ فتيةٍ نبوا المحارمَ غيرَ شُرْبِ السِّلْسِلِ
سمعوا البلبالِ قد شدَّوا فتذكروا نغماتِ عودِكَ في الثَّقيلِ الأوَّلِ^(١٠٦)

وكانت أوتار العود تستأثر بالاهتمام الأكبر، ومن المعروف أن العود البدائي كان له أربعة أوتار: الزير والمثنى والمثلث والبهيم، وكان زرياب هو الذى أضاب إليه وترا خامسا، ولكن اسمه غير معروف لنا^(١٠٧). يقول أبو محمد بن السَّيد البطليوسى:

كَأَنَّ المِثاقِيَّ والمِثالِثَ هَيَّجَتْ سُرورى ولم أسمع غناءً ولا ضرباً^(١٠٨)
ويأسى ابن عمار على الوشايات اتى أساءت إليه عند سيده المعتمد، ويكتب:

ولكنَّ ظنَّونَ ساعدتها نمائمٌ كي ساعدتْ صوتَ المِثاقِيَّ المِثالِثُ

ألا يمكن أن نعتبر أنفسنا مسموحا لنا أن نعتقد في ضياء هذه الأشعار بأن الانسجام، أو على الأقل التقابل بين الرابع والخامس، كان معروفا لدى الأندلسيين؟. ولكن نادرا ما يذكر الشعراء المزهري. يقول المعتمد:

وإذا تَغَنَّتْ هذه في مِزْهِرٍ لم تألُ تلكَ على التريك غناءً^(١١٠)

(١٠٢) دائرة المعارف الإسلامية ٨٤٩/٣ - ٨٥١، وكتب المادة ابن شنب، وهي عن الموشحات، وابن خلدون، المقدمة، طبعة كانرمير ٣٩٠/٣ - ٤٣٤، وترجمة دى سلان ٤٣٢/٣.

(١٠٣) انظر فيها سبق ص ٣٦ من هذا الكتاب.

(١٠٤) الحلة، ٦٨/٢، وبنو عباد ٧١/٢.

(١٠٥) خريدة القصر، في «بنو عباد» ٣٩٤/١ - ٤١٣.

(١٠٦) من الكامل، نفع ٢٩٣/٤، وفون شاك، ترجمة باليرا، شعر أعرب وفهم ١٤٤/١، وحول أنواع الموسيقى المختلفة انظر فيها سياتى ص ٣٣٤ من هذا الكتاب.

(١٠٧) نفع ١٢٦/٣، ودجيا، مقدمة الطبعة الأوربية، ٧١/١، وخوارزمي، مفتاح العلوم ١٣٧.

(١٠٨) من الطويل، القلائد ١٩٥، وهي صدى للمتنبي يصف شعب بوان، البيت ٣٤، الديوان، طبعة البرقوقى ٤٨٩/٢.

(١٠٩) من الطويل، الحلة ١٤٣/٢، في «بنو عباد» ١٠١/٢. ويوجد تعبير «المثاق والمثلث» في النثر بكثرة، انظر: القلائد ٦ و

١٨٤، ونفع ٦٤٠/١، و ٦٢٤/١ طبع أوربا، ونادرا تعبير «المثلث والأزور»، انظر: الذخيرة ١٤/١، وعنها في «بنو عباد» ٤١/٣.

وكما هو معروف فإن كلمة «مثنى» تعنى أيضا آيات سورة الفاتحة السبع، وهي السورة الأولى من القرآن، انظر: ابن خلدون، المقدمة،

طبعة كانرمير ٣٢٣/٣، وترجمة دى سلان ٣٦١/٣، والقرآن الكريم، سورة الحجر، الآية ٨٧، وسورة الزمر، الآية ٢٣.

(١١٠) انظر فيها سبق ص ٣١٣ من هذا الكتاب.

ويشير أبو مروان بن رزين إلى المزمار حين ردّ على أبي جعفر بن سعدون. يقول:
إذا قلتَ لم ينطق فصيحٌ مدرّبٌ ولا ساغ في سَمْعٍ غناءٌ ولا زمر^(١١١)

ولكنهم لا يذكرون من آلات القرقع ولا واحدة^(١١٢)، فقد كانوا بعامّة يعتبرون الطبل فنا متدنّيا، يصلح لتسلية العامة في تجمعات الأسواق الصاخبة، ومن ثم نستطيع أن نفهم لماذا غضب ولد على ابنه حين عرف أنه تزوج على غير رغبة منه بامرأة لا تليق بحاله، وصار يضرب معها بالدف عُلانية، فكتب إليه أبوه:

أما كفضاك الزنا ارتكاباً وشربُ مشمولِ الحميّا
حتى ضربتَ الدفوفَ جهراً وقلتَ للشرِّ جئُ إليّا^(١١٣)

يتيح لنا الشعر إذن أن نؤكد أن الموسيقى التي أحبها الأندلسيون كانت حضرية في جوهرها، لا تستخدم آلات الضرب، لأنها تعبر هذه بالغة الصخب^(١١٤). ولابد أن البربر صهاجيين وزناتيين هم الذين أحضروا الطبل معهم، وبقي وفقا على القرقع، ولم يدخل المدن إلا لتسلية العامة^(١١٥)، وأصبح ذلك مؤكدا منذ مطلع القرن الثاني عشر بفقرات من ديوان ابن قزمان، حيث يتحدث الشاعر عن النقرة، وهي نوع من الطبل، وكدف، وهو طبل صغير والشيز والبندير والزميز والطبل^(١١٦).



رأينا فيما سبق أن ابن ينق يتحدّث عن الثقيل الأول اسى تؤديه هند في فتنة بالغة، وهذه الطريقة

(١١١) من الطويل، القلائد ٥٣، وأعمال الأعلام ٢٠٧، وانظر أيضا في سبق ص ٣١٢ من هذا الكتاب. وقد حذ على ملوك الطوائف حب سماع الزمر. وكان محمد بن هشام بن عبد الجبار من أواخر خمسين يستعمل طبقا لرواية ابن عذاري مؤلف البيان المغرب، مئة خابية من الحمر، ومئة يوق للرمل، ومئة عود للضرب. انظر: ايجان ٨٠/٣، وتاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٢ ص ٢٩١. ولا نعرف اسم الشبابة التي من قصبتين (ويسمىها الإغريق aulos) والتي توجد مرسومة على علبه العاج في غنبلونة، والتي نراها مرة أخرى في المشهد رقم ١٠٤٧. انظر: ميننديث بيدال، شعر الجوالين، ص ٣١٥.

(١١٢) يتحدث ابن حمديس في إحدى قصائده عن راقصة تدق بيدها على الطار، ولكننا على التأكيد بصدد راقصة مغربية. انظر: الديوان، القطعة رقم ١١٠، البيت ٢٧١، وانظر فيما سيأتي من هذا لكتاب ص ٣٤١ رقم ١٥٣.

(١١٣) من البسيط، نفع ٧١/٤.

(١١٤) هناك نص نثرى في حداثق الأفرح للشرواني، يشير إلى أن راحة مشرقيا وصل مالقة عام ٤٠٦ = ١٠١٥، لم يستطع أن ينال رغم تبعه للضجيج الذي يحدثه العود والكنبور والمعزف والمزمار، طبعة اساهرة ص ١٤٢. وانظر: خوليان ريبيرا، موسيقا Las Cantigas ص ٦١، والموسيقا العربية ١٣٩.

(١١٥) الشقندي في رسالته فضل الأندلس، في نفع ٢١٣/٣، قدم لنا قائمة بالآلات الموسيقية التي كانت مستخدمة في إسبانيا في القرن الثاني عشر، ولا نجد فيها غير آلات الأوتار والنفخ، وفيما يرى المؤرخ فإن آلات الضرب خاصة بالأفريقيين. وحول هذا النص من رسالة الشقندي، انظر: غربية غمّ، ترجمة هذه الرسالة ص ٩٠. وانظر بخاصة الأب أنستاس الكرملي، في المقتبس ٤٣٥/١، ونقل المقال كرد على في مجلة المجمع العربي في دمشق عام ١٩٢٢، ص ٢٢٥، رقم ١. وانظر له أيضا: غابر الأندلس وحاضرها ص ٩٢ - ٩٣، وغرائب الغرب ١٢٠/٢. وانظر أيضا: ابن خلدون، المقدمة، طبعة كاترمير ٣٥٣/٢ و ٣٦٠، وترجمة دى سنان ٤١١/٢ و ٤٢٠.

(١١٦) الديوان، القطعة ١٢، الدور ١، والقطعة ١٤٧، الدور ٥.

التي لا نعرف عنها شيئا^(١١٧) لابد أن يكون قد حملها إلى إسبانيا زرياب وآخرون كثيرون مثله. وكان الغناء المدني (نسبة إلى المدينة) يحظى بين الأندلسيين بإقبال كبير. يقول المعتمد:

أَتَيْتُكَ أُمُّ الْحَسَنِ تَشْدُو بِصَوْتِ حَسَنِ
تَمُدُّ فِي أَلْحَانِهَا مَدُّ الْغِنَاءِ الْمَدَنِ^(١١٨)

يمكن الظن أن الغناء على شرف المدينة كان يتميز بتعاقب النغمات السريع في المقطع الواحد، وهو ما يذكرنا بهديل البلابل، ولكنه يسمى أيضا بالغناء المحجازي^(١١٩)، نسبة إلى الحجاز حيث توجد الأماكن الإسلامية المقدسة، ونعرف أن الأربعة المغنيين الكبار في المدينة هم: معبد وابن السُرَّيج وابن مُحَرَّز والغريض^(١٢٠). وتكثر الإشارات إلى الغريض ومعبد، يقول حسام الدولة بن رزبن:

وَعَنَّتْ بِهِ وُورُقُ الْحَمَائِمِ حَوْلَنَا غِنَاءُ يُنْسِنَا الْغَرِيضَ وَمَعْبَدًا^(١٢١)

وحفظ لنا التاريخ أسماء بعض الفنانين الذين برعوا في بلاطات ملوك الطوائف، ولكنهم أبعد من أن يقتربوا من الشهرة التي نالها زرياب في القرن التاسع. فكان الصقلِي في بلاط المعتمد^(١٢٢)، واستقدم المتوكل أمير بطلبوس أبا يوسف، ووصل في يوم مطير^(١٢٣)، وخلال حفلات العذار التي أقامها المأمون أمير طليطلة اضطلع اليهودي دافى بإيهاج المدعوين مع فرقته^(١٢٤)، وفي بلاط العلي بالله أمير مالقة كانوا يستمتعون بأغاني الحمامي وابنه محمد^(١٢٥). ويذكر ابن بسام موسيقيا أصله من المهديّة في أفريقية يدعى عتيقا المغني، ولكننا لا نعرف أي بلاط بين ملوك الطوائف احتفى به أو عاش فيه^(١٢٦). رثمة فقرة في الذخيرة تتصل بعركة قنتيش تسمح لنا أن نعتقد أنه كانت في قرطبة فرقة من

(١١٧) حول الإيقاع والأنغام في الموسيقى العربية القديمة انظر: بيرسيغال، نوادر الأخبار عن كبار الموسيقين العرب، في المجلة الأسبوعية، عام ١٨٧٣، السلسلة ٧، المجلد ٢، ص ٥٩٠، والموازيم، مفتاح العلوم ص ١٤٠، والمسعودي، مروج الذهب ١٠٠/٨ وما بعده، وخوليان ريبيرا، موسيقا Las Cantigas ٤٣ - ٤٦، والموسيقا العربية ١٢٢ - ١٢٣.

(١١٨) من الرجز، الذخيرة ٣٠/٢، وبنو عباد ٢٤٦/١ - ٢٦٩، وانظر فيما سبق ص ٢٢١ من هذا الكتاب.

(١١٩) القلائد ١٧٥: أبو القاسم بن السقاط أرسل دعوة يقول فيها: لسماع الغناء المحجازي، وهذه الطريقة لا تزال حية حتى اليوم في المغرب ومصر.

(١٢٠) فارم، دائرة المعارف الإسلامية ١٢٤٠/٤ و ٤٤٧/٢ و ٦٤/٣، وتكملتها ٨٦. يقول يزيد الثاني ابن عبد الملك لمعبد: «أجد في أغانيك بعض المثانة والقوة اللتين لا توجدان في أغاني ابن سريج الذي ظهرت أغانيه أكثر انحنا ولبنا»، انظر: الأغاني، في المجلة الأسبوعية، عام ١٨٧٣، ط ٧ ج ٢ ص ٤٨٧ من الأغاني.

(١٢١) من الطويل، الحلة ١١١/٢، القلائد ٥٣، نفح ٦٦٩/١.

(١٢٢) الحلة ٥٤/٢، وبنو عباد ٦٢/٢، وتاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ٨١، ويسميه المقرئ في نفح الطبيب ٩٦/٤، السوسي (من مدينة سوسة في فارس أو من السوس منطقة في المغرب).

(١٢٣) القلائد ٤٣، ونفح ٦٦٣/١، والحلة ١٠٦/٢، والذخيرة ٩١٧/١.

(١٢٤) الذخيرة ١٣٦/٤، وتذكر أن الموسيقى الذي كان مكلفا باستقبال زرياب عند وصوله إلى الجزيرة الخضراء كان موسيقيا يهوديا يدعى منصور اليهودي. انظر: نفح ١٢٤/٣، وتاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ١ ص ٣٦١.

(١٢٥) الذخيرة ٨٦٣/١.

(١٢٦) الذخيرة ٨٥٩/١.

الطنبورين على رأسها قنبوط الملهى وزربوط المغنى، وكلاهما قتل في المعركة، وأقام أصحابها عليها مأتما مشهودا بعد الحادثة^(١٢٧).



ومن الضروري أن نوضح أن الأندلسيين كانوا حتى القرن العاشر يستقدمون الفنان، مغنين وموسيقين، من المشرق، وبخاصة من المدينة وبغداد^(١٢٨)، ولكن ابتداء من القرن الحادى حتر سوف يتم تكوين الفنانين والفنانات فى إسبانية، وأحيانا فى شمال أفريقيا، وقد تلقى المعتمد مغنية بربرية هدية من يوسف بن تاشفين، وكانت نهايتها مأسوية كما ذكرنا^(١٢٩)، وحين تذكر الأمير نفسه لحظاته السعيدة فى شلب أنشد:

وليلٍ بسدِّ النهرِ هو قطعتهُ بذات سوارٍ مثل منعطفِ النهرِ
نضتْ بُردَهَا عن غصنٍ إنْ مُنعمٍ نضيرٍ كما انشقَّ الكِمامُ عن الزهرِ
وباتتْ تسقى المدام بحظها فمن كأسها حيناً، وحيناً من النفرِ
وتطربنى أوتارها، وكأننى سمعتُ بأوتار الطلى نغمَ البئرِ^(١٣٠)

وهؤلاء المغنيات البيض رفيفات لأنس والمتعة، هن أسيرات مسيحيات، ظل المعتمد يتذكرهن حتى وهو أسير فى أغمات، يقول:

من بعد كلِّ عزيمة رومية تُخرى الحمايم فى ذرى الأغصانِ^(١٣١)

وفى قرطبة حيث يوجد نوع من أكاديميات الموسيقى، كانت تُقدم للجوارى الموسيقيات والمغنيات الدروس الأكثر صفلا وانتقاء، والمعارف الموسيقية الأشد تنوعا ورقيا، واشتهر ابن الكنفانى، وهو طبيب ثرثار، فى القرن الحادى عشر بتلميذته اللاتى كان يحسن إعدادهن، ويبيعهن بأثمان غالية يُبالغ فيها، والصفحة التى يروى فيها بنغمة متعلية. وثرثرة تنضح ادعاء، كيف يعدهن ليصبحن نجمات تستحق أن نأتى عليها كاملة:

«.. فأنا منيه الحجارة، فضلا عن هل القدامة والجهالة، واعتبر ذلك بأن فى ملكى الآن أرفع روميات كن بالأمس جاهلات، وهن الآن عادت حكيما منطقيات فلسفيات هندسيات موسيقاويات، أسطرلابيات معدلات نجوميات نحريات عروضيات أدبيات خطاطيات. تدل على ذلك لمن جهلهن الدواوين الكبار التى ظهرت بخطوهم فى معانى القرآن وغريبه وغير ذلك من فنونه، وعموم العرب

(١٢٧) الذخيرة ٤٤/١.

(١٢٨) مثلا: فى عصر عبد الرحمن الثانى المتون ٢٣٨ = ٨٥٢، جاءت فضل وعلم من المدينة، وقر، وسبق أن تحدثنا عنها ص ٤٥ فى هذا الكتاب من بغداد، وكانت حال قمر مثيرة للغاية، فهى من الباسك فى شمال شرقى إسبانيا، وقعت لسيرة، وحملت شابة إلى ألبنة لتتعلم فى فن الموسيقى والغناء والرصص، ثم عادت إلى إسبانيا وهى فى أوج اكتمالها ونضجها فنانة. انظر: نفح ١٤٠/٣. وبنات زرباب وتلميذاته أصلهن بن عداد، انظر: نفح ١٢٢/٣ وما بعدها.

(١٢٩) انظر فيما سبق ص ٢٠ من هذا الكتاب.

(١٣٠) من الطويل، الديوان ص ١٢، والقلائد ٥ - ٦، وبنو عباد ٣٩/١ وترجمتها ٨٤، وانظر أيضا الأبيات نونية لقافية، ومن بحر الكاس، فى القلائد ٢٦، وبنو عباد ٦٥٨/٤، ونفح ٢١٩/٤، وص ١٣٤ و ٣١٧ وفيما سبق من هذا الكتاب.

(١٣١) من الكامل، الذخيرة ٧٤/٢، صو سباد ٣١٨/١ و ٣٦٣.

من الأنواء والأعاريض والأنحاء، وكتب المنطق والهندسة وسائر أنواع الفلسفة، وهن يتعاطين إعراب كل ما ينسخه ويضبطه فيها لمعانيه ولكثرة تكرارهن فيه، وفي هذا أعظم الشهود أنى واحد عصري ونسيج وحدي، وأنى أفنيت الزمان تجربة، والدهر تبصرة، فاعرف - أعزك الله - قدرى، ووفنى قسطى، ولا تطمع أن تظفر بعالم مثلى، أو متفرغ فضولى شبيهى، ولو طفت الآفاق، ومشيت العراق، من زقاق إلى زقاق»^(١٣٢).

وإحدى المغنيات اللاتى رباهن وباعها إلى هذيل بن رزين أمير السهلة بثلاثة آلاف دينار (ستون ألف فرنك ذهباً) كانت شينا رائعا فيما يقول ابن بسام:

«كانت واحدة القيان في وقتها، لا نظير لها في معناها، لم ير أخف منها روحا، ولا أملح حركة، ولا ألين إشارة، ولا أطيب غناء، ولا أجود كتابة، ولا أملح خطأ، ولا أبرع أدبا، ولا أحضر شاهدا على سائر ما تحسنه وتدعيه، مع السلامة من اللحن فيما تكتبه وتغنيه، إلى الشروع في علم صالح من الطب ينبسط بها القول في المدخل إلى علم الطبيعة وهيئة تشريح الأعضاء الباطنة وغير ذلك مما يقصر عنه كثير من منتحلي الصناعة، إلى حركة بديعة في معالجة صاعة الثقاف^(١٣٣)، والمجاوله بالحجفة والمعب بالسيوف والأسنة والخناجر المرفهة، وغير ذلك من أنواع اللعب المطرية، لم يسمع لها بنظير ولا مثيل ولا عدل. وابتاع إليها كثيرا من المحسنات المشهورات بالتجريد^(١٣٤)، طلبهن بكل جهة، فكانت ستارته في ذلك أرفع سائر الملوك بالأندلس»^(١٣٥).

ويشير ابن بسام في نهاية النص الذى أوردنا إلى أن الموسيقى والمغنيات اللاتى كن في حوزة الشخصية نفسها كن يتجمعن في فرقة حملت اسم «الستارة»، أخذا من كلمة الستارة، وكانت تستخدم كما في المشرق، لسترهن عن نظرات المدعوين^(١٣٦). ويشير المعتضد إلى هذه العادة في البيت التالى الذى يتحدث فيه عن الحمام الذى يعيش في الأشجار:

أوراقها أستارها إذا شدت في فنن^(١٣٧)

(١٣٢) الذخيرة ٣/٣٩١ - ٣٢٠. وعن ابن الكنانى انظر فيما سبق ص ٢٢٩ هامش رقم ٣ من هذا الكتاب، وصاعد الأندلسى، كتاب طبقات الأمم، ترجمة بلاشير ١٤٨.

(١٣٣) انظر: دوزى، تكملة المعاجم العربية، ج ١ مادة «ثقف» وربما يجب أن نقرأها «الشفاف»، أو «شقف»، ويعطىها في المعجم معنى tympanum (أى الطبله) و tejuela (لعبة الرمى).

(١٣٤) أشك أنها يجب أن تقرأ التجويد بمعنى فن قراءة القرآن مضبوطا، كما في النسخ المختلفة، وأرجح التحريد، ويمكن أن يكون معناها «لعبة السيف».

(١٣٥) الذخيرة ٣/١١٢، وفي أخبار ١٨١ - ١٨٢، ويجهول في البيان المغرب ٣/١٨٤، وهامش ص ٣٠٨، وترجمته في تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ٢٣٠، وأعمال الأعلام ٢٠٦، ونفح ٦٩٣/١ طبعة أوربا، وعنفا في: دوزى، تكملة ١/١٨٥.

(١٣٦) في حفلة الإعذار التى أقامها المأمون أمير طليطلة كانت هناك فرقة موسيقية تتألف من النساء، وأخرى تتألف من الرجال، ويطلق ابن حيان على الأولى تعبير «ستارة الغناء»، وعلى النساء «أهل الحجاب»، ويسمى الثانية «نوبة الغنين». انظر: الذخيرة ٤/١٣٥. وكان الرشيد بن المعتد يملك أيضا ستارة: نفح ٤/٩٥، وعنه في «بنو عباد» ٤٠/٢، وابن الأثير، الكامل، ترجمة فنيان، ص ٤٩١. وكان في قصر ابن عباس وزير الصقلي أمير المرية خمس مئة مغنية، كلهن رائعات الجمال. انظر: تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ٢٢، وفيما يتصل بالشرق انظر: آدم متر، الحضارة الإسلامية ص ٣٧٩، وترجمة بيلا إلى الإسبانية ص ٤٧٩.

(١٣٧) من الرجز، الذخيرة ٢/٣٠، وعنفا في «بنو عباد» ١/٢٤٦، ونفح ٤/٢٤٢.

ويعبر ابن عبدون عن الشيء نفسه حين يقول:

والطير في ورق الأشجار شادية كأنهن قيان خلف أستار^(١٣٨)

ولكن عائلة الأمير تستطيع الانسجام إلى الموسيقى والغناء دون أن يكون هناك ستارة تحول بينها وبين أن تتأمل الموسيقى والغيت. يقول النحلي:

ولعبة الوشاح كفمن بان لها أثر بتقطيع القلوب

إذا سوت طريق العود نقرا وغنت في محب أو حبيب

فيمناها تقد بها فؤادي وسراها تعد بها ذنوب^(١٣٩)

وشاعر آخر، أبو بكر محمد ابن نصر الاشبيلي، يقدم لنا معلومات عن ملابس المغنيات والموسيقيات يقول:

وكأنما تلك الرياض عرائس ملبوسهن معصفر ومزغفر

أو كالقيان لبسن مرسى الحلى فلهن في وشى اللباس تبخر^(١٤٠)

ويقدم لنا ابن الزقاق المعلية التالية عن الملابس أيضا:

تشدو ووسواس الحلى يجيها مها اتنتت في وشيها وعقوده^(١٤١)

وقد اتخذ مسيحيو الشمال بعضا من لعادات الاسلامية، من بينها أن تكون لهم فرقة من الموسيقى والمغنيات، ويؤكد ابن الكناني هذا الواقع، والذي تحدثنا عنه عندما أشرنا إلى أكاديميات الموسيقى في قرطبة، ويقص علينا: «شهدت يوما مجلس العلبة (= مسيحية إسبانية) بنت شانجه ملك لبشكنس، زوج الطاغية شانجه بن غرسية - عزذلد - بدد الله شيعتهم - لبعض ترددنا^(١٤٢) عن تخرنا إليه في الفتنة [عام ١١٣٢]، وفي المجلس عدة تينات مسلمات من اللواق وهبهن له سليمان بن الحكم^(١٤٣) - المتقدم ذكره صدر هذا الديوان - أيام إمارته بقرطبة، فأومات العلبة إلى جارية منهن فأخذت العود وغنت بهذه الأبيات:

خليلى ما للريح تأتي كأنما يخالطها عند الهبوب خلوق

أم الريح جاءت من لاد أحبي فأحسبها ريح الحبيب تسوق

سقى الله أرضا حلها الاغيد الذى لتذكاره بين الضلوع حريق

أصار فؤادى فرقتين فعنده فريق وعندى للسياق فريق^(١٤٤)

(١٣٨) من السيط، الذخيرة ٣٠/٢، وبنو عباد ٢٤٦/١، وميندث بيدال، إسبانيا في عصر السيد ٩٠ رقم ٢.

(١٣٩) من الوافر، نفع ٤٤٥/٣.

(١٤٠) من الكامل، نفع ٤٨٤/٣.

(١٤١) من السريع، نفع ٤١٥/٣.

(١٤٢) لا يفهم من هذه الرحلات أنها كانت بسبب ذهابه سفيرا، وإنما - تحت ستار الطب - لكى يتاجر في الأسيرات المسيحيات. انظر فيما سبق ص ٣٣٦ و ٣٣٧ من هذا الكتاب.

(١٤٣) شانجه بن غرسية حكم من عام ٩٩٥ إلى ١٠١٧، وحكم سليمان بن الحكم من ٣٩٩ إلى ٤٠٧ = ١٠٠٨ - ١٠١٦.

انظر: ميندث بيدال، المجلة الإسبانية، جلد ٤٠، عام ١٩٣٨، ص ٣٩٣.

(١٤٤) الأبيات من الطويل.

فأحسنت وجودت وعلى رأس العلجة جاريات من القوامات أسيرات كأنهن فلقات قمر^(١٤٥)،
فما هو إلا أن سمعت إحداهن الشعر فأرسلت عينيها كأنها مزادتان، فرققت لها وقلت: ما أبكاك؟
قالت: هذا الشعر لأبي، وسمعتة فهيج شجوى، فقلت لها: يا أمة الله، ومن أبوك؟ قالت: سليمان بن
مهران السرقسطى، ولى فى هذا الأسار مدة، ولم أسمع لأهلى بعدى خبرا.
قال ابن الكنانى: فما جزعت لشيء جزعى عليها يومئذ^(١٤٦).

وبعد ذلك بما يقرب من خمسين عاما، بعد أن استولى النورمانديون على برىشر عام ٤٥٦ =
١٠٦٤، ذهب تاجر يهودى إلى هذه المدينة ليفتدى إحدى بنات الأسر الشريفة من الأسر، وكانت
الأسرة قد أفلتت من المذبحة، وجاءت عند قسمة الغنائم من نصيب كونت الحامية، ويقص علينا
التاجر:

جئت «برىشر البائسة بعد الحادثة عليها، ملتصقا فدية بنات لبعض وجوه من نجا من أهلها
حصلن فى سهم قومس من وجوه الرابطة فيما كان يعرفه، قال: فهديت إلى منزله الذى كان نزله فيها،
واستأذنت عليه فأجده جالسا مكان رب الدار، مستوليا على فراشه، رافلا فى نفيس ثيابه، والمجلس
والسرير كما تخلفها ربهما يوم محنته، لم يتغير شيء من رياسها وزينتها، ووصائف على رأسه روقة،
مضمومات الشهور، قائمات على رأسه، ساعيات لخدمته، فرحب بى، وسألنى عن قصدى، فعرفته
وجهه، وأشرت له إلى وفور ما أبذله فى بعض اللواتى على رأسه، وفيهن كانت حاجتى...».

لكن الكونت رفض أن يتنازل عن الفتيات اللاتى يخدمنه، وبخاصة ابنة صاحب المنزل، وله حسب
فى قومه، فقد اصطفاها لنفسه لجمالها، واتخذها محظية له ثم قال: «وأزيدك بأن تلك الخود الناعمة -
وأشار إلى جارية أخرى قائمة إلى ناحية - لمغنية السخين العين والدهاء، التى كانت تشدو له على
نشواته، إلى أن أيقظناه من نوماته. يا فلانة - يناديها بلكنته - خوذى عودك فغنى زائرنا بشجوك،
قال: فأخذت العود وقعدت تسويه، وإنى لأتأمل دمعها يقطر على خدها، فتسارق العليج مسحه،
واندفعت تغنى بشعر ما فهمته أنا، فضلا عن العليج، فصار من الغريب أن حث شربه عليه، وأظهر
الطرب منه، فلما قطعت ويشت مما عنده، قمت منطلقا عنه، وارتدت لتجارقى سواه، فاطلعت من كثرة
ما لدى القوم من السبى والمغنم ما طال عجبى منه»^(١٤٧).

إن توهج اللغة العربية، وازدهار الشعر الأندلسى، لا يمكن أن يتضح بأفضل مما فى هذين النصين
اللذين آتيناهما عليها.

والملاحح التى أشرنا إليها فى حياة الكنانى تجعلنا نميل إلى الظن بأن قرطبة بخاصة كانت المكان

(١٤٥) أشار دوزى فى تكملة المعاجم ٤٢٦/٢ إلى هذه الجملة الأخيرة.

(١٤٦) الذخيرة ٣/٣١٨، وينقل ابن بسام هذه الرواية عن أبى محمد بن حزم، وتوجد أبيات الشعر فى: الضبى، البغية، ترجمة

رقم ٧٧٣، ص ٢٨٦ - ٢٨٧.

(١٤٧) الذخيرة ٣/١٨٧ - ١٨٨، ونفع ٤/٤٥١، وترجمة دوزى لها فى أبحاث، ط ٣ ج ٢ ص ٣٤٥ - ٣٤٨، ونعرف أن هذا

المشهد أعطى موريس مابريس مادة لموضوعه: «مسلمة شجاعة»، فى كراسات، المجلد ٤، عام ١٩٠٤ - ١٩٠٦. وانظر أيضا: ريبيرا،

موسيقا Las Cantigas ص ٦٠ - ٦١، وبيننديت بيدال، الشعراء الحوالون وشعرهم ١٣٦ - ١٣٧.

المهياً لتربية الجوارى المخصصات لتكوين جانب من «الستارة»، أو الفريق الموسيقى الذى يعمل عند الشخصيات الأندلسية، وثمة حدث يكشف بطريقته عن التنافس الذى كان قائماً بين بنى القنطس وبنى عباد، ويلقى فى الوقت نفسه ضوءاً قريباً على نفسية العواهل الأندلسيين، ويؤكد الشهر، التى كانت تتمتع بها المغنيات القرطبيات فى القرن الحادى عشر. ذلك أن المعتضد عندما علم بموت بن الرميمى الوزير القرطبى بعث رسولاً يشترى له جارية الوزير، وكانت شهرتها قد طبقت الآفاق، وأراد المظفر أمير بطليوس، وكان سوء الحظ من نصيبه فى حملاته ضد المعتضد، أن يظهر أن هذه النكسات لا تؤثر فيه، وليقلد خصمه، فبعث بدوره أيضاً رسولاً إلى قرطبة لى يحصل له على موسيقيات ومغنيات، ولكنه لم يجد غير «صبيتين ملهيتين عند بعض التجار لا طائل فيها، فاشتراها له، وأقام رسوله يلتمس الخروج بهما فلم يستطع، لقطع حيل المعتضد جميع الطرق، فأقام مدة بقرطبة» إلى أن أرسل له المظفر خيلاً كثيفة، لى يستطيع الوصول إلى بطليوس^(١٤٨).

وثمة رواية أخرى تسمح لنا أن نؤكد بأن قرطبة كانت تحتكر الجوارى المغنيات، فقد تلقى أبو الوليد بن جهور أمير المدينة ثلاث رسائل فى يوم واحد، فيما يقول، واحدة من ابن صمادح صاحب المرية يطلب جارية عوادة، ولثانية من ابن عباد يطلب جارية زامرة، والثالثة من سواجات صاحب مدينة سبتة يطلب قارئاً يقرأ القرآن، فوجه إليه من طلبة قرطبة رجلاً يعرف بعون الله بن نوح، وعجب أبو الوليد من ذلك وقال: «جاهل يطلب قارئاً، وعلاء يطلبون الأبطال»^(١٤٩).

والنتيجة التى نستخرجها مما سبق، أنه على النقيض مما كنا نعتقد حتى وقتنا هذا، لم يكن إشبيلية هى التى تحتكر المتعة والموسيقى فى قرن الحادى عشر، وإنما قرطبة. ودون شك فإن مصدر هذه الأسطورة أن عاصمة بنى عباد أظهرت ملها إلى اللذائذ علانية، على حين أن قرطبة المنتهدة فى أمور الدين عرفت كيف تفجر دون أن يكون ذلك علانية وفى وضوح النهار. ومع ذلك، فإن قرطبة تشددت فى ميلها إلى الطهر فى القرن الثانى عشر، ولم تعد تستر بقتاع شفاف من النفاق، على حين واصلت إشبيلية حياة الفراغ والبطالة والبهجة الاصاحبة، يومها فقط نستطيع أن نعترف بصدق الفكرة التى وجهها ابن رشد إلى ابن زهر: «إذ ملعت عالم بإشبيلية فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها وإذا مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آتته حملت إلى إشبيلية»^(١٥٠) وهكذا أصبحت إشبيلية الوحيدة التى يمكن أن يطلق عليها «مدينة الادب واللهو والطرب»^(١٥١).

لم يكن فى إسبانيا، على ما يبدو، نساء أو رجال يحترفون الرقص فحسب، والراقصات كنّ فى الوقت نفسه مغنيات وموسيقيات، ورأينا ونحن نتحدث عن ابن الكنفانى مدى العناية بتربية التى تتلقاها التلميذات فى المعاهد الموسيقية، وكانت قرطبة تحتكرها. وراقصات أبدة اللانئ أشار الشقندى

(١٤٨) الذخيرة ٣٦/٢، وعنها فى «بنو عباد» ٢٤٩/١، والبيان المغرب ٢١٢/٣.

(١٤٩) البيان المغرب ٢٥٠/٣.

(١٥٠) نفح ١٥٥/١ و ٤٦٣، وفون شاك ترجمة البيرا، شعر العرب وفهم ٦٦/١. وإرنست رينان، ابن رشد وشدية ١٢/٢. وليفى بروفنسال، إسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر ٢٣٤، ودجا مقدمة طبعة نفح الطيب الأوربية ٤٠/١، وكاترسر، مذكرة عن حب الكتب عند المشاركة، ص ٧١ - ٧٢.

(١٥١) نفح ٢٠٨/١.

إلى شهرتهن في القرن الثاني عشر لأنهن يتمتعن «بحسن الانطباع والصنعة، فإنهن أخذن خلق الله تعالى باللعب بالسيوف والدك، وإخراج القروي والمرايط والمتوجه»^(١٥٢)، لم يكن موجودات في القرن الحادي عشر فيما يبدو، والروعة التي حققها ابن الكناني في قرطبة على نفس المستوى من المهارة والكفاءة، ولكن ذلك كله كان في الغناء والموسيقا بخاصة.

لا نعرف بالدقة طبيعة الحركات التي كانت تقوم بها هؤلاء الفنانات، وهل كانت تتم في المناديل والسيوف أم بدونها، ويسمح لنا الشعر بأن نظن، كما في حالات أخرى كثيرة، بأنهن كن يتثنين إلى الخلف، دون شك^(١٥٣) لكي يتظاهرن بإغواء غرامية، يقول ابن الرزاق:

وَهَوَيْتُهَا سَمَاءً غَنَّتْ وَانْتَنَتْ فَنَظَرْتُ مِنْ رِقَاءٍ فِي أُمْلُودِهَا
تَشْدُو وَوَسْوَاسُ الْحَلِيِّ يَجِيبُهَا مَهْمَا انْتَنَتْ فِي وَشِيهَا وَعَقُودِهَا
أَوْ لَيْسَ مِنْ بَدْعِ الزَّمَانِ حَمَامَةٌ غَنَّتْ فَغَنِّي طَوْقُهَا فِي جِيدِهَا^(١٥٤)

وعندما يصف حسام الدولة ابن رزين حديقة يقول:

إِذَا صَافَحَتْهُ الرِّيحُ خَلَّتْ غَصُونَهُ رَوَاقِصٌ فِي خُضْرٍ مِنَ الْعُصْبِ مِيدًا^(١٥٥)

وثمة فقرة في مقدمة ابن خلدون^(١٥٦) نفهم منها أن الراقصات كن يعلفن الكُرَج^(١٥٧) في ملابسهن، وتحمل سم «قبا» لتمثيل الفرسان الذين يسارعون إلى الهجوم، ويقاتلون في التفهقر، ثم يعودون إلى المعركة من جديد، وهذا القبا يجب أن يكون، في ضوء أوصاف الشعراء، ملابس في شكل عباءات، يمكن أن تفتح تماما من أعلى إلى أسفل، فتسمح للراقصة بأن تظهر فجأة عارية، مثل «زهرة توشك أن تتفتح» كما يقول المعتمد^(١٥٨).

(١٥٢) الشقندي، رسالة فضل الأندلس، في مج ٢١٧/٣، وترجمة غريسة غومت ها ١٠٧، وريبير، موسيقا Las Cantigas ٦١. وخير تفسير لهذه الفقرة الصعبة هو، فيما يبدو لنا، ما قدمه الأب أنستاس الكرملي، في المقتبس ٤٣٥/١، ونقله كرد على في مجلة المجمع العلمي في دمشق، المجلد ٢، عام ١٩٢٢، ص ٢٢٥، رقم ١، والإسلام والحضارة العربية ٢٣٧/١ رقم ١، وغرائب الغرب ١٧٠/٢ رقم ١.

(١٥٣) يقول ابن حمديس عن راقصة رآها في شمال أفريقيا على التأكيد:

وَرَاقِصَةٌ لَقَطَتْ رِجْلَهَا حَسَابًا يَدِ نَقَرَتْ طَارَهَا

انظر: الديوان، القطعة رقم ١١٠، البيت ٢٧، ص ١٥٥، وانظر فيما سبق ص ٣٣٤ رقم ١١٢ من هذا الكتاب.

(١٥٤) من السريع، نفج ٤١٥/٣.

(١٥٥) من الطويل، القلائد ٥٣، وعنها في «بنو عباد» ٤٤٤/١، والحلة ١١١/٢.

(١٥٦) طبعة كاتزمر ٣٦١/٢، وترجمة دي سلان ٤٢١/٢.

(١٥٧) حول هذه الأشياء انظر فيما سبق ص ٣٠٥ من هذا الكتاب، ودوزي، تكملة المعاجم العربية ٤٥٣/٢.

(١٥٨) القلائد ٦، وعنها في «بنو عباد» ٣٩/١، وتاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ٩١. وانظر ص ٣٥٤ فيما سيأتي من هذا الكتاب. وسوف يصف ابن نزار في القرن الثاني عشر تمثال راقصة يحيط بها رذاذ الماء بأنها مثل خباء، على النحو التالي:

رَأَيْتُ خِبَاءَ الْمَاءِ تَرْسُلُ مَاءَهَا فَنَازَعَهَا هَبُ الرِّيَّاحِ رَدَاءَهَا
تَطَاوَعَهُ طَوْرًا وَتَعَصَّيْهِ تَارَةً كَرَاقِصَةٌ حَلَّتْ وَضَمَّتْ قِبَاءَهَا

من الطويل، نفج ٤٩٧/٣.

وينضمن كتاب الأغاني (طبعة بولاق ٢٤/٧) الفقرة التالية: «خرج أهل البصرة يستسقون وخرج فيهم السيد [الحميري] وعليه

نياب خزوجة ومطرف وعمامة».

وفيهما يتصل بألوان ملابس الراقصات يبدو أن اللون الأحمر كان المفضل عندهن، أو كما يقول ابن عمار: الجمال يجب أن يرتدى ملابس حمراء^(١٥٩). ويذكر ابن عذارى وهو يتحدث عن عبد الرحمن شنجول هذه الفقرة المثيرة: «فافتتح شنجول أمره بالخلاعة والمجانة، فكان يخرج من منية إلى منية، ومن منتزه إلى منتزه، مع أخيه^(١٦٠) والمغنين والمضحكين، مجاهرا بالفتك وشرب الخمر»^(١٦١). ويحدثنا المؤرخ نفسه عن أحد أواخر الأمويين، محمد بن هشام بن عبد الجبار، أنه «بعث إلى نساء كان يصاحبهن، منهن جارية أبي القاسم المصري الخيالي التي يقال لها بستان، وامرأة ابن الشرع التي اسمها واجد»^(١٦٢).

ولقب المصري بقودنا إلى أصل هؤلاء الخياليين، وقد وجدنا واحدا منهم فلكيا، مصري الأصل، إلى جانب المعتمد، وكانت لمصر علاقات وسدلات فنية مع الغرب الإسلامي^(١٦٣)، وظلت أرض الفراعنة في نظر هذا الغرب أرض السحر والرق.

يا للروعة إذن، فالذين يمارسون ألعاب اليدوية هم في الجانب الأكبر منهم مصريون. وكانوا موضع التقدير العظيم سواء في إشبيلية أو قرطبة أم المرية، والمقطوعة الشعرية الأكثر إثارة، وغلكها عن هؤلاء المشعوذين، هي من نظم ابن حديد شاعر المعتصم أمير المرية. وسنرى أن تسليية الأمير لم تكن تقتصر على سماع إنشاد الشعر فحسب:

وأسمعنا لاحنا فنا	وأحضرنا لاعبًا ساحرًا
يُرقن فوق رؤوس القندى ^(١٦٤)	فتنظر ما يذهل الناظرًا
ويخطفها ذيل سرباله	فتبصر طالعها غائرا
فظاهرها ينثنى بصرنا	وباطنها ينثنى ظاهرا ^(١٦٥)
وثناه ثان لألعابه	دقائق تنثنى الحجبى حائرا
وفي نيم الراح من سحره	خواطر وهت الخاطر
إذا ورد اللحظ أثنائها	فما الوهم عن ودها صادرا
ومن يدع نعامك إبلعه	فما انفك عارضها ماطرا
وسرؤك يجتذب المغريات	ويجعل غائبها حاضرا ^(١٦٦)

= وقد وصف جورج مارسيه القباء على النحو التالي «عباءة عربية وفارسية، تحيط بالقامة، ولكنها تكون نطاقا حول الفخذين» انظر: ملابس مسلمى الجزائر ص ٤٦.

(١٥٩) نظر فيما سبق ص ٢٨٦ من هذا الكتاب.

(١٦٠) شك في أن هذه الكلمة نسبة إلى «خيال» بمعنى خيال الظل الصبغى.

(١٦١) لبيان المغرب ٣/٣٩.

(١٦٢) لبيان المغرب ٣/٨٠.

(١٦٣) حول هذا الموضوع انظر: ج. مارسيه، لتبادل الفنى بين مصر والغرب الإسلامى، في مجلة هيسبيريس، المجلد ١٩، العدد ١ - ٢، عام ١٩٣٤، ص ٩٧.

(١٦٤) قرأناها «قناني» كما في الذخيرة، وليس بيان (مغنيات) كما في نفح الطيب.

(١٦٥) م أفهم معنى هذا البيت.

(١٦٦) من التقارب، الذخيرة ١/٧٢٢، وعنها في بن ظافر، بدائع البداية ٣٦٥، ونفح ٣/٢٦٣، وأحمد ضيف، بلانة العرب في

الأندلس، ص ١٨٨.

هذا المشعوذ، كما يشهد ابن بسام في مقدمته للأبيات السابقة، مصرى أيضا، ولحظنا في البيت الثالث أنه يخفى زجاجات، ووصف لنا ابن يقي مشعوزين آخرين يقومون بالخدعة نفسها:

بأبي قضيبُ البانِ يثنيه الصُّبا عَوْضَ الصُّبا في الروضة الغناء
 نادمته سحرًا فامتّع مسمعى بترنم كترنم الورقاء
 وكأنا أكمّاه في رقصه تتعلّم الخفقان من أحشائي
 ويمرّ يلتقط الزجاجَ بذيله مرّ النسيم على حبابِ الماء^(١٦٧)

وهكذا فإن إسبانيا الإسلامية إذا كانت تدين للمشرق بشيء فيما يتصل بالخياليين والمشعوزين فإنما تدين به لمصر وحدها، وكل شيء أصيل فيها يتصل بالموسيقا والغناء والرقص، وأما المدينة وبغداد فقد فقدتا في نظرهما كل هيبتهما، ولقد بهت زرياب في الذاكرة، وربما نسوه تماما، وقاوموا موسيقا المغرب، وحاولت أن تفرض آلات القرع، وهي جد صاخبة بالنسبة لذوقهم. وكانوا في هذا المجال لايزالون، فيما يبدو، يخضعون لاتجاهاتهم الذاتية الوطنية، وتدرجيا أصبحت موسيقاهم شخصية، وتشكلت بخصائصهم الذاتية، طبقا لمذاقهم الخاص، ومع هدم الجسور بينهم وبين بغداد تطورت موسيقاهم مستقلة، ثم اغتننت بأشكال جديدة أكثر نعومة وأشد حيوية عن ذي قبل، وأفسحت مع الزمن مكانا أوسع للإلهام الشعبي عندما التقطت الترانيم والأغاني الإسبانية الخالصة: الموشح والزجل. ومن الحق أن الموسيقا الأندلسية في القرن الحادى عشر أخذت تقاسيمها التى حافظت عليها فيما بعد، وأشاعتها بدورها بين المسيحيين الإسبان، وصدرتها إلى المغرب وتونس، واحتفظت حتى يومنا هذا باسمها المميز: الغناء الأندلسى أو كلام غرناطة.

(١٦٧) من الكامل، القلاند ٢٨١. ويشير ابن قزمان إلى الأكماء العريضة، التى تلفها الراقصة بمصاحبة الدف. انظر: الديوان، القطعة ١٤٧، الدور ٥. والرقص بالأكماء يتم في مصر أيضا. انظر: مرسيه، صورة الإنسان والحيوان، ص ٢٥٨.

البَابُ الرَّابِعُ

الحياة الداخلية

○ الفصل الأول:

المرأة والحب

تختل المرأة والحب في كل الموضوعات التي حللناها مكانا راجعا، ونجد المرأة في وصف الطبيعة مرتبطة ارتباطا وثيقا بكل ما يضيفى الجمال على الحدائق والمياه الجارية، وزهرة أو جوهرة يمكن أن تقودنا بالضرورة إلى تشبيهها بقم الحبيبة أو خدها أو عينها أو خصالها، وحتى الألوان، وبخاصة الأحمر والأصفر من بينها، تبدو دائما وكأنها تحكم العشاق، ومن يحبون: فالأصفر يرمز للحبيب الشاحب يضئ شكا وطول سهاد، على حين يرمز الأحمر إلى العذراء اللعوب تتلذذ بعذاب حبيبها، واللون الأصفر يشير إلى القلق كما أن الأحمر يعنى الحياء.

وفي هذا المجتمع الذى استطاع الإسلام أن يسمه بطابعه في بعض مظاهره الخارجية، دون أن يشككه بعمق، استطاعت المرأة رغم كل الضواغط الدينية أن تلعب دورا رئيسيا، أوضح مظهره أنها استحوذت على فكر الرجل. وندر بين الأندلسيين من اعتبر المرأة كائننا شريرا ويستطيع أن ينشد مع ابن الخدّاد:

خُنْ عَهْدَهَا مِثْلَ مَا خَانَكَ مُنْتَصِفًا وَإِمْنِجْ هَوَاهَا بَنَسِيَانِ وَسَلْوَانِ
فَالْعَيْدُ كَالرُّوْضِ فِي خُلُقِي وَفِي خُلُقِي إِنْ مَرَجَانِي - أَتَى مِنْ بَعْدِهِ جَانِ^(١)
وأقل ندره، في الشعر على الأقل، أولئك الذين يستنكرون الحرية التى مُنحت للمرأة، وبطالون بأن

(١) من البسيط، نفح ٥٠٥/٣، ودوزى، أبحاث ط ص ١٠١ و ط ٣ ٢٥٣/١، وقيل ابن الخدّاد أنشد يحيى الغزال:

يأراحيا ود الغواني ضلّة	وفؤاده كلف بهنّ موكل
إن النساء لكالسروج حقيقة	فالسرج سرجك ريثما لا تنزل
فلذا نزلت فإن غيرك نازل	ذاك المكان وفاعل ما تفعل
أومنزل الجتاز أصبح غاديا	عنه، وينزل بعده من ينزل
أو كالشمار مباحة أغصانها	تدنو لأول من يمر فيأكل
اعط الشببة لأبالك حقها	منها فإن نعيمها متحول
وإذا سلبت ثيابها لم تنفع	عند النساء بكل ما تستبدل

من الكامل، نفح ٢٥٩/٢، وأورد برون هذه الأبيات في كتابه «نساء عربيات» ونسبها إلى شاعر مجهول، ص ٢٨٧ - ٢٨٨. ويقول ابن قزمان أيضا، وقد خبر كل الأذواق الرقيقة في الحب، عن المرأة:

النساء، كما في علمك	المهروب منهم غنيمة
لس نرى الواحد منهم	ما بقت في الدنيا قيمة
وسوى تكون في عيني	الجديدة والقديمة
والبعيدة والقريبة	والسمينة والدقيقة

ديوان ابن قزمان، الزجل رقم ٨٩.

تلتزم نظاماً أشد قسوة في حياتها، مثل أبي عبد الله بن المصادف الرندي، الذي طلب من النساء ألا يخرجن كثيراً:

امنع كرائمك الخروج ولا تظهرُ لذلك وجّه منبسّط
لا تعتبرُ منهنّ مسحطةً نيل الرضا في ذلك السطح
أو لسنّ مثل الدرّ في شيء والدرّ من صرفٍ إلى سفض^(١)



هذا الموقف المحدد والشاك من الرجل دليل واضح وحده وبنفسه على أن المرأة الأندلسية لم تكن منزوية على نحو ما تريدنا قواعد الإسلام أن نراه في كل المسلمات، وثمة وقائع عديدة تؤكد ما نشعر به من خلال أحاسيس الشعراء القوية. الرمادى ينتزه في يوم جمعة بين رياض بنى مروان في قرطبة، ويلتقى بفتاة شابة تأخذ بمجامع قلبه فيحادثها، ولا يدعها تمضي إلا بعد أن يحصل منها على وعد بلقاء في يوم الجمعة التالية^(٢). وكان اسم الفتاة خلوة، ومن المؤكد أنها كانت ترتدى خماراً. ولكن كيف نتصور أن رجلاً يستطيع أن يتحدث ردحاً من الزمن إلى امرأة علانية، دون أن يتعرض لملاحظات خشنة أو غير مهذبة، لو لم يكن الجنس الضعيف يتمتع بحرية حقيقية؟.

ويقص علينا ابن حزم في كتابه «طوق الحمامة» مشهداً رآه في إحدى نزاهاته في قرطبة، وهو أن ابن سهل الحاجب الصقلى كان ماراً، فأخذت عراً جماله فتبعتة، فلما اختفى في منعطف الشارع ألقت بنفسها على الأرض تقبل آثار خطوه^(٣).

ويمكن أن نشير أيضاً إلى التفاتة امرأة من إشبيلية ألقت بها من أعلى نافذة في جزيرة شنتبوس على رجل كان ينتزه في قارب، ويتغنى بمفتى المرية:

خلّين من وادٍ ومن قوربٍ ومن نزاهها في شنتبوس
غرّس الحبقّ الذى في دعى أحبّ عندى من العروس
فأخرجت جارية رأسها وقالت له من أى بلد أنت؟.

(٢) من الكامل، نفع ٤٣٦/٣، وفيها يرى ابن حزم، النساء «منفرغات البال من كل شيء، إلا من الجماع ودواحيه، والغزل وأسبابه، والتألف ووجوهه، لا شغل لمن غيره، ولا حلتّ لسواه»، طوق الحمامة ص ٧٩، ترجمة نيكل ٧١، طبعة بيرشيه ١٣٦. وأسبن بلايوس، ابن حزم القرطبي ٤٠/١.

(٣) انظر مقالنا عن الرمادى في دائرة المعارف الإسلامية ١١٩٠/٣، والمصادر المذكورة هناك، وذكرت أيضاً رياض بنى مروان في البقية للضبي ٤٧٨.

(٤) طوق الحمامة ص ١٣٠ - ١٣١، وطبعة بيتروك ٩٠، ومقدمته ص ٢١، وترجمة نيكل ص ١٣٩، وطبعة بيرشيه ص ١٢٦، وترجمة ل. إيكير Arabischer Provenzalisch und deutscher Minnesang ص ٢٠٦.

● قلت: هذه الفقرة ترجمة حرفية لعبارة المؤلف دعى تحتاج إلى إعادة تحرير، لأن نص عبارة ابن حزم في طون الحمامة: «أخبرني بعض إخواني عن سليمان بن أحمد الشاعر أنه رأى ابن سهل الحاجب بجزيرة صقلية، وذكر أنه كان في غية الجمال، فشاهده يوماً في بعض المتنزهات ماشياً، وامرأة خلفه تتفرّ إليه، فلما أبعد أتت إلى المكان الذي قد أثر فيه مشيه، فجعلت تقبل وتلثم الأرض التي فيها أثر رجله».

أى أن ابن حزم كان ناقلاً ولم يكن شاهداً، وأن أحداث القصة وقعت في جزيرة صقلية الإسلامية وليس في قرطبة (الترجم).

فقال: من المرية.

فقالت: وما أعجبك في بلدك حتى تفضله على إشبيلية، وهو بوجه مالح وقفا أحرش^(٥). ولا يُظن أن هذه الأحداث تقع في قرطبة وإشبيلية فحسب، وإنما حدثت في مرسية أيضاً، ففي إحدى جناتها، في قبة فوق جدول مطرد، وتحت أدواح طيرها غرد، يحكى الجنان لمؤلف كتاب قلائد العقيان كيف استطاع أن يتأمل معجبا «نساء ذوات شعور منشورة، وخدود غير مستورة، وقد رُفعت عنها البراقع، وما منها نظرة إلا ومعها سهم واقع^(٦)».

ومن العادى جدا بين جبهة الحرفيين أو الفلاحين أن ترى النساء دون خمار، وفي أشد الحالات تغطي رأسها بحجاب يترك وجهها مكشوفاً، وفي ضواحي إشبيلية، في منزله يُعرف باسم مرج الفضّة، أمعن المعتمد النظر في غسالة وسوف تصبح زوجته الشرعية وتحمل اسم اعتماد^(٧). وفي جولة أخرى للأمير نفسه، مع ابن عمّار، في حيّ الجبّاسين والجبّارين من إشبيلية، التقى بامرأة ذات جمال مفرط «فكشفت وجهها، وتكلّمت بكلام لا يقتضيه الحياء^(٨)». أليس هذا أيضاً ما يميّز المشهد الذى نرى فيه ابن السراج المالحقى، وكان يوماً على نهر مألقة فمر به سرب من الملاح فيهن جارية حسناء، ظريفة النطق، تأكل باقلاء، فاعترضها، وسألها منه، فدفعته إليه، فقال بديهة:

وسرب ملاح مرّ بى وبصاحبى	ونحن على ماءٍ يذكّرنا عَدُنَا
ويحملن فولا عندهن نظيره	عَوَان ولكنّ نوره عزّ أن يجنّى
فقلت: عسى من فولكنّ بقيّة	فقلن: وأئى الفول ترغبه منا؟
فقلت الذى تحت السراويل قلن لى	جهلت ولم تفهم مقالتنا عَنَّا
حرام على من كان شيخاً مُشوَّهاً	وصال ملاح فتنّ الشمس حسناً
وفيهن نشوى الطُرف لم أر قبلها	من الإنسِ شمساً تحمل الدعص والغصنا ^(٩)

لكن المثل الأقوى دلالة على حرية المرأة تقدمه لنا ولادة بنت الخليفة المستكفى^(١٠)، فقد احتبلت فرصة موت والدها، في لحظة غير متوقعة، خلال الفوضى والاضطراب الذى أدت إليه «الفتنّة» لتعيش حياة متحررة تماماً، فأقامت «صالونا» يجذب إليه أكبر الشخصيات وأعظم الأدباء شهرة، وقد أظهرت بظرفها، واحتقارها الخمار، وجراتها فى الحديث، وأحياناً شذوذ مواقفها، ما يدل بوضوح على أنها تحررت تماماً من كثير من الأوهام، وربما داخل أخبارها شيء من التزبد، وهو ما يعود إليها نفسها، ومع ذلك فإن التسامح معها بإزاء حياة من هذا اللون يعنى أن الإسلام، وهو متشدّد كثيراً وحساس للغاية فيما يتصل بالمرأة، ارتخت قبضته شيئاً فى الأندلس بخاصة، ومضطرون للتسليم بأن المناخ الذى أوجدته بيئة ذات عادات مسيحية أتاح للإسلام أن يصل إلى مفهوم أكثر

(٥) انظر فيها سبق ص ١٠٩ و ١١٠ و ١٢٧ من هذا الكتاب. ونفع ٣/٣٨٩.

(٦) القلائد ١١٦، وعنه نقلها نفع ١/٦٧٣.

(٧) التيجانى، تحفة الروس، نقلًا عن «بنو عباد» ١٥١/٢، ونفع ٤/٢١١، وعنه فى «بنو عباد» ٢/٢٢٥.

(٨) نفع ٤/٢٦٠، وانظر فيها سبق ص ٢٦٠ من هذا الكتاب.

(٩) الأندلس ٨٨١/١، وانظر أيضاً مشاهد أخرى فى ديوان ابن قزمان، القطعة رقم ٨٧ مثلاً.

(١٠) عر ولا، انظر: أ. كور، ابن زيدون، ص ٢٢ - ٣١، والمصادر المذكورة هناك.

تحرراً فيما يتصل بوضع المرأة^(١١).

ويمكن الحكم على نحو أدق فيما يتصل بمستوى تحرر المرأة إذا أضفنا إلى هذه الصورة «المتحررة»، كما تركتنا ولادة ندرتها، صورة أخرى لجارية غلامية^(١٢)، وهى معروفة فى الشرق^(١٣)، ولكنها أخذت فى الأندلس ملامح متميزة، ولقد ذكرنا فيما سبق أبياتاً لابن شهيد يصف فتاة قصّت شعرها، فأنت غيداء فى شكل صبي^(١٤). ونفهم من بيت فى قصيدة أبى الفضل بن شرف، أنه كانت توجد أيضاً أندلسيات مسترجلات:

أشوس الطرفِ علتُهُ نحوهٌ يتهدى كالغزال الحَرِّقِ^(١٥)

هذه الحرية التى كانت تتمتع بها الأندلسية فى المجتمع الإشباني المسلم تتيح لنا أن ننههم على نحو أفضل وفرة القصائد التى أنشدها المصرا، ويتغنون فيها بجمال المرأة الحسى وبصفتها النفسية على السواء، والكثير من هذه القصائد موجه إلى مغنيات وموسيقيات دون شك، ولكن إلى جانب الأوصاف التى يحتل منها ما هو حسى مساحة واسعة، نجد مقصوعات أخرى، ليست بأقل عدداً، نلاحظ خلالها إجلالاً حقيقياً للمرأة لا جدال فيه، ويعتقد أن هذه الاندفاعات الغنائية، وفيها لا يكاد الهوى الحسى يطل برأسه، لا توجه فحسب إلى المرأة التى جعل منا وضعها رقيقة مجرد جارية تخضع لكل نزوات سيدها. وقد يكون فى كل ما يقال شيء من الخيال، ونعو ما لا شك فيه، أما القول بأن هذه العواطف السامية لم تكن لها أساس فى الواقع فأمر يبدو بعيد الاحتمال.



(١١) ألا يمكن أن تكون هذه الحرية نتيجة التبعيات التى كانت تراجها المرأة المسلمة كى تنزوج، بسبب الأعداد الكبيرة من الأسيرات والعشيقات المسيحيات اللاتى أخذت طريقهن إلى الحرم؟ انظر فيما سبق ص ٢٦٥ رقم ١٧ من هذا الكتاب. ● قلت: يريد المؤلف هنرى بيريس أن يرت حرية المرأة المسلمة فى الأندلس إلى بيئة مسيحية مؤثرة زعمها، فلنسمع ما يقوله مستشرق آخر عظيم عن وضع المرأة فى هذه ابيّة الإشبانية المسيحية: «بتأثير الإشباني كانت لا ترى امرأة قط فى شوارع إيطاليا حوالى منتصف القرن السابع عشر الميلادى»

انظر: آدم متر، الحضارة الإسلامية فى القرون الرابع الهجرى، ط ٣ ج ٢ ص ١٧٠، ترجمة نoured الهادى ليو ويدة، القاهرة ١٣٧٧ هـ = ١٩٥٧ م ولمعرفة رأى المسيحية فى المرأة فى العصور الوسطى، ومكانتها فى المجتمع، انظر: نتائنا: دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة، ط ٣، ص ٢٠٣ وما بعدها دار المعارف، القاهرة ١٩٨ (المترجم).

(١٢) يقول الأسعد بن بليطة فى قصيدة تنمير له:

غلامية جاءت وقد جعل الدجى	خاتم فيها فصّ غالية خطاً
فقلت أحاجيها بما فى جفونها	وم فى الشفاء اللبس من حسنها المعطى
مخمرة العينين من غير سكرة	مق شربت ألاحظ عينيك إسفنتا
أرى نكهة المساوك فى حمر اللمى	وتشارك المخضر بالمسك قد خطا
عسى قزح قبلته فلخاله	عل الشفة اللمياء قد جاء مختطاً

وهى من الطويل، المطمح ٣٤٣، ونفع ١/٤، وابن خلكان، الوفيات، ٣٦/٢، وترجمة دى سلان ١٠٣١/٣ وانظر فيما سبق ص ٢١٠ المامش رقم ٥٠ من هذا الكتاب

(١٣) انظر المسعودى، مروج الذهب، ٢٠٤/٨، وآدم متر، الحضارة الإسلامية، ٣٣٦، والترجمة الإشبانية ٤٢٧ والترجمة العربية ١٥٩/٢.

(١٤) انظر فيما سبق ص ٢٢٧ من هذا الكتاب.

(١٥) من الرمل، نفع ٣٩٤/٣، وأبحاثه ط ١ ص ٩٢.

أن تكون الشهوات قد اختفت أمر لا يمكن البرهنة عليه، ووصف المحبوبة حسياً شاهد على ما نقول، ونحن هنا مضطرون للاعتراف بأن جانباً مما كان يترده في الشعر أكبر مما كان يجري في الواقع فعلاً، ولهذا تكثر الذكريات الكلاسيكية المبهمة، صفات الغزال والمهابة والظباء وبقر الوحش الحسية وأخذت مكاناً هاماً^(١٦)، وكذلك وصف التلال والرمال وما اتصل بهما^(١٧). وقد يكون مملاً أن نأتى هنا بمختارات لكل الصور، حتى لو تنوعت، ومن ثم فإن بعض الأمثلة تكفى.

يقول محمد بن البين البطليوسى مصوراً نساءهم، ربما مع شيء من السخرية:

غصبوا الصباحَ فقسّموه خدوداً واستنهبوا قُضْبَ الأراكِ قدوداً
ورأوا حصى الياقوت دون محلّهم فتقلّدوا شُهَبَ النجومِ عقوداً
واستودعوا حَذَقَ المهيا أجفانهم فسبوا بهنّ ضراغماً وأسوداً
لم يكفهم حملُ الأسنّةِ والظبي حتى استعاروا أعينا وقدوداً
وتضافروا بصفائر أبداً لنا ضوءَ النهار بليلها معقوداً
صاغوا الثغور من الأفاحى بينها ماءَ الحياة لو اغتدى موروداً^(١٨)

ويوجز المعتمد في بيت واحد من الشعر الملامح المميزة لأم عبيدة، المرأة التي أحبها: هي الظبي جيداً، والغزالة مقلّةً وروض الرُبى عرفاً، وغصن النقا قدّاً^(١٩). هذه الصور تقدم لنا بعض المعلومات عن ملابس المرأة، وقد أفدنا منها في التمييز بين البرد والمئزر أو الإزار، فالأول يغطّي الجزء الأعلى فحسب، والثاني النصف الأسفل من الجسم^(٢٠). وسنرى أيضاً أن كلمة «وشاح» لا تعنى عند الأندلسي العصابة، وإنما تأتي في معنى الحزام^(٢١). وإذا كان المثل الأعلى الكلاسيكي تعلّق بالسمرء داتها، ذات شعر أثيث أسود فاحم^(٢٢) فقد شغف

(١٦) إن ألفاظ بقر الوحش والمها والجؤذر قد تصدم الغربيين كثيراً، ولكنها ليست كذلك فيما يتصل بالإغريق، لأن Héra آلهة الزواج عندهم توصف بأنها: «ذات العيون البقرية». انظر: الإلياذة ٥٥١/١ وما بعدها. وبوالو، تأملات نقدية حول بعض فقرات بلاغة لونيّين، التأمل التاسع: «إن كلمة عجلة (بقر صغيرة) ليست جميلة في اللغة الفرنسية، وبخاصة في قصيدة رعوية، وكلمة بقر لا تحتمل، حين ينسب بها الشعراء العيون».

(١٧) الصورة المثالية للمرأة العربيّة في أدق صفاتها وأسدها تفصيلاً وأكثرها استبطاناً، تقدمها لنا كتب الأدب والبلاغة مثل: العقد الفريد لابن عبد ربه أو أسرار البلاغة ليهاء الدين العامل، وهناك ترجمة فرنسية قام بها بيرون في كتابه «نساء عربيات» ص ٥٣٢ - ٥٣٣، ونقلها واصف بطرس غالي في كتابه «تقاليد الفروسية عند العرب» بالفرنسية ص ٨٣ - ٨٤. واللافت للنظر أن هذه الصورة تشبه كثيراً ما نجد في نشيد الأناشيد في التوراة، السفر ٥ الآيات ١٠ - ١٦. وقد استخدم بهاء الدين العامل الصورة نفسها لكي يصف نساء الحيرة، متخذاً منها مثلاً، موحياً بأن الجنس اللطيف واحد داتها. انظر الكشكول ص ٧٠ - ٧١، والأرجوزة في اثني عشر بيتاً.

(١٨) من لكامل، نفع ٤٠٣/٣ و٤٥٣.

(١٩) من الطويل ديوان المعتمد، ونفع ٢٧٩/٤، والقلائد ١٠، وعنه في «بنو عباد» ٤٤/١.

(٢٠) انظر فيما سبق ص ٢٨٣ من هذا الكتاب.

(٢١) ابن شرف، القلائد ٢٥٤، ونفع ٣٩٣/٣ ودوزي معجم الملابس، ٤٢٩، والترجمة العربية ٣٤٦.

(٢٢) أنظر أبيات ابن شرف في نفع ٣٩٣/٣، ودوزي، أبحاث، ط ١ ص ٩٢.

القرن الحادى عشر كثيرا بالشقراوات^(٢٣)، ذوات الشعر المقصوص^(٢٤)، ولم تعد المرأة الغيداء، ذات العنق الأوزى، تفضل الوقصاء دائما، وعلى أية حال، وكما لحظ ابن حزم، كان الأمر شخصا بحتا^(٢٥).

يمكن أن نشير إلى مشاهد عديدة نرى فيها المحب ذاهبا إلى لقاء حبيبته آناء الليل أو أطراف النهار، في إطار مستعار من الطبيعة أو خفية في بيت، وهذه الغنائية التي تنضح وثنية نادرا ما تصل حد التفصيل الخادش للحياء، لأن المجون ليس من الاتجاهات الأساسية في الشعر الأندلسى على التأکید، وبعد إثارة شهوانية سطحية يندفع الشاعر فجأة إلى غنائية سامية تظهر أن روحه ليست أسيرة ما هو مادی فحسب. يقول الخليفة عبد الرحمن الخامس الملقب بالمستظهر بالله^(٢٦):

طال عمرُ الليلِ عندى	مُدَّ تَوَلَّعتِ بَصْوى
يا غزالاً نقضَ الو	دُ ولم يوفِ بعهى
أنسيتَ العهدَ إذ بت	نأ على مفرش وُرد
واجتمعنا في وشاح	وانتظمنا نظم عِقد
وتعانقنا كفَضني	بن وقدأنا كقَد
ونجوم الليل تحكى	ذهبا في لا زورِد ^(٢٧)

ويقدم ابن عمار النصيحة التالية إلى المعتمد وكان عاجلا إلى لقاء محبوبته اعتماد بعد أن أنهى إحدى حملاته:

وقبلَ خَلْمِ نِجادِ السيفِ فسَعِ إلى ذبِ الوشاحِ وخذْ للحبِ بالشار
ضباً ولثماً يَغْنى الحُلَى بينكما كما تجاوبُ أطيَّارُ بأَسْحارِ^(٢٨)
وفكرَ المعتمد، وقد ابتعد عن إنسيبة على رأس حملة حربية، في إحدى نساته فكتب إليها يقول لها:
كم يتعنى لو أنه قريب منها:

فَقَبَلْتُ ما تحت اللُصامِ من اللمى وعانقتُ ما فوق الوشاحِ من العقدِ^(٢٩)
وصورة العناق تمثل عند الشعراء «فكرة ملحة»، يقول ابن الزقاق:

ومِرْجَةُ الأعطافِ أماً قَوائِمُها	فَلَدُنْ، وأما رِدْفُها فَرَدَاخُ
أَلَّتْ فباتَ الليلُ من قِصرِ بها	يطير، ولا غيرُ السرورِ جناح
فبت وقد زارت بأنعرِ ليلة	بما تفتنى حتى الصبحِ صباح

(٢٣) انظر أبيات ابن حزم في طرق الحدا ص ٥٠، ترجمة نيكل ص ٤، ط برلشير ٧٤ - ٧٧، وانظر فيه سبق ص ٢٦٩ من هذا الكتاب.

(٢٤) انظر فيما سبق ص ٢٢٧ وص ٣٤٠ من هذا الكتاب.

(٢٥) طرق الحمامة ص ٥٠، وترجمة نكل ٤٠.

(٢٦) وتنسب هذه الأبيات أيضا إلى لروانى الملقب بالحجر، ويقال له البطرشك Pedra Seca.

(٢٧) من الرمل، الذخيرة ٥٧/١، وخة ١٦/٢، والنفح ٤٣٦/١ و ٤٨٩.

(٢٨) من البسيط، الحلة ١٣٢/٢، وينت عباد ٨٨/٢، وتاريخ مسلمي إسبانيا ط ٢ ج ٣ ص ٩٠.

(٢٩) من الطويل، خريد القصر نقلا عن «بوعباد» ٢٨٧/١، وديوان المعتمد ص ٦، وترجمة فقرة منه في معجم الملابس لدوزى

ص ٤٠٠، (وانترجمة العربية ص ٣٢٢).

على عاتقى من ساعديها حائلٌ وفي خصرها من ساعدتى وشاحٌ^(٣٠)
وقدّم لنا ابن بَقِيٍّ أجمل صورة عن ليلة حب:

عاطيته والليل يسحبُ ذيلهُ
وضمته ضمُّ الكمى لسيفه
حتى إذا مالت به سنة الكرى
باعذته عن أضلعٍ تشتاقه
وصورة ابن خفاجة أشد شهوانية:

وليل تعطائنا المدام وبيننا
نعائده والكأسُ تعبقُ مسكةً
ونقل^(٣٢) أقاح الثغر أو سوسن الطلى
إلى أن سرت في جسمه الكأس والكرى
فأقبلت أستهدى لما بين أضلعى
وعانقته قد سل من وشى برده
ليان مجس واستقامة قامه
أغازل منه الفصن في مغرس النقا
فلن لم يكنها أو تكنه فإنه
تسافر كلتا راحتي بجسمه
فتهبط من كشحيه كفى تهامة
وإني وقد فارقتُه لمقبل

ونلتقى عند أبي محمد بن القبطورته بشيء له إيقاع أسر، متوهج ومبتهج، ذات نغم إغريقي، لم يعرفه الأدب العربي في المشرق على ما يبدو، باستثناء قصائد عمر بن أبي ربيعة وبشار بن برد:

يا خليلي لقلب نيل من كل الجهات
لييم إن هام برياً بالبنينا والبنات

(٣٠) من الطويل، نفع ٢٩٨/٤ (الديوان ص ١٢٩).

(٣١) من الكامل، القلائد ٢٧٩، والشقندي، رسالة في فضل الأندلس، في نفع ٢٠٩/٣، وترجمة غربية غوث ص ٨٨، وفون شاك، شعر العرب وفهم، وترجمة باليرا إلى الإسبانية ١٤٠/١، وقد استشهد ديجا ببيت منها في مقدمته بالفرنسية لطبعة النفع الأوربية، ٧٩/١.

(٣٢) وقد عبر المعتضد عن الفكرة نفسها، انظر: الحلة ٤٧/٢، وعنها نقل دوزي الأبيات في «بنو عباد» ٥٨/٢، وهي من بحر الطويل، وموضع الشاهد في البيت السابع والثامن منها.

(٣٣) عن النقل، وهو ما يؤكل رفقة الشراب، انظر فيها سبق ص ٣٣٠ من هذا الكتاب.

(٣٤) هذه الصورة الأخيرة أظنها مثلاً.

(٣٥) من الطويل، الديوان، القطعة ٢٧٨، ص ٣٤٨، نفع ٦٨٩/١، والذخيرة ٥٨٨/٣، وشاك، شعر العرب ١٣٨/١، وجوتنالت بالنتيا، تاريخ الأدب الأندلسي ص ٩١، وزكى مبارك، حب ابن أبي ربيعة ص ٢٨٤.

وبأن صادته سمرٌ بين بيضٍ خافرات
بلحاظٍ ساحراتٍ وجفونٍ فاترات
وبجيدٍ الطيبة ارتأ عت فطّلت في التفات
وبعيني مغزلي تر عى غزالاً في فلات
تتمشى بين أترا بي لها حور لدات
وعليها لعتي والخز وبرد الحبرات
راعها لما لنينا مادرت من فتكات
عشرت ذعر فقلنا وا لعا للعائرات
ضحكت عجب وقالت لا خص الفتيات
راجعيه ثم قولي أتتنا في السمرات
وارقب الأعداء واحذر للعيون الناظرات
فإذا أعلق فيها النوم أشراك السنوات
وعلا البدر جلابيب لباس الظلمات
فاطرق الحى تجدنا في ظهور الحجرات (٣٦)
فالتقينا بعد بأسٍ بدليل النفحات
وتلازمنا عناقاً كالتواء الألفات
وبثنا بيننا شجواً كنفث الرقيقات
وبردنا لعة الح ب بماء العبرات
ونشأغلنا ونع لم بأن الصبح آت
وبدت منه تباش ير مشيب في شيات (٣٧)

ونلاحظ أن الشاعر نادراً ما صور حبيبته عارية، ويبدو أن الأندلسي يفضل جسداً خفياً مستوراً يغذى الخيال بمزيد من أحلام اليقظة على لحم عار تلتهمه الأنظار. وتفتن روح الإسباني المسلم ملابس المرأة شفاقة، تنيح له أن يكتشف تاسق جسمها. ولا بد أن صبر الشاعر قد نفذ تماماً حتى يقول لحبيبته:

انزعى الوشى فهو يستحسنا لم تحزّه برقمهن الثياب
ودعيني عسى أقتر غراً ل في اللمي وطاب الرضاب
وعجيب أن تهجرينى ظلاً وشفيعى إلى صباك الشباب (٣٨)

وكما لاحظنا من قبل، كانت لجوى الراقصات والمغنيات العازفات، يرتدين ملابس شفاقة سهلة الخلع، وهى حالة جارية كانت رقيقة المعتمد في ملذاته عندما كان عاملاً على شلب:

(٣٦) إشارة قرآنية، سورة الحجرات الآية ٤.

(٣٧) من الرمل، القلائد ١٤٩. ويؤيد ابن قزمان إشاراً إلى قصيدة ابن القبطونة هذه في أحد أزحاله، التي وازن بينها خوليان ربييرا وبين قصيدة مدح برنسية. انظر: ديوان ابن قزمان، القطعة ١٤١، ورييرا، نبذ، مقالات ٨٦/١.

(٣٨) من الخفيف، نفع ٤٢٢/٣. يحد الشاعر هو أبو الحسن بن شعيب.

وَلَيْلٍ بَسَدَ النهرِ أنسا قطعته
نضت بردها عن غصنٍ بانٍ مُنعمٍ
بِذاتِ سوارٍ مثل منعطفِ النهرِ
نضيرٍ كما انشقَّ الكمام عن الزهرِ^(٣٩)

وثمة حكاية معروفة وذائعة تصوّر لنا المعتمد وجارية له تمشي بين يديه، [وعليها قميص لا تكاد تفرّق بينه وبين جسمها، وذوائبها تخفى آثار مشيها، فسكب عليها ماء ورد كان بين يديه وقال: عُلّقَتْ جانلة الوشاح غريرةً تختال بين أسنةٍ وبواتر^(٤٠)

وتعذّر عليه المقال، فقال لبعض الخدم القائمين على رأسه: سر إلى أبي الوليد البطل يوسى المشهور بالنحلي، وخذه بإجازة هذا البيت ولا تفارقه حتى يفرغ، فأجابه النحلي لأول وقوع الرقعة بين يديه:

راقت محاسنها ورقّ أديمها
وتمايلت كالغصن في دغص النقا
فتكاد تبصر باطنا من ظاهر
تلتف في ورقِ الشبّابِ الناضر
يُبدى بماء الوردِ مُسبَلُ شعرها
كالطلّ يسقط من جناح الطائر
تزهي برونقها وعزّ جالها
زهو المؤيد بالثناء العاطر
ملك تضاءلت الملوك لقدره
وعنا له صرف الزمان الجائر
وإذا نحت جبينه ويمينه
أبصرت بدراً فوق بحرٍ زاخر

فلما قرأها المعتمد استحضره وقال له: أحسنت، أو كنت معنا؟، وما كنا لنعرض لهذه القصة لولا أنها تقدّم لنا حواراً مضيئاً وممتعا يوضح معنى ظاهري وباطني، وقد تواجها في هذا العصر^(٤١). ويقول ابن مالك الطغترى عن وجه امرأة جميلة:

فقدّه من رقةٍ مائسٍ وردفه من ثقلٍ مائجٍ
كان ماء الحسن في خده مُدّامةً شعشعها المازج
عنون مافي ثوبه وجهه تشابه الداخل والخارج^(٤٢)

لكن ابن عبد البر لا يشاركه هذا الرأي، فبينما كان يتجول يوماً في سكة الحطابين من مدينة إشبيلية، مع ابن حزم الظاهري، لقيها شاب حسن الوجه، فقال أبو محمد بن حزم: هذه صورة حسنة. فقال له ابن عبد البر: لم نر إلا الوجه، فلعل ما سترته الثياب ليس كذلك. فقال ابن حزم ارتجالاً:

وذى عذّل فيمن سباني حسنه
أمن أجل وجهٍ لاح لم تر غيره
يطيلُ ملامي في الهوى ويقول
ولم تدّر كيف الجسم أنت عليل

(٣٩) من الطويل، القلائد ٦، وعنه في «بنو عباد» ٣٩/١ و ٨٤. والحلة ١٣٣/٢، وعنها في «بنو عباد» ٨٩/١١. ونفع ١٩٣/٣. وتاريخ مسلمي إسبانيا ٩١/٣، وغرسة غوث، ترجمة رسالة الشقندي ٥٧، وانظر فيما سبق ص ٣٤٢ من هذا الكتاب. (٤٠) انظر: نفع ٢٣٣/٣، وابن ظافر، البدائع ص ١١٥، وابن ليون، لمح السحر، الورقة ٦٦ ب، والتيجاني، تحفة العروس، مخطوطة الجزائر. الورقة ٨٤ أ.

(٤١) من الكامل، نفع ٢٣٤/٣.

● تصرف بيريس في القصة قليلاً فجعل النحلي واقفاً بباب المعتمد، وحذف بيت الشعر الذي قاله المعتمد، وهو محور القصة، واستغنى عن تعليق المعتمد على أبيات النحلي. وعدت بالقصة إلى أصلها (الترجم).

(٤٢) من السريع، الذخيرة ٨٠٨/١، والإحاطة ٢٨٤/٢.

فقلت له أسرفت في اللو فأتد فعدى رد لو أشاء طويل
ألم تر أني ظاهرى وإننى عى ما أرى حتى يقوم ليل^(٤٣)



ما أكثر الأشعار الخفيفة فى عذوبة اللطيفة فى دقة، الغزلة فى رقة، لا تكاد تعثر فيها على أثر
للحذقة أو التصنع! إن الروح الأندلسى يرسم نفسه جيداً فى بحثه الشائق عن الملمح الذى يخلق
تصويراً قادراً على إثارة القلب فى الوقت نفسه يثير الخيال. يقول أبو الفضل بن شرف:
لم يبق للجور فى أيامه أثرٌ إلا الذى فى عيون الغيد من حور^(٤٤)
ولم يصر أحد القلق فى انتظار وصول الحبيب، فيما يبدو لنا، بأفضل مما صورته هذه الأبيات الثلاثة
لأبى محمد بن سفيان:

نفسى فداك وعدتني بزيارة فظلت أرقبها إلى الإساء
حتى رأيت قسيم وجهك طالعا لم تنتقصه غضاضة استحيا
فعلمت أنك قد حُجبت وأنه لو رأى وجهك ما سرى بساء^(٤٥)
ومن الإفراط أن نجد خوف الحبيب الذى يحس بالجرح من نظرات محبوبه، يقول أبو الحسن بن
سراج:

لما تبوأ من فؤادى منزلاً وغدا يسلط مُقْلَتِيهِ عَلَيْهِ
ناديته مسترحماً من زفرة أفضت بأسرار الضمير إليه
رفقاً بمنزلك الذى تحتله يامن يخرب بيته يئليه^(٤٦)

وقسوة المحبوب تحدث الرعد الذى يؤثر فى صحة المحب، وهى فكرة ليست جديدة فى الشعر
العربى، فإن كبار العشاق فى صدر الإسلام مثل كثير عزة، وجميل بثينة، وعروة غفراء، ومجنون ليلى من
بينهم بخاصة، وصفوا لنا تبايح للحب فى نغم لا يبدو أن أحدا بعدهم قد فاقهم فيه، ومن هنا لا نجد
تحسرات الشاعر الأندلسى ذات أهمية فهو مريض من الحب، ويذبل تدريجاً، ويشحب وجهه، وينحف
جسمه من الأرق والصوم، وتقدم يقول ابن اللبانة:

صرف الهوى جسمى شبيه خياله من فرط خفته وفرط خفائه^(٤٧)
أو يقول:

ولى نفس يخفى ويخفت رقة ولكن جسمى منه أخفى وأخت^(٤٨)

(٤٣) من الطويل، نفع ٨٢/٢.

(٤٤) من البسيط نفع ٣/٢٩٦، وبجاء ط ١ ص ٩٥.

(٤٥) من الكامل، القلائد ١٣٩.

(٤٦) من الكامل، القلائد ٢٠٢ و ١٠٣.

(٤٧) من الكامل، المعجب ١٥٤، يترجم ١٣٠.

(٤٨) من الطويل، المعجب ١٥٣، وترجمه ١٢٩.

لا نرى فيما يقول غير التصنع، لأننا لا نعرف شيئا عن حياته العاطفية وعلى النقيض منه، يشيرنا ابن زيدون بعمق، لأن الآلام التي عاناها بسبب هجر ولادة له، كانت تعبيرا عن شعور حقيقي، وجسمها في نغم صادق مثير:

هل تذكرون غريبا عادَهُ شَجَنُ من ذكركم وجفا أجفانه الوسنُ
يحفى لواعجه والشوق يفضحه فقد تساوى لديه السرُّ والعلن^(٤٩)

يُميّز هذه اللواعج عادة قلق السهر الذي يجعل المحب، حتى وهو قريب من محبوبه، لا يستمتع بسعادته تماما، ولا يستطيع أن ينسى آلامه الماضية، ويبدو له الحاضر غير مؤكد. ألا يجب عليه أن يخشى تقلب محبوبه؟ إن اللحظة التي يمكن أن يجنيها سعادة يسممها هذا القلق، وربما كان هذا وهما منه لا يقوم على أساس. يقول أبو الحسن بن الحاج:

وهبتْ لها نَفْسًا على كريمة وقد عَلِمْتُ أن الضنَّانة بالنفس
أعالجُ منها السخطَ في حالة الرضا ولا أعدمُ الإيحاشَ في ساعة الأُنسِ^(٥٠)

ويصور أبو الفضل بن شرف هذا القلق على نحو أفضل:

وقد حَمَلْتُ عبءَ الحبِّ ضَعْفَى كحملِ الخُصرِ للكُفْلِ الرِّداحِ
أحنُّ إلى رضاك وفيه بُرئى كما حنَّ العليلُ إلى الصباحِ
وقد أحللتُ جَبكُ من فؤادى محلَّ المالِ من أيدي الشِّحاحِ
سأفزعُ في هواك لحسنِ صبرى كما فزعَ الجبانُ إلى السلاحِ^(٥١)

ويعبر أبو الحسن اللورقي عن الرعب نفسه:

أذوبُ اشتياقا يومٍ يحجبُ شخصَهُ وإني على ربِّ الزمانِ لقاسى
وأذعرُ منه هيبةً وهو المنى كما يذعرُ المخمورُ أولَ كاسِ^(٥٢)



النفمة الأصلية حقا في هذا القلق، وربما ليست كاملة، نجدها في تصوير الموت إلى جانب الحب، ويعرف الشعر المشرقي عددا من شهداء الحب، وتناول هذا الموضوع أيضا، ولكن ليس بهذه القوة أبدا، فيما يبدو لي، والتي تضيف على الموت وجودا حقيقيا. يقول أبو القاسم بن العطار:

بين الهوى والردى في لحظة نسبُ هذى القلوبُ وهذى الأعينُ الدُّعجُ
بين الورى وصروفِ الدهرِ ملحمةٌ وإنما الشيبُ في هاماتهم رَهجُ^(٥٣)

(٤٩) من البسيط، المعجب ١١٠، وترجمته ٩٣، الديوان ص ١٦٢.

(٥٠) من الطويل، القلائد ١٣٤.

(٥١) من الوافر، القلائد ٢٥٦.

(٥٢) من الطويل، نفع ١٠٣/٤.

(٥٣) من البسيط، القلائد ٢٨٧، البيتان ٣ و ٨.

ويقول الأعمى التطيلي:

هو الهوى وقديما كنتُ حذرهُ السقمُ موردهُ والموتُ مصدرهُ^(٥٤)

ويري ابن شهيد أن آلام الحب أشد رعبا من حشرات الموت:

ألمتُ بالحبِّ حتى لودنا أجلى لَمَّا وجدتُ لطمِ الموتِ من ألمِ^(٥٥)

والموت يترصد ليتمكن من العائق أمرضه الحب، يقول أبو العباس اللص لمحبيته:

وقائلة والضنى تاملِ علامَ سهرتَ ولم ترقِدِ

وقد ذابَ جسمك فوق الفرا شِ حتى خفيتَ على العودِ

فقلتُ: كيف أرى نائماً ورائى النية بالمرصدِ^(٥٦)

ويذكرنا الرمادى في أبياته المحيطة ببعض ملامح الشاعر الفرنسى فيون:

ومن شجنى تهمل السحابُ وتذرفُ ومن جزعى تبكى الحمام وتَهتِفُ

كأن السحابَ الواكفاتِ غواسلى وتلك على فقى نوائجُ هُتِفِ^(٥٧)

وثمة مثل أندلسى يقول: «تذكرو غائبا تراه»^(٥٨)، ويؤكد ذلك ابن الحداد فيقول:

أتركُ من أهوى وأمضى كمداً واليه ما أمضى وقلبى معى

ولا نأى شخصك عن نظرى حيناً ولا نطقك عن مسمعى^(٥٩)

ولا يدهشنا أن نجد عند شاعر الحيل الذى أصبح مطروفاً في أيامنا، ويعبر عن مرارة الهجر. يقول الطرطوشى:

يقولون ثكلى ومن لم يذقُ فراقَ الأحبةِ لم يَشْكلِ

لقد جرعتنى لىالى انفراقِ كؤوساً أمرَّ من الحنظلِ^(٦٠)

ولكن المحبين العاشقين حقاً هم: نين يرون في تأثيرات الهجر المشنومة خيراً، يقول الرشيد بن

المعتمد:

لولا الرجاء بأن يُعجِّلَ بيننا وشكُ التلاقى لا شتهيتُ مائى^(٦١)

(٥٤) من البسيط، القلائد ٢٧٤.

(٥٥) من البسيط، المطمح ١٩١، والديولة القطعة ٦١، ص ١٥١.

(٥٦) من المتقارب، نفح ١١٢/٤.

(٥٧) من الطويل، المطمح ٣٢٠، ونفح ٣٩/-.

● فيون فرانسوا Villon, F. (١٤٣١ - ١٤٣٢ م) عاش حياة مغامرة، وركب كل الأخطار والأهوال، وبعد ول شاعر غنائى

فرنسى عظيم (الترجم).

(٥٨) نفح ١١٣/٤ و ١٦٠/٤ و ٣٣/٤.

(٥٩) من السريع، المطمح ٣٤٠. وذكرنا في سبق ص ٢٩ بمناسبة الحديث عن التماثيل الشخصية أبياتاً تعبر عن الفكرة

نفسها.

(٦٠) من المتقارب، نفح ٨٦/٢.

(٦١) الحلة ٦٩/٢، و«بنو عبادة» ٧٣/٢.

وكان الموت حاضرا في فكر ابن زيدون دائما، حتى أصبح خطرا ملحا، لا يمكن أن يمضي دون أن يدع تأثيره فينا، يقول في ولادة:

تَاللَّهِ، لَوْ حَلَفَ الْعَشَاقُ أَنَّهُمْ مَوْتِي مِنَ الْوَجْدِ يَوْمَ الْبَيْنِ مَا حَشَوْا
قَوْمٌ إِذَا هُجِرُوا مِنْ بَعْدِ مَا وُصِّلُوا مَاتُوا، فَإِنْ عَادَ مَنْ يَهُونُهُ بُعْثُوا
تَرَى الْمُحِبِّينَ صَرَعِي فِي عِرَاصِهِمْ كَفْتِيَةِ الْكَهْفِ مَا يَدْرُونَ مَا لَبِثُوا^(٦٢)
ولكن أحدا لم يعبر عن خيبة الأمل بأفضل مما عبر عنها أبو حفص بن برد عندما يقول لتلك التي سوف تهجره:

يَا مَنْ حُرِّمْتُ لَذَاذِي بِمُسِيرِهِ هَذِي النَّوَى قَدْ صَعَرْتُ لِي خَدَّهَا
زَوَّدَ جَفَوْنِي مِنْ جِمَالِكَ نَظْرَةً وَاللَّهِ يَعْلَمُ إِنْ رَأَيْتُكَ بَعْدَهَا^(٦٣)

يمكن القول إن الشعر المشرقى، ونجرو على أن نضيف والشعر ذو الإلهام المسيحى فى العصور الوسطى، لا ينطوى على إيقاع أشد إثارة للتعبير عن ألم الهجر مثل ما أوردنا.

ذلك أن المعاناة، فيما يبدو، تمد الحب بطاقة لا مناص منها، أو كما يقول ابن مقانا: «إن السقام والضنى دين العاشقين»، ولا شيء يستطيع أن يقى منها، لأن الحب فى ذاته شىء قدرى، وقوته تضرب خبط عشواء، على غير هدى أو بصيرة، وقد نادم المنصور بن أبى عامر يوما أبا المغيرة بن حزم فى منية السرور بالزاهرة، وغنتهم جارية تسمى أنس القلوب فتغازلأ شعرا ملو حين، أبو المغيرة والجارية، وأحس بذلك المنصور فغضب عليها غضبا شديدا، فاعتذر أبو المغيرة: «الله قدر هذا ولم يكن باختيارى»^(٦٥).

ويمكن أن نضيف إلى مفهوم الحب هذا وهو إغريقى فى بعض جوانبه، ونجده فى إسبانيا والمشرق على السواء^(٦٦)، نظرية أخرى عرفتها إسبانيا الإسلامية، ترى فى الحب قوة سحرية تمارسها الجفون الفاتكات خلال النظر، وعن الفكر يصدر سحر النهى الذى يمر عبر العيون^(٦٧). وإذا كان الشعراء لا يتحدثون غالبا عن غيره فلأنهم يخشون هذه القوة الخفية، والتي لن تكون السحر الحلال، ويجدون شاهد صدق فى أبيات ابن اللبانة التالية:

يَا مَنْ رَشَقْتُ إِلَى السُّلُوِّ فَرَدَّنِي سَبَقْتُ جَفَوْنُكَ كُلَّ سَهْمٍ يُرْشَقُ
لَوْ فِي يَدِي سَحْرٌ وَعِنْدِي أَخْذَةٌ لَجَعَلْتُ قَلْبِكَ بَعْضَ حَيْنٍ يَعِشَقُ

(٦٢) من البسيط، الديوان ١٧٦، والمعجب ١١٠، وترجمته ٩٣.

(٦٣) من الكامل المطمح ٢٠٨، ونفح ٥٤٦/٣. والبيت الأخير منها قلده أبو الحسن الحصرى فى قصيدته الشهيرة: يا ليل الصب! فى البيت الثامن عشر منها حيث يقول:

(٦٤) نفح ٤٣٣/١.

(٦٥) من الخفيف، وانظر القصة كاملة فى نفح ٦١٧/١، وتاريخ مسلمى إسبانيا ط ٢ ج ٢ ص ٢٧٣، وقون شاك، شعر العرب فى إسبانيا وصقلية ١٥٠/١.

● ترجمته العربية قيد الصدور، وقمت أنا بها (الترجم).

(٦٦) ماسينيون، الحلاج ١٧١/١ وما بعدها.

(٦٧) نفح ٥٠٩/٣، والفكرة مأخوذة من بيتى شعر لأبى عبد الله اللوشى.

لتذوق ما قد ذقت من ألم الجوى وترق لي مما تراه وتشفق^(٦٨)
والفكرة التالية من ابن شهيد.

أُغِيَتْ من أُخِنَتْ له وتلوت من سُورِ العزائم^(٦٩)

* * *

تظهر الروايات السابقة بقدر كاف قوة المشاعر العاطفية في قلوب الأندلسيين، وبعضهم تركنا نلمح نوعاً من العبدية يستسلم فيها الرجل لعاشق إلى سيدة أفكاره، وتتناول الآن هذا الموضوع بطريقة خاصة. وقد عبّر الشعراء المشاركة عن الأفكار نفسها، نقول ذلك ونفكر في العباس بن الأحنف بخاصة^(٧٠)، وعاش في عصر هاروت الرشيد، ولكنها لم تكن أبداً فيما يبدو بمثل هذه القوة، ولا بذات الكثرة، وليس لها نفس العمية. أما هنا في الحقيقة، وفي نطاق القرن الذي تدرسه، فتكثر هذه القصائد بقدر يتطلب أن نفرزها وأن نتقّى من بينها، دون أن نتأكد تماماً أن ما تركناه ليس له نفس قيمة الشعر الذي اخترناه ووردناه.

إن العاشق الجدير بهذا الاسم يعلن نفسه عبداً لمن يحب، وخضوع الحر جميل مملوك للحب، كما يقول الحكم الربضي:

ظَلَّ من فِرط حبه مملوكاً ولقد كان قبل ذاك مليكاً^(٧١)
ويصور ابن زيدون حالته الشعرية القلقة، ويبدو أنها ملمحة المميز:

بَنَى وبينك مالوشئت لم يضع
يا بائعاً حظّه مني ولو بُذلت
يكفيك أنك إن حملت قلبي ما
تِه أحتل واستطلّ أصبر، وعزّ أهن
سُرُّ إذا ذاعت الأسرار لم يَنْزِع
لِي الحياة يحظى منه لم أبع
لم تستطع قلوب الناس يستطع
وولّ أقبل، وقُلّ أسمع، ومُرّ أطلع^(٧٢)

ومن الذي يشك في أن العاشق يصيح عبداً حين يقرأ الأبيات التالية للخليفة الأموي عبد الرحمن المستظهر بالله، والذي أراد أن يتزوج من حبيبة ابنة عمه سليمان المستعين فقال يخاطب زوجة عمه شنف:

جعلتُ لها شرطاً على عبدي وسقتُ إليها في الهوى مهجتي نهراً^(٧٣)

(٦٨) من الكامل، المعجب ١٥٢، وترجمته ١٢٨.

(٦٩) من مجزوءه الكامل، الديوان ١٥٧، الذخيرة ٢٠١/١، وأحد ضيف، بلاغة العرب ٤٥.

(٧٠) عن العباس بن الأحنف، انظر: ج. د.، العباس بن الأحنف، في مجلة «إسلاميك»، المجلد ٢، عام ١٩٢٦، ص ٢٧١ - ٣٠٧، وص رقم ١٢١ من هذا الكتاب. ونجد أنكاراً مشابة عند بعض كبار الشعراء مثل المتنبي، ولكننا لن نديسها لذاتها، وإنما نجعل منها مدخلا للمديح والثناء. انظر: بلشيز، أبو الطيب المتنبي، ص ٤٩ القطعة ١٤ البيت ١٠.

(٧١) من الخفيف، الحلة ٤٩/١، البيان المغرب ٨٢/٢ النص العربي، والترجمة ١٣٠، وأعمال الأعلام ١٧، وأخبار مجموعة ١٣٤.

(٧٢) من السيط، الديوان ١٦٩، والمعجب ١٠٦، وابن خلكان، وفيات الأعيان، ٤٣/١ النص العربي، وترجمة دي سلان ١٢٤/١، والظبي البقية ١٧٤.

(٧٣) من الطويل، الذخيرة ٥٦/١، والمجلة ١٤/٢، وتاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٢ ص ٣٢٤ - ٣٢٥.

ويقول في بيت آخر:

وهبت له روحى ومُلْكى ومهجتى ونفسى، ولا شيء أعز من النفس^(٧٤)
ويقول ابن بقی:

إِنْ كُنْتُ تَجْهَلُ أَنِّي عَبْدُ مَمْلُوكَةٍ مُرِنِي بِمَا شَتَّتَ آتِيهِ وَامْتَثِلْ^(٧٥)

وكما يقول ابن الملح، فإن العاشق كالعبد يجب ألا يوشوش متمللاً من الصعاب التي يعاني منها:
مبتدعُ الخلق لا كفاء له يعدّ شكوى صابقي رفثاً^(٧٦)

وإذا لم يستطع أن يسعد بتأمل حبيبته فسوف يكفيه بهجة أن يسمع ديبب صوتها. يقول أبو بكر بن رُحيم:

لا تُسميه فَإِنَّهُ نَزَعَتْ بِهِ تِلْكَ الْخِلَالَ إِلَى هَوَاكَ نِزَاعاً^(٧٧)

وسوف يكون حظه من البهجة أكبر كثيراً إذا استطاع أن ينال منها سلاماً باليد أو الشفتين، يقول المعتمد:

أَسْفَى! أَوْدٌ وَلَا أَوْدُ، وَأَغْتَدَى مَا كَانَ ظَنِّي أَنْ أَجُودَ بِمَهْجَتِي
حُبًّا، وَأَقْنَعُ بِالسَّلَامِ قَامُنًا يَا هَاجِرِي، وَقَدْ اسْتَفْتَيْتُمْ فَارْقُوا
وَأَرْوَحُ، أَحْفَظُ عَهْدَ مَنْ قَدْ ضَيَّعَا
وَهَبُوا لَعْتَرَةَ عَاشِقٍ لَكُمْ «لَعَا»^(٧٨)

ويقول ابن زيدون عن نفسه:

كفأتنا من الوصلِ التحيةَ خُلْسَةً فيومئِ طرفُ أو بنانُ مطرفُ^(٧٩)
وفي انتظار الحبيبة يتلمس الشاعر أى إشارة تنبئ بقرب وصولها. يقول الطرطوشي:

أَقْلَبُ طَرْفِي فِي السَّمَاءِ تَرْدُّدًا لَعْلِي أَرَى النَّجْمَ الَّذِي أَنْتَ تَنْظُرُ
وَأُسْتَعْرِضُ الرِّكْبَانَ مِنْ كُلِّ وَجْهَةٍ لَعْلِي بَيْنَ قَدِ شَمِّ عَرْفِكَ أَظْفِرُ
وَأُسْتَقْبِلُ الْأَرْوَاحَ عِنْدَ هُبُوبِهَا لَعْلُ نَسِيمِ الرِّيحِ عَنْكَ يُخْبِرُ
وَأَمْشِي وَمَالِي فِي الطَّرِيقِ مَآرَبُ عَسَى نِعْمَةً بِاسْمِ الْحَبِيبِ سَتُذَكِّرُ
وَالْمُحُ مِنْ أَلْقَاءُ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ عَسَى لِمَحَّةٍ مِنْ نَوْرِ وَجْهِكَ تُسَفِّرُ^(٨٠)

ومن هنا ليس بين الرغبة أو التمحس لكل ما يمس المحبوب أو يحيط به غير خطوة واحدة. وقد نظم الأندلسيون فيما يتصل بهذا المعنى قصائد ذات حنان عذب، والقصائد الرعوية الإغريقية وحدها،

(٧٤) من الطويل، الحلة ١٦/٢.

(٧٥) من البسيط، القلائد ٢٨١.

(٧٦) من المنسر، القلائد ١٨٨.

(٧٧) من الكامل، القلائد ١٢٤.

(٧٨) من الكامل، خريدة القصر في «بنو عباد» ٣٩٢/١، ٤١٠، ٤١١، والديوان ص ٢٠.

(٧٩) من الطويل، الديوان ٤٨٤، البيت ٢١، وكور، ابن زيدون، ص ١٠١. وهذه الأبيات تذكرنا بفقرة وردت في كتاب الحياة الجديدة لدانتى: «حيثى بحرارة بالغة، حتى أنتنى، في لحظة ما، اعتقدت أنتى في عالم السعادة الحقة». الفصل الثانى، تحقيق ميكيل بياربى، فلورنسة، عام ١٩٣٢، ص ١١ - ١٢.

(٨٠) من الطويل، نفح ٨٥/٢، فون شاك، ترجمة باليرا، شعر العرب ١٢٦/١.

هى التى أتاحت لنا قبلهم، فرصة الإعجاب بها. ولنذكر مثلاً هذه الفقرة عن Daphnis et Chloe وهى تقول: آه!، حالمة بدافنيس، ألت أنا نأيه كى استقبل نفخه، كم أتمنى أن أكون مِعْزته، وأن يكون هو مرعاه»^(٨١).

إن الموضوع الذى يمكن أن ندعوه «ياليتنى!..» عرضوا له بكثرة فى إسبانيا الإسلامية فى القرن الحادى عشر، يقول ابن سارة مثلاً

إِنِّ لَمِنْ يَحْظَى بِقَرِيبِكَ حَاسِدٌ وَنَوَاطِرَى يَحْسُدُنْ فَيْكَ رِقَاعَى^(٨٢)
ولكن الموضوع الحقيقى دخل العربية عن طريق الحرف «ليت»، وهو يعنى التمنى فيما يقول النحاة، أى لرغبة والشوق. يقول ابن الدباغ:

يَا لَيْتَنِي الطَّيْرُ فِي كَفِّكَ عَطَعُهُ وَشَرِبُهُ حِينَ يَطْلُمُ مِنْ ثَنَائِيَا^(٨٣)
ويقول نسيب الإسرائيلى بدوره:

يَا لَيْتَنِي كُنْتُ طَيْرًا أَطِيرُ حَتَّى أَرَاكَ
بِمَنْ تَبَدَّلْتَ غَيْرِي أَوْ لَمْ تَحُلْ عَنْ هَوَاكَ^(٨٤)
وقضى المعتمد أن يكون رسالة تاشقة:

حَسَدْتُ كِتَابِي عَلَى فَوْزِهِ بِإِبْصَارِهِ الْغُرَّةَ الزَّاهِرَةَ
فِيَا لَيْتَ شَخْصِي يَكُونُ الْكُتَا بَ، فَتَلَحُّظُهُ الْمَقْلَةُ السَّاحِرَ^(٨٥)

ونختم النقرة بمثلين، أولهما من أبى الفضل الدارمى:

ظَبْبِي إِذَا حَرَكَ أَصْدَاغَهُ لَمْ يَلْتَفِتْ خَلْقٌ إِلَى الْعَطْرِ
غَنَى بِشَعْرِي مَنَشْدًا لَيْتَنِي اللَّ قَبْلَتُهُ فِيهِ وَلَمْ يَدْرِ^(٨٦)
فكلمًا كَرَّرَ إِنشَادَهُ

والمثل الثانى من ابن حزم ويضر لنا لونا متميزًا وملحمًا خاصًا من الحب العميق:

وَدِدْتُ أَنَّ الْقَلْبَ شَقَّ يَدِيَةِ وَأُدْخَلْتُ فِيهِ ثُمَّ أُطْبِقَ فِي صَدْرِي
فَأَصْبَحْتَ فِيهِ لَا تَحْلِينَ غَيْرَهُ إِلَى مُقْتَضَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَالْحَشْرِ
تَعِيشِينَ فِيهِ مَا حَيَّيْتُ فِيهِ أُمْتُ سَكَنْتِ شَغَافَ الْقَلْبِ فِي ظُلْمِ اقْبَرِ^(٨٧)

* * *

Longus, Daphnis et Chloé, Livre I, chap. XIV, parag. 3 (éd. Guillaume Budé, P. 12) CF. aussi (٨١)
Les Anacréontiques, Trad. Meunier, 159, oda XX: «sur une Jeune Fille»

(٨٢) من الكامل، القلائد ٢٦٠.

(٨٣) من البسيط الذخيرة ٣/٣١٦.

(٨٤) من المجتث، نفح ٣/٥٢٢.

(٨٥) من امتقارب، الديوان ١٣.

(٨٦) من السريع، نفح ٣/١١٧.

(٨٧) من النطويل، طوق الحمامة ٩٣، ترجمة نيكل ٩٠، طبعة برشيه ١٦٠.

ولكنها ليست ألاما دائما فيما يتصل بالمحب، وقد عبّر الأعمى التطيلي في روعة بالغة عن هذين الشعورين اللذين ينتابان الشاعر العاشق:

تأملتنى أم المجد قائلةً بمن أراك أسير الوجْد والطرب^(٨٨)

وكلمة «وَجْد» توجد في أبيات من الشعر لا تخصي، وتعني «تباريح الحب، أو الحب المؤلم Amour douloureux»^(٨٩)، أو كلمة «طرب» ومرادفاتها مثل: فرح وسرور ومسرة. ولقد تحدثنا عن الوجد بما فيه الكفاية في الصفحات السابقة، ونذكر الآن بعض الأمثلة لتوضيح الطرب^(٩٠) الذي يحتاج الشاعر أمام فكرة العودة لرؤية حبيبته. فهذه الحالة من الابتهاج، ومن إطرأ إمكانات العاشق، لم يعبر عنها أحد فيما نرى بأفضل مما صنع الأندلسيون، مما يضيف على قصائدهم مذاقا خاصا.

يقول ابن عمار موجّها حديثه إلى قينة جميلة:

نفسى - وإن عذبتُها - تهواك وهزّها طربٌ إلى لُقياك^(٩١)

ويقول رفيع الدولة بن المعتصم:

حبيبٌ إذا ينأى عن العين شخصُ يكاد فؤادى أن يطير من البين
ويسكن ما بين الضلوع إذا بدا كأن على قلبي ثنائِم من عيني^(٩٢)

وأظهر لنا ابن خفاجة من خلال إحدى قصائده: كم هو مثير لمن الحياة عنده لا تعنى شيئا غير المتعة، وقد استرد سمعته أمام أعيننا بهذه الأبيات:

لقد زار من أهوى على غير موعد فعانيتَ بئرَ التّم ذاك التلاقي
وعابتُهُ والعتبُ يحلو حديثُهُ وقد بلغتَ روى لديه التراقيا^(٩٣)
فلما اجتمعنا قلتُ من فرحى به من الشعر بيتا والدموعُ سواقيا
وقد يجمع الله الشيتين بعدما يظنان كل الظن ألا تلاقيا^(٩٤)

ولكن الأبيات الأقوى تعبيرا فيما يتصل بهذا الأمر هي التي نظمها امرأة، هي أم الهنا. هل يمكن أن يدهشنا هذا؟

جاء الكتابُ من الحبيب بأنه سيزورنى فاستعبرتُ أجفانى

(٨٨) من البسيط، الذخيرة ٧٣٦/٢، وعنه نقلها أحمد ضيف في بلاغة العرب في الأندلس ١٦٦.

(٨٩) أشار نيكول في ترجمته لطوق الحمامة إلى المرات التي وردت فيها كلمة «وجد» في أشعار ابن حزم، فهي في النص العربي الذي نشره في الصفحات: ٣٩، ٤٢، ٦٢، ٧٤. وفي الترجمة في الصفحات: ٦١، ٦٤، ٩٦، ١١٤، وغيرها. وفي الهوامش ص ٢٢٩ و ٢٣١ وغيرها.

(٩٠) وهذا ما يدعوه شعراء التروبادور joy، انظر بخاصة: كوهين، تاريخ العصر الوسيط، المجلد ٨، ص ٢١٧ - ٢١٨. وفن العصر الوسيط، ص ٣٥٤، ٣٦٠، ٣٦٢. وجانروا، شعر التروبادور الغنائي ٧٤/١.

(٩١) من الكامل، الحلة ١٦٤/٢، وفي التصويبات من طبعة دوزي ص ١١٤ أن القينة تسمى طرب.

(٩٢) من الطويل، المطمح ٢٢٤، والحلة ٩٤/٢.

(٩٣) التراقي جمع ترقوة، وهي عظمة مشرفة بين ثغرة النحر والعاقل.

(٩٤) من الطويل، الديوان، القطعة ٣٤٠ ص ٣٦٥، ونفع ٢٩٨/٣ و Ecker, Arabischer... Minnesang, 178.

● قلت: البيت الأخير لقيس بن الملوح مجنون ليلي (المترجم).

غلب اسرورٌ علىّ حتى إنّه من عظم فرطٍ مسرّقي أيكافي
يا عينُ صار الدمعُ عندك عادةً تبكين في فرحٍ وفي أحزان
فاستقبلي بالبشرِ يومَ حمائه ودعي الدموعَ ليلية الهجران^(٩٥)

رأينا في السطور السابقة كيف يعتر الشاعر العاشق نفسه عبداً لمحبوبه، وأنه يمضي إلى أقصى الخيال في تبعيته، حتى إنه ينادي بحبيته بلفظ سيدي أو مولاي. ويستخدمون هاتين الكلمتين كثيراً، وبخاصة ابن حزم^(٩٦)، ونلاحظ ذلك عند ابن زيدون^(٩٧) أيضاً.

ومن الغريب أن نلاحظ أن ذلك يـ في صيغة المذكر وليس في صيغة المؤنث، ولكن من الشائع المعروف أن الشعراء يستخدمون ضمير المذكر كما يستخدمون ضمير المؤنث تماماً، ليتحدثوا عن الشخص الذي يحبونه، مما يصعب معه التمييز بين الأبيات التي تشير إلى مذكر وتلك التي غايتها المرأة^(٩٨). ومع ذلك كثيراً ما يستخدم شاعر ضمير المؤنث دون أن يذكر اسم المحبوبة^(٩٩)، وأحياناً يقدم لنا الاسم ملغزاً. يقول عبد الله بن عبد العزيز لمرواني ويقال له: البطرشك Pedra Seca بالعجمية (ومعناها الحجر اليابس):

ومن لا أسميه مخافة عتبه على أن قلبي مستهامٌ بحبه
وبعض اسمه حاءٌ وبا [....] حروفٌ طواها [....]
عليه سلامٌ الله مني مُردداً سلامٌ محبٌ جاد فيه بقلبه^(١٠٠)

ويقول ابن زيدون:

لسنا نسّميك إجلالاً وتكرمةً وقدرك المُنْتلى عن ذاك يغنيننا
إذا انفردت وما شورك في صفةٍ فحسبنا الوصف إيضاحاً وتبييناً^(١٠١)

(٩٥) من الكامل، نفع ٢٩٢/٤.

(٩٦) انظر: طوق الحمامة طبعة نيكول ص ٤٨، ٥٧، ٦٢، ٩٠، ٩٤، وترجمته ص ٧٤، ٨٨، ٩٦، ١٣٨، ١٤٤، وطبعة برشية ص ١٢٠، ١٢١، ١٣٢، ١٣٣، ١٥٦، ١٥٧، ١٧١، ٢٤٨، ٢٥٨، ٢٥٩.

(٩٧) الديوان ص ٤٨ ونفع ٢٢٨١/٣، سيح يقول:

الدهر عبدي لما أصبحت في الحب عبداً

وترجمها كور في كتابه عن ابن زيدون ٥٢، Ecker في المصدر الذي أشرنا إليه فيما سبق ص ١٥٨.

(٩٨) وهو مرسوم لنا إلا نعتبرها منذ اللحظة معادلاً لكلمة midons عند شعراء التروبادور.

(٩٩) انظر عن هذا الموضوع ملاحظات J. Humart في المختارات العربية، ص ٢٠٤ - ٢٠٦. ودي سلان ملاحظات عن المعنى المجازي لبعض الكلمات التي توجد في شعر العربي، ص ١٧٥ و ١٧٨. ونيكل في مقدمته لترجمة طوق الحمامة ص ١٠٢ و ١١٧ و ١١٨. وهدبا في «الجغرافيون العرب»، السلسلة الخامسة، المجلد الخامس، عام ١٨٥٥، ص ٣٦٠ - ٣٦٢.

(١٠٠) أت أن الأفعال والصفات مؤنثة، وتبسط باسم مؤنث مضر، وهو تقليد قديم عند شعراء العرب، انظر مثلاً: النابغة الجعدي في الأغاني، ٥/١٨، والعباس بن الأحنف في الأغاني ١٧/١٨. وج. هل في إسلاميكا المجلد ٢، عام ١٩٢٦، ص ٢٧٦.

و نيكل، كتاب الزهرة ٣١٢، ومقدمته لديوان بن قزمان ص ٤٧ و ٤٨.

(١٠١) من لطويل، الحلة ٢١٧/١، ولم يستطع دوزي أن يقيم بناء البيت الثاني.

(١٠٢) من لبسيط، الديوان ١٤٥، ترجمة كور ص ٧٢.

ويتخذ ابن الحداد الموقف نفسه:

صنْتُ اسْمَ إلفَى فِدَاءًا لَا أَسْمِيهِ وَلَا أزال بِالْفَازِي أَعْمِيهِ^(١٠٣)

ولكننا نعرف أنه لم يكن يتصرف بمثل هذه الطريقة دائما، على الأقل فيما يتصل بالفتاة النصرانية التي ألهمته أجمل قصائده، والاسم الفاتن الذي أعطاه لها نُويْرة، يوجد في كل القصائد التي خصّها بها، ونويْرة ليس اسمها الحقيقي^(١٠٤) فيما يبدو. ولم يرد ابن اللبّانة أن يظهر لنا اسم الفتاة النصرانية التي أحبّها في ميورقة:

من رَامةٍ أو روميةٍ لا علمَ لي أأنتِ عن النعمان أم عن قَيْصِرٍ^(١٠٥)

وقد التزم الأمراء أنفسهم قانون الصمت هذا، ولكنهم لا يحجلون من الخروج عليه، وكان المعتمد إذا ذكر أحيانا زوجته المفضلة يكتفيها أمّ الربيع^(١٠٦)، لكنه لم يتردد في ذكر اسمها بكل حروفه: اعتماد، سواء في قصائد إذا قرئ الحرف الأول من أول كل بيت فيها كَوْن الاسم^(١٠٧)، أو كاملا في بيت من الشعر^(١٠٨)، وصنع الشيء نفسه مع محظياته أيضا. فعرّفنا بهنّ: سحر، وجوهرة، ووداد^(١٠٩).



وتندھش من كثرة تحدّث الشعراء عن شخصية تظهر دائما لتعكر صفوهم، وهو الرقيب. هل يتصل هذا بواقع اجتماعي؟ ذلك ما نحاول أن نتبيّنه بمساعدة بعض الإشارات الواردة في الشعر. يقول المعتمد:

ثلاثةٌ مَنَعَتْهَا عن زيارَتِنَا خَوْفُ الرقيبِ وخَوْفُ الحاسِدِ الحَقِّقِ^(١١٠)

ويقول المعتمد نفسه في مكان آخر:

داري ثلاثه بلطفٍ ثلاثيَ فتنى بِذاك رقيبِه لم يشعر:
أسرارُهُ بتستّر، وأوارِه بتصرّ، وخيالُه بتوقّر^(١١١)

كيف يمكن أن يشعر أمير مثل المعتمد بالخوف على محبوبه من الرقيب والواشي؟. سؤال يمكن أن يعرض لنا دون أن نكون مطالبين بالرد عليه الآن.

(١٠٣) من البسيط، الذخيرة ٧٠٦/١..

(١٠٤) وهو Senhal عند شعراء التروبادور، ويقول ابن بسام إن الاسم الحقيقي لهذه الفتاة المسيحية هو: جميلة، ولا نستطيع أن نقرر أي اسم رومانسي كان يختفي وراء هذه الكلمة. انظر: ابن بسام، الذخيرة ٧٠٨/١.

(١٠٥) من الكامل، المعجب ١٥١، الترجمة ١٢٧، ورامة اسم منطقة في الجزيرة العربية مشهورة بغزلاتها.

(١٠٦) من الطويل، الديوان ص ١٩، وفي الحلة ج ٢ ص ٦٠، ٦٢، ٦. وفي «بنو عباد» ٦٩/٢.

(١٠٧) من المتقارب، الديوان ص ٨، الحلة ٦١/٢، وقد ترجمها دوزي إلى الفرنسية بالطريقة نفسها في تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ٨٩.

(١٠٨) من الكامل، الديوان ص ٢٣، ومن الطويل، الديوان ص ١٠.

(١٠٩) انظر: تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ٩٥ - ٩٦، والمصادر المذكورة هناك.

(١١٠) من البسيط، نفع ٤٢٩/٣، وانظر فيها سبق ص ٢٧٨ من هذا الكتاب.

(١١١) من الكامل، خريدة القصر في «بنو عباد» ٣٨٩/١. والديوان ١٢.

في الأبيات التالية يوجه ابن تشار نداءه إلى قينة تدعى طرب:

نفسى وإنْ عَذَّبَتْهَا نِهْوَكَ وهزُّها طربُ إلى لُقياك
عجبا لهذا الوصل أصبح بيننا متعلِّرا ومُنائى فيه منك
ما بال قلبي حين رامك لم ينل ولقد ترومك مُقلتي فترك
ليت الرقيب إذا التقينا فأنال رياء من لذيد لك^(١١٢)

هناك يمكن الظن أن الرقيب هو موى القينة، والوحيد الذى يستطيع أن يحول بينها وبين حبيبها.

وثمة مثل ثالث، وأخير، يسمح لنا أنه تحدّد بدقة من تكون هذه الشخصية الغامضة، فقد وصف لنا

ابن عبدون انطباعاته عن اليوم الذى خرجت فيه مجموعة من النساء فى رحلة، يقول:

أذهبن من فَرَقِ الفراقِ نفوسا ونثرن من دُرِّ الدموعِ نفيسا
فتبعتهن نظراً الشجى فحدقت رقباهن نحوى عيوننا شوسا

أليس الرقباء فى هذه الحالة هم الأزواج؟.

نستطيع من الأمثلة التى سبقت أن نستنتج منطقياً أن الرقيب هو الرجل الذى له الولاية الأولى على المرأة طبقاً للشريعة الإسلامية، ودر الزوج غالباً عندما تكون المرأة حرة، وأحياناً مولاها عندما تكون قينة، ولكن ما أخاف المعتمد، دين أدنى شك، زوج غيور. وهكذا فى هذا المجتمع الإسلامى، البالغ الصرامة فيما يتصل بالزوجات اشترعات، فإن المرأة المتزوجة تتلقى التكريم من رجل ليس زوجها. هل ما يقوله الشعراء محض خيال، أم على النقيض، كانوا يفعلون عكس العادات الجارية؟ نميل إلى الاعتقاد بأن ما قالوه لم يكن كله لعبة خيال منهم، وهنا نجد برهاناً آخر على الحرية التى كانت تتمتع بها المرأة الأندلسية فى القرن الحادى عشر.

ولكن الرقيب فيما يرى ابن حزم يَحْتَـن أن يكون مجرد فضولى، أو منافس، أو رقيب بأجر من قبل السيد^(١١٤).

والرقيب بمعناه الحرفى «العاس» وجمعه «العسس»، وهو ما يمكن أن نجده فى بيت من لشعر عند أبى عامر بن شهيد، يقول:

وَلَا تَمْلَأْ مِنْ سُكْرِهِ ونام ونامتْ عيونُ العسس^(١١٥)

(١١٢) الحلة ١٦٤/٢، وفى التصويبات من طبعة دوزى ١١٤، وقد ذكرنا البيت الأول فقط ص ٣٦٣ من هذا الكتاب.

(١١٣) من لكامل، نفع ٣٠٥/٤.

(١١٤) طرق الحمامة ص ٨٠ - ٨٢، وفى ترجمة نيكل ٧٣ - ٧٦، وفى طبعة برشيه ١٢٨ - ١٣٥، وترجمة Ecker ص ٢٣ -

٢٦. ويظنون أن الرقيب قريب من معنى garlador عند شعراء التروبادور. انظر: نيكل فى مقدمته لترجمة طرق الحمامة ص ١٠٢.

والهامش رقم ١١٧، وبجلة Arcanum Romanicum، المجلد ١٩، العدد ٢، أبريل - يونيو ١٩٣٥ ص ٧. وكلمة Lauzengier

عند شعراء التروبادور أيضاً. انظر Ecker فى المتصر نفسه ص ٢٨ - ٢٩، وف. ج. كوهين فى فن العصر الوسيط، ص ٣٥٨ و ٣٦٨ و

٣٧٤. وجانرو، شعر التروبادور الغنائى ٧٤٢١.

(١١٥) من استقارب، الشقندى، رسالة فى فضى الأندلس، نفع ١٩٨/٣، وترجمة غرسية غومث لها ص ٦٦، وإن سعيد، عنوان

المرقصات ٥٩، و Ecker. المصدر المذكور ص ١٩١، وثمة حكاية مثيرة أوردتها لنا ابن حزم ومؤداها أن العسس كانوا ينصرفون فى

ساعة معينة من الليل، وأن سيدة البيت أرادت أن تحتنم وحدتها، لأن زوجها كان خارج البيت لأمر مهم، لكى توقع فى حباتها ضيفا

بالغ الشباب والجمال. انظر: طرق الحمامة ص ٢٠٦. ترجمة نيكل، طبعه برشيه ٣٧٤.

وإذا كان المحب غيورا على محبوبة، فهو أيضًا غيور من سعادته، ويقال أن المعتضد^(١١٦) كان .. غيورًا جدًا، ويقول أبو حفص بن بُرد:

قلبي وقلبك لا محالة واحدٌ شهدتُ بذلك بيننا الأنحاضُ
فتعال فلننظِّم الحسودَ بوصلنا إنَّ الحسودَ بمثل ذاك يغاظ^(١١٧)

والشخصية الأخرى التي تلعب دورا هاما، بعد الرقيب، في حياة العشاق هو الواشى، وهو الذى يحاول التفرقة بين المتحابين منتقضا الرجل أمام المرأة، يقول ابن زيدون:

لما اتَّصلتِ اتصالَ الخَلْبِ بالكَيْدِ ثم امتزجتِ امتزاجَ الروحِ بالجسدِ
ساءَ الوشاةُ مكافئَ منك، واتقدت فى صدرِ كلِّ عدوِّ جمرَةَ الحسدِ^(١١٨)

وإذا كان الواشى يحاول أن يثير الحبيبة ضد الحبيب، فإن العاذل تحت قناع الناصح المخلص يحلم بأن يلعب الدور نفسه إلى جانب المحب، ومن جانب آخر فإن هذا الدور يمكن أن يقوم به رجل أو امرأة على السواء. يقول ابن مقانا:

وأناجى فى الدجى عاذلتى وئيك لا أسمع قَوْلَ العاذلينِ^(١١٩)

والرجل المشتعل حبا يصدق لا يأخذ فى الاعتبار المذمات والنقائص التى يوجهها العاذل إلى محبوبة، يقول إبراهيم الحجارى، جدُّ الحجارى المؤرخ صاحب «المسهب».

كُنْ كما شئتَ إئتِ لا أحولُ غيرُ مصغٍ لما يقول العذولُ^(١٢٠)

إن خضوع الشاعر للحب لا يتطلب بالضرورة أن يتخلى نهائيا عن كل قدراته أمام طغيان المحبوب.

ومن الضرورى أن نوضح أن الكلمات التى تعبر عن تحكيم الحب، أو تدخل قانون الحب، تتردد بكثرة عند شعراء مثل: الرمادى وابن عمار والمعتمد ورفيع الدولة فى صيغة: حَكَمَ بين وبين، أو حكم الهوى بالعدل، أو حكمه فى مهجتي حسنه، أو حكم الحب، أو دين الهوى.

(١١٦) من الطويل، الحلة ٤٤/٢، وبنو عباد ٥٧/٢.

(١١٧) من الكامل، نفح ٥٤٥/٣، وانظر أيضا طوق الحمامة ص ٩٧ وترجمة نيكل ٩٦، وطبعة برشيه ١٧٠، ويقابل كلمة الحسود لفظ enuejos عند شعراء التروبادور.

(١١٨) من البسيط، الديوان ١٦٨، وكان أبو الصلت أكثر صراحة حيث يقول:
قالوا: ثنى عنك بعد البشر صفحته فهل أصاخ إلى الواشى فغيره
فقلت: لا بل درى وجدى بعارضة فرد صفحته عمدا لأبصره
وهى من البسيط، نفح ٤٨١/٣.

وعن الواشى بعامته، والمقارنة بينه وبين Lâu Zemgier عند شعراء التروبادور انظر: طوق الحمامة ص ٨٣، وترجمة نيكل ص ٢٧٧، وطبعة برشيه ص ١٣٤، وترجمة Ecker ص ٤٢، وبلاشير، أبو الطيب المتنبى ص ٤٩، والهامش رقم ١.
(١١٩) من الرمل، نفح ٤٣٣/١.

(١٢٠) من الحفيف، نفح ٤٢٥/٣، وعن العاذل انظر: طوق الحمامة ص ٧٦، وترجمة نيكل ٦٧، وطبعة برشيه ١١٨، وEcker Arabischer... Minnesang ص ٤٩، ور. ياسيه، بردة الشيخ البوصيرى ص ١١، ويتحدث ابن قزمان كثيرا عن العاذل أيضا، انظر: ديوان ابن قزمان، طبعة نيكل، القوائد ١٣ و ٣٢ و ٤٦ و ٦١.

وإذا كان لشاعر المشرقى العباس بن الأحنف، المتوفى نحو ١٩١ = ٨٠٦، وجد التعبير الذى اشتهر: سلطان الهوى^(١٢١)، فإنه لم ينع حد تشخيص الحب كما فعل الشعراء الأندلسيون، فأوجد أبو عامر بن مسلمة تعبير «ملك الصبا»^(١٢٢)، وابن خفاجة «داعى الصبا»^(١٢٣)، وابن حمديس «ملك الهوى»^(١٢٤)، ولم يذهبوا بعيداً جداً فبيتدعوا إله الحب.

لقد تمثّلوا لحب ملكاً يستطيع أن ينير الأمور بعدل، ولكنه لا يمكن أبداً أن يصل إلخ حكم نهائي يسعد الطرفين، حتى عندما يكون المحب هو الذى طلب التحكيم، ويعرف سلفاً أنه سوف يكون مداناً طبقاً لحكم الهوى، وقد ردّ الخليفة سليمان المستعين على أبيات العباس بن الأحنف التى يتحدث فيها عن سلطان الهوى. يقول:

حاكمتُ فيهنّ السلوّ إلى الضنى فيقضى بسلطان على سلطان
لا تعذلوا ملكاً تذلل لمهوى ذل الهوى عزّ وملك ثان^(١٢٥)

وقد أظهر أبو القاسم بن العطار أثر عدالة الحب تختلف عن عدالة البشر، لأن الأولى تنهض على مفاهيم ثقافية خالصة، على حين أن الأخيرة تقوم على النقل. يقول:

دينُ الهوى شرعُهُ عقلٌ بلا كُتب كما مسائله ليست لها حُجج
لا العدل يدخل في سمر المشوق ولا شخص السلوّ على باب الهوى يلج^(١٢٦)



وبدل أن يستند الشعراء إلى جوهر الحب فضّلوا أن يخضعوا لحالاتهم لرجال مثلهم، وكنهم يحكم وظائفهم متمكين تماماً في البحث عن الحلول الأقرب إلى العقل والقانون، وأعنى بهم الفقهاء. وكان القاضي منذر بن سعيد البلوطي، المتوفى ٣٥٥ = ٩٦٦ أول من يُستشار في مثل هذا النوع من القضايا، فيها يدو^(١٢٧)، وفي مطلع القرن الحادى عشر سأل أبو الفضل الدارمي في بلاط المأمون بن

(١٢١) ديوان العباس بن الأحنف ص ١٦٢. وتنسب أيضاً إلى هارون الرشيد، وانظر أيضاً: الحلة ٩/٢، والبيان المغرب ١١٨/٢، والمعجب ٤٦، وترجمته ٣٨، وأعمال الأعلام ١٢٢، ونفع ٤٣٠/١، ورييرا، موسيقا مذائح العذراء ٨٧. ويوجد هذا التعبير عند الجاحظ في البيان والتبيين، طبعة السندوبى ١٧٣/١، ويقول: «قال رباني: القلب ضعيف، وسلطان الهوى قوى، ومدخل خدع الشيطان خفى».

(١٢٢) من الكامل المطمح ٢٠٦، ونفع ٥٤٥٣.

(١٢٣) الديوان، القطعة ١٦٥، ص ٢١٩، البيت رقم ٣٠، نفع ٥٣٩/١ البيت ١٣.

(١٢٤) الديوان، ص ١٥٥، القطعة ١١٠، لمبيت ١٩.

(١٢٥) من الكامل، المعجب ٤٥، وترجمته إلى لفرنسية ٣٨، والحلة ٩/٢، والذخيرة ٤٧/١، والبيان المغرب ١١٨/٣، وأعمال الأعلام ١٢٢.

(١٢٦) من السيط، القلائد ٢٨٧.

(١٢٧) نفع ٢٢/٢. وكان أحد الأدباء قد كتب إليه في هذه القضية بهذين البيتين، وهما من السريع:

مسألة جتتك مسفنياً عنها، وأنت العالم المستشار
علام تحمر وجوه الظبا وأوجه العشاق فيها اصفرار

فأجاب منذر بقوله:

احمر وجه الظبى إذ لحظه سيف علي العشاق فيه احورار
واصفر وجه الصب سانأى والشمس تبقى للمغيب اصفرار

ذى النون أمير طليطلة أسرة الأمير عن موضوع الورود التي تتفتح في وجنة المحبوب بتأثير نظرات المحب:

يَزْرَعُ وَرْدًا نَاضِرًا نَاطِرِي فِي وَجْنَةٍ كَالْقَمَرِ الطَّالِعِ
أَمْنَعُ أَنْ أَقْطِفَ أَزْهَارَهُ فِي سُنَةِ الْمَتْبُوعِ وَالتَّابِعِ
فَلَمْ مَنَعْتُمْ شَفْتِي قَطْفَهَا وَالْحُكْمُ أَنَّ الزَّرْعَ لِلزَّارِعِ^(١٢٨)

وكانت هناك أربع إجابات في الحقيقة عن حالة الحب هذه، ولو أنها جاءت متأخرة، مستخدمين جيل فتوى فقهية غرامية، مع احتفاظهم دائمًا بالإيقاع الممتاز للحوار الأكثر أدبًا. وقد وصلنا من إسبانيا الإسلامية في القرن الحادي عشر فتويان، الأولى أصدرها ابن حزم، وكان يعتبر في ذلك الوقت الفقيه الأكثر علمًا في الفقه والمحب على السواء، ولن نذكر له إلا هذا البيت:

أَيَحْرُمُ أَنْ نَالِنِي قَبْلَهُ غَزَالٌ تَرَشَّفُ فِيهِ الْغَزْلُ؟

ويرد ابن حزم في نفس الإيقاع خفيف الدم، وبنفس القدر من الأبيات التي تضمنت السؤال، ولن نذكر إلا البيتين الأخيرين منها، لأنها، فيما نرى، يشيران إلى بعض الفقهاء الأكثر شهرة في الغرب الإسلامي:

فَقِي أَخَذَ أَشْهَبَ عَنْ مَالِكٍ عَنْ ابْنِ شَهَابٍ عَنِ الْغَيْرِ قُلْ
بَتَرَكِ الْخِلَافِ عَلَى جَمْعِهِمْ عَلَى أَنْ ذَلِكَ حَلٌّ وَبَلْ^(١٢٩)

والاستشارة الثانية أعلنها شاعر مجهول من الأندلس^(١٣٠)، وتقدم بالسؤال مباشرة إلى محبوبه: الْحَاضِرُكُمْ تَجْرُحُنَا فِي الْحِشَا وَلِحَظْنَا بِمُجْرَحِكُمْ فِي الْخُدُودِ
جُرْحٌ بِجُرْحٍ فَاجْعَلُوا ذَا بَذَا فَمَا الَّذِي أَوْجَبَ جُرْحَ الصَّدُودِ^(١٣١)
وقد تولت الرد عليه امرأة: وَلَادَةُ بِنْتُ الْمُسْتَكْفَى:

أَوْجَبَهُ مِنِّي يَا سَيِّدِي جُرْحٌ بِخَدِّ لَيْسَ فِيهِ الْجُودُ
وَأَنْتَ فِيمَا قَلْتَهُ مُدْعٍ فَأَيْنَ مَا قُلْتَ وَأَيْنَ الشُّهُودُ^(١٣٢)

هذا الحوار حول الحب في إسبانيا الإسلامية في القرن الحادي عشر الميلادي لابد أن يدفعنا إلى التفكير في «محاکم الحب» التي ازدهرت في فرنسا فيما بعد.



(١٢٨) من السريع، نفع ١١٢/٣، و ١٦٧ - ١٦٦، Ecker, Arabisch er... Mimme sang,

(١٢٩) من المقارب، نفع ١٦٠/٤.

(١٣٠) ينسبها نفع ١١٥/٤ - ١١٦ إلى شاعر من الجزيرة الخضراء أو إلى ابن شرف، وينسبها ابن دحية إلى أمة العزيز السريفة الحسبية. المطرب ص ٦، وعنه نقلها نفع ١٦٩/٤.

(١٣١) نظر المصادر التي في الهاشر السابق.

(١٣٢) من السريع. سب ابن بيانه هذه الأبيات لولادة، وكذلك دوزي في فهرس المخطوطات العربية في مكتبة أكاديميه Lugduno Batavae ٢٤٥/١، وعنه نقلها ليرتشوندي وسميوتيت، في «منتخبات عربية» ص ١٢٦، القطعة ١٣٨، ونسبها نفع الطيب ١٧٠/٤ إلى أبي الفضل قاسم العقباني وكان معاصرا للمقرى.

لو لم تختلط اندفاعات الشعراء نحو من يجيئون باهتمامات شهوانية ليدت رائحة للغاية، ولكن يجب أن نعترف بأن الكثيرين منهم كانوا يرون أن المتعة الحقيقية الوحيدة التي يبحثون هي التمتع بحضور المحبوب. وهذه العفة، وهي الملمح الوحيد الدال على احترام الرجل للمرأة التي يفكر فيها، نجدها موقفاً طبيعياً عند بعض شعرائنا الأندلسيين، وفي القرن العاشر الميلادي قال أبو عمر بن فرج الجياني:

وطائفة الوصال عفتُ عنها وما الشيطان فيها بالمطاع
بدت في الليل سافرةً فاتت دياجي الليل سافرة الناع
وما من لحظة إلا وفيها إلى فتن القلوب لها دواعي
فمِلَكْتُ النَّهْيَ جِهَاتٍ شوقى لأجرى بالعفاف على طباعى
وبت بها مبيت الطفل يظا فيمنعه الفطام من الرضاع
كذلك الروض ليس به لثلى سوى نظير وشم من مناع
ولست من السوائم مهلاتٍ فأخذ الرياض من المراعى^(١٣٣)

وفي القرن الحادى عشر، على الرغم من ارتخاء العادات، وربما بسبب سهولة تحقيق اتع، أعطى الإسباني المسلم الانطباع بأنه يشاق لحظة حب عفيف مصقول، ليس فيها مكان لغير القلب والروح، ويشبه أبو الفضل بن شرف حبيبته بالحديقة:

إِنْ نَلْتُ رِيَّاهُ لَمْ أَطْمَعْ بِطَعْمِهِ لِأَنَّ رَوْضَ الصَّبَا نَوْرٌ بِلَا ثَمَرٍ^(١٣٤)

وعندما وصف ابن الأبار الخولاني لب أمضاها رفقة محبوبه يقول في أبيات تذكرنا بأبيات ابن فرج الجياني:

أردتُ توسيده خدى وقلّ له فقال: كَفُّكَ عِنْدِي أَفْضَلُ سَوْدٍ
فباتَ في حِرمٍ لا غدرَ يَدْعُرُهُ وبِتَ ظَمَانٍ لَمْ أَصْدُرْ وَمِ أَرْدٍ
تَحِيرُ اللَّيْلُ مِنْهُ أَيْنَ مَطْلَعُهُ أَمَا دَرَى اللَّيْلُ أَنَّ الْبَدْرَ فِي عَضْدِي^(١٣٥)

وقدّم لنا ابن خفاجة الأسباب اخلقية لعفته:

فإننى والعفاف من شِمْىِ آيِ الدنایا وأعشَقُ الحسنة^(١٣٦)

أليس من الأفضل أن يحل اتحاد الآواح من خلال الفكر حال اليقظة، وفي الأحلام أثناء النوم، محل الصلة الحسية؟ إن ابن حزم يترك الحب على هذه الطريقة:

(١٣٣) متن الوافر، المطمح ٣٢٥، والشقدي، رسالة في فضائل الأندلس، في نفع الطبيب ١٩٦/٣، وترجمة غريغ غوث لها ص ٦٣، وأوردها نفع الطيب مستقلة مرة أخرى ٤٣٧/٣، ومرة ثالثة في ٤٦/٤. وردد الجياني الفكرة نفسها في قصيدة أخرى من الوافر، توجد في المطمح ٣٣٥، وأوردها نفع لطيب مرتين، الأولى في ٤٣٧/٣ والثانية في ٤٨/٤.
(١٣٤) من السسط، القلائد ٢٥٤

(١٣٥) من البسيط، ابن خلكان، وفيات الأعيان ٤٤/١، وترجمة دى سلان ١٢٥/١، الأبيات: ٦ و ٧ و ٨.
(١٣٦) من المنسرح، الديوان، القطعة ٧١، ص ١٢٢، وما نفهمه من ابن خفاجة يسمح لنا أن نقرر بأن «العف» فيها إراء، وآخرون كثيرون، ليس الامتناع الكامل، أى «الصّة» كما نفهمها نحن طبقاً للمفاهيم الغربية، وإنما تعنى الإخلاص للمرأة نفسها وواحدة.

أغار عليك من إدراك طرفي وأشفق أن يذيبك لمس كفى
فأمتنع اللقاء حذار هذا وأعتمد التلاقي حين أغفى
فروحي إن أنتم بك ذو انفراد من الأعضاء مُستتر ومخفى
ووصل الروح ألطف فيك وقعا من الجسم الموصل ألف ضَعْف^(١٣٧)

هل نحن بصدد الحب الأفلاطوني، أو على الأقل الحب العذري، والذي يُنسب إلى قبيلة بني عذرة العربية في شبه الجزيرة العربية^(١٣٨)؟. يمكن القول إن الأمر على هذا النحو لأن ابن سارة يستخدم الكلمتين معا، العذري والعفاف، لكي يحدد فكره:

وزائر زار في ليل كَلَمْتِه فقام عندي إلى صُبح كَفَرْتِه
نادمته والهوى العذري ثَلثنا والراح تنضج في عقلي كَفَلْتِه
لما تناول منها فوق حاجته ومال كالغصن محتاجا لنومته
عفت عنه عفاف الحى مقتدرا وعفة المرء فضل عند قدرته^(١٣٩)

وقد ذهب الأندلسيون بعبادة المرأة إلى حد بعيد جدا، ويمكن القول بحق أن الشعراء لم يصنعوا شيئا أكثر من أنهم عكسوا أفكار مجتمعهم، وإذا كان لكثير من معاصريهم أفكار مختلفة فقد استطاعوا تحت تأثير هذا الأدب المصفى دائما أن يعدلوا موقفهم إزاء المرأة، وأن يقووا في أنفسهم علاقتهم بها، لكي يجعلوها تبرز أكثر صفاتها الطبيعية، أو إن شئت الدقة لتكون أكثر فطنة، وألطف رقة، وأروع تهذبا، وأصقل ذوقا. هل لنا الحق أن نطلق كلمة «عفيف مهذب Courtoisie» أمام هذا الاحترام الفروسى للمرأة؟. الحق أننا نجد في تقدير المرأة هذا عناصر كثيرة من الحب المهذب كما حلله ديبين في دراسة قريبة^(١٤٠): لقاء حار، وقرى للضيف، ووفاء وإخلاص، وحلاوة وبهجة وحب، ولكن عبثا نبحت عن التناقض بين الحب المهذب والمتدنى كما هو في العصر المسيحي الوسيط. والنماذج المحموده في أسبانيا الإسلامية ليست مميزة للطبقة المتميزة، أنها تمتد في كل مكان، وتظهر عفويا، ملونة هنا وهناك بالسخرية البريئة، وبالتريبة المصقولة، وليست مفرطة في المجاملة أبدا. وهذا شيء مؤكد، حتى أن

(١٣٧) من الوافر، الطوق ١٣٢، ترجمة نيكل ١٤١، طبعة برشيه ٢٥٢، وفيها يرى ابن داود الأصفهاني وقد سبق ابن حزم، فإن المثل الأعلى للحب، كما أظهر ماسينيون، ليس في الملكية المشتركة التي تجمع بين جسدين، وإنما في التخلي المتبادل حيث تخلد الرغبة، الحلاج ص ١٨٠.

(١٣٨) انظر حول هذا الموضوع الأب لامنس، مهد الإسلام ١/ ١٨٩ و ٢٨٩. وبخاصة ماسينيون، الحلاج، وقد ألفه عام ١٩١٤ ونشره عام ١٩٢١، ص ١٧٣ و ١٧٩ و ٦٩١، الهامش رقم ٤ و ٧٩٧ الهامش رقم ٤. وقد أوضح ماسينيون أن نظرية «الحب الأفلاطوني» (وكانت موضع نقد الجاحظ منذ مولدها...)، وقد تلقاها ابن حزم من المذهب الظاهري لمؤسسه ابن داود، أخذ بها بعض علماء العقيدة الآخرون، وبخاصة الأحناف». وفي إسبانيا لابد أن هذا الحب كان بين أسباب عنصرية أخرى. انظر: آسين بلاتويوس، ابن حزم ٤٨/١ - ٦٣.

● لتكملة الفكرة يمكن العودة إلى كتابي: دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة، ط ٣ ص ١٨٩ - ٢٠٩، دار المعارف، القاهرة ١٩٨١. (المترجم).

(١٣٩) من البسيط، ابن ليون، لمح السحر، الورقة ٣٧ ب. ولم نجد تعبير الحب «العذري» إلا مرة واحدة فقط في بيت لابن قمر من شعراء القرن التاسع الميلادي، في نفع الطيب ١٤١/٣، ويسخر ابن قزمان في أحد أزجاله من الحب الأفلاطوني، الديوان، القطعة رقم ١٢٣ الدور ٣.

(١٤٠) هـ ديبين، الحب العفيف في العصور الوسطى، باريس ١٩٣١.

الأندلسيين ليست لديهم كلمة أخرى للتعبير عن لطف العادات هذا، وعن هذه النزعة الطبيعية، وهى الظرف أو الأدب، وكلاهما قديم، وكانا يعبرن في القرون الإسلامية الأولى، بعد أن استقرت حضارة الإسلام في المدن، عن فكرة الأناقة الطبيعية، وقد امتزجت بالمعارف المتنوعة التى تقبل فكر، حيا وذدهنا حاضرا. يقول صاحب لسان العرب اعتمادا على لغوى قديم: الظريف مشتق من الظرف بمعنى الوعاء، أى كما لو كان الإنسان يستخدم وعاء للأدب ومكارم الأخلاق^(١٤١). يبين المؤلف نفسه، في الوقت ذاته، أن ذلك لا يطلق فقط على لشبان والشابات، إذ يمكن أن يكون المرء في الأندلس ظريفا في أية مرحلة من مراحل العمر، أى «رجلا عفيفا ومهذباً»، وبخاصة حين يفرق بوضوح بين الأسلوب والتوق في الأفعال الأكثر جمالا ونزاهة، حيثئذ يمكن أن يستحق هذا الوصف. ويحكى الحصرى أيضا، وكان أعمى، قصة ليلة أمضاها مع صديقه:

قالت: وهبتك مهجتي فخذ ودع الفراش ونم على فحذى
وثنت إلى مثل الكتيب يدى فأجبتها نعم الأريكة ذى
وهمت لكن قال لى أدبى: بالله من شيطانها استعذ
قالت: عفت فعت، قلت لها: مُدْ شَبْتُ بالذات لم أُلْ^(١٤٢)

ويجعل الأعمى التطيلي صديقه، هو يسر إليها خجلا بما يعانى، تقول:
فأعرضت ثم قالت: قد أسأت بنا ظنا، أيجمل هذا من ذوى الأدب
وهو لا يتردد أن يؤكد:

لله مثلى ما أدنى سجيته من المعالى وأناها عن الريب^(١٤٣)

ثم، أليس مارسه الخليفة المستظهر بالله في البيت التالى من الشعر، وقد توجه به إلى ابنة عمه
حبيبة، صورة موجزة للرجل العفيف :

جمال وأدب وخلق موطأ ولفظ إذا ما شئت أسمعك السحرا^(١٤٤)

وبالأدب والظرف حاول ابن زيدن أن يصف نفسه:

لا افتنان كافتنى فى حلى الظرف الحسان
خصنى بالأدب الد - فأغلى فيه شانى
خاطرى أنفذ - مها قيس - من حد السنان^(١٤٥)

إن الحب الذى رأينا في التحاليل السابقة بعض ملامحه المميزة يظل وصفه ناقصا إذا لم نعرض لما

(١٤١) لسان العرب ١١/١٣٣، وعن المعنى الدقيق ككارم الأخلاق انظر: دائرة المعارف الإسلامية، الملحق، الكذ ٢ ص ٣، وكتب المادة بشر فارس.

(١٤٢) من الكامل، الذخيرة ١٤١/٢ و ١٤٢، ولصفدى، نكت الهميان ص ٧٣.

(١٤٣) من البسيط، أحمد ضيف، بلاغة العرب ع ١٦٦.

(١٤٤) من الطويل، الذخيرة ٥٦/١، والحلة ١٤/٢ وتاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ ج ٢ ص ٣٢٥.

(١٤٥) من الرمل، الديوان ٥٩٥، وانظر أمثلة أخرى لكلمة ظرف فيه سبق ص ٢٥ و ٦٧ و ١٥٧ وفيها بعد، ص ٣٨٩ من هذا الكتاب.

يمكن أن يكون النقطة الجوهرية، أريد أن أقول قيمته تشريفاً، لأن الألم الذى يحسه المحب لا يذهب عبثاً، والعبودية التى يخضع لها الرجل الحر قوة قادرة على كل شيء وليست ذلّة، يقول الخليفة سليمان المستعين:

لَا تَعْبَذُوا مَلَكًا تَذَلُّ لِلْهُوَى ذُلُّ الْهُوَى عِزٌّ وَمَلِكٌ ثَانٍ^(١٤٦)

إن الحب يحو الفوارق الطبقية، ويرفع العامة إلى مستوى الخاصة، ويجعل من المحب المغفور النسب فى مستوى نبل سيده أفكاره، وما من أحد يمكن أن يعبر عن خصائص هذا الحب المشرف مثل ابن زيدون الذى أحب ولادة بنت الخليفة المستكفى:

مَاضِرٌ أَنْ لَمْ نَكُنْ أَكْفَاءَهُ شَرْفًا وَفِي الْمَوَدَّةِ كَافٍ مِنْ تَكَافِينَا^(١٤٧)

ومضى ابن عمار بعيداً فى محاولته التقاط نفس الجوهر فى عظمة الحب:

جَاهُ الْهُوَى - فَاسْتَشْعِرْهُ - عَارُهُ وَنَعِيمُهُ - فَاسْتَعِذْ بِهِ - أَوَارُهُ
لَا تَطْلُبُوا فِي الْحُبِّ عِزًّا إِنَّمَا عِبْدَانُهُ فِي حُكْمِهِ أَحْرَارُهُ^(١٤٨)

ألا يعنى ذلك، فى ضوء هذه المقابلة المدهشة، أن الألم والتذلل يشرفان الرجل المحب، وأتأ لا نقع فى الغواية حين نرى فيه مفهوماً مسيحياً؟. إن الشعر الأندلسى، فى بعض مجالاته، ذو إيقاع خاص به يجمله المشرق، وبرهناً على ذلك فى مناسبات عديدة، ورغم أنه يقلد الأدب العربى فى أشكاله التى تعود إلى العصر الجاهلى أو القرون الإسلامية الأولى حاول أن يؤكد أصالته بطريقة نوعية، حين يعبر عن مشاعر أهله وأفكارهم، وسنرى مزيداً من هذه المظاهر فى الفصول التالية.



لا تقدم الصفحات السابقة غير جوانب الحب الرئيسية، كما هو حقا وكما يدركه الرجال. ويمكن أن نسأل، وهو سؤال مشروع، عما إذا كانت المرأة لم تعبر بنفسها عن فكرها حول شعور، هو بطبيعته، يسهن بعنف أقوى وعمق أشد.

يكر أن نوضح، فى المقام الأول، أن الشاعرات الأندلسيات، وكثيرات بدءاً من القرن التاسع وحتى القرن الثالث عشر، عكسن بصدق الأفكار الاجتماعية والدينية التى كانت سائدة فى عصرهن، وحتى نهاية القرن العاشر كن يشغلن أنفسهن بالعلوم اللغوية أو الدينية، وكان من بينهن فقيهات وزاهدات، والأغلبية منهن عملت فى كتابه المصاحف^(١٤٩)، ذلك أن العادات فى قرن كان فيه على المنصور نفسه أن ينحن أمام الفقهاء ما كانت تسمح للمرأة أن تستجيب بصورة ما تراه يتفق مع طبيعتها، وأن تعبر عن المشاعر التى تحسبها فى عفوية كاملة ومرغوبة. وأمّا فى القرن الحادى عشر فكانت المرأة تهدف إلى أن تحتل مكاناً فى الصف الأول من المجتمع، وقد جعل منها ازدهار الشعر

(١٤٦)، انظر ص ٣٦٨ من هذا الكتاب، الهامش رقم ١٢٥.

(١٤٧) من البسيط، الديوان ص ١٤٥، البيت ٢٩ من النونية، وكور، ابن زيدون ص ٧٢.

(١٤٨) من الكامل، المعجب ١١٢، وترجمته ٩٥.

(١٤٩) كان بالربيع الشرقى من قرطبة منه وسبعون امرأة، كلهن يكنين المصاحف بالخط الكوفى. انظر: المعجب ص ٣٧٢.

وترجمته ص ٣١٥.

العاطفى كائنا ناضجا ومثاليا، وأظهر لنا أن امرأة الأندلسية، رغم أنها منفية في الحريم وأنها تمتنع بحرية نسبية، كانت تشعر مثل الرجال تقريبا، تطالب مثلهم بحقوقها في الحياة. ولم يكن لدى ولادة، كما رأينا، أية أسباب تجعلها تحسد الحرية التي يعيشها عشاقها، كابن زيدون وابن عبدوس، وأحيانا كانت الكلمات التي توجهها إليهم تشهد لها بحرية تكاد تكون تامة في مواجهة «الجنس الخشن»، وعلاقتها بامرأة أخرى، هي مهجة، وليس هناك أدنى شك في هذا، إذ تشهد عليه بعض أبيات شعرها^(١٥٠)، تظهر أنها كانت تسخر من المواضع الاجتماعية القائمة. هل يمكن أن يكون الحب في نظر امرأة رجلة مثل ولادة شيئا آخر غير الحب المادي؟ وعندما بدأت علاقاتها بابن زيدون عبرت عن انفعال قوى ومتوهج، فهل كانت تومئ إلى اسعادة التي تحلم بها فعلا ولكنها تتخفى وراءه؟:

ترقب إذا جنّ الظلام زيارتي فإني رأيت الليل أكنم للسّر
وبى منك مالو كان بالشمس م تلج وبالبر لم يطلع وبالنجم لم يسّر^(١٥١)

ثم نحن بإزاء عاشقة تظهر الغيرة من هوى عابر لابن زيدون مع جارية سوداء لها^(١٥٢)، ولم تلبث أن فاض بها الملل، ولكي تقطع ولادة للصبي أملها بلغ بها الحد أن تكتب أبياتا من لشعر غير محتشمة، وهى تظهر، ربما أوضح من علاقاتها غير السوية، الحرية التي كانت تحتفظ بها لنفسها أمام الجنس الخشن^(١٥٣).

وقد أظهرت مهجة صديقة ولادة الخشونة نفسها في علاقاتها مع الرجال، ووجدت في ولادة أستاذة جيدة^(١٥٤). ووراء هؤلاء المسترجلات اللاتي أعطين قليلا من قلوبهن مجموعة من النساء يتجسد فيهن حقا لطف الأندلسيات وفننتهن.

لقد ذكرنا فيما سبق أبياتا لأُم الهنا^(١٥٥)، تحتلط فيها البهجة بالدموع، وهى شاهد صدق على أن شعورها كان في قمته، وابنة المعتصم صاحب المرية الأميرة أم الكرام، التي عشقت فتى جميلا من دانية يدعى السمار، أى بائع القرنفل، أو صنعه أو الحداد الذي يصنع المسامير، وهى تعبر عن حبها في كلمات بسيطة ولكنها مثيرة:

يامعشر الناس ألا فاعجبوا مما جنّته لوعة الحب
لولا لم ينزل بيدر الدجى من أفقه العلوى لسترب
حسبى من أهواء، لو أنه فارقتى تابعه قلبى^(١٥٦)

وقد تركت لنا أم العلاء بنت يوسف الحجازية بعض المقطعات الشعرية، وفي بعضها تتجيدنا على دلالها امرأة، حين ترد في الحقيقة عن رجل أشيب عشقها وطلب الزواج منها:

(١٥٠) نفح ٢٩٣/٤، ٦٣٣/٢، والهامش ٥ من الطبعة الأوربية.

(١٥١) من الطويل، كور، ابن زيدون ٢٣، ونفح ٢٠٦/٤.

(١٥٢) كور، المصدر السابق ٢٨، ونفح ٢٠٥/٤، وص ٢٣٩ فيما سبق من هذا الكتاب.

(١٥٣) كور، المصدر السابق، ص ٤٩ - ٥٠ في الهامش.

(١٥٤) نفح ٢٩٩٣/٤، وهنا شاعرة أخرى من غرناطة تحمل الاسم نفسه، نفح ٢٨٧/٤.

(١٥٥) انظر فيما سبق ص ٣٦٣ من هذا الكتاب.

(١٥٦) من السريع، نفح ١٧٠/٤، وانظر أبحاث لدوزى ط ١ ج ١ ص ٢٦٤، وفون شاك، شعر العرب ١٣١/١.

الشَّيْبُ لَا يُجْدَعُ فِيهِ الصُّبَايَا بِحِيلَةٍ فَاسْمَعُ إِلَى نُصْحِي
فَلَا تَكُنْ أَجْهَلُ مَنْ فِي الْوَرَى يَبِيتُ فِي الْجَهْلِ كَمَا يُضْحِي^(١٥٧)

ونجد حرارة العاطفة قوية عنده حمدة بنت زياد المؤدب، من وادي آش، تقول:

وَلَمَّا أَبَى الْوَاشُونَ إِلَّا فِرَاقَنَا وَمَالَهُمْ عِنْدِي وَعِنْدَكَ مِنْ ثَارٍ
وَشَنُّوا عَلَى أَسْمَاعِنَا كُلِّ غَارَةٍ وَقَلَّ حِمَايَ عِنْدَ ذَاكَ وَأَنْصَارِي
غَزَوْتَهُمْ مِنْ مُقْلَتَيْكَ وَأَدْمَعِي وَمِنْ نَفْسِي بِالسَّيْفِ وَالسَّيْلِ وَالنَّارِ^(١٥٨)

وفي بلاط بني عباد نرى من الضروري أن نشير إلى أساء ثلاث نسوة: العبادية، والرميكية أو اعتماد، وبثينة، أما العبادية فهي جارية قدّمها مجاهد أمير دانية إلى المعتضد، وكانت «أدبية ظريفة، كاتبة شاعرة، ذاكرة لكثير من اللغة»^(١٥٩)، تقول الشعر في سهولة، ولكن البيت الوحيد الذي نظمته ووصلنا، عندما كان الأمير نائبا إلى جوارها، لا يظهر لنا شيئا متميزا من ذكائها.^(١٦٠)

وقد أصبحت الرميكية زوج المعتمد، وأخذت اسم اعتماد، وأضحت شاعرة ممتازة، ولكن البيت الوحيد الذي وصلنا من أبداعها موضع شك كبير في صحة نسبتها إليها^(١٦١). ولم تكتب بثينة ابنة المعتمد من زوجها اعتماد أكثر من أحد عشر بيتا، ثابتة التعبير، رصينة الإيقاع، وكانت كافية لتخليدها. وبعد سقوط إشبيلية في يد المرابطين حاولت الهروب، ولكنها وقعت في يد رجل يجهل حالها، فباعها إلى تاجر، وفكر هذا في أن يقدمها أمة إلى ابنه، ولكن الفتاة الشجاعة، وقد رأت شرف من أخذها وصلاحه، قررت أخيرا أن تقول لهم من هي، وقالت: لا أحلّ لك إلا بعقد النكاح إن رضى أبي بذلك، وأشارت عليهم بتوجيه كتاب من قبلها لأبيها، وانتظار جوابه، فكان الذي كتبه بخطها من نظمها ما صورته:

لَا تَنْكُرُوا أَنِّي سُبَيْتُ وَأَنِّي بِنْتُ لِمَلِكٍ مِنْ بَنِي عَبَادٍ
فَخَرَجْتُ هَارِبَةً فَحَازَنِي أَمْرُو لَمْ يَأْتِ فِي إِعْجَالِهِ بَسَدَادٍ
إِذْ بَاعَنِي بَيْعَ الْعَبِيدِ فَضَمَّنِي مِنْ صَانئِي إِلَّا مِنَ الْأُنْكَادِ

(١٥٧) من السريع، نفع ١٦٩/٤. وكانت تعرف أيضا كيف تصوغ قصائد المديح. لمعرفة المزيد عنها انظر: نفع ١٦٩/٤ وزينب فواز، الدر المنثور، ٥٤، ول. جونتاليو، في مجلة أرشيبيوس، عام ١٩٠٥ رقم ٩ و ١٠ ص ٢٠٨ و ٢٠٩، وجونتالت بالثيا، تاريخ الأدب الأندلسي، ص ٥٦.

(١٥٨) من الطويل، نفع ٢٨٧/٤، وعن حمدة وكنا قد ذكرنا لها أبياتا فيها سبق ص ١٤٢ من هذا الكتاب عن وصف وادي آش انظر: نفع ٢٨٧/٤، وابن الأبار، كتاب التكملة رقم ٢١٢٠، ٧٤٦٧، والضبي، البقية ص ٥٣٠ رقم ١٥٨٧، والإحاطة ٢/٢١٦، وابن شاكر لكتبي، فوات الوفيات ١٤٧/١، وزينب فواز، المصدر المذكور سابقا ١٧٠ - ١٧١، ول. جونتاليو، المصدر السابق ٣٧٧، وهـ. سوفيير، رحلة وزير مغربي في إسبانيا ١٦٩٠ - ١٦٩١ ص ٣٦ - ٣٨، وجونتالت بالثيا، تاريخ الأدب الأندلسي ٩٦. وسميونيت، وصف مملكة غرناطة ص ٢١٠.

(١٥٩) كانت الوحيدة التي عرفت اسم «الفحصة» التي تظهر في الخدين عند الضحك. (١٦٠) نفع ٢٨٣/٤، ونقلها بنو عباد ٢٣٦/٢، وابن الأبار، التكملة، في الملحق الذي نشر في مدريد رقم ٢٨٧٠، وزينب فواز، المصدر السابق لها ٣٧٧، ول. جونتاليو، مصدره السابق ص ٢٠٣.

(١٦١) بنو عباد ١٥١/٢ و ٢٢٥ و ٢٢٦ وبخاصة الجزء الثالث ص ٢٤٠ و ٢٤٢. وانظر ما سبق من هذا الكتاب ص ١٨٤ والهامش رقم ٥.

وأرادنى لنكاح نجلٍ صاهرٍ حسن الخلاق من بنى الأنجاد
ومضى إليك يسوم رأيك في لرضى ولأنت تنظر في طريق رناده
فعساك يا أبتي تعرفنى به إن كان ممن يرتجى لوداد
وعسى رميكة الملوك بفحشها تدعو لنا باليمن والإسعاد^(١٦٢)

« فلما وصل شعرها لأبيها وهو بأغمات. واقع في شراك الكروب والأزمات، سرّ هو وأمّها بحياتها»، وإذا كانت ابنته بثينة قد تزوجت من رجل دونها طبقة ومستوى، فقد احتفظت على لأقل نبيل روحها.

كما استطعنا أن نلاحظ، لم تضاف المرة شيئاً هاماً إلى معرفتنا بالحب في القرن الحدى عشر، والأشعار التى نظمتهما مهما كانت قليلة، وهى على أية حال كثيرة بالنسبة إلى القرن العاشر الذى لا يعرف كثيراً منهم، ليست سيئة المستوى، وأظهر بعضهن عاطفة ملتزمة ومتميزة، وأسهمن بخاصة في دعم الفكرة التى أخذنا بها عن حرية المرأة، وكل هؤلاء الأندلسيات أظهرن شخصية حازمة، ومبادأة ما كان يمكن لها أن تظهر أو تعبر عن نفسها، لو لم يكن المجتمع يسمح بذلك. إنهن نتاج عصرهن تماماً. ومن الحق أن المكان الذى احتلته يعود فضله، في الجانب الأكبر منه، إلى عبادة أرجلها، يؤديها في محرابها، وهى عبادة ما كان يمكن أن تصل إليها دون جهد من جانبها، بزيادة ثقافتها، وصقل فكرها، والتسامى بقلبها.

(١٦٢) من الكامل، صرفنا النظر عن أربعة أبيات بإرادتنا، انظر نفع ٢٨٤/٢، ونسخها بنو عباد ١٥٣/٢، وزينب فواز، المصدر السابق ٨٩، ول. جونتالو، المصدر السابق ص ٢٠٤.

○ الفصل الثاني:

الإنسان: نفسيته وفلسفته

لكي نتعرف على الأسباب التي تدفع الإنسان إلى العمل، وبخاصة في عصر كان الشعر فيه، على ما يبدو، التعبير الأساسي عن فكر الشعب، علينا أن نعود إلى القصائد التي نظمها الشعراء تحت تأثير الأحداث مباشرة، وفي مواجهة الشخصيات والممثلين الذين قاموا فيها بدور إيجابي. وإلى جانب الشعر نجد المذكرات كتلك التي كتبها الأمير الزيري عبد الله^(١) فهي ذات قيمة كبيرة للغاية، ولكن مثلها مع الأسف الشديد قليل جدا في الأدب العربي، وبخاصة في القرن الحادي عشر في إسبانيا الإسلامية. أي أضواء كانت ستلقيها هذه المذكرات، حتى لو أخذنا في الحسبان طابعها الذاتي، وبالتالي انحيازها، في عصر كالذي ندرسه، حيث يحاول الإنسان بفعل الظروف التاريخية نفسها أن يحقق ذاته ما أمكن. يعوضنا الشعر في جانب منه عن غيبة الوثائق الثرية، ونستطيع من خلال القصائد الشعرية، وهي أحيانا أظهر تعبيرا من الاعترافات، أن نحصل على بعض الملامح الأساسية لنفسية الأمراء الأندلسيين في القرن الحادي عشر الميلادي.



لقد تطور نموذج السيد العظيم، دون شك، بين القرنين التاسع والحادي عشر، ولقد كان سعيد بن جودي^(٢) يمثل الإنسان الكامل في إسبانيا لحظة الصراع بين اليمينيين والمعديين، وبين المسلمين والإسبان، وتفرد في زمانه بعشر خصال لا يُدفع عنها كما يقول ابن الأثير: الجود والشجاعة والفروسية والجمال والشعر والخطابة والشدة والطعن والضرب والرمية^(٣).

ولم يجمع ملوك الطوائف هذه الصفات كلها أبدا، وإنما كانت لهم بعضها أو كانت مختلفة عندهم، أو سيطرت عليهم بسبب نموها المفرط، على حين أنها كانت ثانوية عند سعيد بن جودي. يقول القاضي أبو القاسم العبادي جد المعتمد في قصيدة:

فما المجد إلا في ضلوعي كامنٌ ولا الجود إلا من بيني ثائر
فجيش العلا ما بين جنبي جائلٌ وبحر الندى ما بين كفي زاهر^(٤)

(١) انظر: ليفي بروفنسال، مذكرات عبد الله آخر ملوك بني زيري في غرناطة، المقدمة والنص والترجمة في مجلة الأندلس المجلد ٣، العدد ٢، سنة ١٩٣٥، والمجلد ٤، العدد ١، سنة ١٩٣٦.

(٢) عن سعيد بن جودي انظر: تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٢ ص ٢٨ و ٣٢ و ٣٤ - ٣٨ و ٧٧ و ٧٨ و ٧٩ و ٩٥، والمصادر المذكورة هناك.

(٣) ابن الأثير، الحلة ١/١٥٥، وتاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٢ ص ٣٥، وابن حيان، المقتبس، طبعة الأب أنتونيا ص ٣٠.

(٤) من الطويل، الحلة ٢/٣٨، وبنو عباد ٤٧/٢.

ويصرح المعتضد والد المعتمد:

حَيْثُ ذِمَارَ المَجْدِ بالبَيْضِ وَلُسْمِ
وَوَسَّعْتُ سُبُلَ الجُودِ طَبْعًا وَصَنَعَةً
فَلَا يَجْدُ لِلإِنْسَانِ مَا كَانَ ضِدُّهُ يَشَارِكُهُ فِي الدَّهْرِ بِالنَّهْيِ وَالْأَمْرِ^(٥)

ويشير المعتضد في البيت الأخير إلى أن الطموح يمكن أيضا أن يكون صفة لأي أمير. وفي الحق ما من أحد في عصره كان يستطيع مثله أن يشعر بمثل هذا التوتر الكبير، ألم يكن يطمح في أن يجمع كل شبه الجزيرة تحت صولجانه؟ حتى اللغات لم تستطع أن تثنيه عن خططه ومشاريعه:

أَنَامَ وَمَا قَلْبِي عَنِ المَجْدِ نَائِمٌ
وَأِنْ قَعَدْتُ بِي عِلَّةٌ عَنِ طِلَاسِهَا
يَعَزُّ عَلَى نَفْسِي إِذَا رَمَتْ وَاحَةً
وَأَسْهَرُ لِيلى مَفْكَرًا غَيْرَ طَاعِمٍ
يَنَادِي اجْتَهِدْ أَنْ أَحْسَنَ بِتَرَةٍ:
فَتَهَيَّزْ آمَالِي وَتَقْوَى عَزِيمَتِي
وَأِنْ فَوَادِي بِالمَعَالَى لِهَائِمٌ
فَأِنْ اجْتَهِدِي فِي الطَّلَابِ دَائِمٌ
بِرَاحٍ، فَتَتَنَبَّئِي الطَّبَاعُ الكِرَائِمُ
وِغَيْرِي عَلَى العِلَلَاتِ شَبْعَانُ نَائِمٌ
أَلَا أَيْنَ يَا عِبَادَ تِلْكَ العِزَائِمُ
وَتُذَكِّرُنِي لَذَاتِهِنَّ المِهْزَائِمُ^(٦)

ولننظر أيضا إلى المزيد من أشعاره فهي بالغة التمييز:

لَعَمْرِكَ إِنِّي بِالمُدمَاةِ نَرَالُ
قَسَمْتُ زَمَانِي بَيْنَ كَدٍّ وَرَاحَةٍ:
فَأُمْسِي عَلَى اللذَاتِ واللَّهُوِ عَاكِفًا
وَلَسْتُ - عَلَى الإِدْمَانِ - أَغْفَلُ بُعْيَتِي
وَأِنِّي لَمَّا يَهْوَى التُّدَامِي نَفْعَالُ
فَلِلرَّأْيِ أَسْحَارُ، وَلِلطَّبِيبِ صَالُ
وَأُضْحِي بِسَاحَاتِ الرِّئَاسَةِ أَخْتَالُ
مِنَ المَجْدِ، إِنِّي فِي المَعَالَى لِمُحْتَالُ^(٧)

وهذا البيت أيضا:

أَشَارُ عَلَى مَغْنَى الرِّئَاسَةِ إِنِّي عَلَى كُلِّ حُسْنٍ فِي الزَّمَانِ غَيُورُ^(٨)

هذا الطموح المتطرف لا نجده إلا عند المعتضد، وأما المعتمد، ومشى على خطى أبيه. فقد كان أكثر اعتدالا في رغباته، وعند ما يشيد بنفسه في أشعاره يعود إلى الصفات المعروفة من الشجاعة والجلود. والأشعار الأقوى تعبيرا فيها يتصل بهذين الموضوعين نظمها وهو أسير في أغمات، فقد أشاد بمغامراته الحربية وسخائه على من كانوا يعرفون كيف يعزفون على إيقاع مدائح:

قُبِّحَ الدَّهْرُ فَمَاذَا صَنَعَا كَلِمًا أَعْطَى نَفْسًا نَزْعًا

(٥) من الطويل، الحلة ٤٣/٢، وبنو عباد ٤٦/٣.

(٦) من الطويل، الحلة ٤٥/٢، وبنو عباد ٥١/٣.

(٧) من الطويل، الحلة ٤٦/٢، وبنو عباد ٥٠/٢، توجد إشارة إلى هذه الأبيات الأربعة في تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ٤٤: تنظيمه القوى يجعله كفئا على التساوى للذات والعمل، يد من الشراب وعامل لا يمل، ويمضى من اللذات واللَّهُو إلى ساحة المجد، ويجب أن يقضى في مشاغله أميرا، ولكن بعد التجهيز المعجز الذى يبذل له لى يعرض الوقت الذى أفناه في اللذات كان يحتاج إلى النشوة، وقضى من جديد، لى يجتهد قواه. نظر فيها سبق ص ٣١٨ من هذا الكتاب.

(٨) من الطويل، الحلة ٤٤/٢، وبنو عباد ٥٠/٢.

قد هوى ظليما بمن عادته
 من إذا الغيث هبى منهمرا
 من غمام الجود من راحته
 من إذا قيل الخنا صم وإن
 قل لمن يطمع في نائله
 راح لا يملك إلا دعوة:
 أن ينادى كل من يهوى لعا
 أخرجته كفه فانقطعا
 عصفت ريح به فانتشعا
 نطق العافون همسا سيعا
 قد أزال اليأس ذاك الطمعا
 جبر الله العفاة الضيعا^(٩)

الملاح التي انتهينا من تحليلها: الكرم والشجاعة يمكن أن تكون تقليدية للغاية، لأنها تنسب أيضا إلى الأبطال العرب. وأما ما هو أندلسي خالص فإدراك وزن الأشياء الفكرية وجبها.

وتكشف لنا حالة الراضى بن المعتمد، وأشرنا فيما سبق إلى أنه أوضح الأمثلة للأنسية التي شهدتها القرن الحادى عشر، عن تطور هذه الصفات إلى أبعد مدى^(١٠)، وقد أراد والده أن يكلفه بقيادة حملة حربية على مدينة لورقة، ولكن الراضى ولد مدلل، فتظاهر بالمرض، وغاضت فيه العزة العربية، وبين رعب القتال والافتتان بالدراسة والقراءة قُضِلَ الثانية دون تردد، وقبل والده العذر، دون أن ينخدع بالأسباب التي أبداه ابنه. كيف يعرض ابنه الغالى لتاعب الحروب وهذا الابن يجد لذة ومتعة في العمل الثقافى حتى وهو مريض؟. وإذن فليكن امعتد ابنه الأصغر سنا، هو الذى يوضع على رأس الجيش، ولسوء الحظ فإن الهزيمة كانت من نصيبه، وبلغت أخبارها المعتمد بعد قليل^(١١)، ورغم ذلك ظل يحقد على الراضى زمنا، ولو أن هذا استطاع أخيرا أن يجعل والده يلين نحوه، وقد سخر المعتمد من هذا الأمير المسلم، وخصه بالآيات التالية، وهى ذات إيقاع ساخر، وتشبه إلى حد ما قصائدنا البطولية الهزلية، وتلقى ضوءا كاشفا على المزاج الجديد، وسوف يصبح فيما يبدو، السائد بين الأجيال الجديدة من الأمراء لأندلسيين خلال النصف الثانى من القرن الحادى عشر:

الملك فى طي الدفاتر
 طف بالسريير مسلما
 وازحف إلى جيش المع
 واطعن بأطراف الير
 واضرب بسكين الدوا
 أو لست رسطاليس إن
 وأبو حنيفة ساقط
 وكذاك إن ذكر الخلي
 من هرمس من سيوي
 هذى المكارم قد حوي
 فتخل عن قود العساكر
 وارجع لتوديع المنابر
 رف تقهر الحبر المقامر
 ع - نصرت! - فى ثغر المحابر
 مكان ماضى الحد باتر
 ذكر الفلاسفة الأكابر
 فى رأى حين تكون حاضر
 ل فانت نحوئ وشاعر
 من ابن فورك^(١٢) إذ تناظر
 ست فكن لمن حباك شاكر

(٩) من الرمل، المعجب ١٤٥، وترجمته ص ١٢٣.

(١٠) انظر فيما سبق ص ٤٣ من هذا الكتاب، الهامش رقم ٨٠.

(١١) انظر: تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ ج ٢ ص ١٣٢.

(١٢) عن هذا العالم اللغوى انظر: ابن خلكان، وفيات، طبعة دى سلان، ٦٧٥/١ وما بعدها.

واقعدُ فإنك طاعمٌ
لحجبت وجهَ رضاي عند
لا يستقرُّ مكانه
هلاً اقتديتَ بفعله
قد كان أبصرَ بالعوا
كاسٍ وقل: هل من مفاحر
لك وكنت قد تلقاهُ سائر
وأبوك كالضرغامِ خائر
وأطعتهُ إذ ذاك أمر
قبي والمواردِ والمصادر

وقد اندهش الراضى من ايقاع هذ الأبيات الطريف، وهى أكثر إثارة مما فى ظاهرها، فرد عليه بقصيدة طويلة، نجتزئ منها هذه الأبيات:

مولاي! قد أصبحت كافرٌ
وفللتُ سكينَ الدوا
وعلمتُ أن الملك ما
والمجد والعلياء فى
لا ضربُ أقوالٍ بأق
قد كنتُ أحسبُ من سفا
فإذا بها فرغ لها
لا يدرك الشرف النقي
وهجرتُ من سمينهم
جميع ما تحوى الدفاترُ
وَظِلْتُ لِلأقلامِ كاسر
بين الأسنةِ والبوائر
ضربُ العساكر بالعساكر
والضعيفات منائر
وأنها أصلُ المفاخر
والجهل للإنسان عاذر
إلا بعسّالٍ وبائر
وجحدتُ أنهم أكابر^(١٣)

قد يكون الراضى صادقاً فى هذه اللحظة عندما يعلن أن مجد الحروب هو الشيء الوحيد الجدير بأمر. ولكننا نشك فى أنه تخلى عن دراسته المحيية إليه إلى الأبد، لأن التخل عن النحو والشعر والفقه والفلسفة والعلوم الطبيعية والرياضيات شئ كان يبدو فوق طاقته. إن الشجاعة فيما يرى هذا الأمير المثقف، وكان أندلسيا أكثر من أبيه، أسحت فى المرتبة الثانية، ويبدو أن الأمر كان كذلك بالنسبة لكثيرين من ملوك الطوائف الصغار فى شبه الجزيرة.

لكن صغار ملوك الطوائف هؤلاء، عروا فى لحظات الشدة، أو النفى الإيجابى، حين بددت شملهم سيوف المرابطين، بأفضل طريقة عن عمق شخصيتهم الحقيقية، فى أشعارهم الناضجة بالحنين.

ويستوعى الانتباه حقاً أنهم عرفوا كيف يحتفظون فى هذه الظروف الصعبة من حياتهم بالطوايع الأرسقراطية، ورباطة جأش كريمة: قائلتهذيب، وأداب السلوك، شئ فطرى فيهم، ولنستمع إلى حشرات رفيع الدولة ابن المعتصم. قد استأذن يوماً على أحد وجوه دولة المرابطين، فقال أحد جلسائه: «تلك أمة قد خلت»، استحقاقاً له، واستقلالاً للإذن له، فبلغ ذلك رفيع الدولة فكتب إليه:

خلتُ أمّى لكنّ ذاتى لم تخلُ
وما ضرّكم لو قلتم قول ماجد^(١٤)
وكلّ إناءٍ بالذى فيه رانسح^(١٤)
وفى الفرع ما يغنى إذا ذهب الأصل
يكون له فيها يجمى به الفضل
وهل يمنح الزنبور ما مجّه النحل

(١٣) من مجزوء الكامل، القلائد ٣٤ - ٣٦ وعنه نقلها نفع ٢٥٣/٤، وبنو عباد ١٧٣/١، والتيجانى، ملك شاعر ١٥٩.

(١٤) وهو مثل عربى، انظر: المبدانى، معجم الأمثال ٩٢/٢.

سَأَصْرَفُ وَجْهِي عَنْ جَنَابِ تَحَلُّهُ
فَمَا مَوْضِعُ تَحَلُّهُ بِمَرْفَعٍ
وَلَا يَرْضَى فِيهِ مَقَالٌ وَلَا فِعْلٌ
وَقَدْ كُنْتُ ذَا عَذْلٍ لَعَلَّكَ تَرَعُو
لكن بأرباب العُلا يجمل العذل^(١٥)

هذا الإيقاع الرصين في توجيه النقد، واللفظ الذي ظل رقيقاً حتى في لحظات الشدة، يوقظ فينا صدى لا نجده عادة في الشعر المشرقي، ألا يشعرنا بغواية أن نرى فيه شيئاً مسيحياً؟ على أية حال سوف نعود إلى هذا الموضوع في مناسبات أخرى.

وإذا كان من الصعب علينا أن نعود فنجد العزة العربية، وهي صفة جوهرية في سكان الصحراء طبقاً لشهادة المؤلفين الذين ينتمون أصلاً إلى هذه البلاد، في هذا الأمير الأندلسي المنفى في المغرب، فسوف يكلفنا أيضاً كثيراً من الجهد أن نتبين في الجود المتحفظ الذي اتسم به المعتضد وبقية ملوك الطوائف الصغار السخاء المدهش الذي اشتهر به حاتم الطائي، يقول المعتضد:

لَعَمْرُكَ مَا إِسْرَافُ فِي طَبِيعَةٍ
وَلَكِنْ طَبِيعَ الْبَخْلِ عِنْدِي كَالْحَتَفِ^(١٦)

وقد أبدى خيران الصقلي الذي حكم المرية قبل بني صمادح ملاحظة شبيهة نجدها عند مؤرخ عربي، فاستخدم كلمة «قصد» ليعبر بالدقة عن موقف معتدل، أي اقتصادي، وهي تبعد عن السخاء بنفسه التقدر الذي يبعدها عن البخل، يقول عنه: «وكان مذهبه في الجود قصداً، لم يشتهر بكرم ولا وسع بلوم»^(١٧).

الطريق الوسط، كما نرى، هو الأفضل، ومعه مظاهر الجود تسعد صاحب الجود دون أن تفلس الخزانة، هل الإسباني المسلم الوحيد الذي يستحق لقب بخيل؟^(١٨) إن أبا لحزم جهور بن محمد أمير قرطبة، طبقاً لابن حيان: «تضاعف ثراؤه، وصار لا تقع عينه على أغنى منه، حاط ذلك كله بالبخل الشديد، والمنع الخالص، للذين لولاهما ما وجد عائبه فيه طعنا، ولكمل لو أن بشراً يكمل»^(١٩).

وملوك الطوائف الصغار الذين من أصل بربري ولكنهم تأندُّ لسوا لم يكونوا بمنجاة من هذا النقد، ولم يكن إسماعيل بن ذي النون أمير طليطلة، ولا هذيل بن رزين أمير السهلة أسخياء إلا عندما تكون اللحظة مناسبة^(٢٠)، وحفيد هذا الأخير وخليفته في الإمارة حسام الدولة، مروان بن رزين، كان مع ذلك يزهو في قصائده، مثل المعتضد تماماً، بأنه جواد:

إِلَيْكُمْ فَإِنِّي فِي الْوَغَى وَالنَّدَى فَتَى
هُوَ الْبَحْرُ إِنْ أُعْطِيَ وَإِنْ صَالَ فَالْدَهْرُ^(٢١)

(١٥) من الطويل، نفع ٣٧٠/٣، وفي أبحاث ط ١ ص ١٢٨، و ط ٣ ج ١ ص ٢٧٦.

(١٦) من الطويل، الحلة ٤٤/٢، وينو عباد ٥٠/٢.

(١٧) أعمال الأعلام ٢١٢.

(١٨) نعمة أمير أموى إسباني ينحدر من الحكم الربضي وكان يعيش في عصر المنصور، وهو عبد الله بن عبد العزيز، لُقِّبَ باللفظ الروماني بِمَرْ شَكْ Piedra Seca، ومعناها «الحجر اليابس» وذلك ليخله، انظر: الحلة ٢١٥/١، وأبحاث ط ١ ص ٢٧٣ - ٢٧٤، و ط ٣ ج ١، الملحق ص ٣٠، وتاريخ مسلمي إسبانيا ط ٢ ج ٢ ص ٢٣٤، وديبر، نبذ ومقالات ٣٠/١.

(١٩) الحلة ٣١/٢، والبيان المغرب ١٨٦/٣.

(٢٠) البيان ١٨٢/٣، الحلة ١١٠/٢، والذخيرة ١١١/٣، وأعمال الأعلام ٢٠٥.

(٢١) من الطويل، الحلة ١١٠/٢.

ويقول في مكان آخر:

فاهدّم بناءً البخل وارفض به من هدم البخل بنى مجده
لا عاش إلا جائعاً ناعماً من عاش في أمواله وحده (٢٢)

وله أيضاً:

فمن يرمّ جاهداً إدراك منزلتي فليحكني في الندى والسيف والقمر (٢٣)
أكيدا، لم يكن حسام الدولة عندما نظم هذه الأبيات يتذكر معلم الكتاب البائس الذي طلب منه
لتحسين حاله أن يأذن له في الجمع بين أمرين لا يتأتى الجمع بينهما: أن يؤم الناس في مسجدين مختلفين
وأن يعلم الأطفال، فأجابه:

أُطِيقُ تَأديباً وعقدَ إمامية في مسجدين وجامع إنسان؟
اثبت على إحدى المراتب لا تردّ فمن الزيادة يتقى النقصان (٢٤)

لقد أصبح البخل الذي كان يبدو في نظر العرب أيام الجاهلية وفجر الإسلام أقبح العيوب يتملّ في
إسبانيا جانباً من شخصية الإسباني المسلم، فيما يبدو، ولكننا دون شك لسنا بصدد هذا استع
يرفض رفضاً قاطعاً أى عمل طيب، ولقد كان المعتضد و ابن رزين يعرفان كيف يسخران حين
يشعران بالسعادة الفامرة عندما يستمعان إلى شاعر، أو يرضيان عن مهمة تمت على الوجه الأكمل،
أو خدمة قدّمت لها، ولكن: هل هذا هو الكرم العربي، الذي لا يعتبر المنحة أجراً أبداً، وإنه عطاء حباً
في العطاء ليس إلا! والحق أن العربي في سخائه يندفع تلقائياً. أما هنا في إسبانيا الإسلامية فهو صفة
مصحوبة بالتفكير والحساب، وعلى أية حال فإن المشرق عرف أيضاً شخصيات من هؤلاء الذين يُعتبر
البخل إحدى صفاتهم، ولا نعدم مؤلفين احتفوا بهم بنفس القدر الذي سجلوا به الشجاعة وربما كان
من الأمانة أن نوضح أن هؤلاء البخلاء ليسوا عرباً، وإنما أعاجم من أصل فارسي (٢٥). وهذا يدعم
ما سبق أن قلناه أن سكان إسبانيا الإسلامية كانوا شيئاً آخر غير العرب، ويبدو أن إطرء البخل،
والإشادة بالكرم المحسوب، ليست باختصار إلا أحد جوانب قضية الشعوبية فيما يبدو.

وثمة ملمح آخر لشخصية الأندلسي دمع بها الشعر الأندلسي إلى النور، وهو ليس عرنى الجوهر
أيضاً، وأعني به القسوة، ويقدم لنا المعتضد مثلاً واضحاً ومثيراً، فشخصيته المليئة بالشك والقساوة (٢٦)
سيطرت، إلى جانب طموحاته، على كل سياسته، ويشبهه أحد المؤلفين بأسد «يلزم عريسته يدبر
داخلها أموره» لقواده (٢٧). وقد أمر بقتل الشاعر أبي حفص عمر بن حسن الهوزني لأنه انتقد أعماله،

(٢٢) من السريع، الحلة ١١١/٢.

(٢٣) من البسيط، الحلة ١١١/٢.

(٢٤) من الكامل - الحلة ١١٤/٢.

(٢٥) مثل سهل بن هارون، انظر: التويري، نهاية الأدب ٣١٨/٣ - ٣٢٧، وانظر أيضاً: ابن عبد ربه، العقد لمريد ٣٣٣/٣

وما بعدها، والملاحظ، البخلاء، طبعة لندن ص ٦٥.

(٢٦) الذخيرة ٢٦/٢، وعنها في «بنو عباد» ٢٤٢/١.

(٢٧) الذخيرة ٢٦/٢، وعنها في «بنو عباد» ٢٤٣/١.

وانتقم من أعمى لاذ منه بمكة وأخذ بها يدعو عليه، وروى لنا عبد الواحد المراكشي قصته كاملة: [«كان هذا الرجل من بادية إشبيلية، كان المعتضد قد وضع يده على بعض مال لهذا الرجل الأعمى. وذهب باقى ماله حتى افتقر، ورحل إلى مكة، فلم يزل يدعو على المعتضد بها إلى أن بلغه عنه ذلك، فاستدعى بعض من يريد الحج وناولهُ حَقًّا فيه دنائير مطلية بالسم، وقال: لا تفتح هذا حتى تدفعه إلى فلان الأعمى بمكة وسلّم عليه عنا، فاتفق أن سلم الرجل ومعه الحق، فحين وصل مكة لقي الأعمى ودفع إليه الحق، وقال: هذا من عند المعتضد، فأذكر ذلك الأعمى، وقال: كيف يظلمنى بإشبيلية ويتصدّق علىّ بالحجاز؟ فلم يزل الرجل يحقّضه إلى أن سكن وأخذ الحق، فكان أول شيء فعله أن فتح الحق وعمد إلى دينار من تلك الدنانير فوضعه في فمه، وجعل يقلّب سائرهما بيده إلى أن تمكن منه السم، فما جاء الليل حتى مات، فاعجب لرجل بقاصية المغرب يعنى بقتل رجل بالحجاز»] (٢٩).

وأثار أبو محمد بن عبد البر غضبه لأسباب لا نزال نجهلها، ولم ينبج من الموت إلا بفضل والده أبي عمر (٣٠)، أما ملوك الطوائف الصغار من البربر الذين يبتوا النية على «ذبحه مثل كبش سمين» عندما يقبل ضيافتهم، فقد دعاهم إلى حفل إعدار، ولإدخال البهجة عليهم صحبهم إلى الحمام حيث ذبحوا (٣١)، وعندما شك في أن ابنه إسماعيل يتآمر عليه لإزاحته عن العرش ذبحه بيديه (٣٢).

لقد وجد المعتضد في شخص مدعى الخلافة المهدي، محمد بن عبد الجبار، أستاذًا في القسوة، وقد تحدثنا عن هذا بمناسبة أحداث الفتنة في مطلع القرن الحادى عشر. ألم يكن من عادة المهدي حين كان لاجئًا في مدينة سالم أن يضع في حديقة معلقة تعلو جانب النهر، أمام القصر، حجاجم أعدائه الذين قتلهم قائده الصقليّ الخصى واضح، ويتخذ منها أصصا لغرس الزهور؟ ويقول المؤرخون إن موجة عارمة من السعادة كانت تغمره وهو يتأمل هذه الحديقة العجيبة، وفيها نظم الشاعر صاعد بن الحسن البغدادي الأبيات التالية:

جلاء العين مُبهجةُ النفوسِ	حدائقُ أطلعتْ ثمرَ الرؤوسِ
هناك الله مهديّ المساعي	جنّى الهامات من تلك الغروس
فلم أرَ قبلها وحشًا جميلًا	كريبه روائيه أنسُ الأنيسِ
فماذا يملأُ الأسماعُ منها	إذا ملئتُ من انبإ الطروسِ (٣٣)

ولابد أن المعتضد وجد هذه الفكرة الذكيّة جديرة بالتقليد فخطّط يمثّل المهدي الأموى حديقة تكون أعصها من الجماجم، وتبلغ منتهى الصقل والدقة علّق في التجويف المناسب في أذن كل جمجمة

(٢٨) نوح ٩٣/٢، وعنه في «بنو عباد» ٢١٩/٢، وتاريخ مسلمي إسبانيا ط ٢ ج ٣ ص ٨٠.

(٢٩) المعجب ٩٧، وترجمته ٨٢، وتاريخ مسلمي إسبانيا ط ٢ ج ٣ ص ٤٧.

● أوجز المؤلف القصة، وجثت بها كاملة لطرافتها (المترجم).

(٣٠) القلائد ٨١.

(٣١) تاريخ مسلمي إسبانيا ط ٢ ج ٣ ص ٥٧.

(٣٢) تاريخ مسلمي إسبانيا ط ٢ ج ٣ ص ٦٦، والبيان المغرب ٢٤٤/٣.

(٣٣) من الوافر، الذخيرة ٢٧/٢، وعنها في «بنو عباد» ٢٤٤/١، وترجمتها ٢٦٥، والحلّة في «بنو عباد» ٦٠/٢، وتاريخ مسلمي

إسبانيا ص ج ٢ ص ٢٩١.

بطاقة حتى تأخذ في مجموعها شكل حديقة نباتية. وكان ذلك قليلا فييا يرى، ولم يكن يروى متعته القاسية إلا أن يتأمل وحيدا، بعيدا عن غظرات الآخرين، الجماجم المحفوظة في الأحقق، وكانت لأعدائه من البربر من ذوى المناصب الكبيرة الذين انتصر عليهم، ومن بينهم كل بنى برزال أمراء قرمونة^(٣٤)، وفي هذه الحديقة الشبيهة بالمقبرة نظم الأبيات التالية:

زُهرُ الأسنَّةِ في الهيجَا غدتْ زَهرى غرستُ أشجارَهَا مُستجِرِلَ لثمرِ
ما إنْ ذَكَرْتُ لها من مَعْرَكٍ خَلَلٍ إلَّا تَجَلَّلَتْهُ بالصَّارمِ الذِّكْرِ
حتى غَدَوْتُ وأعدائي تَحاصِبني: يا قاتِلَ النَّاسِ بالأَجنادِ والفِكرِ^(٣٥)

وقد أشاد ابن عمار على غرار صاعد بأمره في المقطوعة التالية، وسبق أن ذكرنا بيتا منها بمناسبة الحديث عن يهود غرناطة:

شَقِيتُ بسيفك أمةً لم تعتقدْ إلَّا اليهودَ وإنْ تَسَمَّوْا بـإِبرَا
أثْمَرْتُ رُحْمَكَ مِنْ رءوسِ كُماثِهِمْ لَمَّا رَأَيْتُ الغَصْنَ يُعشِقُ مُثْمِرا
وخَضِبْتَ سيفَكَ من دمَاءِ نُحورِهِمْ لَمَّا عَهِدْتَ الحُسْنَ يلبسُ أَحمرا^(٣٦)

وماذا عن المعتمد؟ أحقا لم يأخذ من والده إلا القليل كما يدعون؟. ليس موضع شك أن أول شيء قام به بعد توليه الإمارة كان هدم الحديقة الشهيرة، ولكن المؤرخين يؤكدون أنه احتفظ بهذه الأحقاق، ولم يرفض متعة أن يضيف إليها بعض رءوس البربر، فقد وجدوا فيها أحد رؤسائهم، وقد أظهر البربر الذين تَأَنَّدَلُسُوا وكانوا يرافقون الجيش المرابطى بغضا عميقا للمعتمد^(٣٧).

هل كان المعتمد، وهو أكثر صقلا، يخفى قسوته^(٣٨)؟. إن كل ما نعرف عنه أن الغضب عندما يحتاجه يمكن أن يجرح إنسانا بأن يقذفه بدواة حبر في رأسه، أو أن يرمى بمغنية بربرية في النهر لإثبات غنت بما أحبطه^(٣٩)، ونعرف من بيت شعر لابن وهبون أنه قتل بيديه وزيره المقرب إليه: ابن عمار^(٤٠).

(٣٤) الذخيرة ٢٧/٢ و ٢٨، وعنها في «بنو عباد» ٢٤٢/١، والترجمة ص ٢٦٢، والبيان المغرب ٢/٣٠٥، والمعجب ٩٨، وترجمته ٨٢، والحلة ٥٠/٢، وعنها في «بنو عباد» ٦٠/٢، وأعمال الأعلام ١٥٥، وتاريخ مسلمي إسبانيا ط ٢ ج ٣ ص ٤٩. وقد تصرف على بن حمود بالطريقة نفسها فيما يتصل بالخليفة سيمان وابنيه. [هكذا في الأصل، والحق أنها أخوه وأبوه - للترجم] انظر: الذخيرة ٤٢/١، والبيان المغرب ١١٧/٣، وتوجد في المشرق سوابق لهذه العادة الغريبة، فقد كان عند الخليفة العباسي المنصور، المتوفى ١٥٨هـ = ٧٧٥م، حجرة خاصة يحتفظ فيها برؤوس العلويين. انظر: الطبري، ٤٤٥/٣، وجود فروى - دوميين، مسالك الأبحار للعمري ص ٦٦٤.

(٣٥) من بحر البسيط، الحلة ٤٥/٢، وعنها في «بنو عباد» ٥١/٢.

(٣٦) القلائد ٩٧، وعنه نقلها نفع ٦٥٦/١، والمعجب ١١٦، وترجمته ٩٨، وتاريخ مسلمي إسبانيا ط ٢ ج ٣ ص ٦٣، حيث يوجد البيت الأول فقط، وانظر فيما سبق ص ٤٢ و ٢٨٥ من هذا الكتاب.

(٣٧) الذخيرة ٢٨/٢، وعنها في «بنو عباد» ٢٤٤/١، والبيان ٢٠٦/٣.

(٣٨) الرءوس المقطوعة الموضوعة على أعمدة تمثل مظهر ضروريا للسلطة الملكية، وبخاصة بعد سحق الفتن بالاضطرابات، وتوضع عادة في مكان عام، وبخاصة فوق الأبواب الرئيسية للندن لكي يراها الناس كافة.

(٣٩) انظر فيما سبق ص ١٩ و ٢٤١ الهامش رقم ٦٨ من هذا الكتاب.

(٤٠) انظر فيما سبق ص ٩٥ من هذا الكتاب.

يوجد في هؤلاء الناس، حتى من تلقوا منهم تربية عالية، عمق همجي، يجعلنا نفكر في أولئك الأمراء من مسيحي العصور الوسطى، ووصلنا اشتهارهم بالقسوة، وليس عسيرا أن نجد بين ملوك ليون وقشتالة ونبرة وأرغون وبرشلونة في القرن الحادي عشر بعض النماذج، وليس لديهم شيء يمكن أن يحسدهم عليه ملوك إسبانيا الإسلامية.

ربما كان من الضروري هنا أن نفكر في التأثير البربري، وحالة هذيل بن رزين أمير السهلة هي النموذج الواضح فيما يتصل بهذا الأمر. ألم يقتل أمه في لحظة غضب؟^(٤١). وكانت تحتاج حفيده حسام الدولة، أبا مروان بن رزين، في جوانبه الخشنة نوبات من الغضب الجارف ترعب ندماه^(٤٢)، وحين دبر عليه صهره عبيد الله، وأراد اغتياله مع طائفة من رجاله ليرث مكانه، أحضره لدعوة احتفل فيها مع جماعة، فلما أمكنتهم الغرة فيه بأخذ الشراب منه، وثبوا عليه، وخطوه بسيفهم حتى أثنخوه جراحا، واتفق أن كانت أخته حاضرة - وهي زوج عبيد الله هذا - فصعدت إلى عليّة هناك وصرخت: «واقتيلاه»، فتبادر الناس لمعرفة القصة، ودخلوا على أبي مروان وبه رمق، فأرادوا قتل قاتليه بأجمعهم، فأمرهم بترك صهره وابنه والقبض عليهما، ولم يزل يعالج من جراحه إلى أن برئ وصح، فأمر صهره فقطعت يده ورجلاه وسُملت عيناه وصلب، وأمر بقطع رجل ابنه، وخليّ سبيله^(٤٣).

كان حسام الدولة يتسم بالقسوة عند معاقبة أحد من أهله الثائرين عليه، ولكنه فيما يبدو كان يتدرج في العقوبة تبعا لأهمية الخطأ المرتكب طبقا لقانون الثأر البربري^(٤٤). وقد أتى في بيت من الشعر على الصفات الخمس التي تؤدي الحياة أو الموت:

أنا ملكٌ تجمّعت في خمسٍ كلُّها للأنام تُحى مُميتٌ
هي: ذهنٌ وحكمةٌ ومضاءٌ وكلامٌ في وقته وسكوتٌ^(٤٥)

ويمكن أن نضيف إليها صفة سادسة: القسوة!

يقدم لنا باديس بن حبوس النموذج الكامل للقسوة البربرية، ويقول عنه دوزي: «دائنا لا يرحم في انتقامه، ويتحرك في حراسة جلّادين، ويعاقب التعساء الذين تواتهم الغطرسة فيتمردون عليه، بالنار والحديد والدفن»^(٤٦). ومع ذلك كانت هناك ظلال فارقة بين باديس والمعتضد، «فعلى حين كان الأول في هيجان غضبه الأعمى يقضى على ضحاياه بيده، نادرا ما كان المعتضد يغتصب وظيفة الجلاد»^(٤٧).

(٤١) الذخيرة ١١١/٣، وأعمال الأعلام ٢٠٦. وقد رأينا فيما سبق ص ٢٨٢ من هذا الكتاب أنه اشتهر بالبخل.

(٤٢) القلائد ٥١.

(٤٣) هذا الحدث وقع عام ٤٩٣ هـ = ١١٠٠م، انظر الحلقة ١١٤/٢، وأبحاث ط ١ ص ٥٣٠.

(٤٤) يمكن القول أيضا بأنه كان يطبق القرآن الكريم، سورة الصافات ولكن الآية القرآنية لا تمتد إلى غير أعداء الله.

(٤٥) من الخفيف، الحلقة ١١٠/٢.

(٤٦) تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ٧٠.

(٤٧) تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ٤٩. وكان ماكسن أمير غرناطة يترك كلابه المدربة تمزق المحكوم عليهم بالإعدام،

وقد أعدت خصيصا لهذا العمل المهجم. انظر ليفي برونسالة مذكرات الأمير عبد قه، في مجلة الأندلس، المجلد ٣، العدد ٢،

عام ١٩٣٥، ص ٢٥١ رقم ٣٤.

هذه الهمجية، ونلاحظها في الأمراء بخاصة، كانت رفيقا للسلطة لا ينفصل، وإذا اعتدلت عند الأندلسيين، أو البربر الذين تَأَنَّدُسُوا، فإنها لم تبلغ حد الاختفاء أبدا. وقد حاول ابن سعيد أن يحدد هذه الخاصية البربرية وأن يفسرها، يقول: «والإقليم الثالث هو صاحب سفك الدماء، واحسد، والحد والغل، وما يتبع ذلك» ويضيف القلقشندي، وهو الذى نقل لنا رأى ابن سعيد: «إن الإقليم الثالث وإن كثرت فيه الأحكام المريخية على زعمهم، فإن للمغرب الأقصى من ذلك الحظ الواقع، لاسيما في جهة السوس وجبال دَرَن، فإن قتل الإنسان عندهم كذبح العصفور، قال: وكم قتيل قتل عندهم على كلمة، وهم بالقتل يفتخرون. ثم قال: إن الغالب على أهل المغرب الأقصى كثرة التنس المفرط، والمحاققة، وقلة التغاضى، والتهور، والمفاتنة»^(٤٨).

ليس ملائما فيما نرى أن نلح كثيرا على التأثير الهمجى الذى استطاع الأفارقة أن مارسوه على الإسبان المسلمين، ذلك أن القسوة إحدى مظاهر الشخصية البربرية ولكنها ليست السمة الأساسية فيها، أضف إلى ذلك إنها نوع من الإحساس بالعدل يتسم بالتطرف، ولكنه دون شك ليس سمة حضارية، لأن العدالة الفردية، في مجتمع تحكمه الشرطة، يجب أن تختفى أمام السلطة المكلفة بحفظ الأمن، ويجب على المعتدى عليه أن يلجأ إلى القضاء ليعوضه عن الآلام التى تعرّض لها.

هذه الهمجية، في قمة توهيج الحضارة الإسبانية في القرن الحادى عشر، تثير بالضرورة كثيرا من الدهشة، ومهما كانت خارجة عن المألوف فإنها تشكّل ظهر لوحة لن نستطيع إخفاءها عن الأنظار إذا أردنا أن نعرف ما إذا كان الشعب الإسباني المسلم يدين في تطور بعض صفاته، أو نحو بعض عيوبه، إلى تأثيرات أجنبية.



خير من قصائد مديح الأمراء أو اعترافاتهم، ولا تمجّد في مجملها غير الصفات، أو ما كان يعتبر كذلك في القرن الحادى عشر، قصائد الهجاء، لأنها تبرز العيوب والأخطاء، وتكشف سنجاعة، وفي سخرية أحيانا، النقاى الخلقية، وتنقل إلينا نفسية الشعب الأندلسى في هذا الوقت بالذات، ومراجعة هذا الموضوع بخاصة تجعلنا ندرك الدوافع التى تحدّد أفعال الإنسان بعامة، وهى تحتفظ في سبانيا بشيء من طابع ساحر إلى حد ما، وكان من سماتها في المشرق، وظل الشعر دائما مرعبا، وبخاصة عندما يجيء هجاء لاذعا. يقول أبو تمام الحجام:

وبارد الشعر لم يؤلم به ولقد أضّر منه جميع الناس يا عتزلا
كأنه الصل لا تؤذيه ريقته حتى إذا مجّها في غيره تتلا^(٤٩)

^{٤٨} (٤٨) القلقشندي، صبح الأعشى ١٧٨٥. وعن قسوة البربر انظر أيضا: ابن الفقيه المهداني، كتاب لخدان، في مكتبة الجغرافيين العرب، المجلد ٥ ص ٤٨ والمكتبة العربية الفرنسية المجلد ٦، طبع النص وترجمه الحاج صدوق، ص ٤٠ - ٤١، والهامش ٧٢ ص ١١١، والمقدسى، أحسن التقاسيم، في المكتبة الجغرافية العربية، المجلد ٣ ص ٢٤٣، وفي المكتبة العربية الفرنسية، المجلد ٩، النص والترجمة التى قام بها شارل بيلا، ص ٥٨ - ٦١، والنويرى، نهاية الأدب، ط ٢ ج ١ ص ٢٨٢، والفيومي، المصباح المنير، ط ١ عام ١٩٢٥ ص ٦٠ وما بعدها، مادة بربر.

^{٤٩} (٤٩) من البسيط، نفع ٤١٨/٣.

نعرف لدور الذى يمثله النقد فى حياة الشعراء والكتّاب، وكان يتم غالبا فى مواجهة من يهجم الأمر، ويحيى نثرا على الدوام، والهجاء على النقيض من ذلك، يحيى مكثفا فى بيت من الشعر، أو مقطوعة من عدة أبيات، ويندفع بسرعة البرق، ويطير من قم إلى قم، وترسم حدة المعنى صورة هزلية عمادها الكلمة، وتسهم فى سرعة النجاح، ووصلتنا بهذه الطريقة المختصرة، والمثل الواضح لها هجائيات شاعر أندلسى عرضنا له أكثر من مرة هو: السُّمَيْسِرُ^(٥٠).

يرتبط الشعراء قليلا أو كثيرا بالسياسة، وبالأحقاد داخلهم حين لا ينالون ما كانوا يتوقعون، فيهاجمون الأقوياء دون أن يخشوا شيئا^(٥١)، وقد حرّو عبيد الجليل بن وهبون أن يقول عن المعتمد:

قُلْ الْوَفَاءُ فَمَا تَلْقَاهُ فِي أَحَدٍ وَلَا يَمُرُّ لِمَخْلُوقٍ عَلَى بَالٍ
وَصَارَ عِنْدَهُمْ عِنَقَاءٌ مُغْرِبَةٌ أَوْ مِثْلُ مَا حَدَّثُوا عَنْ أَلْفِ مِثْقَالٍ^(٥٢)

ووجه أبو مروان ابن الغصن الهجاء اللاذع التالى إلى المأمون أمير طليطلة:

تَلَقَّبْتَ بِالْمَأْمُونِ ظِلْمًا، وَإِنِّى لَأَمْنُ كُلِّبَا حَيْثُ لَسْتُ مُؤَمَّنَةً
حَرَامٌ عَلَيْهِ أَنْ يَجُودَ بِيَشْرِهِ وَأَمَّا النَّدى فَانْدَبَ هِنَالِكَ مَدْفَنَهُ
سَطُورُ الْمَخَازِى دُونَ أَبْوَابِ قَصْرِه بِحِجَابِهِ لِلْقَاصِدِينَ مَعْنُونَهُ^(٥٣)

فسجنه: ولكنه أفلت من غضب الأمير بمعجزة.

وهجا الشعراء الفقهاء أيضا، واتهموهم بأنهم ذوو نفوس جشعة بخاسة، ومرتشون. ونستطيع القول بأن هذا الكلام لا ينقصه الأساس الذى ينهض عليه، ويشبههم أبو إسحاق الإلبيرى، ويعرفهم جيدا لأنه فقيه مثلهم، بأنهم مثل الذئاب:

أَلَا حَيَّ الْعُقَابَ^(٥٤) وَقَاطِنِيهِ وَقُلْ أَهْلًا بِهِ وَبِزَائِرِيهِ
حَلَلْتُ بِهِ فَنَفْسٍ مَا بِنَفْسِي وَأَتَسْنَى فَمَا اسْتَوْحِشْتُ فِيهِ
وَكَمْ ذَنْبٍ يَجَاوِرُهُ وَلَا كَيْنَ رَأَيْتُ الذَّنْبَ أَسْلَمَ مِنْ فُقِيهِ
وَلَمْ أَجْزَعْ لِفَقْدِ أَخٍ لَأَنِّى رَأَيْتُ الْمَرْءَ يُؤْتَى مِنْ أَخِيهِ^(٥٥)

وأصاب جشعهم حتى النصارى، وهو ما يؤكد ابن خفاجة:

درسوا العلوم ليملكوا بجدهم فيها صدورَ مراتبٍ ومجالسٍ

(٥٠) أخذنا من كتاب عنوانه: «شفاء الأمراض فى أخذ الأعراض» وترجمه دوزى إلى الفرنسية على النحو التالى: "Le remède Contre les maladies; reputation usurpées réduites à leur Juste valeur"

انظر: نفع ١٠٨/٤، وأبحاث ط ١ ص ١٠٨ وط ٣ ج ١ ص ٢٦١.

(٥١) فى القرن الماضى وصف إبراهيم بن أديس الحسنى، فى أبيات له، المنصور بن أبى عامر بأنه «أحدب» مرة، وأنه نعلب ثانية، وبأنه «قرء أنهب» مرة أخرى. انظر: البيان المغرب ٣٠١/٢، والحلة ٢٢٧/١، ونفع ٢٢٧/١، وتاريخ مسلمى إسبانيا ط ٢ ج ٢ ص ٢٤٢، وانظر فيها سبق ص ٢٢٠ من هذا الكتاب.

(٥٢) من البسيط، المعجب ١٠٢، وترجمته ٨٧، وتاريخ مسلمى إسبانيا ط ٢ ج ٢ ص ٩٣.

(٥٣) من الطويل، نفع ٣٦٣/٣.

(٥٤) جبل قريب من إلبيرة. انظر: أبحاث ط ١ ص ٢٨٥ هامش ٣.

(٥٥) من الوافر، الإحاطة فى «أبحاث» لدوزى ط ٢ ج ١ ص ٢٨٦، والملحق ص ٦٢، والديوان، القصيدة رقم ١٩.

وتزهدوا حتى أصابوا فرصةً في أخذ مالٍ مساجدٍ وكنائسٍ^(٥٦)
وقد صدم فكرهم الملتوى ونفاقهم شعراء مطلع القرن الحادى عشر، يقول عبادة بن ماء السماء:
وكانَ الخَيْرُ في كَتْمِهِ الطَّيِّبِ بَبْ فَقِيَهُ مُغَرِّى بَطُولِ رِيَاءِ
يُظْهِرُ الزَّهْدَ بِالنَّهَارِ وَيَسَى فَاثَكَا لَيْلُهُ مَعَ الظَّرْنَاءِ^(٥٧)
كان سلطان المال في عصر ينضح قلقلًا، ويدفع الناس إلى التمتع بالحياة عجلين وفي شراهة، الباعث
الإساسي في ميل عدد كبير من الشعراء إلى الزهد، فجاء عملهم هذا رد فعل ضد لا أخلاقية العصر،
يقول أبو عيسى بن عمران يصف سلطان المال في عصره:

ما للتجاربِ من مدئٍ وإرءٍ منها في ازديادٍ
قد كنتُ أحسبُ ذا العلا مَنْ حاز علمًا واستفاد
فإذا الفقيهُ بغير ما لِه كالتبأءِ بلا عماد
شرفُ الفتى بنصاره إن الفقيرَ أخو الجماد
ما العلمُ إلاَّ جوهرٌ قد بيعَ في سوق الكسلِ^(٥٨)

وينسبون الأبيات التالية إلى الطرطوشى:

إذا كنتَ في حاجةٍ مُرسلاً وأنتَ بإنجازها مُغرماً
فأرسلْ بأنكُمَ جلابة به صَمَمٌ أغطشَ أبكم
ودعْ عنك كلَّ رسولٍ سوى رسولٍ يقالُ لَهُ النهرُ^(٥٩)

وكان سخط ابن الحاج عميقا عندما رأى انهيار القيم:

كفى حَزَنًا أَنْ المِشَارَعَ جَمَّة وَعِنْدِي إِلَيْهَا غُلَّةٌ وَأَوَامُ
وَمِنْ نَكِدِ الأَيَّامِ أَنْ يَعدمَ الغنى كَرِيمٌ وَأَنْ المَكْثَرِينَ نِثَامُ^(٦٠)

ونجد الشكوى نفسها عند ابن سارة وبرهن على أن الجهل يجذب الغنى كما تجذب حجار
المغناطيس الحديد^(٦١). ونجد الشيء نفسه عند أبي بكر بن رُحيم الذى ينهى «عصرا يحط من قدر
الأشخاص ذوى الأفكار العالية، ويرفع من قدر ذوى النفوس الضعيفة، والحالات الدنيا»^(٦٢).
لم يكن المجتمع كله فاسدا بهذا القدر، فنحن جميعا نعرف ردَّ أبي محمد بن هود الجدامى المتسم

(٥٦) من الكامل، الديوان، القطعة ٣٠٥، ص ٣٦٦.

(٥٧) انظر ص ١٥٥ - ١٥٦ فيما سبق من هذا الكتاب. وقد التقط ابن قزمان الفكرة نفسها حرفيا تقريبا، في زجله رقم ١٤٣.

الدور ٣، انظر ديوانه ص ٣١٩ و ٤٣٨ - ٤٣٩، طبعة نيكل.

(٥٨) من الكامل، نفع ٥٩٨/٣.

(٥٩) من المتقارب، نفع ٨٥/٢.

(٦٠) من الطويل، نفع ٤٦٢/٣ - ٤٦٣، والقلائد ١٤٤.

(٦١) القلائد ٢٧٠.

(٦٢) القلائد ١٢٠.

بالشموح، حين عَيَّنَه المتوكل عاملاً على لشبونة، فقد سأله شاعر عما اكتسبه في ولايته، فردَّ عليه: «تناءً يَبْقَى ما بقيت»^(٦٣).

إجمالاً، لم يكن إنسان القرن الحادى عشر يوحى بثقة كبيرة فى نفوس المفكرين والأخلاقين، ويقدم لنا الحميدى، ورحل كثيراً، النصيحة التالية:

لقلء الناس ليس يُفِيد شيئاً سوى الهذيان من قيلٍ وقالٍ
فأقلل من لقاء الناس إلّا لأخذ العلم أو إصلاح حال^(٦٤)

ومثل أبى إسحاق الإلبيرى يفضل أبو بكر بن عطية الذناب على البشر:
كزْ بذنبٍ صائِدٍ مستأنساً وإذا أبصرتَ إنساناً ففِرْ^(٦٥)

ونجد مثل هذا التفكير المر عند محمد بن الحسن الجبلى:

وما الأنسُ بالناس الذين عهدتُهم بأنسٍ ولكنَّ فقد رؤيتهم أنسُ
إذا سلمت نفسى ودينى منهم فحسبى أن العريض منى لهم ترس^(٦٦)
ويقول أبو القاسم محمد بن نصير:

مضتْ أعمارُنَا ومضتْ سنونَا فلم تظفر بذى ثقة يدان
وجربنا الزمان فلم يُفدنا سوى التخويف من أهل الزمان^(٦٧)

من السهل علينا أن نورد شواهد كثيرة ولكننا نكتفى بذكر بعض أبيات السميسر، وهو خير من عكس فكر معاصريه فيما نرى:

تَحْفَظُ من ثيابك ثم صُنْها^(٦٨) وإلّا سوف تلبسها حداداً
وميمز في زمانك كلَّ حيرٍ ونأظرُ أهله تُسدِّ العبادا
وظنُّ بسائر الأجناس خيراً وأما جنسُ آدمَ فالبعادا
أرادونى بجمعهم فرُدُّوا على الأعقاب قد نكصوا فرادى
وعادوا بعد ذا إخوان صدق كبعض عقارب رجعت جرادا^(٦٩)

(٦٣) الحلة ١٦٦/٢. (٦٤) من الوافر، نفع ٥٣٥/١.

(٦٥) من الرمل، القلائد ٢٠٧، ونفع ٥٢٤/٢.

(٦٦) من الطويل، نفع ١٠/٤، والضي، البغية ٥٨، ويقول الغزال المتوفى ٢٥٠ هـ = ٦٨٤ م عن المشاركة:

ما أرى قهنا من الناس إلّا ثعلباً يطلب الدجاج وذئبا
أو شبيها بالقط ألقى بعينيه إلى قارة يريد الوثوبا

وهى من المنسرح، نفع ٢٥٧/٢.

(٦٧) من الوافر، نفع ١١٤/٤. (٦٨) يريد أن يقول: تحفظ من صحة سوء.

(٦٩) من الوافر، نفع ٢٩١/٣، ولم يكن الزبيدى، وهو من القرن العاشر، بأفضل اعتقاداً فى الناس منه:

أشعرن قلبك ياسا ليس هذا الناس ناسا

ذهب الإبريز منهم فبقوا بعد نحاسا

سامريين يقولون ن جيملا لا مساسا

و«سامريين» إشارة إلى ما ورد فى القرآن الكريم سورة طه الآية ٩٥. والأبيات من الرمل، نفع ٤٧٥/٣.

ولكن بعض الشعراء لا يبلغ بهم الحال حد التعميم المتسرع، وهو لا يطابق الواقع تماماً كما نتوقع، يقول الأعشى التطيلي:

والنَّاسُ كالنَّاسِ إِلَّا أَنْ تَجَرَّبَهُمْ وَلِلْبَصِيرَةِ حَكْمٌ لَيْسَ لِلْبَصْرِ
كَالْأَيْكِ مُشْتَبِهَاتٌ فِي مَنَابِتِهَا وَإِنَّمَا يَقَعُ التَّفْضِيلُ فِي الثَّرِ (٧٠)

ويعبر أبو عبد الله بن الصَّفَّار عن الفكرة نفسها، متخذاً المثل من الأحجار:

لَا تَحْسِبِ النَّاسَ سَوَاءً مَتَى مَا اشْتَبَهُوا فَالنَّاسُ طَوَارُ
وَانْظُرْ إِلَى الْأَحْجَارِ، فِي بَعْضِهَا مَاءٌ، وَبَعْضُ ضَمْنِهِ نَارُ (٧١)

ويتذكر أبو الحسن الحصري طبيعة الإنسان، فيعطى نفسه الحق أن يصرح:

النَّاسُ كَالْأَرْضِ وَمِنْهَا هُمْ مِنْ خَشَنِ الطَّبَعِ وَمِنْ لَيْنِ
مَرَوْ تَشْكِي الرَّجُلِ مِنْهُ الْوَجَى وَإِثْمُ يُجْعَلُ فِي الْأَعْيُنِ (٧٢)

بعض الشعراء نفسيتهم بسيطة، ويرون من العبث أن نخبر الناس، ويكفى أن ننظر إلى مظهرهم الخارجي، ويقولون إن الأشخاص القصيري القامة أكثر الناس سوءاً إجمالاً (٧٣)، وأن ضخام الأجسام صفارُ الرءوس، بلهائُ العقول (٧٤).

لكن، لا السوء ولا البلاهة أثراً في الأندلسيين على ما يبدو مثل ما أثرت فيهم خيانة الأصدقاء، لقد غرق القرن الحادي عشر في الشراهة والطمع، يشيرها تفتت الأراضي، والثراء السريع عن طريق المغامرة، إلى جانب الطموح الذي يدفع كل حاكم إلى ممارسة سياسة تنسم بالمكر والدهاء والمساومة، وأدى ذلك كله إلى ازدهار الخيانة علناً، وقد شك المعتضد في ابنه إبراهيم، وأعلن ابن عمار استقلاله ضد سيده المعتمد، وعلى امتداد كل هذا العصر يمكن أن تجد الكثير من الغدر والخيانة.

يقول المعتصم وقد خدعه ابن عمار:

وَزَهَدْنِي فِي النَّاسِ مَعْرِفَتِي بِهِمْ وَطُولُ اخْتِبَارِي صَاحِبًا بَعْدَ صَاحِبٍ
فَلَمْ تَرْنِي الْأَيَّامُ خِلَا تَسْرُنِي مَبَادِيهِ إِلَّا سَاءَتْنِي فِي الْعَوَاقِبِ
وَلَا قَلْتُ أَرْجُوهُ لِدَفْعِ مَلْمَةٍ مِنْ الدَّهْرِ إِلَّا كَانَ إِحْدَى النَّوَائِبِ (٧٥)

ويعبر ابن الحاج اللورقي عن الفكرة نفسها بطريقة أعمق:

كُلُّ مَنْ تَهْوَى صَدِيقٌ مُحْضٌ لَكَ مَا لَا تَتَّقِي أَوْ تَرْتَجِي
فَإِذَا حَاوَلْتَ نَصْرًا أَوْ جَدَا لَمْ تَقِفْ إِلَّا بِبَابِ مَرْتَجٍ (٧٦)

(٧٠) من البسيط، نفح ٣٢١/٤.

(٧١) من السريع، نفح ٣٠٦/٤.

(٧٢) من السريع، نفح ١٥٥/٢ و ٣٠٦/٤، وابن سعيد، عنوان المرقصات، طبعة محداد، ص ٣.

(٧٣) انظر أبيات أبي تمام الهجاء في نفح ٤١٧/٣ و ١٥٧/٤.

(٧٤) انظر أبيات ابن شرف، وابن خفاجة، وغيرهم، في نفح ٣٧١/٣.

(٧٥) من الطويل، القلائد ٤٩، والحلة ٨٤/٢.

(٧٦) من الرمل، القلائد ١٤٣.

هل يدهشنا بعد ذلك أن نجد في صور هؤلاء الشعراء تشبيه الصداقة بنبات يتوقع الناس منه فاكهة عذبة، فإذا به لا يشمر غير الخنظل^(٧٧)؟، وفيها يرى الكثيرون أليس حقا أن:

أَلَا إِنَّمَا الدُّنْيَا كِرَاحٍ عَتِيقَةٍ أَرَادَ مُدِيرُهَا بِهَا جَلَبَ الْإِنْسِ
فَلَمَّا أَدَارُوهَا أَثَارَتْ حَقُودَهُمْ فَعَادَ الَّذِي رَامُوا مِنَ الْإِنْسِ بِالْعَكْسِ^(٧٨)

ألا يدهشنا بعد كل الذي قلناه أن شاعرا مثل أبي الفضل بن شرف ينشد:

إِذَا مَا عَدُوَّكَ يَوْمًا سِيًا إِلَى رُتْبَةٍ لَمْ تُطِيقْ نَقْضَهَا
فَقَبْلُ وَلَا تَأْنِفْنَ كَفُّهُ إِذَا أَنْتَ لَمْ تَسْتَطِعْ عَضُّهَا^(٧٩)

هل يستطيع أحد أن يعبر عن وقاحة نديم الملك وهو يتملّق سيده وقد أضمر الغدر به، مثل ما أجاد ابن شرف، ومع ذلك حاول ابن الحداد في هجاء تلفه السخرية أن يصحّح في تعليق رقيق وإنساني ما رآه مغالاة في فكر ابن شرف:

سَامِحٌ أَخَاكَ إِذَا أَنْكَ بَزْلِيَّةٍ فَيُخْلِصُ شَيْءٌ قَلَمًا يَتِمَكَّنُ
فِي كُلِّ شَيْءٍ آفَةٌ مَوْجُودَةٌ إِنَّ السَّرَاجَ عَلَى سَنَاهُ يَدْخُنُ^(٨٠)

ويرى حفيد الحاجب المصحف، وقد قتل المنصور جده، إن من الخطر التردّد على ذوى السلطان: .

وَلَكُمْ حَزْرَ الرَّدَى فَصِمْنَا لَا أَمَانٌ لَصَاحِبِ السُّلْطَانِ
بَيْنَمَا يَغْتَلِي غَدَا خَافِضًا مَدًى لَهُ اكْتِسَابُ كَكْفَةِ الْمِيزَانِ^(٨١)

ويقول أبو القاسم بن حسان:

فَمَا عَاشَ فِي الْأَيَّامِ فِي حُرِّ عَيْشَةٍ سِوَى رَجُلٍ نَاءٍ عَنِ النَّهْرِ وَالْأَمْرِ^(٨٢)

إننا بالذوق البسيط، والطيبة والتسامح، يمكن أن نصل، إذا لم يكن إلى السعادة فعلى الأقل إلى راحة النفس، يقول ابن سارة:

وَلَقَدْ طَلَبْتُ رِضَى الْبَرِيَّةِ جَاهِدًا فَإِذَا رِضَاهُمْ غَايَةٌ لَا تُدْرِكُ
وَأَرَى الْقِنَاعَةَ لِلْفَقَى كَنْزًا لَهُ وَالْبِرُّ أَفْضَلُ مَا بِهِ يَتَمَسَّكُ^(٨٤)

إن العالم الذي ينسحب من الدنيا لا يعيش في وحدة كاملة، وإنما يحيط به أصدقاؤه من كتبه، وكان

(٧٧) انظر: المطمح ١٧٦، والمجلة ١٣٠/٢، ونفع ٥٤١/٣، وانظر فيما سبق ص ١٨١ من هذا الكتاب.

(٧٨) من الطويل، نفع ٢٢٨/٣.

● قلت: الأبيات في نفع الطيب منسوبة إلى أبي القاسم ابن بقي (المرجم).

(٧٩) من المقارِب، نفع ٣٩٦/٣.

(٨٠) من الكامل، نفع ٥٠٤/٣، وأبحاث ١٠٢.

(٨١) من الوافر، نفع ٥٠٢/٣.

(٨٢) من الخفيف، نفع ٤٧١/١.

(٨٣) من الطويل، نفع ٤٧٤/٣.

(٨٤) من الكامل، نفع ٣٤٥/٤.

حب القراءة، وحب الكتاب، من العواطف المسيطرة على الأندلسيين^(٨٥)، ولم يكن أحمد بن رضى الملقى يجد التسرية عن نفسه في النبذ أو الموسيقى، يقول:

ليس المدامة بما أستريحُ له ولا مجاوبة الأوتار والتغنى
وإنما لذتي كُتُبُ أطالعها وخادمي أبدا في نُصرتي قمي^(٨٦)

لقد أحب الأندلسيون الكتب، واتخذوا منها أصدقاء، يقول ابن الحداد:

ذهب الناس فانفرادى أنيسي وكتابي مُحَدَّثي وجليسي
صاحبٌ قد أمنتُ منه ملالا واختلالا وكل خلقٍ بثيس
ليس في نوعه بحى ولكن يلتقي الحى منه بالمرمرس^(٨٧)

ونستطيع أن نفضى بسرنا إلى كتاب كما نفعل مع أى صديق حقيقى، يقول أبو القاسم البلوى الإشبيلي:

أما في الدهر من أفسى إليه بسرارى فيؤنسُ بالجواب
يشت من الأنام فما جليس يعز على نهائى سوى كتابي^(٨٨)

وفيما يرى أبو عيسى بن لبون فإن مثله الأعلى أن يعيش in angello cum Libello.
نفضت كفى عن الدنيا وقلت لها: إليك عني فما في الحق أغتب
من كسر بيتي لى روض ومن كتبي جليس صدق على الأسرار مؤتمن
أدرى به ما جرى في الدهر من خبر فعنده الحق مسطورٌ ومختزن
وما مضاي سوى موتى ويدفنتي قريم ومالهم علمٌ أين دفنوا^(٨٩)

ما أشد ما يشعر به هؤلاء الناس من ألم، عندما يضطهرهم البؤس إلى بيع كتبهم^(٩٠)! وهل تتصور مدى شعورهم بالإحباط عندما تحرق كتبهم لأسباب دينية؟ إن محاكمة الكتب دينياً لم تكن من سمات عصر المنصور وحده^(٩١)، ففي قمة القرن الحادى عشر رى ابن حزم أيضاً كتبه التى من تأليفه تحرق

(٨٥) عن هواة جمع الكتب من الأندلسيين انظر: ليفى برونفال، إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر الميلادى ص ٢٣٣ - ٢٣٤، وخوليان ريبيرا، هواة الكتب والمكتبات في إسبانيا الإسلامية في «نبذ ومقالات» ١٨١/١ - ٢٢٨. وكاترمير، دراسة عن الغرام بالكتب عند المشاركة، في المجلة الأسبوية، السلسلة ٣، المجلد ٦، عام ١٨٣٨، ص ٣٥ - ٧٨.
● ترجمت دراسة ريبيرا عن الكتب مع دراسات أخرى ونشرتها بعنوان: «التربية الإسلامية في الأندلس، أصولها المشرقية وتأثيراتها الغربية»، دار المعارف، القاهرة ١٩٨١. (المترجم).

(٨٦) من البسيط، نفع ٣/٣٢٥.

(٨٧) من الخفيف، نفع ٤/١١٥.

(٨٨) من الوافر، نفع ٣/٣٢٥.

(٨٩) من البسيط، القلائد ١٠٢، والحلة ١٧١/٢، ونفع ٣/٩٧، وأبحاث ط ١ ص ٥٣٠.

(٩٠) لم يقلق ابن عباس وزير زهير الصقلبي أمير المرية عندما سجنه باديس بن حبوس أمير غرناطة، إلا خوفاً على كتبه.

انظر: تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ج ٣ ص ٢٧.

(٩١) انظر: نفع ١/١٣ طعة أوروبا، صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، طبعة شيخو ٦٦، وترجمة بلاشير لها ص ١٢٥، والبيان

المغرب ٢/٣١٥ - ٤٨٧ - ٤٨٨، وتاريخ مسلمي إسبانيا ط ٢ ج ٢ ص ٢٢٥.

بأمر ابن عباد^(٩٢)، ربما بتحريض من فقهاء المالكية الذين كانوا يمتنون ابن حزم الظاهري، أى كلمات نبيلة أسمعتها الناس يومها:

فإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذى تضمه القرطاس بل هو فى صدرى
يسير معى حيث استقلت ركائبنى وينزل إن أنزل ويدفن فى قبرى
دعوى من إحراق رقى وكاغيد وقولوا يعلم كى يرى الناس من يدى
وإلا فعودوا فى المكاتب بدءاً فكم دون ما تبغون لله من ستر^(٩٣)

إذا تعمقنا فى دراسة الروح الأندلسى فسوف نلاحظ أن صورة عاشق الحياة البهجة، المولع بالفنون والمنغصص فى اللذات، سوف تتلاشى تدريجاً، لأنها لا تعبر عن أواقع. ألم يخذعنا مؤلفو المختارات الأدبية، ومؤرخو الأدب حين تعدوا ألا يوردوا فى مؤلفاتهم سوى أبيات الشعر التى تشيد بالحياة، وتتغنى بمنع الخمر والموسيقا؟ وحين نتمعن هذه المختارات الأدبية والدواوين فسوف نجد أن الشعر الجاد كثير. ويعدل الشعر اللاهى فى كثرته، وقاله الشعراء أنفسهم الذين تغنوا بالنبيذ أو فلسفوه، وما ذكرناه من أبيات فيما سبق كاف للبرهنة على ما نقول، فهؤلاء الشعراء أنفسهم حين عركتهم الحياة فى الحقيقة، وأنضجهم الزمن، أصبحوا أكثر اتزاناً، وتناولوا فى قصائدهم موضوع حب الحياة من زاوية مختلفة تماماً، فهم يتحدثون عن ظهور الشيب، والإعراض عن الدنيا، وما يشير إليه كل هذا. ونستطيع أن نجتمع مختارات من الأشعار التى تصوّر الشيب فى الشرق والغرب^(٩٤)، فإنها تملأ ديواناً بأكمله، وعندما يضحك المشيب بالرأس فذلك بمثابة تحذير بأن قوى الإنسان تأخذ فى السقوط، وإشارات منذرة بقدوم الموت، وتنبيه الإنسان بأن يتخلى، إن لم يكن فعل فعلاً، عن ملذات الحياة، ويفكر فيما بعد الموت، وليس من الأهمية بمكان أن نأتى على هذه الأشعار، لأنها لا تفتأ تكرر فكرة واحدة، إذا لم تكن إرثاً عربياً خالصاً فهى تنتمى إلى العمق الإنسانى المشترك، ومع ذلك، فالصورة التالية لأمر بلنسية مروان بن عبد العزيز تقدم لنا تصويراً مباشراً للواقع، سوف نشعر بالألم إذا مررنا به صامتين:

وَمَا رَأَيْتُ الشَّيْبَ أَقْبَنْتُ أَنَّهُ نَذِيرٌ لِّجَسْمِي بِأَنَّهُمْ بَنَاءُهُ
إِذَا أبيضُ مَحْضَرُ النَّبَاتِ فَإِنَّهُ دَلِيلٌ عَلَى اسْتِحْصَادِهِ وَفَنَائِهِ^(٩٥)

وإذا كان الأندلسيون قد طبقوا الحكمة القائلة: «يجب التسامح مع الشباب»، فقد عرفوا أيضاً، مع العمر الناضج والشيخوخة، كيف يتحكمون فى رغائبهم، ويلتزمون سلوكاً حميداً، وتبرهن أشعار لا تحصى أن كثيراً من هؤلاء الشعراء أمضوا شباباً غارقاً فى اللذات، وأتبعوه شيخوخة بالغة

(٩٢) لم يجد ابن بسام الذى أورد لنا الخبر أى بنى عباد يعنى، ومن المؤكد أنه يعنى المعتضد. الذخيرة ١٧١/١.
(٩٣) من الطويل للذخيرة ١٧١/١، وياقوت، إرشاد لأرب ٩٥/٥، والإحاطة ١١٦/٤، ونفع ٨٢/٢ و١٩٢/٣، وأسین بلايوس، ابن حزم القرطبي، ٢٣٥/١، وكأراً دى فو، مفكرو الإسلام ٣٣٤/٣، وتوجد أيضاً أبيات عن بيع الكتب فى نفع الطيب، ٥٢٦/٢ طبعة أوروبا، وهى من بحر الكامل، ولكنها لكاتب من المهديّة، هو: أبو الحسن بن الحداد.
(٩٤) نفا يتصل بالشرق توجد أشعار كثيرة فى ابن الشحرى، والحماسة طبعة ف فرنكوف، ٢٣٩ - ٢٤٧، والنويرى، نهاية الأرب، ٢٣/٢ - ٢٩، وعن الغرب الإسلامى انظر: نفع ١١٨/١ - ١٢١.
(٩٥) من الطويل، نفع ٤٠٨/٣.

الاتزان^(٩٦)، بل ذهبوا إلى ماهو أبعد من هذا، ففتكروا لكل حماقاتهم شبابا، إن الشيخ عندنا ينظر وراءه مبتسماً، يودّع أعواماً خاليات من اضمحلال، ولكن الأندلسيين على النقيض، نجد عندهم الرغبة قوية في تحطيم كل شيء، والحرص الشديد على محو كل الذكريات التي ارتبطت بهذه الفترة من العمر، بعيدة وسيئة في ذاتها. ومثل هذا الموقف يعتبر تطوراً طبيعياً في الإنسان، ولكن الظروف هي التي تحدد طبيعة هذا التطور في الجانب الأكبر منه، وفي القرن العاشر الميلادي نظم ابن عبد ربه في نهاية حياته جملة قصائد أسماها المحصنات، لكي يرتد عن كل بيت قاله في شبابه^(٩٧)، وفي القرن الحادي عشر ذهب الشعراء بهذا التخلي إلى أبعد من ذلك بكثير، فدمروا مجموعات شعرهم التي تعود إلى مرحلة المراهقة أو الشباب، كما لو كانت شاهداً بغيبض على مشاعرهم العابثة، وحياتهم التي أضاعوها هباء، ولا يذهب بنا الظن أن هذا حدث فقط في نهاية القرن الحادي عشر مع مجيء المرابطين الذي فرضوا موجة من التطهر فوق إسبانيا الإسلامية^(٩٨)، لأن هذا حدث في عصر ملوك الطوائف أيضاً، وطبقاً لكل الاحتمالات فنحن لا نعرف شيئاً أبداً عن القصائد التي نظمها ابن عمار في فترة شبابه، ولكي لا نذكر أكثر من شاهد، فكل دواوين القرن الحادي عشر نادرة جداً^(٩٩).

هذا الندم على ماضي مخجل، مصحوباً باندفاع قوى نحو التقوى وخشية الله، حمل اسم الزهد، وموضوعه الأساسي أن ملذات الحياة قصيرة الأجل، وعلينا أن نفكر في الخالق وأن نخشى الله^(١٠٠) يقول أبو الوليد الباجي:

إذا كنت أعلم علم اليقين بأن جميع حياتي كساعة
فلم لا أكون ضنيناً بها وأجعلها في صلاح وطاعة^(١٠١)

الجهلاء وحدهم هم الذين يعطون الحياة الدنيا قيمة، علام يتنازعون في الأرض إلا على غنيمة تدعو إلى السخرية^(١٠٢)؟ يقول المعتمد نفسه:

(٩٦) تجميعها كتب الأدب تحت عنوان: «الزهد». انظر: نفع ٣١٥/٤ - ٣٤٩. وفيها يتصل بالمشرق انظر ابن قتيبة بخاصة، عيون الأخبار، طبعة القاهرة ٢٦١/٢ - ٣٣٢.

(٩٧) انظر: المطمح ٢٧٠ وما بعدها، والتعالي، ينتمي الدهر ٤١٢/١ - ٤١٣، وابن دحية، المطرب ١٥١ - ١٤٦. ويستخدم ابن عبد ربه في محصنات نفس البحر ونفس القافية اللذين استخدمهما في القصائد التي يريد أن يحوها وأحياناً نجد كلمة «مكفرات» بدل «محصنات».

(٩٨) وحتى ابن قزمان في أواخر حياته قال:

قد تاب ابن قزمان: طوبى له إن دام
قد كانت أيامه أعياد في الأيام
بعد الطبل والدف وقتل الأكمم
من سمع الأذان يبط ويطلع
إمام في مسجد صار، يسجد ويركع

الديوان، الزجل ١٤٧، الدورة، ص ٣٢٦.

(٩٩) لا نستطيع أن نذكر دواوين وصلتنا كاملة غير دواوين: ابن زيدون، وابن خفاجة، وابن حمديس.

(١٠٠) الأبيات لأبي عمر بن عبد البر، في المطمح ٢٩٦، ونفع ٢٨/٤.

(١٠١) من المتقارب، القلائد ١٠١، نفع ١٤/٢.

(١٠٢) القلائد ٢٦١، ونفع ١١٧/٤ - ٣٤٥، والأبيات لابن سارة.

أرى الدنيا الدنيّة لا تواقى فأجمل في التصرّف والطلّاب
ولا يغررك منها حُسن بُردٍ له علّمان من ذَهَبِ الذُّهاب
فأولها رجاء من سرابٍ وأخبرها رداء من تراب^(١٠٣)

والمؤمن الصادق الإيمان يجب ألا يبحث عن الثراء، وإنما عليه أن يتمنى الفقر، وقد ذاعت شهرة أبي إسحاق الإلبيري بسبب قصائده الزهدية، «فلا تجد حادى جذاة، ولا مُذكر مآدبة، ولا واعظاً، إلا وهو مكتر منه»^(١٠٤)، ويقول أبو عمران المارتنى:

لا تَبْكُ ثوبَكَ إنْ أَلْبَيْتَ جِدَّتَهُ وإبكِ الذى أَلْبَتِ الأيامُ من بدنك
ولا تكونَنَّ مَحْتالاً بجِدَّتِهِ فرمّا كان هذا الثوب من كفنك
ولا تعفهُ إذا أَبْصَرْتَهُ دِنْسًا فإنما اكتسب الأوساخ من درنك^(١٠٥)

وبعض الزاهدين يثيرون الدهشة، وبخاصة عبر القرن الحادى عشر، وساد الاعتقاد بأنه زاهر بالحفلات المستمرة يقيمها ملوك الطوائف، ونذكر من ذلك المروانى المدعو «بكار»، وعاش مع زوجه وابنه الوحيد فى ضواحي لشبونة، منقطعا للصلاة والتأمل، ويتعيش من صيد السمك على شاطئ لإطلنطى، وراغبا فى التكفير عن خطاياهم خرج للجهاد مشاركا فى صفوف المتطوعة الذاهبة لقتال النصارى، ولم يعد من رحلته هذه أبداً^(١٠٦)، أو ذلك الأديب العالم الذى عاش فى سرقسطة، وأصبح اسمه مشهورا فى كل شبه جزيرة إيبيريا بفضل الرسائل التى وجهها إلى كبار الكتاب فى عصره، وأعنى به ابن السباغ. وقد وجه إليه أبو الفضل بن حسداى رسالة يقول فيها عنه: «... فالسلام عليك يا أيها الدُّسك المتصوف»^(١٠٧)، والمتبئل المتكشف، الذى أقصر لِمَا أبصر، وفضّل نور الحقيقة، على نور الحديقة، فقطع العلائق، وهجر الخلّاق، فأنت ممن تقول، ما لا تدركه الألباب والعقول: أخذ منى أنا، فبقيت بلا أنا، فبوجهك يستسقى الغمام، وببركة دعائك تستشفى الآلام، فإنك الرجل الزاهد والمرباط المجاهد»^(١٠٨). وهذا فيما نعتقد أحد الشواهد النادرة على وجود الزهاد والمتصوفة فى إسبانيا فى القرن الحادى عشر الميلادى، ولا تعود فى شىء على ما يبدو للفوران الدينى الذى أثاره المرابطون^(١٠٩). أما الأسباب التى حدّدت أو أسرعت بحركة هذه الحمية، فيما يبدو، ولا نعرف من مظاهرها إلّا

(١٠٣) من الوافر، الحلة ٦٧/٢، وبنو عباد ٧١/٢

(١٠٤) الإحاطة فى أبحاث ط ٣ ج ١ ص ٢٨٥.

● لم أستطع الانتهاء إلى هذه الفقرة فى الإحاطة طبعة محمد عبد الله عنان (المترجم).

(١٠٥) من البسيط، نفع ٢٢٥/٣.

(١٠٦) قص لنا تاريخه مؤلف مجهول فى كتاب يسمى «السقط» وقد احتفظ لنا نفع الطيب ٣٣٤/٣ بفقرات منه.

(١٠٧) من الضرورى أن نبرز فى رسالة هذا الكاتب، اليهودى الأصل، كلمات اتخذها بعض المؤلفين فيما بعد عناوين لكتبهم التى ترجموا فيها للصوفيين المغاربة، مثل: كتاب التشوّف إلى رجال التصوّف لابن الزيات التادل، المتوفى ٦٢٧ أو ٦٢٨ هـ = ١١٢٩ أو ١١٣١ م

(١٠٨) الذخيرة ٢٨٦/٣.

(١٠٩) انظر: ألفريد، التصوف فى الغرب الإسلامى فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلادى، فى حوليات معهد الدراسات للشرقية، كلية الآداب فى جامعة الجزائر، المجلد الأول ١٩٣٤ - ١٩٣٥، ص ١٤٥ وما بعدها. وقد رأينا كيف أشار ابن خفاجة - وهو يصف الجبل إلى الزهاد الذين اتخذوه مقاما. انظر فيها سبق ص ١٤٣ من هذا الكتاب.

بعضاً متناثراً ومنعزلاً في نهاية القرن العاشر ومطلع القرن احدى عشر^(١١٠)، فيجب أن نبحث عنها في عدم استقرار الثروات، وفي قلق لعصر، وفي الدراسات لتأملية، باطنية ونظرية، وقد انعكس فيها الإسبان المسلمون بكل حرية، وعينا أيضاً أن نبحث عنها في مشاهد الأطلال التي تعرض لعيونهم في كل لحظة، عقب الحروب بين الأندلسيين وأبربر^(١١١). إنها رد فعل ضد عدم الاكتراث السائد في لحظة تعدد فيها هجوم النصارى، وفي كل يوم يشتد ضراوة، وأيضاً يجب ألا نستغرب من انطواء الأرواح على نفسها، جريحة في ضميرها الدينى، وفي كرامتها الوطنية^(١١٢).



لا يدهشنا إذن أن الأندلسيين جميعاً لم يلتزموا بدقة القانون الطبيعى الذى يريد الشئى لاهية، والشيوخوخة فاضلة، وحالة أبى الحسن عبد الملك بن عيَّاش الجابرى ليست بالضرورة حالة منفردة: عصيتُ هوى نفسى صغيراً وعندما رمتنيَّ الليالى بالمشيب وبالكبر أظعت الهوى، عكس القضية ليتنى خلقت كبيراً وانتقلت إلى الصفر^(١١٣) وثمة شاعر آخر، انغمس كليةً في متعة الشراب، رغم تقمه في السن، ويقول: «أريد أن أجد الأمل في نفس اليأس»^(١١٤).

وإذا كان بعضهم واصل انغماسه في الملذات فلأنهم لا يرمون باليوم الآخر، ويريدون أن يعتصروا حياتهم حتى آخر قطرة، يقول ابن خفاجة: هجوؤ ولا غيرَ التربِ حَيْثِيَّةً لجنب ولا غيرَ القبور قَبَابُ^(١١٥) ويقول ابن خَيْرَة الصَّبَاغ:

فاشربْ وَلَدُ بَجْنِيَّةٍ واطربْ فَإِنَّ العَمَرَ فائِتٌ^(١١٦)

وأوشك ابن يَنْقُ أن ينكر عت الأجساد:

ما أَحْسَنَ العيشَ لو أَنَّ لفتى أَبْداً كالدُر يَرْجو تَمَاماً بعد نُقصانِ
إذ لا سَبِيلَ إلى تَخْلِيدِ مَآثِرِهِ إذ لا سَبِيلَ إلى تَخْلِيدِ جُثْمَانِ^(١١٧)

ويلج غموض الموت على عقول بعض المفكرين، حتى أن أباً بكر محمد بن يحيى لشلطيشى لا يعتقد في الحياة الأخرى:

(١١٠) انظر فيما سبق ص ٢٣ الهامش رقم ٤٠ من هذا الكتاب، نقل من كتاب أعمال الأعلام لابن الخطيب عن طبقات المجتمع الأندلسي المختلفة، وصاعد الأندلسي، طبقت الأمم ص ٦٨، وترجمة بلاشير ١٢٨.

(١١١) انظر فيما سبق ص ١١٥ من هذا الكتاب.

(١١٢) انظر فيما سبق ص ٩٢ من هذا الكتاب أبيات ابن العسال عن إستيلاء التورمان على بربرشتر.

(١١٣) من الطويل، نفع ٣٢٧/٤. الحق أن ابنه أبى الحسن علما قال بيتاً مفرداً في معنى ذلك، وهو حينئذ له إذا لم يكن كاتبه الذى أطع الهوى في حالتيه وما اعتبر

(١١٤) نفع ١٨٣/١١ طبعة أوروبا. (١١٥) من الطويل، الديوان، القطعة ١٦٥ ص ٢١٨، ونفع ٥٣٩/١.

(١١٦) من الكامل، انظر فيما سبق ص ٢٠٩ و ٢١٠ الهامش رقم ٤ من هذا الكتاب وص ٣٢١ الهامش رقم ٢٥.

(١١٧) من البسيط، نفع ٥٩٦/٣.

وفاءُ المرءِ سرٌّ لم يُكاشف
سيفنى كل ذى شبحٍ ونفسٍ
ويتصدعُ الجميعُ إلى صدرعٍ
كأنَّ مصائبَ الدنيا سهامُ
فمنلَ ما شئتَ إنَّ الفقرَ حدُّ
ولم تثبتْ حقيقةَ درايتهِ
وتلتحقُ النهايةُ بالبدايةِ
تعود به البريةُ كالبرايه
لها الأيَّامُ أغراضُ الرمايه
وعش ما شئتَ إنَّ الموتُ غاية^(١١٨)

جاء إلحاد القرن الحادى عشر نتيجة الدراسات العلمية دون شك، وازدهرت بحرية تامة فى إسبانيا الإسلامية خلال حكم ملوك الطوائف، ولدينا شاهد على ذلك فى فيلسوف جامع فى هذا العصر، هو صاعد الطليطلى^(١١٩) الأندلسى، يقول فى كتابه طبقات الأمم:

«وانتشرت تلك الكتب بأقطار الأندلس ووجد فى أعلاق من العلوم القديمة كانت أفلتت من أيدى المحتنين بحركة الحكم أيام المنصور بن أبى عامر وأظهر أيضاً كل من كان عنده من الرعاية شىء منها ما كان لديه منها، فلم تزل الرغبة ترتفع من حين فى طلب العلم القديم شيئاً فشيئاً، وقواعد الطوائف تنمصر قليلاً إلى وقتنا هذا، فالحال بحمد الله أفضل ما كانت بالأندلس فى إباحة تلك العلوم، والإعراض عن تحجير طلبها، إلى أن زهد الملوك فى هذه العلوم وغيرها».

وإذا كان ابن حزم شكاً من تعصّب انعتضد^(١٢٠)، فقد وجد ملاذاً فى دانية عند مجاهد أميرها، ووزيره أبو العباس بن رشيق، وفى هذا البلاط استطاع أن يناظر أبا الوليد الباجى عن الفقه وأصول الدين^(١٢١).

وكان يوسع أبى الوليد الوقشى أن يعلن فى بيتين متكاملين من الشعر أن الدراسات الدينية والعلمية لا تفيد الإنسان فى شىء، لأن حقيقة ما وراء الطبيعة، وهى ضرورية لنجاة الإنسان، والعلم الحقيقى الوحيد، من المستحيل الوصول إليها، وأمّا العلوم الإنسانية، وإن أمكن تحصيلها، فشىء تافه وعيب وباطل:

برّح بي أن علومَ الورى اثنان ما إن فيها من مزيد
حقيقةٌ يُعجزُ تحصيلُها وباطلُ تحصيله لا يفيد^(١٢٢)

مما جعل صديقاً لأبى محمد بن السّيد البطلبوسى يتهم أبى الوليد الوقشى بالهرطقة، بعد عشر سنوات من نظمه هذين البيتين، وأثار بين هذين الصديقين جدلاً، وأوضحنا أهميته من قريب^(١٢٣).

(١١٨) من الوافر، نفع ١٠/٤.

(١١٩) صاعد الطليطلى، طبقات الأمم، طبعة شيخو ٦٧، ترجمة بلاشير ١٢٧. وانظر أيضاً: تاريخ مسلمى إسبانيا، ط ٢ ج ٣

١٣٥، وأبحاث ط ١ ص ٤ هامش ١.

(١٢٠) انظر ص ٣٩٣ - ٣٩٤ فيها سبق من هذا الكتاب.

(١٢١) انظر: الحلة ١٢٨/٢، وانظر أيضاً ص ٧٠ فيها سبق.

(١٢٢) من السريع، نفع ١٣٧/٤ و ٣٠٦.

(١٢٣) انظر: أسين بلانيوس، موضوع الحاجة إلى الوحى فى الإسلام وعند المدرسين، فى مجلة الأندلس، المجلد ٣، العدد ٢،

عام ١٩٣٥، ص ٣٦٨ - ٣٧٤ و ٣٨٩ - ٣٨٨.

وثمة قصيدة لابن السيد هذا، تجعلنا نظن أن بعض الفلاسفة في عصره كانوا ينكرون التوحيد، يقول في بيت منها:

وللعقل عِبَادٌ وللنفس شِيعَةٌ وَكُلُّهُم عن منهج الحق حائذٌ^(١٢٤)

وأراد أبو الحسن رشيد بن سليمان أن يمدح أبا عيسى بن ليون على شعره، فاجزؤ على أن يقول:

نَظَّمْ وَعِشْكَ لو غدا نثرًا لما قَدَّرْتَه إِلَّا من التنزيل^(١٢٥)

وأى مسلم مستقيم يعتبر مثل هذا الفرض كفرًا، حتى لو كان غير حقيقى. وإذا كان الكتاب الموحى به موضع حوار، فيمكن القول أن الحديث لم يبع من فكر الباحثين الناقد. يقول أندلسى:

أرى الخيرَ فى الدنيا يقلُّ كثيرُهُ وينقص نقصًا والحديث يزيدُ
فلو كان خيرًا كان كالخير كله ولكنَّ شيطانَ الحديثِ يريد
ولا بن مُعَيَّنٍ فى الرجالِ مثالةٌ سيبأل عنها والمليك شهيد
فإن يك حقًا قوله فهى غيبةٌ وإن يك زورًا فالقصاصُ شديد^(١٢٦)

وقد ردَّ عليه أبو عبدالله الحميدى، المتوفى عام ٤٨٨ = ١٠٩٥، وهو مؤرخ مُحَدِّث^(١٢٧)، يقول:

وإني إلى إبطال قولك قاصدٌ ول من شهادات النصوص جنودُ
إذا لم يكن خيرًا كلامٌ نبينا لديك فإنَّ الخير منك بعيد
وأقبح شيء أن جعلت لى أتى عن الله شيطانًا وذاك نديد
ومازلت فى ذكر الزيادة مُعجبا بها تبدئ التليس ثم تعيد
كلام رسول الله وحى ومن يرمُ زيادة شيء فهو فيه عتيد^(١٢٨)

مثل هذا الهجوم كان يشكّل خطرا على صاحبه فى أزمان أخرى^(١٢٩)، أما الآن فليست إلا موضع نقاش بين رجال الدين، ومع أنها غالبا ما تكون غير ودية، لكنها لا تبلغ حد الكراهية أو القتل أبدا.

أما الأبيات الشعرية التى تقول إن عبادة النبيذ وأداء الصلاة يمكن أن يتعايشا تماما^(١٣٠)، وأن تناول الخمر صباحا لا يحول مطلقا دون أن يلى شاربها نداء المؤذن^(١٣١)، فليست إلا نزوة شاعر. ولكن،

(١٢٤) من الطويل، القلاند ١٩٥ - ١٩٦، وتحتوى القصيدة على ستة عشر بيتا.

(١٢٥) من الكامل، القلاند ١٠٠.

(١٢٦) ابن معين محدث معاصر فيما يبدو، انظر: نفح ٢٧٨/١ و ٨/٣ و ٣٢٨/٤.

(١٢٧) اشتهر الحميدى بكتابه «جذوة المقتبس» بخاصة، وهو مجموعة من التراجم للعلماء، وجل ما فيه نقله عنه من جاء بعده من العلماء، ممن ألفوا فى مثل هذا اللون من الكتب، مثل: الصلة لابن بشكوال، ويقول الحميدى:

الناس نبت، وأرباب القلوب لهم رضى، وأهل الحديث الماء ولزهـر
من كان قول رسول الله حاكمه فلا شهود له إلا الألى دكروا

وهى من البسيط، نفح ٣٣٧/٤.

(١٢٨) من الطويل، نفح ٣٣٨/٤.

(١٢٩) عندما تحدث ابن طلحة بسوء عن رمضان فى بعض أبياته حكم عليه بالموت، عام ٦٣١هـ = ١٢٣٤م. انظر: نفح ٣٠٩/٣.

(١٣٠) ثمة أبيات للرمادى عن هذا الموضوع فى المظمح، ونفح وهى من الخفيف.

(١٣١) انظر ص ٣٢٩ فيما سبق من هذا الكتاب.

أحملهم حب الحياة بعيدا، أكثر مما يجب، فيقول ابن اليسع صباح موقعة الزلاقة، وكان يوم جمعة:
 عطشتُ أبا بكر وكفأك ديمةً وذبتُ اشتياقًا والمزار قريبُ
 فحَفَفْتُ ولو بعضُ الذي أنا واجدُ فليس بحق أن يُضاع غريبُ
 ووفرُ ننا من تلك حظًا نرى بها نشاوى وبعد الغزو سوف تثوب^(١٣٢)

ولعب طئف الشك بفكر ابن عمار أحيانا، وشاهدنا على ذلك حين توجه إلى المسجد مع المعتمد في يوم جمعة، وسمع الصديقان المؤذن يدعو للصلاة، فارتجل المعتمد البيت التالي، وطلب من ابن عمار أن يميزه، قال المعتمد:

هذا المؤذن قد بدا بأذانه

يرجو بذاك العفو من رحانه

طوبى له من شاهدٍ بحقيقة

إن كان عقْد ضميره كلسانه

فقال ابن عمار:

فقال المعتمد:

فقال ابن عمار:



إن الشك الذى أوضحنا بعض مظاهره لم يكن شائعا كما يمكن أن يظن، لأن الأندلسى يحتفظ في أعماق روحه بإيمان بالله القوى الرحيم، وإذا كان الأندلسى المسلم يثق في رحمة الخالق الرحمن الرحيم، فإنه يعتقد أيضا - ونرى في هذا بقايا مفاهيم مشرقية - أن الدهر أو الزمن سيضطلع، قبل أو بعد، بإقامة العدل الذى انتهكه الناس، يقول أحد الشعراء:

إذا ماجنى يوما عليك جنبايةً ظلومٌ يدقُ السمرَ بأسا ويقصفُ
 فلا تنتقم يوما عليه بماجنى وكلُّ أمره للدهر فالدهرُ منصفُ^(١٣٤)

إن أحد الانطباعات السائدة التى نخرج بها من قراءة الشعر الأندلسى أن الإنسان مهما كان الوضع الذى ينتمى إليه، يعى ضعفه. يقول بكار المروانى: «إن هذه القلوب المخلاة لله كالورق التى جفت، وهى مستعدة لهبوب الرياح»^(١٣٥)، وكل أفكاره وأعماله يجعلها الخشوع، ويعطرها التواضع، ويجب أن يكون واعيا بتفاهة الأشياء، وأن يعرف كيف يظهر التواضع في أيام الرخاء. يقول السميسر:

هُنَّ إذا ما نلتَ حظًا فأخو العقل بهونُ
 فمق حطّك دهرُ فكما كنتَ تكونُ^(١٣٦)

ويقدم لنا الشاعر نفسه النصيحة التالية، وفيها يدعو إلى التخلّى عن الطموح:

إذا شئتَ إبقاء أحوالك فلا تُجِرْ جاهًا على بالك
 وكن كالطريقٍ لجتازها يمرُّ وأنت على حالكا^(١٣٧)

١٣٢) من بحر الطويل، القلائد ١٧٠، والمجلة ١٧٤/٢.

١٣٣) من الكامل، خريدة القصر، وبنو عباد ٣٨٤/١، والمجلة ٥٥/٢، وبنو عباد نقلا عن المجلة ٦٣/٢، ونفع ٦١٦/٣، وتاريخ

مسلمى إسبانيا ط ٢ ج ٣ ص ٨٤.

١٣٥) نفع ٣٣٦/٢.

١٣٤) من الطويل، نفع ٣٤٣/٤.

١٣٦) من السريع، نفع ١١٧/٤.

١٣٦) من الرمل، نفع ١١٧/٤.

١٣٨) من البسيط، القلائد ٢٥٥.

ويقول أبو الفضل بن شرف:

إِنِّي وَإِنْ غَرَّنِي نِيلُ الْمَنَى لَأُرَى حَرَصَ الْفَتَى خَلَّةً زِيدَتْ إِلَى الْعَدَمِ^(١٣٨)
وقد لحظ الأعمى التطيلي «أن الثراء مصدر كثير من الهموم»^(١٣٩)، وكان ابن بُرْطُلَه يَرى الخمول
شرطا في السعادة، يقول:

لِلَّهِ مَا أَلْقَاهُ مِنْ هِيَّةٍ لَا تَرْضَى إِلَّا السُّهَاءَ مَنْزِلًا
وَمِنْ خَمُولٍ كُلَّمَا رَمَتْ أَنْ أَسْمُو بِهِ بَيْنَ الْوَرَى قَالَ لَا^(١٤٠)
وما أروعها حكمة ينثرها أبو إسحاق الإلبيري في الأبيات التالية:

قَالُوا: أَلَا تَسْتَجِدُّ بَيْتًا تَعْجَبُ مِنْ حُسْنِهِ الْبُيُوتُ
فَقُلْتُ: مَا ذَلِكَ صَوَابٌ حَفَشَ كَثِيرٌ لِمَنْ يَمُوتُ
لَوْلَا شِتَاءٌ وَلَفُحٌ نَيْطٌ وَخَوْفٌ لَصٌّ وَحَفْظٌ قُوتُ
وَنِسْوَةٌ يَبْتَغِينَ سِتْرًا بَنِيَتْ بُنْيَانٌ عَنكَبُوتُ^(١٤١)

وبعض الأندلسيين من ذوى الأرواح العالية يَخجلون من مراتب المجد التى يبلغونها، ولذلك
يعتدرون عنها، كما لو كانوا بصدد إهانة بأمثالهم، يقول ابن حزم:

لَا تَلُمْنِي لِأَنَّ سَبْقَةَ لِحْظٍ فَاتَتْ إِدْرَاكُهَا ذَوَى الْأَلْبَابِ
يَسْبِقُ الْكَلْبُ وَثْبَةً اللَّيْثُ فِي الْعُدِّ وَوَعْلُو النَّخَالِ فَوْقَ اللَّيْلِ^(١٤٢)
ويعتنى ابن حزم لو أن العالم كله كان في تواضع:

لَا يَشْتَمَنَّ حَاسِدِي إِنْ نَكَبْتُ عَرَضْتُ فَالْدَهْرُ لَيْسَ عَلَى حَالٍ يَبْتَرِكُ
ذُو الْفَضْلِ كَالْتَبَرِ طَوْرًا تَحْتَ مِيقَةِ وَتَارَةً فِي ذَرَى تَاجٍ عَلَى مَكِّ^(١٤٣)

ومع ذلك، لا يمكن القول بأن العجب قد اختفى تماما عند الأندلسيين، فقاضى بلنسية ابن جَعْفَر،
الذى أحرقه السيد، يقول وقد أخذته عيرة النفس، في اللحظة التى حدس فيها، دون شك، بأن موته
أصبح شيئا مقروا:

لَنْ كَانَ الزَّمَانُ أَرَادَ حَطُّهُ وَجَارِبُنِي بِأَنْيَابٍ وَظُنْفَرٍ
كَفَانِي أَنْ تَصَافِيَنِي الْمَعَالَى وَإِنْ عَادِيَنِي يَا أُمَّ تَقْرِ
فَمَا اعْتَرَّ اللَّثِيمُ وَإِنْ تَسَامَى وَلَا هَانَ الْكَرِيمُ بِغَيْرِ وَفَرٍ^(١٤٤)

(١٣٨) من البسيط، القلائد ٢٥٥.

(١٣٩) القلائد ٢٧٦.

(١٤٠) من السريع، نفع ٤٦٣/٣.

(١٤١) من البسيط، الديوان، القصيدة رقم ١٣. وكلمة «حفش» التى فى البيت الثانى يوجد مكانها «عش» فى نفع الطيب

٤٩١/٣، وأبحاث ط ٣ ج ١ ص ٢٧٢.

(١٤٢) من الحفيف، نفع ٨٤/٢.

(١٤٣) من البسيط، نفع ٨٢/٢ والمعجب ٤٨، وترجته ٤١، وياقوت، معجم البلدان ٩١/٥، وأسين بلاتيوس، ابن حزم القرطبي

٢٣٩/١، ويعطى دوزى، فى رسالة إلى فليشر ٦١ - ٦٣، معنى «مطرقة» معتمدا على أشال غير مقنعة لنا.

(١٤٤) من الوافر، نفع ٣٠٩/٤.

وقد احتفظ المعتمد بعزة نفسه حتى في اللحظة التي أخذ فيها طريقه إلى المنفى، ولكنه لم يلبث أن أفسح المجال لشعور متواضع جدا، عبر عنه بكلمة «الحياء»، ويمكن أن نترجمها بمعنى آخر غير الحياء أو الخجل، مثل «الاحتشام» أو «الاحترام»، لأنه أدق في التعبير عما يريده في هذا المجال، يقول وقد تعرض له شعراء طنجة وهو في طريقه إلى المنفى:

لولا الحياء وعِزَّةُ لَحْمِيَّةٍ طَى الحشا ساواهم في المطلب^(١٤٥)

نعم، كل شيء زائل، ولكن ثمة شعورا باقيا على الأقل، اسمه المودة، يدق القلب، وقد ندعوه صداقة وحنانا. أى إيقاع بالغ الإثارة نجده عند بعضهم، عندما تضطرهم الظروف إلى ترك نساءهم وأبنائهم وبخاصة في ظروف «الفتنة» الصعبة! يقول ابن درّاج، متحدثا عن زوجه:

ولما تدانث للوداع وقد هفا بصبري منها أنة وزفير
تناشدني عهد المودة والهوى وفي المهد مبغوم النداء صغير^(١٤٦)

وقد عبر ابن أبي عبدة عن تعاسته لفراق أحبته الأعزّاء عليه:

تذكرتهم والنأى قد حال دونهم ولم أنس لكن أوقد القلب لافح
ومما شجاني هائف فوق أيكّة بنوح ولم يعلم بما هو نائح
فقلت أتشدّ يكفيك أنى نازح وأن الذى أهواه عنى نازح
ولى صبيّة مثل الفراخ بقفرة مضى حاضاها فاطحتها الطوائح
فمن لصغار بعد فقد أبيهم سوى سائح في الدهر لو عن سائح^(١٤٧)

ولم يكن المعتمد وهو يقاتل في الزلاّقة يفكر في غير ابنه أبي هشام:

أبا هاشم هشمى الشفّار فله صبري لذاك الأوار
ذكرت شخصك ما بينها فلم يثنى حبه للفرار^(١٤٨)

وألمت الصداقة الشعراء أبياتا جميلة، يقول غانم الغرناطى متأثرا بكلمات نسبت إلى الخليل بن أحمد: «ما تضايق سمّ الخياط بمتحابين، ولا اتسعت الدنيا لمتباغضين»:

صبر فؤادك للمحبوب منزلة سمّ الخياط مجال للمحبين
ولا تسامح بغیضا في معاشرة فقلما تسع الدنيا بغیضين^(١٤٩)

(١٤٥): من الكامل، الذخيرة ٦٧/٢، وبنو عباد ٣١٤/١، والمعجب ١٤٥، وترجمته ١٢٣.

(١٤٦): انظر: الديوان ص ٢٥٠، وبلاشير، حياة أندلسي شاعر مترسل وأعماله: ابن دراج القسطل، مجلة هسبريس ١٩٣٣، المجلد ١٦، ص ١٠٣. وانظر نفع ١٩٥/٣، والأبيات من الطويل.

● عن «الفتنة» ظروفها وأحداثها وتفصيلاتها، انظر: الطاهر أحمد مكي، دراسات عن ابن حزم وكتابه طرق الحماة، ص ١٠٦ وما بعدها، الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٢ (المترجم).

(١٤٧): من الطويل، المطمح ٢١٣، وعنه نقلها نفع ٥٤٨/٣.

(١٤٨): من المتقارب، الذخيرة ٧٣/٢، وبنو عباد ٣١٧/١ و ٣٦٢.

(١٤٩): من المنسرح، نفع ٢٦٥/٣.

وأقل مبالغة مما سبق جاء قول أبي الفضل الدارمي:

بين كريمين منزلٌ واسعٌ والودُّ حالٌ تقرَّبَ الشاسعُ
والبيتُ إن ضاقَ عن ثمانينَةٍ متسعٌ بالودادِ للتاسعِ^(١٥٠)

والصداقة تعين المرء على اقتحام كل الصعاب، حكى أن ابن حزم قصد أبا عامر بن شهيد في يوم غزير المطر والوحل، شديد الريح، فلقبه أبو عامر وأعظم قصده على تلك الحال، وقال: يا سيدى، مثلك يقصدنى فى مثل هذا اليوم! فأثشده ابن حزم بديهة:

فلو كانت الدنيا دُونك لَجَّةٌ وفى الجوى صَعَقٌ دائمٌ وحريقٌ
لسهَّلَ ودَى فيك نحوك مسلِكًا ولم يتعذَّر لى إليك طريقٌ^(١٥١)

ولا يمكن الترحيب بمقدم صديق بطريقة أقوى حنانا بمثل ما فعل ابن اليسع مرحبا بابن عمار:

لما دنوتَ وعندي حظ من الشوق وافٍ
قدَّمتُ قلبى قبلى فصنَّه حتى أوافى^(١٥٢)

ولا تتجلى مظاهر الصداقة بأفضل مم تتجلى فى القرى، يقدمونه لشخص محترم، ولم يكن الأندلسيون يتقيدون، فيما يبدو، باستضافة ضيوفهم ثلاثة أيام فحسب، كما يوصى الحديث. وقد شكاه ابن الحاج اللورقى أن المعتمد استضافه ثلاثة شهور دون أن يلقاه^(١٥٣)، ويستطيع الضيف العابر أن يبقى كل الزمن الذى يريد، ويعتبرون وجوده نعمة وبركة، وبخاصة إذا كانت تربطه بمضيفه صداقة وطيدة. أية روعة تحمل كلمات ابن الحاج اللورقى - وأجروا على أن أصفها بمسيحية - تلك التى يقول فيها:

عجبا لمن طلبَ المحا مد وهو يمنع ما لديه
ولباسطٍ آماله فى المجد لم يبسط يديه
لم لا أحبُّ الضيفَ أو أرتاح من طربٍ إليه
والضيفُ يأكل برزقه عندي، ويحمدنى عليه^(١٥٤)



يكن سر النفس الأندلسية، إذا تأملناها جيدا، فى الإحساس بالقلق، والشعور بالكآبة أمام الحياة، والإسباني المسلم لا يبلغ فى الاستمتاع بالسعادة قمتها، لا فى الحب ولا فى العلاقات اليومية مع أترابه^(١٥٥). ولقد أتينا على أمثلة كثيرة لذلك، وإليك المزيد منها لمزيد من توضيح هذا الميل الطبيعى

(١٥٠) من المنسرح، نفع ١١٣/٣.

(١٥١) من الطويل، نفع ٨٣/٢.

(١٥٢) من المجنث، الحلة، ١٧٤/٢.

(١٥٣) انظر فيها سبق ص ٧٣ من هذا الكتاب.

(١٥٤) من مجزوه الكامل، القلاند ١٤٢، ونسخ ٥٩٦/٣.

(١٥٥) يقول الأمير عبد الله آخر ملوك بني زيرى فى غرابة هذه الكلمات المميزة فى مذكراته: «كان يطعمه غرقا فى القلق

والسوداء»، انظر طبعة ليفى بروفنسال، فصلة، النص العربى ص ١١٢، والترجمة ١٦٩.

إلى القلق. صاح المعتمد ذات ليلة في هدوء حدائق البحيرة الكبرى:

أيما نفس لا تجزعى واصبرى وإلا فإن الهوى مُتلفٌ
حيبٌ جفاك وقلبٌ عصاك ولاح لحاك ولا يُنصف
شجونٌ مَنَعَ الجفون الكرى وعوضها أدمعاً تنزف^(١٥٦)

وتعطى الحياة، نتيجة عدم الرضا المستقر في القلب، انطباعاً حزينا، يقول ابن السَّمَاك:
وكم راغب في موضع لا يناله وأمسيتُ منه مثل يونس في اليمِّ
بهذا قضى الرحمن في كل ساخطٍ يموت على كرهٍ ويحيا على رَغَمٍ^(١٥٧)

ويأخذ القلق عند بعضهم صورة الرغبة الدائمة في التنقل بلا توقف، يقول أبو عيسى بن ليون:
ذروني أجِبْ شرقَ البلادِ وغربها لأشفي نفسي أو أموتَ بدائي
فلست ككلبِ السوءِ يُرضيه مريض وعظمتُ، ولكني عقابٌ ساء
تحومُ لكيا يدرك الخصبَ حومها أمامَ أمامي أو وراءَ ورائي
وكنت إذا ما بلدةٌ لي تَسْكُرُ شددتُ إلى أخرى مَطِيَّ إِبائي
وسرتُ ولا ألوى على متعذِرٍ وصممتُ لا أصغي إلى النصحاء
كشمسٍ تبدتُ للعيون بمشرقٍ صبحاً، وفي غربٍ أصيل مساءً^(١٥٨)

ورغائب المرء هي التي تودى به إلى لتعاسة والبؤس، يقول الأعمى التطيلي:

تنافسَ الناسُ في الدنيا وقد علمو أن سوف تقتلهم لذاتها بددا
قل للمحدث عن لقمان أو لبِد لم يترك الدهرُ لقماناً ولا لبداً^(١٥٩)
وللذي همُّه البنيان يرفعه إن الردى لم يغادر في الثرى أحدا
ما لابن آدم لا تفنى مطامعه يرجو غداً وعسى أن لا يعيش غداً^(١٦٠)

نجد في الأبيات التي مرت صدى فلسفة «المدرسين» تتضح إحباطاً، ويقول ابن حزم في فطنة مذهبة. تظهر كل ما يتسم به فكره من عمق نفسي:

هل الدهرُ إلّا ما عرفنا وأنكرنا فيجائعه تبقى ولذاته تفنى
إذا مكنت فيه مسرةً ساعةٍ تولّت كمرَّ الطرفِ واستخلفت حُزنا

(١٥٦) من المقارب، الديوان ٢١، القلائد ٩، وعنها في «بنو عباد» ٣/١ و ٩٨، ونفع ٢٨٠/٤، وعن البحيرة الكبرى انظر ص ١٢٦ فيما سبق من هذا الكتاب، والمأش رقم ٩٩.

(١٥٧) من الطويل، نفع ٣١٥/٣.

● قلت: في الأصل الفرنسي «ابن السمان»، ولكن في المصدر الذي أحالنا عليه المؤلف «ابن السماك» (المترجم). (١٥٨) من الطويل، القلائد ١٠٢، والذخيرة ١٠٨/٣، والحلة ١٦٨/٢، وأبحاث ط ١ ص ٥٢٥ - ٥٢٧.

(١٥٩) لقمان شخصية أسطورية من الوثنية العربية، حياته تعدل حياة النسر سبع مرات، ولبد اسم آخر نسر رباء لقمان: انظر دائرة المعارف الإسلامية ٣/٣٦ - ٣٩. كتب المادة هـ.

(١٦٠) من البسيط، نفع ٣٢١/٤.

إلى تبعات في المعاد وموقف
 حصننا على هم وإثم وحسرة
 حين لما ولئ، وشغل بما ألق
 كأن الذي كنا نسر بكونه
 نود إليه أننا لم نكن كنا
 وفات الذي كنا نلذ به عنا
 وهم بها يغشى فعينك لا تنها
 إذا حققت النفس لفظ بلا معنى^(١٦١)

لقد أتاحت لنا الفرصة حين تحدثنا عن الأعياد الدينية كي نظهر أن الإسباني المسلم كان يحتفل بأعياد النيروز والمهرجان، وحتى عيد الفصح، في انتظام وحماة لا يقلان عن احتفاله بالعديد الإسلاميين الخالصين: عيد الفطر وعيد الأضحى، فلا يدهشنا إذن أن نجد شاعرة تسمى نزهون بنت القلاعى تصور لنا في أبيات من الشعر اللحظات البهجة التي أمضتها مع صديقها لها ليلة الأحد^(١٦٢)، وهو لا تعنى، فيما يحتمل، يوم السبت ليلة الأحد، كما هو في المفهوم السامى، وإنما يوم الأحد، ليلة الاثنين.

ولا يدهشنا في شيء أن يشير الشعراء إلى شخصيات التوراة، لأن القرآن يضم جانباً لا بأس به من الأنبياء والرسل الذين سبقوا المسيح مفصلاً إلى حد ما، ونلاحظ أن هذا يحدث بحاسة حين يعبرون عن آلامهم، وعندما يتذكر المعتصم أن ابنه سجين في غرناطة يصرخ مستسلماً:
 لئن كنت يعقوب في حزنه ويوسف أنت فصبر جميل^(١٦٣)

نستطيع القول أن الأدباء المسلمين لم يكونوا يعرفون التوراة من خلال القرآن فحسبه ولا بد أن بينهم من كان يقرأ العهد القديم، لا في نصه الأصلي وإنما في ترجماته العربية، وحالة ابن حزم هي الأكثر إقناعاً فيما يتصل بهذا الأمر^(١٦٤)، وكان قرأ الإنجيل كثيرين، ويقول ابن حزم إنه قرأ في الإنجيل هذه الفقرة: «لا يفقد النبی حرمة إلا في بلده»^(١٦٥).

وإذا كان بعضهم ظل مسجوناً داخل رموز الأناجيل، فإن آخرين تعمقوا معانيها، مثل ابن الجند عندما كتب إلى ابن القروى، وهو من أصل يهودى كما نعرف:

(١٦١) من الطويل، مطمح ٢٨١، والضى، بغية ٤٠٤، رقم ١٢٠٤، وابن بشكول، الصلة ص ٤٠٩، رقم ٨٨٨، وللعجب ٤٧، وترجمته ٤٠.

(١٦٢) نفح ٢٩٨/٤.

● أميل إلى الأخذ بالمفهوم الشرقى لأن إسبانيا المسيحية اليوم، وتختلف فيها كثير من التقاليد الإسلامية، تكون شد ما تكون احتفاء واحتفالاً وبهجة وصخباً يوم السبت ليلة الأحد، أى ليلة الأحد بالمفهوم السامى، على حين تكون ليلة الأحد عشية الاثنين بالمفهوم الأوروبى، هادئة ساكنة نسبياً، لأن الناس يأوون إلى بيوتهم مبكرين استعداداً لعلمهم في الصباح. (للمترجم).

(١٦٣) من المتقارب، الحلة ٨٩/٢، وأبحاث ط ص ١٢٠ - ١٢١، والطبعة الثالثة ٢٧٠/١.

(١٦٤) انظر مثلاً طرق الحماة ص ٢٤: «وقرأت السفر الأول من التوراة أن النبی يعقوب عليه السلام أيام رعيه غنماً لابن خاله...»، وانظر ترجمة نيكل ص ١١ - ١٢، وطعة يريشيه ٢٤ - ٢٥.

(١٦٥) نفح ١٦٦/٣، وانظر فيما سبق من هذا الكتاب ص ٧٦. وما أن هذه الجملة ليست في الإنجيل الذى بين أيدينا بنصها حرفياً، فمن المرجح أن ابن حزم كان يستخدمه سترجماً.

وقد أوضح أسين بلايوس أن ابن حزم يستخدم في كتابه «الفصل في الملل والأهواء والنحل» نصوصاً من الأناجيل للابرة في دقة بالغة، معتمداً على ترجمة عربية تمت بما هو مؤكد تقريباً من الترجمة اللاتينية التى كانت شائعة على أيامه. انظر: ابن حزم القرطبي ٤٨/٢.

هلاً عذرت على البطالة أهلها ورأيت رأيا في المدام أصيلا
 هي ما علمت فإن عرتك جهالة فاستفسرن من سرها الإنجيل^(١٦٦)
 ويمكن أن نرى في هذا البيت إشارة إلى سر استحالة الخمر والخبز إلى دم المسيح ولحمه طبقا لإنجيل
 يوحنا المعمدان.

وأما الإشارات المتعددة إلى مريم العذراء والمسيح فهي ذات طابع إسلامي ومسيحي في الوقت
 نفسه، يقول الخليفة الأموي المهدي، وقد بعث إلى مريم بنت أبي يعقوب الأنصاري بدنانير وكتب
 إليها:

أشبهت مريم العذراء في ورع وفقت خساء في الأشعار والمثل^(١٦٧)
 والمسيح هو النبي الذي أتى بالمعجزات بمجرد لمس المرضى^(١٦٨)، ويعبر ابن سارة عندما طلب
 النجدة من القاضي أبي أمية على النحو التالي:

فما جئت جالينوس مستشفيا به ولا علتي حيث المسيح بن مريم^(١٦٩)
 ولكن المسيح بخاصة يبدو نبيا تجسد فيه الخير والتسامح ونجرو على أن نقول والبر La Chanté،
 ولو أن هذه الكلمة ليس لها ما يقابلها في العربية بدقة، وقد كتب المعتمد إلى والده خوفا من غضبه
 بعد إخفاقه أمام مالقة يقول:

مولاي أشكو إليك داء أصبح قلبي به جريحا
 سخطك قد زادني سقاما فابعث إلي الرضى مسيحا^(١٧٠)
 وفيما نرى فإن الراضى بن المعتمد يتحدث عن امرأة أحبها كما لو كانت ملاكا طيبا، طبقا للمفهوم
 المسيحي:

يا قمرأ أصبح لي مالكا لا تتركني هكذا هالكا
 رق على قلب العمد الذي يود لو يجرى على بالكا
 حسنت في خلق وخلق فلم رضيت بالقبح لأفعالكا^(١٧١)

وإذا كان الأندلسيون يظهرون في عداوتهم شيئا إنسانيا عميقا فإنما يعود ذلك بخاصة إلى
 استسلامهم للقدر، وهو استسلام يشوبه القلق والحزن. وإذا كان المعتمد قد احتفظ في التاريخ
 بشخصية مؤثرة للغاية، فإن ذلك لا يعود إلى قصائد الحب أو الخمر التي أبدعها، بقدر ما يعود إلى تأثير

(١٦٦) من الكامل، الذخيرة ٥٦٢/٢، وانظر فيما سبق ص ٢٤٥ من هذا الكتاب، الهامش رقم ٨٤.

(١٦٧) من البسيط نفع ٢٩١/٤.

(١٦٨) نفع ٢٠٥/٣.

(١٦٩) من الطويل، القلائد ٢٦٣.

(١٧٠) من البسيط، الديوان ٣٣، والقلائد ١٩، وعنها في «بنو عباد» ٥٣/١ و ١٣٤، وخريدة القصر، في «بنو عباد» ٣٨٦/١،
 والحلة ٥٩/٢، وعنها في «بنو عباد» ٦٧/٢ و ٦٨، ونفع ٩٢/٤.

(١٧١) من السريع، خريدة القصر، ج ٢ من قسم شعراء المغرب والأندلس، طبعة تونس ١٩٧١، ص ٤٧، وعنها في
 «بنو عباد» ٤١٩/١.

الناس بتلك الأشعار التي نظمها في المنفى، ونشعر لحظة قراءتها كم كان قلبه كبيراً، وأى شعور طيب كان يكنه لعائلته وأصدقائه الذين ظلوا أوفياء له^(١٧٢). ونجد عظمة الروح نفسها عند أبناء المعتصم، وكان عليهم أن يبحثوا عن ملاذ في بجاية قريباً من الحماديين، يقول أحدهم، وهو عز الدولة:

لَكَ الحمدُ بعدَ الملكِ أصبحتُ خاملاً بأرضٍ اغترابٍ لا أُمِرُّ ولا أُحلى
وقد أصدأتُ فيها الجذاذة أُملى كَيْما نسيْتُ ركضَ الجيادِ بها رَجلى
فلا يسمعى يُصغى لنغمِ شاعرٍ وكفى لا تمتدَّ يوماً إلى بقلٍ^(١٧٣)

وما يدهشنا في هذا الخضوع أنه لا ينقص من قدر من يقبله أو اتصف به، ويمكن أن نقول مع شاتوبريان دون أن نمس حرفية نصه تقريباً: «كان التواضع يعنى الخسّة عند العرب القدامى، والكبر يعنى العظمة، وعلى التقيض بين الإسبان المسلمين في القرن الحادى عشر^(١٧٤)، فإن الكبر أول الآثام، والتواضع من أعظم الفضائل»^(١٧٥).



لا يزال لدينا بعد جانب من الروح الأندلسى بالغ الأهمية، وأعنى به تساميمهم في التعادى، وقدرتهم على امتصاص الألم، فقد ظل الروح الأندلسى مؤمناً جذرياً، ويرى في الألم تطهير النفس وسمواً بها، ولم يبلغ به الحال أبداً درجة الإحباط أو الانتحار.

والانتحار لا يحدث كثيراً في الإسلام^(١٧٦)، وفي إسبانيا القرن الحادى عشر لا نستطيع أن نذكر غير محاولة في لحظة إحباط، حين أمسكوا عبد الرحمن شنجول، واقتادوه إلى المهدي فأخرج من نعله خنجراً ليقتل به نفسه، ولكنهم تدخلوا للحيلولة دون ذلك في الوقت المناسب^(١٧٧).

ويزعم بعض المؤرخين أن الفكرة نفسها راودت المعتمد عندما استولى المرابطون على إشبيلية، وأرغموه على التسليم بلا شروط، ولكنه صرف النظر عن خطئته تقى وخشية من الله^(١٧٨).

(١٧٢) عن هذا الموضوع انظر: نفح ١١٦/٤ و ٢١٥/٤ و ٢٥٩/٤. والقلائد ١٢ و ٢٥ و ٢٨. وعنه في «بنو عباد» ٤٨/١ و

٦٣ و ٦٤ و ٦٨، والذخيرة ٦٢/٢، وفي «بنو عباد» ٣١٧/١، والحلة ١٧/٢، والمعجب ١٥٦، وترجمته ١٣.

(١٧٣) من الطويل، نفح ٣/٣٦٨، وأبحاث ط ٥ ص ١٢٥. وتوجد صورة نثرية لهذا الأمير كتبها ابن اللبانة في نفح ٣/٣٦٨.

وترجمها دوزى في أبحاث ط ١ ص ١٢٦ - ١٢٧ وط ٣ ج ١ ص ٢٧٣ - ٢٧٥.

(١٧٤) شاتوبريان استخدم هنا لفظ «المسيحيين».

(١٧٥) عبقرية المسيحية، طبعة جازينيه ١٩٤/٢.

(١٧٦) عن هذا الموضوع انظر: مصطفى جواد، المتحرون في الجاهلية والإسلام، في مجلة الهلال، المجلد ٤٢، فبراير ١٩٣٤، ص

٤٧٥ - ٤٧٨، والنويرى، نهاية الأرب ١٨٢/٢ - ١٨٤ (الانتحار من أجل الحب).

(١٧٧) انظر: تاريخ مسلمي إسبانيا، ط ٢ ص ٢٨٩. ونذكر أيضاً حالة ابن سبعين المرسى المثيرة، وقد انتحرت في القرن

السابع الهجرى = الثالث عشر الميلادى، بأن فصد يديه وترك الدم يخرج حتى تصفى، ابن شاعر الكشى، فوات الزيات ١/٥١٦.

ودجلاً، مدخل لطبعة نفح الطيب الأوربية ٥١/١. ومهرن، رسائل الفيلسوف الصوفى ابن سبعين ٣٥٠. وأمارة، مسائل فلسفية، في

المجلة الأسبوية، السلسلة الخامسة، المجلد ١ عام ١٨٥٣، ص ٢٥٦ - ٢٥٧. ماسنيون، مجموعة من النصوص غير المنشورة ١٢٣.

وج. س. كولن، المقصد، ترجمة مع تعليقات ص ١٨١.

(١٧٨) وقد ردّ على الذين خوفوه من الاستسلام:

وألذ من طعم المضروع على فمى السم النقيع =

ويقدم أبو عامر بن شهيد من النصف الأول من القرن الحادى عشر، فقد توفى عام ٤٢٦ = ١٠٣٥، وأتيحت لنا الفرصة أن نذكره أكثر من مرة، الشخصية الأقوى تمثيلاً لإنكار الذات المنسجم بالبطولة، فقد منعه الفالج من الحركة، ولم يكن يرى أصدقاءه إلا وهو فى محفة. أى ألم يجب أن تتصوره لهذا الرجل، وكان فى هذه اللحظة قد ودّع كل نشاط بدنى، ولكن عقله ولسانه ظلّا سليمين، وما هو أروع، وسأوى أكثر، أن قلبه احتفظ بكل طبيئته 'الطبيعية'، ولم يتخل عنه أصدقاؤه أبداً، وكان بالنسبة لهم سقراط الجديد، يجتمعون حوله ليتحدث إليهم عن النشاط الذى يجب على الرجل النبيل حقاً أن يحتفظ به أمام الألم:

إِنَّ الْكَرِيمَ إِذَا نَابَتْهُ مَخْمَصَةٌ أَبْدَى إِلَى النَّاسِ رِيًّا وَهُوَ ظِمَانٌ
يَحْنَى الضَّلُوعَ عَلَى مِثْلِ اللَّطَى حُرْقًا وَالْوَجْهَ غَمْرًا بِمَاءِ الْبَشْرِ مَلَانٌ (١٧٩)

وقد يتغلب عليه اليأس عندما يكون وحيداً، ولكنه ما أسرع ما يسترد الأمل:

أَنُوحُ عَلَى نَفْسِي وَأَنْدُبُ نُبُلَهَا إِذَا أَنَا فِي الضَّرَاءِ أَزْمَعْتُ قَتْلَهَا
رَضِيتُ قَضَاءَ اللَّهِ فِي كُلِّ حَالَةٍ عَلَى وَأَحْكَامًا تَيَقَّنْتُ عَدْلَهَا
أَظْلُ قَعِيدَ الدَّارِ تَجَنُّبِي الْعَصَا عَلَى ضَعْفِ سَاقِي أَوْهَنَ السَّقَمِ رَجُلَهَا
فَمَنْ مَبْلَغُ الْفَتَيَانِ أَنْ أَخَاهُمْ أَخَوْفَكَةَ شَنْعَاءَ مَا كَانَ شَكْلَهَا (١٨٠)

نشعر مع هذه الأبيات بحدة معاناة الشاعر، ورغم ذلك ظل محتفظاً بشبابته، وقریباً جداً من نهاية حياته أحسن ابن شهيد وقد طهره الألم، أنه محمول نحو آفاق من الطمأنينة الهادئة، وجعله هذا الصعود ينسى آلامه، ويواجه الموت هادئاً، وكانت كلماته الأخيرة لأبى محمد بن حزم، وهو الذى تلقى، فيما يبدو، آخر رغباته شاعراً، أحب الكلام الفخيم والموسيقا بقوة، ومؤمناً أيضاً يثق فى رحمة الله:

وَمَا رَأَيْتُ الْعَيْشَ وَلَى بِرَأْسِهِ وَأَيَقُنْتُ نَ الْمَوْتَ لَا شَكَّ لَاحِقِي
تَمَنَيْتُ أَنَّى سَاكِنٌ فِي غِيَابَةِ بِأَعْلَى مِهْبِ الرِّيحِ فِي رَأْسِ شَاهِقِ
أَذْرُ سَقِطَ الْحَبِّ فِي فَضْلِ عَيْشَةٍ وَحِيدًا وَحَسَى الْمَاءِ ثَقَى الْمَفَالِقِ (١٨١)
خَلِيلِي مَنْ ذَاكَ الْمَنِيَّةِ مَرَّةً فَقَدْ ذَقْنَهَا خَمْسِينَ قَوْلَةَ صَادِقِ
كَأَنِّي وَقَدْ حَانَ ارْتِحَالِي لَمْ أَفْزُ قَدِيمًا مِنَ الدُّنْيَا بِلَمْحَةٍ بَارِقِ
فَمَنْ مُلْغٍ عَنِّي ابْنُ حَزْمٍ وَكَانَ لِي يَدًا فِي مَلَمَاتِي وَعِنْدَ مَضَايِقِي

= والبيت من الكامل. انظر: القلائد ٢٢، وبنو عباد ٣٠٣/١، ونفع ٢٧٧/٤، والمعجب ١٤١، وترجمته ١٢١، وتاريخ مسلمى إسبانيا ط ٢ ج ٣ ص ١٥٠.

(١٧٩) من البسيط، المطمح ١٩٠، ونفع ٦٢٢/١.

(١٨٠) من الطويل، الذخيرة ٣٢٨/١.

(١٨١) هـ البيت ترجمته تقريبية، ويبدو أن النص أصابه تحريف سواء فى الذخيرة أو النفع.

● المؤلف معه حق، فقد ورد البيت فى النفع على النحو التالى:

أرد سقِط السُّطَلِّ فى فَضْلِ عَيْشَتِي وَحِيدًا وَأَحْصَو الْمَاءَ ثَنِ الْمَعَالِقِ

على حين سقط فى الطبعة الأولى للنفس الأول من الذخيرة، وجاء فى طبعة إحسان عباس مصوباً دون أن يشير إلى أنه اعتمد على طبعة الديوان، والبيت فيه كما أتينا به فى النص أعلاه (لمترجم).

عليك سلامُ الله إني مفارقُ وحسبُكَ زادًا من حبيبٍ مفارق
فلا تسَّ تأبيني إذا ما فقدتني وتذكَّارَ أيامي وفضلِ خلائقي
فلي في ادكاري بعد موتي راحةٌ فلا تمنونيها عُلالةً زاهي
وإني لأرجو الله فيما تقدمت ذنوبي به مما درى من حقائقي (١٨٢)



إن الموت كالحب أمدنا بحصاد وفير من القطع الشعرية التي تكشف لنا شيئاً عن الروح الأندلسي، وتستحق شواهد القبور دراسة في المقام لأول، لأنها توضح تطور الفكر بصورة ظاهرة ودقيقة بين القرنين العاشر والحادي عشر: ما أبعد الفارق بين الشاهد الذي على قبر المنصور (١٨٣) يضح زهوا وكبرا وتعالياً والأبيات التي تطلب الرحمة من المارة ونجدها في نهاية القرن الحادي عشر (١٨٤)؛ وتأمّلات الأحياء، في المقام الثاني، تلقى ضوءاً على نفسية الذين يحضرون الجنازات، وبين أبو إسحاق الإلبيري عدم اهتمام الحاضرين، بعامه، بالشخص الذي يدفنونه:

تمرُّ لداقٍ واحدًا بعدَ واحدٍ وأعلمُ أنني بعدهم غيرُ خالدٍ
وأحملُ موتاهم وأشهدُ دفنهم كأني بعيدٌ عنهم غيرُ شاهدٍ
فها أنا في علمي لهم وجهالتي كمستيقظٌ يرنو بمقلةٍ راقدٍ (١٨٥)

ولكن القصائد التي تصوّر حالة الفرع الشديد من الموت لحظة الاحتضار ذات دلالة أقوى فيها نرى، وإذا كان الموت تحرراً فإننا لا نحصل عليه دون نضال (١٨٦). يقول ابن زيدون:

حياةُ الوري نهجٌ إلى الموتِ مهيجٌ لهم فيه إيضاعٌ كما يُوضَعُ السَّفَرُ
إذا الموتُ أضحى قَصْرٌ كلُّ مُعَمَّرٍ فإن سواءَ طال أو قَصُرَ العَمَرُ (١٨٧)

وبعضهم كان الموت يثير فيه الرعب والفرع، يقول عبد الحق الإشبيلي:

قالوا: صفِ الموتَ يا هذا وشِدَّتُهُ فقلت، وامتدَّ مني عندها الصوتُ
يكفيكم منه أن الناسَ إنْ وصفوا أمراً يُروِّعهم قالوا هو الموتُ (١٨٨)

وفيما يرى أبو الفضل بن شرف، فإن سكرات الموت مفزعة، ولكنها ليست بشئ إذا قسناها بالوحدة التي يتركنا فيها الأصدقاء:

(١٨٢) من الطويل، الملمح ٢٠٠، وعنه نقله نفع ٣/٣٦٢، والذخيرة ١/٣٢٩، والديوان ١٣٣. ويذكر ابن قزمان الأبيات ٨ - ١٢ من هذه القصيدة في زجله رقم ٩٠ الدور ٦.

(١٨٣) انظر هذا الشاهد في: الإحاطة ٢/١٠٨، ونفع ١/٣٩٨، و ٣/١٨٩، وتاريخ مسلمي إسبانيا ط ٢ ج ٢ ص ٢٦٤، والحلة ١/٢٧٣، وقرسية غوث، ترجمة رسالة فضائل أهل الأندلس ٤٦.

(١٨٤) انظر مثلاً، نفع ٤/٣٤٠، والقلائد ٣٦٩.

(١٨٥) من الطويل، نفع ٤/١١٣، وأبحاث ط ٣ ج ١ ص ٢٩١، والديوان، القطعة ٢٧.

(١٨٦) ومع ذلك كتب ابن حزم رسالة يظهر فيها أن الموت ليس مؤلماً في حد ذاته، انظر: أسين بلاتويس، مجلة أندلس، المجلد ٢ عام ١٩٣٤، العدد ١ ص ٢٠ - ٢٤.

(١٨٧) من الطويل، الديوان ٥٤٠، وكور، ابن زيدون ٩٠ - ٩١، وهنري ماسيه، في مجلة هيسبيريس، عام ١٩٢١، ص ١٩١.

(١٨٨) من البسيط، نفع ٤/٣٦٥.

لعمرك ما خَصَلْتُ على خطير من الدنيا ولا أدركت شيئا
وها أنا خارج منها سليماً أفلبُ نادمًا كلنا يدياً
وأبكي ثم أعلم أن مَبْكَا لا يُجدي فأمسحُ مقلتي
ولم أجزع لهول الموت لكن بكيتُ لقلّة الباكي علياً^(١٨٩)

وعاش أبو الفضل بن الأعمى الشنتمري وفكرة الموت تلح عليه، وكانت اللحظة التي تفارق فيها الروحُ الجسدَ تبدو مؤلة:

الموتُ يشغلُ ذِكرهُ عن كلِّ معلومٍ سواه
فاعمرُ له رُبْعَ أدْكا ركٌ بالعشيّة والغداة
واكللُ به طَرْفَ اعتبا ركٌ طولَ أيامِ الحياه
قبل ارتكاضِ النفسِ ما بين الترائبِ واللاه^(١٩٠)

إن الموت بمظاهره المتعددة يفرض على الإنسان فكرة أنه موجود فعلاً، ولقد رأينا بعض أمثلة له ونحن نتحدث عن الحب، وبعض الشعراء يتذكرون القرآن، فلا يتصورون الموت إلا ملاكاً يرسله الله إنذاراً بالآخرة^(١٩١). وهم يسمونه «داعى الردى» أو «داعى الموت»^(١٩٢)، يقول ابن خفاجة: دعا بهم داعى الردى فكأنما تبارت بهم خيلٌ هناك عِراب^(١٩٣)

وفكرة الملاك تحمل فكرة الطائر الذى يحوم فى الجو، ثم فكرة الموت الجاثم، يقول ابن خفاجة: وهل مُهْجَةُ الإنسانِ إلا طريدةٌ تحوم عليها للجِمام عُقاب^(١٩٤)

والموت فيما يرى ابن عبد الصمد موجود غير مرئى، لا نعرف الشكل الذى يمكن أن يأتى فيه، ولكنه يناديه، كما لو كان يطلب منه أن يفسّر له سرّ قوته: يقول فى رثائه للمعتمد:

يا موتُ لم تترك حنيفاً مسلماً صعبَ اللقاءِ على ذوى الأحادِ
يا موت لم تشفق لغربته ولم ترَ ما تخلفه من الأولادِ
يا موت كيف رأيت صبر محمدٍ قبل احتلاك كان فى استعداد^(١٩٥)

وفما يرى ابن درّاج القسطلّى، فإن أيادى الموت جشعة، تريد أن تأخذ دائماً:

هو الموتُ يصدعُ شَمْلَ الجميع ويكسو الربوعَ ثيابَ العفَاءِ
ألم تر كيف استباحَت يدها كريم الملوِكِ وعَلَقَ النساءِ

(١٨٩) من الوافر، نفع ٢٢٩/٣.

(١٩٠) من الكامل، المطمح ٣٠٦، وعنه نقلها نفع ٣١/٤.

(١٩١) القرآن الكريم، سورة طه، الآية ١٠٨، وسورة القمر، الآية ٦ و ٧ و ٨، والداعى هو إسرائيل.

(١٩٢) انظر الحلة ١٥٨/١، وتاريخ مسلمى إسبانيا ط ٢ ج ٢ ص ٣٧ والبيت لسعيد بن جودى.

(١٩٣) من الطويل، الديوان، القطعة ١٦٥، ص ٢١٨، ونفع ٥٣٩/١.

(١٩٤) نفس المصدر الذى فى الهامش السابق، القطعة ١٦٥، ص ٢١٧.

(١٩٥) من الكامل، أعمال الأعلام ١٦٩ - ١٧٠.

هو الرزءُ ألوى بعزمِ القلوبِ مصائباً وأودى بحسنِ العزاء^(١٩٦)
وأخيراً توصل شاعر إلى الموازنة العقريّة التالية، إذ أخذنا في الحسبان العصر الذي قيلت فيه،
يقول أبو محمد عبد الوهاب المالقى:

الموتُ حصّادٌ بلا منحلٍ يسطو على القاطن والمجلى
لا يقبل العذرَ على حالةٍ ما كان من مُشكلٍ أو من جلى^(١٩٧)
إن أى شاعر أندلسى لا يستطيع أن يظهر بأفضل من هذه الأبيات، كيف يستطيع الخيال الخصب
أن يصنع من واقع عادى، نلحظه في حياة الحقل البيعية، صورة جذابة بالغة الروعة والجمال.

(١٩٦) انظر: بلاشير، في مجلة هيسبيريس، المجلد ١٦، عام ١٩٣٣، وهي من بحر المتقارب، وفي: النعالي يتيمة النهر ١/٤٤٣.
والديوان ٩٩.

(١٩٧) من السريع، نفع ٣٢٨/٤.

خاتمة

كان القرن الحادى عشر فيما يتصل بالشعر الإسباني العصر الذى انتشر فيه إلى أبعد مدى، وحقق جمالاً أعلى مراتبه، وقد جعلت منه الظروف السياسية شعر بلاط، وعاش في رعاية الملوك للفنون الجميلة، ومع ذلك فإن موضوعات المديح التقليدية لم تستطع أن تحول دون تناوله العديد من الملاحظات المأخوذة من الواقع. ومن ثم فهو لا يعكس بدقة كافية حياة الشاعر أو الأمير نفسه فحسب، وإنما يصور أيضاً مختلف طبقات المجتمع، وإذا لم يلق عليها ضوءاً كافياً فقد أسهم في تصوير كثير من جوانب وجود الإسبان المسلمين في العصر الوسيط، وهو ما يضيف عليه قيمة توثيقية لا يمكن إنكارها.

لا تزال حياة الأندلسيين الاجتماعية والخاصة تبدو لنا مشبعة بالتقاليد المشرقية، عربية وفارسية، فقد أمدت إيران دون شك الطبقات الحاكمة في إسبانيا، ككل بقية العالم الإسلامى، بملاحمها الحضارية، ولكن هذا البلد الغربى الذى أصبح مسلماً ترك بدوره طابعه القوى على كل ما ورثه عن المشرق، إذ أن أغلبية سكانه من الإسبان، سواء من سكن منهم الريف أو المدن، لا بطرائقهم الزراعية وممارساتهم الفعلية، وتقنياتهم الحرفية، وإيقاع حفلاتهم فحسب، وإنما أيضاً في إبداعاتهم الشعرية واهتماماتهم الخلقية واثقافية.

إننا نستطيع في الحقيقة من خلال ظواهر الشعر الأندلسى الأكثر تميزاً في القرن الحادى عشر، وفي ضوء الموضوعات التى عالجها الشعراء من شتى الطبقات، أن نتعرف إلى جبههم العميق للطبيعة، وقد أضافوا إليه لونا من الحزن بالغ الخصوصية والمذاق.

مصدر حب الطبيعة عندهم، دون شك، أن معظم الشعراء أصولهم ريفية، ويعطى إبداعهم انطباعاً بأن قصائدهم «رعوية» إلى مدى كبير، السماء فيها صافية أو مسحبة، والحقول والحدائق والزهور والمياه الهادئة أو الجارية تحتل المقام الأول، ونحن نجد الكثير من التصنع في التعبير عن هذه المشاعر، وهو أمر يعود، دون شك، إلى أن مناهج التدريس تركت بصمات بالغة العمق في حياة الشعراء، فلا يمكن رفضها جملة، على أن إحساسهم بالطبيعة لم يكن في أية لحظة على أنها مجرد زخرفة، وأن الأشجار والزهور فيها أوراق مرسومة. ونسخها كما هي لا يعنى استبعاد الانطباع الشخصى، ولا يصل أبداً إلى حد وأد الخيال الخصب الذى يستخرج عصارته الأكثر غزارة من الواقع أو يحول دون أن يكون بالغ الدقة، والتقاليد الأدبية فيها تجارى نوعية الخيال نفسها، وثمة ضرورة حيوية تدفعها إلى أن تمنح الطبيعة المكان الأكثر اتساعاً.

يبلغ استلطاف الطبيعة عند بعض الشعراء درجة الحب الخالص، أو الاندماج الكامل، ولكن الجانب الأكبر لم يكن يرى في الحقول والحدائق أكثر من الإطار الذى يضع لذاثه في داخله، ولا يبحثون عن الطبيعة ليمجدوا إخفاقاتهم الغرامية أو ليهدهدوا من ترمّد قلب جريح أدمته مظالم الناس، وإنما لكي يجدوا فيها متعة حسية أو معنوية طبقاً لمشاعرهم الداخلية.

ومشاهد الطبيعة التي تتفق أكثر من غيرها مع أمزجتهم فنانين ليست المعتمة أو المرعبة، وإنما تلك التي تسرّب الحب إلى أعماقهم، ويصبغونها بألوان من شر الخمر واللهم، وليست لوحات دقيقة وإنما أقرب إلى أن تكون رسماً مجملاً، ولا كلمات صاخبة، وإنما إيقاع ميّطٌ بالحزن والألم. ولم يجد الصيف بأضوائه الساطعة مكاناً في أشعارهم، فهم يفضلون الربيع، ولكن التجديد الذي يبشر به هذا الفصل لا يثير أحاسيسهم أو مشاعرهم بقوة. إنهم شعراء الأصيل والليل والفجر، ولم يحدث أن تغنوا أبداً بمنتصف النهار الساطع. وإذا تخلّوا لحظة عن حلاوة الحياة فلأنهم يحبون الهدوء والوحدة فيما يبدو، ويستطيعون حتى لو كانوا وسط رفاقهم في الشراب أن يستغرقوا في أنفسهم، وأن يواصلوا لحظاتهم يحملون: الموسيقى والغناء والرقص ونظم الشعر، أو إنشأه إذا شئت، وكل ذلك يتلاقى مع انفصالهم عن الواقع حولهم. ويشعرون في أعماقهم أن اللذة لن تكون أبداً خالصة، ويعتريهم قلق يفسد عليهم كل تلك الأعمال التي هي تكريم للحياة، وذلك نادر ما نلاحظه عن المشاركة. ولقد جعلت الظروف السياسية أمر الثروات غير مستقر، وحياة البلاطات الصغيرة اللامعة تتأثر عبر الأندلس كله يمكن ألا تكون غداً، وثمة شيء يوجد في أعماقهم مثل شعور دتي غامض، يحول بينهم وبين التمتع الكامل ببهجة الوجود، وهذا الشيء ليس بالدقة تشاؤماً ولا حزناً. ويمكن القول إذا فكرنا في موقفهم المتواضع أمام المرأة بخاصة، وفي مفهوم الحب عندهم وهو خاص إلى حد بعيد، أنهم مسيحيون في بعض الجوانب: في إطار الضعيف، واستثمار القيم الثقافية والحقية، كما أن صفات الحلاوة والتواضع والحنان والتأمل والحلم حلّت مكان فضائل القوة والعمل، وهي المثل الأعلى في المجتمع العربي في الإسلام. وحاولوا أن يكونوا قمة في الإنسانية، وطوّروا كل قدراتهم، وأفسحوا في الوقت نفسه أرحب مكان للقلب، لا للفكر أو الإرادة.

هل يمكن الحديث حقاً عن تأثير أصولهم البعيدة؟ ما قلناه عن جنس كان في طور التكوين في القرن الحادى عشر الميلادى، مع غلبة الدم الإيبيرى الرومانى يسمح لنا أن نرى في سكان الأندلس امتداداً للعنصر القديم غير المهاجر، دون أن نرفض في تعميم بالغ العجلة فكرة الإضافات الشرقية الخاصة.

لم يحمل البربر معهم غير مفهوم عن الحياة بالكاد نلمس له أثراً، وكان عملياً ونفعياً، وأما تأثيرهم في الشعر فلا شيء فيها يبدو. وعلى النقيض كان العنصر اليهودى المسيحى، ويمكن القول إنه ذو أهمية كبرى، ونجد طابعه قوياً في الاحتفاء العارض بمتع الحياة النابع من قلق يصطدم مع الموروث الشرقى الواضح ذى الأصل الوثنى. ويمكن أن نتسب للعنصر اليهودى دوراً راجحاً في توجيه الشاعر، وإلى حد ما في التعبير الأدبى، وإذا كان التشاؤم وهو عزيز على العنصر اليهودى لم يغزهم كلية فعلى الأقل لَوْن قوى الروح بحب الجهد والبحث والواجب.

إن هذا الخلق المخيّب للأمال، والذي يعرف مع ذلك كيف يلهو ويستمتع في المناسبات تحقق في إسبانيا الإسلام، طبقاً لتعبير أنخل جانيبييت في صورة «حبر طبيعى وإنسانى»، وليس ذلك إلا امتداداً لفكرة سنيكا، وهى سلتية إيبيرية في نوعها، ووجدت أجمل تشخيص لها، وأصفاه أيضاً، في ابن شهيد في مطلع القرن الحادى عشر.

لكى نحيط بالواقع عن قرب، يمكن أن نقول، فيما اعتقد، إن الإسباني المسلم في القرن الحادى عشر، قدّم لنا في شعره مزاجا مثيرا خليطا من القديم والحديث، من الكلاسى والرومانسى، ومن الشهوانى والصوفى، والأول من هذه الميول يدين بها لثقافته، وهى عربية خالصة في أعماقها. وأمام المشاهد التى تعرض له لم يستطع روحه الحساس أن يتخلص نهائيا لا من الفقرات التى يلمحها خلال شعر القدامى، أو من المشاعر المحسوسة من قراءة أعمال الخالدين في الماضى. وتمارس الذاكرة عليه تأثيرا طاغيا فيتذكر ما قرأ حتى أمام المشاهد الجديدة وحتى تحت تأثير الانفعال الشخصى. والأندلسى الأكثر تحورا من التربية المدرسية لم يتحرر نهائيا من قيود فنّ الشعر والبلاغة القديمين، ويبلغ التقليد في بعضها حدا ظاهرا للغاية ويذهب بكل قيمة العمل، ولكنه استطاع في الأغلب أن يوفق بنسب متساوية بين واقعه إنسانا حساسا وبلاغيا واسع الثقافة، وفي أحسن الأحوال تسود الفطرة، يضيئها فكر جسور.

أحيانا نجد عندهم غنائية مرتبكة، ولكنها أبدا ليست مختنقة بفن شعري لا يناسب فيها يبدو التعبير عن مفاهيم تختلف عن تلك التى رأت النور لأول مرة في الحزيرة العربية. وعرفوا في روعة كيف يستفيدون من الصور والكلمات والأفكار التى تناسب أمزجتهم الشخصية وعصرهم والوسط الذى يعيشون فيه.

وحين نجد في أشعارهم إشارات كثيرة إلى الجواهر الثمينة فليس ذلك لأنهم مثل المشاركة، يملون فطريا إلى جوامد العالم الذى يحيط بهم، وإنما لأنهم يشعرون بحب لا يقهر للترف والثروة، أو لأنهم يمارسون «استمتاعاً رقيقاً وعميقاً في بيئة باللغة الروعة والجميل، وباختصار هم يرون هذه الأشياء الصناعية ضرورة لا بد منها لحياتهم وحب الجواهر هذا ليس أدبيا خالصا في العمق، وإنما يرتبط بالدقة بتقدم احضارة في هذا القرن الحادى عشر الذى يسمح باستخدام تماثيل من المرمر، ونحتها أحيانا، ونقش بنن عظيم على الأحجار والمعادن الكريمة والجواهر والعاج في دقة وشفافية، ونسج أنسجة رقيقة وفخيمة.

ولكنهم شعروا أمام تعقيدات الحياة المتزايدة - وهذا هو بالدقة ما يميزهم أكثر عن أسلافهم، مشاركة أو غريبين - بما دفع في أفكارهم بمفاهيم جديدة: تشخيص القوى الطبيعية في شعرهم، وهى الملاحظة الأكبر قوة والأعمق أصالة. وبتأثير عبقريتهم الخالقة بدت الأساطير وحب الموت والشباب والربيع والبهجة والألم كما لو كانت كائنات حية، وغريزيا أضفوا على الأشياء ثوبا إنسانيا، وجعلوا لها مشاعر، وحتى الذكريات يعيئوننا من تصوير الماضى دقيقا ومكثفا. وفي هذه النقطة يفترون عن الشعراء المشاركة، الذين يرون المشاعر التى انتابتهم عبر أيام خلت مجرد أفكار خالصة، أو موضوعا فلسفيا تجريديا.

وبعد كل الذى قلناه فإن قضية اللغة وسيلة تعبير لا بد أن تفرض نفسها في جانب لا يترك إثارة شيء من الدهشة بسبب غياب المنطق. حقا لماذا بدا لكل الشعراء سواء كانوا من أصول مسيحية أو يهودية أو مشرقية، أن اللغة العربية هى الأكثر مناسبة للتعبير عن مشاعرهم وأفكارهم، وهى تختلف كثيرا، من وجهات نظر عديدة، عن المفاهيم المشرقية؟ لقد كانت الأمة الإسبانية في طور التكوين في

القرن الحادى عشر، وحين تبرز بين العناصر المختلفة فى شبه الجزيرة فإنما تستهدف التغريب كلية، ومع ذلك واصلت سيرها مشرقية باستخدام اللغة العربية لغة حضارة فى كل المجالات. ومع ذلك، فمن المعقول أن نفكر أنه مع تطور معنى طموحاتها العنصرية تان من الضرورى أن ترفض كى ما هو أجنبى عنها، وإذا لم ترفضه كلية تمثلته لكى تشرى به، وبهذه الطريقة يمكنها أن تنفذ، تحت أكثر من عنوان، ما يمكن أن نعتبره الظاهرة الأكثر حيوية فى وجودها وهو: اللغة.

ومن المؤكد أن العربية، وهى منذ اللحظة الأولى لغة حضارة، لم تجد فى إسبانيا لغة عليها أن تدخل فى صراع معها، إذ هى مركب إلى دين فرض نفسه فى الحال، ولغة إدارة تستلهم مفاهيم كتب مقدس نزل فى اللغة العربية، وتأصلت فى البلد بهذه الطريقة، وكان من الصعب اجتثاثها حتى خلال قرون الاسترداد المسيحية. وهنا نجد أنفسنا أمام ظاهرة ملحوظة لا يمكن أن نربها صامتين، حتى لو اعترفنا أن هذه اللغة لم تستطيع أن تقضى على اللغات واللهجات التى وجدت لحظة وصولها إلى شبه الجزيرة الإيبيرية، ولا القضاء نهائياً على التى ادخلت خلال قرون لفتح الأولى، ولابد أن نعرف لن عاليتها واقع معجز: من جانب، بعد أن استقرت فى الأراضى الإسلامية انتشرت فى البلاد المسيحية التى على الحدود، والقصائد التى حملها الشعراء الجوان، وبخاصة البيان المغنيات أسهمت فى انتشارها، وإذا لم تكن فى هذا الشكل - ودائماً فيه شىء من الغموض - فهومة تماماً، ولا مُتمثلة كلية، فعلى الأقل مارست تأثيراً لا شك فيه، لأنها لكى تحقق غاياتها فتنة وإغراء أضافت إلى سحر الكلمات الموقعة فتنة الانسجام الموسيقى.

لكن الشعراء، ومن المهم أن نؤكد على ذلك، عبروا فى لغة عربية، وأخذوا كثيراً من الكتب العرب المشاركة، ولم يقفوا عند حد نقل الصور والأفكار حرفياً، وخذوها استعارة، وإنما على النقيض أعادوا تشكيلها مستجيبين لميولهم وأمزجتهم الداخلية، وعندما صنوا هذا طبقوا عليها النظرة الغربية. وإذا نظرنا إلى الشعر الأندلسى من هذه الزاوية، فإن دراسة تأثير الذى مارسه القصيدة الأندلسية فى القرن الحادى عشر على قصائد شعراء الترويا دور لن يكين مشكلة عبثية لا يمكن حلها. قد حملت العلوم العربية التقنية إلى شبه جزيرة إيبيريا، ولكن سبانيا أعطت العبقرية.

ماذا كان قدر القصيدة العربية التقليدية التى وصلت إلى القرن الحادى عشر منظوية على كثير من التفاؤل فى إمكان المعادلة بين المطامح الوطنية والعلوم المشرقية؟. بفضل تقسيم الدولة إلى إمارات صغيرة متعادية ازدهر الجنس الذى كان فى طور التكوين فى ظل نظام تمتع بحرية واسعة فى العقائد والعادات، وكل مطالب القلب والفكر. وتحت حكم المرابطين واصل الشعر سيره فى خصائصه المتنوعة نفسها طوال نصف قرن من الزمان، وعندما فقدت الأجيال الجديدة كل صلتها بنظام ملوك الطوائف حاولوا أن يمدوا فى أجل مناخ لا يفهمون عناصره الحقيقية. ولم يعد الشعراء حينئذ إلا مقلدين، وعندما كانوا يبذلون جهدهم - وعبثاً يفعلون! - لكى يبعثوا الماحسى من خلال ذكريات عصر عداته أنيقة، وثقافته مصقولة، ويخونون إليها متألمين، أسهموا فى بعث شعاع هذا الجانب النوعى من الحضارة الأندلسية خارج إسبانيا.

كشاف عام

- يتضمن الأعلام الواردة في النص، بما فيها أبيات الشعر، وفي الهوامش إذا تضمن الهامش نصا أو حدثا أو معلومة فيها شيء منها، ولم يكن مجرد إشارة إلى مصدر، سواء كانت أسماء أشخاص أم قبائل أم بلاد وأمكنة، أم غيرها
- وهي مرتبة هجائيا دون اعتبار أداة التعريف «أل»، ولا «أبو» أو «ابن» أو «ابنة» أو «بنت» أو «بنو»، ويحيى الترتيب بحسب الحرف الوارد بعدها.

(أ)

- أحمد بن رضا المالقي: ٣٩٢.
- أحمد شوقي: ١٢٨.
- أحمد بن طلحة، أبو جعفر: ٥٧.
- أحمد بن فرج الإلبيري: انظر: السمسير.
- أحمد بن فرج الجبائي أبو عمر: ١٥٨، ١٧٣، ٢٦٧.
- أحمد بن مغيث: ١٧١، ٣٢٨.
- أحمد بن هشام: ٢٨٨.
- الأخطل: ٣٥، ٢٧١.
- الأخفش بن ميمون: ٦١، ٢٤٥.
- ابن إدريس الحسني: انظر: إبراهيم بن إدريس.
- إدريس الثاني: ٢٣٤، ٢٣٥.
- إدريس بن يحيى المعتلى: ١٧، ٩١، ٩٢، ٣٣٠.
- إدريس بن اليمان، أبو علي: ٧٩، ١٥٦، ١٥٨، ٣١٣، ١٦٣.
- ابن إدريس اليماني: ٢٢٥.
- الإدريسي: ١١٩، ١٨٨، ٢٤٠، ٢٨٩.
- أربونة: ٢٩٥.
- أردشير: ١٧٨.
- أردون الرابع: ٢٨٤.
- أردونيو الثالث (ملك ليون): ٢٤١.
- أرسطو: ٤٢، ٤٣، ٣٧٩.
- أرغون: ١٠١، ٢٦٨، ٣٨٥.
- أرقش: انظر: اركوش.
- ابن أرقم، أبو الأصبغ عبد العزيز: ٨٣، ٢٥٠، ٣١٠.
- آدم: ٢٠، ١٠٨، ٢٣٦.
- ابن الأبار، أبو جعفر الخولاني: ١٥٨، ١٦١، ١٦٤، ١٦٩، ٣٧٠.
- ابن الأبار، أبو عبد الله: ١٤، ٤٣، ٧١، ١٢٥، ٢٨٤، ٣٧٧.
- أبدة: ٢٨٧، ٣٤١.
- الإبر (نهر): ١٨٩.
- إبراهيم: ٥٥.
- إبراهيم بن إدريس الحسني: ٢٢٠.
- إبراهيم بن حجاج اللخمي: ٤٥، ٤٦، ٤٨.
- إبراهيم الحجاري: ٣٦٧.
- إبراهيم بن الفخار اليهودي: ٢٤١.
- إبراهيم بن قاسم الأعلم، أبو إسحاق: ١٢٨.
- إبراهيم المصري، أبو محمد: ١٣٦.
- إبراهيم مصطفى: ٣.
- إبراهيم بن المعتضد: ٣٩٠.
- ابن الأبرش، أبو القاسم بن خلف: ٣٧.
- إبرويز: ٩٨.
- الأبلة (نهر): ١٠٧.
- أبولو: ٢٥.
- الأبيض، محمد بن أحمد، أبو بكر: ٣٧.
- أبو الأجر، عوانة بن الصمة الكلبي: ٤٨.
- ابن أحمد، أبو جعفر: ١٢٥.
- أحمد الحوفي: ٣.

ابن أرقم (وزير المعتصم): ١٣٠.

أركوش: ١٧، ١٨، ٣٥.

أرمناجود (كونت أورجل): ١٨.

بنو إرتيان: ٢٣٥.

أزداجة: ٢٣٥.

ابن الأزرق، أبو عبد الله: ٢٨١.

ابن أزرق، أبو العلاء إدريس: ٧٩.

إسبانيا (وانظر الأندلس أيضا): ٦، ١١، ١٣، ١٤،

١٥، ١٦، ١٧، ٢١، ٢٣، ٢٩، ٣٠، ٣١، ٣٤.

٣٦، ٣٨، ٤١، ٤٣، ٤٥، ٤٦، ٤٧، ٤٩، ٥٣.

٥٤، ٥٦، ٥٨، ٦٢، ٦٥، ٦٧، ٧٠، ٧٧، ٨٤.

٨٦، ٩٠، ٩١، ٩٢، ١٠١، ١٠٦، ١٠٧.

١٠٩، ١١١، ١١٢، ١٢١، ١٣٣، ١٣٢.

١٣٥، ١٤١، ١٤٢، ١٤٣، ١٥٥، ١٤٩.

١٥١، ١٦٤، ١٦٧، ١٦٨، ١٣٣، ١٧٤.

١٧٦، ١٧٩، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٧، ١٨٩.

١٩٢، ١٩٤، ٢٠٤، ٢١١، ٢١٦، ٢١٨.

٢١٩، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣١.

٢٣٣، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٣٩.

٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٧، ٢٤٩، ٢٥٠.

٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٦٠، ٢٦٤، ٢٦٧.

٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٤، ٢٧٨، ٢٨٠، ٢٨٢.

٢٨٣، ٢٨٦، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٩٠، ٢٩١.

٢٩٤، ٢٩٥، ٢٩٦، ٢٩٨، ٣٠٠، ٣٠٣.

٣٠٤، ٣٠٧، ٣٢٠، ٣٢٢، ٣٢٣، ٣٣٣.

٣٣٤، ٣٣٦، ٣٤٠، ٣٤٣، ٣٤٩، ٣٦٢.

٣٦٩، ٣٧١، ٣٧٧، ٣٨٢، ٣٨٥، ٣٨٦.

٣٩٤، ٣٩٥، ٣٩٧، ٤٠٦، ٤١١، ٤١٢.

٤١٤.

ابن إسحاق: ٢٥٧.

أبو إسحاق الإلبيري: ١٠٠، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٤٥.

٢٤٦، ٣٨٧، ٣٨٨، ٤٠٠، ٤٠٨.

إسحاق بن محمد البرزالي: ١٧، ٨٩.

أسد (قبيلة): ٩٨.

الأسعد بن بليطة، أبو القاسم: ٢٠٦، ٢٠٨، ٢٠٩.

٢١٠، ٢٢٤، ٢٧٧، ٣١٣، ٣٥٠.

الإسكندو الأكبر: ٩٨.

الإسكندرية: ٤٥، ١٣١، ١٩٤.

إسماعيل بن بدر: ١٧٦.

إسماعيل أبو القاسم بن عباد: ٥١، ٦٠.

إسماعيل بن المعتضد بن عباد: ١١٤، ١٢٣، ٣٨٣.

إسماعيل بن النفرة: ٢٤٠، ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٤٥.

٢٦٩.

أسين بلايوس، ميغيل: ٤٠٤.

إشيلية: ٦، ١٥، ١٧، ٢٠، ٢٩، ٣١، ٣٤، ٤٣، ٤٥.

٤٦، ٤٨، ٥٥، ٥٦، ٥٧، ٦٠، ٦٥، ٧٠، ٧٣.

٧٧، ٨٠، ٨٣، ٩٤، ٩٧، ٩٨، ١٠١، ١٠٩.

١١٠، ١١١، ١١٤، ١١٦، ١١٩، ١٢١.

١٢٢، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٧، ١٢٨.

١٣٣، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٦، ١٤١، ١٤٢.

١٤٩، ١٥٢، ١٦٤، ١٦٦، ١٧٢، ١٧٤.

١٧٥، ١٧٩، ١٨١، ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩.

١٩٢، ١٩٤، ١٩٥، ٢٢٣، ٢٣٠، ٢٣١.

٢٣٢، ٢٣٥، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٦، ٢٥٤.

٢٦٠، ٢٦٨، ٢٧٥، ٢٨٨، ٢٩٠، ٢٩٣.

٢٩٥، ٢٩٨، ٣٠٢، ٣٠٥، ٣١٦، ٣٢٠.

٣٤٠، ٣٤٢، ٣٤٨، ٣٤٩، ٣٥٥، ٣٧٥.

٣٨٣، ٤٠٦.

إشراق السويدهم العروضية: ٣٨، ٢٣٨.

أشهب (الفتية المالكي): ٣٦٩.

أبو الأصبح: انظر: ابن عبد العزيز.

إصفهان: ٢٨٢.

بنو الأصبح: انظر: بنو رزين.

الأصمعي: ٣٤.

الأصمعي، محمد بن سعيد الزجاجي: ٥١.

أصيلة: ٢٣٥.

ابن أضحى، أبو الحسن: ١٣٣.

الأطلنطي: ٢٨٢، ٣٩٥.

اعتماد الرميكية: ١٨، ١٢٤، ١٢٧، ١٢٨، ١٦٤.

١٨٣، ١٨٤، ٢٩٠، ٣٤٩، ٣٦٥، ٣٧٥.

أعشى بكر: ٣٤.

أعشى قيس: ٣٤، ٣٥.

- الأعلم الشنتمري، أبو الحجاج: ٣٤، ٤٠، ٦٠.
 الأعلم الشنتمري، أبو الفضل: ٤٠٩.
 أبو الأعلى: ٣٢٨.
 الأعمش: ٢١٩.
 الأعمى التطيلي: ٥٨، ٢٩٧، ٣٠١، ٣٥٨، ٣٦٣، ٣٧٢، ٣٩٠، ٤٠٠، ٤٠٣.
 الأغالية: ٢٢٠.
 الإغريق: ٢٤٩.
 أغمات: ٧٧، ١٢٣، ١٧١، ١٨٨، ٢٢٢، ٢٦٩، ٢٧٣، ٢٧٦، ٣٣٦، ٣٧٨.
 بنو إفرن: ١٨، ٢٣٥.
 أفريقيا: ١٤، ١٩٢، ٢١٨، ٢٣٨.
 أفريقيا انشمالية: انظر: شمال.
 إفريقية (وانظر تونس أيضا): ٤٥، ٤٧، ٨٩، ٩١، ٩٢، ١٧٦، ٢٣٥، ٣٣٥.
 بنو الأفطس: ٨٦، ٩٨، ١٣٥، ٢٣٦، ٢٢٠، ٣٤٠.
 ابن الأفطس، العباس بن المتوكل: ٩٨.
 ابن الأفطس، الفضل بن المتوكل: ٩٨.
 ابن الأفطس محمد بن عبد الله، المظفر: ٣٥، ٥٠، ٦١، ٨٦، ١٨٢، ٢٤٧، ٣٤٠.
 ابن الأفطس، المتوكل: ١٩، ٧٢، ٨٦، ٩٤، ٩٨، ١٠٨، ١٣٥، ٢١٣، ٢١٥، ٢٣٩، ٢٤٠، ٣٠٣، ٣٣١، ٣٣٥، ٣٨٩.
 ابن الأفطس، عبد الله بن محمد بن مسلمة المنصور: ١٧، ٢٣٦، ٣٠٨.
 أفلاطون: ٢٤، ٤٢.
 الإفليلي: ٤٠.
 الأفوه الأودي: ٣٥.
 أكشوتبة: ٢٨٠.
 البيرة: ٢١٩، ٢٣٠، ٢٣٥، ٢٩٧.
 الدوارا: ٢٦٠.
 الش: ٢٦٣.
 الطا: ٣٩.
 ألفونسو بن أوردونيو: ٢٥٥.
 ألفونسو السادس: ١٩، ٨٣، ٩٣، ٩٤، ١٧٠، ٢٢٠، ٢٣٨، ٢٤١، ٢٩٠، ٣٠٥، ٣١٧.
 ألفونسو لعاشر: ٣٢، ١٠٧.
 ألمانيا: ١١١، ٢٣٣.
 إليسانة الكبرى: ٢٤٠.
 ابن اليسع، أبو الحسن: ٢٨٤، ٣٢١، ٣٢٥، ٣٩٩، ٤٠٢.
 أليط (حصن): ٢٨٤.
 أم الأصيف: ١٧٣.
 أم الريح - انظر: اعتماد الرميكية.
 أم عبيدة (محبوبة المعتمد): ٣٥١.
 أم العلاء: ٣٧٤.
 أم الكرام ابنة المعتمد: ٣٧٤.
 أم الهناء: ٣٦٣، ٣٧٤.
 أمة العزيز: ٣٦٩.
 امرؤ القيس: ٣٥، ٣٨، ٥١، ٧٢، ٢١١، ٢١٥.
 أمريكا: ٢٥.
 الأمويون (في الأندلس): ٤٦، ٤٨، ٨٨، ٩٨، ١١٧، ١٧٩، ١٨٥، ١٩٣، ١٩٥، ٢٢٢، ٢٣٧، ٢٧٠، ٢٨٤.
 أبو أمية: ٦٤، ٤٠٥.
 ابن أبي أمية، أبو أيوب: ١٢٦، ٢٧٩.
 أمية بن عيسى: ٣٨.
 أنا كريونت: ٥٩.
 الأندلس (وانظر إسبانيا أيضا): ٣، ٦، ١٤، ١٥، ١٧، ١٩، ٢٠، ٢٢، ٢٤، ٢٥، ٣٠، ٣١، ٤٥، ٤٦، ٤٨، ٥٢، ٥٦، ٦٠، ٦٦، ٧٠، ٧٥، ٨٦، ٨٨، ٩٠، ٩٣، ٩٤، ١٠٦، ١٠٧، ١٠٩، ١١١، ١١٥، ١١٦، ١١٧، ١٤٣، ١٤٥، ١٥٢، ١٥٣، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠، ١٧٢، ١٧٩، ١٨٥، ١٩٣، ١٩٥، ٢١٨، ٢٢١، ٢٢٥، ٢٢٥، ٢٥٤، ٢٦٨، ٢٧٠، ٢٧٤، ٢٧٨، ٢٨٤، ٢٩١، ٢٩٣، ٣٠٥، ٣١٧، ٣٢١، ٣٢٣، ٣٣٧، ٣٤٩، ٣٥٠، ٣٧٢، ٣٩٧، ٤١٢.
 بنو أنجلين: ٢٣٢.
 أنخل جانييت: ٤١٢.
 أنس القلوب (جارية للمنصور): ٣٥٩.

- أنطاكية: ٢٨٢.
 أنوشروان: ١٧٨.
 أوربا: ٣، ٢٤١.
 أورجل: ١٨.
 أوربولة: ٢٤٨.
 أوريو يو: ٢٥٠.
 الأوس: ٧٥.
 أوس بن حجر: ٣٥.
 أولية: ١٨.
 أوبنة: ٣٢٠.
 إيبيريا: ٦٢، ٢٠٩، ٢٥٩، ٣٩٥، ٤١٤.
 إيران: ٢٣٢، ٤١١.
 إيطاليا: ١٩٥، ٢٣٣، ٣٥٠.
 إيوان كسرى: ١٢٦.
 ابن أيوب، أبو بكر: ٣٤.
- (ب)
- باب بجانة (في قرطبة): ٢٩٤.
 باب الخنش (في بلنسية): ١٣٨.
 باب الدباغين (في طليطلة): ١٣٧.
 باب العطارين (في قرطبة): ١١٧، ٢٦١.
 باب القنطرة (في قرطبة): ٣٨.
 باب الهدى (في قرطبة): انظر: باب اليهود.
 باب اليهود (في قرطبة): ١١٨.
 باجة (في الغرب): ١٧.
 ابن باجة الملقب ابن الصائغ: ٣٣٢.
 الباجي، أبو الوليد: انظر: أبو الوليد.
 باديس بن حبوس: ١٧، ٤٧، ٥٢، ٦١، ٦٢، ٨٦، ٩٧، ١٠٠، ١٣٢، ١٧١، ١٧٤، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٧٥.
 ٢٩٨، ٣٢٦، ٣٨٥، ٣٩٢.
 باريس: ٤، ٢٤٤، ٣٠٨.
 باسيه رنيه: ٧.
 باطيقه: ١٠٦.
 بتيلون، مرسيل: ٩.
 بشينة ابنة المعتمد: ٣٧٥، ٣٧٦.
- بجانة: ١٢٩، ٢٨٧.
 بجاية: ١٠١، ٢١٨، ٤٠٦.
 البحترى: ٣٨، ٣٩، ٤٠، ٤١، ٥١، ٥٢، ٥٧، ١١٦.
 ١٤٥، ١٦٨.
 بعثرى الغرب: انظر: ابن زيدون.
 البحر الأبيض المتوسط (انظر بحر ال_وم أيضا):
 ٤٧، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٥، ٣٣٣.
 بحر الروم: ١٩٣.
 البحرين: ٢٧٩.
 بندرو القاسى: ١٧٠.
 البديع (قصر في قرطبة): ١١٣.
 بديع الزمان الهمداني: ٥٧.
 ابن البراق، أبو القاسم: ٢٩٤.
 البربر: ١٤، ١٥، ١٦، ١٧، ١٨، ١٩، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٤٨، ٦٠، ٦٢، ٨٦، ٨٧، ٨٨، ٨٩، ٩٠، ٩٢، ١٠٠، ١٨٢، ٢١٨، ٢٣٠، ٢٣٣، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٩٠، ٢٩٧، ٣١٢، ٣٨٣، ٣٨٤، ٣٨٦، ٤١٢.
 البربر الشرقية: ٤٧، ٤٨، ٩٢، ٢٢٠، ٢٥٠، ٢٦٧.
 بربشتر: ٩٢، ٩٣، ٣٣٩، ٣٩٦.
 البرتغال: ١٧، ١٩٣.
 برتملي (القس): ٤٥.
 برج الذهب (في إشبيلية): ١٢٤.
 برج القنطرة (في بلنسية): ١٩١.
 برجة: ٤٠، ٥٩، ٦٨، ١٠٨، ١٣١.
 ابن برد الأصغر: ١٣، ٨٣، ٨٩، ١٦٠، ٢٠٦.
 ٢٠٩، ٢٦٧، ٣٥٩، ٣٦٧.
 بنو بزال: ١٧، ٨٩، ٢٣٥، ٣٨٤.
 برشلونة: ١٨، ١٨٢، ٢٤٨، ٢٨٧، ٣٨٥.
 ابن برطله: ٤٠٠.
 برمودو أبو الليث: ٢٣٢.
 برناردين دى سنت: ١٧٠.
 ابن بسم (مؤلف الذخيرة): ١٢، ١٩، ٣٩، ٤٠، ٤٦، ٥١، ٥٦، ٥٧، ٥٨، ٦٠، ٦١، ٦٦، ٨٩، ١٢٥، ١٦٧، ١٨١، ٢٤١، ٢٤٤، ٢٤٥.

- أبو بكر بن المعين: ٢٧٢.
- أبو بكر بن نصر: ١٥٣، ١٥٤، ١٥٩، ١٦٢، ١٦٣.
- البكري، عبد الله بن عبد العزيز، أبو عبيد: ٣٦، ٥٢، ٨٣، ٩٤، ١٠٦، ١٧٩، ١٩٤، ٢٩٤، ٣٢٠.
- البكري (وزير في قرطبة): ١٨٢.
- البكريون: انظر: بنو بكر.
- بلاشير، رجي: ٩، ١٢.
- بلاط مغيث (في قرطبة): ١١٢.
- بلقيس: ٢٣٤.
- بلقين بن باديس: ٢٤٥.
- البلمي، أبو القاسم: ١٤٦.
- بلنسية: ١٧، ٦٩، ٧٩، ٨٠، ٨٣، ٩٢، ٩٩، ١٠٨، ١١٦، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٠، ١٧٠، ١٩١، ١٩٤، ٢٠٨، ٢٢٥، ٢٣٤، ٢٣٨، ٢٤٠، ٢٤٢، ٢٦٤، ٢٩٧، ٣٠٨، ٣١٧، ٣٩٣، ٤٠٠.
- البليار (جزر): انظر الجزائر الشرقية.
- ابن بليظة: انظر: الأسعد.
- بنيلونة: ٢٣١، ٣٣٢، ٣٣٤.
- البنقي (على شاطئ الوادي الكبير): ١١٩.
- بهاء الدين العاملي: ٣٥١.
- البهو (قصر في قرطبة): ١١٣.
- بهو خيران (في المرية): ١٢٩.
- البواب: انظر: محمد بن أبي علافة.
- بور رويال: ١٢.
- بوران ابنة الحسن بن سهل: ٢٦٤.
- بول موران: ٢٥.
- البونت (حصن): ٢٨٧.
- ابن البلياع، الملقب ابن زنياع، أبو الحسن: ٢٠٦، ٣١٥.
- بيرة: ١٨٧.
- بيزنطة: ٤٢، ٢٤١.
- ابن الين البطليوسي: ٥٤، ٣٥١.
- ٢٦٧، ٢٦٨، ٣٢٢، ٣٣٢، ٣٣٥، ٣٣٧، ٣٤٣.
- بستان (جارية أبي القاسم المصري): ٣٤٢.
- البستان (قصر في قرطبة): ١١٧.
- بشار بن برد: ٥١، ٥٢، ٣٠٤، ٣٥٣.
- بشر فارس: ٩.
- البشرات: ٢٨٠.
- ابن بشكوان: ١١٣.
- ابن بصال: ١٧٩.
- البصرة: ٣٤١.
- ابن بطال المتلمس، أبو أيوب سليمان: ١٤٦، ١٧٣.
- البطحاء (في شاطبة):
- البطحاء (في قرطبة): ١١٩، ١٢٠.
- بطحاء عينون (في قرطبة): ١٢١.
- الطرشك Pedra Seca: انظر: عبد الله بن عبد العزيز.
- بطرنة: ٨٠، ٩٢.
- بطليموس: ٢٥، ٩٨، ٢٠٤.
- بطليموس: ١٧، ١٩، ٥٠، ٥١، ٥٩، ٦١، ٧٠، ٧٢، ١٠٨، ١١٨، ١٣٥، ١٨٠، ١٨٢، ١٩٤، ٢١١، ٢١٥، ٢٣١، ٢٣٦، ٢٣٩، ٢٤٠، ٣٠٨، ٣٢٠، ٣٣١، ٣٣٢، ٣٣٥، ٣٤٠.
- بغداد: ٢٥، ٣١، ٤٥، ٤٦، ٤٧، ٤٨، ٥٢، ٥٣، ٨٣، ٩٨، ١٠٩، ١٢٠، ١٣٤، ١٨٠، ٢٨٢، ٣٣٦، ٣٤٣.
- ابن بغي، أبو بكر: ٥٤، ٧١، ١٢٨، ١٨٣، ٣٠١، ٣٤٣، ٣٥٣، ٣٦١.
- ابن بغي، أبو القاسم: ٣٩١.
- بكار المرواني: ٦٦، ٣٩٥، ٣٩٩.
- بنو بكر: ١٨، ٣٢٠.
- أبو بكر بن إبراهيم: ١٣٣، ٢٧٢.
- أبو بكر الداني: انظر: ابن اللبانة.
- أبو بكر، ابن صاحب الأحباس: ٨٣.
- بكر الكنانى: ٤٨.
- أبو بكر المرواني: ٨٣.

(ت)

التاج (قصر في قرطبة): ١١٣.

التاج (قصر في إشبيلية): ١٢٣.

تاجه (نهر): ١٣٦، ١٣٧، ٢٨٨.

تاشفين بن علي: ٢٩٨.

تاكرنا: ١٧.

التاليسي: ٨٩.

تبع: ٩٨.

بنو تميم: ١٨، ٩٧، ١٠١، ١٣٨، ٢٣٦.

تدمير: ٢٨٧.

التروبادور: ٦٢، ٧٠، ٧١، ٢٥٢، ٣٦٣، ٣٦٥.

٣٦٦، ٣٦٧، ٤١٤.

تُستَر: ١٤٦، ٢٨٢.

تطوان: ٢٣٣.

تطيلة: ٨٣.

تلمسان: ٢٧٢.

أبو تمام: ٣٤، ٣٥، ٣٨، ٤٧، ٥١، ٥٢، ٥٧، ٦٠.

١٨٠، ٢٩٢، ٣٠٦.

أبو تمام الحجاج، غالب بن رباح: ٣٩، ٥٩، ٩٧.

١٨٥، ٢٠٥، ٢٢٤، ٢٧٧، ٢٨٩، ٢٩٦.

٣١٦، ٣٨٦.

تميم بن بلقين: ٢٨٩.

تونس (وانظر إفريقية أيضا): ٤٥، ٢٨٢، ٣٤٣.

التيجاني: ١٦٤.

تيرنس: ٣١.

(ث)

ثخيلة أبو حبس: ٢٣٢.

الثريا (قصر في إشبيلية): ١٢٣، ١٢٥، ١٢٦.

الثعالبي: ١٠٧.

ثعلب: ٣٧.

الثغب الشرقي (في قرطبة): ١١٩.

الثغب الشهدي: انظر: الثغب الشرقي.

(ج)

ابن جابر الدباج، أبو الحسن: ٦٨١.

المحافظ: ٢٥، ٤٨، ٣٦٨، ٣٧١.

ابن جاح الصباغ البطيوسي: ٥٨، ٦١، ٧٣، ٧٤.

١٧٥، ٢٦٩، ٢٩٨.

ابن جامع: ٥٩.

جامعة الجزائر: ٣.

جامعة القاهرة: ٣.

جان لي تينيفيت: ١٢.

جبال البرانس: ٤، ١٤٣.

جبال دَرَن: ٣٨٦.

جبال الورد (في قرطبة): ١٦٢.

جبل شلير: ١٤٣، ١٤٤.

جبل طارق: ١٩٢.

جبل موسى: ١٢٦.

ابن الجبير، أبو محمد: ٨٢.

ابن جبير اليحصي: ١٧٢.

ابن جبيرول: ٤٢.

ابن جحاف (قاضى بلنسية): ١٣٨، ٤٠٠.

جُد (والدة مجاهد ملك دانية): ٣٥٥.

ابن الجدة، أبو الحسين: ٩٦، ٢٤٥، ٤٠٢.

ابن الجدة، أبو القاسم: ٢٩٢.

ابن الجدة، أبو عامر: ٢٠٥.

جديس: ٩٨.

جرجان: ٢٨٢.

جرمانيا: ٢٤١.

جبرول: انظر: الخطيئة.

جرهم: ٩٨.

جرير: ٣٤، ٣٥.

الجزائر: ٣، ٤، ٩.

الجزائر الشرقية (انظر: ميورقة ومنورقة أيضا):

١٤٠، ١٦٩، ١٩٥، ٢٠٨، ٢٠٤، ٣٤٨.

٢٥٥، ٢٧٢، ٣٠٧.

الجزيرة: انظر: جزيرة شقر.

الجزيرة الخضراء: ١٨، ٤٨، ٩١، ٩٤، ٢٣٣، ٣٣٥.

٣٦٩.

جزيرة شُقر: ١٢٧، ١٤٠، ٢٦٩.

الجزيري: انظر: ابن إدريس.

ابن الجزيري، أبو مروان: ١٦٢، ٣٢٦.

الجسر (في قرطبة): ١١٩، ١٢٠، ١٣٤.

جعفر: ٩٨.

أبو جعفر (غلام): ٢٦٨.

أبو جعفر (أمير سرقسطة): ١٣٨.

أبو جعفر بن أحمد: انظر: ابن أحمد.

جعفر بن الحاج اللورقي، أبو الحسن: ٧٣، ٧٨.

٨٠، ٨٦، ٩٧، ١٩٥، ٢٢٢، ٢٦٨، ٣٠٣.

٣٥٧، ٣٨٨، ٣٩٠، ٤٠٢.

أبو جعفر بن سعيد: انظر: ابن سعيد.

أبو جعفر بن عباس: ٢٢٠.

جعفر بن علي بن حمدون: ٢٠٤.

جعفر المصحفي: انظر: المصحفي.

أبو جعفر المنصور: ٥٠.

الجعفرية (في سرقسطة): ١٣٧، ١٤١.

الجعفرية (في قرطبة): ١١٩، ١٢٠.

جليقية: ١٣، ٢٩٤.

جميل بثينة: ٣٥، ٣٥٦.

جميل مدور: ٤٥.

جميلة الملقبة نورية: ٢٥٢، ٢٥٤، ٣٦٥.

أبو جهل: ١٣٠.

بنو جهور: ١٨، ٨٥، ١٠٠، ١١٣.

ابن جهور، عبد الملك: ١٠٠.

جهور بن محمد، أبو الحزم: ٨٥، ١١٦، ٣٨١.

ابن جهور، المظفر: ٤٣، ٧٨.

ابن جهور، أبو الوليد: ١٧، ٥٢، ١٠٠، ٢٤٨.

٣٢٣، ٣٤٠.

الجوسق لجعفرى (في سمراء): ١٢٠.

الجوسق لحدث (في بغداد): ١٢٠.

الجوسق لنصرى (في قرطبة): ١١٩، ١٢٠.

جوفروي - ديمومين: ١٢.

جوثالث بالنيثا، أنخل: ١٩.

جوهرة (محظية المعتمد): ٣٦٥.

جيان: ٦، ٢٣٠، ٢٣٥.

جيانجوس، بشكوال: ١٣٦.

(ح)

الحائر (قصر في قرطبة): ١١٣، ٢٢٢.

حاتم الطائي: ٣٨١.

الحاتمي: ٤٣.

ابن الحاج البلفيقي: ١٤٤.

ابن الحاج، أبو الحسين: ١٧٢.

ابن الحاج اللورقي، أبو الحسن: انظر: جعفر.

الحاجية (قصر في قرطبة): ١١٤.

الحامة: ٢٨٨.

أبو حامد الغرناطي: ٢٤.

حبوس بن ماكسن: ٢٣٥، ٢٤٣، ٢٤٤.

حببية ابنة سليمان المستعين: ٣٦٠، ٣٧٢.

ابن الحبير: انظر: ابن الجبير.

بنو حجاج: ١٠١، ١٢٣.

ابن حجاج الإشبيلي، أبو بكر: ١٧٩، ٢٨٣.

أبو الحجاج المالقي: انظر: ابن الشيخ البلوي.

الحجاج بن يوسف الثقفي: ٦٢.

الحجاري، إبراهيم: انظر: إبراهيم.

الحجاري، مؤلف المسهب: ٢٠، ٥٢، ٦٨، ٧١، ٧٦.

الحجاز: ٣٣٥، ٣٨٣.

الحجام: انظر: أبو تمام.

ابن الحدّاد أبو عبد الله: ٦٣، ٧٤، ١٠٩، ١٣٠.

١٨٠، ١٨٦، ١٩٥، ٢٥٢، ٢٥٤، ٢٩٢.

٣٣٢، ٣٤٢، ٣٤٧، ٣٥٨، ٣٦٥، ٣٩١.

٣٩٢.

ابن حذام: ٥١.

حريز بن عكاشة: ١٧٠.

ابن حريق: ١٣٩.

أبو الحزم، جهور بن محمد: انظر: جهور.

ابن حزم، عبد الوهاب: ٦٠.

ابن حزم، أبو محمد: ١٢، ٢١، ٢٤، ٣٦، ٣٧، ٤٣.

٥١، ٥٣، ٥٤، ٦٠، ٦٩، ٧٠، ٧٥، ٧٦.

١٠٠، ١١٢، ٢١٠، ٢١٧، ٢٢٣، ٢٢٥.

- الحكم المستنصر: ٣١، ٣٢، ٣٦، ٣٧، ١٨٥، ٢٢٢.
 ٢٣١، ٢٣٣، ٢٣٧، ٢٦٧، ٣٧٠، ٢٨٠.
 ٢٨٤، ٢٩٠، ٣١٣، ٣٢٢.
 حلب: ٥٢، ١٠١.
 الحلواني، أبو الحسن: ٢٦٧.
 الحماديون: ٤٠٦.
 الحمّار: ٣٣٢.
 ابن الحمّارة: ١١١.
 حمّام الشطّارة (في إشبيلية): ٢٩٥، ٣٠٣.
 الحمامي (موسيقى): ٣٣٥.
 بنو حمدان: ١٠١، ١٢٤.
 حمدة (أو حمدونة) بنت زياد المؤدب: ٤٧، ٥١، ١٤٢، ٢٧٠، ٣٧٥.
 ابن حمدون، أبو عبد الله: ٣٢٣.
 ابن حمدون: انظر: جعفر بن علي.
 حمدونة بنت زرياب: ٤٦.
 حمدونة بنت زياد: انظر: حمدة.
 ابن حمد يس: ٥٧، ٧٣، ٧٦، ١٢٦، ١٤١، ١٨٤، ١٨٧، ١٩٢، ٢٦٠، ٢٨٥، ٢٩٧، ٣٢٢، ٣٣٤، ٣٤١، ٣٦٨، ٣٩٤.
 الحمراء: ١٣٢، ٢٩٩.
 حمزة: ٩٨.
 حصص: انظر: إشبيلية.
 بنو حمود: ١٥، ١٨، ٩٠، ٩١، ٨٢، ٢٣٥.
 الحميدى، أبو عبد الله: ١٢، ٥٤، ٥٥، ٣٨٩، ٣٩٨.
 حمير: ٨٦، ٩٤.
 الحميري: انظر: أبو الوليد.
 ابن الحناط، الأعشى، أبو عبد الله: ٦٩، ٩١، ١١٦، ٢٣٥، ٢٥٤.
 أبو حنيفة: ٣٢٣، ٣٧٩.
 حنين اليهودى: ٢٤١.
 حور مؤمل (في غرناطة): ١٣٢، ١٤١.
 حواء: ٢٣٧.
 حوز مؤمل: انظر: حور.
 ابن حوقل: ٢٢، ٤٨.
 ابن حيّان: ١٢، ١٤، ١٧، ١٨، ٥٦، ٨٦، ٨٩، ٢٥٤، ٢٦٦، ٢٦٩، ٢٧٧، ٢٨٦، ٢٨٨، ٢٩٣، ٣١١، ٣٢٣، ٣٢٩، ٣٤٨، ٣٥٢، ٣٥٦، ٣٦٢، ٣٦٤، ٣٦٦، ٣٦٩، ٣٧٠، ٣٧١، ٣٩٢، ٣٩٣، ٤٠٠، ٤٠٢، ٤٠٣، ٤٠٤، ٤٠٧.
 ابن حزم، أبو المغيرة: ٢١، ٢٠٣، ٣٠٦، ٣٥٩، ٣٩٧.
 ابن حزم، أبو الوليد: ٣١٥.
 حسام الدولة بن رزين: انظر: ابن رزين.
 ابن حسان الغساني، أبو الفضل: ١٩٣.
 ابن حسان، أبو القاسم: ٣٩١.
 حسان بن مالك ابن أبي عبدة: انظر: ابن أبي عبدة.
 حسانة التيميّة: ٧٧.
 حسداى بن شبروط: ٢١٩، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤٣.
 ابن حسداى، أبو الفضل: ٥٩، ١٨٩، ٢٩٠، ٢١٠، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٦١، ٣٩٥.
 أبو الحسن (شقيق ابن رحيمة): ٦٤.
 أبو الحسن البرقي: ٣٠٣.
 الحسن البصري: ٢١٧.
 الحسن بن جنون: ٢٨٠.
 أبو الحسن بن علي بن أبي غالب: ٥٣، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧، ١٥٩، ١٦١، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٦، ١٧٧.
 الحسن بن هانيء: انظر: أبو نواس.
 أبو الحسين حدّارة: انظر: ابن الجدي.
 الحصرى، أبو إسحاق: ٣٥، ١٣٩.
 الحصرى، أبو الحسن: ٣٥، ١٩٢، ٣٢٥، ٣٦٧، ٣٦٨، ٣٥٩، ٣٧٢، ٣٩٠.
 ابن حصن: ١٠٩، ١٢٢، ٢٢٣، ٢٩٣.
 حصن الزاهر: انظر: الزاهر.
 حصن العقاب (في غرناطة): ٢١٩.
 الخطيئة: ٣٥، ٥٦.
 ابن حفص الجزيري، أبو الحسن علي: ١٤٧.
 حفصة الركوتية: ٢٣٩، ٣٠١، ٣٢٤.
 الحكم الأول الرضى: ٧٧، ٣٦٠، ٣٨١.

خَلوة (صاحبة الرمادى الشاعر): ٣٤٨.

الخليل بن أحمد: ١٧٣، ٣٧٩، ٤٠١.

الخنساء: ٣٥، ٥١.

خوان منويل: ١٦٤.

خوزستان: ٢٨٢.

الخولاني أبو بكر: ٢٧٥.

خيار (قائد مسيحي في خدمة المنذر بن يحيى):
٣١١.

ابن الخياط: ٨٣.

أبو خير لإشبيلى: ١٧٩.

ابن خير، أبو بكر: ٣٣، ٣٥، ٣٧، ٣٨.

خيران الصقلي: ٥٢، ١٢٩، ١٣٠، ١٩٤، ٢٨٠،
٣٨١.

ابن خيرة الصباغ، إبراهيم أبو إسحاق: ٢٠٩،
٣٢١، ٣٢٩، ٣٩٦.

ابن خيرة القرطبي، أبو أحمد عبد العزيز: انظر:
المنقتل.

الخيف: ٢٠١.

(د)

دار الرهائن (في قرطبة): ٣٨.

دار الزينية (في إشبيلية): ١٢٦.

دارا بن دارا: ٢٢، ٩٨.

دائرة الشرقى: انظر: الثغب الشرقى.

الدارمى، أبو الفضل: ٤٠٢.

الدارو (نهر): ٢٩٨.

دارين: ٢٧٩، ٢٨٠.

دافليه: ٢٩٩.

دانتى: ٤١، ٣٦١.

دافى الإسرائيلي (مطرب وموسيقى): ٣٣٥.

دانية: ١٧، ٣٧، ٤٦، ٧٧، ١٤٠، ١٩٤، ١٩٥.

٢٠٨، ٢٣٤، ٢٤٨، ٢٥٥، ٢٥٧، ٢٦٠.

٢٩٠، ٣٧٤، ٣٧٥، ٣٩٧.

ابن داود الأصفهاني: ٥٥، ٣٧١.

ابن الدب: أبو مروان: ١٢٦.

٢٤٠، ٢٦٧، ٢٣٧، ٣٨١.

حير الزجاني (في قرطبة): ١١٧، ١١٨، ١٢٢،
١٣٠.

الحيرة: ٩٨، ٣٥١.

(خ)

ابن خاقان، الفتح: ٥٧، ٩٠، ١١٥، ١١٧، ١١٨.

١٢٤، ١٢٥، ١٢٩، ١٣١، ١٣٣، ١٣٥.

١٣٧، ١٨٩، ١٩٥، ٢٤٢، ٢٥١، ٢٧٩.

٢٨٥، ٢٩٢، ٣٢٠.

خالويه: ٢٣٢.

خبيب: ٩٨.

بنو خدام: ٨٥.

ابن الخراز البطرقي، أبو جعفر: ٨٠، ١٦٦، ١٨٠.

خراسان: ٥٢.

خرداذبه: ٢٣٣.

الخزرج: ٧٥.

بنو خزرون: ١٧، ١٨، ٢٣٥.

ابن أبي اخصال، أبو عبد الله: ٣٦، ٥٠.

ابن الخصيب: ٣٩.

الخطارة (مضحك المتوكل): ٣٠٣.

ابن الخطيب، لسان الدين: ١٩، ٢٣، ٨٩، ١٢٩،
١٨٥.

ابن خفاجة، أبو إسحاق: ١١، ٤١، ٥١، ٥٧، ٦٩.

٩٩، ١٠٧، ١١٦، ١٤٠، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٥.

١٤٧، ١٤٨، ١٧٠، ١٧٤، ١٧٥، ١٩٠.

١٩١، ٢١١، ٢١٦، ٢١٨، ٢٢٤، ٢٦٩.

٣٠٢، ٣٠٦، ٣٠٩، ٣١٤، ٣١٥، ٣٣٠.

٣٥٣، ٣٦٣، ٣٧٠، ٣٨٧، ٣٩٤، ٣٩٦.

٤٠٩.

أبو خلدة: ٣٥.

بنو خلدون: ١٢٣.

ابن خلدون (الشاعر): ٨٧.

ابن خلدون (المؤرخ): ٢٢، ٢٣، ٣٠، ١٩٤، ٢٣٠.

٢٩٩، ٣٤١.

خلف بن تجاح: ٢٤٨.

٢٩٧، ٣٢٤، ٣٣٥، ٣٣٧، ٣٦١، ٣٨٧.

ابن ذى النون، يحيى القادر: ١٧، ١٧-، ٢٠٤، ٢٣٨، ٢٦٤، ٢٧٤.

(ر)

الرازي، أحمد بن محمد: ٢٩٤.

الراضى بن المعتمد: ١٨، ٤٣، ٦٣، ٢٢٤، ٢٦٦، ٣٧٩، ٣٨٠، ٤٠٥.

رائده: ٢٤٧، ٢٤٨.

رايموند (كونت برشلونة): ١٨.

رؤبة بن العجاج: ٣٥.

رأمة (منطقة في الجزيرة العربية): ٣٦٠.

ابن رباح الحجام: انظر: أبو تمام للحمام، الرباط: ١٨٨، ٢٣٣.

ربض الرقائين (في قرطبة): ٢٦١.

ربض قرن برال (في قرطبة): ٢٦٠.

ابن الربيع التميمي القيرواني: ٦٠.

ابن الربيع، أبو الحسن: ٨٣.

أم الربيع: انظر: اعتماد الرميكية

أبو الربيع (حاكم سلجماسة): ٣٦.

رحبة عزيرة (ميدان في قرطبة): ١٦٠.

ابن رُحيم، أبو بكر: ٦٤، ٢٠٨، ٢٧٦، ٢٨٠.

٢٩١، ٢٦١، ٣٨٨.

ابن رُحيم، أبو الحسن: ٢٨٠.

بنو رزين: ٢٣٦.

ابن رزين، حسام الدولة أبو مروان: ٢١، ٥٤، ٧٧.

١٠٠، ١٤٧، ١٧٢، ١٨٦، ٢٢٠، ٢٣٦.

٢٤٠، ٢٦٣، ٣٠٧، ٣٢٥، ٣٣٠، ٣٣٤.

٣٣٥، ٣٤١، ٣٨١، ٣٨٢، ٣٨٥.

ابن رزين، هذيل: ٢٣٧، ٣٨١، ٣٠٩.

رستم: ٩٨، ٢٣٢، ٣١٦.

ابن رُشد: ٣٤٠.

رشيد بن سليمان، أبو الحسن: ٣٦٨.

الرشيد بن المعتمد: ١٩، ٤٣، ٩٤، ٢٢٣-، ٢٩٧.

٣٣٣، ٣٣٧، ٣٥٨.

ابن الدباغ، أبو الفضل: ٢٤٢.

ابن الدباغ، أبو المطرف: ٧٠، ٢٧٧، ٣٦٢، ٣٩٥.

دجلة: ١١٣، ١٨٠.

ابن دحية: ٥٧.

ابن درّاج القسطلي، أبو عمرو: ٣٩، ٥١، ٥٢، ٥٤.

٨٨، ٩٠، ١٠٠، ١٠٩، ١٢٢، ١٢٩، ١٥٩.

١٦٧، ١٩٤، ٢٣٤، ٢٩٢، ٣١١، ٣٢٦.

٤٠١، ٤٠٩.

دلالية: ٢٨٠.

بنو دَمَر: ٦٨، ٨٩، ٢٣٥.

دمشق: ٧٨، ١٠٧.

دمشق (قصر في قرطبة): ١١٧.

ابن اللودين، أبو جعفر: ٢٥٧.

دوزي، رينهارت: ٧٧، ١٣٦، ٢٢٩، ٢٤٩، ٢٦٦.

٣٨٥، ٣٦٩.

دير ثيلانويا: ٢١٩، ٢٩٠.

ديبين هـ: ٣٧١.

دير ليير: ٢٩٩، ٣٣١.

ديو نيسوس: ٢٥.

(ذ)

ذبيان: ٩٨.

ذخر الدولة (أخو المعتمد من أمه): ١٢٦.

أبو ذر: ٨٦.

بنو ذكوان: ٨٥.

ابن ذكوان، أبو العباس: ١٥، ١٦٦، ٢٦٥.

ذو الرمة: ٣٤، ٣٥.

ذو النون: ٨٦، ٩٧.

بنو ذى النون: ٨٦، ١٣٥، ١٣٦، ٢٣٨، ٣٢٠.

ابن ذى النون، الأرقم: ٢٣٨.

ابن ذى النون، إسماعيل: ٢٣٨، ٣٨١.

ابن ذى النون، الظافر عبد الرحمن: انظر:

عبد الرحمن.

ابن ذى النون، المأمون: ٨٣، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٧.

١٧٩، ٢١٣، ٢٣٥، ٢٣٨، ٢٦٤، ٢٩٣.

الرشيق (قصر في قرطبة): ١١٣.
 ابن رشيق القيرواني: ٣٨، ٤٠، ١٠١، ٣١٨، ٣١٢.
 ابن رشيق، أبو العباس: ٣٩٧.
 ابن رشيق (أمير مرسية): ٧٩.
 ابن رشيق (أبو علي): ٢٦٧.
 الرصافة (في بلنسية): ١٣٨.
 الرصافة (في قرطبة): ١١٩، ١٢٠، ١٧٣.
 الرصافي، أبو عبد الله: ٥٢، ١٣٨، ٢٦١.
 ابن الرقاء: ٢٠٧.
 رفيع الدولة بن المعتصم: ٦١، ٣٠٣، ٣٢٨، ٣٦٣.
 ٣٦٧، ٣٨٠.
 الرقيق القيرواني: ٣٢٢.
 ابن رُماحس: ١٩٣.
 الرمادي (أبو عمرو يوسف بن هارون): ١١، ٥١، ٧٢، ٧٥، ١٥٤، ١٦١، ١٩٧، ٢٠٩، ٢١٥.
 ٢٥١، ٢٥٤، ٣٤٨، ٣٥٨، ٣٦٧، ٣٩٨.
 الرميكية: انظر: اعتماد.
 رميمة: ٢٣٠.
 ابن الريمى: ٣٤٠.
 رندة: ١٧، ١٨، ١٣٣، ٢٣٥.
 رود سيندو: ٢١٩، ٢٩٠.
 روزفيتا، الراهبة السكسونية: ١١١.
 روسيلون (في جنوب فرنسا): ٢٥٤.
 ابن روش، محمد بن مروان بن عبد العزيز: ١٨١.
 روض الأتحوان (في قرطبة): ١١٩.
 الروض الشريق (في قرطبة): ١٢١.
 الروضة (في قرطبة): ١١٣.
 رولاند: ٣١٦.
 الروم: ٢٢، ١٩٥، ٢٥٧، ٢٩٤، ٣١٤، ٣١٥، ٣١٧.
 روما: ٥٩.
 ابن الریمی: ٣٨، ٣٩، ٥٢، ١٦٧، ١٦٨، ٣٠٤.
 رونسار: ٧٧.
 رِيَه: ٢٣٠، ٢٩٥.
 (ز)
 الزاهر اتى إشبيلية: ١٢٤، ١٢٥.
 الزاهر اقصر في قرطبة: ١١٣، ١٢٣.

الزاهرة: انظر: مدينة.

الزاهى (في إشبيلية): ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥.

زاوى بن زيرى بن مناد: ١٥، ٢٣٥، ٢٤٣.

الزباء: ٢٣٤.

الزبيدي، أبوبكر محمد بن الحسن: ٣١، ٢٢٢.

٢٦٠، ٣٨٩.

الزبير بن عمر المثلث: ١٢١.

الزجالي، أبو مروان أو أبو الوليد: ١١٨.

زربوط (المغنى): ٣٣٦.

ابن زرقون، أبو عبد الله: ٦٥، ٣٢٢.

زرباب: ٤٦، ٤٧، ٢٧٠، ٢٨١، ٢٨٦، ٣٣٥، ٣٤٣.

ابن الزقاق: ٦٩، ١٣٩، ١٤٠، ٢٠٢، ٢٤٢، ٣٠٤.

٣٢٩، ٣٣٨، ٣٤١، ٣٥٢.

الزلاقة: ١٩، ٨٠، ٩٤، ٩٨، ٢٢٣، ٢٢٨، ٢٧٥.

٢٨٤، ٢٩٨، ٣١٢، ٣١٦، ٣٢٥، ٣٩٩.

ابن زمرك: ٢١٧.

زناتة: ١٨، ١٩، ٢٢، ١١٢، ٢٣٥، ٣١١.

ابن زنباع: انظر: ابن البياع.

ابن الزنجارى: ٦٦.

ابن زُهر، أبو بكر: ٣٤، ٣٤٠.

ابن زُهر، أبو مروان: ٦٨.

الزهراء (محظية عبد الرحمن الناصر): ٢٩٤.

الزهراء: انظر: مدينة.

زهير بن أبي سلمى: ٣٥، ٥١.

زهير الصقلبي: ٨٣، ١٢٩، ١٣٠، ٣٠٢، ٣٣٧.

٣٩٢.

زوثيل: ٧٧.

أبو زياد الكلابي: ٣٥.

زيد بن ثابت: ٧٨.

زيد الخيل: ٥١.

أبو زيد القرشي: ٣٤.

ابن زيدون، أبو الوليد: ٥١، ٥٧، ٧٧، ٨٣، ١١٤.

١١٥، ١١٨، ١٢٠، ١٢١، ١٢٥، ١٧٢.

١٨٣، ١٨٥، ٢٠٨، ٢١٣، ٢٢١، ٢٢٢.

٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤٨، ٢٥٢، ٢٦٣، ٢٦٤.

٢٦٥، ٢٦٦، ٢٧٣، ٢٧٩، ٢٨٣، ٢٩٦.

٢٦١، ٢٣٥، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤٢، ٢٦١،
٢٦٤، ٢٦٨، ٢٩٠، ٢٩٢، ٣٠٣، ٣١١،
٣٢٥، ٣٩٥

السرور (قصر في قرطبة): ١١٣.

ابن سريج: ٣٣٥.

السطح المشرف: ١١٤.

سطيف: ٢٣٥.

السطيفي: ٢٣٥.

ابن سعادة، أبو بكر: ١٢١.

ابن سعد الخير: ١٧٣.

سعد السعود (في إشبيلية): ١٢٤.

ابن سعدون، أبو جعفر: ٣٣٤.

ابن سعدون، أبو عمر: ١٠٠.

ابن سعيد (الجد الأعلى للمؤرخ): ٢٢٤.

سعيد بن أضحى: ٨٠.

ابن سعيد الأندلسي: ٢١، ٢٢، ٣٦، ٨، ٥٢، ٧٦،

٨٢، ١٠٨، ١٢٧، ١٢٨، ٢٤٢، ٢٤٣، ٣٨٦.

ابن سعيد، أبو جعفر: ٢٣٩، ٣٠١، ٣٢٤.

سعيد بن جودي: ٢٥٠، ٣٧٧.

سعيد بن رُفيل: ١٧.

ابن سعيد، عبد الملك: انظر: عبد الملك.

سعيد بن فرج الجباني: ٢٦٧.

ابن سعيد، محمد بن عبد الملك: ٣٢٢.

سعيد بن نصر: ٣٧.

ابن سفر المربني: ١٠٧.

ابن سفيان، أبو محمد: ١٨٣، ٢٠٤، ٣٥٦.

ابن السقاء: ٥٢.

ابن السقاط، أبو القاسم: ٥١، ٥٢، ٢٠١، ٢٨٥،

٣٣٥.

سقراط: ٤٢.

سكة الخطّابين (في إشبيلية): ٣٥٥.

سكر الياس: انظر: الزلاقة.

ابن السكيت: ٣٧.

سلا: ١٨٨.

ابن سلام الهروي: ٣٧.

٣٠٠، ٣٠٧، ٣١١، ٣٢٣، ٣٥٧، ٣٥٩،
٣٦١، ٣٦٤، ٣٦٧، ٣٧٢، ٣٧٣، ٣٧٤،
٣٩٤، ٤٠٨.

بنو زيري: ١٠٠، ١٣٢، ١٧٩، ١٨١، ٢٤٠، ٢٤٣،
٢٦٩.

زيري بن عطية: ٢١٧.

(س)

ابن سارة الشنتريني: ١١، ٣٩، ٧٠، ٨١، ١٣٣،

١٧٤، ١٧٥، ١٨٤، ١٨٧، ١٨٩، ٢٠٢،

٢٠٣، ٢٠٥، ٢١١، ٢١٢، ٢١٤، ٢١٧،

٢٦١، ٢٧٢، ٢٧٦، ٢٨٥، ٣٠٣، ٣١٣،

٣٦٢، ٣٧١، ٣٨٨، ٣٩١، ٣٩٤، ٤٠٥.

ساسان: ٩٨.

أبو سالم، سلطان المغرب: ٢١٧.

سان مرتين: ١٣٦.

سان ميان دي لاجويا: ٢٥٠.

سانتشو: انظر: شانجه.

سيأ: ٩٨، ١١٤، ١٦٤.

سبته: ١٩٢، ٢٣٥، ٣٤٠.

سبريانندو الغالب: ٢٣٢.

ابن سبعين: ٤٠٦.

سجراخس: انظر: الزلاقة.

سجلماسة: ٣٦.

سحر (محظية المعتمد): ٣٦٥.

سد النهر (في شلب): ١٣٤، ٣٥٥.

السد: ٣٩.

ابن سدرای، أبو بكر: ٢٤٠.

ابن السراج المالقي: ٢٢١، ٣٢١، ٣٤٩.

ابن سراج، أبو الحسن: ١١٥، ١١٦، ٢٠١، ٣٥٦.

سراج الدولة ابن المعتضد: ٢٤٠.

سراج القطرب: ١٥٧.

ابن سراج، أبو مروان: ٧٨.

سردينية: ١٩٥، ٢٣٤، ٢٥٥.

سرقسطة: ١٧، ٢٠، ٣١، ٤٢، ٤٦، ٦٢، ٦٣، ٧٠،

٨٣، ١٣٧، ١٤١، ١٤٢، ١٧٤، ١٨٠، ١٨٩.

ابن السيد البطليوسي، أبو محمد: ٣٥، ٣٧، ٦٤،
٧٩، ١٣٧، ١٨٠، ٢١٦، ٢٨٢، ٢٩٢، ٣٢٥،
٣٢٨، ٣٣١، ٣٣٣، ٣٩٧، ٣٩٨.
السيد الحميري: ٣٤١.
سيد غاري: ٢١٦.
السيد التنيطور: ٩٩، ١٣٨، ١٧٠، ٢٤٨، ٢٧٦،
٣١٧.

السيدة لكبرى: انظر: اعتماد الرميكية.
السيدة لكبرى: انظر: مرجانة.
ابن سيده: ٣٤، ٣٧، ٤٠، ٥٨.
سير بن أبي بكر: ١٩، ٢٨٤.
السيراقي أبو بكر: ٣١٣.
سيسناندر: انظر: رانده.
سيف (مملوك المعتمد): ٣٠٣.
سيف بن ذي يزن: ١٢٤.

(ش)

شاثو بريان: ٤٠٦.
شارل اتاسع: ٧٧.
شاطبة: ٧٨، ١٤٠، ٢٦١، ٢٩٥، ٢٩٩.
ابن شاطر السرقسطي: ٢٦٨.
الشافعي: ٥٧.
ابن شايب اليهودي: ٢٤١.
ابن الشالفة: ٣١٣.
الشام: ٥٢، ٥٦، ١٣٢.
شانت ياقب: ٢٨٥، ٢٩٠.
شانجه (ملك نبرة): ٨٣، ٣٣٨.
شانجه غرسية: ١٨، ٢٤٩، ٣٣٨.
بنو شيريق: ٢٣٢.
ابن شيراق، أبو القاسم: ١٥٦، ١٦٢.
الشحر: ٢٨٠.
شحيران (جبل): ٢٨٧.
ابن شخيص: ٢٩٤.
شداد: ٩٨.
شدونة: ٢٣٠، ٢٣٥، ٢٨٠.

السلطانية (مقتره في إشبيلية): ١٢٧.
سلمة بن جندل: ٣٥.

سليمان بن أحمد الشاعر: ٣٤٨.
سليمان ابن أحمد القرطبي: انظر: ابن أحمد.
سليمان بن أحمد القضاعي، أبو ربيع: ٢٤١.
سليمان ابن بطلال الأندلسي: انظر: ابن بطلال.
سليمان بن الحكم، المستعين: ١٥، ١٦، ١٨، ٤٨،
٦٢، ٨٧، ٨٨، ٨٩، ٩٠، ٢٣٥، ٣١١، ٣٣٨،
٣٦٨، ٣٧٣.

سليمان بن داود: ٤٦، ١١٤، ١٢٦.
سليمان بن عبد الملك (الخليفة الأموي المشرقي):
٢٣٧.
سليمان بن مهران السرقسطي: ٣٣٩.
سليمان بن هود: ١٧.
سيماجة الصنهاجي: ٦٢، ٣٢٢.
السمار: ٣٧٤.

ابن السماك، أبو محمد عبد الله: ١٤٦، ٤٠٣.
سمراء: ١٢٠.
سمرقند: ١١٠.
السموأل: ١٠٠.

السميسر: ٢٠، ٨١، ٩٦، ١١٥، ١١٦، ١٣١، ١٤٠،
٢٢٤، ٢٢٥، ٢٣٧، ٣٨٧، ٣٨٩، ٣٩٩.
سند: ٣٩.
سنيكا: ٤١٢.

ابن سهل الإسرائيلي: ١٢٧.
ابن سهل (الحاجب الصقلي): ٣٤٨.
سهل بن مالك: ١٨٧.
السهلة: ٥٤، ٧٧، ١٠٠، ١٧٢، ٢٢٠، ٢٣٦، ٢٤٠،
٣٣٧، ٣٨١، ٣٨٥.

سواجات (صاحب سبتة): ٣٤٠.
سورية: ٥٢، ١٢٠، ١٧٣، ١٨٥.
السوس (في فارس): ٣٩، ٣٣٥.
السوس (في المغرب): ٣٨٢، ٣٣٥، ٣٨٦.
سيبويه: ٣٦، ٣٧، ١٧٣، ٢٣٢، ٣٧٩.
ابن السيد البطليوسي، أبو الحسن عي: ٢٠٦،
٣٠٩.

- ابن الشرح: ٣٤٢.
 الشرف (في إشبيلية): ١٢٢، ١٢٣، ١٢٨.
 ابن شرف، أبو الفضل جعفر: ٤٠، ٥٩، ٦٨، ٧٨، ٨٦، ١٠١، ١٠٨، ١٣١، ١٧٦، ١٨١، ١٩٣، ٢٠٦، ٢١٣، ٢٨٧، ٣٠٦، ٣٥٠، ٣٥٦، ٣٥٧، ٣٦٩، ٣٧٠، ٣٩١، ٤٠٠، ٤٠٨.
 ابن شرف القيرواني: انظر: محمد.
 الشريف الرضي: ٤١، ٥٢.
 شرق العقاب: انظر: العقاب.
 الشرواني: ٣٣٤.
 شريح: ٣٣٥.
 شريش: ٢٣٥، ٢٨٢.
 الشريف الرضي: ١٤٥، ١٦٩.
 شعب يوان: ١٠٧، ١٤٢.
 شقر: ١٠٧، ١٩٠، ١٩١، ٢٤٢، ٢٩٨.
 الشقندي: ٢١، ٧٤، ٨٦، ١١١، ٣٤٠.
 شقورة: ١٧.
 شلب: ١٨، ٥٨، ٥٩، ٦٨، ١٢٥، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٥، ١٩٠، ٣١٨، ٣٣٦، ٣٥٤.
 شلطي: ١٨، ٣٢٠.
 شلير (جبل): ٢١١، ٢١٢.
 الشمّاخ بن ضار: ٣٥.
 شمال أفريقيا: ١٧٠، ٢١٨، ٢٢١، ٢٠٢، ٢٧٤، ٢٨٥، ٣٣٦.
 شنتيوس: ١١٠، ١٢٧، ١٣٤، ١٩٠، ٣٤٨.
 شنتمرية ابن رزين: ٢٣٦.
 شنتمرية (في الغرب): ١٨، ٣٤، ٢٠٢، ٢٣٦.
 ابن شنتفير، أبو عثمان: ٨٣.
 شنترة: ٥٩، ١٧٢، ١٨١.
 شنترين: ٧٢، ٢١٣، ٢٨٢.
 شنجول: انظر: عبد الرحمن.
 شنف (زوج سليمان المستعين): ٣٦٠.
 ابن شهاب (الفقيه المالكي): ٣٦٩.
 ابن شهيد، أحمد بن عبد الملك: ٤٢.
 ابن شهيد، أبو حفص عمر: ٤٢، ٨٠، ٣٢٤.
 ابن شهيد، أبو عامر: ١١، ٣٩، ٤٢، ٦٠، ٦٦، ٦٧.
- ٩٠، ٩١، ١٠٠، ١١٢، ١١٨، ١٢، ١٥٥، ١٦٦، ١٧٦، ١٧٧، ١٩٦، ٢٠١، ٢٠٤، ٢٢٠، ٢٤٥، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٤، ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٩٠، ٣٠٠، ٣٢٤، ٣٢٧، ٣٣٠، ٣٥٠، ٣٥٨، ٣٦٠، ٣٦٦، ٤٠٢، ٤٠٧، ٤١٢.
 ابن الشيخ البلوي المالقي (أبو الحجج): انظر: يوسف.
 شيشرون: ٥٠.
 (ص)
 صاحب بن عبّاد: ٢٩.
 ابن صارة الشتريني: انظر: ابن سارة.
 صاعد البغدادي: ٣٨، ٣٩، ٤٥، ٨٢، ٨٣، ١٤٩، ١٥١، ١٨٤، ٣٨٣، ٣٨٤، ٣٩٧.
 صجد: ١٠٧.
 ابن الصّقار، أبو عبد الله: ٣٩٠.
 الصفدي: ٥٧، ٥٨.
 صفوان بن إدريس (أبو بحر): ١٠٨، ١٣٩.
 الصقالبة: ١٥، ١٨، ٢١، ٤٨، ٢٣٠، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٧.
 الصقلّي (مطرب المعتضد والمعتمد): ٢٦٦، ٣٣٥.
 صقلية: ٧٣، ٧٦، ١٩٢، ١٩٥، ٢٤٨.
 أبو الصلت أمية بن عبد العزيز: ٣١، ٢٠٧، ٣٦٧.
 بنو صمادح: ١٨، ٣٢٠، ٣٨١.
 ابن صمادح السرقسطي: ٨٩.
 ابن صمادح، المعتصم: ١٩٥، ٣٤٠.
 صمويل بن النغلة: انظر: إسماعيل.
 الصمادحية: انظر: قصر.
 صنعاء: ١٣٥، ١٤٦.
 صنهاجة: ١٩، ٦٨، ٩٢، ١٠٠، ١١٢، ٢٣٥، ٢٤٦، ٢٤٧، ٣١١.
 الصنوبري: ٣٥، ٤١، ١٤٥، ١٦٨.
 صنوبري الغرب: انظر: ابن خفاجة.
 ابن صهيب، أبو العلاء: ٦٤.

طوطاني: ٢٨٨.
طوطه (مسكة نيرة): ٢٤١.
ابن الطيب، أبو بكر: ٤٣.
بنو طيفو: ١٨.

(ظ)

الظافر بفضل الله: انظر: ابن جهور، عبد الملك.
الظافر بن المعتضد: ٢٦٩.

(ع)

ابن عائشة، أبو عبد الله: ٦٩، ١٣٩، ١٤٠، ٢٧٨.
عائشة القرطبية: ٢١٦.

عاد: ٩٨.

أبو عامر بن عثمان البرياني: ٢٩٥.

عامر بن هشام القرطبي، أبو القاسم: ١٢٠.

العامرية: ١٢٠.

بنو عبّاد ١٧، ١٨، ٤٣، ٥٧، ٦٠، ٨٥، ٨٦، ٩٧.

١٠٣، ١٢٢، ١٨٧، ١٨٨، ٢٣١، ٢٧٥.

٣٢٠، ٣٤٠، ٣٧٥.

عباد: انظر: المعتضد.

عباد، أبو عمرو (ذو الوزارتين): ١٥٨، ١٦٠.

١٠١، ١٦٣، ٢٨٦.

ابن عبّاد محمد أبو القاسم: ١٧، ٢٣، ٥٥، ٦٠.

١٠٠، ١٦٩، ٣٧٧.

ابن عبادة القزّاز، أبو بكر: ٥١.

عبادة بن ماء السماء، أبو بكر. انظر: ابن ماء
السماء.

العبّادية (جارية المعتضد): ٣٧٥.

بنو العباس: ٩٨، ١٠١.

العبّاس بن الأحنف: ٥٢، ٥٧، ٣٦٠، ٣٦٤، ٣٦٨.

ابن عباس، وزير زهير الصقلبي: ١٣٠، ٢٤٥.

٣٢٧، ٣٩٢.

ابن عباس، أبو جعفر: ٨٣.

عباس بن فرناس: ٢٦٠.

أبو العباس اللص: ٣٥٨.

صهيب بن ماني: ٣٢٤.

الصيرفي (أبو بكر): ٣١٤.

الصين: ٢٤، ١٧٥.

(ض)

ابن ضابط، أبو الوليد: ٦١، ٦٦، ٦٧.

(ط)

طالقة: ٢٩٥.

بنو طاهر: ١٨.

ابن طاهر، أبو عبد الرحمن: ٥١، ٦٨، ١٦٦.

١٩١، ٢٨٥، ٣٠٨.

الطيني: ٨٣.

الطجنتاري، ابن مالك: ١٧١، ١٧٤، ١٧٩.

طرب (قينة): ٣٦٦.

طرطوشة: ١٧، ٢٣٤.

الطرطوشي (المؤرخ): ٢٤٢، ٢٨٢، ٣٥٨، ٣٦١.

٣٨٨.

طرفة بن العبد: ٣٥.

طفيل الغنوي: ٣٥.

طركونة: ٢٩٤.

الظرماع: ٣٥.

طريانة (في إشبيلية): ١٢٨.

طسم: ٩٨.

ابن طلحة: ٣٩٨.

طليلة: ١٧، ٢١، ٣١، ٤٧، ٦٢، ٨٦، ٩٣، ١١٤.

١٢١، ١٣٥، ١٣٧، ١٣٨، ١٦٥، ١٧٠.

١٧٤، ١٧٩، ١٨٥، ٢٠٤، ٣١١، ٣٣٢.

٢٣٦، ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤١، ٣٦٤، ٢٧٤.

٢٧٦، ٢٩٣، ٢٩٧، ٣٠٥، ٣١٦، ٣٢٠.

٣٢١، ٣٢٣، ٣٣٥، ٣٣٧، ٣٦٩، ٣٨١.

٣٨٧.

الطليق المرواني: انظر: مروان.

طنجة: ٣٩، ١٢٦، ٢٣٥، ٤٠١.

طواحين ناصح: انظر: مجلس ناصح.

ابن عبد الصمد، أبو بحر يوسف: ٩٧، ٩٨، ٢٦٦، ٢٦٨، ٤٠٩.

عبد اعزیز (أخو ابن اللبانة): ٥٩

ابن عبد العزيز بن الأرقم، أبو الأصمغ: ٢٩، ١٦١، ١٦٣، ٢٨٦.

عبد اعزیز البطلیوسی، أبو الأصمغ: ٣٢٥.

ابن عبد العزيز، أبو بكر (الشاعر): ٨٠.

ابن عبد العزيز، أبو بكر (صاحب بلسية): ٦٩، ٢٦٤، ٢٤٢، ٧٩.

عبد اعزیز بن أبي عامر: ١٧.

ابن عبد الغفور: ٤١.

ابن عبد الغفور، أبو القاسم: ٢٠٧.

عبد الله بن أحمد بن طالب، أبو العباس: ٢٢٠.

عبد الله بن بلقين: ٢٠، ١٣٢، ٢٢٠، ٢٢٤، ٢٣٤.

٢٣٦، ٢٨٩، ٢٩٠، ٣٢٢، ٣٦٧، ٤٠٢.

عبد الله بن حكم (أو حكيم): ١٣٨.

عبد الله بن سلام: ٢٤٠.

عبد الله بن عبد العزيز الرواني: ٣٦٤، ٣٨١.

عبد الله بن فرج: ٢٦٧.

عبد الله اللوشي: ٥١، ٣٥٩.

عبد الله بن محمد (الأمير الأموي): ١٢٠.

عبد الله بن محمد بن مسلمة، أبو محمد انظر: ابن الأقطس.

عبد الله بن مسلمة الشاطبي، أبو محمد ٣٣٣.

عبد الله المهرس: ١٧٤.

عبد المؤمن، أمير الموحدين: ٣٤، ٧٤.

عبد المجيد بن عبدون: انظر: ابن عبدون.

عبد المحسن الصوري: ٤١.

عبد المعطى بن المعين، أبو بكر: ٢١١.

عبد الملك بن إدريس الجزيري، أبو مروان: ٨٢، ٨٣، ١٥١، ١٨٤، ٢٠٢.

عبد الملك بن سعيد المرادي، أبو مروان: ٦٨، ١٥٧، ١٥٦.

عبد الملك بن غصن، أبو مروان: ٣٣٠.

عبد الملك بن مروان: ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٧١.

عبد الملك بن المستعين أمير سرقسطة: ٢٩٠.

العباس بن المتوكل بن الأقطس: انظر: ابن الأقطس.

العباس بن ناصح: ٤٨.

ابن عبد البر الشنتريني، أبو عبد الله: ٢١٦، ٣٥٦.

ابن عبد البر، أبو عمرو: ٧٨.

ابن عبد البر، أبو محمد، ذو الوزارتين: ٢١٩، ٣٨٣.

عبد الجبار المتنبى، أبو طالب: ٩٨.

عبد الجليل بن وهب المرسى: ٤٠، ٩٤، ٩٥.

١٤٤، ١٧١، ١٧٧، ١٨٩، ١٩٤، ٢٣٨.

٢٦٠، ٢٩٧، ٣٠٣، ٣٠٨، ٣١٦، ٣٨٤.

٣٨٧.

عبد الحق الثاني (السلطان المريني): ٢٤٠.

عبد الحق الإشبيلي: ٤٠٨.

عبد الحق بن عطية، أبو محمد: ٢٠٢.

عبد الحميد الكاتب: ٣٠.

ابن عبد ربه: ٤٩، ١٤٩، ١٥٧، ٣٩٤.

عبد الرحمن البرقوقي: ٤٥.

عبد الرحمن بن بشير، أبو المطرف: ٤٣.

عبد الرحمن الثاني: ٤٥، ٤٩، ٢٣٢، ٣٧٠، ٣٠٠.

٣٣٦.

عبد الرحمن الخامس، المستظهر: ١٥، ٦٠، ٨٧.

٣٥٢، ٣٦٠، ٣٧٢.

عبد الرحمن خليفة: ٦٠.

عبد الرحمن الداخل: ١٢٠، ١٧٣.

عبد الرحمن بن ذى النون، الظافر: ٢١، ٢١٦.

٢٨٢.

عبد الرحمن بن شبلق الحضرمي: ٣٩.

عبد الرحمن شنجول: ١٣، ١٤، ١٥، ١٦، ٢٣٣.

٢٣٥، ٢٤٩، ٢٨٤، ٣٣٠، ٣٤٢، ٤٠٦.

عبد الرحمن الناصر: ٣٦، ٤٢، ٤٥، ٤٨، ١١٠.

١١١، ١١٤، ١٢٠، ١٢٣، ١٢٩، ١٣٦.

١٨٥، ١٩٣، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٣٧، ٢٣٩.

٢٤١، ٢٤٣، ٢٦٧، ٢٧٣، ٢٩٠، ٢٩٧.

أبو عبد الصمد (شاعر من سرقسطة): ٢٦٨.

العراقي: انظر: أبو حنيفة.
العرب: ٢٤، ٤٥، ١٩٣، ١٩٥، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٦، ٢٣٩، ٢٤٣، ٢٥٧، ٣٠٠، ٣٨٢، ٤٠٦.
أبو العرب مصعب الصقلي: ٣١، ٧٦، ٢٩٨.
ابن العربي، أبو بكر: ٣٠، ٣٣، ٨١، ١٩٣، ٢٥٦، ٢٥٨.
ابن عربي، محيي الدين: ١١٦.
عروة بن خزام: ٥١.
عروة عفراء: ٣٥٦.
عروة بن الورد: ٣٥.
عز الدولة بن صمادح: ١٩٥، ٢١٠، ٢٧٦، ٤٠٦.
ابن العسّال: انظر: ابن الفسال.
عضد الدولة بن المعتمد: ٣٢٠.
ابن العطار، أبو القاسم: ١٨٣، ١٨٧، ١٨٨، ١٩٣، ٣٠٣، ٣٠٤، ٣٥٧، ٣٦٨.
ابن عطية، أبو بكر: ٣٨٩.
العقاب (قريباً من قرطبة): ١١٩، ١٢٠.
عقبة البقر: ١٨.
العقيق (في قرطبة): ١١٩، ١٢٠، ٢٧٣.
ابن عكاشة: ٣١٩.
أبو العلاء (حاكم إشبيلية): ١٢٤.
أبو العلاء المعري: ٣٥، ٤١، ٤٧، ٤٨، ٥٠، ٥٢، ٦١، ٢٠٤، ٢٢٢.
ابن أبي علاقة: انظر: محمد.
علقمة بن عبدة: ٣٥.
علم: ٤٥، ٣٣٦.
علوش، إ.س: ٩.
علي (كرم الله وجهه): ٨٩، ٩٠، ٩٨، ٢٧١، ٢٧٣.
علي بن أحمد: ١٣٩.
العلّى باقه (أمير مالقة): ٣٣٥.
علي بن حازم اللحياني: ٣٥.
علي بن حمود الناصر: ٦٢، ٨٨، ٨٩، ٩٠، ٢٣٤، ٢٣٥.
عليّ بن عقيل، أبو الوفاء: ٢٥٦.
علي بن عيسى: انظر: ابن ميمون.
علي بن الفضل، أبو الحسن: ١٢٧.

عبد الملك المظفر: ١٣، ١٥، ٥٢، ٦٠، ٨٢، ١٠٠، ١١٤، ١٥٩، ١٨٢، ٢١٩، ٢٥٥، ٢٧٤، ٢٩٩، ٣٢٠، ٣٢٧، ٣٣١.
عبد المعتم بن منّ الله القروي: ٢١٩.
عبد الواحد المراكشي: ٢٠، ٢٢، ٥٠، ٥١، ٥٤، ٥٩، ٨١، ٨٩، ٩٠، ١٢٥، ٣٢٠، ٣٨٣.
عبد الوهاب بن حزم: انظر: ابن حزم.
عبد الوهاب المالقي، أبو محمد: ٤١٠.
عبد الوهاب بن محمد: ٣٦.
عبد الوهاب المنشي، أبو محمد: ١٧٥.
ابن أبي عبدة، حسان بن مالك: ٨٧، ٣٧٢، ٤٠١.
عبدة بن الطبيب: ٣٥.
ابن عديوس، أبو عامر: ٢٦٨، ٣٧٤.
ابن عيدون (مؤلف رسالة في الحسية): ٢٥١.
ابن عيدون، اليايبري، أبو محمد عبد المجيد: ٣٦، ٥٠، ٥٨، ٦٦، ٦٧، ٦٨، ٧٢، ٩١، ٩٨، ١٨١، ٢٠٧، ٢١٣، ٢٩٣، ٣٠٨، ٣٣٨، ٣٦٦.
عبيد بن الأبرص: ٣٥.
أبو عبيد البكري: انظر: البكري.
عبيد الله (صهر حسام الدولة بن رزين): ٣٨٥، ٩٨.
عيس: ٩٨.
ابن عيود الرياحي، أبو القاسم: ١٢٠.
عبيد الله الرشيد: ١٢٤.
عبيد الله بن قاسم: ٢٣٢.
أبو العتاهية: ٣٥، ١٥١.
عتيق (المغني): ٣٣٥.
عثمان (الخليفة): ٢٨٩.
العجفاء (جارية مغنية): ٤٥.
عدىّ بن زيد: ٣٥، ١٣٥.
ابن عذارى: ٢١٨، ٢١٩، ٣٤٢.
بنو عذرة: ٣٧١.
العذري: انظر: أحمد بن عمر.
العذري، أبو محمد: ٤٥.
العراق: ٤٠، ٤٥، ٤٩، ٥٢، ٥٣، ٥٤، ٥٦، ٧١، ١٣٢، ٣٢٦، ٣٣٧.

أبو علي القالي: ٣٥، ٣٦، ٣٧، ٣٨، ٤٥، ٤٦، ٤٨، ٢١٥.

علي بن مجاهد: ٢٤٨، ٢٥٥، ٢٩٠.

علي بن محمد الكاتب، أبو الحسن: ٥٥.

ابن علي التمرى، أبو الحسن: ٣٤.

عُلَيْة بنت زرياب: ٤٦.

عماد الدولة، أبو جعفر: ١٣٨.

ابن عَمَّار، أبو بكر: ٥٤، ٥٧، ٥٩، ٦٨، ٧٠، ٧٧.

٧٨، ٨٠، ٨١، ٨٣، ٨٥، ٨٩، ٩٥، ١٠١.

١٠٨، ١١٧، ١٢٥، ١٢٧، ١٣٤، ١٣٥.

١٦٩، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٧، ١٨٠، ١٨٨.

١٩٠، ٢٠٩، ٢١٤، ٢١٥، ٢٢٣، ٢٣١.

٢٤٣، ٢٥٤، ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٦٩، ٢٧٢.

٢٧٩، ٢٨١، ٢٨٣، ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٩٢.

٣٠٣، ٣٠٥، ٣٢٠، ٣٢٥، ٣٢٩، ٣٣٣.

٣٤٢، ٣٤٩، ٣٥٢، ٣٦٣، ٣٦٦، ٣٦٧.

٣٧٣، ٣٨٤، ٣٩٠، ٣٩٢، ٣٩٩، ٤٠٢.

ابن عمر: ٧٨.

عمر بن حسن الهوزني، أبو حفص: ٣٨٢.

عمر بن أبي خالد، أبو علي: ١٢٧.

عمر بن الخطاب: ٢٥٦.

عمر بن أبي ربيعة: ٣٥، ٥٧، ٣٥٣.

عمر المتوكل: انظر: المتوكل.

أبو عمرو الداني: ٥٧، ٢٥٠.

عمرو بن حفصون: ١٠١، ٢٥٠.

عمرو بن شاس: ٣٥.

أبو عمرو الطلمنكي: ٣٧.

أبو عمرو القسطلی: ١٥٤.

عمرو بن قميئة: ٣، ٣٥.

ابن عمران، أبو عيسى: ٣٨٨.

أبو عمران المارتنی: ٣٩٥.

ابن العميد: ٢٩.

أبو عنان فارس المريني: ١٠٧، ١١١.

عنزة: ٣٨.

عوانة بن الصمة: انظر: أبو الأجرب.

عون الله بن نوح: ٣٤٠.

ابن عياش، علي بن عبد الملك: ٣٩٦.

ابن عِيَّاش اليابرى، عبد الملك أبو الحسن: ١٣٩.

٣٩٦.

عياض (القاضي): ١٢٢.

ابن عيَّال، أبو الوليد: ٤٩.

عيساو (= الروم): ٢٥٧.

عيسى (المسيح): ٧٥، ٤٠٥.

عيسى بن سعيد، أبو الأصيغ: ٨١، ٨٢.

ابن عيشون، أبو عامر: ٥٤، ٢٧٩، ٢٨٥.

عين الشهد (في قرطبة): ١١٩، ١٢٠.

العين الكبيرة (في شاطبة): ١٤٠.

(غ)

ابن غالب: ٢٤، ٢٥، ٢٠٤، ٢٣٠.

غالب بن رياح: انظر: أبو تمام الحجام.

غاليسية: انظر: جليقية.

ابن أخت غانم: ٤٠، ١٧٨.

غانم اخرناطي: ٤٠١.

غانم السُخْرومي: ٦١.

غانم بن الوليد: ٩١.

ابن غرسية، أبو عامر: ٢١٩، ٢٥٧.

غرسية غوث، إميليو: ٩، ٢١، ٦٠، ٦٩، ٢٢٣.

غرندطة: ٦، ١١، ١٧، ١٨، ٢٠، ٢١، ٣٤، ٤٦، ٤٧.

٥٢، ٦١، ٦٢، ٨٠، ٨٦، ٩٢، ٩٦، ١٠٠.

١١٦، ١٣٢، ١٣٣، ١٤٣، ١٧٤، ١٧٨.

١٧٩، ١٨١، ٢١١، ٢٣٠، ٢٢٤.

٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٤٠.

٢٤٤، ٢٤٧، ٢٦٩، ٢٨٩، ٢٤٨، ٣١١.

٣٢٦، ٣٨٤، ٣٩٢، ٤٠٢، ٤٠٤.

الفريض: ٣٣٥.

الغزال، يحيى: ٤٩، ٥٤، ٥٧، ٣٤٧، ٣٨٩.

ابن الغَسَّال (أو ابن العَسَّال): ٩٢، ٩٣، ٣٩٦.

ابن غصن، أبو مروان عبد الملك: ٣٨٧.

غفار (لقبيلة): ٨٦.

ابن غُليون، أبو المطرف: ٣٨، ٢٣٨.

ابن غُنْد شلب، أبو عامر: ٨٣.

الغنوى: ٥١.
ابن غوث: ١٦.
غوث عبد الله: ٢٣٢.

(ف)

فارس (وانظر الفرس أيضا): ٢٢، ٢٩٤، ٣٣٥
فاس: ١٨٥، ٣٧٣.
ابن فاضل الأندلسي: ١٧٩.
الفاطميون: ١٩٤.
الفتح ابن خاقان، أبو نصر: انظر: ابن خاقان.
أبو الفتح الجرجاني: ٤٦، ٢٧٥.
أبو الفتح الغرناطي: ٣٤.
فتحونة بنت جعفر: ٣٦.
فحص بدر: ٢١٩.
فحص البلوط: ٢٣٦.
فحص السراق (في قرطبة): ١٢١.
فحص غرناطة: ١٣٣.
فخر الدولة ابن المعتمد: ٢٥٩.
ابن الفراء، الملقب بالأخفش بن ميمون: انظر:
الأخفش.

(ق)

القائم بأمر الله: ٤٧.
قابس: ٨٩.
قادس: ٦، ٢٩٤.
أبو القاسم البلعي: ١٦١.
أبو القاسم البلوي: ٣٩٢.
القاسم بن حمود: ١٥، ١٦، ٨٩، ٢٣٥.
أبو القاسم بن شبراق: انظر: ابن شبراق.
قاسم بن عبيد الرياحي: ١٨٥.
أبو القاسم العطار: ٢٥١.
قاسم اعقباني، أبو الفضل: ٣٦٩.
أبو القاسم محمد: انظر: ابن عبد الغفور.
القاسم بن محمد الغساني، أبو محمد: ١٥٧.
القاسم بن مسعدة الأوسي، أبو محمد: ٧٤.
أبو القاسم المصري: ٣٤٢.
القاطول (قصر في العراق): ١١٦.
القالى: انظر: أبو علي.
القاهرة: ٥.
القبذاق: ٥٩، ١٨١، ١٨٢، ٢١٩.
القبطل (جزيرة في إشبيلية): ١٢٨.
بنو القبطونية: ١٣٥.
ابن القبطونية، أبو بكر: ١١٨، ١٢٢، ٢٦٧، ٣٠٨، ٣٢٥.
ابن القبطونية، أبو محمد: ٣٥٣، ٣٥٤.
ابن قتيبة: ٣٥، ٣٧، ٢٦٦، ٢٥٧، ٢٥٨.

الفرات: ١١٣، ١٨٠، ١٨٩.
فرانيسكو دي مندوثا (الكاردينال): ٢٥٥.
أبو الفرج الإصفهاني: ٣٦، ٣٣٣.
ابن فرج الجبائي: انظر: أحمد وعبد الله وسعيد
ابن فرج الجبائي، أبو عمرو أحمد: ٥٥، ٥٦، ٣٧٠.
ابن الفرج، أبو عامر: ٣٢٢.
فرحون بن وبلة: انظر: ابن وبلة.
الفرزدق: ٣٤، ٣٧، ٧٥، ٢٥٢.
الفرس (وانظر فارس أيضا): ٤٣، ١٧٨.
فرنان جوثالث: ٢٥٠.
فرناندو الأول: ٢٤٧، ٢٤٨.
فرنسا: ١٩٥، ٢٣٣، ٣٦٩.
فضل: ٤٥، ٣٣٦.
فضل بن الأعلم: ١٤٥.
أبو الفضل التميمي الدارمي: ٤٧، ٤٨، ٢٠٤،
٢٩٣، ٣٦٢، ٣٦٨.

قحطان: ٨٦.

القدير: (متنزه في شاطئية): ١٤٠.

قرطاجة: ٣١.

قرطبة: ٦، ١٣، ١٤، ١٥، ١٦، ١٧، ١٨، ٣١، ٣٢، ٣٦، ٤٢، ٤٥، ٥٠، ٥٢، ٥٣، ٥٤، ٥٥، ٨٣، ٨٥، ٨٦، ٩١، ٩٩، ١٠٩، ١١٠، ١١١، ١١٢، ١١٤، ١١٦، ١١٧، ١١٨، ١١٩، ١٢٠، ١٢١، ١٢٢، ١٢٥، ١٢٧، ١٢٩، ١٣٠، ١٣٣، ١٣٥، ١٣٦، ١٤١، ١٥١، ١٦٢، ١٧٣، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٥، ١٨٧، ١٨٨، ١٩٠، ١٩٤، ٢١٩، ٢٣٤، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٤، ٢٣٦، ٢٣٩، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥٤، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٦، ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٨٤، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٩٣، ٢٩٤، ٢٩٧، ٢٩٨، ٣٠٠، ٣٠٥، ٣١٨، ٣٢٠، ٣٢٣، ٣٢٤، ٣٣٥، ٣٣٦، ٣٣٨، ٣٣٩، ٣٤٠، ٣٤١، ٣٤٢، ٣٤٨، ٣٤٩، ٣٧٣، ٣٨١.

قرونة: ١٧، ١٨، ٨٩، ٢٣٥، ٢٦٩، ٣٨٤.

ابن القروى الإسلامى: ٢٤٥، ٤٠٤.

قريش: ٧٥.

القزاز: انظر: ابن عبادة أبو بكر.

ابن قزمان (الزجال): ١١، ٥١، ٢٦٥، ٢٧٢، ٢٨١، ٢٨٥، ٣٠٣، ٣٣٤، ٣٤٣، ٣٤٧، ٣٥٤، ٣٦٧، ٣٧١، ٣٨٨، ٣٩٤.

ابن قزمان، أبو بكر (كاتب المتوكل بن الأتطس): ٣٠٣، ٣١٢.

قس بن ساعدة: ٢٩٥.

قسطنطين الثامن (إمبراطور بيزنطة): ٢٤١.

ينو قيسى: ٣٨.

قشتالة: ١٨، ٢١٩، ٣٨٥.

القشتاليون: ١٨، ٢٤٨.

قصر أبي دانس (وانظر قصر الملح أيضا): ١٩٣.

قصر الزاهر: انظر: الزاهر.

قصر سرقسطة: ١٣٨.

قصر السرور (في سرقسطة): ١٣٧، ١٣٨.

قصر الشراحيب (في شلب): ١٣٤.

قصر الصمادحية: ١٢٩، ١٣٠، ١٨٦.

قصر غمدان: ١٢٤.

قصر الفارسي (في قرطبة): ١١٩، ١٢٠.

قصر المسح (وانظر قصر أبي دانس أيضا): ١٩٣.

قصر ناصح (في قرطبة): ١١٩.

قصر الناعورة (في قرطبة): ١٢٠، ٢١، ١٨٥، ٢٩٧.

قصر النواخير: انظر: قصر الناعورة.

قصور غلبانة (في طليطلة): ١٣٦.

قصير عمرة: ٣٠٢.

ابن القصيرة، أبو بكر: ١٢٥.

القضاعي، أبو ربيع أحمد: ٢٠٤.

القطامي: ٣٥.

القطان: ١٦، ١٨، ٢٣٣، ٢٤٨.

قطرنية: ١٩٥.

ابن القلاس، أبو عمر: ٨١، ١٣٥، ٢٦٨.

قلعة حب: ١٢٤.

قلعة رياح: ٥٩، ١٧٠، ٢٨٩.

قلعة بني سعيد: ٦٨.

قلعة قلورية: ٢٤٧.

القلقيشدي: ٣٨٦.

قلم: ٤٤.

قلمرية: ٢٤٨.

القلندر: انظر: عبد العزيز البطلوسى.

قمر: ٤٦، ٤٧، ٤٨، ٣٣٦.

ابن قمر (شاعر): ٣٧١.

قنبوط (الملهى): ٣٣٦.

القنيطور: انظر: السيد.

قنتيش (أو قنطيش): ١٨، ٢٣، ٢٣٥، ٢٤٨، ٢٦٢، ٣٣٥.

القنطرة (في طليطلة): ١٣٦، ١٣٧.

القنطرة (في قرطبة): ١١١، ١١٢، ١١٠، ٢٩٤.

قنطرة مالك (في قرطبة): انظر: مسلة.

قنطرة ناصح: انظر: مجلس.

ابن القنطرة، أبو بكر: ٣٨، ١٤٩، ١٥٢، ١٥٥.

٢٢٥، ٢٦٣، ٣٢١، ٣٢٨، ٣٩٢، ٣٩٨.

٤٠٣.

لحم: ٩٤.

لذريق: انظر: السيد القنبيطور.

لسان الدين بن الخطيب: انظر: ابن الخطيب.

لشبونة: ١٧٢، ٢٣٩، ٢٨٧، ٣٠٧، ٣٨٩، ٣٩٥.

لقمان: ٤٠٣.

لماية: ٢٩٥.

لمتونة: ٢٣، ٣١٦.

لورقة: ٨٣، ٢٦٨، ٢٨٤، ٢٨٧، ٢٨٨، ٣٧٩.

لوسيان: ٤٢، ٢١٧.

ليال (مستشرق إنجليزى): ٣.

لييزج: ٣.

ليفى بروفنسال: ٩، ١٢.

ليون (فى إسبانيا): ٢٤١، ٢٨٤، ٣٢٦، ٣٥٨.

(م)

ابن ماء النساء. عبادة: ٥٥، ٩٠، ٩١، ١٥٦، ٢١١.

٣٨٨، ٢٩٢.

ابن ماء السماء، المنذر: ٨٥، ٨٦، ٩٠.

ماسينيون لويس (المستشرق الفرنسى): ١٢.

٣٠٢، ٣٧١.

ابن ماض: ٧٨.

مالقة: ٦، ١٧، ١٨، ١٩، ٦١، ٦٣، ٩١، ٩٢، ١٠٨.

١٧٥، ٢٣٠، ٢٣٤، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٨٧.

٢٩٨، ٣١٨، ٣٢٢، ٣٣٤، ٣٣٥، ٤٠٥.

مالك بن أنس: ٤٣، ٢٣٨، ٣٦٩.

مالك بن الربب المازنى: ٣٥.

ابن مالك الطغترى: ٣٥٥.

ابن مالك، أبو محمد: ٣٣٢.

ابن مامة النصراني: ٤٨.

المؤمن (أمير سرقسطة): ٦٢، ٢٤٠، ٢٤٢، ٢٦٤.

٣٠٣.

مؤمل (مولى باديس بن حبوس): ١٣٢، ١٧١.

المأمون (الخليفة العباسى): ٢٦٤.

١٥٦، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٥، ٢٧١.

قونقة: انظر: كونكة.

القيروان: ٤٧.

قيس بن الخطيم: ٣٥.

قيس عيلان: ٨٦.

قيس بن الملوح: ٣٦٣.

(ك)

كامل كيلانى: ٦٠.

الكامل (قصر فى قرطبة): ١١٣.

كتامة: ٢٣٥.

الكتندى: ١٧٤.

كثير عزة: ٣٥، ٥١، ٥٦، ٣٥٦.

كراتشكوفسكى، إجناس: ٩.

كسرى: ٢٥.

كليب: ٩٨.

الكميت البطلوسى: ٥١.

كميردج: ٣.

ابن الكتانى: ٢٢٩، ٣٣٦، ٣٣٨، ٣٣٩، ٣٤٠.

٣٤١.

الكوفة: ٢٧٣.

كولين، ح. س.: ١٢.

كونت برشلونة: ٢٣٣.

كونت طركونة: ٢٣٣.

كونكة: ٢٩٨.

(ل)

لاردة: ١٥، ١٧، ٢٨٨.

ابن لبال: ٥٨.

ابن اللبابة الداني، أبو بكر: ٥٩، ٨٥، ٩٥، ٩٧.

١٠٨، ١٣٥، ١٤٠، ١٦٩، ١٨٨، ١٩٤.

١٩٥، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢١٥، ٢٢٠، ٢٥٩.

٢٦٩، ٢٧٨، ٢٩٣، ٣٠٣، ٣٠٦، ٣١١.

٣٢٤، ٣٥٦، ٣٥٩، ٣٦٥.

لبلة: ٢٩٥.

ابن ليون، أبو عيسى: ٦٤، ١٨٠، ٢٠٤، ٢١٦.

محمد بن أحمد بن جعفر المصطفى: انظر: لمصطفى.

محمد بن إدريس: ٢٣٥، ٣٢٦.

محمد بن الحسن الكتاني: ٣٣٠.

محمد بن الحسن الجبلي: ٣٨٩.

محمد بن الحامى (موسيقى): ٣٣٥.

محمد بن سعيد الزجالي: انظر: الأصمعي.

محمد بن شرف القيرواني: ١٧٦، ٢٠٨.

محمد بن شنب: ٧.

محمد بن صمد الملقب المعتصم: انظر: المعتصم.

محمد بن طاهر الداني، أبو عبد الله: ٢٢٥.

محمد بن عبد الرحمن: ٣٨، ٢٦٠.

أبو محمد عبد الله بن إبراهيم: ٧٦، ٣٢١.

بن عبد الله البرزالي: ٨٩.

د بن عبد الملك: انظر: ابن سعيد.

محمد بن عطية المحاربي: ١١٢.

محمد بن أبي علاقة البواب: ٣٨.

محمد بن عياض القرطبي، أبو بكر: ٢٧٧.

محمد بن عيسى (أبو عبد الله): ٦٣.

محمد بن مرتين: ٢٤٨، ٣١٩، ٣٢٠.

أبو محمد المصري: ٢١٣.

محمد بن معمر، أبو عبد الله: انظر: ابن أخت

غانم.

محمد بن نصر الإشبيلي، أبو بكر: ٣٣٨.

محمد بن نصير، أبو القاسم: ٣٨٩.

محمد بن هشام بن عبد الجبار (المهدي): ١٣، ١٤.

١٥، ٢٣، ٥١، ١٨٢، ٢٣٣، ٢٣٥، ٢٤٩.

٢٦٢، ٣٣٤، ٣٤٢، ٣٨٣، ٤٠٦.

محمد بن يحيى الشلطي، أبو بكر: ٣٩٦.

محمد بن يعلى: ٢٣٥.

مختار الرعيني، أبو الحسن: ٣٠٢.

المختار بن أبي عبيد: ٧٨.

المخزومي، أبو بكر: ٥٢، ١٢١.

المدرسة النظامية: ٣١.

مدغليس: ٥١.

المدور: ٢٣٥.

المأمون بن ذى النون (أمير طليطلة): ٢١، ٤٧، ١١٤، ٢٩٨.

المأمون بن المعتمد: ٢٢٣، ٢٦٦.

المبارك (قصر في إشبيلية): ١٢٣، ١٢٥، ١٢٦، ١٤١.

المبارك (قصر في قرطبة): ١١٣.

مبارك الصقلي: ١٠٠، ٢٣٤.

ابن مامة: ١٨.

المبرد: ٣٨.

مبشر، ناصر الدولة (حاكم ميورقة): ٩٦، ١٠٠.

١٤٠، ١٦٩، ١٩٥، ٢٠٨، ٢٧٢.

متحف اللوفر: ٣٠٨.

متعة (تلميذة زرياب): ٤٦.

المتلمس: ٣.

المتنبى: ٣٥، ٣٨، ٤٠، ٤١، ٤٢، ٤٣، ٤٩، ٥٠.

٥١، ٥٢، ٥٤، ٥٧، ٦١، ١٨٤، ٣٠٦، ٣٦٠.

المتوكل (الخليفة العباسي): ١١٦، ١٢٠، ١٨٩.

المتوكل بن الأفطس: انظر: ابن الأفطس.

أبو المتوكل الهيثم: ٣٤، ٧١.

المتقب العبدى: ٣٥.

مجاهد العامري، أبو الجيش: ١٧، ٤٦، ٧٧، ١٩٥.

٢٠٨، ٢٤٨، ٢٥٥، ٢٥٧، ٢٦٤، ٢٩٧.

٣٧٥، ٣٩٧.

مجلس الذهب (في سرقسطة): ١٢٨.

مجلس ناصح (في قرطبة): ١١٩، ١٢٠.

مجلس الناعورة (في طليطلة): ١٣٧، ١٨٦.

مجنون ليلى: ٣٥٦.

محبس ناصح: انظر: مجلس.

محبوب النحوى: ١٨٥.

أبو محجن الثقفي: ٢٦٦.

ابن محرز: ٣٣٥.

محمد (الخليفة الأموي الأندلسي): ٢٩٥.

محمد بن أحمد الأنصاري، أبو بكر: انظر:

الأبيض.

محمد بن أحمد بن أبي بكر الرقوتي: ٣٢.

- المدينة: ٤٥، ٤٦، ٢٧٣، ٣٣٥، ٣٣٦، ٣٤٣.
مدينة الزهراء: ١٢٠، ٣٥٩.
مدينة الزهراء: ١١٠، ١١٢، ١١٤، ١١٥، ١١٦، ١١٩، ١٢٠، ١٣٦، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٦٧، ٢٩٨، ٢٩٣.
مدينة سالم: ٢١١، ٢٥٥، ٣٨٣.
ابن المرباط، أبو عامر: ١٨٠، ٣٠٣.
المرباطون: ١١، ١٨، ١٩، ٢١، ٢٣، ٣٣، ٣٨، ٥٤، ٦٥، ٧١، ٨٦، ٩٢، ٩٤، ٩٥، ٩٦، ٩٧، ٩٨، ٩٩، ١١٦، ١٢١، ١٢٤، ١٣٢، ١٣٨، ١٧١، ١٧٤، ١٧٩، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٥، ٢١٩، ٢٢٣، ٢٢٣، ٢٣٤، ٢٤١، ٢٦٦، ٢٧٥، ٢٨٤، ٢٨٥، ٢٨٩، ٣١٤، ٣١٦، ٣١٧، ٣١٩، ٣٢٠، ٣٢٢، ٣٧٥، ٣٨٠، ٣٩٤، ٣٩٥، ٤٠٦، ٤١٤.
المراكشي: انظر: عيد الواحد.
المربي: ٥١.
مربيطر: ١٨٠، ٢٠٤، ٢٩٤.
المرتضى الروافى: (الخليفة): ١٥، ٨٨، ٩٠، ١٨٠.
ابن مرتين: ٨٣، ٣٠٥.
مرج الخز (في قرطبة): انظر: المرج النضير.
المرج الخصب (في قرطبة): ١٢١.
مرج الفضة (في إشبيلية): ١٢٧، ١٢٨، ١٤٢، ٣٤٩.
المرج النضير (في قرطبة): ١٢١، ٢٢٤.
مرجانة السيدة الكبرى: ٢٢٢.
ابن مرديش: ١٧٤.
المردى 'احسن في مربيطر): انظر: مربيطر.
مرسى ست بول: ٢٦٣.
مرسية: ١٨، ٣٢، ٣٦، ٣٧، ٦٨، ٧٩، ١٠٨، ١٦٦، ١٩١، ٢٣١، ٢٧٥، ٢٨٥، ٢٨٨، ٣٠٨، ٣٤٩.
مرسيه، جورج: ٩، ١٢.
مرسيه، ف: ١٢.
ابن المرغرى: ٣٠٦.
- المرقش الأصغر: ٣٥.
المرقش الأكبر: ٣٥.
مروان بن عبد العزيز: ٣٩٣.
مروان الطليق: ٥٠، ٥٩.
أبو مروان المرادى: انظر: عيد الملك بن سعيد.
المرية: ٦، ١٥، ١٧، ١٨، ٢٠، ٢٩، ٤٠، ٤٥، ٥٢، ٦١، ٦٢، ٦٨، ٦٩، ٧٤، ٧٨، ٨٠، ٨١، ٨٣، ٨٦، ٨٩، ٩٠، ١٠٨، ١١٠، ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ١٣٥، ١٤٩، ١٧٨، ١٨٠، ١٨٦، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٥، ٢٠٦، ٢٠٨، ٢٢٣، ٢٣٤، ٢٤٤، ٢٥٢، ٢٥٤، ٢٦٨، ٢٧٦، ٢٧٩، ٢٨٠، ٢٨٢، ٢٨٧، ٢٨٨، ٣٠٢، ٣١٠، ٣٢٠، ٣٣٢، ٣٣٧، ٣٤٢، ٣٤٨، ٣٤٩، ٣٧٤، ٣٨١، ٣٩٢.
مريم: (أم المسيح): ٤٠٥.
مريم بنت يعقوب الأنصارى: ٥١، ٤٠٥.
بنو مزين: ١٨٠.
المستظهر: انظر: عيد الرحمن.
المستعين (أمير سرقسطة): ١٨٠، ١٨٩، ٢٤٠، ٢٤٢، ٢٦٤، ٢٩٠.
المستعين (الخليفة الأموى): انظر: سليمان.
المستكفى (الخليفة): ١٥، ٢٧٤.
مسجد عمرو بن العاص: ٤٩.
مسجد قرطبة الجامع: ١١٠، ١١١، ١١٢، ١٢٩، ١٨٥، ٢٤٩، ٢٨٩.
مسجد القلايين: ٢٦٠.
مسجد مالقة الجامع: ٢٨٩.
ابن مسرة: ٣٠.
ابن مسعدة الغرناطى، أبو جعفر: ١٠٨، ١٣٩.
ابن مسعدة، أبو يحيى: ٢٥٧.
ابن مسعود: ٢٧٣.
ابن مسلم، أبو عبد الله: ٨١.
مسلم بن لوليد: ٣٢٦.
مسلمة: ٩٧.
ابن مسلمة، أبو عامر: ١٤٦، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٨، ١٦٠، ١٦١، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٥، ٢٧١.

المعتضد: ١٩، ٢٣، ٣٤، ٥٠، ٥٧، ٦٠، ٦١، ٦٣.

٧٣، ٧٨، ٧٩، ٨٥، ٨٩، ١٠٠، ١٠١، ١١٠.

١١٤، ١٢٣، ١٢٥، ١٣٤، ١٦٩، ١٧٢.

١٨٠، ٢٠٨، ٢٢١، ٢٣٥، ٢٣٣، ٢٤٨.

٢٤٩، ٢٦٤، ٢٦٥، ٢٧٦، ٢٩٦، ٢٩٢.

٢٩٦، ٢٩٨، ٣٠٠، ٣١١، ٣١٨، ٣٢٩.

٣٣٧، ٣٣٩، ٣٤٠، ٣٥٣، ٣٦٧، ٣٧٥.

٣٧٨، ٣٨١، ٣٨٢، ٣٨٣، ٣٩٥، ٣٩٠.

٣٩٣، ٣٩٧.

المعتمد بن عباد: ١٨، ١٩، ٢٠، ٢٩، ٤٠، ٤٣، ٤٦.

٥٠، ٥٧، ٥٩، ٦٠، ٦٣، ٦٦، ٦٧، ٦٨، ٧٣.

٧٤، ٧٦، ٧٧، ٧٨، ٨٠، ٨١، ٨٣، ٩٤، ٩٥.

٩٦، ٩٧، ١١٥، ١١٧، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥.

١٢٦، ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٣، ١٣٤.

١٣٥، ١٣٦، ١٦٤، ١٧١، ١٧٢، ١٧٤.

١٧٥، ١٨٠، ١٨٣، ١٨٤، ١٩٦، ١٨٨.

١٩٢، ١٩٤، ١٩٥، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٥.

٢٠٨، ٢١٣، ٢١٥، ٢١٦، ٢١٩، ٢٢٢.

٢٢٣، ٢٣١، ٢٣٧، ٢٤١، ٢٤٣، ٢٤٨.

٢٥٠، ٢٦٠، ٢٦٦، ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧٣.

٢٧٥، ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٨٥.

٢٩٠، ٢٩٧، ٢٩٨، ٣٠٣، ٣٠٥، ٣٠٦.

٣٠٧، ٣٠٨، ٣١٠، ٣١١، ٣١٢، ٣١٣.

٣١٨، ٣١٩، ٣٢٠، ٣٢٥، ٣٢٧، ٣٣٣.

٣٣٥، ٣٣٦، ٣٤١، ٣٤٢، ٣٤٩، ٣٥١.

٣٥٢، ٣٥٤، ٣٥٥، ٣٦١، ٣٦٢، ٣٦٥.

٣٦٦، ٣٦٧، ٣٧٥، ٣٧٧، ٣٧٨، ٣٧٩.

٣٨٤، ٣٨٧، ٣٩٤، ٣٩٩، ٤٠١، ٤٠٢.

٤٠٣، ٤٠٥، ٤٠٦، ٤١٠.

معد: ٨٦.

معرة النعمان: ٤٧.

المعري: انظر: أبو العلاء.

معز بن أوس المزني: ٢٥٧.

المعز بن باديس: ٤٧.

المعشوق (قصر في قرطبة): ١١٣.

ابن العلم، أبو الوليد: ٢٢٣.

٣٢١، ٣٢٢، ٣٦٨.

مسلمة بن عبد الملك: ٢٥٦.

مسناء مالك (في قرطبة): ١١٩، ١٢٠، ١٢١، ١٨٣.

المسيح: انظر: عيسى.

المسيلة: ٢٠٤.

مسيه، هـ: ١٢.

المشرف: انظر: السطح.

ابن المصادف الرندي، أبو عبد الله: ٣١٨.

المصحفي، أبو بكر محمد بن أحمد: ١٢١، ٣٩١.

المصحفي، أبو عثمان جعفر بن عثمان: ١١٧.

١٢١، ١٥٧، ١٥٩، ٢٩٠، ٣١٣.

المصحفي الحاجب: ١٧٤، ١٩٤.

المصحفية (في قرطبة): انظر: منية.

مصر: ٣، ٣٩، ٤٩، ٥٢، ٩١، ٩٨، ١٠٩، ١١٢.

١٣٢، ٢٩٠، ٣٣٥، ٣٤٢، ٣٤٣.

مصعب الصقلي، أبو العرب: ١٩٥.

مضيعة الدولاب (في قرطبة): ١١٩، ١٣٠.

المطبق الصقلي: ٣٢٢.

المطرف بن عبد الرحمن الثاني: ٣١٨.

المظفر بن الأفتس: انظر: ابن لأفتس.

المظفر بن جهور: انظر: ابن جهور.

مظفر الصقلي: ٢٣٤.

المظفر عبد الملك بن المنصور: انظر: عبد الملك.

معاوية: ٧٨، ٩٨.

معبّد: ٣٣٥.

المعتد (آخر خليفة أموي أندلسي): ١٥، ١٧.

المعتد بن المعتمد: ٣٧٩.

ابن المعتز: ٣٥، ٣٨، ٤٠، ٥٢، ٥٩، ١٤٥، ١٥١.

٣٠٦، ٣٢٤.

المعتصم (الخليفة العباسي): ١٨٩.

المعتصم بن صمادح: ٢٠، ٢٩، ٤٢، ٦١، ٦٨، ٧٤.

٧٨، ٨٠، ٨١، ٨٣، ٨٩، ٩٠، ١٠١، ١٠٨.

١٠٩، ١٢٩، ١٣٠، ١٨٠، ١٨٦، ١٩٥.

٢٠٦، ٢٠٨، ٢٢٣، ٢٤٤، ٢٥٠، ٢٦٣.

٢٧٩، ٢٨٤، ٣١٠، ٣١١، ٣٤٢، ٣٩٠.

٤٠٤، ٤٠٦.

- ابن معلى الطرسونى، أبو إسحاق: ٩٢
معن: ٩٧.
معن بن أوس المازنى: ٣٥.
معن بن صمادح: ١٧، ٨١.
المعيطى: ٨٩.
ابن مُعِين: ٣٩٨.
المغرب: ٣، ١٩، ٢٠، ٣٠، ٤٧، ٤٨، ٥٠، ٥٢، ٥٤، ٧١، ١٢٢، ١٧٩، ١٨٥، ٢٤٠، ٢٧٣، ٢٩٤، ٣١٧، ٣٣٥، ٣٤٣، ٣٨١، ٣٨٣، ٣٨٦.
ابن المُغَلِّس: ٣٠٢.
ابن مغيث، أحمد: انظر: أحمد.
المغيرة (الأمير): ٣٠٨.
ابن مُفَرِّج، أبو بكر: ٢٢١.
المفضل الضبي: ٣٤.
ابن مُفْلِح: ١١٠.
مقاتل الصقلبي: ١٧.
ابن مُقَانَا الإشبونى: ٥٩، ٩١، ١٨١، ١٨٢، ٢١٩، ٣٠٥، ٣٢٧، ٣٣٠، ٣٥٩، ٣٦٧.
مقبرة قريش: ٦٣.
المقتدر بن هود: ٤٦، ١٣٧، ١٣٨، ١٧٤، ٢٤٠.
٢٤٢، ٢٦٨، ٢٩٠.
المقرئ التلمسانى: ٢٥، ٢٩، ٣٦، ٤٠، ٤١، ٤٥، ٧١، ٧٣، ٧٧، ٩٢، ١٢١، ١٣١، ١٧٣، ١٩٢، ١٩٥، ٢٣٠، ٢٤١، ٢٦٠، ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٨٠، ٢٨٧، ٢٩٤، ٣٢٧.
المقرئ أبو عبد الله: ٢٧٣، ٢٧٤.
ابن مُقْسِم: ٣٥.
مكة: ١٩٤، ٣٨٣.
المكرم (قصر فى إشبيلية): ١٢٥.
المكرم (قصر فى طليطلة): ١٣٦.
المكرم (قصر فى قرطبة): ١١٤.
مكتاسة (قبيلة بربرية): ٢٣٦.
ابن الملح، أبو بكر: ٢٦٠، ٢٩٧، ٣٦١.
ملكة سبأ: انظر: سبأ.
محقر (حصن فى برشلونة): ١٨٢.
ابن من الله القروى، أبو الطيب: ٢٥٧.
- المنارة: ٢٧.
المنازى: ٤٧.
ابن المناصف: ٣٧.
منت ليون (جيل): ٢٨٠.
منت مايور: ٢٨٧.
منذر بن سعيد البلوطى: ٣٧، ١١٠، ١١١، ١٣٦، ٢٧٣، ٣٦٨.
المنذر بن ماء السماء: انظر: ابن ماء السماء.
منذر بن يحيى، معز الدولة (أمير سرقسطة): ٢١، ٤٦، ١٠٩، ١٣٨، ٢٣٥، ٢٩٢، ٣١١.
المنصور (الخليفة العباسى): انظر: أبو جعفر.
المنصور (خلال المعتصم): ٨١.
المنصور، أمير بلنسية (حفيد المنصور بن أبى عامر): ١٣٨، ٣٠٨.
المنصور بن أبى عامر: ١١، ١٣، ١٤، ٢٢، ٢٣، ٧٥، ٧٧، ٨٢، ٨٣، ٨٤، ١١٢، ١٢١، ١٢٣، ١٥١، ١٧٤، ١٨٢، ١٨٤، ١٨٩، ١٩٤، ٢٠٢، ٢١٥، ٢١٧، ٢١٨، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٣٠، ٢٣٧، ٢٤٩، ٢٧٤، ٢٨٥، ٢٩٠، ٢٩٧، ٣٠٠، ٣٠١، ٣١٨، ٣٥٩، ٣٧٣، ٣٨١، ٣٩١، ٣٩٢، ٤٠٨.
منصور اليهودى: ٣٣٥.
المنصور بالله، عبد الملك بن جهور: انظر: عبد الملك.
منظرة الفنت (فى إشبيلية): ١٢٨.
المنعت السعدى: انظر: الثغب الشرقى.
المنقتل، أبو أحمد عبد العزيز بن خيرة القرطبى: ٢٤٣، ٢٦٩، ٢٨١، ٣٠١.
منورقة: ٣٤٨.
منية البديع: ١٣٥.
منية الزبير (فى قرطبة): ١٢١، ١٧١.
منية الزيتون (فى غرناطة): ١٧١.
منية السرور (فى قرطبة): ١٢٠، ٣٥٩.
منية بن عبد العزيز (فى بلنسية): ١٣٨.
منية العيون (فى سهلة بنى رزين): ٣٢٥.
منية المأمون (فى طليطلة): ١٣٧، ١٣٨، ١٨٥.

- محمد ٢٩٧.
ملخصية المصحفية (في قرطبة): ١٢١.
منية الناعورة (في قرطبة): ١٢٠.
منية نصر (في قرطبة): ١٢٠.
منية الوزير ابن الدب، أبو مروان: ١٢٦.
المنيف (قصر في قرطبة): ١١٣.
مهجة بنت التياي: ١٧٦، ٣٧٤.
مهجة بنت عبد الرازق: ١٤٢.
المهدي (الخليفة): انظر: محمد بن هشام بن عبد الجبار.
المهدية: ٣٣٥.
مهلهل: ٩٨.
مهيّار الديلمي: ٤١، ٥٢، ١٤٥، ١٦٩.
الموحدون: ٨٦، ٣١٩.
مورور: ١٧، ٨٩، ٢٣٥.
مورون: ١٧، ١٨.
موسى: ١٢٦.
موسى بن سعادة، أبو عمران: ٣٧.
موسى الطرياني، أبو عمران: ٢٧١.
موسى بن نصير: ٢٣٧.
موسى (النبي): ٢٤٤.
مونتسكيو: ٧٦.
ابن ميمون الأخفش: انظر: ابن اغراء.
ابن ميمون، علي بن عيسى (أمير البحر): ٢٩٤.
ميورقة: ٩٦، ١٤٠، ١٨٥، ٢٤٨، ٣٦٥.
مَيّ (حبيبة ذي الرمة): ٣٤.
(ن)
النايفة الجعدى: ٣٥، ٣٦٤.
النايفة الذبياني: ٣٥.
نارجة: ١٠٨.
ناشرة: ٢٨٧.
الناصر: انظر: عبد الرحمن.
الناصر: انظر: علي بن حمود.
ناصر الدولة: انظر: مبشر.
الناعورة (في طليطلة): ١٣٧.
ابن ناقة: ٣٦٩.
نبرة: ٤٤، ٨٣، ٢٤١، ٢٩٩، ٣٣١، ٣٨٥.
نبيلة: ١٨.
نجد (مستزه في غرناطة): ١٣٣.
أبو النجم: ٣٥.
ابن الحاس النحوى: ٣٤، ٣٥.
النحلي، أبو الوليد: ٦٩، ٧٤، ١٠٨، ١٣١، ١٣٥.
٢١٥، ٢٦٨، ٣٣٨، ٣٥٥.
نزار: ٨٦.
ابن زار: ٣٤١.
نزّهون بنت القلاعى: ٤٠٤.
نسيم لإسرائيلي: ٣٦٢.
النظامية: انظر: المدرسة.
النعمان: ٩٨.
ابن تغرلة: انظر: يوسف. وانظر: إسماعيل.
نغوذ: ٢٢٥.
نهر تنقر: ١٩٠، ١٩١.
نهر تلب: ١٩٠.
أبو نرس، الحسن بن هانيء: ٣٥، ٣٨، ٣٩، ٤٨.
٤٩، ٥٢، ٣٠٤، ٣٠٦، ٣٢٢، ٣٣١.
نوح: ٦٢.
ابن نوح: ١٧.
أبو نور بن أبي قرّة: ١٧.
نور الدين بن سعيد: ١٢٨.
النورمن: ٣٩١.
نويرة (صاحبة ابن الحداد): انظر: جميلة.
نيسايوز: ٢٨٢.
نيقولا (الراهب): ٤٢.
نيكل، إ.ر.: ٩.
النيل: ١١٣.
(هـ)
هاجر: ٢٥٧.
هارون (وزير السلطان المربني عبد احت): ٢٤٠.
بنو هارون: ١٨.
ابن هارون، أبو الحسن: ١٨٦، ٣٠٢.

وادى الزيتون (في سرقسطة): ١٤٢.
 وادى الطلح (في إشبيلية): انظر: مرج الفضة.
 وادى عذراء (في المرية): ١٣١.
 وادى العروس (في إشبيلية): ١٢٨.
 وادى العقيق (في قرطبة): ١٤٢.
 الوادى الكبير: ٩٤، ١٠٩، ١١٩، ١٢٠، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٦، ١٢٧، ١٣٤، ١٧٠، ١٨٥، ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠، ١٩٤، ٢٢٤، ٢٩٣، ٣٠٧، ٣٢٨.
 وادى نيطة: ١١٩، ١٢٠.
 واضح الصقلي: ١٢٠، ٢٤٩، ٣٨٣.
 ابن واقد اللخمي: ١٧٩.
 ابن ويلة، فرحون: ٧٢.
 الوحيد (قصر في إشبيلية): ١٢٣.
 وداد (محظية المعتمد): ٣٦٥.
 ابن الوطواط (مؤلف مناهج الفكر): ٢٢.
 الوعاء (في قرطبة): ١١٩، ١٢٠.
 الوقشي: ٩٩.
 الوقشي، أبو الحسين: ٢٢٤.
 الوقشي، أبو الوليد هشام: ١٩٢، ٣٩٧.
 ولادة بنت المستكفي: ١١٤، ١٢٠، ١٢٦، ٢٣٩.
 ٢٦٦، ٢٤٩، ٣٥٠، ٣٥٧، ٣٥٨، ٣٦٩، ٣٧٣، ٣٧٤.
 ولاية: ٦.
 أبو الوليد الباجي: ٦٩، ٧٠، ٣٩٤، ٣٩٧.
 أبو الوليد الحميري: ٥٥، ٥٦، ١١٨، ١٥٠، ١٥١، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٨، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٧.
 وليد بن خيزران: ٢٣٢.
 الوليد بن عبد الملك: ٢٣٧.
 أبو الوليد بن عباد: ٤٩.
 أبو الوليد بن عتال: ٤٩.
 أبو الوليد بن عيال: انظر: ابن عيال.
 أبو الوليد القسطلي: ١٨٤.
 ابن وهب (في الشعر): ٨٣.
 ابن وهبون: انظر: عبد الجليل.

هارون لرشيد: ٣٦٠، ٣٦٨.
 ابن هاشم القرطبي، أبو أمية: ٨٣.
 أبو هاشم بن المعتمد: ٤٠١.
 ابن هانيء الأندلسي: ٤٧، ٥٠، ٥٤، ١٦٥، ١٨٤، ١٩٤، ٢٠٤، ٢٦٧.
 ابن هذيل الأندلسي: ٢١٦.
 ابن هذيل، أبو بكر يحيى: ٤١، ٥٥، ١٥٧، ٢١٠.
 هرمس: ٣٧٩.
 هذيل بن رزين: انظر: ابن رزين.
 هشام الثالث بن سليمان بن الناصر: ١٤، ١٥، ٢٧٥.
 هشام المؤيد: ١٣، ١٥، ١٦، ١٧، ١٠٠، ٢٢٢، ٢٤٦، ٢٧٤.
 ابن هلال: ٥٦.
 الهلايون: ١٧٠.
 الهند: ١٧٥، ٢٧٩، ٣١١.
 هند (جارية بن مسلمة): ٣٣٣، ٣٣٤.
 هنري بيريس: ٣، ٢٥٨.
 هوارة: ٢٣٦.
 هوتو الأول (ملك جرمانيا): ٢٤١.
 بنو هود: ٨٦، ٢٣٩، ٢٤٠.
 ابن هود الجذامي، أبو محمد: ٥٩، ٢٣٩، ٢٦١، ٣٨٨.
 هومير: ٧٧.

(و)

الواثق بالله (الخليفة العباسي): ٥٠.
 واجد (زوجة ابن الشرع): ٣٤٢.
 وادى آره: ١٦، ٢٤١، ٢٤٨.
 وادى آش: ٤٧، ٥١، ٥٨، ١٣٢، ١٤٢، ١٤٣، ٢٥٢، ٢٥٤، ٢٧٠، ٣٧٥.
 وادى إشبيلية: ١١٠.
 وادى آته: ١١٩.
 وادى آنه: ١٣٥.
 وادى اللدير (في قرطبة): ١٢١.

(ى)

يا برة: ٢٣٩، ٢٨٧.

يثر: ٢٧٤.

بنو يحيى: ١٨.

يحيى الخذّوج: ٣٦.

يحيى (الجزار): ٥٩.

يحيى السرقسطى: ٢٦١، ٣٢٤.

يحيى الغزال: انظر: الغزال.

يحيى بن المنذر: ٢١.

يحيى بن هذيل: انظر: ابن هذيل.

يحيى بن يحيى: ٦٣.

يزد جرد: ٩٨.

يزيد بن عبد الملك: ٣٣٥.

يزيد بن معاوية: ٧٨.

يسوع: انظر: المسيح.

يعقوب: ٤٠٤.

أبو يعقوب يوسف (خليفة الموحدين): ١٢٦.

اليقوبى (الجغرافى المؤرخ): ٢٣٠.

ابن يثقب، أبو عامر: ٤٣، ٢٨٣، ٣٢٣، ٣٣٤، ٣٩٦.
ينير: ٢٣٢.

يوانسر العطار: ٢٣٢.

يوحنا المعداد: ٤٠٥.

يوسف: ٤٠٤.

أبو يوسف (مطرب المتوكل): ٣٣٥.

يوسف الإسلامى: ٢٤١.

يوسف بن تاشفين: ٢٠، ٢١، ٩٤، ٩٩، ١٩٤.

٢٣١، ٢٣٦، ٢٣٨، ٢٨٤، ٢٩٠، ٣١٧.

٣٣٦.

يوسف بن الشيخ البلوى، أبو الحجاج: ١٧٥.

يوسف بن عبد الصمد، أبو بحر: ٧.

يوسف بن عبد الله بن عبد البر، أبو عمر: ٣٨٣.

يوسف بن محمد، أبو العرب: ٣٢٥.

يوسف بن النغلة: ٦١، ١٣٢، ٢٢٠، ٢٤، ٢٤٣.

٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٤٧، ٣٦٩.

يوسف بن هارون: انظر: الرمادى.

يؤمن: ٨٦، ٢١٥.

اليونان: ٢٤، ٢٥، ٤٣، ٥٩، ٦٤.

المصادر والمراجع

نشر هنرى بيريس كتابه هذا لأول مرة عام ١٩٣٧، وفى عام ١٩٥٣ ظهرت طبعته الثانية، وبين الطبعة الأولى والثانية ظهر كثير من المصادر والمراجع المتصلة بموضعه، لا فى العربية فحسب، وإنما فى اللغات الأجنبية أيضا، وطُبع بعض ما استخدمه مخطوطا، وقد أضاف بيريس، كما نفهم من مقدمته، كل ما ظهر إلى قائمة المصادر، لكنه لم يغير الإحالات التى فى الهوامش، بأسفل كل صفحة، وأبقاها إجمالا كما كانت عليه فى الطبعة الأولى.

وبعد عام ١٩٥٣ ظهرت أيضا أعمال أخرى عربية وأجنبية تتصل بالفترة التى درسها، وتستحق الإشارة إليها، على الأقل العربية منها.

وقد رأينا أن نبقى على قائمة مصادر المؤلف كما هى، وأن نتقلها فى حروفها اللاتينية، ولغاتنا الأجنبية، وأن نفيد من تقدم وسائل التصوير والطباعة، تفاديا لأخطاء محتملة فى الجمع والطبع، ولحروف ذات هيئات مختلفة لا تيسر لنا فى المطبعة العربية حتى الآن، ألا تتوفر إلا بعد جهد ومشقة بالعين، وربما كان أشدها صعوبة كتابة الأسماء العربية بالحروف اللاتينية، حين يتطلب الأمر ذلك.

وقد رأيت من المفيد أن أضيف إلى ما أتى به لمؤلف من مصادر ومراجع، الجديد الذى ظهر فى اللغة العربية، مما يتصل بالفترة التى درسها:

- ابن الأبار، الحلة السيرة، فى مجلدين، القاهرة، ١٩٦٣.
- الأعمى التظليل، ديوانه، بيروت، ١٩٦٣.
- ابن بسلام، الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة، نشرها إحسان عباس فى ٨ مجلدات، ١٩٧٩، ورغم المآخذ الكثيرة عليها، والأخطاء التى وقعت فيها فأنها سدت فراغا فى المكتبة الأندلسية، وأغنت عن العديد من مخطوطاتها المتناثرة فى مختلف مكتبات العالم، وكان اعتمادنا عليها.
- الثعالبي، يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر، والقسم الرابع منها خاص بالأندلس، وأفضل طبعاتها تلك التى نشرها محمد محبى الدين عبد الحميد، القاهرة ١٩٥٦.
- حازم القرطاجنى، المقصورة، تحقيق محمد مهدى علام، حولىة كلية الآداب، جامعة عين شمس، ١٩٥٣ - ١٩٥٤.

- الديوان، تحقيق عثمان الكعاك، بيروت، ١٩٦٤.
- منهاج البلغاء وسراج الأدياء، تقديم وتحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، تونس، ١٩٦٦.
- ابن حزم، طوق الحمامة فى الألفة والآلاف، تحقيق الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، الطبعة الرابعة، القاهرة ١٩٨٥، وكان اعتمادنا فى الإحالات عليه.
- الأخلاق والسير فى مداواة النفوس، تحقيق الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٢.

- جبهة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٢.
- ابن حمديس، الديوان، بيروت ١٩٦٠.
- ابن خاقان، مطمح الأنفس ومسرح الأنس في ملح أهل الأندلس، تحقيق محمد علي شوابكة، بيروت، ١٤٠٣ هـ = ١٩٨٣ م.
- ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، في أربعة أجزاء، القاهرة، ١٣٧٥ = ١٩٥٥ إلى ١٣٩٧ = ١٩١٧، وكان اعتمادنا عليه.
- أعمال الأعلام فيمن يبيع قبل الاحتلال من ملوك الإسلام، نشره ليفي بروفنسال بعنوان: تاريخ إسبانيا الإسلامية، بيروت ١٩٥٦. وكان اعتمادنا عليه.
- ابن خفاجة، الديوان، تحقيق سيد غازي، وهو مثال للعمل العلمي المنهجي الرفيع المستوى، فقد ضبط النص، وألحق به فهرس تحليلية شاملة، منشأة المعارف، الإسكندرية، الطبعة الثانية ١٩٧٩، وكان اعتمادنا عليه.
- ابن دحية، المطرب في أشعار أهل المغرب، تحقيق إبراهيم الإبياري، وحامد عبد المجيد، وأحمد أحمد بدوي، القاهرة، ١٩٥٤، وكان اعتمادنا عليه.
- ابن دراج الديوان، تحقيق محمود علي مكي، دمشق ١٩٧٣، وكان اعتمادنا عليه.
- ابن الزقاق، الديوان، تحقيق عفة محمود ديراني، بيروت، ١٩٦٤.
- ابن زيدون، الديوان، تحقيق وشرح على عبد العظيم، وهو تحقيق جيد، وعليه كان اعتمادنا، القاهرة ١٩٥٧.
- ابن سعيد، على بن موسى، رايات المبرزين وغايات المميزين، تحقيق عبد المتعال القاضي، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة ١٩٧٣ م.
- المغرب في حلل المغرب، تحقيق شوقي ضيف، في مجلدين، دار المعارف، القاهرة ١٩٥٣ - ١٩٥٥.
- ابن شهيد، الديوان، جمع وتحقيق يعقوب زكي، القاهرة، ١٩٦٥.
- عبد الواحد المراكشي، المعجب، تحقيق محمد سعيد العريان، الطبعة الأولى، القاهرة ١٣٦٨ = ١٩٤٩، وكان اعتمادنا عليها، والطبعة الثانية ١٣٨٢ = ١٩٦٣.
- العماد الأصفهانى، خريدة القصر وجريدة العصر، تحقيق عمر الدسوقي، وعلى عبد العظيم، وهو الجزء الخاص بشعراء صقلية ولغرب والأندلس، في ثلاثة أجزاء، القاهرة بلا تاريخ.
- ابن قزمان، الديوان، نشره في حروف لاتينية، وترجمه، ودرسه، إميليو غرسية غومث، في ٣ مجلدات، مدريد، ١٩٧٢.
- ونشره في الحروف العربية، ودرسه عروضيا، فيدريكو كورينتي دي قرطبة، مدريد ١٩٨٠.
- المعتمد، الديوان، جمع وتحقيق أحمد بدوي، وحامد عبد المجيد، القاهرة ١٩٥٥ م وكان اعتمادنا عليه.

● المَقْرَى، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، نشره إحسان عباس، في ٨ مجلدات، بيروت ١٣٨٨ = ١٩٦٨، ويتميز بفهارسه المختلفة عن الطبقات السابقة، وعليه كان اعتمادنا.

في أحيان قليلة جدا كان يصعب علينا إلى درجة الاستحالة الوصول إلى المخطوطة، أولا نتوصل إلى النص نفسه في هامش المؤلف، في الطبقات التي بين أيدينا، فأبقيت على إشارة المؤلف إلى المصدر، في الطبعة التي اعتمد عليها، وأشرت إلى ذلك. وبداهة فإن الكثير من المصادر العربية التي اعتمد عليها المؤلف كُنْ اعتمادنا أيضا عليها نفسها، رغم ندرتها، لأنها لم تحقق، أو لم تنشر ثانية، ولم يحتاج هذا الأمر إلى إشارة منا.

بقى نَ أشير إلى أن المؤلف أقي، تبعاً للطريقة الفرنسية، بقائمة المصادر في أول الكتاب، وأتينا بها طبقاً للتقاليد العربية في آخره.

المترجم

BIBLIOGRAPHIE

- Abbad.* : Dozy, *Scriptorum arabum loci de Abbadidis*, Leyde, 1846-1863, 3 vol.
- V. 'Imâd ad-Dîn al-Iş'ahânî.
- 'Abd al-Iş'âq al-Bâdisî, *al-Maqşad* (*Vie des saints du Rif*), trad. annotée par G. S. Colin (*Archives marocaines*, vol. XXVI), Paris, 1926.
- 'Abd Allâh le Ziride, *Mémoires* : Texte arabe et trad. française avec une introduction et un glossaire par E. Lév.-Provençal, in *al-Andalus*, vol. III, fasc. 2 (1935), pp. 233-344 ; Vol. IV, fasc. 1 (1936), pp. 29-145.
- 'Abd al-Wahhâb (H. H.), *Le développement de la musique arabe en Orient, Espagne et Tunisie*, in *Revue tunisienne*, t. 25 (1918), pp. 106-117.
- V. Ibn Faḍl Allâh al-Umarî.
- 'Abduh ad-Dimaşqî (Muḥarrîmad Munîr). V. 'Amr ibn Kulṭûm ; at-Tibrîzî.
- Abduh-Wahab. V. 'Abd al-Wahhâb.
- Abel (L.). V. Abû Mihğân.
- al-Abşîhî, *al-Mustaṣraf fi kull fann mustaṣraf*, texte arabe, le Caire, 1330, 2 vol. ; trad. française par G. Rat, Paris-Toulon, 1902, 2 vol.
- Abu-l-'Alâ' al-Ma'arrî : v. al-Ma'arrî.
- Abû Bakr al-Mâlikî. V. al-Mâlikî.
- Abû Dâûd al-Işfahânî, *Ki-âb az-Zahra* (Première moitié), éd. par A. R. Nykl et Ibrâhîm Ṭūqēn, Chicago, 1932.
- Abu-l-Farağ al-Işbahânî, *Fitâb al-Ağânî*, Bûlâq, 1285, 20 vol. ; éd. Sâsî, le Caire, 1322-1323, 21 vol. ; éd. de *Dâr al-kutub al-mişriyya*, le Caire, 1345 = 1927 sq.
- Abu-l-Fidâ', *al-Muḥtaşar fî aḥbâr al-başar*, le Caire, 1325, 4 vol.
- *Taqwîm al-buldân. Géographie*, texte arabe par Reinaud et de Slane, Paris, 1840 ; trad. française par Reinaud et St.-Guyard, 2 parties en 3 vol., Paris, 1848-1853.
- Abû Ḥamid al-Andalusî a-Ġarnâṭî, *Tuḥfat al-albâb wa-nuḥbat al-a'ğâb*, éd. G. Ferrand, in *J. A.*, 1925, t. 207, pp. 1-304.
- Abû Ishâq de Elvira, *Diwân*, éd. E. Garcia Gómez, Madrid-Grenade, 1944.

- Abū Miḥḡān al-Taqañī, *Diwān*, éd. L. Abel, Leyde, 1887.
- Abū Nuwās, *Diwān*, éd. I. Aṣāf, le Caire, 1898. éd. Maḥmūd Kāmīl Farīd, le Caire, 1351 = 1932.
- Abū-l-Qāsim al-Garnāṭī, *Raʿ al-ḥuḡub al-masūra ft maḥāsīn al-maqṣūra*, Commentaire de la Maqṣūra d'Ibn Ḥāzim al-Qarṭaḡannī, le Caire, 1344, 2 vol.
- Abū Rahāb (Ḥassān), *al-Ġazal 'ind al-'Arab*, Le Caire, 1366 = 1947.
- Abū Tamīm, *Diwān*, éd. de Beyrouth, 1323 = 1905.
- Abū-l-Walīd al-Ḥīmīyārī, *Al-Badī' ft waṣf ar-rabī'*, Ms. de l'Escurial, n° 353 ; éd. avec les voyelles essentielles et l'indication des folios du manuscrit, et précédé d'une Introduction en arabe et en français, par H. Pérès (Collection de Textes arabes publiée par l'Institut des Hautes Etudes Marocaines. — Vol. IX), Rabat, 1940.
- Adier (G. J.), *The poetry of the Arabs of Spāin*, New-York, 1867.
- Aḡḡār Maḡmū'a, publ., trad. et ann. par E. La'iente y Alcantara, Madrid, 1867.
- Ahlwardt (W.), *The Divans of the Six ancient Arabic poets*, Londres, 1870 (en abrégé : Ahlwardt, *Six Divans*).
- Alarcón. V. Ibn al-Abbār et *Miscelanea*.
- Alcocer Martínez (R.P. Dom. R.), *La corporacion de los poetas en la España musulmana*, Madrid, 1940.
- 'Alī (Zāhid). V. Ibn Ḥānī'.
- Allcuhe (I. S.), Compte rendu de la 1^{re} éd. de *La Poésie andalouse*, dans *Hespéris* (Rabat), 1^{er} trimestre 1939, pp. 105-108.
- V. *al-Ḥulal al-mawṣiyya*.
- Alonso (Amado), *Correspondencias arabigoespañolas*, in *R.F.E.*, VIII 1946, pp. 30-43 ; 57-60.
- Alonso (Damaso), *Cancioncillas « De Amigo » mozarabes (Primavera temprana de la lirica europea)*, in *R.F.E.*, XXIII, 1949, pp. 297-349.
- Altamira y Crevea, *Historia de España y de la civilización española*, 3^e éd., Barcelone, 1913, 4 vol.
- Amari (M.), *Questions philosophiques adressées aux savants musulmans par l'Empereur Frédéric II*, in *J. A.*, 5^e série, t. I (1853), 240-274.
- V. *Bibliotheca arabo-sicula* ; *Centenario*.
- Ambar (Mohamed Abd El Hamid), *Le problème de l'influence arabe sur les premiers troubadours*, Thèse inédite de l'Université de Paris, 1947.
- L'Art de l'Iran*, par un Groupe d'écrivains, sous la direction de René Grousset, Louis Massignon et Henri Massé, Paris, 1951.

- al-'Amilî (Bahâ' ad-Dîn), *Asrâr al-balâğa* (à la suite du *Kitâb al-Mihlâ* du même auteur), le Caire, 1317.
 — *al-Kaškûl*, le Caire, 1329.
 Amîn (Ahmad), *Ḍuḥâ al-islâm*, le Caire, t. I, 1351 = 1933 ; t. II, 1353 = 1935 ; t. III, 1355 = 1936.
 'Amr ibn Kulṭûm, *Mu'allâqa*, in at-Tibrizî, *al-Qaṣâ'id al-'aṣr*, éd. Muḥammad Munîr 'Abduh ad-Dimašqî, le Caire, 1343.
Anacréontiques, trad. M. Meunier, Paris, 1932.
Anal. ou *Analektes*, V. al-Maqqarî, *Nafḥ al-ḥib*, éd. de Leyde.
 Anastase (le P.), art. in *al-Muqtabas*, I, 435.
Al-Andalus. V. 'Abd Allâh le Zîride ; Asin Palacios ; Ibn Ḥazm ; Lévi-Provençal ; Stern.
 al-'Anîsî al-Ḥalabî al-Lubnânî (Ṭūbiyâ), *Tafsîr al-alfâz ad-daḥḥa fî-l-luġat al-'arabiyya*, 2^e éd. rev. par Yûsuf Tûmâ al-Bustânî, le Caire, 1932.
Annales de l'Institut d'Etudes Occitanes (Toulouse). V. Morère.
Annales de l'Institut d'Etudes Orientales. Faculté des Lettres de l'Université d'Alger. V. Bel ; Benhamouda ; Blachère ; Marçais (G.).
Annales du Musée Guimet. Bibliothèque d'études. V. Gaudefroy-Demombynes.
 Anonyme. V. *Una crónica anónima...*
 Antuña (Melchior M.), *La corte literaria de Alḥâquem II en Córdoba*, in *Religión y Cultura*, 1929.
 — *Sevilla y sus monumentos árabes*, Escorial, 1930.
 — V. Ibn Ḥaiyân.
Archives marocaines. V. 'Abd al-Ḥaqq al-Bâdisî ; an-Nâṣirî as-Salâwî.
Archivum romanicum. V. Nykl.
 'Arib. V. Dozy, *Corrections*.
 Arnold (Th.) et Guillaume (A.), *The Legacy of Islam*, Oxford, 1931.
Ars Islamica. V. Creswell.
 al-A'shâ, *Diwân*, éd. R. Geyer (*Gibb. Memorial, New Series*, vol. VI), Londres, 1928.
 — *Mu'allâqa (Waddî' Hurairata)*, in at-Tibrizî, *al-Qaṣâ'id al-'aṣr* et éd. Geyer, *Zwei Gedichte von al-A'shâ*, Vienne, 1905-1919.
 Aṣṣâf (Iskandar). V. Abû Nuwâs.
 Asin Palacios (M.), *Abenhâzam de Córdoba y su historia de las ideas religiosas*, Madrid, t. I-II, 1927-1928.
 — *Abennasarra y su escuela. Origenes de la filosofía hispano-musulmana*, Madrid, 1914.

- *Un códice inexplorado del Cordobés Ibn Hazn*, in *Al-Andalus*, II, (1934), fasc. I, pp. 1-56.
- *La tesis de la necesidad de la revelación en el Islam y en la escolástica*, in *al-Andalus*, III, fasc. 2 (1935), pp. 345-389.
- *Obras escogidas*, Madrid, 1946-1948, 2 vol.
- 'Aṭīyya al-Lubnānī (Rašīd). V. al-Buḥturī.
- Badā'ī* : Ibn Zāfir, *Badā'ī al-badā'ih*, Būlāq, 1278.
- B.A.F. (*Bibliothèque Arabe-Française*, Alger). V. al-Muqaddasī.
- B.A.H. : *Bibliotheca arabico-hispana*. V. ad-Ḍabbī ; Ibn al-Abbār ; Ibn Baškuwāl ; Ibn Ḥair.
- al-Baḥrī, *Description de l'Afrique septentrionale*, texte arabe par de Slane, 2^e éd., Alger, 1911 ; trad. française par de Slane, revue par Fagnan, 2^e éd., Alger, 1913.
- Ballesteros y Beretta (A.), *Historia de España y su influencia en la historia universal*, Barcelone, 1918-1936, 8 tomes en 9 vol.
- Ballof (M. J.). V. Salles.
- Bammate (Hatdar), (Georges Fivoire), *Visages de l'Islam*, Lausanne-Paris, 1946.
- Barbi (M.), V. Dante.
- Barbier de Meynard, *Dictionnaire géographique, historique et littéraire de la Perse et des contrées adyacentes* (Extraits trad. de Yâqūt, Mu'jam al-buldân), Paris, 1861.
- V. al-Mas'ūdī.
- al-Barḡūqī ('Abd ar-Raḥmān). *Ḥaḍarat al-'Arab fi-l-Andalus*, le Caire, 1341 = 1923.
- V. Ḥassān ibn Tābit ; al-Mutanabbī.
- Barrès (M.), *La musulmane courageuse*, in *Cahiers*, t. IV (1904-1906), pp. 224-267.
- Barthélemy (Abbé), *Voyage du jeune Anacharsis en Grèce*, Paris, 1788.
- al-Bārūdī, *Muḥtārāt*, le Caire, 1327-1329, 4 vol.
- B.A.S. (*Bibliothèque arabo-sicula*). V. Amari.
- Basset (R.), *La Bordah du Cheikh El Bousiri* (*Bibliothèque orientale elzévirienne*, t. LXIX), Paris, 1894.
- *La littérature populaire berbère et arabe dans le Maghreb et chez les Maures d'Espagne*, in *Mélanges africains et orientaux*, Paris, 1915, pp. 27-63.
- *Mélanges africains et orientaux*, Paris, 1915.
- *Hercule et Mahomet*, in *Journal des Savants*, 1903.

- Bataillon (Marcel), *Compte rendu de la 1^{re} éd. de La poésie andalouse*, in *Bulletin Hispanique*, tome XLI (1939), pp. 187-191.
- al-Batanûni (Muḥammad Labīb), *Riḥlat al-Andalus*, le Caire, 1927.
- al-Bayān*. V. Ibn 'Idārī.
- B.E.A. (Bulletin des Etudes Arabes, Alger)*. V. Brunschvig ; Renaud ; Bencheneb (S.).
- Beaumier. V. Ibn Abī Zar'.
- Bel (A.), *Inscriptions arabes de Fès*, in *J. A.*, 1917-1919, tirage à part, Paris, 1919.
- *Quelques rites pour obtenir la pluie en temps de sécheresse chez les Musulmans maghrébins*, in *Recueil de Mémoires et de Textes publiés en l'honneur du XIV^e Congrès des Orientalistes*, Alger, 1905, pp. 49-98.
 - *Le sufisme en Occident musulman au XII^e et au XIII^e siècle de J. C.*, in *Annales de l'Institut d'études orientales... d'Alger*, I. 1934-1935, pp. 145-161.
 - *La religion musulmane en Berbérie. Esquisse d'histoire et de sociologie religieuse*, tome I (seul paru), Paris, 1938.
 - V. Ibn al-Abbār.
- B.E.L.O.V. : Bibliothèque de l'Ecole des langues orientales vivantes*. V. W. Marçais.
- Ben Cheneb (Muḥammad). V. *ad-Daḥīra as-saniyya* ; Ibn al-Abbār.
- Bencheneb (S.), *Sabaniya*, in *B.E.A.*, n° 21 (janv.-fév. 1945), pp. 6-7.
- Benhamouda (A.), *Les noms arabes des étoiles (essai d'identification)*, in *Annales de l'Institut d'Etudes Orientales... d'Alger*, Tome IX (1951), pp. 76-210.
- Bercher (Léon). V. Goldziher ; Ibn Ḥamdīs ; Ibn Ḥazm.
- Bergua (José), *Psicología del pueblo español*, Madrid, 1934.
- Berr (H.), V. Réau (L.) et Cohen (G.).
- Bertrand (Louis). *Histoire d'Espagne*, Paris, 1932.
- B. G. A. : Bibliotheca geographorum arabicorum*. V. Ibn Ḥawqal ; al-Muqaddasī ; al-Ya'qūbī.
- B. I. O. : Bulletin de l'Institut d'archéologie orientale du Caire*. V. Zakī (A.).
- Bibliotheca arabico-hispana* (en abrégé : *B.A.H.*) V. Codera ; Aḍ-Ḍabbi ; Ibn al-Abbār ; Ibn Baṣṣuwal ; Ibn Ḥair.
- Bibliotheca arabo-sicula* (en abrégé : *B.A.S.*), par Michele Amari : textes arabes, Leipzig, 1857. 1 vol. : traduction italienne, Turin-Milan, 1880-1881, 2 vol.
- V. Amari.

- Bibliotheca Geographorum Arabicorum* (en abrégé) : (B.G.A.). V. Ibn Ḥawqal ; Al-Muqaddasī ; Al-Ya'qūbī.
- Bibliothèque Arabe-Française* (en abrégé : B.A.F.). V. Al-Muqaddasī.
- Bibliothèque de l'Ecole des Hautes Etudes*. V. Šaraf ad-Din Rāḡī.
- Bibliothèque des géographes arabes*. V. Ibn Fadl Allāh al-'Umarī.
- Bibliothèque orientale elzévirienne*. V. Basset (R.) ; Sauvaire (H).
- Bishr Farēs. V. Fāris (Bišr).
- Blachère (R.). *Le poète arabe al-Mutanabbī et l'Occident musulman*, in *R.E.I.*, année 1929, Cahier I, pp. 127-135.
- *Un pionnier de la culture arabe orientale en Espagne au X^e siècle. Šā'id de Bağdād*, in *Hespéris*, t. X, 1930, pp. 15-36.
- *Un poète arabe du IV^e siècle de l'hégire (X^e siècle de J. C.) : Abou l-Tayyib al-Mutanabbī (Essai d'histoire littéraire)*, Paris, 1935. En abrégé : Blachère, *Abou l-Tayyib al-Mutanabbī*.
- *La vie et l'œuvre du poète-épistolier andalou Ibn Darrāğ al-Qasālī*, in *Hespéris*, t. XVI (1923), pp. 99-121.
- *Vue d'ensemble sur la poétique classique des Arabes*, in *R.E.S.*, 1938, I, 18 pages.
- *Les principaux thèmes de la poésie érotique au siècle des Umayyades de Damas*, in *Annales de l'Institut d'Etudes Orientales... d'Alger*, tome V, 1939-1941, pp. 82-128.
- *Histoire de la littérature arabe des origines à la fin du XV^e siècle de J.-C.*, tome 1^{er}, Paris, 1952.
- *La vie et l'œuvre d'Abou l-Tayyib al-Mutanabbī*, in *Al-Mutanabbī. Recueil publié à l'occasion de son Millénaire* (Mémoires de l'Institut Français de Damas), Beyrouth, 1936, pp. 45-79.
- V. Šā'id al-Andalusī ; al-Qur'ān.
- Boileau, *Réflexions critiques sur quelques passages du rhéteur Longin* (*Œuvres complètes de Boileau*, éd. Garnier), Paris, 1870-1873.
- Boissonnade (P.), *Du nouveau sur la chanson de Roland*, Paris, 1923.
- Boletín de la real Academia de ciencias, bellas letras y nobles artes de Córdoba*. V. Castejón ; García Gómez ; González Palencia.
- Boletín de la real Academia española*. V. Olivier Asín.
- Brockelmann (Carl), *Geschichte der arabischen Litteratur*, Weimar-Berlin, 1898-1902, 2 vol. ; *Supplément*, Leiden, 1937-1938-1942, 3 vol. ; *Geschichte der arabischer Litteratur*, 2^e éd., Leiden, 1943-1949, 2 vol.
- Brumot (L.), *La mer dans les traditions et les industries indigènes à Rabat et Salé* (P.I.H.E.M., t. V), Paris, 1921.

- *Textes arabes de Raval*, t. I, (P.I.H.E.M., t. XX), Paris, 1931.
- Brunschvig (Robert), *Deux récits de voyage inédits en Afrique du Nord au XV^e siècle : 'Abd al-Bastî b. Ḥalîl et Adorne* (Publications de l'Institut d'Études Orientales. . d'Alger. — Vol: VII), Paris, 1936.
- *La Berbérie orientale sous les Hafsides des origines à la fin du XV^e siècle* (Publications de l'institut d'Études Orientales... d'Alger. — Vol: VIII), Paris, 1940-1947, 2 vol.
- *Ibn Burt'ulo*, in B.E.A., n° 22 (mars-avril 1945), pp. 59-60.
- al-Buḥārî, Ṣaḥîḥ. *Les traditions islamiques*, trad. O. Houdas et W. Marçais (P. E. L. O. V., 4^e série, t. III-IV), Paris 1903-1914, 4 vol.
- al-Buḥturî, *Diwân*, éd. Rašîd 'Aṭṭiyya al-Lubnânî, Beyrouth, 1911.
- Bulletin de l'Académie royale de Belgique*. V. Cohen (G.).
- Bulletin des Etudes Arabes* (en abrégé : B.E.A.). V. Brunschvig ; Renaud.
- Bulletin Hispanique*. V. Bataillon.
- Bulletin de l'Institut d'Archéologie Orientale du Caire* (en abrégé :B.I.A.O.). V. Zaki (A.).
- al-Bustânî (Buṭrus). V. Ibn Šuhaid.
- al-Bustânî (Karam). V. Ibn Zaidûn.
- al-Bustânî (Yûsuf Tûmâ). V. al-'Anîsî.
- Byzantion*. V. Marçais (G.).
- Cahiers du Sud (Les)*. V. *Le Génie d'Oc*.
- Le Calendrier de Cordoue de l'année 961*, texte arabe et ancienne trad. latine publiés par R. Dozy, Leyde, 1873.
- Campaner y Fuertes (A.), *Bosquejo histórico de la dominación islámica en las Islas Baleares*, Palma, 1888.
- Canard (Marius). V. aṣ-Ṣūlî.
- Candolle (Alphonse de), *Origine des plantes cultivées*, Paris, 1883.
- Carra de Vaux, *Les Penseurs de l'Islam*, Paris, 1921-1926, 5 vol.
- Casiri, *Bibliotheca arabico-hispana Escorialensis*, Madrid, 1760-1770, 2 vol.
- Castejón (R.), *Córdoba califal*, in *Boletín de la real Academia de ciencias, bellas letras y nobles artes de Córdoba*, année VIII (1929), n° 25, pp. 255-339.
- Castries (H. de), V. at-Tamgrûti.
- Caussin de Perceval, *Notices anecdotiques sur les principaux musiciens arabes des trois premiers siècles de l'islamisme*, in J. A., 1873 (7^e série, t. II), pp. 397-592.
- Cavaignac (E.). V. Gaudefroy-Demombynes et Platonov.

- Cenival (Pierre de), *La légende du juif Ibn Mech'al et la fête des Tolba à Fès*, in *Hespéris*, V. (1925), pp. 137-218.
- Centenario della nascita de Michele Amari*, Palerme, 1910, 2 vol. En abrégé : *Centenario de Amari*.
- Chanson de Roland*, 7^e éd. par Léon Gautier, Paris, 1880.
- Chateaubriand, *Le génie du christianisme*, éd. Garnier, Paris, 1859-1861 12 vol.
- Cheikho (L.), *Poètes arabes chrétiens avant l'Islâm*, Beyrouth, 1890, 6 fasc. — V. Šā'id al-Andalusī.
- Clément-Mullet, *Essai sur la minéralogie arabe*, in *J. A.*, 6^e série, t. XI (1868), pp. 20-37.
- Codera. V. *B.A.H.* ; al-Dabbī ; Ibn al-Abbār, Ibn Baškuwāl.
- Cohen (Gustave), *Le problème des origines arabes de la poésie provençale médiévale*, in *Bulletin de l'Académie royale de Belgique (Classe des Lettres)*, Bruxelles, 1916 (5^e série, tome XXXII), pp. 266-278.
- V. Pirenne (H.), Cohen (G.) et Focillon (H.) ; Réau (L.).
- Colección Labor*. V. Ferrandis ; Gonzalez Palencia.
- Colección de Manuales Hispania*. V. Ribera.
- Colin (G. S.), *Un document nouveau sur l'arabe dialectal d'Occident au XII^e siècle* ('irād al-luāl min inšād aḍ-ḍawāl, d'Ibn Ḥātima), in *Hespéris*, XII (1931), pp. 1-32.
- *Quelques poètes arabes d'Occident au XIV^e siècle* (d'après les *Masālik al-abḥār*, d'Ibn Faḍl Allāh al-'Umari, Ms. de la Bibliothèque Nationale de Paris, n° 2327), in *Hespéris*, tome XII (1931), fasc. II, pp. 241-247.
- *Latin SIGILLATUS roman SIGLATON et ESCARLAT*, in *Romania*, t. LVI, n° 222, avril 1930, pp. 178-190 ; n° 223, juillet 1930, p. 418.
- *La noria marocaine et les machines hydrauliques dans le monde arabe*, in *Hespéris*, t. XIV, fasc. I (1932), pp. 22-60.
- *L'origine des norias à Fès*, in *Hespéris*, t. XVI, fasc. 1-2 (1933), pp. 156-157.
- V. 'Abd al-Ḥaqq al-Bādisī ; an-Nāṣirī ; as-Saqāṭī.
- Collection « Hespéris »*. V. Di Giacomo.
- Collection de textes arabes publiée par l'Institut des Hautes Etudes marocaines*. V. Abu-l-Walid al-Ḥimyarī ; Ibn al-Ḥaṭīb ; al-Ḥulal al-mawṣiyya ; *Mafāḥir al-Barbar*.
- Collection de textes inédits relatifs à la mystique musulmane*, V. Massignon.
- El Cande Lucanor*, de Don Juan Manuel, avec un prologue et des notes de F. J. Sanchez Canton (Biblioteca Calleja, Segunda Serie), Madrid, 1920.

- Contreras (R.), *Etude descriptive des monuments arabes de Grenade, Séville et Cordoue, c'est-à-dire l'Alhambra, l'Alcazar et la Grande Mosquée d'Occident*, 4^e éd., Madrid, 1889.
- Corrections : Dozy, *Corrections sur les textes du Bayāno 'l-Mogrib d'Ibn-Adhārī (de Maroc), des fragments de la Chronique d'Arib (de Cordoue) et du Hollato's-Siyarā d'Ibn-'l-Abbār*, Leyde, 1883.
- Cour (A.), *La dynastie marocaine des Beni Wallās*, Constantine, 1920.
- *De l'opinion d'Ibn al-Haṭīb sur les ouvrages d'Ibn Ḥāqān considérés comme source historique*, in *Mélanges René Basset*, Paris, t. II, 1925, pp. 17-32.
- *Un poète arabe d'Andalousie : Ibn Zaidouūn*, Constantine, 1920. En abrégé : Cour, *Ibn Zaidouūn*.
- Creswell (K.A.C.), *The Lawfulness of Painting in Early Islam*, in *Ars Islamica* (University of Michigan), Vol. XI-XII (1946), pp. 159-166.
- aḏ-Ḍaḥbī, *Buḡyat al-muṭānis fi ta'rīḥ riḡāl al-Andalus* (B. A. H., t. III), éd. Codera, Madrid, 1885.
- aḏ-Ḍaḥīrat al-as-saniyya (*Le trésor magnifique*). *Chronique anonyme des Mérinides*, texte arabe publié par M. Ben Cheneb (*Publications de la Faculté des Lettres d'Alger*, t. LVII), Alger, 1339 = 1920-1921.
- Ḍaif (A.), *Balāḡat al-'Arab fi-l-Andalus*, le Caire, 1342 = 1924.
- Dante, *Vita nuova*, éd. critique par Michele Barbi, Florence, 1932.
- Defrémery. V. Ibn Baṭṭūṭa.
- Dermenghem (Emile), *Les plus beaux textes arabes* [traduits en français], Paris, 1951.
- Diehl (Ch.) et Marçais (G.), *Le monde oriental de 395 à 1081 (Histoire générale, publiée sous la direction de G. Glotz. Histoire du Moyen Age, t. III)*, Paris, 1936.
- Dierx (G.), *Die arabische Kultur in mittelalterlichen Spanien*, Hambourg, 1887.
- Di Giacomo (Louis) *Une poétesse grenadine du temps des Almohades : Ḥaṣṣa bint al-Ḥājj* (Collection « Hespéris ». — N^o X), Paris, 1949.
- ad-Dimašqī, *Nuḥbat al-dahr fi 'aḡā'ib al-barr wa-l-baḥr*, texte arabe par A. F. Mehren, Saint-Petersbourg, 1866 ; trad. française par le même, *Manuel de la Cosmographie du Moyen Age*, Copenhague, 1874. En abrégé : ad-Dimašqī, *Cosmographie*.
- Doutté (E.), *Merrākeh*, Paris, 1905.
- Dozy (R.), *Catalogus codicum orientaliū bibliothecae Academiae Lugduno-Batavae*, Leyde, 1851-1877, 6 vol.

— Corrections. V. Corrections.

— *Dictionnaire détaillé des noms de vêtements chez les Arabes*, Amsterdam, 1845. En abrégé : Dozy, *Vêtements*.

— *Histoire des Musulmans d'Espagne jusqu'à la conquête de l'Andalousie par les Almoravides (711-1110)*, nouvelle édition revue et mise à jour par E. Lévi-Provençal, Leyde, 1932, 3 vol. En abrégé : H. M. E².

— *Lettre à M. Fleischer contenant des remarques critiques et explicatives sur le texte d'al-Makkari*, Leyde, 1871. En abrégé Dozy, *Lettre à Fleischer*.

— *Recherches sur l'histoire et la littérature de l'Espagne pendant le Moyen Age*, Leyde, 1^{re} éd., 1849, t. I (seul paru) ; 2^e éd., 1860, 2 vol. ; 3^e éd., 1881, 2 vol. En abrégé : *Recherches*¹, *Recherches*², *Recherches*³.

— *Scriptorum arabum loci de Abbadidis*, Leyde, 1846-1853, 3 vol. En abrégé : *Abbad*.

— *Supplément aux dictionnaires arabes*, Leyde-Paris, 2^e éd., 1927. En abrégé : Dozy, *Suppl.*

— V. Abbad. ; *le Calendrier de Cordoue* ; Ibn al-Abbâr, *al-Hirilla* ; Ibn Badrûn ; Ibn 'Idârî ; Ibn al-Idrîsî ; al-Marrâkûshî.

Dozy (R.) et Engelmann (W. H.), *Glossaire des mots espagnols et portugais dérivés de l'arabe*, Leyde, 1869.

Dugat (G.), *Hodba, un poète arabe du I^{er} siècle de l'hégire*, in J. A., 5^e série, t. V (1855), 360-385.

— *Introduction aux Analectes d'al-Maqqarî*, t. I, Leyde, 1855.

— *Poésies arabes. Essai de traduction en vers français de maouals et autres pièces inédites*, in J. A., 4^e série, t. 16 (1850), 329-344.

Dupin (H.), *La courtoisie au Moyen Age*, Paris, 1931.

Dureau de la Malle, *Climatologie comparée de l'Italie et de l'Andalousie anciennes et modernes*, Paris, 1849.

Ecker (L.), *Arabischer, provenzalischer und deutscher Minnesang*, Berne et Leipzig, 1934.

Eguilaz y Yanguas (L.), *Origen de las ciudades Garnata é Illiberri y de la A'hambra*, in *Homenaje a Codera*, pp. 333-338.

Eguilaz y Yanguas (L.), *Poesia histórica, lírica y descriptiva de los Arabes andaluces*, Madrid, 1864.

Ehrenpreis (M.), *Le pays entre Orient et Occident*, Paris, 1930.

Elisséeï (Nikita), *Thèmes et motifs des Mille et une Nuits. Essai de classification*, Beyrouth, 1949.

Encyclopédie de l'Islâm, Leyde-Paris, 1908-1934, 1934-1938, 4 vol. et 1 suppl.

Estudios dedicados a Ramon Menéndez Pidal. V. Lévi-Provençal.

Evans (Joan). V. Roques (M.).

L'Evolution de l'Humanité. V. Berr (H.) ; Réau (L.) et Cohen (G.).

Exploration scientifique de l'Algérie. V. Ibn Abi Dînâr.

Fagnan (E.), *Extraits inédits relatifs au Maghreb (Géographie et Histoire)*, Alger, 1924.

— *Le signe distinctif des Juifs au Maghreb*, in *Revue des Etudes juives*, t. 28 (1894), pp. 294-298.

— V. al-Bakrî ; Ḥalîl ; Ibn al-Aṭîr ; Ibn 'Idârî ; *al-Istibṣâr* ; al-Marrâkuṣî ; Ibn Faḍl Allâh al-'Umarî.

al-Farazdaq, *Dîwân*, éd. Boucher, Paris, 1870-1875, 4 tomes.

Farès (Bishr). V. Fâris (Eiṣr).

Farîd (Maḥmûd Kâmil). V. Abû Nuwâs.

Fâris (Biṣr), *L'honneur chez les Arabes avant l'Islam. Etudes de sociologie*, Paris, 1932.

— Compte rendu de la 1^{re} éd. de la *Poésie andalouse*, in *al-Muqālaḥ* (Le Caire), mai 1938, pp. 596-7.

Faṭḥ Allâh (Ḥamza), *al-Mawâhib al-faṭḥiyya fi 'ulûm al-luḡat al-'arabiyya* le Caire, 1313-1326, 2 vol.

al-Faṭḥ ibn Ḥâqân, *Qalâ'id al-'iqyân*, Bûlâq, 1283 ; Marseille-Paris, 1277 = 1860. Nous citons de préférence l'éd. de Bûlâq, plus complète que celle de Marseille-Paris. En abrégé : *Qal.* ou *Qalâ'id*.

— *Maḥmaḥ al-anfus wa-marsrah al-ta'annus fi mulah ahl al-Andalus*, Constantinople, 1302. En abrégé : *Maḥmaḥ*.

Fawwâz (Zainab), *ad-Durr al-manṣûr fi ṭabaqât rabbât al-ḥudûr*, Bûlâq, 1312.

al-Fayyûmî, *al-Miṣbâḥ al-nunîr*, Le Caire, 6^e éd., 1925.

Fernández y Gonzalez (F.) *La influencia de las lenguas y literaturas orientales en la nuestra* (Discours à l'Académie espagnole), Madrid, 1894.

— V. Menéndez y Pelayo.

Ferrand (G.), V. Abû Ḥâmid ; Ibn Faḍl Allâh al-'Umarî.

Ferrandis (J.), *Marfiles y azabaches españoles (Colección Labor, n° 159-160)*, Barcelone-Buenos-Aires, 1928.

al-Firûzâbâdî, *al-Qāmûs al-muḥîl*, le Caire, 1330, 4 vol.

Fouillée (A.), *Esquisse psychologique des peuples européens*, Paris, 1903.

Freytag, *Arabum proverbie*, Bonn-s-Rhin, 1838, 3 vol.

Funck-Brentano (F.), *La Renaissance*, Paris, 1935.

Gabrieli (Francesco), *Storia e civiltà musulmana*, Naples, 1947.

— *Ibn Ḥamdîs*, Mazara, 1948.

- *Arabi di Sicilia e Arabi di Spagna*, in *Al-Andalus*, Vol. XV (1950), fasc. I, pp. 27-46.
- *Studi di Storia Musulmana*. 1940-1950, in *Rivista Storica Italiana*, Naples, 1950.
- *Sicilia e Spagna nella vita e nella poesia di Ibn Hamdīs*, in *Miscellanea G. Galbiati*, Milan, 1951.
- V. Ibn 'Abdūn ; Ibn Ḥazm.
- al-Ġāhiz, *al-Bayān wa-l-tabyīn*, éd. as-Sandūbī, le Caire, 1345 = 1927, 3 vol.
- *Kitāb al-Buḥalā'*, éd. Van Vloten, Leyde, 1900.
- *al-Buḥalā'*, éd. critique annotée par Ṭāhā al-Ḥāġirī, Le Caire, 1948.
- *Le Livre des Avars*, trad. française avec une introduction et des notes par Charles Pellat (Islam d'Hier et d'Aujourd'hui. — Vol. X), Paris, 1951.
- *Magmū' ar-rasā'il*, le Caire, 1324 ; éd. Van Vloten, *Tria opuscula*, Leyde, 1903, éd. as-Sandūbī, *Rasā'il*, le Caire, 1352 = 1933.
- García Gómez (E.), *Bagdād y los reinos de Taijas*, in *Revista de Occidente*, t. 127, janvier 1934, pp. 1-22.
- *Elogio del islam español* (trad. espagnole de l'arabe. V. aš-Šaḡundī) *Publicaciones de las escuelas de estudios árabes de Madrid y Granada*, Série B, n° 2), Madrid-Grenade, 1934.
- *Poemas arábigoandaluces*, Madrid, 1930 ; 2^e éd., Madrid, 1940.
- *Poetas musulmanes cordobeses*, in *Boletín de la real Academia de ciencias, bellas letras y nobles artes de Córdoba*, année VIII, n° 25 (1929), pp. 145-176.
- *Una obra importante sobre la poesia arabigoandaluza*, C. R. de *La Poésie andalouse*, 1^{re} éd., in *al-Andalus*, Vol. IV (1939), fasc. 2, pp. 233-316.
- *Poemas arábigoandaluces*, Madrid, 1930 ; 2^e éd., 1940 ; 3^e éd., 1943.
- *Gasidas de Andalucía, puestas en verso castellano*, Madrid, 1940.
- *Cinco poetas musulmanes. Biografías y estudios*, Madrid, 1944.
- *Nuevos testimonios sobre « el odio a Sevilla » de los poetas musulmanes*, in *al-Andalus*, Vol. XIV (1949), fasc. I, pp. 143-148.
- *La poésie politique sous le Califat de Cordoue*, in *Revue des Etudes Islamiques*, Paris, 1949, pp. 5-11.
- *Nuevas observaciones sobre las « Jaryas » romances en muwaššāḡas hebreas*, in *al-Andalus*, Vol. XV (1950), fasc. I, pp. 157-177.
- *Mas sobre las « jaryas » romances en « muwaššāḡas » hebreas*, in *al-Andalus*, Vol. XIV (1949), fasc. 2, pp. 409-417.

- *Quelques aspects esthétiques de la poésie arabe*, in *Conférences du Lundi-Université de Bordeaux*, Bordeaux, 1940, 12 pages.
- *Poesía arábigoandaluzá. Breve síntesis histórica*, Madrid, 1952.
- *Introducción a la traducción del Libro El Collar de la Paloma, tratado sobre el Amor y los Arzantes, de Ibn Hazm de Córdoba*, Madrid, 1952, pp. 1-62.
- V. *Una crónica* ; Ibn Ḥazm ; Ibn Sa'īd ; E. Lévi-Provençal et Oliver Asín.
- Gaspar Remiro (M.), *Presentimiento y juicio de los Moros españoles sobre la caída inminente de Granada y su reino en poder de los Cristianos*, in *Revista del centro de estudios históricos de Granada y su Reino*, année 1911, t. I, fasc. 3, pp. 149-153.
- V. an-Nuwairī.
- Gaudefroy-Demombynes. *Une lettre de Saladin au calife al-nohade*, in *Mélanges René Basset*, t. II, Paris, 1925, pp. 279-304.
- *Le pèlerinage à la Mekke. Etude d'histoire religieuse (Annales du Musée Guimet, Bibliothèque d'études, t. 33)*, Paris, 1923.
- *La Syrie à l'époque des Mamlouks d'après les auteurs arabes*, Paris, 1923.
- *Sur le cheval-jupon et el-kurraj*, in *Mélanges William Marçais*, Paris, 1950, pp. 155-160.
- V. Ibn Faḍl Allāh al-'Umārī ; Ibn Jobair ; Ibn Qutaiba ; *Mélanges William Marçais*.
- Gaudefroy-Demombynes et Platonov, *Le monde musulman et byzantin jusqu'aux Croisades (Histoire du monde publiée sous la direction de E. Cavaignac, t. VII)*, Paris, 1931.
- Gauthier (Léon), *La racine arabe « ḥakama » et ses dérivés*, in *Homenaje a Codera*, Zaragoza, 1904 pp. 435-454.
- *Introduction à l'étude de la philosophie musulmane. L'esprit sémitique et l'esprit aryen. La philosophie grecque et la religion de l'Islam* (Collection de la Revue de Monde Musulman), Paris, 1923.
- *Ibn Rochd (Averroès)* (Collection « Les Grands Philosophes »), Paris, 1948.
- V. Ibn Ṭufail.
- Gautier (E. F.), *L'islamisation de l'Afrique du Nord. Les siècles obscurs du Maghreb*, Paris, 1927 ; 2^e éd. : *Le passé de l'Afrique du Nord. Les siècles obscurs*, Paris, 1937.
- *Mœurs et coutumes des Musulmans*, Paris, 1931.
- Gautier (Léon). V. *Chanson de Roland*.

- Gayangos (P. de), *The History of the Mohamedan Dynasties in Spain*, Londres, 1840-1843, 2 vol. (trad. des passages historiques d'al-Maqqarî, *Nafḥ at-tib*).
- V. Ibn al-Qûṭiyya.
- al-ʿazzâl, *Natîgat al-iğtihâd fi-l-muhâduna wa-l-ğihâd*, ms. de la Bibliothèque Nationale d'Alger, n° 1738 ; éd. A. Bustânî, Larache, 1941.
- Le Génie d'Oc et l'Homme méditerranéen. Etudes et Poèmes*, Marseille, Les Cahiers du Sud, 4^e éd., 1944.
- Geyer (R.). V. al-A'šâ.
- Ghali (Wacyf Boutros). V. Wacyf Boutros Ghali.
- Gibb Memorial. New Series*. V. al-A'šâ ; Yâqût.
- Gil (P.), Ribera (J.), Sanchez (M.), *Colección de textos aljamiados*, Saragosse, 1888.
- Glötz (Gustave). V. Diehl et Marçais (G.) ; Petit-Dutaillis et Guinard (P.) ; Pirenne (H.), Cohen (G.) et Focillon (H.).
- de Goeje, *Glossaire de la Riḥla* d'Ibn Ġubair, Leyde, 1907.
- V. Ibn Ġubair ; Ibn Qutaiba ; al-Idrîsî ; al-Muqaddasî ; Muslim ibn al-Walîd ; aṭ-Ṭabarî.
- Goldziher (I.). *Muhammedanische Studien*, Halle, 1889-1890, 2 vol.
- *Die Su'ûbijja unter den Muhammedanern in Spanien*, in *Z.D.M.G.*, Vol. LIII (1899), pp. 610-618 : Fragments de la *Risâla* d'Ibn Ġarsiya.
- *Etudes sur la Tradition Islamique*, extraites du Tome II des *Muhammedanische Studien*, traduites par Léon Bercher, Paris, 1952.
- Gómez Moreno (M.), *Iglesias mozárabes. Arte español de los siglos IX a XI*, Madrid, 1919, 2 vol.
- Garzález Palencia (A.), *El amor platónico en la corte de los Califas (Boletín de la real Academia de ciencias, bellas letras y nobles artes de Cordoba, année 1929, pp. 1-25, Cordoue, 1929.*
- *Historia de la España musulmana (Colección Labor, n° 69)*, Barcelone-Buenos-Aires, 3^e éd., 1932.
- *Historia de la literatura arábigo-española (Colección Labor, n° 164-165)*, Barcelone-Buenos-Aires, 2^e éd., 1945.
- *El Islam y Occidente*, Madrid, 1931.
- *Los Mozárabes de Toledo en los siglos XII y XIII*, Madrid, 1926-1930, 4 vol.
- *Moros y cristianos*, Madrid, 1945.
- V. Ibn al-Abbâr ; *Miscelanea*.
- Genzalvo (L.), *Avance para un estudio de las poétisas musulmanas de España*,

- in *Revista de Archivos, Bibliotecas y Museos*, Madrid, 1905, N^o 8, 9-10, 11-12. En abrégé : *Poetisas musulmanas*.
- Graetz (H.), *Les Juifs d'Espagne (945-1205)*, trad. G. Stenne, Paris, 1872.
- Grousset (R.). V. *L'âme de l'Iran*.
- Guillaume (A.). V. Arnold (Th).
- Guinard (P.). V. Petit-Dutaillis.
- Gunzburg (David de). V. Ibn Quzmân.
- al-Ğurğânî (Abu-l-'Abbâs), *al-Muntaḥab min kinâyât al-udabâ' wa-işârât al-bulağâ'*, le Caire, 1326 = 1908.
- Guyard (St.). V. Abu-l-Fidâ'.
- al-Ğuzûlî, *Maǧâlî' al-budûr ft manâzil as-surûr*, Bûlâq, 1299, 2 vol.
- al-Ĥafâğî, *Şiġâ' al-ğatil ftmâ ft kalâm al-'Arab min ad-daḥl*, le Caire, 1325.
- Ĥalîfa ('Abd ar-Raḥmân). V. Ibn Zaidûn.
- Ĥalîl (Sayyidi), *Mariage et répudiation*, trad. Fagnan, Alger, 1909.
- Hartmann (M.), *Das arabische Strophengedicht. I. Das Muwaššah*, Weimar, 1897.
- Ĥassân ibn Tâbit, *Dtûân*, éd. al-Barqûqî, le Caire, 1347 = 1929.
- al-Ĥâtîmî, *ar-Risâlat al-ĥâtîmiyya*, in *al-Tuḥfat al-bahiyya*, Constantinople, 1302 ; éd. O. Rescher, in *Islamica*, II (1926), fasc. 3, p. 439 sq.; éd. F. E. al-Bustânî, Beyrouth, 1931.
- Hauteœur (L.). V. Wiet.
- al-Ĥawârizmî. V. al-Ĥuwârazmî.
- Al-Ĥâzimî, *Kitâb al-Faişal*, extraits dans al-Maqqarî, *Analectes*, et Yâqût, *Mu'ğam al-buldân*.
- Hell (J.), *al-'Abbâs ibn al-Aḥnaf*, in *Islamica*, t. II (1926), pp. 271-307.
- Hespéris*. V. Blachère ; Cenival (P. de) ; Colin (G. S.) ; Di Giacomo ; Lévi-Provençal ; Luya ; Marçais (G.) ; Massé ; Pérès.
- al-Ĥiğârî, *al-Muṣhib ft aḥbâr al-Mağrib*, Extraits in *Analectes*.
- al-Ĥildl*. V. Zakî (A.).
- Histoire Générale* (publiée sous la direction de G. Glotz). V. Diehl (Ch.) et Marçais (G.) ; Petit-Dutaillis et Guinard (P.) ; Pirenne (H.), Cohen (G.) et Focillon (H.).
- Histoire du Monde* (publiée sous la direction de E. Cavaignac). V. Gaudet-froy Demombynes et Platonov.
- H. M. E.² V. Dozy, *Histoire des Musulmans d'Espagne*.
- Homenaje a D. Francisco Codera*, Saragosse, 1904. En abrégé : *Homenaje a Codera*.
- Homenaje a Codera*. V. Eguilaz y Yanguas ; Gauthier (L.) ; Zakî (A.).

- Homenaje ofrecido a Menéndez Pidal*, Madrid, 1925, 3 vol. V. Tallgren.
 Hoogwiliet (M.), *Specimen e litteris orientalibus, exhibens diversorum scriptorum locos de regia Aphthasidarum familia et de Ibn Abduno poeta...*, Leyde, 1839.
- Huart (Cl.). V. Šaraf ad-Dîn Râmi.
al-Ḥulal al-mawšiyya ft dîkr al-aḥbar al-marrâkušiyya, éd. de Tunis, 1329 ;
 éd. Allouche (*Collection de textes arabes publiée par l'Institut des Hautes Etudes marocaines*, vol VI), Rabat, 1936.
- al-Ḥulla*. V. Ibn al-Abbâr, *al-Ḥullat as-siyarâ'*.
 Humbert (J.), *Anthologie arabe*, Paris, 1819.
- Ḥusain (Ṭâhâ), *Fi-l-adab al-ġâhill*, Le Caire, 1345-1927 ; 4^e éd., 1947.
 — *Ḥadîṭ al-arbi'â'*, Le Caire, 1937-1945, 3 vol.
- al-Ḥušanî, *Historia de los Jueces de Cordoba*, texte arabe et trad. esp. par J. Ribera, Madrid, 1914. En abrégé : 'al-Ḥušanî, *Jueces*, al-Ḥuṣrî (Abu-l-Ḥasan), *Yâ laila-ṣ-Ṣabb* !, éd. Muḥyî ad-Dîn Riḍâ, le Caire, 1343 = 1924.
- al-Ḥuṣrî (Abû Ishâq), *Zahr al-âdâb wa-lamar al-albâb*, éd. Zakî Mubâarak, le Caire, 1344 = 1925, 4 vol.
- Al-Ḥuwârazmî, *Mafâliḥ al-'ulûm*, éd. G. Van Vloten, Leyde, 1895 ; éd. du Caire, 1342.
- Ibn al-Abbâr, *al-Ḥullat as-siyarâ'*, Extraits :
 in Dozy, *Notices*, pp. 30-260 ;
 in Dozy, *Abbad.*, II, 46-123 ;
 in Dozy, *Recherches*¹, passim ; *Recherches*², passim ;
 in Dozy, *Corrections*, pp. 81, 98-105, 112-123 ;
 in M. J. Müller, *Beiträge*, pp. 161-360 ;
 in Amari, *Bibliotheca arabo-sicula*, pp. 327-332.
- *I'tâb al-kutâb*, ms. de l'Escorial, n° 1731 ; ms. de Rabat, n° 409 ; ms. de Londres (British Museum), n° 6641.
- *al-Takmila li-kitâb aṣ-Ṣila*. Extraits publiés :
 par Codera, in *B. A. H.*, tomes V-VI, Madrid, 1887-1890 ;
 par Alarcón et González Palencia, in *Miscelanea*, Madrid, 1915 ;
 par Bel et Ben Cheneb, Alger, 1920.
- Iqtidâb Tuḥfat al-qâdim*, texte arabe publié par Alfredo Boustany, dans *Al-Machriq*, 1947, juillet-septembre, pp. 351-400 ; octobre-décembre, pp. 543-585.
- Ibr. 'Abd al-Barr, *Muḥtaṣar ġâmî bayân al-'ilm*, le Caire, 1320.
- Ibr. 'Abd al-Mun'im al-Ḥimyarî, *ar-Rawḍ al-mi'âr ft ḥabar al-aḳlâr* : *La*

Péninsule ibérique au Moyen Age, texte arabe et traduction française annotée, par E. Lévi-Provençal, Leiden, 1938.

Ibn 'Abd Rabbih al-Andalusî, *al-'Iqd al-farîd*, Bûlâq, 1293, 3 vol. ; éd. critique par A. Amin, A. az-Zin et I. al-Abyârî, Le Caire, 1357-1369 = 1938-1950, 6 vol.

Ibn 'Abdûn, *Traité de Hisba : Un document sur la vie urbaine et les corps de métier à Séville au début du XII^e siècle*, publié avec une introduction et un glossaire par E. Lévi-Provençal, in *J. A.*, avril-juin 1934, pp. 177-299.

— trad. française avec une Introduction et des Notes par E. Lévi-Provençal, sous le titre : *Séville musulmane au début du XII^e siècle : Le Traité d'Ibn 'Abdûn* (Islam d'Hier et d'Aujourd'hui. Vol. II), Paris, 1947.

— trad. italienne annotée par F. Gabrieli, sous le titre : *Il trattato censorio di Ibn 'Abdûn sul buon governo di Siviglia*, in *Rendiconti della R. Accademia nazionale dei Lincei, Classe di Scienze morali, storiche e filologiche*, Serie Sesta, Vol. XI, fasc. 11-12, nov.-dic. 1935, pp. 878-935.

— V. Ibn Badrûn.

Ibn Abî 'Awn, *Kitâb al-Tašbîhât*, éd. annotée par M. Abdul Mu'id Khan (*Gibb Memorial-N.S.* — Vol. 17), Londres, 1950.

Ibn Abî Dinâr, *Kitâb al-mu'nis fi aḥbâr Ifriqiya wa-Tûnis*, 2^e éd., Tunis, 1350 ; trad. franç. par Pellissier et Rémusat (*Exploration scientifique de l'Algérie*, t. VI), Paris, 1845.

Ibn Abî Ḥaḡala, *Kitâb sukkardân as-Sullân*, en marge d'al-'Amilî, *Asrâr al-balâḡa*, à la suite d'al-'Amilî, *Kitâb al-miḥlâl*, le Caire, 1317.

Ibn Abî Zar', *Rawḍ al-Qir'âs*, texte arabe et trad. latine par Tornberg, Upsal, 1843-1846, 2 vol. ; trad. Beaumier, Paris, 1860. En abrégé : *al-Qir'âs*.

Ibn 'Adhârî (pour Ibn 'Idâ-î). V. *Corrections de Dozy* ; Ibn 'Idârî.

Ibn al-'Arabî, *Muḥâḍarât al-abrâr wa-musâmarât al-aḡyâr fi-l-adabiyyât wa-n-nawâdir wa-l-aḥbâr*, le Caire, 1324-1325, 2 vol.

Ibn al-Aḡîr, *Annales du Muḡhreb et de l'Espagne*, trad. Fagnan, Alger, 1901.
— *al-Kâmil fi-t-ta'rîḥ* : *Chronicon*, éd. par Tornberg, Leyde et Upsal, 1850-1874, 12 vol.

Ibn Badrûn, *Šarḥ Quṣṣidal Ibn 'Abdûn : Commentaire historique du poème d'Ibn 'Abdûn*, éd. par Dozy, Leyde, 1846.

Ibn al-Baiḥâr, *Gâmi' mufratâl al-adwiya wa-l-aḡḡiya : Traite des Simples*,

trad. par Lucien Leclerc, in *Notices et Extraits*, t. XXIII, XXV et XXVI, Paris, 1877-1883.

Ibn Baškuwâl, *aṣ-Ṣila*, éd. par Codera (*B. A. F.*, t. I-II), Madrid, 1882-1883.

Ibn Bassâm, *ad-Dahlra fî maḥâsin ahl al-ğaz ra* ;

T. I : ms. de la Bibliothèque nationale de Paris, n° 3321 ;

— : ms. de la Bibliothèque du Protectorat de Rabat (non inventoriée) ;

— : ms. de M. Lévi-Provençal ;

T. II : ms. d'Oxford ; Extraits in *Abbe-d*, I, 189-379 ;

— : ms. d'Oxford : copie à la Bibliothèque nationale de Paris, n° 322 ; ms. de Tunis, Mosquée Zaitûna.

T. III : ms. de Gotha ;

— ms. de Fès, Mosquée d'al-Qarawiyyîn ;

T. IV : ms. de Fès, Mosquée d'al-Qarawiyyîn ;

Extraits des quatre tomes dans un ms. de M. Lévi-Provençal.

— éd. du Caire, en cours de publication, sous la direction de 'Abd al-Ḥamîd al-'Ibâdî, 'Abd al-Wahhâb 'Azzâm, Ṭâhâ Jusain et E. Lévi-Provençal, Vol. I, tome 1, 1358 = 1939 ; Vol. I, tome 2, 1361 = 1942 ; Vol. IV, tome 1, 1364 = 1945.

Ibn Baṭṭûṭa, *Rihla* : *Voyages*, texte arabe et trad. française par Ch. Defrémery et Dr. B. R. Sanguinetti, Paris, 1833-1859, 5 vol.

Ibn Diḥya, *al-Muḥrib fî aṣ'âr ahl al-Mağrib*, ms. du British Museum, n° 1631.

Ibn Faḍl Allâh al-'Umârî, *Masâlik al-abṣâr : l. I, l'Afrique, moins l'Égypte*, trad. annotée par Gaudefroy-Demombynes (*Bibliothèque des Géographes arabes*, publiée sous la direction de G. Ferrand, t. II), Paris, 1927 ;

— *Masâlik al-abṣâr* : Analyse par A. Zakî, in *Homenaje a Codera*, pp. 465-473.

— *Extrait* : *Waṣf Ifriqiya wa-l-Andalus*, par H. H. 'Abd al-Wahhâb, Tunis, s. d.

— *Extraits*, trad. par Fagnan, in *Extraits inédits relatifs au Maghreb*, pp. 69-120.

— V. Colin (G. S.).

Ibn Ġarsiya, *aṭ-Risâla aṣ-ṣu'ûbiyya*, extraits par I. Goldziher, in *Z.D.M.G.*, Vol. LIII (1899), pp. 610-617.

Ibn Ġâlib, *Farḥat al-Anfus*, extraits in *Anal-cles*.

Ibn Ġubair, *Rihla* : *Travels*, éd. de Goeje, Leyde, 1907.

V. Ibn Jobair.

Ibn Ġuzmân. V. Ibn Ġuzmâr.

- Ibn Ḥafāğa, *Diwân*, le Caire, 1286, t. I (seul paru).
 — *Ši'r*, éd. voyellée et annotée, par Karam al-Bustânî, Beyrouth, 1951 (mêmes poèmes que l'éd. du Caire, 1286).
 — *Diwân*, texte complet, ms. personnel.
- Ibn Ḥair (Abû Bâkr), *Fahrasat mâ rawâh 'an šuyûḥih min ad-dawâwân al-muṣannafa fî ḍurûb al-'ilm wa-anwâ' al-ma'ârif* : *Index librorum de diversis scientiarum ordinibus quos a magistris didicit*, éd. par J. Ribera Tarrago (B. A. H., t. IX-X), Saragosse, 1894-1895. — En abrégé : Ibn Ḥair, *Index*.
- Ibn Ḥaiyân, *al-Muḥtabâ*. Tome Troisième. *Chronique du règne du Calife umayyade 'Abd Allâh à Cordoue*, texte arabe, éd. par le P. Melchor M. Antuña, Paris, 1937.
- Ibn Ḥaldûn, *Kiṭâb al-'Ibar wa-dîwân al-muḥtada' wa-l-ḥabar fî ayyâm al-'Arab wa-l-'Ağam wa-l-Barbar wa-man 'âšarahum min ḍawt as-sullân al-akbar*, Bûlâq, 1284, 7 vol. En abrégé : Ibn Ḥaldûn, *Kiṭâb al-'Ibar*.
 — *Histoire des Berbères* (Extraits du *Kiṭâb al-'Ibar*), texte arabe par de Slane, Paris, 1847-1851, 2 vol. ; trad. française par de Slane, Paris, 1852-1856, 4 vol. ; 2^e éd. en cours de publication, Paris, 1925 sq. (3 vol. parus).
 — *al-Muqaddimâ* : *les Prolégomènes*, texte arabe par Quatremère (in *Notices et Extraits*, vol. 16-17-18), Paris, 1858-1868 ; éd. de Beyrouth, 3^e éd., 1900 ; du Caire, s. d. ; trad. française par de Slane (in *Notices et Extraits*, vol. 19-20-21), Paris, 1862-1868.
 — *al-Ta'rîf wa'r-Rihla ġarb^{an} wa-šarq^{an}*, éd. critique par Muḥammiad ibn Tâwîṭ aṭ-Ṭanġî. Le Caire, 1370 = 1951.
- Ibn Ḥallikân, *Wafayât al-a'yân*, texte arabe, le Caire, 1310, 2 vol., trad. anglaise par de Slane, Paris-Londres, 1843-1871, 4 vol.
 — autre éd. au Caire, 1367 = 1948, 6 vol. ;
- Ibn Ḥamdis, *Dîwân* : *Il Canzoniere*, éd. par Schiaparelli, Rome, 1897.
 — *Le palais d'al-Manšour à Bougie*, poème traduit en français par L. Bercher, in *Revue Tunisienne*, tome 29 (1922), pp. 50-56.
- Ibn Hâni', *Dîwân*, éd. de Beyrouth, 1326 ; éd. par Zâhid 'Alî, le Caire, 1934.
- Ibn Ḥâqân. V. al-Fath ibn Ḥâqân.
- Ibn al-Ḥaiṭb (Lisân ad-Dîn), *A'mâl al-a'lâm fîman buyi'a qabl al-iḥtilâm min mulûk al-islâm wa-mâ yağurr ḍalik min šuğûn al-kalâm* : ms. de la Bibliothèque nationale d'Alger, n° 1617.
 — *Histoire de l'Espagne musulmane* extraite du *Kiṭâb A'mâl al-A'lâm*,

- texte arabe publié avec introduction et index, par E. Lévi-Provençal (*Collection de textes arabes publiée par l'Institut des Hautes Etudes marocaines*, vol. III), Rabat, 1934. En abrégé : *A'mâl*.
- *al-Iḥāla fī aḥbār Ġarnāṭa*, le Caire, 1319, 2 vol. ; ms. de la Bibliothèque nationale de Paris, n° 3347.
- *al-Lamḥat al-badriyya fī-d-dawlat an-naṣ-ṣiyya*, le Caire, 1347.
- Ibn Ḥātima. V. Colin (G. S.).
- Ibn Ḥawqal, *Kitāb al-masālik wa-l-mamālik* (B. G. A., t. II), Leyde, 1873 ; 2^e éd., par J. H. Kramers, Leyde, 1938, 2 vol.
- *Description de l'Afrique*, traduction française par De Slane, in J. A., 3^e série, tome 13 (1842), pp. 153-196 ; 209-258.
- Ibn Ḥayyān. : V. Ibn Ḥaiyān.
- Ibn Ḥāzim al-Qartāḡannī. V. Abu-l-Qāsim al Ġarnāti.
- Ibn Ḥazm, *Risāla*, in *Analectes*, II, pp. 109-21.
- *Ġamharat ansāb al-'Arab*, ms. de Paris, Bibliothèque nationale, n° 5829 ; ms. de Rabat, Bibliothèque du Protectorat, n° 365.
- *Ġamharat ansāb al-'Arab* (Collection : *Daḥā'ir al-'Arab*. — Vol. II), éd. critique par E. Lévi-Provençal, Le Caire, 1368 = 1948.
- *Tawq al-ḥamāma fī-l-ullāf wa-l-ullāf*, texte arabe par Pétrof, Leyde, 1914 ; autre éd. à Damas, 1349.
- trad. anglaise, par A. R. Nykl, *The Dove's Neck-Ring about Love and Lovers*, Paris, 1931 ;
- trad. italienne, par Fr. Gabrieli, *Il Collare della Colomba sull'Amore e gli Amanti*, Bari (Italia), 1949 ;
- trad. française, par L. Bercher *Le Collier du Pigeon ou de l'Amour et des Amants* (Bibliothèque Arabe-Française. — Vol. VIII), Alger, 1949 ;
- trad. espagnole, par E. García Gómez, *El Collar de la Paloma, tratado sobre el Amor y los Amantes*, Madrid, 1952.
- V. Asín Palacios.
- Ibn Hišām al-Baṣrī, *Strat ar-Rasūl*, Le Caire, 1329, 3 vol. ; éd. de Gottingen, par G. Wüstenfeld, 1858-1860, 2 vol.
- Ibn Ḥudāil al-Andalusī, *Ḥilyat al-fursān wa-ṣ-ṣār aṣ-ṣuḡ'ān*, texte arabe lithographié, Paris, 1921 ; trad. française annotée par Louis Mercier, *La parure des cavaliers et l'insigne des pieux*, Paris, 1924.
- Ibn 'Idārī, *al-Bayān al-muḡrib fī aḥbār al-Maḡrib*, t. I-II, texte arabe par Dozy, Leyde, 1848-1851, trad. française, par Fagnan, Alger, 1901-1904 ; t. III, texte arabe par Lévi-Provençal (*Textes arabes relatifs à l'Histoire*

- de l'Occident musulman, vol. II), Paris, 1930 ; trad. française des 37 premières pages, avec quelques coupures, par Lévi-Provençal, in *H. M. E.*, t. III, pp. 185-214. — Nouvelle éd. du texte arabe par G. S. Colin et E. Lévi-Provençal, Leiden, 1948-1951, 2 vol. parus.
- V. *Corrections...* de Dozy.
- Ibn Jobair, *Voyages*, traduits et annotés par Maurice Gaudefroy-Demombynes (Documents relatifs à l'histoire des Croisades, publiés par l'Académie des Inscriptions et Belles Lettres. — Vol. IV-V), Paris, 1949-1951, 2 vol. à pagination unique.
- Ibn Kardabûs, *al-Iktifâ' fî aḥbâr al-ḥulafâ'*, extraits in *Abbad.*, II, II-27.
- Ibn Luyûn, *Lamḥ as-siḥr min Rûḥ as-šî'r*, ms. de Rabat, Bibliothèque du Protectorat, n° 1033.
- Ibn Manẓûr, *Lisân al-'Arab*, Bûlâq, 1300-1308, 20 vol.
- Ibn al-Mawâ'inî, *Raiḥân al-albâb wa-rai'ân as-šabâb*, extraits in *Abbad.*, II, 1-10.
- Ibn al-Mu'tazz, *Dîwân*, Beyrouth, 1331.
- *Fuṣûl al-tamâṭil fî tabâšîr as-surûr*, Le Caire, 1344 = 1925.
- Ibn al-Qifṭî, *Ta'riḥ al-ḥukamâ'*, éd. par J. Lippert, Leipzig, 1903.
- Ibn Qutaiba, *aš-Šî'r wa-š-su'arâ'*, éd. par de Goeje, Leyde, 1904.
- *'Uyûn al-aḥbâr*, le Caire, 1343-1349 = 1925-1930, 4 vol.
- *Muqaddimat Kitâb aš-šî'r wa-š-su'arâ'* : *Introduction au Livre de la Poésie et des Poètes* (Collection arabe de l'Association Guillaume Budé), texte arabe avec Introduction, Traduction et Commentaire, par Gaudefroy-Demombynes, Paris, 1947.
- Ibn al-Qûṭiyya, *Historia de la conquista de España*, texte établi par Gayangos, trad. espagnole par J. Ribera, Madrid, 1926.
- Ibn Quzmân, *Dîwân : Cancionero*, texte arabe publié en phototypie par D. de Gunzburg, fasc. 1 (seul paru), Berlin, 1896 ; en transcription, précédé d'une étude et suivi d'une trad. partielle, par A. R. Nykl (*Publicaciones de las Escuelas de estudios árabes de Madrid y Granada*, Serie A, n° 1), Madrid-Grenade, 1933.
- Ibn Rašîq, *al-'Umda*, le Caire, 1325 = 1907, 2 tomes en 1 vol.
- Ibn ar-Rûmî, *Dîwân : Extraits choisis* par Kâmil Kilânî, le Caire, 1342 = 1924, 3 tomes en 1 vol.
- *Dîwân*, éd. critique par Muḥammad Šarîf Salîm, Le Caire, 1917-1922, 2 vol. (rimes *â à ḥâ*).
- Ibn aš-Saġarî, *al-Ḥamâsa*, éd. par F. Krenkow, Hyderabad (Dekkan), 1345.
- Ibn Sahl, *Dîwân al-aḥkâm al-kubrâ*, ms. d'Alger, Bibl. nationale, n° 1332.

- Ibn Sa'îd al-Mağribî, *'Unwân al-murqîṣât wa l-muṭribât*, Bûlâq, 1286 ; *Modèles de vers « à danser et à rire »*, texte et traduction annotée par A. Mahdad (Bibliothèque Arabe-Française. — Vol. IV), Alger, 1949.
- *Pāyât al-mubarrizîn wa-ġâyât al-mumayyizîn : El Libro de las Banderas de los Campeones*, éd. et trad par E. Garcia Gómez, Madrid, 1942.
- Ibn Šâkir al-Kutubî, *Fawât al-Wafayât*, Bûlâq, 1233, 2 vol.
- Ibn Samâ' al-Mulk, *Dâr al-Tirâz : Poétique du Muwašṣah*, éd. critique par Jawdat Rikabi, Damas, 1949.
- Ibn aš-Šihna, *ad-Durr al-muntaḥab fi ta'rîḥ Ḥalâl : Les perles choisies. Matériau pour servir à l'histoire de la ville d'Alep*, trad. française par J. Sauvaget (Mémoires de l'Institut Français de Damas), Beyrouth, 1933.
- Ibn Šuhaid (Abû 'Amir) al-Andalusî, *Risâlat al-tawâbi' wa'z-zawâbi'*, éd. par Buṭrus al-Bustânî, Beyrouth, 1951.
- Ibn Thofail, *Hayy ben Yaqdhân : Roman philosophique*, édition critique du texte arabe avec traduction française annotée, 2^e éd., par Léon Gautier (Publications de l'Institut d'Etudes Orientales... d'Alger. — Vol. III), Beyrouth, 1936.
- Ibn Ya'îs, *Šarḥ al-Mufaṣṣal*, éd. par Jahn, Leipzig, 1882-1886.
- Ibn Zâfir, *Badâ'i' al-badâ'ih*, Bûlâq, 1278.
- Ibn Zaidûn, *Diwân*, éd. par Kâmil Kilânî et 'Akd ar-Raḥmân Ḥalîfa, Le Caire, 1351 = 1932 ; éd. par Karam al-Bustânî, Beyrouth, 1951.
- Ibn Zâkûr, *Šarḥ Qalâ'id al-'iqyân*, ms. personnel.
- al-Idrîsî. V. al-Abšihî.
- Idris (H. R.), *Contribution à l'histoire de l'Ifrîkiya. Tableau de la vie intellectuelle et administrative à Kairouan sous les Aġlabites et les Fatimides (quatre premiers siècles de l'hégire) d'après le Riṡâq En Nuṣûs de Abû Bakr El Mâlikî*, in R. E. I., 1935, cahier II, p. 105-178 ; cahier III, p. 273-305 ; 1936, cahier I, p. 45-104.
- al-Idrîsî, *Description de l'Afrique et de l'Espagne*, texte arabe et trad. française par Dozy et de Goeje, Leyde, 1866.
- al-Iktif' fi aḥbâr al-ḥulafâ'* : V. Ibn Kardabûs.
- 'Imâd ad-Dîn al-Iṣfahânî, *Ḥarîdat al-qaṣr wa-ġarîdat ahl al-'aṣr*, ms. de Paris, Bibl. nationale, n^o 3330-3331 ; Extrait, in *Abbad.*, I, 383-423.
- Imru'l-Qais, *Diwân*, éd. par as-Sandûbî, Le Caire, 1349 = 1930.
- Islam d'Hier et d'Aujourd'hui*. V. Blachère ; Lévi-Provençal ; Pellat.
- L'Islam et l'Occident. Cahiers du Sud*, Paris, 1947.
- Islamica*. V. Hell ; al-Ḥâtimî.

- al-Istibšâr fi 'ağâ'ib al-amšâr*, texte arabe par Kremer, Vienne, 1852 ; trad. française par Fagnan, Constantine, 1900.
- J. A. : *Journal asiatique*. V. Abû Hâmid al-Andalusî ; Amari ; Bel ; Caussin de Perceval ; Clément-Mullet ; Dugat ; Ibn 'Abdûn ; Lammens ; Mehren ; Munk ; Quatremère ; de Slane ; at-Tiğânî.
- Jahn. V. Ibn Ya'îš.
- Jeanroy (A.), *La poésie lyrique des Troubadours*, Toulouse-Paris, 1934, 2 vol.
- Joret (Ch.), *La rose dans l'antiquité et au moyen âge*, Paris, 1892.
- *Les plantes dans l'antiquité et le moyen âge*, Paris, 1897, 2 vol.
- Journal des Savants*. V. Basset (R.) ; Marçais (G.).
- al-Kâtîb al-Miṣrî*. V. Lévi-Provençal.
- al-Kattânî (Muhammad ibn Ġa'far ibn Idris), *Salwat al-anfâs wa-muḥâdalâl al-akyâs biman uqbara min al-'ulamâ wa-š-šulahâ' bi-Fâs*, Fès, 1316, 3 vol.
- Kilânî (Kâmil), *Naẓarât fi ta'rîḥ al-udab al-andalusî*, le Caire, 1342 = 1924.
- V. Ibn ar-Rûmî ; Ibn Zaidûn.
- Kinâny (A. Kh.), *The Development of Gazal in Arabic Literature (Pre-Islamic and Early Islamic Periods)*, Damas, 1951.
- Kramers (J. H.). V. Ibn Hawqal.
- Kratchkowsky (I.), *Compte rendu de la 1^{re} éd. de La Poésie andalouse, in L'Orientalisme soviétique*, Moscou-Léninegrad, Tome III (1945), pp.288-291.
- Kremer (F. von). V. *al-Istibšâr*.
- Krenkow (F.). V. Ibn aš-Sağarî.
- Kurd 'Alî (M.), *Ġâbir al-Andalus wa-ḥâḍiruhâ*, le Caire, 1341 = 1923.
- *Ġarâ'ib al-Ġarb*, le Caire, 2^e éd., 1341 = 1923.
- *al-Islâm wa-l-ḥadârat al-'arabiyya*, le Caire, 1934-1936, 2 vol.
- *al-Qadîm wa-l-ḥadîṭ*, le Caire, 1343 = 1925.
- *Rasâ'il al-bulağâ'*, le Caire, 1331 = 1913.
- Lafuente y Alcantara (E.). V. *Aḥbâr Mağ'nû'a*.
- Lammens (H.), *L'attitude de l'Islam primitif en face des arts figurés*, in J. A., 11^e série, t. VI (1915), pp. 239-279.
- *Le berceau de l'Islam*, t. I, Rome, 1914.
- *Études sur le règne du calife omayyade Mu'âwîa I^{er}*, in *Mélanges de la Faculté Orientale de Beyrouth*, t. II, 1907.
- Laoust (E.), *Mots et choses berbères. Notes de linguistique et d'ethnographie. Dialectes du Maroc*, Paris, 1920.
- Leclerc (L.). V. Ibn al-Baitâr.

- Le Gentil (P.), *A propos de la « strophe zéjelesque », in Revue des Langues Romanes*, Tome LXX, 1949, pp. 119-134.
- Léon l'Africain, *Description de l'Afrique, tierce partie du monde*, éd. par Scheller, Paris, 1896-1898, 3 vol.
- Lerchundi (J.) et Simonet (J.), *Crestomatia arábigo-española*, Grenade, 1881.
- Lévi-Provençal (E.), *Alphonse VI et la prise de Tolède (1085)*, in *Hespéris*, XII (1931), pp. 33-49; reproduit dans *Islam l'Occident*, du même auteur, Paris, 1948, pp. 109-135.
- *L'Espagne musulmane au X^e siècle. Institutions et vie sociale*, Paris, 1932.
- *Fragments d'une chronique des Mulūk al-Ṭawā'if*, texte arabe in *al-Bayān*, t. III, pp. 289-316; trad. française in *H. M. E.*, t. III, Appendice II, 215-235.
- *Les Historiens des Chorfa*, Paris, 1922.
- *Inscriptions arabes d'Espagne*, avec quarante-quatre planches en phototypie, Leyde-Paris, 1931, 2 vol.
- *Un nouveau texte d'histoire mérinide : le Musnad d'Ibn Marzūq*, in *Hespéris*, V (1925), pp. 1-32.
- *Sur de nouveaux manuscrits de la Ḍahīra c'Ibn Bassām*, in *Hespéris*, XVI (1933), pp. 158-161.
- *Un texte inédit sur l'histoire de l'Espagne musulmane dans la seconde moitié du XI^e siècle, les Mémoires de 'Abd Allāh, dernier roi zîride de Grenade*, fragments publiés d'après le manuscrit de la Bibliothèque d'al-Qarawiyīn à Fès, avec une introduction et une traduction française, in *Al-Andalus*, Madrid-Grenade, vol. III, fasc. 2 (1935), pp. 233-344; vol. IV, fasc. II (1936), pp. 29-145.
- *Poésie arabe d'Espagne et poésie d'Europe médiévale*, dans *Islam d'Occident*, du même auteur, Paris, 1948, pp. 28-304.
- *Turāḡ al-Andalus*, en arabe, in *al-Kātib al-M. ṣrī*, Le Caire, janvier 1947, pp. 611-623; en français, sous le titre : *Le rôle spirituel de l'Espagne musulmane*, dans *Islam et Occident*, du même auteur, Paris, 1948, pp. 305-318.
- *Islam d'Occident. Etudes d'histoire médiévale* (Islam d'Hier et d'Aujourd'hui. — Vol. VII), Paris, 1948.
- *Glanures cidiennes. Lettre à D. Ramon Menendez Pidal*, in *Estudios dedicados a Menendez Pidal*, Madrid, 1950, 11 pages.
- *Le rôle de la Marche supérieure dans l'histoire politique de l'Espagne califienne*, in *Pireneos*, Zaragoza, 1950, 18 pages.

- *En relisant le « Collier de la Colombe »*, in *Al-Andalus*, Madrid, Vol. XV (1950), fasc. 2, pp. 335-375.
- *Histoire de l'Espagne musulmane*. — I. *La conquête et l'Emirat hispano-umaiyade (710-912)*. — II. *Le Califat umaiyade de Cordoue (912-1031)*, 2^e éd., Paris-Leiden, 1950, 2 vol. — III. *Le siècle du Califat de Cordoue*, Paris, 1953.
- V. 'Abd Allâh le Ziride ; Ibn 'Abd al-Mun'im al-Ĥimyari ; Ibn 'Abdûn ; Ibn Bassâm ; Ibn al-Ĥaṭib ; Ibn Ḥazm ; Ibn 'Idârî ; *Mafâḥir al-Barbar* ; as-Saqāṭi ; *Una cronica anonima*.
- E. Lévi-Provençal, E. García Gómez y J. Oliver Asin, *Novedades sobre la Batalla llamada de Al-Zallâqa (1086)*, in *Al-Andalus*, Vol. XV (1950), fasc. I, pp. 111-155.
- Lippert (J.). V. Ibn al-Qifṭî.
- Lisân : Ibn Manẓûr, *Lisân al-'Arab*, Bûlâq, 1300-1308, 20 vol.
- Longus, *Daphnis et Chloé*, éd. des Belles-Lettres, Paris, 1934.
- Luya (A.). V. aš-Šaqundî.
- al-Ma'arri (Abu-l-'Alâ'), *Risâlat al-ġufrân*, Le Caire, 1325-1907. ; éd. critique par Bint aš-Šâṭi' (Dahâ'ir al-'Arab. — Vol. IV), Le Caire, 1950.
- Machuel (L.), *Les auteurs arabes*, in *Lectures littéraires. Pages choisies des grands écrivains*, coll. publiée par A. Colin, Paris, 1912.
- Mahdad (A.). V. Ibn Sa'id ; Šafwân ibn Idrîs.
- Mafâḥir al-Barbar*, Fragments historiques sur les Berbères au moyen âge, éd. par Lévi-Provençal (*Collection de textes arabes publiée par l'Institut des Hautes Etudes Marocaines*, Vol. I), Rabat, 1934.
- Maġmû'a adabiyya*, Constantinople, 1302. V. as-Suyûtî.
- Magnin (Ch.), *Hrosvila*, in *Revue des Deux-Mondes*, 15 novembre 1839.
- al-Maidânî, *Magma' al-amâl*, Bûlâq, 1284, 2 vol.
- al-Maimanî ar-Râġakûtî, *an-Nuṭaf min šî'r Ibn Rušîq wa-zamîlih Ibn Šaraf*, le Caire, 1343.
- al-Mâlikî (Abû Bakr), *Kitâb Riyâd an-Nufûs*, éd. par Ḥusain Mu'nis, Le Caire, 1951.
- V. Idrîs (H. R.).
- Malo de Molina, *Rodrigo el Campeador*, Madrid, 1857.
- Ma'n ibn Aws, *Diwân*, éd. par Schwarz, Leipzig, 1903 ; éd. par Kamâl Mušṭafâ, le Caire, 1927.
- Manuel (D. Juan). V. *El Conde Lucanor*.
- al-Maqdisî. V. al-Muqaddasî.
- al-Maqqarî, *Azhâr ar-riyâd fi ahbâr al-qâdt 'Iyâd*, Tunis, 1322, t. I (szul paru) ; Le Caire, 1358 = 1939, 3 vol.

- *Nafḥ al-ḥib min ḡusn al-Andalus ar-raḥib wa-ḡikr waztrihā Lisān ad-Dīn Ibn al-Ḥaṭīb*, Būlāq, 1279 (= 1862), 4 vol. ; le Caire, 1302 (= 1884), 4 vol. ; Leyde, 1855-1861 : 2 vol. (1^{re} moitié seulement). En abrégé : éd. du Caire : *Nafḥ al-ḥib* ; éd. de Leyde : *Anal.* ou *Analectes*. — Ed. par M. Muḥyī ad-Dīn 'Abd al-Ḥamīd, Le Caire, 1367 = 1949, 10 vol.
- V. Dugat ; Gayangos ; Massé.

al-Maqrīzī. V. Quatremère.

Marçais (G.), *Les Arabes en Berbérie du XI^e au XIV^e siècle*, Constantine-Paris, 1913.

- *Le costume musulman d'Alger (1830-1930)* (Collection du Centenaire de l'Algérie. Archéologie et Histoire), Paris, 1930.
- *Echanges artistiques entre l'Égypte et l'Islam occidental*, in *Hespéris*, XIX, fasc. 1-2 (1934), pp. 95-106.
- *Les figures d'hommes et de bêtes dans les bois sculptés d'époque fâtimide conservés au Musée du Caire*, in *Mélanges Maspero*, vol. III (M.I.F.A.O. du Caire, t. LXVIII), pp. 241-257.
- *Manuel d'art musulman. L'architecture. Tunisie, Algérie, Maroc, Espagne, Sicile*, Paris, 1926-1927, 2 vol.
- *Note sur les ribāts en Berbérie*, in *Mélanges René Basset*, Paris, 1925, t. II, 395-430.
- *La question des images dans l'art musulman*, in *Byzantion*, t. VIII, fasc. I (1932), pp. 161-183.
- *Sur un bas-relief musulman du Musée Stéphane Gsell*, in *Annales de l'Institut d'Études orientales... d'Alger*, t. I (année 1934-1935), Paris, 1935, pp. 162-175.
- *La Berbérie Musulmane et l'Orient au Moyen Âge* (Les Grandes Crises de l'Histoire), Paris, 1946.
- *La poésie andalouse au XI^e siècle*, Compte rendu de la 1^{re} éd. de *La poésie andalouse*, in *Journal des Savants* (Paris), janvier-février 1939, pp. 14-30.

Marçais (G.), V. Diehl (Ch.).

Marçais (W.), *Le dialecte arabe parlé à Tlemcen* (Publications de l'École des Lettres d'Alger, t. XXVI), Paris, 1902.

- *Observations sur le texte du «Ṭawq al-ḥamāma» («le Collier de la colombe»)* d'Ibn Ḥazm in *Mémorial Henri Basset*, t. II, Paris, 1928, pp. 59-98.
- *Textes arabes de Takrouina* (B. E. L. O. T.), t. VIIII, Paris, 1925.
- V. at-Tiḡānī.

- Marçais (W. et G.), *Les monuments arabes de Tlemcen*, Paris, 1903.
- Mármol Carvajal, *Historia del rebelión y castigo de los Moriscos del Reyno de Granada*, Madrid, 1797, 2 vol.
- al-Marràkušī ('Abd al-Wāḥid), *al-Mu'ğib fi talḥiṣ ta'rīḥ al-Mağrib*, texte arabe par Dozy, Leyde, 2^e éd., 1881 ; éd. du Caire, 1324 = 1906 ; trad. française par Fagnan, *Histoire des Almohades*, in *Revue africaine*, 1891-1893, tirage à part, Alger, 1893. En abrégé : al-Marràkušī, *Hist. Almoh.*
- Martinenche (E.), *Propos d'Espagne*, Paris, 1905.
- Martino (P.), *L'Orient dans la littérature française au XVII^e et au XVIII^e siècle*, Paris, 1906.
- Maspero (Jean) et Wiet (Gaston), *Matériaux pour servir à la géographie de l'Egypte*, in *Mémoires de l'Institut Français d'Archéologie Orientale*, Vol. XXXVI, Le Caire, 1914-1919.
- Massé (H.), *Un chapitre des Aḥalektes d'al-Maqqarī sur la littérature descriptive chez les Arabes*, in *Mélanges René Basset*, t. I, Paris, 1923, pp. 235-258.
- *Les épopées persanes. Firdousi et l'épopée nationale*, Paris, 1935.
 - *Ibn Zaidūn*, in *Hespéris*, t. I (1921), pp. 183-193.
 - *Anthologie persane (XI^e-XIX^e siècles)*, Paris, 1950.
 - V. *L'âme de l'Iran*.
- Massignon (L.), *Les méthodes de réalisation artistique des peuples de l'Islam*, in *Syria*, 1921, pp. 5-22.
- *La passion d'al-Ḥosayn-ibn-Manṣūr al-Ḥallāj martyr mystique de l'Islam exécuté à Bagdad le 26 mars 922. Etude d'histoire religieuse*, Paris, 1922. En abrégé : Massignon, *al-Ḥallāj*.
 - *Recueil de textes inédits concernant l'histoire de la mystique en pays d'Islam, réunis, classés, annotés et publiés (Collection de textes inédits relatifs à la mystique musulmane, t. I)*, Paris, 1929.
 - *Recherches sur Shuṣṣ'arī, prêtre andalou enterré à Damiette*, in *Mélanges William Marçais*, Paris, 1950, pp. 251-276.
 - V. *L'âme de l'Iran*.
- al-Mas'ūdī, *Murūğ al-dahab : les Pruniers d'or*, texte arabe et trad. française par Barbier de Meynard et Pavet de Courteille, Paris, 1872-1877, 9 vol.
- Maḥmaḥ* : V. al-Faṭḥ ibn Ḥāqān, *Maḥmaḥ al-anfus...*
- Mehren (A. F.), *Correspondance du philosophe soufi Ibn Sab'īn Abī aul-Haqq avec l'empereur Frédéric II de Hohenstaufen*, in *J. A.*, 7^e série, t. IV (1879), pp. 341-454.

— V. ad-Dimašqî.

Mélanges de la Faculté orientale de Beyrouth. V. Lammens.

Mélanges Gaudefroy-Demombynes, Le Caire, 1935-1945.

Mélanges Maspero. V. Marçais (G.) ; Pérès.

Mélanges René Bassel. V. Cour ; Gaudefroy-Demombynes ; Marçais (G.) ; Massé.

Mémoires de l'Institut Français d'Archéologie Orientale du Caire (en abrégé : M. I. F. A. O.) Marçais (G.) ; Pérès.

Memorial Henri Bassel. V. Marçais (W.).

Memorias de la Real Academia de la Historia. V. Simonet.

Mendoza y Bobadilla, *El tizon de la Nobleza española y sambenitos de sus linajes*, Barcelone, 1880.

Meréndez y Pelayo (M.), *De las influencias semíticas en la literatura española* C. R. d'une étude de Fr. Fernández y Gonzalez — v. ce nom —, in *Obras completas. Estudios de critica literaria*, 2^e éd., in *Colección de escritores castellanos*, t. 106, Madrid, 1912.

Meréndez Pidal (R.), *La España del Cid*, Madrid, 1929, 2 vol.

— *Obras*. T. II : *Historia y epopeya*, Madrid, 1934.

— *Orígenes del español*, 2^e éd., Madrid, 1929.

— *Poesía juglaresca y juglares*, Madrid, 1924.

— *De la vida del Cid*, in *Revista de Occidente*, n^o 32 (février 1926).

— *Poesía árabe y poesía europea* (Colección Austral. — N^o 140), Madrid, 1941.

— *Cantos románicos andalusíes (continuadores de una lirica latina vulgar)*, in *Boletín de la Real Academia Española*, Tome XXXI, Cuaderno CXXXIII, Madrid, 1951.

— V. *Primera crónica general de España*.

Mercier (Louis). V. Ibn Hudail al-Andalusî.

Meunier (M.). V. *Anacréontiques*.

Mez (A.), *Die Renaissance des Islâms*, Heidelberg, 1922 ; trad. espagnole par Salvador Vila, *El Renacimiento del Islâm (Publicaciones de las Escuelas de Estudios árabes de Madrid y Granada, Série A, n^o 4)*, Madrid-Grenade, 1936 ; — Trad. arabe par Muḥammad 'Abd al-Hâdî Abû Rîda, Le Caire, 1947-1948, 2 vol.

M. I. F. A. O. : *Mémoires de l'Institut français d'archéologie orientale du Caire*. V. Marçais (G.) ; Pérès.

Migeon (G.), *Manuel d'art musulman. Arts plastiques et industriels*, Paris, 1927, 2 vol.

- Mihyâr ad-Dailamî, *Diwân*, le Caire, 1344-1350 = 1925-1931, 4 vol.
- Millas Vallicrosa (José M.), *La poesía sagrada hebraicoespañola*, Madrid, 1940 ; 2^e éd., 1949.
- *Tres polígrafos judaicos en la corte de los Tuchibies de Zaragoza*, Barcelona, 1948.
- *La traducción castellana del « Tratado de Agricultura » de Ibn Baṣṣâl*, in *Al-Andalus*, Vol. XIII (1948), fasc. 2, pp. 347-430.
- *La traducción castellana del « Tratado de Agricultura » de Ibn Wâḡid*, in *Al-Andalus*, Vol. III (1943), fasc. 2, pp. 281-332.
- Miscelanea de estudios y textos árabes*, Madrid, 1915. En abrégé : *Miscelanea*. V. Ibn al-Abbâr.
- Monchicourt (Ch.), *Mœurs indigènes. Les rogations pour la pluie (Thlôt en nô)*, in *Revue tunisienne*, t. 22 (1915), 65-81.
- Morère (M.), *Les données historiques de l'influence de la poésie andalouse sur la lyrique des Troubadours*, in *Annales de l'Institut d'Etudes Occitanes*, N° 7 (1^{er} mai 1951), pp. 48-60.
- Motyliniski (A. de C.), V. Muḥammad al-Muqrî.
- Mubârak (Zakî), *Ḥubb Ibn Abî Rabî'a wa-šî'ruh*, le Caire, 3^e éd., 1919.
- *al-Muwâzana bain as-šu'arâ'*, Le Caire, 1344 = 1926.
- *La prose arabe au IV^e siècle de l'hégire (X^e siècle)*, Paris, 1931.
- *an-Naṭr al-fannî fi-l-qarn ar-râbi'*, le Caire, 1352 = 1934, 2 vol.
- Mubârak (Zakî), V. al-Ḥuṣrî (Abû Ishâq).
- Mudawwar (Ġamil), *Ḥaḍrat al-islâm fi Dâr as-salâm*, Beyrouth, 1^{re} éd., 1888 ; 2^e éd., 1905 ; 3^e éd., 1932.
- Muḥammad al-Muqrî, *Ta'rif manâzil al-qamar. Les mansions lunaires des Arabes*, texte arabe en vers, trad. et annoté par A. de C. Motyliniski, Alger, 1899.
- Müller (M. J.), *Beiträge zur Geschichte der westlichen Araber*, Munich, 1866-1878.
- V. Ibn al-Abbâr, *al-Ḥulla*.
- Munier (H.) et Wiet (G.), *L'Egypte byzantine et musulmane (Précis de l'Histoire d'Egypte, t. II)*, le Caire, 1932.
- Mu'nis (Ḥusain), V. al-Mâlikî.
- Munk (S.), *Notice sur Abou'l-Wâlid Merwân Ibn Djanah et sur quelques autres grammairiens hébreux du X^e et du XI^e siècle*, in *J. A.*, 4^e série, t. 16, (1850), pp. 201-247.
- al-Muqaddasî, *Aḥsan al-aqâsim fi ma'rifat al-aqâlim. Descriptio imperii moslemici*, éd. par de Goeje, in *B. G. A.*, t. III, 2^e éd., Leyde, 1906.

- *Description de l'Occident musulman au X^e siècle*, texte arabe et trad. française annotée par Ch. Pellat (Bibliothèque arabe-française. — Vol. IX), Alger, 1950.

Al-Muṭtabas, V. Anastase.

Muṣ'lim ibn al-Walid, *Diwân*, éd. par de Goeje, Leyde, 1875.

Muṣṭafâ (Kamâl). V. Ma'n ibn Aws.

al-Mutalammis, *Diwân*, éd. par Vollers, Leipzig, 1903.

al-Mu'tamid, *Si'r* (à la suite d'Ibn Zaidûn, *Diwân*), le Caire, 1351 = 1932.

— V. Smith.

al-Mutanabbî, *Diwân*, avec le commentaire d'al-Ukbarî, Bûlâq, 1287, 2 vol. ; éd. annotée par al-Barqûqî, le Caire, 1348 = 1930 ; éd. Ṣâdir, Beyrouth, 1926.

— V. Blachère.

an-Nâsirî as-Salâwî, *al-Istiṣâ li-ahbâr duwal al-Mağrib al-aqṣâ*, le Caire, 1312, trad. française :

Tome I, par A. Graulle, in *Archives marocaines*, t. XXX (1923) ;

A. Graulle et G. S. Colin, in *Archives marocaines*, t. XXXI (1925) ;

Tome II, par I. Hamet, in *Archives marocaines*, t. XXXII (1927), t. XXXIII (1934) ;

Tome III, par Maḥammad en-Nâsirî, in *Archives Marocaines*, t. XXXIV (1936) ;

Tome IV, par E. Fumey, in *Archives marocaines*, t. IX-X (1906-1907).

an-Nawâḡî, *Ḥalbat al-kumail*, le Caire, 1299.

N. E. A. E. : *Nueva Biblioteca de autores españoles*. V. *Primera crónica general de España*.

Nicolson (R.), *A literary History of the Arabs*, Londres, 1914.

Nöldke (Th.), *Delectus veterum carminum arabicorum*, Berlin, 1890.

Notices et Extraits. V. Ibn al-Baiṭâr ; Ibn Ḥaldûn.

an-Nuwairî, *Nihâyat al-arab fi funûn al-ada'b*, éd. du Caire, 1923-1949 (15 vol. parus).

- *Historia de los Musulmanes de España y Africa* (Extrait de la *Nihâyat al-arab*), texte arabe et trad. espagnole par Gaspar Remiro (*Revista del centro de Estudios históricos de Granada y su Reino*), Grenade, 1917-1919, 2 vol.

Nykl (A. R.), *A Book containing the Risâla known as The Dove's Neck-Ring about Love and Lovers*, trad. anglaise du *Tawq al-ḥamâma* d'Ibn Ḥazm avec une Introduction, Paris, 193 .

- *La poesia a ambos lados del Pirineo hacia el año 1100*, in *Al-Andalus*, Vol. I (1933), fasc. 2, pp. 355-408.
- *Hispano-arabic Poetry and its relations with the Old Provençal Troubadours*, Baltimore, 1946.
- *Ma'jirât min aš-šî'r al-andalusî*, Beyrouth, 1949.
- V. Abû Dâûd ; Ibn Ĥazm ; Ibn Quzmân.
- Oliver Asin (J.), *Origen árabe de rebato, arroba y sus homónimos. Contribución al estudio de la historia medieval de la táctica militar y de su léxico peninsular* (*Boletín de la real Academia española*, année XV, t. XI, pp. 347-395, 496-542), Madrid, 1928.
- V. Lévi-Provençal et García Gómez.
- Osma y Scull (G. J.), *Catálogo de azabaches compostelanos, precedido de apuntes sobre los amuletos contra el ojo, las imágenes del apostol-romero y la cofradía de los azabacheros de Santiago*, Madrid, 1916.
- Pavet de Courteille. V. al-Mas'ûdî.
- Pellissier et Rémusat. V. Ibn Abî Dinâr.
- P. E. L. O. V. : *Publications de l'Ecole des langues orientales vivantes*. V. al-Buĥârî.
- Pérès (H.), *L'Espagne vue par les voyageurs musulmans de 1610 à 1930* (*Publications de l'Institut d'Etudes orientales de la Faculté des Lettres d'Alger*, t. VI), Paris, 1937.
- *Le Kitâb al-imâma wa's-siyâsa et la réception des poètes par le khalîfe omeyyade 'Umar ibn 'Abd al-'Azîz d'après Ibn Qutaiba*, in *Revue tunisienne*, nos 19-20 (1934), pp. 317-335.
- *Le palmier en Espagne musulmane. Notes d'après les textes arabes*, in *Mélanges Gaudéfroy-Demombynes*, le Caire, 1937, p. 225-239.
- *La poésie à Fès sous les Almoravides et les Almohades*, in *Hespéris*, t. XVIII-((993)), pp. 9-40.
- *La poésie arabe d'Andalousie et ses relations possibles avec la poésie des troubadours*, dans *L'Islam et l'Occident. — Cahiers du Sud*, Marseille-Paris, 1947, pp. 107-130.
- V. Abu-l-Walîd al-Ĥimyarî.
- Perron (Dr.), *Femmes arabes avant et depuis l'islamisme*, Paris et Alger, 1858.
- Petit-Dutaillis (Ch.) et Guinard (P.), *L'essor des Etats d'Occident (France, Angleterre, Péninsule ibérique)*, in *Histoire générale*, dirigée par G. Glotz. *Histoire du Moyen âge*, t. IV, 2^e partie Paris, 1937.
- Pétrof. V. Ibn Ĥazm.
- P. I. H. E. M. : *Publications de l'Institut des Hautes Etudes marocaines*. V.

- Brunot ; Renaud et Colin ; Šā'id al-Andalusī ; as-Saqāfi ; Terrasse.
Pireneos. V. Lévi-Provençal.
- Pirenne (H.), Cohen (G.), Focillon (H.), *La civilisation occidentale au Moyen âge, du XI^e au milieu du XV^e siècle*, in *Histoire générale*, dirigée par G. Glotz, *Histoire du Moyen âge*, t. VIII, Paris, 1933.
- Platonov. V. Gaudefroy-Demombynes.
- Plus beaux textes arabes (Les)*, présentés par E. Dermenghem, Paris, 1931.
- Pons Boigues (F.), *Ensayo bio-bibliográfico sobre los historiadores y geógrafos árabe-españoles*, Madrid, 1898. En abrégé : Pons Boigues, *Ensayo*.
- Prieto y Vives (A.), *Los reyes de taifas. Estudio histórico-numismático de los musulmanes españoles en el siglo V de la hégira (XI de J. C.)*, Madrid 1926.
- Primera crónica general de España*, éd. par R. Menéndez Pidal, in *N. B. A. E.*, t. V, Madrid, 1906.
- Publicaciones de las Escuelas de estudios árabes de Madrid y Granada*, Serie A ; Serie B. V. Ibn Quzmān ; Mez-Vila ; García Gómez ; as-Saqundī.
- Publications de l'Ecole des Langues Orientales Vivantes* (en abrégé : *P. E. L. O. V.*). V. al-Buḥārī et Houdas et Marçais (W.).
- Publications de la Faculté des Lettres d'Alger*. V. ad-Daḥīra as-saniyya ; Marçais (W.).
- Publications de l'Institut d'Etudes orientales de la Faculté des Lettres d'Alger*. V. Brunschvig, L. Gauthier ; Pérès.
- Publications de l'Institut Français d'Archéologie Orientale du Caire*. V. al-Ya'qūbī et Wiet.
- Publications de l'Institut des Hautes Etudes Marocaines* (en abrégé : *P. I. H. E. M.*). V. Brunot ; Renaud et Colin (G. S.) ; Šā'id al-Andalusī ; as-Saqāfi ; Terrasse.
- Qal. ou Qalā'id* : al-Faṭḥ ibn Ḥāqān, *Qalā'id al-'iyyān*, Būlāq, 1283.
- al-Qa. qašandī, *Ṣubḥ al-a'sā fī šinā'at al-inšā*, 1^{re} Caire, 1331-1338 = 1913-1920. En abrégé : al-Qalqašandī, *Ṣubḥ*.
- al-Qazwīnī, *Afār al-bilād wa-aḥbār al-'ibād*, texte arabe par F. Wustenfeld (*Kosmographie*, t. I), Gottingue, 1848.
- al-Qur'ās*. V. Ibn Abī Zar'.
- Quatremere, *Histoire des Mongols de la Perse*, Paris, 1836.
- *Histoire des Sultans Manilouks écrite en arabe par... Makrizi*, traduite en français, Paris, 1837-1845, 2 vol. en 4 parties. En abrégé : Quatremere, *Mamelouks*.

- *Mémoire sur le goût des livres chez les Orientaux*, in *J. A.*, 3^e série, t. VI (1838), pp. 35-78 et dans *Mélanges d'histoire et de philologie orientale*, Paris, sd. [1857] ; pp. 1-39.
- V. Ibn Ḥaldūn.
- Al-Qur'ân*, texte arabe constituant la *Vulgate du Qur'ân*, éd. du Caire, 1342 = 1923 (2^e éd., 1353 = 1934) ; éd. de Flügel, revue par G. M. Redslob, Leipzig, 1922.
- Traduction française par R. Blachère, sous le titre *Le Coran, traduction selon un essai de reclassement des Sourates* (Islam d'Hier et d'Aujourd'hui. — Vol. III-IV-V), Paris, 1947-1951, 3 vol.
- al-Quraṣī (Abū Zaid), *Ġamharat aš'ār al-'Arab*, Būlāq, 1038.
- R. A. A. D. : Revue de l'Académie arabe de Damas.*
- Raiḥān al-albāb wa-rai'ān aš-šabāb*. V. Ibn al-Mawā'ini.
- Rat (G.). V. al-Abṣiḥi.
- Raux (A.). V. aṭ-Ṭuġrā'i.
- Réau (L.) et Cohen (G.), *L'art du moyen âge*. (Arts Plastiques — Art Littéraire), in *L'évolution de l'humanité*, dirigée par H. Berr, n^o 40, Paris, 1935.
- Recherches¹, Recherches², Recherches³ : Dozy, Recherches sur l'histoire et la littérature de l'Espagne pendant le Moyen Age*, Leyde, 1^{re} éd., 1849, t. I (seul paru) ; 2^e éd., 1860, 2 vol. ; 3^e éd., 1881, 2 vol.
- Recueil de mémoires et de textes publiés en l'honneur du XIV^e Congrès des Orientalistes*. V. Bel.
- R. E. I. : Revue des études islamiques*. V. Blachère ; Idris.
- Reinaud. V. Abu-l-Fidā'.
- Religión y Cultura*. V. Antuña.
- Renan (E.), *Averroès et l'averroïsme*, 3^e éd., Paris, 1925.
- Renaud (H.P.J.), *Sur la date du Nairūz en Espagne musulmane*, in *Bulletin des Etudes Arabes*, N^o 15 (nov.-déc. 1943), pp. 143-144.
- Renaud (Dr. H. P. J.) et Colin (G. S.), *Tuḥfat al-aḥbāb (P. I. H. E.M., t. XXIV)*, Paris, 1934.
- Rescher (O.). V. al-Ḥātimī.
- Revista de Archivos*. V. Gonzalvo.
- Revista del centro de estudios históricos de Granada y su Reino*. V. Gaspar Remiro ; an-Nuwairī.
- Revista de Filología Espanola* (en abrégé : *R. F. E.*). V. Alonso (A.) ; Alonso (D.).
- Revista de Occidente*. V. García Gómez ; Menéndez Pidal.

- Revue de l'Académie Arabe de Damas* (en abrégé : R. A. A. D.).
- Revue des Deux-Mondes*. V. Magnin.
- Revue des Etudes Islamiques* (en abrégé : R. E. I.). V. Blachère ; Idris.
- Revue des Etudes juives*. V. Fagnan.
- Revue des Etudes Sémitiques*. V. Blachère.
- Revue tunisienne*. V. 'Abd al-Wahhâb ; Bercher ; Monchicourt ; Pérès.
- R. F. E. (*Revista de Filología Española*). V. Alonso (Amado) ; Alonso (Damaso).
- Ribera (J.), *Disertaciones y Opúsculos*, Madrid, 1928, 2 vol.
- *Historia de la música árabe medieval y su influencia en la española* (Colección de Manuales Hispania, vol. I, Serie G), Madrid, 1927.
- *La música de las Cantigas*, Madrid, 1922, 2 vol.
- V. Gil ; al-Hušanî ; Ibn Ḥair ; Ibn al-Qaṭṭiyya.
- Riḍâ (Muḥyî ad-Dîn). V. al-Ḥuṣrî (Abu-l-Ḥaṣan).
- Rifâ'î (A. F.), *Aṣr al-Ma'mûn*, le Caire, 1341 = 1927, 3 vol.
- V. Yâqût.
- Rikabi (Jawdat), *La poésie profane sous les Ayyûbides et ses principaux représentants*, Paris, 1949.
- V. Ibn Sanâ' al-Mulk.
- România. V. Colin (G. S.).
- Roques (Mario), *Préface à « La civilisation en France au Moyen Age »* de Joan Evans, Paris, 1930, pp. 5-10.
- Rousseau (Alphonse), *Le Parnasse oriental ou Dictionnaire historique et critique des meilleurs poètes anciens et modernes de l'Orient*, Alger, 1841.
- V. at-Tiġânî.
- Ṣâdir. V. al-Mutanabbî.
- aṣ-Ṣafadî, *Nakl al-himyân ft nukal al-'umyân*, éd. par A. Zakî, le Caire, 1329 = 1911.
- V. Zakî (A.).
- Ṣafwân ibn Idris al-Mursî, *Zâd al-musâfir wa-ġurral muḥayyâ al-adab as-sâfir*, ms. de l'Escurial, n° 355 ; éd. par A. Mahdad, Beyrouth, 1938.
- Ṣâ'id al-Andalusî, *Ṭabaqât al-umam*, texte arabe par L. Cheikho, Beyrouth, 1912 ; trad. française par R. Blachère (*P.L.H.E.M.*, t. XXVIII), Paris, 1935.
- Salles (G.) et Ballot (M. J.), *Les collections de l'Orient musulman*, Paris, 1928.
- aṣ-Ṣanawbarî, *ar-Rawḍiyyât*, éd. par Muḥammad Ṭabbâḥ, Alep, 1351 = 1932.
- Sánchez (M.). V. Gil.

Sánchez Albornoz (C.), *Estampas de la vida en León hace mil años*, Madrid, 1928.

— y Viñas (A.), *Lecturas de historia de España*, Madrid, 1929.

Sánchez Cantón (F. J.). V. *El Conde Lucanor*.

as-Sandûbi (Ḥasan), *Adab al-Ġāḥiz*, le Caire, 1350 = 1931.

— V. al-Ġāḥiz ; Imru' l-Qais.

Sanguinetti. V. Ibn Baṭṭūṭā.

as-Saqāṭi, *Un manuel hispanique de Ḥisba*. Texte arabe publié avec une introduction, des notes linguistiques et un glossaire, par G. S. Colin et E. Lévi-Provençal (*P.I.H.E.M.*, t. XXI), Paris, 1931.

aš-Šaqundī, *Risāla fī ḥaḍl al-Andalus*, texte arabe in *Analectes*, t. II, pp. 126-150 ; trad. espagnole par E. García Gómez, *Elōgio del Islām español*, Madrid-Grenade, 1934 ; trad. française par A. Luya, in *Hespéris*, t. 22 (1935), fasc. 2, pp. 143-181.

Šaraf ad-Dīn Rāmī, *Anīs al-'uṣṣāq. Traité des termes figurés relatifs à la description de la beauté*, trad. du persan et annoté par Cl. Huart (*Bibliothèque de l'Ecole des Hautes Etudes*, t. XXV), Paris, 1875.

aš-Šarīf al-Ġarnāṭī, *Raf' al-ḥuḡub al-maslūra fī maḥāsīn al-Maqṣūra*, le Caire, 1344, 2 vol.

aš-Šarīṣī, *Šarḥ maqāmāt al-Ḥarīrī*, le Caire, 1314, 2 vol.

Sauvaget (J.). Ibn aš-Šihna.

Sauvaire (H.), *Voyage en Espagne d'un ambassadeur marocain (1690-1691)* (*Bibliothèque orientale elzévirienne*. — Tome XXXIX), Paris, 1884.

Schack (Fr. von), *Poesía y arte de los Arabes en España y Sicilia*, trad. espagnole par J. Valera, 3^e éd., Séville, 1881, 3 vol. En abrégé : Schack-Valera, *Poesía y arte*.

Schefer. V. Léon l'Africain.

Schiaparelli. V. Ibn Ḥamdīs ; *Vocabulista in arabico*.

Schwarz. V. Ma'n ibn Aws.

Schwarzlose (F. W.), *Die Waffen der alten Araber aus ihren Dichtern dargestellt*, Leipzig, 1886.

Seybold, *Hispano-arabica*, in *Z. D. M. G.*, t. 63 (1909), pp. 350-364.

Simonet (F. J.), *Descripción del reino de Granada bajo la dominación de los Naseritas sacada de los autores arabes, y seguida del texto inédito de Mohammed Ibn Aljatib*, Madrid, 1861.

— *Glosario de voces ibéricas y latinas usadas entre los Mozárabes precedido de un estudio sobre el dialecto hispano-mozárabe*, Madrid, 1888.

— *Historia de los Mozárabes de España deducida de los mejores y mas auténticos*

- ticos testimonios de los escritores cristianos y árabes (Memorias de la real Academia de la Historia, t. XIII), Madr 1, 1897-1903.*
- *El siglo de oro de la literatura arabigo-española*, Grenade, 1867.
- aš-Širwānī, *Ḥadīqat al-afrāḥ*, le Caire, 1298
- Slane (de), *Observations sur le sens figuré de certains mots qui se rencontrent souvent dans la poésie arabe*, in *J. A.*, 3^e série, t. VII, (1839), pp. 169-178.
- V. Abu-l-Fidā' ; al-Bakrī ; Ibn Ḥaldūn ; Ibn Ḥallikān.
- Smith (Dulcie Laurence), *The Poems of Mu'tamid King of Seville rendered into english verse, with an introduction*, Londres, 1915.
- Steane (G.). V. Graetz.
- Stern (S. M.), *Les vers finaux en espagnol des les muwaššahs hispano-berberiques*, in *Al-Andalus*, Vol. XIII (1945), fasc. 2, pp. 299-346.
- *Un muwaššah arabe avec terminaison espagnole*, in *Al-Andalus*, Vol. XIV (1949), fasc. I, pp. 214-218.
- aš-Sūlī (Muḥammad ibn Yaḥyā), *Akhbār al-Rādī Billāh wa'l-Muttaqī Billāh (Histoire de la dynastie 'abbāsīde de 322 à 333/934 à 944)*, traduit de l'arabe par M. Canard (*Publications de l'Institut d'Etudes Orientales... d'Alger*. — Vol. XI-XII), Alger, 1946-1950, 2 vol.
- as-Suyūṭī, *Buḡyat al-wu'āt fī ṭabaqāt al-luḡaṣṣiyyīn wa-n-nuḥāt*, le Caire, 1326.
- *Rašf al-la'āl fī waṣf al-hilāl*, in *Muḡmū'a anabiyya*, Constantinople, 1302.
- Syr'a. V. Massignon.
- aṭ-Ta'ālībī, *Tīmār al-qulūb fī-l-mudāf wa-l-maṣūb*, le Caire, 1326.
- *Yafimat ad-dahr fī šu'arā' ahl al-'aṣr*, Damas, 1304, 4 vol. : le Caire, 1352 = 1911, 4 vol.
- aṭ-Ṭabarī, *Annales (Aḥbār ar-rusul wa-l-ṭulūk)*, éd. par de Goeje, Leyde, 1879-1901, 15 vol.
- Ṭabbāḥ (Muḥ. Rāḡib). V. aš-Šanawbarī.
- Tāġ al-'arūs* : az-Zabīdī, *Tāġ al-'arūs fīn ḡawāhir al-Qāmūs*, le Caire, 1306-1307, 10 vol.
- Ṭaḥa Ḥusain. V. Ḥusain (Ṭāḥā).
- Tallgren (O. J.), *Los nombres árabes de las estrellas y la transcripción alfonsina*, in *Homenaje ofrecido a Menéndez Pidal*, t. II, Madrid, pp. 633-718. En abrégé : Tallgren, *Estrellas*.
- at-Tamgrūṭī, *an-Naḥḥat al-miskiyya fī-s-sifārat at-turkiyya. Relation d'une ambassade marocaine en Turquie, 1589-1591*, trad. et annotée par H. de Castries, Paris, 1929.
- Tedjini (B.), *A travers l'Andalousie musulmane. Un Roi-Poète ou El-Mu'tamid ibn Abbad, Prince de Séville*, Casablanca, 1939. —

En abrégé : Tedjini, *Un Roi-Poète*.

Terrasse (H.), *L'art hispano-mauresque des origines au XIII^e siècle* (P. I. H. E. M., t. XXV), Paris, 1932.

— *Histoire du Maroc, des origines à l'établissement du Protectorat français*, Casablanca, 1949-1950, 2 vol..

Textes arabes relatifs à l'histoire de l'Occident musulman. V. Ibn 'Idâri.

at-Tibrîzi, *al-Qaṣâ'id al-'aṣr*, éd. Muḥammad Munîr 'Abduh ad-Dimaṣqî, le Caire, 1343.

— V. al-A'ṣâ.

at-Tiġānî (Abû Muḥammad 'Abd Allâh), *Rihla*, texte arabe par W. Marçais, Tunis, 1345 = 1927 ; trad. française par A. Rousseau, in *J. A.*, 4^e série, t. XX (1852), pp. 57-208 ; 5^e série, t. I (1853), pp. 101-168, 354-425.

— *Tuḥfat al-'arûs wa-nuzhat an-nufûs*, le Caire, 1301 ; extraits in *Abbad.*, II, 139-155 ; m. d'Alger, Bibliothèque nationale, n° 1784.

aṭ-Tiġnârî, *Zahr al-bustân wa-nuzhat al-aḥḥân*, ms. de la Section sociologique de la Direction des Affaires indigènes au Maroc. Tornberg. V. Ibn Abî Zar' ; Ibn al-A'îr.

aṭ-Tuġrâ'i, *Lâmiyyat al-'aḡam*, texte et trad. annotée par A. Raux, Paris, 1903.

at-Tuḥfat al-bahigya. V. al-Ḥâtîmî.

Tûqân (Ibrâhîm). V. Abû Dâûd.

Tuulio (M. O. J.), *Ibn Quzmân, poète bilingue*, Helsinki, 1941.

al-'Ukbârî. V. al-Mutanabbî.

al-'Umarî. V. Ibn Faḍl Allâh ; Gaudefroy-Demombynes.

Una cronica anónima de 'Abd ar-Raḥmân III al-Nâsir, texte établi et traduit en espagnol avec Introduction, notes et index, par E. Lévi-Provençal et E. García Gómez, Madrid-Granada, 1950.

Valera (J.). V. Schack (F. von).

Vernet (Juan), *El valle del Ebro como nexo entre Oriente y Occidente*, in *Boletín de la Real Academia de Buenas Letras de Barcelona*, XXIII, 2^o, 1950, pp. 249-286.

Vila (Salvador). V. Mez (A.).

Viñas (A.). V. Sánchez Albornoz (C.).

Vloten (Van). V. al-Ġâḥiẓ ; al-Ḥuwârazmî.

Vocabulista in arabico, publié par G. Schiaparelli, Florence, 1871.

En abrégé : *Vocabulista*.

Vollers. V. al-Mutalammis.

- Wacyf Boutros Ghali, *La tradition chevaleresque des Arabes*, Paris, 1919.
- Weijers (H. E.), *Specimen criticum, exhibens locos Ibn Khacanis de Ibn Zeidouno...*, Leyde, 1831. En abrégé : Weijers, *Specimen de Ibn Zeidouno*.
- Wiet (G.), V. Maspero (J.) ; Munier ; al-Ya'qûbî.
- Wiet (G.) et Hauteœur (L.), *Les mosquées du Caire*, Paris, 1932, 2 vol.
- Wüstenfeld (F.), V. Ibn Hišâm al-Bašr' ; al-Qazwini ; Yâqût. al-Ya'qûbî, *Kitâb al-buldân* (B. G. A., t. VIII), Leyde, 2^e éd., 1892.
— *Les Pays*, traduit en français par Gaston Wiet (*Publications de l'Institut Français d'Archéologie Orientale du Caire. — Textes et traductions d'auteurs orientaux. — Tome Ier*), Le Caire, 1937.
- Yâqût, *Irsâd al-artb ilâ ma'rifat al-adl* = *Ṭabaqât al-u'labbâ' ou Mu'ğam al-udabbâ'* (*Gibb Memorial, Old Series*, t. VI), éd. par D. S. Margoliouth, Londres, 1907-1926, 7 vol. ; 2^e éd. par Aḥmad Farid Rifâ'i, Le Caire, 1355-1357 = 1936-1938, 20 vol.
— *Mu'ğam al-buldân*, texte arabe par Wüstenfeld, Leipzig, 1866-1873, 6 vol.
— V. Barbier de Meynard.
- az-Zabidî. V. *Tâğ al-'Arûs*.
- Zâhid 'Alî. V. Ibn Hâni'.
- Zakî (Aḥmad), *Mudun al-fann ft bilâa al-Andalus*, in *al-Hilâl*, 43^e année, décembre 1934 à mai 1935.
— *Notice sur les couleurs nationales de l'Egypte musulmane*, in *B. I. F. A. O. du Caire*, 1921, pp. 1-35.
— *Safadi. Dictionnaire biographique des Aveugles illustres de l'Orient. Notice bibliographique et analytique*, le Caire, 1911.
— V. Ibn Faḍl Allâh al-'Umarî ; aṣ-Şe'adî.
- Zakî Mubârak. V. Mubârak (Zakî).
- az-Zamahşari, *al-Mufaṣṣal*, éd. du Caire, 1323.
— V. Ibn Ya'îš.
- Zayyât (Ḥabîb), *Mu'ğam al-marâkib wa's-sufun ft'l-Islâm* (*Répertoire des noms de vaisseaux et d'embarcations en Islâm*), in *Al-Machriq*, juillet-décembre 1949, pp. 321-364.
— *Luğat al-ḥadûra* (*Les néologismes arabes au début de l'Islâm*), in *Al-Machriq*, juillet-décembre 1949, pp. 516-523 ; janvier-mars 1951, pp. 7-9.
- Z. D. M. G. : *Zeitschrift der deutschen morgenländischen Gesellschaft*.
— V. Goldziher ; Ibn Ġarsiya ; Seybolc

المحتوى

صفحة

٣

كلمة المترجم

٧

الإهداء

٩

فاتحة الطبعة الثانية

١١

مقدمة

مدخل

١٣

١ - الظروف السياسية

«الفتنة» أو الاضطرابات السياسية في مطلع القرن الحادى عشر الميلادى ١٣ - الحزب الأندلسى والحزب البربرى ١٤ - الخصومة بين هذين الحزبين ١٦ - زعماء الحزب الوطنى ١٧ - سياسة بنى عباد ١٨ - موقف المعتمد من المسيحيين ومن المرابطين ١٩ - كراهيته للبربر ٢٠ - وله الموقف نفسه من المعتصم ٢٠ - الأندلسيون يحتفرون البربر ٢١.

٢١

٢ - الظروف العنصرية

(أ) أسباب ضعف الأمويين طبقا لابن سعيد ٢٢ - وطبقا لابن الوطواط ٢٢ - وطبقا لابن خلدون ٢٢ - روح جديد من التضامن الوطنى ٢٣.
(ب) شخصية الأندلسى ٢٣ - الأندلسى حقيقة واقعة ٢٣ - طبقات المجتمع المختلفة ٢٣ - الأندلسى فى رأى ابن حزم ٢٤ - وفى رأى ابن غالب ٢٥ - امتزاج الخصائص المختلفة ٢٥ - ملامح الأندلسى بعامة ٢٥.

الباب الأول

● الشاعر: تكوينه وظروفه الاجتماعية

● الموضوعات الشعرية التى انبثقت فى حياة البلاط

٢٩

● الفصل الأول: مناهج نشر اللغة العربية بين الإسبان المسلمين

ولع الأمراء بامتلاك الوزراء الشعراء ٢٩ - ازدهار الشعر بسبب مناهج التعليم ٣٠ - أهمية الشعر فى الدراسة طبقا لابن العربى ٣٠ - الإنسية الأندلسية ٣١ - المؤسسات التعليمية وأمكنة الدراسة ٣١.

● الفصل الثاني: المواد والمؤلفات التي كانت تدرس في القرن الحادي عشر

٣٣.

فهرسة ابن خير ٣٣ - الكتب الأدبية ٣٤ - تناثر مكتبة الحكم الثاني ٣٥ - كتب النحو واللغة ٣٦ - الشعراء المولدون: أبو نواس ٣٨ - ابن الرومي ٣٩ - البحتري ٣٩ - المتنبي ٤٠ - شعراء مشاركة آخرون ٤١ - أبو العلاء المعري ٤١ - معرفة الأدب الإغريقي ٤٢ - ابن شهيد ورسائله التوابيع والزوايع ٤٢ - حرية الدراسة ٤٣.

٤٥

● الفصل الثالث: المشرق والمغرب

١ - ما تدين به إسبانيا للمشرق قبل القرن الحادي عشر ٤٥ - إسبانيا لم تعد في حاجة إلى نماذج مشرقية ٤٦ - الحياة فيها أكثر صقلا من المشرق ٤٦ - العلاقات بين المشرق والمغرب ٤٧ - حالة أبي الفضل الدارمي البغدادي ٤٧.

٢ - كيف كان يرى المشرق إسبانيا ٤٨.

٣ - الوهم المشرقي ٥٠ - الألقاب المشرقية ٥٠ - مكانة العراق وبغداد ٥٢ - حنين الشعراء إلى المشرق ٥٣ - خيبة أمل الذين لم يذهبوا ٥٣ - رد الفعل ضد المشرق ٥٤ - شعراء المغرب موضع دراسة المشاركة - ربح - مثل الآخرين ٥٤ - مختارات من الشعر الأندلسي ٥٥ - القومية الأدبية: مقدمة بي الوليد الحميري ٥٥ - مقدمة ابن بسام ٥٦ - اندماج الشعر الأندلسي في الأدب العربي ٥٧.

٥٨

● الفصل الرابع: شعر البلاط وشعراؤه

١ - مكانة الشعراء الاجتماعية ٥٨ - الأميون والمكفوفون ٥٨ - شعراء البلاط ٥٩ - الشعراء الفلاحون ٥٩ - الطبقات العليا تذوق الشعر ٥٩ - المعتضد ٦٠ - المعتمد وأبناؤه ٦٠ - المعتصم وأبناؤه ٦١ - الشعر في بطليوس ٦١ - في غرناطة ٦١. ٢ - مظاهر تذوق الشعر ٦٢ - مفهوم الشعر عند الأندلسيين ٦٢ - ربة الشعر الأندلسي ٦٤.

٣ - اتهام الشعر والشعراء ٦٥ - نقد ابن بسام ٦٥ - دفاع ابن شهيد عن الشعر ٦٦ - شعر التكبسب ٦٦.

٤ - حياة الشاعر ٦٨ - الملابس اريفية ٦٨ - أصول متواضعة ٦٩ - السهر على ضوء ساطع أو على وميض قنديل ٦٩ - الحوار بين أبي الوليد الباجي وابن حزم حول هذا الأمر ٦٩ - رحلات الشعراء ٧٠ - استقبال الشعراء في البلاط ٧٠ - الإقامة وصاحب «الإنزال» ٧١ - اختبار الشاعر يوم استقباله ٧٢ - حالة ابن جاح ٧٣.

٥ - الواقع الاجتماعي وحظ الشعر منه ٧٤ - حالة التبعية ٧٤ - الهجوم على

الشعراء ٧٥ - نقد الحساد: صفحة من كتابات ابن حزم حول هذا الأمر ٧٥ - نقد الأمراء لهم ٧٦.

٦ - الشاعر الرسمي ٧٧ - المرتبات ٧٨ - العطايا ٧٨ - شعراء العابرون والبحث عن الهدايا ٧٩ - بعض الشعراء لا يهتمون بهذا ٧٩ - الشعراء الذين اغتنوا ٧٩ - شعراء غُوضوا فيما بعد ٨٠ - فكاكة انتقامية ٨١ - إطرء الكرم ٨١ - وظائف يتولّاها الشعراء: الوزير الكاتب ٨١ - كاتب الزمام ٨٢ - صاحب الشرطة ٨٢ - الحاكم ٨٣ - السفير ٨٣.

● الفصل الخامس: حياة البلاط في نتاج الشعراء ٨٤

دور الشاعر السياسي ٨٤ - الغلو آفة المديح ٨٤ - الإشادة بالشجاعة والكرم ٨٥ - عراقة الحسب ٨٥ - الزهو بالدم العربي ٨٥.

● الفصل السادس: الشاعر مؤرخًا ٨٧

١ - لا مبالاة أواخر بني أمية ٨٧ - كراهية البربر ٨٧.
٢ - الصراع الديني: الإباضيون والخواارج ٨٩ - الشيعة ٨٩ - الفاطميون ٩٠ - اختفاء الاهتمامات الدينية في ممالك الطوائف ٩٢.
٣ - معركة بطرنة في ٤٥٥ هـ = ١٠٦٣ م ص ٩٢ - سقوط بربرشتر في ٤٥٦ = ١٠٦٤ ص ٩٣ - سقوط طليطلة في ٤٧٨ = ١٠٨٥ ص ٩٣ - استدعاء المرابطين ٩٤ - موقعة سجراخاس أو الزلاقة ٩٤ - إزاحة ملوك الطوائف عن عروشهم ٩٥ - رحيل المعتد ٩٦ - كراهية الشعب لأمراء الطوائف ٩٦.
٤ - محاولة شعر ملحمي ٩٨ - قصيدة أبي طالب عبد الجبار للتنبئ ٩٨ - قصيدة ابن عبدون ٩٨.

٥ - استيلاء السيد القنبيطور على بلنسية ٩٩.

٦ - الألقاب التي حملها ملوك الطوائف ١٠٠.

الجزء الثاني

الموضوعات العامة المستوحاة من الطبيعة

○ الموضوعات المفضلة: ١٠٥

● الفصل الأول: إسبانيا والمدن والمنتزهات ١٠٦

١ - إسبانيا ١٠٦ - إسبانيا جنة الأرض ١٠٧ - جنان إسبانيا ١٠٨ - تربة إسبانيا من مواد ثمينة ١٠٨.

صفحة

٢ - المدن وأماكن الراحة والقصور ١٠٩ - وصف المدن ١٠٩ - صور ومعجم خاص
١١٠ - ذوق الأندلسيين في المباني الجميلة ١١٠ - مدن إسبانيا كما رآها الشعراء ١١١.
٣ - قرطبة وروائعها الأربع ١١١ - تدمير قرطبة في مطلع القرن الحادى عشر
الميلادى كما يصفه ابن حزم وابن شهيد ١١٢ - مدينة الزهراء في القرن الحادى عشر
١١٤ - حزن الشعراء أمام أطلالها ١١٥ - قصور أخرى في قرطبة: الدمشق أو قصر
البيستان ١١٧ - حير الزجاجى ١١٧ - غواحي قرطبة طبقا لابن زيدون ١١٨ - المنيات
والوديان ١٢٠ - حشرات أوحث بها قرطبة ١٢١.

٤ - إشبيلية وأرباضها ١٢٢ - قصور إشبيلية: الزهراء ١٢٣ - قصور المعتمد:
الزاهى ١٢٤ - المكرم ١٢٥ - المبارك - القصر ١٢٥ - قصور ومنيات أخرى في إشبيلية:
دار المزينة والبحيرة الكبرى ١٢٦ - خنزعات حول إشبيلية ١٢٧ - نهر الوادى الكبير
وجزره ١٢٧ - المروج والوديان ٢٧ - ذكر إشبيلية والحنين إليها ١٢٨.

٥ - المرية وضواحيها ١٢٨ - المرية في عصر ملوك الصقالية ١٢٩ - قصر الصمادحية
١٢٩ - الوديان والمروج ١٣٠ - إطرء المرية وهجاؤها ١٣٠.

٦ - مدن إسبانية أخرى ١٣١ - برجة ١٣١ - وادى آش ١٣٢ - غرناطة وفحصها
١٣٢ - حور مؤمل ونجد فيها ١٣٣ - رندة ١٣٣ - شلب ١٣٣ - بطليوس ١٣٥ -
طليطلة ١٣٥ - قصر المأمون ١٣٥ - منية المأمون ١٣٦ - سرقسطة ١٣٧ - قصر
الجعفرية ١٣٧ - بلنسية ١٣٨ - هجة بلنسية ومدىها ١٣٩ - الجزائر الشرقية (جزر
البليار) ١٤٠ - الجزيرة ١٤٠ - ساطية ١٤٠ - ما بقى من كل منشآت القرن الحادى
عشر ١٤١ - ما تثيره الأطلال من حشرات وذكريات ١٤١.

١٤٢

● الفصل الثانى: الوديان والجبال

١ - الوديان ١٤٢ - وادى آش ١٤٢.

٢ - الجبال ١٤٣ - الجبل كما يراه ابن خفاجة ١٤٣.

١٤٥

● الفصل الثالث: الحدائق والبساتين

١ - الحدائق تحت المطر ١٤٥ - الحدائق في الجو الصافى ١٤٦ - الحدائق تحت المطر
والنسيم ١٤٦ - الحدائق كما يصورها ابن خفاجة: غابات صغيرة أقرب منها حدائق ١٤٧.

٢ - الزهور ١٤٩ - زهرة الآس ١٥٠ - الأقحوان ١٥٠ - البنفسج ١٥١ - البهار
أو نرجس الشعراء ١٥١ - النرجس الأصفر ١٥٣ - النرجس القادوسى ١٥٣ -
الحرم ١٥٣ - الخيرى الأصفر ١٥٤ - الخيرى النمام ١٥٥ - السوسن الأبيض ١٥٧ -
النيلوفر ١٦٠ - الورد ١٦٢ - اليسمين البستانى ١٦٢ - الشقائق ١٦٣ - نور
الكتان ١٦٤ - نور اللوزة ١٦٤ - نور الرمان ١٦٥ - نور الجنار ١٦٥ - نور

الباقلاء ١٦٥ - نور الغالية ١٦٦.

- ٣ - الحوار بين الزهور ١٦٧ - في الشرق يفضلون البهر على الورد ١٦٧ - في إسبانيا يفضلون الورد على البهار ١٦٧ - حوارات أخرى بين الزهور ١٦٨.
- ٤ - وصف الربيع في مطالع شعر الغزل والمديح ١٦٨ - نتائج الدراسة ١٦٩.
- ٥ - الأشجار والخضروات ١٧٠ - أشجار وصفها الشعراء: الحور والدردار والسرو ١٧١.

- ٦ - الفواكه ١٧١ - التفاح ١٧٢ - الكمثرى ١٧٢ - الرمان ١٧٢ - القراسيا (حب الملوك) ١٧٣ - الليمون ١٧٤ - السفرجل ١٧٤ - البرتقال ١٧٤ - النارج ١٧٤ - التين ١٧٥ - فواكه أخرى: العنب والخوخ والتوت والبلح ١٧٦.
- ٧ - الخضروات ١٧٦ - الفول والخرشوف والباذنجان والكرنب ١٧٦.
- ٨ - الإحساس بالطبيعة ١٧٨ - أسباب حب الطبيعة ١٧٨ - حب الزراعة وقراءة الكتب التي عرضت للفلاحة ١٧٨ - التقويم الزراعى ١٧٩ - صور ريفية في الشعر ١٨٠ - الميل إلى الحياة الريفية ١٨١ - حالة ابن مقانا الشاعر ١٨١.

١٨٣

● الفصل الرابع: المياه جارية وراكدة

- ١ - البحيرات والغدران ١٨٣ - تشبيه الدروع بمياه الغدران خددها التسيم ١٨٣ - البرك ١٨٤ - المياه الفوارة ١٨٤ - النوافير ١٨٤ - السواقي ١٨٥.
- ٢ - المياه الجارية ١٨٦ - الجداول ١٨٦ - الأنهار ١٨٧ - الوادى الكبير في إشبيلية ١٨٧ - المد والجزر ١٨٧ - الشواطىء الظليلة ١٨٨ - قوارب النزهة ١٨٩ - نهر أبر في سرقسطة ١٨٩ - رحلة صيد في نهر أبر ١٨٩ - نهر شلب ١٩٠ - نهر شقر في الجزيرة ١٩٠ - الفيضانات ١٩١.

١٩٢

● الفصل الخامس: البحر والسفن

- المسمون والبحر ١٩٢ - الخوف من البحر ١٩٢ - صور شعرية مستمدة من البحر والإبحار ١٩٣ - الأسطول الأموى ١٩٣ - صناعة السفن ١٩٣ - البحر في عصر ملوك الطوائف ١٩٤ - أسطول المعتمد في إشبيلية ١٩٤ - أسطول المعتمد في المرية ١٩٥ - أسطول أمراء دانية والجزائر الشرقية ١٩٥ - المهرجان البحرى في ٢٤ يونية ١٩٥ - معجم شعرى خاص بالسفن ١٩٦.

○ الموضوعات الثانوية

٢٠١

● الفصل الأول: السماء والظواهر الطبيعية

- ١ - الغروب والشفق ٢٠١.
- ٢ - الليل والنجوم والقمر ٢٠١ - البدر والهلل ٢٠٢ - النجوم ٢٠٣ - الكواكب
السيارة ٢٠٤ - تأثير الكواكب ٢٠٤ - الكيمياء والكواكب ٢٠٤ - الليل مهبط ذكريات
العاشقين ٢٠٥ - ليل طويل وقلق ٢٠٥.
- ٣ - الليل يعقبه الفجر ٢٠٥ - الفجر ٢٠٦.
- ٤ - نسيم وعواصف ٢٠٧.
- ٥ - السحاب والبرق والمطر ٢٠٨ - الرعد ٢٠٩ - قوس قزح ٢١٠ - البرد
٢١١ - الثلج ٢١١ - البرد والثلج ٢١١ - التدفئة بالكانون ٢١٢.
- ٦ - أشياء جامدة وسائل ٢١٢ - كأس البللورى ٢١٣ - التبيد فى الكأس ٢١٣ -
الزهور والثمار ٢١٣.

٢١٥

● الفصل الثانى: الحيوانات .

- ١ - الحيوانات ذوات الأربع ٢٠٥ - الحصان ٢١٥ - الكلب ٢١٦ - الزرافة
٢١٧ - الأسد ٢١٨ - الذئب ٢١٨ - الجمل والخنزير ٢١٩ - القرد ٢٢٠ - حيوانات
أخرى من ذوات الأربع: القنفذ والسحفاة والحرباء ٢٢٠.
- ٢ - الزواحف ٢٢٠.
- ٣ - العصافير ٢٢١ - عصافير مدينة الزهراء ٢٢١ - البليل ٢٢١ - الزرزور
٢٢٢ - القطا وحجل الصحراء ٢٢٢ - الغراب ٢٢٢ - الورقاء ٢٢٢ - الحمامة ٢٢٣ -
حمام الزاجل ٢٢٣ - الديك ٢٢٤ - الأوز ٢٢٤ - النعامة ٢٢٤.
- ٤ - الحشرات ٢٢٤ - النحلة ٢٢٤ - دودة القز ٢٢٥ - البراغيث والبعوض ٢٢٤ -
الفراشة ٢٢٥.

الباب الثالث

وثائق عن الحياة الاجتماعية يمدنا بها الشعر الإشباني

٢٢٩

● الفصل الأول: الوسط العرقى

صعوبة تصور الحياة الاجتماعية ٢٢٩.

- ١ - العرب ٢٣٠ - التخلّى عن فكرة القبيلة ٢٣٠ - الالتصاق بالأرض ٢٣٠ -
اندماج العناصر العربية المختلفة وتفرقه عبر شبه جزيرة إيبيريا ٢٣٠ - العنصر العربى
أقل العناصر عددا ٢٣١ - التأكيد على الأصل العربى فى شعر المديح ٢٣١.

٢ - المولدون أو المسلمون الجدد ٢٣١ - تغيير الأسماء ٢٣٢ - استمرار الأسماء الإسبانية أحيانا ٢٣٢.

٣ - الصقالية ٢٣٣ في القرن الحادى عشر انضموا إلى الحزب الأندلسى ٢٣٣ - انكماش نفوذهم ٢٣٤ - عادات أمرائهم طبقا للشعراء ٢٣٤.

٤ - البربر والرقيق الأفريقى ٢٣٥ - الزناتيون والصنهاجيين ٢٣٥ - العداوة بينهم ٢٣٥ - تطعيمهم بالأندلسية ٢٣٥ - بعض الأمراء البربر: في سهلة بنى رزين ٢٣٦ - في طليطلة ٢٣٦ - في بطليوس ٢٣٦ - اتخاذهم أنسابا عربية ٢٣٦ - شعر في هجاء البربر ٢٣٦ - الرقيق الأفريقى: قلة عددهم ٢٣٧ - دور الرقيقات السوداوات في الحرير ٢٣٨.

٥ - اليهود ٢٣٩ - عددهم ٢٣٩ - دورهم الاجتماعى ٢٤٠ - الوزير ابن حسداى في سرقسطة ٢٤٠ - اليهود في غرناطة ٢٤٠ - سبب مكائهم العالية ٢٤١ - بنو النغرة ٢٤٣ - صمويل، أو إسماعيل، بن النغرة موضع حقاوة الشعراء ٢٤٣ - يوسف بن النغرة ٢٤٤ - ابن القروى وكاتبه ابن الجد ٢٤٥ - الشعراء الذين مدحوا يوسف ٢٤٥ - أبو إسحاق الإلبيرى وقصيدته المناهضة لليهود ٢٤٦ - مذبحة اليهود في غرناطة في ٤٥٩ هـ = ١٠٦٦ م ٢٤٧.

٦ - المستعربون ٢٤٧ - علاقات وثيقة بين المسيحيين والمسلمين ٢٤٧ - الجاليات المسيحية ٢٤٨ - دورها أثناء «الفتنة» ٢٤٨ - معنى كلمة «عجم» ٢٤٩ - المستعربون كما يراه الشعراء ٢٥٠ - الطقوس المسيحية طبقا لابن نهيد ٢٥٠ - وللمرادى ٢٥١ - وفيما يرى ابن الحداد ٢٥٢ - غرام ابن الحداد بفتاة مسيحية ٢٥٢ - ملابس المستعربين ٢٥٤ - قرع النواقيس ٢٥٤.

٧ - اندماج العناصر المختلفة ٢٥٥ - الأمهات المسيحيات ٢٥٥ - دور المرأة طبقا لآراء الفقهاء المسلمين ٢٥٦ - مذهب الشعوبية في إسبانيا ٢٥٧.

● الفصل الثانى: الحياة الاقتصادية ٢٥٩

حرفيون وعمال ٢٥٩ - الصياغة ٢٥٩ - صناعة الزجاج ٢٦٠ - الورق ٢٦١ - الجزارة ٢٦١ - النسيج ٢٦١.

● الفصل الثالث: الحياة الخاصة ٢٦٣

١ - الميلاد ٢٦٣ - رعاية الطفل الرضيع ٢٦٣ - التمام ٢٦٣ - الإغذار ٢٦٤.

٢ - الزواج ٢٦٤ - الأمراض ٢٦٥.

٣ - الموت ٢٦٥ - عادة حمل النعش على الأكتاف ٢٦٥ - البكاء والطم ٢٦٦ - تأبين الميت ٢٦٦ - لون الحداد: الأسود أم الأبيض ٢٦٦ - استخدام اللون الأبيض في الحداد كان استثناء ٢٦٧. نتائج ٢٧٠.

صفحة

- ٤ - الأعياد والحفلات ٢٧١ - عيد الفطر ٢٧١ - مهرجان النيروز ٢٧١ - عيد المهرجان ٢٧٢ - عيد الفصح ٢٧٣ - صلاة الاستسقاء ٢٧٣.
- ٥ - السحر والشعوذة ٢٧٣ - شعرات قديمة ٢٧٣ - الغرام بالأشياء القديمة ٢٧٤ - التنجيم والمنجمون ٢٧٥ - ملاحقتهم ٢٧٥ - زجر الطير ٢٧٦ - التشاؤم ٢٧٦ - الحسد ٢٧٦ - السحر والرقى ٢٧٦.
- ٦ - العناية بالصحة والنظافة ٢٧٧ - خضب الأكف ٢٧٧ - الكحل ٢٧٧ - السواك ٢٧٧.
- ٧ - العطور والمراهم ٢٧٨ - العطور والطيب ٢٧٨ - أواني العطور ٢٨٠ - أصل العطور ٢٨٠.
- ٨ - المطبخ والمأكولات ٢٨١ - بعض الأطباق ٢٨١ - المرقاس ٢٨١ - المجينات ٢٨١ - الجبن ٢٨٢.
- ٩ - الأنسجة والملابس ٢٨٢ - ملابس الترف ٢٨٢ - ملابس من صوف البحر ٢٨٢ - ملابس المرأة ٢٨٣ - ملابس الرجال ٢٨٣ - المنزر والبرد ٢٨٣ - العمامة والغفارة ٢٨٤ - البرنس ٢٨٥ - اغراء ٢٨٥ - ألوان الملابس ٢٨٦ - شيوع حب اللون الأحمر ٢٨٦.

٢٨٧

● الفصل الرابع: إطار الحياة استرفة

- ١ - الجواهر ٢٨٧ - الأحجار الثمينة ٢٨٧ - الحلى ٢٨٨ - أشياء من العاج والأبنوس ٢٨٨ - تريات المساجد ٢٨٩ - الولع بالجواهر ٢٩٠.
- ٢ - الصور ٢٩١ - تحريمها لم يكن يُراعى ٢٩١ - معجم الشعراء شاهد على أن الصور كانت شيئاً مألوفاً ٢٩١ - مصانع التصوير والنحت ٢٩٣ - التماثيل مصنوعة محلياً ومستوردة ٢٩٤ - تمثال مدينة الزهراء ٢٩٤ - التماثيل القديمة ٢٩٤ - تمثال مدينة قادمس ٢٩٤ - تمثال مربيطر ٢٩٤ - تمثال شاطبة ٢٩٥ - تمثال طالقة ٢٩٥ - تمثال الحمة ٢٩٥.
- ٤ - صور الحيوانات ٢٩٦ - في النوافير: الأسد والفيل والسلحفاة ٢٩٧ - صور على العنبر والجواهر: الغزال ٢٩٧ - الجمل ٢٩٨.
- ٥ - صورة على الأشياء ٢٩٨ - حلل مألقة ٢٩٨ - سكين مصورة ٢٩٨ - صناديق العاج ٢٩٩.

٣٠٠

● الفصل الخامس: الحمامات

- ١ - الحمام ٣٠٠ - الحمامات الطبيعية ٣٠٠.
- ٢ - الحمامات: وصفها ٣٠٠ - غيبة النظافة في بعضها ٣٠١ - الاختلاط ٣٠٢.

٣ - زخرفة الحمام ٣٠٢ - الصور والتماثيل ٣٠٢ - ما تثيره من شهوة وأثره
 ٣٠٢ - العادات المتدنية واللواط ٣٠٢ - الإسلام يدين اللواط بشدة ويعتبره وباءً
 اجتماعياً ٣٠٢ - الغلمان ٣٠٣ - الشامة والعدار ٣٠٤ - وصف غلام ٣٠٤ - نتائج
 ٣٠٤.

● الفصل السادس: الألعاب الرياضية ٣٠٥

الألعاب والتمارين البدنية ٣٠٥ - خيول الكراج ٣٠٥ - الشطرنج ٣٠٥ -
 «البولو» ٣٠٦ - القنص بالكلاب ٣٠٦ - الصيد بالصقور ٣٠٦ - صورة شعرية مأخوذة
 من الصيد والقنص ٣٠٧.

● الفصل السابع: الحياة الحربية ٣١٠

١ - الرايات ٣١٠.
 ٢ - الطبول ٣١١.
 ٣ - الأسلحة الهجومية ٣١١ - السيف ٣١١ - أسلحة البربر ٣١١ - سلاح الرماة
 ٣١٢ - القوس ٣١٢.
 ٤ - أسلحة الدفاعية ٣١٢ - الخوذة ٣١٢ - الترس ٣١٣ - المجن ٣١٣ - الدرق
 ٣١٣ - الزاqqة والتريقة ١٣١٣.
 ٥ - قصيدة أبي بكر الصيرفي في وصف «التكتيك» الحربي ٣١٤.
 ٦ - المعارك ٣١٤ - ميدان المعركة ٣١٥ - المشاهد المرعبة ٣١٥ - نتائج ٣١٦.

● الفصل الثامن: حياة المتع والذنان ٣١٧

١ - حب الاستمتاع ٣١٧ - يوسف بن تاشفين يذم ملوك الطوائف ٣١٧ - والسيد
 القنبيطور يذمهم ٣١٧ - التحرر في العادات يعود إلى القرن العاشر الميلادي ٣١٧ -
 فوضى العادات خلال «الفتنة» ٣١٨ - الالتزام والمسئولية خلال القرن الحادي عشر
 ٣١٨ - تهاون المعتمد قبل أن يعتلي العرش ٣١٨ - أخلاقه بعد اعتلائه العرش ٣١٩ -
 مباهجه ملونة بالحزن ٣١٩ - تمتعا وليس فجورا ٣١٩ - القرن الحادي عشر عصر الأعياد
 والمواسم ٣٢٠ - التخلي عن المتع في الشيخوخة ٣٢١.

٢ - الخمر والنبيذ ٣٢٢ - أدب الخمرات في إسبانيا ٣٢٢ - الخمر ليست مباحة في
 إسبانيا وإنما متسامح فيها ٣٢٢ - عقاب السكارى ٣٢٢ - كسر أواني الخمر في قرطبة
 ٣٢٢ - الضرائب على الخمر ٣٢٣ - النبيذ ٣٢٣ - الحانات ٣٢٤ - في الخمر عزاء
 وسلوى ٣٢٥ - الامتناع عن شربها يوم الجمعة ٣٢٥ - الأشياء المستخدمة في الشراب
 ٣٢٦ - العادات المرتبطة بالشراب ٣٢٧ - الندامى ٣٢٧ - أمكنة الشراب ٣٢٨ -

صفحة

- أوقات الشراب ٣٢٨ - كأس الصباح ٣٢٤ - ما يُقدّم للشاربين من أكل: النقل ٣٣٠ - اشعار عن الخمر بعامة ٣٣٠.
- ٣ - الموسيقى والغناء والرقص ٣٣١ - مشاهد موسيقية مرسومة ٣٣١ - حب الموسيقى ٣٣٢ - شعراء موسيقيون ٣٣٢ - الأدوات الموسيقية ٣٣٣ - استثناء الأدوات الموسيقية من الملاحقة ٣٣٤ - ألوان من الموسيقى ٣٣٤ - فنانون بارعون في القرن الحادى عشر ٣٣٥ - نساء مغنيات وموسيقيات ٣٣٦ - أكاديميات الموسيقى في قرطبة ٣٣٦ - معهد ابن الكنفانى ٣٣٦ - «السنارة» أو الفرقة ٣٣٧ - السنارة في البلاطات المسيحية الشمالية ٣٣٨ - المدن التى يتكون فيها الموسيقيون ٣٣٩ - قرطبة مدينة المتعة والبهجة ٣٤٠ - الرقص ٣٤٠ - راقصات أبدة ٣٤٠ - الحركات ٣٤١ - ملابس الراقصة ٣٤٢ - الخيالون ٣٤٢ - أصلهم مصرى ٣٤٢ - المشعذون في بلاط المرية ٣٤٢ - نتائج: مصر وحدها صاحبة التأثير في هذا المجال ٣٤٣.

الباب الرابع

الحياة الداخلية

- ٣٤٧ ● الفصل الأول: المرأة والحب
- ٣٤٧ أهمية المرأة في الشعر الأندلسى
- ١ - حرية المرأة ٣٤٨ - حالة ولادة ٣٤٩ - نساء غلاميات ونساء مسترجلات ٣٥٠ - عبادة المرأة ٣٥٠.
- ٢ - وصف الحببية حسيًا ٣٥١ - مشاهد الحب ٣٥٢ - واقعية ابن خفاجة ٣٥٣ - الحنين ٣٥٣ - العرى ٣٥٤ - علاقة بين ما هو داخلى وما هو خارجى ٣٥٥.
- ٣ - التحذلق ٣٥٦.
- ٤ - تباريح الحب ٣٥٦ - القلق ٣٥٦ - الحب والموت ٣٥٧ - مرارة الهجر ٣٥٨ - عبثية الحب ٣٥٩ - الحب قوة سحرية ٣٥٩ - عبودية الحب ٣٦٠ - الشكوى ٣٦١ - موضوع «يالتينى!...» ٣٦٢.
- ٥ - بهجة الحب ٣٦٣ - سيدة الأفكار ٣٦٣ - أنثى في صيغة المذكر ٣٦٤ - كتمان اسم الحببية ٣٦٤ - استثناءات من هذه القاعدة ٣٦٥.
- ٦ - الشخصيات التى تحيط بالمحبين ٣٦٥ - الرقيب ٣٦٥ - الواشى ٣٦٧ - العاذل ٣٦٧.
- ٧ - حوار حول الحب ٣٦٧ - تشخيص الحب ٣٦٧ - أسباب الحب ٣٦٨.

- ٨ - العقبة في الحب ٣٧٠ - الحب الأفلاطوني ٣٧١ - لطف العادات أو الظرف ٣٧٢ - النبل في الحب ٣٧٣.
- ٩ - المرأة والحب ٣٧٣ - المرأة تعكس عادات عصرها ٣٧٣ - حالة ولادة ومهجة ٣٧٤ - أم الهناء ابنة المعتصم ٣٧٤ - أم العلاء بنت يوسف الحجازية ٣٧٤ - العبادية، والرميكية، وبثينة ابنة المعتمد ٣٧٥ - نتائج ٣٧٦.

٣٧٧

● الفصل الثاني: الإنسان: نفسيته وفلسفته

- ١ - الأندلسي طبقا للشعر ٣٧٧ - صورته ثقافيا وأخلاقيا ٣٧٧ - الأمير الأندلسي: تطوره من القرن التاسع الميلادي إلى القرن الحادي عشر ٣٧٧ - ملامح غالبية: الكرم والشجاعة ٣٧٨ - الطموح ٣٧٨ - إدراك وزن الأشياء الفكرية وحبها ٣٧٩ - الاحتفاظ برابطة الجأش ٣٨٠ - البخل ٣٨١ - القسوة ٣٨٢.
- ٢ - النقد الاجتماعي ٣٨٦ - سلاح الهجاء ٣٨٦ - أشعار السميسر الهجائية ٣٨٦ - هجاء الكبراء ٣٨٧ - هجاء الفقهاء ٣٨٧ - سلطان المال ٣٨٨ - آراء قاسية عن إنسان القرن الحادي عشر الميلادي ٣٨٨ - الخيانات المتكررة ٣٩٠.
- ٣ - لكي تعيش سعيدا عش منعزلا ٣٩١ - حب القراءة والكتاب ٣٩٢ - الشيب والإعراض عن الدنيا ٣٩٣ - الشيطان يترهب في شيخوخته ٣٩٤ - الاتجاه إلى الزهد ٣٩٥ - التصوف ٣٩٥.
- ٤ - حرية الدرس ٣٩٧ - الإلحاد ٣٩٧.
- ٥ - المفهوم الفلسفي للحياة ٣٩٩ - التواضع ٣٩٩ - الخمول شرط في السعادة ٤٠٠ - الصداقة ٤٠١ - القرى ٤٠٢.
- ٦ - الإحساس بالقلق ٤٠٢ - الرغبة تؤدي إلى التعاسة ٤٠٣ - ملامح من التوراة في تعابير الحزن ٤٠٤ - مريم العذراء والمسيح ٤٠٥ - الخير والتسامح ٤٠٥ - التواضع من أعظم الفضائل ٤٠٦ - التسامي في التعادي ٤٠٦ - الصبر أو الانتحار ٤٠٦ - حالة ابن شهيد ٤٠٧ - الموت ٤٠٧ - سكرات الموت ٤٠٨ - الموت حصّاد بلا منجل ٤١٠.

٤١١

خاتمة

٤١٥

كشف عام

٤٤٣

المصادر والمرجع

كتب أخرى للمترجم

- أمرؤ القيس : حياته وشعره.
الطبعة الخامسة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٥
- دراسات في مصادر الأدب.
الطبعة السادسة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٥
- ملحمة السيد: دراسة مقارنة.
الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٣
- مع شعر الأندلس والمنتبى.
ترجمة كتاب المستشرق الاسباني غرسيه غومث، الطبعة الرابعة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٥
- بابلو نيرودا: شاعر الحب والنضال.
كتاب روز اليوسف، القاهرة ١٩٧٤ (نفد وتعاد طباعته الآن).
- دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة.
الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٢
- الأدب المقارن: أصوله وتطوره ومناهجه.
دار المعارف، القاهرة ١٩٨٨.
- في الأدب المقارن: دراسات نظرية وتطبيقية.
دار المعارف، القاهرة ١٩٨٨
- دراسات أندلسية: في الأدب والتاريخ والفلسفة.
الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٧
- القصة القصيرة: دراسة ومختارات.
الطبعة الخامسة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٨
- الشعر العربي المعاصر: روائعه ومدخل لقراءته.
الطبعة الرابعة، دار المعارف، القاهرة ١٩٩٠

- الفن العربي في إسبانيا وصقلية.
للمستشرق الألماني فون شاك، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٥
- الحضارة العربية في إسبانيا.
للمستشرق الفرنسي ليفى برديفسال، دارالمعارف، القاهرة ١٩٨٥.
- التربية الإسلامية في الأندلس.
للمستشرق الإسباني خوليان ريبيرا، دارالمعارف القاهرة ١٩٨٠.
- طوق الحمامة لأبن حزم.
تحقيق وتوثيق وتقديم، الطبعة الرابعة، القاهرة ١٩٨٥
- الأخلاق والسير في مداواة النفوس لأبن حزم.
تحقيق وتقديم وتعليق، دارالمعرف، القاهرة ١٩٨٢.
- الشعر الأندلسي في عصر الطوائف.
للمستشرق الفرنسي هنرى بيريس، دار المعارف، القاهرة ١٩٩٠.
- تطوير مناهج تعليم القراءة في مراحل التعليم العام في الوطن العربي (بالاشتراك).
المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس ١٩٨٦.

كتب تحت الطبع:

- مقدمة في الأدب الإسلامى المنارن.
- الشعر العربي في إسبانيا وصقلية من البداية حتى النهاية.
للمستشرق الألماني فون شاك.
- الحب عند دانتي وابن حزم، دراسة مقارنة، مع ترجمة كتاب الحياة الجديدة لدنتي.

SYSTÈME DE TRANSCRIPTION

finale ou sans voyelle..... '	ط t
, initiale vocalisée... <i>a, u, i</i>	ظ z
• interne vocalisée... <i>'a, 'u, 'i</i>	ع '
l de prolongation..... <i>ā</i>	غ ġ
ب b	ف f
ت t	ق q
ث t̤	ك k
ج ġ	ل l
ح h	م m
خ h̤	ن n
د d	• k
ذ d̤	و semi-voyelle et 'diphthongue' ... ω
ر r	و de prolongation ā
ز z	ي semi-voyelle y
س s	ي diphthongue i
ش š	ي de prolongation ī
ص s̤	ع ā
ض d̤	َ (absolu) <i>a</i> ; (en liaison)... <i>at</i>

Article : isolé ou non précédé d'une voyelle de prolongation : *al-, al-, al-, etc.*

Article : précédé d'un mot d'une syllabe avec voyelle simple ou de prolongation : *-l-, -l-, -l-, etc.*

N. B. — Les syllabes عا , عو et عي au début d'une phrase ont été transcrites par 'A, 'U et 'I.

PUBLICATIONS DE L'INSTITUT D'ETUDES ORIENTALES
FACULTÉ DES LETTRES D'ALGER

V

LA POÉSIE ANDALOUSE EN ARABE CLASSIQUE

AU XI^e SIÈCLE

SES ASPECTS GÉNÉRAUX

SES PRINCIPAUX THÈMES

ET SA VALEUR DOCUMENTAIRE

Deuxième édition revue et corrigée

PAR

Henri PERÈS

Professeur à la Faculté des Lettres d'Alger



LIBRAIRIE D'AMÉRIQUE ET D'ORIENT

ADRIEN-MAISONNEUVE

11, rue Saint-Sulpice - PARIS (VI^e)

—
1953